موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

الحديث الشريف

كتاب رياض الصالحين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٠١-١٠١) : حديث احفظ الله يحفظك -١- الحفاظ على أوامر الله ونواهيه وحدوه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٥-٠٥-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرجة التي احتلها الحديث الشريف في الإسلام :

أيها الأخوة الأكارم، النص الذي يلي نص القرآن الكريم من حيث: القوة في النَظْم، والقوة في التعبير، ومن حيث المضمون المطلق في صحته، هو نص النبي عليه الصلاة والسلام، ومهما وجدنا متسعاً لفهم كلام النبي عليه الصلاة والسلام، فهماً دقيقاً، واسعاً، شاملاً ، عميقاً، فنحن في أعلى درجات الفوز .

ما يطويه هذان الحديثان من معاني التوحيد :

من أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام الجامعة المانعة: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ:

((يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

وفي روايةٍ غير الترمذي، عَن ابْنِ عَبَّاسٍ:

((يَا غُلَامُ أَوْ يَا غُلَيِّمُ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا، أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا))

[أخرجه أحمد في سننه]

الذي أراه أن هذا الحديث فيه؛ عددٌ من أصول الدين، والأحاديث التي تنطوي على أصول الدين تعد من أركان الأحاديث .

إليكم كيفية استنباط القانون من خلال هذا الحديث :

فكلمة:

((احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ))

مثلاً:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

[سورة الصف الآية: ٥]

((احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ))

قال تعالى:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

[سورة البقرة الآية: ١٥٢]

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

[سورة محمد الآية: ٧]

هذه العلاقة والمشاكلة بين فعل الطلب وجواب الطلب، هذه المشاكلة والعلاقة الحتمية، يمكن أن يعبَّر عنها بقانون، فأحياناً بين هذا الشيء وهذا الشيء علاقة ضرورية، فالمعادن تتمدد بالحرارة، هذا قانون، العلاقة بين الحرارة وبين التمدد، علاقة حتمية ضرورية شاملة، التركيب الشَّرطي كقول الشاعر:

مَن يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

هذا تركيب شَرطي، أو اجتهد تنجح، هذا تركيب طلبي جزائي، فإذا ورد في اللغة تركيبٌ كهذا التركيب، فاعلم أن العلاقة حتمية بين المقدمة والنتيجة .

((احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ))

الفعل والجواب من صيغةٍ واحدة، احفظ يحفظ، اذكر يذكر، قال تعالى:

(فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ)

[سورة البقرة الآية: ١٥٢]

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

[سورة محمد الآية: ٧]

((احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ))

الجواب حتمي، العلاقة بين الطلب والجواب علاقةٌ حتمية، أي علاقة سببٍ بنتيجة، ومَن منا لا يتمنى أن يحفظه الله تعالى؟ من منا لا يتمنى من كل أعماقه أن يكون في حفظ الله؟ أن يكون في

رعايته؟ لأن الله هو القوي، أنت كلما التجأت إلى قوي، تشعر بالطمأنينة أكثر، لو اعتمدت على إنسان عنده بعض القوة، وجاء مَن هو أقوى منه، انهار ظهرك، فكيف إذا التجأت إلى أقوى الأقوياء؟ إذا التجأت إلى خالق الأرض والسموات؟

((احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ))

إليكم شرح الجزء الأول من حديث النبي (احفظ الله) :

الآن نريد أن نفهم، ماذا يعني النبي عليه الصلاة والسلام من قوله:

((احْفَظْ اللَّهَ))

أولاً: احفظ حدوده، وحقوقه، وأوامره، ونواهيه،

((مَن هو ولي الله يا جنيد: أهو الذي يطير في السماء؟ قال: لا، أهو الذي يمشي على وجه الماء؟ قال: لا، أهو الذي يبكي في الصلاة؟ قال: لا، من هو الولي؟ قال: الذي تجده عند الأمر والنهي))

مقياس واحد يرفعك عند الله، هو أن تكون مطبقاً لأمره ونهيه، احفظ حدوده، قال تعالى:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا)

[سورة البقرة الآية: ٢٢٩]

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة الآية: ١٨٧]

هذا لا يجوز، لا أفعله ورب الكعبة، هذا لا أوافق عليه، هذا العقد لا أوقعه، لأن البضاعة محرمة، هذا اللقاء لا أحضره، فهو مختلط، هذه الطريقة في البيع لا أوافق عليها، فيها شبهة، هذا العمل لن أفعله، فيه إيقاع أذى بمؤمن أو بإنسان، معنى

((احْفَظْ اللَّهَ))

أي احفظ حدوده، اجتنب نهيه، لذلك المؤمن:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: ٣٦]

هذا التردد: والله معقول أفعل هذا أم غير معقول؟ مَن أنت حتى تقول: معقول أو غير معقول؟ أنت أمام أمر، أمام أمر إلهي، فإذا فكرت في أن تفعله أو ألا تفعله، فلست مؤمناً:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: ٣٦]

وحفظ ذلك: هو الوقوف عند أوامره بالامتثال؛ أمرك أن تصلي، أمرك أن تغض البصر، أمرك أن تقول للناس حسناً، أمرك أن تصل رحمك، أمرك أن تنصف الناس من نفسك، أمرك أن تقرأ

القرآن، أمرك أن تحسن إلى كل الأنام، هذه أوامر، وعند نواهيه بالاجتناب، هذا هو الحفظ، تطبيق الأمر واجتناب النهي، وعند حدوده بعدم التجاوز، فمن فعل هذا، كان من الحافظين، احفظ أوامر الله بالتطبيق، احفظ نواهيه بالاجتناب، احفظ حدوده بعدم التجاوز .

نشب خلاف بينك وبين زوجتك، هذا الخلاف يستأهل أن تعاتبها، أن تعرض عنها، لكن لا يستحق أن تطلّقها، تجاوزت الحدود، لا تطلق المرأة إلا من ريبة، إذا شككت في أخلاقها، إذا خانتك، هذا العمل يقتضي الطلاق، أما إذا غاضبتك، أو غاضبتها، أو قصرت في حقك، عاتبها، اهجرها، أعرض عنها، أما أن توقع الطلاق لسببٍ لا يوجبه الطلاق، فقد تجاوزت الحدود .

حينما قال الله عزَّ وجل:

(هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ)

[سورة ق الآية: ٣٢]

مَن هو الحفيظ؟ هو الذي يحفظ حدود الله، يحفظ الأوامر فيطبقها، يحفظ النواهي فيجتنبها، يحفظ الحدود فلا يتجاوزها، قال تعالى:

(هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ)

[سورة ق الآية: ٣٢-٣٣]

ما هي معاني الحفظ التي تندرج في حديث النبي (احفظ الله يحفظك) ؟

١- الحفاظ على الصلاة :

أيها الأخوة، ما أبرز أوامر الله عزَّ وجل؟ أجمع العلماء على أنها الصلاة، من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، لا خير في دينٍ لا صلاة فيه، يقول ربنا عزَّ وجل:

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى)

[سورة البقرة الآية: ٢٣٨]

وقال:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[سورة المعارج الآية: ٢٣]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا، فَقَالَ:

((مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا، كَانَتْ لَهُ نُورًا، وَبُرْهَانًا، وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا– الصلوات

الخمس- لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ، وَلَا بُرْهَانٌ، وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ، وَفِرْعَوْنَ، وَهَامَانَ، وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ))

[أخرجه أحمد في مسنده، والدارمي في سننه]

٢- الحفاظ على الوضوء :

عندنا أمر آخر: الطهور، لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن، المؤمن دائماً متوضئ، خرج من بيته متوضئًا، أذَّن المغرب دخل وصلى، كان في مجلس الوضوء فيه صعب، فلو قيل: نصلي، فهو متوضئ، فالمحافظة على الوضوء من فروع المحافظة على الصلاة، ما دام يهمك أن تصلي في الوقت المناسب، في الوقت المستحب، وأن تؤدي الصلاة على وجهها، إذاً يجب أن تستعد لها بالوضوء الدائم، لذلك قال عليه الصلاة و السلام:

((وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ))

[أخرجه ابن ماجه في سننه وأحمد في مسنده]

وفي قول يرويه أكثر العلماء، وإن كان هناك تحفظ في بعض فقراته:

((من أحدث ولم يتوضأ فقد جفاني، ومن توضأ ولم يصل فقد جفاني، ومن صلى ولم يدعني فقد جفاني، ومن دعاني ولم أجبه فقد جفوته، ولست بربٍ جافٍ، ولست بربٍ جافٍ، ولست بربٍ جاف))

إذاً: المحافظة على الصلوات، والمحافظة على الوضوء، هذا معنى احفظ الله يحفظك.

٣- الحفاظ على الأيمان :

هناك حفظ ثالث، قال تعالى :

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

[سورة المائدة الآية: ٨٩]

لأتفه سبب تحلف، تقسم أربعة أيمان، الله قال:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

[سورة المائدة الآية: ٨٩]

لا تحلف إلا لأمرٍ ذي بال .

وقد استُحلفت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((الْحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما]

قال تعالى:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

[سورة المائدة الآية: ٨٩]

٤- حفظ الجوارح من أن ترتكب الأوزار :

((احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ))

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرْ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

(الرأس وما وعى): ما في الرأس؛ في لسان، وفي عين، وفي أذن، يبدو اللسان لخروج المعاني، والعين والأذن لتلقُّف الصور الصوتية والبصرية، فإذا غضضت بصرك عن محارم الله، فقد حفظت عينك، وإذا كففت عن سماع الغيبة، والنميمة، والمنكر، والفحش، وقول الزور، وشهادة الزور ، والغناء، فقد حفظت أذنك، وإذا لم تنهش أعراض المؤمنين، ولم تتكلم بما لا يرضي رب العالمين، فقد حفظت لسانك، فالرأس فيه العين، والأذن، واللسان، حفظ اللسان بقول الحق، واجتناب ما نهى الله عنه، وحفظ العين بغض البصر عن عورات المسلمين، وحفظ الأذن بكفها عن سماع ما لا يرضي الله عزَّ وجل .

قال: (أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى): ماذا في البطن؟ ماذا في أعلى البطن؟ القلب، ما المعصية التي يمكن أن يرتكبها القلب؟ أن يصر على جهلٍ، أو استكبارٍ، أو أن يسيء الظن بالله عزَّ وجل، إذاً: أن يحفظ قلبه من سوء الظن بالله، أن يحفظ قلبه من أمراض النفس؛ من العجب، الكبر، الاستعلاء، الحقد، الأنانية .

في البطن معدة، وهي أن يحفظ هذا البطن من أكل مالٍ حرام،

((يا سعد، أطب مطعمك، تكن مستجاب الدعوة))

الحفاظ على الصلاة، والحفاظ على الوضوء، والحفاظ على الطهارة، والحفاظ على الأيْمان، والحفاظ على الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، هذا كله تحت قول النبي الكريم:

((احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ))

القلب، قال تعالى:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ)

[سورة البقرة الآية: ٢٣٥]

وورد في الأثر:

((عبدي؛ طهرت منظر الخلق سنين، أفلا طهرت منظري ساعة؟))

الله عزَّ وجل دائماً وأبداً ناظرٌ إلى قلبك، ماذا في هذا القلب؟ فيه حقد، فيه ضغينة، فيه شحناء، فيه بغض لمسلم، فيه قطيعة رحم، فيه استعلاء على خلق الله، قال تعالى:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ)

[سورة البقرة الآية: ٢٣٥]

الله عزَّ وجل جمع هذا كله، فقال:

(إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مسؤولاً)

[سورة الإسراء الآية: ٣٦]

من أغرب ما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

شيئان كافيان لإدخال الإنسان جهنم؛ هما لسانه وفرجه، قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ ـ اللسان- وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ))

في اللسان غيبة ونميمة، في اللسان قول زور وكذب، في اللسان تدليس وبذاءة، في اللسان استعلاء واحتقار، آلاف المعاصي، قالَ عليه الصلاة والسلام لمعاذ:

((أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟))

[ورد في الأثر]

يدخل إنسان النار من اللسان فقط، إذا قال أحدهم لزوج مازحاً: انتبه لبيتك، فظن الزوج أن في أخلاق زوجته خللاً، فطلقها تعسفاً، وشردها، وشرد أولادها، أسرة تدمرت لأن إنساناً تكلم بكلمة ليس متيقناً منها، لهذا ورد في الأثر عن النبي عليه الصلاة والسلام:

((قذف محصنة يهدم عمل مائة سنة))

أن تخوض في أعراض المسلمين، أن تفرِّق بين شريكين، بين زوجين، بين أخوين، بين جارين، بين مؤمنين، هل هذا من أخلاق المؤمنين؟ فلذلك:

((مَنْ وَقَاهُ اللَّهُ شَرَّ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ، وَشَرَّ مَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ))

معنى ذلك: أن إرادته قوية جداً، استطاع أن يضبط لسانه وفرجه:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ١-٧]

والحقيقة: أن طريق حفظ الفرج هو غض البصر، لأن الله عزَّ وجل قدَّم غض البصر على حفظ الفرج، فقال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

[سورة النور الآية: ٣٠]

فتقديم غض البصر على حفظ الفرج، دليل أن طريق حفظ الفرج هو غض البصر، والله سبحانه وتعالى، أثنى على المؤمنين بصفةٍ واحدة، أو بصفاتٍ عدة:

(وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب الآية: ٣٥]

شهوة أودعها الله في كل إنسان، وفي الأنبياء، وسمح لك بقناةٍ نظيفةٍ هي الزواج، فضمن المسموح أهلاً وسهلاً، والمحرم ممنوع،

((إن إبليس طلاعٌ رصاد، وما هو من فخوخه، بأوثق لصيده للأتقياء من النساء))

فالمرأة في يد إبليس أكبر فخ .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((اتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَتْ فِي النِّسَاءِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

وأنا أعتقد على مستوى الشباب؛ أن يؤتى من أكل المال الحرام أبعد من أن يؤتى من النساء، فهناك شيئان نقطتا ضعفٍ في حياة الإنسان؛ هما المال والمرأة، فإذا كنت محصناً من أن تأكل مالاً حراماً، وإن كنت محصناً من أن تفعل ما لا يرضي الله مع امرأة، فقد حفظت دينك، فتسعة أعشار المعاصي من المال والنساء، لذلك: إن الله يباهي الملائكة بالشاب التائب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((قَالَ رَبُّكُمْ عَزَّ وَجَلَّ: عَبْدِي تَرَكَ شَهْوَتَهُ، وَطَعَامَهُ، وَشَرَابَهُ، ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما]

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَعْجَبُ مِنَ الشَّابِّ لَيْسَتْ لَهُ صَبْوَةٌ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

وكل شيء بحسابه، الذي يعف عن النساء قبل الزواج، أول مكافأةٍ له؛ زواج ميمون، زواج موفق، زواج يسعده طوال حياته، ومن شذَّ قبل الزواج، عاقبه الله بزواجٍ شقي، كل شيء في حسابه الدقيق.
ورد في الأثر عن النبي صلى الله عليه وسلم، أن أحد أصحابه سأله: يا رسول الله، كيف أحفظ فرجي؟ فقال عليه الصلاة والسلام:

((لا تضعه إلا في حلال))

في كتاب الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، وهو كتاب من أشهر كتب الحديث، هذا الكتاب ألطف ما فيه: أن الأحاديث مبوبة وفق أوائل حروفها، فمثلاً: كلمة (حق)، هناك أكثر من خمسة عشر حديثاً تبدأ بكلمة حق .

((حق المسلم على المسلم))

الحديث معروف، حق الأب على ابنه، حق الابن على أبيه ، حق الزوج على زوجته، حق الزوجة على زوجها، إلا في حديث واحد حينما أقرؤه، يقشعر جلدي، فقد ورد في الأثر عن النبي الكريم:

((حق المسلم على الله؛ أن يعينه إذا أراد العفاف))

أراد مسلم أن يعف عن الحرام، حقٌ على الله أن يعينه، الله عزَّ وجل ييسر الأمور تيسيراً عجيباً؛ في البيت، والأثاث، والزوجة الصالحة .

شاب له محل صغير في أحد أحياء دمشق، وفي هذا الحي أبنية شاهقة، وأبنية فخمة، وهذه الأبنية فيها أسر غنية، والفتيات داخلات وخارجات من هذه البيوت، هذا الشاب تاقت نفسه للزواج، ولا يجد ما يملك، طلب من أمه أن تخطب له من هذه البيوتات، سخرت أمه منه ، قال لها: ولكني مستقيم، لا أعرف الحرام في حياتي، هو معتز باستقامته، لكنه لا يملك شيئاً ، فلما ألح عليها، ذهبت إلى بعض هذه البيوت، ولم تطلب شيئاً، لكنها ذهبت مداراةً لابنها، كانت تكذب وهو يصدقها، الأم واقعية، مستحيل أن يزوجوا شاباً لا يملك شيئاً، لكن ثقته بالله عزَّ وجل كانت كبيرة .

جاءه رجل من سكّان هذا الحي، قال له: يا بني أمتزوج أنت؟ قال له: لا والله يا سيدي، قال له: عندي فتاةٌ عمرها أربعة عشر عاماً تناسبك، أرسل أمك إلينا نحن البيت الفلاني، فأرسل أمه، فوجدتها مناسبة جداً، ولكن ليس معه شي .

فلما جاءه مرة ثانية، قال له: والله يا سيدي البنت مناسبة، أما أنا فلا أملك شيئاً، فقال له: هي والبيت لك، أبت نفسه أن يعصي الله، فأكرمه الله عزَّ وجل، فإذا صدقت في طلب الحلال، وعففت عن الحرام، فالله سبحانه وتعالى لا يمكن إلا أن يكرمك، إذا أردت العفاف فحقٌ على الله أن يعينك، من هنا ورد في الأثر قول عليه الصلاة والسلام:

((ما شكا إليه أحدٌ ضيق ذات يده، إلا قال له: اذهب فتزوج))

أولاً: طاعة الله رأس مالك، فإذا كنت مطيعاً لله عزَّ وجل تولى الله عنك، اسع قليلاً والله يعينك كثيراً، تحرك والله يوفقك، ابحث والله يهديك، اعمل والله يرزقك، الناس يفهمون التوكل أن يقعد في البيت، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ، لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا، وَتَرُوحُ بِطَانًا))

[أخرجه الترمذي في سننه]

في حركة، الحركة فيها بركة، اسع واسأل، أجمل حديث: عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ:

((حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ، فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

الحديث دقيق جداً، أن تقعد بلا سعي لست مؤمناً، تحرك، اسأل، ابحث عن وظيفة، ابحث عن عمل، ابحث عن بيت، ابحث أنت، دبِّر أمرك، والله المدبِّر، وعلى الله الباقي .

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ -بالتدبير، بالسعي، والبحث، خذ بالأسباب، وعلى الله الباقي- فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ-عندها- فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

عود على بدء؛ المحافظة على الصلاة، المحافظة على الوضوء، المحافظة على الأيمان، المحافظة على الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، هذه بعض الآيات والأحاديث التي وردت في المحافظة، لذلك:

((احفظ الله - الآن الجواب - يحفظك))

ما معنى كلمة (يحفظك) كما وردت في نص الحديث ؟

ما معنى يحفظك؟ حفظ الله لعبده نوعان:

النوع الأول: حفظه له في مصالح دنياه؛ كحفظه في بدنه، وحفظه في ولده، أخطار كثيرة في البيت، ماء يغلي يصيب وجه طفل صغير أو فتاة، يسبب شقاء للأسرة .

إذا حفظ لك الله عز وجل أولادك، الطفل سليم معافى، ثقب بوتان، لو كان مفتوحاً، لسبّب ألماً كبيراً للأسرة، عملية قلب مفتوح، تحتاج إلى ثمانمئة ألف، ونجاحها بالمئة ثلاثون، تجعل الأسرة كلها في حنين وحرج، فإذا حفظ لك الله عزَّ وجل صحتك، وصحة زوجتك، وأولادك، هذا شيء عظيم جداً،

كحفظه في بدنك، وولدك، وأهلك، ومالك، احفظ الله يحفظك، يحفظ لك بدنك من الأسقام، والأمراض، والأدواء، ويحفظ لك أولادك، ويحفظ لك زوجتك .

فإذا حفظ الإنسان الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وحفظ أمر الله فلم يعصه، وحفظ نهيه فلم يقترفه، وحفظ حدوده فلم يتجاوزها، ألا تحب أن يحفظك الله عزَّ وجل؟ الحفظ في بدنك، وفي أولادك، وفي زوجتك، وفي أهلك، والمال شقيق الروح .

أحياناً مال يصادر، وبيت تدفع ثمنه مالاً كثيراً، ويظهر أنه مضعضع، يصدر أمر بإخلاء البناء، وأنت لا تملك غيره، وبيت يذهب بأبخس الأثمان، لأنه خاضع للتنظيم، تعطى عشرة آلاف ليرة، وثمنه ثمانمئة ألف مثلاً، أحياناً بضاعة تفسد، تلفت في الطريق، البراد تعطل فيه فواكه، وثمنها ملايين، فألقوها في الصحراء، وذهب المال كله، قصص الإفلاسات كبيرة جداً، لأتفه الأسباب .

أحدهم معه بضاعة بسيارة براد، السائق لجهله، دخل قريته، ونام ثلاثة أيام، فأغلق البراد، تلفت كلها على حساب صاحبها، فاحفظ الله يحفظك .

حديث من أروع الأحاديث:

((احفظ الله يحفظك))

احفظه يحفظك، لا أعتقد أن أحداً لا يتمنى من أعماقه، أن يكون في صحةٍ جيدة، هو وزوجته، وأولاده، وأن يحفظ الله له ماله، كل هذا يكون، إذا حفظ حدود الله، حفظ أوامر الله فطبقها، حفظ نواهيه فلم يقترفها، حفظ حدوده فلم يتجاوزها، حافظ على الصلاة، على الطهارة، حافظ على أيمانه، حافظ على رأسه وما وعى، وبطنه وما حوى، هذا من جوامع الأحاديث .

اسمعوا قوله تعالى:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)

[سورة الرعد الآية: ١١]

المؤمن له مكانة رفيعة عند ربه، لذلك يحفظه من بين يديه ومن خلفه، قال تعالى:

(له مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ)

[سورة الرعد الآية: ١١]

قال تعالى:

(مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)

[سورة الرعد الآية: ١١]

يعطي ربنا توجيهاً للملائكة: احفظوا فلانًا، فتراه لا يذهب من هذا الطريق، لأن حادثة ستقع، هذه الصفقة لا يشتريها، لأنه شعر بضيق في صدره، وربما كانت ستحمله ما لا طاقة له:

(يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)

[سورة الرعد الآية: ١١]

ربنا يوجهك، إذا أنت معه يوجهك، يوجهك بأمر حياتك، بعلاقاتك، بتجارتك، بصناعتك، بزراعتك، هذه آية رائعة جداً:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)

[سورة الرعد الآية: ١١]

قال ابن عباس:

((هم الملائكة يحفظونه بأمر الله))

فأنت كذلك معك مرافقة كبيرة، ملائكة معك، أنت كمؤمن معك ملائكة، ملائكة من أمر الله تحفظك يا عبد الله، حياتك غالية على الله، وسلامتك غالية على الله عزَّ وجل .

وقال عليٌ رضي الله عنه:

((إن مع كل رجلٍ ملكين، يحفظانه مما لم يقدر الله عليه، وإن الأجل جنة حصينة))

ما دام الأجل فيه فسحة، فهو في حفظ الله .

ثمة مريضة جاءها طبيب، فقال لها: معك مرض خبيث، بعد أيام تموتين، قالها بكل صراحة، انهارت نهائياً، فطلبوا طبيباً مؤمناً، أول ما جاء، قالت له: أنا سأموت، فقال لها: نعم تموتين، وأنا سأموت، ويمكن أن أموت قبلك، ولحكمةٍ أرادها الله عزَّ وجل، جعل شفاءها على يد هذا الطبيب، وعاشت .

قال مجاهد:

((ما من عبدٍ إلا له ملكٌ، يحفظه في نومه، ويقظته من الإنس، والجن، والهوام))

ينام الإنسان في خيمة، والمنطقة كلها أفاع وعقارب، أنت مؤمن نم، وعليك بالحذر والاحتياط، يحفظونه من أمر الله .

عِن ابْنِ عُمَرَ يَقُولُ: لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَعُ هَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي، وَدُنْيَايَ، وَأَهْلِي، وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي))

قَالَ وَكِيعٌ: يَعْنِي الْخَسْفَ .

[أخرجه ابن ماجه، النسائي، أبو داود، في سننهم]

أرأيتم التأكيد؟

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي، وَدُنْيَايَ، وَأَهْلِي، وَمَالِي، اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي، وَاحْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ، وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي، وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي))

من القوانين الثابتة: أنه من حفظ الله في صباه، وقوته، حفظه الله في حال كبره، وضعف قوته، ومتعه بسمعه، وبصره، وحوله، وقوته، وعقله .

كان بعض العلماء قد تجاوز المئة، وهو ممتع بقوته وعقله، فوثب يوماً وثبة شديدة، فتعجب الحاضرون من قوته! فقال هذا العالم: هذه جوارح، حفظناها عن المعاصي في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً، عاش قوياً .

رأى بعض السلف شيخاً، يسأل الناس، قال: إن هذا ضعيفٌ، ضيع الله في صغره، فضيعه في كبره.

يعني أروع شيء بالحياة شيخوخة مؤمن، تجده متمتعاً بكرامة، بعزة، بمحاكمة جيدة، بعقل كبير، بمكانة اجتماعية، وهو في الثمانين .

التقيت مع أحد العلماء، قال لي: عمري خمسة وثمانون عاما، فقلت له: كيف صحتك؟ فقال لي: والله ممتازة، عندي متاعب، ولكن بهذا السن ممتازة، يأتي من آخر المدينة إلى مركز عمله، يأتي أحياناً ماشياً، وأحياناً راكباً، وهو في الخامسة والثمانين، تنطبق عليه مقولة: حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً، عاش قوياً .

عندنا بشارة أبعد من ذلك، عندما قال ربنا:

(وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً)

[سورة الكهف الآية: ٨٢]

معنى ذلك: أن المؤمن يحفظ الله له أولاده، قال سعيد بن المسيب لابنه:

((إني لأزيد في صلاتي من أجلك، رجاء أن أحفظ فيك، -يعني أنا أزيد من صلاتي من أجلك، لعل الله يحفظك بعد مماتي- ثم تلا هذه الآية:

(وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً)

[سورة الكهف الآية: ٨٢]

سيدنا عمر بن عبد العزيز يقول:

((ما من مؤمنٍ يموت، إلا حفظه الله في عقبه، وعقب عقبه))

بل إن أحد العلماء يقول:

((إن الله ليحفظ بالرجل الصالح ولده، وولد ولده، والدويرات التي حوله، فما يزالون في حفظ الله، وفي ستره))

حتى إن بعض الحيوانات المؤذية قد يسخرها الله لحفظ الإنسان، وهناك قصص كثيرة جداً، بعضهم قال:

((إني لأعصي الله، فأعرف ذلك، في خُلُق خادمي ودابتي))

ملخص القول :

إن شاء الله في الدرس القادم، نتابع هذا الموضوع، ولكن أبرز ما في هذا الحديث أوله ، اجعل هذا الحديث، أو هذه الفقرة من الحديث شعاراً:

((اِحْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ))

ملخص الدرس: حفظ أمر الله بتطبيقه، حفظ نهيه باجتنابه، حفظ حدوده بعدم تجاوزها، هذا الحفظ، الآن يحفظ الله لك صحتك، وأولادك، وزوجتك، ومالك .

بقي في الدرس القادم الحفظ الأرقى، وهو أن يحفظ لك دينك، واستقامتك، أي يحفظك من الشهوات المردية، من الشبهات المضلة، في حفظ أرقى، فهذا الحديث من جوامع الكلم، ومن أصول الدين .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٠٢-١٠١) : حديث احفظ الله يحفظك -٢- كيف يحفظ الله لك دينك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٥-٠٥-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

من ملحقات الدرس الذي سبق :

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا في حديث رسول الله الذي يعد من أصول الدين، هذا الحديث الشريف، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ:

((يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

وفي روايةٍ غير الترمذي، عَن ابْنِ عَبَّاسٍ:

((يَا غُلَامُ أَوْ يَا غُلَيِّمُ، أَلَا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا، أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَكْتُبْهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا))

[أخرجه أحمد في مسنده]

لا أبالغ إذا قلت: إن هذا الحديث من أهم الأحاديث التي تتعلق بأصول الدين، وبأصول الإيمان .

أنواع الحفظ الذي شمله معنى الحديث :

في الدرس الماضي شرحت بعض أجزاء هذا الحديث، هو: (احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ)، وبقي أن حفظ الله عزَّ وجل على نوعين: حفظٌ دنيوي، وحفظٌ أخروي، فالحفظ الدنيوي هو أن يحفظ الله لك بدنك من السقم، ومن الأمراض العضالة، وأن يحفظ لك أهلك وأولادك من كل مكروهٍ وأذى، وأن يحفظ لك مالك، هذا حفظ الدنيا، وحفظ الدنيا ثمنه أن تحفظ الله، وحفظ العبد لله عزَّ وجل أن يحفظ الأمر بالتطبيق، والنهي بالترك، والحدود بالوقوف عندها ، وشُرِح هذا بالتفصيل في درس سابق .

اليوم: كيف يحفظ الله لك دينك؟ إذا حفظته أنت، فطبقت الأمر، وتركت النهي، ووقفت عند حدود الله عزَّ وجل، كيف يحفظ الله لك دينك؟ .

أولا: يحفظك من الشبهات المهلكة، ومن الشهوات المحرمة، هناك في العقل شيء، وفي النفس شيء، يحفظ عقلك من الشبهات، فالذي يكون عند الأمر والنهي، وعند حدود الله عز وجل، لا يمكن أن تتسرب إلى عقله عقيدةٌ فاسدة، كم من أناسٍ اعتنقوا عقائد فاسدة في ظل الدين؟ أية عقيدة فاسدة تشل حركة الإنسان في الدنيا، فمن دخل على عقله شبهات فاسدة تعطل عمله، بل ساء عمله، ومن وقع في شهوات محرمة، وقع في حجاب عن الله عز وجل، فمن وقف عند حدود الله فلم يتجاوزها، ومن وقف عند الأمر فطبّقه، وعند النهي فاجتنبه، فأغلب الظن والرجاء بالله تعالى أن يحميه من آفتين خطيرتين مهلكتين؛ شبهاتٌ مضلّة، وشهواتٌ مهلكة .

قال بعض السلف:

((إذا حضر الرجلَ الموتُ، يقال للملَك: شمَّ رأسه، قال: أجد في رأسه القرآن، فيقال له: شمّ قلبه، فيقول: أجد في قلبه الصيام، فيقال: شمّ قدميه، فيقول: أجد في قديمه القيام، فيقول الملك: حفظ نفسه، فحفظه الله عز وجل))

لا أعتقد أن إنسانا على وجه الأرض، إلا ويتمنى من أعماق أعماقه، أن يكون في حفظ الله، أن يحيا حياة خالية من المتاعب، من المشوشات، من المهلكات، من المفاجآت، من المصائب، حفظ الله لك ثمنه: أن تحفظ أمره، ونهيه، وحدوده .

النبي من أدعيته؛ أنه كان يقول قبل نومه:

((باسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ))

[أخرجه البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ في الصحيح]

والحقيقة: أن الإنسان قبل أن ينام قد لا يستيقظ، فإذا قبضه الله عز وجل، فالمرجو أن يرحم الله هذه النفس، وإذا سمح له أن يعيش يوما آخر، فالمرجو من الله عز وجل، أن يحفظ نفسه من كل شبهة، ومن كل معصية .

ومن أدعيته عليه الصلاة والسلام:

((اللهم احفظني بالإسلام قائما، واحفظني بالإسلام قاعدا، احفظني بالإسلام راقدا))

عندنا رقدَ، وركض، وركد، راقدا أي نائما، أما ركد فبمعنى سكَن، وركض بمعنى أسرَع، ورقد بمعنى استراح ونام، قال:

((اللهم احفظني بالإسلام قائما، واحفظني بالإسلام قاعدا، احفظني بالإسلام راقدا، ولا تطع فيّ عدوا ولا حاسدا))

كان النبي إذا أراد أن يودع مسافرا يقول له:

((أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ))

[أخرجه الترمذي عن ابن عمر في سننه]

وعَن ابْنِ عُمَرَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ لُقْمَانَ الْحَكِيمَ كَانَ يَقُولُ:

((إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا اسْتُوْدِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

يعني إذا سافر، ودعا الله عزوجل دعاء صادقا مخلصا من أعماق قلبه، فقال:

((اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمُنْقَلَبِ))

[أخرجه الترمذي والنسائي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ في سننهما]

ما دمت قد استودعت الله، وأنت مسافر، فالله سبحانه و تعالى لن يضيّع ودائعك .

الآن عندنا شيء مهم جد في هذا الحديث: ما دام الله عزوجل وعد المؤمن الذي يحفظ حدود الله عز وجل أن يحفظه، كيف يحفظه؟ قبل قليل قلت لكم: يحفظه من الشبهات المضلة، ومن الشهوات المهلكة .

قال بعض العلماء: الله سبحانه وتعالى يحفظ عبده المؤمن مما يفسد دينه بأنواع من الحفظ، أهم شيء دينك، فربنا عزوجل يحفظك بأنواع منوعة كثيرة عديدة من الحفظ، يحفظ لك دينك، بعضها لا تشعر بها، وبعضها تكرهها، كيف؟ .

أنت قلت لله عز وجل: يا رب احفظ ديني،

((إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا))

أنت حينما حفظت حدود الله عزوجل، ترجو من أعماقك أن يحفظك الله، وأخطر حفظ الله لك؛ أن يحفظ لك دينك، لأنه هو الأصل، قد يحفظك وأنت لا تدري، قد يحفظ الله لك دينك، وأنت لا تدري، أما الذي يزعجك في حفظ دينك، قد تشتهي عملا معينا في الدنيا، فتقوم العقبات أمام هذا العمل، قد تزمع سفرا إلى بلاد الغرب مثلا، لتحقيق حلم كبير، أو لنيل درجات علمية عالية، أو لكسب رزق وفير، فتأتي عقبات مزعجة جدا، تحول بينك و بين ما تطلب، أنت تنزعج، وقد تتميز غيظا، وقد تضيق نفسك، وقد تعاتب ربك، وما هذا التعسير، وما هذه العقبات، إلا نوع من أنواع الحفظ الذي يكرهه المؤمن، إنه حينما حال بينك وبين هذه التجارة العريضة، حفظ لك دينك .

أذكر أن أحد الأشخاص، كان يطمح أن يكون طيارا، وتعلمون أن هذه الحرفة ممتعة، ولها دخل وفير، ولكن أكثر أيام الطيار في بلاد الغرب، وفي عواصم الغرب، وفي فنادق، ومع الفنادق المفاسد، وما إلى ذلك، فأصابه مرض حال بينه وبين متابعة هذه الحرفة، فعاد إلى عمله الأصلي

في التدريس، ثم ارتقى في درجات الإيمان، إلى أن شعر بأن حفظ الله له، كان في هذا المرض الذي حال بينه وبين الحرفة التي يطمح إليها .

هناك حرف فيها شبهات، هناك حرف فيها ضلالات، هناك حرف فيها معاص، هناك حرف فيها تودي بصاحبها إلى الظلمات، فحينما يكون المؤمن صادقا في دعائه، قد يحفظ الله دين العبد المؤمن بما يكره، حينما يضع له بعض العراقيل في طريقه إلى ما يبتغي من عرض الدنيا، فلذلك من علامة المؤمن الصادق المحب؛ أنه إذا رأى عقبة، تلو عقبة، تلو عقبة، في طريق حريص عليه، مهتم به، يعلم علم اليقين أن الله سبحانه وتعالى، يحفظ عليه بهذه التعقيدات، دينه الذي هو أثمن شيء، وكلكم يعلم: كيف أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان إذا أصابته مصيبة، قال:

((الحمد لله ثلاثا؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني))

أحيانا السفر، هذا السفر في ألف مسافر المقيم في بلاد ترتكب فيها المعاصي على قارعة الطريق، ترتكب فيها أبشع المعاصي، السفر إلى هذه البلاد، لو سافر ألف شخص لعاد منهم عدد لا يزيد على أصابع اليد، قد حفظوا أمر الله عز وجل، الزلة ميسرة، والانحراف مرغوب فيه هناك، فحينما لا ييسر الله لك سفرا، تضيع فيه دينك وآخرتك، فهذا التعسير من حفظ الله لك .

لذلك الحفظ الأولي: أن يحفظ الله لك بدنك من مرض عضال، من داء وبيل، من متاعب، وأن يحفظ الله لك أهلك، وأولادك، كل هذا حفظ الدنيا، وأما حفظ الآخرة: فأن يحفظ الله لك دينك من الشبهات المضلة، والشهوات المهلكة، وقد يحفظك بطرق كثيرة لا تشعر بها، وقد يحفظك بأساليب تكرهها، وأنت لا تدري، هذا يؤكده قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن الله ليحمي صفيّه من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام))

فالمؤمن يعلم علم اليقين: أن الفعل كله بيد الله، وأنه راض بقضاء الله وقدره، وأنه صابر عن الشهوات، وعلى الطاعات، وعلى الأمر التكويني، صابر على الأمر التشريعي من أمر ونهي، وعلى الأمر التكويني من قضاء و قدر، هذا المؤمن، والإيمان نصف صبر، ونصف شكر، لكن لو صبرت على أمر تكويني، دون أن تعلم الحكمة، صبرت تعبدا، و استسلاما، وثقة بحكمة الله، وعلمه، وعدله، لو صبرت تعبدا، لكشف الله لك سر هذا الشيء الذي ساقه الله لك، فلذلك من طبق الأمر تعبدا، كشف الله له إكراما حكمة هذا الأمر .

لا أعتقد أن مؤمنا صادقا إلا ويقول لك: جاءتني مشكلة، ضقت بها ذرعا، ضاقت نفسي بها، ثم تبين لي بعد حين، أن هذا الشيء الذي أصابني، كان محض فضل، ومحض خير، ومحض فلاح، ومحض نجاح .

لذلك يمكن أن أقول: الشيء الذي يسوقه الله للإنسان، حينما يكشف الله يوم القيامة، عن الحكمة التي ساق بها هذا الشيء، لذاب الإنسان كما تذوب الشمعة، حينما تشعلها، لذاب الإنسان شكرا لله على نعمة هذا المصاب، الذي هو في الحقيقة نعمة باطنة، وليست نعمة ظاهرة .

سيدنا يوسف حينما دخل السجن، الغريب أن الله قال:

(كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ)

[سورة يوسف الآية: ٢٤]

أين هو؟ في السجن، لو بقي خارج السجن، وزلت قدمه، وسقط من عين الله عز وجل، وأصبح رجلا عاصيا، أيهما أفضل؟ فهذا من حفظ الله الذي قد يكرهه الإنسان، والأمور بخواتيمها .

أعرف رجلا، ساق الله له شدة، حينما صرفها الله عنه بعد عام ونصف، زرته في البيت، فقال لي: واللهِ لو عشت ألف عام، ما كنت لأحقق هذا الإنجاز في إيماني، كما حقّق بهذه المصيبة .

لذلك اعلم علم اليقين: أن الله حكيم، وأن الله سبحانه وتعالى عليم، وأن الله قدير، وأن الله كريم، هذا هو الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، المؤمن يقول: يا رب، أنا راض، يا رب، أنا راض بقضائك،

((اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ))

بعضهم قال: حينما قال الله عز وجل:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

[سورة الأنفال الآية: ٢٤]

كيف يحول؟ قال ابن عباس: يحول بين المرء وقلبه، بأن الله عز وجل يبعد قلبه عن معصيته، ولاحظوا إذا مشى الإنسان في طريق المعصية، لكن بشرط ألاّ يكون مصرا عليها، لو أصر عليها، لساقه الله إليها، لو أصر عليها، لأطلقه الله إليها، لكن إذا سار في طريق معصية لا ترضي الله، واللهُ يعلم أنه ليس مصرا عليها، وأنه يرضى بقضاء الله، يسوق له من الشدائد ما تبعده عن هذه المعصية، عندئذ يكشف حكمة الله عز وجل ورحمته، هذا معنى قوله تعالى:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

[سورة الأنفال الآية: ٢٤]

الإمام الحسن رضي الله عنه يقول:

((هانوا عليه فعصوه، ولو عزوا عليه لعصمهم))

كيف؟ أي حينما رآهم تافهين، شهوانيين، دنيويين، حينما رآهم، وقد هان الله عليهم، هانوا عليه، فأطلقهم إلى المعصية، أما لو أنهم عزوا عليه، لو أن الله كان عزيزا عليهم، فعزوا عليه، لعصمهم، الله عزوجل يعصمك إذا كنت عزيزا عليه، ويطلقك إلى المعصية إذا هنت عليه، هان الله عليهم، فهانوا عليه، فعصوه، ولو كان الله عظيما عندهم، لكانوا أعزة عنده، فعصمهم .

قال ابن مسعود:

((إن العبد ليهمّ بالأمر من التجارة والإمارة، حتى ييسر له ذلك، فينظر الله إليه، فيقول لملائكته: اصرفوه عنه، فإنه إن يسرته له، أدخلته النار .

-صدقوني أيها الأخوة، أن بعض المهن، والحرف، والأعمال، والسياحات، قد تنقل الإنسان من الجنة إلى النار، وهناك مهن، دخلها كبير جدا، ولكن فيها معصية كبيرة لله، وهناك مهن، أساس علاقتها بالنساء، فقد يضبط الإنسان نفسه إلى حين، ثم يتداعى إيمانه، و يميل إلى شهواته، وكما تعلمون:

((إن إبليس طلاّع رصّاد، وما هو من فخوخه بأوثق لصيده في الأتقياء من النساء، فاتقوا الله، واتقوا النساء، فإن فتنة بني إسرائيل، كانت في النساء))

أنا أقول لكم بالمناسبة: هناك ثغرتان كبيرتان خطيرتان، يمكن أن يؤتى منهما المؤمن؛ المال والنساء، فمهما بالغت في غض بصرك، فأنت في حصن حصين، ومهما بالغت في كسبك، والآية الكريمة:

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

[سورة الإسراء الآية: ٣٤]

أنتم تعرفون معنى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

[سورة الإسراء الآية: ٣٢]

لم يقل: ولا تزنوا، بل قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

[سورة الإسراء الآية: ٣٢]

لأن الزنا شهوة جاذبة، لها إغراء، فلا بد من أن تدع بينك وبينها هامش أمان، أنا أشبه تماما أرضا مستوية جافة، بعدها أرض مائلة، كلها حشائش وماء، والحشائش زلقة، وبعدها نهر عميق خطير، فالنهر العميق المهلك، الذي إذا وقع فيه الإنسان أهلك، هو المعصية، وهذه المنطقة التي بعد النهر المائلة، التي عليها حشائش متفسخة بفعل الرطوبة، وعليها مواد زلقة، هي ما قبل المعصية، وأما المنطقة الجافة المستوية، فهي منطقة الأمان، فالمؤمن دائما، يجعل بينه وبين المعصية هامش أمان، قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا)

[سورة الإسراء الآية: ٣٢]

لا تصاحب زانيا، لا تسر في طريق موبوء، فيه نساء كاسيات عاريات، أيّ شيء يقربك من الزنا، ابتعد عنه، حتى يعصمك الله منه، قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

[سورة الإسراء الآية: ٣٤]

يعني هذا مال اليتيم، ما قال لك: لا تأكل مال اليتيم، لا تقربه، لو خلطته بمالك، و الحكم هو الحسابات، أحيانا الإنسان يُكلَّف بعمل، يعطونه مبلغا من المال، معه مال شخصي، ومعه مال لهذا العمل، فيا ترى ما هو الحكم؟ الحسابات، لعلك أنفقت من هذا المال شيئا، و نسيت أن تسجله، أو بالعكس، أنفقت من حسابك الخاص نفقة، ونسيت أن تسجلها، فلما جمعت مصروفك الشخصي، ومصروف المهمة، بقي عندك زيادة، فأنت مخطئ، ووضعت قسما من مال المهمة في جيبك، لا، لا تجعل الحساب هو الحكم، اجعل المال هو الحكم، اجعل هذا المال في مكان خاص، وله حساب، تطابق الحساب مع الرصيد، دائما يطمئنك، فلا تجعل الحساب هو الحكم، اجعل المال نفسه هو الحكَم، قال تعالى:

(وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)

[سورة الإسراء الآية: ٣٤]

أي لا تخلط مالك بماله، فإذا خلطت مالك بماله، فهي شبهة، أن تأكل من ماله، وأنت لا تدري، هذا معنى قول الله عز وجل:

(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا)

[سورة البقرة الآية: ١٨٧]

اجعل بينك وبينها هامش أمان- .

قال: فيصرفه الله عنه، فيظل يتطير، ويقول: سبني فلان، وأهانني فلان، ولما هو إلا فضل الله عز وجل))

وقفنا خمس ساعات، ولم يعطونا الفيزا، وضربونا، ما هذا الكلام؟ أنت إلى أين ذاهب؟ إلى مكان لا يرضي الله عز وجل، فهذا الذي أهانك ودفعك، هذا من فضل الله عليك، منع عليك فساد دينك مثلا، أنا أضرب بعض الأمثلة ....

هناك مزلات كثيرة جدا، هناك وظائف كلها شبهات، قائمة على إيقاع الأذى بالناس، فإذًا: لم تتح لك أن تكون في عداد هذا السلك، هذا من فضل الله عليك .

لذلك جاء في الحديث القدسي:

((إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقرُ، فإذا بسطت عليه، أفسدت دينه، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته، أفسدت دينه، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أسقمته لأفسدت ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا السقم، ولو أصححته لأفسدت دينه، وإن من عبادي، من يطلب بابا من العبادة، فأكفه عنه– حريص على قيام الليل، لم

يوقظوه، يا رب ما السر؟ عنده شيء من العجب- لكي لا يخله العجب، إني أدبِّر أمر عبادي بما في قلوبهم، إني عليم خبير))

حديث دقيق، الصحة لمصلحة إيمانك، والمرض لمصلحة إيمانك، والغنى لمصلحة إيمانك، والفقر لمصلحة إيمانك، وحتى أبواب العبادة إن يسِّرت لك، فلمصلحة إيمانك، وإن لم تيسر لك، فلمصلحة إيمانك، الله عليم، إني عليم بأمر عبادي،

((إني أدبِّر أمر عبادي بما في قلوبهم، إني عليم خبير))

هذا الموضوع كله:

((احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ))

أي يحفظ لك أمر دينك ودنياك، حفظ الله عز وجل؛ أن تكون عند الأمر والنهي، أمر الله افعله، والنهي لا تفعله، وقف عند حدود الله، لا تتعداها، تستحق حفظ الله لك في الدنيا والآخرة .

أعتقد أن الموضوع أصبح واضحا، هذا الحديث من أصول الدين،

((احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ))

إليكم شرح البند الثاني من الحديث :

الآن: (اِحْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ): معنى تجاهك أي أمامك، قيل: من أقام حدود الله، وطبّق أمره، واجتنب نهيه، كان اللهُ معه في كل أحواله، مع المحسن، مع أيّ عبد، قال تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

[سورة الحديد الآية: ٤]

ولكن إذا قال الله عز وجل:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١٢٣]

(وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة العنكبوت الآية: ٦٩]

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة الآية: ١٥٣]

هذه معية خاصة، يعني معهم بالحفظ، والتأييد، والنصر، والتوفيق .

(احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ): الله معك دائما، هناك كلمات يقولها العامة، لكن واللهِ بتَرددادها، فقدت مدلولها، أنا ذاهب، الله معك، هل هذه قليلة: أن يكون الله معك؟ وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، وإذا وجدته ماذا فقدت؟ وإذا فقدته ماذا وجدت؟ صدق القائل:

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ وليتك ترضى والأنام غضابُ

وليت الذي بيني وبينك عامر و بيني و بين العالمين خرابُ

هذا كلام بليغ، لما تقرأ:

(وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١٢٣]

(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة الآية: ١٥٣]

تشعر بذلك .

مرة قرأت حديثا لرسول الله ، الذي رواه عن ربه عز وجل:

((يا داود، مرضت فلم تعدني، قال: كيف أعودك، وأنت رب العالمين؟ قال: مرض عبدي فلان، فلم تعده، أمَا علمتَ أنك لو عدته، لوجدتني عنده))

الله عز وجل، أخذ منك بعض الصحة، لكن عوّضك بأن آنسك بوجوده معك، فالمريض تجده رقيق المشاعر، المريض أحاسيسه رقيقة، المريض قريب من الله عز وجل، سلبه الصحة، وأعطوه معلومات مخيفة، وجاء التحليل غير جيد، والطبيب حذّر، وقال له : مرضك ليس سهلا، يئس، رأى نفسه ضعيفا، فقال: يا رب ما لي سواك، تقرب، وأقبل، فتجلى الله عليه، شعر بسرور، الله عز وجل في أية لحظة، يصرف عنه المرض، ويعود صحيحا في نفسه، وفي جسده، فلذلك: (احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ)
.

قال قتادة:

((من يتق الله، يكن الله معه، ومن يكن معه، فمعه الفئة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل))

إذا كنت مع الله، كان الله معك، وإذا كان الله، فهو الهادي الذي لا يضل، والحارس الذي لا ينام، والقوي الذي لا يُغلَب، أنت معه أقوى الناس، أنت معه أهدى الناس، وأنت معه في حصن حصين، اللهم احرسني بعينك التي لا تنام، وانصرني بركنك الذي لا يضامّ.

كتب بعض السلف إلى أخ له:

((أما بعد، فإذا كان الله معك، فمن تخاف؟ وإذا كان عليك، فمن ترجو؟))

هذه المعية الخاصة التي وردت في القرآن الكريم، في أماكن متعددة، قال تعالى :

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

[سورة طه الآية: ٤٦]

معية الله عز وجل، قال تعالى:

(لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا)

[سورة التوبة الآية: ٤٠]

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[سورة الشعراء الآية: ٦١]

القضية خطيرة جدا، فرعون وما أدراك ما فرعون؟ بقوته، وجبروته، وطغيانه وجنوده، هم وراء فئة قليلة جدا، سيدنا موسى وأصحابه، قال تعالى:

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ)

[سورة الشعراء الآية: ٦١]

فرعون وراءنا، والبحر أمامنا، والأمل صفر، قال تعالى:

(قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء الآية: ٦٢]

إنسان وقع من طائرة على ارتفاع أربعين ألف قدم، فوق جبال الألب، تحمل هذه الطائرة ثلاثمئة راكب، ماتوا جميعا عدا واحد، كان مقعده في المكان الذي انشقت منه الطائرة، فوقع، ظل يهوي ثلاثا وأربعين ألف قدم، إلى أن وصل إلى غابات كثيفة مغطاة بخمسة أمتار من الثلج، فكان هذا الثلج، وهذه الأغصان، امتصت هذه الصدمة، ونزل واقفا، إذا كان الله معك، لو وقعت من طائرة على ارتفاع أربعين ألف قدم يحفظك، وسيدنا يونس أكبر دليل، لا ييأس الواحد .

لا أعتقد أن هناك مصيبة، تفوق ما أصاب سيدنا يونس، إذا كان الرجل في مركب في البحر، في الليل، وفي ظلام دامس، وقع من هذا المركب، فجاء حوت فالتقمه، هو في ظلام الليل، وفي ظلام البحر، البحر مظلم، بعد أمتار ظلام دامس، أعتقد بعد مئة متر، أو أقل، أو أكثر، ظلام دامس، قال في ظلمات ثلاث، في ظلام الليل، وفي ظلام البحر، في ظلام بطن الحوت، والأمل صفر، قال تعالى:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء الآية: ٨٧-٨٨]

هذه ليست لسيدنا يونس وحده، ولكل مؤمن، ضعها مثالا، ضعها مسطرة، لا أعتقد أن ثمة مصيبة تفوق ما أصاب سيدنا يونس، ومع ذلك :

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء الآية: ٨٨]

هذا معنى:

((تَجِدْهُ تُجَاهَكَ))

حدثني أخ أجرى عملية جراحية في بلاد الغرب، وكلفته مبالغ طائلة، تفوق كل توقعاته، فقال لي: ينقصني خمسة وعشرين ألف مارك ألماني، وكنت واقعا في همّ شديد، بعد ربع ساعة يُطرق بابي، أقسم بالله وهو صادق، جاءه صديق مقيم في ألمانيا، علم بمقدمه، فجاء لزيارته، من مئة وثمانين كيلو مترا، بعد أن زاره قال له: أنا معي خمسة وعشرون ألف مارك زائدة عن حاجتي، خذها واستعملها، كأن ملكا ألهمه، هذا معنى:

((احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ))

هناك قصص كثيرة جدا، أنت واقع في أزمة، شخص ينقذك من مشكلة، من ورطة كبيرة، كيف وُجد في هذا الوقت الصعب؟ هذه معية الله لك، إذا كان الله معك فمن عليك، فلا تظن إذا خطبت ود الله عز وجل، خطبت وده بطاعته، خطبت وده بترك نواهيه، خطبت وده بخدمة خلقه، خطبت وده بنصح خلقه، خطبت وده بإكرام خلقه، خطبت وده بالتزام أمره، الله ودود، مثلما تخطب وده، لا بد من أن يشعرك بأنه يحبك، ومحبته لك، بأن يكون معك في كل أزمة، وأوضح شيء:

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء الآية: ٦١-٦٢]

ببساطة:

(إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء الآية: ٦٢]

إذا كان الرجل ضعيف الإيمان يقول: ماذا يفعل الله لك؟ المشككون أحيانا يقولون: هل سيمد الله لك من السماء قفةً؟ هذا كلام لا معنى، لما يكرم ربنا إنسانا، يخلق له من الضعف قوة، ومن العسر يسرا، ومن الضيق فرجا، هذا معنى:

((تَجِدْهُ تُجَاهَكَ))

سيدنا رسول الله قال له أبو بكر:

((والله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا، قال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟))

نحن نريد مثل هذا الإيمان، تشعر أن الله معك، الله أقوى الأقوياء، تشعر أنه إذا كان الله معك، لا يستطيع مخلوق على وجه الأرض، أن ينال منك بسوء، إذا كان لرجل والد، له شان كبير جدا، لو فرضنا أن جنديا، دخل الخدمة الإلزامية، ووالده قائد الجيش، هل يرتعد خوفا من الرتب العالية؟ لا، والده هو الأصل، وهو يأمرهم جميعا، فتجد الطمأنينة .

فأنا أقول لكم: لا يجتمع خوف مع إيمان، أنت غال على الله، وأنت تطلب ود الله عز وجل، واللهُ لا يتخلى عنك، ولن يسلمك إلى عدوك، كثير من القصص، أتمنى أن أتذكر أبرزها.

قال أحدهم: ذهبت إلى مكان، المظنون ألاّ أخرج منه في سنوات، وأنا قاعد، والهم كاد يأكل قلبي، دخل شخص فقال له: أنت هنا؟ فقال: نعم، وهو يعرف من بيده الأمر، كان من الممكن أن يبقى أشهرا وسنوات، فبقي ساعات، إذا كان الله معك فمن عليك، تجد الله يدافع عنك، طبعا الله عز وجل لما يدافع عنك بأسباب أرضية، الله عز وجل يبعث شخصا في الوقت المناسب يجتمع بك، ويكون الشخص الذي تخافه صديقه، انتهت العملية، وذابت مثل الثلج، قبل قليل كان في همٍّ، لا يعلمه إلا الله، كان في همّ ساحق، جاء شخص لك عنده قيمة، ولك عند من تخشاه قيمة، توسط وأنهى الأمر، فأنت كن معه ولا تبالِ، لذلك قال صاحب هذا المقام:

إذا كنت في كل حال معي فعن حمل زادي أنا في غنى
وأنتم هو الحق فلا غيركم فيا ليت شعري أنا من أنـا

أنت لا شيء، إذا ظننت أنك شيء، وأنت كل شيء، إذا ظننت أنك لا شيء، إذا افتقرت إلى الله، صدق القائل:

وما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع
وما لي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددتَ فأيّ باب أقرع

دققوا في هذا الحديث:

((أفضل الإيمان: أن يعلم العبد أن الله معه حيث كان))

أعلى درجات الإيمان، أن تعلم أن الله معك حيث كنت .

والحديث الآخر عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعْ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والدعاء:

((اللهم اجعلني أخشاك حتى كأني أراك))

أحد رجال الله، دخل البرية وحده، من طريق تبوك، فاستوحش، فهتف به هاتف: لمَ تستوحش؟ أليس حبيبك معك؟ .

قال:

((يا موسى، أتحب أن أكون جليسك؟ قال: وكيف ذلك؟ قال: أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني))

قيل لبعضهم:

((ألا تستوحش وحدك؟ قال: كيف أستوحش، وهو يقول: أنا جليس من ذكرني؟))

وقيل لآخر:

((نراك وحدك، قال: من يكن الله معه، كيف يكون وحده؟))

وقيل لآخر:

((أما معك مؤنس؟ قال: بلى، قيل: أين هو؟ قال: أمامي، ومعي، و خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، وفوقي))

والاستئناس بالناس من علامات الإفلاس .

الحقيقة: هذا الحديث مرة ثانية من أصول الدين، ليس هناك رجل إلا ويتمنى من أعماق أعماقه، أن يكون محفوظا في دنياه، وفي آخرته، في صحته، وفي أولاده، وفي أهله، وفي ماله، وفي دينه، من الشبهات المضلة، والشهوات المهلكة، ومن كل شيء مباح، يمكن أن يكون طريقا إلى محرم، السفر مباح، لكن السفر قد ينتهي بك إلى معصية، التجارة مباحة، ولكن قد تنتهي بك إلى الطغيان، فلذلك إذا كنت مع الله عز وجل، تولى الله حفظ دينك ودنياك، والدعاء الشهير:

((اللهم نسألك العفو، والعافية، والمعافاة الدائمة في الدين، والدنيا، والآخرة))

من أنواع المعرفة بالله :

بقي علينا:

((تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ))

الحقيقة: معرفة الله نوعان: معرفة عوام المؤمنين، ومعرفة خواصه، معرفة عوام المؤمنين؛ أن تعرف أن الله موجود، وأنه الحي القيوم، وأنه الخالق، وأن الجنة حق، والنار حق، وأن الصراط حق، والميزان حق، و....إلخ هذه الأشياء إذا عرفتها، ولم تكن في مستواها، فهذه معرفة ناقصة، أما معرفة خواص المؤمنين؛ أن تعرف الله حتى تميل إليه، وحتى تشتاق إليه، وحتى تكون في مصافّ الطائعين، المخلصين، المخبتين، القانتين، إذا كنت كذلك، هذه معرفة خاصة .

((تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ))

أي وأنت في بحبوحة .

الحقيقة: أن الإنسان لما تأتيه المصيبة، وتسوقه إلى الله عز وجل، هذا شيء طيب وجيد، ولكن الأكمل أن تكون في رخاء، جسمك صحيح، ليس فيه مشكلة، لا في القلب، ولا في الكليتين، ولا في الدماغ، ولا في العضلات، ولا في العظام، ولا في الغدد الصماء، ولا رمل في الصفراء، ليس فيها

شيء أبدا، صحيح كامل، وفي مهنتك مستواك جيد، وأولادك بخير، وزوجتك بخير، وبيتك بخير، وكلكم بخير، وأنت في هذه البحبوحة، وهذا الرخاء، وهذا الأمن الذي تنعم به، تبحث عن الله، تتمنى رضاه، تركض إلى بابه، تمرغ وجهك عند أعتابه، أنت الآن تتعرف إليه في الرخاء، فإذا جاءت شدة عارمة، قال تعالى:

(أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

[سورة الحج الآية: ١-٢]

أعرف أخا مقيما في لبنان، له معمل، ولبنان قبل ١٩٧٥ فيه رخاء، كان بعضهم يقول: هي جنة الله في الأرض، أسعار رخيصة جدا، مواد متوافرة، جمال الطبيعة، كل شيء موجود هناك، فقال لي هذا الصديق: وأنا في وضع طبيعي جدا، شعرت بضيق لا يحتمل، هو في لبنان، وأبواب المعاصي مفتحة على مصاريعها، النوادي، والملاهي، وبؤر الفساد، والسواحل، والسباحة، هو من معمله إلى بيته، يخشى الله عز وجل، على مجلس علم، ضاقت نفسه، وسئم الحياة في هذا البلد الذي يتمناه أي إنسان، هذا الضيق اشتد عليه، إلا أن حمله إلى أن يأتي إلى الشام، وأن ينقل معمله إلى الشام، قبل أن تقع أحداث لبنان، وبعد شهرين أو ثلاث وقع ما وقع، وكل من بقي هناك، دمر ماله، ودمر معمله، وأصابه الخوف والرعب، وغير ذلك .

قصص كثيرة جدا، رجل مقيم ببلد عربي نفطي، قبل الاجتياح بأيام، ذهب إلى الشام، وجد مكانا، يشتريه محلا أو بيتا، و حوّل أمواله قبل أن تنهار العملة التي كان في بلدها، تجد أن الله إذا كان معك، الله يعلم ما سيكون، فما دمت أنت في طاعته، فلك معاملة خاصة، ينجيك ويخلصك .

فإذا كان الشخص في الرخاء، مقيما على معصية الله عز وجل، في بحبوحة ورخاء، وهو غارق في المعاصي، تأتي الشدة فلا ينجو منها،

((تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ))

قال بعضهم:

((مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها، وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل له: وما هو؟ قال: معرفة الله عز وجل))

قال بعضهم:

((أحب ألا أموت حتى أعرف مولاي، ليس معرفة الإقرار، بل معرفة الاستحياء))

المعرفة العامة معرفة الإقرار، المعرفة الخاصة معرفة الاستحياء .

وأيضا:

((تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ))

معرفة الله في الشدة: أن يكرمك، ويحفظك، وينصرك، ويؤيِّدك، هذه المعرفة الخاصة، إذا عرفته معرفةً خاصة؛ بأن استحييت منه، عرفك معرفة خاصة؛ بأن حفظك، ونصرك، وأيدك .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم شرح البند الثالث في الحديث :

أيها الأخوة المؤمنون، حديثٌ من أصول، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ:

((يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

قال عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ))

السائل دائماً مفتقر وذليل، السائل دائماً يشعر بالضعف، والمسؤول دائماً قوي، وغني، ودائماً مسيطر، عبوديتك لله عزَّ وجل، تقتضي ألا تقف موقفاً ذليلاً، إلا لله عزَّ وجل، كرامتك الإنسانية، عزتك كمؤمن، مكانتك كإنسان، أنعم الله عليك بنعمة الوجود، ونعمة الهداية، ألا تقف موقفاً ضعيفاً، ذليلاً، مفتقراً لجهةٍ ما، كائنةً مَن كانت، إلا لله عزَّ وجل، فإذا وقفت الموقف الذليل لحضرة الله عزَّ وجل، فهذا قمة العزة، وقمة الشرف .

لذلك يعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم، حينما تسأل، فأنت ضعيف، حينما تسأل، فأنت ذليل، حينما تسأل، فأنت فقير، لا ينبغي أن تقف هذا الموقف الضعيف أمام مخلوقٍ مثلك، لذلك:

((من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه))

[ورد في الأثر]

أين كرامته؟ أين عزته؟ أين مروءته؟ أين موقفه الشهم؟ لذلك مهما مرَّغت جبهتك في أعتاب الله، مهما رجوت ربك في السجود، مهما ألححت عليه في الدعاء، هذا شرفٌ لك ، وهذا عزٌ لك، وهذا رفعةٌ لك، أما أن تقف موقف السائل أمام إنسان قد يجيبك، وربما لا يجيبك، قد يشفق عليك، وقد يشمت بك، قد يحبك، ويتمنى أن يعطيك، ولكنه لا يملك، فلذلك :

((وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ))

طبعاً هذا الكلام مستنبط من آية الفاتحة:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة الآية: ٥]

إليكم استنباط هذا الحديث من هذه الآية، وما هو المعول عليه :

أيها الأخوة، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

من أين جاء بهذا الكلام؟ الله عزَّ وجل قال:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

[سورة غافر الآية: ٦٠]

دققوا:

(إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي)

[سورة غافر الآية: ٦٠]

لم يقل: إن الذين يستكبرون عن دعائي، بل عن عبادتي، والدعاء عبادة، بل إن الداعي يكون في لهفةٍ، وضيقٍ، وشدةٍ، واستغاثةٍ، فعندئذٍ تكون صلته بالله عزَّ وجل من أوثق الصلات، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ))

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَأَفْضَلُ الْعِبَادَةِ انْتِظَارُ الْفَرَجِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

فضل الله كبير، وفضله عميم، وفضله واسع، أنت قد تسأل إنساناً وظيفة فيعتذر، قد تسأل إنساناً مالاً فيقول لك: والله أديت زكاة مالي، لا يوجد معي مال، الإنسان محدود، ماله محدود، إمكانياته محدودة، صدقته محدودة، شواغره محدودة، فإذا ملأ الشاغر انتهى، لكن الله عزَّ وجل فضله عميم، وفضله كبير، وفضله واسع، وأنت عبدٌ له، وهذا الذي يسأله فيعطيه، أنت أقل منه، لا بأس أن تشعر أنك عبدٌ لله، وأنك بإمكانك أن تسأله كما سأله غيرك، وأن الله عزَّ وجل يعطيك كما يعطي غيرك، وأنه ليس بين العباد تفاضل إلا طاعتهم له، صدق القائل:

ملك الملوك إذا وهب قم فاسألن عن السبب

الله يعطي من يشاء فقف على حد الأدب

هذا الذي أتمناه على كل أخٍ مؤمن؛ في سجوده، في صلاته، في صلاة الفرض، في صلاة السنة، في قيام الليل، لك حاجة، لك قضية، شبح مصيبة، إنسان عدو، ضيق ذات اليد، تتمنى أن تشتري هذا البيت، تتمنى أن تصل إلى هذا الهدف، ما دام لك عند الله حاجة، فالله عزَّ وجل يحب أن تسأله، لكن العبد يكره أن تسأله، والله سبحانه وتعالى يحب أن تسأله، ويحبك إذا سألته، وإذا أعطاك، يعطيك عطاءً جزيلاً، وهو العاطي لا يسأم، وهو الكريم لا يبخل، وهو الحليم لا يعجز .

إذا آمنت بوجود الله إيماناً قوياً، وبأنه يسمعك، وبأنه يحبك، وبأنك عبدٌ له، وأن فضله عميم، وأنه قدير، وأنه غني، وأنه حليم، اسأله، لا أقل لك: جرِّب، لا، فهذه كلمة لا تجوز، لأن الله عزّ وجل لا يجرب، ولا يشارط، ولكن أقول لك: اسأله وانظر، ولا تقل: أنا لا حظ لي، هذا كلام الشيطان، الله لا يحبني، الله ما أعطاني، أينما مشيت، فالطريق مسدود ، هذا كلام المعسرين، قال تعالى:

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

[سورة الحج الآية: ١٥]

ليعمل عملاً صالحاً يرجو به الله عزَّ وجل، قال تعالى:

(ثُمَّ لِيَقْطَعْ)

[سورة الحج الآية: ١٥]

كل معصية:

(فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ)

[سورة الحج الآية: ١٥]

فتعامل مع الله مباشرةً، اسأله، فأنت عبد ومع هذا لا تتجاهل طلباً من عبد مثلك بل تلبي رغبته، فكيف بالواحد الديَّان؟ إن بيوت الله في الأرض المساجد، وإن زوارها هم عمارها، فطوبى لعبدٍ تطيب في بيته، ثم زارني، وحق على المزور، أن يكرم الزائر .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

الله يحب أن يُسأل، إذا زارك صديق ترحب به، وتكرمه، وتقدم له ما تستطيع، ولكن عندما يطلب منك خمسين ألفًا، تجد نفسك قد تغير لون وجهك، وتقول له: لا تؤاخذنا ليس عندي مثل هذا المبلغ، أما الله عزَّ وجل، فيحب أن يُسأل، وعطاؤه لا ينتهي .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((سَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ لَا يَسْأَلْهُ يَغْضَبْ عَلَيْهِ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

أنت حينما لا تسأل فلاناً، ترى في أعماقك أنه ضعيف، ليس بإمكانه أن يعطيك، ولا أقول هذا الكلام إلا من باب الحفز، فأنت حينما لا تسأل الله عزَّ وجل، معنى ذلك أنك لا تعرفه، لا تعرف أنه على كل شيءٍ قدير، لا تعرف أنه يستمع إليك تماماً، لا تعرف أنه يحب أن يجيبك، حينما لا تسأله، أنت لا تعرفه، فإذا عرفته تسأله، فمَن لا يسأل الله، يغضب عليه .

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا، حَتَّى يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

هل هناك أبلغ من ذلك؟ فقد ورد في الأثر عن رسول الله:

((ليسأل الله أحدكم ملح عجينه، وعلف دابته))

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا سَأَلْتَ فَاسَأَلِ اللهَ))

هناك معنى مخالف للحديث، المعنى العكسي، أي يجب ألا تسأل غير الله عزَّ وجل، إذاً: كأن في هذا الحديث نفيَ سؤال المخلوقين .

إليكم هذا النموذج من الصحابة الذين بايعوا رسول الله بأن لا يسألوا الناس شيئاً :

استمعوا هناك أحاديث صحيحة كثيرة جداً، فقد ورد في الأثر:

((قد بايع النبي صلى الله عليه وسلم جماعةً من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئاً))

سيدنا الصديق خليفة رسول الله، يقع في قمة المجتمع الإسلامي، بمرتبةٍ دينية ليس فوقها مرتبة، ومرتبةٍ زمنية ليس فوقها مرتبة، هو بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ورد في الأثر:

((ما طلعت شمسٌ على رجلٍ بعد نبيٍ أفضل من أبي بكر))

ومن حيث الزمن: هو خليفة المسلمين، يقع في قمة المجتمع، في رأس الهرم، زمام ناقته على الأرض، وحوله أصحابه، فنزل من على ناقته، والتقط زمام ناقته، وكره أن يسأل أصحابه، أن يعطوه إياه .

فبايع النبي صلى الله عليه وسلم جماعة من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئاً، منهم أبو بكر

الصديق، وأبو ذر الغفاري، وثوبان، وكان أحدهم يسقط السوط، أو خطام ناقته، فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه، هناك قصص عن الصحابة، شيء لا يكاد يصدق .

سيدنا الصديق خليفة المسلمين، وقد جيَّش النبي جيشاً، جعل أسامة بن زيد حبه قائداً لهذا الجيش، وكان عمرُه لا يزيد على سبعة عشر عاماً، فركب أسامة ناقته، وكان سيدنا الصديق يمشي على الأرض، فتوقف أسامة أدباً، وقال:

((يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن، قال له: والله لا ركبت ولا نزلت، وما علي أن تغبرَّ قدماي ساعةً في سبيل الله، أراد أن يبجله أمام جنوده))

إليكم هذا الحديث الذي ورد عن رسول الله، كيف وجه السائل الى مقصد الطلب ؟

أيها الأخوة، تجد إنساناً يشكو لإنسان بحرقة: أنا فقير، وأنفقت راتبي من الأسبوع الأول من الشهر، ليس معي منه شيء، يقولها بكل حرقة وألم .

جاء رجل إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال:

((يا رسول الله، إن بني فلان أغاروا علي، فذهبوا بابني وبإبلي، قال له: إن آل محمد لا يملكون مداً ولا طعاماً، فاسأل الله عزَّ وجل، فرجع إلى امرأته فقالت: ما قال لك؟ فأخبرها، فقالت: نعم، نِعْم ما رد عليك، فما لبث أن رد الله عليه ابنه وإبله أوفر ما كانت، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فصعد المنبر، وأثنى عليه، وأمر الناس بمسألة الله عزَّ وجل، والرغبة إليه، وقرأ قوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

[سورة الطلاق الآية: ٢]

حدثني أخ كريم من الدعاة إلى الله عزَّ وجل، كان في حديقة الجامعة، فالتقى به طالب من كلية التجارة، قال له: يا أستاذ، أنا شاب في ريعان الشباب، وتاقت نفسي إلى الزواج، وأخاف أن أعصي الله عزَّ وجل، وليس لي ما أتزوج به، فما العمل؟ قال هذا الداعية: هذا الكلام لا تقله لي، بل قله لله في صلاتك، أنا ضعيف، فيأتيه بعد أشهر، أن هذا الشاب، رزقه الله زوجةً، وبيتاً، بشكل عجيب، فروعة الدين أن الإنسان له رب سميع مجيب:

(نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً)

[سورة مريم الآية: ٣]

بلا صياح، بلا صخب، بلا ضجيج، أحياناً تكون أنت في موقف، لا تستطيع أن تحرك شفتيك، بإمكانك أن تدعو ربك بقلبك، تقول: يا رب أنقذني، يا رب ليس لي إلا أنت ، أنت رب

المستضعفين، إلى مَن تكلني؟ إلى عدوٍ يتجهمني؟ أم إلى صديقٍ وكلته أمري؟ فهذا الدعاء، يعني أنك تعرف الله عزَّ وجل، علامة معرفتك بالله دعاؤك .

ما هي الحكمة الربانية بأن جعل الحياة مليئة بالأزمات والمتاعب ؟

أيها الأخوة، الحياة كلها متاعب، كلها أزمات، كلها هموم، والله جعلها كذلك، أراد الله عزّ وجل أن يجعلها كذلك، كي نقبل عليه، كي نتجه إليه، كي نفتقر إليه، كي نستعيذ به، لأن الإنسان بصراحة، عندما يبعث الله له كل مطالبه، تجد همته ضعفت، على الرخاء يرتخي، على الرخاء يصير دعاؤه شكلياً، صلاته شكلية، فربنا عزَّ وجل يحب أن يسمع صوت عبده اللهفان، الذي يركض إليه ركضاً، إن لم تأته ركضاً، جاء بك ركضاً، فالبطولة أن تأتيه وحدك، لا أن تؤتى مقيداً إليه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((عَجِبَ اللَّهُ مِنْ قَوْمٍ، يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فِي السَّلَاسِلِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

ثبت في الصحيحين عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ، يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما]

بل هناك حديث قدسي آخر:

((مَن ذا الذي دعاني فلم أجبه؟ من ذا الذي سألني فلم أعطه؟ من ذا الذي استغفرني فلم أغفر له، وأنا أرحم الراحمين؟))

ما من عبدٍ سألني إلا أعطيته، دعاني إلا أجبته، استغفرني إلا غفرت له .

الطالب بدراسته: يا رب وفقني، يا رب تلهمني الإجابة الصحيحة، التاجر في محله: يا رب ربح تجارتي، فالبضاعة كاسدة، منظر مزعج للتاجر، المستودع المليء، لا بيع ولا شراء، لذلك عندما تكلم الله على التجارة، قال:

(وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا)

[سورة التوبة الآية: ٢٤]

فأصعب شيء بالتجارة كساد البضاعة .

لذلك:

((ما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه، ما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السموات والأرض، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا))

الحياة الدنيا مليئةٌ بقصصٍ تؤكد هذه الحقيقة، اعتصم بالله، وأخلص نيتك لله عزَّ وجل، ولا تخشَ أحداً، كل مَن تراه عينك بيد الله عزَّ وجل، قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود الآية: ٥٥-٥٦]

كان الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يدعو ربه فيقول:

((اللهم كما صنت وجهي عن السجود لغيرك، فصنه عن المسألة لغيرك، ولا يقدر على كشف الضر، وجلب النفع سواك))

إليكم هذه الآية التي تؤكد على مبدأ الاستعانة بالله، ولا يجوز أن يستعان بغيره :

أيها الأخوة، الآية الكريمة:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ)

[سورة الأنعام الآية: ١٧]

قال بعضهم: إن الله جل وعلا يحب أن يُسأل، ويُرَغب إليه في الحوائج، ويلح في سؤاله ودعائه، ويغضب على من لا يسأله، ويستدعي من عباده سؤاله، وهو قادرٌ على إعطاء خلقه كلهم سؤلهم من غير أن ينقص من ملكه شيء .

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر في الصحيح]

هذه:

((إذا سألت فاسأل الله))

إذا سألت الله فأنت تعرفه، وإذا سألت غيره فأنت قد أشركت به، عدم سؤالك لله جهلٌ وشرك، وسؤالك إياه معرفة وتوحيد، والسؤال فيه ذل، فيه موقف ضعيف، والمسؤول دائماً قوي وعزيز، فأنت كعبد لله عزَّ وجل، لا يجوز أن تقف موقفاً ضعيفاً ذليلاً أمام مخلوقٍ من العالمين .

ماذا نستفيد من قول ابراهيم في هذه الآيات ؟

السيدة عائشة رضي الله عنها لها موقف عجيب، حينما أنزل الله براءتها، فقال لها أبوها: قومي إلى رسول الله واشكريه، قالت: واللهِ لا أقوم إليه، لا أقوم إلا لله عزَّ وجل، هو الذي برأني، فالنبي تبسم، ولم ينزعج، لأنها عرفت الحق لأهله، أن الله برأها، والنبي الكريم احتار، بقي شهراً في حيرة، ماذا يفعل؟ .

لا تنسوا قول سيدنا إبراهيم في القرآن الكريم :

(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)

[سورة الشعراء الآية: ٦٩-٨٢]

خلق وهدى، ورزق وشفى، وأحيا وأمات وغفر، الله سبحانه وتعالى تفرَّد بالخلق والهداية، والرزق والشفاء، والإحياء والإماتة والمغفرة، فيجب أن تفرده بالسؤال، والطاعة ، والحب، والإخلاص، والتفويض، والاستسلام، والتوكل، ما دام هو وحده، يخلق ويهدي، ويرزق ويشفي، ويحيي ويميت ويغفر، إذاً: يجب أن تسأله وحده، وأن تحبه وحده، وأن تخلص له وحده .

هل الانسان غني عن الله، الأمثلة على ذلك ؟

((إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله))

الإنسان عاجزٌ قطعاً عن الاستقلال عن الله عزَّ وجل بجلب منافعه، ودفع مضاره في الدنيا والآخرة، أي غلطة في جسمك تجعل الحياة جحيماً، إذا زاد الكوليسترول في الشرايين قليلاً، وصل للشريان التاجي، وضاقت لمعة الشريان، تشعر بوجع في الصدر، فتحتاج لعملية تكلفتها مليون ليرة، وقثطرة، وإدخال مواد ظليلة، وترى أين التضيق، وبعد التضيق، ننشر الصدر ونفتحه، ونوقف القلب، ونوصله بقلب صناعي، ونفتح القلب، غلطة بالكليتين تجعل الحياة جحيماً .

أخ كريم قبل أن يتوفاه الله، أصيب بمرض، توقف الكليتين عن العمل، فزار المستشفى أثناء الغسيل، قالت له الممرضة بقسوة: لا تشرب ماء كثيراً، الجهاز معطّل، شرب الماء نعمة، ما دامت الكليتان تعملان بانتظام .

عضلاتك، أعصابك، البنكرياس، لو تعطل، تصاب بمرض السكري، الغدة النخامية لها عمل، الغدة الدرقية لها عمل، الكظر له عمل، هو مركز توازن السوائل، فأنت فقير إلى الله، فقير بجسمك، فقير بعضلاتك، بأعصابك، بقلبك، برئتيك، بمعدتك، بأمعائك، آلاف الأمراض، ملايين الأمراض، أنت تسمع أن كل مرض له اسم خاص، وأعراض خاصة، وأدوية خاصة، وعلاج خاص، كذلك مرض أهلك في البيت، يجعل البيت جحيماً، أنت تعيش بفضل الله عزَّ وجل.

لذلك إذا استعنت فاستعن بالله، أنت فقير، فقير بكل شيء، نقطة دم صغيرة في أي مكان تجمدت، تؤدي إلى الموت، يقطع عضو من جسدك، بسبب مرض السكر، فهل بيدك الأمر أنت؟ نرجو الله سبحانه وتعالى أن يعافينا من كل داءٍ عُضال .

إليكم هذه المعية الخاصة من الله للمؤمن المستقيم على أوامره :

أيها الأخوة، الإنسان إذا كان في طاعة الله، جوارحه ملتزمة، دخله حلال، عمله طيب، إخلاصه عالٍ، استقامته جيدة، طلبه للعلم شديد، فالله عزَّ وجل يحفظه ويطمئنه، كذلك لا أن يحفظه فقط، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٨١-٨٢]

إذا ظننت ثانية واحدة: أن هذا الشاب المستقيم، الذي عرف الله عزَّ وجل، والذي غض بصره عن محارم الله، والذي ضبط لسانه عن الغيبة والنميمة، والذي حرر دخله من الشبهات، والذي أنفق ماله في طاعة الله، والذي كان محسناً لخلق الله، رحيماً بهم، إذا ظننت لثانية واحدة: أن الله عزَّ وجل سيضيعه أو يهينه، فأنت لا تعرف الله، ستجد الله يلهمه العمل الصحيح، والعمل الشريف، والزوجة الوفية الطاهرة، ويهيّئ له الجو المريح:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل الآية: ٩٧]

أنت تعامل خالق الكون، تعامل رب العالمين، أنت ترجو الله، ترجو رضوانه، وهو يسعدك، ويسلّمك، ويحفظك، وينصرك، ويؤيدك، ويريك آياته .

أقول لكم هذه الكلمة: الإنسان حينما يستقيم على أمر الله، وحينما يعمل الصالحات ، ماذا يعمل؟ يخطب ود الله عزَّ وجل، إذا ابن أحب أن يخطب ود والده، لبى له حاجاته، وقدم له بعض الهدايا، وعاونه، لا تجد الأب إلا وقد مال للابن، وبادر الأب بشكل غير شعوري، ليقوم بعمل أو بعطاء يعطيه لابنه، ربما يكون مبلغ من المال يتقرب به، فهكذا طبيعة الحياة .

فلما يبادر الإنسان إلى طاعة الله ماذا يفعل؟ إنه يخطب ود الله عزَّ وجل، وربنا عزَّ وجل يبادله حباً بحب، ووداً بود، يرزقه من حيث لا يحتسب، أنقذ له ابنه من مرض، جعل زوجته تعظمه، يلقي عليه ثوب الهيبة، تجد له قيمة عند أهل بيته .

كنت مرة في الحج، رأينا صديقاً يريد أن يطلق زوجته، ما السبب؟ قال لي: وأنا جالس أشاهد على برنامج في التلفاز، ركلتني برجلها أن أغير القناة، أي هيبة هذه؟ الشهواني ينزع الله هيبته من زوجته، لا قيمة له ببيته، يخاطب باسمه وبقسوة، وتكيل له الصاع صاعين، فلذلك حينما يطلب الإنسان ود الله عزَّ وجل، وحينما يطيعه، تجد الله عزَّ وجل يتولاه بالرعاية، والعناية، والتوفيق، والتأييد، والنصر، وهذا معنى قول الله عزَّ وجل:

(وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة البقرة الآية: ٢٤٩]

هذه معية خاصة .

هل الانسان قادر على تنفيذ أوامر الله من دون الاستعانة به، وكيف يستعين بالله، وما عاقبة من لم يستعن به ؟

أيها الأخوة، العبد محتاجٌ إلى الله في فعل المأمورات، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات، أنت محتاج، سيدنا يوسف قال له:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ)

[سورة يوسف الآية: ٣٣]

تقول: أخي أنا مؤمن مستقيم، أنا أغض بصري، هذا كلام فيه شرك، قل ربي احفظني، هكذا النبي علمنا، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما]

فإذا أنت خرجت من بيتك قل: يا رب احفظني، فدائماً الإنسان في فعل المأمورات ، وترك المحظورات، والصبر على المقدورات، أنت بحاجة إلى أن تستعين بالله عزَّ وجل.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

دائماً في عندنا موقف دقيق جداً: عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، فَقَالَ المَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ، فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

حديث خطير جداً، مهمتك كمؤمن أن تشمر، وأن تقول: يا رب أعني، اطلب، لا تستسلم، لا تنهزم، لا تضعف، وتقول: ما بيدي، لا، بيدك، الله يعينك، وما أكثر الأخوة الأكارم الذين استعانوا بالله فأعانهم، ابنك اعمل له برنامج، اجلس معه كل أسبوع جلسة، اجعله يراقبك بكل حركاتك مثلاً، على الفور تيأس، هذا اليأس من علامة القنوط من رحمة الله عزَّ وجل، زوجة لا يمكن اصلاحها، لماذا؟ كلام فيه تألّي على الله عزَّ وجل، الله قال:

(وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ)

[سورة الأنبياء الآية: ٩٠]

تعال من باب البر، والإحسان، واللطف، أكرمها، أقنعها، غض البصر عن بعض أخطاءها، تجدها بعد شهر قد تغيرت .

سيدنا معاوية، جاءته رسالة من أحد المواطنين اسمه: عبد الله بن الزبير، فقال له: أما بعد:

((فيا معاوية، إن جنودك قد دخلوا أرضي، فانههم عن ذلك، وإلا كان لي ولك شأنٌ، والسلام، قال ابنه يزيد: ماذا نفعل؟ قال له: أرى أن ترسل له جيشاً، أوله عنده، وآخره عندك، يأتوك برأسه، قال: غير ذلك أفضل، أمسك وقال اكتب للكاتب: أما بعد، فقد وقفت على كتابِ ولد حواري رسول الله -هو ابن الزبير- ولقد ساءني ما ساءه، والدنيا كلها هينةٌ جنب رضاه، لقد نزلت له عن الأرض ومَن فيها .

-يأتي الجواب-: أما بعد: فيا أمير المؤمنين، أطال الله بقاءك، ولا أعدمك الرأي، الذي أحلك من قومك هذا المحل، قال له: يا بني، من عفا ساد، ومن حلم عظم، ومن تجاوز، استمال إليه القلوب))

فكلمة لا أقدر، زوجتي لا تنصلح، ابني ما فيه خير، هذا العمل ليس منه فائدة، حسِّنه، ابحث عن الغلط فيه، ما في بيع، تأتي ببضاعة قديمة غير مطلوبة في السوق، وتريد أن تبيعها بسعر مرتفع، طبعاً لا أحد يشتريها، نزِّل سعرها، وبعها برأسمالها أو أقل من رأسمالها، وائتي ببضاعة مستواها أرقى، فوراً ييأس بالعمل، بالتجارة، بالوظيفة، بالزواج، مع أولاده، هذا اليأس السريع دليل الجهل،

((استعن بالله ولا تعجز))

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ، وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ، فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ، فَقُلْ: حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

أسعى، العجز تلام عليه، والسعي مطلوب، وحينما أغلب أقول: حسبي الله ونعم الوكيل، إذاً: هذه مشيئة الله عزَّ وجل .

أعرف أسرة ابنها دراسته وسط، وأقل من الوسط، هناك تصميم ليكون طبيبا، أنا ما رأيت أسرة عندها إلحاح مثل هذه الأسرة، أول سنة رسب، الثانية رسب، الثالثة أخذ البكالوريا، ثمانية أعوام كاملة أمضاها في كلية الطب، وبعدها صار طبيبا، فتح عيادة، والآن الدكتور فلان، أعجبني في هذه الأسرة إلحاحها، لم ييأسوا .

أحياناً أسرة ابنها من أول سنة رسب، أخي هذا ليس من أهلَ دراسة، يرسب إنسان سنة يصير عبقريا، أديسون كان ضعيف بالفيزياء، وأنشتاين أكبر عالم رياضيات، طردوه من المدرسة، لضعفه في الرياضيات، وعميد الأدب العربي في مصر توفيق الحكيم، كان ضعيفا باللغة العربية، يمكن أنْ يكون ابنك ضعيفا باللغة، ويصبح في الأخير أديبا، يمكن أنْ يكون ضعيفا بالرياضيات، فيكون رياضيا كبيرا، فهذا اليأس دليل الجهل، القنوط دليل عدم معرفة الله عزَّ وجل، هذه:

((وإذا استعنت فاستعن بالله))

اسمعوا الآن: من ترك الاستعانة بالله، واستعان بغيره، وكله الله إلى مَن استعان به، فصار مخذولاً.
سيدنا الحسن كتب إلى سيدنا عمر بن عبد العزيز قال:

((لا تستعن بغير الله فيكلك الله إليه))

بعض السلف قال:

((يا رب، عجبت لمَن يعرفك، كيف يرجو غيرك؟! وعجبت لمن يعرفك، كيف يستعين بغيرك؟!))

فأنت علامة إيمانك: أن تسأل الله، وأن تستعين بالله، اعرف الله، واستعن به، وخذ كل شيء، خذ حل لكل مشكلة، لكن أنت تارك الله، وجالس مع عبد الله، وعبد الله لئيم، أساسه لئيم، تارك خالق الكون ولاحق العبيد، والعبيد لهم مصالح، وقد تكون عكس مصالحك .

مرة أخ أراد أن يشتغل بمصلحة فقلت له: اسأل أصحاب المصالح يفيدوك، قال لي: سألت السوق بأكمله، قالوا لي: إياك هذه المصلحة، ما فيها أرباح، المواد الأولية غير مؤمنة، لا يوجد واحد إلا وحطم له أعصابه، كل هؤلاء أصحاب مصالح، أبعدوه عنها، قلت له: اسأل فلان، أعرف إنسانا مؤمنا، قال له: المصلحة ممتازة، موادها الأولية موفورة ، وأرباحها جيدة، وأنا أعاونك فيها، أرأيت المؤمن كيف؟ فلذلك الإنسان إذا استعان بغير الله، أوكله الله إليه، قال تعالى:

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

[سورة هود الآية: ٨٨]

التوفيق بيد الله عزَّ وجل، تجد طبيبا علمه قليل، وعليه الناس يتقاتلون، وطبيب بخمسين بوردا ولا أحد عنده، إذا استعان الإنسان بالله، يجعل الله شفاء الناس على يده .

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ، وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

ماذا نستفيد من هذه القصة ؟

الآن من السيرة كما وعدكم في كل درس أن نجمع بين السيرة وبين الحديث .

رجل وفد على النبي عليه الصلاة والسلام له موقف جدير أن نستمع إليه .

قال ابن إسحاق:

((كان الطفيل بن عمرو الدوسي، يحدِّث أنه قدم مكة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بها، فمشى إليه رجالٌ من قريش، وكان الطفيل رجلاً، شريفاً، شاعراً أريباً .

قال هؤلاء الرجال له: إنك قدمت بلادنا، وإن هذا الرجل -أي النبي الكريم

- وهو الذي بين أظهرنا، فرَّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر، يفرق بين المرء وابنه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وإنما نخشى عليك، وعلى قومك، ما قد حل علينا، فلا تكلمه، ولا تسمع منه .

قال: فو الله ما زالوا بي، حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً، ولا أكلمه، حتى حشوت في أذني، حين غدوت إلى المسجد كرسفاً، فرقاً من أن يبلغني منه شيء .

قال: فغدوت إلى المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمٌ يصلي عند الكعبة، فقمت قريباً منه، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثكلى أماه، والله إني لرجلٌ، لبيبٌ، شاعر، ما يخفى علي الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فمكثت حتى انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته، فتبعته، حتى إذا دخل بيته، دخلت عليه، فقلت: يا محمد، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا، فو الله ما برحوا يخوفونني أمرك، حتى سددت أذني بكرسفٍ، لئلا أسمع قولك، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك، فسمعت قولاً حسناً، فأعرض علي أمرك، -ما هي القصة؟- .

فعرض عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الإسلام، وتلا علي القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط، أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحق، وقلت: يا نبي الله، إني امرؤٌ

مطاعٌ في قومي، وإني راجعٌ إليهم، فداعيهم إلى الإسلام، فادع الله لي، أن يجعل الله لي آيةً، تكون عوناً لي عليهم فيما أدعوهم إلي .

فقال: اللهم اجعل له آية .

قال: فخرجت إلى قومي، حتى إذا كنت بثنيةٍ، تطلعني على الحاضر، وقع نورٌ بين عيني مثل المصباح، قلت: اللهم غير وجهي، إني أخشى أن يظن إنها مثلى، وقعت في وجهي، لفراق دينهم، فتحولت، فوقع في رأس سورتي كالقنديل المعلق، وأنا أن هبط إليهم من الثنية، حتى جئتهم، وأصبحت فيهم، فلما نزلت، أتاني أبي، وكان شيخاً كبيراً، فقلت: إليك عني يا أبت، فلست مني، ولست منك .

فقال: ولمَ يا بني؟ .

قلت: قد أسلمت، وتابعت دين محمد .

قال: يا بني، فديني دينك، أنا معك كذلك .

قال: فقلت: اذهب فاغتسل إذاً، وطهر ثيابك، ثم تعال، حتى أعلمك ما قد علمت، قال: فذهب، واغتسل، وطهر ثيابه، ثم جاء، فعرضت عليه الإسلام، فأسلم، ثم أتتني صاحبتي –زوجته- فقلت لها: إليك عني، فلست منك، ولست مني .

فقالت: ولم بأبي أنت وأمي؟ .

فقلت: فرق الإسلام بيني وبيني، أسلمت، وتابعت دين محمد .

قالت: فديني دينك، أنا معك، -لأنه شريف، وله قيمته- .

قال: قلت: فاذهبي، فاغتسلي، ففعلت، ثم جاءت، فعرضت عليها الإسلام، فأسلمت، ودعوت دوساً إلى الإسلام، فأبطؤوا حالي، فجئت رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقلت: يا رسول الله، إنه قد غلبني على دوس الزنا، فهذا الزنا حجبهم عني، وما أسلموا معي، فادعوا الله عليهم .

-عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيِ اللَّه عَنْه، قَالَ: جَاءَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّ دَوْسًا قَدْ هَلَكَتْ، عَصَتْ، وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ:

((اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا، وَائِت بِهِمْ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

لماذا تدعو عليهم؟ ادع لهم بالهدى، على الفور تجد الواحد يدعو على الشخص، طول بالك، ادع له بالهدى، ولو كان عدوك، فقال:

((اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا، وَائتِ بِهِمْ))

انظر إلى النبي، أحلم عليهم، خذهم باللين، بشر ولا تنفر، يسر ولا تعسر، سدد وقارب- فرجعت إليهم، فلم أزل بأرض دوس، أدعوهم إلى الله، ثم قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله بخيبر، فنزلت المدينة بثمانين أو سبعين بيتاً من دوس، ثمانون بيتا أسلموا معه، ثم لحقنا برسول الله صلى الله عليه وسلم بخيبر، فأسهم لنا مع المسلمين))

فهذا الذي وضع في أذنه قطن، كي لا يسمع، أسلم هو، وأبوه، وزوجته، وسبعون أو ثمانون بيتاً من قومه .

يقول أحدهم: أخي إياك أن تحضر، إياك أن تذهب، أنت اذهب، أعطاك الله عقل، وهذا العقل ميِّز فيه .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٠٤-١٠١) : باب التوبة - فضل طلب العلم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-٠٢-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

ما يحويه هذا الحديث من مواضيع :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الخامس من دروس الحديث الشريف، ومن كتاب رياض الصالحين، ومن باب التوبة .

عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ:

((أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ الْمُرَادِيَّ، أَسْأَلُهُ عَنِ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا زِرُّ؟ فَقُلْتُ: ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ، فَقَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ حَكَّ فِي صَدْرِي الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَّيْنِ بَعْدَ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ، وَكُنْتَ -أي يا صفوان- امْرَأً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجِئْتُ أَسْأَلُكَ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كَانَ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّا سَفَرًا -أَوْ مُسَافِرِينَ- أَنْ لا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهِنَّ إِلا مِنْ جَنَابَةٍ، لَكِنْ مِنْ غَائِطٍ، وَبَوْلٍ، وَنَوْمٍ، فَقُلْتُ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي الْهَوَى شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ، إِذْ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٍّ: يَا مُحَمَّدُ، فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوًا مِنْ صَوْتِه، هَاؤُمُ، فَقُلْنَا لَهُ: وَيْحَكَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ، فَإِنَّكَ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ نُهِيتَ عَنْ هَذَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ لا أَغْضُضُ، قَالَ الأَعْرَابِيُّ: الْمَرْءُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا، حَتَّى ذَكَرَ بَابًا مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ، مَسِيرَةُ سَبْعِينَ عَامًا عَرْضُهُ، أَوْ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي عَرْضِهِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَامًا، قَالَ سُفْيَانُ -أحد الرواة-: قِبَلَ الشَّامِ، خَلَقَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مَفْتُوحًا، -يَعْنِي لِلتَّوْبَةِ- لا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

يا أيها الأخوة المؤمنون، في هذا الحديث الشريف، الذي رواه التِرمذي في باب الدعوات، ورواه النَسائي في كتاب الطهارة، في هذا الحديث الشريف موضوعاتٌ ثلاثة:

فضيلة طلب العلم، وحُكْمُ المسح على الخفين، والحبُّ في الله، والبغض في الله، ولأن هذه الموضوعات الثلاثة موضوعاتٌ أساسيَّة في الدين، فلذلك سأخصِّص بعض هذا الدرس للموضوع الأول، وهو طلب العلم، وفي الدرس الآخر إن شاء الله، أتحدَّث بالتفصيل عن المسح عن الخفين،

وفي درسٍ ثالث نتحدَّث عن الحبِّ في الله، والبغض في الله، لأن هذه الموضوعات تتعلّق بالدين أشدَّ التعلُّق، ولاسيما الحبُّ في الله، والبغض في الله، ولاسيما طلب العلم .

من هو زر بن حبيش:

زر بن حبيش، تابعيٌّ جليل، ومعنى التابعي الذي رأى من رأى رسول الله، الصحابي هو الذي صاحب رسول الله، والتابعيّ هو الذي رأى، وصاحب أصحاب رسول الله، يُروى أن هذا التابعي عاش مئةً وعشرين عاماً .

فعن زرٍّ، وقد قال عليه الصلاة والسلام عندما سأله أَعْرَابِيّ، قَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

بالمناسبة: في بعض الأحاديث التي تتحدَّث عن طول العُمر، طول العمر له تفسيران؛ إما أن يدعو لك أحدٌ بطول العمر، فيستجيب الله له، بمعنى أنه يهبك في هذا العمر المحدود من الأعمال الصالحة، كأنَّك عشت مئتين من السنين، فالإنسان عمره لا يُقاس بشهادة ميلاده، بل يقاس بحجم أعماله، هذه نقطة مهمَّة جداً .

النبي عليه الصلاة والسلام، عاش ثلاثاً وستين عاماً، وكان يقول دائماً:

((معترك المنايا بين الستين والسبعين))

عاش عمراً متوسِّطاً ومعتدلاً، ومع ذلك ترك آثاراً على وجه الأرض، لا يستطيع إنسانٌ حتَّى الآن، أن يُدْرِكَ أبعادها .

لذلك هذا مايكل الذي ألّف كتاباً سمَّاه: المئة الأوائل، هو كاثوليكي، وقرأ عن عظماء العالَم الشيء الكثير، واختار من عظماء العالَم في الشرق والغرب، قديماً وحديثاً، ألوف الشخصيات، واختار منها مئةً، عَدَّها من الأوائل، وجعل النبي عليه الصلاة والسلام على رأس هذه المئة، لا من باب الحُب، ولكن من باب التقدير، لأن وضع مقياساً دقيقاً هو: عمق التأثير، واتساع رقعة التأثير، وامتداد أمد التأثير، هذه المقاييس الثلاثة، طبَّقها على هؤلاء المئة، فكان النبي عليه الصلاة والسلام في طليعتها .

إذاً: البطولة أن تعيش العُمُرَ الذي قدَّره الله لك، ولكن بين أن يكون هذا العمر تافهاً، لا معنى له، مليئاً بالقيل والقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال، فبين أن يكون هذا العمر مصروفاً في التُرُّهات،

والأباطيل، والشهوات، والمباهج الدنيويَّة، والمسرَّات، وبين أن يكون هذا العمر مصروفاً في معرفة الله، وفي التقرُّب إليه، وفي طاعته، وفي الدعوة إليه .

لذلك قال بعض العلماء: ذرَّةٌ من أعمال أهل القلوب توازي عمل الثقلين .

فطول العمر لا يتعلّق بالمدَّة، ولكن يتعلّق بحجم العمل، الذي تركته في هذه الحياة الدنيا .

أعطيكم مقياساً دقيقاً: أي عمل يمتدُّ أثره إلى الآخرة، فهو من الأعمال العَظيمة، من ترك صدقَّة جارية، ساهم في بناء مسجد، من ترك علماً يُنْتَفَعُ به، من ترك ولداً صالحاً يدعو إلى الله عزَّ وجل، هذه الأعمال أجرها مستمرٌّ إلى يوم القيامة، لذلك:

((إذَا مَاتَ الإِنْسَانُ، انْقطعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثلاثةٍ: إلا مِنْ صَدَقةٍ جَاريَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة في الصحيح]

والله سبحانه وتعالى حينما قال متحدِّثاً عن عمر الإنسان:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

[سورة فاطر الآية: ٣٧]

قال العلماء: النذير هو النبي عليه الصلاة والسلام، وقال بعضهم: النذير هو القرآن الكريم، وقال بعضهم: النذير همُ الدعاة إلى الله، وقال بعضهم: النذير هو الموت، وقال بعضهم: النذير هو الشيب، وقال بعضهم: النذير هو سِنُّ الأربعين، وقال بعضهم: النذير هو سِنُّ الستين، وقال بعضهم: النذير هو المصائب، وقال بعضهم: النذير هو موت الأقارب، إذاً:

((خيركم مَنْ طالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ))

اهتم بحجم العمل الذي فعلته، لتلقى الله به، سُمِّيَ العمل صالحاً، أي أنه صالحٌ للعرض على الله عزَّ وجل، فهذا الذي يعمل طوال حياته، لو سأل نفسه هذا السؤال الحَرِج: إذا جاءت منيَّتي، أو جاء مَلَك الموت، ماذا قدَّمت لهذه الدار الآخرة الأبديَة السرمديَّة؟ سؤالٌ خطير، إذا قِسْتَ الأعمال التي يمتدُّ تأثيرها إلى ما بعد الموت، ربَّما كان تسعة أعشار الأعمال التي نعملها تنتهي عند الموت، ولا شأن لها بعد الموت، وربما كانت الحسرة عليها بالغة بلوغاً شديداً .

كيف نفسر قول صفوان بن عسال: إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ..... في ضوء علم الشريعة الاسلامية ؟

فهذا التابعيّ زِرٌّ بن حبيش، قال:

((أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ الْمُرَادِيَّ، أَسْأَلُهُ عَنِ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا زِرُّ؟ فَقُلْتُ: ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ، فقالَ صفوان بن عسَّالٍ -هذا الصحابيُّ الجليل، الذي غزا مع رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم غزواتٍ كثيرة، تزيد عن اثنتي عشرة غزوة- قالَ: إِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ))

انتبهوا لعلَّ الله سبحانه وتعالى يرحمنا جميعاً .

(إِنَّ الْمَلائِكَةَ): كلام الصحابي الجليل، ولا بدَّ من أنه سمع هذا الكلام من النبي عليه الصلاة والسلام، (إِنَّ الْمَلائِكَةَ)، هذه المخلوقات الطاهرة .

((إِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُب))

هذا القول للصحابي الجليل، أصله حديثٌ شريف، وقد يرد كثيراً في كتب الأحاديث، والإنسان أحياناً، قد يفهم هذا الحديث فهماً كلياً لا فهماً جُزئياً .

هناك من يقول مثلاً: إنَّ هذا الحديث، يشجِّع طلبة العلم على طلب العلم، هذا معنى عام، معنى كلي، ولكن لو أردنا أن ندخل في تفاصيل هذا المعنى، الحقيقة: أن هناك قاعدةٌ أصوليَّةٌ في تفسير النصوص، تقول هذه القاعدة: كل ما ورد من النصوص، وأمكن حمله على ظاهره، حُمِلَ على ظاهره، ما لم يرد ما يصرفه عن ظاهره .

فالإنسان ليس له الحق، أن يفسِّر كما يشتهي، أو أن يفسِّر كما يحلو له، للتفسير قواعد قعَّدها عُلماء التفسير، فليس لك الحق أن تؤول هذه الآية وفق مزاجك، أو وفق رأيك، إنَّ هناك قواعد دقيقة لتفسير هذه الآية، فكل ما ورد، وأمكن حمله على ظاهره، حُمِلَ على ظاهره، ما لم يرد ما يصرفُه عنه، لأن الكلام ينقسم إلى حقيقةٍ وإلى مجاز .

فإذا قلت: في بيتنا زهرةٌ، ماذا تعني هذه الكلمة؟ تعني هذه الكلمة: أن في بيتك زهرةً، ماذا تعني كلمة زهرة؟ أي نبات، لأن الأصل أن يُحْمَلَ هذا الكلام على ظاهره، أخي أنا أقصد بالزهرة الطفل جميل، إذا قلت: إنَّ في بيتك زهرةً، أي في بيتك زهرةٌ، وهي نبات، لأن هذا الكلام له ظاهر، وفي أصول تفسير النصوص، يجب أن يُحْمَلَ هذا الكلام الظاهر على معناه الظاهر .

أما إذا قلت: في بيتنا زهرةٌ تلعب، صار في النص قرينة، تمنع إيراد المعنى الأصلي ، ننتقل إذاً إلى المجاز، إذا شَبَّه القائل الطفل بزهرةٍ، وحذف الطفل، وأبقى شيئاً من لوازمه، ألا وهو اللعب، واللعب قرينةٌ مانعةٌ من تصوِّر المعنى الأصلي .

فالكلام ينقسم إلى حقيقةٍ وإلى مجاز، إذا قلت: رأيت البحر، أي رأيت البحرَ، أما إذا قلت: يا أخي، أنا رأيت عالم علمه كالبحر، قلت: رأيتَ البحرَ، أي رأيت البحرَ، أما إذا قلت: زارني بحرٌ، البحر لا يزورك، فهذه قرينة تمنع تصوُّرَ المعنى الحقيقي .

فيا ترى: (إِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ) .

الأولى: أن يفسَّر هذا الحديث الذي ورد عن رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ الملائكة، وهي التي تطير في السماء، وتحلّق في الأجواء، أو تملأ الفضاء، حينما يبلغها أن هناك مجلس علم، تهبط إلى الأرض، وتكفُّ عن الطيران، وقد كَنَّى النبي عليه الصلاة والسلام عن وضع أجنحتها، كنايةً عن الكفِّ عن الطيران، وتستمع إلى ما يُقال في هذا المجلس، كأن النبي عليه الصلاة والسلام، أراد أن يُبَيِّنَ لنا عِظَمَ وشأن طالب العلم في السماء.

تركت المنزل قبل ساعتين، وارتديت الثياب، وتوجَّهت إلى السيارة العامَّة، واستغرق الوصول إلى المسجد ساعةً ونصف، وأمضيت في المسجد ساعة ونصف، ثمَّ عُدتَ في ساعةٍ ونصف، هذه الساعات الأربع، اقتُطِعَت من وقتك الثمين، كان يمكن أن تستلقي في البيت، أن تجلس مع أهلك، مع أولادك، كان من الممكن أن تعمل عملاً، يُدِرُّ عليك ربحاً، ولكنَّك اقتطعت من هذا الوقت وقتاً، وصرفته في طلب العلم، لذلك الملائكة تضع أجنحتها تعظيماً لمجالس العلم، وتعظيماً لطالب العلم .

ما بعدَ هذه البلاغة من بلاغة، وقد ورد معنا في الحديث القدسي:

((يَا بْنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي، أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ))

[أخرجه ابن ماجة عن أبي هريرة في سننه]

وكأن معنى تفرَّغ، تشير إلى أن هناك ازدحاماً في الوقت، إلى أن الوقت ممتلئ، إلى أن المشاغل كثيرة، إلى أن هموم المعاش كبيرة، إلى أن طبيعة الحياة مُعَقَّدة، ولكن: (يَا ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي)، أغلق محلّك التجاري، والناس مقبلون عليه ابتغاء طلب العلم، لا تلتفت لكلام الزوجة، تَوَجَّه لمجلس العلم ابتغاء رضوان الله، لا تعبأ بالربح الجزيل، فالسوق مُفْعَمٌ بالزبائن ، توجَّه إلى مجلس العلم، (إِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ) .

فالملائكة في السماء، والطيور في الهواء، الحيتان في الماء، تصلي على معلّم الناس الخير، وهذا الذي يعلّم الناس الخير، لولا هؤلاء المستمعون الأفاضل، الذين جاؤوا، ما كان بإمكانه، أن يقول كلمة، فالفضل للمستمعين .

إذاً: (إنَّ الْمَلائِكَة لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْم)، هذا هو المعنى الحقيقي، هناك معناً مجازي كما قلت قبل قليل، إذا قلت: في بيتنا زهرةً تلعب، فالمعنى مجازي، الزهرة تعني بها الطفل، وإذا قلت: زارني بحرٌ، فالمعنى مجازي .

هناك معنى آخر مجازي، هو أن الملائكة على عِظَم شأنها، وعلى قربها من الله عزَّ وجل، هي تتواضع لطالب العلم، وحُمِلَ هذا المعنى على قوله تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الشعراء الآية: ٢١٥]

لذلك المُعَلِّم مأمورٌ من قِبَلِ المولى جلَّ وعلا، أن يتواضع لمن يُعلّمه، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

إذاً: المعنى الثاني: تواضع الملائكة، حينما تأتي الملائكة، وتسكن أمام طالب العلم، تضع له أجنحتها، فإذا مرَّ إنسان عظيم، وإنسان آخر انحنى له، خفض له رأسه، هذا تعبير عن تعظيمه، توضعٌ من الثاني، وتعظيمٌ للأول، فالملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم .

قال لي أحدهم اليوم: ليس في الدنيا ساعة أمتع، ولا أقرب إلى النفس، من ساعةٍ أحضر فيها مجلس علم، وكأن هذه الساعة، ينقطع فيها الإنسان عن هموم الحياة وما أكثرها، هموم المعاش، هموم كسب الرزق، المُشكلات الاجتماعيَّة، هذه كلُّها إذا دخل المسجد، جعلها وراء ظهره، وأقبل الله عليه، لأنه يطلب العلم .

أما المعنى الثالث: كنايةٌ عن أن الملائكة تقدِّم المعونة، وتيسِّر السعي لطالب العلم، أي أن طالب العلم أموره ميسَّرة .

سمعت أكثر من قصَّة، بل سمعت عشرات القصص من أخوتي الأكارم، كيف أن الله سبحانه وتعالى عاملهم أطيب معاملة، وأكرمهم، ويسَّر لهم أمورهم، ووفَّقهم في أعمالهم؟ لأنهم حضروا مجالس العلم .

((عبدي، كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلَّمت لي فيما أريد، كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد، أتعبتك فيما تريد، ثمَّ لا يكون إلا ما أريد))

فلذلك المعنى الثالث: أن طالب العلم الملائكة، تضع أجنحتها خدمة له، تسهيلاً لأعماله ، توفيراً لحاجاته، لذلك طالب العلم مَخْدوم، كيف؟ لا نعلم، أموره مُيَسَّرة .

جاء في بعض الأحاديث الشريفة أنه:

((من طلب العلم تكفَّل الله له برزقه))

العلماء وضَّحوا: أن الملائكة هنا، المقصود بهم: ملائكة الرحمة، وبعضهم قال: الملائكة عموماً تضع أجنحتها، أي تكفُّ عن الطيران، لتستمع إلى مجالس العلم، أو تضع أجنحتها، تعظيماً لطالب العلم، أو تضع أجنحتها معونةً له، وتوفيقاً، وتيسيراً .

فهل بعد هذا الحديث شيءٌ، يدعونا إلى ترك مجالس العلم؟ إذا كان الله سبحانه وتعالى في سمائه، والملائكة، وكُلُّ المخلوقات يُبَجِّلونَ، ويعظِّمون طالب العلم، لماذا؟ لأن:

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

[أخرجه ابن ماجة عن أنس بن مالك في سننه]

شيءٌ آخر: توجد نقطة دقيقة جداً، أتمنى أن أوضِّحها لكم، وهي: أن في الحياة فروقاً كبيرةً بين الناس، شتَّانَ بين الغنى والفقر، هناك غنيٌّ يملك ألوف الألوف، وألفٌ لا يملكون واحداً، واحدٌ يملك مليون، ومليون لا يملكون واحداً، مع أن الغنى شيءٌ مهمٌّ في الحياة الدنيا، ومع أن الفقر شيءٌ صعبٌ في الحياة الدنيا، ومع ذلك ما قبِلَ الله عزَّ وجل، ولا أراد أن يكون الغنى عاملاً مرجِّحاً بين عباده،

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، ذِي طِمْرَيْنِ، لا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك في سننه]

الله سبحانه وتعالى أعطى قارون المال، وهو لا يحبُّه، قال تعالى:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

[سورة القصص الآية: ٧٦]

إذاً: مع أن المال في نظر معظم الناس شيءٌ مهمٌّ، وثمينٌ جداً في الحياة الدنيا، وأن الفقر في ظاهره، شيءٌ مزعجٌ جداً، مع كل هذا، لم يرض الله عزَّ وجل، ولا أراد، ولا أقر، أن يكون الغنى عاملاً مرجّحاً بين خلقه، لهذا جعل معظم الأنبياء من الفقراء .

وقد سُئل النبي عليه الصلاة والسلام من قِبَل سيدنا جبريل:

((يا محمَّد، أتحبُّ أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً؟ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: لا يا أخي، بل نبيَّاً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره))

ومع أن القوَّة شيءٌ مهمٌ جداً في الحياة الدنيا، وشيءٌ ثمينٌ جداً، وأن الضعف شيءٌ صعبٌ جداً، ومُزعجٌ جداً، مع هذه المفارقة الحادَّة بين القوَّة وبين الضعف، لم يرض الله سبحانه وتعالى أن تكون القوَّة عاملاً مرجِّحاً بين عباده في الدنيا، فأعطى فرعون المُلْكَ، وهو لا يحبُّه، وجعل سيدنا موسى يخرج من مصر خائفاً، قال تعالى:

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ)

[سورة القصص الآية: ٢١]

ومع أن الصحَّة في الحياة الدنيا شيءٌ مهمٌ جداً، وأن المرض لا يُحْتَمَل، كذلك لم يرض الله، ولا أراد، أن تكون الصحَّة عاملاً مرجِّحاً بين عباده، ولكن عاملاً وحداً أقرَّهُ الله في القرآن الكريم، أن يكون مرجِّحاً بين العباد، إنه العلم، فقال:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر الآية: ٩]

إذاً: رتبة العلم أعلى الرُتَب، وإن الله عالمٌ يحبُّ كل عالم،

((طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ))

[أخرجه ابن ماجة عن أنس بن مالك في سننه]

والعلم طريقٌ إلى الجنَّة،

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا، يَلْتَمِسُ بِهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ))

[أخرجه الدارمي عن أبي الدرداء في سننه]

إذاً:

((إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ))

إنها ترضى عن سعيه، وتُعَظِّمُ سعيه، وهذا المطلب مشروعٌ، حيث لو أن طالب العلم، أدركته المنيَّة في أول الطريق، لكُتِبَ من أهل الجنَّة، لأن الأمور تُقَيَّم بالنوايا، ومن سار في أوّل الطريق من باب الكرم الإلهي عُدَّ قد وصل إلى آخره .

وسوف ننتقل في درسٍ قادم إلى الحديث عن موضوع المَسْح على الخُفَّين، وفي درسٍ آخر إن شاء الله تعالى، نتحدَّث عن الحبِّ في الله، والبغض في الله، ربما استغرق هذا الحديث ثلاثة دروس .

في أي سنة زار سليمان بن عبد الملك الديار المقدسة؟

والآن إلى قصَّةٍ من قصص التابعين، نحن قبل سنةٍ أو أكثر، كنَّا قد أعطينا في كل درسٍ من دروس الأحد، قصَّةً من قصص الصحابة، فأتينا على ذكر سبعين صحابيًّاً في كل درسٍ من دروس الأحد، وكنَّا نُنهي الدرس بقصَّةٍ عن صحابيّ جليل، والآن ننتقل إلى قصصٍ عن بعض التابعين، هؤلاء الذين كانوا مُثلاً عُليا في الدين والحياة .

في السنة السابعة والتسعين للهجرة، شدَّ الخليفة سليمان بن عبد الملك الرحال إلى الديار المقدَّسة، ملبياً نداء أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، ومضت ركائبه، تحثُّ الخُطى من دمشق عاصمة الأمويين إلى المدينة المنوَّرة التي وصلها، وجلس فيها لاستقبال علمائها، وأعيانها، وعَلِيَّةِ قومها، ولمَّا فرغ سليمان بن عبد الملك من استقبال المُرَحِّبين به قال لبعض جلسائه:

((إنَّ النفوس لتصدأ كما تصدأ المعادن، إذا لم تجد من يذكِّرها، الفينة بعد الفينة، ويجلو عنها صدأها.

فقالوا: نعم يا أمير المؤمنين .

فقال: أما في المدينة رجلٌ، أدرك طائفة من صحابة رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم، يُذكِّرنا؟ .

قالوا: بلى يا أمير المؤمنين -لو قالوا: نعم أي لا يوجد، نعم: تفيد إثبات النفي، لكن بلى: تفيد نفي النفي، ونفي النفي إثبات، في القرآن الكريم:

(أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى)

[سورة الأعراف الآية: ١٧٢]

لو أنهم قالوا: نعم، لكفروا، لو أنهم قالوا: نعم، أي لست ربنا- .

فقالوا: بلى يا أمير المؤمنين، ها هنا أبو حازمٍ الأعرج .

فقال: ومن أبو حازم الأعرج؟ .

فقالوا: عالِم المدينة، وإمامها، وأحد التابعين، الذين أدركوا عدداً من الصحابة الكرام.

فقال: ادعوه لنا، وتلطَّفوا في دعوته، فلمَّا أتاه، رحَّب به، وأدنى مجلسه، وقال له معاتباً: ما هذا الجفاء

يا أبا حازم؟ .

فقال: وأي جفاءٍ رأيت مني يا أمير المؤمنين؟ .

فقال: زارني وجوه الناس ولم تزرنِي .

فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّما يكون الجفاء بعد المعرفة، وأنت ما عرفتني قبل اليوم، ولا أنا رأيتك، فأي

جفاءٍ وقع مني؟ .

عندئذٍ قال الخليفة لجُلسائه: والله أصاب الشيخ في اعتذاره، وأخطأ الخليفة في عِتابه، ثمَّ التفت إلى أبي

حازم، وقال: إنَّ في النفس شؤوناً، أحببت أن أُفضي بها إليك يا أبا حازم .

فقال: هاتها يا أمير المؤمنين، والله المستعان .

-إذا سألك واحد سؤالا، فاستعن بالله، إذا شعرت أنه بإمكانك، أن تجيبه عن سؤاله، وأنت واثقٌ من علمك، فهذا هو الجهل بعينه، لأن الله عزَّ وجل يقول:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء الآية: ٨٥]

إذا سألك واحد سؤالا، فعوِّد نفسك هذه الطريقة، استعن بالله بقلبك، يا رب أعن على أن أجيبه، لا تخزن أمامه، علّمن أن أجيبه- .

فقال الخليفة: يا أبا حازم لِمَ نكره الموت؟ .

فقال أبو حازم: لأنكم عمَّرتم الدنيا، وخرَّبتم الآخرة، -فهو جوابٌ واضحٌ كالشمس، عمَّرتم الدنيا، زخرفتموها، بنيتم البيوت الفخمة، فرشتموها بالأثاث الوثير، جعلتم أعمالكم فيها أبَّهة وعظمة، كوَّنتم مكاناً اجتماعياً، ودخلاً كبيراً، فوالله الموت صعب جداً- .

فقال: صدقت، ولكن يا أبا حازم، ما لنا عند الله غداً؟ -ما مكاننا؟ ما موقعنا؟ ما رُتْبَتُنا؟- .

فقال: اعرض عملك على كتاب الله عزَّ وجل، تجد جواب ذلك .

قال: وأين أجد في كتاب الله تعالى؟ .

قال: تجده في قوله تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

[سورة الانفطار الآية: ١٣-١٤]

-كلامٌ واضحٌ كالشمس، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ)

[سورة الانفطار الآية: ١٣]

إذا كنت باراً، فأنت في نعيم بعد الموت، قال تعالى:

(وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

[سورة الانفطار الآية: ١٤]

فقال: يا أبا حازم إذاً: فأين رحمة الله؟ .

فقال أبو حازم: إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين .

فقال: يا أبا حازم، ليت شعري، كيف القدوم على الله تعالى؟ .

فقال أبو حازم: أمَّا المحسن فكالغائب يقدم على أهله .

-تصورَّ إنسانًا، يدرس في بلد أجنبي، وله أهل في بحبوبة كبيرة، ويحبّونه حُبَّاً جمَّاً، وعلموا أنه سيأتي بعد أسبوعين، فيصبح البيت كلُّه عيد، تصنع له أمُّه ألذَّ الأكلات، تهيىء له غرفةً فيها ما لذَّ وطاب، أما المحسن فكالغائب يعود إلى أهله- .

فقال: وأما المسيء، فكالعبد الآبق يُساق إلى مولاه، -العبد الهارب، ألقي القبض عليه، واقتادوه إلى مولاه، ليلقى جزاء عمله، لذلك قال الله تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ)

[سورة القصص الآية: ٦١]

ألقي القبض عليه، وسيق مخفوراً إلى التحقيق، المُتَّقون يأتون يوم القيامة وفداً، قال تعالى:

(وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً)

[سورة مريم الآية: ٨٦]

المُجْرِم يُساق سوقاً، لأنه متهم- فبكى الخليفة حتَّى علا نحيبه، واشتدَّ بكاؤه، ثم قال: يا أبا حازم، كيف لنا أن نصلح؟ .

فقال: تدعون عنكم الصلَف، وتتحلَّوْنَ بالمروءة .

فقال الخليفة: وهذا المال، ما السبيل إلى تقوى الله فيه؟ .

فقال أبو حازم: إذا أخذتموه بحقِّه، ووضعتموه في أهله، وقسَّمتموه بالسويَّة، وعدلتم فيه بين الرعيَّة.

فقال الخليفة: يا أبا حازم، أخبرني عن أفضل الناس؟ .

فقال: أهل المروءة والتُقى .

فقال: وما أعدل القول؟ .

قال: كلمة حقٍ يقولها المرء عند من يخافه، وعند من يرجوه .

قال: ما أسرع الدعاء إجابةً؟ .

قال: دعاء المحسن للمحسنين .

قال: ما أفضل الصدقة؟ .

قال: جُهْدُ المُقِل -المقل هو قليل المال- يضعه في يد البائس من غير أن يتبعه مَنّاً ولا أذى .

فقال: من أكيس الناس؟ .

قال: رجلٌ ظَفِرَ بطاعة الله تعالى، فعمل بها، ثمَّ دلَّ الناس عليها .

فقال: فمن أحمق الناس؟ .

قال: رجلٌ انساق مع هوى صاحبه، وصاحبه ظالمٌ، فباع آخرته بدنيا غيره .

فقال الخليفة: هل لك أن تصحبنا يا أبا حازم فتصيب منَّا، ونصيب منك؟ .

فقال: كلا يا أمير المؤمنين .

قال: ولِمَ؟ .

قال: أخشى أن أركن إليكم قليلاً، فيذيقني الله ضعف الحياة، وضعف الممات .

قال: ارفع إلينا حاجتك يا أبا حازم، فسكت ولم يجب .

فأعاد عليه قوله: ارفع إلينا حاجتك يا أبا حازم، نقضها لك مهما كانت .

فقال: حاجتي أن تنقذني من النار، وأن تدخلني الجنَّة .

فقال: هذا ليس من شأني .

فقال: إذاً ليس لي إليكَ حاجة .

فقال: ادع لي يا أبا حازم .

فقال: اللهمَّ إن كان عبدك سليمان من أوليائك، فَيَسِّره إلى خَيْرَي الدنيا والآخرة، وإن كان من أعدائك،

فأصلحه واهده إلى ما تحبُّ وترضى .

فقال رجل: بئس ما قلت منذ دخلت على أمير المؤمنين، فلقد جعلت خليفة المسلمين من أعداء الله وآذيته .

قال أبو حازم: بل بئس ما قلت أنت، فلقد أخذ الله على العلماء الميثاق، بأن يقولوا كلمة الحق، فقال:

(لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٧]

ثمَّ التفت إلى الخليفة، وقال: يا أمير المؤمنين، إن الذين مَضَوْا قبلنا من الأمم الخالية، ظلوا في خيرٍ وعافية، ما دام أمراؤهم يأتون علماءهم رغبةً فيما عندهم، ثمَّ وجِدَ قومٌ من أراذل الناس، تعلَّموا

العلم، وأتوا به الأمراء، يريدون أن ينالوا به شيئاً من عَرَض الدنيا، فاستغنت الأمراء عن العلماء، فتعسوا، ونكسوا، وسقطوا من عين الله عزَّ وجل، ولو أن العلماء زهدوا فيما عند الأمراء، لرغب الأمراء في علمهم، ولكن رغبوا فيما عند الأمراء، فزهدوا في علمهم، وهانوا عليهم .

فقال الخليفة: صدقت، زدني من موعظتك يا أبا حازم، فما رأيت أحداً الحكمة أقرب إلى فمه منك .

فقال: إن كنت من أهل الاستجابة، فقد قلت لك ما فيه الكفاية، وإن لم تكن من أهلها، فما ينبغي لي أن أرمي عن قوسٍ ليس لها وتر .

فقال الخليفة: عزمت عليك أن توصيني يا أبا حازم .

فقال: نعم سوف أوصيك، وأوجز، عَظِّم ربَّك، ونَزِّهه أن يراك حيثُ نهاك، وأن يفتقدك حيث أمرك، ثمَّ سلَّم وانصرف .

فقال الخليفة: جزاك الله خيراً من عالمٍ ناصح .

وما كاد أبو حازم يبلغ بيته، حتَّى وجد أن أمير المؤمنين، قد بعث إليه بصرَّةٍ، مُلئت دنانير، وكتب إليه يقول: أنفقها، ولك مثلها كثيرٌ عندي، فردَّها، وكتب إليه، يقول: يا أمير المؤمنين، أعوذ بالله أن يكون سؤالك إيَّاي هزلاً، وردي عليك باطلاً، فو الله ما أرضى ذلك لكَ، فكيف أرضاه لنفسي؟ .

يا أمير المؤمنين، إن كانت هذه الدنانير لقاء حديثي الذي حدَّثتك به، فالميتة ولحم الخنزير في حال الاضطرار أَحَلُّ منها، وإن كانت حقَّاً لي من بيت مال المسلمين، فهل سَوَّيت بيني وبين الناس جميعاً في هذا الحق؟))

هذا أحد التابعين الأكارم، واسمه أبو حازم، اسمه الأصلي سلمة بن دينار .

إن شاء الله تعالى إلى أمدٍ، إن أحيانا الله ليس بقصير، في كل درس أحد، نُلقي على مسامعكم، قصَّة عن أحد التابعين، الذين كانوا مثلاً أعلى في العلم، والورع، والنُصح .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٠٥-١٠١) : المسح على الخفين - سيرة التابعي سلمة بن دينار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-٠٢-٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

حكم المسح على الخفين في الفقه الإسلامي :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السادس من دروس الحديث الشريف، ومن كتاب رياض الصالحين، ومن باب التوبة، فالحديث الذي تم شرح بعضه في الدرس الماضي، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ:

((أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ الْمُرَادِيَّ، أَسْأَلُهُ عَنْ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا زِرُّ؟ فَقُلْتُ: ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ، فَقَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ))

شرحنا في الدرس الماضي:

((إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ))

نتابع اليوم شرح الحديث .

فَقُلْتُ:

((إِنَّهُ حَكَّ فِي صَدْرِي الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَّيْنِ بَعْدَ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ، وَكُنْتَ -أي يا صفوان- امْرَأً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَجِئْتُ أَسْأَلُكَ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كَانَ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّا سَفَرًا -أَوْ مُسَافِرِينَ- أَنْ لا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهِنَّ إلا مِنْ جَنَابَةٍ، لَكِنْ مِنْ غَائِطٍ، وَبَوْلٍ، وَنَوْمٍ))

العلماء قالوا: المسح على الخفين جائز بالسنة لا بالقرآن، لأن قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ)

[سورة المائدة الآية: ٦]

فأرجلكم منصوبة، والمعطوف على المنصوب منصوب مثله، هي معطوفة على :

(فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ)

[سورة المائدة الآية: ٦]

فالمسح على الخفين جائز لا بالقرآن، ولكن بالسنّة، فالأخبار فيه مستفيضة، أي كثيرة ، حتى إنه قد قيل: إنه من أنكره كان مبتدعاً، من أنكر المسح على الخفين كان مبتدعاً، ومن رآه ثم لم يمسح آخذاً بالعزيمة كان مأجوراً، ومن أيقن به ورآه صواباً، ولم يمسح ابتغاء الأجر، واتباعاً للعزيمة كان مأجوراً، فالمسح على الخفين جائز بالسنّة من كل حدث موجب للوضوء، لا يجوز المسح على الخفين من الحدث الأكبر، بل من الحدث الأصغر، والحدث الأصغر هو الحدث الموجب للوضوء، والحدث الأكبر هو الحدث الموجب للغسل، احترازاً عما هو موجب للغسل، لأن الرخصة للحرج فيما يتكرر .

فالإنسان يتوضأ كل يوم خمس مرات، فموجبات الوضوء متتالية متكررة، فإذا كان هناك سفر، أو برد قاس، هناك صعوبات، هناك عمل شاق، فالنبي عليه الصلاة والسلام يسّر علينا أمر الدين، فإذا كان مقيماً في بلده في وطنه مسح يوماً وليلة، مدة المسح على الخفين يومٌ وليلة، وإن كان مسافراً مسح ثلاثة أيام ولياليها .

متى تبدأ؟ قد يظن بعضهم: أنها تبدأ إذا توضأ، وغسل رجليه، ولبس الخفين، بدأت مدة المسح، لا من أول حدث أصغر، إن الرجلين وهي في الخفين طاهرة، ما دام لم ينقض وضوءه، تبدأ مدة المسح ليوم وليلة للمقيم ابتداءً من أول حدث أصغر، والمسح على الخفين محله على ظاهرهما لا على باطن الرجل، فلا يجوز على باطن الخف وعقبه وساقه، بل على ظاهر القدم، هكذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسنّة أن يكون المسح خطوطاً بالأصابع، لو مسح براحته جاز، ويبدأ بالمسح من رؤوس أصابع الرجل إلى مد الساق، أي من أسفل إلى أعلى، ولو عكس جاز، لو فعل من الأعلى إلى الأسفل أيضاً جاز، ولكنه أُثر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مسح بأصابعه على ظاهر الخف، ابتداءً من أصابع القدمين وحتى أول الساق .

وقال علماء الحديث:

((هناك أربعون حديثاً عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها تجيز المسح على الخفين))

بل إن بعض علماء الحديث قال:

((حدثني سبعون رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: مسح على الخفين))

إذاً: الأحاديث كثيرة، والأخبار كثيرة، وهو جائز بالسنة، تيسيراً على الأمة .

فرض المسح على الخفين مقدار ثلاثة أصابع من أصغر أصابع اليد، فأربعة جاز، أما أقل شيء ثلاثة أصابع، ولا يجوز المسح على خف فيه خرق كبير، أن تمسح على خف فيه خرق كبير، لا يجوز، مقدار هذا الخرق ثلاثة أصابع من أصغر أصابع الرجل، أصغر أصبُع من أصابع الرجل، ثلاثة أصابع منها إذا اجتمعت، هذا هو حجم الخرق الذي يبطل المسح على الخفين، وإن كان

الخرق أقل من ذلك، أقل من ثلاثة أصابع من أصابع الرجل الصغيرة، جاز المسح عليها، لأن الخفاف لا تخلو عن قليل الخرق عادة، ولا يجوز المسح على الخفين لمن وجب عليه الغسل، هذا كلام قطعي، وينقض المسح على الخفين ما ينقض الوضوء، لأنه بعضه، إذا مسح على خفيه، ثم انتقض وضوءه، فعليه أن يتوضأ ثانية، وأن يعيد المسح على الخفين، ينقض المسح على الخفين ما ينقض الوضوء، لأنه بعضه، وينقضه أيضاً نزع الخف.

لو أن إنسانًا نزع خف، انتقض مسح الخفين، لكن إذا نزع الخف يجزئه، أي يكفيه أن يغسل قدميه فقط، إذا كان متوضئاً وماسحاً على خفيه، ونزع الخف يجزئه أن يغسل القدمين فقط، إذا مضت مدة المسح على الخفين انتقض المسح .

إذاً: ينتقض المسح بانتقاض الوضوء، وينتقض المسح بنزع الخفين، وينتقض المسح بانتهاء مدة المسح، للمسافر له مدة، وللمقيم له مدة، وإذا نزع خفاً واحدة انتقض المسح، لأنه ليس في الفقه جمع بين المسح والغسل، يغسل واحدة، ويمسح الثانية، هذا غير وارد .

من ابتدأ المسح، وهو مقيم، فسافر قبل إتمام يوم وليلة، تابع المسح ثلاثة أيام ولياليها، كنت مقيماً، وتوضأت، ومسحت على الخف، ثم سافرت قبل انقضاء يوم وليلة، تستطيع أن تتابع المسح ثلاثة أيام بلياليها، ومن كان مسافراً، وعاد إلى بلده قبل انقضاء ثلاثة أيام ولياليها، لزمه أن ينزع الخف، وأن يغسل قدميه، ومن كان مسافراً، فعاد إلى بلد إقامته قبل انقضاء يوم وليلة، يتابع المسح على الخفين يوم وليلة، هذه أحكام فرعية .

ومن لبس الجرموق، هذا مصّب، لدينا خفين من جلد، يُلبسان بحذاء غليظ، اسمه في الفقه: الجرموق، فيجوز المسح على الجرموق، والجمع جراميق، كعصفور وعصافير، إذا لبست الخف في الجرموق على طهارة، يجوز أن تمسح على الجرموق أيضاً إذا كنت مسافراً ، وأردت أن تصلي فيه، والجرموق الذي يجوز المسح عليه، هو الذي إذا انفردت به، جاز المسح عليه، لو لم تلبسه مع الخفين إذا جاز أن تنفرد به، جاز المسح عليه .

الآن موضوع الجوربين، هذا موضوع مهم جداً، قال العلماء: لا يجوز المسح على الجوربين الرقيقين، رقيقين كانا أو ثخينين عند أبي حنيفة، عند هذا الإمام الكبير لا يجوز المسح على الجوربين، إلا أن يكونا مجلدين، فيهما جلد، أي جعل الجلد على ما يستر القدم منهما إلى الكعب، أو منعّلين من أسفل، مجلدين من أعلى، أو منعّلين من أسفل، أما أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة رضي الله عنه ومحمد، هذان التلميذان الكبيران أجازا المسح على الجوربين سواء أكانا مجلدين أو منعلين أم لا، إذا كانا جوربين ثخينين لا رقيقين، حيث يستمسكان على الرجل من غير شد، ولا يجفان الماء، لو مسحت على الجوربين، لن ينتقل الماء إلى ظاهر القدم .

الإمام أبو حنيفة قيل: إنه في آخر حياته، رجع إلى قول تلميذيه محمد وأبو يوسف، المحصلة: لو مسح على الجوربين، فإن كانا ثخينين منعلين، جاز هذا باتفاق العلماء، وإن لم يكونا مثخنين منعلين، بل كانا رقيقين، لم يجز هذا باتفاق، فالجوربان الرقيقان، لم يجز المسح عليهما باتفاق، والجوربان المنعلان المجلدان، يجوز المسح عليهما باتفاق، أما إذا كانا ثخينين غير منعلين، لا يجوز المسح عليهما عند أبي حنيفة خلافاً لتلميذيه، وروي أن الإمام رجع إلى قولهما في المرض الذي مات فيه .

هذه أحكام الفقه المتعلقة بالمسح على الخفين، وهذا الشرح متعلق بالضرورة بالفقرة الثانية من الحديث، الذي نحن بصدد شرحه في هذا الدرس .

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يَسِّرُوا وَلا تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا وَلا تُنَفِّرُوا))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

إذا كان هناك مشقة، إذا كان هناك صعوبة، كان هناك عمل شاق، كان هناك سفر، كان هناك إرهاق في خلع النعلين، إنسان كان في الخدمة الإلزامية والحذاء ثخين، والوقت قليل جداً، والاجتماع بعد خمس دقائق، وعليه أن يصلي الظهر مثلاً، في مثل هذه الظروف، يأتي الدين اليسير، فيدور مع هذه الظروف الصعبة، كيفما دارت .

هذا الكلام مجمل لرأي الإمام أبي حنيفة وتلميذيه حول المسح على الخفين، ولا تنسوا أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه))

الآن إلى الموضوع الثاني: وهو متابعة الحديث عن تابعي جليل أبي حازم، وكيف كان يلتقي بطلاب العلم، وكيف يغنيهم بحكمه التي تأخذ بالألباب؟ .

قالوا:

((وقد كان منزل سلمة بن دينار مورداً عذباً لطلاب العلم، ورغّاب الصلاح، لا فرق في ذلك بين أخوانه وطلابه، فقد دخل عليه ذات مرة عبد الرحمن بن جرير، ومعه ابنه، وأخذا مجلسيهما عنده، وسلما عليه، ودعَا له بخيري الدنيا والآخرة، فردّ التحية بأحسن منها، ورحب بهما، ثم دار بينهم الحديث .فقال له عبد الرحمن بن جرير: كيف نحظى بالفتوح يا أبا حازم؟

-كيف يفتح الله على قلب المؤمنين؟ كيف يقذف الله نوره في قلب المؤمن؟ كيف يصلي المؤمن فتفيض دموعه؟ كيف يصلي فيحس بالقرب من الله عز وجل؟ كيف يتجلى الله على قلبه؟ كيف تنفتح بصيرته؟ كيف يرى مالا يراه الآخرون؟ كيف يسمع مالا يسمع الآخرون؟ كيف تسمو نفسه؟ كل هذه المرادفات هي تعبير بشكل أو بآخر عن الفتوح، والعوام يقولون: الله يفتح عليك فتوح العارفين، هذا الفتح، هذه الصلة التي تنعقد مع الله عز وجل، هذا السمو الأخلاقي، هذه النفس الوديعة التي رأت الحق، وعرفت أهل الحق، فلزمت الحق، وكانت على الحق، وابتغيت الحق .

سؤال دقيق جداً: كيف نحظى بالفتوح يا أبا حازم؟ كل منا يصلي، كل منا يصوم، وقد نحج مرات عديدة، وقد نفعل كل شيء، ولكن الذي نطلبه أن يكون هذا القلب مهبط لتجليات الله، كيف الفتوح يا أبا حازم؟- .

فقال: عند تصحيح الضمائر تغفر الكبائر، -قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء الآية: ٨٨-٨٩]

إذا كانت النفس طاهرة من الداخل، تجلى الله على هذا القلب الطاهر، فإن الله طيب ولا يقبل إلا طيباً، تستطيع أن تخدع الناس جميعاً، ولكنك لن تستطيع أن تخدع نفسك لحظة، إن الله طيب ولا يقبل إلا طيباً، إن هذا الدين قد ارتضيته لنفسي، هكذا قال الله تعالى في الحديث القدسي، ولا يصلحه إلا السخاء، وحسن الخلق، فأكرموه بهما ما صحبتموه، عند تصحيح الضمائر تغفر الكبائر، وإذا عزم العبد على ترك الآثام، أنعم الله عليه بالفتوح، اتق المحارم تكن أعبد الناس، اتقي الذي تعلمه أنه محارم، وانظر كيف أن قلبك يشرق بالمعرفة .

جاء في بعض الآثار:

((من أخلص لله أربعين صباحاً، تفجرت ينابيع الحكمة في قلبه، وأجراها الله على لسانه))

ولا تنس يا عبد الرحمن أن يسير الدنيا يشغلنا عن كثير الآخرة، -هذه الآخرة التي لا تنقضي، هذه الحياة الأبدية، تخيل كيس من الطحين، كل ذرة من هذا الكيس تعدل مليون سنة، فهذا الكيس كم سنة؟ إذا وضعت أصبعك على طرف الطحين، كم ذرة تعلق على إصبعك؟ إن كانت كل ذرة تعدل مليون مَليون مليون مَليون سنة، فما هو الأبد؟ ما معنى:

(خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً)

[سورة النساء الآية: ٥٧]

أكبر رقم إذا وضع صورة على مخرج لا نهاية، فهذا الرقم يساوي صفرًا، لو عاش الإنسان مئة ألف عام، مليون مَليون مليون عام، إذا قيست هذا الأعوام الطويلة إلى الآخرة الأبدية فيه، فلا شيء، لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ)

[سورة التوبة الآية: ٣٨]

قال: كل نعمة لا تقربك من الله عز وجل فهي نقمة، -الزوجة نعمة كبرى، الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة، فإذا ساهمت الزوجة في إبعادك عن الله عز وجل، فهي نقمة، إما أن تكون الزوجة نعمة، وإما أن تكون نقمة، كل شيء قربك إلى الله نعمة، المصيبة إذا قربتك إلى الله فهي نعمة، والنعم الظاهرة إذا حجبتك عن المنعم، فهي نقمة، المال إذا قربك إلى الله، فهو نعمة، وإذا أبعدك عنه، فهو نقمة، الفقر إذا قربك إلى الله، فهو نعمة، فإذا أبعدك عنه، فهو نقمة، التجارة، الأعمال، الأهل، الأولاد، أي نشاط تقوم به، أي عمل تعمله، إذا ساهم هذا العمل في تقريبك من الله، فهو نعمة، وإذا ساهم في إبعادك عنه، فهو نقمة- .

فقال ابن عبد الرحمن: يا أبا حازم، إن أشياخنا كثيرون، فبمن نقتدي منهم؟ .

قال: يا بني، اقتدِ بمن يخاف الله في ظهر الغيب، ويعف عن التلبس بالعيب، -من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيء من عمله، وركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط- ويصلح نفسه في أوانِ الصبا، ولا يرجئ ذلك إلى عهد الشيب، يا بني، ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا ويقبل على طالب العلم هواه وعلمه، فيتغالبان في صدره، تغالب المتخاصمين، فإذا غلب علمه هواه، كان يومه يوم غلبته، وإذا غلب هواه علمه، كان يومه يوم خسرانه، -تصارعت نفسه، هل أحضر هذا المجلس أم لا أحضره؟ فإذا غلب هواه، وآثر أن يمضي هذه السهرة مع رفاقه، فقد غلب، وكان هذا اليوم خسارة له، فإذا غلبه علمه، وآثر حضوراً في مجالس العلم على متع الحياة المباحة، غلب نفسه، فكان هذا اليوم يوم غلبة له، لا زلنا مع أقوال أبي حازم لعبد الرحمن بن جرير، ومع ابنه فقال له عبد الرحمن بن جرير: كثيراً ما حضضتنا على الشكر يا أبا حازم، فما حقيقة الشكر؟ .

فقال: لكل عضو من أعضائنا حق من الشكر .

فقال عبد الرحمن: ما شكر العينين؟ .

قال: إن رأيت بهما خيراً أعلنته، وإن رأيت بهما شرا كتمته، -صفات المؤمن أنه ستار العيوب، من تتبع عورة المسلمين، فضحه الله في عقل داره .

قالت له:

((يا أبا أمية، إني امرأة غريبة، ولا أعرف ما تحب وما تكره، فقل لي: ما تحب حتى آتيه، وما تكره حتى أجتنبه، فقال: أما بعد، فقد قلتِ كلاماً: إن تصدقي فيه، وتثبتي عليه، يكن لك ذخراً وأجراً، وإن تدعيه، يكن حجة عليك، أحب كذا وكذا، وأكره كذا وكذا، وما وجدت من حسنة فانشريها، وما وجدت من سيئة فاستريها))

لذلك من صفات المرأة الصالحة أنها سِتِيرة، والمرأة السيئة تفضح زوجها، تتحدث عن دقائق العلاقة بينه وبينها، تتحدث عن شؤون تخص هذا البيت وحده .

قال عليه الصلاة والسلام:

((إني لأكره المرأة، تخرج من بيتها، تشتكي على زوجها))

عَنْ ثَوْبَانَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ))

وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((أَيُّمَا امْرَأَةٍ، اخْتَلَعَتْ مِنْ زَوْجِهَا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ، لَمْ تَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

فقال عبد الرحمن: فما شكر الأذنين؟ .

قال: إن سمعت بهما خيراً وعيته، وإن سمعت بهما شراً دفنته، -لذلك النمام لا يدخل الجنة، المغتاب لا يدخل الجنة، المفتري لا يدخل الجنة، هؤلاء جميعاً يفرقون بين الأحبة .

قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس منا من فرق))

قامة ممدودة، بصراً حاد، أذنان مرهفتان، أسنانه كلها في فمه، جسده ذو عزيمة، قيل له: يا سيدي، ما هذه الصحة التي متعك الله بها؟ قال يا بني: حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً .

ألا تحبون جميعاً أن تتمتعوا بصحتكم، وسمعتكم، ومكانتكم؟ احفظوا الله يحفظكم، ثمن الحفظ معروف، حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر، احفظ الله يحفظك، ومن أراد أن يتمتع بعقله ولا يخرف، فليتعلم القرآن .

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ فَاسْتَظْهَرَهُ وَحَفِظَهُ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، وَشَفَّعَهُ فِي عَشَرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، كُلُّهُمْ قَدْ وَجَبَتْ لَهُمُ النَّارُ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

ولا يفوتك يا عبد الرحمن -القول لأبي حازم-: أن من يقصر شكره على لسانه، ولا يشرك معه جميع أعضائه وجنانه، فمثله كمثل رجل له كساء، لولا أنه أخذ بطرفه ولم يلبسه، -كساء فاره،

غالي الثمن، ضخم ممتاز، أمسك الرجل بطرف الكساء، ولم يرتد هذا الكساء- هذا الكساء لا يقيه الحر، ولا يقيه القر، فمن اكتفى بشكر اللسان، ولم ينتقل هذا الشكر إلى الأعضاء والجوارح والجَنان، لم يستفد من هذا الشكر))

يروى أنه في ذات سنة، نفر سلمة بن دينار مع جيوش المسلمين المتجهة إلى بلاد الروم، يبتغون الجهاد في سبيل الله مع المجاهدين، فلما بلغ الجيش آخر مرحلة من مراحل السفر، آثر الراحة والاستجمام قبل لقاء العدو في خوض المعارك، وقد كان في الجيش أمير من أمراء بني أمية، فأرسل رسولاً إلى أبي حازم يقول له:

((إن الأمير يدعوك إليه لتحدثه وتفقهه .

فكتب إلى الأمير يقول: أيها الأمير، لقد أدركت أهل العلم، وهم لا يحملون الدين إلى أهل الدنيا، العلم يؤتى ولا يأتي .

-والقصة الشهيرة لهارون الرشيد حينما قدم المدينة، وسأل عن بعض علمائها، وهو الإمام مالك، فقال الإمام مالك:

((أبلغ الأمير، أن العلم يؤتى ولا يأتي، فقال هارون الرشيد: صدق، نحن نأتيه .

فلما أتاه، قال الإمام مالك: قولوا للأمير: أن لا يتخطى الرقاب، فقال: صدق، فجلس حيث انتهى به المجلس، لكن حاشيته وضعوا له كرسياً، فقال الإمام مالك: من تواضع لله رفعه ، ومن تكبر وضعه، فقال الخليفة: خذوا عني هذا الكرسي، فجلس حيث انتهى به المجلس مع عامة المستمعين))

فقال: أيها الأمير، لقد أدركت أهل العلم، وهم لا يحملون الدين إلى أهل الدنيا، ولا أحسبك تريدني أن أكون أول من يفعل ذلك، فإن كانت لك بنا حاجة فأتنا، والسلام عليك، وعلى من معك، فلما قرأ الأمير الرسالة، مضى إليه وحياه وبياه، معنى بياه؛ دعا له بالرفعة، وقال: يا أبا حازم، لقد وقفنا على ما كتبته لنا، فازددت به كرامة عندنا، وعزةً لدينا، فذكرنا وعظنا، جزيت عنا خير الجزاء .

فقال أبو حازم: انظر ما تحب أن يكون معك في الآخرة، فاحرص عليه في الدنيا، وما تكره أن يكون معك في الآخرة، تزهد فيه في الدنيا، واعلم أيها الأمير، أنه إن نفق الباطل عندك، أقبل عليك المبطلون المنافقون، والتفوا حولك، وإن نفق عندك الحق، التف حولك أهل الخير، وأعانوك عليه، واختر أيها الأمير باسمك ما يحلو .

-لذلك سيدنا عمر بن عبد العزيز، اختار أحد كبار العلماء مستشاراً له، وقال له:

((كن معي دائماً، وانظر في أحكامي، فإن رأيتني ضللت، فأمسكني من ثيابي، وهزني هزاً عنيفاً، وقل لي: اتق الله يا عمر، فإنك ستموت))

ولما أقبل الموت على أبي حازم قال له أصحابه: كيف أنت يا أبا حازم؟ قال: لأن نجونا من شر ما أصبناه من الدنيا فما يضرنا ما زوي عنا منها))

الإنسان في الدنيا يحصّل ما يحصّل، ويزوى عنه ما يزوى، فإن نجا منها ما ضره ما زوي عنه، لذلك الدعاء الشريف:

((اللهم ما رزقتني مما أحب، فاجعله عوناً لي فيما تحب، وما زويتَ عني ما أحب، فاجعله فراغاً لي فيما تحب))

كنت قد وعدتكم في درس سابق، أن نتابع الحديث من إحياء علوم الدين حول آفات اللسان، ووصلنا إلى الشعر والغناء، وقد أرجئت الغناء إلى درس قادم، وها أنا ذا أفي بوعدي.

وصل الإمام ابن الجوزي آراء أئمة المذاهب رحمهم الله تعالى، فجميعاً قالوا: بتحريم الغناء المقرون بالمعازف، والخالي منه إذا وصف النساء والخمور .

بادئ ذي بدء، لو أن المرأة أذنت لكان أذانها حرامًا، لأن صوتها عورة، فكيف إذا غنت؟ أما إذا غنى الرجل، ووصف النساء والخمور، فغناؤه حرام، بمعازف أم بغير معازف، لم يبق من المباح إلا أن ينفذ الرجل في مديح النبي عليه الصلاة والسلام، وفي ذكر الله عز وجل، وفي التشوق إلى الأماكن المقدسة، وفي حداء القوافل، ورد بعض الآفات في هذا .

ففي الحديث عَنْ حُمَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِي اللَّه عَنْه يَقُولُ:

((كَانَتِ الأَنْصَارُ يَوْمَ الْخَنْدَقِ تَقُولُ: نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا عَلَى الْجِهَادِ مَا حَيِينَا أَبَدَا، فَأَجَابَهُمُ النَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إلا عَيْشُ الآخرة فَأَكْرِمِ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

عَنِ الْبَرَاءِ رَضِي اللَّه عَنْه قَالَ:

((رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الأَحْزَابِ، يَنْقُلُ التُّرَابَ، وَقَدْ وَارَى التُّرَابُ بَيَاضَ بَطْنِهِ، وَهُو يَقُولُ:

لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً علَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

[أخرجه البخاري في الصحيح]

في أعمال شاقة، في غزوات مع الكفار، في رحلة طويلة، فإذا كان هناك صوت حسن، يصف عظمة الخالق، أو يصف الشوق إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فكل ما كان تعريفاً بالله، وذكراً له، ومديحاً للنبي الكريم، كل إنشاد لم يُخرج عن حدّ الاعتدال، وإذا كان النغم راقصاً، وتناوم المستمعون وطربوا، ففيه شبهة، وفيه انحراف عن الطريق المعتدل الذي سمح الشرع به .

ذات مرة دميت إصبع النبي عليه الصلاة والسلام في بعض الغزوات، فعَنْ جُنْدَبِ بْنِ سُفْيَانَ:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ فِي بَعْضِ الْمَشَاهِدِ، وَقَدْ دَمِيَتْ إِصْبَعُهُ، فَقَالَ:

هَلْ أَنْتِ إِلا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ

[أخرجه البخاري في الصحيح]

ما أجمل الأدب إذا احتوى الحق، إذا عبر عن الحق، صدق القائل:

لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا

إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

فنحن حديثنا في موضوع، أن المرأة إذا غنت فصوتها عورة، وأن الرجل إذا غنى، فوصف النساء والخمور، فالمضمون عورة، وأي غناء اقترن بالمعازف، فهذا أيضاً بنص الشرع محرم، لم يبق إلا الذي سمح لنا به الشرع، وهو الذي لا يخرج عن حد الاعتدال .

يروى عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قيل له:

((يا أبا عبد الله، هذه القصائد الرقاق التي فيها ذكر الجنة والنار، ما تقول فيها؟ فقال: مثل أي شيء؟ فقال: يقولون:

إذا ما قال لي ربــي أما استحييت تعصيني

وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتينــي

فقال أحمد بن حنبل: أعِد أعِدْ علي، فأعدت عليه، فقام ودخل بيته، وردّ الباب، فسمعت نحيبه من داخل البيت، وهو يقول:

إذا ما قال لي ربــي أما استحييت تعصيني

وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتينــي

ربما كان الكلام موزونًا، عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكْمَةً))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

ربما كان الكلام الموزون، والصوت الحسن، يفعل في النفس فعل السحر، إذا كان المضمون مضموناً، يدل على الله عز وجل، أو يؤدي إلى الله عز وجل، فجمهور أئمة المذاهب رحمهم الله تعالى، كما قال الإمام بن الجوزي: كلهم قاموا بتحريم الغناء المقرون بالمعازف، أو الخالي عنه، ولكنه يصف النساء والخمور، هذا إذا كان المغني رجلاً، أما إذا كانت امرأة، لتقل ما شاءت، ولو أنها أذّنت، فصوتها عورة، هذا حكم الأئمة الأربعة .

أما الأدلة: فقد استدل أصحابنا بالقرآن والسنّة، فأما في استدلال القرآن فبثلاث آيات، الآية الأولى: قول الله عز وجل:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ)

[سورة لقمان الآية: ٦]

قال ابن مسعود:

((هو الغناء))

وعن إسماعيل بن سعيد بن يسار قال: سألت عكرمة عن لهو الحديث، فقال:

((هو الغناء))

وقال الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة، وإبراهيم النخعي: مثل قول هؤلاء، قال تعالى:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ)

[سورة لقمان الآية: ٦]

فلهو الحديث هو الغناء .

والآية الثانية:

(وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)

[سورة النجم الآية: ٦١]

عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال:

((وأنتم سامدون: وأنتم تغنون))

قال تعالى:

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ)

[سورة النجم الآية: ٥٩-٦١]

سامدون أي تغنون، وقال مجاهد عن هذه الآية:

((هو الغناء بلغة أهل اليمن))

وأما الآية الثالثة، فقول الله:

(وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ)

[سورة الإسراء الآية: ٦٤]

عن سفيان الثوري، عن ليث، عن مجاهد، قالوا:

((هو الغناء والمزامير))

هذه الآيات الثلاثة التي تحرم الغناء .

وأما السنّة: فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((أَخَذَ النَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى ابْنِهِ إِبْرَاهِيمَ، فَوَجَدَهُ يَجُودُ بِنَفْسِهِ، فَأَخَذَهُ النَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَضَعَهُ فِي حِجْرِهِ فَبَكَى، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَتَبْكِي؟ أَوَلَمْ تَكُنْ نَهَيْتَ عَنِ الْبُكَاءِ؟ قَالَ: لا، وَلَكِنْ نَهَيْتُ عَنْ صَوْتَيْنِ أَحْمَقَيْنِ فَاجِرَيْنِ، صَوْتٍ عِنْدَ مُصِيبَةٍ، خَمْشِ وُجُوهٍ، وَشَقِّ جُيُوبٍ، وَرَنَّةِ شَيْطَانٍ، وَفِي الْحَدِيثِ كَلامٌ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا))

[أخرجه الترمذي في سننه]

نهيت عن صوتين: أي عن الغناء، وعن النحيب بصوت مرتفع، هذان من الشيطان، هذا حديث صحيح.

كان أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام إذا سافروا، قرؤوا سورة يس، وجعلوها تحديداً لمراحل السفر.

وسأل رجل القاسم بن محمد عن الغناء، فقال: أنهاك عنه، وأكرهه لك، فقال: أحرام هو؟ قال: انظر يا بن أخي، إذا ميّز الله الحق من الباطل، ففي أيهما يجعل الغناء: مع الحق أم مع الباطل؟ قبل أن تغني أنت قلت: بسم الله الرحمن الرحيم، يا رب أعني على هذا الغناء .

عمر بن عبد العزيز قال لمؤدب ولده:

((ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدأها الشيطان، وعاقب عليها الرحمن، فقد بلغني من الثقاة من حملة العلم، أن حضور المعازف، واستماع الأغاني، واللهَجَ بها، ينبت النفاق في القلب، كما ينبت الماء العشب))

وقال الفضيل بن عياض:

((الغناء رقية الزنا))

وقال الضحّاك:

((الغناء مفسدة للقلب، مسخطة للرب))

وقال يزيد بن الوليد:

((يا بني أمية، إياكم والغناء، فإنه يزيد الشهوة، ويهدم المروءة، وإنه لا يذوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السُكر، وقد ذكرت الأصوات بالغناء من عامل وزاهد))

أيها الأخوة، هذه الأدلة من القرآن، والسنّة، وقول السلف الصالح، يكفي للتأكيد على أن أئمة المذاهب الأربعة رحمهم الله تعالى، وقد قالوا: إن اتفاقهم حجة قاطعة، واختلافهم رحمة واسعة، اتفقوا جميعاً على أن الغناء المقرون بالمعازف حرام، وأن الغناء الخالي من المعازف، إذا وصف

النساء والخمور حرام أيضاً، أما صوت المرأة فعورة ولو أذنت، ولو قالت: لا إله إلا الله، فهذا حكم الأئمة الأربعة في الغناء .

أما الأشعار التي لا تُخرِج عن حد الاعتدال في وصف النبي وصحابته، في وصف الكعبة وشرفها، في وصف المقام التي تحض على الجهاد في سبيل الله، هذه الأشعار إن لم تخرج عن حد الاعتدال، فلا بأس بها، كما سمعتم من خبر الإمام أحمد بن حنبل حينما سمِعَ:

إذا ما قال لي ربــي أما استحييت تعصيني

وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتينــي

آخر كلمة: إن الذي يقرأ القرآن، يلقي الله في قلبه من الطرب، ومن السرور، ومن الوجد، ومن الغبطة، ومن الفرح، ما لو اجتمع ذواقو الغناء في العالم، لا يستمتعون بما يحبون من غناء، كما يستمتع قارئ القرآن في القرآن، لذلك قالوا: القرآن غنى لا فقر بعده، ولا غنى قبله، فعليكم بتلاوة القرآن، وليس منا من لم يتغن بالقرآن .

سمع النبي عليه الصلاة والسلام رجلاً يتغنى، فقال:

((ويحك! أبغير كتاب الله تتغنى؟))

هذا الذي يستعذب الغناء، ويستعذب القرآن في أحدهما، هو منافق، وأغلب الظن أنه منافق في استعذاب القرآن، لأن الغناء ينبت النفاق، ولا يجتمع في جوف المؤمن غناء، ولا قرآن، هذا طاهر، هذا كلام رب العالمين، وهذا فيه مفاسد، هذا بعض ما ورد في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي رحمه الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم شرح المقصد الثالث من هذا الحديث :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس السابع من دروس الحديث الشريف، ومن كتاب رياض الصالحين، ومن باب التوبة .

عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قَالَ:

((أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ الْمُرَادِيَّ أَسْأَلُهُ: عَنِ الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّيْنِ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ يَا زِرُّ؟ فَقُلْتُ: ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ، فَقَالَ: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ، فَقُلْتُ: إِنَّهُ حَكَّ فِي صَدْرِي الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَّيْنِ بَعْدَ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ، وَكُنْتَ امْرَأً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَجِئْتُ أَسْأَلُكَ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي ذَلِكَ شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كَانَ يَأْمُرُنَا إِذَا كُنَّا سَفَرًا -أَوْ مُسَافِرِينَ- أَنْ لا نَنْزِعَ خِفَافَنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ وَلَيَالِيهِنَّ إِلا مِنْ جَنَابَةٍ، لَكِنْ مِنْ غَائِطٍ وَبَوْلٍ وَنَوْمٍ، فَقُلْتُ: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي الْهَوَى شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ، إِذْ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٍّ: يَا مُحَمَّدُ! فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ: هَاؤُمُ، فَقُلْنَا لَهُ: وَيْحَكَ! اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ، فَإِنَّكَ عِنْدَ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ نُهِيتَ عَنْ هَذَا، فَقَالَ : وَاللَّهِ لا أَغْضُضُ، قَالَ الأَعْرَابِيُّ: الْمَرْءُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا حَتَّى ذَكَرَ بَابًا مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ، مَسِيرَةُ سَبْعِينَ عَامًا عَرْضُهُ أَوْ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي عَرْضِهِ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ عَامًا، قَالَ سُفْيَانُ: قِبَلَ الشَّامِ خَلَقَهُ اللَّهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مَفْتُوحًا -يَعْنِي لِلتَّوْبَةِ- لا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

في درسين سابقين، تم شرح الفقرتين الأولى والثانية من الحديث الشريف، الفقرة الأولى عن فضل طالب العلم، وكيف أن الملائكة تضع أجنحتها له؟ والفقرة الثانية عن المسح على الخفين، وفي هذا الدرس نكمل شرح الفقرة الثالثة من هذا الحديث بتوفيق الله وعونه .

فقال هذا التابعي زر بن حبيش:

((هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي الْهَوَى شَيْئًا؟ -الهوى مصدر هوي، ومعنى هوي أي أحب، هوي يهوى هوى، أي أحب يحب حباً

- قال: نعم .

-قبل كل شيء، الإنسان له عدة جوانب، له جانب عقلي؛ به يفكر، وبه يحاكم، وبه يقنع، وبه يرفض، وبه يؤمن، وبه لا يؤمن، وله جانب نفسي، بهذا الجانب يحب ويكره، ويعذب ويحتقر، ويميل، ويشمئز، ويرفض، ويخاف، هذا الجانب الآخر هو الجانب العاطفي.

لا تنسوا أيها الأخوة الأكارم، أن المؤمن لا يطير إلى الله إلا بجناحين، جناح العقل وجناح القلب، جناح العلم وجناح الحب، فالإسلام من دون حب جسد بلا روح، والحب من دون عقل خبط عشواء، كمن يخبط خبط عشواء، فلذلك لماذا أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كانوا في القمة، بينما المسلمون في آخر الزمان في الحضيض؟ ربما كانت ثقافة المسلمين اليوم ثقافة واسعة، فلماذا تخلفوا؟ ولماذا انحطوا؟ ولماذا تباعدوا؟ ولماذا تباغضوا؟ ولماذا تنافروا؟ ولماذا تحاسدوا؟ لأنهم قصروا في الجانب الآخر من الإسلام إنه الحب .

ألا لا إيمان لمن لا محبة له، ألا لا إيمان لمن لا محبة له، ألا لا إيمان لمن لا محبة له، عَنْ زُهْرَةَ بْنِ مَعْبَدٍ عَنْ جَدِّهِ قَالَ:

((كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِي اللَّه عَنْه فقالَ: وَاللَّهِ لأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إلا نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ عِنْدَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، قَالَ عُمَرُ: فَلأَنْتَ الآنَ، وَاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الآنَ يَا عُمَرُ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

فلذلك الإسلام من دون حب؛ ثقافة، معلومات، حقائق، تقرأ، تدرس، تحفظ، يؤدى بها امتحان، ينال به الشهادات، يحتل الإنسان مركز مرموق في حقل الدين، أما إذا كان قلبه فارغاً من الحب فهو بعيد عن الرب، فلذلك ما الذي يؤجج الحب؟ الاستقامة على أمر الله، ما الذي يؤججه أيضاً؟ العمل الصالح، ما الذي يؤججه أيضاً؟ خدمة المؤمنين الصادقين، ما الذي يؤججه؟ المؤاثرة، التضحية، الانضباط، البذل، العطاء، فلذلك قال الله عز وجل:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

أتحب أن تلقى الله عز وجل؟ أتحب أن يكون قلبك مهبطاً لتجليات الله عز وجل؟ أتحب أن تشغل به عمن سواه؟ أتحب أن تردد مع من قال:

وليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضابُ

أتحب أن تكون محبوباً من قبل الله عز وجل؟ أتحب أن يحبك الله ورسوله؟ ألا تغار من سيدنا معاذ، حيث قال له رسول الله:

((والله يا معاذ إني لأحبك؟))

هذه مرتبة تتقطع دون بلوغها أعناق الطامحين .

باب اكتساب محبة الله ورسوله مفتوحة على مصراعيها، وطبيعة الإنسان هي هي، وأبواب الخير هي هي، وربنا هو هو، بإمكان كل واحد منا أن يبالغ في تطبيق أوامر الشرع، وأن يبذل شيئاً من وقته، ومن ماله، ومن راحته في سبيل الله، إذا فعل ذلك، وقام ليصلي، شعر أنه محبوب من قبل الله عز وجل، ولعمري ما بعد محبة الله مرتبة، يطمح إليها طامح، أن يكون الله يحبك .

لذلك سيدنا الصديق رضي الله عنه، حينما قال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا أبا بكر، جاءني جبريل، فقال لي: قل لصاحبك: إن الله يقرئه السلام، ويقول له: إن الله راضٍ عنه، فهل هو راضٍ عن الله؟))

هذا هو المقام، ما في الدنيا كله يمضي، أي شيء تأكله، وأي بيت تسكنه، وأي مكان تصله، إنه إلى زوال، ولكن حل الله عز وجل هو الباقي- فلذلك قال زر بن حبيش: هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ فِي الْهَوَى شَيْئًا؟ قَالَ: نَعَمْ، كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَبَيْنَا - يصح أن تقول: فبينا أو فبينما، وكلاهما صحيح، أساسها بين، وهي ظرف، وكل ظرف يحتاج إلى مضافٍ إليه، بين الوقتين، بين الجدارين، بين الرجلين، فإذا قطع هذا الظرف عن الإضافة، أي لم يأت بعده مضاف، أضيفت له ألِف، تقول: بينما أنا في بيتي، ولك أن تقول: بينا، لكن بينما لا بد من أن يأتي بعدها اسم مرفوع، بينما أنا، بينما محمدٌ يصلي، أما إذا قلت: بينا فيجوز أن يأتي بعدها اسم مرفوع، ويجوز أن يأتي بعدها مصدر مضاف إليه، لك الخيار- فيقول هذا التابعي: -هذا الصحابي صفوان بن عسال-: فَبَيْنَا نَحْنُ عِنْدَهُ إِذْ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ - ربنا عز وجل يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

[سورة الحجرات الآية: ٤]

فربنا عز وجل تلطف بهم، لم يقل: إنهم لا يعقلون، بل قال: أكثرهم لا يعقلون، تأدب بأدب القرآن، لا تقل: كل أولئك كانوا جاهلين، قل: بعضهم، دائماً استثن، إياك أن تصدر أحكام مطلقة، هذا عيب في الإنسان، أن يصدر حكماً مطلقاً، قال سبحانه وتعالى:

(وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الشعراء الآية: ٢٢٤-٢٢٧]

استثنى الله عز وجل .

يروى أن شاعراً، دخل على ملك، فلما دخل عليه، قال هذا الشاعر للملك:

((إن، فما كان من هذا الملك، إلا أن قال له: و، فالحاضرون لم يفهموا شيئاً، بعد حين من الزمن قالوا: يا سيدي: ماذا قال هذا الشاعر؟ وماذا قلت له؟ قال الملك: قال لي:

(إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها)

فقلت له :

(والشعراء يتبعهم الغاوون)

كان القرآن محفوظاً عندهم، فيكفي أن تذكر آيةً حتى يتضح المراد، فربنا سبحانه وتعالى تلطف بالأعرابي فقال:

(إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

[سورة الحجرات الآية: ٤]

تلطف بهم، لعل كلاً منهم، يظن نفسه من هذه القلة المستثناة، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: ٢]

هاتان الآيتان كتبتا على الحجرة النبوية الشريفة، والأعرابي اسم منسوب، معنى منسوب، كأن تقول: فلان دمشقي، أي منسوب إلى دمشق، وفلان عربي، وفلان حلبي، فالأعرابي اسم منسوب إلى الأعراب، والأعراب: اسم جمع لا مفرد له، هناك أسماء جمع كثيرة، لِم لَم نقل: عربي؟ لأن عربي قصدنا بذلك، كل من نطق بالضاد، وكل من كان من ولد إسماعيل، ولكن كلمة أعرابي نسبنا إلى سكان البادية، إلى سكان الصحراء، فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((من بدا فقد جفا))

حضور مجالس العلم يهذب الطباع، بينما البعد عن المدن، وعن مجالس العلم، قد يجعل الطبع جافياً، فلذلك هذا الذي يأتي من أطراف المدينة لحضور مجلس العلم، والله الذي لا إله إلا هو أجره أضعاف مضاعفة، من هذا الذي بيته إلى جوار المسجد، فلذلك حضور مجالس العلم يوسع الأفق، ويهذب الطباع، ويعرف الإنسان بكتاب الله، ويعرفه بسنة رسوله، ويعرفه بأولئك الأعلام الأبطال، الذين كانوا مشاعل لأمتهم .

بالمناسبة بعض الأخوة الأكارم، شجعني على أن أُكْثِرَ من بعض الفوائد اللغوية، فها أنا ذا أفعل ذلك، لا يجوز في اللغة العربية أن تنسب إلى الجمع، إذا قلت: هذه مباراة دُولية فهذا خطأ، لأنك نسبت إلى الجمع، يجب أن تقول: هذه مباراة دَولية، وإذا قلت: هذا هو الشاعر القروي، خطأ، لأنك نسبت إلى جمع، يجب أن تقول: الشاعر القروي، هذه قاعدة لا يستثنى منها إلا النسب إلى جمع أصبح علماً، كأن تقول: مدائن، جمع مدينة، فلان مدائني، الأعراب اسم جمع، فلان أعرابي،

فالأعرابي هو الذي يسكن البادية- إِذْ نَادَاهُ أَعْرَابِيٌّ بِصَوْتٍ لَهُ جَهْوَرِيٍّ -والصوت الجهوري ضروري إلا عند النبي عليه الصلاة والسلام .

السيدة عائشة كانت تقول:

((رحم الله عمر، ما رأيت أزهد منه، كان إذا قال أسمع، وإذا أطعم أشبع، وإذا سار أسرع، وإذا أطعم أشبع))

أي أن الصوت الجهوري مطلوب إلا في مجالس النبي عليه الصلاة والسلام، والذين يغضون أصواتهم عند رسول الله هم المؤمنون، يغضون أصواتهم، أما الذين ينادونه من وراء الحجرات، يا محمد، يا محمد اخرجْ إلينا، قال تعالى عنهم:

(أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ)

لذلك قال أحد العلماء لتلميذ له:

((يا بني، نحن إلى أدبك أحوج منك إلى علمك))

علامة الصدق في طلب العلم؛ التأدب في مجالس العلم، فلمجالس العلم حرمة، فالصياح فيها، والضجيج، والجلبة، لا تجوز، عَنْ ابْنِ أَبِي بَكْرَةَ يُحَدِّثُ:

((أَنَّ أَبَا بَكْرَةَ جَاءَ، وَالنَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاكِعٌ، فَسَمِعَ النَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَوْتَ نَعْلِ أَبِي بَكْرَةَ، وَهُوَ يَحْضُرُ، يُرِيدُ أَنْ يُدْرِكَ الرَّكْعَةَ، فَلَمَّا انْصَرَفَ النَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنِ السَّاعِي؟ قَالَ أَبُو بَكْرَةَ: أَنَا، قَالَ: زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلا تَعُدْ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

لا تعد إلى إحداث الضجيج، فلذلك كلما كان الأخوة الأكارم الذين يحضرون مجالس العلم، كلما كانوا في مستوًى أرقى، كان صمتهم وهدوءهم وإنصاتهم أكثر، والنبي عليه الصلاة والسلام يعلمنا أن نتواضع لمن نعلمهم، وجه الخطاب إلى الذين يعلمون قال:

((تواضعوا لمن تعلمون))

ووجه الخطاب إلى الذين يتعلمون فقال:

((تواضعوا للذين تتعلمون منهم))

قال الأعرابي: يَا مُحَمَّدُ! فَأَجَابَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوًا مِنْ صَوْتِهِ: هاؤم .

-سأله مرة أحد الأصحاب:

((هل من أمبر أمصيام في أمسفر؟ فقال عليه الصلاة والسلام مخاطباً هذا السائل بلغته قال: ليس من أمبر أمصيام في أمسفر))

أي هل من البر الصيام في السفر؟ بلهجة من لهجات العرب .

فكان النبي عليه الصلاة والسلام ذكي الفؤاد- فأجابه نحواً من صوته: هاؤم، -كلمة هاؤم اسم فعل، في اللغة: لدينا أسماء، وأفعال، وأسماء أفعال، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ)

[سورة الحاقة الآية: ١٩]

خذوا هذا كتابي، اسم فعل أمر بمعنى خذ، نستعمل نحن أسماء أفعال كثيرة، تقول مثلاً: هيهات، اسم فعل ماض بمعنى بَعُدَ، تقول مثلاً: شتان بين الثَرى والثُريا، أي ما أبعد الثَرى عن الثُريا، اسم فعل ماض، هناك أسماء أفعال مضارعة، تقول مثلاً: آه، أتوجع، كلمة آه: اسم فعل بمعنى أتوجع، كلمة أف اسم فعل بمعنى أتضجر، قال تعالى:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣]

لو أن في اللغة كلمة أقل من أف، لقالها الله عز وجل، كلمة واهاً: بمعنى أتعجب، كلمة آمين في الصلاة: اسم فعل أمر، بمعنى استجب يا رب، كلمة صه: أي اسكت، إذا قلت له: صه، بمعنى اسكت عن هذا الموضوع، كلام في غيبة، قل له: صه، فإذا قلت له: صهٍ، أي اسكت عن أيّ موضوع، اسكت عن كل الموضوعات، اسكت عن الحديث كله، إيهِ: اسم فعل أمر، بمعنى تكلم، أما إيهٍ تكلم في كل موضوع، ونحن جميعاً نستعمل كلمة بس، أي حاجة، هذه لغة فصحة، كلمة بس: اسم فعل أمر بمعنى اكتفي، وكلمة حي على الصلاة: نستخدمها في الصلاة، أي أقبل أيها المسلم على الصلاة، وكلمة هيت: أي أسرع، وكلمة هلمّ: بمعنى تعال، وكلمة أمامك أي تقدم، وكلمة ورائك أي تأخر، وهذه كلها أسماء أفعال .

فالنبي عليه الصلاة والسلام كان أفصح العرب، قال:

((أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش))

هذا الأسلوب، أسلوب تأكيد المدح بما يشبه الذم، تقول: فلان كريم، لكنه شجاع، حينما قلت: لكنه توهمنا أنك سوف تذمه، فهذا أسلوب في تأكيد المدح بما يشبه الذم، كان عليه الصلاة والسلام كان أفصح العرب، قال:

((أنا أفصح العرب بيد أني من قريش))

فهي أفصح قبيلة في العرب، فقد أكد النبي عليه الصلاة والسلام فصاحته بطريقة طريفة- فقلت له: ويحك، -كلمة فيها لوم وتعنيف، وفيها ترحم وتوجع .

رجل سأله النبي عليه الصلاة والسلام:

((متى تتوب؟ قال له: غداً، فقال: ويحك! أو ليس الدهر كله غداً؟))

لذلك هلك المسوفون، قال تعالى:

(وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

[سورة لقمان الآية: ١٩]

المسلم لكثرة قراءة القرآن، تصبح لغته قرآنية، إذا تكلم تكلمَ بالقرآن- قال له: ويحك! اغضض من صوتك، فإنك عند النبي صلى الله عليه وسلم، وقد نهيت عن هذا، -قال تعالى:

(يا أيها الذين آمنوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ)

[سورة الحجرات الآية: ٢]

قال الأعرابي: يا رسول الله، المرء يحب القوم، ولما يلحق بهم، -ما حالته؟ رجل يحب المؤمنين، يحب العلماء الصادقين، يحب أهل الحق، يحب من يحب الله ورسوله، قلبه معلق بهؤلاء، فما مكانته عندك يا رب؟ ما حاله؟ كلمة لما: تفيد نفي الماضي حتى الحاضر، لدينا في اللغة لمْ، ولمّا، ولن، لن مختصة بنفي المستقبل، قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا)

[سورة البقرة الآية: ٢٤]

لمْ مختصة بنفي الماضي، لكن لمّا مختصة بنفي الماضي حتى الزمن الحاضر، تقول: فلان لما يحضر حتى الآن، أي حتى الآن لم يحضر، وهناك احتمال لحضوره- فقال الأعْرَابِيُّ : المَرْءُ يُحِبُّ القَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ، قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ القِيَامَةِ))

هذه نقطة مهمة، عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَتَى قِيَامُ السَّاعَةِ؟ فَقَامَ النَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الصَّلاةِ، فَلَمَّا قَضَى صَلاتَهُ قَالَ: أَيْنَ السَّائِلُ عَنْ قِيَامِ السَّاعَةِ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَعْدَدْتُ لَهَا كَبِيرَ صَلاةٍ، وَلا صَوْمٍ، إِلا أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ، وَأَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ، فَمَا رَأَيْتُ فَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بَعْدَ الإِسْلامِ فَرَحَهُمْ بِهَذَا))

[أخرجه الترمذي في سننه]

لأن فرح الصحابة بهذا الكلام، جعلهم يطمعون أن يكونوا مع سيد الأنام، لأن كل الأعمال الصالحة الأخرى، لا ترقى بصاحبها إلا أن يكون مع من أحب، إلا أن تحب الله ورسوله، وأن تحب أصحابه الكرام، وأن تحب الصالحين في المجتمع أحياءً وأمواتاً .

من هنا استنبط بعض العلماء، وقالوا في مقولتهم المشهورة:

((لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله، ولا يدلك على الله مقاله))

إنك إذا جلست مع المؤمنين، شربت من نفوسهم الطاهرة مشاعر الحب، وإن جلست مع أهل الدنيا، شربت منهم حب الدنيا، فهناك مجالسة في القال، وهناك مجالسة في الحال .

عَنْ حَنْظَلَةَ الْكَاتِبِ التَّمِيمِيِّ الأُسَيِّدِيِّ قَالَ:

((كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَكَرْنَا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ، حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ الْعَيْنِ، فَقُمْتُ إِلَى أَهْلِي، وَوَلَدِي، فَضَحِكْتُ، وَلَعِبْتُ، قَالَ: فَذَكَرْتُ الَّذِي كُنَّا فِيهِ، فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: نَافَقْتُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّا لَنَفْعَلُهُ، فَذَهَبَ حَنْظَلَةُ، فَذَكَرَهُ لِلنَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا حَنْظَلَةُ، لَوْ كُنْتُمْ كَمَا تَكُونُونَ عِنْدِي، لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ، أَوْ عَلَى طُرُقِكُمْ، يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً))

[أخرجه ابن ماجة في سننه]

لذلك سيدنا الصديق رضي الله عنه، كان يمشي في الطريق، فرأى بعض أصحاب النبي، واسمه حنظلة يبكي، قال:

((ما لك يا حنظلة تبكي؟ قال حنظلة: نافقت، قال: ولما يا أخي ؟ قال: نكون مع رسول الله، ونحن والجنة كهاتين، ـ هذا الارتباط برسول الله، المرء مع من أحب، كان أصحاب النبي إذا جلسوا معه، فكأنهم في جنة لا يفارقونه، ما الذي يحصل؟ أن كل التجليات التي يتلقاها قلب النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه الذين أحبوه منها نصيب، فإذا عافسنا الأهل ننسى، وإذا ذهبنا إلى بيوتنا، وتعاملنا مع أهلنا، ومع الناس، إذا ذهبنا إلى أماكن العمل، هذا الحال العالي يذهب عنا ـ فقال الصديق رضي الله عنه: أنا كذلك يا أخي، انطلق بنا إلى رسول الله، فحدثوه بما جرى، فقال لهم: نحن معاشر الأنبياء، تنام أعيننا ولا تنام عقولنا))

إذا أحببت إنساناً غافلاً، عدتك الغفلة، مشاعر الكافر إذا أحببته، تنتقل إليك، لذلك دعا النبي عليه الصلاة والسلام فقال: اللهم لا تجعل لي خيراً على يد كافر أو منافق، ما هذا التوجيه؟ إذا جعلت لي يا رب خيراً على يد كافر أو منافق، فإني سأحبه، وإذا أحببته، انتقلت إلي مشاعره، مشاعر البعد والجفاء، مشاعر الأنانية، مشاعر الكبر، هذه العدوة النفسية لا يعرفها إلا القليل، لذلك عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ:

((الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِطُ، وَقَالَ: مُؤَمَّلٌ مَنْ يُخَالِلُ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

شيء خطير جداً؛ أن تعطي قلبك لبعض الناس، إن أعطيتهم قلبك أفسدوه، أما إذا منحت حبك للمؤمنين؛ أكرموه، وسموا به، فالمرء مع من يحب .

الإمام الشافعي كان متواضعاً جداً، من باب التواضع قال:

أحب الصالحين ولست منهم لعلي أن أنال بهم شفاعة

وأكره مَن بَضَاعته المعاصي ولو كنا سواءً في البضاعة

قالَ النَّبِيُّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

من أجل التأكيد على قيمة القلب، وقيمة أن يكون هذا القلب مفعماً بحب الله، لا بد من أن يكون لك جلسة صباحية، لا بد من ساعة تخلو فيها بربك، قال الله عز وجل في الحديث القدسي:

((أنا جليس من ذكرني، وحيثما التمسني عبدي وجدني))

لا بد من جلسة صباحية، تذكر الله فيها، حيناً من الوقت، وحيناً آخر تفكر في آياته، وحيناً ثالث تتلو كتابه، وتصلي، فإذا كان لك مع الله جلسة، فيها الصلاة الخاشعة، وفيها الذكر الخفي، وفيها التفكر في ملكوت السموات والأرض، وفيها تلاوة القرآن، خرجت إلى عملك، وأنت محصن من ضياع القلب، ومن تبعثر الفؤاد، ومن تشتت الضمير، هذا الذي أنصح به الأخوة المؤمنين، من أجل أن يرعوا قلوبهم، اجلس صبحا، الموارد من الأوراد .

أصغ السمع إلى هذه القصة التي يلقيها أحد تلامذة سعيد بن المسيب، وما قيل عنه :

الآن ننتقل إلى قصة تابعي جليل: هو سعيد بن المسيب، أحد تلامذة التابعي الجليل سعيد بن المسيب، قال:

((كنت أداوم على حلقة سعيد بن المسيب، وأزاحم الناس عليها بالمناكب ، -هنا التزاحم، قال الله عز وجل:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين الآية: ٢٦]

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات الآية: ٦١]

فتغيبت عن حلقة الشيخ أياما فتفقدني، -وتفقد الشيخ لتلامذته من واجبات الشيخ، لعل هذا التلميذ مريض، لعله واقع في مشكلة، فإذا تفقد الشيخ تلامذته جبر خاطرهم- وظن أن بي مرضاً، أو عرض لي عارض، فسأل عني من حوله، فلم يجد عند أحد منهم خبراً، فلما عدت إليه بعد أيام حياني ورحب بي، وقال: أين كنت يا أبا وداعة؟ .

فقلت: توفيت زوجتي، فاشتغلت بأمرها .

فقال: هلا أخبرتنا يا أبا وداعة، فنواسيك، ونشهد جنازتها معك، ونعينك على ما أنت فيه؟ .

فقلت: جزاك الله خيرا، وهممت أن أقوم فاستبقاني، حتى انصرف جميع من كان في المجلس، ثم قال لي: أما فكرت في استحداث زوجة لك يا أبا وداعة؟ .

فقلت: يرحمك الله! ومن يزوجني ابنته، وأنا شاب نشأ يتيماً، وعاش فقيراً؟ فأنا لا أملك غير درهمين أو ثلاثة .

فقال سعيد بن المسيب: أنا أزوجك ابنتي، فانعقد لساني، وقلت: أنت؟ .

قال: نعم .

قلت: أتزوجني ابنتك بعد أن عرفت من أمري ما عرفت؟ .

فقال : نعم، ثم التفت إلي، والتفت إلى من كان قريب منا وناداهم، فلما أقبلوا عليه، وصاروا عنده، حمد الله عز وجل، وأثنى عليه، وصلى على نبيه محمد صلوات الله عليه، وعقد لي على ابنته، وجعل مهرها درهمين اثنين، -حسب ما تكلم، وفي الحديث: عَنْ عَائِشَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً، أَيْسَرُهُنَّ مؤنَةً))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

وفي رواية أخرى:

((أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أقلهن مهراً))

فقمت، وأنا لا أدري ما أقول من الدهشة والفرح، ثم قصدت بيتي، وكنت يومئذ صائماً، من شدة الفرح، نسيت صومي، وجعلت أقول: ويحك يا أبا وداعة، ما الذي صنعت بنفسك؟ ممن تستدين؟ ممن تطلب المال؟ وظللت على حالي هذه، حتى أذّن المغرب، فأديت المكتوبة، وجلست إلى فطوري، وكان خبزاً وزيتاً، فما أن تناولت منه لقمة أو لقمتين، حتى سمعت الباب يقرع، فقلت: من الطارق؟ .

قال: سعيد .

قال: فو الله، لقد مرّ بخاطري كل إنسان اسمه سعيد أعرفه، إلا سعيد بن المسيب ما خطر في بالي، ذلك لأنه لم يُر منذ أربعين سنة، إلا بين بيته والمسجد، ففتحت الباب، فإذا بي أمام سعيد بن المسيب فدهشت! فظننت أنه قد بدا له أمر في شأن زواجي، وقلت له : يا أبا محمد، هلا أرسلت إلي فآتيك أنا .

فقال: بل أنت أحق بأن آتي إليك اليوم .

فقلت: تفضل .

فقال: كلا، إنما جئت لأمر .

فقلت: ما هو يرحمك الله؟ .

قال: إن ابنتي أصبحت زوجة لك، بشرع الله منذ الغداة، وأنا أعلم أنه ليس معك أحد يؤنس وحشتك، فكرهت أن تبيت أنت في مكان، وزوجتك في مكان آخر، فجئتك بها، -هؤلاء أولياء الأمور، الذين يفسدون العلاقة بين الأزواج، يأخذون ابنتهم ليغيظوا زوجها، هؤلاء يجب أن يعرفوا أنه هذه هي السنّة.

فقلت: ويحي! جئتني بها؟ .

فقال: نعم، فنظرت فإذا هي قائمة بطولي .

فالتفت إليها، وقال: ادخلي إلى بيت زوجك يا ابنتي، على اسم الله وبركته، فلما أرادت أن تخطو، تعثرت بملاءتها من الحياء، -وأجمل ما في المرأة حياؤها، فإذا ذهب حياؤها، ذهبت أنوثتها، من علامات قيام الساعة: أن يرفع الحياء من وجوه النساء، وترفع النخوة من رؤوس الرجال، وتنزع الرحمة من قلوب الأمراء- .

قال: أما أنا، فقد وقفت أمامها مشدوهاً، لا أدري ما أقول، ثم أني بادرت، فسبقتها إلى القصعة، التي فيها الخبز والزيت، فنحيتها من ضوء السراج، حتى لا تراها، ثم صعدت إلى السطح، وناديت الجيران، فأقبلوا علي، وقالوا: ما شأنك؟ .

فقلت: عقد لي سعيد بن المسيب على ابنته اليوم في المسجد، وقد جاءني الآن بها على غفلة، فتعالوا آنسوها، حتى أدعو أمي، فهي بعيدة عني .

فقالت عجوز منهن: ويحك! أتدري ما تقول؟ أزوجك سعيد بن المسيب ابنته، وحملها لك إلى البيت بنفسه، وهو الذي ضن بها على الوليد بن عبد الملك؟ .

فقلت: نعم، وها هي ذي عندي في بيتي، فهلموا إليها، وانظروها، فتوجه الجيران إلى البيت، وهم لا يكادون يصدقون، ورحبوا بها، وآنسوا وحشتها، وما هو إلا قليل، حتى جاءت أمي، فلما رأتها، التفت إلي، وقالت: وجهي من وجهك حرام، إن لن تتركها لي، حتى أصلح لها شأنها، ثم أزفها إليك، كما تزف كرائم النساء .

فقلت: أنت وما تريدين، فضمتها إليها ثلاثة أيام، ثم زفتها إلي، فإذا هي من أبهى نساء المدينة، وأحفظ الناس لكتاب الله عز وجل، وأرواهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعرف النساء بحقوق الزوج، فمكثت معها أياماً، لا يزورني أبوها، أو أحد من أهلها، ثم إني أتيت حلقة الشيخ في المسجد، فسلمت عليه، فرد علي السلام، ولم يكلمني، فلما انفض المجلس ، ولم يبق غيري، قال: ما حال زوجتك يا أبا وداعة؟ .

فقلت: هي على ما يحب الصديق، ويكره العدو .

فقال: الحمد لله، فلما عدت إلى بيتي، وجدته قد وجه إلينا مبلغاً وفيراً من المال، لنستعين به على حياتنا))

طبعاً هذا يحدث هذه القصة لعبد الملك بن مروان، وقد أتى المدينة، فقال بن عبد الملك:

((عجيب أمر هذا الرجل! .
فقال له رجل من أهل المدينة: وما وجه العجب فيه أيها الأمير؟ .
فقال: إنه امرؤ جعل دنياه مطية لأخراه، واشترى لنفسه ولأهله الباقية بالفانية، فو الله إنه ما ضن على ابن أمير المؤمنين بابنته، ولا رآه غير كفء لها، وإنما خاف عليها فتنة الدنيا .
ولقد سأله بعض أصحابه فقال: أترد خطبة أمير المؤمنين؟ أترفض أن تزوجه ابنتك، وتزوج ابنتك من رجل من عامة المسلمين؟ .
فقال: إن ابنتي أمانة في عنقي، وقد تحريت فيما صنعت صلاح أمرها .
قيل: كيف؟ .
قال: ما ظنكم بها، إذا انتقلت إلى قصور بني أمية، وتقلبت بين رياشها، وأثاثها، وقام الخدم، والحشم، والجواري بين يديها، وعن يمينها، وعن شمالها، ثم وجدت نفسها بعد ذلك زوجة للخليفة، أين يصبح دينها يومئذ؟ .
فقال رجل من أهل الشام: يبدو أن صاحبكم طراز فريد من الناس .
فقال رجل آخر: والله ما عدوت الحق أبداً، فسعيد بن المسيب صوام في النهار، قوام في الليل، حج نحو أربعين حجة، وما فاتته التكبيرة الأولى في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أربعين عاماً، ولا عرف عنه أنه نظر إلى قفا رجل في الصلاة، أي كان يصلي في الصف الأول دائماً، وقد كان في وسعه أن يتزوج بمن يشاء من نساء قريش، فآثر بنت أبي هريرة رضي الله عنه على سائر النساء، وذلك لمنزلته من رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وسعة روايته في حديثه، وشدة رغبته في الأخذ عنه، ولقد نذر نفسه للعلم منذ نعومة أظفاره، فأخذ عن أزواج النبي عليه الصلاة والسلام الشيء الكثير، قال تعالى:

(وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ)

[سورة الأحزاب الآية: ٥٣]

وتتلمذ على يدي زيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وسمع من عثمان، وعليٍّ، وصهيب، وغيرهم من صحابة النبي الكريم، وتخلق بأخلاقهم، وتحلى بشمائلهم ، ولقد كانت له كلمة، يرددها على الدوام، حتى غدت وكأنها شعار له، وهي قوله: ما أعزت العباد نفسها بمثل طاعة الله، ولا أذلت نفسها بمثل معصيته))

أيها الأخوة الأكارم، هذا نموذج من السلف الصالح، من التابعين الأجلاء، الذين عرفوا قيمة أنفسهم، وعرفوا ربهم، وعرفوا كيف يحيون سعداء، ويموتون شهداء، وعرفوا أن الدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، وأن الدنيا هي ساعة جعلوها طاعة، والنفس طماعة عودوها القناعة .

من آفات اللسان كما وردت في كتاب الإحياء :

أيها الأخوة، بقي علينا شيء من إحياء علوم الدين، وهو الحديث عن الآفة العاشرة من آفات اللسان، وهي المزاح، والمزاح المنهي عنه، والمذموم منه، هو المداومة عليه .

فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يمزح، ولكن النهي عن المزاح، هو النهي عن المداومة عليه، والاستمرار فيه، والإفراط فيه، فأما المداومة، فلأنه اشتغال باللعب والهزل، وأما الإفراط فيه، فإنه يورث كثرة الضحك والضغينة في بعض الأحوال، ويسقط المهابة والوقار، وأما ما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم، لما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام، أنه قال:

((إني لأمزح، ولا أقول إلا حقاً))

فالمزاح مقبول .

والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا دخل بيته، دخله بساماً ضحاكاً، كان يداعب أطفاله، كان الحسن والحسين يركبان على ظهره، ويقول لهما:

((نعم الجمل جملكما، ونعم الحملان أنتما))

إلا أن مثل النبي الصلاة والسلام، يقدر على أن يمزح، وألاّ يقول إلا حقاً، وأما غيره إذا فتح باب المزاح، كان غرضه أن يضحك الناس كيف ما كان؟ لذلك قال عمر:

((من مزح استُخِفَ به))

ومن الشيء العظيم، أن يتخذ المزاح حرفة، يواظب عليها المرء، ويفرط فيه، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يمزح لكن قليلاً، من حين لآخر .

فقد جاءته امرأة فقالت:

((يا رسول الله، احملني على بعير، فقال: بل على ابن البعير، قالت: ما أصنع به، إنه لا يحملني، فقال عليه الصلاة والسلام: ما من بعير إلا وهو ابن بعير))

وعن أنس قال:

((كان لأبي طلحة ابن، يقال له: أبو عمير، وكان النبي يأتيهم، ويقول: يا أبا عمير، ما فعل النغير؟))

وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا، أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، قَالَتْ:

((فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلَيَّ، فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي، فَقَالَ: هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ:

((قَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ، وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ جَالِسًا، فَقَالَ الأَقْرَعُ: إِنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الْوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أَحَدًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ: مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

إذاً: من صفات النبي عليه الصلاة والسلام أنه كان يمزح، لكن كان مقِلاً في المزاح، وكان مزاحه حقاً، لا يؤذي، ولا يجرح، ولا يخجل، ولا يربك، ولا يحمر الوجوه، وكان بهذا المزاح يتألف قلوب أصحابه، ويتودد إليهم، ويخفف عنهم وطأة الدرس أحياناً، إلا أن يكون المزاح كثيراً، فهذا قد نهى النبي عليه الصلاة والسلام عنه، ومن كثر مزاحه استخف به .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٠٧-١٠١) : باب الصبر -١

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-٠٣-١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم البيان في كلمة الطهور من حيث المصطلحات اللغوية والشرعية :

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس الثامن من دروس الحديث النبوي الشريف، ومن كتاب رياض الصالحين، ومن باب الصبر .

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

هذا هو حديث اليوم: الطُهُور، وهناك فرق بين الطُهُور وبين الطَهُور، كما أن هناك فرقاً بين الغِش والغُش، والشِق والشَق، والسِترِ والسَترِ، فالطُهُور مصدر، والطَهور هو الماء الذي نتوضأ به، المصدر يدل على حدوث عمل، بينما الاسم يدل على شيء، فالستار الذي ترخيه على النافذة اسمه: سِتْر، لكن عملية إرخاء الستار اسمها: سَتْر، عملية تمزيق الورقة اسمها: شَق، أما هذا الخط الذي في الورقة اسمه: شِقْ، عملية الاستيقاظ بعد منتصف الليل لتناول الطعام، هو طعام سَحُور، أما الاستيقاظ في هذا الوقت اسمه: سُحُور، فهناك حركات دقيقة في الكلمات تغير بنيتها، من مصدرٍ إلى اسم، على كلٍ الطُهور .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ))

ومعنى شطر: أي نصف، لكن لا يذهبن بكم الظن إلى أن: الطُهُور هو نظافة البدن.

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في إحياء علوم الدين، عقد بحثاً دقيقاً حول الطهور، فقال: الطهور أربعة أنواع؛ طهارة البدن من الحدث والخبث، وطهارة الجوارح من المعاصي والآثام ، وطهارة النفس من الصفات المذمومة، وطهارة القلب مما سوى الله .

فالقلب له طهارته، طهارة القلب ألا يكون فيه إلا الله،

((عبدي طهرت منظر الخلق سنين، أفلا طهرت منظري ساعة؟))

القلب بيت الرب، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوف، وحينما قال الله عز وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ١-٣]

فسر العلماء أن اللغو: هو كل ما سوى الله سبحانه وتعالى، لذلك القلب لا يطهر إلا إذا أخرجت منه ما سوى الله، طهارة القلب ألا يكون فيه إلا محبة الله عز وجل، وطهارة النفس أن تبتعد عن الصفات المذمومة؛ من البخل، والحسد، والحقد، والضغينة، والكبر، والأثرة، هذه الصفات الدنيئة التي تحطم أو تنقص من قدر النفس، طهارة النفس أن تكون بعيدة عن هذه الصفات المذمومة .

وأما طهارة الجوارح، فهذه العين طهارتها ألا تنظر إلا ما حرم الله أن يُنظر إليه، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

[سورة النور الآية: ٣٠]

عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((عَيْنَانِ لا تَمَسُّهُمَا النَّارُ؛ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

فطهارة العين ألا تنظر إلى ما حرم الله النظر إليه، والعلماء قالوا: ما حرُم فعله حرُم استماعه، وما حرُم استماعه حرُم النظر إليه، طهارة الأذن ألا تستمع بها ما حرم الله أن تستمع إليه، طهارة اللسان ألا ينطق بالغيبة، ولا بالنميمة، ولا بالكذب، ولا بالفحش، ولا بالمزاح الرخيص، ولا باللعن، ولا بالإيقاع بين الناس .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

طهارة اليد ألا تأخذ بها ما ليس لك، وألا تفعل بها إثماً، وألا تأذي بها مخلوقاً، فاليد لها طهارة، والعين لها طهارة، والأذن لها طهارة، واللسان له طهارة، والرجل لها طهارة، ألا تحركها إلا إلى طاعة الله، تمشي بها إلى المسجد، تمشي بها إلى مكان شريف، إلى إصلاح ذات البين، إلى صلة الرحم، إلى التوفيق بين شريكين، إلى عملك الذي تكسب منه رزقك، فلذلك الإمام الغزالي رحمه الله عنه قسّم الطهارة إلى أربعة أنواع: طهارة القلب ألا يكون فيه سوى الله، صدق القائل:

وما مقصودهم جنات عدن ولا الحور الحسان ولا الخيام

سوى نظر الحبيب كذا منا هم وهذا مطلب القوم الكرام

وطهارة النفس ألا تكون متلبثة بالصفات المذمومة، وهذه الصفات المذمومة لا تبرأ النفس منها إلا باتصالها بخالقها، جوهر الدين اتصالٌ بالخالق، وانضباط بالسلوك، وإحسان إلى المخلوق: سعادة،

والبعد عن الدين: انقطاع عن الخالق، تفلت من القواعد الشرعية، إساءة للآخرين: شقاوة، هذه كلمات ثمانية، فيها ملخص كل شيء .

إن كان لك صلة بالله، من لوازم هذه الصلة: الانضباط في التعامل مع الآخرين؛ هذا يجوز، وهذا لا يجوز، هذا حرام، وهذا حلال، من لوازم الانضباط: الإحسان، من نتائج الإحسان: السعادة في الدنيا والآخرة، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

[سورة الانفطار الآية: ١٣-١٤]

المقطوع عن الله عز وجل من خصائصه: أنه متفلت لا يضبطه شيء، يقول ما يشتهي ، يأخذ ما ليس له، يقتحم ما ليس في ملكه، يعتدي على أعراض الناس، متفلت، ومسيء، وشقي، لهذا عَنِ ابْنِ عُمَرَ:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ، وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلَانِ؛ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

وأما طهارة البدن، فالإسلام نظيف، والنظافة من الإيمان، وكان عليه الصلاة والسلام يُعرف من مظهره، قال عليه الصلاة والسلام:

((أصلحوا رحالكم، وحسنوا لباسكم، حتى تكونوا شامة بين الناس))

كان عليه الصلاة والسلام يعرف بريح المسك، وكان عليه الصلاة والسلام له ثياب جديدة، يرتديها إذا جاءته الوفود، وأيام الأعياد والجمع، وكان يأمر عليّة أصحابه بذلك، فالإسلام نظيف.

إذاً: (الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ): فالإيمان فيه عمليتان؛ عملية التخلية، وعملية التحلية، فالتخلية التنظيف، تنظيف القلب، تنظيف النفس، تنظيف الجوارح، تنظيف البدن .

يقول لك: فرشنا البيت، أول عملية تنظيف البيت، ثم يأتي وضع الأساس فيه، فكأن الإيمان شطران؛ شطر فيه طهارة بكل أنواعها ومستوياتها، وشطر فيه تحلية بالكمالات الإنسانية، فالمؤمن لا يكذب، وهو صادق، لا يخون، وهو وفي، لا يفعل سوءاً بل هو يحسن، من هنا العلماء ميزوا بين الفطرة وبين الصبغة .

الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ: أي الطهارة؛ من طهر نفسه، وقلبه، وبدنه، وجوارحه، فقد قطع نصف الطريق، النصف الآخر بإقباله على الله، واتصاله به، وبإتقان صلواته الخمس، قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت الآية: ٤٥]

فالتخلية أولاً، والتحلية ثانياً، الطهارة أولاً، واصطباغ النفس بصبغة الله ثانياً، تحقيق الفطرة أولاً، وتحقيق الصبغة ثانياً .

ماذا تعني كلمة الحمد لله ؟

وَالحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ المِيزَانَ: لو أمضيت كل حياتك في معرفة الله، في نهاية النهاية تصل إلى هذه الكلمة: الحمد لله، لأنك ترى إذا دققت، وإذا تأملت، وإذا كشف الله عن بصيرتك، ترى أن كل شيء وقع في الكون يحمد الله عليه، قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة آل عمران الآية: ٢٦]

أفعاله سبحانه وتعالى كلها متعلقة بحكمته، وحكمته متعلقة بالخير المطلق، فالذي وقع محض خير، قد يبدو لنا خيراً، وقد يبدو للناس شيئاً آخر، لكنه في حقيقته خير، فلذلك منتهى العلم أن تقول: الحمد لله رب العالمين، قال تعالى:

(وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة يونس الآية: ١٠]

فعلامة معرفة الله: أنك تحمده على كل حال، فإذا انتقدت تصرفات الله عز وجل، وإذا نسبت الظلم إلى الله، وإذا نسبت العجز إليه، وإذا قلت كلمات يقولها العامّة، فهذا يعني أنك لا تعرفه، إذا نسبت إليه الظلم، فأنت لا تعرفه، وإذا نفيت عن أفعاله الرحمة، فأنت لا تعرفه، وإذا نفيت عن أفعاله الحكمة، فأنت لا تعرفه، وإذا نفيت عنه العدل، فأنت لا تعرفه، لذلك إذا عرفته حق المعرفة، من لوازم معرفته؛ أنك تحمده، لذلك أول كلمة في الفاتحة:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الفاتحة الآية: ٢]

فهذه الكلمات يقولها المسلمون في صلواتهم، ولكن لو عرفوا قيمتها، ما تسرب إلى قلوبهم الألم والحزن أبداً، يتألمون من أنفسهم، ولكن لا يتألمون من قضاء الله وقدره، إن قضاء الله وقدره كله خير، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((الإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

والإيمان بالقضاء والقدر نظام التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، هذا مقياس دقيق جداً: إذا كنت تحمد الله على كل شيء، فقد عرفته، وإن كان هناك نقص، أو شك، أو حيرة، أو ريب في تصرفاته، وصفاته، وأسمائه، فهناك نقص كبير في المعرفة، لذلك الحمد لله إن كانت صادقة، إن

صدرت عن قلب موقن بها، فهذا القلب قطعاً يعرف الله سبحانه وتعالى، لذلك كلمة الحمد لله، إذا كانت صادقة من فم قائلها، تملأ الميزان، أي عرفت كل شيء .

أحياناً يعطى الطالب مسألة رياضيات معقدة جداً، فالمدرس لديه الجواب، فالطالب يطلعه على أول صفحة، الثانية، الثالثة، الرابعة، الخامسة، يقلب الصفحات المدرس، آخر صفحة الجواب كم؟ فإذا جاء الجواب مطابقاً لما عند المعلم، فالحل صحيح، جواب كلمة، لكن هذه الكلمة إلى أن توصل إليها هذا الطالب، أولاً: على مستوى في الرياضيات رفيع، ثانياً: متقن لهذه المادة، ثالثاً: متمرن عليها جداً، رابعاً: يملك فكر رياضي، خامساً: يملك ذاكرة جيدة، سادساً: مهيِّئ نفسه، سابعاً: إلى أن كتب هذا الحل في صفحات عشر، نهاية النهاية قال: ثلاثمائة وسبع وثمانون، قلت: صح عملك .

فكلمة الحمد لله، تعني أن كل إيمانك جيد، ما دمت تقول: الحمد لله في السراء والضراء، فأنت مؤمن ورب الكعبة، عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَجَبًا لأمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لأحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

هي كلمة، لكن هذه الكلمة تعني أشياء كثيرة، كما قلت قبل قليل: كل الدراسة السابقة، وكل الجهد الكبير، وكل المتابعة، والمذاكرة، والكتابة، والتدريب، والتمرين، والتدريس، والملخصات، وتأدية الامتحان على هذا الرقم، ما دام هذا الرقم، جاء مطابقاً لما عند المدرس، فحله صحيح، ومستواه جيد، وقد نجح .

طبعاً في كلمات، أحياناً: كلمة صغيرة تنبئ عن أشياء كثيرة، لو أنك اطلعت على كتاب عن دمشق، حوالي ألف صفحة، ورق من أرقى أنواع الورق، تجليد من الدرجة الأولى، خرائط، بيانات، إحصاءات، مراجع، مصادر، فهارس، مقدمات، تعليقات، أبواب فصول، أنت أُخذت من هذا الكتاب، إذا قرأت في هذا الكتاب كلمة من ثلاثة حروف أو عشرة حروف، تقع دمشق على ساحل البحر المتوسط، هذه ليس غلطة، هذه غلطة بكفرة، هذه معناها أن المؤلف لا يعرف الشام إطلاقاً، هذا الذي كتبه نقله عن الآخرين، أما هو ما عرف الشام إطلاقاً، والدليل هذه الكلمة .

فإذا رجل مثلاً سبّ الدين، كلمة كان غضبان، لا يعرف الله إطلاقاً، كان عليه الصلاة والسلام فيما تروي السيدة عائشة:

((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه))

لو يعلم المصلي من يناجي ما فُتِن، وما التفت إلى شيء آخر، فكلمة الحمد لله تعني شيئاً كثيراً، تعني أنك تعرف الله، جهد كبير بذلته في تفكرك في مخلوقات الله، دروس كثيرة حضرتها، جهود كبيرة قدمتها، جهاد كبير بذلته، أوقات كثيرة صرفتها في معرفة الله، في النهاية تقول: الحمد لله رب

العالمين.

فهذا الذي يقف في صلاته ويقول: الحمد لله رب العالمين، وفي نفسه اعتراض على بعض تصرفات الله عز وجل، فهو لم يقل الحمد لله رب العالمين، ولو قالها بلسانه ألف مرة، ما دام هناك شك ببعض أسمائه، إن لم ترى في أفعال الله الحكمة التي ما بعدها حكمة، والرحمة التي ما بعدها رحمة، والحلم الذي ما بعده حلم، والعدالة التي ما بعدها عدالة، فأنت لا تعرفه .

كيف يقول عليه الصلاة والسلام: (وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ؟) هذه كلمة، لكن مدلولها كبير جداً، مدلولها أن هذا المؤمن، قد عرف الله عز وجل، ونهاية المعرفة قوله: الحمد لله رب العالمين .

لذلك أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، يقولون كلمة واحدة هي ملخص معرفتهم بالله عز وجل، قال تعالى:

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة يونس الآية: ١٠]

فعندما يصلي الإنسان، يجب أن يكون هناك انسجام بينما يتلوه في صلاته، وبين أحواله القلبية، هل هو يحمد الله؟ هل هو مستسلم له؟ هل هو راض بقضائه وقدره؟ هل أنت راض عنه فيما أعطاك؟ .
الإمام الشافعي رضي الله عنه، كان يطوف حول البيت، فسمع أعرابياً يناجي ربه، ويقول:

((يا رب، هل أنت راض عني؟ -فأراد الإمام الشافعي أن يلفت نظره- قال: يا هذا، هل أنت راض عن الله حتى يرضى عنك؟ قال: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: أنا الشافعي، قال: وكيف أرضى عنه، وأنا أتمنى رضاه؟ فقال الإمام الشافعي: إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة، فقد رضيت عنه، وإذا رضيت عن الله رضي عنك))

ماذا تعني كلمة سبحان الله ؟

قوله:

((سُبْحَانَ اللَّهِ))

هذه سبحان: اسم مصدر، سبّح يسبح تسبيحاً، تسبيحاً مصدر، أما سبحان: اسم مصدر، كأن تقول: سلّم، يسلم تسليماً: مصدر، أما سلّم، يسلم سلاماً: هذه اسم مصدر، وأحياناً ينوب اسم المصدر عن فعله، فسبحان: أي أسبح الله، ومعنى أسبح الله: تعني أنزه ذاته عن كل نقص، وأنزه أفعاله ، وأنزه صفاته، عن كل نقص، وعن كل مشابهة، ليس كمثله شيء، ومن معاني التسبيح أيضاً: التنزيه والتمجيد، فربما كانت نفسك مفعمة بتسبيح الله وبتمجيده، فكلمة سبحان الله: تعبر عن كل ما في

نفسك، لكن الناس في هذه الأيام، قد يستخدمون هذه الألفاظ القدسية في خصوماتهم، إذا قال رجل: سبحان الله، وكأنه يعجب من هذا التصرف، لكن هذه الكلمة لها معنى كبير جداً .

(وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآَنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ):

أول استنباط: سبحان الله! أينما ذهبت بها فهي رائجة، إذا ذهبت بها إلى عالم النبات، كل النبات يسبح بحمد الله، يسبح الله، ينزهه ويمجده، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)

[سورة الإسراء الآية: ٤٤]

بعض الأفكار في بلد معين، لو خرجت بها إلى خارج الحدود تكون مرفوضة، في هذا المكان مقبولة هذه الأفكار، خارج هذا البلد غير مقبولة، لكن سبحان الله أينما ذهبت بها، لأنه ليس في الكون إلا الله، وليس في الكون إلا خلق الله، وليس في الكون إلا آيات دالة على عظمة الله، والكون كله تجسيد لأسماء الله الحسنى، فسبحان الله من معانيها: أنه لا إله إلا الله، أينما ذهبت بهذه الكلمة، فهي رائجة، وصحيحة، ومقبولة، ومقدسة .

سبحان الله: هذا معنى أنه تملأ ما بين السموات والأرض، لأن كل ما في السموات والأرض من خلق الله، كل ما في السموات والأرض ينطق بحمد الله، ينطق بعظمة الله، ينطق برحمة الله، ينطق بحكمة الله، ينطق بقوة الله، ينطق بلطف الله، إذاً: معنى تملأ ما بين السموات والأرض: أي لا إله إلا الله، هذا هو المعنى الأول .

هذا الحديث حديث غني، كل كلمة فيه تحتاج إلى درس خاص، فأنهينا في هذا الدرس قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآَنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ))

ضيفنا في هذه الحلقة هو :

الآن إلى قصة عن تابعي كما هي الخطة التي درجنا عليها في دروس سابقة .

عمر بن عبد العزيز، هذا الرجل معدود عند أهل العلم من العلماء العاملين، وهو خامس الخلفاء الراشدين، والحديث عن هذا الخليفة العَبّاد، أي كثير العبادة، خامس الخلفاء الراشدين، حديث أطيب من نشر المسك، وفي الأثر:

((عند ذكر الصالحين تتنزل الرحمة))

كل رجل منا، يعوّد نفسه إذا جلس مع أخوانه، مع أهله، مع أصحابه، لا يتحدث عن غير الصالحين، لأنهم يعكرون المجالس، الحديث عن الطالحين يعكر المجالس، والحديث عن الصالحين

يعطر المجالس، فكم من سهرة أمضاها أصحابها في الحديث عن الصالحين، فكانت قطعة من الجنة، لذلك عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ، لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ، إلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

[أخرجه أبو داود في سننه]

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ١-٣]

اللغو: كل ما سوى الله، أي موضوع تبحثه، وأي موضوع تطرحه، في سهرة، في نزهة، في جلسة، في ندوة، في أي مكان، إذا كان الموضوع دنيوي، يقوم الناس عن هذه الجلسة منقبضين متشائمين، كأن كابوساً جاثماً على صدورهم، كأن جبلاً كاد يقع عليهم، فإذا ذكرت الصالحين تعطرت المجالس، وتفاءل الإنسان، ووثق بأخيه الإنسان، ورأى الواحد الديّان، بيده كل شيء .

فالحديث عن هذا الخليفة العبّاد الزهّاد، خامس الخلفاء الراشدين، حديث أطيب من نشر المسك، وأزهى من قطع الروض، وسيرته الفذّة الغراء واحة معطار، أي كثيرة العطر، على وزن مِفعال، مصدار مكثار، واحة معطار، أينما حللت منها، ألقيت نفساً طرياً، وزهراً بهياً، وثمراً جنياً .

من الصور التي سجلها التاريخ لعمر بن عبد العزيز كما يرويها أصحابها

١- ما رواه سلمة بن دينار :

هناك ثلاث صور ننتزعها من حياة هذا الخليفة العظيم:

أول هذه الصور؛ رواها لنا سلمة بن دينار، عالم المدينة، وقاضيها، وشيخها أبو حاتم، والعهد به قريب، فقال:

((قدمت على خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز، وهو ببلدة من أعمال حلب، وكانت قد تقدمت بي السن، وبعد بيني وبين لقائه العهد، فوجدته في صدر البيت ، غير أني لم أعرفه، لتغير حاله عما عهدته عليه، يوم كان والياً على المدينة، فرحبّ بي، وقال: ادن مني يا أبا حازم .

-هذا الخليفة العظيم من خصائصه: أنه قرّب العلماء، وأبعد الشعراء، بل إنه عيّن عالماً جليلاً مستشاراً، ومرافقاً له، وكانت وظيفة هذا العالم كما قال له الخليفة سيدنا عمر:

((كن معي، وانظر في أحكامي، فإن رأيتني ضللت، فأمسكني من تلابيبي، وهزّني هزاً شديداً، وقل لي: اتق الله يا عمر، فإنك ستموت))

هذه وظيفتك- .

فلما دنوت منه قلت: ألست أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز؟ .

فقال: بلا .

فقلت: ما الذي حلّ بك؟ ألم يكن وجهك بهياً، وإهابك طرياً؟ .

فقال: بلا .

فقلت: ما الذي غير ما بك، بعد أن غدوت، تملك الأصفر والأبيض، -الأصفر هو الذهب، والأبيض هو

الفضة- وأصبحت أمير المؤمنين؟ .

فقال: وما الذي تغيّر بي يا أبا حازم؟ .

فقلت: جسمك الذي نحل، وجلدك الذي اخشوشن، ووجهك الذي اصفر، وعيناك اللتان خابتا، فبكى.

فقال: يا أبا حازم، فكيف لو رأيتني في قبري بعد ثلاث، وقد سالت حدقتاي على وجنتي، وتفسّخ بطني وتشقق، وانطلق الدود يرتع في بدني، إنك لو رأيتني آنذاك يا أبا حازم، لكنت أشد إنكاراً لي من إنكارك هذا؟ .

- يقال: إن سيدنا عمر بن عبد العزيز ما دخل إلى مجلس الخلافة إلا تلا هذه الآية:

(أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ)

[سورة الشعراء الآية: ٢٠٥-٢٠٧]

ثم رفع بصره إلي وقال: ألا تذكر حديثاً كنت حدثتني به في المدينة يا أبا حازم؟.

فقلت: لقد حدثتك بأحاديث كثيرة يا أمير المؤمنين، فأيها تقصد؟ .

فقال: إنه حديث رواه أبو هريرة .

فقلت: نعم، أذكره يا أمير المؤمنين .

فقال: أعده علي، فإني أريد أن أسمعه منك .

فقلت: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((إن بين أيديكم عقبة كؤوداً ضروساً، لن يجوزها إلا كل ضامر مهزول))

-هذا يذكرنا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضاً:

((يا أبا ذر، جدد السفينة، فإن البحر عميق، وخفف الأثقال، فإن في الطريق عقبة كؤود، لا يجتازها إلا المخفون، وأخلص النية، فإن الناقد بصير، وأكثر الزاد، فإن السفر بعيد))

فبكى عمر بكاء شديداً، خشيت معه أن تنشق مرارته، ثم كفكف دموعه، والتفت إلي وقال: فهل تلومني يا أبا حازم، إذا أنا أهزلت نفسي بتلك العقبة، رجاء أن أنجو منها، وما أظنني بناج؟))

٢- ما رواه الطبري عن الطفيلي بن مرداس

وأما الصورة الثانية من صور حياة عمر، فيرويها لنا الطبري، عن الطفيلي بن مرداس فيقول:

((إن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، حين ولي الخلافة، كتب إلى سليمان كتاباً قال فيه: اتخذ في بلادك فنادق لاستضافة المسلمين، فإذا مرّ بها أحد منهم، فاستضيفوه يوماً وليلة، وأصلحوا شأنه، وتهدوا دواها، فإذا كان يشكو نصباً، فاستضيفوه يومين وليلتين، وواسوه، فإذا كان منقطعاً؛ لا مؤونة عنده، ولا زاد، فأعطوه ما يسد حاجته، وأوصلوه إلى بلده ، فطبع الوالي بأمر أمير المؤمنين، وأقام الفنادق التي أمره بإعدادها، فسرت أخبارها في كل مكان، وطفق الناس في مشارق البلاد الإسلامية ومغاربها، يتحدثون عنه، ويشيدون بعدل الخليفة وتقواه، فما كان من وجوه أهل سمرقند، -وهي مدينة هي الآن في الاتحاد السوفييتي- إلا أن وفدوا على واليها سليمان، وقالوا:

إن سلفك الوالي الذي قبلك، قتيبة بن مسلم الباهلي، قد دهم بلادنا من غير إنذار، ولم يسلك في حربنا ما تسلكوه معشر المسلمين، فقد عرفنا أنكم تدعون أعداءكم إلى الدخول في الإسلام، فإن أبوا فادعوهم إلى دفع الجزية، فإن أبوا أعلنتم عليهم القتال، وإن قد رأينا من عدل خليفتكم وتقاه، ما أغرانا بشكوى جيشكم إليكم، والاستنصار بكم على ما أنزله بنا قائد من قوادكم، فأذن أيها الأمير بوفد منا أن يفد على خليفتكم، وأن نرفع ظلامتنا إليه، فإن كان لنا حق أعطيناه، وإن لم يكن عدنا من حيث ذهبنا، فأذن سليمان لوفد منهم بالقدوم على الخليفة في دمشق، -فدمشق كانت تحكم مناطق، هي الآن في الاتحاد السوفييتي، طبعاً ربنا عز وجل قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً)

[سورة النور الآية: ٥٥]

شرط واحد على العباد: يعبدونني، قال تعالى:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر الآية: ٦٦]

فالخلافة في دمشق، وهذه سمرقند، جاء أهلها إلى الخليفة، يشتكون على الجيش الإسلامي، فلما صاروا في دار الخلافة- رفعوا أمرهم إلى خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز ، فكتب الخليفة كتاباً إلى واليه سليمان يقول فيه:

أما بعد، فإن جاءك كتابي هذا، فاجلس إلى أهل سمرقند قاضياً، ينظر في شكواهم، فإن قضى لهم، فأمر جيش المسلمين، بأن يغادر مدينتهم، وضع المسلمين المقيمين بينهم من النزوح عنهم، وعودوا كما كنتم، وكانوا قبل أن يدخل ديارهم قتيبة بن مسلم الباهلي، فلما قدم الوفد على سليمان، ودفع إليه كتاب أمير المؤمنين، بادر فأجلس لهم قاضي القضاة جميع بن حاضر الناجي، هذا القاضي نظر في شكواهم، واستقصى أخبارهم، واستمع إلى شهادة طائفة من جند المسلمين، وقادتهم، فاستبان له صحة دعواهم، وقضى لهم، حكم هذا القاضي أن يخرج هذا الجيش الكبير من سمرقند إلى خارجها، بناءً على حكم قاض من قضاة أحد ولاة عمر بن عبد العزيز، عند ذلك أمر الوالي جند المسلمين، بأن يخلّوا لهم ديارهم، وأن يعودوا إلى معسكراتهم، وأن ينابذوهم كرة أخرى، فإما أن يدخلوا بلادهم صلحًا، وإما أن يظفروا بها حرباً، وإما ألا يكتب لهم الفتح لو انهزموا .

فلما سمع وجوه القوم، حكم قاضي القضاة، قال بعضهم لبعض: ويحكم! لقد خالطتم هؤلاء القوم، وأقمتم معهم، ورأيتم من سيرتهم، وعدلهم، وصدقهم ما رأيتم، فاستبقوهم عندكم، -هذا هو الإسلام، فالعدل، والرحمة، والإحسان، جعل أهل سمرقند، يطلبون إلغاء الحكم، وأن يبقى هذا الجيش في بلادهم- وطيبوا بمعاشرتهم نفساً، وقروا بصحبتهم عيناً))

الشريعة عدل كلها، ورحمة كلها، مصالح كلها، فإذا خرجت الشريعة من العدل إلى الجور، أو من المصالح إلى ضدها، أو من الرحمة إلى القسوة، فليست من الشريعة، ولو أدخلت عليها بألف تأويل وتأويل، هذه هي الشريعة .

٣- ما رواه ابن عبد الحكم في كتابه :

الصورة الثالثة من صور حياة هذا الخليفة الراشد رضوان الله عليه، يرويها لنا ابن عبد الحكم في كتابه النفيس المسمى: سيرة عمر بن عبد العزيز فيقول:

((لما حضرت عمر الوفاة، دخل عليه عكرمة بن عبد الملك، وقال: إنك يا أمير المؤمنين، قد فطمت أفواه أولادك عن هذا المال، حرمتهم هذا المال الذي بين يديك، فحبذا لو أوصيت بهم إلي، أو إلى من تفضله من أهل بيتك، فلما سهى من كلامه، قال عمر: أجلسوني فأجلسوه، فقال: قد سمعت مقالتك يا مسلمة، أما قولك: إني قد فطمت أفواه أولادي عن هذا المال، فإني والله ما منعتهم حق هو لهم، ولم أكن لأعطيهم شيئاً ليس لهم، وأما قولك: لو أوصيت بهم إلي، أو إلى من تفضله من أهل بيتك، فإنما وصيي ووليي فيهم الله، الذي نزّل الكتاب بالحق، وهو يتولى

الصالحين .

-يقولون في بعض الأحاديث القدسية:

((إن الله سبحانه وتعالى يوقف عبدين يوم القيامة، يقول لأحدهم: عبدي أعطيتك مالاً، فماذا صنعت به؟ يقول هذا العبد: يا رب، لم أنفق منه شيئاً على أحد، مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله عز وجل: ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك، قد أنزلته بهم، ويسأل العبد الآخر يقول له: عبدي أعطيتك مالاً، فماذا صنعت فيه؟ فيقول هذا العبد: يا ربّ، أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خير حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، فيقول الله عز وجل: أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

قال: واعلم يا مسلمة، أن أبنائي أحد رجلين؛ إما رجل صالح متق، فسيغنيه الله من فضله، ويجعل له من أمره مخرجاً، وإما رجل طالح، مكبّ على المعاصي، فلن أكون أول من يعينه بالمال على معصية الله تعالى، ثم قال: ادع لي بنَّي، فدعوهم، وكان عددهم بضعة عشر ، فلما رآهم ترقرقت عيناه، وقال: بنفسي فتية تركتهم عالة لا شيء لهم، وبكى بكاءً صافياً، ثم التفت إليهم وقال: أي بني، إني قد تركت لكم خيراً كثير، فإنكم لا تمرون بأحد من المسلمين، أو أهل ذمتهم، إلا رأوا أن لكم عليهم حقًا .

يا بني، إن أمامكم خياراً بين أمرين؛ فإما أن تستغنوا، -أن تصبحوا أغنياء- ويدخل أبوكم النار، وإما أن تفتقروا، ويدخل الجنة، ولا أحسب إلا أنكم تؤثرون إنقاذ أبيكم من النار على الغنى، ثم نظر إليهم برفق، وقال: قوموا عصمكم الله، قوموا رزقكم الله، فالتفت إليه مسلمة، وقال: يا أمير المؤمنين، عندي ما هو خير من ذلك، فقال: وما هو؟ قال: لدي ثلاثمائة ألف دينار، وإني أهبها لك، ففرقها أنت، أو تصدق بها إذا شئت، فقال له عمر: أو خير من ذلك يا مسلمة؟ فترقرقت عينا مسلمة وقال: رحمك الله يا أمير المؤمنين حياً وميتاً، فقد ألنت منا قلوباً قاسية، وذكرتها، وقد كانت ناسية، وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً، ثم تتبع الناس أخبار أبناء عمر بن عبد العزيز من بعده، فرأوا أنه ما احتاج أحد منهم، ولا افتقر))

والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)

[سورة النساء الآية: ٩]

هذا الدرس لنا، كل واحد له أولاد، اكسب مالا حلالا، واتق الله، واستقم على أمره، والله سبحانه وتعالى يقول لك: أنا الحافظ لأولادك من بعدك، لا تحفظ لهم المال من الحرام، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن روح الميت، ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرم، فأنفقته في حله، وفي غير حله، فالهناء لكم، والتبعة علي))

لذلك الإنسان لا يوجد منا أحد إلا له أولاد، وشيء يضيقه جداً، مصير أولاده من بعده ، فالقرآن، وهذه سير الصحابة الكرام، اتق الله، واكسب مالاً حلالاً، وأنفق من هذا المال في سبيل الله، والله سبحانه وتعالى يتولى أمر أولادك من بعدك .

نهاية المطاف :

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم أغننا بالعلم، وزينا بالحلم، وأكرمنا بالتقوى، وجملنا بالعافية، وطهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة، فإنك تعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور .

اللهم اجعل جمعنا هذا جمعاً مباركاً مرحوماً، واجعل تفرقنا من بعده تفرقاً معصوماً، ولا تجعل فينا ولا منا ولا معنا شقياً ولا محروماً، اللهم كما هديتنا للإسلام فثبتنا عليه، اللهم ألهمنا سبيل الاستقامة لا نحيد عنها أبداً، واهدنا لصالح الأعمال، لا يهدي لصالحها إلا أنت، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي، وعلى آله وسلم، والحمد لله رب العالمين.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٠٨-١٠١) : باب الصبر -٢

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-٠٣-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ماذا تعني الصلاة نور ؟

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس التاسع من دروس الحديث النبوي الشريف، ومن كتاب رياض الصالحين، ومن باب الصبر .

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ، أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَالصَّلاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أيها الأخوة المؤمنون، هذا الحديث الشريف فيه أصول كثيرة، تحدثنا في الدرس الماضي عن: سبحان الله، والحمد لله، وكيف أن الطهور شطر الإيمان؟ واليوم ننتقل إلى أن الصلاة نور .

الصلاة ركن الأركان، أليس في الإسلام أركان الإسلام؟ أو ليس هناك أركان الإيمان؟ أركان الإسلام:

((شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت))

لو وقفنا عند أركان الإسلام، لوجدنا أن الحج يمكن أن يسقط عن الفقير، وأن الصوم يمكن أن يسقط عن المسافر، أو عن المريض، وأن الزكاة تسقط أيضاً عن الفقير، وأن شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، تصح في العمر مرة، أما هذا الفرض المتكرر الذي لا يسقط بحال؛ لا في سفر، ولا في حضر، ولا في صحة، ولا في مرض، ولا في غنى، ولا في فقر، الركن المتكرر الذي لا يسقط بحال، إنما هو الصلاة، وليس في أركان الإسلام كلها ركن واحد، وصفه النبي عليه الصلاة والسلام بأنه نور إلا الصلاة، بل إن الأغرب من ذلك: إن الصيام من أجل الصلاة، وإن الحج من أجل الصلاة، وإن الزكاة من أجل الصلاة، قال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة التوبة الآية: ١٠٣]

حتى إن شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله من أجل، أن تتصل بالله عز وجل، متى تتصل به؟ إذا استقمت على أمره، ومتى تستقيم على أمره؟ إذا عرفت أن لا إله إلا هو .

إذاً: كأن أركان الإسلام كلها مجموعة في الصلاة، بل إن الأغرب من ذلك: أن في الصلاة من معاني الصيام، والزكاة، والحج، والشهادة الشيء الكثير، كيف ذلك؟ .

أولاً: أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، هذا يتم في الصلاة، في القعود الأخير، ففي الصلاة شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله، وأما أداء الزكاة، فالزكاة عبادة مالية، وحينما تصلي، تقتطع جزءاً من وقتك، والوقت أساساً كسب المال، أساس كسب المال الوقت، فهذا الذي يغلق محله التجاري، والمشترون يتزاحمون عليه، ويذهب ليصلي، كأنه أنفق مالاً، حينما يدع عمله الذي يكسب منه رزقه ليصلي فكأنه أنفق، ففي الصلاة معنى الإنفاق، أنفق أصل المال، أصل المال هو الوقت، ولا كسب مال من دون الوقت.

لذلك عندما يكون الإنسان منسجم بعمله، ثم يؤذن المؤذن، ويقول: حيَّ على الصلاة، هناك أشخاص يتمنون لو يتابعون أعمالهم، هناك أعمال فيها تابع الاستمرار، الأعمال الفكرية، التأليف، أعمال الميكانيك، فيها متعة في الاستمرار، فحينما يؤذن المؤذن ويقول: الله أكبر، حيّ على الصلاة، حيّ على الفلاح، ويدع الإنسان العمل، فكأنما أنفق المال، لأنك إن أنفقت أنت المال، أنفقت جزءاً من أصل المال، وهو الوقت، فإذا أنفقت الوقت، فقد أنفقت أصل المال، ففي الصلاة معنى الزكاة، وفي الصلاة معنى الحج، لأنك في الصلاة، تتوجه إلى الكعبة المشرفة، وفي الحج تذهب إليها، ففي الصلاة أيضاً معنى الحج، وفي الصلاة أيضاً معنى الصيام، إنك في الصوم تمتنع عن الطعام والشراب، وسائر المفطرات، لكنك في الصلاة تمتنع عن الطعام والشراب، وسائر المفطرات، والحركة، أبسط شيء في الحياة أن تتحرك، ثلاث حركات متواليات، يفسدن الصلاة .

إذاً: في الصلاة معنى الصوم، ومعنى الحج، ومعنى الزكاة، وفي الصلاة الشهادة ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ، الصَّلاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ))

[أخرجه النسائي في سننه]

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الصلاة نور))

الحقيقة: نحن لو تتبَّعنا أعمال الناس، كل عمل تعمله وراءه رؤية، فهذا الذي يأكل مالاً حراماً، لماذا أكل مالاً حراماً؟ لأنه رأى بقلبه أن أكل المال الحرام مغنم كبير بجهد يسير، هكذا رأى، رؤية غير صحيحة، هذا الذي يظلم الناس، لماذا يظلمهم؟ لأنه رأى أن ظلمهم في حقه خير، فظلمهم، هذا الذي يعتدي على أموال الناس، يعتدي على أعراضهم، يقتنص اللذائذ من أي طريق، لماذا يفعل هذا؟ لأنه في عمى، قال تعالى:

(وَمَنْ أعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ)

[سورة طه الآية: ١٢٤-١٢٦]

كنت أعمى في الدنيا، فلذلك الذي أعتقده أنه: ما من عمل سيء على وجه الأرض إلا بسبب العمى، عمى القلب، قال تعالى:

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

[سورة الحج الآية: ٤٦]

الأصح من ذلك: ما من مصيبة تقع على وجه الأرض إلا بسبب معصية لله عز وجل، وما من معصية لله عز وجل إلا بسبب عمى القلب، وعمى القلب بسبب انقطاع النفس عن الله عز وجل، انقطاع، عمى، إساءة؛ شقاء، اتصال، نور، انضباط، إحسان؛ سعادة .

فيمكن أن يُفَسر الدين كله، يمكن أن يضغط الدين كله في كلمتين:

(وَأَوْصَانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً)

[سورة مريم الآية: ٣١]

الدين كله، بعقيدته، وشريعته، وأحواله، وأركانه، وتفصيلاته، وحلاله، وحرامه، الدين كله، يضغط في كلمتين: اتصال بالخالق، وإحسان إلى المخلوق، متصل، مستنير، منضبط، محسن؛ سعيد، منقطع، عمى، متفلت، مسيء؛ شقي .

فالناس يوم القيامة منهم شقي، ومنهم سعيد، السعداء هم الذين جاؤوا ربهم بأعمال طيبة، والأعمال الطيبة أساسها رؤية صحيحة، وهذه الرؤية الصحيحة أساسها إقامة للصلاة، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((وَالصَّلاةُ نُورٌ))

إنك بنور الله عز وجل ترى الخير خيراً، والشر شراً، ترى الحق حقاً، والباطل باطلاً، ترى ما يجوز، وما لا يجوز، ترى الحسن حسناً ، وترى القبيح قبيحاً، من هو الأعمى؟ قال تعالى:

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ)

[سورة الحج الآية: ٤٦]

الأعمى هو الذي يرى الخير شراً، والشر خيراً، والحق باطلاً، والباطل حق، والجميل قبيحاً، والقبيح جميلاً، ويعمل ما لا ينبغي أن يعمل، ويدع ما لا ينبغي أن يدع، هذا هو الأعمى.

فلذلك: القضية خطيرة جداً ومصيرية، هذه الصلاة التي أمرنا الله بها في اليوم والليلة خمس مرات، لا يمكن أن تكون على النحو الذي يؤديها الناس، أي تحرى القبلة، دخل الوقت ، توضأ، وقف، كبّر، توجه نحو القبلة، قرأ، ركع، سجد، قعد، تشهد، سلم، وهو في عالم آخر ، وهو في محله

التجاري، وهو في بيته، وفي مشاريعه، وفي طموحاته، وفي خصوماته، وفي صراعاته، وفي قيله وقاله، بالتأكيد ليست هذه هي الصلاة .

لذلك عَنْ أَبِي حَازِمٍ التَّمَّارِ،عَنِ الْبَيَاضِيِّ:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى النَّاسِ، وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَقَدْ عَلَتْ أَصْوَاتُهُمْ بِالْقِرَاءَةِ، فَقَالَ: إِنَّ الْمُصَلِّي يُنَاجِي رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَنْظُرْ مَا يُنَاجِيهِ، وَلا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْقُرْآنِ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

ولو يعلم المصلي من يناجي لما التفت، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها))

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام حينما وصفته السيدة عائشة:

((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة، فكأنه لم يعرفنا، ولم نعرفه))

من هنا قال سيدنا سعد بن أبي وقاص:

((ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك، فأنا واحد من الناس، منها: ما صليت صلاة، فشغلت نفسي بغيرها، حتى أقضيها))

أيها الأخوة، استماع الدروس شيء لطيف جداً، وشيء طيب، ولكن لا يكفي، كما أن حضور الدروس في المدرسة، أو في الجامعة فقط، لا يكفي، لا بد من الدراسة، لا بد من إتقان الصلوات، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه الآية: ١٤]

كيف تذكره، وأنت غافل عنه؟ قال تعالى:

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق الآية: ١٩]

كيف تقترب منه، وأنت تعصيه؟ مستحيل، الجهل مانع، والمعصية حجاب، الجهل مانع، يمنعك من أن تتصل به، فإذا عرفته اتصلت به، والمعصية حجاب، لهذا يقول الله سبحانه وتعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء الآية: ٤٣]

قال بعض العلماء: كل من غفل في صلاته، سهى عنها، وسهى فيها، سهى عنها: لم يصل، أما سهى فيها: تذكرها وصلى، ولكن في أثناء صلاته، كان غافلا عن الله عز وجل، فقال: كل من سَهَى في صلاته، تنطبق عليه هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)

[سورة النساء الآية: ٤٣]

هو في حكم السكران، الذي يصلي وهو غافل، أو سهى في صلاته، فهو في حكم السكران، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ١-٢]

فالقضية إذاً: أخطر من أن نستمع إلى درس علم، وينفض الدرس، ونذهب إلى البيوت، ونحن على ما نحن عليه، من دون أن نرفع من مستوى صلاتنا .

ملخص الملخص: إنك إن عرفت الله، اتصلت به، وإنك إن استقمت على أمره، اتصلت به، فالجهل مانع، والمعصية حجاب .

هذه الأشياء لو أن الإنسان عرف الله أزال المانع، لو أنه استقام على أمره، مزّق الحجاب، هل هناك مسرّعات إلى الله عز وجل؟ .

أحياناً يكون في النبتة ديدان فنزيلها، يوجد بعض الأمراض الفطرية نكافحها، يا ترى هل لدينا هرمونات ليزداد النمو؟ لدينا مثبتات للنمو، فالأوبئة الفطرية والحشرية للنبات، هذه تعيق النبات، وتعيق النمو، فنحن إذا أزلنا هذه المعيقات، هل هناك دواء آخر يسرّع النمو؟ فالمعرفة تزيل المانع، والاستقامة تزيل الحجاب، أما العمل الصالح فهو المسرّع إلى الله سبحانه وتعالى، والدليل قوله تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

هذه الوصفة دقيقة جداً، إذا أردت أن تتصل بالله، إذا أردت أن تقف في الصلاة، وتفيض الدموع، ليكن عملك صالحاً، ليكن لك عمل تعرضه على الله، فيبيض وجهك به، ماذا فعلت؟ .

فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا بارك الله لي في يوم لم أزدد فيه من الله قرباً))

وفي حديث آخر قال:

((المغبون من تساوى يوماه))

فالصلاة نور، بها ترى الحق حقاً، والباطل باطلاً .

فمثلاً: إنسان يصلي، وهو في أشد الحاجة إلى مائة ليرة، لو عرض عليه مليون ليرة على أن يعصي الله لا يرضى، يقول: معاذ الله، لأن في قلبه نورًا، هو يرى أن هذا المبلغ الضخم سيذهب، ويبقى العذاب، سيتلفه الله، هو يرى بنور الله، أن هذا المبلغ الذي سيأخذه من حرام، سوف يتلفه الله عز وجل، بل إنه سيذهب، ويذهب هو معه، لحديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عَنْه عَن النَّبيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ، يُرِيدُ أَدَاءَهَا، أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ، يُرِيدُ إِتْلافَهَا، أَتْلَفَهُ اللَّهُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

إذا ربنا عز وجل أوحى للنبي أن يقول لهذا الحديث:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

[سورة النجم الآية: ٣]

من معانيه: الوحي المتلو، وهو القرآن، والوحي غير المتلو، وهو الحديث، فأية كلمة قالها النبي عليه الصلاة والسلام، إنما هي وحي يوحى، فإذا صدقت أن النبي يقول:

((مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ، يُرِيدُ أَدَاءَهَا، أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ، يُرِيدُ إِتْلافَهَا، أَتْلَفَهُ اللَّهُ))

لو كنت في أمس الحاجة إلى ليرة واحدة، وجاءك مليون ليرة على أن تعصي الله في أخذها، تقول: معاذ الله، في قلبك نور، فلذلك الإنسان يعرف، فالله عز وجل قال:

(وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)

[سورة الإسراء الآية: ٣٢]

معنى فاحشة: له سمعة سيئة جداً، يوجد خيانة لهذه المرأة، التي هي في الأساس: أختك في الإنسانية، لذلك هناك في العالم الغربي دعاة أتباع، يزيدون عن خمسة وعشرين مليون، ودخل هؤلاء الدعاة في اليوم الواحد مليون، وقعوا في فضيحة، وهذه الفضيحة نُشِرت في الصحف، ما كان مستنيرًا، هذا الذي وقع في هذه الفضيحة، كان في عمى، كان مقطوعاً عن الله عز وجل، فلذلك ربنا عز وجل قال:

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة التوبة الآية: ١٠٣]

وفي آية ثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً)

[سورة الأحزاب الآية: ٤١-٤٣]

فإذا أنت تصلي، فأنت في نور؛ في علاقتك مع زوجتك، مع أولادك، في منزلك، مع جيرانك، مع زملائك في العمل، علاقاتك كلها علاقات منضبطة، علاقات مستنيرة، دائماً تتخذ قرار حكيم، دائماً مسدد، دائماً عندك حلم وحكمة، هذا كله من نور الصلاة .

فالصلاة مستحيل أن تكون أقوالا وأفعالا تفتتح بالتكبير، وتختتم بالتسليم، هي أعظم من ذلك، ما دامت أمراً إلهياً متكرراً، لا يسقط بحال، لا في صحة، ولا في مرض، لا في حل ، ولا في ترحال، لا في غنى، ولا في فقر، إذاً: هي أعظم بكثير من أن تكون وقوفاً، وركوعاً، وسجوداً، وأقوالا تقولها، وأفعالا تفعلها، إنها اتصال بالله عز وجل .

لذلك:

((من ترك الصلاة فقد كفر))

طبعاً من تركها منكراً لفرضيتها، لكن من تركها تهاوناً يفسّق .

لذلك قال بعض العلماء: الصلاة نور، أي نور محسوس، أي أن الصلاة نفسها، تضيء لصاحبها في ظلمات الموقف بين يدي الله عز وجل .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلاةَ يَوْمًا، فَقَالَ:

((مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا، كَانَتْ لَهُ نُورًا، وَبُرْهَانًا، وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ، وَلا بُرْهَانٌ، وَلا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ، وَفِرْعَوْنَ، وَهَامَانَ، وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

فقارون شغله ماله عن الله عز وجل، وفرعون شغله ملكه، وهامان شغله منصبه، وأبي بن خلف شغله نفاقه، هؤلاء الأربعة من ترك الصلاة حُشِر مع أحدهم .

من معاني الصلاة :

شيء آخر: المؤمن إذا صلى أول معنى: أنها نور في قلبه، تريه الحق حقاً، والباطل باطلاً .
والمعنى الثاني: أنها نور في وجهه، تجد المؤمن في وجهه نور، نور الصلاة، لو تقدمت به السن، وكلما تقدمت به السن ازداد جمالاً، بينما الذين لا يصلون، لهم وجوه كادحة صفراء، تبعث الرعب في النفس، والوجه صفحة النفس، المصلي نوره في وجهه .

والمعنى الثالث: أن المصلي، لأنه يصلي، له عمل طيب، وهذا العمل الطيب، سيكون نوراً له يوم القيامة، يهتدي به، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة التحريم الآية: ٨]

لذلك من ذاق عرف، فتعرف إلى الله، واستقم على أمره، وتقرب إليه بالأعمال الصالحة، ثم قف فصل، وانظر كيف أن الله سبحانه وتعالى يتجلى على قلبك، فتسعد بالصلاة، وتقول كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أرحنا بها يا بلال))

كنت أتمنى أن أشرح هذا الحديث كله في هذا الدرس، ولكن يبدو أن الصلاة لأهميتها، ولأنها عماد الدين، ومعراج المؤمن، استأثرت بالنصيب الأوفى من الدرس .

إليكم هذا الخبر الذي سجله المؤرخون عن محمد بن واسع الأزدي :

والآن إلى بعض قصص التابعين الأجلاء، واليوم مع تابعي جليل اسمه: محمد بن واسع الأزدي . أخبار هذا التابعي الجليل رائعة، هذا التابعي الجليل: محمد بن واسع الأزدي، دخل على والي البصرة بلال بن أبي بردة، وقد كانت له مع هذا الوالي مواقف متداولة مشهورة، من ذلك أنه:

((لما دخل عليه ذات يوم، وهو يرتدي مدرعة خشنة، -أي ثيابه وتوابعها، يبدو أنه كان فقيراً، وهو يلبس مدرعة، المدرعة: جبّة مشقوقة المقدم، وجمعها مدارع، يبدو أنها كالجبة الحالية، هو يلبس مدرعة خشنة من الصوف- فقال له بلال: ما يدعوك إلى لبس هذا الكساء الخشن يا أبا عبد الله؟ تشاغل عنه الشيخ، ولم يجبه، فقال له: مالك لا تجيبني يا أبا عبد الله؟ فقال هذا التابعي الجليل: أكره أن أقول: زاهداً، فأزكي نفسي، وأكره أن أقول: فقراً، فأشكو ربي، فقال: يا أبا عبد الله، ألك من حاجة فنقضيها لك؟ فقال: أما أنا، فمالي من حاجة أسألها أحد من الناس، وإنما أتيتك في حاجة لأخ مسلم، -أيضاً كان هذا التابعي الجليل، كان أديباً مع السلطان- فإن أذن الله في قضائها قضيتها، وكنت محموداً، وإن لم يأذن الله في قضائها لم تقضها، وكنت معذوراً .

-بعض الناس يظنون أن الكلام القاسي مفخرة، قال:

((سأعظك بغلظة، قال: ولمَ الغلظة يا أخي؟ لقد أرسل الله من هو خير منك، لمن هو شر مني، أرسل موسى إلى فرعون، ومع ذلك قال له: فقولا له قولاً ليناً))

قال: فإن أذن الله في قضائها قضيتها، وكنت محموداً، وإن لم يأذن الله في قضائها لم تقضها، وكنت معذوراً .

-هذا التوحيد، فإذا دخل إنسان على إنسان له عنده حاجة، يريد موافقة، أو شيء يتصور أن الله عز وجل إذا أراد أن يقضي هذه الحاجة، يلهم هذا الموظف أن يوافق عليه، فإذا وافق عليها فالفضل لله عز وجل، والشكر لهذا الموظف، فإن لم يوافق فهو معذور، لأن الله لم يأذن، الإنسان عندما يوحّد يرتاح، قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء الآية: ٢١٣]

قال: بل نقضيها بإذن الله، -فيبدو أن الوالي أيضاً على مستوى عالٍ من الفهم- قال: بل نقضيها بإذن الله، -وهذا هو التوحيد- ثم التفت إليه، فقال له: ما تقول في القضاء والقدر يا أبا عبد الله؟ فقال: أيها الأمير، إن الله عز وجل لا يسأل عباده يوم القيامة عن القضاء والقدر، وإنما يسألهم عن أعمالهم، -هذا تفكير عملي، لأن ربنا عز وجل قال:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر الآية: ٦٦]

إن الله كره لكم قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، ربنا عز وجل قال:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر الآية: ٦٦]

هل أنت كنت في الدنيا مطيعاً لله عز وجل؟ وهل كنت شاكراً له؟- فاستحيا منه الوالي، ولازم الصمت، وفيما هو جالس عنده، حان موعد غدائه، فدعاه الوالي إلى طعامه، فأبى ذلك، فألح عليه، فجعل يتعلل بشتى العلل، فغضب الوالي، وقال: أراك تكره أن تصيب شيئاً من طعامنا يا أبا عبد الله! فقال هذا التابعي الجليل: لا تقل ذلك أيها الأمير، فو الله إن خياركم معشر الأمراء، لأحب إلينا من أبنائنا، وخاصة أهلنا))

كلام في منتهى الذكاء، لماذا؟ لأن الله يزع بالسلطان مالا يزعه بالقرآن .

رجل جاء من بلاد أوروبا وأميركا إلى الشام، رأى نسوة يتجولن في الطرقات، في الليل، حوالي الساعة العاشرة، أو الحادية عشرة، من دون مرافقة رجال، هذه طمأنينة، هذه نعمة كبرى، أنعم الله بها علينا، نعمة الأمن، فكلما كنا مع الله، أسبغ علينا نعمة الأمن، لكن الله عز وجل أحياناً يصيب الناس بهذه النعمة العظمى، قال:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل الآية: ١١٢]

وفي آية أخرى:

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)

[سورة قريش الآية: ٤]

ما المنصب الذي كلف به هذا التابعي، وهل وافق عليه، وماذا جرى بعد ذلك ؟

دُعي محمد بن واسع الأزدي لتولي منصب القضاء أكثر من مرة، فأبى أشد الإباء، وعرض نفسه بسبب الإباء للإيذاء، من ذلك:

أن محمد بن المنذر، صاحب شرطة البصرة، دعاه إليه، وقال:

((إن أمير العراق طلب مني أن أدعوك لتولي القضاء، فقال: اعفوني من ذلك، عافاكم الله، فعاوده مثنى، وثلاث، فأصرّ على إبائه، فقال له: والله لتتولين القضاء أو لأجلدنك ثلاثمائة جلدة، فقال له: إن تفعل فإنك مسلط، ـهذه كلمة قرآنية، قال تعالى:

(وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ)

[سورة النساء الآية: ٩٠]

فإنك مسلط، وإن معذّب الدنيا خير من معذّب الآخرة، فخجل، وصرفه بالحسنى))

من أخلاق هذا التابعي ووصاياه :

كان مجلس محمد بن واسع الأزدي في مسجد البصرة، موئلاً لطلاب العلم، وقد حفِلت كتب التاريخ والسير بأخبار مجالسه هذه، من ذلك:

أن أحدهم قال له:

((أوصني يا أبا عبد الله؟ فقال: أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة، فدُهِش السائل فقال: كيف لي بذلك؟ فقال: ازهد بعرض الدنيا تكن ملكاً في الدنيا، وارغب بما عند الله تكن ملكاً في الآخرة))

عندما سئل الإمام الحسن البصري:

((بمَ نلت هذه المرتبة؟ قال: باستغنائي عن أموال الناس، وحاجتهم إلى علمي))

دخل أبو حنيفة رضي الله عنه على أبي جعفر المنصور فقال:

((يا أبا حنيفة، لو تغشيتنا، قال: ولِمَ أتغشاكم، وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه؟ وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء؟))

استغن عن الرجل تكن نظيره، واحتج إليه تكن أجيره، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس؛ فإن الأمور تجري بالمقادير))

قال له رجل آخر:

((والله إني أحبك يا أبا عبد الله، فقال: أحبك الله الذي أحببتني من أجله، ثم ولى، وهو يقول: اللهم إني أعوذ بك من أن أحب فيك، وأنت لي ماقت، أعوذ بك أن أكون عبرة لأحدٍ من خلقك))

كان هذا التابعي الجليل محمد بن واسع الأزدي، متواضعاً أشد التواضع، فكان كلما سمع ثناء الناس عليه، وإطراءَهم لتقواه وعبادته، يقول لهم: لو كان للذنوب رائحة تفوح ما استطاع أحدٌ منكم أن يدنو مني .

وقد كان لا يفتأ يحض طلابه على التزام كتاب الله عز وجل، والعيش في أكنافه، ويقول: القرآن بستان المؤمن، فأين ما حل منه نزل في روضة .

كان يوصيهم بقلة الطعام، فيقول:

((من قل طعامه؛ فهم وأفهم، وصفا ورق، وإن كثرة الطعام، لتثقل الرجل عن كثيرٍ مما يريد))

كان فضلاً عن ذلك؛ ورعاً أشد الورع، فقد رئي في السوق، وهو يعرض للبيع دابة له، فسأله رجل:

((أترضاها لي أيها الشيخ؟ فقال له: لو رضيتها لنفسي ما بعتها))

أي فيها عيب.

وقد كان محمد بن واسع الأزدي في وجل من ذنوبه، وإشفاق من العرض على ربه، فكان إذا قيل له:

((كيف أصبحت يا أبا عبد الله؟ أجاب قائلاً: أصبحت قريباً من أجلي، بعيداً أملي، سيئاً عملي، فإذا رأى شيئاً من الدهشة، يبدو على ملامح سائله، قال: ما ظنكم برجلٍ يقطع كل يوم إلى الآخرة مرحلة؟))

هذا الكلام صحيح، كلما مضى يوم، قطعنا إلى الآخرة مرحلة، أي كبرنا ولم نصغر، أي المسافة الباقية قلّت، رجلٌ يركب القطار، كلما سار به كيلو متراً، فإن المسافة المتبقية تكون قد قلّت، والمحطة الأخيرة محدودة .

لحظته الأخيرة في الحياة :

لما مرض محمد بن واسع الأزدي مرض الموت، تكاثر الناس على عيادته، حتى غص البيت بالداخلين عليه، والخارجين، والقائمين، والقاعدين، فمال بشقه على أحد خواصه، وقال:

((أخبرني ما يغني عني هؤلاء، إذا أخذنا غداً بالنواصي والأقدام، وما ينفعوني إذا ألقيت في النار؟ ثم أقبل على ربه، وأخذ يقول: اللهم إني أستغفرك من كل مقام سوءٍ قمته، ومن كل مقعد سوء قعدته، ومن كل مدخل سوء دخلته، ومن كل مخرج سوء خرجته، ومن كل عمل سوء عملته، ومن كل قول سوء قلته، اللهم إني أستغفرك من ذلك كله، فاغفره لي، وأتوب لك منه، فتب علي، وألقي إليك بالسلام قبل أن يكون لزاماً، ثم فاضت روحه))

انظر إلى التواضع والورع، والحكمة والجرأة في الحق والعلم، هؤلاء هم السلف الصالح، والباب مفتوح، أبواب البطولة مفتوحة لكل مؤمن، فاستقم على أمر الله، وخذ نفسك بالعزائم، وصل الليل، وأنفق من مالك، وغض بصرك، وحرر دخلك، ولازم مجالس العلم، وقدم أعمالاً طيبة إلى الله عز وجل، يرفعك الله إلى مستوى هؤلاء، أي باب البطولة مفتوح، وكل إنسان مهيأ أن يكون بطلاً .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٠٩-١٠١) : باب الصبر (الصدقة برهان........، سيرة التابعي: طاووس بن كيسان) .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-٠٣-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

ماذا تعني الصدقة برهان ؟

أيها الأخوة المؤمنون، مع الدرس العاشر من دروس الحديث النبوي الشريف، ومن كتاب رياض الصالحين، ومن باب الصبر، الحديث الشريف الذي نحن بصدده، هو قول النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه أبو مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَان، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَان، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْض، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

وصلنا في الدرس الماضي إلى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَالصَّلَاةُ نُورٌ))

واليوم بتوفيق الله أشرح لكم:

((وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ))

الحقيقة: أن الإنسان حينما يؤمن بالله عز وجل، ماذا فعل؟ يعني إذا آمنت أن هذه الآلة تعمل على الطاقة الكهربائية، أنت إذا آمنت بهذه الحقيقة، ماذا فعلت؟ ماذا قدمت؟ ماذا أحدثت؟ إذا آمنت بالحقيقة لا تكون قد فعلت شيئاً إلا أن تأخذ منها موقفاً، لذلك حينما يكتفي الإنسان بالإيمان بما هو حقيقي، بما هو واقع، من دون أن يكون له موقف دقيق، من دون أن يكون ذا عمل، يترجم إيمانه، فإيمانه لا قيمة له.

في بالإسلام تشريعات كثيرة، هناك بعض التشريعات تتوافق مع طبيعة النفس، فلو أن الإنسان ذهب في الشتاء إلى العمرة، يستمتع بالحرمين المقدسين المكي والمدني، وقد يكون له أهل وأقارب هناك يرحبون به، ويمضي أياماً لطيفة جداً في الرحاب الطاهرة، طبعاً العمرة واجبة بنص الكتاب والسنة:

(وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ)

[سورة البقرة الآية: ١٩٦]

لكن الذهاب إلى العمرة، وأخذ إجازة بعيداً عن مشاكل الحياة، والإقامة في الحرمين المقدسين، والتمتع بما عند المضيف من إكرام، هذا يتوافق مع طبيعة النفس، وقد يقدم الإنسان على الزواج، ويقول: أنا أطبق سنة النبي عليه الصلاة والسلام، طبعاً كان يدخل إلى البيت، ولا أحد يؤنس وحشته، بعد الزواج صار له زوجة ترغب به، ويرغب بها، تؤنسه ويؤنسها، ويقول: أنا أطبق السنة، شيء جميل طبعاً، فتطبيق هذه السنة توافق مع رغبتك، لا يعد الزواج برهاناً على إيمان الإنسان، لأن كل الناس يرغبون في الزواج، ولا تسمى العمرة في الشتاء إلى الديار المقدسة برهاناً على الإيمان، لأنه شيء ممتع، ولكن الشيء الذي يؤكد إيمانك، ويكون دليلاً عليه، هو أن يكون الشيء متناقضاً مع حاجاتك الأساسية.

فربنا سبحانه وتعالى أودع في قلب الإنسان حب المال لقوله تعالى:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٤]

فالمال ذهباً، أو فضة، أو ورقاً، شيء أودع الله حبه في النفوس، فإذا بذل، يكون بذل المال متناقضاً مع حرص النفس عليه، إذاً: عندئذٍ يكون بذل المال شيئاً مؤكّداً للإيمان، ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٣٣]

المتقون ما صفاتهم؟ لهم آلاف الصفات، المتقون لهم صفات كثيرة، ولكن الصفة التي بدأ الله بها هي قوله تعالى:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٣٤]

لماذا بدأ الله تعالى بهذه الصفة؟ لأن هذه الصفة تؤكّد تقواهم، فالإنسان إذا جاءت الأوامر الإلهية متوافقة مع طبيعة النفس، لا تكون هذه الأوامر برهاناً على إيمانه، ولكنها إذا جاءت متناقضة مع طبيعة النفس، عندئذٍ تكون الصدقة برهان.

أنت إذا أنفقت ألف ليرة أو مئة ليرة، إنك بحاجة ماسة إليها، إنك تقضي بها بعض الحوائج، إنها شيء محبب، إنها جهدك، إن المال تعبير عن قيمة مطلقة، إنها رمز الجهد، إنها رمز العمل، إنها بذل رمز الطاقة التي أودعها الله في الإنسان، فإذا أنفقتها، أنفقت جزءً من طاقتك، أنفقت جزءًا من عملك، أنفقت جزءًا من جهدك، أنفقت جزءًا من وقتك، الوقت إذا بذلته تكسب به المال، فإذا أنفقت المال أنفقت وقتك، وأنفقت خبرتك، وأنفقت عملك، وأنفقت جهدك، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ))

الإنسان أحياناً يأتيه الشيطان، ويقول له: أنت لست مؤمناً، أنت منافق، الشيطان يوسوس للإنسان، فإذا دفع الإنسان مبلغاً من المال، من دون أن تعلم شماله ما أنفقت يمينه، فإن هذا الإنفاق، يلقم الشيطان حجراً يسكته، دفعت المال، وقد حبب إليك، دفعته، ولم يدرِ بهذا الدفع أحد، إنك بهذا ترجو الله عز وجل، لذلك من كان في شكٍ من أمره، من كان في شك من إيمانه، مَن كان في شك من حبه لله عز وجل، فلينفق دون أن يذكر إنفاقه، فإن في هذا الإنفاق قطعاً لوسوسة الشيطان، إن في هذا الإنفاق برهاناً.

فأحياناً الإنسان يكون له صديق، فيزوره، يحتفل فيه، يدعوه لزيارته، فيرد الإكرام بإكرام مثله، عواطف جيَّاشة، وكلمات لطيفة، كلمات حارة، عبارات أنيقة، يعلق على العلاقة، يقول له: أنا أحبك، أنت جزء من كياني، أنا أتعاطف معك، هذا كله كلام، والسهرات متع، والرحلات فيها متع أيضاً، ولكن إذا جاءك هذا الصديق، وقال: هل معك مبلغ تقرضني إياه، فأنا في أشد الحاجة إليه؟ هنا تظهر المحبة الحقيقية، ما دام الأمر لا يوجد فيه بذل، في مجاملات، في عبارات دافئة، في كلمات رنَّانة، في تعليقات عاطفية، في تعبيرات عما في النفس من عواطف جياشة، ما دام الأمر على مستوى الكلام، فكله كلام بكلام، ولكن حينما يأتيك طالباً منك بعض المال، حينما تعطيه هذا المال، وأنت حريص عليه، فذا الدفع يؤكد إخلاصك له، صدق القائل:

إن الصديق الحق مَن كان معك   ومن يضر نفسه لينفعك

ومَن إذا ريب الزمان صدعك   شتت فيك شمله ليجمعك

فلذلك:

((وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ))

برهان على أنك تحب الله ورسوله، برهان على أنك واثق بما عند الله من خيرٍ كبير، برهانٌ على أن الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام، من دعوة إلى الإنفاق؛ في قلبك، وفي سمعك، وأنت مصدق النبي العدنان، فلذلك ربنا عز وجل قال:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة التوبة الآية: ١٠٣]

من يقرأ القرآن الكريم في ثماني آيات فيما أذكر على سبيل الحصر، يؤكد الله سبحانه وتعالى أن كل شيء تنفقه الله سبحانه وتعالى يخلفه، قال تعالى:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

[سورة سبأ الآية: ٣٩]

فإذا قرأت القرآن، وصدقت الله سبحانه وتعالى، عندئذٍ تنفق، فإذا أنفقت، فإنفاقك تصديق وبرهان على أنك مصدق لكلام الله، هذا معنى آخر، إنفاق المال في حد ذاته برهان على طاعتك لله، برهان على إيمانك، برهان على محبتك، ولكن إنفاق المال أيضاً؛ دليل على أنك مصدق لوعد الله، إذا أنفقت المال، فالله سبحانه وتعالى لابد من أن يخلفه عليك، من هنا تأتي كلمة:

((وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ))

ذاق طعم القرب من أنفق ماله ابتغاء وجه الله، إن الصدقة لتقع في يد الله عز وجل قبل أن تقع في يد الفقير، إن الله سبحانه وتعالى يمكن أن يسترضى بالصدقة، باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها، فإذا سنحت من الإنسان سانحة لا ترضي الله عز وجل؛ وقع في مخالفة، وقع في تقصير، وقع في غيبة، خطفت نفسه صورة امرأة من دون أن يشعر، لم يكتف بالنظرة الأولى، زلت قدمه، زلّت عينه، خانته عينه، وشعر أن الله ليس رضياً عنه، وشعر بالحجاب، وشعر بالتقصير، شعر بالمخالفة، إذا أسأت فأحسن، ادفع من مالك الذي كسبته حلالاً استرضاءً لله عز وجل.

والله الذي لا إله إلا هو، لا يعلم هذه المعاني إلا من ذاقها، إذا الإنسان وقع في غفلة، وقع في حجاب، وقع في مخالفة صغيرة عن غير قصد، وكانت هذه المخالفة حجاباً بينه وبين الله، بإمكانه أن يبادر في دفع صدقة، تزيل هذه الجفوة بينه وبين الله، تذيل هذا الحجاب الذي كان بينه وبين الله.

لذلك:

((وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ))

لا أعتقد في واحد من الأخوة الحاضرين، لا يعرف عشرات، بل مئات، بل ألوف القصص التي تؤكد: أنك إذا أنفقت المال عوض عليك ما أنفقه أضعافاً مضاعفة، فالله سبحانه وتعالى يسترضى بالصدقة، غضب الله عز وجل يطفأ بالصدقة، البلاء يرد بالصدقة، المرض يعالج بالصدقة، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((داووا مرضاكم بالصدقة))

يعني إذا أردت أن تتقرب إلى الله عز وجل، فالمال جعله الله بين يديك مادةً للتقرب إلى الله عز وجل، يقول لك: فلان كيف مفتاحه؟ كيف نجعله يوافق على هذه الشيء؟ يقال لك: فلان مفتاحه ويوجهه توجيه معين، فالله سبحانه وتعالى إذا تصدقت، فإن هذه الصدقة تطفئ غضب الرب، إن هذه الصدقة تمنع البلاء، إن الصدقة تمحو السيئة،

((اتق الله حيث ما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن))

ودرهم تنفقه في حياتك خير من مئة ألف درهم ينفق بعد مماتك، لا تعلم قد يبدو للورثة أن يتهموا أباهم بالجنون، ويقولون: هذا أبونا يحتاج إلى حجر صحي، يريد حجرًا على عقله، ربما لا تنفذ وصيتك، وقد يحتال في تنفيذها، أما إذا قدمت مالك أمامك سرك اللحاق به، أما إذا تركته خلفك آلمك تركه، لذلك:

((وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ))

مرة ثانية، قال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة التوبة الآية: ١٠٣]

والذي لا إله إلا هو، إذا أنفقت من مالك الحلال، لا تبتغي سمعة، ولا رياء، ولا ضجيجاً، ولا مكانة، ولا علواً في الأرض، ولا تألقاً، لا تبتغي إلا أن يرضى الله عنك، كان هذا المال مطهراً لنفسك، مزكياً لها، مقرباً لك من الله عز وجل، والإنسان لا يقول: ليس معي، قال عليه الصلاة السلام، وقد أنفق بعضاً من ماله، قال: ((يا رب هذا جهد من مقل))، لأن رُبَّ درهم سبق ألف دهم، إذا الإنسان دفع عشرة ليرات، ولا يملك غيرها، فقد دفع ماله كلها.

شاب، له مخصصات أسبوعية، خمس وعشرون ليرة، لو أنه دفع منها خمس ليرات، ما معنى خمس ليرات؟ أي دفع خمس ماله، رب درهم سبق ألف درهم.

شيء آخر: درهم تنفقه في إخلاص خير من مئة ألف درهم ينفق في رياء. فهذه الصدقة برهان، أخوة كثيرون، يروون عشرات القصص، كيف أنها تطفئ غضب الرب؟ كيف أنها تمنع البلاء؟ كيف أنها تقي مصارع السوء؟ صنائع المعروف تقي مصارع السوء، كيف أنها تقرب من الله عز وجل؟ كيف أنها تطهر النفس؟ كيف أنها ترقى بصاحبها؟.

فلذلك آيات الإنفاق التي وردت في القرآن الكريم أكثر من أن تعد، كثيرةٌ جداً، والأحاديث الشريفة التي بينت فضل الإنفاق، أكثر من أن تحصى، وإذا أردت أن تتعامل مع الله بهذه الأحاديث، لا أقول لك: جرب، لأن الله لا يجرب، الله سبحانه وتعالى لا يجرب ولا يشارط، ولكن زوال الكون أهون على الله من أن تنفق نفقة من مالك الحلال، ولا يعوضها الله عليك بعشرات الأمثال في الدنيا قبل الآخرة، لذلك الحديث القدسي:

((عبدي أنفق أنفق عليك))

بل للصدقة معنى آخر، يقول عليه الصلاة والسلام:

((استنزلوا الرزق بالصدقة))

أخ كريم، حدثني أن عمله أوشك أن يقف، ولا مورد له آخر، فاستمطر الرزق كما قال عليه الصلاة والسلام بالصدقة، صار ينفق من ماله كل يوم مبلغاً يسيراً، فالمبيعات كثرت إلى أن صار

ينفق كل يوم مبلغاً كبيراً جداً، يتناسب مع حجم مبيعاته، إذاً: بالصدقة تجلب الرزق، وبالصدقة تطفئ غضب الرب، وبالصدقة تدفع البلاء، وبالصدقة تمحو السيئة، وبالصدقة تثبت لنفسك أنك مؤمن، وأن الله يحبك، وأن دفع المال رمْز لإخلاصك في حب الله.

بقي هذا الدفع، الأفضل أن يكون في حياتك، لأنه درهم تنفقه في حياتك خير من مئة ألف درهم ينفق بعد مماتك، والأفضل أن يكون هذا الدفع بإخلاص شديد، درهم أنفق في إخلاص خيرٌ من مئة ألف درهم أنفقت في رياء.

ماذا يعني الصبر ضياء ؟

أيها الأخوة، والصبر ضياء، قال تعالى:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

[سورة الزمر الآية: ١٠]

لماذا هو ضياء؟ الصبر تماماً كطفلٍ صغير، جلس على مقعد طبيب الأسنان، هذا الطفل الصغير، لجهله بعلم الطبيب، ولجهله بحكمته، ولجهله بأن هذا الذي يفعله في أسنانه لمصلحته ، تراه يصيح، ويثور، ويبكي، أما الراشد الكبير قد يتألم، وقد يشد على طرف المقعد من ألمه، ولكنه لا يتكلم، ولا يضجر، ولا يقول إلا الكلام اللطيف مع الطبيب، لأنه يعلم علم اليقين أن هذا الذي يفعله الطبيب لمصلحته.

لذلك:

((الصَّبْرُ ضِيَاءٌ))

معنى الصابر: أنت تعلم أن هذا الذي يجري لمصلحتك، عملية معالجة، الدواء دائماً مر، كان في تقصير، كان في وقاية، فربنا عز وجل أراد أن يقي هذا الإنسان، أو أن يعالجه، فساق له بعض الشدائد، فالصابر هو الذي يعرف أن الله سبحانه وتعالى بيده الخير، كل شيء وقع أراده الله، وإرادة الله متعلقة بحكمته، وحكمته متعلقة بالخير المطلق.

يجب أن تعلم علم اليقين: أن الذي وقع، هو خيرٌ مطلق، فإذا سمَّاه علماء التوحيد: شراً، والإيمان بالقدر خيره وشره، هذه التسمية بحسب ما نفهم نحن في أشياء مؤلمة؛ الفقر مؤلم، المرض مؤلم، هذا الفقر في ظاهره مؤلم، لكن في حقيقته ربما كان الطريق إلى الله عز وجل، لذلك إن المصائب والحكم حكماً جليلة، وهي أنها تدفع العبد إلى باب الله سبحانه وتعالى، وتلجئه إلى أن يكون عبداً له، لذلك: ولو كشف الغطاء لاخترتم الواقع، ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود، إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله أكثر، قال تعالى:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ)

[سورة الشورى الآية: ٣٠]

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ)

[سورة البقرة الآية: ١٥٥-١٥٦]

بعضهم قال في تفسير هذه الآية: وإنا راجعون إلى الله بها، قال تعالى:

(أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ)

[سورة البقرة الآية: ١٥٧]

إذاً:

((وَالصّبْرُ ضياءٌ))

ماذا يعني القرآن حجة لك أو عليك ؟

أيها الأخوة، ((والقرآنُ حجةٌ لك أو عليك))، القرآن إذا طبقته فهو حجة لك، فإن لم تطبقه فهو حجة عليك، إذا عرفت أن هذا الكلام كلام الله، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن كلام الله يعلو على كل كلام، وان مصداقيته من أعلى درجة، وأن السعادة كلها في تطبيقه، وأن الشقاء كله في تركه، وأن القرآن غنىً لا فقر بعده، ولا غنى دونه، إذا علمت هذا العلم وطبقته كان حجة لك، فإذا علمت ولم تطبق كان حجة عليك.

لذلك كلمة: صدق الله العظيم، كلمة خطيرة جداً، نقرأ جزءًا، حزبًا، عشرًا، ونقول: صدق الله العظيم، هل أنت مصدق ما في هذا الكتاب؟ طبعاً، كلمة: نعم سهلة، هل عملك في اليوم؟ وهل كسبك للمال؟ وهل علاقتك الاجتماعية؟ وهل علاقتك الزوجية؟ وهل منطلقاتك النظرية؟ وهل ممارساتك العملية، تنطلق من هذا القرآن أم من أشياء أخرى؟ فيكفي أن الله سبحانه وتعالى يقول لك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

[سورة النور الآية: ٣٠]

فإذا كنت مصدقاً قوله تعالى:

(ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ)

[سورة النور الآية: ٣٠]

رب العزة يقول: غض البصر أزكى لك وأطهر في الدنيا والآخرة، فإذا رأيت أن في النظر متعةً، فأنت بهذا، لست مصدقاً ما قاله الله عز وجل.

إذا قال الله:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٧٦]

ورأيت أنه لا بد من أن يستثمر المال بفائدة، لئلا تقل قيمته، هكذا رأيت أنت، رأيت شيئاً يخالف كلام الله، عندئذٍ الله سبحانه وتعالى يمحق الله الربا، فهذا الذي نقوله:

((والقرآن حجة لك أو عليك))

تفسير بقية الحديث: ((كل الناس فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها)):

أيها الأخوة، ((كل الناس يغدو، فبايع نفسه فمعتقها أو موبقها))، كل إنسان ينطلق في حياته، إما أن يبيع نفسه ابتغاء مرضاة الله، فينجو من عذاب الدنيا والآخرة، وإما أن يبيعها للشيطان، فيخسر الدنيا والآخرة، كل الناس يغدو، قال تعالى:

(وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

[سورة الليل الآية: ١-٤]

كل إنسان ينطلق؛ هذا إلى عقد صفقة، وهذا إلى كسب مال حرام، وهذا إلى طلب علم شريف، وهذا إلى خدمة أخ صادق، وهذا إلى معاونة أرملة، وهذا إلى رعاية أيتام، وهذا يغدو إلى صلة الرحم، وهذا يغدو إلى طلب العلم، وهذا يغدو إلى تعليم العلم، قال تعالى:

(إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى)

[سورة الليل الآية: ٤]

متفاوتة بالدوافع والأهداف والنتائج، فالإنسان العاقل هو الذي يسعى لمرضاة الله.

رواه الترمذي في الدعوات، وقال: إنه حديث حسن ضعيف، فقد روي من طريق فكان صحيحاً، وروي من طريق فكان حسناً، كلمة صحيح أعلى صفة في الحديث، وأعلى منها المتواتر، وبعد المتواتر الصحيح، وبعد الصحيح الحسن، وبعد الحسن الضعيف، هذه مراتب الحديث.

فإذا مر معكم، أن هذا الحديث صحيح حسن، يعني من طريق هو صحيح، ومن طريق آخر هو حسن، هذا الحديث حسن صحيح، صححه النسائي، وابن عساكر، وغيرهم، وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير.

نعيده مرة سريعة لنجمع المعاني التي مَنَّ الله بها علينا في هذه الدروس الثلاث،

عَنْ أبِي مَالِكٍ الْأشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَان، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ أوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَوَاتِ وَالْأرْض، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو، فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أوْ مُوبِقُهَا))

[أخره مسلم في الصحيح]

كلمة مختصرة عن تابعينا في هذا اليوم:

أيها الأخوة، تابعي اليوم: طاووس بن كيسان، هذا التابعي قال عنه كتاب السيرة بخمسين نجماً من نجوم الهداية استضاءت، فغمره الثناء، وتدفق عليه النور؛ نور في قلبه، ونور في لسانه، ونور يسعى بين يديه، وعلى خمسين علماً من أعلام مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم، تخرج هذا التابعي الجليل، فإذا هو صورة لصحابة رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في رسوخ الإيمان، وصدق اللهجة، والتعالي على عرض الدنيا، والتفاني في مرضاة الله، والجهر بكلمة الحق مهما كان ثمن هذه الكلمة، لقد علمته المدرسة المحمدية: أن الدين النصيحة؛ لله، وكتابه، ورسوله، وأئمة المسلمين، وعامتهم.

من هم الأمراء الذي دخل عليهم طاووس ونصحهم ؟

١- والي اليمن:

في غداة يوم بارد من أيام الشتاء، دخل على والي اليمن طاووسٌ، ومعه وهب بن منبِّه، فلما أخذا مجلسيهما عنده، طفق طاووس يعظه، ويرغبه، ويرَهِّبه، والناس جلوس بين يديه، فقال الوالي لأحد حجابه:

((يا غلام، أحضر طيلساناً -الطيلسان كساء أخضر اللون، غالي الثمن، تلبسه الخاصة، الطبقة العلية في المجتمع- فعمد الحاجب إلى طيلسان ثمين، وألقاه على كتفي طاووس، وظل طاووس متدفقاً في موعظته، وجعل يحرك كتفيه في تؤدة، حتى ألقى الطيلسان من على عاتقه، وهب واقفاً وانصرف، وترك الطيلسان في المجلس.فغضب محمد غضباً، ظهر في احمرار عينيه، واحتقان وجهه، غير أنه لم يقل شيئا، فلما صار طاووسٌ وصاحبه خارج المجلس، قال وهب لطاووس: والله لقد كنا في غنىً عن إثارة غضبه علينا، فماذا كان يضيرك لو أخذت الطيلسان منه، ثم بعته، ودفعت ثمنه للفقراء والمساكين؟ فقال طاووس: هو ما تقول، لولا أنني خشيت أن يقول الناس من بعدي: نأخذ كما يأخذ طاووس، ثم لا يصنعون فيما أخذوه ما تقول أنت))

هذا موقف من مواقفه الجريئة.

٢- الخليفة عمر بن عبد العزيز:

ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة بعث إلى طاووس يقول:

((أوصني يا أبا عبد الرحمن، فكتب إليه طاووس رسالة في سطر واحد، قال فيها: إذا أردت أن يكون عملك خيراً كله، فاستعمل أهل الخير والسلام.فلما قرأ عمر الرسالة قال: كفى بها موعظة، كفى بها موعظة))

٣- الخليفة هشام بن عبد الملك:

ولما آلت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك، كان لطاووس معه مواقف مأثورة، من ذلك: إلى أن هشاماً، قدم البيت الحرام حاجاً، فلما صار الحرم، قال لخاصَّته من أهل مكة: التمسوا لنا رجلاً من صحابة رسول الله.

فقالوا له: إن الصحابة يا أمير المؤمنين، قد تلاحقوا بربهم، لم يبق منهم أحد، واحداً إثر آخر. فقال: إذاً: فمن التابعين؟.

فأوتي بطاووس بن كيسان، فلما دخل عليه، خلع نعليه بحاشية بساطه، وسلم عليه من غير أن يدعوه بأمير المؤمنين، وخاطبه باسمه دون أن يكنيه، وجلس قبل أن يأذن له بالجلوس.

فاستشاط هشام غضباً، حتى بدا الغيظ في عينيه، ذلك أنه رأى في تصرفاته اجتراءً عليه، ونيلاً من هيبته أمام جلسائه، ورجال حاشيته، بيد أنه ما لبث أن تذكر، أنه في حرم الله عز وجل، فرجع إلى نفسه، وقال لطاووس: ما حملك يا طاووس على ما صنعت؟.

فقال: وما الذي صنعته؟.

فعاد إلى الخليفة غضبه وغيظه، وقال له: خلعت نعليك بحاشية بساطي، وكان ينبغي أن تخلعهما خارج المكان، ولم تسلم عليّ بإمرة المؤمنين، وسميتني باسمي ولم تكنني، ثم جلست من غير إذني.

فقال طاووس بهدوء: أما خلع نعلي بحاشية بساطك، فأنا أخلعهما بين يدي ربٍّ العزة كل يوم خمس مرات، فلا يعاتبني، ولا يغضب علي، وأما قولك: إني لم أسلم عليك بإمرة المؤمنين، فلأن جميع المؤمنين ليس راضين بإمرتك، وقد خشيت أن أكون كاذباً، إن دعوتك بإمرة المؤمنين، وأما ما أخذته عليَّ من أني ناديتك باسمك ولم أكنك، فإن الله عز وجل نادى أنبيائه بأسمائهم، فقال: يا داود، ويا يحيى، ويا عيسى، وكنى أعداءه فقال: (تبت يدا أبي لهب وتب)، وأما قولك: إني جلست قبل أن تأذن لي، فإني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول:

((إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار، فانظر إلى رجل جالس، وحوله قوم قيام بين يديه))

فكرهت أن تكون ذلك الرجل الذي عُدَّ من أهل النار.

قال: فأطرق إلى الأرض خجل

من نصائحه لأهل الخاصة:

وقد روى عطاء بن رباح قال:

((رآني طاووس في موقف لم يرتح له، فقال: يا عطاء، إياك أن ترفع حوائجك إلى من أغلق في وجهك بابه، وأقام دونك حُجَّابه، وإنما اطلبها ممن أشرع لك أبوابه، وطالبك بأن تدعوه، ووعدك بالإجابة))

أي الله عز وجل، صدق القائل:

لا تسألن بني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تُحجب

الله يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

كان يقول لابنه:

((يا بني، صاحب العقلاء تنسب إليهم، وإن لم تكن منهم، ولا تصاحب الجهال، فإنك إن صحبتهم، نسبت إليهم، وإن لم تكن منهم))

لذلك الفقهاء ذكروا حالات كثيرة تجرح العدالة منها: صحبة الأراذل، إذا إنسان له سمعة منحطة، أو منحرف الأخلاق، يكفي أن تمشي معه، فإن هذا يجرح عدالتك، وترفض شهادتك إذا سرت معه، فالذي يصحب الأراذل، والذي يتحدث عن النساء، والذي يتنزه في الطرقات، والذي يعلو صوته في البيت، حتى يسمعه من في الطريق، والذي يطفف بتمرة، والذي يأكل لقمة من حرام، والذي يطلق لفرسه العنان -المسرع في المركبة- والذي يقود برذوناً، والذي يمشي حافياً، والذي يبول في الطريق، والذي يأكل في الطريق، والذي يلعب النرد، هذه الأعمال كلها تجرح عدالتك، وترفض شهادتك.

الغاية المقصودة التي كان ينشدها عبد الله الشامي من زيارته لهذا التابعي:

وقد امتدت الحياة بطاووس حتى بلغ المئة، أو جاوزها، غير أن الكبر والشيخوخة، لم ينالا شيئاً، من صفاء ذهنه، وحدة خاطره، وسرعة بديهته.

حدث عبد الله الشامي قال: ((أتيت طاووس في بيته لآخذ عنه، وأنا لا أعرفه، فلما طرقت الباب، خرج لي شيخ كبير فحييته، وقلت: أأنت طاووس بن كيسان؟.

قال: لا، أنا ابنه.

فقلت: إن كنت ابنه، فلا آمن أن يكون الشيخ، قد هرم وخرف، وإني قصدته من أماكن بعيدة، لأفيد من علمه.

فقال: ويحك، إن حملة كتاب الله لا يخرفون، ادخل عليه، فدخلت، وسلمت، وقلت: لقد أتيتك طالباً علمك راغباً في نصحك.

فقال: سل وأوجز.

فقلت: سأوجز ما وسعني الإيجاز إن شاء الله.

فقال: أتريد أن أجمع لك صفوة ما في التوراة، والزبور، والإنجيل، والقرآن؟.

فقلت: نعم.

قال: خف الله تعالى خوفاً حيث لا يكون شيء أخوف لك منه، وارجه رجاءً أشد من خوفك إياه، وأحب للناس ما تحب لنفسك

متى توفي طاووس بن كيسان، وفي أي مكان، ومن صلى عليه ؟

وفي ليلة العاشر من ذي الحجة، سنة ستٍ ومئة، أفاض الشيخ المعمَّر طاووس مع الحجيج، من عرفات إلى المزدلفة، للمرة أربعين، فلما حط رحاله في رحابها الطاهرة، وأدى المغرب مع العشاء، وأسلم جنبيه إلى الأرض، يلتمس شيئاً من الراحة، أتاه اليقين، قال تعالى:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

[سورة الحجر الآية: ٩٩]

أي الموت، فلقيه بعيداً عن الأهل والوطن، تقرباً إلى الله، ملبياً، محرماً، رجاءً لثواب الله، خارجاً من ذنوبه كما ولدته أمه بفضل الله، فلما طلع عليه الصبح، وأرادوا دفنه، لم يتمكنوا من إخراج جنازته، لكثرة ما ازدحم عليها من الناس، فوجه إليهم أمير مكة حرساً، ليزودوا الناس عن الجنازة، حتى يتاح لهم دفنها، وقد صلى عليه خلق كثير، لا يحصى عددهم، وكان في جملة المصلين، خليفة المسلمين، هشام بن عبد الملك.

هذا طاووس بن كيسان، من التابعين الأجلاء، كان مثلاً؛ للعلم، والورع، والإخلاص، والجرأة، والزهد.

إليكم هذه الكلمة عن هذه المناسبة:

أخ كريم، طلب إلي، أن أتكلم كلمة عن مناسبة النصف من شعبان، التي نحن على مشارفها.
أولاً: في هذه الليلة، حولت القبلة من المسجد الأقصى إلى الكعبة المشرفة، قال تعالى:

(قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا)

[سورة البقرة الآية: ١٤٤]

إذاً: هذه الليلة، فيها تم تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، أما ما يظنه بعض الناس أن الآية التي تقول:

(فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ)

[سورة الدخان الآية: ٤]

هذه الآية متعلقة بليلة القدر، وليس بليلة النصف من شعبان، وقد ورد في صحيح البخاري، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصوم أكثر شعبان، قالت عائشة:

((ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان، وما رأيته في شهر أكثر منه صياماً في شعبان))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قلت:

((يا رسول الله، لمَ أراك تصوم في هذا الشهر، ما لم تصمه في شهور أخرى؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ذلك شهر، يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهرٌ ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم))

[أخرجه أبو داود والنسائي في سننهما]

أما قيام ليلة النصف من شعبان، وأما صوم يوم النصف من شعبان، فلم يرد به دليلٌ صحيح، ورد به حديث ضعيف، ضعفه علماء الحديث، أما الذي ورد في كتب الصحاح هذا الذي قرأته عليكم ليس غير.

على كل: من أراد أن يصوم، فهو صوم نفل، وشعبان كله، كان النبي عليه الصلاة والسلام، يصوم أكثر أيامه، إلا إذا فعلت نافلة، أدت إلى ترك واجب.

عندنا قاعدة أصولية: لا ينبغي أن تكون النافلة ذريعة إلى ترك واجب، فهناك أشخاص، لهم أعمال شاقة، مثلاً: عليهم تبعات كبيرة، أعمالهم ضرورية، فإذا كان الصوم متاحاً لهم، فهو صوم نفل، الله سبحانه وتعالى يثيب عليه، أما إذا أدى صوم النفل إلى ترك واجب، فالأولى القيام بالواجب، وليس أكثر من هذا الذي ذكرته لكم، في موضوع النصف من شعبان.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (١٠١-٠١٠) : باب فضل ضعف المسلمين والفقراء الخاملين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-٠٤-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم سبب اختيار هذا الباب من رياض الصالحين:

أيها الأخوة، طغى الاستكبار في الأرض وبغى، وضعاف المسلمين يشعرون بالهوان، لذلك اخترت باب فضل ضعف المسلمين والفقراء الخاملين، من كتاب رياض الصالحين، والله عزَّ وجل يقول:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٣٩]

وقوله تعالى:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة الأعراف الآية: ١٢٨]

وقوله تعالى:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ)

[سورة آل عمران الآية: ١٩٦-١٩٧]

هذه الدنيا مؤقَّتة، وزائلة، ومنقطعة، والعبرة بأن تنجو من عذاب النار في الآخرة، قال تعالى:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

تغرُّ، وتضرُّ، وتَمُر، والمتعة الشيء الزائل، الإنسان في ساعة غفلة، يرى الكافر القوي، المستعلي، الذي يفعل ما يتوهَّم أنه يريد، لئلا يشعر بالضعف، لئلا يشعر بالتطامُن، اخترت هذا الباب من كتاب رياض الصالحين، في كلام سيد المرسلين عليه أتمُّ الصلاة والتسليم.

مفتاح هذه الآية هي:

أيها الأخوة، كما هي عادة الإمام النووي رحمه الله تعالى، يفتتح الباب بآيةٍ كريمة، وهي قوله تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

هؤلاء الذين يدعون ربَّهم، يرجون رحمته، وقَّافون عند كلامه، حريصون على طاعته، لا تأخذهم في الله لومة لائم، يركلون الدنيا إذا حجبتهم عن الله عزَّ وجل بأقدامهم، هؤلاء الذين يرجون رحمته، ويخافون عذابه، هؤلاء الذين يخطبون ودَّه، اصبر نفسك معهم، كن معهم، ربما لا تجد الدنيا بين أيديهم، إذاً: اصبر معهم، أما الذي تجد الدنيا بين يديه، فأنت مساقٌ إليه.

فإذا دعا إنسان غنيّ، الكلُّ يلبي دعوته، الطعام نفيس، والمناظر جميلة، والترحيب شديد، أما إذا دعا فقير، فهناك من يعتذر لضيق الوقت، حينما تلبِّي دعوة الغني، فهذا من الدنيا، أما حينما تلبي دعوة الفقير، فهذا العمل من أعمال الآخرة، لأنك بهذا تقوي معنويَّاته، وتبيِّن له أن الدنيا تحت قدميك، وأن تلبية دعوة الأخ طاعةٌ لله، وأنه من دعي، فلم يلبِّ، فقد عصى أبا القاسم، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

فأنت لا بدَّ من أن تصاحب، إن صاحبت أهل الدنيا زَهَّدوك في الآخرة، وقووا رغبتك في الدنيا، وحملوك على معصية، وصَغَّروا عندك هذه المعصية، وحملوك على أن تنكبَّ على الدنيا مثلهم، أما إذا عاشَرت أهل الحق زهَّدوك في الدنيا، ورغَّبوك في الآخرة، وبيَّنوا لك أن الغنى غنى النفس، وأن الإنسان حينما يتوقَّاه الله، وقد رضي عنه، فقد حقَّق كل أهدافه في الدنيا.

إليكم الفرق بين مجتمع المؤمنين وبين مجتمع الكافرين:

أيها الأخوة، فبين مجتمع المؤمنين ومجتمع الكافرين الشاردين مسافةٌ كبيرةٌ جداً، أولئك المؤمنون يدعون إلى الجنَّة، والشاردون يدعون إلى النار، هذا يدعوك إلى أن تكون مع الله، وهذا يدعوك إلى شيءٍ إذا فعلته، ابتعدت عن الله.

فالحياة في النهاية كما يقول الفلاسفة:

((فيها اثنينيَّة))

فيها حق، وفيها باطل، وأنت بينهما، فكلَّما اقتربت من الحق ابتعدت عن الباطل، وكلَّما اقتربت من الباطل ابتعدت عن الحق، ثمة خير وشر، وثمة قيَم وشهوات، ومبادئ ومصالح، وصدق وكذب، وإخلاص وخيانة، وإحسان وإساءة، وشجاعة وجُبن، وكرم وبُخل، قال تعالى:

(وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ)

[سورة الرعد الآية: ٣]

لو وسَّعت هذه الآية، لشملت الصفات والأخلاق، فليس هناك حل وسط، فإما أن تكون مع أهل الحق، أو أنت حتماً مع أهل الباطل، قد يقول أحدكم: ما هذا التشديد؟ اسمع هذه الآية:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

[سورة يونس الآية: ٣٢]

آية أخرى، قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ)

[سورة القصص الآية: ٥٠]

آية دقيقة جداً، هناك خطَّان: حقٌ وباطل، فإن لم تكن على أحدهما، فأنت على الخط الثاني، لم يعد هناك خيار، الأمور واضحة جداً.

صنفان موجودان في هذا الزمن هما:

أيها الأخوة، في هذا الزمن، زمن الانعطافات الحادَّة، لم يعد هناك حل وسط، لا تجد الآن إلا وليًّا أو إباحيًا، إنسان من رواد المساجد، ملتزم، مطبِّق للكتاب والسُنَّة، أو إباحي لا يؤمن بشيء، الآية:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ)

[سورة القصص الآية: ٥٠]

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

ثمة جامع، وثمة ملهى، في جلسة مختلطة؛ فيها نساء كاسيات عاريات، فيها فجور وضحك، وثمة جلسة أخرى فيها؛ خشوع، وقرآن، وسُنة، فأنت مخيَّر، أبواب الخير مفتحة، وأبواب الباطل مفتَّحة، الطرق إلى الله سالكة، والطرق إلى جهنم سالكة، وفي كلمة طيبة، وفي كلمة خبيثة، وهناك إنسان صاحب مبدأ، وإنسان صاحب مصلحة، وإنسان شهواني، وإنسان قيَمِي، وإنسان رباني، وإنسان شهواني، لو دققت بالمبادئ، وبالسلوك، وبالعادات، والتقاليد، والتربية، والتعليم، والمهن، والأخلاق، فثمة خَطّان؛ حقٌ وباطل، خيرٌ وشر، صواب وخطأ، عندك من يدعون ربهم بالغداة والعشي، وعندك من يريدون زينة الحياة الدنيا، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

أغفلنا: أي وجدناه غافلاً عن ذكره، فلما غفل عن ذكر الله، اتبع هواه، فلما اتبع هواه، كان أمره فرطاً، بيته مُنهار، علاقته كلها سيِّئة، من حوله يتعاملون معه بالمصلحة لا بالمبدأ.

هذه الآية التي بدأ بها الإمام النووي رحمه الله تعالى هذا الباب، باب فضل ضعف المسلمين والفقراء الخاملين.

إليكم المقصود من هذين الحديثين:

وعن حارثة بن وهبٍ رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ))

[أخرجه البخاري عن حَارِثَة بْنَ وَهْبٍ الْخُزَاعِيَّ في الصحيح]

فأنت لا تقدر أن تأكل مالاً حراماً، ولا تستطيع أن تنافق، ولا أن تهرِّب مواد مخدرة، لتربي ثروة طائلة، أنت لا تحصِّل دنيا على حساب دينك، ولا تدلي ببيان كاذب، و لا تستخدم قدرتك الوظيفية على إيذاء الناس، وابتزاز أموالهم.

تجد أن انضباطك وخوفك من الله جعلك ضعيفاً، أنْعِم بهذا الضعف، هذا الضعف وسام شرف لك عند الله، لعلك لو نافقت مثلاً، أو لعلك لو استخدمت أساليب غير مشروعة، وكسبت المال الوفير، صار مركزك قوياً، هنا الضعف ولا أقصد به الضعف الطبيعي، هذا الضعف الناتج عن التزامك.

هناك أشخاص يصلون إلى مآربهم بأية وسيلة، يقول لك: الهدف يبرر الوسيلة، المؤمن لا يعمل هذا، الأهداف النبيلة لها وسائل نبيلة، الإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن، فأكثر المصالح فيها أساليب غش لا تصدَّق، وتجمع ثروات طائلة.

فأحد أسباب ضعف المؤمن: شرعه الذي يقيده، شرعه يقول: افعل ولا تفعل، هذا حلال وهذا حرام، ولكن لو أن الإنسان تقيَّد بالشرع، لسبق أهل الغنى بالغنى، في حكمة أرادها الله، في حكمة دقيقة جداً؛ أن الحلال صعب والحرام سهل.

فأنت مثلاً من أجل أن تربح مبلغاً، تعيش به حياةً كريمة، قد تعمل عاماً بأكمله، قد تبذل جهداً كبيراً، وتأتي بالبضاعة، وتبيع البضاعة، وتحصِّل ثمنها، تدخل في مشكلات مع الذين اشتروها، وفي النهاية قد تحصِّل مصروفك، بينما يأتي إنسان يغض نظره عن مخالفة، فيأخذ عشرة أضعاف ربحك في السنة، يغض نظره عن مخالفة، فالحلال صعب، والحرام سهل، لحكمةٍ بالغةٍ بالغة، جعل الله الحلال صعباً والحرام سهلاً، هنا الامتحان.

ولو عكس الله الآية، لو كان الحلال سهلاً والحرام صعباً، لأقبل الناس على الحلال لا حباً بالحلال، ولا حباً بالله، ولا بالدين، ولا بالآخرة، بل لأنه سهل.

امرأة تبغي الحلال، تعمل ساعات طويلة في بيت من البيوت، لتحصل مبلغاً ضئيلاً من المال، وأخرى تبغي غير ذلك، تحصل المبلغ في عشر دقائق، من عشر ساعات إلى عشر دقائق.

أحياناً امرأة يموت زوجها، ولها أولاد، تخدم في البيوت، وهي منضبطة، وملتزمة، ومحجبة، فهذه بطلة، تعمل عملاً شاقاً، وتجمع قوت أولادها، هذه لها عند الله مكانة كبيرة.

فالمعنى الدقيق: أنت أحياناً تكون ضعيفاً، لأنك أخلاقي، لأنك مستقيم، لأن الشرع يقيِّدك.

((ألا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟ كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ، ألا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ))

[أخرجه البخاري عن حَارِثَةَ بْنَ وَهْبٍ الْخُزَاعِيَّ في الصحيح]

العتل: الغليظ الجافي، والجواظ: بفتح الجيم وتشديد الواو، وبالظاء هو الجموع المنوع، جموع منوع، وقيل: هو الضخم المختال في مشيته.

قال لي شخص: عمري ست وتسعون سنة، وأنا والحمد لله في صحة جيدة، جسدي سليم من الأمراض كلها، قال لي: والله لم آكل في حياتي درهماً من حرام، ولا أعرف الحرام، قال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة الآية: ١٨]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم الآية: ٣٥-٣٦]

الحديث الثاني: عن أبي العباس سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قال:

((مَرَّ رَجُلٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لِرَجُلٍ عِنْدَهُ جَالِسٍ: مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ: هَذَا وَاللَّهِ حَرِيٌّ؛ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، قَالَ: فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، فَقَالَ لهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا رَأْيُكَ فِي هَذَا؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الثاني الفقير: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

النبي لا ينطق عن الهوى، بالمظهر؛ غني، أنيق، ثيابه كلها أجنبية، ألوانها في أعلى درجة في الانسجام، بدءاً من قميصه، إلى بذلته، إلى حذائه، مركبته فارهة جداً، آثار النِعَم بادية عليه، وإنسان فقير، ثيابه وسط، ضعيف، الثاني:

((هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا))

فأين بطولتنا؟ أن نكون مع الذين يحبهم الله، مع الذين يستجيب الله دعاءهم، مع الذي يسعون لآخرتهم، مع الذين لهم مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر، إنسان واحد مستقيم، منيب إلى الله، محبٌ لله ورسوله، يساوي ملء الأرض من إنسان شارد.

في أي مجرى تصب معنى هذه الأحاديث أيضاً:

((رب أشعث أغبر ذي طمرين مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره))

[أخرجه الترمذي في سننه]

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لأَبَرَّهُ؟))

[أخرجه الترمذي عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ في سننه]

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا)

[سورة الفجر الآية: ١٥-١٧]

أما المؤمن، فو الله الذي لا إله إلا هو، يحترم الناس جميعاً، لأنه يعلم أن أي إنسان أمامه، قد يكون أحسن منه، والله عزَّ وجل عنده وسائل لقياس الأعمال غير قياس المصالح، والحديث واضح جداً. ربَّ حاجب عند مدير جامعة أفضل مليون مرة من مدير الجامعة، موظف بسيط في مؤسسة تجارية أفضل عند الله ألف مرة من صاحب المؤسسة، رب دابةٍ مركوبةٍ خير من راكبها، المؤمن أديب، لا يمكن أن يحتقر إنساناً؛ لا لفقره، ولا لدمامته، ولا لعاهةٍ فيه، ولا من خموله، ولا من ضعف شأنه، أبداً.

إنَّ امْرَأَةً سَوْدَاءَ، كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، أَوْ شَابًّا -الرواية هكذا- فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَ عَنْهَا أَوْ عَنْهُ -أي إما شاب أو إما امرأة- فَقَالُوا:

((مَاتَ، قَالَ: أَفَلا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي؟ -لمَ لم تخبروني بموته؟- فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا أَوْ أَمْرَهُ، فَقَالَ: دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهِ، فَدَلُّوهُ، فَصَلَّى عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ، ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلاتِي عَلَيْهِمْ))

فأنت عندك في الحي فقير، قد يعمل في جمع القمامة، عليك أن تسأل عنه، تحترمه، تطيِّب قلبه، هذا المؤمن.

((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

[أخرجه مسلم عَنْ عبد الله بن مسعود في الصحيح]

أضرب مثلاً: عندك جماعة من الأصحاب، ولا يوجد عندك ما تقدمه ضيافة لهم، إلا كيلو من اللبن، بإمكانك أن تضيف لهذا اللبن، خمسة كيلو من الماء، وشيئا من الملح، و قليلا من الثلج، وتقدمه شراباً طيباً جداً، هذا الكيلو من اللبن، أضيف له الماء الكثير، لم يتأثر، لكن لو وضعت بالقطَّارة نقطة واحدة من النفط فيه لرميت به.

الكبر كنقطة النفط تفسد العمل، كما يفسد الخل العسل.

قال صلى الله عليه وسلم:

((حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ))

[أخرجه أبو داود عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ في الصحيح]

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: غَيْرُ مُسَدَّدٍ، تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْه))

[أخرجه أبو داود، الترمذي، في سننهما، وأحمد في مسنده]

في مجالس النساء، أحياناً تكثر الغيبة والسخرية من الآخرين، وهذا يحرم شرعاً، لا تؤخذ بالمظاهر، وتدع البواطن، فالله تعالى يقول:

(فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ)

[سورة التوبة الآية: ٥٥]

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ)

[سورة آل عمران الآية: ١٩٦-١٩٧]

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم الآية: ٤٢]

لو كنت ضعيفاً، وكان عدوك قوياً، ما دام في معصية الله، فأنت منتصرٌ عليه.

ما مصير الإنسان في نهاية المطاف ؟

أيها الأخوة، الحظوظ في الدنيا موزعة توزيع ابتلاء، لكن الحظوظ في الآخرة سوف توزع توزيع جزاء، حظوظ الدنيا موقتة، أما حظوظ الآخرة أبدية، سباق الدنيا سباق أحمق، فيأتي الموت، وينهي كل شيء، قد يصل الواحد لقمة الثروة، ويأتيه الموت فيدع كل ثروته، ويذهب إلى ربه، وما أسرع خطوات الموت.

في جامع الطاووسية، جاء المصلون، وأقاموا الصلاة، وصلوا، وانتهت الصلاة، وانصرفوا إلى أعمالهم، خادم المسجد وجد معطفاً، لكن لا يوجد أحد في المسجد، ورأى حذاء، ولا يوجد أحد، نزل فتفقَّد، دورات المياه كلها فارغة إلا واحدة مقفولة من الداخل، أخبر الشرطة، فوجدوا رجلاً ميتاً، عمره خمس وأربعون سنة، أصيب بجلطة دموية، فما هذه الحياة؟

أحد الأخوة في جامع النابلسي، كان يستمع إلى خطبة الجمعة، مات وهو جالس، الموت يأتي بغتةً، والقبر صندوق الأعمال، هل مستعدٌ له؟ ضعف البصر، وضعف السمع، والشيب، والأسنان الصناعية، وانحناء الظهر، والأمراض الكثيرة، يقول لك: مناقير بالمفاصل، ديسك بالظهر، شحوم ثلاثية زائدة، كوليسترول، بوادر سكر، هذه التبدُّلات إشارات من الله لطيفة: أن يا عبدي قد اقترب اللقاء بيننا، فهل أنت مستعدٌ له؟.

يهمني أن تكون معنويات أحدنا قوية:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٣٩]

لأن الله هو الحق، وبحسب عملك سيكون مستقبلك، فرعون ماذا فعل؟، قال تعالى:

(يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ)

[سورة القصص الآية: ٤]

تسمع بالأخبار: أن الألوف المؤلفة من الناس بالعراء؛ مطر، وثلج، لا طعام، ولا شراب، ولا مأوى، والأطفال يموتون، فما ذنبهم هؤلاء؟ لأنهم مسلمون فقط، هذا الذي يفعل هذا، مصيره أسود، في خلود في النار، فالإنسان يجب عليه أن يتنبه إلى هذه النقطة، لأن الحياة ماضية وزائلة، وسبحان من قهر عباده بالموت.

إليكم سبب الاحتجاج بين الجنة والنار:

وعن أبي سعدٍ الخدري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ، قَالَ: فَقَضَى بَيْنَهُمَا، إِنَّكِ الْجَنَّةُ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذَابِي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكِلاكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

دروس بليغة نأخذها من لعبة للأطفال: القلابة، أحدهم يكون في الأعلى، ثم يصير في الأسفل، وهكذا دواليك، قال الله تعالى:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

[سورة الواقعة الآية: ١-٣]

إذا كنت أنت تحت ومع الله، فافرح، لأنك سترتفع إلى الأعلى، والذي فوق، ولم يكن مع الله، فسينزل إلى الأسفل، قال تعالى:

(خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

[سورة الواقعة الآية: ٣]

درس بليغ:

((احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ، قَالَ: فَقَضَى بَيْنَهُمَا...))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

متى يكون الضعف مقبول في المسلم، وهل القوة في مجالات الحياة اذا كانت كما أرادها الله مقبولة شرعاً؟

أيها الأخوة، إذا أنت قوي أحسن، المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف،

أما إذا كان طريق القوة فيه معصية، فالضعف أحسن، النبي يحبك أن تكون قوياً، المال قوة، والمنصب الرفيع قوة، والعلم قوة، والمؤمن القوي خياراته في العمل الصالح أوسع، وإمكانياته أكبر، وقدرته على العمل الصالح أكبر بكثير، لكن إذا كان طريق القوة أساسه النفاق، أو أساسه ارتكاب المعاصي والآثام، أو أساسه ترك الصلاة، وترك أي مظهر ديني، أو يكون الكسب كبيرًا من طريق غير مشروع، فهذه القوة التي تأتي عن طريق المعصية، اركلها بقدمك، ولا تعبأ بها.

صرت ضعيفاً، هذا الضعف وسام شرف لك، أنا لا أقول الضعف الذي يتمناه الإنسان، وبإمكانه يكون قوياً، لا، ولكن أحياناً يكون في طريق غير سالك، فيقول: مستحيل أن أبيع ديني بدنياي، مستحيل أن أضحي بديني، إذاً: ضعيف.

هناك ضعف الكسل، وعندنا فقر الكسل، وعندنا فقر القدر، وعندنا فقر الإنفاق، إذاً: الفقر أساسه القدر صاحبه معذور، إذا كنت ضعيفاً لأنك مؤمن، ضعيف لأنك متمسِّك بدينك، ضعيف لأنك ورع، هذا الضعف وسام شرف لك، أما هل بإمكانك أن تكون قوياً؟ يجب أن تكون قوياً، لأن قوتك للمسلمين.

أنا لا أقول: إن الضعف مقبول، الضعف غير مقبول، المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، وفي كل الخير، الذي أُلِحُّ عليه، إذا كان طريق القوة فيه معصية، فلا تقربه.

المؤمن مقيَّد بالشرع، ويلزم الطريق المشروع، ويكسب المال المشروع، الحلال وحده، أحياناً تكون ضعيفا، لأنك مقيد بالشرع، ممكن أن تغش، ولا أحد يدرى، وتحصِّل على أموال طائلة من الغش، فهل تستطيع أن تغش المسلمين؟.

أضرب مثلاً: يأتي قماش من أقل معمل بالعالم، يوضع عليه: مصنوع في انجلترا ، تبيعه بعشرة أضعاف رأس ماله، فهل تستطيع أن تفعل ذلك كمؤمن؟ لا تستطيع.

سمعت بأمريكا عن يا نصيب، ثمن البطاقة دولار واحد، والجائزة أربعة وثلاثون مليونًا، اضربهم بخمسين، فهل تستطيع أن تأخذ ورقة يا نصيب هناك وتربحها؟ لا تقدر، لأن اليانصيب حرام، أنت مقيد بالشرع، لأنك مؤمن.

أما إذا كانت أسباب القوة متاحة لك، ماذا ينبغي أن تفعل؟ أن تكون قوياً، إذا كنت في تجارة مسموح بها، ومشروعة، وحلال، اشتغل، وأتقن عملك، وانفع المؤمنين، وأطعم الفقراء، واليتامى، والمساكين، زوِّج الشباب، اعمل مشروعاً خيرياً، وظِّف المال بالحق.

لك أن تكون تاجراً من الطراز الأول، وأن توظف المال بالحق، بهذا تكون قد سبقت الدعاة، إذ لا حسد إلا في اثنتين؛ رجل أتاه الله علماً، فهو ينفق من علمه أناء الليل وأطراف النهار، ورجل أتاه الله مالاً، أنفق المال في تأسيس مستشفى، معهد شرعي، ميتم، في مشروع تزويج شباب.

في الآن صندوق الزواج، اسمه: صندوق المودة والرحمة، أن تدعم هذا الصندوق، تكون قد طبقت القول، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ، وَأَفْضَلُ، وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أما حينما يكون طريق القوة معصية، نركل هذه القوة بأقدامنا، ونؤثر عليها الضعف.

إذا كان طريق القوة الحرام، لا، طريق القوة: الغش نرفضها، طريق القوة: النفاق، نرفض هذه القوة، طريق القوة: ارتكاب الحرام، نرفض هذه القوة، أما إذا كان أبواب القوة متاحة للمؤمن، فهذا خير عميم.

أتمنى أن يكون المؤمن صناعياً كبيراً، والله ليس حباً بدنيا، ولكن لدعم المؤمنين، هناك إنسان يحمل معك، وهناك إنسان تريد أن تحمله، فالمسافة كبيرة جداً، إنسان يحمل، يعين، يدفع، يعاون، يسهم؛ إما بمنصبه، أو بماله، أو بعلمه، وإنسان طالب منك كل شيء، لا يعمل شيئاً، تريد أن تحمله، فالنبي طلب النخبة، قال:

((اللهم أعز الإسلام بأحد العمرين)).

طلب إنساناً قوياً، وإنساناً محترماً، أتمنى أن يكون المؤمن بأعلى درجة، طبيب لامع، محامٍ لامع، صناعي كبير مثلاً، تاجر كبير، ولكن وفق المنهج فقط، لا أقبل أن يكون في أي شبهة بعمله، إذا أنت قوي تعين.

الذي أقام الثانوية الشرعية، رجل دفع خمسة ملايين، والله شيء جميل، معهد شرعي، قلعة من قلاع الدين، قال: أنا متكفل بالنفقات بأكملها، المؤمن الغني ينشئ ثانوية، ينشئ مستشفى، يمد المسلمين بقوة، فهذا له أجر عند الله كبير جداً.

يحكى آلاف القصص، عن فقير جداً، صار غنياً كبيراً، كان ضعيفاً، صار قوياً علماً، ولأنه مستقيم، صار قوياً منصباً.

لي تعليق: كان على بعض أخواننا الأطباء بأمريكا، وصلوا إلى مناصب رفيعة في الجامعات، تركوها، ولحقوا العيادات الخاصة، من تسلم المناصب الرفيعة؟ اليهود، الآن طريق الدخول للبورد، أصبح من شبه المستحيل للمسلم، لو أن المسلمين آثروا رضاء ربهم على حظوظهم، وبقوا في هذه الأماكن الحساسة، أي إنسان يأتي من الشرق مسلم، يدخل هيئة البورد، فالمؤمن قوته للمسلمين.

خاتمة القول:

أيها الأخوة، فأنا لما ذكرت باب الضعفة والمساكين، أقصد هؤلاء الذين بسبب استقامتهم، وبسبب التزامهم، وتمسكهم بدينهم، كانوا على شيء من الضعف في مجتمع التفلت، إذا كنت ضعيف، لأنك مؤمن ومستقيم، فهذا وسام شرف، لا تعبأ، وكفاك على عدوك نصراً أنه في معصية الله، ولعل الضعف، ينتهي إلى قوة إن شاء الله.

أسمع قصص، من شدة تأثيرها لا تصدق، إنسان مستقيم استقامة تامة، هذا له حجم عند الله كبير، الله عزَّ وجل يلقي تقديره في قلوب الناس، وقد يصل إلى كل شيء.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (١٠١-٠١١) : باب التوكل (يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ من مواقف أبي بكر أيضاً) .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-٠٨-١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

كيف نفهم موضوع التوكل من خلال هذا الحديث، وما سر الفرق بين هجرة عمر وهجرة النبي ؟

أيها الأخوة المؤمنون، مع دروس الحديث النبوي الشريف، وننتقل إلى بابٍ جديد: هو باب التوكُّل، والتوكل موضوعٌ خطير، حينما فهم أجدادنا التوكُّل فهماً صحيحاً، رفرفت راياتُهم في المشرقين، وحينما فهمنا التوكل فهماً مغلوطاً، غُزينا في عُقر دارنا.

أيها الأخوة الأكارم، التوكل أن تأخذ بكل الأسباب، حتى لن يظن أن النجاح كله في الأسباب، وبعد ذلك تتوكل على رب الأرباب.

عَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ حَدَّثَهُ، قَالَ:

((نَظَرْتُ إِلَى أَقْدَامِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى رُؤوسِنَا، وَنَحْنُ فِي الْغَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ، أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟))

[أخرجه مسلم عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ في الصحيح]

هنا سؤال، هذا السؤال دقيق جداً: كلكم يعلم أن سيدنا عمر رضي الله عنه، هاجر جهاراً، وفي النهار، وتحت سمع الناس وبصرهم، ووقف بين كفار قريش، وقال:

((من أراد أن تثكله أمه، فليحقني إلى هذا الوادي))

وهاجر، هذه هجرة، والنبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق، وحبيب الحق، أشجع الناس، صاحب الرسالة، من وعده الله بالعصمة، قال تعالى:

(وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)

[سورة المائدة الآية: ٦٧]

لماذا هاجر سراً؟ لماذا اختفى؟ خرج من خوخةٍ لأبي بكر، خرج ليلاً، اتجه جنوباً، اختبأ في غار ثور، عيَّن شخص يتقصى له الأخبار، وعيَّن شخص يمحو له الآثار، وعيَّن شخص يأتيه بالزاد والماء، وعيَّن سيدنا علي يسَّجى في فراشه، ويرتدي بردته، لمَ كل هذه التدابير والاحتياطات، وهو النبي العظيم، وهو الرسول الكريم، وهو الشجاع، وهو الذي لا يخشى في الله لومة لائم؟ أيكون عمر أشجع من النبي؟ أيكون عمر أكثر جرأةً من رسول الله؟ لماذا؟.

هنا وقف العلماء وقفةً دقيقة فقالوا: إن سيدنا عمر، حينما هاجر جهاراً، كان يمثّل نفسه، هذا موقف شخصي، سيدنا عمر ليس مشرعاً، لا تُتَّخذ سيرته شرعاً من بعده، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام، هاجر كما هاجر عمر، لظن أن هذا هو الواجب، أن تلقي بنفسك في الخطر، ولكان هذا تشريعاً من بعد النبي الصلاة والسلام، ولألقى الناس بأنفسهم في التهلكة اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم.

النبي عليه الصلاة والسلام، ما كان ليفعل كما فعل عمر، لأنه مشرِّع، ولأن هذه الحياة الدنيا، بُنيت على أسباب ومسبِّبات، فكل إنسان أراد أن يتأدَّب مع الله عزَّ وجل، عليه أن يأخذ بالأسباب، فهذا هو السر.

هناك نقطة مهمة جداً ساقني إليها هذا الحديث: لو أن النبي عليه الصلاة والسلام، اتخذ كل هذه الإجراءات، وتلك الاحتياطات بدافعٍ من خوفٍ، لفقد تماسكه حين أحدق بها المشركون في غار ثور، ولكنه ما فعل كل هذه الإجراءات، وما فعل كل تلك الاحتياطات إلا تعليماً لنا، أما هو فمتوكلٌ على الله عزَّ وجل، والدليل أن سيدنا الصديق رضي الله عنه، حينما فزع، وخاف على النبي عليه الصلاة والسلام وقال:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ، نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ، أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، -نظر إلى النبي، فإذا هو كالبحر الساكن، فإذا هو كالجبل الراسخ، فإذا هو واثقٌ من نصر الله عزَّ وجل- قال له: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟))

هذا الذي بيده كل شيء، والذي إذا قال لشيءٍ: كن فيكون، زل فيزول، إذا كان معك أتخشى أحدا؟. فهذا الحديث يبيِّن لنا: أن النبي عليه الصلاة والسلام، ما فعل كل هذه الاحتياطات، إلا تعليماً لنا، لأنه مشرِّع، وهو أشجع الشجعان، وكان يقول أصحابه عنه:

((كنا إذا حمي الوطيس لُذنا برسول الله))

مرة سمع أهل المدينة أصواتًا مخيفة، فخرجوا من بيوتهم لتقصي الخبر، فإذا النبي قد سبقهم إلى الخطر، وعاد ممتطياً جواده ويقول:

((لَنْ تُرَاعُوا، لَنْ تُرَاعُوا))

[أخرجه البخاري عن أنس في الصحيح]

ما كان أحدٌ أشجع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسيدنا أبو بكر، له مقام وصل إلى نهايته، لما رأى أقدام المشركين بدت له، وهو في الغار، وأن القضية قضية حياء أو موت، وأن الإسلام سينتهي، وأن أحدهم لو نظر إلى موطئ قدمه لرآنا، استبد بقلبه الفزع، لأنه ليس نبياً، وليس رسولاً، إنه صديق، فقال:

((يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا؟))

هذا التوكل.

أريد أن يفهم الأخوة الحاضرون، أن التوكل في جوهره أخذٌ بكل الأسباب، سدٌ لكل الثغرات، تغطية لكل الاحتمالات، توقعٌ لكل المفاجآت، اعتناءٌ بكل المقوّمات، سلوكٌ في كل الطرق، وبعد ذلك إلى أن يظن المراقب، أن هذه الأسباب هي كل شيءٍ في النجاح، وبعدها تتوكل على رب الأرباب.

ما سبب تخلف المسلمين في هذا العصر ؟

أيها الأخوة الحاضرون، أصحاب المصالح التجارية، أصحاب المصالح الزراعية، الصناعية، الموظفين، الأطباء، القضاة، الأطباء، المحامون، المهندسون، إن المسلمين ما فتحوا المشرقين إلا بفهمهم الصحيح للتوكل، وما تخلفوا إلا بفهمهم المغلوط.

التوكل الآن عند بعض المسلمين: قعود، خمول، تقصير، خلل، كسل، ليس هذا هو التوكل، فأبسط شيء: يأكل تفاحة من دون غسيل، ويقول لك: سمِّ بالله وكل، أهذا مؤمن؟ من قال لك: أن الإيمان يقول لك: كل الفاكهة من دون غسيل؟ من قال لك ذلك؟ وقد روي:

((من أكل التراب، فقد أعان على قتل نفسه))

فإذا أكل فاكهة لم يغسلها، فقد أعان على قتل نفسه، من قال لك: إن المسلم أموره سائبة، لا يأخذ بالأسباب، لا يحتاط؟ من قال لك ذلك؟ هذا فهمٌ أوردنا ما أوردنا، هذا فهمٌ للتوكل سقيم، أتاح لأعدائنا أن ينتصروا علينا في غفلةٍ من الزمن، نحن سادرون في غفلتنا، وفي تكاسلنا، وأعداؤنا يصنعون ويخترعون حتى تفوقوا علينا، ففرضوا علينا إرادتهم، فأصحاب الأسلحة ذات التدمير الشامل الآن، لهم سيطرة على العالم كله، أليس كذلك؟ فلذلك ربنا عزَّ وجل قال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

[سورة الأنفال الآية: ٦٠]

ولكل عصرٍ له قوته، وكأن قوة هذا العصر هي العلم، فإذا أردت أن تؤثر في الناس، ينبغي أن تكون عالماً في العلوم العصرية التي يعظمها الناس.

إليكم تفسير هذا الحديث:

((إذا أتيت مضجعك.....))

على ضوء العلم:

عن أبي عمارة البراء بن عازب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((يَا فُلانُ، -وهناك رواية فيها: يا براء بن عازب- إذَا أوَيْتَ إلَى فِرَاشِكَ فقُل: اللَّهُمَّ أسْلَمْتُ نَفْسِي إليْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إلَيْكَ، وَفوَّضْتُ أمْرِي إليْكَ، وَألْجَأتُ ظهْرِي إليْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إليْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إلا إليْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أرْسَلْتَ، فَإنَّكَ إنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ، مُتَّ عَلَى الفِطْرَةِ، وَإنْ أصْبَحْتَ أصَبْتَ أجْرًا))

[أخرجه البخاري عن البراء بن عازب في الصحيح]

وفي روايةٍ في الصحيحين، عن البراء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إذَا أتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فتَوَضَّأ وَضُوءَكَ لِلصَّلاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأيْمَنِ))

[أخرجه البخاري عن البراء بن عازب في الصحيح]

أول شيء في هذا الحديث: أنك إذا أويت إلى مضجعك، فاضطجع على شقك الأيمن، وهذه هي السنة.

وقال بعضهم: الأغنياء يضَّجعون على شقهم الأيسر، والعلماء يضجعون على شقهم الأيمن، والملوك يضجعون على ظهورهم، والشياطين يضجعون على بطونهم.

وقرأت مقالة تقول: إن الهضم للذي يضجع على شقه الأيمن، يكون أسرع بكثير، وأن الذي يضجع على ظهره، ربما دخل الهواء من فمه، فإذا استنشق الهواء من فمه، تراجعت لثَّته، وأصيب بأعراض أمراض البرد المزمنة، أي أن سبب تراجع اللثة أحياناً، وسبب الرشحات المزمنة، هذا الذي يضجع على ظهره، ويستنشق الهواء من فمه، لأن الهواء حينما يدخل في الأنف، يمر بين صفائح متداخلة ساخنة، فالهواء يدخل من فتحتي الأنف بدرجة صفر في الشتاء أو خمسة، ويصل إلى مقدَّم الرغامى بدرجة سبعة وثلاثين، لأن سطوح الأنف، فيها خاصَّة تنفرد بها، وهي أن الشرايين لها عضلات عَرضية تتوسع.

فالإنسان في البرد، لو نظر في المرآة، لرأى أنفه أحمر اللون، فالشرايين في داخل الأنف تتوسع بفعل عضلات دائرية، وتأخذ كمية دم كبيرة جداً، والدم ساخن بدرجة ثمانية وثلاثين، لذلك الهواء الذي يستنشقه الإنسان في الشتاء، يمر بين سطوح ساخنة.

هذه السطوح مغطاة بطبقة مخاطية لزجة، فكل شيء في الهواء المستنشق من غبار، من هباب، من أجسام غريبة، يعلق على هذه السطوح، ولو تصورنا ذرةً مع الهواء، استطاعت أن تنجو من هذه السطوح، فتمر في الفراغات فقط، فإن الأشعار التي خلقها الله في الأنف تصطادها.

عندنا سطوح ساخنة ولزجة، وفي عندنا أشعار بمثابة الشبكة، والهواء يصل إلى الرغامى بدرجة حرارة سبعة وثلاثين، لذلك أغلب أنواع نزلات البرد المزمنة، هؤلاء الذي يضطجعون على

ظهورهم، ويتنفسون من أفواههم، وفوق هذا وذاك، يحدثون غطيطاً، يُزعج الآخرين، فالنبي عليه الصلاة والسلام علّمنا أن نضجع على شقنا الأيمن، هذا بعض توجيهات الحديث.

((إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ))

[أخرجه البخاري عن البراء بن عازب في الصحيح]

الآن يقول لي واحد: نحن بدأنا على الشق الأيمن، لكن بعد ذلك الله أعلم، الإنسان محاسب على الوعي، ساعة وعيه، بدأ على شقه الأيمن، بعد ذلك تقلب، لكن ربنا عزَّ وجل قال:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

[سورة الكهف الآية: ١٨]

إذا كان ونقلبهم فقط، يقلب من على السرير، لكن من رحمة الله بنا، قال:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ)

[سورة الكهف الآية: ١٨]

أخذ عشرين سنتيمترًا، قال تعالى:

(وَذَاتَ الشِّمَالِ)

[سورة الكهف الآية: ١٨]

أرجعهم، فبقي على السرير طوال الليل، وبعضهم يرى أن الإنسان يتقلب أكثر من ثمان وثلاثين مرة في الليلة الواحدة، سبحان الله في أجهزة معقدة جداً، هذه الأجهزة اسمها: نهايات عصبية تتحسس بالضغط، فإذا الإنسان وضع يده على جسم صلب وضغط، يشعر أن هذا الجسم صلب، فكيف يشعر به؟ إذا الإنسان وضع يده على وسادة طرية، يشعر أنها طرية، وضعاه على سطح خشبي قاس، يحس كذلك، من أشعره أن هذا السطح صلب، وهذا مرن؟ أعصاب أودعها الله في كل أنحاء الجسم تتحسس بالضغط.

فعندما ينام الإنسان، يضغط هيكله العظمي على عضلاته، الهيكل له وزن، واحد له وزن معين، فصار هيكله العظمي، والعضلات التي فوق الهيكل العظمي، تضغط على العضلات التي تحت الهيكل العظمي، هذا الضغط يسبب انضغاط للأوردة الدموية، هذا الانضغاط يسبب ضعف بتروية العضلات، فلما يستمر الإنسان ساعة على وضع معيَّن، هذه النهايات العصبية التي أودعها الله في العضلات، تخبر الدماغ، وأنت نائم، فترى وأنت نائم المرج حشيشًا مزروعة، تخبر الدماغ أن هناك انضغاط على العضلات الفلانية، الدماغ يعطي أمر للعضلات، فالنائم يغير نومته، وأنت لا تشعر، الدماغ يقظ، الدماغ لا ينام.

لذلك عندما يكون مع الإنسان مرض الثبات، أو معه شلل، دواؤه الوحيد التقليب، وإلا يتآكل لحمه، هذا المرض اسمه بالطب: قرحة السرير.

أول أمر من طبيب للمرض أو الممرضة، لمعالجة مريض مصاب بالشلل أو بالثبات، التقليب وإلا يتآكل لحمه، ينزع لحمه عن عظمه، يموت فلا توجد تروية، لذلك يعد قوله تعالى في سورة الكهف من إعجاز القرآن العلمي:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

[سورة الكهف الآية: ١٨]

لو الله لم يقلبهم، لما استطاعوا العيش ثلاثمئة سنة، ولا عاشوا سنة، ولا شهر، شهر ينتهي الإنسان، فلو استلقي على ظهره ينتهي، يتفتت لحمه كله، فمن إعجاز القرآن العلمي قوله تعالى:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ)

[سورة الكهف الآية: ١٨]

إذاً: السُنة: أنك إذا أويت إلى مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن. فإذا أكل الإنسان أكثر مما يجب، لا يرتاح إلا على شقه الأيسر، لأنه مكان المعدة، أحضر كرة، ضع فيها قطعة رصاص من داخلها، ودحرجها، أين تستقر؟ محل الرصاص، فكل إنسان، عليه تطبيقها، فهذه من السنة.

إليكم هذا المعنى للشق الأول من هذا الحديث: ((يا فلان اذا أويت..... نفسي اليك)):

((يَا فُلانُ، إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ...))

[أخرجه البخاري عن البراء بن عازب في الصحيح]

فمعنى أسلمت نفسي إليك: أي جعلتها منقادةً إليك، فالإنسان الذي يطيع الله عزَّ وجل، في كل أحواله، في كل حركاته، وسكناته، في كل وقت، في كل مناسبة، في كل موقف، في كل عمل، هو مسلم، المسلم من سَلَّم قياده إلى الله عزَّ وجل، قال تعالى:

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة البقرة الآية: ١٣١]

قل: أسلمت نفسي إليك، أي يا رب، ليس لي اختيار خلاف شرعك، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

يجب أن يتوافق هوى نفسك مع شرع الله عزَّ وجل، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((طوبى لمن وسعته السنة، ولم تستهوه البدعة))

أي إذا كان الواحد منا، يشتهي شيئا لم يسمح الله به، يتمنى شيئا لم يقره الله، فهذه بادرة خطيرة جداً، يحتاج إلى جهد كبير، إلى أن تنطبق رغباته، ومشاعره، وطموحاته على الشرع الشريف، هل

تحب أن تقضي وقتاً فيما لا يرضي الله؟ لا والله، لكن هل تحب أن تقضي وقتك في العمل الصالح؟ نعم، بارك الله بك، هل ترى نفسك في المسجد كالسمك في الماء أم كالعصفور في القفص؟ المؤمن يرى نفسه في المسجد كالسمك في الماء، هذا مكانه الطبيعي، يألف للمسجد.

فقل قبل أن تنام: أسلمت نفسي إليك، إذا الواحد لم يطبق الشرع، وقال بلسانه: أسلمت نفسي إليك، هذا كلام غير صحيح، هذا كلام ليس له معنى، لا يعبر عن شيء، لا يسمى، لا يكون الإنسان صادقاً فيما يقول، إلا إذا كان واقعه مؤكداً لقوله.

ما هو المعنى الديني للشق الثاني لهذا الحديث: ((ووجهت.... أمري إليك)):

(وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ): أي يا رب، أنا أتوجه إليك، أقبل عليك، أتصل بك، وهذا مقياس دقيق، إذا لم يكن لأحدنا وجهة إلى الله عزَّ وجل، ليس عنده إمكانية يتوجَّه إلى الله، إذا جلس أحدنا في غرفة وحيداً، وضاق ذرعاً بهذه الوحدة، أيضاً هذه بادرة خطيرة، الإنسان يجب أن يكون له وجهة إلى الله عزَّ وجل، يا ترى لك مع الله خلوة؟ هل تأنس بالله؟ لو سافرت في طريق طويل، ليس لك رفيق بالطريق، هل أنت تستأنس بذكر الله عزَّ وجل؟ هل تأنس بقراءة القرآن؟ توجه إلى الله عزَّ وجل.

((أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ))

مستسلم.

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم معدلٌ وإن عدلوا

والله وإن فتّتوا في حبهم كبدي باقٍ على حبهم راضٍ بما فعلوا

كـن عن همومك معرضَ وكلِ الأمـور إلى القضا

وابشر بخيرٍ عاجـلٍ تنسى بـه ما قد مضى

فلرب أمرٍ مسخطٍ لك في عواقبه رضا

ولربما ضاق المضيق ولربما اتسع الفضا

الله يفعل ما يشاء فلا تكن معترضا

الله عودك الجميل فقس على ما قد مضى

دعاء جميل، الإنسان دعا هذا الدعاء قبل أن ينام، لعل الله سبحانه وتعالى يجعل نومه قطعة من السعادة، قد يأتي في النوم كوابيس، يقول لك: استيقظت مذعورًا، لأنه رأى حية في نومه، أو رأى نفسه منقولا إلى منطقة نائية، يمكن أن يستيقظ، يشعر بانزعاج ليس له حدود، وكل واحد يرى منامًا بحسب مخاوفه.

فهذه المنامات: إما أنها كوابيس من الشيطان تسحق الإنسان، وإما أن تمضي هذه السويعات، وكأنك في الجنان، لذلك الإنسان إذا أقبل على الواحد الديان قبل أن ينام، كأنه في الجنان، هذا الدعاء حبذا لو يحفظ، ويكتب، ويقرأ قبل أن ينام.

((أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ)).

وكّلت محاميًّا، بيده مقاليد السموات والأرض، فأصبحت لا تخاف، إن الله يدافع عن الذين آمنوا، يا رب كما تريد، كن لي كما تريد عبدي، أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد، ولا تُعلمني بما يصلحك.

إليكم تفسير تتمة الحديث: ((ألجأت ظهري اليك.......)).

(أَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ): يقولون: فلان له ظهر، أما المؤمن ألجأت ظهري إليك، ليس ظهر من البشر، قد يكون ضعيفًا، قد يكون مستضعفًا، ولكنك إذا ألجأت ظهرك إلى الله، فأنت أقوى الناس، وهكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا أردت أن تكون أقوى الناس، فتوكل على الله))

ومالي سوى فقري إليك وسيل ةٌ فبالافتقار إليـك فقري أدفع

ومالي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددت فأي بـــابٍ أقرع

ومن الذي أدعو وأهتف باسمه إن كان فضلك عن فقيرك يمنع

أتحب أن تكون أقوى الناس؟ تذلل إلى الله عزَّ وجل، قل: اللهم لا علم لي إلا ما علمتني، لا حول ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله كان، وما شاء لم يكن.

اخرج من بيتك قل:

((اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ؛ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ))

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ، وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ، وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً)

حينما تدعو الله عزَّ وجل بهذه الأدعية، وتعلن عن افتقارك إليه، وتعلن عن ضعفك أمامه، وعن فنائك في حضرته، فأنت تصبح أقوى الناس، لأن الله يخلق من الضعف قوةً.

((أَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ))

((ما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي، فتكيده أهل السموات والأرض، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

يقول لك: هذا رقم تلفوني، بأي لحظة أنا جاهز، تدق له فإذا هو مشغول، أين هو؟ لا نعرف أين هو؟ وأن تريده الآن، ليس موجودًا، لأنك اعتمدت عليه، وتركت الواحد الديَّان، فالإنسان يجعل كل ثقته وكل اعتماده على الله عزَّ وجل.

((أَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ، مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ))

أي على ما يرضي الله عزَّ وجل، على وضعٍ سليم.

وإذا شئتم أمليه عليكم مرة ثانية بالسرعة الإملائية:

((يَا فُلانُ، إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنَّكَ إِنْ مُتَّ فِي لَيْلَتِكَ، مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَإِنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ أَجْرًا))

[أخرجه البخاري عن البراء بن عازب في الصحيح]

وفي روايةٍ في الصحيحين عن البراء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، وقل: وذكر نحوه، كما قال قبل قليل، ثم قال: واجعلهن آخر ما تقول))

[أخرجه البخاري عن البراء بن عازب في الصحيح]

إليكم أحداث معركة بدر، وما فيها من عبرات:

والآن إلى سيرة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين.

الآن ننتقل إلى معركة بدر: ففي يوم بدر، نزلت قريشٌ بجيشها اللجب، عند العدوة القصوى من الوادي، مسلحة بكبريائها وبأسها، وخرج المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعِدَّتهم يوم ذلك ثلاثمئة، لا يملكون من سلاح المقاومة إلا نذراً يسيراً، ويلتقي الجمعان، وتتلظى أرض المعركة فجأةً، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ في عريشه، حيث توسَّل إليه أصحابه، ألا يغادر خيمته، مهما تدر رحى الحرب، وأبو بكرٍ معه.

بَصُرَ النبي عليه الصلاة والسلام بالمعركة المحتدمة الحافلة، ورأى أصحابه، وهم قليلون، يكادون يذوبون وسط الخصم الوثني المجنون، وكلما رأى شهيداً يسقط، طار معه قلبه حناناً وأسى، وبلغ القتال ذروته الفاصلة، ولم يعد يسمع إلا صليل السيوف متوهجةً، تعزف لحن الموت والدم، وأحس النبي عليه الصلاة والسلام أن كل مقدَّرات الدين، قد صارت في الكفة المرجوحة، لا الكفة

الراجحة، وخرج من خيمته صلى الله عليه وسلم، باسطاً إلى السماء ذراعيه، مثل شراعي سفينة، داهمها موجٌ عنيدٌ عتيد، وراح يناجي ربه في ابتهالاتٍ عالية ويقول:

((اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ))

معنى العصابة: أي الجماعة على الخير، هذه الكلمة لها تاريخ، الكلمات كالكائن الحي؛ تولد، وتَشِب، وتهرم، وتموت، فالكلمة في الماضي لها معنى، معنى العصابة الجماعة، مُطلق الجماعة.
الآن تقول: هذه عصابة، أي قتلة، سارقون، قطّاع طرق، فكلمة عصابة إذا وردت في السنة المطهرة: فتعني الجماعة، قل لواحد الآن: أنت جرثوم هذا المجلس، ألا يغضب منك، معنى جرثوم في اللغة: أصل الشيء، قام شاعر مدح خليفة عظيمًا، وقال له: أنت جرثومة الدين، والإسلام، والحسب، فكافأه.

لو قال واحد لإنسان: أنت جرثوم الصف مثلاً، يقوم بضربك، فجرثوم لها معنى، وكلمة عصابة لها معنى، يجب أن ينصرف ذهنك لا إلى المعنى المستعمل الآن، بل إلى المعنى المستعمل قديماً، فكلمة الاستعمار لها معنى ثقيل: قوة مغتصبة، معتدية، تنهب الثروات، تقهر الإرادة، تقتل الشباب، أما ربنا قال:

(وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)

[سورة هود الآية: ٦١]

الاستعمار عمارة الأرض، إذا كان نحن استعمرنا أرض باللغة، أي أقمنا المستشفيات، والمدارس، والجسور، والطرقات، والمتنزهات، والمعامل، والمصانع، والمرافئ، والموانئ هكذا، هذا معنى الاستعمار، أي أنك عمرت الأرض، فالكلمات تأخذ معنى من خلال التاريخ.

فهذه كلمة عصابة: إياكم ينصرف ذهنكم إلى المعاني التي تستعمل بها الآن، فقال عليه الصلاة والسلام:

((اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلامِ، لا تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ.قال: توالت ابتهالاته، وبُحت نبراته، وتهدَّجت دعواته -أي بكى اللهم صل عليه- وسقط رداؤه من فوق منكبه.

وهنا اقترب أبا بكرٍ رضي الله عنه في هدوء، فرفع رداء الرسول عليه الصلاة والسلام، وأعاده إلى مكانه فوق المِنكبين اللتين تحملان أعظم أعباء الحياة، -أعباء نشر الدين، فهي معركة فاصلة، يسمونها معركة حاسمة، يسمونها الآن معركة مصيرية، قد ينتهي الدين بها- فقال رضي الله عنه مخاطباً رسول الله: يا رسول الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك))

سؤال هام:

سؤال صغير: لماذا في الغار سيدنا الصديق فزع، استبد الفزع بقلبه، والنبي طمأنه؟ ولماذا هنا العكس؟ سؤال دقيق.

قال: لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما هاجر، أخذ كل الأسباب، انتهت مهمته، بقي الحفظ الإلهي، وهو واثق من هذا الحفظ، أما الآن: فقلقه أن يكون، قد قصَّر في إعداد الأسباب، هنا القلق، ليس خائفاً من أن يخلف الله وعده، لا، واثقٌ من نصر الله، ولكنه خاف الآن أن يكون الإعداد غير كافٍ، لم يكن مع الله طائعاً مئة في المئة، فكان إعداد غير كافٍ، فلذلك هنا في خوف من التقصير، أما في الغار فقد أعد كل شيءٍ عدته، وانتهى الأمر، وبقي التوكل.

لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام في شكٍ من نصر الله، فقُبيل المعركة قال لأصحابه:

((سيروا على بركة الله، فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم))

ولكن مسؤوليته مباشرة عن أصحابه، وعن الدين، الحقيقة: العبودية تعني أنك لا تستطيع التنبُّه بالغيب.

النبي عليه الصلاة والسلام، دخل على بعض أصحابه الذين توفوا، أبو السائب عثمان بن مظعون، كشف عن وجهه الرداء وقبله، سمع صوت من وراء الستار، ويبدو أن الصوت صوت امرأته، تقول له:

((هنيئاً لك أبا السائب، لقد أكرمك الله، -سكوت النبي إقرار، هذا كلام غير صحيح- فقال عليه الصلاة والسلام: ومن أدراكِ أن الله أكرمه؟ قولي: أرجو الله أن يكرمه -هكذا قولي- فقال عليه الصلاة والسلام: وأنا رسول الله، لا أدري ما يفعل به))

أخي أنا أعرف النتيجة، أنت مخطئ، فإنه لا يعلم الغيب إلا الله، تأدب مع الله عزَّ وجل، الله وعده بالنصر، ولكنه خائف، لأنه مسؤول، مسؤولية كبيرة جداً، لذلك شعوره بالمسؤولية جعله يقلق.

إليكم هذا الموقف لأبي بكر يشهد له بقوة الايمان، والتماسك والصمود أمام النكبات:

الموقف الأخير: قال: ومن شاء أن يرى إيمان أبي بكر في أحسن ساعاته، من شاء أن يرى الإيمان العلوي الموصول بقيّوم السموات والأرض، فليرَ هذا الإيمان يوم دعي الرسول إلى الرفيق الأعلى، هذا أخطر موقف وقفه سيدنا الصديق، فأجاب ورحل عن الحياة والأحياء، يوم تلفت المسلمون فجأةً، فلم يروا بينهم الأب الذي كان يملأ حياتهم حناناً، والنور الذي كان يملأ وجودهم ضياء، أين رسول الله؟ توفي، لم يكن أحداً منهم مستعد أن يقبل الخبر إطلاقاً، يومئذٍ تكشَّف جوهر هذا الإيمان،

إيمان رجلٍ أعطى الله موثقه مع محمد، فإذا اختفى محمد بالموت، فإن هذا الإيمان لا يضعف بل يتفوق، ولا يجزع بل يحتشم، ولا ينوء تحت وقع الضربة، بل ينهض رشيداً ثابتاً، هكذا وقف سيدنا الصديق.

وقف إيمان أبي بكر، يوم وفاة رسول الله وقفةً، ما كان يقدر عليها سواه، ما كان واحدٌ من أصحاب رسول الله، يقدر أن يقف وقفته، إلا هذا الصديق.

يومئذٍ وبعد أن صلى بالمسلمين، عاد الرسول إلى حجرته، وعاده أبو بكرٍ في حجرته -أي زاره- واستأذنه في أن يغيب عنه بعض الوقت، وذهب إلى داره بالعالية في أقصى المدينة، ومضى وقتٌ ليس بالطويل، قضى فيه بعض حاجات أهله، وإذ هو يتهيَّأ للعودة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا الناعي يقطع الأرض إليه وثباً، ويلقي عليه النبأ الذي يهدُّ الجبال، ماذا فعل؟.

قال:

((فحمد واسترجع، إنا لله وإنا إليه راجعون، -هكذا السنة- واختلطت دموعه الهاطلة بكلماته، وهو يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وأغزا السير -أي أسرع بالسير- رابط الجأش، قوي الجَلَد إلى بيت رسول الله.

لم يكد يقترب من المسجد، حتى رأى الفاجعة الكبرى، فقدْ فقدّ المسلمون صوابهم، حتى إن عمر بن الخطاب القوي الراسخ، وقف بين الناس شاهراً سيفه صائحاً: إن رجالاً من المنافقين، يزعمون أن رسول الله مات، وإنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى إلى ربه، والله ليرجعن رسول الله، فليقطعن أيدي رجالاً، زعموا أنه مات، ألا لا أسمع أحداً يقول: إن رسول الله مات، إلا فلقت هامته بسيفي هذا؟))

هذا سيدنا عمر اختل، تلك كانت حال عمر، فكيف كانت حال من سواه؟!.

خبر صاعق لم يتحمله المسلمون إطلاقاً، لقد كان موت الرسول مفاجأةً تامةً للمسلمين، على الرغم من سابق مرضه، كأنهم لم يتصوَّروا أبداً، أن يقال لهم ذات يومٍ: مات الرسول، هذه فوق احتمالهم.

فلما أنفذ الله أمره، واختاره لجوار رسوله، وكتب على الناس: أن يسمعوا في لجج من الهول والأسى، كلمة الموت مقترنة بكلمة الرسول، طار منهم صوابهم، ولقد كان أبو بكرٍ أحق الناس بأكبر قدرٍ من الأسى والذهول، فهو صديق العمر لمحمد منذ طفولة الحياة وشبابها، وهو الصديق، صديقه وصدّيقه منذ أول أيام الوحي والدين، وهو قد أحبه حباً، وآخاه مؤاخاةً تجعل الصبر على فراقه فوق طاقة البشر، لكن أبا بكر كان يبدو وكأنه لا تحركه طاقاتٌ بشرية، بل طاقة إلهية حلَّت به، ولندع شاهد عيان يصف لنا ثبات أبي بكر عند الصدمة الأولى.

أقبل أبو بكرٍ يكلم الناس، فلم يلتفت إليه أحد، ودخل على الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو مسجَّى في ناحية البيت، عليه بردةٌ حِبَرَة، فكشف عن وجهه ثم قبَّله، وقال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً

وميتاً، إن الموتة التي كتبها الله عليك قد متَّها، ثم ردَّ الثوب على وجه رسول الله، ثم خرج، وعمر يكلم الناس، فدعاه للسكوت، فأبى عمر أن يسكت، إلا أنه ظل مسترسلاً، فلما رآه أبو بكرٍ لا ينصت، أقبل على الناس يكلمهم، فلما رأوه، وسمعوه يتكلم، أقبلوا عليه منصتين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس، -انظروا إلى التوحيد- من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، -نحن لا يوجد عندنا وثنية أبداً، ديننا دين توحيد، حتى النبي- ومن كان يعبد الله، فإن الله حيٌ لا يموت، ثم تلا هذه الآية:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٤٤]

قال: فو الله كأن الناس لم يسمعوا بهذه الآية من قبل، كأن هذه الآية لا يعرفوها، وكأنهم سمعوها من سيدنا الصديق أول مرة في حياتهم، أما عمر، فلما سمع الآية، أيقن أنه مات، فوقع على الأرض مغشياً عليه، حين علم من كلمات أبي بكر، أن الموت حق

في هذه اللحظة المذهلة، والفاجعة المزلزلة، يكون مثل هذا الثبات،

((من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حيٌ لا يموت))

إن أقصى ما كان ينتظر من سيدنا الصديق كلماتٌ توصي بالصبر، منح العزاء، ولكنه قرر كلمات التوحيد، الله حيٌ لا يموت.

لقد فعلت صيحة أبي بكر في نفوسهم فعل القدر، فقاموا إلى الجسد الكريم المسجى، وأدَّوا إليه تحية الوداع ممزوجة بالعزم الأكيد، الذي سيستقبلون به تبعات الساعات التالية.

يقول بعض العلماء: لو لم يكن هناك أبو بكر، ماذا حصل؟ ما كان في أصحاب النبي إلا واحدٌ، هو هذا الصديق العظيم، الذي كانت له أعصابٌ تحمل الصدمة، واستوعبها، ولم يختل إيمانه، ولم يقع تحت وقع الخبر المذهل، ولم يقل إلا الحق.

إن الأمر ليبدو كما لو أن الله عزَّ وجل، حينما اصطفى محمداً عليه الصلاة والسلام ليكون رسوله إلى الناس، اجتبى معه في اللحظة نفسها أبا بكر رضي الله عنه، ليكمل دور النبي، لذلك المؤرخون يقولون: هو المؤسس الثاني للإسلام.

في عندنا مواقف مع المرتدين مشرفة جداً، ومع الجيش الذي أرسله إلى الشام وسط الارتداد، ووسط الفتن، ولو لم يكن هذا الصديق في هذا العزم الأكيد، وهذا الإيمان الراسخ، لانهار الإسلام من بعده، هذه بعض المواقف.

أجمل شيء في هذه القصة، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، لا تربط إيمانك بإنسان، أنت آمنت بالله، لا تصحب إلا من ينهض بك إلى الله حاله، ويدلك على الله مقاله، الإنسان مشرع، موضح، مبين، لكن الله سبحانه وتعالى هو الحي الباقي على الدوام.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (١٠١-٠١٢) : باب التقوى (إن الدنيا حلوة خضرة....، من مواقف أبي بكر الصديق) .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-٠٨-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم التوسع في شرح معاني هذا الحديث:

أيها الأخوة المؤمنون، مع درس جديد من دروس الحديث النبوي الشريف، ونحن في باب التقوى ،
عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَتْ فِي النِّسَاءِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

نقول: عن أبي سعيدٍ الخدري، أو عن أبي سعيدِ الخدري، كلاهما صحيح، والأحاديث التي ترد في صحيح مسلم، هي أحاديث من الدرجة الأولى، فالنبي عليه الصلاة والسلام واقعي، أي إن الدنيا حلوة خضرة، لو أن الإنسان في شباب، وصحة، وعافية، وذو مال وفير، وله أهل يروقون له، ولـه بيت واسع، وبإمكانه أن يمضي أوقاته كلها في المتع، والمباهج، والحفلات، والسهرات، والنزهات، والرحلات، والسياحات، ويأكل ما لذّ وطاب، ويلتقي مع أصدقائه مختلطين رجالا وإناثا، فينظر إلى تلك، وعينه على تلك، ولسانه مع تلك، ومزاحه مع تلك، فهذه الدنيا خضرة نظرة، فيها طعام نفيس، وفيها بيوت جميلة، وفيها سيارات فارهة، فيها مقاصف جميلة جدا، فيها أماكن سياحية، فيها وجاهة، فيها شأن، فيها مكانة، هكذا الدنيا، النبي عليه الصلاة والسلام واقعي.

قد يقول لك مؤمن: الدنيا كريهة، من قال لك: إنها كريهة؟ هذا كلام غير واقعي، لن تستطيع أن تمشي مع إنسان إلا إذا كان واقعيا، فالنبي عليه الصلاة و السلام واقعي،

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ))

لكن المشكلة أن هذه الحلاوة مؤقتة، فاحضروا حلاوة رضاعها، ومرارة فطامها، فيها انقطاع.

حدّثني رجل يعمل في معمل، وصاحب المعمل ذكر لي عن بيته شيء مثل الخيال تماما، الفرش غرفة شرقي، غرفة غربي، مكتبة فخمة، الأقواس، غرفة لها ترتيب معين، التكييف، والتدفئة، الشرفات، كيف يمضون الأوقات؟ حتى وصف لي نوع الفُرش، ونوع البيوت، قال لي: توفي في يوم من أيام الشتاء، وكان القبر مفتوح على الفلاة، وأقسم لي بالله، أن ماء أسود، يمشي في القبر، فلما سئل ابنه، وابنه مهندس، أنضعه هنا؟ قال: ضعوه، نخلص.

فهذا الذي كان يشتري الغطاء ملاءة السرير، تأتيه من باريس، تأتيه بآلاف الليرات، غطاء للسرير، بيته بوصف فوق حد الخيال، أين هو؟ في قبر، وبعض الأسيقة قد فُتحت عليه ، البطولة في النهاية لا في البداية.

فلذلك النبي الكريم قال:

((إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ))

أما أن يكون الإنسان مستقيما نظيفا فلا مانع، يكون مرتبا لا مانع، يكون أنيقا لا مانع، النبي عليه الصلاة و السلام قال:

((أصلحوا رحالكم، وحسنوا لباسكم، حتى تكونوا شامة بين الناس))

الإسلام نظيف، إذا كان الإنسان نظيفًا، أنيقًا، مرتبًا، وله مظهر حسن، بيته نظيف جدا، ومرتب، فيه نظام صارم للنظافة، وكذلك في دكانه، هذا شيء رائع جدا، هذا من الإسلام أساسا، وما كان في المسلمين رجل أشد نظافة من رسول الله، كان يعرف بريح المسك، كان إذا مر، عرف أصحابه من رائحة المسك التي تفوح منه، أن النبي الكريم قد مر من هنا، هذا شيء أصلي، لكن لما يكون الإنسان؛ أنيقا، نظيفا، مرتبا، غارقا في المعاصي، والمخالفات، والموبقات، والفجور، فهذا له مصير أسود، فلذلك النبي عليه الصلاة و السلام قال:

((إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ))

أحيانا يكون الإنسان نائما في فراشه، في أيام الشتاء، والفرش وثير، فوقه غطاء نظيف، وملاءة صوفية نظيفة، والغرفة دافئة، مرتاح، يؤذن الفجر، يقول الله عز وجل:

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً)

[سورة السجدة الآية: ١٦]

فالمؤمن يؤثر مرضاة الله عز وجل، أحيانا يكون الإنسان جالسا في سهرة مرتاح، لم يصلِّ المغرب مثلا، والموضوع طريف، وفيه مزاح، يجمع الصلوات، أما المؤمن فيحرص على صلاته، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ٩]

فأحيانا يمتحنك الله بسهرة، بنزهة، أنت ذاهب إلى نزهة، وهناك عزيمة، لم تصل الظهر، والكل لا يصلي، واستحييت أن تصلي وتتوضأ، الإسلام مكركب، لا بد أن يتوضأ، وانتقض وضوءه، فيمكث جالسا،

((إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ))

تريد أن تقيم دعوة، الرجال وحدهم، والنساء وحدهن، لا بد لها من سفرتين، نحن نريد سفرة واحدة في رمضان، إن شاء الله لا يحدث شيء، اجمعهم سويا في سفرة واحدة،

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ))

سمعت قصة من يومين، قصة واقعية، ولأن الراوي صادق، واحد تزوج، وكتب الكتاب، وأدى الخطوبة بشكل رائع، وجاء يوم العرس، وهذه المدعوات كل واحدة بأبهى زينة ، وقعد على الأريكة، وبجانبه زوجته، تدخل واحدة، سأل: من هذه؟ قالت: هذه أختي، نزل، فأخبر عمه وأقرباءه، أريد هذه، وطلقت العروس يوم العرس، وأتوا بالذي يسمونه شيخا، وليس شيخا، كتب كتابا خارجيا، ودخل على الثانية، هذا ثمن الاختلاط، والأخت الكبيرة صار معها أمراض.

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟))

ماذا تعمل؟ النبي عليه الصلاة و السلام يقول:

((إياكم و خضراء الدمن، قالوا: وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء))

عنده قائمة مواصفات، وهذه المواصفات تنطبق على هذه الفتاة، ولكن ليس فيها دين، يتساهلون في الدين.

واحد جاءه خطيب إلى بيته، فقال له: عندك بيت؟ فقال: نعم، أين يا بني؟ تفضل لتراه ، ثاني يوم تواعدا، أتى له بسجل قيد إقامة، ماذا تشتغل يا بني؟ قال له: عندي معمل، أين المعمل؟ أخذه وأراه إياه، أريد ملكيته، هذه ملكيته، عندك سيارة؟ نعم، عندي سيارة، أين هي؟ أين أوراقها؟ فوافقوا عليه، هذا الخاطب زار عمه في محله التجاري، ووقف شخص أمامهم، فقال له: هذا صهري، هذا الشخص بَحق، كيف صهرك؟ قال: صهري، قال له: تعال أقل لك: هذا غير مسلم، قال له: أنت لم تسألني عن ديني، سألتني عن بيت، عندي بيت، سألتني عن معمل، فعندي معمل، وسألتني عن السيارة، فعندي سيارة، وما سألتني عن ديني؟ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا، تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

قال تعالى:

(وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ)

[سورة البقرة الآية: ٢٢١]

أنا واللهِ الذي لا إله إلا هو، إن رأيت إنسانا، يؤثر الدنيا على حساب الدين، فكأنه لا يصدق الله عز وجل في قرآنه، فإذا قال الإنسان: صدق الله العظيم، معناه صدق الله العظيم، معنى ذلك: أن الذي قاله لك ربُّك في هذا القرآن حق مائة في المئة،

((إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ))

النبي عليه الصلاة والسلام علّمنا: أن الإنسان إذا كان يمشي في مكان، ووجد قصرا جميلا، ماذا يقول؟.

فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: جَاءَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَحْنُ نَحْفِرُ الْخَنْدَقَ، وَنَنْقُلُ التُّرَابَ عَلَى أَكْتَافِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

والله كلام جميل، هذه مؤقتة، أما الآخرة فدائمة، وربنا عز وجل في الحديث القدسي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤوا إِنْ شِئْتُمْ، فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ))

[أخرجه البخاري في صحيحه]

هذا حديث قدسي مرويٌّ عن رسول الله صلى الله عليه و سلم عن ربه.

فأنت حينما تقرأ ممثل هذا الحديث، يجب أن تنقل اهتماماتك كلها من الدنيا إلى الآخرة ، من أحب دنياه أضرّ بآخرته، هذه الدنيا مكان عمل.

أنا أضرب مثلا مضحكا دائما: مقعد الدراسة خشب، وزاويته قائمة، غير مريح، يمكن مقعد في سيارة سياحية، أو في حافلة كبيرة مريح جدا، له حركات يصير سريرا، لماذا لم يعملوا مقاعد الدراسة لتصير سريرا؟ يعمل الطالب حركة فينام، رأى عيونه ذبلت، درس رياضيات، عمل حركة للمقعد، صار المقعد مائلا فنام، لماذا لا يضعون أمام المقعد؛ إبريق قهوة، وشاي، وأكل ساخن، وشراب مثلا، مجلة، جريدة؟ المدرسة مكان مرفه جدا، والمحاضرة أين هي؟.

أنت في مدرسة، نحن في الدنيا في مدرسة، التمعن إذا كان زائدا عن حده، صار مقصودا لذاته، يصرفك عن مهمتك الأساسية في الدنيا، فإن هذا الدنيا كما قال عليه الصلاة و السلام:

((هذه الدنيا، دار التواء لا دار استواء، و منزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبى، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

وعَن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ، قَالَ:

((إِيَّاكَ وَالتَّنَعُّمَ، فَإِنَّ عِبَادَ اللَّهِ لَيْسُوا بِالْمُتَنَعِّمِينَ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

المؤمن طبيعته جاد، سيدنا رسول الله، واللهِ في لقطات من حياته، إذا تأملها الإنسان يذوب محبةً لله ورسوله.

حينما كان صغيرا، دُعي إلى اللهو، فقال: لم أُخلق لهذا، فلما جاءته الرسالة، وكان مغطى بدثار، ونزع عنه الدثار، وقام ليدعو إلى الله عز وجل، السيدة خديجة رضي الله عنها وأرضاها، قالت له: ابق نائما، فقال عليه الصلاة و السلام قولة لا تُنسى، قال: انقضى عهد النوم يا خديجة.

إذا الواحد منا، اشتغل عملين صالحين على بعضهم، جاء الظهر، ووجد إنسانا ينتظره، ليخدمه خدمة، وعنده مساء مجلس علم، يمشي مثل الطاووس، الحمد لله اليوم، أنا اللهُ رزقني أعمالا صالحة، لما الإنسان تتكاثف عليه الأعمال الصالحة، هذا دليل أن الله عز وجل جعله أهلا لهذه الأعمال، فالإنسان لا يتأثر، لما دعته إلى النوم قال: انقضى عهد النوم يا خديجة، وكان كلما رأى كما قلت لكم قبل قليل شيئا من مباهج الدنيا.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: جَاءَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَحْنُ نَحْفِرُ الْخَنْدَقَ، وَنَنْقُلُ التُّرَابَ عَلَى أَكْتَافِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

هذا كان يقوله في بعض الغزوات.

هذا الحديث فيه واقعية،

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ))

أي هناك زوج يكون موفّقا، تكون الزوجة على جانب من الجمال، وهناك مال وفير، يتيح لك أن تأكل ما تشتهي، وأن تشرب ما تشتهي، وأن تسكن في أجمل وأوسع بيت، وأن تركب أجمل مركبة، وأن يكون لك بيت آخر في المصيف، ويتيح لك أن تطوف في أرجاء العالَم،

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ))

لكن البطولة أن تكون مع الله عز وجل، البطولة أن يرضى الله عنك، حينما أقرأ قوله تعالى:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الفتح الآية: ١٨]

أشعر أن ما من عطاء على وجه الأرض، أعظم من أن يرضى الله عنك، صدق القائل:

فليتك تحلو والحياة مريـــرة وليتك تـرضى والأنام غضاب

وليت الذي بـيني وبينك عامـر وبيني وبين العالمين خـراب

إذا صحّ منكَ الوصلُ فالكل هيِّنٌ وكل الذي فوق التراب تـراب

إذا طمح الواحد منا إلى مرضاة الله، الناس يطمحون إلى مرضاة أشخاص، ما دام هذا الموظف الأعلى منه راضيًا عنه، تجده مرتاحا، ما دام هذا التاجر الغلة وفيرة فهو مرتاح، انظر إلى الناس، واحد ينتهي طموحه بالمال، واحد بالمتع، واحد ينتهي طموحه إذا أخذ شهادة عليا بتقدير امتياز، إنسان آخر ينتهي طموحه بمنصب رفيع، فالدنيا حلوة خضرة.

اللهُ عز وجل إذا منحك نعمة الزوجة، يمتحنك فيها، أترضيها بسخط الله؟ طلبت منه حاجة، إحدى الزوجات من أحد الصحابة، فقال لها:

((اعلمي يا فلانة، أن في الجنة من الحور العين، ما لو أطلت إحداهن على الأرض، لغلب نورُ وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن، أهون من أن أضحي بهن من أجلكِ))

انظر إلى هذا الموقف الرائع، موقف حازم، قالت له أمُّه: إذا لم تكفر بمحمد، أترك الطعام والشراب حتى الموت، قال:

((اعلمي يا أمي، لو أن لك مائة نفس، فخرجت واحدةً واحدة، ما كفرتُ بمحمد، فكلي إن شئتِ، أو لا تأكلي))

إنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا: يأتيك شريك، يدخل بيعَ الخمور في المطعم، ما هذا؟ يقول لك: مضطرون من أجل الرزق، والعمل عبادة لله، وعندنا أولاد، فيقول: إن شاء الله في ذمته، وأنا لا دخل لي، ولكن يأخذ الربح آخر السنة مائة وثمانين ألف يقبضها،

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا))

اعرف نفسك، أنك تُمتحن في اليوم آلاف المرات، في اليوم الواحد تُمتحن بالمال، تمتحن بالزوجة، تمتحن بالولد، تمتحن بالزبون، يأتيك زبون جاهل، تلبسه شيئا لا تريدها، قال لك: أنا لا أعرف، أريد لونا على ذوقك، أريد أن أقدمها هدية، وعندك لون لا يمشي، من ثلاث سنوات كاسد، هذا الموديل لون السنة، هذا الموضة يا أخي، الله امتحنك بهذا الزبون الجاهل.

أحيانا يبيع الإنسان مرابحة، أخي كم كلّفت البضاعة؟ خذ من المئة عشرة ربحا، يكون ذاهبًا إلى أوروبا، ويضع مصاريف الرحلة كلها، وذهب إلى إسبانيا نزهة خاصة، ويضيفها على المصاريف، حتى يصير رأس مال البضاعة بسعرها مرة ونصفًا، وليست مدفوعة من البضاعة، أنت قمت بنزهة، واشتريت البضاعة، فالله امتحنك بهذه الصفقة في المرابحة.

أحيانا تأتي واحدة، تجلس إلى جنبك في العمل، تقيم علاقات مثلا: صباح الخير، كيف أنت؟ ممكن الواحد يبدأ بموضوع، إني أخاف الله رب العالمين، فالله يمتحنك بالفتاة، يمتحنك بصفقة، ويمتحنك بزبون، يمتحنك بزوجة، ويمتحنك ببيت، يمتحنك بسيارة، بإنسان طلب منك حاجة،

((وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟))

فأنت تحت المراقبة، قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

[سورة الفجر الآية: ١٤]

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

[سورة النساء الآية: ١]

الدنيا حلوة وخضرة، لكن إذا كان عقل الإنسان واسعًا، فهو دائما ينظر إلى ما سيكون، لا إلى ما هو كائن، فينقل اهتماماته من الدنيا، وبعد ذلك هي دنيا دنية، أي درجة ثانية، دنية في مستوى متعها، ودنية في وقتها، وقتها قصير، وخطرها حقير، والآخرة أبدية وأسعد، قال تعالى:

(قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

[سورة طه الآية: ٧٢-٧٣]

((وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ))

لو استعرضت أحيانا أن فلانا، لماذا ترك الصلاة؟ وفلانا لماذا ترك مجلس العلم؟ لماذا انتكس فلان؟ ولماذا قصّر؟ لو كان هناك دراسات دقيقة تحليلية، لحالات عديدة من الانتكاسات، في طريق الإيمان، تجد أحد هذه الأسباب الدنيا أو المرأة، ومركز ضعف الإنسان المال والنساء، والإنسان لا يُكاد له إلا بالمال، لا يكاد له إلا من خلال المال، أو من خلال المرأة، فالنقطتان واضحتان تماما،

((فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ))

الدنيا أي المال، لأن المال مادة الشهوات، الإنسان من أجل المال، يمكن أن يخالف أمراً شرعياً، من أجل المال يخالف قناعاته، ومن أجل المال يضحي بدينه، ومن أجل المال يضحي بمبادئه،

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا))

أنت خليفة الله في الأرض، يجعلك الله أبًا، هل تعدل بين أولادك؟ لما تؤثر ولدا على ولد، أحدهم ذكي، والثاني ليس عنده إمكانية أن يكون مثل الأول، تكتب لهذا البيت، وهذا تتركه بغير بيت.

عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ:

((انْطَلَقَ بِي أَبِي يَحْمِلُنِي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اشْهَدْ أَنِّي قَدْ نَحَلْتُ النُّعْمَانَ كَذَا وَكَذَا مِنْ مَالِي، فَقَالَ: أَكُلَّ بَنِيكَ قَدْ نَحَلْتَ مِثْلَ مَا نَحَلْتَ النُّعْمَانَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي، ثُمَّ قَالَ: أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَلَا إِذًا))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

هذا كلام للأخوة الآباء، لا تميز ولدا على ولد، عامل جميع الأولاد بالعدل، لأنه إذا كان بينهما تفاوت في البر والطاعة، لعل عدلك في العطية، يجعلهم متساوين في البر، أما إذا فضّلت، تنشأ أحقادا، وتنشأ اعتراضات، ويصير هناك نوع من المشاحنات والخصومات، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟))

اعتبر نفسك كل يوم تحت المراقبة، وعندك كل يوم آلاف الامتحانات، مثلما قلنا: يمتحنك في الزواج، قبل الزواج أول صف، وبعد الزواج بآخر صف، بعد ذلك تبرك، درس نعم، درس لا، والله سهرت مع المرأة، قالت له: اجلس، لا تذهب إلى الدرس، قلت لنفسي: اجلس كما تريد، امتحنك الله بهذا الزواج ورسبت، يمتحنك بشرائك، ويدخلك في الحرام من أجل المال، يمتحنك بجار، يمتحنك بابن، يمتحنك بزبون، يمتحنك بوظيفة، يمتحنك بتجارة، يمتحنك بطارق طرق عليك الباب، يمتحنك بسائل، يمتحنك في بيتك، يمتحنك وحدك، فتح الشباك، ظهرت بنت الجار، نظر، من لم يكن له ورع، يصده عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ اللهُ بشيء من عمله، يمتحنك وأنت جالس وحدك، يمتحنك أحيانا بكتاب، يمتحنك في المدرسة ، يمتحنك في الطريق، تمر امرأة على جانب من الجمال، تحفظ عينك أول مرة، وثاني مرة، صار هناك تقصير، من ملأ عينيه من الحرام، ملأهما الله من جمر جهنم، الأولى لك، والثانية عليك، من غض بصره عن محارم الله، أورثه الله حلاوة في قلبه إلى يوم يلقاه، النظرة سهم مسموم من سهام إبليس.

هذا الحديث صحيح أنه قصير وموجز، لكن واللهِ جامع و شامل،

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا))

أحيانا تدعى على دعوة فيها مشروب، أخي الدعوة ثقيلة، لا أتركها تفوتني، والله أنا مشغول، تقول: مشغول، ليس عندي وقت، عندي ضيوف بالليل، لكن واللهِ يا أخي، لا أُذهِبها من يدي، صار هناك امتحان، وصار هناك مشروب، وهناك امتحان، وهناك نجاح، راقب نفسك تحت الامتحان، تحت الضرب دائما، في كل ثانية،

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا))

الله عز وجل استخلف الإنسان، واللهُ سبحانه وتعالى يقول:

(إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

[سورة البقرة الآية: ٣٠]

والإنسان هو خليفة الله في الأرض،

((فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟))

قبل الزواج واللهِ يا أمي لا يوجد مثلك، واللهِ حتى أجعلها خادمة عندك، تتزوج، وتأتي، وتجد والدتك عابسة، ماذا عملت لها؟ وماذا قلت لها؟ لا تتركيها أنتِ، هكذا تُكلم الأم، ماذا أنت قلت سابقا؟ تجعلها خادمة عندك.

تجد إنسانا يرضي زوجته، ويغضب أمه، أو بالعكس، لماذا تريد الصهر أن تكون عينه على ابنتك، وأنت ضد كنتك؟ كذلك الله يمتحن النساء، عَنْ أُسَامَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةَ مَنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ، غَيْرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ، قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ، فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا النِّسَاءُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

لأنه فيهن انحراف أحيانا.

واحدة عندها أولاد، وعندها أولاد زوج، توفت، رأوها في المنام في حالة صعبة، تحترق وتعذّب ثماني سنوات، حتى رأوها مرة في حالة طيبة، فلما سألوها: ما القصة؟ قالت لهم: الحليب، ما الحليب؟ أولادها تضع لهم في الكأس حليبا صافيا، وأولاد زوجها نصفه حليب ، ونصفه ماء، ثماني سنوات في البرزخ، تعذب من أجل كأس الحليب، تمتحن المرأة بأولادها وأولاد زوجها.

يكون عندك محل تجاري، وعندك صانع، وعندك ابن، هل تحمل أحيانا ابنك بقدر ما تحمل صانعك؟ تحمل الصانع شيئا يعرض ظهره للمرض، لا زالت عظامه ليِّنة، لا يتحمل أربعين كيلو على ظهره، إذا حمل ابنك كيلبين اترك، من أجل ظهرك، ابنك من أجل ظهره، أما هذا الصانع فليس له أب، يمتحنك وترسب.

هذا الحديث يسع كل هذه المعاني، امتحان دقيق جدا،

((وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟))

تعامل الصانع أقل من ابنك، هذا يتيم، ليس له أحد يدافع عنه، لكن له ربٌّ، ابنك تخاف عليه، أحيانا يأتي الطعام لابنك أمام الصانع، تطعمه أطيب الأكل، أربع طبقات، ولا تقل للصانع: تفضل كل لقمة، يأكل أمامك سندويش فلافل، هذا الصانع مثل ابنك، لا تريد أن تكون مسلما صحيحا.

((وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ))

الدنيا أي المال، والنساء معروفة، فمراكز الضعف في الإنسان المال والنساء، إذا كان حصّن نفسه من جهة المال، ومن جهة النساء، فقد فاز برضوان الله عز وجل، إذا حصن نفسه من جهة المال، من هنا صار غض البصر ضروريًا، لا يكن هناك اختلاط ضروري، لا يكون هناك منفذ للشيطان، النساء حبائل الشيطان، إن إبليس طلاّع رصّاد، وما هو بفخوخه بأوثق لصيده من النساء.

الشيطان عنده خمسون فخًا للإنسان، فخ المال، فخ الشبهات، فخ العقيدة الزائغة، فخ مثلا بعض النظريات الحديثة، فخ العلو في الأرض، فخ النساء، وقال عليه الصلاة والسلام:

((النساء حبائل الشيطان....))

فتجد المؤمن متحصنًا، ولا يسمح بخطوة نحو الاختلاط، حتى لا يجره إلى متاهات، هو بعيد عنها،

((فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَتْ فِي النِّسَاءِ))

أعيد على أسماعكم الحديث الشريف: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ؟ فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَتْ فِي النِّسَاءِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

ما هو الأمر الذي وجهه النبي لأصحابه، ولماذا راجعت السيدة عائشة النبي بهذا الأمر، وماذا صنع النبي؟

والآن إلى بعض ما في السيرة من مواقف لسيدنا الصدِّيق رضي الله عنه.

أيها الأخوة الأكارم، في مرض النبي عليه الصلاة والسلام، اختار أبا بكر ليصلي بالناس مكانه، فعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ:

((مَرِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاشْتَدَّ مَرَضُهُ، فَقَالَ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، قَالَتْ عَائِشَةُ: إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ، إِذَا قَامَ مَقَامَكَ، لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، قَالَ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، فَعَادَتْ، فَقَالَ: مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ، فَأَتَاهُ الرَّسُولُ، فَصَلَّى بِالنَّاسِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

هذا أمر من قِبل النبي عليه الصلاة والسلام لسيدنا الصدِّيق أن يصليَ بالناس، ولكن هذا الأمر له دلالات كثيرة جدا، السيدة عائشة راجعت سيدنا رسول الله: أن هذا أبي، رجل رقيق القلب، كثير البكاء، ليس عنده أعصاب تتحمل الوقوف مكانك ليصلي، فلو تأمر عمر ليصلي بالناس، فحينما روجع النبي عليه الصلاة والسلام، غضب وأعاد أمره مرتين، وقال:

((مروا أبا بكر فليصل بالناس))

هذا أمر نبوي، معنى ذلك: أن من وراءه دلالات كثيرة جدا، وامتثل الصدِّيق أمر النبي عليه الصلاة و السلام، وهو لا يدري، و لعله كان يدري أنه في تلك اللحظات، إنما يتسلم الراية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملها بعده.

انظر إلى موقف أبي بكر يوم السقيفة:

أيها الأخوة، فوجئ سيدنا أبو بكر إثر وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بموقف لم يكن يخطر له على بال، ذلك هو موقف السقيفة، الذي بدأ منذِرا بشرٍّ مستطير، ثم انتهى نهاية موفورة العافية والسعادة، إذ بويع أبو بكر خليفة وإماما، ما الذي حصل؟.

سيدنا الصديق من شأنه، أنه كان يحب العزوف عن مناصب الدنيا كشأن عمر، بل لعل عمر في زهده في الجاه والمنصب، كان يتأسّى بأبي بكر رضي الله عنه، ويتتبع خطاه، و جاء يوم السقيفة، ليجتاز إيمانه امتحانا رهيبا، كُتب على الرجل الذي كانت هوايته أن يعيش في الظل، ما دام أن ليس ثمة خطر يدعو، انظر إلى المؤمن إخلاصه الشديد، يجعله يؤثر أن يبقى في الظل، لا أن يكون في المقدمة، ولا في القمة، يحب أن يكون من عامة الناس، فالرجل الذي كان قرة عينه، في ألاّ تقع عليه عينٌ، وهو في مكان صدارة، يبعث في النفس زهوا وعجبا، أي التواضع من صفات المؤمنين، والمؤمن الحق يؤثر أن يبقى في الظل إذا لم توجد حاجة له، أما إذا وُجدت حاجة ماسة له، إيمانه يدفعه أن ينتقل من مكان إلى آخر.

فسيدنا الصدِّيق كان حيِيًّا، كان وديعا، كان أوّابا، لكنه أهل لأن يكون في هذا الموقف الصعب في المحور، فعلى أثر وفاة النبي عليه الصلاة والسلام، اجتمع نفرٌ كبير من الأنصار، في سقيفة بني ساعدة، ليبايعوا سعد بن عبادة خليفة للمسلمين، علِم أبو بكر، وذهب إلى السقيفة، ومعه عمر، وأبو عبيدة رضي الله عنهم، لم يسارع أبو بكر ليحتجز الخلافة لنفسه، وإنما سارع ليكف الفتنة أولاً، ثم ليكبح الخلاف حيث وقف من يقول: يا للأنصار، ووقف من يقول: يا للمهاجرين، صار هناك فتنة، وصار هناك انشقاق، صار هناك أحداث رهيبة.

فسيدنا الصدِّيق غار على الإسلام، فأسرع إلى سقيفة بني ساعدة، لا ليحجز الخلافة لنفسه، بل ليقمع هذه الفتنة، واجه أبو بكر الجمع المحتشد في أناة، وكان ثمة كلمات تتطاير كالرصاص المقذوف، وكان ناس من الأنصار، يحرضّون الأنصار على التشبث بالخلافة، بأسلوب حادّ ولاهب، و كان هناك مهاجرون، يرفعون أصواتهم الزاجرة ضد رغبة الأنصار، وكادت تحدث فتنة، لقد فقد الناس صوابهم بموت رسول الله.

الحقيقة: أن القضية متداخلة موت هذا النبي الكريم، والسيد العظيم، ترك فراغا كبيرا جدا، هذا الفراغ أوقع الناسَ في الخلل، صار هناك اضطراب، فلما أداروا خواطرهم حول موضوع الخلافة، وهم في جو الكارثة لا يزالون، اضطربت الأمور في أيديهم، واتسع نطاق البلبلة والاهتياج، و ليس

أدلّ على هذا الموقف، كان دخيلا عليهم، هذا موقف غير أصيل، هم طيبون، هم مؤمنون، هم صادقون، هم متواضعون، وهذا الموقف دخيل عليهم، والدليل على أنه دخيلا عليهم: أنه تلاشى فجأة، صحيح أن أبا بكر سيؤثر المهاجرين الخلافة، ولكن ليس لأنهم مهاجرون أو قرشيون، بل لأن الهجرة أعطتهم مكان السبق في الإسلام، فالهجرة كانت نهاية لمرحلة العسرة، التي سُلّط عليهم فيها كل بأس قريش، ليفتتنوا عن دينهم، فما ازدادوا إلا إيمانًا وثباتا، وهذا هو الميزان الذي يزن به أبو بكر الناس، المهاجرون أسبق إلى الإسلام، وأكثر تحملا، وأكثر ثباتا من الأنصار، وقد استنبط هذا الصدِّيق العظيم هذه الحقيقة من قوله تعالى:

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ)

[سورة التوبة الآية: ١٠٠]

ربنا قدّم المهاجرين على الأنصار، فهم أسبق عند الله عز وجل، ثم هو سيؤثر المهاجرين بالخلافة أيضا، لأن النفر الذين طلبوا الخلافة من الأنصار، قد حرصوا على أمر، جرت عادة رسول الله صلى الله عليه و سلم، ألا يمكّن منه من يطلبه، أو يحرص عليه، وهي الولاية.

فسيدنا الصديق يذكر تماما، يوم ذهب العباسُ عمُّ النبي عليه الصلاة والسلام، يسأله أن يولّيه ولاية، فعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ:

((دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَا وَرَجُلَانِ مِنْ بَنِي عَمِّي، فَقَالَ أَحَدُ الرَّجُلَيْنِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِّرْنَا عَلَى بَعْضِ مَا وَلَّاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَقَالَ الْآخَرُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقَالَ: إِنَّا وَاللَّهِ، لَا نُوَلِّي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ أَحَدًا سَأَلَهُ، وَلَا أَحَدًا حَرَصَ عَلَيْهِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

ما دام سألتها فلا نوليك، وما دمت حريصا عليه لا نوليك، هناك عند السقيفة همّ عمر ليتكلم في الحشد الثائر، ولكن أبا بكر أومأ إليه بيمينه، واستأذنه هو أن يبدأ الحديث.

يقولون: إن سيدنا عمر قال: كنتُ أعددت كلاما، قاله عني أبو بكر فيه إشارة دقيقة: أن الإنسان يجب أن يعد الكلام ولا يرتجل.

فقال سيدنا الصدِّيق: يا معشر الأنصار، إنكم لا تذكرون فضلا، إلا وأنتم له أهل، -انظر إلى السياسة الحكيمة.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:

((لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ، وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ، قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ، لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ، الَّذِي أَصَبْتَ قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنَ الْأَنْصَارِ

شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، قَالَ: فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا، أَتَاهُ سَعْدٌ، فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ:يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ قَالُوا: بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ؟ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ: أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا))

[أخرجه أحمد في مسنده]

ذكّرهم لا بفضله عليهم، بل بفضلهم عليه، فذابوا،

((أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ؟ وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ قَالُوا: بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ؟ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ، أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ: أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ؟))

كلام رهيب، لا تحبون أن أرجع أنا معكم بذاتي، والناس يأخذون غنمة وشاة، أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعون أنتم برسول الله إلى رحالكم، فقال:

((فبكوا حتى أخضلوا لحاهم))

ولما رأوه في مكة بعد الفتح، فقال:

((معاذ الله، بل المحيا محياكم، والممات مماتكم))

أنا عندكم، لا أتخلى عنكم، هذا الوفاء، وبمكة أساسا لم ينم في أيّ بيت، نام عند قبر خديجة وفاء لها.

يبدو أن سيدنا الصدِّيق تعلم منه، فما واجه الأنصارَ بفضله، قال: يا معشر الأنصار، إنكم لا تذكرون فضلا، إلا وأنتم له أهل، هكذا بدأ الصدِّيق قوله، ثم راح الحديث ينساب من قلبه، ومضى يدلي برأيه فيما يرشح للخلافة- قال: إنه واحد من اثنين؛ عمر بن الخطاب، ومسكه من يده، هذا خليفتكم، الرجل الذي أعزّ الله الإسلام به، وأبو عبيدة بن الجراح الذي وصفه النبي الكريم: بأنه أمين هذه الأمة، واقترب منهما أبو بكر، وتوسطهما، ورفع ذراعيهما بكلتا يديه، وقال للناس: لقد رضيت أحد هذين الرجلين؛ عمر وأبي عبيدة، وارتعدت يد عمر كأنما سقطت عليها جمرة ملتهبة، وغض أبا عبيدة عينيه الباكيتين في حياء شديد، وصارح عمر: واللهِ لأن أُقدم، فيُضرب عنقي في غير إثم، أحبُّ إليّ أن أؤمر على قوم، فيهم أبو بكر، -وكان جلال الموقف أبلغ من كل مقال- فما كاد عمر، يلقي بكلمته هذه، ويتقدم باسطا يمينه، مبايعا أبا بكر، حتى ازدحم الأنصار على البيعة، وكأنما دعاهم من السماء داع

ألم أقل لكم قبل قليل: إن هذا الخلاف ليس أصيلا بينهم، إنه دخيل عليهم، موت النبي المفاجئ، ترك فراغا كبيرا، هذا الفراغ جعل اختلال توازن.

أحيانا يجد الواحد من زوجته موقفا غير صحيح، يكون قد سمعت خبرا مؤلما، أبوها مريض، إذا رأيت عمل الإنسان فيه خلل، قد تكون هناك مشكلة، إذا الزوجة وجدت زوجها سريع الغضب، قد يكون في محله التجاري مشكلة.

فالقصة: أن الصحابة الكرام، كانوا مثُلا عليا، الخلاف كان سريعا جدا، والدليل: كيف أن الناس اجتمعوا جميعا على هذا الخليفة العظيم؟.

الحقيقة: بدأت مشكلة كبيرة جدا، بل مشكلتان، فما كاد نبأ موت النبي عليه الصلاة و السلام، يذيع في البلاد، حتى تصور المرجفون، والذين في قلوبهم مرض، ممن كان إسلامهم مداهنة وتقية، تصوروا أن النبي لم يمت وحده، وإنما مات الإسلام معه، وعليهم أن يتحركوا بسرعة، ليرثوا ذلك الدين الذي انتهى في ظنهم، وليستردوا جميع الامتيازات التي كانوا فقدوها تحت ضغط الدين الجديد.

خاتمة الدرس:

أيها الأخوة، في الدرس القادم: نرى كيف أن سيدنا الصديق واجه فتنتين كبيرتين؛ الأولى فتنة الارتداد، والثانية الجيش الذي جيّشه النبي عليه الصلاة و السلام، وصار خلاف كبير حول إمضاء هذا الجيش، أو عدم إمضائه.

سوف ترون في الدرس القادم، كيف أن المسلمين لولا هذا الإنسان لهلكوا؟ وهكذا قال بعض أصحاب رسول الله.

أنقل لكم هذه الكلمة السريعة، يقول ابن مسعود رضي الله عنه:

((لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه و سلم مقاما، كدنا نهلك فيه، لولا أن مَنَّ الله علينا بأبي بكر))

لم يكن ثمة إنسان عنده إمكانية أن يحل محل سيدنا الصديق.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠١٣-١٠١) : باب الاستقامة (قل: آمنت بالله ثم استقم، من مواقف أبي بكر الصديق) .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-٠٩-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم ما يعنيه المصطفى عليه الصلاة والسلام من هذا الحديث:

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا في الحديث النبوي الشريف، وفي باب الاستقامة، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ بَعْدَكَ، قَالَ: قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أعيد قراءة الحديث، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ بَعْدَكَ، قَالَ: قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أيها الأخوة الأكارم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

فهذا الحديث كما يقول علماء الحديث: من جوامع الكلم، النبي عليه الصلاة والسلام الإسلام كله ضغطه بكلمتين، قُلْ:

((آمَنْتُ بِاللَّهِ -العقيدة- ثُمَّ اسْتَقِمْ))

العمل.

آمَنْتُ بِاللَّهِ: المنطلق النظري، ثُمَّ اسْتَقِمْ: التطبيق العملي، قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ: الفكر، ثُمَّ اسْتَقِمْ: في السلوك، فالإسلام اعتقادٌ وعمل، منطلقٌ نظري وتطبيقٌ عملي، فهمٌ وسلوك، لذلك متى ضلَّ المسلمون؟ حينما اكتفوا بالاعتقاد، وقصَّروا في العمل.

هذه الكلمات الجامعة المانعة للنبي عليه الصلاة والسلام، ينبغي أن نعيها حق الوعي، قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ.

ليسأل أحدنا نفسه: متى آمنت بالله؟ كيف آمنت بالله؟ بماذا فكرت حتى آمنت بالله؟ هل حضرت

مجالس العلم حتى آمنت بالله؟ أيظن أحدكم أنه إذا قال: لا إله إلا الله، ولم يقلها بحقها، أتجزئه؟ لا والله، قال عليه الصلاة والسلام:

((من قال: لا إله إلا الله بحقها دخل الجنة، قيل: يا رسول الله، وما حقها؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

فإذا قلت: لا إله إلا الله بحقها، وحقها أن تحجزك عن محارم الله، من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله.

((قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

كل ما في الإسلام من سعادة، كل ما في الإسلام من طمأنينة، كل ما في الإسلام من توازن، كل ما في الإسلام من اعتدال، كل ما في الإسلام من ثقة، لا تقطفها إلا بهاتين الكلمتين الآن عندنا قاعدة: لو أن هناك خلل في العمل، هناك خلل في العقيدة، لو أن هناك خللٌ في العقيدة، يتبعه خللٌ في العمل، لو أن الإنسان اعتقد: أن الله لن يحاسب الخلق، إذاً: لن يستقيم، فمن لم يكن مستقيماً، فاعتقاده باطل، ومن كان اعتقاده باطلاً، فهو بالتالي لن يكون مستقيماً، هذا الترابط الدقيق بين ما تعتقد وما تفعل، بين المنطلق النظري والتطبيق العملي، بين الاعتقاد وبين العمل، بين ما يستقر في قلبك وبين ما تفعله في يديك، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب، وأقر به اللسان، وصدقه العمل))

حديثٌ رائع: قُلْ:

((آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

[سورة فصلت الآية: ٣٠]

هذا ميزان، قال تعالى:

(تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت الآية: ٣٠]

الخوف والحزن ليست من صفات الذين قالوا:

(رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

[سورة فصلت الآية: ٣٠]

لأن الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا، من لوازم إيمانهم الصحيح، ومن لوازم استقامتهم التامة: أن الملائكة تتنزَّل عليهم ألا تخافوا ولا تحزنوا، لا تخافوا لما هو آت، ولا تحزنوا على ما فات، الحزن

على ما فات، الخوف لما هو آت، أي أن الماضي والمستقبل مُغَطًّى، فهل من سعادةٍ أعظم للمؤمن من أن يطمئن لما مضى ولما سيأتي؟ ليس من سعادةٍ أعظم عند الله عزَّ وجل من أن يطمئن لما مضى، ومن أن يطمئن لما سيأتي، لذلك:

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة البقرة الآية: ٣٨]

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)

[سورة طه الآية: ١٢٣]

هذا الحديث على إيجازه وعلى قصره، من الأحاديث الجامعة المانعة، من جوامع الكلم.

النبي عليه الصلاة والسلام يقول مثلاً:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه))

انتهى الأمر، مليون مصدر للخوف بالحياة، كيفما تحركت في خوف، تخطيط؛ قلبك تعبان، في شعور آلام في الرجل، هناك ديسك بالظهر، بجسمه وحده مليون مصدر للخوف أليس كذلك؟ بعمله، ببيته، بسفره، بإقامته، بصحة أولاده، بصحة زوجته مليون مصدر، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه))

ما قولك؟:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم الآية: ٣-٤]

سيدنا سعد يقول:

((ما سمعت حديثاً من رسول الله، إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى))

نبي الله يقول لك: ((لا يخافن العبد إلا ذنبه))، لا تخف جهةً ما، لا تخف مرضاً، ولا تخف قهراً، ولا تخف إنساناً بطّاشاً، ولا تخف جهة على وجه الأرض، لا مرئية ولا غير مرئية، فيروس لا يرى بالعين لا تخف منه،

((لا يخافن العبد إلا ذنبه))

هذا الإسلام، الإسلام انضباط، الانضباط تتبعه طمأنينة، والطمأنينة هي أساس الصحة النفسية، صحتك النفسية أساسها الطمأنينة، ولن يطمئن الإنسان إلا إذا استقام على أمر الله، لأنك عندئذٍ تكون في عين الله، قال تعالى:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور الآية: ٤٨]

تكون في ظل الله، تكون في رعاية الله، تكون في ذمة الله، فلذلك هذا الحديث من الأحاديث الجامعة المانعة.

عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ بَعْدَكَ، قَالَ: قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

كيف كان أصحاب النبي عليهم الصلاة والسلام تكفيهم الكلمة والكلمتان، وانتهى الأمر؟ نحن سمعنا خطبًا، وسمعنا دروسًا، وقرأنا كتبًا لا تحصى، ومع كل ذلك: ترى خللاً في الاستقامة، اضطرابًا في السلوك، وإخلافًا في المواعيد، وكذبًا في القول، وغشًّا، وتدليسًا، وإيهامًا، ومخادعة، وغيبة، ونميمة، وتقصيرًا، ومخالفة، واختلاطًا، كل هذا التراث الإسلامي ؛ كتاب الله ستمئة صفحة، الأحاديث النبوية ستمئة ألف حديث مطبوع، كتب إسلامية لا تعد ولا تحصى، لذلك عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما]

فالقضية لا تحتاج إلى كثير كلام، ولا إلى كثير شرح، ولا إلى مزيدٍ من المعلومات، أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كانت تكفيهم الكلمة أو الكلمتان.

قيل: إن تلميذًا داوم درسًا وغاب، أين أنت يا بني؟ لنطبق الذي قلته لنا، فالإنسان لا بد أن يحرص على التطبيق، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

استقم في بيتك حتى الله عزَّ وجل يرفع عنك ما الذي تخافه، استقم في تجارتك، استقم في بيعك وشرائك، ما من تعريفٍ للإسلام أجمع من قول النبي عليه الصلاة والسلام، عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

النصيحة لله، كيف؟ إذا رأيت إنساناً، يفعل خلاف ما أمر الله في كتابه الكريم، عليك أن تنصحه، ولمَن؟ ولرسوله، كيف؟ إذا رأيت إنساناً، يخالف سنة رسول الله، عليك أن تنصحه للرسول، ولمَن؟ ولأولي الأمر، رأيت إنساناً، يخالف أولي الأمر فيما أمر الله، أو فيما نهى الله عنه، عليك أن تنصحه، ولمَن؟ ولعامة المسلمين.

فأنا الذي أراه أنه في اللحظة التي تقول قولاً ليس فيه نصيحة لأخيك المسلم، فكأنك خرجت من الدين،

((الدِّينُ النَّصِيحَةُ))

في بعض الروايات: أن هذا السائل قال: ((أريد أخف من ذلك -هذه الاستقامة ثقيلة، شيء صعب، أهي قضية إحكام خناقي؟ يخنقك العالم، أجد لها حلاً، ليس هذا الموضوع، الموضوع أنت تقول مثلاً لمهندس خبير: أخي لماذا تضع لنا ثمانية ميلي حديدًا؟ هذا مفقود، حلها برمة وضعه خمسة ميلي، يقع البناء، هذا علم، تقول لمهندس: دبرها، إذا قال لك: هذه الأساسات تحتاج لثمانية ميلي محلزن، يكفي خمسة ميلي، هل تقول هذا للمهندس؟ لأن كلامه مبني على العلم.

فالذي يقول لك: حلها برمة، لم يفهم هذا الدين، الدين قواعد دقيقة جداً مبنية على أسس علمية، فلما الإنسان يكون في تسريب، فيه مخالفات، ومعاص، وحجاب، وعدم إقبال، وملل، كله سمعناه، من أين يأتي الملل؟ من عدم التطبيق، في قطيعة مع الله عزَّ وجل، لأنه ليس ثمة إقبال، ما دام ثمة إقبال فثمة إقبال، ما دام هناك انقطاع فهناك إدبار، فالإنسان ما دام يطبق فهو في إقبال، فإذا قصر في التطبيق فهو في إدبار- فقال له: إذاً: فاستعدَّ للبلاء)).

تريد حلها لك برمة، إذاً: ألق مصائب، مشكلات، تضييقًا، فهذا الحديث جامعٌ مانع، يقول لك: أخي قل لي: كلمتين، وأنت طالب علم، تقول له: على عيني ورأسي، قل له: أحد أصحاب رسول الله، سأل النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحد بعدك، قال عليه الصلاة والسلام: قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

هذا الحديث يجب أن يطبق في كل دقيقة من دقائق حياتك؛ في محلك التجاري، أخي أصلية هذه، الله وكيلك، هذا تدليس، ما معنى الله وكيلك؟ يعني أصلية، هي غير أصلية.

قال لي أحدهم: كنت على السلم، فأتى زبون بقطعة تبديل، وأنا على السلم، قال لي: أصلية، قال له: لا، فقال له: أعطني إياها، صار البيع حلالا، ففي البيع والشراء، في التجارة، في الزواج، في علاقتك ببيتك، بأولادك، بزوجتك، بجيرانك،

((قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

تعريف الاستقامة:

الآن: الاستقامة: هي التزام منهج الإسلام، تطبيق تعاليم الإسلام تطبيقاً كاملاً، هذه ما تعنيه الاستقامة.

الاستقامة كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه:

((الاستقامة: أن تقوم على الأمر والنهي، ولا تروغ عنه روغان الثعلب))

أخي ثمن البضاعة عشرة آلاف، قال له: سجلهم، فجاء له بعد نصف ساعة، وقال له: أخي هذه عشرة آلاف، ولكن بالمئة ستة، احسم لي، أساس بالمئة ستة، أخي هذه ربا، اكتب أنت، ولا تعقدها، هذا روغان الثعلب، هو كان مشتريا بسعر أعلى مقابل الزمن، فلما جاء بالمال يريد حسم بالمئة ستًا، حرام، اكتب مسامح، ولا تروغ عنه روغان الثعلب، هذا تعريف سيدنا عمر للاستقامة.

يريد أحدهم أن يأكل الربا، يبيعك حاجة ديناً بألف ليرة، بعدما باع ديناً بألف ليرة، يشتريها منك نقداً بثمانمئة، أعطاك ثمانمئة، وكتب عليك ألفًا، أخي بيع وشراء، صفقتان فيهما إيجابٌ وقبول، الأولى ديناً والثانية نقداً، ولا تروغ عنها روغان الثعلب.

تريد أن ترى زوجة أخيك، هذه سهلة، خذ بنتًا صغيرة من بنات الجيران، ترضعها زوجة أخيك خمس رضعات مشبعات، تعقد عليها كتاب، تصير زوجة أخيك حماتك، تطلق البنت، فتصير الحماية على التأبيد، والله شيء مرتب، ولا تروغ عنه روغان الثعلب، هذه الحيل الشرعية.

زكاة مالك ضعها في رغيف خبز، وهبها لفقير، بعدما وهبته الزكاة، تقول له: تبعني الرغيف بخمس ليرات؟ يقول لك: نعم، دفعتها ثم استوهبتها من الفقير.

فهذه الحيل الشرعية تعني: أن الرجل لا يعرف الله أبداً، هذا الذي أمرك بدفع الزكاة أيغفل عن هذه الحيلة؟! هذا الذي أمرك ألا تنظر إلى زوجة أخيك أيغفل عن هذه الحيلة؟! هذا الذي أمرك ألا تأكل الربا أيغفل عن هذه الحياة؟! ولا تروغ عنها روغان الثعلب.

وفي تعريفٍ آخر: دعوى الإيمان لا تكفي، ما لم يدل على الإيمان العمل، فإنه ترجمةٌ له وثمرةٌ من ثماره، والاستقامة درجةٌ عاليةٌ تدل على كمال الإيمان وعلو الهمة، هذا الحديث يكفي:

((قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

نعيد قراءته على أسماعكم لمن فاته كتابة الحديث، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قُلْ لِي فِي الْإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ بَعْدَكَ، قَالَ: قُلْ: آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أي أنت بحاجةٍ إلى أن تؤمن، مَن قال لك: أن إنسان يأخذ شهادة عالية وهو نائم؟ لا بد من أن يدرس، فالإيمان بالله شهادة عالية، متى آمنت؟ إذاً: أنت تحتاج إلى تفكر، وإلى التأمُّل، وإلى التعلم.

هل غيرت الخلافة من أخلاق أبي بكر؟ إليكم نص خطبة الخلافة:

نتابع قصة سيدنا أبي بكرٍ رضي الله عنه وأرضاه.

هذا الرجل العظيم المتفوق، ولد سيداً، وعاش سيداً، من أين جاءته هذه السيادة؟ من كماله، من كمال إيمانه، وكمال عمله، وكل واحد منا إذا استكمل إيمانه، وكمل عمله، يعيش بين الناس في عز الطاعة، للطاعة عز، وللمعصية ذل، والدعاء المأثور:

((اللهم أخرجنا من ذل المعصية إلى عز الطاعة))

هذا الرجل الذي أنقذ الإسلام من خطرٍ محقق، وردَّ إليه حياته وثباته، هذا الذي بدأت أبراج كسرى وقيصر تتساقط تحت قدميه، والعالم القديم يتداعى بين يديه، هل غيَّرت الخلافة من جوهر نفسه؟ أو من أسلوب حياته؟ هل نسي تواضعه وفضائله في زحمة انتصاراته؟ هذه بطولة؛ أن تكون في قمة المجتمع، وأنت محافظٌ على جوهر إنسانيتك، هل عاش فوق الناس بل عاش واحداً بين الناس؟ لنرى.

هذا سيدنا أبو بكر، يصعد منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأول مرَّة، بعد أن صار خليفةً، صعد منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، بعد أن غاب عنه فيصله وربَّانه، غاب عن هذا المنبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، صعد هذا الصديق هذا المنبر أول مرة، وإنه ليصعد درجتين، ثم يجلس، قد يكون المنبر خمس درجات، صعد درجتين وجلس، فهو لا يبيح لنفسه أن يصعد كل الدرج، وكل المرتقى، ولا يبيح لنفسه أن يجلس حيث كان النبي يجلس، ما هذا التواضع؟.

أعلى درجة مقام رسول الله، سيدنا عمر صعد إلى مكان أبي بكر، ثم نزل درجة، وقال:

((ما كان الله ليراني أن أرى نفسي في مكان أبي بكر))

سيدنا عثمان نزل درجة، كلهم يعرف مقام أخوانه.

ها هو ذا يستقبل الجمع الحاشد ويقول: أيها الناس، إني وليت عليكم ولست بخيركم، -انطلق من أنه ليس خير الناس بل هو واحدٌ منهم، هذا التواضع شعار العظماء.

سيدنا الشافعي يقول:

((كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي))

هذا الكلام لم يقله ذكاءً، لم يقله كياسةً، بل قاله حقيقةً- إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوّموني، -أنتم لكم دور خطير، عليكم أن تراقبوني- ألا إن الضعيف فيكم قويٌ عندي حتى آخذ الحق له، ألا وإن القوي فيكم ضعيفٌ عندي حتى آخذ الحق منه، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الل

انتهت، لا نريد كلاما كثيرًا، نريد كلامًا مختصرًا، مفيدًا، موجزًا، والبلاغة في الإيجاز.

الحقيقة: هناك أناسٌ آخرون أذكياء، بإمكانهم أن يقولوا: كلاماً عميقاً، لطيفاً، متماسكاً، موجزاً، ولكن الروعة أن سلوك صاحب هذا القول لا يختلف عن قوله، كلٌ يتحدث عن الكمال، ولكن الذي يتحدث عن الكمال، وهو كامل، هذا الذي يؤثر في الناس.

بيان شرح نص خطبة الخلافة لأبي بكر الصديق بشكل موجز:

أيها الأخوة، قال: أيها الناس، ولّيت عليكم ولست بخيركم، -سيدنا الصديق يؤكد: أن هذه الولاية ليست مزية ولا امتيازاً، إنها خدمةٌ عامة في أكثر المستويات، هذه الخدمة مشقةٌ ومسؤوليةٌ، هذه الولاية إنما هي وظيفة لا استعلاء، إنما هي زمالة لا كبرياء، هو واحدٌ من هذه الأمة، وليست أمةً في واحد، إني وليت عليكم، ولست بخيركم.

هكذا يجب أن تعتقد: أنه يكون بين الحاضرين الذين يستمعون إليك؛ من هو أعظم منك؟ من هو أتقى منك؟ من هو أقرب إلى الله منك؟ من هو آثر عند الله منك؟ القضية ليست بالمظاهر بل بالنوايا، بالإخلاص لله عزَّ وجل.

((أندم الناس يوم القيامة: عالمٌ دخل الناس بعلمه الجنة، ودخل هو بعلمه النار))

((من تعلم العلم ليجادل به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف وجوه الناس إليه، فليتجهز إلى النار))

((قوام الدين والدنيا أربعة رجال: عالمٌ مستعملٌ علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، فإذا ضيع العالم علمه، استنكف الجاهل أن يتعلم، وغنيٌ لا يبخل بماله، وفقيرٌ لا يبيع آخرته بدنياه، فإذا بخل الغني بماله، باع الفقير آخرته بدنيا غيره))

سيدنا أبو بكر رضي الله عنه: رأى أنه لن يكون حراً إلا بقدر ما تكون أمته حرة، لن يكون عزيزاً إلا بقدر ما تكون أمته عزيزة، لن يكون آمناً إلا بقدر ما يكون هؤلاء آمنين، لذلك قال: لست بخيركم، أنا واحد منكم، هذا التواضع صفة من صفات العظماء، أنا واحد منكم-.

قال: إن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الضعيف فيكم قويٌ عندي حتى آخذ الحق له، والقوي فيكم ضعيفٌ عندي حتى آخذ الحق منه، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله -أي راقبوني.

هناك مقياس هو الإسلام فقيسوني به، أنا تحت المقياس، أنا أخضع لمقياس الإسلام، وليس الإسلام يخضع لمقياسي، هذه فكرة هامة جداً، أنا تابعٌ لأوامر الدين، وليست أوامر الدين تابعةً لرغباتي- فإن عصيت فلا طاعة لي عليكم

لهذا الصديق كلمة رائعة يقول:

((واللهِ ما كنت حريصاً على الإمارة يوماً ولا ليلة، ولا سألتها الله في سرٍ ولا علانية))

تروي كتب التاريخ: أن سيدنا أبا بكرٍ رضي الله عنه، دخل عليه عمر داره، فألفاه يبكي، وما كاد أبو بكرٍ يبصر عمر بن الخطاب أمامه، حتى تشبث به، كأنه زورق نجاة، وقال له:

((يا عمر، لا حاجة لي في إمارتكم، ولم يتركه عمر يتم حديثه، فقد بادره قائلاً: إلى أين المفر؟ والله لا نقيلك ولا نستقيلك))

إليكم بيان الحكم الشرعي في هذه الواقعة التي وقعت بعد وفاة رسول الله:

السيدة فاطمة، حينما ولدت ضمها وشمها، وقال:

((ريحانة أشمها، وعلى الله رزقها))

السيدة فاطمة بنت رسول الله، والعباس عم رسول الله، ذهبا إليه يسألانه حقهما في قطعة أرضٍ صغيرة، كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أصابها في بعض الفيء، وكان عليه الصلاة والسلام، يعطي السيدة فاطمة وبعض أهله جزءًا من نتاجها، ثم يقسِّم الباقي بين فقراء أصحابه، والآن بعد وفاته عليه السلام، ذهبت فاطمة رضي الله عنها إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، تسأله هذه القطعة من الأرض، باعتبارها ميراث أبيها عليه الصلاة والسلام، في حياته كان يعطيها جزءًا من نتاجها هي، وعمه العباس.

قال أبو بكرٍ لها: ((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، وإني والله لا أدع أمراً رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصنعه إلا صنعته، فإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ -يخاطب ابنة رسول الله، هكذا سمعت.

إن أبا بكر رضي الله عنه، يعلم أن أولى الناس الرعاية في الحق، هي بنت رسول الله، ويعلم كم كان النبي عليه الصلاة والسلام يحبها، ويؤثرها، ويعلم مدى حاجتها، وزوجها، وأولادها، إلى هذه القطعة من الأرض، لكن أبا بكر يؤثر أن يركب صعب المركب عن أن يقول لابنة رسول الله: لا، ومع هذا فقد قال لها: لا، إنه حينما آمن بالنبي، وبدينه، وشرعته، صارت هذه الشرعة قانوناً، وإيمانه بالشرعة لا ينفصل عن إيمانه بالله ورسوله، ولقد قال النبي:

((نحن معاشر الأنبياء لا نورث...))

إذاً: قد صار هذا حكماً من أحكام الشريعة التي يؤمن بها، ألا لا يورث نبي، وهكذا وجد سيدنا أبا بكر نفسه بين ولائين، ولاؤه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أحب الناس إليه وهي ابنته، وولاؤه للقانون والشرع الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام-.

لكن خاف سيدنا الصديق، أن يدخل على قلب السيدة فاطمة شكٌ، في أن النبي عليه الصلاة والسلام، لم يقل هذا الكلام، -ماذا فعل؟- أرسل إلى عمر، وإلى طلحة، وإلى الزبير، وإلى سعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وسألهم أمامها: ناشدتكم بالذي تقوم السماء والأرض بأمره، ألم تعلموا أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة؟ فقالوا: نعم، -أي أنه أكد لها أن هذا الكلام متواتر، لم أسمعه أنا وحدي، بل هؤلاء جميعاً سمعوه، وهذا شرع ولا ينبغي أن نخالف الشرع.

عندئذٍ أدلت السيدة فاطمة رضي الله عنها بحجةٍ جديدة- قالت: إنك تعلم أن الرسول قد وهبها لي في حياته، فهي إذاً: بحق الهبة لا بحق الإرث، -هذه ليست إرثًا، ولكنها هبة- فقال أبو بكر: أجل أعلم، ولكني رأيته يقسمها بين الفقراء، والمساكين، وابن السبيل، بعد أن يعطيكم منها ما يكفيكم، قالت فاطمة: دعها تكن في أيدينا، ونجري فيها على ما كانت تجري عليه، وهي في يد رسول الله، قال أبو بكر: لست أرى ذلك، فأنا ولي المؤمنين من بعد رسولهم، وأنا أحق بذلك منكم، أضعها في الموضع، الذي كان النبي يضعها فيه، ثم رفض هذا الطلب رفضاً كلي

أيها الأخوة، عنده ولاء لسيدنا رسول الله، وعنده ولاء لهذا الشرع الذي جاء به، فكان ولاؤه للشرع هو الولاء الحقيقي، ولم يقبل أن يعطيها.

من مواقف الصديق في جيش أسامة بن زيد:

موقف آخر له: هو كان يحترم هذا الشرع، وكان يحترم الذين أوكلوا بتنفيذ بعض المهمات.
فيوم خرج يودع سيدنا أسامة الذي سبق الحديث عنه، كان بين جنود هذا الجيش رجل اسمه: عمر بن الخطاب من بين الجنود، القائد أسامة بن زيد، وكان من بين جنود هذا الجيش سيدنا عمر بن الخطاب، وكان أبو بكرٍ حريصاً على أن يبقى عمر بجواره في المدينة، هذا مستشار أول، أمين سره، يده اليمنى، نائبه، ولقد كان يستطيع كخليفة للمسلمين أن يستبقيه بقرارٍ ينفرد بإصداره: يا أبا حفص ابقَ معنا، انتهى الأمر.
لكنه لم يقل ذلك، لو قال هذا الكلام، معنى هذا: تجاوز النظام، ولكنه يعلم أن في هذا التصرف، أي استصدار قرار بإبقاء سيدنا عمر إلى جانبه من عنده، أن في هذا التصرف عدواناً على موظفٍ مسؤول، يجب أن تتوافر له الضمانات التي تمكنه من أداء واجبه، وأولى هذه الضمانات: ألا تنتقص

سلطته شيئاً، وهكذا اقترب الخليفة من قائد الجيش أسامة، وقال له في همسٍ ورجاء: إذا رأيت أن تترك لي عمر بن الخطاب -سيدنا أسامة عمره سبعة عشر عاماً، أرأيتم النظام؟ سيدنا الصديق أعتقد عمره بالواحد والستين، لأنه توفي ثلاثة وستين، بالواحد والستين، سيدنا عمر أقل بقليل، وعنهما قال سيدنا رسول الله:

((أبو بكرٍ وعمر مني بمثابة السمع والبصر))

أي أنهما أعلى أصحاب رسول الله-.

تقدم سيدنا الصديق الخليفة العظيم بعد أن مشى في ركابه، قال له: إذا رأيت أن تترك لي عمر بن الخطاب، فإني أجد في بقائه معي خيراً ونفعاً، وبادر أسامة بالرضا والموافقة

إن أبا بكر لم يفعل هذا مجاملة أو تواضعاً، وإنما فعله واجباً، ولو أن أسامة قال: لا، ما وسع الخليفة أن يخالف أمره، هذا قائد الجيش، له الأمر، هذا موقف من مواقف سيدنا الصديق، إنه يعلمنا: كيف نحترم النظام.

انظر إلى ورعه:

موقف آخر: سيدنا الصديق غداة استخلافه، تولى الخلافة الجمعة مثلاً، السبت خرج من داره، حاملاً على كتفيه، لفافة كبيرةً من الثياب، هو كان بزازا، كان بائع أقمشة، وفي الطريق يلقاه عمر وأبو عبيدة فيسألانه:

((إلى أين يا خليفة رسول الله؟. فيجيبهما: إلى السوق، أريد أن أبيع.قال عمر: وماذا تصنع في السوق، وقد وليت أمر المسلمين؟. قال أبو بكر: فمن أين أطعم عيالي إذاً؟ -هذه لوحدها، أنا خليفة، ولكن نريد أن نأكل، من أين أطعم عيالي إذاً؟ ولم يدخل هذا المنصب على نفسه الكبيرة أي زهوٍ، ولم يحرك لها أي رغبةٍ، في تغيير أسلوب حياته-. قال له عمر: انطلق معنا نفرض لك شيئاً من بيت المال، وصحبهما الخليفة إلى المسجد، حيث يؤدي أصحاب رسول الله، وعرض عليهم عمر رأيه، في أن يفرض للخليفة بدل تفرُّغ))

معاش كي لا يشتغل.

الإمام البخاري يحدثنا، ويقول في صحيحه:

((إنه كان لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم غلام، جاءه يوماً يمشي بشيءٍ فأكل منه، ولما فرغ من أكله، قال له الغلام: أتدري ما هذا يا خليفة رسول الله؟ فقال: ما هو؟ قال: إني كنت قد تكهَّنت لرجلٍ في الجاهلية، وما أحسن الكهانة إلا أني خدعته، وقد لقيني اليوم فأعطاني، فهذا الذي أكلت منه، أعطاني مبلغا من المال، فاشترى به لبن، وجاء به سيدنا الصديق فشرب منه،

فأدخل أبو بكرٍ يده في فمه، حتى قاء كل شيءٍ في جوفه.-طبعاً هذا موقف شخصي، لا حكم شرعي فيه، أي إذا أكل إنسان أكلة، وبعدما أكلها، تبين له أنها من مال حرام، غير مكلف أن يقيء ذلك- ويضيف صاحب الصفوة إلى ذلك أنه قيل لأبي بكر: يرحمك الله، كل هذا من أجل لقمةٍ واحدة، فأجاب قائلاً: واللهِ لو لم تخرج إلا مع نفسي لأخرجتها، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل جسدٍ نبت من سحتٍ، فالنار أولى به، فخشيت أن ينبت شيءٌ من جسدي من هذه اللقمة))

بهذا الورع رضي الله عن أصحاب رسول الله، بهذا الحب رضي الله عن أصحاب رسول الله، بهذا التواضع رضي الله عن أصحاب رسول الله، بهذا الالتزام بالشرع، لابنته فاطمة قال: لا، رضي الله عن أصحاب رسول الله، بهذا الاحترام للمسؤولية، رضي الله عن أصحاب رسول الله.

كان هذا الصديق العظيم، حريصاً على ألا ينال من بيت المال، إلا ما يكفيه وأهله، وما نال من المال وهو خليفة، ولا نال من مناعم الحياة، إلا كان يأكل وأهله من جريش الطعام، إلا وما كانوا يلبسون من خشن الثياب.

حينما جاءه الموت، دعا ابنته عائشة، وقال لها:

((يا بنيتي، انظري ما زاد في مال أبيك منذ ولي في هذا الأمر، فرديه على المسلمين، السيدة عائشة حملت تركة أبيها فور وفاته، وفور مبايعة عمر، حملتها إلى أمير المؤمنين تنفيذاً لوصيته، فما كاد عمر يرى ويسمع حتى انفجر باكياً، وقال: يرحم الله أبا بكر، لقد أتعب كل الذين جاؤوا بعده))

فما هي التركة التي تركها بعد وفاته؟ بعيرٌ كان يستسقي عليه الماء، ومحلبٌ كان يحلب فيه اللبن، وعباءةٌ كان يستقبل بها الوفود، هذا الذي تركه بعد وفاته، ومع ذلك ردَّهم لبيت مال المسلمين.

قصة سجلها التاريخ للصديق:

ولنصغ الآن إلى ربيعة الأسلمي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((كان بيني وبين أبي بكرٍ كلام، فقال لي كلمةً كرهتها، ثم ندم عليها، وقال لي: يا ربيعة، رد علي مثلها حتى تكون قصاصاً.

قلت: لا أفعل.

فقال لي: لتأخذن بحقك مني أو لأشكونك لرسول الله.

قلت: ما أنا بفاعل.

فذهب عني منطلقاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وانطلقت وراءه، فجاء ناسٌ من أسلم، من أقربائه، فقالوا: يرحم الله أبا بكر، في أي شيءٍ جاء النبي عليه الصلاة والسلام؟ فقلت لهم: اسكتوا، هذا أبو بكر، هذا الذي قال الله عنه:

(ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ)

[سورة التوبة الآية: ٤٠]

إيَّاكم، لا يلتفت فيراكم، تنصرونني عليه، فيغضب، فيغضب النبي لغضبه، فيغضب الله لغضبهما، فيهلك ربيعة.

وانطلقت وراء أبي بكر، حتى أتى النبي عليه الصلاة والسلام، فحدثه بما كان، فرفع النبي الكريم إليَّ رأسه وقال: يا ربيعة، ما لك وللصديق؟.

قلت: يا رسول الله، إنه قال لي كلمة كرهتها، ثم طلب إلي أن أردها عليه، لتكون قصاصاً، فأبيت.

فقال عليه الصلاة والسلام: أحسنت يا ربيعة، لا تردها عليه، ولكن قل: غفر الله لك يا أبا بكر.

فقلت: غفر الله لك يا أبا بكر، فولى وهو يبكي))، ما هذه الحساسية؟.

دخل مع رسول الله في بدر، وأحد، والخندق، وحنين، وهاجر معه، وتحمل الأخطار معه، وقدم كل ماله، فلما أسمع أخاه كلمة كرهها، اختلَّ توازنه، وقال له: قل لي كلمة مثلها، افعل ذلك حتى تريحني، فلما امتنع، ضاقت به الأرض، بهذا سبقنا هذا الصحابي الجليل، بهذا الورع، واحدٌ كألف وألفٌ كأف.

اسمع ما يرويه لنا أبو الدرداء:

ويروي لنا أبو الدرداء نبأً شبيهاً بهذا، فيقول:

((كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ أقبل أبو بكرٍ آخذاً بطرف ثوبه، حتى أبدى عن ركبتيه، وقال: يا رسول الله، إنه كان بيني وبين عمر بن الخطاب شيءٌ، فأسرعت إليه نادماً، وسألته أن يغفر لي، فأبى علي، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: يغفر الله لك يا أبا بكر، ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكرٍ فلم يجده، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله، أنا كنت أظلم، فقال عليه الصلاة والسلام: إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذب، وقال أبو بكرٍ: صدق، ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة إلا أخي أبا بكر، فإنه لم يتلعثم، وواساني بنفسه، وماله، وزوجني ابنته، فهل أنتم تاركون لي صاحبي؟))

فهذا مقام سيدنا الصديق.

إليكم بعض هذه الأحاديث التي وردت بحق هذا الصحابي الجليل:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، عَاصِبٌ رَأْسَهُ بِخِرْقَةٍ، فَقَعَدَ عَلَى الْمِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ النَّاسِ خَلِيلًا، لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ خُلَّةُ الْإِسْلَامِ أَفْضَلُ، سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

إذا زار الإنسان النبي عليه الصلاة والسلام في مدخل باب السلام، ترى لوحة مكتوب عليها: هذه خوخة أبي بكر، أي أن هذا بابٌ لبيت أبي بكر، كان مفتوحاً على المسجد، فلما مرض النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ))

((ما طلعت شمسٌ على رجلٍ بعد نبيٍ أفضل من أبي بكر))

((ما ساءني قط فاعرفوا له ذلك))

فسيدنا الصديق كان مثلاً أعلى لطالب الحق، كان مثلاً أعلى لمريد الحقيقة، كان مثلا أعلى للمريد، هذا المصطلح الصوفي يقول لك: فلان مريد، هذا الصديق كان مثلاً أعلى للمريد الصادق الذي يبتغي الله ورسوله.

خاتمة القول:

أيها الأخوة، بذكر الصالحين تتنزل الرحمة، إذا جلست بمجلس فتكلم عن إنسان صالح تشعر بسعادة، تحدث عن إنسان طالح تشعر بانقباض، عوِّد نفسك بكل مجلس، أن تتحدث عن أصحاب رسول الله، تجد الغم قد ذهب، ذهب الهم، شهرت بالبطولة، شعرت بهذه القدوة، شعرت أن هناك إنسان عظيم، قلده يا أخي، سر على نهجه، تقفّى أثره.

انظروا الى هذا الموقف الرائع من أبي بكر، يا ترى نحن مع بعضنا هكذا؟ نقعد في المسجد نغتاب فلان، نتكلم عنه أقذع الكلمات، وبعدها: قوموا نصلي العشاء، أخي أذَّن قم لنصلي، ماذا تصلي، وأنت نهشت عرض أخيك، تحدثت عنه، أكلت من لحمه، والله لا يرضى عن ذلك، كلمة قالها سيدنا الصديق، ما اغتاب، ما نقل فلان حكى عنك كذا، ما هذا؟ مؤمنون يغتابون؟.

بلغني من مدة أنه: في كثير من المجالس في البيوت كلها غيبة، كلها نميمة، فلان حكى عنك، ما هذا الأخ؟ هذه نميمة، لا يدخل الجنة نمام، فلان قال عنك: أنت منافق، فلان قال عنك: ليس فيك خير، ما هذا؟.

إذا أردت أن تكون مؤمناً صادقاً، فاقتد بهذا الإنسان العظيم، هذه القصص لا نتلوها للتسلية، إنهم مثل عليا، فإذا أردنا أن نكون ممن رضي الله عنهم، فلنكن كهؤلاء الأصحاب الكرام، الذين ملؤوا الدنيا بسيرهم العطرة.

الذي أرجوه: أن الإنسان يضبط لسانه، فأي كلام فيه غيبة ونميمة ينتقل إلى الآخرين، يفتت المجتمع المسلم، فلان حكى عني، لا حق له علي، مَن نقل له الكلام؟ قال تعالى:

(أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًاً فَكَرِهْتُمُوهُ)

[سورة الحجرات الآية: ١٢]

لن يرضى الله عنا، إلا إذا أكرم بعضنا بعضاً في حضرته، وفي غيبته، من أكرم أخاه المؤمن، فكأنما أكرم ربه، من أساء الظن بأخيه فكأنما أساء الله بظنه، من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته.

إذا أخ تكلم عن أخ كلام باطل غير متحقق منه، من دون تثبت، ومن دون تحقق في غيبته، وجاء واحد ثاني، نقل له ما حكى عنه، والله أتألم من أعماقي، أحس أن عملي كله بطّال، ما هذه الدعوة إلى الله؟ كلها كلام لا معنى لها، إذا ما أصبحت الدعوة سلوك، التزام، والله كلام ليس له معنى.

إذاً: الذي أرجوه منكم، أنا قرأت هذه القصة، لتكون منطلقًا لهذا التوجيه، أخ يحكي عن أخ ليس له حق، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

[سورة الحجرات الآية: ٦]

هذه الغيبة والنميمة تفتت المجتمع الإسلامي، تفتت المؤمنين، يصبح المجتمع مفتت، كله خلافات، كله كلام فيه إفزاع، وفيه قسوة.

كان أحد العلماء الأجلاء، يقول إذا أحد حكى أمامه كلمة: اسكت يا بني، يا أبي اسكت، أظلم قلبي، ما كان يجرؤ أحد أن يتكلم على أحد أمامه، علّم الناس هكذا، هذا الذي أرجوه منكم.

أيها الأخوة، كثير بلغني قصص: أن فلان حكى على فلان من دون حاجة، وفلان نقل لفلان: حكى عليك، تجد القلب مملوء، مشحون بغضاء، مشحون ضيق، هكذا المؤمنون؟ هذا المجتمع المؤمن؟ هذا المجتمع الذي يحب الله ورسوله؟ هذا المجتمع الملتزم؟ هذه أثر مجالس العلم؟.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (١٤-١٠١) : باب المبادرة إلى الخيرات (بادروا بالأعمال سبعاً.....، سيرة عمر بن الخطاب) .

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-٠٩-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

ماذا يعني النبي بقوله: بادروا بالأعمال ؟

أيها الأخوة المؤمنون، مع الحديث النبوي الشريف، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا: هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَوْ الدَّجَّالَ؛ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ؛ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ؟))

[أخرجه الترمذي في سننه]

هذا الحديث ورد في باب المبادرة إلى الخيرات، وفيه حثٌ على الإقبال على الله بالجد من غير تردد.

ومعنى كلمة: (بادروا)، أي سابقوا، وربنا عزّ وجل أشار إلى هذا المعنى في القرآن الكريم فقال:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ)

[سورة آل عمران الآية: ١٣٣]

فإذا كنتَ في أزمة سكن حادة، وأنت بحاجة ماسة إلى بيت، وبلغك أن ثمة بيتًا في منطقة ممتازة، وسعره أقل من سعر أمثاله، والبيت فارغ، وجاهز للسكن، وثمن هذا البيت تملكه، ماذا تفعل؟ أغلب الظن أنك تذهب إلى المعني بالبيع في وقتٍ متأخرٍ من الليل، يقال لك: غداً، تقول: لا، لعل أحداً يسبقني إليه.

لو أنكم لاحظتم: كيف يتصرف الإنسان في أموره الدنيوية؟ وكيف يتسابق الناس إلى الخير، أو إلى ما يظنه خيراً؟ كيف يسابق الناس؟ كيف يسارع؟ كيف يحب أن يفوز؟ كيف يحب أن يتفوّق في الدنيا؟ الشيء الذي فيه مغنم الناس يقبلون عليه.

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((بادروا بالأعمال...))

كأن جوهر الحياة الدنيا العمل الصالح، والدليل: هؤلاء الذين يموتون على ماذا يندمون؟ قال تعالى:

(قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً)

[سورة المؤمنون الآية: ٩٩-١٠٠]

فهذا الذي ندم عندما جاءه الموت، على ماذا يندم؟ على أنه فرَّط بالعمل الصالح، لذلك ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام الآية: ١٣٢]

والعمل الصالح يرفعك، قال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

أنت وجدت في هذه الدنيا من أجل أن تعمل صالحاً، لمَ العمل الصالح؟ من أجل أن يكون هذا العمل الصالح صالحاً لقبولك عند الله عزَّ وجل، من أجل أن يكون هذا العمل الصالح سبباً في دخول الجنة، لذلك جاء في تفسير بعض الآيات:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل الآية: ٥-٧]

(اليسرى): هو العمل الصالح الذي هو ثمن الجنة، فالإنسان لو أنه في الحياة الدنيا كسب مالاً وفيراً، وحقق نجاحاً كبيراً، واعتلى أعلى الدرجات، وفاز بكل الملذات، وجاب مختلف الأقطار، وأكل أطيب الطعام، وسكن في أجمل البيوت، ولم يكن له عملٌ صالح فهو خاسر، فهو أشد الناس خسارةً، قال تعالى:

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)

[سورة الكهف الآية: ١٠٣-١٠٤]

نبيٌ كريم حريصٌ علينا يقول:

((بادروا بالأعمال....))

أحدنا يسأل نفسه هذا السؤال: أنا ما عملي؟ ما عملي الصالح؟ ربحْنا اليوم أرباحاً طائلة، هذه لك، وتناولنا طعاماً طيباً، هذا لك، لبست هذا الثوب الجيد، هذا لك، نريد ماذا فعلت ؟ ماذا قدَّمت؟ ما الذي قدَّمته للناس حتى يرضى الله عنك؟ لأن الله سبحانه وتعالى لا يحب العبد إلا إذا كان ذا نفع عميم،

((الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله، أنفعهم لعياله))

فهذا أمرٌ نبوي، ولا تنسوا أن سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يقول:

((ثلاثةٌ أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك، فأنا واحدٌ من الناس: ما سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى))

قال تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

[سورة النجم الآية: ٣]

هذا النبي العظيم الذي وصفه الله سبحانه وتعالى، قال تعالى:

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ)

[سورة التوبة الآية: ١٢٨]

يقول لك هذا النبي، الحريص عليك، الرؤوف الرحيم:

((بادروا بالأعمال...))

لذلك المؤمن الصادق شُغْله الشاغل العمل الصالح، فلعل الله يرضى عنه، فلو أن أحداً عرض عليك أن تعمل صالحاً، فكانت إجابتك: ليس لدي وقت، فمثلك كمثل طبيبٍ، بقي يدرس ثلاثين عاماً، إلى أن حاز على أعلى درجة علمية، وجاء إلى بلده، وفتح عيادة، وكتب على العيادة الدوام من الساعة الخامسة حتى الثامنة، وجلس ينتظر الزبائن، ليسد الديون التي أرهقته، وليؤمن طعاماً لأولاده، فجاءه مريضٌ، وقال له: ليس لديّ وقت لأعالجك، إذًا: لماذا أنت هنا يا أيها الطبيب؟ لماذا أنت هنا في العيادة؟ لماذا كل هذه الدراسة؟ لماذا هذه الشهادات؟ لماذا أسست هذه العيادة؟ لتقول للمرضى: أنا مشغول؟ مشغول بماذا؟.

هذا الذي يقول لك: أنا مشغول، وقد دعي لعملٍ صالح، هذا لا يعرف لماذا هو على وجه الأرض؟ ضائع، تائه، في ضلال، ما عرف مهمته، أنت جئت إلى هذه الدنيا، من أجل أن تعمل صالحاً، يصلح للعرض على الله عزَّ وجل، يكون هذا العمل نوراً لك في قبرك، من أجل أن ترقى به في الجنان إلى أبد الآبدين، لذلك السيدة عائشة رضي الله عنها، حينما وزع النبي شاةً، وزع أضلاعها، أطرافها، صدرها، وما بقي شيء، فقالت له:

((يا رسول الله، لم يبقَ إلا كتفها، فتبسم عليه الصلاة والسلام وقال: بل بقيت كلها إلا كتفها))

[أخرجه الترمذي عن السيدة عائشة في سننه]

هذا الذي وزعناه هو الذي يبقى.

سيدنا عمر أمسك تفاحة وقال:

((أكلتها ذهبت، أطعمتها بقيت))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَنَزَلَ بِئْرًا، فَشَرِبَ مِنْهَا، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الَّذِي بَلَغَ بِي، فَمَلَأَ خُفَّهُ، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، ثُمَّ رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا!؟ قَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما]

فيا أيها الأخوة الأكارم، إذا امتنع الإنسان عن العمل الصالح، فو الله الذي لا إله إلا هو، ما عرف لماذا هو على وجه الأرض أبداً؟ إنك هنا في مهمة، لذلك في مئتي آية، يقول الله عزَّ وجل:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة البروج الآية: ١١]

اسأل نفسك هذا السؤال مساءً: ماذا فعلت من خير في هذا اليوم؟ تفتح محلاً تجاريًا، تزينه، تعرض بضاعة جيدة، تعمل إعلانًا، تعمل لافتة، تنتظر في الأيام الأولى، فلا يأتي ولا زبون، في الأيام التالية بيع قليل، وبعدها تكتب برسم التسليم إذا لم تربح، كذلك تسأل نفسك كل يوم: ماذا فعلت من خير في هذا اليوم؟.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا بورك لي في يوم، لم أزدد فيه من الله قربًا -بالعمل الصالح- ولا بورك لي في يومٍ، لم أزدد فيه من الله علماً))

فقبل أن تنام اسأل نفسك: ماذا فعلت اليوم فعلاً يرضي الله عزَّ وجل؟ هل عدت مريضاً؟ هل أنفقت مالاً؟ هل عاونت فقيراً؟ هل عاونت أخاً لي؟ النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((واللهِ لأن أمشي في حاجة أخٍ مؤمن، أحب إلي من صيام شهرٍ، واعتكافه في مسجدي هذا))

يا ترى: هل خدمت أخًا؟ ساهمت في عمل خيري؟ دعوت إلى الله؟ نصحت إنسانًا؟ دللته على الله؟ ساعدت أرملة من أقربائكم؟ قدمت لها مساعدة؟ رعيت يتيما؟ لك قريب بعيد فقير؟ زرته جبراً لخاطره؟ لك بنت أخ، وأخوك توفى، يا ترى رعيتها؟ اعتبرتها ابنتك؟ بحثت لها عن زوج؟ وجَّهتها؟ نصحتها؟ أم قلت: لا علاقة لي؟.

ما الأمور السبعة التي حذر منها النبي أن تدرك الإنسان إذا لم يبادر إلى العمل الصالح ؟

١- الفقر المنسي:

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((بادروا بالأعمال سبعاً...))

فإذا أراد أحدنا الدنيا وزينتها، فلا بدَّ أن يأتيه أحد هذه السبعة، أي إذا أعرضنا عن طلب الآخرة، إذا أعرضنا عن العمل الصالح، إذا تعلقنا بالدنيا، انكببنا عليها، جعلناها كل همنا، ومبلغ علمنا، حرصنا عليها، ماذا ننتظر؟ فالحديث دقيق، اعمل عملاً صالحاً قبل أن يأتيك أحد هذه السبعة، إن أحد هذه السبعة لابد آتٍ، هذا معنى.

المعنى الثاني: اعمل عملاً صالحاً لئلا يأتيك أحد هذه السبعة، فسارع إلى عملٍ صالح، من أجل أن تكسب وقتك، قبل أن تأتيك أحد هذه السبعة، أو اعمل عملاً صالحاً لئلا يأتيك أحد هذه السبعة. ما هذه السبعة؟ قال:

((هل تنتظرون إلا فقراً منسياً...))

سيدنا علي كرم الله وجهه يقول:

((كاد الفقر أن يكون كفراً))

حالات يصبح الفقر كالكفر، حالات إذا جاء الفقر مع الجهل، ربما كفر هذا الفقير، الفقر أحياناً ينسيك أن تصلي، ينسيك أن تؤدي واجباتك نحو عيالك وأولادك، فالفقر المنسي نعوذ بالله منه، النبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

الكفاية هذه أرادها النبي لنا، أرادها لمن يحبه، لمن يحبه النبي، هناك فقرٌ ينسي، ربما لا يملك الإنسان ثمن أجرة ركوب سيارة عامة، يمشي ساعة ونصف، يحس بشعور عجيب، هذا الفقر منسٍ، وربما لا يملك ثمن الدواء لأولاده، أو لا يملك ثمن الطعام، فهذا الفقر نعوذ بالله منه، وقد يكون هذا الفقر للمؤمن رفع درجات، لأن المؤمن ثابت، لا يتغير لا في الغنى ولا في الفقر، لا في إقبال الدنيا ولا في إدبارها، المؤمن إذا افتقر، ففي هذا الافتقار رفعٌ لدرجاته، وكشفٌ لبنيته الطيبة، تعريفٌ للناس به، رفعٌ لمقامه، امتحانٌ له، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا)

[سورة البقرة الآية: ٢١٤]

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ)

[سورة العنكبوت الآية: ٢]

فإذا آمن الإنسان بالله، فعليه أن يوطّن نفسه على كل شيء، أنت عرفت الله، وأسلمت له في السرَّاء والضراء، صدق القائل:

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهم معدلٌ وإن عدلوا

واللهِ وإن فتَّتوا في حبهم كبدي باقٍ على حبهم راضٍ لـما فعلوا

حالة المؤمن مع الفقر استسلام لله عزَّ وجل، هو يسعى، ويبذل قصارى جهده في رفع مستوى دخله، لكن إذا ضاقت به الحيل، ماذا يفعل؟ يستسلم، يرضى، هكذا أراد الله، وهكذا شاء، لكن إذا جاء الفقر لإنسان لا يعرف الله عزَّ وجل، ربما سبَّ الإله، هذا يفعله بعض الناس، ربما نسي فروض طاعته لله عزَّ وجل، نسي أن يصلي، نسي أن يطيع الله عزَّ وجل.

فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((هل تنتظرون إلا فقراً منسياً...))

نعوذ بالله من الفقر المنسي.

سمعت مرة أحد الأخوان يقول: اللهم أنزلْ بي مرضًا، فقلت له: هذا خلاف الشرع، النبي عليه الصلاة والسلام سيد الأنبياء قال:

((إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

مَن أنت؟ أتجترئ على الله عزَّ وجل؟ أتظن أنك أعظم من النبي؟ النبي عليه الصلاة والسلام هكذا دعا، فالإنسان يطلب من الله السلامة، يطلب البحبوحة، يطلب الرزق، لا يقل: يا رب امتحني، أنا أصبر، لا، اطلب من الله السلامة إذا ضاقت، فهو امتحان للمؤمن رقي، ولغير المؤمن امتحان.

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

[أخرجه مسلم عن أبي ذر في سننه]

كن فيكون، تقنين ربنا ليس تقنين عجز، بل تقنين تأديب، الإنسان يقنن تقنين عجز لضعفه.

قال لي أحدهم اليوم: إنَّ المزارعين في المنطقة الشمالية الشرقية، قبضوا مبالغ فوق حد الخيال، قال لي: قبضوا واحدًا وسبعين مليونًا من الدولة، ثمن القمح على السعر الرسمي، ذلك بأن الكيس أعطى سبعين كيسًا من القمح، إنّ الله إذا أعطى أدهش، قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الأعراف الآية: ٩٦]

(وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن الآية: ١٦-١٧]

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة الآية: ٦٦]

فربنا غني إذا أعطى أدهش، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

[سورة الحجر الآية: ٢١]

لكن إذا قنن ربنا عزَّ وجل يكون التقنين في محله، إن الله ليحمي أحدكم من الدنيا كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام، كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلكة.

فأنت استسلم، إذا أعطاك اشكره على عطائه، وإذا منع عنك منعه عطاء، قال ابن عطاء الله السكندري:

((ربما أعطاك فمنعك))

- رجل أعمال من الدرجة الأولى، وقتك كله مليء اجتماعات، وقرارات، وصفقات، ورحلات، وسفرات للعمل، وسفرات نزهات، وما عندك وقت إطلاقاً، ربما أعطاك فمنعك-.

ثم قال:

((وربما منعك فأعطاك))

ضيقها عليك فالتفت إليه، قرأت كتابه فتعرفت عليه، فكرت بالكون، تصدقت، صليت، عملت أعمالاً صالحة، فلا يعترضنَّ أحدٌ على الله عزَّ وجل، ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك، وقد يكون المنع عين العطاء.

ولكن أنا أؤكّد لك: لما ربنا عزَّ وجل يكشف الغطاء، ويريك الذي ساقه لك، وما الحكمة منه، سوف تذوب خجلاً من الله سبحانه وتعالى على كل شيءٍ ساقه إليك، هذا جعله لا ينجب أولادًا ذكورًا، هذا جعله عقيمًا، هذا جعله فقيرًا، هذا جعله غنيًا، هذا جعله عليلاً، هذا جعله صحيحًا، هذا جعل عمله شاقًا، هذا عمله سهل، هذا من أب غني، هذا من أب فقير، هذا أتى في آخر الزمان، هذا من أول الزمان، هذا معه عاهة طفولية، هذا معه قصور كبد مزمن.. إلخ، حينما ينكشف لك الغطاء لا تملك إلا أن تقول كلمة واحدة، قال تعالى:

(وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة يونس الآية: ١٠]

لذلك سيدنا علي رضي الله عنه يقول:

((والله لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً))

والقاعدة الأساسية: أن الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين، هذه البطولة، وعَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي، لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، قُلْتُ: لَا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا، وَقَالَ: ثَلَاثًا أَوْ نَحْوَ هَذَا، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

استسلم، هو محبٌ لك أكثر من حبك لنفسك.

((عبدي المؤمن أحب إلي من بعض ملائكتي، لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إليهم، وانتظاري لترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي، ولماتوا شوقاً إلي، هذه إرادتي بالمعرضين، فكيف إرادتي بالمقبلين؟!))

٢- الغنى المطغي:

(هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً...): دخله محدود وهو مستقيم، من مسجد إلى مسجد، على الدخل الكبير من ملهى إلى ملهى، يريد أن يرى النوادي، وشوارع معينة في باريس يريد أن يزورها، صار غنيًّا، يعمل عرسًا مختلطًا في الفندق الكبير، يريد الاختلاط.

(أو غنىً مطغياً...): يريد الشهوات، عنده مكتب، يريد سكرتيرة، لا يريد موظفا،

((أو غنىً مطغياً...))

نعوذ بالله، والله هو البلاء كله، الغنى من دون علم لجهنم.

(هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً...): أكبر محل حلويات، كان في لبنان، يصدر للدول النفطية طائرة بضاعة محملة بإنتاجه يومياً، دخل مرة على المعمل، فلم تعجبه عجينة المعمول، أمسك العجينة ووضعها على الأرض، ودهسها بنعله، قال له العامل: سيدي، فرد عليه قائلاً: الناس من تحت حذائي يأكلون، بعد شهر انقطعت ركبتاه بالـ (غرغرين)، داء الموات، الآن هو في لندن يعاني، الغنى مطغٍ، صار معه مئات الملايين، ولم يعد يرى أحدًا أحسن منه.

البطولة أن تكون في قمة نجاحك متواضعاً لله عزّ وجل، النجاح فيه خطورة كبيرة، النجاح مزلق، النجاح في كسب المال، النجاح في المراتب العليا، النجاح في القوة، النجاح في كل شيء مزلق خطير.

٣- المرض المفسد:

(هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنىً مطغياً، أو مرضاً مفسداً...): معه مئات الملايين، لكن فيه علة خطيرة، توقفت كليتاه عن العمل، قال أحدهم: نأخذه إلى بلد أجنبي، قال له: لا أمل،

((... أو مرضاً مفسداً))

يفسد عليك حياتك، لهذا النبي الكريم قال:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

[أخرجه الترمذي عن عبد الله بن محصن في سننه]

٤- الهرم المفند:

(أو هرماً مفنداً...): كبر كثيرًا، ونشأ في معصية الله، فلما كبر خرف، يقول: ما أطعموني، الآن أطعموك، يتدخل فيما لا يعنيه، يعيد القصة مائة مرة، يمل منه الناس، يهربون منه، ويتركونه وحيداً، هذا نعوذ بالله من الهرم المفند، صار موضع سخرية، موضع ازدراء، موضع تأفف، يتمنى أقرب الناس له موته بقولهم: الله يخفف عنه.

أما المؤمن: من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، المؤمن كريم على الله عز وجل، لا يرد إلى أرذل العمر، لا، بل يزداد عزاً، وجاهاً، ومحبة، وعقلاً، وذكاء.

٥- الموت المجهز:

(أو موتاً مجهزاً...): اشترى أحدهم بيتًا، فلم يعجبه البلاط فكسره، لأنه عتم قليلاً، عمل أقواسًا، رتب، أتى بطاولة من رخام، غالية الثمن، رتب البيت، ويوم أراد أن يسكنه مات،

((أو موتاً مجهزاً...))

لا اعتراض،

((أو موتاً مجهزاً...))

البطولة أن تعمل لهذه الساعة، للآخرة.

٦- الدجال:

(أو الدجال...): الكلام كالعسل والفعل كالصبر، أي إنسان يعطيك من طرف اللسان حلاوةً، ويروغ منك كما يروغ الثعلب، هذا نموذج، تجد كلامه طيبًا، فإذا عاملته فما أصعب فعله، وباطنه ليس كظاهره، وظاهره ليس كباطنه.

٧- الساعة:

(أو الدجال فشر غائبٍ ينتظر، أو الساعة والساعة أدهى وأمر): الساعة يعني يوم القيامة، قال تعالى:

(وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ)

[سورة الزمر الآية: ٦٨]

هذه النقاط السبع تنتظر كل واحد منا، فسارع إلى عمل صالح لئلا تصاب بالغنى المطغي، أو الفقر المنسي، أو المرض المفسد، أو الهرم المفند، أو الموت لا بد منه.

لكن بينما أن يكون الإنسان في توفيق من الله عزَّ وجل، وفي حفظ، أو في طرد من رحمة الله عز وجل، عمره سبع وتسعون سنة، بصره حاد، أسنانه في فمه، قامته منتصبة، سمعه مرهف، أسنانه سليمة، زوجته، قال له: يا سيدي، ما هذه الصحة؟ قال: يا بني، حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً.

فإما أن نسارع إلى الأعمال الصالحة لئلا نصاب بأحد هؤلاء، وإما أن نسارع بالعمل الصالح قبل أن يهلكنا أحد هؤلاء، فاحفظوا هذا الحديث ورددوه دائماً، فإنه كالمكابح للإنسان، والله سبحانه وتعالى أكرم، وأعظم، وأوفى من أن يضيِّع مؤمناً، ما دمت قد عرفته في شبابك، عرفته في فورة الشباب، فالله سبحانه وتعالى يحفظك في مقتبل عمرك، وهذا العمل الرذيل، قال تعالى:

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ)

[سورة الحج الآية: ٥]

ليس من شيمة المؤمنين، لأن الله سبحانه وتعالى يحفظهم.

من عظمة عمر بن الخطاب:

والآن إلى سيدنا عمر رضي الله عنه وأرضاه.

أيها الأخوة، بذكر الصالحين تتعطر المجالس، وبالحديث عن أصحاب رسول الله، تتنزل الرحمات.

سيدنا عمر أعظم ما فيه: أنه مع تفوقه الشديد في مجالات عديدة، ما تمكن الغرور أن يصل إليه، وكما قلت قبل قليل: هؤلاء الناجحون معرَّضون لخطرٍ عظيم، ألا وهو الغرور، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لو لم تذنبوا، لخفت عليكم ما هو أكبر -ما هو الشيء الذي هو أكبر من الذنب؟- قال: العجب العجب))

العجب أكبر من الذنب، أن تقول: أنا، قالها إبليس فأهلكه الله، قال:

(أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ)

[سورة الأعراف الآية: ١٢]

ثلاث كلمات مهلكات: أنا، ولي، وعندي قالها قارون، قال تعالى:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

[سورة القصص الآية: ٧٨]

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

[سورة القصص الآية: ٨١]

لي، قالها فرعون، قال تعالى:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

[سورة الزخرف الآية: ٥١]

فكل عظمة هذا الخليفة، تفوقه، مثلاً: دخل الإسلام في حفاوةٍ بالغة من النبي عليه الصلاة والسلام، صار الإسلام بعد إسلامه ديناً جهوري الصوت، المسلمون قبل إسلامه كانوا يستخفون، بعد إسلامه أصبحوا يعبدون الله جهراً، سمَّاه النبي بالفاروق، لأنه فرق الله بإسلامه الحق والباطل، أصبح خليفة، وله آراء نزل بها وحي اسمها: موافقات عمر،

((لو كان نبيٌّ بعدي لكان عمر))

هذا قمة النجاح، ومع ذلك ما استطاع الغرور أن يصل إلى قلبه.

قال مرة عن نفسه:

((لقد كنا ولسنا شيئاً مذكوراً، حتى أعزنا الله بالإسلام، فإذا ذهبنا نلتمس العز في غيره، أذلنا الله))

كل هذه العظمة، كل هذا التفوق، رآه فضلاً من الله عزَّ وجل يستوجب الشكر، فإذا ذهبنا نلتمس العز بغير دين الله، أذلنا الله سبحانه وتعالى، هذا درس بليغ لنا معشر الأمة العربية، أعزنا الله بالإسلام، فإذا أردنا أن نلتمس العز في غيره، أذلنا الله عزَّ وجل.

ما رأيكم أن نصغي السمع لراوي هذه القصة عن عمر بن الخطاب ؟

الأحنف بن قيس، يروي هذه القصة، قال: ((كنت مع عمر بن الخطاب، فلقيه رجل، فقال له: يا أمير المؤمنين، انطلق معي، فأعدني على فلان، فقد ظلمني، سيدنا عمر رفع درته، وخفق بها رأس الرجل، وقال له: تدعون أمير المؤمنين، وهو معرضٌ لكم، مقبلٌ عليكم، حتى إذا شغل بأمرٍ من أمور المسلمين، أتيتموه أعدني أعدني، فانصرف الرجل، فندم عمر بعدما عنَّفه، فقال: عليَّ بالرجل، فلما عاد ناوله مخفقته، وقال له: اقتص لنفسك مني، تعالَ اضربني، فقال الرجل: لا والله، ولكني أدعها لله، وانصرف.

عاد عمر إلى بيته، فصلى ركعتين، ثم جلس يحاسب نفسه، ويقول: يا بن الخطاب، كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، فما حملك على رقاب الناس؟ فجاءك رجل يستعديك فضربته، فماذا تقول لربك غداً؟.

-هذا هو كل الدين، كل الدين في هذه الكلمة: ماذا تقول لربك غداً؟ لماذا طلقتها؟ لماذا أكلت مال فلان؟ لماذا احتلت على فلان؟ لماذا كذبت على فلان؟ لماذا غررت بفلان؟ لماذا خنت العهد؟ لمَ فعلت هذا؟ ماذا تقول لربك غداً؟.

يا أيها الأخوة الأكارم، إذا كنت بطلاً، فهيِّئ جوابًا لله عزَّ وجل، عن كل عمل عملته في الدنيا؛ اشتريت، بعت، غضبت، خاصمت، عاديت، أعطيت، منعت، وصلت، قطعت، عليك أن تأتي بجوابٍ مقنع لله عزَّ وجل، ماذا تقول لربك غداً؟ النبي الكريم قال:

((لعن الله الذواقين والذواقات))

تجده لسبب تافه يطلق امرأته، ويوبخها، ويعنِّفها، علّمها، وضح لها الأمور، هكذا الله عزَّ وجل أخذ عليك العهد-

ثم قال: ماذا تقول لربك غداً؟ هو ذا يؤم الناس في الصلاة، فيسمع بكاءه ونشيجه أصحاب الصف الأخير))

من مواقف عمر بن الخطاب:

مرة ثانية: كان يعدو ويهرول وراء بعيرٍ، أفلتت من معصمها، ويلقاه علي بن أبي طالب فيسأله:

((إلى أين يا أمير المؤمنين؟ فقال له: بعيرٌ ندَّ من إبل الصدقة أطلبه، فيقول له علي كرم الله وجهه: لقد أتعبت الذين سيجيئون بعدك، وأهلكتهم، أنت خليفة، تلحق إبلاً، هربت من مكانها، لقد أتعبت الذين سيجيئون بعدك، فيجيبه عمر بكلماتٍ متهدِّجة: والذي بعث محمداً بالحق، لو أن عنزةً، ذهبت بشاطئ الفرات، لأخذ بها عمر يوم القيامة، ولو أن بغلة تعثرت، لحاسبني الله عنها، لمَ لمْ تصلح لها الطريق يا عمر؟))

هذا الكلام لنا، أنت صاحب محل سيارتك على الباب، لماذا هكذا عملت؟ فماذا تقول لربك غداً يا عمر؟.

إليكم العبرة من هذا الحديث الذي دار بين عمر وبين أبي موسى الأشعري:

مرة سيدنا عمر قال لجليسه أبي موسى الأشعري:

((يا أبا موسى، هل يسرك أن إسلامنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهجرتنا معه، وشهادتنا، وعملنا كله يرد علينا لقاء أن ننجوَ كفافاً لا لنا ولا علينا؟ -يتمنى هذا الخليفة العظيم

أن ينجو بجلده، لا له ولا عليه، وهذا الإسلام، وهذه المجاهدة، وهذه الحروب- فيجيبه أبو موسى: لا والله يا عمر؛ لقد جاهدنا، وصلينا، وصمنا، وعملنا خيراً كثيراً، وأسلم على أيدينا خلقٌ كثير، إنا لنرجو ثواب ذلك، فيجيبه عمر، ودموعه تنحدر من على وجنتيه كحبات اللؤلؤ: أما أنا فو الذي نفس عمرٍ بيده، لوددت أن ذلك يرد علي، ثم أنجو كفافاً رأساً برأس))

لِمَ لا يكون كذلك؛ وهو يرى النبي عليه الصلاة والسلام، يقضي ليله كله متهجداً متعبداً، ونهاره كله صائماً مجاهداً، فإذا قيل له:

((يا رسول الله، لِمَ تتعب نفسك، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيجيبه عليه الصلاة والسلام: أفلا أكون عبداً شكورا؟))

اقرأ ما كتبه عمر إلى عامله في البصرة:

كتب مرة سيدنا عمر إلى عامله على البصرة عتبة بن غزوان، قال له:

((قد صحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعززت به بعد الذلة، وقويت به بعد الضعف، حتى صرت أميراً مسلَّطاً، وملكاً مطاعاً، تقول فيسمع منك، وتأمر فيطاع أمرك، فيالها نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك، وتبصرك على مَن دونك، تحوط من النعمة، تحوطك من المعصية، هذه نعمة لكنها مزلق خطير، فلهي أخوفُ عندي عليك أن تستدرجك وتخدعك، فتسقط سقطة تطير بها إلى جهنم، أعيذك بالله، وأعيذ نفسي من ذلك))

إنّ أخطر شيء في النجاح الغرور، أن ترى أنك شيءٌ عظيم، أخطر شيء يقع الإنسان فيه أن يغتر بنفسه، والمؤمن دائماً يعزو نجاحه إلى الله عزَّ وجل، لولا فضل الله عليك ما كنت كذلك، قال تعالى:

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء الآية: ١١٣]

إذا أراد ربك إظهار فضله عليك، خلق الفضل ونسبه إليك، فأنت كمؤمن موحِّد: يا رب لك الفضل، هذا فضل الله عزَّ وجل.

من روائع عمر بن الخطاب:

ومرة زاره حفص بن أبي العاص، وكان عمر جالساً إلى طعامه، فدعا إليه حفصًا، تطلع حفص، فلم يعجبه الأكل، فرأى قديداً يابساً، يأكل منه عمر، فلم يشأ أن يكبد نفسه عناء ازدراده، ولا أن يجشم معدته مشقة هضمه، فاعتذر شاكراً، وأدرك أمير المؤمنين سر عزوفه عن هذا الطعام، فرفع بصره نحوه، وسأله: ((ما يمنعك عن طعامنا؟ فقال: إنه طعامٌ خشن، وإني راجعٌ إلى بيتي، وأصيب

طعاماً ليناً، قد صنع لي، قال له عمر: أتراني عاجزاً أن آمر بصغار المعزة، فيلقى عنها شعرها، وآمر برقاق البر، فيخبز خبزاً رقيقاً، وآمر بصاعٍ من زبيبٍ، فيلقى في سُعنٍ، حتى إذا صار مثل عين الحجل، صب عليه الماء، فيصبح كأنه دم غزالٍ، فآكل هذا، وأشرب هذا، فقال له حفص وهو يضحك: واللهِ إنك بطيب الطعام لخبير، واستأنف عمر حديثه، فقال: والذي نفسي بيدي، لولا أن تنقص حسناتي، لشاركتكم في لين عيشكم، ولو شئت، لكنت أطيبكم طعاماً، وأرفهكم عيشاً، ولنحن أعلم بطيب الطعام من كثيرٍ من آكليه، ولكننا ندعه ليومٍ، تذهل فيها كل مرضعةٍ عما أرضعت، وتضع كل ذات حملٍ حملها، وإني لأستبقي طيباتي، لأني سمعت الله تعالى يقول عن أقوامٍ:

(أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا)

[سورة الأحقاف الآية: ٢٠]

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (١٠١ - ٠١٥) : باب المجاهدة١ (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ......).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-١٠-٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... مع الحديث النبوي الشريف، حديث اليوم من باب المجاهدة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

(رواه البخاري)

يا أيها الإخوة المؤمنون... الولي هو القريب، ومتى يقرب الإنسان من الله ؟ في حالةٍ واحدة: إذا أطاعه، فالولاية مبذولة لكل إنسان، سيدنا عمر رضي الله عنه حينما عيَّن سيدنا سعد بن أبي وقاص قائداً في معركة القادسية قال: يا سعد لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له، فإذا أطعت الله عزَّ وجل تكون وليه..

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢))

(سورة يونس)

الولاية مبذولة لكل إنسان، أطعه تقترب منه، فإذا اقتربت منه كنت وليه، لذلك سيدنا الجنيد هذا العارف بالله قال: ليس الولي من يمشي على وجه الماء، وليس الولي من يطير في الهواء، ولكن الولي كل الولي هو الذي تجده عند الحرام والحلال، يعني أن يجدك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، هذه الولاية، الولاية مبذولة لكل إنسان، الناس سواسية كأسنان المشط، فهذه بعض المعتقدات الزائفة الزائغة: حتى الله يأذن، حتى تأتي الولاية، حتى الله يسمح لنا، الولاية مبذولة، أطعه تكن وليّه..

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً (٦٩))

(سورة النساء)

لا أعذار أبداً، أطعه تكن وليه، فإذا كنت وليه تولاّك بالحفظ، والتوفيق، وكنت برعايته، وتجلّى على قلبك، القضية لو يقول الواحد: أخي الله ما كتب لي، لم يأت الإذن بعد، لله في خلقه شؤون، حتى يهدي الله قلبي، هذه الولاية لأهل الخواص، ليس هناك خواص، ولا عوام، كلنا في فضل الله سواء، كلنا على قدر المساواة في طريق الإيمان، فلذلك معنى الولي بالضبط: هو الإنسان القريب من الله عزَّ وجل، والقرب ثمنه الطاعة..

تعصي الإلـه وأنت تظهر حبه ذاك لعمري في المقال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعتـه إن المحب لمن يحبُّ يطيع

* * *

فهذا الولي، هذا الطائع لله عزَّ وجل الذي هو عند الأمر والنهي، هذا الذي يطيع الله عزَّ وجل في كل شؤونه، وفي كل أحواله، هذا إذا عاديته، فأنت في خطرٍ كبير، لأنك إذا عاديته لا تعادي ذاته، لا تعادي شخصه، بل تعادي مهمَّته، تعادي وظيفته، تعادي مقامه، إذاً أنت تعادي الحق، إذاً أنت تريد أن تطفئ نور الله عزَّ وجل، إذا عاديت الولي فأنت ضدُّ الحق، أنت وضعت نفسك في خندقٍ معادٍ لخندق الإيمان، لذلك:

((من عادى لي ولياً...))

عادى أي ناصبه العداء، يعني سفّه آراءه، استهزأ به، كاد له، ائتمر عليه، دعا الناس إلى أن ينصرفوا عنه، اختلق أخباراً كاذبة حوله، افترى عليه، يعني هذا كله من أنواع العداء، فـ

((من عاد لي ولياً...))

من هو الولي ؟ ليس الذي يدعي الولاية، بل هو الولي الحقيقي الطائع لله عزَّ وجل في كل شؤونه، أو الذي يدعو إليه.

((من عاد لي ولياً فقد آذنته ـ معنى آذنته أي أعلمته ـ بالحرب...))

وإذا حارب الله عزَّ وجل إنساناً فقد انتهى، تأتي الأمور على خلاف ما يريد، من سيئ إلى أسوأ، يذيقه الله العذاب صُعُداً.

فلذلك:

((من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيءٍ أحب إلي مما افترضت عليه...))

يعني جميع أنواع النوافل ؛ نوافل العبادات، نوافل المعاملات، نوافل الأعمال الصالحة، جميع هذه النوافل ليست مقبولة ما لم تؤدَّ الفرائض، إنسان لا يصلي لكنه عمَّر جامعًا، لا، لابد من أن يصلي

أولاً، التقرب إلى الله لا يكون بالإحسان من دون صلاة، هذا الذي يدع حقوق الآخرين ؛ له أولاد، له زوجة، له أقارب، له أب، له أم، قبل أن تتقرب إلى الله بالنوافل، قبل أن تحج الحجة الخامسة والعشرين ارعَ حقوق أولادك، لهم عليك حق، لذلك جميع أنواع النوافل ؛ نوافل العبادات، نوافل المعاملات، نوافل الذكر، هذه كلها ليست مقبولة ما لم تؤدَّ العبادات، الفرائض.

لهذا يقول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه:

((وما تقرب عبدي إلي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه...))

أدِ الصلوات الخمس كما أراد الله أن تؤدَّى، أحسن الوضوء، أسبغ الوضوء، قف كما أراد النبي عليه الصلاة والسلام، وكما علمنا، اطمئن راكعاً، اطمئن ساجداً اخشع في صلاتك، التفت إلى الله عزَّ وجل، وبعدها صم شهر رمضان كما أراد الله عزَّ وجل، أدِ العبادات، وأد ما عليك من حقوق، وبعدها ابحث عن النوافل.

((وما تقرب عبدي إلي بشيءٍ أحب إلي مما افترضته عليه...))

يعني أداء الصلوات، أداء الحقوق إلى أربابها، بر الوالدين، وجميع الواجبات التي أمرنا الله بها، بعد أن تؤدي كل العبادات الله عزَّ وجل أمرنا بغض البصر، فقبل أن تغض البصر، الأعمال الصالحة غير مقبولة، لأنك مصر على شيء، على شهوة، فلابد من أن تأتمر بما أمر الله، لابد من أن تنتهي عما عنه نهى الله، وبعدئذٍ تفعل النوافل.

قال:

((وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل...))

الآن جاء دور النوافل، أنت تقربت إلى الله بالفرائض ؛ الصلوات الخمس، الصيام، الحج، الزكاة، حقوق الوالدين، حقوق الزوجة، حقوق الأولاد، حقوق الجوار، حقوق مَن تعاملهم ممَّن هم دونك، ممن هم فوقك، أديت الحقوق، حقوق المسلمين، حقوق غير المسلمين، أديت كل شيء الآن ما أروع النوافل،

((... وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل...))

يصلي قيام الليل، الآن قيام الليل بعد الصلوات الخمس شيءٌ رائع، يصلي صلاة الأوابين، يصلي صلاة الضحى، يدفع زكاة ماله، ويزيد عليها، يدفع أكثر من الزكاة، يساهم في بناء المساجد، يساهم في إقامة دور العجزة، يساعد الأرامل، يساعد المساكين، يتعطَّف على الناس، يعين ضعيفهم، يعطي فقيرهم، رائعٌ جداً أن تقوم بالنوافل بعد أداء الفرائض.

قال:

((... حتى أحبه))

يعني ما في مرتبة على وجه الأرض تفوق أن يحبك الله عزَّ وجل،

((حتى أحبه))

قال:

((فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها))

هذه الكلمات إشارات إلى نصر الله عزَّ وجل، يعني يسمعك الحق، ويسمعك الذي ينفعك، ويسمعك ما أنت بحاجةٍ إليه، وترى بنور الله حقائق الأشياء، ترى بنور الله، تسمع بنور الله، تتحرك بنور الله، تعادي بنور الله، تواصل بنور الله، تقطع بنور الله، تصل بنور الله، تعطي بنور الله، تمنع بنور الله، تبطش بنور الله، تنتقل من مكان إلى مكان بنور الله، هذه معنى أنه كنت سمعه، وكنت بصره، وكنت يده، معناها أن كل حركاتك وسكناتك في تأييد، وفي تسديد، وفي هدى، وفي رشاد، وفي توفيق، وفي توجيه نحو ما ينفعك.

سبحانك يا رب، أهل المعصية والفجور تأتيهم وساوس، كما يقول النبي عليه الصلاة والسلام في بعض أدعيته:

((اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم))

أحياناً الإنسان يفكر، يُفكر، يفكر، يدرس، يَدرس، يدرس، يحسب، يَحسب، يحسب فتأتي فوق رأسه بعدها، هذا جعل الله تدميره في تدبيره، أما المؤمن الله عزَّ وجل، ما دام المؤمن مع الله سبحانه وتعالى فهو بصره، وهو سمعه، وهو يده، يعني يرى بنور الله، يسمع بنور الله، يتحرك بنور الله، يعطي، يمنع، يصل، يقطع، كل هذا بنور الله، طبعاً لا ينبغي أن نفهم هذا الكلام على ظاهره، الله سبحانه وتعالى ليس هو يد الإنسان، هو في عليائه، لكن إذا قال: كنت يده يعني أعنته، سددت عمله، وفَّقته، إذا قال: كنت بصره يعني أريته الحق، رأى بنوري، إذا قال: كنت سمعه يعني استمع إلى الحق بنوري، فهذه الكلمات معناها أن الله سبحانه وتعالى يؤيده، ويحفظه، وينصره، وهو يتحرك بنور الله عزَّ وجل.

((ولئن سألني لأعطينه...))

صار سؤاله منطقيًا، لأنه عرف الحق، صار سؤاله متعلقًا بما هو خيِّر، لا يسأل: يا رب، يا عزيز، ألف ليرة إنكليز، هذا ليس بسؤال، اسأله السلامة، اسأله الرضى، اسأله التوفيق: اللهم وفقنا لمحابك

من الأعمال، اسأله الهداية، اسأله أن يتولى الله معالجتك، اسأله السداد، اسأله عمل صالح، اسأله أن تحب من يحب، فالإنسان عندما يعرف الله عزَّ وجل يعرف يسأله، فهل من المعقول إذا دخل رجل على ملك، وقال له الملك: اسألني، يقول له: أريد ممحاة ؟ معقول أن يطلب منه ممحاة ؟ الملك يعطي أقل شيء بيتًا فخما، ممحاة ؟!! أو أريد شفرة أجرح أخي فيها، أهذا سؤال يسأل لملك ؟ فإذا عرف الإنسان الله عزَّ وجل يسأل، يسأل ربه عزَّ وجل سؤال صحيح..

((... كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه))

السؤال أنت كلما ارتقيت عند الله عزَّ وجل صار لك عنده مكانة كبيرة..

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥))

(سورة القمر)

((عبدي المؤمن أحب إلي من بعض ملائكتي))

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً (٩٦))

(سورة مريم)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا)

(سورة الحج: من آية " ٣٨ ")

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور: من آية " ٤٨ ")

(وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥))

(سورة الضحى)

عندما تكون مؤمنًا، وتقرأ كتاب الله أحياناً تذوب ذوبان محبة لله عزَّ وجل.

فهذا الحديث إذا أطاع الإنسان الله عزَّ وجل صار وليّه، الولاية مبذولة، ليس هناك أخذ معدلات، انتهت المقاعد، انتهت الشواغر، انتهى الملاك، الملاك لا يسمح، ليس هناك تعيينات، باب الولاية مفتوحٌ على مصراعيه، والشروط شرط واحد، هو الطاعة لله عزَّ وجل.

ومن عادى ولي الله فقد عادى دين الله، فقد عادى شرعه، فقد عادى الحق، لذلك الله سبحانه وتعالى يتولى محاربته.

((ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه...))

يعني إذا الإنسان استعاذ بالله عزَّ وجل، الله عزَّ وجل يعيذه، يلبِّيه، لذلك إذا قال العبد: يا رب وهو راكع قال الله: لبيك، فإذا قال: لبيك وهو ساجد، قال الله تعالى: لبيك، فإذا قال: يا رب وهو عاصٍ قال الله عزَّ وجل: لبيك ثم لبيك ثم لبيك.

سبحان الله الإنسان كيف تمر الأيام والليالي، ولا يزال هناك جفوةٌ بينه وبين الله **!!!** بابه مفتوح، باب التوبة مفتوح، باب الصلة مفتوح، الله سبحانه وتعالى يسترضى.. "، صدقة السر تطفئ غضب الرب"..، "باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطَّاها "، الله عزَّ وجل يسترضى بالصدقة، يسترضى بالعمل الصالح، يسترضى بخدمة الخلق، فمتى الصلح مع الله، الصلحة بلمحة..

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣))

(سورة الزمر)

أعيد على أسمعاكم مرةً ثانية قراءة الحديث الشريف عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

(رواه البخاري)

والله مقام عالي كثير، يعني المؤمن تأتيه إلهامات لمصلحته: يا عبد الله افعل كذا، اذهب من هذا الطريق، تعامل مع هذا الرجل، اشترِ هذا البيت، اخطب هذه الفتاة، كل حياته سلسلة من التوفيقات، فإذا عصى الله عز وجل يخفق في زواجه، يخفق في عمله، يخفق في علاقته مع الآخرين، يقع في ورطات، يقع في مشكلات، يتهم بأشياء وهو منها بريء، يقع في أزمات، لذلك الإنسان بين أن يكون ولياً لله عزَّ وجل، وبين أن يكون ولياً للشيطان.

وفي درسٍ قادمٍ إن شاء الله نتابع شرح بعض الأحاديث الصحيحة.

* * * * *

والآن، إلى سيدنا عمر رضي الله عنه وأرضاه .

سيدنا عمر رضي الله عنه كان شجاعاً، عزيز النفس، فحينما أسلم قال: والله يا رسول الله لن نعبُد الله سراً بعد هذا اليوم، فكان إسلام عمر فيه عزٌ للمسلمين.

صلح الحديبية، هذا الصلح يرد في كتب السيرة، والحقيقة بنوده في ظاهرها فيها إجحافٌ لحق المسلمين، سيدنا عمر عزيز النفس، شهم، فرأى هذا الخليفة العظيم أن المزايا التي أعطاها النبي عليه الصلاة والسلام لكفار قريش سخيةٌ وكثيرة، وهو يؤمن بضرورة مناجزتهم، ودخول مكة طوعاً أو كرهاً، وما داموا لا يريدون أن يجنحوا للسلم، ويحتكموا إلى الحق، وما دام الحق والباطل في معركة فلابد للحق أن يستعلي بدل أن يهادَن، ولابد له أن يناجز بدل أن يساير، هكذا فهم عمر المسألة، وكوَّن الرأي، ولم يكن للجهر به من مفر، وهكذا أقبل على النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يبدأ الكاتب في تحرير صحيفة المعاهدة، فقال:

ـ يا رسول الله، ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟

ـ قال: بلى.

ـ قال: يا رسول الله، أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟

ـ فقال عليه الصلاة والسلام: بلى.

ـ فقال سيدنا عمر: يا رسول الله، فعلامَ نعطي الدنية في ديننا ؟!! لماذا هذه الشروط المجحفة ؟ لماذا هذه القيود ؟ لماذا هذه المزايا السخية للكفار ؟ فعلامَ نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟

ـ فقال النبي عليه الصلاة والسلام: ابن الخطاب إني رسول الله. فهمتم ماذا قال له ؟ إني رسول الله، أي:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤))

(سورة النجم)

ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبداً.

أنا سأقول لكم هذه الكلمة، وإن شاء الله مسؤول عنها حتى الموت واللهِ الذي لا إله إلا هو زوال الكون أهون على الله من أن يضيع مؤمناً، تطيعه ويضيِّعك ؟ تطيعه ويجعلك في آخر الركب ؟! تطيعه وتندم على طاعته ؟!! ادعُ الله عزَّ وجل في صلاة الصبح بالدعاء المأثور دعاء القنوت وقل له: سبحانك إنه لا يذل من واليت، ولا يعز مَن عاديت، وهذه الأيام بيننا، إنه لا يذل من واليت، ولا يعز مَن عاديت، يعني من رابع المستحيلات أن يذل المؤمن، وأن يعلي الكافر دائماً، للباطل جولةٌ ثم يضمحل، ولكن العاقبة للمتقين.

ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدا، يعني ما اقتنع، فذهب لسيدنا الصديق قال:

ـ يا أبا بكر ألسنا على الحق ؟

ـ قال: نعم.

ـ قال: أليسوا على الباطل ؟

ـ قال: نعم.

ـ قال: فلماذا إذاً نعطي الدنية في ديننا، ونرجع، ولما يحكم الله بيننا وبينهم ؟

ويطمئنه سيدنا الصديق بأن الله لن يتخلّى عن رسوله، وأن فتح الله قريب، معنى هذا أن سيدنا الصديق

أقرب لرسول الله من سيدنا عمر، يعني فهم عليه.

ـ فقال سيدنا الصديق: يا عمر الزم حرزه.

يعني كن معه، استسلم له لأنه رسول الله، لأنه معصوم، لأنه يوحى إليه وليس هذا لغير رسول الله، كل إنسانٍ يؤخذ منه ويرد عليه إلا صاحب هذه القبة الخضراء، ما جاءنا عن رسول الله فعلى العين والرأس، وما جاءنا عن أصحابهم فعلى العين والرأس، وما جاءنا عن سواهم فهم رجال ونحن رجال، إنسان غير رسول الله لا يحق له أن يقول: اتبعوني بلا دليل، لا نتبع بلا دليل، " أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم "، هذا كلام سيدنا الصديق، إنسان غير رسول الله لا يحق له أن يقول: اتبعوني، بلا دليل، لا تتبع إلا بالدليل، إذا جاءك بالدليل من كتاب الله، وفسر العلماء كما فسرها علماء المسلمين أئمة التفسير، وجاء بالحديث الصحيح المتواتر، وفسره كما فسره علماء الحديث، أنت الآن عليك أن تتبعه، أنت إذا اتبعته لا تتبعه بل تتبع الله ورسوله فقط.

إذا دعاك إنسان بعد رسول الله إلى الله، جاء لك بآيةٍ، وفسرها كما فسرها أئمة التفسير، أو جاء بحديث صحيح، وفسره كما فسره علماء التفسير، أنت الآن ملزمٌ أن تطيعه، وأنت إذا أطعته لا تطيعه هو، بل تطيع الذي جاء به من كتاب الله ومن سنة رسوله، أما أطيعوني بلا دليل، لا نطيعه.

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

(سورة الحشر: من آية " ٧ ")

لا مجال، أنت مأمور بنص كتاب الله أن تأخذ ما جاء به النبي، وأن تنتهي عما عنه نهاك، فلو كان في سلوك النبي ما هو خلاف الحق لكان الله قد أمرك بالباطل، ألم يقل لك: أطع رسولي، وانتهِ عما عنه نهاك، معنى ذلك لو أن النبي غير معصوم كأن الله قد أمرك بالمعصية.

إذاً ما ينطبق على النبي لا ينطبق على غيره، لا يحق لأحدٍ أن يأخذ ميزات النبي عليه الصلاة والسلام، هو معصوم، ويوحى إليه، وقد أُمِرْنا أن نطيعه في كل شيء، وأن ننتهي عما عنه نهانا، وليس هذا لغير رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما سوى النبي تعامل معه بالدليل، افعل كذا، أين الدليل ؟ لا تفعل، أين الدليل ؟

سيدنا عمر شعر بالمسؤولية بعد أن تولى أمر الناس، حتى إنه أراد أن يكون أول من يجوع إذا جاع قومه، وآخر مَن يشبع إذا شبعوا، عبارة دقيقة: أول من يجوع إذا جاعوا، وآخر من يشبع إذا شبعوا، كان يخاطب نفسه فيقول: كيف يعنيني شأن الناس إذا لم يصبني ما يصيبهم ؟ يعني إذا دخل الأب مثلاً المطعم، وأكل حلويات، كل يومين أو ثلاثة يأكل أكلة حلو، وليس في البيت في حلويات، والدنيا شتاء، اشتهوا أن يأكلوا حلويات، هذا الأب ما انتبه لهذه الناحية لأنه شبعان.

حدثني شخص فقال لي: عنده اثنا عشر نفسا، يأتي بأوقية من اللحم ـ حالته المادية جيدة ـ يضعها في الطبخة، يدخل عند اللحام يأخذ أوقيتين ويأكلها، يشويها ويأكلها في مكان خفي، كيف يعنيك أمر هذه الأسرة إن لم تشعر بما تشعر ؟ إن لم تجع كما تجوع ؟ إن لم تشته كما تشتهي ؟ فالأب إذا ما شعر بشعور أولاده، وبشعور زوجته، ليس مؤهلاً أن يكون أباً، فكان سيدنا عمر يقول: كيف يعنيني شأن الناس إذا لم يصبني ما يصيبهم ؟ فصار سيدنا عمر يلتزم أكل الزيت حين أصاب المسلمين أزمة شديدة في اللحم والسمن، ويدمن أهل الخطاب أكل الزيت حتى قرقرت أمعاءه، يقول لك: التوى قلبي كله زيت بزيت، فيضع كفه على بطنه ويقول له: قرقر أيها البطن أو لا تقرقر فوالله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صبية المسلمين.

في رواية ثانية: لتمرن أيها البطن على الزيت مادام السمن يباع بالأواقي، مادام السمن غاليا فكل الزيت.

في عام الرمادة، وهذا كان عام مجاعة قاتلة في المدينة، أمر يوماً بنحر جذور ـ ناقة كبيرة ذبحت وتوزيع لحمها على الفقراء من أهل المدينة ـ وقام المختصون بإنجاز هذه المهمة، بيد أنهم استبقوا لأمير المؤمنين أطيب أجزاءٍ في الذبيحة، أطيب جزء في الذبيحة يقال إنه السنام، الشهباية مثلاً أطيب شيء، فتيلة مثلاً، فبالناقة أطيب شيء السنام، وعند الغذاء وجد سيدنا عمر أمامه على المائدة سنام الجزور وكبده، وهما أطيب ما فيه، فقال:

ـ من أين هذا ؟

ـ قيل: من الجذور الذي ذبح اليوم.

ـ فقال وهو يزيح المائدة بيده الأمينة: بخٍ بخٍ، بئس الوالي أنا إذا أكلت أطيبها، وأكل الناس كراديسها، يعني عظامها، فقال: أزحها من أمامي، وقال: يا أسلم ارفع هذه الجفنة، وأتني بالخبز والزيت، بخٍ بخٍ، بئس الوالي أنا إذا أكلت أطيبها، وأكل الناس كراديسها.

في مرة جاءه من أذربيجان رسول عامله، واسمه عتبة بن فرقد، فهذا الرسول وصل للمدينة في ساعةٍ متأخرةٍ من الليل، في المدينة كره أن يطرق باب أمير المؤمنين في هذه الساعة المتأخرة فتوجه إلى المسجد، وليس فيه إضاءة، فسمع صوتاً يناجي ربه، يقول هذا الصوت: يا رب أنا واقفٌ بين يديك، هل أنت راضٍ عني ؟ هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها ؟ من هذا الشخص.

ـ فقال: من أنت يرحمك الله، من أنت ؟

ـ قال: أنا عمر، كره أن يطرق بيته ليلاً فإذا هو في المسجد.

ـ فقال: يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل ؟!

ـ قال: إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعف رعيتي.

فالنتيجة صلى معه، وأذن الفجر، وصليا الفجر، ودعوا بدعاء الفجر، وأخذه إلى البيت، وقال:
ـ يا أم كلثوم ماذا عندك من الطعام ؟

ـ قالت: والله ما عندنا إلا خبزٌ وملح، هو خيَّره: أتحب أن تأكل مع فقراء المسلمين أم أن تأكل في بيتي؟ قال: لا عندك في البيت، ليس هناك نسبة، بالبيت لا مع الفقراء ؟! فقال: يا أم كلثوم ماذا عندك من الطعام ؟ فقالت: والله ما عندنا إلا خبزٌ وملح ؟ فقال:

ـ أحضريه لنا.

وأكل سيدنا عمر مع ضيفه الخبز والملح، إذا كان هناك واحد منا جميعاً من يأكل خبزا وملحا فأنا مسؤول، فقط خبز وملح ؟ شرب الماء، وحمد الله على أنه أطعمه وسقاه وقال:

ـ ما الذي جاء بك إلينا ؟ خير إن شاء الله ؟

ـ قال: جئت لك بهذه الهدية.

فتحها فإذا حلوى من أذربيجان، فذاق منها لقمة فإذا لها طعمٌ طيب فقال:

ـ يا هذا أيأكل عندكم عامة المسلمين هذا الطعام ؟

ـ قال: لا، هذا طعام الخاصَّة، يعني الطبقة الغنية.

ـ قال له: أو أعطيت فقراء المدينة مثل ما أعطيتني ؟

ـ قال: لا، هذه لك وحدك.

ـ فقال له: أين بعيرك ؟ خذ حملك هذا وارجع به لعتبة، وقل له: عمر يقول لك اتق الله، وأشبع المسلمين مما تشبع منه.

وفي قول آخر أنه قال له: وزع هذه الحلوى على فقراء المدينة، وحرامٌ على بطن عمر أن يذوق طعاماً

لا يطعمه فقراء المسلمين.

طبعاً كان يجمع من حين لآخر أهله وأقرباءه المقربين إليه، أهل خاصته يقول: " إني قد نهيت الناس عن كذا وكذا، وأمرتهم بكذا وكذا، والناس كالطير إن رأوكم وقعتم وقعوا، وايم الله لأوتين بواحدٍ وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العقوبة لمكانه مني "، فصارت القرابة من عمر مصيبة، كل إنسان قريب من سيدنا عمر سيحاسب مرتين، يضاعف لها العذاب ضعفين، هؤلاء الأشخاص الذين بحكم أعمالهم، بحكم مراتبهم الاجتماعية يحتلون مركز الصدارة هؤلاء، يعاقبون ضعفين، ويثابون مرتين، مرةً على أعمالهم الطيبة، ومرةً لمن اقتدى بهم، فإذا أساؤوا يعاقبون مرتين، مرةً لأنهم أساؤوا، ومرةً لأنهم كانوا قدوة سيئة لغيرهم، هذه دخل فيها الأب، دخل فيها المعلم، دخل فيها مدير المعمل، دخل فيها رئيس الدائرة، دخل فيها كل إنسان، لو كان له ولاية على عشرة أشخاص، صار هذا له عذاب الضعف.

مع أن سيدنا عمر كان إماماً في الورع والزهد، لكنه يعاتب ولده عبد الله بن عمر عتاباً فيه العجب العجاب، فمرة سيدنا عمر رأى ابنه يستروح نعمةً متواضعة من نعم الحياة، يعني يأكل لحماً، هذا ذنبه الوحيد، دخل يوماً دار ابنه عبد الله، فرآه يأكل شرائح اللحم، فغضب وقال: ألأنك ابن أمير المؤمنين تأكل لحماً والناس في خصاصة، ألا خبزاً وملحاً، ألا خبزاً وزيتاً، والناس في خصاصة ؟ ذات مرة خرج في جولة تفتيشية في السوق، فرأى إبلاً سماناً تمتاز عن بقية الإبل بنموها وامتلائها، فقال:

ـ إبل مَن هذه ؟

ـ فقالوا: هي إبل عبد الله بن عمر، لابنك هذه.

وانتفض أمير المؤمنين كأنما القيامة قامت وقال:

ـ عبد الله بن عمر ؟ بخٍ بخٍ يا ابن أمير المؤمنين. طول بالك الله يعينك، وأرسل في طلبه من فوره، وأقبل عبد الله يسعى، وحين وقف بين يدي والده، أخذ عمر يفتل سبلة شاربه، وتلك كانت عادته إذا أهمه أمرٌ خطير وقال لابنه:

ـ ما هذه الإبل يا عبد الله ؟

ـ فأجاب: إنها إبلٌ أمضاء ـ يعني هزيلة ـ اشتريتها بمالي، وبعثت بها إلى الحمى ـ أي إلى المرعى ـ أتاجر فيها، وأبتغي ما يبتغي المسلمون. مثلي مثل كل الناس.

ـ فعَقَّب عمر في تهكمٍ لاذع: ويقول الناس حين يرونها ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين، اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين، وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين ـ أنت عرفت لماذا سمينة إبلك هذه ؟ لأنك ابني ـ ويربو ربحك يا ابن أمير المؤمنين ـ وتربح بهذه الطريقة، يطعمونها ويسقونها وتسمن، وتبيعها وتربح لأنك ابن أمير المؤمنين، قال له: يا عبد الله بن عمر خذ رأسمالك الذي دفعته في هذه الإبل، واجعل الربح في بيت مال المسلمين.

آخر لقطة من سيرة سيدنا عمر رضي الله عنه، يصل إلى المدينة يوماً بعض أموال الأقاليم فتذهب إليه ابنته حفصة رضي الله عنها لتأخذ نصيبها، وتقول له مداعبةً:

ـ يا أمير المؤمنين حق أقاربك في هذا المال، فقد أوصى الله بالأقربين، ما لنا شيء نحن ؟

ـ فيجيبها جاداً: يا بنية، حق أقاربي في مالي، أما هذا فمال المسلمين، قومي إلى بيتك، اذهبي.

سيدنا عمر من علمه هذا ؟ قال النبي عليه الصلاة والسلام، مرة قال النبي لأحب الناس إليه، لابنته فاطمة، قال مرةً:

((فاطمة بضعة مني من أحبها فقد أحبني ومن أبغضها فقد أبغضني))

(من الجامع الصغير: عن " عن المسور ")

ولما ولدت، حملها وضمها وشمها وقال:

((ريحانة أشمها وعلى الله رزقها))

ولم يكن في الناس مخلوقٌ أحب إليه من فاطمة، قالت: يا أبتِ، طلبت منه شيئا من المال، فقال:

((لا يا فاطمة إن في المسلمين من هم أحوج منك لهذا المال))

ثم يحرمها ويعطي سواها.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠١٦ - ١٠١) : باب المجاهدة٢ (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس.....).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-١٠-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الإخوة المؤمنون... قبل أن أشرح الحديث المقرر لهذا الدرس أريد أن ألفت النظر إلى أن بعض الناس يفهمون الدين على أنه مجموعةٌ من المعلومات، يعني هناك أحاديث، هناك آيات، هناك تفاسير، هناك قصص، هناك سِيَر، فإذا تتبعها الإنسان، وحفظها فاز فوزاً عظيماً، والحقيقة خلاف ذلك.

المعلومات لا تشكل من الدين إلا جزءًا يسيراً، الدين وجهةٌ إلى الله سبحانه وتعالى، الدين إقبالٌ عليه، الدين إحكام الاتصال به، فالحقيقة عندما ينقلب الإسلام إلى معلومات، أو إلى كتب، أو إلى ثقافة ليس غير، انتهى الإسلام، أما إذا كان الإسلام التزاماً، كان الإسلام طهارةً، كان الإسلام سمواً، كان الإسلام التزاماً، عندئذٍ هذا المسلم يفعل المعجزات، واحدٌ كألف وألفٌ كأف.

فمن حين لآخر أجد نفسي مضطراً أن ألفت نظر الإخوة الأكارم إلى أن تحصيل المعلومات فقط لا قيمة له في الإسلام، الصحابة الكرام فتحوا العالم، وكانوا أبطالاً بكل ما في هذه الكلمة من معنى، لا لأنهم سمعوا أحاديث رسول الله، ولكن لأنهم عاشوها، الإسلام يجب أن تعيشه، يجب أن تعيشه في بيتك، يجب أن تعيشه في كل علاقاتك، يجب أن تكون لك صلةٌ بالله واضحة، يجب أن تقبل عليه وأنت مشتاقٌ في هذا الإقبال.

فأنا أحب من حين لآخر ما يسمونه تصحيح السير، فلما يميل بالإنسان الاتجاه إلى تجميع المعلومات، تكون صلاته جوفاء، واستقامته فيها خلل، وانضباطه ضعيف، والتزامه قليل، هذا لن يحصِّل من الدين شيئاً، فأن تعدل ساعةً خيرٌ من أن تعبد الله ستين سنة، أن تعدل في عملك، أن تكون مُنْصفاً، أن تكون صادقاً، أن تكون أميناً، لذلك الإمام الغزالي ـ وأعيد هذا مراتٍ كثيرة ـ لما حدثنا عن العلم بالله قال: " هذا العلم ثمنه المجاهدة "، ثمنه باهظٌ جداً، ونتائجه باهرةٌ جداً، ثمنه باهظ أن هذا العلم لا يحصل بحضور مجلس علم، هذا العلم لا يحصَّل بقراءة كتاب، لا يحصل بإتقان التجويد، لا يحصل بالاطلاع على الفقه، لا يحصل بالانتساب إلى جامعة ـ إلى كلية الشريعة ـ هذا العلم لا يحصل إلا بالمجاهدة، كما قال الإمام الغزالي: " جاهد تشاهد".

فإذا جاهدت نفسك وهواك، أحكمت الصلة بالله عزَّ وجل، كل واحد منا يعرف إذا وقف بين يدي الله عزَّ وجل ما إذا كان متصلاً أو مقطوعاً، يمكن أن تتوضأ، وأن تقف بين يدي الله عزَّ وجل، وأن تقرأ الفاتحة وسورة، وأن تركع، وأن تسجد، وأن تؤدي الصلاة كما أرادها الفقهاء تماماً، ويمكن مع

هذا الأداء الكامل للصلاة أن تكون مقطوعاً عن الله عزَّ وجل ؛ بذنبٍ، أو بمخالفةٍ، أو بطمعٍ، أو بانحرافٍ، أو بتجاوزٍ، أو بتقصيرٍ، أو بشهوة، أو بشركٍ خفي، فمقياس الإنسان الصلاة، قال عليه الصلاة والسلام:

((الصلاة ميزان فمن وفَّى استوفى))

(من الدر المنثور: عن " ابن عباس ")

يعني من وفَّى الاستقامة حقها، استوفى من الصلاة ثمراتها.

فالعمر ثمين جداً، ولكي لا يقول الإنسان: أنا داومت خمس سنوات، ست سنوات، سبعن سنوات، عشر سنوات، اثنتا عشرة سنة، ولم أستفد شيء، وهو ليس ملتزمًا، فلذلك إذا أحب الإنسان أن يكون من المؤمنين الصادقين فلابد له بادئ ذي بدء من أن يعقد العزم على أن يستقيم على أمر الله تماماً، أما هذه الكلمات: قدر الإمكان، الله يتوب علينا، الله يعفو عنا، الله عزَّ وجل لن يحاسبنا، لن يدقق، لن يضع عقله بعقلنا ـ كما يقول بعض العوام ـ هذا كلام كله مرفوض، الله عزَّ وجل عدله مطلق، وجنَّته ثمينة، وسلعة الله غالية، ولن يعطيها إلا لمن يستحق، فمَن تمنى أن يكون مؤمناً هذا التمني لا يغنيه شيئاً، ولا يقدم ولا يؤخر.

لذلك لما يضع الإنسان برنامجًا لنفسه، برنامجًا فيه سيره إلى الله عزَّ وجل، برنامجًا حازمًا فأحياناً ينقلب عند الإنسان حضور هذه المجالس إلى عادة من العادات، والله اليوم الأحد عندنا درس، بعد الأحد عندنا سهرة مختلطة، وكأنه ما حضر الدرس، يوم الاثنين عنده دوام بالمحل، المحل فيه أحياناً حلف يمين كاذب، فيه أحياناً ترويج سلعة زائفة، فيه أحياناً إخفاء عيب بالبضاعة، فإذا لم يكن ثمة انضباط شرعي خلال الأسبوع، والله هذا الدرس سيكون حجةً عليك.

والله أنا الذي أتمناه على الله عزَّ وجل أن النخبة المطبقة للإسلام مئة في المئة، فالإنسان يراجع نفسه هل بيته فيه مخالفات ؟ يا ترى زوجته هل هي منضبطة ؟ بناته منضبطات ؟ يا ترى بيته منضبط ؟ بيته إسلامي ؟ يا ترى بيعه وشرائه إسلامي ؟ علاقاته مع الناس إسلامية، فيها تقصير ؟ يا ترى إذا قام ليصلي هل يشتاق لله عزَّ وجل ؟ يصلي ـ كما يقول بعضهم ـ أرحنا منها، أم أرحنا بها ؟ وشتان بين أن تقول: أرحنا منها يا فلان، وبين أن تقول: أرحنا بها يا بلال، كما قال عليه الصلاة والسلام.

فأنا أحب من حين لآخر، ولو كان التوجيه ثقيلا على الإخوان، لكن والله الحقيقة مرَّة دائماً، والحقيقة أحياناً تأتي قاسية، فلماذا كان الصحابة الكرام في عهد النبي عليه الصلاة والسلام في قمة السعادة ؟ إنسان مسلم يغتاب أخاه !! والله هذا ليس بمسلم، لما قال ربنا عزَّ وجل:

﴿ تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً﴾

(سورة الحجرات: من آية " ١٢ ")

هذا نهي، أنت لماذا تصلي ؟ لأن الله أمر بالصلاة، كيف تغتب أخاك، وقد نهاك الله عن ذلك ؟ أتأخذ ما يعجبك، وتدع ما لا يعجبك ؟ أهكذا الإسلام ؟ لمَ لا تقرأ القرآن، وتحاول تطبق كل ما جاء فيه تطبيقاً تاماً، والله الذي لا إله إلا هو تدخل في سعادةٍ لا توصف، حينما تعقد العزم على التوبة النصوح، وحينما تصطلح مع الله سبحانه وتعالى، وحينما تقوم للصلاة، تقوم لتتصل بالله عزَّ وجل، لذلك تهيئ نفسك من وقتٍ طويل، ما بين الصلاتين تهيئة للصلاة الثانية، ما بين الظهر والعصر تهيئة لصلاة العصر، ما دام أن ليس هناك كذب، ولا غيبة، ولا نميمة، ولا بهتان، ولا نظرة، ولا مخالفة، ولا معصية، كلك صدق، وأمانة، وخدمة، وطاعة، وبحث عن عمل صالح، يا ترى الإنسان أول ما يستيقظ صباحاً هل يقول: يا رب ارزقني عملاً صالحاً ترضى به عني ؟ فالواحد يحاسب نفسه: هذا اليوم كيف مضى ؟ مضى في القيل والقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال، مضى بكسب الرزق، مضى في المشاحنة والخصام، وبعدها عندنا درس الأحد، عندنا درس الجمعة، والله هذا الذي لا يرضي الله عزَّ وجل.

فالذي أتمناه على كل إخواني الأكارم أن هذا وقت مبذول، تأتون من مكان بعيد، يجب أن تستفيد من هذا الوقت بأعلى درجة ممكنة، فالقضية لا بالكتابة، ولا بالقراءة، ولا بالتأليف، ولا بسماع المحاضرات، ولا بسماع الخُطَب، ولا بتحصيل الثقافة، هذه كلها أشياء لابد منها ولكنها غير كافية، يعني إذا ما دخل الإسلام بصميم حياتك، إذا ما دخل الإسلام إلى مشاعرك، فإذا قرأت القرآن هل تدمع عيناك ؟ هل يقشعر جلدك ؟ هذا كلام الله، على قدر تفاعلك مع هذا الكتاب، على قدر الانضباط، على قدر البذل، على قدر العمل الصالح تتفاعل مع كتاب الله، فقد تأتي على المؤمن ساعة..

والله أنا قرأت حديث، سبحان الله، النبي عليه الصلاة والسلام ذاتٍ ليلةٍ افتتح البقرة فقال بعض أصحابه: يركع عند المئة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها بركعةٍ، فمضى، فقلت يركع بها، قرأ النساء، قرأ آل عمران.

نحن إذا أطلنا نقع في مشكلة، يا ترى هل هناك هذا السرور بإطالة القرآن بالصلاة ؟ يجب أن يكون لكل واحد ساعة مع ربه يسعد بها، له مثلاً ساعة قيام ليل يصلي ركعتين، ثلاثا، ستً، ثماني، قرأ آيات طويلة، شعر أنه ذاب ذوبان محبة لله عزَّ وجل، إذا لم يكن له قلب يخفق بمحبة الله، وله جوارح تقشعر من خشية الله، ولا انضباط كامل، ورع على مستوى الليرة، والنصف ليرة، والفرنك لهذه الدرجة ورع؟ أحد التابعين كان لا يأكل مع أمه في قصعةٍ واحدة، فسألوه لمَ؟ فقال: والله أخاف أن تقع على عين أمي لقمة فتسبقها يدي إلى فمي، لهذه الدرجة ورع ؟! الإمام أبو حنيفة رضي الله

عنه ما وقف في ظل بيتٍ مرهونٍ عنده لئلا يستفيد منه ، يعني ورع إلى درجة، ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعة من مخلط.

مادام قلب الإنسان ينبض، مادام فيه حياة، فالقضية سهلة كثير، الصلحة بلمحة، اعمل جردًا ؛ في بيتك، خارج بيتك، عملك، دخلك، مصروفك، علاقاتك، زياراتك، أصدقاءك، نشاطاتك، فيها مخالفات للشرع؟ فيها شيء لا يرضي الله ؟ فيها مجاوزات ؟ فيها تقصيرات ؟ اعمل انضباطًا .

فهل هناك أسعد في الحياة كلها من أن تسعى لمرضاة الله عزَّ وجل ؟ هل في الحياة كلها في موقف أشرف من أن تبحث عن طاعة الله ؟ أو موقف أشرف من أن تخدم عباد الله ؟ لا نريد كلامًا، نريد عملا، الكلام انتهى، والله الآن الدنيا ممتلئة بالكلام، في أي موضوع، في كتب، وفي مجلات، وفي بحوث، وفي أشرطة، وفي محاضرات مصور بصورة وصوت، وملون، وغير ملون، ومع بيانات، ومع تصاوير، ومع أدلة، ومع براهين، العالم الآن مفعم بالكلام، أما الصحابة الكرام فكانوا إلى أن يفعلوا أقرب إلى أن يقولوا.

فيمكن لله أن يجعل على يد واحد هدى أمة بأكملها، أو مجتمع بأكمله، فقضية البطولة مفتوحة، باب البطولة مفتوح، لما يكون الإنسان محسوبًا على الناس أنه ديِّن، أين ذاهب ؟ على الجامع، من أين جئت؟ من الجامع، فلان صاحب دين، فلان تمشيخ، فلان تلميذ الجامع الفلاني، فأنت محسوب على المسلمين، يا ترى ماذا فعلت ؟ سؤال كبير، أنت حجمك عند الله بحجم عملك، ما الذي فعلته في هذه الحياة ؟ ما الذي بذلت ؟ ألك عملٌ تلقى الله به، حينما يأتي ملك الموت ؟

موضوع الموت خطير جداً، لما يدخل الإنسان غرفة مظلمة، أغلق الباب عليه، هذه أحد حالات القبر، تفضل صلِّ، تفضل أقبل على الله عزَّ وجل، يا ترى هل عندك عمل تلقى الله به ؟ هل لك عمل ترضى عنه ؟ هل لك عمل يرفعك الله عزَّ وجل من أجله ؟ فلما يصير الدين ذهابا إلى المسجد، وعودة منه، وعدم انضباط، عدم التزام، عدم بذل، وقوع في غيبة، ونميمة، وبهتان، ومشكلات، فالمشكلة خطيرة.

فالذي أرجوه من الله سبحانه وتعالى أن يهدي قلوبنا إلى طاعته، وإلى محبته، وإلى العمل بسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، فأنا أحب علم الأحاديث، وعلم السِيَر، لكن أحب أكثر أن أرى إنسانًا دخل الدين إلى كل خليَّة من خلاياه، وكيان نفسه، وعقله، ومشاعره، وجوارحه كلها مع هذا الدين، بيته، انضباطه، سلامة صدر، ذاتية، صفاء، ود، تواضع، عطاء، لما يكون الإنسان كذلك فهذه القضية تحتاج إلى شيء من العبادة الصحيحة.

لما يعاهد الأخ من الإخوان الأكارم نفسه على قيام ركعتين من الليل قبل صلاة الفجر، في شهر من الزمان، يجد وجه قد تألق، شعر بسعادة، شعر أنه قريب من الله عزَّ وجل، ولما يعاهد نفسه أن يقرأ من القرآن جزءًا، نصف جزء، ربع جزء، لكن قسم، أقل شيء خمس صفحات تقرأها يومياً بخشوع، ويتدبر الآيات، ولما يعاهد نفسه على أن يذكر الله كل يوم ربع ساعة، جلسة مع الله ساعة زمن ؛ قسمًا للقرآن، وقسمًا للذكر، وقسمًا للصلاة، وقسمًا للتهجُّد، جلسة صباحية يومية مع شيء من قيام الليل، مع أداء الصلوات بإتقان، تجد حالك قد صرت إنسانًا آخر، هذه المعلومات ليست لها قيمة إلى الحد الذي تصبح هي كل الدين.

لكن لما يكون للإنسان هذه الصلة بالله عزَّ وجل، جاهد تشاهد، اعمل أعمالا صالحة، وانضبط، وافعل الخيرات، وساعتئذٍ قل لي: كم هي الحالة السعيدة التي تغمرك ؟ فهذه الملاحظة، فطريق الإيمان طريق يحتاج إلى انضباط، إلى موارد، إلى أوراد، إلى ذكر، إلى صلاة، إلى تهجد، إلى قيام ليل، إلى عمل صالح، ولما يبذل الإنسان وينضبط، والله لو تسأله: كيف حالك ؟ ليقول لك: ليس في الأرض من هو أسعد مني، والله أنا لا أبالغ إذا انضبط الإنسان، واصطلح مع الله عزَّ وجل، واتقدت نفسه بمحبة الله عزَّ وجل، لو أنك سألته سؤالاً صريحاً: كيف حالك ؟ قد يكون هذا الإنسان يعيش في وسط من أناسٍمقهورين، متعبين، في ضياع، في قلق، في خوف يقول لك: والله ليس في الأرض من هو أسعد مني إلا أن يكون أتقى مني، هذه علامة الإيمان، الحياة جميلة جداً في طاعة الله، الإيمان له عز.

أحد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، وأظنه سيدنا الحسن، قالوا:

ـ يا سيدنا، أو يا فلان أتيهٌ في الإسلام ؟

ـ قال: هذا عز الطاعة.

إذا أطاع الإنسان الله عزَّ وجل يشعر بعزة ما بعدها عز.

* * * * *

فنحن عندنا أحاديث أختارها لكم من كتاب رياض الصالحين، وهذا الكتاب ـ كما تعلمون ـ يحتوي على الأحاديث الصحيحة، ومن هذه الأحاديث حديث ابن عباسٍ رضي الله عنهما، طبعاً سيدنا العباس من أصحاب رسول الله، وسيدنا ابن عباس من أصحاب رسول الله، فإذا ذكرت صحابياً وابنه أو وأباه، فيجب أن تقول: رضي الله عنهما.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ))

(رواه البخاري)

هذا الحديث في باب المجاهدة من كتاب رياض الصالحين.

نعمة الصحة لا يعرفها إلا مَن فقدها، وقد قالوا: من أدرك الإسلام والصحة ما فاته شيء، والصحة تاجٌ على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى، فلما يكون الإنسان بقوته، وبسمعه، وبصره، وعقله، وصحته، الأجهزة كلها صحيحة ؛ القلب، والرئتان والكبد، والكليتان، والعضلات، والأوردة، والشرايين، والعظام، والدماغ، والغدد الصمَّاء، والطحال، والبنكرياس، والكظر، والأجهزة كلها تعمل بانتظام فهذه نعمة لا تعدلها نعمة.

هناك من يخيَّر، لو أن له مئات الملايين، ويفقد بعض أعضائه، أو بعض أجهزته لما رضي، فالإنسان الصحيح غنيٌ، وأي غنيّ، فربنا عزَّ وجل ما جعل هذه الصحة كي تستنفذها في الأمور التافهة، هذه القوة ؛ أن تمشي، أن تنهض، أن تستخدم يديك، أن تستخدم حواسك، هذه كلها يجب أن تستخدم في طاعة الله عزَّ وجل، هذه العين يجب أن ترى بها آيات الله، هذه الأذن يجب أن تستمع بها إلى الحق، هذا اللسان يجب أن ينطق بالحق، هذه اليد يجب أن تساعد بها المحتاجين، هذه الرِّجل يجب أن تنتقل بها إلى المسجد، أو إلى عملٍ شريف، أو إلى عملٍ صالح، لذلك:

((نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ))

الذي عنده وقت فراغ، ويتوانى عن حضور مجلس علم، فهذا له حسابٌ خاص، في الفراغ اقرأ القرآن، والمؤمن يوم القيامة لا يتألم إلا على ساعةٍ مضت لم يذكر الله فيها، أنت بهذه الساعة اقرأ القرآن، اذكر ربك، مُ بالمعروف، وانه عن المنكر، اقرأ بحثًا علميًّا تستفيد منه، اقرأ موضوعًا في الفقه، اقرأ شيئًا من السيرة، عاون أهلك، اخدم جيرانك، اكتب موضوعًا، اعمل عملا، فهذا الوقت ثمين جداً ، فالإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه، فهذا الذي أتمناه عليكم أن يكون الوقت أثمن شيء في حياتنا.

كل يوم ينشق فجره يقول: يا ابن آدم أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

لما يستيقظ الإنسان ويفتح عينيه يجب أن يعلم أن الله سبحانه وتعالى سمح له أن يعيش هذا اليوم، كم من إنسان مات، نام وما استيقظ، زوجته نائمة إلى جانبه فوضعت يدها على يده فرأتها باردة جداً، وقفت فرأته ميتًا، نام وليس به شيء، فهذه القصص كثيرة جداً، فلما يعرف الإنسان حاله أن هذا الوقت لابد من أن ينتهي فيجب أن يسارع، لذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢))

(سورة آل عمران)

أي: لا يأتينكم الموت إلا وأنتم مسلمون، استسلام كامل، استسلام في الاستقامة، استسلام نفسي، استسلام للمقادير، فالصحة والفراغ نعمتان كبيرتان مغبونٌ فيهما كثيرٌ من الناس.

واللهِ قال أحد العلماء في الشام، وقد مر في الطريق أمام مقهى، فرأى أناسًا يلعبون النرد، فقال هذا العالم الجليل، وأظنه الشيخ بدر الدين: سبحان الله !! لو أن الوقت يشترى من هؤلاء لاشتريناه منهم، جالس في المقهى إلى الساعة الثانية عشرة، ما هذا ؟ هذا الوقت الثمين أهكذا يستهلك ؟ أهكذا تستهلكه ؟ والله هناك ألف مجال ترقى به إلى الله، هذه السهرة، الآن عندك سهرة أيام الشتاء، ربيع المؤمن، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((طال ليله فقامه، وقصر نهاره فصامه))

(من كشف الخفاء: عن " أبي سعيد ")

هذه السهرة ذهبت إلى البيت الساعة الثامنة والنصف، ممكن أن تجلس مع أهلك تحدثهم عن الله عزَّ وجل، ممكن تقرأ موضوعًا، ممكن تقرأ القرآن، ممكن أن تصلي، ممكن أن تتابع موضوعًا في كتاب، ممكن أن تكتب مقالة، ممن أن تنصح إنسانًا، ممكن أن تتألف قلبَ أخت بعيدة تزورها، ممكن أن تعاون الأهل، ممكن أن تقوم بعمل يرضي الله عزَّ وجل.

لذلك هذا الذي يعنيه النبي عليه الصلاة والسلام بالصحة والفراغ، فهؤلاء الشباب عندهم وقت فراغ، بعد فترة يتزوج، باللغة الدارجة ـ ينعمى قلبه ـ يوم مشكلة، وبكرة ابنه سخن، وبعد بكرة عند زوجته ولادة، ويريد إبرة غير متوافرة بالصيدليات من أجل الدم، لكي لا يصير فساد في الدم، يدخل الإنسان في عالم، وبعد ذلك يأتي المولود، فيحتاج حاجاته، يريد أن يسعى ليؤمن غذاء للمولود، فقبل أن يتزوج الرجل هذه فرصة كبيرة جداً، استغلها في معرفة الله عزَّ وجل، إذا كان للواحد عمل بسيط، وساعات دوامه قليلة فهذه نعمة كبيرة، ثمة أشخاص عندهم عمل اثنتي عشرة ساعة، وأشخاص ثماني عشرة ساعة يعمل حتى يستطيع أن يؤمن حاجاته وحاجات أهله.

فـ:

((نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ ؛ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ))

هذا الحديث قصير، لكنه خطير، يعني استيقظت صباحاً قال عليه الصلاة والسلام:

((لا بورك لي في يومٍ لم أزدد فيه من الله علماً))

يا ترى أنا اليوم ماذا تعلمت ؟ هل تعلمت آيةً ؟ هل تعلمت حديثاً ؟ هل تعلمت حكماً فقهياً ؟ هل قرأت شيئاً عن أصحاب رسول الله ؟ هل قرأت شيئاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ماذا

تعلمت.

أو:

((لا بورك لي في يومٍ لم أزدد فيه من الله قرباً))

ماذا فعلت ؟ جلست، ماذا تكلمت ؟ هل أثرت في الآخرين ؟ هل أحدثت عند أحدهم توبة ؟ هل نقلت أحدهم من حالٍ إلى حال، من قولٍ إلى فعل ؟

هذا الحديث هو حديث اليوم، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ))

(رواه البخاري)

هذا الحديث في باب المجاهدة من كتاب رياض الصالحين.

* * * *

والآن، إلى متابعة الحديث عن عملاق الإسلام سيدنا عمر رضي الله عنه وأرضاه.

حينما أفاء الله على المسلمين في عهده خيراً كثيرا، وامتلأ بيت المال بالمال، أشار عليه نفرٌ من أصحابه أن يقوم بإحصاء الناس، ورصد أسمائهم في ديوان، حتى ينالوا جميعاً رواتبهم السنوية في نظامٍ مُحْكَم، واختير لهذه المهمة عقيل بن أبي طالب ـ أخو سيدنا علي ـ وجبير بن مطعم، ومخرمة بن نوفل، وكانوا أعلم الناس بأنساب قريش، وأكثرهم معرفةً بالمسلمين، جلسوا يدونون الأسماء بادئين ببني هاشم، ثم بآل أبي بكر، ثم ببني عدي آل عمر.

فلما طالع أمير المؤمنين الكتاب رده إليهم، وأمرهم أن يقدموا على آل عمر كثيرين ممَّن هم قبلهم، وذكر عائلتهم، وقال: ضعوا عمر وقومه في آخر الأسماء " وعلم بنو عدي بهذا، فذهبوا إليه راجين أن تظل أسماؤهم في مقدمة الديوان كي ينالوا مناصبهم والمال الوفير، وقالوا له:

ـ ألسنا أهل أمير المؤمنين ؟

ـ فأجابهم عمر: بخٍ بخٍ بني عدي، أردتم أن تأكلوا على ظهري، وأن أهب لكم حسناتي، لا والله، لتأخُذُنَّ مكانكم، ولو جئتم آخر الناس.

هذا موقفه من أهله رضي الله عنه.

سيدنا عمر رفض أن يجعل ابنه عبد الله، وهو من أصحاب رسول الله، وكان تقياً، ورعاً، قوياً، رفض أن يجعل ابنه عبد الله من الستة الذين رشَّحهم للخلافة، قائلاً:

ـ حَسْبُ آل عمر أن يحاسب منهم واحد وهو عمر، يكفيهم واحد.

ـ فقالوا له: لكن يا أمير المؤمنين إن ولدك عبد الله هو التقي العادل، فهل ذنبه وذنب الناس الذين ستسعدهم ولايته أنه ابن أمير المؤمنين ؟!

طالما قيل هذا القول لعمر فيذكر قائليه بأن عبد الله ـ اسمعوا الجواب ـ قبل أن يكون رجل حكم، فإذا استعمل اليوم صالحي أهله، فربما جاء من بعده مَن يستعملون أهليهم ويقولون: هكذا فعل عمر، لجعلها سنة من بعده، لهذا قال سيدنا عمر: من استعمل رجلاً لمودةٍ أو قرابة لا يحمله على استعماله إلا ذلك، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين.

أنت مثلاً عندك معمل، عندك مدرسة، عندك مستشفى، في لك صهر طبيب مثلاً، عينت هذا الصهر فرضاً رئيس قسم الأمراض الفلانية، وفي هذا القسم مَن هو أكفأ منه، مَن هو أخلص منه، أنت عينت هذا الصهر لأنك حابيته، أو جاملته، مَن فعل هذا فقد خان الله ورسوله والمؤمنين.

" من استعمل رجلاً لمودةٍ أو قرابة لا يحمله على استعماله إلا ذلك، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين".

أجمل خطبة قالها هذا الخليفة العادل حينما تولى الخلافة، يبدو أن بعضهم قال:

ـ يا أمير المؤمنين إن الناس خافوا منك، خافوا من شدتك.

ـ فقال هذا الخليفة رضي الله عنه: بلغني أن الناس هابوا شدتي، وخافوا غلظتي، وقالوا: قد كان عمر يشتد ورسول الله بين أظهرنا ـ رسول الله رحيم، لطيف، حليم، وعمر شديد، لكن هناك من يوقفه، ويخفف من شدته ـ ثم اشتد علينا وأبو بكرٍ والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟! أحياناً يكون الأب والأم في البيت، الأب يشد، والأم ترخي، توازن، إذا ماتت الأم يأخذ الأب دور الأم والأب، لما يشد الأب الأم تخفف، الآن ماتت الأم، يأخذ الأب دور الأم، ثم اشتد علينا وأبو بكرٍ والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه ؟ الآن الأمر كله له، لا يرحم شديد.

ـ فقال سيدنا عمر: آلا مَن قال هذا فقد صدق ـ معه حق ـ فإني كنت مع رسول الله عونه وخادمه، وكان عليه السلام مَن لا يبلغ أحدٌ صفته من اللين ـ كان لين، والرحمة ـ وكان كما قال الله تعالى:

(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨))

(سورة التوبة)

فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني ـ أنا سيف له يغمدني فأغمد، أنا جهاد بيده ـ أو يدعني فأمضي، فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راضٍ،

الحمد لله على ذلك كثيراً، وأنا به أسعد ـ أنا كنت سيفًا بيد رسول الله فكان يغمدني أو يستعملني ـ ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر فكان مَن لا تنكرون دعته، وكرمه، ولينه، فكنت خادمه، وعونه، أخلط شدتي بلينه، فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني، أو يدعني فأمضِي، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عزَّ وجل وهو عني راضٍ، الحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد.

كنت سيفا لرسول الله يستعملني أو يغمدني، وكنت سيفا لسيدنا الصديق يستعملني أو يغمدني، قال:

ـ ثم إني قد وليت أمركم أيها الناس ـ أما الآن فهناك وضع ثان ـ فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت ـ الآن أنا سآخذ دور الأم والأب ـ ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي ـ هذه الشدة تبقى شدة على أهل الظلم والتعدي ـ فأما أهل السلامة، والدين، والقصد، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحداً يظلم أحداً، أو يعتدي عليه حتى أضع خده على الأرض، حتى يذعن للحق، وإني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف، وأهل الكفاف والتقوى ـ أنا مع أهل العفاف والكفاف والتقوى أضع لهم خدي على الأرض ـ ولكم عليَّ أيها الناس خصالٌ أذكرها لكم فخذوني بها ـ أي حاسبوني عليها ـ لكم علي ألا أجتبي شيئاً من خراجكم، وما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ـ أي لكم علي ألا آخذ من أموالكم شيئاً إلا بحقه ـ ولكم علي إذا وقع في يدي منها شيء ألا يخرج مني إلا في حقه ـ لا آخذ من أموالكم شيئاً إلا بحقه، ولا أنفقه إلا بحقه ـ ولكم علي أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ـ أرفع الرواتب، هذا حق لكم، ولكم علي أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم ـ إن شاء الله تعالى، ولكم علي أن أسد ثغوركم ـ أحمي البلاد من العدوان، وهذه من مهمات الحاكم، حماية الحدود من العدوان ـ ولكم علي ألا ألقيكم في المهالك، وإذا غبتم في البعوث ـ يعني في الحروب ـ فأنا أبو العيال حتى ترجعوا، يعني أنا أبٌ لكل طفلٍ من أطفالكم.

لذلك العناية بأبناء من يقاتلون في ساحات القتال هذا عمل عظيم، عمل كبير، وهذا يشجع الإنسان أن يدافع عن وطنه، ويدافع عن أمته.

ـ قال: فاتقوا الله، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يعني أنتم عاونوني، مروني بالمعروف وانهوني عن المنكر.

سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه اختار أحد كبار العلماء، وجعله مستشاراً له، اسمه أيضاً عمر، قال له: أنت اجلس إلى جانبي، وراقب أعمالي وأقوالي، فإذا رأيتني ضللت فأمسكني من تلابيبي، وهزني هزاً شديداً، وقل لي: اتق الله يا عمر فإنك ستموت، هذه وظيفتك.

ـ فسيدنا عمر يقول: أعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإحضار النصيحة فيما ولاني الله من أمركم.

هذه خطبة افتتح بها ولايته على المسلمين.

حين زار الشام جيء له بطعامٍ طيِّب ـ معنى هذا أن أهل الشام من زمان أكلهم طيب، هكذا يظهر ـ مختلفٍ ألوانه، وبدلاً من أن يقبل عليه، وينعم بمذاقه رمقه بعينين باكيتين، وقال: كل هذا لنا، وقد مات إخواننا الفقراء لا يشبعون من خبز الشعير ؟! هؤلاء الصحابة الذين ماتوا في بدر وفي أحد والخندق تألم من أجلهم، كل هذا لنا وإخواننا ماتوا فقراء لم يشبعوا من خبز الشعير؟!.

اسمعوا هذه القصة:

قدم المدينة بعض التجار في إحدى الأمسيات، وخيَّموا عند مشارفها، فاصطحب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن عوف ليتفقد أمر القافلة، سمع بقافلة جاءت إلى المدينة، وخيمت في ظاهرها، فقال لعبد الرحمن بن عوف: اذهب بنا لنتفقد هذه القافلة.

وكان الليل قد تصَرَّم، انقضى جزءٌ منه، واقترب الهزيع الأخير منه، وعند القافلة النائمة اتخذ عمر وصاحبه مجلساً على مقرُبةٍ منها، وقال عمر لعبد الرحمن: فلنمضِ بقية الليل هنا نحرس ضيوفنا، الجماعة نائمون كلهم، قال له: اقعد نحرس الضيوف، يعني من ذئب، لهم غنم، وهو مخيِّمون، قال له: فلنمضِ بقية الليل هنا نحرس ضيوفنا، بإذن الله طبعاً.

وإذا هما جالسان سمع صوت بكاء صبي بالقافلة، فانتبه عمر وصمت، وانتظر أن يكف الصبي عن بكائه، ولكنه تمادى فيه، فمضى يسرع صوبه، وحينما اقترب منه سمع أمه تنهنهه، أي تسكته، ولكن لا ترضعه، قال لها: اتق الله، وأحسني إلى صبيكِ، ثم عاد إلى مكانه، وبعد حين عاود الصبي البكاء، فهرول نحوه عمر، ونادى أمه: قلت لك اتق الله، وأحسني إلى صبيك، وعاد إلى مجلسه، بيد أنه لم يكد يستقر حتى زلزله مرةً أخرى بكاء الصبي، فذهب إلى أمه وقال لها:

ـ ويحك إني لأراك أمّ سوء ـ أنت أم سيئة ـ ما لصبيك لا يقر له قرار ؟ أي ما ترضعينه ؟

ـ فقالت وهي لا تعرف من تخاطب، قالت: يا عبد الله قد أضجرتني، يعني هلكتني حل عني ـ بهذا المعنى ـ لقد أضجرتني إني أحمله على الفطام فيأبى، أنا أفطمه اليوم.

ـ سألها عمر: ولمَ تحمليه على الفطام ؟

ـ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم، لا يعطي معاشًا، تعويضًا عائليًّا إلا للفطيم.

ـ قال وأنفاسه تتواثب، بدأ يلهث: وكم له من العمر ؟

ـ قالت: بضعة أشهر.

ـ قال: ويحك لا تعجليه، أرضعيه.

يقول صاحبه عبد الرحمن بن عوف: فصلى بنا الفجر يومئذٍ، وما يستبين الناس قراءته ـ يقرأ ويبكي

بالصلاة، ما فهموا ما هي الآيات الناس، ماذا قرأ ما فهموا، يقرأ ويبكي ـ من غلبة البكاء، فلما سلّم قال: يا بؤساً لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين.

اعتبر حاله قاتل، لأنه أعطى التعويض العائلي للفطيم، فصارت الأمهات حتى يتعجلن التعويض يفطمن أولادهن في وقت مبكر قبل أن يتم الرضاعة فقال:

يا بؤساً لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين، ثم أمر منادياً ينادي في المدينة: لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض من بيت المال لكل مولودٍ في الإسلام، ليس لكل واحد فطم، ولكن لكل واحد ولد، ثم فرض هذا إلى جميع ولاته في الأمصار، عممه على أنحاء البلاد الإسلامية.

في عام الرمادة سمع عن جماعةٍ في أقصى المدينة قد نزل بهم الضر أكثر مما نزل بأهل المدينة كلها، فيحمل فوق ظهره جرابين من دقيق، ويحمل خادمه أسلم قربةً مملوءةً زيتاً، ثم يهرولان إلى هناك يحملان النجدة والغوث، وعندما يصلان القوم يطرح أمير المؤمنين بردائه، ويطهو بنفسه طعامهم حتى يشبعوا، ثم يرسل خادمه ليعود إليه بإبلٍ يحملهم على ظهورها إلى دخل المدينة، حتى يكونوا بقربٍ منهم.

وكان يقول: يا علي، إذا وليت من أمور الناس شيئاً فأعيذك بالله أن تحمل بني هاشم على رقاب الناس، ويا عثمان، إذا وليت من أمور الناس شيئاً فأعيذك بالله أن تحمل بني أبي معيط على رقاب الناس، ويا سعد، إذا وليت من أمور الناس شيئاً فأعيذك بالله أن تحمل أقاربك على رقاب الناس.

وفي العام الذي لقي الله فيه كان على موعدٍ مع نفسه أن يطوف بجميع الأمصار، ليتفقد أحوال الناس، ويبلو أخبارهم، ولقد قال يوماً لأصحابه: لئن عشت إن شاء الله لأسيرن في الرعية حولاً، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني، أمَا إنّ ولاتهم فلا يرفعونها إلي، وأما هم فلا يصلون إلي ـ هم لا يصِلون، وولاتهم لا ترفع أمورهم إلي ـ أسير إلى الشام فأقيم شهرين، وبالجزيرة شهرين، وبمصر شهرين، وبالبحرين شهرين، وبالكوفة شهرين، وبالبصرة شهرين، والله لنِعم الحول هذا.

أي يتفقد بنفسه بشكل ميداني أنحاء المملكة، أو أنحاء البلاد الإسلامية، ليتعرف عن كسب على أحوال المسلمين.

مرة سأل أصحابه ـ امتحنهم ـ: أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ـ انتقيت أفضل واحد فيكم ـ ثم أمرته بالعدل، أكان هذا يبرئني من الله عزَّ وجل ؟

ـ فقال أصحابه: نعم.

ـ قال: لا ـ إذا استعملت أفضل واحد، أطهر واحد، أنقى واحد، وأمرته بالعدل تنتهي مسؤوليتي أنا، قالوا طبعاً تنتهي، قالوا: نعم، قال: كلا حتى أنظر في عمله أعمل بما أمرته أم لم يعمل ؟ لاَ تبرؤ ذمتي من الله عزَّ وجل حتى أتابع ما أمرته به، هل فعل هذا أم لم يفعل ؟ أيما عاملٍ لي ظلم أحداً، وبلغتني مظلمته فلم أغيرها فكأنما ظلمته أنا.

أي موظف عندي يظلم مظلمةً بلغتني فلم أغيرها فكأنما ظلمته أنا، هذا كان فهمه للمسؤولية.

آخر قاعدة لسيدنا عمر، هذه القاعدة أخذها عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: إنا والله لا نولي هذا الأمر أحداً يسأله، أو يحرص عليه، أي إنسيان يسأل أن يتولى أمراً عندئذٍ لا نوليه، مادام طلب الولاية معنى هذا أنه راغبٌ فيها، ليس عالماً بما فيها من مسؤوليات، إذاً هو ليس أهلاً بها.

ذات يومٍ أسرّ في نفسه اختيار أحد أصحابه ليجعله والياً على أحد الأقاليم، ولو صبر هذا الصحابي بضع ساعاتٍ لاستدعاه عمر يقلده هذا المنصب، ولكن أخانا بادر الأمور التي لم يكن يعرف عنها شيئاً، وذهب إلى عمر يسأله أن يوليه هذا المنصب، ويبتسم عمر لحكمة المقادير، ويقول: قد كنا أردناك لذلك، ولكن من يطلب هذا الأمر لا يعان عليه، ولا يجاب إليه، ثم صرفه وولى.

اختاره فلما طلب منه ذلك غير قراره.

مرة اختار أحد الولاة قال له: إني لم أستعملك على دماء المسلمين، ولا على أعراضهم، ولكني استعملتك لتقيم فيهم الصلاة، وتقسم بينهم، وتحكم فيهم بالعدل، ثم يعُدُّ له عداً النواهي التي يجب عليه أن يتجنبها: لا تركب دابةً مُطَهَّمَة ـ يعني فخمة ـ لا تلبس ثوباً رقيقاً، لا تأكل طعاماً غاليًا، لا تغلق بابك دون حوائج الناس، كن في حياتك خشناً، وافتح بابك للناس جميعاً.

مرة قال: دلوني على رجلٍ أَكِلُ إليه أمراً يهمني ؟

ـ فقالوا: فلان.

ـ قال: لا حاجة لنا فيه.

ـ قالوا: فمن تريد ؟

ـ قال: أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميراً عليهم، بدا وكأنه أميرهم ـ من شدة عطفه واهتمامه، وفطنته، وحكمته، وهو ليس أمير بدا وكأنه أميرٌ عليهم ـ وإذا كان فيهم وهو أميرهم بدا وكأنه واحدٌ منهم.

إذا معين أمير بدا وكأنه واحد منهم، وإذا ما كان فيهم أمير بدا وكأنه أميرهم، هذا شرط صعب جداً. في موسم الحج، وعلى ملأٍ من الأعداد الهائلة من حجاج المسلمين القادمين من كل بلد، جمع عماله وولاته جميعاً، ووقف فيهم خطيباً قال:

أيها الناس، إني والله لا أبعث عمَّالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أبعثهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنة نبيكم، فمن فُعِل به سوى ذلك فليرفعه إليّ، فو الذي نفسي بيده لأمكننه من القصاص.

أنا عينتهم ولاة كي يعلموكم دينكم وسنة رسولكم، أما أن يضربوا جلودكم، ويأكلوا أموالكم فليس هذا من مهمته.

يظهر أن سيدنا عمرو بن العاص وجد أن هذا الكلام لا يناسبه، أن يثير الناس على الولاة، ضعَّف هيبة الولاة، فقال له: الذي رأى في هذا الحض خطراً على هيبة الولادة، قال له:

ـ أرأيت إن كان رجل من المسلمين والياً على رعيةٍ، فأدَّب بعضهم أتقتص منه ؟

ـ عمر: إي والذي نفسي بيده لأفعلن، فقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص بنفسه ويقول:

((من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليقتد منه))

(من مجمع الزوائد: عن " ابن عباس ")

ألا يكفي قدوة لنا ؟ والحديث عنه يطول ـ وقصته في هذا الكتاب أطول قصة، إن شاء الله في دروس قادمة نتابع الحديث. لكن البارحة قرأت في كتاب آخر كلمة أثارت كل مشاعري، قال: خطب امرأةً وهو أمير المؤمنين فرفضت، فهل سمعتم في حياتكم أمير مؤمنين يخطب امرأة فترفض ؟ فلما سئلت: لماذا لم تقبلي ؟ قالت: إنه في حياته خشن، بيته ليس فيه شيء، متقشف، وهو علينا شديد.

فقال الكاتب: إن رفض هذه المرأة الزواج من أمير المؤمنين هي أكبر شهادةٍ ترفعه إلى الأوج، في حين أن مئات النساء لو تهافتن عليه ما كانت كل هذه الحوادث لتكون شهادة حسن سلوك، أما سيدنا عمر يخطب امرأة، وهو خليفة المسلمين، فتأبى، لا تريد، ويحك أمير المؤمنين **!!** قالت: إنه رأى آخرته فذهل بها عن دنياه، وإنه يرى ربه، وكأنه يحاسبه.له صفة عجيبة، فأن ترفض امرأةٌ الزواج من عمر، هذه شهادةٌ وأية شهادة. على كلٍ بهذه القصص تحيى القلوب، بهذه القصص تتعطر

المجالس، فإذا كان الإنسان أبًا فليقتدِ بسيدنا عمر، إذا كان معلمًا، إذا رفعه الله على عشرة أشخاص بمعمل، بدائرة، بمستشفى، كان طبيبًا، كان عنده مرضى، عنده موظفون، يقتدي بسيدنا عمر في أخلاقه، في تواضعه، في مساواته للناس، في اعترافه بخطئه، في قبوله للنصيحة، في قبوله للاعتراض والنقد، في أن يكون مع الناس سواءً بسواء، هذه كلها أولاً: نتأثر بها، وثانياً: يجب أن نقتدي بها.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠١٧-١٠١) : باب المجاهدة -٣- فضل المجاهدة - الحديث قدسي : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي -١

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-١٠-٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو المقصود من نص الحديث كلمة: (يا عبادي) :

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا في الحديث النبوي الشريف، وفي باب المجاهدة .

عَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأحمد في مسنده]

قَالَ سَعِيدٌ:

((كَانَ أَبُو إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِهَذَا الْحَدِيثِ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ))

وقال أحمد بن حنبل:

((ليس لأهل الشام حديثٌ أشرف من هذا الحديث))

هذا الحديث طويل، وقرأته بسرعة غير إملائية، لأننا سوف نقف في بعض أجزائه إن شاء الله تعالى وقفات طويلة .

ربنا سبحانه وتعالى يقول: يا عبادي؛ هذا نسب تشريف، لما ربنا عز وجل ينسب العباد إلى ذاته .

أحياناً يقول الأب لابنه: يا بني أنت ابني، فلو أن الإنسان كان على درجة ما، من الحساسية، من رقة الشعور، لذاب لهذه الكلمة، هل أنت من عباد الله؟ ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً * وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً * إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً)

[سورة الفرقان الآية: ٦٣-٦٦]

الآيات طويلة، هذه الآيات تصف عباد الله، تصف عباد الرحمن، فالحقيقة: ثمة نَسَب بالضرورة، ونسب حقيقي، فكلنا عباد الله، لكن مَن منا في مستوى هذه العبودية لله، هنا المشكلة، كل إنسان على وجه الأرض بشكل أو بآخر، شاء أو أبى، هو عبد لله، لكن بين أن يكون هذا العبد عبداً حقيقة، وبين أن يكون هذا العبد عبداً شكلاً، فما دمت إنساناً على وجه الأرض تمشي، فأنت عبد لله، لكن شتان ما أبعد الثرى عن الثريا، ما أبعد الإنسان أن يكون عبداً لله بالضرورة، وأن يكون عبداً لله بالحقيقة .

لذلك: يروى أن النبي عليه الصلاة والسلام، حينما وصل إلى سدرة المنتهى، هكذا تروي بعض الروايات، قال:

((يا محمد اطلب تعط، قال: يا رب اجعلني عبدك))

اجعلني في مقام العبودية، فهو أشرف مقام يناله الإنسان، فالإنسان كلما كان عبداً لله، كلما رفعه الله عز وجل، وهل من مخلوق على وجه الأرض نال من العز، والرفعة، والتكريم ما نال النبي عليه الصلاة والسلام؟ لأنه كان عبداً لله قال:

((إنما أنا عبد، آكل كما يأكل العبد، وأنام كما ينام العبد))

دخل عليه رجل، فأصابته رعدة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((هَوِّن عليك، إنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد في هذه البطحاء))

فمعاني العبودية معاني كثيرة جداً، فأنت في مستوى العبودية، فإذا تطلّع الإنسان إلى ما لا يليق به، فقد تجاوز حد العبودية، إذا كَفَّر فلاناً أو علاناً، فقد تجاوز حد العبودية، إذا قال: سيكون كذا أو كذا، فقد تجاوز حد العبودية، ربنا عز وجل قال:

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)

[سورة الأنعام الآية: ٥٠]

سيد المرسلين، وإمام الأنبياء، وحبيب الله، وسيد ولد آدم، قال:

((لا أعلم الغيب))

لذلك أية جهة على وجه الأرض، مهما علا شأنها، إذا ادعت أنها تعلم الغيب، فهي كاذبة، لا يعلم الغيب إلا الله، قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً)

[سورة الجن الآية: ٢٦]

انظر فمراتب العبودية لا تعلم الغيب .

آية ثانية:

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

[سورة الأنعام الآية: ١٥]

فهذا الذي يعصي ولا يخاف، ليس عبداً لله، من لوازم العبودية: أن الذي يعصي، لا بد من أن يدفع الثمن، لو تيقنت من هذه الحقيقة، لكنت إنساناً آخر .

آية ثالثة:

(وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ)

[سورة الأعراف الآية: ١٨٨]

أنا عندي سؤال لكم، سؤال يجب أن يسأله كل إنسان يسأل نفسه: هل أنا عبد لله؟ هل أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم؟ هذا الذي يعصي كيف يتوازن مع ذاته؟ كيف ينام الليل؟ كيف يطمئن؟ أن يسخط الله عنه وهو يضحك؟! .

سيدنا عمر يقول:

((عجبت لثلاث؛ عجبت لمؤملٍ والموت يطلبه، وعجبت لغافل وليس بمغفول عنه، وعجبت لضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط عنه الله أو راضٍ؟))

فلذلك: كلمة: يا عبادي، هذه كلمة، لما ربنا عز وجل قال:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات الآية: ٥٦]

العبادة أن تطيعه طاعة طوعية، ولن تستطيع أن تطيعه هذه الطاعة الطوعية، إلا إذا عرفته معرفة يقينية، إذا أطعته هذه الطاعة الطوعية المبنية على معرفةٍ يقينية، فلا بد من أن تفضي بك إلى سعادة أبدية في الدنيا والآخرة .

لذلك تكاد تكون العبادة كما أرادها الله عز وجل علة الخَلق، يعني خلقك ليسعدك، ولن تسعد إلا إذا أطعته، ولن تطيعه إلا إذا عرفته، لذلك العدو رقم واحد في حياة الإنسان، هو الجهل، ذلك قال الله عز وجل:

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

[سورة طه الآية: ١١٤]

قال الإمام الشافعي: إذا أدرت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معاً فعليك بالعلم، إن الله عالم يحب كل عالم، لذلك ما طرح ربنا عز وجل في القرآن الكريم قيمة يتفاضل بها الناس، إلا قيمة واحدة، ألا وهي قيمة العلم، قال تعالى:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر الآية: ٩]

يكاد يكون طلب العلم فريضة على كل مسلم، بل حقيقة طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، لذلك الإنسان بلا علم كالبهيمة، يأخذ من كل حيوان بعض أخلاقه، لكن الذي يتعلّم العِلم الشريف، فهذا الذي يرقي إلى مستوى الإنسان .

فدائماً في بالي هذا الموضوع: هل نحن في مستوى أن نكون عباداً لله عز وجل؟ العبد مطيع، العبد مستسلم، العبد متوكل، العبد راضٍ، العبد يصبر، قال تعالى:

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

[سورة الإنسان الآية: ٢٤]

الإنسان أحياناً يقرأ آية، معناها سهل وواضح، لكن أحياناً يتفاعل معها، ربنا عز وجل يخاطبك أيها العبد، يقول لك:

(فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

[سورة الإنسان الآية: ٢٤]

أي يا عبدي، إذا ما استوعبت شيئًا، أو لم تفهمه، أو وجدت في قسوة فاصبر، وسوف ترى أن الصبر مفتاح الفرج، واصبر وما صبرك إلا بالله، يعاب من يشكو الرحيم إلا الذي لا يرحم، الصبر نصف الإيمان، الإيمان نصف صبر، ونصف شكر، الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد، إذا كنت عبداً لله، يجب أن تصبر، هذه مشيئته، هذا المحبوب هو أراد ذلك، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادته متعلقة بالحكم، والحكمة متعلقة بالخير المطلق، الشيء قبل أن يقع اسع واجتهد، لكن ما دام قد وقع، فقد أراده الله، وما دام الله قد أراده، فإن هذا الشيء فيه حكمة بالغة، وهذه الحكمة متعلقة بالخير المطلق، ولكن اصبر وسوف ترى أن الله سبحانه وتعالى، يريك طرفاً من حكمة هذا الشيء .

لذلك أهل الجنة إذا دخلوا الجنة، يلخِّصون علاقاتهم كلها مع ربهم، منذ أن خلقهم ربهم، إلى أن أدخلهم الجنة بكلمة واحدة، وهي: الحمد لله رب العالمين .

في الدرس الماضي ذكرت بعض الملاحظات، حول السير في طريق الإيمان، الحقيقة خطر في بالي مثل: أن الإنسان أحياناً لكي يتحرك إلى الله عز وجل، حتى يتصل بالله، في شروط لا بد من توافرها، أنت اشتريت آلة، وهذه الآلة معلق عليها آمال كبيرة، أخي إنتاجها بالساعة أربعون ألف قطعة، القطعة فيها ربح مئة بالمئة، هذه الآلة لها شروط، تحتاج إلى تركيب معين، إلى مواد أولية معينة، إلى صيانة معينة، فإذا أنت أهملت هذه الشروط، تتوقف الآلة، ويتوقف معها الربح .

فإذا كنت أنت حريصا على الاتصال بالله عز وجل، فهناك شروط، لذلك الفرق بين الثقافة الدينية والسير في طريق الإيمان فرقٌ شاسع، أنت يمكن ألاّ يكون عندك بيت، وليس بإمكانك أن تشتري بيتًا، لكن جلست مع مهندس، أراك خرائط لبناء ضخم، وعلى قدر ما وجدت معادلات، وزوايا، وحساب، ما هذا المهندس، إنسان عظيم، أنت بلا بيت، لا يوجد عندك بيت، لكن هذا المهندس أعطاك نماذج من حساباته الدقيقة، شيء يأخذ بالألباب، ثلاث عشرة خريطة، هذا أول طابق، هذه الأساسات، هذا ثاني طابق، هنا معدل الإسمنت، هنا قوى الضغط، هنا قوى الشد، ما هذا؟ .

فإذا علمك إنسان شيئًا من الدين، أعطاك أحكامًا معينة، فأنت تعجب بهذه الأحكام، لكن إذا دلك إنسان على الله عز وجل، حيث تسكن في بيت، فشتان بين أن ترى خرائط رائعة، وتعجب بالمهندس، وبين أن تسكن في بيت مريح، مرتب، مفروش، منظَّم، متين، فالطريق إلى الله عز وجل أعظم من الثقافة الإسلامية، الإنسان يقرأ كتابًا فيتثقف في الإسلام، يقرأ كتابًا ، يسمع محاضرة، يسمع شريطًا أحياناً، يقول لك: هذا شيء جميل، والله خطبة رائعة، أهذه هي العملية؟! العملية أخطر من ذلك، وأعقد من ذلك، إذا أنت لم توفر الشروط للسير إلى الله عز وجل، فهذا الذي تعلمته أو سمعته، لا يعدو أن يكون ثقافة، معلومات إسلامية محشورة بالذهن فقط، لكن من أجل أن تسعد بالله عز وجل، يجب أن توفِّر جميع الشروط، التي تعينك على الاتصال به .

فأولاً: الاستقامة، فإذا ظنّ الواحد الدين عملية سماع دروس، وذهاب إلى المسجد، وعودة من المسجد، ولم يلتزم التزامًا صحيحًا، فهذا البرميل متى يُملأ؟ إذا كان له قعر، الاستقامة هي القعر، ولكن لا يوجد قعر، إذاً: هناك خلل، ثقب صغير، يفرغه في ربع ساعة، إذا لم يكن له قعر، فلا يُملأ إطلاقاً، فلما لا يستقيم الإنسان، كل شيء يسمعه، ليس له أثر في حياته، فقط محسوب على المسلمين، محسوب عند الناس، أن هذا صاحب دين، هذا من الجامع الفلاني، فإذا لم يستقم، لم يقطف ثمار الدين، فحتى يتعامل مع الله تعاملا صحيحًا، حتى يتعامل معه تعامل الصلح، والصلح مبني على التوبة، وعلى العبودية لله عز وجل .

فلهذا لما يقول ربنا عز وجل: يا عبادي، معنى ذاك: أنك يجب أن تكون عبداً لله في الطاعة، وفي الاتصال، وفي التقرب، وفي التوكل، وفي الصبر، وفي الاستسلام، وفي الانقياد ، وفي كل الصفات التي وجب أن تكون متحلياً بها .

فهذا الذي أقوله نابع من حرصي عليكم، إذا كان أحدنا لم يعمل مراجعات وحسابات مع نفسه، هناك خلل ومخالفات بالدخل، بالتعامل مع الناس، بالعلاقات الاجتماعية، بالصرف، بإنفاق المال، بكسب المال، باللسان: يا ترى أنا لساني فيه مخالفات؟ عشرون آفة من آفات اللسان مرت معنا في إحياء علوم الدين؟ يا ترى أنا مطهر لساني من هذه الآفات؟ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ الْجَنَّةَ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده]

يا ترى لساني مطهر؟ يا ترى عيني هل تنظر إلى عورات المسلمين؟ تتبع عينك منظر امرأة؟ يا ترى أذني هل تستمع إلى شيء باطل؟ هل تستمع إلى ما حرمه الله من غناء، من لهو، من غيبة، من نميمة، من فحش، من بذاءة، من مزاح رخيص؟ يا ترى أنت ضبطت بصرك، ضبطت سمعك، ضبطت تفكيرك؟ الخواطر الشريرة العقاب عليها، أنها ربما أصبحت أفعالاً تحاسب عليها؟ يا ترى ضبطنا عيوننا، ضبطنا آذاننا، ضبطنا خواطرنا، ضبطنا أيدينا، ضبطنا أرجلنا، ضبطنا علاقاتنا الاجتماعية في البيت، ضبطنا علاقاتنا مع الزوجة، مع الأولاد ، مع البنات، مع الجيران، مع الزبائن، مع المراجعين إذا كنت موظفًا؟ .

فلما يضبط الإنسان علاقاته مع الله عز وجل، يصبح إنسانًا آخر، ربنا عز وجل يتجلى على قلبه، يقول لك: ليس هناك أسعد مني، وهذه من علامة الإيمان، إذا التقيت مع إنسان مؤمن حقاً، يشعر أن الدنيا ترقص له، لأن الله عز وجل راض عنه، إذا كنت عنا راضياً فهو قصدنا، صدق القائل:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خراب

فالذي أرجوه وأتمناه عليكم، حتى الإنسان يكسب حياته، وحتى يصل إلى ثمرة يانعة، يقطفها في الدنيا قبل الآخرة، عليه أن يضبط علاقاته الاجتماعية، وعلاقاته مع ربه، ليست القضية قضية حضور، وليست القضية قضية سماع، ولا القضية قضية كتابة، ولا القضية فهم، ولا القضية تكلم، القضية قضية التزام كامل في الإسلام، فمَن شاء أن يتزود بالثقافة الإسلامية، فالقضية سهلة جداً،

منابع الثقافة الإسلامية واسعة جداً؛ كتب لا تعد ولا تحصى، خطب، دروس، محاضرات، كل شيء متوافر، ولكن أثمن ما في الإسلام، هو أن تسير إلى الله عز وجل، هذا السير يريد مجاهدة .

ألخص لكم هذه الكلمة بقول الإمام الغزالي رضي الله عنه: جاهد تشاهد، عندما تستقيم استقامة كاملة الله عز وجل، يفتح لك حجاب، لما يحصل هذا الاتصال مع الله عز وجل، ويأتيك هذا التجلي، فكأنك إنسان آخر، وتقول، وأنا معك في هذا القول: إنني ولدت من جديد، إنني إنسان آخر، فلذلك: ماذا فعل النبي عليه الصلاة والسلام بأصحابه؟ كانوا أشخاصًا في الجاهلية، فجعل منهم أناساً كأنهم فوق البشر، كأنهم ملائكة، هم بشر، ولكنهم كالملائكة، لأنه ضبطهم ووجههم إلى الله عز وجل، قال تعالى:

(يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٦٤]

فنحن لا نريد إنسانًا يقول: لي سنتان، ثلاث، خمس، حتى يكون هذا الزمن، قد استهلكه من أروع طريقة، يجب أن تلتزم بأمر الله .

فربنا عز وجل قال: يا عبادي، وكأنه يريد أن نكون عباده كما يريد، عبد الله لا يغضب إذا حرمه الله من الدنيا، فهو دائماً في استسلام، إذا أعطاها إياه يشكره، وإذا منعه منها يصبر، عبد الله متوكل على الله عز وجل، إذا أردت أن تكون أغنى الناس، فكن بما في يدي الله، أوثق منك بما في يديك .

الآن: في العالم الإسلامي هل هناك شرك جلي؟ لا يوجد، لو ذهبت إلى كل أقطار العالم الإسلامي من أقصاها إلى أقصاها، في محيط ألف مليون إنسان، لا يوجد شرك جلي، ما هو الشرك الجلي؟ أن تعبد بوذا، بوذا إله يعبد من دون الله، في أمم في شرق آسيا، وفي جنوب بعض البلاد، تعبده من دون الله، فهذا الشرك؛ إذا عبدوا بوذا، وجعلوه إلهاً، وجعلوا الميكادوا إلها باليابان، فهذا اسمه شرك جلي .

لكن لما يعتمد الإنسان على الأسباب؛ إذا اعتمد على ماله، فهذا شرك خفي، إذا اعتمد على أولاده، هذا شرك خفي، إذا اعتمد على زوجته، فهذا شرك خفي، إذا اعتمد على فلان وفلان، وما أدراك ما فلان؟ فهذا شرك خفي، لذلك قالوا: الاعتماد على الأسباب هو الشرك الخفي، والذي يعتمد على الأسباب معذَّبٌ دائماً، لأنه لا يخلوا من أن يخاف من فقدِ الأسباب، فالذي معتمد على ماله، ما الذي يخيفه؟ أن يذهب هذا المال، فهو في عذاب، فهو في عذاب خوف أن يذهب المال، وهو في عذاب حينما يذهب المال، إذاً: في كلا الحاليين فهو معذب بهذا الشرك، أما إذا اعتمدت على الله عز وجل، فهذا هو التوحيد.

فأردت أن أقف في هذا الحديث القدسي عند كلمة: يا عبادي، لأنها وردت مرة، اثنين ، ثلاثة، مرات عديدة وردت، يا عبادي، وكأن الله سبحانه وتعالى ينسب عباده إلى ذاته العلية ، وهذا نسب تشريف، فربنا عز وجل شرفنا، وقال: يا عبادي، فإذا كان للمسلم أخطاء، وعليه ذنوب، فليتلُ قوله تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الزمر الآية: ٥٣]

استغل ضربات القلب، ما دام القلب يضرب، فالباب مفتوح، استغلها ما دام في الحياة بقية، ما دام فيك رمق، ما دام هناك أمد في الحياة، فباب التوبة مفتوح على مصراعيه، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الزمر الآية: ٥٣]

إليكم المعنى الرئيسي من شق هذا الحديث: (يا عبادي .... فلا تظالموا) :

الشيء الثاني: يقول الله في هذا الحديث القدسي:

((يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا))

تظالموا على وزن تفاعلوا، وزن تفاعل فيه مشاركة، إذا قلنا: فلان أرسل إلى فلان رسالة، عندنا مرسِل، وعندنا مرسَل إليه، إذا قلنا: فلان قتل حشرةً، عندنا قاتل، وعندنا مقتول ، فوزن فعل: قتل، أرسل، هذا يفيد أن هناك فاعل، وهناك مفعول به، لكن إذا قلنا: راسل، هو أرسل رسالة، فهو فاعل، وتلقى رسالة، فهذا الفعل على وزن فاعل، فيه مشاركة، فنقول: قاوم ، ناضل، قاتل، راسل، ناوش، دافع، فهذا الوزن وزن مشاركة .

فربنا قال: لا تظالموا، أي لا يظلم بعضكم بعضاً، أحياناً الإنسان يظلم المشتري بالعسر، قال له: هذه بضاعة أجنبية، وهي غير أجنبية، أخذ منه سعرًا عاليًا، هذا بللور ياباني ، وهو بللور وطني، صنّفه مع الأجنبي، أخذ ثمنه ثلاثمائة ليرة، هذا ظالم، ظلمته بالسعر، أو ظلمته بالنوع، أو ظلمته بالكمية، تجد الكمية أقل مما يجب، فهناك ظلم بالكمية، وظلم بالنوعية ، وظلم بالسعر، فهذا كله ظلم، لا تظالموا .

أحياناً الإنسان يظلم زوجته، أحياناً هي تظلمه، لا تعطيه حقه؛ له عندها حق، تمنعه حقه، وقد يمنعها حقها، أحياناً الإنسان يظلم أولاده، أحياناً الأولاد يظلمون أباهم، أحياناً يظلم الإنسان جاره، فكل أنواع الاعتداءات هو ظلم، أي تجاوز الحق إلى حق الآخرين، لذلك ربنا عز وجل قال:

((يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا))

لذلك تكلمنا قبل قليل: لو سمعت مليون قصة مفادها: أن فلانا أو علاناً يعلم الغيب، فهذه القصص كلها كاذبة، قولاً واحداً، الآن لو سمعت مليون قصة، أن هناك ظلمٌ بين العباد، فهذه القصص كلها غير صحيحة، في ظلم ظاهري، وربنا عز وجل قال:

(وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة الإسراء الآية: ٧١]

(وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً)

[سورة الكهف الآية: ٤٩]

(فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

[سورة الروم الآية: ٩]

فهذه الآيات والأحاديث تفيد أنه لا ظلم، هناك ظلم ظاهري، ولكن ليس بظلم حقيقي .

في آخر الحديث القدسي فقرة هي الحقيقة، يسمونها بيت القصيد، آخر الحديث يقول الله سبحانه وتعالى:

((يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوَفِّيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلا نفسه))

((يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا ..))

طبعاً هذه فلا تظالموا، هذه تعقيب عليها:

((فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه))

إن شاء الله في درس قادم، نتابع شرح هذا الحديث القدسي، وهو من الأحاديث التي فيها أسس كبيرة من أسس التوحيد .

ما قصة هذه المقولة : (متى استعبدتم الناس ....) :

والآن إلى سيرة سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه .

سيدنا عمر له قصة مع سيدنا عمرو بن العاص رضي الله عنهما، فقد وفد على سيدنا عمر فتىً مكروب حزين من مصر، هذا الفتى وفد عليه، وقال:

((يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بك .

سيدنا عمر يستوضح من هذا الفتى الأمر، فعلم أن محمد بن عمرو بن العاص قد أوجعه ضرباً، لأنه سابقه فسبقه، فعلا ظهره بالسوط، وهو يقول: خذها وأنت ابن الأكرمين، ابن سيدنا عمرو بن العاص، هو الذي فتح مصر .

سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، دعا عمرو بن العاص وابنه محمداً، قال الكاتب: ولندع أنس بن مالك رضي الله عنه، يروي لنا النبأ، كما شهده ورآه، قال: فو الله إنا لجلوس عند عمر، وإذا بعمرو بن العاص يقبل في إزارٍ ورداء، فجعل عمر يتلفَّت باحثاً عن ابنه محمد، فإذا هو خلف أبيه، فقال: أين المصري؟.

فقال: ها أنا ذا يا أمير المؤمنين .

فقال عمر: خذ الدرة، واضرب بها ابن الأكرمين، فضربه حتى أثخنه، يظهر أن قلبه ملئ منه . يقول سيدنا مالك ابن أنس: ونحن نشتهي أن يضربه، فلم ينزع عن الضرب حتى أحببنا أن ينزع، اشتهينا مرة ثانية أن يوقف عن الضرب، من كثرة ما ضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين .

عندئذٍ قال هذا الرجل: يا أمير المؤمنين، قد استوفيت، واشتفيت، وضربت مَن ضربني.

عندئذٍ يقول عمر: أما والله، لو ضربته ما حُلنا بينك وبينه، حتى تكون أنت الذي تدعه.

والتفت إلى عمرو بن العاص، وقال: يا عمرو، متى استعبدتم الناس، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟.

-هذه المقولة تعد هي المادة الأساسية في حقوق الإنسان، فالغرب يطبل، ويزمر، ويملأ الدنيا صخباً وضجيجاً، لأنه أقر حقوق الإنسان، سيدنا عمر قبل ألف وأربعمائة عام وزيادة قال:

((متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟))

((لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى))

مر أحد الصحابة فيما أذكر، مر بساعة انفعال، أو غضب، أو غلط، فقال لسيدنا بلال:

((يا بن السوداء، فبلغ هذا النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا فلان، إنك امرؤ فيك جاهلية))

-ماذا فعل فلان؟- وضع رأسه على الأرض، ليضع بلال قدمه فوق رأسه، فلعل النبي يرضى))

قال له: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟، ثم التفت سيدنا عمر إلى المصري، وقال: انصرف راشداً، فإن رابك ريب فاكتب إلي))

أي شيء يحصل بلغني، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((عدل ساعة أفضل من عبادة ستين عاماً))

من ذكريات سعيد بن عامر الجمحي :

الآن له مواقف من ولاته، له موقف صارم جداً من أحد الولاة، واسمه سعيد بن عامر الجُمَحِيّ، هذا سعيد بن عامر الجمحي، في عنده حالة إغماء من حين إلى آخر، يكون واقفاً فيقع فجأةً، فمرة سأله: لماذا أنت هكذا؟ .

هذا سيدنا سعيد ابن عامر الجمحي، كان مشركاً قبل أن يسلم، وقد حضر مصرع خبيب، فسيدنا خبيب وقع أسيراً بيد قريش، وأرادت أن تصلبه، وأن تقتله، فتقدم منه سيدنا معاوية، قال له:

((يا خبيب، أتحب أن يكون محمد مكانك؟ فقال خبيب: والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي، وعندي عافية الدنيا ونعيمها، ويصاب رسول الله بشوكة، يقول سيدنا معاوية : والله ما رأيت أحداً يحب أحداً كحب أصحاب محمدٍ محمداً

-سيدنا سعيد بن عامر الجمحي، كان يشهد مصرع خبيب، وكان مشركاً، وكان بإمكانه أن ينقذه فما فعل- فيقول: كلما تذكرت موقفي يوم مصرع خبيب، تأتيني هذه الغاشية، يقع مغمياً عليه))

ما هي الشكوى التي أرسلت إلى عمر ضد واليه سعيد بن عامر الجمحي، وماذا أجاب الوالي

فذات يوم تلقى شكوى ضد والٍ له هو سعيد بن عامر الجمحي، في هذه الشكوى ثلاثة بنود؛ البند الأول: أنه لا يخرج إلى الناس حتى يتعالى النار، والبند الثاني: أنه لا يجيب أحداً بليل، والبند الثالث: أنه يغيب عن الناس كل شهر يوماً، فلا يرى أحداً ولا يراه أحد .

سيدنا عمر، استدعاه وواجهه بالبنود الثلاثة أو بالشاكين، وقال لهم:

((تكلموا .

فقالوا: لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار .

فقال: أجبهم .

فقال: والله يا أمير المؤمنين، إن كنت لأكره ذكر السبب، ليس لأهلي خادم، فأنا أعجن معهم عجيني، ثم أجلس حتى يختمر، ثم أخبز خبزي، ثم أتوضأ وأخرج إليهم، ما عندي خادم ، وأعين أهلي .

وأشرقت أسارير عمر، فقد بدا أنه لن يساء في رجل وثق في دينه، ثم قال للشاكين: وماذا أيضاً؟ .

قالوا: لا يجيب أحداً بليل .

فقال سعيد: والله إني كنت لأكره ذكره، إني جعلت النهار لهم، والليل لله عز وجل، هذا وقت

العبادة .

قال عمر: وماذا أيضاً؟ .

قالوا: إن له في الشهر يوماً لا يقابل فيه أحداً .

فقال سعيد: ليس لي خادم يغسل ثيابي، ففي هذا اليوم أغسلها، وأنتظرها حتى تجف، ثم أخرج إليهم آخر النهار .

سيدنا عمر غمره البشر والحبور، وقال: الحمد لله الذي لم يخيب فراستي فيه))

يعني جاءت الإجابات مقنعة .

لماذا استدعى عمر واليه على حمص عمير بن سعيد، وماذا رأى عمر من حال هذا الوالي ؟

في مرة أرسل إلى عُمَيْر بن سعيد واليه على حمص، أرسل له كتابًا، مضت سنوات لم يبعث له أي خبر، أو أي رسالة، أو أي رسول، فخاف أن يكون هذا الإنسان قد انحرف، فاستدعاه .

قال:

((وذات يوم، شهدت شوارع المدينة، رجل أشعث أغبر، تغشاه وعثاء السفر، يكاد يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعاً، من طول ما لاقى من عناء السفر، وبذل الجهد، على كتفه اليمنى جرابٌ وقصعة، وعلى كتفه اليسرى قربة صغيرة فيها ماء، ليتوكأ على عصا، ولا يؤده حمله الضامر الوهنان، ودلف إلى مجلس عمر في خطواتٍ وئيدة، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين .

يرد عمر السلام، ثم يسأله، وقد آلمه ما رآه عليه، من جهد وإعياء، ما شأنك يا عمير؟! .

قال: شأني كما ترى، ألست تراني صحيح البدن، طاهر الدم، معي الدنيا أجرها بقرنيها .

قال: وماذا معك؟ .

قال: معي جرابي، أحمل به زادي، وقصعتي آكل فيها، وأداتي أحمل فيه وضوئي وشرابي، وعصاي أتوكأ عليها، وأجاهد بها عدواً إن عرض، فو الله ما الدنيا إلا هذا المتاع، -هذه هي الدنيا- .

قال عمر: أجئت ماشياً؟ .

قال: نعم .

قال: أولم تجد من يعطيك دابة تركبها؟ .

قال: إنهم لم يفعلوا، وأنا لم أسألهم، جئتك ماشياً .

قال: فماذا عملت فيما عهدنا إليك؟ ما هي أخبارك؟ وماذا فعلت في تلك الفترة؟ .

قال: أتيت البلد التي بعثتني إليه، فجمعت صلحاء أهله، ووليتهم جباية فيئهم وأموالهم، حتى إذا جمعوها، وضعتها في مواضعها، ولو بقي لك منها شيء لجئتك به، أموال الأغنياء أعطيتها

للفقراء .

فقال عمر للكاتب وهو منبهر: جدد العهد لعمير .

فقال عُمير له: تلك أيام قد خلت، والله لا عملت لك، ولا لأحدٍ بعدك، انتهت المسألة، ثم حاول، فقال له: انتهت هذه، مضت تلك أيام خلت، والله ما عملت لك، ولا لأحدٍ بعدك))

ورع عمر :

قال: والويل الشديد للوالي، إذا فكر أن يهدي لعمر هدية، والحق أنهم جميعاً كانوا من الفطنة، حيث لم يتورَّطوا قط في هذا . لكن ذات يومٍ، عاد سيدنا عمر إلى داره، فرأى رقعة من سجاد، لا تزيد عن متر وبعض المتر، فسأل عاتكة زوجته: أنى لك هذه؟ . قالت: أهداها إلينا أبو موسى الأشعري . فقال: ائتوني به .

ويأتي أبو موسى تسبقه مخاوفه، ولا يكاد يقترب من عمر، حتى ينهره، ويقول: لا تعجل علي يا أمير المؤمنين، ولكن أمير المؤمنين يقول له: وما يحملك على أن تهدي إلينا؟ خذها فلا حاجة لنا فيها .

تأمل في هذا :

مرة أحد ولاته أنزل جزاء بأحد ولاته، سيدنا عمر عاقب أحد ولاته، زوجته عاتكة انتهزت ساعة من ساعات صفوه، وفراغه، وهدوئه، وشفعت للرجل، فقالت له كلمتان فقط:

((يا أمير المؤمنين، فيما وجدت عليه؟!! .

قال: وهناك انتفض عمر، كأنما انهد من دين الله ركن، وصاح فيها: يا عدوة الله، وفيما أنتِ وهذا؟))

هل هذا شغلك؟ ما قالت: إلا يا أمير المؤمنين، فيما وجدت عليه؟ لماذا غضبت منه؟ .

من أخبار عمر بن الخطاب :

جاء أيضاً في خبر، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، قال:

((صحبت عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكة في الحج، ثم رجعنا، فما ضرب له فسطاط، ولا خباء، ولا كان لنا بناءٌ نستظل به، إنما يلقي كساء على شجرة فيستظل تحته .

ويقول بشار بن نمير: سألني عمر: كم أنفقنا يا بشار في هذه الحجة؟ .

قلت: خمسة عشر ديناراً .

فقال: لقد أسرفنا في هذا المال))

مع الأيام كانت تزداد تبعات سيدنا عمر، وتزداد احتياجاته ونفقاته، فكان يرفع رواتب المسلمين في المدينة وخارجها، كلما صارت أزمات يرفع الرواتب، لكنه لا يفكر في أن يزيد لنفسه درهماً، ترفع جميع الرواتب إلا راتبه، حتى سمع أصحابه يوماً، أن أمير المؤمنين يقترض ليعيش، فاجتمع نفر من الصحابة منهم: عثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، واتفقوا على أن يتحدثوا مع عمر، ويطلبوا إليه أن يزيد في راتبه ومخصصاته، لكنهم عادوا، وتهيَّبوا، وخافوا أن يفتحوا معه هذا الموضوع، لأنهم يعرفون أنه في هذه المسألة بالذات شديد الوطأة، لافح الغضب، فقال عثمان:

((فلنستبرئ ما عنده من وراء الوراء، واتجهوا إلى حفصة بنت عمر، واستكتموها أمرهم، وطلبوا منها أن تستطلع أمر أبيها، وذهبت حفصة إلى عمر متهيبة، وأخذت تسوق الحديث بحذر ورفق، قال عمر: من بعثك بهذا الأمر؟ .

قالت: لا أحد .

قال: بل بعثك بهذا قومٌ، لو عرفتهم لحاسبتهم، ثم قال لابنته: يا حفصة، لقد كنت زوجة رسول الله، فماذا كان يقتني في بيتك من الملبس؟ .

قالت: ثوبين اثنين .

قال: فما أطيب طعمةٍ رأيته يأكلها؟ .

قالت: خبز شعيرٍ طري مثرودٍ بالسمن.

قال: فما أوطأ فراشٍ كان لك في بيتك؟ .

قالت: كساءٌ ثخين، نبسطه في الصيف، فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه، وتدثرنا بنصفه الثاني .

فقال: يا حفصة، فأبلغي الذين أرسلوك إلي، إن مثلي ومثل صاحبي النبي وأبي بكر، كثلاثة سلكوا طريقاً، فمضى الأول وقد تزوَّد فبلغ المنزل، ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه، ثم الثالث، فإن لزم طريقهما، ورضي بزادهما، لحق بهما، وإن سلك غير طريقهما، لم يجتمع بهما))

واقعة حدثت :

يقولون:

((في يوم صائف قائظ، يكاد حره يذيب الجبال، أطل عثمان بن عفان من بيته العالي، فرأى رجلاً يسوق أمامه بعيرين صغيرين، والهواء الساخن يغشاه كلفح السموم، فقال محدثاً نفسه: ما على هذا الرجل لو أقام بالمدينة حتى يبرد؟ وأمر خادمه أن ينظر من هذا الرجل العابر من بعيد، والذي تخفي الزوبعة والرمال السافيات معالمه، ونظر الخادم من فرجة الباب فقال: أرى رجلاً معمماً

بردائه، يسوق بكرين أمامه، وانتظر حتى اقترب الرجل، فعرفه الخادم وصاح : إنه عمر، إنه أمير المؤمنين .

فأخرج عثمان رأسه من كوةٍ صغيرة متوقياً سخونة الريح، ونادى: ما أخرجك هذه الساعة يا أمير المؤمنين؟ .

فأجاب عمر: بكران من إبل الصدقة، تخلّفا عن الحمى، وخشيت أن يضيعا، فيسألني الله عنهما .

فقال عثمان: هلم إلى الظل والماء، ونحن نكفيك هذا الأمر .

فقال عمر: عد إلى ظلك يا عثمان .

فقال: عندنا من يكفيك هذا الأمر يا أمير المؤمنين .

قال مرة أخرى: عد إلى ظلك يا عثمان، ومضى لسبيله، والحر يصهر الصخر، فقال عثمان مأخوذاً ومبهوراً: من أراد أن ينظر إلى القوي الأمين، فلينظر إلى عمر))

قال تعالى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

[سورة القصص الآية: ٢٦]

خاتمة القول عن خليفة الإسلام عمر بن الخطاب :

حُمِلَ إليه يوماً مالٌ وفير من أحد الأقاليم، فسأل عن مصدره، وسر وفرته، وكثرته، فلما علم أنها الزكاة التي يدفعها المسلمون، والجزية التي يدفعها أهل الكتاب، قال وهو ينظر إليه بكثرة عارمة:

((إني لأظنكم قد أهلكتم الناس؟ .

قالوا: لا والله، ما أخذنا إلا صفواً عفواً .

قال: بلا سوطٍ ولا موت؟ .

قالوا: نعم .

عندئذ أشرق وجهه، وقال: الحمد الله الذي لم يجعل ذلك عليَّ، ولا في سلطاني))

هذه بعض اللقطات من سيرة هذا الإمام العادل؛ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

نهاية المطاف :

أيها الأخوة، الإسلام يصنع رجال، والله هم فوق الرجال، هم إلى أن يكونوا ملائكة أقرب إلى أن يكونوا من الرجال، وباب البطولة مفتوح، كل واحد بقدر صدقة، بقدر استقامته، بقدر عمله الصالح،

بقدر تضحياته، بقدر إقباله، ينال من الله، فالإنسان لا يقنع بالقليل: أنا أريد وراء الباب بالجنة، لا، بل اطلب المراتب العليا .

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم بيان هذا المعنى الواسع من قول النبي: (كلكم ضال.........أهدكم) :

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا مع الحديث النبوي الشريف، والحديث القدسي الذي بدأنا تفسيره في الدرس الماضي، مطلعه: أن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أنه قال:

((يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم ...))

الفضاء الخارجي الأصل فيه الظلام، والنور في الفضاء الخارجي مخلوق، فإذا ترك الإنسان نفسه على سجيَّتها، من دون أن يتعلم، من دون أن يتفقه، من دون أن يتأمل، من دون أن يبحث عن الهدى، فهو ضال، فالإنسان على الفطرة .

لو الإنسان مثلاً مارس حياته المادية؛ من طعام، وشراب، ونكاح، وعمل، وكسب للمال، وإنفاق للمال، هذا المستوى لا يزيد عن مستوى البهيمية، طعام، وشراب، ومتعة، أما حينما يبحث الإنسان عن الحقيقة، ارتقى من المستوى المادي الحيواني إلى المستوى الإنساني ، حينما تبحث عن الحقيقة، حينما تبحث عن عقيدةٍ صحيحة مطابقة للواقع، فالإنسان من دون عقيدة، من دون هدى، يعيش حياة مادية، لا تزيد على كسب للمال وإنفاق له؛ في الطعام والشراب، والمتعة .

فالإنسان وفق هذا الحديث:

((كلكم ضال))

بمعنى أنه ما لم يبحث عن الحقيقة، ما لم يتقصى فلسفة صحيحة، عقيدة مضبوطة، فهو ضال، وربنا عز وجل في القرآن الكريم يقول:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام الآية: ١٥٣]

الحق واحد لا يتعدد، بينما الباطل متعدد، قال تعالى:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام الآية: ١٥٣]

فربنا عز وجل يؤكد بهذه الآية، وفي آية ثانية أنه: ماذا بعد الحق إلا الضلال؟ إما أن تكون على الحق، وإما أن تكون ضالاً، لا يوجد عندنا حق متعدد، بالعلم الأرضي في جامعات كثيرة، في نظريات كثيرة، كلها تعطيك شهادات، لكن بالعلم الديني ليس هناك غير حق واحد؛ إما أن تكون مع خالق الكون، وإما أن تكون مع الهوى، والهوى من لوازمه الضلال، لما ربنا عز وجل قال:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة النور الآية: ٣٥]

عندنا سموات، وأرض، عندنا كون مادي، ومجرات، وأرض، وجبال، وبحار، وأنهار، وإنسان، وحيوان، ونبات، وجماد، هذا الكون المادي له نور، ما هو النور؟ أي هذا نافع، هذا ضار، هذا يزول، هذا لا يزول، هذا خير، هذا شر، هذا يُسْعِد، هذا يشقي .

الإنسان أحياناً يدخل معملا، يا ترى هذه الآلة خطيرة؟ لها استعمال خاص؟ هذه الآلة مركبة على تيار معين؟ هذه الآلة فيها قطع؟ فإذا لم ينتبه الإنسان ليده قد تقطع، فالمعمل ضخم ، لكن أحياناً يكون صاحب المعمل معه تعليمات دقيقة جداً، أو نشرة، هذه النشرة بمثابة النور، الذي يضيء للإنسان طريقة استعمال هذه الآلات .

لو دخلنا على مخبر فيه قوارير، في هذه القوارير مواد، يا ترى هذه المادة سامة؟ هذه المادة ذات طابع انفجاري؟ هذه المادة مع الماء تتفاعل تفاعل خطير مثل الصوديوم؟ هذه المادة ساكنة؟ هذه المادة ليس لها مفعول قوي؟ هذه المادة رخيصة؟ هذه المادة غالية؟ لو إنسان أعطاك هذه المعلومات حول هذه القوارير، هذه المعلومات كأنها نور، لو كتب لك على هذه القوارير معلومات تفصيلية، أو لو قال لك: هذه المعلومات شفهياً، فكأنه أضاء لك الطريق .

فربنا عز وجل خلق الكون، فإذا أراد الإنسان أن يتصل بالمرأة وفق الشرع الإلهي، الذي يضمن لك حقك وحقها وحق الأولاد، فأنت ترتاح بهذا الاتصال، هذا الزواج، فلو حدث اتصال بعيداً عن هذا المنهج، هذا الاتصال يسبب لها التعاسة والشقاء، تصبح بَغِيًّا، وأنت تحس أن الناحية الإنسانية ضعيفة فيك، لأنك تسببت بانهيار امرأة .

فهناك آلام نفسية لا حدود لها، تتأتى من اتصالك بهذه المرأة اتصالا بعيدًا عن الشرع الذي أنزله الله عز وجل، فهذا الشرع الذي بين لك علاقتك بالمرأة، يجب أن تكون وفق الزواج، بين لك علاقتك بالمال، يجب أن تكون وفق الكسب المشروع، بين لك علاقتك مع نفسك، نفسك لها حق عليك، فهذه الشرائع بمثابة النور، فربنا عز وجل قال:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة النور الآية: ٣٥]

إذا اشترى شخص آلة معقدة، هل في الأرض جهةٌ أولى من الجهة الصانعة بإعطائك تعليمات التشغيل؟ .

لو اشترى سيارة، وأحب أن يسأل عن بعض الملابسات، هل يسأل جهة تصنع قنابل مثلاً؟ ليس لها علاقة بهذه، يسأل خبيرًا بهذه السيارة، والخبير بنى خبرته من متابعة حركاتها وسكناتها وفق تصميم المصنع، فدائماً الجهة الصانعة هي الجهة الوحيدة المؤهلة بإعطاء التعليمات في تشغيل السيارة .

أنت آلة معقدة، لا يوجد إلا جهة وحيدة مؤهلة، أن تعطيك التعليمات الدقيقة في تحركاتك على سطح الأرض؛ افعل ولا تفعل، الله سبحانه، هذا صحيح، هذا غلط، فربنا عز وجل لما قال:

((كلكم ضال))

أي أن كل إنسان من دون أن يستنير بنور الله فهو ضال .

أحيانا الإنسان يكتفي بعقله، فهؤلاء الأجانب أوصلهم عقلهم إلى الشقاء، ارتقى بهم رقياً مادياً لا حدود له، لكن بالمقابل على حساب حياتهم النفسية، وعلى حساب أسرهم، وعلى حساب مستقبل حياتهم، فالمستقبل إلى جهنم أحياناً، والحياة الاجتماعية متفسِّخة، والحياة الأسرية أيضاً منهارة في التقدم المادي، والإنسان استغنى عن الله عز وجل، حتى إن ربنا عز وجل لما قال:

(يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ)

[سورة الروم الآية: ٧]

حتى أهل الدنيا إذا كانوا بعيدين عن الله عز وجل، حتى أهل الدنيا لا يعرفون حقيقة الدنيا، لا يعرفون حقيقة السعادة، يسعدون بظاهرها، يسعدون بما فيها من أشياء مادية، والأشياء المادية في الحياة الدنيا لا تشكل كل السعادة، كما قال سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام:

((ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان))

هناك علاقات نفسية وطمأنينة، وإرضاء للضمير إن صح التعبير، وتوازن نفسي، وصحة نفسية، هذه الأشياء الأساسية في حياة الإنسان غفل الأجانب عنها، أتقنوا حياتهم المادية ، أتقنوا معيشتهم، أتقنوا جسدهم، أعطوه كل حقوقه على حساب نفوسهم، فبذلك الإنسان ضال ما لم يهتد بنور الله عز وجل، ونور الله هو هذا القرآن .

لما ربنا عز وجل يقول في الحديث القدسي:

((كلكم ضال إلا من هديته))

يعني إذا لم تبحث عن الحقيقة، لم تبحث عن سبب وجودك، ما بحثت عن سبب خلقك، ما سلكت الطريق الصحيح، ما سلكت الطريق الموصل إلى الهدف، ما عرفت بنية نفسك، لك روح، لك جسد، الجسد له حاجات؛ يحتاج إلى لباس، إلى طعام، إلى شراب، إلى زاوج، لكن في نفس تحتاج إلى استقرار، تحتاج إلى طمأنينة، هذه النفس تحتاج إلى سكينة، تحتاج توازن، فالإنسان المؤمن يشعر أنه متوازن، عنده تفسير صحيح، يعلم أن هناك إلها عظيمًا كل شيء بيده، أنى له أن يحقد، الحقد أساسه؛ أن ترى أن مع الله إلهاً آخر، الحقد أساسه؛ أن تنظر لإنسان بيده مصيرك، وهو لا يحبك، ويتمنى أن يأخذ كل ما في يديك، من هنا ينشأ الحقد .

لو أنك وحَّدت الله عز وجل، وعلمت وفق الهدى الذي أنزله الله عز وجل، أن أمر العباد موكول إلى رب العباد، تلاشى الحقد، انتهى الحسد، تنتهي الضغينة، ينتهي النفاق، ينتهي الخوف، ينتهي القلق، فالأجانب اهتموا بالجسد، ولكن أهملوا النفس، والنفس شيء ثمين جداً، ربنا عز وجل قال:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا)

[سورة الأنعام الآية: ٨١-٨٢]

ربنا عز وجل في كتابه الكريم يقول:

(الَّذِينَ آَمَنُوا)

[سورة الأنعام الآية: ٨٢]

هؤلاء الذين يتمتعون بنعمة الأمن، قال تعالى:

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٨٢]

هذا المؤمن الذي عرف أن له رباً عظيماً، وأن هذا الرب العظيم خلقه ليُسعده، وأن هذه السعادة لها ثمن، ثمنها أن تطيعه، فبمجرد أن تطيع الله عز وجل، تشعر بسعادة، وبأمن، وباستقرار لا يوصف، فتجد المؤمن عنده سكينة، إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين .

فلو أنك التقيت مع إنسان بعيد عن الله عز وجل؛ قد يكون مظهره أنيقًا جداً، قد يعيش حياة في أعلى درجة من الرفاه، لكن لو حادثته، لوجدت أن في قلبه سعيراً، في قلبه؛ من القلق والخوف، من الحسد والضغينة، من الشعور بالإعياء، فطبعاً البعد عن الله عز وجل يسبب عمى، فيتحرك حركة عشوائية، يرى أن الناس كلهم ينتظرون أن يقع، يتربصون به الدوائر، يريد أن يكيل لكل إنسان، فالحياة النفسية المضطربة المبنية على الحسد، على الخوف، على القلق، هذه الشقاء، هذه جهنم الدنيا، لذلك قال ربنا عز وجل:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة النور الآية: ٣٥]

الله خلق السموات والأرض، والله نور السموات والأرض، هو الذي خلقها، وهو الذي يعرف ما يسعدها، هو الذي خلق النفس، وهو وحده، وليس هناك جهةٌ أخرى، تعرف ما الذي يسعدها، لذلك حينما يطيع الإنسان الله عز وجل، انتهت كل مشاكله، هذا هو الصلح مع الله عز وجل .

أحب أن أؤكد للأخوان، أن ربنا عز وجل لا يوجد عنده حرمان، لما أنت تنوي طاعة الله عز وجل الله لا يحرمك شيئاً، لكن سوف ينظم لك حياتك، ما مِن شهوة أودعها بقلبك، أودعها بنفسك، إلا جعل لها قناة نظيفة تفرغ من خلالها، ربنا عز وجل لم يكلف الإنسان فوق طاقته، ربنا عز وجل قال:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة الآية: ٢٨٦]

لم يكلفك أن تصلي مئة ركعة، ولا أن تصوم ستة أشهر، ولا كلفك أن تدفع كل مالك، ولا نصفه، العبادات كلها معقولة، وقتها قليل، حجمها قليل، لطيفة، تجعل لك نشاط، تجعل لك ثقة بنفسك، تجعل لك قرب من الله عز وجل، فهذه

((كلكم ضال))

أنا متأكد لما يكون الإنسان بعيدًا عن الله عز وجل فهو ضال، مهما كان ذكياً، لو حمل أعلى الشهادات، لو ملك أكثر الأموال، لو ارتفع إلى أعلى مقام، مدموغ بالغباء، لأنه لم يعرف الله عز وجل، ما عرف الهدى، فانظر إلى إنسان يعيش في الكون، وهو بعيد عن نور الله عز وجل، الله نور السموات والأرض.

لذلك:

((يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته))

هذه حياة الطعام والشراب، اشترينا بيتًا، وزيناه، وأكلنا، وتزوجنا، وجاءنا أولاد، ودرسوا، وكبروا، وزوجناهم، هذه الحركة اليومية المستمرة للإنسان من دون هدى شقاء،

((كلكم ضال إلا من هديته))

لذلك قال العلماء: تمام النعمة الهدى، يمكن أن نمثل للهدى بواحد، ونمثل للمال بصفر أمامه، صار الواحد والصفر عشرة، ونمثل للزوجة بصفر ثان صاروا مئة، نمثل للأولاد بصفر صاروا ألفًا، نمثل الدخل صفر رابع، نمثل المركبة، نمثل البيت، فاسحب الواحد من أمام الأصفار، ثم انظر، تجدها أصفارًا كلها،

((كلكم ضال إلا من هديته))

بالمناسبة لا توجد جهة أرضية تملك الهدى، جهة في الأرض كائنة من كانت، لا يملك الهدى إلا الله، لأنه هو الخالق، لذلك قال الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

[سورة البقرة الآية: ٢١]

الخالق وحده هو الذي يجب أن تعبده، فالإنسان في فرز كامل، الناس رجلان؛ إما أنه مهتد إلى الله عز وجل، فهو الذي حقق الهدف من وجوده، وإما أنه بعيد عن نور الله، فهو الذي لم يعرف الهدف من وجوده .

(كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني): فعل استهدى؛ على وزن استفعل، استعلم، استغفر، استرحم، استودع، فيه معنى الطلب، يعني اطلبوا الهدى من الله وحده، لا كتاب يهديك ، ولا نظام وضعي يهديك، لا جهة في الأرض تهديك، ولا نظرية تهديك، أي شيء أرضي يبقى أرضيًّا، أما الذي يهديك فهو الذي خلق السموات والأرض، كما أنه خلق السموات والأرض، فهو نور السموات والأرض، هو الخالق، هذه الناحية المادية من خلقها؟ الله سبحانه وتعالى، بعد أن خلق السموات والأرض، هو وحده نور السموات والأرض .

لذلك:

((كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم))

لا تُسَمَّ إنسانًا مهتديًا إذا لم تعرف الله عز وجل، هناك أشخاص درسوا دراسات واسعة جداً؛ قرؤوا آداب الإغريق، ألفوا قصائد مطوَّلة، قرؤوا تاريخ البشرية، ألفوا كتبًا في تاريخ الحضارة، وهناك أناس قرؤوا تاريخ الأديان، وأشخاص قرؤوا علومًا، فنونًا، اخترعوا، واكتشفوا، وأناس عرفوا خبايا الأرض، ولكنهم لم يعرفوا الله عز وجل، فهم في ضلال، فيا رب ماذا وجد من فقدك، وماذا فقد من وجدك؟ ابن آدم اطلبني تجدني، فإذا وجدتني وجدت كل شيء، وإذا فتك فاتك كل شيء، يا رب ماذا فقد من وجدك، وماذا وجد من فقدك؟ .

هذا الحديث دقيق جداً، الهدى محصور بالله عز وجل، لا يوجد هدى أرضي، فلان قرأ كتابًا، مؤلفه دارون فاهتدى، مستحيل، فلان قرأ النظرية الفلانية فاهتدى، فلان تشبعت أفكاره بالمبدأ الفلاني فاهتدى، لا، لا يوجد هدى أرضي،

((كلكم ضال إلا من هديته))

كل شيء في الأرض ضلال، فقد يكون مبنيًا على علم، هذا ممكن، إنسان يتعلم علمًا معينًا، عن طبقات الأرض، ويأخذ دكتوراه فيها، ويكون له دخل كبير جداً، هذا متعلق بالأرض، ليس هذا هو

الهدى، ممكن أن تأخذ أعلى شهادة بالطب، بورد، تتخصص بأدق الفروع بالطب، ويكون لك دخل في اليوم مئة ألف، هذه بالأرض، هذا ليس هدى، هذه مصلحة، هذا رزق من الحرفة ، أما الهدى فمقصور على الله سبحانه وتعالى،

((كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم))

فلما قال ربنا:

((فاستهدوني))

فأنتم مخيرون، معنى ذلك: أنك أنت أيها الإنسان مخير ؛ إما أن تستهدي الله فيهديك الله عز وجل، وإما ألا تستهدي الله فتبقى في الضلال .

إذا قال شخص: الأستاذ رسبني، ما معنى هذا الكلام؟ فعلاً الأستاذ رسبه، لكن لماذا؟ لأنه لم يدرس، فلما ربنا عز وجل في القرآن الكريم ينسب الإضلال إلى ذاته، إذا قال لك:

(يضل من يشاء)

فهذا كما علماء التوحيد: هو الإضلال الجزائي، المبني على الضلال الاختياري، يؤكد ذلك قوله تعالى:

(فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ)

[سورة الصف الآية: ٥]

فكلكم ضال، ما معنى ضال؟ أي أنه رفض الهدى، أو ما بحث عن الحقيقة فهو ضال ، قرأ، درس، علّم، ألّف، أخذ شهادات عليا، دخله كبير، طالع، له آراء معينة، ما دام معلوماته أرضية فهو في ضلال، إلى أن يقتبس الحقيقة من رب السموات والأرض، كما قال الله عز وجل:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة النور الآية: ٣٥]

إذا اقتبس الحقيقة من رب السموات والأرض اهتدى، فإذا اهتدى عرف نفسه، المؤمن يعرف نفسه، يعرف قدره عند ربه، الله عز وجل كرم الإنسان .

في نقطة مهمة جداً: أن ربنا عز وجل سخر السموات والأرض جميعاً للإنسان، فلما يكون الإنسان في ضلال، لم يعرف قدر نفسه، لا يعرف من هو، يقول لك: الحياة كلها عذاب ، والله الموت أشرف، مَن يقول لك: الحياة كلها عذاب، هذا ما عرف ربه، بالتالي ما عرف نفسه، ما عرف أنه خلق ليسعد في الدنيا والآخرة، يظن أنه خلق ليُعذب، لأنه بعيد عن المنهج.

فهذا القول بالحديث القدسي؛

((كلكم ضال))

يعني ليس هناك هدى أرضي، ما من جهة بالأرض غير الله عز وجل، لأن الجهة الأرضية قد تكون بإذن الله، النبي من عند الله طبعاً، الأنبياء والرسل والعلماء الذين ينوبون عن رسول الله في تلقين العلم، هؤلاء مصدر معلوماتهم كلها من السماء، من الوحي، فنحن نتكلم عن أولئك الذي يخترعون نظريات في الأرض ليسعدوا بها البشر، هؤلاء في ضلال قطعاً، والواقع أثبت ذلك، الواقع أثبت أنه: لا يوجد جهة في الأرض تستطيع أن تهب السعادة للبشر .

فالإنسان إذا أطلقته تفسّح، وإذا قيّدته قهرته، لما يهتدي بهدى الله عز وجل صعَّدت له ميوله؛ صار إنسانًا راقيًا، صار المخلوق الأول، صار الإنسان الكامل، لكن هناك جهات تقهره، وجهات تفلته، الذين فلتوه أشقوه، والذين قهروه أشقوه، أما الإسلام فقد رفع من قدر الإنسان، عرفه بقدره، عرفه بمهمته، عرفه أنه مكرم، أن الكون كله خلق من أجله. لذلك:

((يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته))

لا بد من أن تكون لك صلة بالله عز وجل، لا بد من أن يكون عقيدتك أساسها من عند الله، كي تكون مهتدياً .

عقيدتك مثلاً: إذا اعتقد الشخص، أن الإنسان بدأ في الأرض، على شكل قرد مثلاً، هذه ضلالة، لأن الهدى الإلهي يقول: إن الإنسانية بدأت بسيدنا آدم، لكن ليس لك حق في أن تأخذ النظرية بشكل سريع، تعلم، اقرأ، تجد النظرية فيها ثغرات كبيرة جداً، والنظرية ليست من الكذب العلمي، بل من الكذب الأخلاقي، فقد كان هناك رغبة جامحة لدى علماء القرون السابقة في تحطيم الكنيسة، وكان أفضل طريقة لتحطيم الكنيسة؛ اختراع نظرية تتناقض مع بدء الخليقة، فالكنيسة بدأت على أساس من الجهل .

أما الإسلام فقد رفع من شأن العلم، ما ينطبق على بعض الأديان لا ينطبق على الإسلام، فأخطر شيء بالإنسان نصف العلم، لا هو عالم فيفيد من علمه، ولا هو جاهل فيتعلم ، خطير جداً، قرأ كلمتين فشك في الدين، فإذا قرأت نظرية، أو قرأت شيئًا، أو رأيت نظامًا معينًا اجتماعيًا يتناقض مع الدين، هذا النظام باطل قطعاً، لا بد أن تعرف، أن الذي خلق السموات والأرض، هو الذي وحده الذي ينير لها السبيل، هو وحده الذي يسعدها، وأية معلومات، أية أفكار، أية نظريات، أية مذاهب نابعةٌ من الأرض ليست هدىً، إنما هي ضلال ، طبعاً قد يكون لها بريق، قد يكون لها شيء يجذب، أحياناً بعض المبادئ تجذب الناس، ليس لأنها على حق، لكن لأن فيها تحقيق للشهوات .

فأعداؤنا اليهود، عملوا مزارع، ليس فيها نظام الأسرة، كيوبتس، استقطبوا شباب العالم، على ماذا بنوها؟ على الإباحية بنوها، فهل هذا النظام حق؟ لا، باطل، الحق نظام الأسرة، لكن باعتبار هذا

النظام، يغري الشباب اليهود بالعالم، يأتون على الأرض المغتصبة، فصار الإغراء إغراءً ماديًا، إغراء شهوانيًا، ما هذا الحق؟ الإنسان لا أب له، فطبعاً اليهود لهم مصلحة، هذا لماذا له أب؟ حتى إذا قتل لا يعلنون عنه، يقولون لك: قتل واحد، يكون الموتى مئة، قتل واحد، الأبناء بالكيوبتس، ليس لهم آباء بالأساس، فيا ترى هذا النظام صحيح؟ لا، فهذا خطأ، لأنه مبني على الإباحية .

فكل نظام اجتماعي، كل فكرة، كل مذهب، كل نظرية منبعها أرضي، هذه ضلال قطعي،

((كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم))

إذا كانت عقيدتك مركبة من منابع أرضية، فهذه عقيدة غلط، الخالق يقول: هذا غلط، لأن:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة النور الآية: ٣٥]

معنى النور: أي العنصر التوضيحي التفسيري الذي منبعه من الله عز وجل، العنصر المادي، الله خلقه، الله خلق الجبال، خلق مجرات، خلق نجومًا، خلق كواكب، خلق بحارًا، خلق أسماكًا، يوجد مليون نوع سمك، آلاف أنواع الطيور، أنواع الأزهار، أنواع الأطيار، المذكرة التوضيحية لهذا الكون، من أين يجب أن تكون؟ من الله عز وجل .

أي جهة مؤهلة، تبين لك أن هذا الكون، خلق لأجلك، نوَّعت الأثمار إكراماً لك، خلقت الجمال لتعرفني، خلقت لك من نفسك زوجة كي تشكرني، جعلت ابنك من نسلك، كي تعرف كيف خلقت؟ أنت لم تر كيف خلقت؟ لكنك رأيت نفسك شابًا، واعيًا، طويلا، ذكيًا، معك شهادة ، معك مال، لما تنجب ولدًا، كأن ربنا عز وجل عرفك: كيف خلقت أنت؟ من نقطة ماء لا ترى بالعين، تولد ضعيفًا لا تقوى على التكلم، لا تقوى على أن تبين ما في نفسك .

مرة طفل صغير، بكى بكاء مستمرًا، ساعة، ساعتين، ثلاثا، يطعمونه فيبكي، بعد ذلك ظهر، أن في جسمه مسمارا صغيرا، الطفل ضعيف، لو كان كبيرًا يقول: هناك شيء يؤلمني هنا، انتهت العملية، قال تعالى:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن الآية: ١-٤]

فلو كان الإنسان يريد تلقي عقيدته ومبادئه، وإن صح التعبير المذكرة التوضيحية، لخلق الكون من جهة أرضية، فهذا ضلال قطعاً، إلا أن تكون هذه المذكرة التوضيحية، إلا أن يكون تفسير الكون ممن خلق الكون، كما قلنا: آلة معقدة جداً، بعثوها لك من غير نشرة، الآلة ثمنها بالملايين، وعليها دخل كبير جداً، فيها أجهزة لتحليل الدم، كل كبسة زر، يظهر فيها سبعة وعشرون تحليلا، لو كان كل تحليل ألف ليرة، معناها كل كبسة زر ألف ليرة، لو عندك ألف زبون، يصير دخلك مليونًا، هذه

الآلة معقدة جداً، لكن لا يوجد معها تعليمات، فهل تفكر أن تسأل عن تشغيلها إنسانًا غير الجهة الصانعة؟ هذا السؤال .

لو كان عندك كمبيوتر معقد جداً، وله فوائد كبيرة جداً، وعليه طلب شديد، والزبائن تقف بالدور، وأنت هلكت حتى اشتريته، أخذت إجازة ورخصة، واشتركتم مع بعضكم برأس مال، لكي تربحوا باليوم مليونًا، وهذا الكمبيوتر ليس معه نشرة، واستعماله معقد، فهل تفكر أن تسأل جهة بالأرض غير الجهة الصانعة؟ لا تقدر، لو سألت ميكانيكيًا؟ لا تسأله، ماذا يفهم هذا في ذاك؟ لك جار خضري: هل تسأله عنه؟ لا تسأله، لا تسأل إلا الجهة الصانعة .

هذا الحديث معناه:

((كلكم ضال إلا من هديته))

هذا الإنسان ما لم يسأل الذي خلقه: يا رب لماذا خلقتني؟ ما هي السعادة؟ يا رب بالأكل والشرب والمال أما بمعرفتك؟ .

فلا يدور ذهنك بسؤال مخلوق في الأرض، إلا الجهة الصانعة بهذه الآلة، وأنت أعقد آلة في الكون، فلما تتجه إلى إنسان كافر، له نظرية معينة، تقرأها لكي تهتدي؟ مسكين، ضلال في ضلال، كلام منمَّق، كلام يغري، كلام يرضي الشهوات .

الأفكار متى تروج؟ إذا كان معها دغدغة للعواطف والشهوات، إذا كان فيها ترتيب معين، يبيح للإنسان أن يمارس شهواته كلها من دون قيد أو شرط، فالإنسان يقبل بهذا المبدأ، ليس لأنه حق، بل على أنه مغرٍ، هذا قبول مصلحي، وليس قبولا موضوعيًا للفكرة، لذلك:

((كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم))

أفكارك، مبادئك، تعريف الخير عندك، الناس يظنون الذكي الذي يكسب المال، بالحلال، بالحرام، بحق، بباطل، بالحياء، بالعدوان، بالذوق، دون ذوق، ما دام حصل أموالا، اشترى بيتًا، ركز وضعه، فهذا ذكي، هذه عقيدة غلط، هذا يتنافى مع قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة النور الآية: ٣٥]

الله عز وجل توعد من أخذ أموال الناس، إن كان يريد إتلافها أتلفه الله، والدليل الوقاع، كل إنسان كسب مال حرام، تأتيه ضربات تحطمه تحطيم، تدمره، تهلكه هو والمال، فمن أين جاء الغلط؟ لأنه لم يستهد الله عز وجل، استهدى الناس، أخي أنت عندك أولاد، ماذا تفعل؟ إذا لم تغش لا تعش، هذا من استهداه؟ استهدى إنسان ضال، لو استهدى الواحد الديان لقال له: استقم على أمري، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا)

[سورة فصلت الآية: ٣٠]

لو أن هذا الإنسان استهدى الله عز وجل لما غش الناس، بارك الله له في ماله، ورزقه رزقاً حسناً، ومتعه بصحته وأهله وأولاده، لما استهدى رفيقه، قال له: أنت مضطر، الناس كلهم يغشون، ماذا تفعل؟ أخي الناس مالها حرام، إذا لم تغشهم لا يشترون منك، مَن قال لك ذلك؟ .

أنت لما تستقيم، يرفع الله شأنك، يوسع رزقك، يكرمك، يسعدك، فهذا السؤال بكل حركة من حركاتك اليومية، هل استهديت الله عز وجل؟ لما غضبت من زوجتك، طردتها إلى بيت أهلها، أنت بهذا لم تستهد الله، استهديت الشيطان، فهداك أن تطردها، لما طردتها إلى بيت أهلها، وكان الخلاف على كلمة قالتها لك، لها أخوات، لها خالات، لها عمات، عمموا المشكلة، يليق بكِ أحسن منه، ماذا تريدين منه؟ اتركيه، راجعيه، وهو أيضاً: أنا لا أخضع، لا أرجع، بعد شهرين طلق، عنده ثلاثة أولاد، أصبحوا بالطريق، من استهدى هذا الزوج؟ الشيطان، لو أنه استهدى الرحمن لأفلح، قال تعالى:

(لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ)

[سورة الطلاق الآية: ١]

انتهى الأمر، الذي خلقك قال لك: افعل هكذا، أما فاخرجي إلى بيت أهلك، هذه ليست واردة إطلاقاً، تناقشها، أعرض عنها، لا مانع، أدبها، لا مانع، أقنعها، لا مانع، أما اذهبي إلى بيت أهلك، فهذه ليست واردة إطلاقاً، فبزواجك، بأولادك، ببيعك، بشرائك، مع جيرانك، مع نفسك، إذا استهديت الله عز وجل تسعد، والدليل:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء الآية: ٩]

هذه مطْلقة، ببيعك بشرائك هكذا أقوم، لذلك قال ربنا عز وجل:

((كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم ...))

اطلب مني الهدى، ثمة أشخاص يقعون في مشكلة، في أزمة، يسجد أحدهم ويدعو الله: يا رب اهدن إلى عمل ترضاه عني، كيف أتصرف يا رب؟ ليس هناك واحد منا لم يقع في مشكلة، أحياناً في ورطة، أحياناً بموقف أخرج أمه وزوجته، شريكه وصاحبه، هذا البيت له مشكلة، هذا المحل له مشكلة، يريد يسترجعه منك، وأنت دفعت فروغًا، وقال لك: أنا أشكيك إلى الله عز وجل، هذه مشكلة، انظر إلى رأي الفقه، رأي العلماء، رأي القانون، تقع بورطة أحياناً، استهد الله عز وجل، إما أن تستهديه بأن ترجع إلى كتابه، أو أن ترجع إلى سنة نبيه، أو أن ترجع إلى أحكام الفقه، التي

استنبطها العلماء والفقهاء، من النصوص الثابتة القرآن والحديث، وإما أن تسجد وتقول: يا رب اهدن لخير إلى ما تحب،

((فاستهدوني أهدكم))

كلما وقعت في مشكلة، اترك الخط مفتوحًا، لا تقطع الخط مع الله عز وجل، تعوّد على السجود، تعوّد على ركعتي الحاجة، تعوّد على قيام الليل، تعوّد على أن تنادي ربك بالسجود: يا رب ماذا أفعل؟ يا رب اهدن لصالح الأعمال، اهدن لقول سديد ترضى، ويرضيك يا رب،

((فاستهدوني أهدكم))

فاستهدوني في المعضلات والصغائر، إن الله يحب من عبده، أن يسأله شسع نعله إذا انقطع . أحياناً مسمار داخل الحذاء، وأنت متضايق منه، لا تجد واحدًا يصلحه: يا رب، يا رب أعن، ضاعت مفاتيحك: اللهم يا جامع الناس، هل هناك أتفه من ضياع مفاتيحك بالبيت؟ أين المفاتيح؟ لا تجدها، تكون تحت البشكير، تبحث عنهم خمس ساعات، تقيمه وتقول: اللهم يا جامع الناس، رأساً تجد المفاتيح، فاستهدوني في الأشياء الصغيرة، والأشياء الكبيرة، في المعضلات .

جاءك خاطبون لابنتك، هذا عنده بيت، هذا ليس عنده بيت، الذي عنده بيت، دينه رقيق قليلاً، وهذا دينه قوي، ولكن ليس عنده بيت، والله شيء يحير، ماذا تفعل بهذه الحالة؟ فاستهدوني أهدكم، اسأل الله عز وجل أن يهديك إلى قرار صحيح، لا تقع بغلط، هناك دعاء الاستخارة،

((فاستهدوني أهدكم))

لك دعاء الاستخارة، صل ركعتين، وادع دعاء الاستخارة، ونم، إذا كان الخير بهذا الشيء، ييسره ربنا سبحانه لك، وإن كان خلاف ذلك عسره عليك، فاستهدوني أهدكم .

زوجتك مصرة على هذا الشيء، لا تتراجع عنه، وأنت رأيته غلطًا، طبعاً العنف سهل، تقول لها: ما أعجبك! فاذهبي إلى بيت أهلك، هذه سهلة، لكن عندك أولاد، وركبت رأسها: يا رب اهدن، ماذا افعل؟ اهدن إلى موقف حكيم .

أحياناً يتشاجر أولادك بالبيت، أو أخوك مع ابنك، وأنت جعلتهم في المحل معاً، ماذا تفعل؟ فاستهدوني أهدكم، إذا كان الشخص بعيدًا عن الله، يخبط خبط عشواء، أحياناً يغلط، يتورط، يتحامق، إذا كان مع الله عز وجل يهديه، عود نفسك في كل قضية، قل له: يا رب ماذا أفعل؟ .

والله الذي لا إله إلا هو لا تلبث أن تهدي إلى الطريق الصحيح، الرب سبحانه معك ، وهو الذي قال:

(إني معكم)

أنا معك

(ادعوني أستجب لكم)

اسألن، ما دام تسأله في شسع النعل إذا انقطع، هناك أشياء أكبر بكثير .

هذا الحديث دقيق، فهل أنا آخذه على معنى واسع كثير على الهدى الكلي؟ آخذه على الأشياء الجزئية،

((كلكم ضال إلا من هديته))

تجد شخصًا ذكيًا، فهيمًا، نبيهًا، حكيمًا، يغلط غلطة كبيرة، ما أسبابها؟ الاعتزاز بنفسه ، يقول لك: أنا، أنا خبراتي واسعة بهذا الموضوع، أنا متفوق بالدراسة، أنا مضى علي سنوات بهذه المصلحة . مرة طبيب، معتز بنفسه كثيرًا، في أثناء عملية الولادة، أزال الرحم، وقطع الأمعاء، لو ما أخذ المريضة على المستشفى، لسحبوا منه الشهادة، أراد تخليص الجنين، فقطع الرحم، وقطع الأمعاء، ويقتل المريضة، لما يتعزّ الإنسان بنفسه، يكله الله عز وجل إلى نفسه، يتحامق ، يقولون: غلطة الكبير كبيرة،

((فاستهدوني أهدكم))

عوّد نفسك في كل حركة باليوم: دخلت عند شخص: يا رب ألهمن كلامًا صحيحًا، أحياناً تقول كلمة غلطًا، تدفع ثمنها شهرًا، لماذا قلتها؟ ليس هناك موافقة، كلمة غلط أحياناً تقولها لإنسان، تأتيك متاعب لا حصر لها .

دخلت إلى إنسان: يا رب اهدن، تلقي درسًا، يا رب أعن، تحكّم مريضًا: يا رب ألهمن التشخيص الصحيح، والدواء الصحيح، أنت محام: يا رب ألهمن المذكرة الصحيحة، هذا الرجل مظلوم، أما أن تقول: أنا محام معي شهادة، من كذا سنة، قضايا أخذتها، وخصومي أقوياء، لا، بل قل: يا رب اهدن، كلما تواضعت لله يرفعك، كلما تذللت له يعزك، كلما أعلنت ضعفك أمامه، يعطيك العلم، والخبرة، والموقف الصحيح، والحكمة، فاستهدوني أهدكم .

((يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم ...))

في الأشياء الصغيرة، والكبيرة، في علاقاتك، في بيعك، في شرائك، في حركاتك، في زواجك، في شركاتك، بأي حركة يومية .

أحياناً يفحص الإنسان سيارته قبل أن يسافر، ويقول: فحصتها فحصًا كاملا، تقف به في مكان صعب، أين الفحص الكامل؟ إذا كان الرجل مؤمنًا يقول: يا رب تسلم، كلمة يا رب تسلم، الله يسلم، فاستهدوني، يعني كن معي دائماً، لا تنسني يا عبدي، قال تعالى:

(وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ)

[سورة الكهف الآية: ٢٤]

إن شاء في الدرس القادم، نتابع هذا الحديث القدسي، هذا حديث أساسي:

((كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم))

ليس هناك ذكي في التجارة، أحياناً الذكي بالتجارة يفلس، هناك تاجر موفق، وتاجر غير موفق، فالإنسان يطلب من الله التوفيق، لأن الله عز وجل قال:

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

[سورة هود الآية: ٨٨]

ما هو الموضوع التي تتعلق به هذه الآيات، وبماذا كان يتميز عمر بن الخطاب ؟

الآن إلى سيرة سيدنا عمر رضي الله عنه .

هذا الفصل عن سيدنا عمر متعلق بالشورى، ربنا عز وجل وصف المؤمنين فقال:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

[سورة الشورى الآية: ٣٨]

فإذا أنت كنت مؤمناً، وعشت مع أخوانك المؤمنين، ليس لك حق أن تستبد برأيك، إذا كان لك شريكان مؤمنان، ليس لك حق في أنْ تستبد برأيك، إذا كنت تعيش مع أخوانك في مسجد، ليس لك حق في أن تستبد برأيك، إذا كنت عضو بلجنة، ليس لك حق في أن تستبد برأيك، لأنك إذا كنت مؤمن حقاً، يجب أن تنطبق عليك هذه الآية:

(وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)

[سورة الشورى الآية: ٣٨]

الآية الثانية: ربنا عز وجل، يأمر سيدنا رسول الله، وهو قمة البشر في العلم، وفي الحكمة، وفي الفهم، ويوحى إليه، والملائكة معه، هذا النبي العظيم على عِظَم شأنه، وعلى جلال قدره، وعلى تفوقه، وعلى أنه الشخصية الأولى في الكون، ربنا عز وجل وجَّه له أمر، وأمر الله يقتضي الوجوب، فقال له:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

شاورهم، قال تعالى:

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

ولما يستشير الإنسانُ الرجالَ، يستعير عقولهم، فتحت محلا بسوق، توسم بهذا السوق، تلتقي بتاجر صاحب دين، مؤمن، كريم، اجعله مستشارًا لك، نبيع هذا بهذا المبلغ، فيقول لك: لماذا لا، اسأل عنه أولاً، فتجبه: الله يجزيك الخير، إذا قال لك: اسأل عنه، نبهك أنه من الممكن قبل أن تبيع البضاعة، أن تسأل عن الزبون، قد يكون نصابًا هذا الزبون، يتساهل معك بالسعر، اشحنها، وهذا العنوان، تصير عنده شحادًا عشر سنوات، تطرق مشوار إلى حلب فيقول لك: تعال ثاني جمعة .

لو سألت هذا التاجر المؤمن: ماذا أفعل؟ طلب مني بضاعة بمئة ألف، اسأل عنه أولاً ، خذ عنوانه، واسأل عنه، فلما يستشير الإنسان، يستعير عقول الرجال، كل مصلحة لها خبراء ، فيها أتقياء، وفيها خبراء بكل مصلحة، فيها خبراء وأتقياء، فإذا كنت أنت موفق، تسأل التقي الخبير، إن سألت خبيرًا غير تقي سيغشك، وإن سألت تقيًا غير خبير لا يعرف، اسأل الخبير التقي، تعوّد بكل حياتك، أن يكون لك مستشارون، ابحث عن طبيب مؤمن، مع زوجتك قرحة ، إن سألت طبيبًا غير مؤمن عن صيامها، يقول لك: تفطر، يريد كثرة مِن المفطرين، لكي يستأنس، لأنه هو مفطر، اسأل طبيبًا مؤمنًا، بكل قضية اسأل، تريد أن تشتري بيتًا، اسأل واحدًا، يكون البيت مرهونًا، عليه إشارة حجز، تدفع ثمنه كاملاً، تأتي آخر السنة، فلا تعطى لك موافقة بنائه، فاستشر .

فربنا عز وجل، أمر النبي عليه الصلاة والسلام، وهو سيد الخلق، وحبيب الحق، أمره أن يستشير استشارة حقيقية، إياك أن تظن أنها استشارة شكلية، لا، حقيقية، قال تعالى:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

إذا استشار الإنسان، فهذه الاستشارة لا تنقص من قدره أبداً، وكأن الله عز وجل أمر النبي أن يستشير، حتى يكون النبي لنا أسوة لنا، وقدوة صالحة، لا تكبر نفسك عليك، اسأل لو كنت مدير مستشفى، عندك طبيب متخرج حديثاً، قل له: ماذا نتصرف بهذا الموضوع؟ ما قولك؟ اسمع منه، وخذ قرارًا، أنت محام، وعندك محام متمرن، اسأله، قد يكون عنده فكرة أنت لا تعرفها، ذهنه صاف، وأنت واقع تحت ضغط معين، وهذا الضغط معين، عكر عليك الرؤية، أما هذا المحامي المتمرن، فهو صاف الذهن، سيقول لك: هذا لا يمكن، لا ترد عليه .

فهذا الفصل كيف كان سيدنا عمر، وهو في قمة مجده وسلطانه، وهو خليفة المسلمين ، وأمير المؤمنين، كان يستشير، وكان يرحب بالنقد، لذلك إذا مدحك واحد، تجلس في مكانك، إذا انتقدك رفعك، إذا انتقدك أزعجك، لما يزعجك، فهذا الذي انتقدك فيه تدعه، فإذا تركته ارتقيت، كلما تلقيت نقدًا ارتفعت، كلما تلقيت نقدًا بنَّاء من إنسان مخلص، تحاشيت الغلط وارتفعت، إذا عوّدتَ نفسك على المدح، يمدحك الناس باستمرار، ينزلونك بالمدح، تبرك ولا تتقدم، لذلك حينما يرفض الإنسان النقد ينتهي .

سيدنا عمر كان يقول:

((أحب ما أهدى إلي أصحابي عيوبي))

موضوع الشورى موضوع أساسي في الإسلام، استشر الكبير والصغير، القريب والبعيد، وبعدئذٍ اتخذ قرارك .

سيدنا عمر كان يقول:

((لا تقولوا الرأي الذي تظنونه يوافق هواي .
-طبعاً الإنسان الذكي، يعرف أنه هذا الطرف، يرغب بهذا الاتجاه، فالإنسان أحياناً يستشير شخصًا، إذا كان شخصًا مخيفًا، يسمع إجابات توافق هواه، فيصدق أن هذا الكلام صحيح- .
سيدنا عمر نبه أصحابه، وقال لهم: لا تقولوا الرأي الذي تظنونه يوافق هواي، وقولوا الرأي الذي تحسبونه يوافق الحق))

نفى التملق، لا تقل لي كلامًا أرضى به، قل الحق ولو كان مراً، لو تعوّدنا كلنا أن نكون صادقين مع أنفسنا، ونتكلم كلمة الحق، وألا يأخذنا بالحق لومة لائم، لكنا في حال غير هذا الحال .

لو كان الإنسان مع زوجته وأولاده صريحًا، أحياناً الإنسان يلحق المظاهر، تكون حالته المادية أقل من الوسط، يريد أن يظهر بمظهر الأغنياء، يتحطم من أجل وليمة واحدة، يظل مكسورًا بالدين شهرين أو ثلاثا، اسأل أهل الخبرة، لا ترض بالمظاهر الفارغة، لا تقولوا الرأي الذي تظنونه يوافق هواي، وقولوا الرأي الذي تحسبونه يوافق الحق، هكذا أعطى سيدنا عمر التوجيه .

مرة دعا فريقاً من الأنصار المشهود لهم بالحنكة ونضج التجربة، فتح لهم باب المناقشة، وخشي عمر أن يجامله أحدٌ في رأيه بوصفه أمير المؤمنين، فقال لهم:

((إني دعوتكم لتشاركوني أمانة ما حُمِّلت من أموركم، فإني واحد كأحدكم، وأنتم اليوم تقرون بالحق، خالفني من خالفني، ووافقني من وافقني، ولست أريد أن تتبعوا هواي، فمعكم من الله

كتاب ينطق بالحق، فو الله لئن كنت نطقت بأمر أريده، فما أريد به إلا الحق، تكلموا بصراحة وانصحوني ، ولا تتوخوا أن أرضى بأقوالكم، ارضوا بها الله سبحانه وتعالى))

مصيبة ألمت بعمر واستبرأها حذيفة بن اليمان :

دخل عليه مرة سيدنا حذيفة بن اليمان، رآه مهموماً باكي العين، فقال له:

((مالك يا أمير المؤمنين؟ .
فقال له عمر: إني أخاف أن أخطئ، فلا يردني أحد منكم تعظيماً لي، -أخاف أن أخطئ، وأحدكم لا يردني، يبقى ساكتًا، تعظيماً لي وتوقيراً .
سيدنا عمر بن عبد العزيز الله رضي عنه، عيّن أحد كبار العلماء مستشار له، اسمه عمر أيضاً، قال له:
((يا عمر، كن إلى جانبي، وانظر ماذا أفعل؟ فإن رأيتني ضللت، فأمسكني من تلابيبي، وهزني هزاً شديداً، وقل لي: اتق الله يا عمر فإنك ستموت))

هذه الأمانة- .

فأجابه سيدنا حذيفة قال له: والله لو رأيناك خرجت عن الحق لرددناك إليه .

فعندئذٍ استبشر سيدنا عمر، وقال: الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يقومونني إذا اعوججت))

من مواقف عمر على منبر الإسلام :

مرة صعد المنبر وقال:

((يا معشر المسلمين، ماذا تقولون، لو ملت برأسي إلى الدنيا هكذا؟ فيشق الصفوف رجل، ويقول، وهو يلوِّح بذراعه، كأنها حسام ممشوق: إذاً: نقول لك: بالسيف هكذا .
فيسأله عمر: إياي تعني بقولك؟!
قال: نعم إياك أعني بقولي .
عندئذٍ فرح سيدنا عمر وقال: رحمك الله، والحمد لله الذي جعل فيكم من يقوِّم عوجي))

يا ترى هذه المواقف زعزعتْ من مكانته؟ يا ترى صار بنظرهم صغيرًا؟ لا والله صار كبيرًا، الفصل كله حول هذا الموضوع، حول أن تستشير الناس، أن تستمع إلى النقد، أن تقبل الشخص الذي ينتقدك، لكن لا ينبغي أن يكون نقدًا مبنيًا على الحقد، مبنيًا على الإصلاح، مبنيًا على الإخلاص.

من مواقفه أيضاً على منبر الإسلام :

مرة صعد المنبر، ليحدث المسلمين بأمر جليل، فيبدأ خطبته بحمد الله، وبقوله:

((اسمعوا يرحمكم الله، ولكن أحد المسلمين ينهض قائماً، ويقول: والله لا نسمع، والله لا نسمع .

فيسأله عمر في لهفة: ولِمَ يا سلمان؟ .

فيجيب سلمان: ميَّزت نفسك علينا في الدنيا، أعطيت كلاً منا بردة واحدة، وأخذت أنت بردتين، -كان رضي الله عنه طويلًا، لا تكفي البردة، سيدنا عمر لما قال له هذا الكلام- فيجيل الخليفة بصره في صفوف الناس، ثم يقول: أين عبد الله بن عمر؟ فوجده، فينهض ابنه عبد الله، ويقول: ها أنذا يا أمير المؤمنين .

فيسأله عمر على الملأ: من صاحب البردة الثانية يا عبد الله؟ .

فيقول عبد الله فيقول: أنا يا أمير المؤمنين، الثانية لي .

ويخاطب عمر سلمان، والناس معه، ويقول: إنني كما تعلمون رجل طويل، ولقد جاء بردتي قصيرة، فأعطاني عبد الله بردته، فأطلت بها بردته .

فيقول سلمان وفي عينه دموع الغبطة: الحمد لله، والآن قل فنسمع، الآن نسمع لك))

مقولة حق قالها عمر بن الخطاب هي :

مرة وهو على المنبر يخطب بالناس فقال:

((أيها الناس، لا تزيد مهور النساء على أربعين أوقية، فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال .

امرأة قالت له: ما ذاك لك؟.

فيسألها: ولِمَ؟ .

فتجيبه بأن الله تعالى، يقول:

(وَآَتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَاراً فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

[سورة النساء الآية: ٢٠]

عندئذٍ قال سيدنا عمر بملء فمه: أصابت امرأة وأخطأ عمر))

يبقى بقدره العالي، وعظمته، هو عملاق الإسلام، هذا التراجع السريع، لم يضعضع من مكانته، لم ينقص من قدره، الإنسان مع الحق حيث دار .

إليكم سبب هذا النقاش الذي دار بين عمر وخالد بن الوليد :

مرة سيدنا عمر، عزل سيدنا خالدًا، سيدنا خالد سيف الله، ورسول الله سماه: سيف الله، وأبلى في المعارك بلاء حسن، خاض مئة معركة، وما انهزم في واحدة، وبالرغم من ذلك عزله، فجاءه وقال له:

((يا أمير المؤمنين لمَ عزلتني؟ .

قال له: والله إني أحبك .

قال له مرة ثانية: لمَ عزلتني؟ .

قال له: والله إني أحبك .

قال له مرة ثالثة: لم عزلتني؟ .

قال له: والله ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يفتتن الناس بك، لكثرة ما أبليت في سبيل الله))

خفت على عقيدة الناس، الله ينصر، ولست أنت، فحتى أبرهن للناس، أنه ولو عزلتك فالنصر مستمر، ما دمتم مؤمنين فالنصر مستمر، أنقذ التوحيد بهذا العزل .

هناك أناس يفسرونها تفسيرًا آخر، على أنه كان في عداوة سابقة معه في الجاهلية، وانتقم منه، الصحابة فوق ذلك، وأعلى من ذلك .

من هو قدوة عمر بن الخطاب في مواقفه كلها ؟

سيدنا عمر، تلميذ نجيب لرسول الله .

سيدنا رسول الله، جاءه أعرابي من أهل البادية، وتهجم عليه، وقال له بين أصحابه، وهو يخاطب سيدنا رسول الله:

((أعطن، فليس المال مالك ولا مال أبيك، -كان قاسيًا، مَن بدا جفا- النبي ابتسم، وقال له: صدقت إنه مال الله))

معك حق.

سيدنا رسول الله علم أصحابه التواضع، علم أصحابه الحلم، علم أصحابه إذا كان الواحد فظًا، فامتصه امتصاصًا، لا تمحقه، قال له: هذا المال ليس المال مالك، ولا مال أبي، فابتسم النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

((صدقت إنه مال الله))

قال له بدوي مرة:

((اعدل يا محمد، -هذه المرة غضب، وكان إذا غضب، ظهر عرق في جبينه- قال له: ويحك من يعدل إن لم أعدل؟ .

-هل هناك إنسان مؤهل للعدل أكثر مني؟ ويحك من يعدل إن لم أعدل؟- سيدنا عمر لم يتحمل الأعرابي، رآه تهجم على رسول الله، وتطاول، لا بد أن يتأدب، فهمّ، قال له: دعه يا عمر، إن لصاحب الحق مقالا))

تكون موظفًا مرتاحًا، والغرفة مكيفة، يدخل مواطن عليك، تجده يغضب، تقول له: اخرج، صار له ثمانية أيام مع المعاملة الإدارية، وبعد ذلك ضاعت المعاملة، غضب، قل له: طول بالك، والله معك حق، لا تقس الناس على نفسك، أنت مرتاح، ليس عندك مشكلة، غرفتك مكيفة، هذا صاحب الحاجة أرعن، صاحب الحاجة أعمى، قال له:

((دعه يا عمر، إن لصاحب الحق مقالا))

له حق يتكلم، إذا كنت موظفًا بأي مكان، فهذا الذي أمامك، إنسان له مطالب، فيجب أن تلبيها له .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (١٩-١٠١) : باب المجاهدة -٥- الحديث القدسي : يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي -٣-

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-١١-١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم هذه الحقيقة أيها المسلم:

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا مع دروس الحديث النبوي الشريف، ولا زلنا في الحديث السابع عشر، من باب المجاهدة، من كتاب رياض الصالحين، والحديث الذي بدأنا شرح بعض معانيه في دروس عدة، فعَنْ أَبِي ذَرٍّ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأحمد في مسنده]

يعني ما دام هذا القلب ينبض، فباب التوبة مفتوح، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

[سورة الزمر الآية: ٥٣]

وكما جاء في الحديث القدسي: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

إذا رجع العبد العاصي إلى الله، نادى منادٍ في السموات والأرض، أن هنئوا فلاناً، فقد اصطلح مع الله.

العجب العجاب: أن ترى إنساناً مقيماً على معصيةٍ، وباب التوبة مفتوح، والأيام تمضي، لو نظرت إلى ساعتك، انظر إلى عقرب الثواني، كلّما تحرك هذا العقرب درجةً واحدة، فقد نقص العمر ثانية، واقتربت من الموت ثانية، صدق القائل:

دقات قلب المرء قائلة للـــه إن الحيـاة دقائـقٌ وثوانِ

فارفع لنفسـك قبل موتك ذكرها فالذكر للإنسـان عمرٌ ثانِ

إذا أيقن الإنسان بالموت، وإذا أيقن أن هناك إلهاً عظيماً، سيحاسبه عن كل عمله، قال تعالى:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

[سورة الحجر الآية: ٩٢]

(عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة الحجر الآية: ٩٣]

وأنه بعد الموت لا رجعة إلى الدنيا، وأنه إما إلى جنةٍ يدوم نعيمها، أو إلى نارٍ لا ينفد عذابها، فماذا ننتظر؟.

يقول سيدنا عمر:

((عجبت لثلاث؛ عجبت لمؤملٍ والموت يطلبه. -أيها الأخوة، وحول هذا الموضوع آلاف القصص، إنسان كان يحلم ببيت معين، بقي يبنيه، ويرتبه، ويزيّنه، ويفرشه بأفخر الأثاث، ولم يستطع أن يسكن فيه، فكم من إنسانٍ بنى بيتاً، ولم يسكنه؟ وكم من إنسانٍ تزوج امرأةً، ولم يتمكَّن من أن يقترن بها؟ وكم من إنسانٍ نال شهادةً، ولم يبق في حياته فسحة ليستفيد منها؟ هناك إنسان ينام فلا يفيق، وهناك إنسان يستيقظ فلا ينام، وهناك إنسان يذهب فلا يعود، وهناك إنسان وهو في زحمة العمل، وهو في أوج نجاحه، جاءه مَلَك الموت- فـ عجبت لثلاث: لمؤملٍ والموت يطلبه، وغافلٍ وليس بمغفولٍ عنه، وضاحكٍ ملء فيه، ولا يدري أساخطٌ عنه الله أو راضٍ؟))

لذلك:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ)

[سورة المدثر الآية: ٨]

(فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ)

[سورة المدثر الآية: ٩]

(عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

[سورة المدثر الآية: ١٠]

أحياناً يسترسل الإنسان، لكن حينما يسأل، وحينما يحاسب يقول: لم أر خيراً قط في حياتي.

في بعض الآثار: أن الإنسان حينما يموت، ويرى مقامه في الجنة يقول: لم أر شراً قط في حياتي. كل المصائب التي ساقها الله له، وكأنها ليست بشيء، وأهل الدنيا إذا جاءهم الموت، يصيحون صيحة، لو سمعها الناس لصعقوا.

يروى أن إنسانًا ذميًّا، فقيرًا، شقيًّا، متعبًا، جائعًا، مريضًا، يعمل في مهنة حقيرة قذرة، رأى عالماً من علماء المسلمين، يركب فرسه، وحوله بعض أخوانه، وهو معززٌ، مكرمٌ، مبجلٌ، يرتدي أجمل الثياب، تفوح منه رائحة عطرة، فهذا الذمي كان قد سمع، أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة في الصحيح]

لم يحتمل هذا الحديث، كيف؟! فالتقى بهذا العالم الإسلامي في الطريق، وقال: يا سيدي يقول نبيكم:

((الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ))

فأيّ سجنٍ أنت فيه، وأية جنةٍ أنا فيها؟! فما كان من هذا العالم إلا أن قال له: لو قست ما أنت عليه، بما سوف ينتظرك، فأنت في جنة، ولو قست ما أنا عليه، وما ينتظر المؤمن، فأنا في سجن.

لهذا ثبت عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ اللَّهُ:

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ؛ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما]

دائرة المشاهدات محدودة، لكن دائرة المسموعات أكبر منها بكثير، بينما دائرة الخواطر ليست محدودة،

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ؛ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

حينما يتوب الإنسان، ويتوب الله عليه، يعرف طعم التوبة، طعم التوبة لا يوصف، وحينما يتوب يشعر وكأنه أصبح إنساناً آخر، بعد الصُلح مع الله، حينما يفتح الله لك صفحة جديدة، ويطوي كل الصفحات، فالإسلام يجبُّ ما قبله، ويهدم ما كان قبله، إذا فُتِحَت لك مع الله صفحة جديدة، تشعر أنك إنسان آخر، لذلك يصب في قلب التائب من سعادة، ومن تجلي، حيث إنه يرى أنه أسعد الناس جميعاً، فباب التوبة مفتوح، والله سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي:

((للهُ أفرح بتوبة عبده؛ من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

دليل هذه الحقيقة هذا الحديث: يا عبادي إنكم تخطئون..........أغفر لكم:

فهذه الفقرة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه أن:

((يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ))

الحقيقة: ليس العار أن يخطئ الإنسان، لأن الإنسان غير معصوم أولاً، فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

ليس العار أن تخطئ، ولكن العار أن تصرَّ على خطئك، لذلك يفرق العلماء بين الأمي والجاهل، فرقٌ كبير، الأمي إنسان وعاؤه فارغ، يقبل أيّ شيءٍ يوضع فيه، فتعليم الأمي سهل جداً، إنسان وعاء نفسه فارغ يتقبل منك أي شيء، لكن الجاهل هو الذي امتلأ وعاؤه مغالطات، وعلاقات غير صحيحة، لا يؤكدها الواقع، لذلك هناك مشقة كبيرة في إقناعه بالحق، هو ينطلق من قواعد غير صحيحة، من علاقات لا يؤكدها الواقع، فالجاهل هو الذي يعلم، ولكن لا يعمل بما يعلم، أو هو الذي ينطوي على مفاهيم، وعلاقات، ومنطلقات خاطئة أو غير صحيحة،

((يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ))

ليس العار أن تخطئ، ولكن العار أن تصر على خطئك، ليس العار أن تخطئ، ولكن العار ألا تتوب، وباب التوبة مفتوح.

هناك آية تلفت النظر، الله سبحانه وتعالى في بعض الآيات يقول:

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

[سورة التوبة الآية: ١١٨]

ربنا عزَّ وجل لشدة رحمته أحياناً، يلجئ العبد إلى التوبة، يلجئه، يضيق عليه، يصيبه ببعض المصائب، يحيطه بجوٍ مخيف، يلقي في قلبه الذعر، يلقي في قلبه الهم، هذا التضييق هو معنى قوله تعالى:

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

[سورة التوبة الآية: ١١٨]

فإذا قلت لشخص: الله يتوب عليك، لا تظن هذه الكلمة سهلة، هذه كلمة دقيقة، ولها أبعاد عميقة، وربنا عزَّ وجل لا يدع المؤمن من دون أن يمحِّصه، ومن دون أن يتوب عليه. فـ..

((يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ)).

بعض المؤمنين الصادقين، يحاسب نفسه حسابًا يوميًّا، وحسابًا دقيقًا، فإذا زلت قدمه، أو أخطأ لسانه، أو وقعت منه نظرةٌ لا ترضي الله عزَّ وجل، أو وقعت منه كلمةٌ لا ترضي الله عزَّ وجل، يبادر بعملٍ صالح، يمحو به تلك الخطيئة، لقول الله تعالى:

(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

[سورة هود الآية: ١١٤]

فمؤمن تكلم عن أخيه، وثرثر، وتكلم عن أخيه، ووقع في الغيبة، يلزم نفسه بصدقةٍ.
الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه، كان إذا حلف يميناً في البيع والشراء، كان يلزم نفسه بمبلغ معين، ثم بدأ يرفع هذا المبلغ، إلى أن كف عن حلف اليمين في البيع والشراء، قال عليه الصلاة والسلام، طبعاً اليمين صادق، لكن الأكمل لا تحلف، لكن اليمين الكاذبة كما وصفها النبي عليه الصلاة والسلام بأنها:

((الْحَلِفُ مُنَفِّقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مُمْحِقَةٌ لِلْبَرَكَةِ))

[متفق عليه، أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة]

يقول الشاعر:

لا يعرف الشوق إلا مَن يكابده ولا الصبابة إلا مَن يعانيها

إذا تاب الإنسان إلى الله توبة نصوحا، وعاهد الله على أن يلزم نفسه بطاعة الله بكل ما أمر الله، يلقي الله في قلبه طمأنينة، وتجلياً، ونوراً، لا يعرفه إلا مَن ذاقه.

من أركان التوبة كما يبينها الإمام الغزالي:

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، يبين أن التوبة أساسها: علمٌ، وندمٌ، وعمل، إن صح التعبير للتوبة أركانٌ ثلاثة: العلم، والندم، والعمل، أو كان يقول: علمٌ، وحالٌ، وعمل.
أنت أيها الأخ الكريم، تحضر مجالس العلم لتكتسب العلم، فبالعلم تعرف أين أنت من الشرع؟ هل هناك شبهة في دخلك؟ هل هناك شبهة في إنفاق المال؟ هل هناك معصية في البيت؟ هل هناك مخالفة في العلاقة مع زوجتك، مع أولادك، مع جيرانك، مع زبائنك؟ هل هناك تقصير مع ربك في العبادات؟ كيف تعرف أنك لست على الحق؟ كيف تعرف أن هناك خللاً في حياتك؟ لا بد من العلم، فإذا حضر الإنسان مجلس العلم، وكما يقول بعضهم: إن بذل الوقت لحضور مجلس العلم زكاة الوقت.
ربنا عزَّ وجل أحياناً بغلطة بسيطة، يجعل وقتك يستهلك استهلاكا رخيصًا، غلطة في التعامل مع الآلة أحياناً فتتعطل، تبذل ثمانين ساعة لتصليحها، مع الهم، والحزن، والسفر، ودفع المال، فلما يضن الإنسان على ربه بساعة، أو ساعتين في الأسبوع، يحضر فيها مجلس علم، يتعرف إلى الله عزَّ وجل، يتعرف إلى معاني كتابه الكريم، يتعرف إلى معاني حديث رسول الله، يتعرف إلى أحكام الفقه، يتعرف إلى هؤلاء الصحابة الكرام الذين كانوا مُثُلاً عليا، إذا ضن الإنسان بوقته ليحضر مجلس علم، ربما ضاع من وقته ساعاتٍ طويلة مع الغيظ، والألم، والنكد، فإذا حضر الإنسان مجلس العلم، فكأنما زكَّى عن وقته، لأن الوقت مال، كيف هو مال؟.
الذي عنده محل تجاري، وإغلاق المحلات الساعة الثامنة، فإذا بقي من الساعة السادسة للساعة الثامنة حتماً فيها بيع وشراء، قد يحصل في هذه الساعتين مئة ليرة، مئتين، ستمئة، بحسب نوع

العمل، فلما أغلق المحل، وذهب إلى المسجد، ليحضر مجلس العلم، فكأنما دفع شيئاً من المال، كان من الممكن أن يقبض هذا المال، ها هو يمتنع عن قبض هذا المال فكأنما دفعه في سبيل الله، فلذلك حضور مجلس العلم من نوع تأدية زكاة الوقت، والقصص حول التوفيق الذي يناله الإنسان إذا ضحى بوقته، من أجل معرفة ربه، لا تعد ولا تحصى.

فالتوبة؛ علم وحال وعمل، علم لا بد من أن تعرف شرع الله، من أجل أن تقيس أعمالك بهذا الشرع، الشرع مقياس في كسب المال، في إنفاق المال، في العلاقات الاجتماعية، في الحواس الخمس، كيف أنظر؟ كيف أغض بصري؟ ماذا أسمع؟ ماذا ينبغي أن أسمع؟ ماذا ينبغي ألا أسمع؟ لا بد من معرفة أوامر الشرع، فالتوبة من أركانها العلم.

وركنها الثاني: الحال، يعني لا بد من أن يشعر التائب بندمٍ شديد على ما مضى من ذنوب، هذا الندم يؤكد صحة توبته، وهذا الحال حال الندم، لا بد من أن ينقل الإنسان إلى حالٍ آخر، أو إلى عمل، ينطلق إلى طاعة الله، يلغي كل معصية، كل مخالفة، يصحح كل مخالفة متعلقة بحقوق العباد، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

[سورة الأحقاف الآية: ٣١]

هذه (من) للتبعيض، يعني يغفر لكم بعض ذنوبكم المتعلقة فيما بينكم وبين الله عزَّ وجل، الذنب الذي بينك وبين الله، الله سبحانه وتعالى يغفره، ولكن الذنب الذي بينك وبين العباد، لا بد من أن يغفر لك العباد، لهذا جاء في قوله تعالى:

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

[سورة الأحقاف الآية: ٣١]

فلا بد من علم، ولا بد من حالٍ، ولا بد من عمل، النبي عليه الصلاة والسلام أوتي جوامع الكلم، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((النَّدَمُ تَوْبَةٌ))

[أخرجه أحمد في مسنده]

ومعنى:

((النَّدَمُ تَوْبَةٌ))

يعني لخص العلم، والحال، والعمل بكلمة واحدة، وهذه من روائع إيجازه: لا بد من علمٍ أوجب الندم، ولابد من حالٍ دفع إلى العمل، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((النَّدَمُ تَوْبَةٌ))

لمجرد أن تندم، معنى ذلك: أنك قد علمت أن هذه مخالفة للشرع، ولمجرد أنك قد ندمت، تعقد العزم على ألا تعود إلى مثلها ثانية، وانتهى الأمر.

إليكم هذا الحديث الذي يصب في معنى هذا البحث:

أيها الأخوة، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، قَالا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ، نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ، حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ؟))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

فإذا سألني أخ سؤالا واقع في مشكلة عويصة، أو أزمة، أمامه شبح مصيبة، خائف من جهة، أقول له: عليك بقيام الليل، صلِ ركعتين قبل الفجر، واسأل ربك في السجود، هذه الحاجة، أخذاً من هذا الحديث:

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ، نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ، حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ؟))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

رب العزة، خالق السموات والأرض، مَن بيده ملكوت السموات والأرض، من بيده كل البشر؛ كبيرهم وصغيرهم، قويهم وضعيفهم، خطيرهم وحقيرهم بيده، وأنت واقع بمشكلة مع أحدهم، اسأل ربك:

لا تسألن بني آدم حاجة وسل الذي أفضاله لا تحجب

إذا سئل الإنسان يغضب، وربك سبحانه وتعالى يغضب إن تركت سؤاله، الليل جعله الله عزَّ وجل، لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً، فمن أحب أن يشكر ربه عزَّ وجل على نعمة الإيمان، على نعمة الصحة، على نعمة الزواج.

كان السلف الصالح، إذا واجه نعمة، لها سجود الشكر، واحد تزوج، ليلة العرس، رأى في زوجته كمالاً وصلاحاً، رآها كاملة في الخلق، وصالحة في الأخلاق، فصليت ركعتين شكراً لله على نعمة الزوجة الصالحة، فلما سلمت وجدتها تصلي بصلاتك، وتسلم بسلامك، وتشكر شكرك، فإذا واحد الله عزَّ وجل كَمَّله، سلَّم له صحته، زوجته كما يريد، أولاده أبرار، ساكن في بيت يأويه، متدفئ، شبعان، قم في هذا الليل، اشكر ربك عزَّ وجل على هذه النعمة، فلعل الله سبحانه وتعالى لا يزيحها عنك، الشكر على النعمة أمانٌ من زوالها، قال تعالى:

(لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً)

[سورة الفرقان الآية: ٦٢]

لك عنده حاجة، راغب في شكره، راغب في مغفرته، لك عنده قضية، خائف من جهة، واقع في ورطة، قضية معسَّرة، لا تجد بيتًا، لا تجد زوجة صالحة، جاء التحليل أن في معك نسبة عالية، في الجسم موضع يحتاج لعملية، مشكلة بالبيت مع زوجتك، مع أولادك بعملك، اسأله، إن الله يحب أن تسأله حاجتك، من لا يدعني أغضب عليه، إن الله يحب من عبده، أن يسأله شسع نعله إذا انقطع،

اسأله يا أخي، اسأله وترجاه، باب عظيم، فلما يكون للإنسان علاقة مع الله مباشرةً، معنى هذا أنه عرفه، صدق القائل:

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميتُ

من تتمة معاني هذا الحديث: يا عبادي إنكم تخطئون.......أغفر لكم:

يقول الله عزَّ وجل:

((يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ))

الواحد لا يطل في الذنب، إذا غلطت اليوم، فاستغفر في العشي، لا ينام على معصية، زلت قدمه، العصر يستغفر، إذا نام ينام على طاعة، خرج من بيته وقع بمشكلة، رأساً يدخل لمسجد يصلي، ويتوب لله عزَّ وجل، هكذا المؤمن مذنب تواب، وربنا عزَّ وجل يفتح لك باب التوبة على مصراعيه، ولا تعرف، ولا تذوق طعم التوبة إلا إذا كنت تائباً، تشعر نفسك خفيفًا، والله أنا أشعر أن المذنب ثقيل، وكأن جبال وكوابيس فوق أكتافه، جبل فوق صدره جاثم، والتائب خفيف، يقول لك: دبر ألا تدبر، أنا إن شاء الله على طاعة الله، وعلى الله الباقي، هذا الشعور بالأمن، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٨١]

(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٨٢]

الشعور بالأمن، أن تشعر أن خالق الكون راضٍ عنك، والله هذا الشعور لا يقدر بثمن، تحس حالك إنسان آخر، أنت غالي على الله، قال تعالى:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور الآية: ٤٨]

أنت في ظلّه، لأنك مطيعٌ لأمره، أنت في ظله، أنت في حمايته، أنت في رعايته، تحس في عناية، صدق القائل:

وإذا العناية لاحظتك جفونها نم فالمخاوف كلهن أمان

تشعر أن الله معك؛ يسددك، يكرمك، يتجلى على قلبك، يوفقك، يلهمك القول السديد، والموقف الصحيح، هذا الشر صرفه عنك، هذا الموقف نجاك عنه، هذه الأزمة خلصك منها، تحس بمعاملته، فالإنسان متى يثبت في الحق؟.

يثبت في الإيمان، حينما يشعر أن الله معه، وإذا كان الله معك فمن عليك؟ تخاف من مَن؟ إذا كان الجندي أبوه قائد الجيش، هذه الرتب كلها لا يخاف منها، والده أعلى قائد بالجيش، إن رأى ملازمًا، إن رأى مثلاً نقيبًا، يحس بطمأنينة عجيبة، هكذا حال المؤمن، قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ)

[سورة هود الآية: ٥٥]

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود الآية: ٥٦]

كل هؤلاء الدواب آخذٌ بناصيتها، قال تعالى:

(إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود الآية: ٥٦]

فلذلك: باب التوبة مفتوح، وربنا عزَّ جل ينتظر أن تتوب إليه.

لو يعلم المعرضون انتظاري لهم، وشوقي إلى ترك معاصيهم، لتقطعت أوصالهم من حبي، يا داود، هذه إرادتي في المعرضين، فكيف إرادتي في المقبلين؟.

هذا المعرض الذي يعصي، يسب الأديان، هذا المعرض لو يعلم انتظار الله له، وشوقه إلى ترك معاصيه، لتقطعت أوصاله من حبه، ولماتوا شوقاً إلي، يا داود، هذه إرادتي في المعرضين، فكيف إرادتي في المقبلين؟ فربنا عزَّ وجل يقول:

((يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ))

ماذا ننتظر؟ لا بد للإنسان ألا ينام الليل لهذا الحديث، لا يتأخر ثانية في التوبة إلى الله عزَّ وجل، من أعماقك: يا رب تبت إليك توبة نصوحا، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحاً عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِير)

[سورة التحريم الآية: ٨]

الإنسان يغلب الشيطان بالاستغفار، عوِّد نفسك الاستغفار، كلما زلت قدمك قل: يا رب اغفر لي ذنبي، إن لم تغفر لي، فمن يغفر لي؟ يعني النبي عليه الصلاة والسلام علمنا كيف نستغفر الله عزَّ وجل؟.

هذا الحديث مهم، لأن فيه فقرات دقيقة جداً، فقرة متعلقة بالهداية، فقرة متعلقة بالرزق، فقرة متعلقة بالعبودية، فقرة متعلقة بالاستغفار.

رسالة من عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري:

وإلى سيرة سيدنا عمر رضي الله عنه.

العجيب تدخل قصر العدل، تجد وراء القاضي وصية سيدنا عمر لأبي موسى الأشعري، هذه الوصية تعد دستوراً للقضاة، أصحاب رسول الله من أي جامعة تخرجوا؟ ما الشهادة التي نالوها؟.

إنسان عاش في الصحراء؛ النبي عليه الصلاة والسلام علّم أصحابه، فكان أصحابه أبطالاً، يسمى عصر النبي عليه الصلاة والسلام: عصر الأبطال.

سيدنا عمر يرسل كتابًا إلى أبي موسى الأشعري، يعد هذا الكتاب دستوراً للقضاة حتى الآن، حتى أكثر الأحكام الشرعية في القضاء مأخوذة من هذه الوصية، يقول: ((من عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس سلامٌ عليك، أما بعدُ؛ فإن القضاء فريضة محكمة، وسنةٌ متبعة، فافهم إذا أُدْلي إليك، -يعني القاضي ومن قام مقام القاضي.

أحياناً يكون المتهم، يتكلم عن أحداث المشكلة، والقاضي يفكر بالغداء، هذه مشكلة، فعَنْ أبِي بَكْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَقْضِي الْقَاضِي بَيْنَ اثْنَيْنِ، وَهُوَ غَضْبَانُ، قَالَ هِشَامٌ فِي حَدِيثِهِ: لَا يَنْبَغِي لِلْحَاكِمِ أَنْ يَقْضِيَ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَهُوَ غَضْبَانُ))

[أخرجه ابن ماجه في سننه]

حملوا على ذلك، إذا كان جائعًا، أو إذا كان غضبان، أو إذا كان معه مشكلة، فلا بد من الصفاء، لابد من التفهم.

قلت لكم مرة: الحجر الذي ضج بالشكوى إلى الله عزَّ وجل، قال:

((يا رب عبدتك خمسين عاماً، وتضعني في أس كنيف، فقال: تأدب يا حجر إذ لم أجعلك في مجلس قاضٍ ظالم))

والحديث النبوي الشريف، عَنْ بُرَيْدَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، رَجُلٌ قَضَى بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَعَلِمَ ذَاكَ، فَذَاكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ لَا يَعْلَمُ، فَأَهْلَكَ حُقُوقَ النَّاسِ، فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ، فَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

واحد قرأه لي خطأ من يومين، قال لي: قاضيان إلى النار، وقاضٍ إلى جهنم، يعني الثلاثة إلى النار، هو:

((الْقُضَاةُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ، رَجُلٌ قَضَى بِغَيْرِ الْحَقِّ، فَعَلِمَ ذَاكَ، فَذَاكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ لَا يَعْلَمُ، فَأَهْلَكَ حُقُوقَ النَّاسِ، فَهُوَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ، فَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

فقال له: فافهم إذا أدلي إليك حقوق العباد، الظلم يهتز له عرش الرحمن، -اسمع هذا الحديث، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ:

((اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

كافر، مجوسي، عابد صنم، ملحد، لا شأن لك، هذا عبد لله عزَّ وجل، عليك أن تعدل في حكمك.

أحياناً معلم، يأتيه طالبان صغيران متخاصمان، فيضرب الاثنان معاً، حطمت الطفل الصغير، واحد مظلوم، والثاني ظالم، ضرب الاثنين، وقال لهم: اخرجوا إلى خارج المدرسة، ماذا فعلت أنت؟ هذا طفل، هذا نفس، شك بالقيم كلها، حقد على الإنسانية، ما عمل شيئًا إلا أن رفيقه ضربه، جاء عندك، وعملك قاضي، قال لك: أستاذ هذا ضربني، افتح يدك، ضرب الأول والثاني، حتى على هذه الحادثة ظلم شديد.

أحياناً الأب يكرم ابنًا دون ابن، يعتني بابن دون ابن، النبي عليه الصلاة والسلام نهانا أن نميز بين أولادنا في القُبَل، أنت جربها إذا كان عندك ابن صغير قبِّله، وانظر إلى الثاني تجده ينظر إليك، وكأنه يزورك، ما تقبلني أنا، تحطمه، فهذا القضاء ليس على الذي يجلس على القوس، ولكن الأب قاض، المعلم قاض، مدير المعمل قاض، رئيس الدائرة قاض، عملياً القاضي يفصل بين المرؤوسين، فلما يميل الإنسان فقد قال الله عزَّ وجل:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ)

[سورة الأنعام الآية: ٨١]

انظروا الأمن، قال تعالى:

(إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٨١]

(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٨٢]

نفهم من الآية: أن هناك مَن يؤمن بالله، ويلبس إيمانه بظلم، هذا لن يكون آمناً في حياته، ما دام في ظلم، أحياناً زوجتان، ظلم واحدة منهن، أحياناً ولدان، أو بنتان؛ بنت أخذ لها بيتًا، واعتنى بزوجها، والثانية لا يحب زوجها، هذه يكرمها، وتلك لا يكرمها.

أحياناً الحمو تظلم الكنة كثير، إذا تجدها ابنتها حريصة عليها، إذا تأخرت بالنوم تقول: مسكينة تعبت، أما إذا الكنة تأخرت، مثل القردة، لماذا إلى الآن متأخرة بالنوم؟ هذا ظلم كبير، فهذا الكلام ليس للقاضي فقط، للحمو، للزوج، للأب، للمعلم، لرئيس الدائرة، كل إنسان تحت يده في عشرة، خمسة-.

فقال له: فافهم إذا أدلي إليك، وأنفذ إذا تبين لك، -إذا أدلى لك الخصم فافهم تمام، اطلب الأدلة.

التنفيذ ضروري جداً، فمما يذهب قيمة العدالة عدم التنفيذ، قرار صدر لا بد من سرعة التنفيذ، فإنه لا ينفع حقٌ لا نفاذ له، القرار ما عاد له قيمة، إذا أنت حكمت على فلان، وفلان ما تنفذ فيه الحكم، ما عاد للقرار قيمة- قال له: فافهم إذا أدلي إليك، وأنفذ إذا تبين لك، فإنه لا ينفق حقٌ لا نفاذ له، آسي بين الناس في مجلسك ووجهك.

رسالة من أحد الولاة إلى عمر بن الخطاب:

-قيل: إن سيدنا عمر، جاءته رسالة من أحد الولاة، قال له:

((إن أناساً، قد اغتصبوا مالاً ليس لهم، لست أقدر على استخراجه منهم، إلا أن أمسهم بالعذاب، فإن أذنت لي فعلت؟. فقال له: ويحك أتستأذنني في تعذيب بشر؟ وهل أنا لك حصنٌ من عذاب الله؟ وهل ينجيك رضائي من سخط الله؟ أقم عليهم البينة، فإن قامت، فخذهم بالبينة، ثم ادعهم للإقرار، فإن أقروا، فخذهم بإقرارهم، ثم ادعهم لحلف اليمين، فإن حلفوا فأطلق سراحهم، وايم الله لأن يلقوا الله بخياناتهم، أهون من أن ألقى الله بدمائهم))

من روائع التاريخ:

يروى أن سيدنا عمر، كان إلى جانبه سيدنا علي، جاء رجل يهودي يرفع قضية على سيدنا علي، ماذا فعل سيدنا عمر؟ قال له:

((قم يا أبا الحسن فقف إلى جنب الرجل، -لأنه آس بين الناس في مجلسك ووجهك، فسيدنا علي غضب، ليس له حق يغضب، هذا قضاء، حكم بالقضية لسيدنا علي، لأن الحق كان مع سيدنا علي- قال له: يا أبا الحسن أوجدت علي؟ قال له: نعم، -ما هو الموضوع؟- قال له: لم قلت لي: يا أبا الحسن، ولم تقل لي: يا علي؟ لقد ميزتني عليه))

إذا قال القاضي للواحد: أبو فلان، ما هو الموضوع، اذكره لنا؟ تفضل، هذا كرسي، والخصم الثاني واقف: ما هو الموضوع؟ ما هو اسمك أنت؟ هذا القاضي وقع في إثم كبير، اسم باسم، اقعد اقعد، قف قِف، عبوس عبُوس، طلاقة وجه، طلاقة وجه، واحد تفضل اقعد، وواحد عبس في وجهه، واحد أبو فلان، وواحد ما هو اسمك أنت؟ هذا ظلم.

من ذاكرة التاريخ:

يروى أنه في العهد الأموي، كان أحد القضاة، عُرف أنه يحب الرطب، بل يحبه في بواكيره، في أول ما يثمر، فمرة طرق الباب، جاء رجل، فقدم لهذا القاضي طبقًا من الرطب، فسأل:

((من جاء بهذا؟. قال له الخادم: جاء رجل شكله كذا وكذا، فعرف القاضي أن هذا الرجل أحد الخصوم في قضية عنده، فردَّه له، ما قبض، وثاني يوم ذهب إلى أمير المؤمنين وقال له: أعفني من هذا المنصب، لمَ؟. قال له: والله لا أريد، فبعد أن ألح عليه، قال له: والله حدث معي البارحة كذا وكذا، فأنا رددت الطبق، لكن تمنيت في اليوم الثاني، أن يكون الحق مع الذي قدم الطبق، فقط تمنيت، وقد رددته، فكيف لو أخذته؟ -الطبق رده ولم يأخذه، ولكنه تمنى في اليوم الثاني، أن يكون الحق مع هذا الذي قدم هذا الطبق- قال له: هذا مع أني رددته، فكيف لو قبلته؟))

فالعدالة دقيقة جداً، وربنا عزَّ وجل هو الحق.

يقولون: إنه في الحرب العالمية الثانية، إحدى الدول المهزومة بالحرب، رئيس وزارة التفت لأعضاء المجلس، وسألهم واحِداً واحداً قال له: كيف الوضع عندك يا فلان؟ قال له: المعامل كلها مهدمة، كيف الوضع عندك؟ قال له: في إفلاس عام، كيف الوضع؟ فالتفت إلى مَن بيده أمور العدل قال له: وكيف العدل عندك؟ قال له: بخير، فقال: نحن جميعاً بخير، مادام العدل صحيحًا، فنحن جميعاً بخير-.

من وصايا عمر في القضاء:

١-موضوع البينة:

قال سيدنا عمر: آس بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريفٌ في حيفك، ولا ييأس ضعيفٌ من عدلك، البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر.

-يعني عبء تقديم الأدلة على المدعي، والمدعى عليه إذا أنكر، فلك أن تدعوه لحلف اليمين الحاسمة، وهذه اليمين الحاسمة يمين غموس، ومعنى غموس: أن الإنسان لو حلف كذباً، لاقتطاع حق امرئ مسلمٍ، فقد غمس في النار، وهذه اليمين الغموس ليس لها كفَّارة، لماذا؟ لأنها تخرج صاحبها من الإسلام، الموت ما له دواء، مات، الدواء لواحد فيه حياة، فيه أمل، الكفارة ليمين منعقدة، أما اليمين الغموس فلا كفارة لها، لأنها تغمس صاحبها في النار، يحتاج الإنسان بعدها إلى تجديد إسلامه، يشهد الشهادتين مرة جديدة.

وربنا عزَّ وجل أحياناً، الإنسان يسمع حوادث، أن هذا حلف يمين، وما صار له شيء، مضت ثماني سنوات أخذ المليون، وما صار له شيء، وإنسان لا يتخطى باب المحكمة إلا ويقع مفلوجًا، يا ترى ما هذه وما تلك؟ ربنا عزَّ وجل قال:

(فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٣٧]

وقال في آية ثانية:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

[سورة الأنعام الآية: ١١]

(ثم، والفاء)، قد تكون الحكمة: أن الله سبحانه وتعالى، يعاقب هذا الذي حلف يميناً غموساً في الساعة نفسها، وقد تكون الحكمة أن يمد له، يعطيه فرصة، فهذه من حكمة الله عزَّ وجل-.

فالبينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصلح جائزٌ بين المسلمين، إلا صلحاً أحل حلالاً أو حرم حراماً.

-كل عقد خلاف نص القانون باطل، اعمل عقدًا مع إنسان على دكان، أن هذه إجارة سنة واحدة، تقدر تقيم دعوى على إنسان؟ لأن هذه المادة خلاف القانون، المحل التجاري لا يخلف، لأنه مدفوع فروغ، مليون فروغ، وتريد إخراجه انتهى العقد، يجب أن يأخذ فروغ أولاً ليبيع هذا المحل، كل عقد مخالف للقانون باطل، وهذه القاعدة: الصلح جائزٌ بين المسلمين إلا صلحاً أحل حلالاً أو حرم حراماً، يعني أي اتفاق بين المسلمين إذا كان مخالف لكتاب الله باطل-.

٢- مراجعة الحكم إذا ألبس عليه والعودة إلى الحق:

قال: ولا يمنعنك قضاءٌ قضيته بالأمس، فراجعت فيه نفسك، وهُديت لرشدك، أن ترجع إلى الحق. -أنا أعد الإنسان بطلاً، إذا تراجع عن خطئه، من علامات بطولته، من علامات رجولته، من علامات فهمه، من علامات ورعه، من علامات استقامته أن يقول: أخطأت بملء فمه.

سيدنا عمر على المنبر، وهو ثاني الخلفاء الراشدين، قال:

((أصابت امرأة وأخطأ عمر))

مكانته هي هي، ولكن الإنسان يغلط أحياناً، الإنسان غير معصوم.

فقال له: إذا ارتكب واحد غلطة يعتذر، يتراجع، يبين الصواب، فكل إنسان يتعنت، ويصر على خطئه، وعلى انحرافه، أو على أفكاره غير الصحيحة، فهذا إنسان غير عالم-.

قال: فلا يمنعنك قضاءٌ قضيته بالأمس، فراجعت فيه نفسك، وهديت لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم لا يبطله شيء.

-عوّد أن تتراجع عن خطأك مع أسرتك، مع أولادك، مع جيرانك، مع زبائنك، مع طلابك، تزداد عندهم رفعة، نصف العلم لا أدري، لا يوجد شيء اسمه: إنسان لا يخطئ، الأنبياء معصومون، الأولياء محفوظون، عامة الناس يصيبون ويخطئون، ما جاءنا عن هذه القبة الخضراء، سيدنا

رسول الله فعلى العين والرأس، وما جاء عن سواهم، فهم رجال ونحن رجال، كل إنسانٍ يؤخذ منه ويرد عليه، إلا صاحب هذه القبة الخضراء.

إن كنت ناقلاً فالصحة، مدعياً فالدليل، لولا الدليل لقال: مَن شاء ما شاء، عوِّد نفسك أن تطلب الدليل، لا تقبل من إنسان شيء إلا بالدليل، لا ترفض إلا بالدليل، أنت بذلك عالم، أما هذا الذي يقبل من غير دليل، هذا إنسان مقلد-.

٣- مراجعة الحق خير لك من التمادي في الباطل مع مثال عليه:

قال: ومراجعة الحق خيرٌ لك من التمادي في الباطل.

-لما كان سيدنا عمر مع سيدنا ابن عوف رضي الله عنهما، وشاهدوا قافلة قد جلست، تستريح في المدينة ليلاً، فقال له:

((تعال نحرس هذه القافلة، فسمع صوت طفلٍ يبكي، فنبه أمه أول مرة، والثانية، والثالثة، ففي المرة الثالثة قال لها: يا أمة السوء أرضعيه، قالت: إنني أفطمه، وعمر لا يفرض لنا العطاء، إلا إذا كان فطيماً. سيدنا عمر خاطب نفسه وقال: ويحك يا بن الخطاب، كم قتلت من أطفال المسلمين؟ ولما صلى الفجر بالمسلمين، يقول بعض أصحابه: أنهم ما فهموا قراءته أبداً، لشدة بكائه))

تبقى مكانتك هي هي، غلطت تتراجع، تبقى أنت حيث أنت، بل تزداد في نظر الناس رفعة-.

٤- بيان موضع الاجتهاد:

قال: الفهم الفهم، فيما تلجلج في صدرك، مما ليس في كتاب الله.

-إذا كان في قضية، فيها آية قرآنية، انتهى الأمر، لأنه:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: ٣٦]

إذا حرم الله الربا فهو حرام، انتهى الأمر، لا يوجد فلسفة هنا، أخي الوضع صعب، بعد ما ربنا عزَّ وجل حرَّم حرَّم، حلال حلال، حرام حرام، بينهما أمور مشتبهات، من ترك الشبهات، فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومَن حام حوى الحمى، يوشك أن يقع فيه، ألا وإن لكل ملكٍ حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، فالإنسان فيما فيه نص، لا اجتهاد في موطن النص، في قضية فيها نص، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور الآية: ٣٠]

هذه الآية ليست كما تقصد أنت، لأن الزمان صعب، والطريق كله نساء، والواحد شغلته مع النساء، أين يذهب بعيونه؟ قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور الآية: ٣٠]

لا اجتهاد في مورد النص، وإذا وُجد حديث صحيح شريف، انتهى الأمر، كذلك لا يوجد اجتهاد، أما قضية ليس فيها نص قرآني، ولا من السنة، الآن نحتاج للقياس والإجماع، الإجماع والقياس، هذان مصدران تشريعيان فرعيان، الأصيلان القرآن والسنة-

فقال له: الفهم الفهم، فيما تلجلج في صدرك، مما ليس في كتاب الله، ولا في سنة نبيك، واعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور عند ذلك.

-النبي قال:

((لا يقضي القاضي وهو غضبان))

قاس العلماء عليها: وهو جائع، وهو منزعج، هو حاقن، لا يجوز يقضي، هذا قياس، الخمر حرام، والحشيش حرام، وكل المسكرات حرام، يقاس عليها- اعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أحبها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى.

٥- إيجاد العذر للمدعي أول مرة ويسقط في المرة الثانية إن لم يأت ببينة:

قال: واجعل لمن ادعى حقاً غائباً.

-واحد ادعى واضطر يسافر، لأنه غاب أول جلسة الدعوى تسقط؟ لا، بل تعطيه تأخير شهر ثاني، اجعل لمن ادعى حقاً غائباً، أو بينة، أمداً ينتهي إليه، إذا غاب ثاني جلسة، تسقط الدعوى، ويصدر في حقه حكمٌ غيابي للمدعى عليه، فإن أحضرت، قال لك: أمهلني، أريد أن آتي لك بالوثيقة، مبلغ أنا دافعه، أين دافعه؟ عندي إيصال، والإيصال تركته بمكتبتي، نسيت أين هو، وأحتاج شهرا لأخرجه.

إذا طلب أحد الأطراف من القاضي تأجيل الدعوى لإحضار بينة، فعلى القاضي أن يفعل ذلك- فإن أحضر بينةً، أخذت له بحقه، وإلا استحللت عليه القضاء، فإن ذلك أنفى للشك، وأجدى للعمى، وأبلغ في العذر.

٦- المسلمون عدول في الشهادة:

قال: المسلمون عدولٌ في الشهادة، -الأصل في الحياة: أن الإنسان بريء ما لم يتهم، الأساس أنه بريء ما لم يتهم- فالمسلمون عدولٌ في الشهادة بعضهم على بعض، إلا مشدوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاءٍ أو قرابة.

-شريح القاضي، جاءه سيدنا علي رضي الله عنه، يدعي على يهودي اغتصابه درعاً له، سيدنا علي عنده درع ثمينة جداً، افتقدها، رآها مع يهودي، قال:

((هذه لي، قال: كلا، بل هي لي، -اختصموا وهو أمير المؤمنين- رفع الأمر إلى شريح القاضي، فقال له: يا أمير المؤمنين البينة، أو شاهداك، فجاء بشاهد وهو غلامه، وجاء بابنه سيدنا الحسن، فقال له: أما غلامك فشهادته مقبولة، وأما الحسن فشهادته مرفوضة، قال له: النبي عليه الصلاة والسلام بشره بالجنة))

-مرفوضة.

الآن القاضي لا يأخذ بشهادة الابن، طبعاً هذه الشهادة من مصلحة أبيه، ولا البنت، ولا الزوجة، ولا الأب، ولا الأخ، ولا الأخت، عندنا مجموعة أقارب لا تقبل شهادتهم، لأنه قطعاً هذه الشهادة لمصلحة الأب، هو حكم لليهودي أن الدرع له، ما في بينة كافية، يقال أن اليهودي أسلم، أنه أنا أقف مع أمير المؤمنين أمام قاض، ولأن القضية تفتقر إلى شاهد، صار الحكم لي، أعلن إسلامه-.

فالمسلمون عدولٌ في الشهادة بعضهم على بعض، إلا مشدوداً في حد، أو مجرباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاءٍ أو قرابة، ولاء أو قرابة، -الآن الشريك مع شريكه، يمكن القاضي يرفض أن يشهد الشريك لشريكه في مصلحة بينهما، شريك، أخ، صديق، إذا كان في علاقة في مصلحة، الشهادة مرفوضة-.

٧- إليكم شرح بقية الوصية:

قال: فإن الله قد تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم الشبهات، وإياك والقلق، والضجر، والتأذي بالناس.

-إذا أحب الله عبداً، جعل حوائج الناس إليه، فالإنسان لا يتأذى، لا يضجر، لا يتبرم، لا يتململ، لا يسأم، فإذا سئم، ما عرف أن الله سبحانه وتعالى ساق هذا الخير إليه، ورفعه بهذا، يمكن أن تنفر الناس منك وترتاح، لا أحد يطرق بابك أبداً، ولا أحد يكلفك بعمل، لكن عند الله عندئذٍ لن تكون رضياً-.

قال: وإياك والقلق، والضجر، والتأذي بالناس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر.

-القضية تحتاج لكشف، لا أطلع، اذهب يا أخي، قال لك: تحتاج لكشف، اطلع اكشف على البيت، أحياناً يكون القرار غير صحيح، حتى لا يبذل القاضي جهدا، هذا محاسب عليه، يقرأ المذكرات كلها قراءة دقيقة جداً-.

قال: فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى، يكفه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزيَّن للناس فيما يعلم الله خلافه منه، شانه الله، وهتك ستره، وأبدى فعله.

-كل إنسان يحب أن يكون له موقف أمام الناس جيد، أما هو على خلافه، الله عزَّ وجل يفضحه في عقر داره، لذلك الدعاء الذي يقطع الظهر:

((اللهم إني أعوذ بك، أن أتزين للناس بشيءٍ يشينني عندك، وأعوذ بك أن أقول قولاً فيه رضاك، أرجو به أحداً سواك، وأعوذ بك أن يكون أحدٌ أسعد بما علمتني مني، وأعوذ بك أن أكون عبرةً لأحدٍ من خلقك)) تتزين للناس بشيء، وأنت عند الله لست مقبولاً، هذه مشكلة، ومصيبة كبيرة.-

قال: فما ظنك بثوابٍ عند الله في عاجل رزقه، وخزائن رحمته؟ والسلام))

طبعاً لو كلفنا مختصين بالقضاء، ليشرحوا هذه الوصية، لاحتاجت إلى سنوات، هذه دستور إن صح التعبير في أصول المحاكمة، هذه الرسالة محورها أصول المحاكمات، أخلاق القاضي، صفات القاضي، حقوق المتخاصمين، المدعي، المدعى عليه، هذه رسالة، لذلك الإنسان كلما اقترب من الله عزَّ وجل نور الله قلبه، وكشف عن بصيرته.

موقف أخير لعمر بن الخطاب:

يروى أنه دخل على سيدنا عمر وفد من المجاهدين، كانوا يفتحون تكريت وجلولاء، فرأى جسومهم ضامرة، ووجوههم شاحبة، فيسألهم عن سبب ضعفهم، فيجيبونه:

((لأنها بلادٌ رطبة، فكتب لسيدنا سعد، يأمره أن يحسن اختيار مكانٍ يلائم الناس، ويرسم له الطريق فيقول: ابعث سلمان رائداً وحذيفة، فليبحثا عن منزلٍ، ليس بيني وبينكم فيه بحرٌ ولا جسر، وادع أبا زياد بن مالك، وأمره أن يجعلها مناهج - يعني شوارع - عرض مكلٍ منها أربعون ذراعاً، وأخرى عرض كل منها ثلاثون ذراعاً، وأخرى عرض كل منها عشرون ذراعاً))

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٢٠-١٠١) : باب المجاهدة -٦- (تتمة الحديث القدسي: يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري.....إلا نفسه، سيرة عمر بن الخطاب).

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-١١-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم شرح الجزء المعني من هذا الحديث: ((يا عبادي، إنكم لن تبلغوا....... فتنفعوني)):

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا في الحديث القدسي، عَنْ أبي ذرٍّ، عَنْ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا

رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، أَنَّهُ قَالَ:

((يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ))

إلى هنا تم شرحه في دروس سابقة.

نتابع الحديث:

((يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

أيها الأخوة الأكارم،

((يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي))

هكذا يقول الله تبارك وتعالى، الإنسان أعلى درجة يمكن أن يصلها هي مرتبة العبودية لله عز وجل، وإذا وصلت هذه المرتبة، فيجب أن تعلم علم اليقين: أنك لا تملك شيئاً، رحم الله عبداً عرف قدره فوقف عنده، كل إنسان فيه ضعف من إيمان، ربما تجاوز قدره، وقدره عبوديته لله عز وجل،

لذلك لو فكر الإنسان في نفسه، فكر في جسمه، لرأى أن حياته متوقفة على آلافِ آلاف الأجهزة، والأعضاء، والخلايا، والأنسجة، والغدد، فلو أن شيئاً من هذا تعطل، لانقلبت حياته إلى جحيم، فمجرد أنك إذا استيقظت، ترى أنك في صحة طيبة، هذه نعمة، ولكن ليست بذكائك، وليست بجهدك، وليست من فرط عنايتك بنفسك، إنما هي من رحمة الله عز وجل، ولطفه بك، نعمة الصحة، فهناك مَن هم أذكى منك، ظهر في بعض أنحاء أجسادهم ورم خبيث، انتهى الأمر، هناك أشخاص أكثر حيطة منك، تعطلت بعض أجهزتهم، أحياناً تتعطل الكلية فجأة، هبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، انتهت، أصبحت الحياة قطعة من الجحيم، فإذا دقق الإنسان في خلقه، يرى أنه لا يملك شيئاً، يؤكد هذا قول الله عز وجل:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

[سورة آل عمران الآية: ٢٦]

من الذي يملك هذه العين؟ القرنية، الملتحمة، القزحية، الجسم البللوري، الخلط الزجاجي، الشبكية، عشر طبقات للشبكية، مئة وثلاثون مليون عصيّة، سبعة ملايين مخروط، أربعمائة ألف عصب، مركز الرؤية بالدماغ؟ هذه العين مَن يملكها؟ تسمع أحيَاناً سقوط الشبكية، أحياناً تتعطل بعض العضلات في العين، قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

[سورة آل عمران الآية: ٢٦]

العين، والأذن، واللسان، والدماغ، والذاكرة، والأعصاب، والعضلات، فهناك أمراض لا تعد ولا تحصى، أمراض العظام، أمراض العضلات، أمراض الجلد، أمراض العين، أمراض الأذن، أمراض اللسان، أمراض الدماغ، أمراضٌ لا تعد ولا تحصى، فلما يكون الإنسان بحالة طيبة، فهذه نعمة لا يعرفها إلا مَن فقدها، لذلك:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ)

[سورة آل عمران الآية: ٢٦]

فأنت مفتقر إلى الله عز وجل، صدق القائل:

وما لي إلى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع

وما لي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا ردت فأي باب أقرع

مقام العبودية، يجب أن تعرف، أن الذي أعطاك، هو الله سبحانه وتعالى، وأن هذا الذي أعطاك محض فضلٍ منه، ولا حيلة لك بشيء، لكن إذا كنت مطيعاً لله عز وجل، فربنا سبحانه وتعالى، يحفظك في الدنيا والآخرة،

((يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي))

لما قال ربنا عز وجل:

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

[سورة محمد الآية: ٧]

كيف نوفق بين هذه الآية:

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

[سورة محمد الآية: ٧]

وبين قول الله عز وجل في هذا الحديث القدسي:

((يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي؟))

التوفيق: أن الله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن أن تنصره، غني عن نصرك، ولكنك إذا وقفت موقفاً تثبت فيه الحق، وضحيت بجزء من طمأنينتك، إذا وقفت موقفاً فيه دعمٌ للحق، ورد على الباطل، هذا الموقف ربما ثبَّت الحق بين الناس، عندئذٍ ربنا سبحانه وتعالى، يرفع من شأنك، وينصرك على مَن تخاف منه، فلذلك إذا نصرت الله عز وجل، فهذا النصر لا يعني أن الله مفتقر إلى هذا النصر، يعني أنك قطعت امتحاناً صعباً، تستحق من أجله العطاء من الله عز وجل، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾

[سورة محمد الآية: ٧]

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾

[سورة الحج الآية: ٧٤]

هو قويٌّ، وليس مفتقراً إلى أن تنصروه، ولكنك إذا نصرتموه، نلتم منه المرتبة العليا، والسعادة الأبدية.

(يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي): الصلاة لك، وأقم الصلاة لذكري، الصلاة من أجل أن تتصل به، من أجل أن تستنير بنوره، فالصلاة والصوم، والحج، والزكاة، كلها تعود عليك في النهاية، فهذه العبادات أوامر الدين، وهي ليست موانع تحد من حريتك، إنما هي ضماناتٌ لسلامتك، فإذا أطعته، ما زدت أن فعلت الخير لنفسك، وإذا عصيته، ما زدت إلى أن سببت التعاسة لنفسك، لن تفيده بطاعتك، ولن تضره بمعصيتك، طاعتك لك، ومعصيتك عليك، قال تعالى:

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾

[سورة البقرة الآية: ٢٨٦]

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾

[سورة الروم الآية: ٤٤]

طاعتك لله، عبوديتك له، انصياعك لأمره، ابتعادك عن نهيه، هذا عائدٌ عليك في النهاية، والله غنيٌ عن طاعتك، ولا تضره معصيتك.

إليكم شرح الجزء الأخر من الحديث: ((يا عبادي، لو أن أولكم........ملكي شيئاً)):

الآن:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا))

لكن الله سبحانه وتعالى يريد أن نؤمن، فقال:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

[سورة الزمر الآية: ٧]

فالرحيم يفرح إذا رحم الآخرين، لكنه قد يكون في غنىً عن مدحهم، أو لا يؤذيه ذمهم، لكنه إذا رحمهم يسعد، هذا الإنسان الطيب الكريم، ربنا عز وجل يرضى إذا آمن العباد، ويمقتهم إذا كفروا به، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

[سورة غافر الآية: ١٠]

مقت الله عز وجل لهذا الإنسان المعرض في الدنيا، أشد من مقته لنفسه يوم القيامة، الإنسان يوم القيامة حينما يرى مكانه في النار، وحينما يرى خسارته الأبدية، وحينما يرى كيف ضيَّع الدنيا في سفاسف الأمور؟ تأتيه حسرة لا توصف، هذه الحسرة يسميها مقتهم لأنفسهم، فربنا عز وجل يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

[سورة غافر الآية: ١٠]

من باب التقريب: أحياناً الابن يصر على ترك الدراسة، والأب بعد محاولات يائسة يدعه واختياره، لكن الأب متألم جداً لهذا الموقف من ابنه، لكن حينما يكبر ابنه، ويرى مقدار ما ضيَّع من ترك الدراسة، يتألم من نفسه، يقول له أبوه: أنا متألم ليس الآن، ولكن منذ أن رفضت الدراسة حينما كنت صغيراً، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ)

[سورة غافر الآية: ١٠]

فمعناها: أن ربنا عز وجل الآن يدعونا إلى الإيمان، يدعونا إلى التوبة، يدعونا إلى الصلح معه، فالذي يستجيب يسعد في الدنيا والآخرة، والذي لا يستجيب لا بد من أن يعتصر قلبه ندماً وأسىً، حينما تتكشف الحقائق.

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا))

لن ننفعه إذا آمنا، ولن نضره إذا عصينا، طاعتنا لنا، ومعصيتنا علينا.

إليكم هذا البيان من معنى هذا الحديث: ((يا عبادي، لو أن أولكم......البحر)):

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

مثل رائع جداً: إذا ركبت قاربًا، وأمسكت بإبرة، وغمستها في مياه البحر، ثم رجعت فاسترجعتها، ماذا حملت من ماء البحر؟ هذا الذي حملته ما نسبته إلى ماء البحر، البحر المحيط الهادي أكبر المحيطات العالم، هناك واد اسمه؛ وادي مريانة، هذا الوادي أعمق نقطة في البحار، أعتقد اثني عشر ألف متر وزيادة، فإذا كانت أربعة أخماس الأرض بحارًا، وأعمق نقطة اثنا عشر ألفًا، فكم هي مياه البحار؟ كم حجمها؟ كم متر مكعب؟ إذا كان البحر المتوسط هذا بحرًا محاطًا، هو محاط بأوروبا، وآسيا، وإفريقيا، لكن البحار الكبرى اسمها المحيطات، البحر محيط بإفريقيا، محيط بآسيا، محيط بأمريكا، فالبحر المحيط كبير جداً، أربعة أخماس الأرض بحار، إذا غمست إبرة في مياه البحر، ثم سحبتها، فانظر بما ترجع من مياه البحر، وهذا الذي رجعت به، كم يساوي من مياه البحر؟

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ))

إذاً: تقنين الله عز وجل تقنين تأديب، لا تقنين عجز، الإنسان إذا قنن، كان تقنينه عجزًا، يكون دخله محدودا، ينفق بشكل مدروس، أحياناً يكون عجز في بعض المواد الأولية، فيصير فيها تقنين، أحياناً عجز بالمولدات الكهربائية، يصير فيها تقنينًا، فالتقنين البشري تقنين عجز، ولكن التقنين الإلهي تقنين تأديب، تقنين معالجة، وربنا عز وجل من حين إلى آخر يرسل شيئاً من فضله، نسمع أننا نستهلك بالعام حوالي مليون طن قمح، ولكن العام الماضي أنتجت أراضينا ثلاثة وربع، هذا الذي وصل إلى المستودعات الرسمية، أنتجنا ثلاثة أطنان، ثلاثة أمثال حاجتنا، فربنا عز وجل:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

[سورة الحجر الآية: ٢١]

كن فيكون، لذلك الأمطار، ممكن أن تُحبس، ممكن أن تأتي بكميات كبيرة جداً، تفيض الينابيع، تفيض الأنهار، الخيرات تمتلئ، وربنا عز وجل قال:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)

[سورة الجن الآية: ١٦-١٧]

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)

[سورة المائدة الآية: ٦٦]

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)

[سورة الأعراف الآية: ٩٦]

فالموضوع موضوع الرزق بيد الله عز وجل، ما له حدود، لذلك:

((يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي، إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

ماذا نستفيد من معنى هذا الحديث ؟

((إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ))

أنت لك عمل، النقطة المهمة: إذا الإنسان استمع وما فعل شيئاً، إذا آمن إنسان بشيء بديهي وما فعل شيئاً، إلى أن يبذل، إلى أن يعطي، أنت لك عند الله عز وجل لك إضبارة، فلان الفلاني ما أعماله؟ أما مستمع ممتاز، مستمع ممتاز لا يكفي، يجب أن يكون له عمل صالح، فحجمك عند الله بحجم عملك، قال تعالى:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام الآية: ١٣٢]

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة الآية: ١١]

وفي آية ثانية:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر الآية: ١٠]

هذا سؤال مهم، الإنسان يحاسب نفسه: أنا ماذا قدمت؟ ماذا قدمت لآخرتي؟ قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ)

[سورة الحشر الآية: ١٨]

ساعة الوفاة، ما العمل الصالح الذي يمكن أن أعرضه على الله عز وجل؟ يا ربي فعلت هذا من أجلك، يا رب أنفقت هذا المال من أجلك، يا ربي قدمت خدمات لفلان ولفلان من أجلك، يا رب وجهت زوجتي حتى أصبحت مؤمنة، هذا من أجلك يا رب، فعلت كذا وكذا مع أولادي، فعلت كذا وكذا مع أخواني.

هذا سؤال دقيق جداً، من أنت؟ ما عملك؟ قل لي ما عملك؟ أقل لك مَن أنت؟ ومع ذلك العمل صورة، روح العمل الإخلاص، فإذا كان العمل خاليًا من الإخلاص فلا قيمة له، الأعمال صور روحها الإخلاص، فإذا أكرم ربنا عز وجل أحدَنا بعمل صالح، وكان بهذا العمل مخلصاً، فقد فعل شيئاً ثميناً.

قال لي اليوم واحد: توفيت امرأة في هذه الأيام، هكذا قال لي، وتركت مئتي مليار دولار، عمرها ثمانية وثلاثون سنة، فما قيمة هذه المبالغ الطائلة؟ هي بنت أكبر غني في العالم سابقاً، وماتت، ولم تزد على ثمانية وثلاثين عاماً، هذا ليس عطاء، العطاء ما كان بعد الموت، لذلك الغنى والفقر بعد العرض على الله،

((إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ))

مرة حضرت تأبين متوفى، وكان شخصًا صالحًا، ولكن الذي أبّنه، لم يتمكن أن يتكلم عنه بشيء، هذا الإنسان فرضاً سافر، اعتنى في بيته، كان له ذوق رفيع بالطعام والشراب، كان عنده ميول للأشياء المباحة، لكن لما وضع في النعش، وجاء إنسان ليؤبّنه، ماذا يقول؟ كان أكله طيبًا، لا تتكلم على التأبين، بيته فخم، لا يحكى في هذا الموقف إلا العمل الصالح.

فالواحد منا يقول: إذا كان أنا وضعت في النعش، ووقف واحد لكي يؤبنني، ماذا سيقول؟ يكون عنده شيء يتكلم عنه، فعل كذا، وكذا، وكذا، فالقبر صندوق العمل، والدنيا ساعة فاجعلها طاعة، والنفس طماعة عودها القناعة، ومن عدَّ غداً من أجله، فقد أساء صحبة الموت، إذا كان متيقن أن غداً سوف يعيش، أحياناً ينسى أن يقول: إن شاء الله.

قال لي شخص من يومين: رجل من الأثرياء بالأربعينات، تمكن أن يشتري أراضي مئات الدنمات، بل بالآلاف، وعمر بيتًا فخم جداً بمصيف أحاطه بغابة من الصنوبر، وجعل في هذا البيت كل ما فيه راحة وطرب، وبيت بالشام، وسيارة، فعندما كان بالشام عدد سبع سيارات، عنده أفخر سيارة، جلس مع زوجته في البيت الجديد في الشام، قال لها: الآن أمّنا مستقبلنا، في تلك العشية كان ميتًا، بعدما سكن البيت أول يوم.

ربنا عز وجل يقول في الحديث القدسي:

((إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ))

أنا أتمنى على كل أخ، أن يكون موضوع الآخرة موضوعًا أساسيًا في حياته، إذا كان لك ساحة بالنفس، يكون هذا الموضوع محتلا أكبر مساحة من هذه الساحة، يمكن لإنسان أن يكون موضوع الآخرة محتلا جزءًا يسيرًا جداً.

((من أصبح وأكبر همه الآخرة، جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن أصبح وأكبر همه الدنيا، جعل الله فقره بين عينيه، وشتت عليه شمله، ولم يؤته من الدنيا إلا ما قدر له))

فهذا تفكير سديد.

لما ربنا عز وجل خلق العقل قال:

((أقبل فأقبل، ثم قال: أدبر فأدبر، قال عزتي وجلالي، ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، بك أعطي، وبك آخذ))

إذا أعمل الإنسان عقله إعمالاً صحيحاً، يهتدي قطعاً إلى أن طريق الاستقامة، والعمل الصالح، ومعرفة الله عز وجل، هو أسلم طريق، وأقرب طريقٍ إلى سعادته.

كما ذكرت في الخطبة السابقة: الإنسان أحياناً ينطلق من علاقة غير صحيحة، وضربت مثلا قريبًا من الذين عندهم سيارات، في السيارة مصباح لونه أحمر، هذا مصباح الزيت، إذا تألق فجأة، معنى ذلك: أن الوضع خطر جداً، زيت المحرك نفذ، فلو مشي خمسة أمتار أو عشرة، يحترق المحرك، يلزمه لإصلاحه ثلاثون أو أربعون ألف ليرة.

لو فرضنا شخصًا، تصور أن هذا المصباح، تألق في أثناء السفر، يتألق من حين لآخر، وظنه عاديا، فلما تألق، بدأ ينظر إليه، إلى أن احترق المحرك، بين هذا التصور الخاطئ، وبين ذاك التصور الصحيح، مسافة كبيرة جداً، الإنسان أحياناً في الدنيا، ينطلق من تصور خاطئ، إذا ظن أن الدنيا هي كل شيء، فهذه أكبر مقولة خاطئة، الدنيا ساعة، قال تعالى:

﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾

[سورة المؤمنون الآية: ١١٢-١١٣]

هذه الدنيا مهما طالت، تمر يوم القيامة كلمح البصر، إذاً: الإنسان ينطلق أحياناً من تصورات صحيحة أساسها العلم، العلم: علاقة ثابتة بين شيئين، مقطوع بصحتها، مطابقة للواقع، عليها دليل، هذا العلم، بعدم الدليل هو تقليد، من غير الواقع هو جهل، من غير قطع هو شك، ووهم، وظن، فلما يتحرر الإنسان من الشك، والوهم، والظن، والجهل، والتقليد، لم يبق في تصوراته إلا علاقة علمية واحدة، هي العلاقة الحتمية الصحيحة الواقعية، التي عليها دليل، عندئذٍ ينطلق إلى هدفه بشكل واضح تماماً، فأنت لك هدف، ولك حركة يومية، ما لم تنطبق هذه الحركة على الهدف، أو ما لم تتجه نحو هذا الهدف، فأنت في شقاء.

تعريف الشقاء: عدم تطابق الحركة اليومية مع الهدف، إن كان هناك تطابق، فأنت في سعادة، ليس هناك تطابق، فأنت في شقاء، الحركة اليومية؛ استيقظت صباحاً، واحد يستيقظ على الأخبار رأساً

يفتح، وإنسان على الصلاة، على القرآن، شتان بين هذا وهذا، انطلقت بالطريق، في الطريق نساء، هذه حركة يومية، المؤمن يغض بصره، إذا غض بصره، فهو يوفق حركته اليومية مع الهدف، مع طاعة الله، غير المؤمن يطلق بصره، معناها انحرفت حركته اليومية عن الهدف

دخل دكانه، عنده بضاعة كاسدة، جاءه زبون، وقال له: أنا لي ثقة فيك، يريد أن ينصحه، فيقول له: هذه أفضل شيء، ما بقى يأتي منها إطلاقاً، ما عاد يأتي منها، على قدر سوءها، لن يأتي منها، حركته اليومية بهذا المحل خلاف النصيحة، خالف النصيحة بالبيع، وخالف غض البصر في الطريق، وخالف في بيته العبادة.

هذه الحركة اليومية منذ أن تستيقظ، هل بدأت بالصلاة؟ هل بدأت بالقرآن؟ هل بدأت بذكر الله؟ هل بدأت بمعرفة الله؟ هل بدأت بالتكبير، والتحميد، والتسبيح؟.

النبي عليه الصلاة والسلام، لما دخل على السيدة عائشة في ليلتها، قال:

((ذريني أتعبد لربي، فقام توضأ، وصلى، فبلَّ لحيته، وركع، وسجد، فبلّ الأرض، ثم اضطجع إلى أن جاء بلال، يؤذنه بصلاة الصبح))

تطلب كأس ماء، تشاهد وردًا، تشاهد الجبل، ربنا عز وجل قال:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ)

[سورة النمل الآية: ٨٨]

هذه الحركة اليومية، النبي الكريم قال:

((أمرت أن يكون صمتي فكري، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

فحركتك اليومية بين استيقاظ، بين تناول طعام الفطور، ماذا كان قبل الفطور، ماذا كان الحديث في أثناء الفطور، كان في غيبة، ونميمة، فهل هناك علاقات لا ترضي الله عز وجل؟ هل هناك مخالفات؟ هل هناك معاص في الطريق؟ في البيت؟ في العمل التجاري؟ في العمل الوظيفي؟ في علاقتك مع النساء؟ علاقتك مع الرجال؟ مع الجيران؟ مع الأصحاب؟ في علاقتك مع الله عز وجل؟ إن جاءت الحركة اليومية مطابقة للهدف، فأنت في سعادة، فإن لم تأت مطابقة، فالإنسان في شقاء.

الأجانب عبروا عنها بتعبير آخر، يسمونها شعور الإنجاز، إذا كان عند الإنسان قضية وأنجزها، يشعر براحة كبيرة جداً، إذا اشترى صفقة، وباعها، وربح فيها، يشعر براحة، يفرح، يرتاح، لأن حركته تطابقت مع هدفه، فتح محل وربح، دخل جامعة ونجح، قدم طلبًا وتعين موظفًا سابقاً يفرح، لأنه يكون طموحه قد تحقق، فلما تكون حركةُ الإنسان متوافقة مع هدفه يشعر بالسعادة، فإذا كانت حركته الأساسية متوافقة مع هدفه الكبير، وهو: أن تعرف الله عز وجل، وأن تعبده، وأن تسعد بهذه

العبادة، فعندئذٍ الإنسان يشعر بسعادة لا توصف، لذلك السلامة والسعادة، مطلب كل إنسان في أي زمان ومكان، وهذان مطلبان ثابتان.

الإنسان يحتاج غير السماع، تكون له جلسة تأمل، يراجع حساباته، أين أنت من الإيمان؟ يا ترى أنت بأوله؟ بمنتصفه؟ بآخره؟ أين أنت من أمر الله؟ هل أنت مطبق له أم غير مطبق؟ أين موقعك؟ الإنسان أحياناً أين موجود الآن؟ أنا ببيتي، أنا بعملي، أنا بحانوتي، أنا بدائرتي، لو سافر لمدينة لا يعرفها، وركب مع صديق: أين الآن نحن؟ بالقسم الجنوبي، الشمالي، بالقسم العتيق، الجديد، بأولها، بآخرها، لا يعلم أين هو؟.

الإنسان يجب أن يعرف بالإيمان أين هو؟ أين موقعك؟ موقع متقدم، متأخر، متخلف، ضعيف، قوي، موضع فيه نفاق، فيه رياء، فيه إخلاص، الموقع مهم جداً، فلما يستهلك الإنسان وقته بسعي غير هادف، وبأعمال يومية روتينية رتيبة، ليس لها أي معنى، كل يوم مثل أمسِه، استيقظ باكرًا، أكل، ذهب إلى العمل، جاء بالعشاء، نام، سهر، تابع بعض المسلسلات، نام، استيقظ ثاني يوم بلا هدف، ولا حركة، ولا تقدم، فهذا الإنسان يكون في خسارة كبيرة جداً، والإنسان في الدنيا إذا خسر، تعوض الخسارة، ولكنها في الآخرة لا تعوض، لذلك الحسرة التي يشعر بها الإنسان، حينما يضيع الآخرة، تكاد تكون صاعقة.

إليكم شرح ما تبقى من الحديث:

((فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

يجب أن تعرف ثمة نظامًا دقيقًا، يحكم كل شيء، هذا غني، هذا فقير، هذا صحيح، هذا مريض، أنت لا تعلم ولكن الله يعلم، لا يوجد عمل عبث من الله، لا يوجد عمل بلا حكمة، هذا توفق بعمله، هذا لم يوفق، هذا نجح في زواجه، هذا لم ينجح، هذا بصحته شيء، وآخر لا شيء، فكلما اقترب الإنسان من الله عز وجل، يكشف الله له الحكمة التي تنطوي وراء هذا التصرف، لكن يوم القيامة لا بد من أن نعرف جميعاً: أن هذا الذي ساقه الله لنا محض حكمة، ومحض عدل، ومحض رحمة، لكن البطولة في الدنيا أن تعرف ذلك.

((فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

فأحياناً الإنسان يتلقى ضربة بعصا غليظة من إنسان آخر، فيا ترى ألمه ينصب على العصا أم على الضارب؟ على مَن؟ على الضارب، فمن الغباء، ومن قصور العقل، تصب نقمتك على العصا، وإذا كان الضارب عادل، ورحيم، ولا يظلم إطلاقاً، يجب أن تصب نقمتك على نفسك، فكل إنسان هذا عصاه بيد الله عز وجل، أداة، الله عز وجل أراد أن يؤدبك عن طريق هذا الإنسان، فكل إنسان يسب

الآخرين، ويظن الأفعال المؤذية منهم، إنسان ضعيف في توحيده، التوحيد عنده ضعيف، فكلما ارتقى في توحيده، لم يأبه بأفعال الآخرين، ويعلم علم اليقين: أن الله عادل، وهو رحيم، عندئذٍ يعود باللوم على نفسه، فالمؤمن العاقل الموحد لا يلوم إلا نفسه، لذلك النبي الكريم قال:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه)).

((فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ))

الحديث انتهى.

قال سعيد:

((كان أبو إدريس إذا حدث بهذا الحديث، جثا على ركبتيه)).

وقال أحمد بن حنبل عن هذا الحديث: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث، في موضوع الظلم، موضوع الهداية، موضوع الرزق، موضوع التوبة، موضوع العبودية، موضوع أن الإنسان قيمته في عمله.

رسالة من عمر بن الخطاب إلى سعد:

والآن إلى شيء عن سيدنا عمر رضي الله عنه وأرضاه.

الرسالة الثانية التي أرسلها سيدنا عمر رضي الله عنه لسيدنا سعد رضي الله عنه، أيضاً فيها بعض التوجيهات العسكرية، كأن هذا الإنسان خرِّيج في أكبر جامعة من جامعات فنون القتال، والجامعات العسكرية، يقول سيدنا عمر مخاطباً سيدنا سعد:

((ترفق بالمسلمين في مسيرهم، -فالجندي حينما يلتقي مع العدو، يجب أن يكون مرتاحاً، فهذا الذي يتعب جنوده تعباً شديداً قبل مواجهة العدو، ربما يخفقون في النصر، فالجندي إذا كان مرتاحًا؛ طعامه، وراحة جسمه، وثيابه موفرة، في أموره كلها مرتاح، فإذا جاءت ساعة اللقاء، وساعة المواجهة، كل طاقاته تبذل في هذه المعركة، أما إذا وصل إلى المعركة، وهو منهك، منهك القوى، في حالة تعب، وجوع، وعطش، وضيق، عندئذٍ كأن هذا الجهد الذي بذله سابقاً، قد جعله نصف إنسان، أو ربع إنسان-.

ترفق بالمسلمين في مسيرهم، ولا تجشمنهم مسيراً يتعبهم، -طبعاً التدريب في أثناء الحياة المدنية، ممكن أن يكون تدريبًا قاسيًا، لكن إذا كان موعد اللقاء مع العدو، فيجب أن يكون المسير مريحاً، لا أن يستهلك الإنسان في المسير- ولا تجشمنهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزلٍ فيه رفق لهم -ثمة استراحة في أثناء الطريق يرتاحون، يأكلون، يستعيدون شيئًا من نشاطهم، هذا ضروري جداً،

القصد أن هذا الجندي يكون كل طاقاته في المعركة، في أثناء المواجهة، فإذا كان بالطريق نريحه، يستعيد شيء من نشاطه، نؤمن له حاجاته، يكون في حالة طيبة جداً، هذا لمصلحة المعركة-.

قال: حتى يبلغوا عدوهم، -والسفر لم ينقص من قوتهم، يجب أن يصلوا إلى عدوهم، والسفر لم يستهلك طاقاتهم، فإذا استهلك السفر طاقاتهم، كان هناك لقاء غير ناجح في المعركة-

يقول سيدنا عمر لسيدنا سعد: وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة، -هذه العطلة الأسبوعية، حتى تكون لهم راحة، يجمعون فيها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم، أحياناً يكون عند الإنسان ستة أيام عمل شاق، يوم الجمعة بدل أن يكون هذا اليوم عيداً له، هناك أسر تنهي كل أعمالها الخميس، وأشخاص الغسيل يكون الجمعة، والكي، والتنظيف، والحمام يوم الجمعة، فهذا اليوم يوم شاق، والطبخ يوم الجمعة، هناك أشخاص ينهي كل أموره يوم الخميس، هذا يوم عيد للمسلمين، يكون في لقاء بالأهل، في حضور خطبة جمعة، بعد الخطبة الأكل جاهز، الإنسان يجلس مع أهله، مع أولاده، فكأن هذا العيد ضيّعه المسلمون، فصار الجمعة للتنظيف، وخدمة البيت، تحتاج إلى جهد يوم الجمعة، فلم يعد اليوم عيدًا-.

وأقم بمن معك في كل جمعة يوماً وليلة، حتى تكون لهم راحة، يجمعون فيها أنفسهم، ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم، -الاستجمام من ضروريات الحياة، الاستجمام يستعيد الإنسان فيه نشاطه، إذا اشتغل الإنسان في عمل شاق شهر، وارتاح يومين، أو تفسح كما يقولون، أو ذهب في نزهة، هذه جزء من العمل، لأن الإنسان بهذه النزهة، يستعيد أكثر نشاطه، هذه حقيقة الجسم، إن القلوب إذا كلّت عميت، الإنسان من حين لآخر إذا قام باستجمام، هذا من طبيعة العمل، ومن طبيعة النجاح في العمل-.

فإذا وطئت أدنى أرض العدو، -لم تصل إلى أرض العدو، أي قربت من أرض العدو- فإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذكِ العيون، -أي أرسل أنساً ينقلون لك الأخبار، لأن قرارك بالقتال أساسه المعلومات، إذا لم يكن عندك معلومات صحيحة عن العدو يمكن تتورط، لذلك الحرب كما قال النبي خدعة، ممكن أن يوهمك العدو أنه بهذه الجهة، تركز كل قواتك بهذه الجهة، يكون بجهة أخرى، التف عليك، روح المعركة، فمعرفة مواقع العدو، مراكز قوته، نوع أسلحته، عدد جنوده، هذا شيء ورد في سير الصحابة الكرام، فكان بكل لقاء مع العدو له عيون، يبثها القائد ليأخذ الأخبار الصحيحة، وفي ضوء هذه الأخبار الصحيحة، يستطيعون أن يتخذوا قراراً صحيحاً.

سمعت في التاريخ العسكري، معارك كبيرة في العالم فشلت، بسبب أن كان في تمويه من العدو، تمكن عن طريق مثلاً مدرعات كرتونية يحشدها بمكان، يعمل تفجيرات أصوات، فيظن العدو أن عدوه موجه كل طاقاته بهذا المكان، فإذا توجه إلى هذه الجهة، كان الالتفاف-.

فإذا وطئت أدنى أرض العدو، فأذكِ العيون بينك وبينهم، حتى لا يخفى عليك أمرهم -معلوماتك أساسية في القتال- واختر لهذا من تطمئن إلى نصحه وصدقه -هذا الذي يخبرك، يجب أن تكون واثقاً من صدقه، ومن إخلاصه لك، إخلاص وصدق- فإن الكذوب لا ينفعك خبره، وإن صدق في بعضه، والغاش عين عليك، وليس عيناً لك -هذا الذي يغشك في أقسى الساعات، وفي أحرج الساعات، ربما ينقل للعدو عنك بدل أن ينقل لك عن العدو، إذاً: لا بد من إنسان ناصح لك، وإنسان صادق-.

وإذا دنوت من أرض العدو فأكثر الطلائع، -الطلائع أي الجنود المتقدمين جداً- وبث السرايا، أما السرايا فتقطع أمدادهم ومرافقهم، -الجيش يريد إمدادًا وتموينًا باستمرار، فإذا تمكن الخصم أن يقطع على عدوه طريق الإمداد، انتهت المعركة، لذلك أي حركة يجب أن تكون وفق خط مستمر من الإمداد والتموين، فإذا قطع الإمداد عن هذا الجيش فقد قضي عليه، فهذه السرايا مهمتها: أن تقطع عن الجيش الإمداد، وأن تقطع عنه المرافق، فالسرايا مهمتها قطع الإمداد عن جيش العدو، والطلائع هدفها أن تبلو أخبارهم-.

وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس، -باعتبار متقدم جداً، قد يفاجأ بكمين، فهذا الجندي المتقدم جداً، يجب أن يكون من صفوة الجنود؛ جرأة، وشجاعة، وقوةً، وذكاء- وانتق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك، وتخيَّر لهم سوابق الخيل، -يحتاجون لمناورة سريعة جداً، لو كان معه بغلة مشكلة، يحتاج لخيل أصيلة، وتخير لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدواً، كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، أول شيء يلقى العدو هذا الإنسان القوي الذكي- واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر الجلاد، -قواد السرايا- ولا تخص أحداً بهَوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما تحابي به أهل خاصتك.

-لو فرضنا واحد رجاك أن تعينه على هذه السرية، مستواه القتالي منخفض، غير متمكن، ضعيف الشخصية، فأنت بهذا أرضيته، ولكن خسرت معركة، أرضيت واحداً وخسرت معركة-.

شيء آخر: ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجهٍ تتخوف فيه ضيعة ونكاية، -فهذا الجندي غال جداً، فإذا قدمته إلى مكان متقدم، يجب أن يكون هناك ضمان للرجوع، فإذا كان في خطر، يكون في التفات من وراء ظهره، يقطع عليه طريق العودة، معنى هذا أنك ضحيت به، فإذا شعر الجندي أنه هين على قائده، ربما لا يقاتل، إذا شعر الجندي، أن حياته غالية جداً على قواده، عندئذٍ يندفع، فأي مهمة متقدمة، يجب أن يكون هناك دراسة واثقة لها، لا يكون في احتمال أن ينقطع طريق العودة عليهم، احتمال أن يقطع عنهم التموين والإمداد-.

ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه ضيعة ونكاية، فإذا عاينت العدو، فاضمم إليك أقاصيك، وطلائعك، وسراياك، -إذا بعثت طليعة، وهناك سرية، حينما تواجه العدو، يجب أن تجمع

كل أولئك السرايا، مع الطلائع، مع الأجنحة، مع المقدمة، مع المؤخرة، مع الميمنة، مع الميسرة، مع القلب، كل هذه الفرق، وهذه السرايا تجتمع في مكان واحد- لتضع كل ثقلها في هذه المعركة))
لو درس هذه الوصية إنسان خبير بهذه الشؤون، ربما كان أقدر على تفسيرها، وعلى بيان عظمتها مني، هذا اختصاص.

سيدنا عمر كان في حالةٍ من الفهم والفطانة لدرجة عالية جداً، توجيهات دقيقة جداً، من هذه التوجيهات: إذا شعر الجندي، أن حياته غالية على من يبعثه لهذه المهمة، كان شجاعاً، إذا كان مرتاح، وضع كل طاقاته في المعركة، وإذا أرسلنا السرايا، المهم أن تقطع على العدو إمداداته، والطلائع للأخبار والعيون، لا بد من توافر الصدق والإخلاص فيهم.

فهذه الرسالة الأولى بالقضاء، فإن القضاء فريضة محكمة، والرسالة الثانية في تخطيط المدن، وهذه الرسالة في الشؤون العسكرية.

رسالة من عمر إلى بعض ولاته:

رسالة من عمر إلى بعض ولاته:

هناك رسالة إدارية: سيدنا عمر كتب لبعض ولاته، قال له:

((بلغني أنه فشا لك ولأهل بيتك، هيئة في لباسك، ومطعمك، ومركبك ليست للمسلمين، -عيّن واليًا، فهذا الوالي في مستوى حياته اليومية، هو وأهل بيته، له هيئة حسنة في لباسه، ومطعمه، ومركبه، ليست لعامة المسلمين- يقول سيدنا عمر: فإياك يا عبد الله، أن تكون بمنزلة البهيمة التي مرَّت بوادٍ خصيب، فلم يكن لها هم إلا السِمَن، وإنما حتفها في السمن))

يعني إذا اتجهت إلى أن تعيش حياة فوق الناس، فكأنك جعلت همك في السمن، والدابة كلما سمنت، كلما آن أوان إنهاء حياتها، وإنما حتفها في السمن، وفي السمن حتفها.

اعتبر يا عبد الله:

مر يوماً بدار جديدة في أطراف المدينة فسأل: ((دار من هذه؟.
فقالوا: هذه دار فلان -وفلان واحد من ولاة عمر-.
فقال عمر رضي الله عنه: أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها))، أي أن هذه الدراهم التي أخذها، لا بد من أن يستخدمها في إنشاء هذه الدار، فكشفته هذه الدار.

حوار جرى:

مرة سأل سيدنا عمر أحد أولاد هرم بن سنان، الذي خلده بشعره زهير بن أبي سلمى، هذا هرم بن أبي سنان، عملَ عملاً عظيماً، حينما أنهى حرب البسوس، حرب بقيت عشرات السنوات، أنهاها بأن دفع من ماله الخاص ديات القتلى، فالشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى، نظم في هذا الإنسان العظيم قصائد خالدة.

فمرة سيدنا عمر، سأل أحد أولاد هرم بن سنان، الذي خلده بشعره زهير بن أبي سلمة، يقول له:

((أنشدني بعض مدح زهير في أبيك، فينشده، فيقول عمر: إنه كان ليحسن فيكم القول.فأجابه الرجل: ونحن والله كنا نحسن له العطاء، هو أحسن القول فينا، ونحن أحسنا العطاء له فيقول عمر: لقد ذهب ما أعطيتموه، وبقي ما أعطاكم -هذا الذي أعطيتموه ذهب، صرفهم، انتهى، ومات الرجل- أما هذه القصائد التي قالها في مدح والدك فبقيت خالدة، فالذي أخذتموه منه أضعاف ما أعطيتموه))

من فضائل عمر بن الخطاب:

آخر قصة من قصص هذه الخليفة العظيم: أنه رأى عجوزاً تحمل مكتلاً يؤودها حمله، -مكتل شعير أو مكتل قمح- فيتقدم منها ويحمله عنها بعض الطريق، -أما هي ماذا فعلت حينما حمل عنها هذا المكتل؟- قالت له شاكرةً:

((أثابك الله الخير يا بني، والله إنك لأحق من عمر بالخلافة))

أنت أفضل منه.

ذات ليلة خرج في جولة من جولاته، التي كان يخرج بها وحيداً، والناس نيام، ليطمئن على قومه، ويبلو أحوالهم، وينفض الليل عن حاجاتهم، وعند مشارف المدينة، رأى كوخاً ينبعث منه أنين امرأة، فاقترب يسعى، ورأى رجلاً يجلس بباب الكوخ، وعلم منه أنه زوج السيدة التي تئن، وعلم أنها تعاني كرب المخاض، وليس معها أحد يعينها، لأن الرجل وزوجته من البادية، وقد حَطّا رحالهما هنا وحيدين غريبين، رجع عمر إلى بيته مسرعاً، وقال لأم كلثوم بنت الإمام علي: ((هل لك في مثوبة ساقها الله إليك؟.

-إذا طرق باب أحدِنا، ودعي لعمل صالح، ماذا يرى؟ هذا خير ساقه الله إليك، إذا أحب الله عبداً، جعل حوائج الناس عنده- فقال لزوجته: هل لك في خير ساقه الله إليك؟.

قالت: خيراً؟.

قال: امرأة غريبة تمخض، وليس معها أحد.

قالت: نعم إن شئت، -القوامة للرجل، إذا شئت أنا حاضرة-.

وقام وأعد من الزاد والماعون ما تحتاجه الوالدة من دقيق وسمن، ومزق ثيابًا يلف بها الوليد، وحمل أمير المؤمنين القدر على كتف، والدقيق على كتف، وقال لزوجته: اتبعيني، ويأتيان الكوخ، وتدخله أم كلثوم زوج أمير المؤمنين، لتساعد المرأة في مخاضها، أما أمير المؤمنين، فيجلس خارج الكوخ، وينصب الأثافي -ثلاثة أحجار لوضع القدر- ويضع فوقها القدر، ويوقد تحتها النار، وينضج للوالدة طعاماً، والزوج يرمقه شاكراً -ولعله كان يحدث نفسه هو الآخر: بأن هذا العربي الطيب، والله أولى بالخلافة من عمر- وفجأة صدح في الكوخ صراخ الوليد، لقد وضعته أمه بسلام، وإذا بصوت أم كلثوم، ينطلق من داخل الكوخ عالياً: يا أمير المؤمنين، بشِّر صاحبك بغلام.

-انظر هذا الاحترام بين الزوجة وزوجها، أحياناً الزوجة لا تقول لزوجها: أبو فلان، تقول باسمه أمام الضيوف، أمام أهله أحياناً- يا أمير المؤمنين، بشر صاحبك بغلام، ويفقه الأعرابي من الدهشة، ويستأخر بعيداً على استحياء، ويحاول أن ينطق بكلمتين: أمير المؤمنين، ولكن شفتيه لا تقويان على الحركة، من فرط ما فاجأته هذه الكلمة، ويلحظ عمر كل هذا، فيقول للرجل: ابق مكانك لا ترع.

ويحمل أمير المؤمنين القدر، ويقترب من باب الكوخ، وينادي زوجته: خذي القدر يا أم كلثوم، وأطعمي الأم وأشبعيها، وتطعمها أم كلثوم حتى تشبع، وترد القدر إلى عمر بما بقي من طعام، فيضعها عمر بين يدي الأعرابي، قائلاً له: كل واشبع، فإنك قد سهرت طويلاً، وعانيت كثيراً، ثم ينصرف هو وزوجته بعد أن يقول للرجل: إذا كان صباح الغد، فائتن بالمدينة، لآمر لك من بيت المال بما يصلحك، ولنفرض للوليد حقه))

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٢١-١٠١) : باب كثرة طرق الخير - حديث الإيمان بضع وسبعون

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٨-١٢-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم السبب الذي طرق إليه شيخنا إلى الحديث عن مراتب الحديث الشريف :

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا في أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام المتعلقة ببيان كثرة طرق الخير، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ))

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً))

شك الراوي في أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: بضع وسبعون، أو قال: بضع وستون، هذا منتهى الدقة في نقل الأحاديث، عَنْ الْمُغِيرَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ))

فمن روى حديثاً، وصرح أن النبي عليه الصلاة والسلام قاله، وهو يعلم أنه لم يقله، فليتبوأ مقعده من النار، لكن النبي عليه الصلاة والسلام رحمة بنا، قال: متعمِّداً، لأن الإنسان قد ينطلي عليه قول يظنه للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو ليس للنبي، فمن روى كلاماً، ونسبه إلى النبي خطأً من دون قصدٍ، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ))

[أخرجه ابن ماجة عَنْ أبي ذرٍّ الغفاري في سننه]

أما:

((مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ))

الأحاديث أعلاها: المتواتر تواترًا لفظيًا، وبعده يأتي التواتر المعنوي، وبعده يأتي الحديث الصحيح، وبعده يأتي الحديث الحسن، وبعده يأتي الحديث الضعيف، علماء الحديث قبلوا الحديث الضعيف في المعاملات، في الأخلاق، أما أن يستنبط من حديث ضعيف حكم شرعي، فهذا لا يجوز، وأما الموضوعات؛ فهذه أحاديث باطلة لا أصل لها، فيجب عن المسلم أن ينزِّه لسانه عن

رواية الأحاديث الموضوعة، إذاً: عليه أن يتحقق، إذاً: طلب العلم واجب على كل مسلم، هذا الكلام ساقنا إليه قول الراوي:

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً))

ليس متأكدًا، بضع وسبعون، أو بضع وستون .

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ))

ومعنى متفق عليه: أي أن أئمة الحديث اتفقوا على صحَّته، إذا قلت: رواه الشيخان، أي البخاري ومسلم، إذا قلت: متفق عليه، أي أن أئمة الحديث: اتفقوا على صحة هذا الحديث، وبالمناسبة: تحرَّ أن يكون عندك كتاب للحديث النبوي الشريف، ترجع إليه عند الضرورة .

إليكم شرح الشطر الأول من قول المصطفى: الإيمان بضع وسبعون.......لا إله إلا الله :

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ))

فالإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، العلماء قالوا: نهاية العلم لا إله إلا الله، فإذا تيقنت أنه لا إله إلا الله، لا مسير، لا معطي، لا رازق، لا مانع، لا رافع، لا خافض، لا معز، لا مذل، لا قابض، لا باسط، إذا تيقنت أنه لا إله إلا الله، وليس في الكون إلا الله، وإذا تيقنت أن كل شيء ما خلا الله باطل، إذا تيقنت أن يد الله فوق أيديهم، إذا تيقنت أن الله خالق كل شيء، وهو على كل شيء وكيل، إذا تيقنت أن بيده الخلق والأمر، إذا تيقنت أنه إليه يرجع إليه الأمر كله فاعبده وتوكل عليه، إذا تيقنت أن كل ما في الوجود لا يستطيعون، ولو اجتمعوا أن ينفعوك بشيء حتى يأذن الله، ولا أن يضروك بشيء حتى يأذن الله، هذا هو التوحيد، التوحيد يقودك إلى طاعة الله، ونبذ ما سواه، والشرك يقودك إلى معصية الله، وطاعة من سواه، فالذي يعصي الإله، ويطيع المخلوق في معصية الخالق، فهو قطعاً مشرك، يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً)

[سورة النساء الآية: ٣٦]

في هذه الآية: أمر ونهي، لماذا جاء الأمر مع النهي؟ لأن من مقتضيات الأمر ألا تعبد أحداً معه، فإذا عبدت أحداً معه فقد أشركت، فالذي يقول: لا أستطيع، أخاف من فلان، أخاف أن يقول الناس عني: كذا وكذا، أستحي من أن أتهم بكذا وكذا، هذا الذي يقول هذا القول: لا يعرف الله أبداً، ولو عرفه لما عبد سواه:

(فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لاَ تُنْظِرُونِ * إِنِّ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود الآية: ٥٥-٥٦]

نوافل العبادات، نوافل المعاملات، نوافل الأعمال الصالحة، جميع هذه النوافل ليست مقبولةً، ما لم تؤدَّ الفرائض، إنسان لا يصلي، لكنه عمَّر مسجدًا، لا، لا بد من أن يصلي أولاً، التقرب إلى الله، لا يكون بالإحسان، من دون صلاة، هناك تسديد، وهدى، ورشاد، وتوفيق، وتوجيه نحو ما ينفعك .

هذا الوحي كله، فحوى رسالات الأنبياء، ملخص القرآن الكريم، كلمة النجاة، كلمة الخلاص، كلمة الفوز، والله فهمها سهل، ولكن أن تعيشها شيء، يحتاج إلى جهود جبارة، فهم المعنى سهل؛ لا رافع، ولا خافض، ولا معز، ولا مذل، ولا معطي، ولا مانع، ولا ضار، ولا نافع إلا الله، المعنى سهل، لكن البطولة أن تواجه خطراً، فتعتقد أن الله بيده كل شيء، أن تواجه شخصاً مخيفاً، يخافه جميع الناس، أنت كمؤمن: أن تعتقد أن هذا الشخص المخيف الذي يخافه جميع الناس، لا يستطيع أن يتحرك ولا قيد أنملة إلا بإذن الله، هذا هو الإيمان، قال تعالى:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً)

[سورة الكهف الآية: ٢٦]

لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان، حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وما من إنسان يصيبه الهم والحزن إلا لنقص إيمانه بـ: لا إله إلا الله، ما من إنسان يقع في معصيةٍ خوفاً على حياته، أو خوفاً على رزقه، إلا لنقص إيمانه بـ : لا إله إلا الله، ما من إنسان يصيب قلبه الفزع إلا بنقص إيمانه بـ: لا إله إلا الله، لأن ربنا عز وجل قال:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا)

[سورة آل عمران الآية: ١٥١]

لأنهم أشركوا، قذف الله في قلوبهم الرعب، الله سبحانه وتعالى يقول:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء الآية: ٢١٣]

إنه من ضعف اليقين كما قال عليه الصلاة والتسليم:

((إنه من ضعف اليقين، أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله))

هذا هو ضعف اليقين هكذا، الإيمان بضعه وسبعون أو بضع وستون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله، القول سهل، ولكن الله عز وجل في نص القرآن الكريم، وفي آية محكمة، وفي صيغة الأمر، يقول لك:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)

[سورة محمد الآية: ١٩]

فاعلم، يجب أن تعلم، إذاً: يجب أن تتعلم، إذاً: يجب أن تحضر مجالس العلم، يجب أن تسأل، يجب أن تتحقق، يجب أن تتوثّق، يجب أن يبلغ علمك بهذا الموضوع علم اليقين، وهذه قضية مصيرية .

أنا أؤكد لكم ذلك: لو أن مخلوقاً يخشى بأسه، أمرك بمعصية الله، فإذا أيقنت أن هذا المخلوق بيد الله، وأنه لا إله إلا الله، تقول: معاذ الله، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إذاً: تنجو من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فإذا كان إيمانك بـ: لا إله إلا الله ضعيفاً، فأغلب الظن أنك تنساق لطاعة هذا المخلوق في معصية الخالق، ما الذي يحدث؟ تغضب الله وتغضب الناس، من أرضى الله بسخط الناس، رضي عنه الله، وأرضى عنه الناس، ومن أسخط الله برضى الناس، سخط عنه الله، وأسخط عنه الناس .

وكما جاء في الحديث القدسي:

((أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد، كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد، أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد))

لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ))

هذه العقيدة الصحيحة، هذه فحوى العقيدة .

إليكم ما يتضمنه الشطر الثاني من معاني من هذا الحديث: وأدناها إماطة الأذى عن الطريق

قال عليه الصلاة والسلام:

((وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ))

أن تزيح حجراً، أن تزيح غصناً، يعترض الناس في طريقهم، أن تزيح قشرة موز، إزاحتها أيضاً من العمل الصالح، هذا كله من العمل الصالح، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، كأن النبي عليه الصلاة والسلام، أعطاك للإيمان أعلى درجاته، وأدنى درجاته، وبين هاتين الدرجتين العليا والدنيا، درجات لا يعلمها إلا الله، إطعام الطعام بين هاتين الدرجتين، لما يميط الإنسان الأذى عن الطريق فهذه صدقة، هذا إيمان، مؤمن أن الله سبحانه وتعالى يحب أن تخدم عباده، مؤمن أن الله سبحانه وتعالى رب رحيم، والخلق كلهم عياله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، هذا إيمانه .

إنسان أحياناً يتكلم كلمة ينصح فيها مسلم، يشتري آلة فيقول له: انتبه إلى نوع الكهرباء التي عندك، انتبه لئلا تحرق المحرك، هذه الكلمة إيمان، هذا مسلم دفع ثمن آلة من كد يمينه، وعرق جبينه، فلو أخطأ في استعمالها، لكلفه ذلك مبلغاً كبيراً، فتوجيه النصيحة له إيمان .

إذا كانت إماطة الأذى عن الطريق إيمان، إيمان بأن الله يثيبك على هذا العمل، إيمان بأن الله يحب عباده جميعاً، إيمان بأنك إذا خدمت عباد الله أحبك الله، إيمان بأن هذا العمل لا يضيع، وعَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ، إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك في سننه]

فدخل في هذا الأذى عن الطريق؛ كحجر في الطريق أزحته برجلك، وما كلفك شيئًا، إذا كان هذا إيمانًا، فبرُّ الوالدين درجة أعلى، إنصاف الزوجة، أن تُعْنَى بأولادك، أن تؤدي حق جارك، أن تطعم الطعام، أن تفشي السلام، هذا كله إيمان، فأي عمل صالح يعبِّر عن إيمانك بالله عز وجل، أن ترد غوث الملهوف، أن ترشد الضال إلى ضالته، أن تقود الأعمى، أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي .

من حياتنا الاجتماعية؛ أن تعين أخاً لك على شراء بعض حاجاته، الوقت ثمين، أنت عندك خبرة بغرف النوم، أخوك المؤمن مقدم على زواج، فنزلت معه إلى السوق، وأمضيت في السوق ساعتين، هذا إيمان قطعاً، أن تدرّس أخاك الضعيف في مادة معينة، أنت قوي في الرياضيات، لك أخ مؤمن ضعيف في الرياضيات، جلست معه تدرسه، هذا إيمان .

هذا الحديث أعطانا أعلى درجة في الإيمان، وأعطانا أدنى درجة في الإيمان، وبين أعلى درجة، وأدنى درجة، درجات لا يعلمها إلا الله، أي عمل صالح إيمان، أي معروف إيمان، أن تلقى أخاك بوجه طلق إيمان، أحياناً تكون في مركبة عامة، وأنت جالس، وقد خرجت من عملك منهك القوى، وما صدقت أن وجدت مكاناً فارغاً في هذه المركبة العامة، وجلست خائر القوى، فإذا امرأة مسلمة محجبة، تقف وابنها على يدها، ماذا تفعل أنت؟ أن تقوم من هذا المجلس الذي كان أحد أحلامك، وتقعد هذه المرأة مكانك، هذا إيمان .

هناك أناسٌ، والله أنا شاكر لهم، ولكن من أنا حتى أشكرهم؟ أناس يخدمون في هذا المسجد؛ ينظفون، ينقلون، يهيِّئون لدرس الجمعة، ودرس الأحد، ودرس السبت، هؤلاء يعملون لله عز وجل، هذا إيمان، هذا بيت الله، ومَن أنا حتى أشكرهم؟ الله يشكرهم، ألم يقل سيدنا عمر رضي الله عنه، حينما جاءه رسول من إحدى المعارك، قال:

((يا أمير المؤمنين، مات خلق كثير.

قال: مَن هم؟ .

قال: أنت لا تعرفهم .

قال: وما ضرهم أني لا أعرفهم، إذا كان الله يعرفهم؟))

ولو أني لا أعرفهم، فالله يعرفهم .

أحياناً في التعامل التجاري؛ تبيع أخاك، يأتيك أخ يريد أن يفتح محلا جديدًا، تنصحه بالبضاعة التي يمكن أن يربح منها، تعطيه ثمنًا يتناسب مع إمكانياته المحدودة، هذا الحسم، وهذه النصيحة في شراء البضاعة إيمان .

أحياناً يأتيك أخ يقول لك: أنوي أن أعمل بهذه المصلحة، أنت تعلم أنها مصلحة رائجة جداً، من ضعف الإيمان تقول: وماذا ترجو منها؟ ليس في هذه المصلحة شيء، ليس فيها رمق، وتكون هي بالعكس، إذا نصحته على أن يعمل بها، ودللته على أسرارها، فهذا إيمان .

أحياناً: يبعث لك صديق ابنَه، لتعلمه الميكانيك، تكلفه بأعمال لا علاقة لها بالميكانيك، وعند العمل الدقيق، تبعده عن المحل، هذا عدم إيمان، لماذا بعث لك بابنه؟ لماذا أعفاك من الأجرة؟ من أجل أن تستخدمه في كنس الأرض؟ يجب أن تعلمه هذه الحرفة، وهذه الصنعة، هذا إيمان، فالإيمان يدخل بالبيع، والشراء، والعلاقات الاجتماعية، والزوجية .

لذلك الحديث:

((فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ))

أيها الأخوة، بينهما عدد لا يعد ولا يحصى من مراتب الإيمان، أن تدعو إلى الله، هذا إيمان، أن تأمر بالمعروف، هذا إيمان، أن تنهى عن المنكر، هذا إيمان، أن تصل الرحم، هذا إيمان، أن تبيع بسعر معتدل رحمة بالمسلمين، هذا إيمان، أن تنصح المسلمين في بيعك وشرائك، هذا إيمان، إذا كان إماطة الأذى عن الطريق إيمان، فهناك أعمال أعلى منها بكثير، أن تكون صادقاً هذا إيمان.

قال لي أخ يبيع قطع تبديل: طلب مني رجل قطعة، فصعدت على السلم إلى مكان القطعة، وأنا على السلم قال لي: هذه القطعة أصلية؟ قلت له: لا، فقال لي: أعطن إياها، كلمة: لا، إيمان، إظهار العيب في الشيء الذي تبيعه إيمان .

لذلك هذا الحديث أعطاك حدّين؛ أعلى درجة في الإيمان، وأدنى درجة في الإيمان، وكأنه يقول لك: وهناك أعداد كبيرة جداً من الأعمال الصالحة، كلها تنضوي فيما بين هاتين الدرجتين، كأن تجمع الناس، وتتلو سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وتتحدث عن شمائله، وعن أخلاقه، وعن فضائله، وعن دعوته، وعن شجاعته، وعن كرمه، وعن حلمه، وعن رحمته، أليس هذا إيمان؟ أليس هذا العمل أعظم من أن تميط الأذى عن الطريق؟ أن تُعَرِّف الناس برسول الله إيمان .

إليكم تتمة شرح الحديث: (والحياء شعبة من الإيمان) :

ويقول عليه الصلاة والسلام في تتمة هذا الحديث:

((وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ))

يعني الحياء والإيمان قُرنا جميعاً، فإذا ذهب الحياء ذهب الإيمان، إذا ذهب أحدهما ذهب الآخر، إذا لم تستحِ فاصنع ما تشاء، هذا الذي اغتسل عرياناً، أعطاه النبي الأجرة وصرفه، قال:

((إني أراك لا تستحي من الله))

الحياء إيمان، هذا الذي يتكلم بكلام بذيء، ليس مؤمناً، هذا الذي يلقي على الناس مزاحاً رخيصاً جنسياً، ليس مسلماً، هذا الذي يغش بكلامه بأمور متعلقة بالعورات، ليس مسلماً، هذا الذي يطرب لقصة فاضحة، ليس مسلماً، لأنه لا يستحي، لأن الحياء شعبة من الإيمان، هذا لا يبالي، فلا يغار على عرضه، ليس مسلماً، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثَةٌ قَدْ حَرَّمَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِمْ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَالْعَاقُّ، وَالدَّيُّوثُ الَّذِي يُقِرُّ فِي أَهْلِهِ الْخُبْثَ))

[أخرجه أحمد عن عبد الله بن عمر في مسنده]

((وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ))

ومن علامات قيام الساعة: أن ترتفع النخوة من رؤوس الرجال، وأن يذهب الحياء من وجوه النساء، امرأة تنظر إلى الرجل، وكأنها رجل، وهذا الرجل امرأة، تحد النظر إليه لا تستحي، لكن أجمل ما في المرأة حياؤها، والدليل:

(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ)

[سورة القصص الآية: ٢٥]

فالعلماء يفرقون بين الأنوثة وبين الجمال، أجمل ما في المرأة أنوثتها، وسر أنوثتها في حيائها، فإذا رفعت صوتها، وقست في كلامها، وكان لها تعليقات لاذعة، ذهب معظم جمالها، جمالها في رقَّتها، جمالها في صوتها الخافض، جمالها في عبارتها الرقيقة لا في عباراتها القاسية، بعضهم قال: تظل المرأة من الجنس اللطيف حتى تتزوَّج، هكذا قال بعضهم.

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ))

سيدنا عثمان كان حيياً قال النبي الكريم:

((أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ))

النبي عليه الصلاة والسلام، جاءته امرأة تسأله عن قضية نسائية، شرحها لها، يبدو أنها لم تفهم مرادها، سألته ثانية بإلحاح، فاستحيا أن يفصِّل في هذا الموضوع، فعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ غُسْلِهَا مِنْ الْمَحِيضِ، فَأَمَرَهَا كَيْفَ تَغْتَسِلُ، قَالَ:

((خُذِي فِرْصَةَ مِنْ مَسْكٍ، فَتَطَهَّرِي بِهَا، قَالَتْ: كَيْفَ أَتَطَهَّرُ؟ قَالَ: تَطَهَّرِي بِهَا، قَالَتْ: كَيْفَ؟ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! تَطَهَّرِي، فَاجْتَبَذْتُهَا إِلَيَّ، فَقُلْتُ: تَتَبَّعِي بِهَا أَثَرَ الدَّمِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم عن عائشة في صحيحهما]

يكفي هذا التفصيل، فالنبي كان أشد حياء من العذراء في خدرها، هذا الذي يتكلم كلمات وقحة، يمزح مزاحاً لا يليق بالمسلم، هذا الذي ينظر إلى عورات الناس، هذا الذي ينظر إلى باب مفتوح، لينظر إلى امرأة داخل البيت، هذا الذي ينظر إلى شرفة جاره مَن على الشرفة، هذا الذي يقتحم بنظره بيوت الناس لا يستحي، والذي لا يستحي ليس مؤمناً، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام، لذلك جاءت آيات غض النظر بعد آيات الاستئذان، بعد أن علمنا الله سبحانه وتعالى كيف نستأذن، أمرنا أن نغض البصر .

((الإيمان بعضه وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان))

فلو حذرت الناس من خطر معين، لو شاهدت إنسانًا يحمل دواء، ونبهته إلى أخطار استعماله، هذا إيمان، لو نبَّهت إنسانًا إلى طريقة استعمال جهاز، فهذا إيمان، فالموضوع واسع جداً .

ومن صفات المؤمن: الحياء، وإذا لم تستح فاصنع ما تشاء، ومن سمات آخر الزمان: أنه يرتفع الحياء، فيصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ، فَظَهْرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ، فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

فهذه الأحاديث قصيرة، إذا حفظها الإنسان، وجلس بمجلس، وجلس مع صديق، مع أخ، مع قريب، مع جار، مع زميل، كان بسفر، كان بلقاء، كان بدعوة، كان بغداء، وبدلا من الكلام في الدنيا، الذي يضيق له القلب، تكلم في هذه الموضوعات فأفاد، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً، سَمِعَ مِنَّا حديثاً، فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ))

[أخرجه الدارمي عن أبي الدرداء في سننه]

فأنت لا بد أن تتجاوز مرحلة السماع، مرحلة الاستهلاك إلى مرحلة العطاء، هذه الأحاديث اكتبها، راجعها في كتابها، طبعاً أنت حينما ترجعها في كتابها، تذكر شرحها، اشرحها للناس، اشرحها لأهلك .

المكانة الراقية التي احتلها عثمان بن عفان عند رسول الله :

والآن إلى قصة سيدنا عثمان بن عفان .

النبي عليه الصلاة والسلام زوَّج سيدنا عثمان بن عفان ابنته رُقَيَّة، ولما توفاها الله، زوّجه ابنته أم كلثوم، ولما انتقلت إلى الرفيق الأعلى، أول بنت ماتت بحياته، وثاني بنت ماتت ، لو زوج أحدنا ابنته لإنسان، وماتت، وزوّجه الثانية وماتت، تجده يقول: هذا قدمه قدم نحس ، زوج الأولى والثانية، انظر إلى الأخلاق النبوية الطاهر، فقال عليه الصلاة والسلام:

((لو أن لنا ثالثة يا عثمان لزوجناكها))

لو عندي بنت ثالثة لزوجتك إياها، انظر إلى كلام العوام وكلام الأنبياء، هذا الحديث يروى بصيغة أخرى، يقول عليه الصلاة والسلام:

((يا عثمان، لو أن لي أربعين بنتاً، لزوجتكهن واحدة بعد واحدة))

يعني: لو كان الصهر أخلاقه عالية، فلا يتغافل عن أخلاقه العالية، يشعره أنه أنا مقدر أخلاقك، مقدر استقامتك، مقدر عطفك على ابنته، مقدر احترامك لها، مقدر خدمتك لها، هناك أشخاص مهما بذل الصهر من أعمال طيبة، يبقى في برجه العاجي مستعليًا، لماذا هذا الاستعلاء؟ فإذا كان لك صهر أخلاقه عالية لمَ لا تمدحه؟ كي تشعره أنه يعمل عملاً طيباً، سيدنا رسول الله هكذا فعل مع صهره عثمان، قال:

((يا عثمان، لو أن لي أربعين بنتاً، لزوجتكهن واحدة بعد واحدة))

والرواية الثانية:

((لو أن لنا بنتاً ثالثة لزوجناك إياها))

دخل رفيقك إلى المحل، والبيع قليل، فتقول: أخي أنت قدمك نحس، هذا كلام كله فارغ. زاره الطبيب فمات، هذا الموت بيد الله عز وجل، وليس للطبيب علاقة بموته، صدق القائل:

إن الطبيب له علم يدل بـه إن كان للنـاس في الآجـال تأخير
حتـى إذا ما انقضت أيام رحلته حار الطبيب و خانته العقاقير

هذا اليوم أربعاء، وصبوا له ماء، وهذا قدمه شؤم، هذا كله فارغ، النبي عليه الصلاة والسلام، أول بنت زوجه إياها ماتت، والثانية ماتت، قال له:

((يا عثمان، لو أنا لنا ثالثة لزوجناكها))

وفي رواية ثانية:

((يا عثمان، لو أن لي أربعين بنتاً، لزوجتكهن واحدة بعد واحدة))

معنى ذلك: أن سيدنا رسول الله ممتن من سيدنا عثمان، لأنه عامل ابنته أرقى معاملة.

أيها الأخوة، لما استعرض سيدنا رسول الله الأسرى يوم بدر، لقي بينهم صهره أبا العاص، تصور إنسانًا يقع أسيراً، لماذا وقع أسيراً؟ لأنه جاء ليحارب، وما معنى جاء ليحارب ؟ أي جاء ليقتل، هذا الذي جاء ليحارب، جاء ليقتل، لم يوفق، فوقع أسيراً، النبي عليه الصلاة والسلام، ما غاب عنه أنه صهرٌ جيد، فقال كلمة جعلته يذوب محبة له، قال:

((والله ما ذممناه صهراً))

أمّا كصهر فهو جيد، أما الآن فهو مقاتل، والله ما ذممناه صهراً، انظر الموضوعية، الحكم العادل، الإنصاف، الإنسان العادي إن رأى شيئاً يكرهه، جعل هذا الشخص كله سيئات، وإن رأى شيئاً يحبه، تغاضى عن سيئاته، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أُرَاهُ رَفَعَهُ، قَالَ:

((أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة في سننه]

النبي عليه الصلاة والسلام لأنه رحيم، ولأنه حيي، كان يقدر في هذا الصحابي الجليل رحمته وحياءه، لذلك عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لِكُلِّ نَبِيٍّ رَفِيقٌ، وَرَفِيقِي –يعني- فِي الْجَنَّةِ عُثْمَانُ))

[أخرجه الترمذي عن طلحة بن عبيد الله في سننه]

يعني: كن حيياً، وكن سموحاً، وكن رحيماً، فأنت رفيق رسول الله في الجنة .

عبادته :

أيها الأخوة، لشدة شغفه بالعبادة، وبالإقبال على الله عز وجل، وبالقنوت له، وبصلاة التهجُّد، وبقيام الليل، كان معاصروه يقولون:

((كان عثمان يصوم الدهر، ويقوم الليل إلا هجعة من أوله))

الحقيقة: لما يكون الإنسان في بحبوحة، ويترك النوم على فرشٍ وثيرة، على أن يقوم الليل، وحينما يكون في بحبوحة، ويؤثر مجلس العلم على مجلس سمر، فهذا يضاعف الله له أجره، لا يكون للإنسان أحياناً شيء، ولكن ثمة إنسان عنده كل شيء، ومع ذلك آثر كل الأشياء، آثر رضاء الله عز وجل على كل المغريات، وكل المباهج، ألم يقل الله عز وجل في الحديث القدسي:

((أحب ثلاثاً، وحبي لثلاثٍ أشد؛ أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد، وأحب المتواضعين، وحبي للغني المتواضع أشد، أحب الكرماء، وحبي للفقير الكريم أشد))

يبدو أن هذا الصحابي الجليل، كان كذلك حتى في الجاهلية، فقال مرة عن نفسه:

((والله ما زنيت، ولا سرقت، لا في جاهلية، ولا في إسلام))

وكما جاء في الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقِهُوا، وَتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأْنِ أَشَدَّهُمْ لَهُ كَرَاهِيَةً، وَتَجِدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ، وَيَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ))

[أخرجهما البخاري ومسلم عن أبي هريرة في صحيحهما]

لا في جاهليةٍ، ولا في إسلام، لا في الإسلام بديهية، ولكن لا في الجاهلية .

هذا عثمان بن عفان في السوق :

سيدنا عثمان فيه رحمة، الرحمة أحياناً تتمثل بأن تبدي رحمتك للمسلمين، الآن أحياناً إذا ارتفع السعر يفرح التاجر، إذا ارتفع السعر يهلك الناس، يعبرون على أن السعر تبهدل، إذا رخص تبهدل، أنت افرح أن السعر يرخص، والمسلمون يأكلون من هذه الفواكه حتى يشبعوا، ولو كان الربح قليلاً، هكذا يفعل الرحيم .

فسيدنا عثمان لا يكاد يبصر التُّجَّار، يهمون باحتكار الأرزاق، أو بيعها بثمن باهظ، حتى يرسل قوافله، لتعود محملة بما يفسد عليهم احتكارهم، ويصيب استغلالهم بخيبة أمل قاتلة ، كان يحب المسلمين جميعاً، يحب الناس جميعاً، كلما همّ تاجر أن يحتكر بضاعة أو سلعة أو رزقاً أساسياً، كان يشتري منه بكميات كبيرة، ويعرضه بالسوق بسعر رخيص، لكي يكسر احتكارها، هكذا كان يفعل، فعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْجَالِبُ مَرْزُوقٌ، وَالْمُحْتَكِرُ مَلْعُونٌ))

((المحتكر لا يروح رائحة الجنة))

المحتكر خاطئ، الجالب مرزوق، والمحتكر ملعون، المحتكر هو الذي يحبس أرزاق العباد، كي يغلو سعرها، فيربح أرباحاً طائلة، فسيدنا عثمان كان يبغض الاحتكار، فكلما هم أناس باحتكار طعام، اشتراه بكميات كبيرة، وطرحه في السوق، كي ينخفض السعر، فيسعد الناس بشراء هذه الأرزاق، فلا يفرح الإنسان إذا كان هو بمنجاة، والناس في ضيق، إذا فرح كان قلبه قاسيًا، يجب أن تفرح إذا أكل الناس كلهم، إذا أكل الناس أطايب الطعام، وسكنوا في بيوت، وارتدوا أجمل الثياب، وكانوا في بحبوحة، يجب أن تفرح عندئذٍ، أما أن تفرح إذا كنت في منجاة من ضيق الناس، فإنه يصدق عليك قوله عليه الصلاة والسلام:

((والله ما آمن، والله ما آمن، والله ما آمن، من بات شبعان، وجاره إلى جانبه جائع، وهو يعلم))

من روائع عثمان بن عفان :

جاءت مرة رواحله من اليمن من الشام محملة بخيرات حسان، قافلة من أربعين إلى خمسين جملا محملا بما يحتاجه أهل مكة، وتواكب حوله تجار المدينة وما حولها، دخلوا معه في مساومات شيقة، وما أجمل أن نطالع الآن إحداها، يرويها لنا ابن عباس رضي الله عنه إذ يقول:

((قحط الناس في زمان أبي بكر، فقال الخليفة لهم: إن شاء الله لا تمسون غداً حتى يأتيكم فرج الله، فلما كان صباح الغد، قدمت قافلة لعثمان، فغدا عليهم التجار، فخرج إليهم وعليه ملاءة، قد خالف بين طرفيها على عاتقه، وسألوه أن يبيعهم قوافله، فسألهم: كم تربحونني؟.

قالوا: العشرة باثني عشر، -يعني عشرين بالمئة- .

فقال: قد زادني، -هناك مَن دفع لي أكثر- .

قالوا: فالعشرة خمسة عشر، بالمئة خمسون .

قال: قد زادني، -دُفع أكثر- .

عندئذٍ ضجروا وقالوا: مَن الذي زادك، ونحن هنا التجار، ولا أحد غيرنا؟!! .

فقال هذا الخليفة الراشد رضي الله عنه: إنه الله، زادني بكل درهم عشراً، أنتم أعطيتموني بالمئة خمسين، أنا أخذت بالمئة ألفًا، فهل لديكم مزيد؟ ادفعوا أكثر، أعطكم إياها، فانصرف التجار عنه، وهو ينادي: اللهم إني وهبتها لفقراء المدينة بلا ثمن، وبلا حساب، كل هذه القوافل))

ما قيل عن عثمان :

شرحبيل بن مسلم يحدثنا، ويقول:

((كان عثمان يطعم الناس طعام الإمارة، ويأكل هو الخل والزيت))

سيدنا عمر رضي الله عنه، جاءه رسول من أذربيجان فخيره، قال له:

((أتأكل عندي أم مع فقراء المسلمين؟ قال: بل عندك، فلما دخل إلى بيته قال: يا أم كلثوم، ماذا عندك من طعام اليوم؟ قالت: والله ليس عندنا إلا خبز وملح، فقال: هاته لنا .

فحينما عرف هذا الرسول، أن طعام الفقراء هو اللحم، ندم أشد الندم))

وقال عبد الله بن شداد:

((رأيت عثمان يخطب يوم الجمعة، وعليه ثوب، قيمته أربعة دراهم، أو خمسة دراهم، وإنه يومئذٍ لأمير المؤمنين))

مرة غضب على خادم له، فعرك أذنه حتى أوجعها، ثم سرعان ما يقض ضميره العابد مضجعه، فيدعو خادمه، ويأمره أن يقتص منه فيعرك أذنه، ويأبى الخادم، ويولي مدبراً، لكن عثمان يأمره في حزم فيطيع، وحينما يعرك هذا الخادم أذنه، فيقول له:

((اشدد يا غلام، فإن قصاص الدنيا أرحم من قصاص الآخرة))

سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه، كان يقرأ الآية الكريمة، وهي قوله تعالى:

(أَمْنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ)

[سورة الزمر الآية: ٩]

يقول عبد الله بن عمر:

((ذاك هو عثمان بن عفان))

هذه الآية تنطبق على عثمان بن عفان ، يا ترى أحدنا، هل في القرآن آية تنطبق عليه، يفرح فيها؟ قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

[سورة فصلت الآية: ٣٠]

مستقيم استقامة تامة، حتى إذا قلت: هذه الآية إن شاء الله تنطبق علي، هل هناك آية تنطبق على المؤمن؟ قال تعالى:

(الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٣٤]

فهل الآية تنطبق علينا؟ قال تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً)

[سورة الأنفال الآية: ٢]

ما رأيك في هذا ؟

سيدنا عثمان كان شيخاً كبيراً، بلغ الثمانين، وفي هذه السن المتقدمة، يرفض أن يوقظ أحداً، كي يعد له وضوءه، يستيقظ وحده، ويخدم نفسه بنفسه، ويتحامل على شيخوخته المجهدة، في إحضار الماء، وإسباغ الوضوء .

يرفض النجاة من سيوف قاتليه، إذا كان ثمن هذه النجاة قطرة دم، تسفك من مسلم بريء، يدخل عليه زيد بن ثابت، وقد رأى الثوار يتنادون لحصار داره، فيقول له:

((يا أمير المؤمنين، هؤلاء الأنصار بالباب، يقولون: إن شئت كنا أنصاراً لله مرتين، فيجيبه الخليفة الرحيم: أما القتال فلا .

يصيح في صحابة، تجمعوا حول داره، ليواجهوا الثوار بالسلاح، يقول: إن أعظمكم عني غناءً رجل كف يده وسلاحه .

يعلم أن عصبة كبيرة من شباب المسلمين، وعلى رأسهم الحسن والحسين، وابن عمر ، وعبد الله بن الزبير، قد أخذوا مكانهم لحراسته، وشهروا سلاحهم، يتفطر قلبه أسىً، ويدعوهم ويتوسل إليهم قائلاً: أناشدكم الله، وأسألكم به، ألا يراق بسببي محجن دم))

رحمته بالمسلمين، كانت لدرجة أنه ضحى بحياته، لئلا تهرق قطرة دم من مسلم بريء . سيدنا علي رضي الله عنه يقول عنه:

((أوصلنا للرحم عثمان))

من خطب عثمان بن عفان ومواعظه :

مرة خطب سيدنا عثمان في أصحابه الكرام، فقال:

((أيها الناس، اتقوا الله، فإن تقوى الله غُنم، وإن أكيس الناس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، واكتسب من نور الله نوراً لقبره، وليخشَ عبد أن يحشره الله أعمى، وقد كان بصيراً:

(قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)

[سورة طه الآية: ١٢٥-١٢٦]

وفي خطبة أخرى، يقول هذا الخليفة العظيم:

((إن الله أعطاكم الدنيا، لتطلبوا بها الآخرة، ولم يعطكم الدنيا، لتركنوا إليها))

لشدة خوفه من الله عز وجل كان يقول:

((لو أني بين الجنة والنار، ولا أدري إلى أيتهما يُأمر بي، لتمنيت أن أصير رماداً، قبل أن أعلم إلى أيهما المصير))

فسيدنا عمر لما يقول:

((ليت أم عمر لم تلد عمر، ليتها كانت عقيما))

لما يقول:

((أتمنى أن أكون لا لي ولا علي))

هذا الخليفة الراشد لشدة خوفه من الله .

يا أخوان، الخوف دليل العلم، والإنسان كلما قل خوفه، يكون علمه قليلا، يكون جاهلا ، من الذي يخاف كثيراً؟ هو العالم كثيراً، كلما قلّ العلم قلّ الخوف، لذلك: رأس الحكمة مخافة الله، أشدكم لله خشية أنا، هكذا قال عليه الصلاة والسلام .

ما سبب عدم حضور عثمان بن عفان غزوة بدر ؟

لم يشهد غزوة بدر، والسبب: لأن زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت مريضة مرض الموت، وأمره النبي أن يبقى بجوارها ليسهر عليها، الإنسان كم هو عند الله عظيم؟ ربما كان فضل تمريضه لزوجته يعدل الجهاد في سبيل الله، لقد امتثل وأطاع، وفي اليوم الذي جاءت البشرى إلى المدينة بانتصار المسلمين في بدر، فاضت روح رقية إلى بارئها، وعندما كان النبي عليه الصلاة والسلام يوزِّع غنائم النصر عل المقاتلين، اعتبر عثمان حاضراً ومقاتلاً، وفرض له قِسْمَهُ ونصيبه .

أحياناً: هناك أعمال صالحة تعدل الجهاد في سبيل الله، أتمنى على كل أخ، يبلغ زوجته، أن النبي عليه السلام يقول:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي من دونك من النساء، أن حسن تبعل المرأة زوجها، يعدل الجهاد في سبيل الله))

فهذه المرأة التي تظن أن عمل البيت عمل تافه، ليس تافهاً والله، إن حسن تبعل المرأة زوجها، يعدل الجهاد في سبيل الله .

سر هذه البيعة :

النبي عليه الصلاة والسلام، يرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى قريش عام الحديبية، وسيدنا عثمان تحمل مخاطرة كبيرة، والدليل: أن النبي عليه الصلاة والسلام، أرسل خراشة بن أمية الخزاعي، وانتدبه لهذه المهمة ليفاوض قريشاً، بيد أن قريشاً لم تكد تراه، وتسمع كلماته حتى عقرت بعيره الذي كان يركبه، وهموا به ليقتلوه، لولا أن منعته الأحابيش ، وأنقذته من الموت، إذاً: أن تذهب إلى قريش رئيس وفدٍ، فهذا يعني: الموت، النبي عليه الصلاة والسلام، انتدب عثمان بن عفان، ليذهب إلى قريش في عام الحديبية، ليفاوضها .

أيها الأخوة، وسط هذه المخاطر المنذرة المرعدة، حمل عثمان أمر النبي عليه الصلاة والسلام، ومضى إلى قريش، لا يعنيه أن يرجع حياً، أو يقضي هناك شهيداً، وعلى أبواب مكة، واجه الجموع المتحفّزة من قريش، فبلَّغهم رسالة النبي عليه الصلاة والسلام، فكان جوابهم له رقيقاً جداً، فقالوا:

((إن شئت أنت تطوف بالبيت فطف، أما محمد وأصحابه فلا، ويجيبهم عثمان: ما كنت لأفعل حتى يطوف النبي عليه الصلاة والسلام، -مَن أنا حتى أطوف وحدي؟ ما كنت لأفعل، لا أفعل هذا إطلاقاً، إن لم يطف النبي، فلن أطوف .

قريش بسياسة منها، أوعزت أن تحجز حرية هذا الخليفة العظيم، رئيس الوفد، فرضت عليه

إقامة جبرية، تريد أن تعرف ما سيفعل المسلمون، فهل سيقولون: تورط، الله يصلحه، أم يهبون دفعة واحدة؟- .

حجزت هذا الخليفة العظيم عندها، وقد كان رئيس الوفد، وأرسلت بعض عساكرها إلى معسكر المسلمين، ليشيعوا بين الناس، أن قريشاً قتلت عثمان بن عفان، هي احتجزته احتجازا ، وأوهمت المسلمين أنها قد قتله، هناك ظهر الوفاء، وظهرت المحبة، وظهرت الشجاعة، وظهر الإخاء، النبي عليه الصلاة والسلام، أراد أن يري المشركين تصميمه ومقدرته، حيث يزجرهم عن طغيانهم وما يعمهون، فدعا أصحابه إلى البيعة تحت الشجرة، بين مكة وجدة مكان اسمه: الشجرة، فيه مسجد، في هذا المكان تمت البيعة بين النبي عليه الصلاة والسلام وبين أصحابه، وهذه البيعة، هي بيعة الرضوان التي خلدها القرآن في تنزيله، وآياته المباركات، فقال:

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

[سورة الفتح الآية: ١٠]

وفي آية أخرى:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً)

[سورة الفتح الآية: ١٨]

النبي عليه الصلاة والسلام، يعلم بطريقةٍ أو بأخرى، أن عثمان لم يقتل، ولم يصبه شيء، فبايع نفسه باسم عثمان، إذ لم يكد النبي عليه الصلاة والسلام، يفرغ من مبايعة أصحابه مصافحة واحداً واحداً، أمسك يداً بيد، وقال: هذه عن عثمان، وقال: هذه بيعة عثمان، قال: فلم يبق أحد من المسلمين إلا تمنى، لو أنه صاحب هذه الحظوة، وهذا التكريم .

عاد عثمان سليماً معافى، وأرسلت قريش سفيراً جديداً هو سهيل بن عمرو، الذي أبرم مع النبي عليه الصلاة والسلام معاهدةً، عرفت في التاريخ بصلح الحديبية))

مر معنا مع سيدنا عمر، لما استنكر بعض الشروط، قال:

((ابن الخطاب، إنني رسول الله))

من مبشرات عثمان بن عفان :

آخر شيء في هذا الفصل عن سيدنا عثمان: النبي عليه الصلاة والسلام بشره بالجنة، واصطفاه، وجعله كاتباً للوحي، وبشره بالشهادة، هكذا تروي بعض الأخبار، النبي كان على جبل أحد، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فارتجف المكان الذي يقفون فوقه، فعَنْ أَنَس بْن مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

((أنَّ النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، صَعِدَ أُحُدًا، وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ فَرَجَفَ بِهِمْ، فَقالَ: اثْبُتْ أُحُدُ، فإنَّما عَلَيْكَ نَبِيٌّ، وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ))

[أخرجه البخاري عن أنس بن مالك في الصحيح]

هذه بشارة، جعله كاتباً للوحي، وبشره بالجنة .

أيها الأخوة، وفي درس قادم إن شاء الله تعالى، نتابع فصول هذه السيرة العطرة، لهذا الخليفة العظيم، سيدنا عثمان بن عفان .

والحمد لله رب العالمين

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٨-١٢-١٩٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم شرح مفردات هذا الحديث :

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا زلنا في باب كثرة طرق الخير .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ الْبِئْرَ، فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً، ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ، حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة]

البئر تؤنث وتذكر، تقول: هذه بئرٌ، وهذا بئرٌ، والطريق تؤنث وتذكر، فتقول: هذا طريقٌ، وهذه طريق، وكلمة الحال تؤنث وتذكر، تقول: هذه الحال، وهذا الحال، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ، ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ -يعني: يكاد يأكل الثرى من شدة العطش- فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي - فهذه بهيمة، وهي عطشى، وقد بلغ بها العطش مثل الذي بلغ مني، فرقَّ قلبه لهذه البهيمة- فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَأَ خُفَّهُ ثُمَّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ -خفه أي حذاءه، أمسكه بفمه- حَتَّى رَقِيَ، فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَغَفَرَ لَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي هَذِهِ الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة]

نحن نريد أن نؤكد في هذا الفصل: أن أبواب الخير كبيرة جداً، إذا أحسنت إلى حيوان ، إذا أطعمت هرة، إذا أنقذت نملة، إذا أنقذت فراشة، أبواب الخير لا تعد ولا تحصى، بل إن معظم أبواب الخير لا تحتاج إلى مال .

((إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم))

والخلق كلهم ليس البشر، بل الخلق كلهم، فهذا الكلب من خلق الله، والقطة من خلق الله، وأية حشرةٍ غير مؤذيةٍ من خلق الله، الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله، أنفعهم لعياله.

وفي الحديث الماضي تبين لنا: أن المعروف نوعٌ من الإيمان، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ))

إذاً: أن تسقي كلباً عطشان، فهذا نوعٌ من الإيمان، أن تطعم الهرَّة، هذا نوعٌ من الإيمان، كان عليه الصلاة والسلام يصغ الإناء للهرة، أن تتلافى أن تذهب بحياة نملة، هذا إيمان، وهذا عمل صالح . في روايةٍ للبخاري، هذا النص متفقٌ عليه، أي اتفق عليه أئمة الحديث، لكن الإمام البخاري انفرد، فيقول النبي عليه الصلاة والسلام في رواية الإمام البخاري:

((فشكر الله له، فغفر له، فأدخله الجنة))

فربما لا تدري أيّ عمل تدخل به الجنة، يعني: العمل المخلص الصادق، الذي تبتغي به وجه الله عزَّ وجل، ربما أدخلك الجنة .

إليكم هذه الأحاديث التي جاءت في بيان أن أبواب الخير كثيرة :

١-لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة......:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا، يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ، فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ))

يعني: أي شيءٍ يؤذي الناس؛ يؤذيهم في طرقاتهم، يؤذيهم في مساكنهم، يؤذيهم في علاقاتهم، يؤذيهم في بيعهم، يؤذيهم في شرائهم، إذا تلافيته، وأحسنت للناس، ربما كان هذا العمل الصادق المخلص، طريقاً لك إلى الجنة .

((لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا، يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ، فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ، كَانَتْ تُؤْذِي النَّاسَ))

٢- من توضأ فأحسن الوضوء.........:

عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ تَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَة، فاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ، وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَمَنْ مَسَّ الْحَصَى فَقَدْ لَغَا))

هل هناك فرقٌ بين الوضوء والوَضوء؟ هل تعرفون؟ هل هناك فرقٌ بين السَحور والسُحور؟ هل هناك فرقٌ بين السِتر والسَّتر؟ بين الشِق والشَق؟ بين الغِش والغَش؟ بعض هذه الكلمات مصدر، وبعضها اسم، المصدر يشير إلى الحدث، لكن الاسم يشير إلى الشيء، فالوضوء أن تغسل وجهك ويديك إلى مرفقيك كما أمرنا الله عزَّ وجل، لكن الماء الذي تغسل به وتتوضأ به اسمه: الوَضوء، فالوضوء شيء، والوَضوء شيء، أن تستيقظ قبيل الفجر لتأكل في رمضان، هذا اسمه: السُحور، أما هذا الطعام الذي تأكله اسمه: السَّحور، أن ترخي السِتر، هذه العملية اسمها: السِتر، أما هذا القماش اسمه: السَّتر .

فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((مَنْ تَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَة، فاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ، وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَمَنْ مَسَّ الْحَصَى فَقَدْ لَغَا))

يعني توضأ وضوءًا متقناً، وتوجه إلى المسجد في الوقت المناسب، مبكراً، في أول صف، واستمع إلى الخطبة، وتعلم من الخطبة أمور دينه، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((فاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ، وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَمَنْ مَسَّ الْحَصَى فَقَدْ لَغَا))

طبعاً: المسجد سابقاً كانت أرضه من الحصى، فإذا أمسك الحصى، وقلب الحصى، وأصدر للحصى صوت، فقد لغا، والله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ١-٣]

الآن: يقابل الحصى أن تمسك بسبحة وتسبح، ولها طرقات، طق، طق، طق، وأنت في مجلس علم، هذا لغو، من مسك سبحةً، وتلاعب بها، حتى أصدرت صوتاً، فقط لغا، لأنه من بركة المسجد الإنصات، ومن حق الأخ على أخيه، أن ينصت له .

((مَنْ تَوَضَّأَ، فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَة، فاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ، وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَمَنْ مَسَّ الْحَصَى فَقَدْ لَغَا))

كأن النبي عليه الصلاة والسلام يحببنا بمجالس العلم، يحببنا بارتياد المساجد، يدعونا إلى أن نذهب إلى المساجد في كل وقت، وأن نستمع، وربما قال بعضهم: إن للوقت زكاةً كما أن للمال زكاة، كيف أن للمال زكاة كذلك للوقت زكاة؛ زكاة الوقت أن تذهب إلى المسجد لتستمع إلى مجلس علم، وتتفقه في أمر دينك، أو تتعلم تفسير القرآن الكريم، أو الحديث النبوي الشريف .

٣- ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا......:

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟ قالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ))

[أخرجه البزار في مسنده عن جابر بن عبد الله]

الوضوء في الشتاء، الماء بارد، وأنت متدفئ، يعني هذا يحتاج إلى إرادة قوية، وهو نوعٌ من بذل الجهد .

((إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ))

المؤمن في المسجد كالسمك في الماء، إذا كنت مرتاحاً في المسجد، فهذه علامة طيبة ، بينما المنافق في المسجد كالعصفور في القفص، يتضايق، لكن المسلم يرتاح، لكن نحن مكلفون كذلك بالمقابل، أن يكون المسجد دافئا، والإضاءة كافية، والتهوية بالصيف جيدة، والماء للوضوء ساخن، والماء للشرب بارد، والسجاد ممتاز ونظيف، هذا علينا، لكن إذا كانت كل هذه الشروط متوافرة، فما بالكم فيمن يرتاد المساجد، والله سبحانه وتعالى يكتب له بكل خطوةٍ حسنة؟.

أنا أقرأ هذه الأحاديث، لأنها مجموعة كلها، في باب كثرة طرق الخير .

٤-إذا مرض العبد أو سافر.......:

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا))

هذا المؤمن عرف الله عزَّ وجل، واستقام على أمره، وباع نفسه، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

[سورة التوبة الآية: ١١١]

بعد أن باع نفسه إذا سافر، كُتب له أجر المقيم، وإذا مرض كتب له أجر الصحيح، يعني إذا مرض أحدُنا، لحكمةِ الله سبحانه البالغة، فقبع في الفراش، هذا الفراش كأنه يحضر مجلس العلم، لماذا؟ لأنه يتمنى أن يحضر هذا المجلس، تمنّيه أن يحضر هذا المجلس، كأنه حضره، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا))

٥-كل معروف صدقة :

وفي حديثٍ آخر، رواه الإمام البخاري، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ))

كل شيءٍ تعارف الناس على أنه شيءٌ حسن، فهو صدقة، وهذا الحديث واسعٌ إلى درجةٍ لا نهائية، كل معروفٍ؛ فلو دللت إنساناً على مكانٍ، ليشتري منه حاجته، فهذا معروف، صدقة، لو نبهت إنساناً، إلى أن بعض أزراره في سرواله، ليست منضبطة، يضحك عليه الناس، أنت نبهته، ولم يكلفك هذا العمل شيئًا، يا أخي انتبه إلى زر السروال، هذا العمل صدقة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ))

على كتف أخيك ريشة، وهو غير منتبه إليها، أنت نبهته، أو نزعتها عنه، هذه صدقة، دخلت بستانًا، وجدت فيه هرة مريضة داويتها، هذه صدقة، دخلت بيتًا، فرفعت الستائر حتى أشرقت الشمس على هذه الغرفة، سرّ الجالس، وهو مريض، والستار مغلق، هذا معروف، وهو صدقة، فهذا الباب واسع إلى درجة ما لا نهاية .

((كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ))

في عملك، في الطريق، في بيتك، في سفرك، في إقامتك، في نزهتك، لو فرضنا أن رجلاً، أشار لك، فأعرته مفكًا، فقد كان مقطوعًا، صدقة، أعرته حاجة صدقة،

((كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ))

رأيت رجلاً، يحمل أغراضًا، وستقع منه، فيحتاج إلى كيس، فقلت: هذا كيس تفضل، وإنسان يقول لك: لا يوجد عندي أكياس، هذا مضطر ليصرف خمس ليرات، يكون درجه كله مملوءا، فيقول لك: لا يوجد، الناس تركوا الخير، مع أنك لو دللت إنسانًا على بيت، فهو صدقة، لو سرت معه صدقة، لو دللت أعمى، كل معروفٍ صدقة، فأبواب للخير مفتحةٌ على مصراعيها، وما على المؤمن إلا أن يدخلها، من كل هذه المصاريع .

٦-خلت البقاع حول المسجد....:

أيها الأخوة، حضور هذه المجالس، وبعض الأخوة الكرام يأتون من أماكن بعيدة، يركبون الحافلات العمومية، ربما استغرق الطريق ساعتين، قبل أن يصلوا إلى هذا المكان، وربما استغرقت عودتهم إلى بيوتهم ساعة ونصف.

أراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد، يبدو أن بيوتهم بعيدة، والمسجد النبوي بعيدٌ عنهم، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((خَلَتْ الْبِقَاعُ حَوْلَ الْمَسْجِدِ، فَأَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ، أَنْ يَنْتَقِلُوا إِلَى قُرْبِ الْمَسْجِدِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْتَقِلُوا قُرْبَ الْمَسْجِدِ، قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ أَرَدْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا بَنِي سَلِمَةَ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ))

[أخرجه مسلم عن جابر بن عبد الله في الصحيح]

يعني: الزموا دياركم، ابقوا في دياركم، تكتب آثاركم، في كل خطوةٍ حسنة، يقدرها الله عزَّ وجل، قال:

((دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ، دِيَارَكُمْ تُكْتَبْ آثَارُكُمْ))

يعني: هذا الذي أتى من مكان بعيد، له أجرٌ غير الأجر، الذي جاء من مكان قريب، دِيَارَكُمْ إعرابها: مفعول به لفعل محذوف تقديره الزموا، هذا بحث اسمه الإغراء والتحذير، أنت تقول لإنسان: الصدقَ الصدقَ، يعني الزم الصدق، المُروءةَ المروءةَ، النُبْلَ النبلَ، الأمانةَ الأمانَةَ، كأنك تقول له: الزم الأمانة، مفعول به منصوب لفعل محذوف تقديره الزم، وعندنا التحذير: الدناءةَ الدناءَةَ، البخلَ البخْلَ، العقربَ العَقربَ، يعني احذر، فإما أن تنتصب هذه الكلمة على الإغراء، وإما أن تنتصب على التحذير، وقال بعضهم: أخَاكَ أخاكَ، هذا إغراء أم تحذير؟ أخَاكَ أخاكَ إغراء ..

أخاك أخاك إن من لا أخا له كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح

يعني الزم أخاك، فالذي لا أخا له، كالذي يسعى إلى الحرب دون سلاح، فقال بعضهم : لا بل هذا على التحذير ..

أخاك أخاكَ إنّ من لا أخا له كساعٍ إلى الهيجا بكل سلاح

هذا المتشائم، اعتبره من التحذير، أما المتفائل، فاعتبره من الإغراء .

حديثٌ آخر متعلقٌ بالمسافات التي تفصل بين البيوت والمساجد: عن أبي المنذرِ أبي بن كعبٍ رضي الله عنه، أنه قال:

((كان رجلٌ، لا أعلم رجلاً، أبعد من المسجد منه -من مكان بعيد يأتي- وكان لا تخطئه صلاةٌ -في كل الصلوات يصلي خلف النبي عليه الصلاة والسلام- وله مكانٌ بعيدٌ بعيد، فيقيل له، أو فقلت له: لو اشتريت حماراً أو دابةً، تركبها في الظلماء، تعينك على هذا المجيء كل يوم، وفي الرمضاء، فقال: ما يسرني أن منزلي جنب المسجد، إني أريد أن يكتب لي ممشاي إلى المسجد، ورجوعي إذا رجعت إلى أهلي، فقال عليه الصلاة والسلام:

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ:

((كَانَ رَجُلٌ، لَا أَعْلَمُ رَجُلًا، أَبْعَدَ مِنْ الْمَسْجِدِ مِنْهُ، وَكَانَ لَا تُخْطِئُهُ صَلَاةٌ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ أَوْ قُلْتُ لَهُ: لَوْ اشْتَرَيْتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ فِي الظَّلْمَاءِ، وَفِي الرَّمْضَاءِ، قَالَ: مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَنْزِلِي إِلَى جَنْبِ الْمَسْجِدِ، إِنِّي أُرِيدُ أَنْ يُكْتَبَ لِي مَمْشَايَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَرُجُوعِي إِذَا رَجَعْتُ إِلَى أَهْلِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَكَ ذَلِكَ كُلَّهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي بن كعب في الصحيح]

في مجيئك كتب الله لك الأجر، وفي عودتك كتب الله لك الأجر، إذا وقفت في موقف السيارات العمومية تنتظر قدومها، إلى أين ذاهب؟ يعقد صفقة؟ لا، يحضر سهرة؟ لا، ينال حظ نفس؟ لا، مدعو لوليمة؟ لا، بل هو ذاهب إلى مسجد، ليستمع إلى كلام الله، فهذا الوقوف ، وركوب السيارة، والازدحام فيها، يمكن واحد يدفعك دفعًا قويًّا، يمكن لإنسان أن يقسو عليك بالكلام، يمكن أن تحس بمشقة في هذا الركوب، هذا كله له أجر، لا بد للإنسان أنْ يعرف حاله لما يكون عمله طيبًا، ويسعى لمعرفة الله، فالملائكة كما قال عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا، سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ))

[أخرجه الترمذي وأبو داود في سننهما عن أبي الدرداء]

وطالب العلم مكفولٌ له رزقه كما قال عليه الصلاة والسلام:

((من طلب العلم، تكفل الله له برزقه))

بمعنى: أن الله سبحانه وتعالى يرزقه رزقاً حسناً، يعوضه عن هذا الوقت الذي فاته أضعافاً كثيرة .

قال لي أخ البارحة: أعِدُ شخصًا، أنتظره لا يأتي، راحت علي الصلاة بالمسجد، فالمرة الثانية لا تنتظره، ما دام أذن المغرب، اذهب وصلِ، من ابتغى أمراً بغير ما يرضي الله، فاته ما يرضي الله، وفاته هذا الأمر في آنٍ واحد .

٧-إن الله ليرضى عن العبد....:

الحديث الأخير: عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ، أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا))

[أخرجه مسلم عن أنس بن مالك في الصحيح]

أكلت صحن حمص، فقل: الحمد لله، هناك أناس يأخذون سيروم بالمستشفيات، والسيروم ليس له طعم، مفيد، ولكن ليس له طعم، ربنا عزَّ وجل أطعمك طعاماً لذيذاً، وسقاك شراباً طاهراً، بارداً، نظيفاً، فالنبي كان إذا خرج من الخلاء يقول:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته ، وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه))

أطعمك طعاماً طيباً، وأبقى فيك قوة هذا الطعام، المواد الغذائية، وأذهب عنك أذاه، فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ، أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا))

الإنسان يحمد الله من كل أعماقه بشربة ماء، هذا الماء لو مُنِعَ عنك بكم تشتريه؟ ثمة إنسان قبل أنْ يكون الطريق إلى دول الخليج معبَّدًا، كان الطريق صحراويًا، وهذا الإنسان عمِل خمس أو ست سنوات، وجمَّع مبالغ جيدة، وعاد بسيارته إلى الشام، يبدو أنه ضل الطريق، فبقي أكثر من عشر ساعات تائهاً في الصحراء، وجدوه ميتاً، وقد مزَّق وجهه بأظافره من شدة العطش، ووجدوا زوجته على قيد الحياة، تضع لسانها في فم أطفالها، يعني هذا كأس الماء لا يعدله شيء، هو شيءٌ ثمينٌ جداً، فلما يفتح أحدنا الصنبور، ويملأ ويشرب، لا يقل: إح، بل الحمد لله رب العالمين .

((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ، أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا))

أكلة تحبها أكلتها، الله أطعمك هذا الطعام، اشكر الله عزَّ وجل، سيدنا عمر قال لزوجته:

((ما عندك يا أم كلثوم؟ .
قالت له: والله ما عندنا إلا خبزٌ وملح .
قال: هاته لنا، فأكل هو وضيفه خبزًا، وملحًا، وشرب الماء، وقال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا))

يكون أحدُنا على طاولته، وفيها خمسة أو ستة أصناف؛ المقبلات، والسَّلطات، والطبخ، والفواكه، وأين الرز بالحليب؟ أين الكاتو؟ وينسى أن هذا الطعام من فضل الله عزَّ وجل، المؤمن الصادق يرى أنه على مائدة الله، هذه مائدة الله، مَن منكم يُدعَى، ويأكل، ويمشي، ولا يقول: دائماً؟ لا يستطيع أن يعملها أحدٌ، مستحيل، إنك تخجل، تقول له مرتين: دائماً، الله يكثر الخير، أكرمتنا، أكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة الأخيار، وذكركم الله فيمن عنده، هكذا العادة، الإنسان عبد

للإحسان، لكنك إذا نظرت إلى هذه المائدة، التي تأكل منها في بيتك، هي مائدة الله عزَّ وجل، مَن أعطاك ثمنها أولاً؟ مَن أعطاك قدرات تشتغل؟ لو واحد اختل عقله، يضعونه (بالقصير)، أي: بمستشفى الأمراض العقلية، ما استطاع أن يكسب نقوداً، أعطاك خبرات مهنية، صناعية، تجارية، زراعية، معك شهادة عليا، موظف، طبيب، مهندس ، محامٍ، مدرس، لك مصلحة، عندك محل تجاري، أعطاك قوة، الدماغ يعمل، العضلات، الأوردة، الشرايين، نسب الكوليسترول والأوريك، كلها نسب صحيحة بالدم، الكظر يعمل، والبنكرياس تعمل، وكل الأجهزة تعمل، وأنت بمحلك تبيع، وتشتري، وتربح، وتأتي بأكل على البيت، فهذه المائدة هي مائدة الله عزَّ وجل، لذلك النبي الكريم يقول:

((إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ، أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا))

[أخرجه مسلم عن أنس بن مالك في الصحيح]

يا رب لك الحمد والشكر، والنعمة والرضا، على ما أطعمت، وتفضلت، وأكرمت، إذا رأى ربنا عزَّ وجل إنسانًا يشكره، هل تزول هذه النعمة؟ لا والله، قال تعالى:

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ)

[سورة إبراهيم الآية: ٧]

الشكر على النعمة أمانٌ من زوالها:

((يا عائشة، أكرمي مجاورة نعم الله، فإن النعمة إذا نفرت قلما تعود))

إليكم قصة استخلاف عثمان بن عفان الخلافة، وكم كان عمره آنذاك؟

والآن: إلى فصلٍ جديد، عن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه، عن خلافته رضي الله عنه.

سيدنا عمر رضي الله عنه، وهو يجود بأنفاسه الطاهرة، أبى أن يستخلف أحداً، فما سمَّى اسم الخليفة الذي من بعده، وحين ألحَّ عليه بعض أصحابه، كي يختار مَن يخلفه، استمسك بإبائه، ورفض، وقال لهم:

((أأحمل أمركم حياً وميتاً؟ وددت أن يكون حظي منكم الكفاف، لا لي ولا علي ...))

كلما عرفت عظمة الله، تخاف منه أكثر، وكلما جهلت ما عند الله من ثواب أو عقاب، يقلّ خوفك، فالخوف مؤشِّر، كلما ازداد خوفك، هذا مؤشرٌ على ازدياد معرفتك، كلما ازدادت معرفتك، ازداد خوفك، كلما قلّت معرفتك قلَّ خوفك، يمكن للطبيب أن يبالغ بغسل الفاكهة، لأنه يرى الجراثيم، ويرى الأمراض والعدوى، تجده يبالغ مبالغة كبيرة، يمكن لإنسان جاهل، أن يأكل فاكهة من دون غسيل، أو يأخذ إبرة من دون تعقيم، يقول لك: ما مِن مشكلة، لكن الطبيب يعرف العدوى، فعلى قدر العلم يكون الخوف .

قال سيدنا عمر :

((... إلا إني إن أستخلف، فقد استخلف مَن هو خيرٌ مني -يعني أبا بكر- وإن أترك -لا أستخلف- فقد ترك من هو خيرٌ مني -يعني رسول الله، سيدنا الصديق استخلف- والله حافظٌ دينه))

ليس أنا، ولكن هذا الدين دين الله عز وجل، الإنسان لا يكثر غلبة، لأن ربنا عزَّ وجل يعرف شغله، قال:

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني، حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني، حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم))

قال لهم: والله حافظٌ دينه، ثم توفاه الله عزَّ وجل .

لكن النبي صلى الله عليه وسلم قال قبل وفاته بأيام:

((أيها الناس، إني راضٍ عن عمر، وعن علي، وعن عثمان، وعن طلحة بن عبيد الله، وعن الزبير بن العوام، وسعد بن ملك، وعبد الرحمن بن عوف، والمهاجرين الأولين، فاعرفوا لهم ذلك))

هؤلاء العشرة الذين بشروا بالجنة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ، هِيَ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ، فَقَامَ عُكَاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ الْأَسَدِيُّ، يَرْفَعُ نَمِرَةً عَلَيْهِ، قَالَ: ادْعُ اللَّهَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: سَبَقَكَ عُكَاشَةُ))

أخذها محلك، ما قال له: أنت من أهل النار، أو لست مُبشَّراً، فقال:

((سَبَقَكَ عُكَاشَةُ))

فالنبي عليه الصلاة والسلام بشر هؤلاء:

((أيها الناس، إن أبا بكر لم يسؤن قط، فاعرفوا له ذلك))

((أيها الناس إني راضٍ عن عمر، وعن علي، وعن عثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن، والمهاجرين الأولين، فاعرفوا لهم ذلك))

عليٌّ، وعثمان، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبد الرحمن، هؤلاء الستة منحهم النبي عليه الصلاة والسلام كل هذا التكريم .

فقال سيدنا عمر الآن:

((إني نظرت فوجدتكم القادة، ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم -يعني الخليفة يجب أن يكون أحدكم- وقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو عنكم راضٍ، وإني لا أخاف الناس عليكم ما استقمتم، فإذا أنا مت، فتشاوروا ثلاثة أيامٍ، ولا يأتي اليوم الرابع، إلا وعليكم أميرٌ منكم -من هؤلاء- وليحضر معكم عبد الله بن عمر مشيراً، ولا يكون له من الأمر شيء .

-أول شيء: منع ابنه أن يكون خليفة من بعده، يعني هؤلاء الستة تدارسوا أمركم فيما بينكم، واختاروا أحدهم، في أيامٍ ثلاثة على الحصر، هذه وصية عمر قبل أن يموت، اختار هؤلاء الستة من العشرة الذين بشروا بالجنة- .

سيدنا طلحة كان غائباً عن المدينة، فاجتمع بقية الصحابة الذين وضع فيهم عمر الأمانة، وجعلها في أعناقهم قبل رحيله، واقترح عليهم عبد الرحمن بن عوف، أن يخلع أحدهم نفسه، من لا يرغب أن يكون خليفة يخلع نفسه، ويتنازل عن حقه في الترشيح، ليكون صوته مرجِّحاً إذا قام خلاف .

بادر سيدنا عبد الرحمن فخلع نفسه، وقال: أنا زاهدٌ فيها، ثم تنازل الزبير عن حقه لعلي رضي الله عنه، وتنازل سعد بن أبي وقاص عن الترشيح أيضاً، إلى أن انحصر الاختيار بين اثنين فقط، هما عثمان وعلي، وفوِّض عبد الرحمن بن عوف في اختيار أحدهما، وكان على ابن عوف أن ينجز هذه المهمة في الأيام الثلاثة، التي أوصاهم الخليفة الراحل ألا يجاوزوها، وكان عليه خلال هذه المهلة القصيرة، أن يجري شورى واسعة، واستفتاءً عاماً بين أصحاب النبي جميعاً عليهم رضوان الله، ثم راح يزرع المدينة، ويقرع أبواب دورها))

يقول ابن كثير:

((نهض عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، يستشير الناس، ويجمع رأي المسلمين عامَّتهم، وقادتهم جميعاً وأشتاتاً، مثنى وفرادى، سراً وجهراً، حتى خلص إلى بعض النساء المحجبات في بيوتهن -لهم حق الانتخاب هكذا يبدو- وحتى سأل الولدان في المكاتب، وحتى سأل الركبان الوافدين على المدينة، حتى المسافرين استفتاهم جميعاً، واستنتج آراءهم وأخذ أقوالهم .

ونتابع الحديث مع ابن كثير: ثم أرسل عبد الرحمن في طلب عثمان وعلي، فقدما عليه، فأقبل عليهما، وقال لهما: إني سألت الناس عنكما، فلم أجد أحداً يعدل بكما أحداً، -يعني أنتم أحسن شيء- ثم أخذ العهد على كلٍ منهما: لئن ولاَّه ليعدلن، ولئن ولي عليه ليسمعن، إن وليناك عليك أن تعدل، وإن لم تولَّ، وولي عليك أحداً، عليك أن تطيع، إما أن تعدل، وإما أن تطيع، ثم خرج

بهما إلى المسجد، وقد لبس عبد الرحمن العمامة التي عممه بها النبي عليه الصلاة والسلام، وتقلّد سيفاً، وبعث إلى وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ونودي في الناس كافةً: الصلاة جامعة، وتراص الناس حتى غصَّ بهم المسجد، ولم يبق لعثمان موضع يجلس فيه، إلا في أخريات الناس، وكان رجلاً حيياً، ثم صعد عبد الرحمن بن عوف منبر النبي عليه الصلاة والسلام، فدعا دعاءً طويلاً، ثم تكلم فقال:

أيها الناس، إني قد سألتكم سراً وجهراً، فلم أجدكم تعدلون بعلي وعثمان أحداً -هؤلاء صفوة الصفوة، نخبة النخبة- فقم إلي يا علي، فقام إليه، وأخذ عبد الرحمن بيده وسأله: هل أنت مبايعي على كتاب الله، وسنة نبيه، وفعل أبي بكرٍ وعمر؟ .

فقال علي: على كتاب الله، وسنة رسوله، واجتهاد رأيي .

ثم قال: قم إلي يا عثمان، فقام إليه، فأخذه بيده، وقال له: هل أنت مبايعي على كتاب الله، وسنة رسوله، وفعل أبي بكرٍ وعمر؟ .

فقال عثمان: اللهم نعم .

فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد، ويده في يد عثمان، وقال: اللهم اسمع واشهد، اللهم إني جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان، وازدحم الناس على عثمان يبايعونه، وكانت أول يمينٍ شدَّت بالبيعة على يمينه يمين علي بن أبي طالب -أول إنسان بايع سيدنا عثمان سيدنا علي بن أبي طالب- .

وهكذا حمل عثمان أثقال الخلافة، وهو على وشك أن يستقبل السبعين من عمره -شيخ متقدم في السن، وسوف ترون بعد قليل: كيف أن أول معركةٍ في تاريخ المسلمين بحريةٍ، جرت في عهده؟ أول من أنشأ أسطول إسلامي، حارب به الروم، واحتلَّ به جزيرة قبرص، هو سيدنا عثمان.

سيدنا عثمان يبدو أنه كان حيياً، وكان وجلاً، وكان يحب أن يبقى في الظل لا تحت الأضواء- فلما ألقى كلمة افتتاحية بعد توليه الخلافة أُرْتِجَ عليه، يقول عبد الرحمن بن عوف: ما رأيت أحداً كان إذا حدث أتم حديثاً، ولا أحسن من عثمان، إلا أنه كان رجلاً يهاب الحديث))

لا يحب الكلام الكثير .

ما وراء هذه القصة :

سيدنا عثمان مما يروى عنه، في عهد عمر رضي الله عنه، أطل من نافذة بيته، فأبصر على البعد، رجلاً يجري في قيظ النهار، وهجير الصحراء، فظنه غريباً، نزل به كربٌ عظيم، ولبث مطلاً من نافذته، حتى يعود ذلك الرجل الملهوف، فيدعوه إلى ظل داره، ويغيثه من لهفته، وكم كانت دهشته وعجبه حين اقترب الرجل، فإذا هو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ممسكاً بحطام بعيره، يتهادى وراءه، سأل عثمان:

((من أين جئت يا أمير المؤمنين؟.

أجابه عمر: من حيث ترى، بعيرٌ من إبل الصدقة ند هارباً، فأسرعت وراءه، ورجعت به .

سأله سيدنا عثمان: ألم يكن هناك من يقوم بهذا العمل سواك؟!.

أجابه عمر: ومَن يقوم مقامي في الحساب يوم القيامة؟ .

ودعاه عثمان إلى الراحة، حتى تنكسر حدة الهجير، فما زاد عمر على أن قال، ودموعه الورعة تسيل على خديه: عد إلى ظلك يا عثمان، ارجع إلى غرفتك ترتاح، ومضى لسبيله، وعينا عثمان متعلقتان به، حتى غاب عنهما، وراح عثمان يتمتم قائلاً: لقد أتعبت الذين جاؤوا بعدك يا عمر، سوف تهلكهم))

وهو جاء بعده، معنى هذا: سيدنا عثمان سيتعب كثيراً .

الغزوات التي تمت في عهد عثمان بن عفان :

١-قبرص :

سنأخذ آخر شيء في هذا الفصل، كيف أنه رضي الله عنه حارب في البحر؟ .

سيدنا عثمان رأى، أن الأسطول البحري للروم، يتخذ من جزيرة قبرص منطلقاً لعدوانه، فقرر غزوه، ولكن كيف والمسلمون لم يمتطوا ثبج البحر إطلاقاً من قبل في قتال، وأميرهم العظيم الراحل، كان لا يوافق على مخاطرةٍ من هذا القبيل؟ سيدنا عثمان تدارس هذا الأمر مع بعض أصحابه، واقتنع بحتمية هذه المخاطرة، لا بد منها، ولأول مرةٍ يشهد التاريخ ميلاد البحرية الإسلامية .

أذِنَ الخليفة لمعاوية بغزو قبرص، فأبحر إليها من الشام، وأمده الخليفة بجيشٍ آخر بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح، وأطبقت القوتان العارمتان على الجزيرة، فاستسلمت، ووقعت الصلح الذي فرضه المسلمون، لو واحد زار قبرص يجد فيها مآذن كثيرة، وفي هذه الغزوة تحققت نبوءة النبي عليه الصلاة والسلام. ما نبوءة النبي؟ .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ سَمِعَهُ يَقُولُ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَدْخُلُ عَلَى أُمِّ حَرَامٍ بِنْتِ مِلْحَانَ فَتُطْعِمُهُ، وَكَانَتْ أُمُّ حَرَامٍ تَحْتَ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَطْعَمَتْهُ، وَجَعَلَتْ تَفْلِي رَأْسَهُ، فَنَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي، عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ،

مُلُوكًا عَلَى الْأَسِرَّةِ، أَوْ مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ، -شَكَّ إِسْحَاقُ- قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَدَعَا لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَقُلْتُ: وَمَا يُضْحِكُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي، عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللَّهِ، كَمَا قَالَ فِي الْأَوَّلِ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قَالَ: أَنْتِ مِنْ الْأَوَّلِينَ، فَرَكِبَتْ الْبَحْرَ فِي زَمَانِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ، فَصُرِعَتْ عَنْ دَابَّتِهَا، حِينَ خَرَجَتْ مِنْ الْبَحْرِ، فَهَلَكَتْ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن أنس بن مالك]

فلما قيل له مرة ثانية: أن تكون هذه المرأة معهم، فقال عليه الصلاة والسلام:

((هي من الأولين))

وليست من الثانيات، رؤيتان رآهما النبي عليه الصلاة والسلام .

لما نشبت الواقعة بين الجيش الإسلامي البحري على السفن وجيش الروم، هذه الغزوة كان فيها عبادة بن الصامت، ومعه زوجته أم حرام بنت مِلحان، وتحققت نبوءة النبي الصادق الأمين فكانت معهم، ولكن في الغزوة الثانية لم تكن معهم، إنها توفيت في قبرص، وقبرها الآن في قبرص، واسم القبر: (قبر المرأة الصالحة)، وهذه أول غزوةٍ يغزوها المسلمون في البحر .

٢-ذات الصواري :

أيها الأخوة، أما الغزوة الشهيرة سماها علماء التاريخ: (ذات الصواري)، هذه الغزوة أساسها: أن قسطنطين ملك الروم، خرج بجيشه الجرار، على ظهر خمسمائة سفينة، تحمل جيش الروم، زاحفاً على بلاد المغرب، ليلاقي بها عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وجمع عبد الله جيشه، ونزلوا بسفنهم إلى البحر، والتقى الجمعان في معركةٍ، تحدى ضراوتها كل وصف ، ودعا قائد المسلمين ليخرجوا إلى البر، ويتقابل الجيشان فوق الأرض الصلبة، فأبوا ذلك، عندئذٍ أسرعت فرقة من جيش المسلمين، فربطت سفنهم بسفن الروم، بعد أن أدنوها منها، ثم راحوا يجتلدون بالسيوف والخناجر، وكان ضحايا المسلمين وشهداؤهم من الكثرة إلى حدٍ فادح ، بيد أن قتلى الروم كانوا أضعافاً كثيرة، وانتصر المسلمون انتصاراً حاسماً، وهرب قسطنطين بجسده، الذي أدمته السيوف، وأثخنته الجراح.

سيدنا عثمان أول خليفة إسلامي، ينشئ جيشًا بحريًا، يغزو الروم في معركتين، أشهرها: (ذات الصواري) .

نهاية المطاف :

أيها الأخوة، سيدنا عثمان له فتوحات كثيرة، سوف نأخذها في درسٍ قادمٍ إن شاء الله تعالى، وله أعمال جليلة في مقدمتها: أنه جمع القرآن، وعلى كل مصحفٍ تقول: هذا المصحف كتب وفق الرسم العثماني، سيدنا عثمان ألف لجنة من كبار الصحابة، ومن كبار القراء، وجمع القرآن، وضبطت رواياته، ووحدت رواياته، وكتبت ست نسخٍ منه، وأرسلها إلى الأمصار، فله الفضل الكبير في توحيد القرآن الكريم، وله عمل عظيم في توسعة بناء المسجد النبوي الشريف، وفي تأمين كل ما يحتاجه رواد هذا المسجد، وله أيضاً أعمال جليلة في الفتوحات، إن شاء الله نأخذها في درسٍ قادم .

أحياناً: المستشرقون يتكلمون كلاماً ليس طيباً عن هذا الخليفة الراشد، هذا الكلام لا ينبغي أن يقال، لأن هذا الخليفة العظيم بشَّره الله بالجنة، وكان خليفةً ممن أرضى الله ورسوله.

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

ما دلالة هذا الحديث ؟

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا مع الحديث النبوي الشريف، ولا زلنا في باب الاقتصاد في الطاعة .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((بَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ، إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقَالُوا: أَبُو إِسْرَائِيلَ، نَذَرَ أَنْ يَقُومَ، وَلَا يَقْعُدَ، وَلَا يَسْتَظِلّ، وَلَا يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ، وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ))

نذر على نفسه، أن يقوم في الشمس، أن يقف في الشمس؛ ولا يعرف شمس الحجاز إلا من زارها، نذر أن يقوم في الشمس، وألا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبي عليه الصلاة والسلام:

((مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ، وَلْيَسْتَظِلَّ وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ))

هذا الحديث فيه دلالةٌ كبيرة، هذه الدلالة: أن المشقَّة ليست مطلوبة لذاتها، لكنك إذا أردت أن تصل إلى عملٍ عظيم، لكنك إذا أردت أن تصل إلى مرضاة رب العالمين، لكنك إذا أردت أن تفعل الخير، لكنك إذا أردت أن تطلب العلم، لكنك إذا أردت أن تفعل شيئاً عظيماً يرضي الله عزَّ وجل، وكانت المشقَّة سبيلك إلى هذا الشيء، فأنعِم بهذه المشقة، وأهلاً بهذه المشقَّة، فالمشقَّة في الإسلام ليست مطلوبة لذاتها .

لو أن هناك سيارةً، تنقلك إلى المدينة المنورة، هل يعقل أن تذهب إليها ماشياً؟ هل تظن أن الثواب لو ذهبت إليها ماشياً أكبر؟ لا، لأن هذه المشقة أصبحت مطلوبة لذاتها، لأن هذه المشقة أصبحت نوعاً من تعذيب الإنسان نفسه، والله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن تعذيب الإنسان نفسه، لم نُخلق لنعذَّب، ولم نُخلق لنعذب أنفسنا باختيارنا، ولكن لو أنك أردت أن تصل إلى مجلس علمٍ، وكان البرد شديداً، والأمطار منهمرةً، والمواصلات صعبة، ووقفت وقتاً طويلاً، تنتظر مركبةً عامة، تنقلك إلى مجلس العلم، فهذه مشقة، ولكن هذه المشقة وسيلةٌ لطلب العلم، إذاً: أنْعِمْ بها من مشقة، عندئذٍ يفوق أجر هذا

الذي تحمَّل هذه المشقة، أجر الذي لم يتحمَّلها، عندئذٍ تدخل المشقة في الحساب، في الأجر والثواب، لا تدخل المشقة في الحساب، والأجر والثواب، إلا إذا كانت وسيلة لعملٍ عظيم .

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا بارك الله لي في يومٍ، لم أزدد فيه من الله قرباً، ولا بارك الله لي في يومٍ، لم أزدد فيه من الله علماً))

لو أن الإنسان باع واشترى، وربح أموالاً طائلة في يوم من الأيام، ولم يزدد في هذا اليوم من الله قرباً، ولم يزدد في هذا اليوم من الله علماً، فهذا اليوم ليس مباركاً، هذا اليوم لا يمتد أثره إلى الدار الآخرة، بل ينقطع أثره عند الموت، مهما ربحت من أموال، مهما أنجزت من أعمال، لكنك في يومٍ ما تقرَّبت إلى الله عزَّ وجل، ازددت منه قرباً بعملٍ صالح، ازددت منه علماً بتعلم شيءٍ من كتاب الله، ازددت منه محبةً بأن تتقن عباداتك، إذا كنت كذلك فقد ربح يومك، وربحت تجارتك .

النبي عليه الصلاة والسلام، خاطب أحد أصحابه الكرام، وقد جاء من مكة إلى المدينة مهاجراً، لما وصل المدينة، حدَّث النبي بما جرى له في الطريق، تبعه أناسٌ، وضيقوا عليه الخناق، حتى افتدى نفسه بمالٍ له في مكة، قال:

((لو دللتكم على مالي فأخذتموه، هل تَدعوني وشأني؟ قالوا: نعم، قال: مالي في المكان الفلاني والفلاني، فقال عليه الصلاة والسلام: ربحت تجارتك))

إذاً: ليست المشقة مقصودةً لذاتها؛ إنسان يقف في الشمس بلا سبب، وبلا طائل، تقرباً إلى الله عزَّ وجل، ليس هذا في الدين الإسلامي في شيء، إن الله عزَّ وجل قال:

(وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

[سورة البقرة الآية: ١٩٥]

لكن إذا كان طلب العلم، يحتاج إلى مشقة، يحتاج إلى سفر، يحتاج إلى أن تخرج من بيتك الدافئ، لكن طلب العلم إذا كان يحتاج إلى بذل مال، وقد يكون هذا المال أنت بحاجةٍ إليه، فبذل هذا المال، بذل هذا الوقت، تحمُّل هذه المشقة، هذه مشقةٌ جعلتها وسيلةً لعملٍ عظيم، لو أن إنساناً طلب منك أن تعاونه في إنجاز قضية، فذهبت معه صيفاً أو شتاءً، وتحملت في هذه المساعدة المشقة، هذه المشقة تؤجر عليها أضعافاً مضاعفة .

إذاً: النقطة الأساسية في هذا الحديث: أنه لا يجوز أن يسعى المؤمن إلى مشقةٍ بلا هدف، لا يجوز أن يحمِّل نفسه مشقة لا طائل منها، لأن المشقة ليست مطلوبة لذاتها، يمكن أن تكون المشقة وسيلة لعلمٍ، أو لعملٍ، أو لقربة، أو لجهادٍ، هذا كله تحسب عندئذٍ هذه المشقة بثوابٍ كبير لا يعلمه إلا الله .

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام بينما كان يخطب، إذا هو برجلٍ قائمٍ، يبدو أنه قائمٌ في الشمس، فسأل عنه، فقالوا:

((أبو إسرائيل -اسمه: أبو إسرائيل- نذر أن يقوم في الشمس، وألا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم -فأن تنذر لله ألا تقف في الظل، هذا إلقاءٌ بيديك إلى التهلكة، أن تَنْذر لله أن تقوم في الشمس، هذا إلقاءٌ بيديك إلى التهلكة- قال: مروه فليتكلم -ليس في ديننا صيامٌ عن الكلام، ليس في الشريعة الإسلامية صيامٌ عن الكلام- وليستظل، وليقعد، وليتم صومه))

لأن الصوم قربة من الله عزَّ وجل.

ما أردت من هذا الحديث، إلا أن ننطلق منه إلى هذه الحقيقة الأساسية: يجب ألا تُستهدف المشقة لذاتها، أما إذا كانت طريقاً إجبارياً، أو وسيلةً وحيدةً لبلوغ مرتبةٍ عند الله، الصيام فيه مشقة؛ لكنه أمرٌ تعبدي، وأمرٌ إلهي، يجوز أن يكون الجهاد في سبيل الله شاقاً، لكنْ هناك هدفٌ نبيل، وهو نشر الإسلام في الخافقين، فحينما خرج الصحابة الكرام من بلادهم، وفتحوا مشارق الأرض ومغاربها، لا شك أنهم تحملوا مشقةً كبيرة، بل هي كبيرةٌ كبيرة، لكن هذه المشقة، كانت وسيلة إلى عملٍ عظيم لله سبحانه تعالى، يثيب عليها ويتقبلها .

من معاني هذا الحديث :

عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فَخُذُوا عَنِّي، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ))

ربنا عزَّ وجل أمرنا بأشياء، ونهانا عن أشياء، وسكت عن أشياء، فالحكمة التي نستشفُّها من الذي سكت عنه، لا تقل عن الحكمة التي نستشفها من الذي أمر به، ولا تقل عن الحكمة التي نستشفها من الذي نهى عنه، فهناك أمرٌ، وهناك نهيٌ، وهناك سكوت، فالذي سكت الله عنه، يجب أن نسكت عنه، فكلما سألت في هذا الموضوع، ضاقت عليك الأمور، بنو إسرائيل جعلهم الله لنا عبرةً، أُمروا أن يذبحوا بقرة فقط، لو أنهم مسكوا أية بقرة وذبحوها لأجزأتهم، قالوا: ما لونها؟ قال تعالى:

(مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا)

[سورة البقرة الآية: ٧٠]

ما زالوا يسألون عن هذه البقرة إلى أن ضاقت الدائرة، وأصبحت هذه الصفات لا تتوافر إلا في بقرةٍ واحدة، طلب صاحبها ثمناً فوق الخيال، لذلك ضيق بنو إسرائيل على أنفسهم بكثرة السؤال، الشيء الذي سكت الله عنه، يجب أن تسكت عنه، والذي أمر به، يجب أن تبحث عنه، والذي نهى عنه، يجب أن تبحث عنه، لتكون عابداً لله عزَّ وجل، لتكون عند الأمر والنهي .

لذلك عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فَخُذُوا عَنِّي، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ))

كان سيدنا عمر مع أصحابه في مكانٍ، وكانوا بحاجةٍ إلى الوُضوء، رأوا غدير ماءٍ، فسأل بعضهم صاحب هذا الغدير:

((هل ترد السباع هذا الغدير؟ فقال سيدنا عمر: يا صاحب البركة لا تجبنا))

لأن الأصل في الأشياء الإباحة، أنت إذا بعت حاجة، لست مكلفاً أن تسأل المشتري: ماذا ستفعل بها؟ صحن يباع، هل ستستخدمه في وضع طعامٍ محرم؟ لست مكلفاً أن تسأله هذا السؤال، هذا الشيء لم تطالب به، لذلك الإنسان أحياناً يترك الأشياء الواضحة البيِّنة، ويتَّبع الشبهات فيقع فيها، فالإنسان عليه أن يكون أديباً مع الله عزَّ وجل، أن يأتمر بما أمر الله، وأن ينتهي عما نهى عنه الله، والشيء الذي سكت الله عنه، يجب أن تعلم علم اليقين: أن في السكوت عنه حكمة ما بعدها حكمة .

((اتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فَخُذُوا عَنِّي، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ))

لكن لما يكون للإنسان عمل تجاري، أو عمل مهني، وهناك أسئلة كثيرة تتعلق بحرمة المال أو بحلّه، هذه الأسئلة ليست من هذا الباب، مهما سألت فيما يتعلق بتحري الحلال، فأنت تعبر عن ورعك، وركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مخلّط ، لكن أشياء غيبية، أشياء متعلقة في الجنة والنار، لو بالغت في السؤال عنها، هذه الأسئلة مضيعةٌ للوقت، فقد صحّ في الحديث القدسي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)))

[أخرجهما البخاري ومسلم عن أبي هريرة في صحيحهما]

فالشيء الذي أخبرنا الله عنه، نكتفي بما أخبرنا عنه، ولا نزيد، لا نسأل، لا نستفهم، لا نستوضح، الله سبحانه وتعالى أخبرنا عن الجنة، وذكر في هذه الأخبار أوصاف الجنة، أنت تريد هذه المرأة؛ مَن سيتزوجها في الجنة؟ يا أخي الرجل له من الحور العين ما يكفي، فهذه المرأة ما الذي لها؟ أسئلة كثيرة متعلقة بالجنة، والله سبحانه وتعالى ذكر في هذا الباب آياتٌ محدودة، حكمة الله عزَّ وجل اقتضت أن تكون هذه الموضوعات محدودةً في القرآن حول الجنة والنار، فليس هناك من طائل، في أن تطرح أسئلة في هذا الموضوع، أنت في غنىً عنها، يا ترى سيدنا يوسف بعد ما خرج من

السجن، وصار عزيز مصر، هل تزوج امرأة العزيز؟ والله لا أدري، الله سبحانه وتعالى سكت عن ذلك، ونحن أيضاً يجب أن نسكت عن ذلك، لأن هذا الشيء خارج المغزى .

كنت أضرب مثلاً: أن إنسان أراد أن يعلم إنسانًا مقومات التجارة الناجحة، فسرد له قصة، قال له: فلان الفلاني، أو أعرف شخصاً، اختار محلاً تجارياً في المكان المناسب، واختار بضاعة مناسبة، وكانت معاملته لطيفة، وأسعاره معتدلة، وما باع ديناً، ولا رفع السعر ، فربح أرباحاً جيدة، واشترى بيتاً، وتزوج، أنت تريد أن تعلمه، أنه لا بد من أن تختار الموقع الجيد لمحلك التجاري، ولا بد من أن تختار البضاعة الجيدة، والسعر المناسب، ولا ينبغي أن تبيع ديناً، وينبغي أن تكون لطيفاً، وما شاكل ذلك، فسألك هذا السائل: هذا الشخص الذي حدثتني عنه أهو طويلٌ أم قصير؟ هذا لا علاقة له بالموضوع، ولا بالمغزى، هذا السؤال يدل على أنك لم تفهم المغزى .

فأحياناً ربنا عزَّ وجل يذكر قصة، وتنتهي القصة عند حدثٍ معين، أنت تريد أن تعرف ماذا وقع بعد ذلك؟ هذه الوقائع لا علاقة لها بالمغزى، ربنا عزَّ وجل كلامه موجز، وربنا عزَّ وجل يتكلم فيما له علاقة بالمغزى، أما فيما ليس له علاقة، حتى كُتَّاب القصة، يقولون: التفصيلات لا تُذكر إلا إذا كانت في خدمة القصة، فإذا لم تكن في خدمة القصة، فهي عبءٌ عليها، عندنا جزئيات كثيرة، فإما أن تذكر هذه الجزئيات، وتكون في خدمة القصة، أو أن تصبح هذه الجزئيات عبئاً على القصة، فالقصد أنه بالإسلام في ناحية العملية، يا ترى، قالوا عن الشيخ محي الدين: (الشيخ الأكفر)، وقال عنه الصوفيون: (سلطان العارفين)، أيهما أصح؟ الجواب:

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة البقرة الآية: ١٤١]

هذا مضيعةٌ للوقت، هذا من شأن الله عزَّ وجل، هذا الرجل العارف بالله، له عند الله مقام، لا يرفعه مدح المادحين، ولا يضعه ذم الذامِّين، له عند الله مقام، لذلك ماذا جرى في صفين؟ ماذا جرى في موقعة الجمل؟ أصحيح ما قاله المؤرخون؟ هذه موضوعات لا تقدم ولا تؤخر، ولا تجدي، أنت في زمنٍ محدود .

لما يستيقظ الإنسان، صباح كل يوم، يقول له اليوم:

((يا بن آدم! أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني قبل ألاّ أعود، تزود مني، فإني لن أعود إلى يوم القيامة))

فالوقت خطير، لذلك الإنسان يشبه وضعه تماماً: لو كان عنده امتحان بعد يومين في كتاب مقرر، وفي مكتبته ألف كتاب؛ قصص، كتب تاريخ، كتب سير، كتب في المغازي، كتب علمية، فلو أنه أمسك كتاباً من هذه الكتب، لا علاقة له بالامتحان بعد يومين، وطالعه، واستمتع به، أليس بهذا العمل غير حكيم؟ طبعاً إنه غير حكيم، لأن الكتاب المقرر مهم جداً .

هذا الذي أريد أن أقوله، هناك موضوعات في الإسلام لا تقدم ولا تؤخر، مهما طرحت فيها أسئلة، مهما تلقيت الإجابات الصحيحة، إنها موضوعاتٌ ثانوية، للإسلام جوهر، فاجعل همك أن تصل إلى جوهر الإسلام، اجعل همك أن تضع يدك على جوهر الدين، اجعل همك أن تحقق الهدف من وجودك في هذه الدنيا، اجعل همك أن ترتقي أنت، لا أن تمدح زيداً أو عُبيداً، ارتق أنت إلى الله عزَّ وجل، فالحديث عن السابقين، وعن خلافاتهم، وعن مشكلاتهم، هذا الحديث لا يقدم ولا يؤخر.

فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((اتْرُكُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِذَا حَدَّثْتُكُمْ فَخُذُوا عَنِّي، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ))

يعني: كونوا عمليين، ولا تكونوا حالمين، كن عمليًا، أنت في زمن محدود، والموت على الأبواب، ولا بد من أن نموت، وسوف تحاسب على أعمالك كلها، أما لو ضيَّعت أشهرًا، في موضوع مضى خلاف بين بعض المذاهب مثلاً، خلاف بين أصحاب رسول الله، لو أمضيت كل عمرك في هذا الموضوع، ماذا تستفيد؟ شيء وقع، وانتهى، عليك أن تبحث عن عملٍ يُجْدي، ويصلح للعرض على الله عزَّ وجل .

علام تدل هذه الأحاديث ؟

والحديث الثالث والأخير، عَنْ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ:

((وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْغَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ))

عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، حَدَّثَنِي مَنْ سَمِعَ خُطْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي وَسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، فَقَالَ:

((يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قَالُوا: بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ

وَأَمْوَالَكُمْ، قَالَ: وَلَا أَدْرِي، قَالَ: أَوْ أَعْرَاضَكُمْ أَمْ لَا كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَبَلَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: لِيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ))

قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: ١٣]

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ))

[أخرجه أبو داود عن جبير بن مطعم في سننه]

فالتعصب انحياز أعمى إلى جهة، على الحق، أو على الباطل، وليس من أخلاق المسلم التعصُّب، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((قَالَ: اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنْ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ))

[أخرجه البخاري عن أنس بن مالك في الصحيح]

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني، حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد عصوني، حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإن صلاحهم بصلاحكم))

الإمام مالك يقول:

((لو أن لي دعوةً مستجابة، لادَّخرتها لأولي الأمر، لأن في صلاحهم صلاح الأمة))

فلذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا))

الإسلام كالنبع الصافي، انظر إلى النبع في منبعه؛ ماءٌ زلال، عذبٌ فرات، صافٍ براق، متألق، رقراق، انظر إلى مصب هذا النبع، ترى ماءً أسود اللون، فإذا كنت بطلاً، فعُد إلى المنابع، الإسلام له منابع، ينابيعه القرآن، ينابيعه أحاديث النبي عليه الصلاة والسلام، هذه الينابيع، ما جاءنا عن صاحب هذه القبة الخضراء، فعلى العين والرأس، وما جاءنا عن سواه، فهم رجال ونحن رجال، ارجع إلى الينابيع، ارجع إلى أصل الإسلام .

هذا البدوي الذي امتحنه سيدنا عمر، قال له:

((بعني هذه الشاة .

قال: والله ليست لي .

قال: خذ ثمنها .

قال: ليست لي .

قال: خذ ثمنها .

قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادقٌ أمين، ولكن أين الله؟))

هذا البدوي وضع يده على جوهر الدين، فأنت عد للينابيع، الدين في جوهره؛ أقام الصلاة، وآتى الزكاة، اتصالٌ بالخالق، وإحسانٌ إلى المخلوق، هذا جوهر الدين، فإذا كنت متصلاً بالله عزَّ وجل، محسناً إلى خلقه، فقد حققت الهدف من وجودك، هذا هو جوهر الدين، اتصالٌ بالخالق، وإحسانٌ إلى المخلوق، لذلك: من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر، لم يزدد من الله إلا بعدا .

وعلى الصيام أيضاً، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ، وَالْعَمَلَ بِهِ، وَالْجَهْلَ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ، فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الصحيح]

حجوا قبل ألاّ تحجوا، قبل أن يصبح الحج تجارةً، وسياحة، وقلوب الحجاج في غفلةٍ عن ذكر الله عزَّ وجل، يعني: هذه العبادات لها مغزى، ولها جوهر .

فلذلك:

((أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا))

الدين مثلاً: جاء أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، كانوا رهباناً في الليل، فرساناً في النهار، الآن في حلقات دينية؛ دوران، وطبل، وزمر، هكذا الدين؟ هكذا كان أصحاب رسول الله؟ في حلقات أخرى، الدين فيها طرب، في حلقات أخرى، الدين أن يمسك بآلةٍ حادة، فيخرق بها بطنه، هكذا فعل أصحاب النبي؟ .

(مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا): سيرى اختلافاً كثيراً عما أنا عليه وأصحابي، عما كان عليه النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام، إذا رأيتم اختلافاً كثيراً؛ في جهةٍ أصبح الدين طرباً، وفي جهةٍ أصبح الدين رقصاً، وفي جهةٍ أخرى أصبح الدين حركةٍ اهتزازية، في جهةٍ ثالثة أصبح الدين خرقاً للعوائد، وفي جهةٍ رابعة أصبح الدين كله منامات، وجهة خامسة أصبح الدين كله

انزواء عن المجتمع، هناك اختلافاً كثير، أما إذا كنت بطلاً، فكن كما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم، وأصحابه الكرام .

(مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا): مبالغة بشيء، وإهمال أشياء، يتضخم هذا الشيء عند أناس، وينسون مقابل ذلك أشياء أساسية في الإسلام، إذا عشتم إلى ذلكم الزمان:

((فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ))

من هنا كان تدريس سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحاديثه الشريفة من أقوالٍ ، وأفعالٍ، وإقرارٍ، وصفاتٍ، ومن هنا كان تدريس سيرة الخلفاء الراشدين، هكذا وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام .

لذلك علماء الحديث قالوا: القول الذي يقوله الصحابي الجليل، يعد حديثاً شريفاً، لأنه لا يعقل أن يقول قولاً إلا وسمعه عن النبي عليه الصلاة والسلام، فالحديث إما أن يكون مرفوعاً إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وإما أن يكون مقطوعاً عند الصحابي الجليل، وهذا يدخل في الحديث الشريف .

((فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ))

شيء ما كان من قبل، البدعة التي نهى النبي عنها، شيءٌ أدخل على العبادات، وليس من العبادات، لو أنك قرأت القرآن قبل الصلاة، وقلت: هذا من العبادة، هذه القراءة بدعة، أما التي لا علاقة لها بالحرام والحلال، ممكن تنير البيت بسراج، ممكن بوسائل عديدة، ممكن أن تنير البيت بالكهرباء، هذه لا علاقة لها بالدين، ولكن لما يكون في شيء جديد يمس المحرمات، فإذا نظرت إلى شيء، وثارت الشهوة من خلال هذا النظر، فهذا صار بدعة، ولكنها محرمة، هذه بدعةٌ في الدنيا محرمة، لأنها مست أمرًا إلهيًّا، مست غض البصر، مست الأمر بالاحتشام .

فالموضوع دقيق: إذا أحدثت في العبادات ما ليس منها، فهذه بدعةٌ في الدين، أما إذا الإنسان طوَّر حياته، رفع مستوى معيشته، سكن ببيت، صار في تدفئة من نوع معين، إضاءة من نوع معين، نام على السرير، والنبي نام على الفراش في الأرض، هذه لا علاقة لها بالدين، النبي لبس ثوبًا، أنت لبست زيًّا موحَّدًا، تقريباً سروال وسترة، فهذا الشيء لا يمس، إلا إذا كان هذا الثوب وصف العورة، وصف لونها أو حجمها، دخل الموضوع في المحرَّمات، فما يستحدثه الإنسان في شأن الدنيا، مما ليس له علاقة بأوامر الدين ونواهيه، هذه معفو عنها، لكن ما يستحدثه الإنسان في الدنيا، مما له علاقةٌ بالحلال والحرام، ما كان حلالاً يجوز، وما لم يكن حلالاً فلا يجوز .

إذاً:

((فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُور، فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ، فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ))

إذا أحدثنا في العبادات ما ليس منها، ما لم يكن على عهد النبي عليه الصلاة والسلام، فهذه كلها بدع، وهذه البدع ضلالات، لأنك ألزمت الناس بها، والنبي لم يفعلها، فكأنك بهذا تزيد على فعل النبي عليه الصلاة والسلام، وليس هذا من اتباع السنة في شيء .

إليكم وصية أبي طالب لقومه عند احتضاره أثناء الموت :

والآن: إلى بعض الأخبار عن سيدنا علي رضي الله عنه وأرضاه .

سيدنا علي رضي الله عنه وأرضاه، رابع الخلفاء الراشدين، اسمه: علي بن أبي طالب، فمن أبو طالب؟ أبو طالب عم النبي عليه الصلاة والسلام، حينما كان هذا الشيخ الوقور، مُسَجًّى على فراشه، وهو يحتضر -أي: في النزع الأخير- أوصى قومه هذه الوصية قال: يا معشر قريش، أوصيكم بتعظيم هذا البيت، فإن فيه مرضاة الرب، وقوام العيش .

طبعاً: أبو طالب عم النبي عليه الصلاة والسلام هذه وصيته، ولكن سوف ترون في هذه الوصية، أنه كان رجلا شريفًا، وكان من عليَّة القوم، وكان نبيلاً، وكان كريماً، وكان محبوباً من قومه، يقول أبو طالب:

((صلوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإن صلة الرحم منسأةٌ في الأجل .

-فالشخص الذي سأل النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((ماذا بقي علي من بر والدي بعد موتهما؟ قال: أربعة أشياء؛ أن تصلي عليهما، وأن تدعو لهما، وأن تنفذ عهدهما، وأن تصل صديقهما، وأن تصل الرحم التي لم يكن لها صلة إلا بهما، فهذا الذي بقي عليك من برهما بعد موتهما))

إنسان له أخت، يجب أن يزورها، هي أمام زوجها، تشعر أنها مقطوعة، إذا زارها أخوها من حين لآخر، تحس بكيان، تحس أن لها أهل لا ينسونها، فليتفقد الإنسان أقرباءه، أرحامه، أقرباءه من طرف الأب، من طرف الأم، أخواله، خالاته، وحتى يكون الوضع دقيقًا، إلا إذا كان في هذه الصلة معصية، عندئذٍ درء المفاسد مقدَّمٌ على جلب المنافع، إذا كنت أصل خالتي، وتحدث علاقة مع بنات خالتي، وبنات خالتي أجنبيات عني، وأقع في التفات نفس، ومخالفة شرعية، فهذه الصلة نشأ عنها معصية، إذاً: ليس من الحكمة أن تتبع خيراً ربا عليه الشر، درء المفاسد مقدم على جلب المنافع- .

قال: صلوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإن صلة الرحم منسأة في الأجل .

-أي: تطيل العمر، وكلمة: تطيل العمر، دائماً في الأحاديث، بمعنى: أن الإنسان عندما الله عز وجل يرزقه أعمال صالحة، فهذه أعمال الصالحة تثمِّن عمره، فكأنه طال، واحد اشتغل في السنة بمئة ألف، وإنسان اشتغل في سنة بمئتي ألف، كأنه اشتغل بسنتين، اشتغل بسنة بثلاثمائة ألف، كأنه اشتغل ثلاث سنوات، فعندما يأتي الحديث بإطالة العمر، أي أن يكون هذا العمر غنياً بالأعمال الصالحة، فكأنك عشت ستين عامًا، سبعين عامًا، الإمام الشافعي مات في الخمسينات، ولكنه ترك آثارًا، وهناك أناس عاشوا مئة سنة، لم يحصلوا شيئًا، مما حصله الإمام الشافعي، فالعمر الزمني عمر تافه في حساب الأعمال الصالحة، لأن العمر الأساسي: ما في هذا العمر من أعمال الصالحة-.

اتركوا البغي، فقد أهلك القرون من قبلكم، يا معشر قريش، أجيبوا الداعي، وأعطوا السائل، فإن فيهما شرف الحياة، وشرف الممات .

-أحياناً إنسان يدعوك، وأنت وقتك ضيق، وقد يكون البيت بعيدًا، وقد يكون الشخص من عامة الناس، ولكن إجابة الداعي حق، من آداب المسلم: أنه من دعاه، وجب حقه عليه، فتلبية الداعي صفة أصيلة في أخلاق المسلم- .

وعليكم بصدق الحديث، وأداء الأمانة، ألا وإني أوصيكم بمحمدٍ خيراً، فإنه الأمين في قريش، والصادق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به .

-جمع كل هذه الفضائل، جمع صلة الرحم، وجمع حُسن الجوار، وجمع الأمانة، وجمع الصدق، وجمع الرحمة- .

قال: ولقد جاءنا بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشنآن، -في هذه الدعوة القلب قبلها، واللسان رفضها مخافة هذه المعارضة التي قام بها قريش ضد النبي عليه الصلاة والسلام- وايم الله، كان له نظر ثاقب، لكأني أنظر إلى صعاليك العرب -معنى صعلوك بالمفهوم الحديث: إنسان من الطبقة الدنيا في المجتمع؛ خلقاً ونسباً، ولكن في المعنى القديم الفقير فقط- وايم الله لكأني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل الأطراف -خارج مكة- والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدَّقوا كلمته، وعظَّموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت .

-الحقيقة: إذا كان الإنسان صعلوكًا كما وصف أبو طالب، وكان من أطراف البلاد، وكان مستضعفًا، وأجاب دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، وصدق كلمته، وعظَّم أمره، صار في أعلى عليين، صار شريفاً، صار عظيماً، صار مقدَّساً، صار طاهراً، البطولة أن تعرف ما الذي يرفعك عند الله عز وجل، إذا آمنت بهذا النبي العظيم، وصدقت دعوته، واتبعت سنته، رفعك الله إلى أعلى عليين، سيدنا يوسف، كان عبداً عند العزيز، ولكن قوله:

(مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)

[سورة يوسف الآية: ٢٣]

جعله ملكاً على مصر، فسبحان من جعل العبيد ملوكاً بطاعته، كأن أبا طالب رأى ما سيكون- وايم الله، لكأني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل الأطراف، والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، ولكأني به وقد محضته العرب ودادها -العرب محضت هذا النبي عليه الصلاة والسلام ودادها .

لذلك صحابي جليل، قد تفقده النبي عليه الصلاة والسلام بعد معركة أحد فلم يجده، فسأل عنه، فلم يعلم أحد عنه شيئاً، فكلف أحد أصحابه البحث عنه، توجه إلى ساحة المعركة، فإذا بهذا الصحابي، الذي تفقده النبي بين الموت والحياة، قال له:

((إن النبي يقرئك السلام، ويقول لك: أأنت بين الأموات أم بين الأحياء؟ فقال: أنا بين الأموات، ولكن قل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: جزاك الله عنا كل خير، جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وقل لأصحابه: لا عذر لكم عند الله، إذا خُلِصَ إلى نبيكم، وفيكم عينٌ تطرف))

فالعرب محضوه الوداد، لأنه كان أرحم بهم من أنفسهم، وأعطته قيادها- .

والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يهتدي أحدٌ بهديه إلا سعد، ولو كان في العمر بقية، لكففت عنه الهزاهز، ودفعت عنه الدوائر-يعني هذا الكلام فيه حكمةٌ، وفيه معرفة لقدر النبي عليه الصلاة والسلام- وأنتم يا معشر بني هاشم، أنتم أقرب الناس إلى النبي، وأنتم يا معشر بني هاشم، أجيبوا محمداً، وصدقوه، تفلحوا، وترشدوا))

ابن آدم أطع ربك، تسمى عاقلاً، ولا تعصه فتسمى جاهلاً، وغاب عن الوعي، وتوفاه الله عز وجل بعد أن أدى هذه النصيحة لبني هاشم خاصةً، ولقريش عامة، هذا أبو طالب .

علي بن أبي طالب هذه مكانته، وهذا شأنه، وهذه معرفته بالنبي عليه الصلاة والسلام، وهذا نصحه لقريش، ولبني هاشم .

من مواقف أبي طالب :

أيها الأخوة، أبو طالب قبل أن يموت، رأى ولده علياً، يصلي خفيةً وراء رسول الله، وكانت هذه أول مرة، يعلم فيها أن ابنه الصغير، قد اتبع محمداً، وما اضطرب الطفل حين رأى أباه يبصره مصلياً، ولما أتم صلاته، ذهب تلقاء والده، وقال له في صراحةٍ وثباتٍ:

((يا أبتِ، لقد آمنت بالله وبرسوله، وصدقت ما جاء به واتبعته، فأجابه أبوه أبو طالب، قال: أما إنه لا يدعوك إلا إلى خير، فالزمه))

انظر الموقف الكامل، إذا ابنك بدأ بطريقة دينية، بدأ يغض بصره، بدأ يصلي، يجب أن تشجعه، يجب أن تفرح به، فقال له:

((يا أبتِ، لقد آمنت بالله وبرسوله، وصدقت ما جاء به واتبعته، فقال أبوه أبو طالب: أما إنه لا يدعوك إلا إلى خير، فالزمه))

بل إن أبا طالب، رأى النبي عليه الصلاة والسلام يوماً يصلي، وقد وقف عليٌّ إلى يمينه، ولمح من بعدٍ ولده جعفر، فناداه حتى إذا اقترب منه، قال له:

((صل جناح ابن عمك ـ صل وراء رسول الله- وصل عن يساره))

فقد كان يعرف قدر النبي، وكان يعرف شأنه، ويعرف جوهر دعوته .

موقف آخر له :

هذا أبو طالب، فمن هو عبد المطلب؟ جده، سيدنا علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ، نبقى مع أبي طالب قليلاً: ذهب أبو طالب إلى قريش، وقال:

((يا معشر قريش، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فلما قاطعوا قريش النبي عليه الصلاة والسلام، كتبوا صحيفة، كتبوا قرار المقاطعة، فجاءت الأرضة -نوع من الحشرات- فأكلت هذه الصحيفة، وأبقت فيها كلمة الله عز وجل، فحين أنبأه النبي عليه الصلاة والسلام، أنبأ عمه أبا طالب بهذه الحادثة، جاء أبو طالب إلى قريش في ناديهم، وقال لهم: يا معشر قريش، إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم صحيفتكم، فإن تك كما قال محمد، فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يك كاذباً، دفعته إليكم، وفعلاً لما رأوا أن الصحيفة قد أكلت، ولم يبق منها إلا كلمة الله، انتهت هذه القطيعة، وعاد الوصال بين بني هاشمٍ وبين قريش))

قبل هذا ذهب وجهاء قريش إلى أبي طالب، وقالوا:

((يا أبا طالب، إن لك لنا فينا سناً، وشرفاً ومنزلة، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك، ولم تنهه عنا، يعيب آلهتنا، ويسب ديننا، وإنا لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وعيب آلهتنا، وتسفيه أحلامنا، فإما أن تكفُّه عنا، أو ننازله وإياك، حتى يهلك منا أحد الفريقين -حينما قالوا هذا الكلام، جاء رد النبي عليه الصلاة والسلام، طبعاً: أبو طالب نقل هذه الرسالة إلى النبي عليه الصلاة والسلام- فكان رد النبي عليه الصلاة والسلام: والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يقضيه الله، أو أهلك دونه .

عندئذٍ قال: امض يا بن أخي لما أردت، فو الله لن أسلمك أبداً))

دافع عنه كذلك .

لما مات أبو طالب، كان عليه الصلاة والسلام يقول:

((والله ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه، حتى مات أبو طالب))

كان قد بذل جهدًا كبيرًا في الدفاع عنه، وفي حمايته، وفي دعمه في هذا المجتمع الكافر . النبي عليه الصلاة والسلام مرةً كان متألّماً، فقال:

((يا عم، ما أسرع ما وجدت فقدك))

حينما افتقد عمه أبي طالب، أحس بفراغ كبير، لأنه كان خير نصير له في محنته مع قريش.

إليكم هذه الأقوال المشهورة التي وردت عن عبد المطلب :

وقصة عبد المطلب: لما جاء أبرهة الأشرم إلى مكة ليهدم الكعبة، كيف وقف هذا الموقف الذي يعبِّر عن إيمانه بالله؟ فقال:

((اللهم إن المرء يمنع رحله، فامنع رحلك، هذه بلادك، وهذه أرضك، وهذا بيتك، فامنعه أنت))

وله قول شهير:

((إن للبيت رباً يحميه))

وقال مرة:

((اللهم هؤلاء عبيدك -في أحد السنوات الشحيحة- وأبناء عبيدك، وقد نزل بنا ما ترى، فاذهب عنا الجدب، وائتنا بالمطر والخصب))

هذا دعاء عبد المطلب في بعض السنوات الناحلة .

لما ولد سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، كان عبد المطلب له أبيات من الشعر، يتمثل بها، كان يقول:

الحمد لله الذي أعطـــاني هذا الغلام الطيب الأردان

قد ساد في المهد على الغلمان أعيذه بالله ذي الأركـان

حتى أراه بالغ البنيان

تفاءل هذا الجد العظيم بهذا الحفيد، وكأنه شعر أن لهذا الغلام الصغير مستقبلاً عظيماً.

قبيل وفاة عبد المطلب، أوصى أبا طالب ابنه، قال:

((يا أبا طالب، سيكون لابني هذا شأنٌ فاحفظه، ولا تدع مكروهاً يصل إليه))

عن رسول الله، اللهم صل عليه .

الخاتمة :

في هذه الكلمات القصيرة، أردت أن تعرفوا: أن هذا الخليفة الراشد، سيدنا علي بن أبي طالب، أبو طالب كان ذا شأنٍ، وذا مكانةٍ، وذا حلمٍ، وذا فضل، وكان خير من رعى النبي عليه الصلاة والسلام، ودعمه، وحماه، وكان يقف كالمتراس تجاه كفار قريش، وكان يتمنى أن يتبعه بنو هاشم، ليكونوا سنداً له، ولأنه يدعو إلى خير .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٢٤-١٠١) : باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٩-٠١-١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم شرح رموز هذا الحديث :

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا مع الحديث النبوي الشريف، ولا زلنا في باب الأمر بالمحافظة على السُنة وآدابها .

عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ – مطر- أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ، وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتْ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا، وَسَقَوْا، وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي موسى الأشعري]

دعوة النبي عليه الصلاة والسلام للناس، كالمطر للأرض العطشى، هذا تشبيه .

((إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ - معنى طائفة: أي قطعة طيبة، فكان من هذا الأرض قطعة طيبة، تربة طيبة- قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ، وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ -معنى أجادب: جمع جدباء، أي أرض لا تنبت، ولكنه يبدو أنها صخرية- أَمْسَكَتْ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا، وَسَقَوْا، وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ -أي أرض لا تمسك الماء، ولا تنبت الكلأ- لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ))

الحقيقة: هذا الحديث الشريف فيه تشبيهٌ بليغ، هذه الدعوة النبوية التي جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام من عند الله بمثابة الغيث، والناس حيال هذه الدعوة، يشبهون أنواعٌ ثلاثة من الأراضي: أرضٌ مخصبة؛ قبلت الماء، وأنبتت الكلأ، وأرضٌ مجدبة؛ أمسكت الماء، ولم تنبت الكلأ، وأرضٌ قيعان؛ لم تمسك ماءً، ولم تنبت كلأً .

ما من واحدٍ منا حيال هذه الدعوة النبوية الطاهرة، حيال هذا الدين الجديد، حيال هذا القرآن المجيد، إلا ويشبه أحد هذه الأراضي الثلاث؛ إما أنه اهتدى وهدى، تعلَّم وعلم، انتفع ونفع، أخذ وأعطى، امتلأ وفاض، هؤلاء السابقونَ السابقون، أولئك المقربون، هؤلاء الذين جعلوا وقتهم، وجهدهم، وذكاءهم، وخبرتهم، وطاقاتهم في سبيل الله، استفادوا وأفادوا، تعلموا وعلموا، أخذوا وأعطوا، اهتدوا وهدوا .

وإذا كنا كهذه الأرض، فما أسعدنا من أشخاص، فما أسعدنا من مخلوقات، لقد حققنا الهدف من وجودنا، لقد سعدنا وأسعدنا، وإذا أردت أن تسعد فأسعِد الآخرين، كن كهذه الأرض، تعلَّم القرآن وعلّمه، تعلم سنة النبي عليه الصلاة والسلام وعلّمها، فهناك شخص يكتفي، لكن هناك شخص يعطي، الحد الأدنى أن يعلم الإنسان أهله، يعلم زوجته، يعلم أقرب الناس إليه، يعلم جيرانه، يعلم شركاءه، يعلم أقاربه، يعلم من يلوذ به، فإذا جاء يوم القيامة جاء أمةً، الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً)

[سورة النحل الآية: ١٢٠]

شتان بين أن تأتي يوم القيامة فرداً وبين أن تأتي أمة، لأن كل مظاهر العظمة التي كان الإنسان محاطاً بها في الدنيا بمقاييس الأرض، تسقط كل هذه المقاييس، كل هذه المظاهر هي أقنعة مزيَّفة، ما إن يغادر الإنسان الدنيا حتى تسقط، ولا يبقى إلا العمل الصالح، فشتان بين أن تأتي يوم القيامة فرداً، وبين أن تأتي أمةً، بين أن تسعى لذاتك، بين أن تسعى لأسرتك فقط، وبين أن تسعى لهداية الخلق، لذلك الإنسان حينما يسعى لهداية الخلق، يعظم في عين الله عز وجل، هؤلاء الذين ضحَّوا بالغالي والرخيص، والنفس والنفيس، من أجل أن ينشروا دين الله في الآفاق، هؤلاء رضي الله عنهم، ورضاء الله عنهم يعني: أنهم نالوا أعلى رتبةٍ في الكون، نرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون كهذه الأرض .

إليكم هذه التفاصيل في شرح الحديث: (إن مثل ما بعثني الله به ....):

((إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا -من هذه الأرض- طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ -أرضٌ طيبة- قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ، وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتْ الْمَاءَ))

هؤلاء السابقونَ السابقون، هؤلاء المتفوقون، هؤلاء الناجحون، هؤلاء الفائزون، هؤلاء الرابحون، هؤلاء المفلحون، لأن حجمك عند الله عز وجل بحجم عملك الصالح، حجمك في الدنيا له مقاييس كثيرة، قوتك تحدد حجمك، مالك يحدد حجمك، الدرجات العلمية التي نلتها تحدد حجمك، وجاهتك

تحدد حجمك، وقد يكون النسب عاملاً في هذا الحجم، هذه المقاييس كلها لا قيمة لها عند الله عز وجل:

((أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً))

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ، مِنْهُمْ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك في سننه]

وأما الأرض الثانية: فهي أرضٌ كان منها أجادب: جمع جدباء، أمسكت الماء، لأنها جدباء لم تنبت العشب، أرض صخرية، المطر نزل عليها، فتجمع بركاً، فالإنسان شرب من هذا الماء، وانتفع بالماء، هذا الذي يهتدي لنفسه، يتعلم لنفسه، يستقيم على أمر الله فيسعد، من دكانه إلى بيته، أخذ ولم يعطِ، نجا واستقام، هؤلاء هم أصحاب اليمين، هؤلاء المقتصدون، طبَّق الشرع؛ فسعد بهذا التطبيق، طبق الشرع؛ فوسَّع الله عليه الرزق، طبق الشرع؛ فحفظ الله له صحته وأهله، طبق الشرع؛ فعاش حياةً هادئة ناعمة رخية، ليست مضطربة، طبق الشرع؛ فأتم الله نعمته عليه، لكنه لا يحس بهذه الدوافع لهداية الخلق، لا يحس أن عليه رسالةً، يجب أن يؤدِّيها، أي أنه تعلم واستفاد، صلَّى فسعد، غض بصره عن محارم الله، فأسعده الله بأهله، وانتهى الأمر، هؤلاء أنعِم وأكرِم بهم، هؤلاء ناجون، هؤلاء تخَطَّوا الخط الأحمر الخطر، هؤلاء أصحاب اليمين .

هذا يبيِّن أن الذي سأل بعضهم: كم نصاب الزكاة؟ فقال: عندنا أم عندكم؟ عندكم واحد بالأربعين، أما عندنا العبد وماله لسيده، إذا كان الواحد متفوقًا، لم تعد له حياة خاصة، هذه ساعة لك، وساعة لربك انتهت، وقته كله لله عز وجل، وهو أسعد الناس، لو شققت على صدره، لرأيت في قلبه سعادةً، لو وزِّعت على أهل بلدٍ لكفتهم، لأنه اتصل بخالق الكون، لأن خالق الكون الأبدي السرمدي رضي عنه، وإذا كان الله معه فمَن عليه؟ وإذا كان عليه فمن معه؟.

((يا رب، ما عبدتك خوفاً من نارك -السيدة رابعة العدوية- ولا طمعاً في جنتك، ولكنني رأيتك أهلاً للعبادة فعبدتك))

هؤلاء الأحرار، نرجو الله أن نكون من هؤلاء، الباب مفتوح يا أخوان، الأبواب كلها مفتوحة، أبواب التفوّق والبطولة مفتوحة في كل الأزمان، وفي كل الأعصار، وفي كل الأمصار، وفي كل الأصقاع، وفي كل الأقاليم، وفي كل الظروف، وفي كل البيئات، وفي كل شرط، باب الله مفتوح، باب التفوق مفتوح، تفضل، استقم كما أُمرت، واتصل بالواحد الديان، ثم ذق هذه السعادة التي لا توصف .

((إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ، وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتْ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ،

فَشَرِبُوا مِنْهَا، وَسَقَوْا، وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ))

قال:

((وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتْ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا، وَسَقَوْا، وَرَعَوْا - استخدموا الماء فقط - وَأَصَابَ -أي الغيث- طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ -أرض رملية- لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ))

الفئة الأولى:

((فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ))

هذه الطبقة الأولى، علم وعلم، لذلك:

((يا علي، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من الدنيا وما فيها))

يا أخوان، من قبيل العرفان بالجميل، هناك أشخاصٌ كثيرون، جاؤوا لهذا المسجد فرادى، سنة أو سنتين، جاء أخوهم الأول، وأخوهم الثاني، وأخوهم الثالث، وابن عمهم، وصهرهم، وقريبهم، وجارهم، هذا الإنسان بعد سنتين صاروا عشرة، خمسة عشر، عشرين، طبعاً: الإنسان قلبٌ شاكر، ولسانٌ ذاكر .

((يا علي، لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً، خير لك من الدنيا وما فيها))

((خير لك من حمر النعم))

((خير لك مما طلعت عليه الشمس))

أول عمل مهِّد للهدى بالإحسان، لأن هذه القلوب جبلت على حب من أحسن إليها، مهِّد لسريان الهدى بالإحسان، افتح قلوبهم بالإحسان، قبل أن تفتح آذانهم بالأقوال، كن قدوةً حسنة، الدعوة إلى الله عملية معقدة جداً، كن قدوةً حسنة، لأنك لو جئتهم بعلم الثقلين، وبلسانٍ فصيح، وعقلٍ راجح، وثقافةٍ واسعة، وذكاءٍ فذ، وحكمةٍ بالغة، ورأوا مسافةً بين أقوالك وأفعالك، سقطت من أعينهم، لن تستطيع أن تهدي أحداً، ولو كان طفلاً صغيراً، إلا إذا كنت قدوة له، لذلك:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً)

[سورة فصلت الآية: ٣٣]

عمل صالحاً، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا)

[سورة فصلت الآية: ٣٠]

من علامة الإيمان القطعية: الاستقامة على أمر الله، ومن علامة الدعوة الخالصة: العمل الصالح، الناس لا يتعلّمون بآذانهم، بل يتعلمون بعيونهم، لغة العمل أبلغ من لغة القول، الكلام وحده لا يقدِّم ولا يؤخر، كلامٌ بكلام لا يجاوز الآذان، ولكن المواقف، لكن الانضباط هو الذي يرفعك عند الله عز وجل .

((وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ))

كن طموحاً، ولا تكن جموحاً، كن عصامياً، ولا تكن عِظامياً، فعَلِمَ وعلّم .

دخل على النبي الكريم رجل من عامة الناس، فهشَّ له النبي وبش، ورحب به أجمل ترحيب، وقال:

((أهلاً بمن خبرني جبريل بقدومه، قال: أو مثلي؟ قال: أنت خاملٌ في الأرض علمٌ في السماء))

علم في السماء، قد تكون في السُلَّم الاجتماعي في الدرجات الدنيا، وقد تكون عند الله في الدرجات العليا، لذلك:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

[سورة الواقعة الآية: ١-٣]

الواقعة تخفض أناساً، وترفع آخرين، وهنيئاً لمن كان مرتفعاً في النهاية، هناك مثل يقول: طوبى لمن كان آخر الضاحكين، الكفار:

(فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً)

المؤمنون قد يبكون قليلاً، يقلقون على مكانتهم عند الله، يخافون ألا يتقبل الله عملهم، يخافون أن تكون في نيَّاتهم زيغ، يخافون أن يكون هناك مستوىً لا يرضي الله عز وجل، يبكون قليلاً ليضحكوا كثيراً .

((ألا يا ربَّ نفس طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا، جائعةٍ عاريةٍ يوم القيامة، ألا يا رب نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا، طاعمةٍ ناعمةٍ يوم القيامة، ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهينٍ لنفسه وهو لها مكرم))

((وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا))

تعلم، وطأطأ رأسه، واستفاد، وانتهى الأمر، لم يرفع بهذه الدعوة رأسه، ما تمنى أن ينتشر الحق، ما تمنى أن يُعَلِّم الناس، له أصحاب يحبهم ويحبونه، لا يفكر أن يهديهم إلى الله عز وجل، يجاملهم، يستقبلهم، يسهر معهم في المباحات لا في المعاصي، ولكن لا يحس بدافع إلى هدايتهم، هؤلاء من القسم الثاني:

((إنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ، وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتْ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا، وَسَقَوْا، وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ))

أما الذي لم يقبل الهدى، الذي أرسلت به، كالأرض الرملية:

((لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً))

نعوذ بالله أن نكون من هؤلاء، هذا الحديث متفقٌ عليه .

أعيده على مسامعكم مرةً أخيرة: عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((إنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ غَيْثٍ، أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتْ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتْ الْكَلَأَ، وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتْ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا، وَسَقَوْا، وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ، لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللَّهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي موسى الأشعري]

ومعنى فقه: بمعنى أصبح فقيهاً .

لذلك: على الإنسان أن يعمل لأهله بالأسبوع ساعة، لزوجته، وأولاده، لأخواته البنات ، وبنات أخواته، يعني: يجلس جلسة حق، يتحدث عما سمع، يحدِّث الناس بما سمع، يعلم الناس بما تعلم، يفقّه الناس بما تفقّه، فإذا دخلت في قلوب الناس كنت أسعدهم، وإذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين .

ما سبب ذكر هذا الموضوع؟:

أيها الأخوة الأكارم، أخوةٌ كرام كثر، طالبوني أن أعيد على أسماعهم موضوع البيوع ، ما منا واحدٌ إلا ويبيع ويشتري، وهناك في البيوع حقائق، يجب أن تعلم بالضرورة .

أيها الأخوة، فللبيوع في الإسلام نظام دقيق جداً، الإنسان لا يخلو أن يشتري، أو يبيع، أو أن يكون تاجر في الأساس، يعني: البيع والشراء نشاط يومي، وكل إنسان، ولو كان موظف، يشتري ويبيع .

فأعتقد أن الموضوع الأول في الفقه، نحن من فضل الله عز وجل قبل رمضان، وفي رمضان نأخذ باب الصيام كما تعوَّدنا، وامتن الله علينا قبيل الحج، نأخذ باب الحج، في أواخر رمضان، نأخذ باب الزكاة، فوجدت من المناسب أن نلقي درسًا في البيوع، ودرسًا في الصلاة ، الصلاة مهمة جداً، الصلاة درسناها مرتين، والبيوع مرة، ولا بد من أن نعيد على أسماعكم أحكام البيوع بشكلٍ دقيق،

ونأخذ من أبواب الصلاة، الأبواب التي نحتاجها بشكلٍ دقيق، يوم الأحد نلقي درسًا في البيوع، ويوم الأحد عبادات، أما الأخلاق فنأخذها من إحياء علوم الدين، وسوف نأخذها يوم السبت إن شاء الله تعالى .

الإسلام عقائد، أمضينا سنة وزيادة في بحث العقائد، وانتفع بها أناسٌ كثر، الإسلام عقائد، ثم عبادات؛ صلاة، صوم، حج، زكاة، ثم معاملات؛ بيوع، طلاق، زواج، قرض، حوالة، كفالة، ثم أخلاق؛ فالأخلاق نأخذها من إحياء علوم الدين، وهو من أرفع كتب الأخلاق الإسلامية، والبيوع نأخذها مع بعض العبادات بالتناوب، حديث شريف واحد، وبحث في البيوع .

تعرف البيع لغة وشرعاً :

البيع لغة: مقابلة شيءٍ بشيء، أعطن هذا وخذ هذا، هذا بيع، وكلمة اشترى: بمعنى باع، وشرى: بمعنى باع، لأن بعض الأخوة حينما يقرأ سيدنا يوسف يعجب، قال تعالى:

(وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ)

[سورة يوسف الآية: ٢٠]

اشتروه، ولكن هم باعوه، معنى شروه: أي باعوه، وكلمة بيع: يتعدى لمفعولٍ واحد، تقول: بعت السلعة، مفعول به واحد، ويتعدى لمفعولين، تقول: بعته السلعة، الهاء مفعول به أول، والسلعة مفعول به ثان، أو يتعدى بـ (من)، بعت السلعة منه، أو بعت السلعة له، في عندنا أربعة استعمالات لباع: بعته، أو بعته السلعة، أو بعت منه، أو بعت له، هذا التعريف اللغوي .

لكن التعريف الشرعي شيء آخر: لو بادل تاجر ميتة بميتة، هذا بيع لغوي، أما في الشرع: فهو باطل البيع، لأن الشيء الذي ليس له ثمن لا يباع، بيع لحم الخنزير باطل، البيع في الشرع: مبادلة شيء مرغوبٍ فيه بمثله على وجه الخصوص، أو مقابلة مالٍ بمال على وجهٍ مخصوص، أو عقد معاوضةٍ على غير منافع، ولا متعةٍ، ولا لذة، بيع المنافع إيجار، أما بيع الرقبة هو البيع .

ما حكم البيع، وما أدلته من الكتاب والسنة ؟

أيها الأخوة، البيع مشروع في الكتاب، والسنة، وإجماع الأمة، والمعقول، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ)

[سورة البقرة الآية: ٢٧٥]

البيع مشروع بالكتاب، ويقول الله سبحانه وتعالى أيضاً:

(وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ)

[سورة البقرة الآية: ٢٨٢]

مشرع بالكتاب .

أما السنة: فعن حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن حكيم بن حزام]

سيمر معنا بعد قليل خيار المجلس .

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ))

[أخرجه الترمذي في سننه، والحاكم في مستدركه، عن أبي سعيد الخدري]

لأنه يدعو إلى الله لا بلسانه، بل بمعاملته، وملايين إندونيسيا وحدها، مئة وخمسون مليونًا، الأمة العربية بكاملها من الخليج إلى المحيط مئة مليون، إندونيسيا وحدها مئة وخمسون مليونًا، أسلمت عن طريق التجَّار، تاجر يعطيك سلعة متقنة، فيها نُصح، بسعر معتدل، مع معاملة لطيفة، هذا كأنه داعيةٌ إلى الله عز وجل، هذا داعية لا بلسانه، بل بمعاملته، فكل إنسان إذا كان يبيع ويشتري، يستطيع أن يشد الناس إلى دينه، من معاملته؛ صدق، استقامة، أمانة، إخلاص، عمل طيِّب، سعر معتدل، لطف .

لذلك أحد الصحابة الكبار، وكان من أغنى أغنياء الصحابة، واسمه: عبد الرحمن بن عوف، قيل له:

((بِمَ حصلت هذا الغنى؟ قال: لم أستقل ربحاً، ولم أبع ديناً))

يعني: إذا أعطى الإنسان سعرًا معتدلا، فقد رحم المسلمين، وكان السلف الصالح لما يفتح دكانه صباحاً، ينوي خدمة المسلمين، الدرجة الأولى خدمة المسلمين، هؤلاء الناس لو أمَّنت لهم حاجاتهم؛ طعامهم، شرابهم، لباسهم، بيتهم، دِفْأهم، قدمت عملاً كبيراً، وربما ترقى عند الله بهذا العمل .

أنا أقول لكم: كل واحد منكم له حرفة، ربما كانت حرفته طريقاً له إلى الله عز وجل، ربما سعد بها في الآخرة إذا أتقنها، ونصح الناس بها، لأن الدين النصيحة، فـ

((التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الْأَمِينُ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

هذه السنة القولية .

أما السنة الفعلية -العملية-: كان عليه الصلاة والسلام يشتري حوائجه، وحوائج عياله، وكان يرى الناس يتبايعون، فيقرهم على ذلك، ولا ينكر عليهم، إذاً: فالبيع مشروع بالسنة القولية، والسنة العملية

.

وأما الإجماع: فقد أجمع المسلمون من خلال تعاملهم على أن البيع مشروع، وأنه جزءٌ من سلوك الإنسان اليومي .

وأما المنطق: فالإنسان يقدم حاجة، ويحتاج إلى مليون حاجة، إذاً: لا بد من أن يبيع ما يتقن، ويشتري ما يحتاج، هكذا طبيعة الحياة الاجتماعية .

ركن البيع :

الحقيقة للبيع ركنٌ واحد: وهو الرضا، لقول الله عز وجل:

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

[سورة النساء الآية: ٢٩]

فالتجارة ليست مشروعةً إلا إذا كانت عن تراضٍ، فالرضا هو الركن الأساسي في البيع، هذا الرضا كيف يعبر عنه؟ الرضا حالة قلبية يعبر عنه باللسان وبالبنان، يعبر عنه باللسان، إذا سألت البائع: بكم هذا البيت؟ قال لك: بمئة ألف، تقول له: اشتريت، أنت عبَّرت عن رضاك بهذا الثمن، وهو عبر عن رضاه بهذا البيع بالإيجاب والقبول، فركن البيع الأساسي تلك الحالة القلبية، يعبر عنها بهذا القول بالإيجاب والقبول: بعتك وقبلت، أتشتري مني هذا الكتاب بسبعين؟ يقول لك الشاري: نعم قبلت، هذا إيجاب وقبول، بكم هذا الكتاب؟ بسبعين، اشتريت، هذا إيجاب وقبول، فالرضا يعبر عنه بالإيجاب والقبول .

أيها الأخوة، أو يعبر عنه: بالتعاطي، مكتوب كأس العصير بعشر ليرات، تشرب كأسًا، وتضع عشر ليرات وتمشي، هذا ما قلت له: قبلت، وبعتك، واشتريت، ما في حاجة، دفعت الثمن، وشربت العصير، انتهى الأمر، هذا بيع بالتعاطي، فركن البيع الرضا، والرضا حالة قلبية، يعبر عنها بالإيجاب والقبول، أو يعبر عنها بالتعاطي، يعني قبض المبيع، ودفع الثمن .

بعضهم قال: الأحناف والمالكية والحنبلية، أجازوا صحة البيع بالتعاطي .

كيلو تفاح ممكن بالتعاطي، الشيء الخسيس الذي له قيمة متدنية، يباع بالتعاطي، ولكن الشيء الثمين، يحتاج إلى إيجاب، وإلى قبول، لا زلنا في التعريفات، ولكن هناك أحكام دقيقة، سوف نأتي عليها إن شاء الله تعالى .

العلماء قالوا: العلماء متفقون على أن البيع بالإيجاب والقبول، صحيح عند كل المذاهب ، أما بالتعاطي فهذا البيع مقبول في الأعم الأغلب، لكن التعاطي ينسحب على سائر العقود الأخرى: كالإيجار، والهبة، إلا النكاح، فلخطورة هذا العقد، ليس هناك عقد نكاح بالتعاطي، لا بد من إيجاب وقبول، لأنه خطر، فيجب أن يحتاط به، ولأن الفرق بين الزنا والزواج، هو هذا الإيجاب القبول، قال تعالى:

(أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ)

[سورة القصص الآية: ٢٧]

فعقد النكاح لا يقبل بالتعاطي، لا بد له من إيجاب وقبول، ولكن عقد الهبة، وعقد الإيجار، يقبل بالتعاطي .

ما هي شروط انعقاد البيع؟

١ - الأهلية:

البيع له شروط كثيرة، أول هذه الشروط: شروط انعقاد البيع أصلاً، في عندنا بيع صحيح، وبيع باطل، وبيع فاسد، الباطل لا ينعقد، والفاسد يصحح، والصحيح صحيح، فما هي شروط انعقاد البيع؟.

أول هذه الشروط: الأهلية، فالمجنون لا ينعقد بيعه، لو واحد اشترى، أو باع بيتًا بمليون، وقدر الشاري أو أهل البائع أن يثبتوا أنه مجنون، ينفسخ العقد حُكْماً، المجنون لا ينعقد بيعه، لا بد من أن يكون أهلاً للبيع، والصبي غير المميز لا ينعقد بيعه، مَن كان صغيراً أو مجنوناً بيعه باطل، ليس له أي أثر مهما علا الثمن، ولو أن الولي أجازه، البيع باطل، والشراء باطل، لو اشترى صبي أو مجنون، فالشراء باطل، لأنه فاقد الأهلية، والأهلية شرط في انعقاد البيع، ولو فقد البيع الأهلية، لأصبح باطلاً، أي: غير منعقد .

٢ـ التعدد

الشرط الثاني في انعقاد البيع، ولو تخلّف هذا الشرط، لأصبح البيع باطلاً: إنما هو التعدد، إنسان يبيع نفسه، هذا شيء غير جائز، كثير من الشركات تشغل له ماله، يشتري مواد أولية الشريك المضارب، وعنده معمل، الشريك المضارب نفسه، يشتري من المواد الأولية الذي اشتراها لمعمله، إذا كان الشاري هو البائع، إذا كان البائع هو الشاري أصالة بأصالة، أو وكالة بأصالة، أو أصالة بوكالة، أو وكالة بوكالة، فالبيع باطل، لأن الإنسان يختار أرخص سعر، وأحسن بضاعة .

تصور أن يتيمًا، تستثمر له ماله، أنت اشتريت بهذا المال حاجات، بضاعة معينة، وأنت عندك مصلحة، تحتاج لهذه البضاعة، فأنت وكيل عن هذا اليتيم في شراء هذه البضاعة ، فأنت كوكيل اليتيم، بعت نفسك لهذه البضاعة، ما دام الشاري هو البائع، فالبيع باطل، أغلب الظن لن تكون منصفاً .

لذلك العلماء قالوا: لا بد من التعدد، يجب أن يكون الشاري إنسان، والبائع إنسان، لأنهم يتخاصمون، يتشاحون، يتناقشون، يتجادلون، يتساومون، يتفاصلون، أما علاقة داخلية مخاطب، كان اسمه سعيد فتحة، يخاطب سعيد فتحتين: بعت واشتريت، هذا ليس بيعًا، بيع وشراء لإنسان واحد ممنوع، تبيع وكالة، تشتري أصالة ممنوع، تشتري أصالة، وتبيع وكالة ممنوع، تشتري وتبيع وكالة، أنت موكل لفلان بشراء بضاعة، وموكل لفلان ببيع بضاعة، فاشتريت بضاعة فلان التي أنت وكيل عليها، لفلان الذي أنت وكيل له، البيع باطل، لا ينعقد البيع أصلاً، هذا شرع الإسلام، ضماناً للحقوق، حفظاً للحقوق.

أيها الأخوة، إلا في الزواج، فيصح أن يكون الإيجاب والقبول من عند شخص واحد، لأنه ثمة حقوقًا، يتحملها الزوجان بالنهاية، لما وكله بالتزويج، ووكله بالزواج، وإنسان واحد تزوج وزوج، أجاب وقبل في عقد واحد، فهو صحيح .

هذا الشرط الأول من شروط انعقاد البيع: الأهلية والتعدد، وهناك شروط أخرى نبحثها في درس قادم إن شاء الله تعالى .

ما جاءنا عن علي بن أبي طالب :

والآن: إلى سيدنا علي رضي الله عنه .

أيها الأخوة، كلكم يعلم أن هذا الصحابي الجليل، رابع الخلفاء الراشدين، نشأ في بيت النبي عليه الصلاة والسلام، منذ أن كان في السادسة من عمره، فحينما نشأ في هذا البيت، وحينما جاء الإسلام، ونزل الوحي، كان أول غلامٍ أسلم في الإسلام، والسيدة خديجة رضي الله عنها أول امرأة أسلمت، وسيدنا زيد بن حارثة أول غلامٍ أسلم .

فسيدنا علي رضي الله عنه، رأى النبي عليه الصلاة يصلي، فقال:

((ماذا أراك تصنع؟ فأجابه النبي عليه الصلاة والسلام: إني أصلي لله رب العالمين، وسأل علي كرم الله وجهه: ومَن يكون رب العالمين؟ فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: إنه إله واحد، لا شريك له، له الخلق، وبيده الأمر، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير))

كلام بليغ موجز:

((إنه إله واحد، لا شريك له، له الخلق، وبيده الأمر، يحي ويميت، وهو على كل شيء قدير))

فلم يتردد الغلام فأسلم، وكان أول المسلمين، وهو في السادسة من عمره، بدأ يعيش مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الصادق الأمين، يتأدب على يديه، ويتأثر بطهره، وعظمة نفسه، وتقى ضميره، وحين بلغ العاشرة، كان الوحي قد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالدعوة، وكان هو سابق المسلمين، وسارت حياته من ذلك اليوم، إلى أن يجيء اليوم، الذي سيلقى فيه ربه تطبيقاً كاملاً،

وأميناً لمنهج النبي عليه الصلاة والسلام، وتعاليم القرآن، لم يكن في حياته كلها صبوة، ولا شهوة، ولا هفوة.

أخواننا الكرام، الذين عرفوا الله في سن متقدمة، هنيئاً لهم ألف مرة، لكن الشباب الصغار، الذين نشؤوا في طاعة الله، فتحوا أعينهم على المسجد، وعلى ذكر الله، وعلى تلاوة قرآن، وعلى الحلال والحرام، فهؤلاء هنيئاً لهم ألفَ ألف مرة .

لقد أُشْرِب قلبُ سيدنا علي رضي الله عنه حبَّ القرآن، فقال مرة:

((سلوني، سَلوني، سلوني عن كتاب الله ما شئتم، فو الله ما من آية من آياته، إلا وأنا أعلم، أنزلت في ليل أم في نهار؟))

لذلك: الله عز وجل يعطي أعداءه الدنيا، أما أحبابه فيعطيهم العلم والمعرفة، فمَن كان له من العلم والمعرفة نصيب وافر، فهنيئاً له، فهو من المقربين .

سيدنا الحسن البصري، وصف سيدنا علي، فقال:

((أعطى القرآن عزائمه، وعلمه، وعمله، فكان منه في رياض مونقة، وأعلام بيِّنة))

لما سمع سيدنا علي قول الله عز وجل:

(تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية الآية: ٦]

قال: لا بحديثٍ غير حديثك، نؤمن يا رب كل شيء، قال تعالى:

(فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ)

[سورة الجاثية الآية: ٦]

إن لم تؤمن بالله، فبماذا تؤمن؟ بأي نظرية؟ بأي فكرة؟ بأي مذهب؟ إن لم تؤمن بالله، فما الذي يشدك إليه؟ .

هناك كلمة شهيرة: مع أن سيدنا علياً كرم الله وجهه، كان من السابقين، ولكن قيل: ليس الطريق لمَن سبق، ولكن الطريق لمن صدق .

سيدنا علي كان ممن سبق، وممن صدق، أخي أنا لي بالدرس ثلاث وعشرون سنة، العبرة بالصدق، لو صدقت لصدقت الجميع، ليس الطريق لمن سبق، ولكن الطريق لمن صدق ، سيدنا علي كان من الصادقين، ومن السابقين .

هنيئاً لك هذه الأخوة يا أبا الحسن :

للنبي صلى الله عليه وسلم مع سيدنا علي موقف لا ينسى، فعندنا تمت هجرة النبي والمسلمين إلى المدينة، آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار، وجعل لكل أنصاريٍ أخاً من المهاجرين، حتى إذا فرغ عليه الصلاة والسلام من دمجهم في هذا الإخاء العظيم، رنا بصره تلقاء شاب عالي الجبهة، رَيَّان النفس، مشرق الضمير، وأشار النبي عليه الصلاة والسلام إليه، فأقبل عليه، وبين الأبصار المشدودة، إلى هذا المشهد الجليل، أجلس النبي عليه الصلاة والسلام علياً إلى جواره، وربط على كتفه، وضمه إليه، وقال:

((هذا أخي))

بعضهم قال: فأين الصديق إذاً؟ وأين عمر؟ وأين عثمان؟ هذه مزية، والمزية لا تعني الأفضلية، لكن النبي عليه الصلاة والسلام خصه بهذا المقام، فقال:

((وهذا أخي))

هكذا كان أصحاب محمد كما وصفهم علي بن أبي طالب :

من أسباب تفوقه: أنه كان بعيداً عن الدنيا، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((حب الدنيا أصل كل خطيئة))

يقول هذا الإمام:

((يا دنيا إليكِ عني، يا دنيا غري غيري، يا دنيا طلقتكِ بالثلاث))

صلى الفجر يوماً بأصحابه في الكوفة، وهو أمير المؤمنين، فلما فرغ من صلاته، جلس ساهماً حزيناً، ولبث في مكانه ومجلسه، والناس من حوله يحترمون صمته، فلا يتحركون حتى طلعت الشمس، واستقر شعاعها العريض على حائط المسجد من الداخل، فنهض الإمام علي رضي الله عنه، وصلى ركعتين، ثم هز رأسه في أسى، وقلب يده، وقال:

((والله لقد رأيت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فما أرى اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون وبين أعينهم، آثار ليل باتوا فيه سُجَّداً لله، يتلون كتابه، ويتراوحون بين جباههم وأقدامهم، وإذا ذكروا الله مادوا -أي تمايلوا- كما يميل الشجر في يوم الريح، وهملت أعينهم، حتى تبتل ثيابهم))

هكذا كان أصحاب النبي .

من أقواله :

مرة حدثهم عن الإسلام، فقال هذا الإمام العظيم:

((تعلموا العلم تعرفوا به -الإنسان بلا علم كالبهيمة- واعملوا تكونوا من أهله، ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد أتت مقبلة، ولكل واحدةٍ منها بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا وإن الزاهدين في الأرض في الدنيا، قد اتخذوا الأرض بساطا، والتراب فراشا، والماء طيبا، ألا وإن ومن اشتاق إلى الآخرة، سلا عن الشهوات، ومن أشفق عن النار، رجع عن المحرمات، ومن طلب الجنة، سارع إلى الطاعات، ومن زهد في الدنيا، هانت عليه مصائبها، ألا وإن لله عباداً، شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، أنفسهم عفيفة، حوائجهم خفيفة، صبروا أياماً قليلة لعقبى راحة طويلة، إذا رأيتهم في الليل، رأيتهم صافين أقدامهم، تجري دموعهم على خدودهم ، يجأرون إلى الله في فكاك رقابهم، وأما نهارهم فظماءٌ -أي صائمون- حلماء، بررة، أتقياء، كأنهم القداح، ينظر إليهم الناظر، فيقول: مرضى، وما بهم من مرض، ولكن الأمر عظيم))

من أجل هذا، كان هذا الإمام العظيم، يلبس الثوب الخشن، فيسأله أصحابه: أن يعطي نفسه بعض حقها، فيقول هذا الإمام العظيم:

((هذا الثوب الخشن، يصرف عني الزهو –الخيلاء- ويساعدني على الخشوع في صلاتي-إذا واحد لباسه أنيق جداً، وصلى، تجده يحدث نفسه فيقول: هذا اللون ظريف، إذا كان جميلا جداً في أثناء الصلاة، يفتن عن صلاته- وهو قدوة صالحة للناس، كي لا يسرفوا ويتبذخوا))

هذا الثوب الخشن، يصرف عني الزهو، ويساعدني على الخشوع في صلاتي، وهو قدوة صالحة للناس، كي لا يسرفوا ويتبذخوا، لكن بكل زمن له ترتيب؛ إذا الإنسان هبط مستوى ثيابه عن المستوى المقبول، صار مزدراً بين الناس، وطعن الناس في رجاحة عقله، هذا الكلام صحيح بين الزهاد، صحيح بين أصحاب رسول الله، صحيح في مجتمع نظيف، مجتمع متفوق، ولكن النبي يقول:

((إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى أَخْوَانِكُمْ، فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ وَلِبَاسَكُمْ، حَتَّى تَكُونُوا فِي النَّاسِ كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ))

النبي مشرِّع، هناك أناس يقيِّمونك من لباسك فقط، فإذا كنت مسلماً، فأنت تمثل المسلمين، لا ينبغي أن ترتدي ثياباً غالية الثمن، ولكن يجب أن ترتدي ثياباً نظيفة مرتبة، هذا هو الحد الأدنى .

من أقواله رضي الله عنه:

((إن المضمار اليوم -المضمار مكان التسابق- وغداً السباق، ألا وإنكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن قصَّر في أيام أمله قبل حضور أجله، فقد خاب عمله، ألا فاعملوا لله في الرغبة، كما تعلمون له في الرهبة -معظم الناس في الرخاء كسول، لكن بالشدة مجتهد، أما البطولة: أن تعمل وأنت في الرخاء، كما لو كنت في الشدة- ألا وإني لم أر كالجنة نام طالبها، ولم أر كالنار نام هاربها، ألا وإن من لم ينفعه الحق ضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى، حاد به الضلال -لا يوجد حل وسط: إما أن تكون على الحق، وإما أن تكون على الباطل، إما أن تكون مهتدياً، وإن لم يكن هذا الإنسان مهتدياً، فلا بد من أن يكون ضالاً- ألا وإن الدنيا عرض حاضر، يأكل منه البر والفاجر، وأن الآخرة وعد صادق، يحكم فيه ملك قادر، وإن أخوف ما أخاف عليكم؛ اتباع الهوى، وطول الأمل، فإن اتباع الهوى يصد عن الحق، وإن طول الأمل ينسي الآخرة))

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٢٥-١٠١) : حديث من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٩-٠٢-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم بياناً في شرح هذا الحديث :

أيها الأخوة المؤمنون، من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تحضُّ على فعل الخير، والتي تحض على هداية الناس، حديثُ أبي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنْ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أوزارهم شَيْئًا))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة في الصحيح]

الحقيقة: أن هذا الحديث، والنبي عليه الصلاة والسلام كما تعلمون، لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وما دام هذا الحديث الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، جاء به عن ربه، فيجب أن نستبشر أن كل من دعا إلى هدى؛ لو دعوت إنساناً إلى طاعة الله، أعماله كلها التي يفعلها في حياته، إنما يكتب لك أجر مثلها من غير أن ينقص أجره شيئا، فالإنسان حينما يتكلم، حينما يقنع الناس بشيء، حينما يوضح لهم فكرةً، حينما يغريهم بفعلٍ ما، هذا شيء خطير جداً، إن دعوتهم إلى معصية، هذه المعصية كتبت في صحيفتك، من فعلها إلى يوم القيامة، لأن الإنسان الذي دل عليها، سيتحمل إثم فاعلها، ومن فعلها بتوجيه فاعلها إلى يوم القيامة .

قد يبدو هذا الكلام مبالغاً فيه، ولكن كرم الله سبحانه وتعالى لا يعرفه عامة الناس، فمن أحيا نفساً، فكأنما أحيا الناس جميعاً، لو أن الله سبحانه وتعالى قدر على يديك، أن تنقذ إنسان من الضلال؛ كان ضالاً، كان تائهاً، كان حائراً، كان شقياً، كان منحرفاً، عرَّفته بالله عز وجل، حملته على طاعته، دللته على طريق التقرب إليه، فعل هذا الإنسان هذه التوجيهات، فسعد بالله، حينما أزمع أن يتزوج، بحث عن امرأة مؤمنة، أسس بيتاً إسلامية، جاءته ذريةٌ صالحة، زوَّج بناته من شباب مؤمنين، هذه الأسرة وما يَنْسُل منها من ذرية صالحة إلى يوم القيامة، وأعمال كل هذه الأسرة الصالحة في صحيفة التي دل الزوج على هذا الهدى .

فحينما تتاجر، لا تنسى أن ربح مئة بالمئة ربح فاحش، فما قولك إذا تاجرت مع الله عز وجل، فإن الأرباح التي سوف تأتيك، لا يمكن أن يعقلها إنسان، إن كل إنسان دعوته إلى الله، إن كل إنسان دللته على الخير، إن كل إنسان أغريته بطاعة الله، إن كل إنسان حملته على الاستقامة، إن كل

إنسان نصحته بأن يقف عند حدود الله، إن كل مَن اتبع نصيحتك، وائتمر بأمر الله عز وجل، إن أعماله كلها في صحيفتك، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً .

فهل من الممكن مثلاً بالحياة العامة أن تدل إنسان على تجارة، وهذه التجارة تنمو وتنمو وتَنمو، فأصبح رصيد هذا الذي دللته على هذه التجارة مئة مليون، أيعقل في حياتنا العامة، أن يسجل لك في حسابك مائة مليون، من دون أن ينقص من حساب هذا التاجر، الذي دللته على هذه التجارة شيئاً؟ هذا شيء مستحيل، لو دللت عشرين تاجرًا على تجارة رابحة، أيعقل أن تسجل لك في صحيفتك في الحساب كل أرصدة هؤلاء التجار؟!! .

هذا الواقع، هذا الذي جاء به النبي، فهذا اللسان، قبل أن تغري إنسان أن يفعل هذه المعصية، قبل أن تغري إنسان أن يذهب إلى هذه النزهة التي لا ترضي الله، قبل أن تغري إنسانًا أن يسافر إلى هذا البلد، هل تدري ماذا سيكون في هذا السفر؟ لا تنصح أحداً إلا بالهدى، لا تنصح أحداً إلا بطاعة الله عز وجل، لا تدع أحداً إلا بخير، لأنك إذا دعوت إلى خير، كان لك مثل أجر هؤلاء الذين فعلوا الخير، من دون أن تنقص أجورهم شيئا، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[سورة الصف الآية: ١٠]

تجارة، قال تعالى:

(تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)

[سورة الصف الآية: ١١]

لو أن الإنسان تجارته رابحة جداً، ومعه أرصدة كبيرة، إذا جاء ملك الموت ترك كل هذا المال، ولكنه إذا تاجر مع الله عز وجل، فإن أرباحه كلها تجيَّر له للآخرة، أرباحك في الدنيا تبقى في الدنيا، إذا غادر الإنسان البيت، يبقى ماله في البيت، ويرافقه الأهل إلى شفير القبر، بعض ممن يلوذ بك، يرافق المتوفى إلى شفير القبر، وبعض ممن يلوذ بالميت، يبقى في البيت، فإذا دخل إلى القبر، لا يدخل معه إلا عمله الصالح، المال يبقى في مكانه، له بناء، له أرض، له مزرعة، المال يبقى في مكانه، والمشيِّعون يقفون عند شفير القبر، ولا يدخل معه في القبر إلا عمله، إذا تاجرت مع الله عز وجل، إن كل الأرباح معفاةٌ من الضرائب، وسوف تنتقل معك إلى الدار الآخرة، فتسعد بها إلى الأبد، لهذا النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا بورك لي في يومٍ لم أزدد فيه من الله قرباً))

((لا بورك لي في يومٍ لم أزدد فيه من الله علماً))

اليوم الذي يمضي من دون أن تتعرف إلى الله معرفة جديدة، ومن دون أن تعمل عملاً صالحًا، يكون لك زاداً لك في الآخرة، فهذا اليوم يوم خاسر، ولو رأيت الغلة كبيرة جداً، يوم خاسر، هذه السورة القصيرة:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر الآية: ١-٣]

إذا خلا اليوم من معرفة بالله، وعمل صالح، ودعوة إليه، وصبر على الأذى، ففي هذا اليوم خسارة كبيرة .

إذاً: (مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى): ادعُه إلى كتاب الله، ادعه إلى سنة رسول الله، ادعه ليقف عند حدود الشرع، مر بالمعروف، انه عن المنكر، دله على مجلس علم، دله على عمل صالح يتقرب به من الله عز وجل، إن كل عمل يفعله هذا الذي دعوته في صحيفتك، ومثل هذا المبلغ يسجل في حساب فلان، ومثل هذا المبلغ يسجَّل في حساب فلان، إذا جاءك من فلان مبلغ، ومن فلان مبلغ، يصبح لك رصيدٌ كبير، لذلك أربح تجارة أن تتاجر مع الله، والله سبحانه وتعالى حينما تتاجر معه، يحب أن تربح عليه، بخلاف ما لو تاجرت مع إنسان، إذا تاجرت مع إنسان، فهذا الإنسان يحب أن يربح منك، ولكنك إذا تاجرت مع الله، فالله سبحانه وتعالى يحب أن تربح عليه، قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

[سورة البقرة الآية: ٢٤٥]

أضعافاً كثيرة، أرباح فاحشة، بالمائة مليون، بالمائة مائة مليون، بالمئة ألف مليون.

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً)

[سورة البقرة الآية: ٢٤٥]

أيّ عمل صالح يعد قرضاً حسناً لله عز وجل .

سيدنا سعد بن أبي وقاص حينما قال:

((ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك، فأنا واحد من الناس، ما سمعت حديثاً من رسول الله، إلا علمت أنه حقٌ من الله تعالى))

وهذا حديث من رسول الله، فلنعلم علم اليقين: أنه حق من الله تعالى، لذلك دُل الناس على الخير، ادعهم إلى مجالس العلم، عرفهم بربهم، أعنهم، استجلب قلوبهم، ليّن قلوبهم بالإحسان إليهم، ذلل طريق الهدى بإكرامهم، قدِّم لهم خدمة حقيقية، اخدمهم في دنياهم، حتى يستمعوا إليك، حتى يصغوا إليك، هذه التجارة الرابحة، هذه الصنعة صنعة الأنبياء، من أجرى الله على يديه الخير، فهذا عز عظيم، إذا أردت أن تعرف مقامك، فانظر فيما استعملك .

من شروط صحة البيع :

١- التأبيد :

والآن إلى متابعة بحث البيوع الذي بدأناه قبل دروس عدة .

نحن في الدرس الماضي، وصلنا إلى شروط انعقاد البيع، التي لو اختل أحدها، لبطل البيع، ومعنى أن البيع باطل، أي لا يمكن أن يقوم، عندنا بيع منعقد، وعندنا بيع صحيح، وعندنا بيع لازم، وعندنا بيع نافذ، فهناك شروط انعقاد، وشروط صحة، وشروط لزوم، وشروط نفاذ، شروط الانعقاد منها ما يتعلق بالمتبايعين، منها ما يتعلق بصيغة البيع، منها ما يتعلق بمكان البيع، منها ما يتعلق بالمبيع نفسه، هذا تحدثنا عنه في الدرس الماضي، وأما شروط صحة البيع: فهو موضوع هذا الدرس إن شاء الله تعالى .

من شروط صحة البيع: التأبيد وعدم التوقيت، بيع مؤَقَّت: هذا لو أنك بعت شيئاً لزمنٍ محدود، فهذا بيع فاسد، كيف يصحّح؟ بأن تجعله إلى الأبد، من شروط صحة البيع؛ التأبيد، بعتك هذا الكتاب لشهر، هذا لا يجوز، إذا بعت هذا الكتاب فدائماً، لذلك بيع العين لا يجوز فيه التوقيت، ولكن بيع المنفعة يجوز فيه التوقيت، كأن أجرتك هذه السيارة لسنة، أجرتك هذا البيت لسنة، أنت حينما تؤجر البيت، تبيع المنفعة لا تبيع الرقبة، هناك بيع منفعة، وهناك بيع رقبة، بيع العين، بيع العين لا تصح إلا على التأبيد .

أحياناً: أقرأ إعلانات في بعض الصحف، أن هناك بيوت تباع لتسعةٍ وتسعين عاماً، هذا البيع فاسد، لأن البيع بيع العين على التأبيد، وليست بيع العين على التوقيت، فملكية الأعيان، أي ملكية الرقاب، لا تقبل التوقيت بخلاف ملكية المنافع، فإنها تقبل التوقيت، بل الوقت أصلٌ فيها، الوقت أصل في بيع المنافع، فلو باع الكتاب إلى شهرٍ، يعد هذا البيع فاسداً .

لكن العلماء قالوا: إذا بعت هذا الكتاب، بكم تبيعني هذا الكتاب؟ بمئة ليرة، خذ هذه المئة، وقد اشتريت منك هذا الكتاب، ولم يذكر الوقت في هذا البيع، إن عدم ذكر الوقت يعد على التأبيد، لأن الأصل في البيع على التأبيد، لو اشترى إنسان من إنسان حاجة بإيجاب وقبول صحيحين، ولم يتعرض فيه إلى الوقت، فالأصل في البيع أنه على التأبيد، لو لم يذكر الوقت مما يشترط في البيع التأبيد، إذاً: التأبيد أصل في البيع، لكن التوقيت في الثمن جائز، التوقيت في المبيع غير جائز، المبيع أي: الحاجة، أما أشتري منك هذه الحاجة، على أن أؤدي ثمنها بعد شهر، هذا جائز .

٢- معلومة المبيع وما يلحق به :

الشرط الثاني من شروط صحة البيع: معلومة المبيع، ومعلومة الثمن، ومعلومة الأجل، ومعلومة طرائق التوثيق، لو سألت المُحَكّمين التجاريين: ما أسباب المشكلات والخلافات والمنازعات بين التجار؟ أعتقد أن تسعة وتسعين بالمئة من أسباب الخلافات، والنزاعات، والمشاحنات، والمشاجرات فيما يتعلق بالبيع والشراء، سببه الجهالة .

اشترى قماشًا على مسطرة، فجاءت البضاعة من نوع آخر، نشأت المنازعة، اشترينا هذه الحاجة، ولم نحدد الثمن بالضبط، الثمن حدد، ولم يحدد نوع النقد، اشتريت بضاعة في بلد آخر، لم يحدد نوع النقد، دخل في منازعة، اشتريت بضاعة معلومة، والثمن معلوم، ولكن لم تحدد وقت الدفع، أو طريقة الدفع، تركتها غائمة، لا تفرق، لا نختلف إن شاء الله، لا سوف نختلف، إذا قلت: لن نختلف، سوف نختلف، فبيّن، هذا أهم شرط بصحة البيع .

معلومة المبيع: الوزن، الكمية، النوع، بلد المنشأ مثلاً، قد تشتري بضاعة ذات منشأ معين، فإذا بها ذات منشأ معين، تلك لها سعر، وهذه لها سعر، قد تشتري بضاعة بكميةٍ أنت بحاجة إليها، تأتي الكمية أقل مما تحتاج أنت، تنشأ مشكلة، قد تشتري بلاطًا لبيت، أنت تحتاج إلى مئة متر، باعك سبعين، مستحيل، لا بد أن تكمل البيت بنفس البلاط، فأهم شروط المبيع، معلومة المبيع؛ الوزن، والعدد، الكمية، والنوع، تاريخ الصنع، انتهاء المفعول، يعني يجب أن تعرف بالضبط الحجم والمواصفات جميعاً، لذلك حينما تنتفي الجهالة تنتفي المنازعة .

إذا أردت أن تبيع وتشتري بلا منازعة، بلا مشكلات، بلا تحكيم تجاري، بلا حجز مبالغ، بلا إقامة دعاوى، بلا إنذارات، يجب أن تعلم ما هو المبيع؟ ما عدده؟ ما حجمه؟ ما لونه؟ ما جنسه؟ ما مصدره؟ ما طبيعته؟ كيف سيعلّب؟ بأي حجم سيعلب؟ أحياناً تشتري قماش على أنه سيأتي لفًّا، فيأتي على شكل أثواب مثلاً، هذا القماش لو ثني فله مشكلة، فهذا يجب أن يكون واضحاً معلوم المبيع .

معلومة الثمن، كلمة لا تفرق، ولا نختلف، هذه كلمات الجهلة، اسأله: كم الثمن؟ وما نوع الثمن؟ وكيف ينبغي أن يدفع؛ دفعة واحدة أم على أقساط؟ وفي أي مكان يجب أن يدفع؟ وما طرق التوثيق؟ من تحب أن يكون الكفيل؟ كيف تحب أن يكون التسليم؟ طرق التوثيق .

الجهالة الفاحشة والجهالة غير الفاحشة في البيع:

أيها الأخوة، لكن العلماء يفرّقون بين الجهالة الفاحشة والجهالة غير الفاحشة، هناك جهالة فاحشة، وهناك جهالة غير فاحشة، العلماء قالوا: الجهالة القليلة مغتفرة، أخي الأثواب تأتي بين خمسة وعشرين مترا أو ثلاثين، هناك فرق، فهذه جهالة قليلة، هناك أمثلة توضح تلك الجهالة المقبولة .

الجهالة الفاحشة تفسد البيع، قطيع غنم، تقول لإنسان: سأبيعك غنمة بألفي ليرة، هناك غنمة وزنها ثلاثون أو أربعون كيلو، وغنمة أخرى وزنها خمسة عشر، هناك تفاوت كبير في قطيع الغنم بين الغنم السمين والغنم الهزيل، فهذه جهالة فاحشة، أنت تنتقي السمين، تقول له: هذه، الشراء صحيح، بعتك هذه الشاة بألفي ليرة، بعتك شاة من هذا القطيع بألفي ليرة، لكن الشاة السمينة لها ثمن، والهزيلة لها ثمن، لكن بعتك صاعاً من هذا القمح، القمح متماثل، فالجهالة هنا طفيفة، لا تفضي إلى المنازعة، بعتك ذراعاً من هذا الثوب، الثوب متماثل، فأنت لا تعرف من أي مكان سيأخذ هذا الذراع، من أوله لا تفرق، القماش متماثل، وأخذ مترًا من هذا القماش لا يؤذي الثوب، فعندنا جهالة فاحشة، وجهالة طفيفة، الجهالة الطفيفة معفو عنها، ولكن الجهالة الفاحشة هذه تسبب المنازعة .

الجهالة تتعلق بأربعة موضوعات: تتعلق في المعقود عليه؛ كبيع شاة من قطيع، أو ذراع من ثوب، الجهالة الفاحشة تفسد العقد، والجهالة غير الفاحشة لا تفسده، في جهالة بالعوض بالثمن، الثمن بسعر السوق، هذه كلمة مطاطة، اختلفوا على سعر السوق، أنا سألت قال: الثمن هكذا، هذا سأل، قال هكذا، صار في خلاف، لا تقل له: بسعر السوق، قل له: بالسعر الفلاني كذا وكذا .

هناك جهالة في الأجل، الأجل لشهر، لشهرين، لثلاثة، لستة، نقداً لسنة .

والجهالة الرابعة في وسائل التوثيق: مَن هو الكفيل؟ عند من تكون البضاعة؟ من يسلم الثمن؟ طرق التوثيق .

إذاً: يجب أن تنتفي الجهالة في المبيع، وفي العوض، وفي الأجل، وفي طرائق التوثيق حتى يصح البيع، وإلا فالبيع فاسد، والبيع الفاسد منعقد، ولكنه يصحح .

٣- سلامة الرضا :

عندنا شيء يخدش صحة المبيع: سلامة الرضا، مر بنا قبل أسبوعين أو أكثر، أن الرضا ركن البيع الأوحد، لا يوجد غيره، لقول الله عز وجل:

(إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ)

[سورة النساء الآية: ٢٩]

فركن التجارة، ركن البيع والشراء، أن يرضى البائع، وأن يرضى المشتري، الرضا حالة نفسية لا تعرف، لا يعلم الغيب إلا الله، لكن الرضا يعبر عنه بالإيجاب والقبول، كما مر بنا من قبل، فصار الإيجاب والقبول متصل بالرضا، فهناك علاقة بين الإيجاب والقبول وبين الرضا، إذا انقطعت العلاقة بين الإيجاب والقبول وبين الرضا، صار البيع غير منعقد، إن لم يعبِّر الإيجاب والقبول عن الرضا أصلاً، وإن انتفى الرضا أصلاً في هذا الإيجاب والقبول، فهذا البيع باطل، ولكن إذا ضعفت

الصلة بين الإيجاب والقبول والرضا فالصلة ضعيفة، عندئذٍ يصبح البيع فاسداً، وإذا انتفى الرضا، وانقطعت العلاقة بينه والإيجاب والقبول، فهو باطل، وإذا ضعفت العلاقة بين الإيجاب والقبول والرضا، فهو فاسد.

ما هي البيوع التي لها آثار سلبية على صيغة الإيجاب والقبول ؟

١-بيع الإكراه:

ما الذي يضعف العلاقة بين الإيجاب والقبول، وبين الرضا؟ العلماء قالوا: بيع الإكراه ، يعني يجب أن تشتري هذا الشيء مع التهديد، فإن لم تشتره، فعلنا بك كذا وكذا، هذا إكراه، العلماء أيضاً: فرقوا بين إكراهين؛ إكراه ملجئ، وإكراه غير ملجئ، ما الإكراه الملجئ؟ الإكراه الملجئ أن تخاف من تلف النفس، أو تلف العضو، أو ضرب شديد مبرح، أو حبس طويل، والضرب المبرح، وقتل النفس، وتلف عضو، هذا إكراه ملجئ، فالإكراه يضعف الصلة بين الإيجاب والقبول والرضا، وإذا ضعفت هذه الصلة، صار البيع فاسداً .

أما إذا كان الإكراه، يؤدي إلى ألم خفيف، أو ضرر يسير، أو تهديدٍ، وأنت تظن أن هذا التهديد لا يقع، ولا يحصل، فهذا إكراه غير ملجئ، فإذا قلت: اشتريت، فهذا البيع صحيح، إذا كان الإكراه غير ملجئ، فالإيجاب والقبول صحيحان، أما إذا كان الإكراه ملجئًا، ضعفت العلاقة بين الإيجاب والقبول والرضا، إذاً: فالبيع فاسد .

٢-بيع المواضعة أو بيع التلجئة :

عندنا شيء آخر، يضعف العلاقة بين الإيجاب والقبول والرضا: بيع المواضعة، أو بيع التَّلْجِئَة، كأن يكون اتفاق بين إنسانين على بيع صوري، أحياناً الإنسان يبيع بيته بيعًا صوريًا، حتى يهرب من توريث زوجته، يهرب من الورثة، أو يهرب إذا فلس، يبيع بيته بيعًا صوريًا، فالبيع الصوري بيع تلجئة، أي أنه لجأ إليه، ليتهرب من إعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم، فبيع التلجئة إيجابه وقبوله، يضعف العلاقة بينه وبين الرضا، هذه التلجئة إما أن تكون في أصل العقد، البيع كله صوري، البيت له، والعقد رسمي، وهناك إيجاب وقبول، ونُقل البيت إلى الصحيفة العقارية للمشتري، لكن هناك عقد ثان، أن هذا العقد الذي جرى هو عقد شكلي .

في حالات الإفلاس الاحتيالي، يلجأ إلى بيع صوري، سماه الفقهاء: بيع التلجئة، هذا البيع فاسد، لأنه يشك في الرضا التام من البائع والمشتري .

أحياناً: تكون التلجئة لا في أصل العقد، بل في الثمن، البيت بيع بثلاثة ملايين، وكتب بثمانمئة ألف، لأسباب معينة، فحدث خلاف في الثمن، أيضاً بيع التلجئة الذي يتعلق بالثمن، هذا بيع تضعف فيه الصلة بين الإيجاب والقبول والرضا، كيف يصحح؟ باعتماد الثمن الحقيقي، وقد يجري بيع شكلي لاسمٍ مستعار، هذا بيعٌ فاسد، تضعف العلاقة فيه بين الرضا والإيجاب والقبول، كيف يصحح؟ باعتماد المشتري الحقيقي .

يمكن أن يكون ضعف العلاقة بين الإيجاب والقبول والرضا؛ عن طريق الإكراه، أو عن طريق بيع التلجئة، بأنواعه الثلاثة؛ صورية العقد في الأصل، أو الثمن مختلف، أو الشخص مستعار .

٣-الهزل:

شيء آخر، يؤدي إلى ضعف العلاقة بين الإيجاب والقبول والرضا: هو الهزل، أحياناً يكون الكلام فيه هزل، البائع غير جاد، والمشتري غير جاد، ولكن العلماء قالوا: إن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((ثَلَاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ؛ النِّكَاحُ وَالطَّلَاقُ وَالرَّجْعَةُ))

[أخرجه الحاكم في مستدركه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ]

فالمزح في موضوع الزواج لا يرضي الله عز وجل، يخاطب أخته فيقول لها: فلان خطبك، فلان طلبك، تفرح المسكينة، تظل يومين أو ثلاثة، تعيش بأحلام رائعة، ثم تتبيّن بعد ذلك أنها مزحة، ثلاثة جدهن جد، وهزلهن جد، إذا مزح الإنسان في موضوع الزواج، يلزمه القاضي بالزواج، لكرامة المرأة على الله عز وجل، فهذه القضية ليس فيها مزح، وكذلك الطلاق: أنا كنت أمزح، لا يوجد مزح في الطلاق، طلقتْ طلقت، والعِتق: إنسان أعتق عبدًا، طار من الفرح، مزح، ما هذا المزح؟

((ثَلَاثٌ جِدُّهُنَّ جِدٌّ، وَهَزْلُهُنَّ جِدٌّ؛ النِّكَاحُ وَالطَّلَاقُ وَالرَّجْعَةُ))

وفي رواية:

((والنذر))

يا بني إذا كان نجحت إن شاء الله، سوف أشتري لك دراجة، أنت نذرت، نجح، كنت أمزح، ما دمت قد نذرت على نفسك، فهذا النذر صار واجبًا، والعلماء أضافوا اليمين، لأن اليمين متعلقة بالنذر .

صاروا خمسة: النكاح، والطلاق، والعتق، والنذر، واليمين، هذه خمسة أشياء، إذا عُرف العدد عُرف المعدود، خمسة الأشياء، وليس الخمس أشياء، فهذا خطأ شائع، جدهن جد وهزلهن جد .

فالإنسان يتأدب مع الله عز وجل، يمزح في موضوع زواج، في موضوع طلاق، في موضوع خطبة، في موضوع عتق، نحمل عليها حكم آخر، إنسان عنده صانع، فيقول له: إن شاء الله سوف أشاركك، فقبل هذا الصانع بالأجر اليسير، قبل بالتعب الزائد، قبل بالدوام الإضافي، كله قبل به، لأن صاحب المعمل، سوف يدخله شريكًا معه، مضت سنتان لا توجد حركة، سنة ثانية، وظل ساكتاً، أين الشركة؟ هذا مزح، صدقت أنت، لا يجوز هذا، تطمعه بشركة لكي تستغله، هذا لا يرضي عز وجل .

انظر الإسلام كم هو دقيق، واضح، (من استأجر أجيراً فليعلمه بأجره)، أخي ألف بالشهر، تعال اشتغل، أنا يدي للخير، أنا كريم أعطيك، هذا جاء بفكره ثلاثة آلاف، وأنت ثمانمئة، ثمة مسافة كبيرة جداً بينهما، من استأجر أجيراً فليعلمه .

الشرط صار هزلا، وبيع التلجئة، وبيع الإكراه، هذه تفسد عقد البيع، لا تبطله، ولكنها تفسده، والفاسد يصحح، والباطل لا ينعقد .

فأول شرط من شروط البيع: التأبيد، الشرط الثاني: معلومة المبيع، ومعلومة الثمن، والأجل، وطرق التوثيق، الشرط الثالث: سلامة الرضا، انعدام الرضا يبطل البيع، ولكن ضعفه يفسده، مما يضعفه الإكراه والتلجئة بأنواعها الثلاثة، والهزل .

٤ ـ الإفادة :

الشرط الذي بعد هذا الشرط: الإفادة، مع أخوين كتاب كهذا الكتاب، تبيعني هذا الكتاب بهذا الكتاب، نفس النوع، الطبعة نفسها، الثمن نفسه، التجليد نفسه، هذا البيع ليس له طعم، هذا البيع فاسد، لأنه بلا جدوى، لرجلين بيت مشترك، لكل واحد منهما نصفه، هل تبيعني حصتك بحصتي؟ بعتك إيَّاها، البيع ليس له معنى إطلاقاً، وهو بحسب ما بدا معنا الآن، ليس له معنى ، اثنان مشتركان في ملكيته، فباع أحدهما حصته لزميلة بحصته، إلا أن السادة الشافعية أجازوا هذا البيع، هذا البيع سمَّاه العلماء: بيعًا غير مفيد ، وإذا كان البيع غير مفيد فهو فاسد، لماذا؟ ما جدوى هذا المبيع؟ ولكن الشافعية أجازوا هذا البيع، لأنك إذا وهب إليك نصف بيت، ووهب للآخر نصفه الآخر، وبعت أنت حصتك إلى شريكك بحصته، لا يوجد أي مجال لتسترد الهبة، لأنك بعت الحصة، فالشافعية أجازوا بيع الشريك حصته بحصة شريكه مشاعاً، لأن فيه فائدة، وهذه الفائدة هي عدم صحة رجوع الواهب، لا

يقدر، بعتها، وهبتني وبعتها، هذه هي الفائدة الوحيدة من أن يبيع شريك شريكه حصته بحصته مشاعاً، عند الشافعية جائز، عند الأحناف عدم الإفادة في المبيع يفسد المبيع .

من الشروط التي تفسد المبيع :

١-عدم القدرة على التسليم عند العقد :

من الشروط التي تفسد المبيع: عدم القدرة على التسليم عند العقد، لكنّ أخًا سألني: أحياناً يكون في معمل بضاعة معينة، فأنت تقدم نموذجًا، تتفق عليه مع المشتري على هذا النموذج، الكمية ألف، السعر كذا، التسليم بعد ستة أشهر، فقيل: إن هذا البيع بيع المعدوم، لا، فهذا بيع شرعي جائز، سوف نصل إليه بعد فترة، إنه بيع الاستصناع، أنت اتفقت مع إنسان على أن تصنع له هذه البضاعة، هذا بيع شرعي، وله مواصفاتٌ دقيقة، نأتي عليها في وقت آخر إن شاء الله .

فعدم القدرة على التسليم عند العقد، من غير ضرر فاحش يلحق البائع، فلو بعت جذعاً في سقف، إذا أردت أن تسلم هذا الجذع، وقع البناء، هذا بيع فاسد، أو حجر في حائط، حجر كبير، بيع فساد، ذراعاً، أحياناً قطعة قماش يسمونها (كبّون) متران ونصف، وطلبت مترًا واحدًا، لو صار إيجاب وقبول، فهذا البيع فاسد، لو أعطاك مترًا لم يعد للباقي فائدة، فإذا أعطاك المبيع، وتضرر ضررًا فاحشًا، فالبيع فاسد، فعدم القدرة على التسليم عند العقد، من غير ضرر فاحش، يلحق بالبائع، فلو كان هناك عدم قدرة على التسليم، أو كان هناك قدرة على التسليم، ولكن هناك ضرر فاحش، عندئذٍ يعد البيع فاسداً .

٢-أن يكون الثمن متقوماً :

شيء آخر: أن يكون الثمن متقوّماً، يكون الثمن مالا يجوز الانتفاع به، سمعت أن شخصًا له عند رجل حقوق، فأعطوه خمرا، لا يجوز هذا، فهذا ثمن غير متقوّم، ما دام الله عز وجل قد حرمه، هو مال عند غير المسلمين، وله ثمن، وقد يكون ثمنه غاليًا جداً، لكن ما دام المال محرمًا شرب هذا المشروب، إذاً: هذا ليس بمال متقوّم، فإذا كان المبيع ليس مالاً، فالبيع باطل، إذا كان المبيع ليس مالاً؛ كالميتة والدم، فالبيع باطل، إذا كان الثمن مال غير متقوَّم، لا يجوز استعماله، فهذا البيع فاسد، واحد باع حاجة بلحم خنزير أو بخمر، البيع صحيح، ينفذ، ولكن نعدل الثمن، ونصححه، نريد عوض هذا الشيء ثمنًا نقديًّا .

بقي شرطٌ، ولكن يحتاج إلى درس مستقل، نأخذه في الدرس القادم إن شاء الله: الخلو عن الشروط الفاسدة، أحياناً يكون الشرط مفسدًا للبيع، كأن أبيعك هذا البيت على ألا تبيعه أنت، لا يصح، لا بيع وشرط، فهذا موضوع يحتاج إلى تفصيلات، نقف عنده في الدرس القادم إن شاء الله تعالى .

هكذا ينبغي أن يكون المؤمن :

والآن: إلى سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

هذا الفصل عن سيدنا علي بن أبي طالب متعلق ببطولته، وكان سيدنا علي من أشجع الشجعان رضي الله عنه وأرضاه، قال:

((ذات يوم والنبي عليه الصلاة والسلام بالمدينة، نزل عليه الوحي بآية جديدة من القرآن، وراح النبي صلى الله عليه وسلم يتلوها على أصحابه، وهم منصتون، -ما هذه الآية؟- قال تعالى:

(وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٤٤]

قال: هذه الآية أحدثت في نفس الصحابة الكرام رد فعل قوي، ظن بعضهم أنها تنعى النبي عليه الصلاة والسلام، -ماذا فعل سيدنا علي؟- سيدنا علي صاح وقال: والله لا ننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله .

-من علامة الإيمان: أن تكره أن تعود في الكفر كما أن تكره أن تلقى في النار، من علامة النفاق: أن تعبد الله على حرف، هزة طفيفة تنقلب على عقبيك، هذه من علامة النفاق، أما من علامة الإيمان: أن تكره أن تعود في الكفر كما تكره أن تلقى في النار- فلما سيدنا علي سمع الآية:

(وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً)

[سورة آل عمران الآية: ١٤٤]

فقال: والله يا رب لا ننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله، ولئن مات أو قتل -سيدنا رسول الله- لأقاتلن على ما قاتل عليه، حتى أموت))

هذه نقطة دقيق جداً: التعلق بالمبادئ، وليس بالأشخاص .

أعظم مقولة قالها سيدنا الصديق، قال:

((من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت))

لا تربط نفسك بالأشخاص، اربط نفسك بالله الواحد القهار، أبدي، سرمدي، لا يزول ولا يحول، الشخص يموت، الشخص قد تزل قدمه، إذا ربطت نفسك بالله ورسوله، فأنت في حصنٍ حصين، فإذا ربطت نفسك بزيد أو عُبيد، فأنت على مشارف الهلاك .

قال له:

((والله لا ننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله، ولئن مات أو قتل، لنقاتلن على ما قاتل عليه، حتى نموت))

المبدأ هو الأصل .

انظر إلى حيائه في هذا الشأن :

في غزوة أُحد: يخرج من صفوف المشركين، أحد مبارزيهم الأشداء، وهو أبو سعد بن أبي طلحة، وينادي علياً بالذات ليبارزه، ويخرج عليٌّ إليه، ويتلاقيان في مبارزة ضارية حامية، ويتمكن منه سيف علي بضربة تطرحه أرضاً، وهو يتلوى من الألم، وبينما علي كرم الله وجهه يتهيَّأ ليجهز عليه بضربة قاضية، ينحسر جلباب الرجل، فتنكشف عورته، فيغمض علي عينيه، ويغض بصره، وينثني إليه سيفه، ويعود إلى مكانه، ويسأله المسلمون:

((لمَ لمْ تجهز عليه؟ فيجيبهم: لقد استقبلني بعورته فكففت عنه))

نقول: كرم الله وجهه، ما نظر إلى عورة قط، كرم الله وجهه دائماً .

أحد الصحابة رضي الله عنه قال:

((والله منذ صافحت رسول الله بيميني، ما لمست بها عورتي قط))

طوال حياته، هذا الانضباط الشديد، منذ أن صافح النبي بيمينه، ما لمس بها عورته .

يقول بعض الشعراء في رواية أخرى: أن أحد المبارزين، حينما أيقن أنه سيموت، فكشف عورته، فقال بعض الشعراء:

لا خير في رد الردى بمذلةٍ كما ردها يوم بسوءته عمرو

يعني هذا رد الردى بمذلة .

انظر إلى خلقه مع خصومه :

سيدنا علي في بعض معاركه مع خصومه، أحد قواده الكبار شتما خصمه، فسيدنا علي نهاهما عن ذلك، نهاهما عن هذا الشتم، وأمرهما أن يكفا عنه، فقالا:

((يا أمير المؤمنين، ألسنا على الحق وهم على الباطل؟! .

فأجابهم سيدنا عليه كرم الله وجهه: بلى ورب الكعبة .

فقالوا: ولم تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟ .

قال سيدنا علي: كرهت لكم أن تكونوا شتَّامين، ولكن قولوا: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدنا من ضلالتهم، واهدهم من ضلالتهم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوي عن الغي من لج به))

هذا الخلق الرفيع، عوِّد لسانك على الكلام الطيب، حتى مع خصومك .

من تضحياته :

في الحقيقة: النبي عليه الصلاة والسلام في أيام الهجرة، لما ائتمر كفار قريش على قتله، وأحاطوا بمنزله، وتربصوا به الدوائر، والنبي عليه الصلاة والسلام كان الأمين، عنده ودائع كثيرة لقريش، سَجَّى سيدنا علي مكانه، فأوهم المحاصرين أن النبي في سريره، وخرج النبي كما تعرفون، فهذا العمل تضحية ما بعده تضحية، احتمال أن يقتلوه احتمال كبير جداً، لأن كل أصحاب النبي، أصبحوا في الهجرة، والنبي هاجر، ما بقي أحد، فآخر من هاجر سيدنا علي، وفوق ذلك أمره النبي عليه الصلاة والسلام برد الودائع إلى أهلها، ولكن النبي طمأنه، قال له:

((يا علي لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم))

لكنها مجازفة، فالقضية بالكلام سهلة، ولكن تجلس مكان إنسان، وهناك مؤامرة على قتله، وهناك حنق، وغيظ شديد، والإنسان يتفلت ويخرج، ولا يوجد أمامك إلا هذا الشخص البديل، وهذا الشخص البديل ابن عمه، وهو من أخلص أتباعه، وينجو من القتل، مستحيل، فكانت هذه منه تضحية كبيرة، فلذلك كل إنسان حجمه عند الله عز وجل بحجم تضحياته .

شجاعته :

في غزوة أحد: يسقط اللواء من يد مصعب بن عمير، بعد أن أبدى بطولة خارقة، ويدعو النبي علياً رضي الله عنه لحمل اللواء، ويحمله بيده، ويده الأخرى قابضة على سيفه، واسمه ذو الفِقار، هذا السيف الوثيق الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم، وعن صاحبه:

((لا سيف إلا ذو الفقار، ولا فتىً إلا علي))

ما كاد ابن أبي طالب، يحمل اللواء، حتى صاح حامل لواء المشركين: ألا هل من مبارز؟ هذه الخروج للمبارزة بالمئة ثمانون مصيره الموت، بقدر التضحيات ترقى عند الله عز وجل، ألا هل من مبارز؟ ولا يجيبه من المسلمين أحد، فلقد كانوا في شغل عنه بالمعركة، التي بلغت أقصى عنفوانها، وشدتها، وضراوتها، ويرسل حامل اللواء نعيقه مرة أخرى: ألستم تزعمون أن قتلاكم في الجنة، وقتلانا في النار؟ ألا فليخرج إلي أحدكم؟ .

ولم يطق سيدنا علي صبراً فصاح به: أنا قادم إليك، كان فتى، وهذا الذي يدعوه للمبارزة من صناديد قريش، أنا قادم إليك يا أبا سعد بن أبي طلحة، فابرز إلي يا عدو الله، والتقيا بين الصفوف الملتحمة، تحت وقع السيوف وتبارزا، فاختلفا ضربتين، ضربه علي ضربةً واحدة، فسقط على الأرض، يعالج جرحه، وهم علي أن يضربه ضربةً ثانية، فانكشفت عورته، هذا الذي هو الذي تحدثت عنه قبل قليل، عندئذٍ كف عنه هذا الإمام الكبير .

يبدو أنه قد أصابته جراحاً كثيرة، أعيت المضمدين، فرآه النبي الكريم في هذه الحالة فقال:

((إن رجلاً لقي هذا كله في سبيل الله، لقد أبلى وأعذر))

هنيئاً لك هذه الراية أبا الحسن :

يبدو أن في معركة خيبر، وأمام حصنها المنيع، ارتدت أول يوم كتيبة، يقودها سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، ثم ارتدت في اليوم الثاني كتيبة أخرى، يقودها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فلم يجزع النبي عليه الصلاة والسلام، فما كان هو بالجازع أبداً، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ يَوْمَ خَيْبَرَ:

((لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، فَقَامُوا يَرْجُونَ لِذَلِكَ أَيُّهُمْ يُعْطَى، فَغَدَوْا وَكُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَى، فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيٌّ؟ فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَمَرَ فَدُعِيَ لَهُ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، فَبَرَأَ مَكَانَهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهِ شَيْءٌ، فَقَالَ: نُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا، فَقَالَ: عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يُهْدَى بِكَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

هذا المعنى، وهذا الكلام لا يعني أن سيدنا الصديق أقلّ، أو سيدنا عمر أقلّ، لكن هكذا جاء، فالإنسان حينما يأخذ مزية، لا تعني أنه تفوق بها، ولكن هذه مزية، فقال سيدنا عمر رضي الله عنه:

((والله ما تمنيت الإمارة قط في حياتي إلا ذلك اليوم، رجاء أن يكون ممن يحبه الله ورسوله))

هذه أمنيته .

وفي الصباح اصطفت الصفوف، واشرأبت الأعناق متمنية راجية، وشق السكون صوت النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أين علي بن أبي طالب؟ -لم يخطر بباله أن يكون ذلك الرجل الذي وعد النبي أصحابه، وجعل بشرى الفتح على يديه- فقال: ها أنا ذا يا رسول الله، وأشار النبي إليه بيمينه فتقدم، ورأى النبي ما بعينيه من وجع واهتياج، فبل أنامله المضيئة بريقه الطهور، وبث بهما عين البطل، ثم أعطاه

الراية، وقال: خذ الراية، فامض بها، حتى يفتح الله عليك .

وحمل الراية، وفتح بها حصن خيبر، وقال لمن على الحصن من أصحابه: أنا علي بن أبي طالب -لم يقلها مفتخراً، ولكن النبي قال لصحابي، كان يتبختر في مشيته قبيل المعركة قال:

((إن الله يكره هذه المشية إلا في هذا الموطن))

لأن التكبر على المتكبر صدقة- .

سيدنا علي قال: والذي نفسي بيده، لأذوقن ما ذاق حمزة، أو ليفتحن الله لي))

نهاية الختام :

أبو سفيان قُبَيل فتح مكة، شعر أن الخطر قريب، فأوجس خيفة، وتوجه إلى المدينة يسترضي النبي عليه الصلاة والسلام، وأراد أن يسترضي أصحابه أولاً، فلعلهم يُعينونه على استرضاء النبي، فذهب إلى بيت ابنته أم حبيبة زوج النبي عليه الصلاة والسلام، ومنعته من أن يطأ فراشها، فقال أبو سفيان: وجئت ابن أبي قحافة، فلم أجد منه عوناً، وجئت ابن الخطاب، فلم أجد منه عوناً، وقال لي: أنا أشفع لكم عند رسول الله، وجئت علياً فوجدته ألين القوم، سيدنا علي مع بطولته الخارقة، كان ذا لينِ معروفٍ، ولينه ربما سبب له بعض المتاعب، كان عنده لينٌ، وعنده شجاعة وإقدام .

على كلٍ؛ كما قال سيدنا رسول الله:

((دعوا لي أصحابي، فو الذي نفسي بيده، لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً، ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه))

سيدنا رسول الله قال له مرة:

((أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي))

والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

ما مشتقات هذه الآية، وما مفرزات معانيها ؟ :

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا في الحديث النبويّ الشريف، ومن باب التعاون على البرّ والتقوى، عنوان هذا الباب مُقتَبَس من قوله تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى البرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

تعاونوا: أمرٌ في القرآن الكريم، وأمرُ الله سبحانه وتعالى يقتضي الوجوب، فكما الله سبحانه وتعالى أمرَك بالصلاة، والصلاة فرض، وأمرَك بالصيام، والصيام فرض، وأمرك بالحج، والحج فرض، وأمرك بالزكاة، والزكاة فرض، كذلك أمركَ أن تتعاون مع أخيك .

ما موضوع هذا الباب؟ رياض الصّالحين من طريقته: أنه يُصدِّر أبوابه ببعض الآيات الكريمة، الذي عُقِد تحت عنوان: وتعاونوا على البرّ والتقوى، مُصدَّرٌ بقوله تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية: ٢]

فالتعاون يعطي معنى: المشاركة، عاونَه: على وزن فاعَلَ، عاوَنَ: على وزن فاعَلَ، أعان بمعنىً، وعاونَ بمعنىً، أعان من طرفٍ واحد، أما تعاون أو عاون، فيها معنى المشاركة ، أي يجب أن تعاونني، ويجب أن أعاونك، الفاعل والمفعول به يقوم كلٌّ منهما بالفعل، هذه المشاركة، ومعنى التعاون: أي كلُّنا سواسية كأسنان المشط، كلكم لآدم وآدم من تراب، أي تُعينه في أمر دينه، فيُعينك أحياناً في أمر دينك .

ما موضوع التعاون؟ نتعاون على ماذا؟ يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى البرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

أجمَع العلماء على أنّ البرّ صلاحُ الدنيا، وأنّ التقوى صلاحُ الآخرة، أي أنتَ مأمورٌ من الحقّ جلّ وعَلا، أن تعين أخاك على أمر دينه، ومأمورٌ من الحقّ جلّ وعَلا، أن تعين أخاك على أمور دنياه، فأيّ مشروعٍ فيه حلٌّ لمشكلةٍ، يعاني منها المسلمون، هذا من باب التعاون، ومن باب صلاح الدنيا، وهذا مما يرضي الله عزّ وجلّ، أيّ حلّ لأيّ أزمة يعاني منها المسلمون، لو تعاون الأغنياء على

إسكان الفقراء، في بيوتٍ بأثمانٍ رمزيّة أو قليلة، هذا عملٌ يرضي الله عزّ وجلّ، لو تعاون الأطبّاء على معالجة المرضى الفقراء، هذا عملٌ يرضي الله عز وجل، لقوله تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى البرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

ولو تعاون أصحاب الأموال، أو لو تعاون أولياء الفتيات على أن يزوّجوا فتياتهم من دون مظاهر صارخة، لو اقتنعوا باليسير من المهر، وباليسير من الذهب، فهذا التعاون مما يرضي الله عز وجل، أي حلُّ أزمة السكن، حلُّ أزمة الزواج، حلُّ أزمة المرض، لو أنّ المؤمنين الميسورين من أغنياء، من أطبّاء، من أولي أمر - أولياء أمور الفتيات- لو تعاونوا على حلّ هذه الأزمات، لَما عمّ الفساد في الأرض، لذلك فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ، إلا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة في سننه]

وأما التقوى: أعِنه على أمر دينه، بيّن له، استمعت إلى آية، انقلها لأخيك، استمعت إليها، وتأثّرت بها تأثّراً بالغاً، لماذا أنت ساكتٌ عنها؟ لِمَ لا تنقلها لأخيك المؤمن؟ استمعت إلى حديث شريف، أو إلى تفسير دقيقٍ دقيق لحديث شريف، ما الذي يمنعك أن تنقله لأخيك المؤمن؟ قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى البرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

تعلّمت حكماً شرعيّاً، ما الذي يحول بينك وبين أن تنقله لأخيك المؤمن؟ فهذه الآية تدور مع الناس حيثما داروا؛ في أعمالهم، في تجارتهم، في أعمالهم الوظيفيّة، في أعمالهم العلميّة، تعلّمت شيئاً علّمه للناس، حباك الله بشيء ابذله للناس، أعطاك الله جاهاً، ضعه في خدمة المظلوم، أعطاك الله علماً، ضعه في خدمة الجاهل، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى البرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

فهذه الآية: آية كريمة مُصدَّرةٌ بفعل أمرٍ، والأمر في القرآن يقتضي الوجوب .

بعض مَن لم يتفقّه في الدين، يظنّ أنّ الفرائض هي: الصلاة، والصوم، والحج، والزكاة ليس غير، مع أنّ كل أمر ورد في كتاب الله يقتضي الوجوب، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

[سورة النحل الآية: ٩]

أنت مأمورٌ بالعدل، وأنت مأمورٌ بالإحسان، فهل نفَّذت هذا الأمر؟ قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية: ٢]

لا تعاونوا على معصية، تبعدكم عن الله عزّ وجلّ، ولا تعاونوا على العدوان على أموال الناس، وعلى ممتلكاتهم، وعلى أعراضهم، هذه آيةٌ كريمة تتسع لكلّ مشكلاتنا، فيها حلٌّ لكلّ قضايانا، عاونْ أخاك المؤمن على أمر دينه ودنياه، ولا تتعاون معه على شيءٍ، يضعف صلتك بالله عزّ وجلّ، ولا يضيّع عليه دنياه -ولا تعاونوا على الإثم- على معصية، على جلسة منكرة، على جلسة مختلطة، على عمل فيه فسق أو فجور، قال تعالى:

(ولاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية: ٢]

وهو أن تأخذ ما ليس لك، إذا كنت أنت مأموراً، أن تعاون أخاك، فلأن تمتنع عن العدوان عليه من باب أولى، إذا كنت مأموراً بنصّ القرآن الكريم، أن تقدّم عوناً لأخيك، فلأن تمتنع عن أن توقع به الضرر من باب أولى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى ولاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية: ٢]

الإثمُ: أن تتعاون مع إنسان على معصية الله، تعاونّا على إقامة سهرة، لا ترضي الله عزّ وجلّ، قد يستمتع بها إنسان، لكنها لا ترضي الله، والعدوان: لا تتفق مع أخيك، أن تأخذا ما ليس لكما، فهناك أمران، وهناك نهيان، أمرٌ بالتعاون على البرِّ صلاح الدنيا، والتقوى صلاح الآخرة، ونهيٌ عن أن تتعاون مع أخيك على إثمٍ، يتناقض مع دينك، وعدوانٌ يتناقض مع دنيا غيرك، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى ولاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية: ٢]

هذا الباب في كتاب رياض الصالحين صُدِّر بهذه الآية .

إليكم هذه الأحاديث التي تنطوي تحت هذا الباب :

أيها الأخوة، أما الأحاديث الشريفة التي تنطوي تحت هذا الباب، فمن أبرزها قول النبيّ عليه الصلاة والسلام، والمغزى منها:

((أنه مَن أعان على معروف كمن قام به، مَن دلّ على خيرٍ كمن فعله))

هذا كلام النبيّ عليه الصلاة والسلام، والنبيّ عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى.

فَعَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا))

دقّة الحديث: أنّ هذا الذي ذهب ليغزوَ في سبيل الله، هذا الذي يجهزه، يهيئ له عدّته، وعتاده، ومؤْنته، هذا الذي يقدّم هذا الشيء، فكأنّما غزا في سبيل الله عزّ وجل، وهذا الذي يتفقد أهله في

غيبته، يسأل عنهم، يمدّهم بما يحتاجون، يرعى صغيره، ويطبب مريضهم، هذا كأنّه غزا في سبيل الله .

من هنا المرأة إذا قامت بحقّ زوجها، أنا أعتقد اعتقاداً جازماً: أنّ كل أعماله الصالحة في صحيفتها، لماذا؟ لأنه انطلق إلى الحياة، انطلق ليتعلّم العلم، وانطلق ليعلّم العلم، وانطلق ليخدم الناس، لولا أنه مرتاحٌ من طرف بيته، لولا أن ذهنه صافٍ، لولا أنّ زوجته تقوم بواجباتها خير قيام، لما تيسّر له أن ينطلق في الحياة كما هو عليه الآن، فانطلاقه في الحياة، يعود فيه الفضل بالدرجة الأولى إلى زوجته، التي وفّرت له هذا الجوّ، لذلك بعض المؤلفين إذا ألّفوا كتاباً، وأمضَوا في تأليفه سنوات طويلة، يهدون هذا الكتاب أحياناً لزوجاتهم، اللواتي وفّرن لهم هذا الجوّ الهادئ، ووفّرن لهم هذا العطاء، لذلك المرأة إذا أحسنت تبعُّل زوجها، ألم يقل النبيّ عليه الصلاة والسلام:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي مَن دونك من النساء، أن حسن تبعُّل المرأة زوجها، يعدل الجهاد في سبيل الله))

حتى إن النبيّ عليه الصلاة والسلام، نوّه إلى أنّ المرأة التي تعدّ الطعام لتأكله الضّيفان، لها مثل أجر زوجها، الذي دفع ثمن الطعام، بل إنّ أولاده الذين يقومون بخدمة الضيف، لهم مثل أجر أبيهم، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى ولاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية: ٢]

((مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا -هو لم يغزُ، بل بقي في بلده، لكن معنى فقد غزا: أي كان له مثل أجر الذي غزا في سبيل الله- وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا))

هذا الحديث ورد في صحيح البخاري، وصحيح مسلم في وقت واحد .

ومثل هذا الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَعَثَ بَعْثًا إِلَى لَحْيَانَ بْنِ هُذَيْلٍ، قَالَ:

((لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا وَالأَجْرُ بَيْنَهُمَا))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي سعيد الخدري]

إذا اقتضت المصلحة أن ينطلق من قبيلة هُذَيل نصفها، ونصفها الآخر يقوم بمهمّة أخرى، فالأجر بين هؤلاء جميعاً .

لذلك نظام الأسرة، نظام الجماعة، هذا في عمل، هذا في عمل، هذا في عمل، ربّما كان الأجر الكبير موزّعاً على كلّ هؤلاء بالتساوي، لأنّ الله سبحانه يقول:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

في الأسرة، الطفل له وظيفة، الزوجة لها وظيفة، الأب له وظيفة، الزوج في عمله، الأم في مطبخها، والطفل في مدرسته، هذا يعاون، وهذا يقدّم، وهذا يعطف، وهذا يشتري الحاجات، وهذا يكسب المال، وهذه تربّي الأولاد، هذه الأسرة إذا استحقّت من الله الرضوان، فرضوانه موزّع على كل أفرادها، فهم تعاونوا، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى ولاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية: ٢]

لينبعث من كل رجلين أحدهما والأجر بينهما، فسيّدنا عثمان حينما خلّفه النبيّ عليه الصلاة والسلام، استخلفه في المدينة، أليس له أجر مَن غزا؟ نعم، هو في المدينة، يقوم بمهمّة رسمها له النبيّ عليه الصلاة والسلام، والذين في المعركة، يقومون بمهمّة رسمها لهم النبي عليه الصلاة والسلام، هذا له أجرٌ، وهذا له أجرٌ، هذا من باب التعاون .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَقِيَ رَكْبًا بِالرَّوْحَاءِ، فَقَالَ:

((مَنْ الْقَوْمُ؟ قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ، فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ -يبدو أنهم أسلموا عن بُعد، أحياناً يسلم قوم، إذا أسلم زعيمهم، فهؤلاء أسلموا، صدّقوا بالنبيّ ولم يرَوه- فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ))

[أخرجه مسلم عن ابن عباس في الصحيح]

هذا الذي ينفق له مثل أجر الذي حجّ، فهذا الحديث الثالث: يؤكد أنّ كل من ساهم بطاعة، بعبادة، بعمل صالح، مساهمة كبيرة، أو قليلة، أو غير جليلة، هذه المساهمة له من أجرها نصيب، لأنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ أن نربح عليه .

حديثٌ أخير في الموضوع نفسه: عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْخَازِنُ الْمُسْلِمُ الْأَمِينُ الَّذِي يُنْفِذُ، وَرُبَّمَا قَالَ: يُعْطِي مَا أُمِرَ بِهِ كَامِلًا مُوَفَّرًا، طَيِّبًا بِهِ نَفْسُهُ، فَيَدْفَعُهُ إِلَى الَّذِي أُمِرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقَيْنِ))

((الخازن المسلم الأمين -أمين الصندوق في المصطلح الحديث- الذي ينفّذ ما أمر به - جاءه أمر بصرف المبلغ لفلان، فيعطيه كاملاً- طيباً به نفسه -لا يحسده- فيدفعه إلى الذي أمر أحد المتصدقين))

من له عمل صالح، من عنده مال ليس له، ينفقه على الفقراء والمساكين، فإذا كان هناك عمل جماعي، أودع المال عند أحدهم، عند أحد هؤلاء، وجاءه أمرٌ بصرف هذا المبلغ لفلان، فأدّاه له بالتمام والكمال، ونفسه طيّبة، لم ينقص منه شيئاً، لم يحسده على هذا المبلغ، فهذا له أجر المتصدّقين.

سأعيد عليكم نصّ الحديث، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْخَازِنُ الْمُسْلِمُ الْأَمِينُ الَّذِي يُنْفِذُ، وَرُبَّمَا قالَ: يُعْطِي مَا أمِرَ بِهِ كَامِلًا مُوَفَّرًا، طَيِّبًا بِهِ نَفْسُهُ، فَيَدْفَعُهُ إِلَى الَّذِي أمِرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقَيْنِ))

الخازن المسلم الأمين، الذي ينفذ ما أمر به، فيعطيه كاملاً طيّبة به نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر أحد المتصدقين، يعدّ له من الأجر ما للمتصدّق .

هذا الخازن، فليهنأ أمناء الصناديق المؤمنون بهذا الحديث .

هذه الأحاديث الأربعة تنبئكم: أنّ كل مَن ساهم في أيّ عملٍ فيه صلاح الدنيا والآخرة، له أجرٌ مثل أجر الذي فعله، كما مرّ بنا في الدرس الماضي أيضاً .

من تتمة شروط صحة البيع :

٥- الخلو عن الشروط الفاسدة :

والآن إلى بعض ما في البيوع، وقد وصلنا في البيوع إلى موضوع شروط صحّة البيع، بيّنا من شروط صحّة البيع: التأبيد، ومعلوميّة المبيع، ومعلوميّة الثمن، ومعلوميّة الأجل ، وطرق التوثيق، وبيّنا من شروط صحّة البيع: سلامة الرضا، انعدام الرضا؛ يجعل البيع باطلاً، إذا شُكَّ في الرضا؛ يجعل البيع غير صحيح، سلامةُ الرضا، ومما يخدش سلامة الرضا: الإكراه، المواضعة، التلجئة، والهزل، ويجب أن يكون البيع مفيداً، إلا أنّ الشافعيّ خالف في هذا، والقدرة على التسليم عند العقد، وأن يكون الثمن مُتَقَوَّماً، أي مادّة يحلّ للمسلم الانتفاع بها، والشرط الأخير الذي أرجأناه إلى هذا الدرس، من شروط صحة البيع: الخلوّ عن الشروط الفاسدة .

أحياناً: تشتري بشرط، أو تبيع بشرط، وهذا الشرط يفسد عقد البيع، والفقهاء في هذا الموضوع على مذهبين .

المذهب الأول: مذهب الجمهور، أي جمهور العلماء، وهم السادة الأحناف، والشافعية ، والمالكية، هؤلاء يأخذون بمبدأ عدم صحّة الشروط الجَعليّة، يعني أنت جعلت شرطاً مع هذا البيع، يأخذون بعم صحة الشروط الجعلية، إلا ما كان يقتضيه العقد، أو يلائمه، أو ورد العرف به، أو أجاد الشرع جوازه، فأي شرط آخر غير صحيح، أي شرط آخر يفسد البيع، لكن هذه الاستثناءات، سوف تُشرح بعد قليل .

وأما المذهب الثاني في هذا الموضوع: فهو مذهب الحنابلة الذين يجيزون الشروط مع البيع، انطلاقاً من قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إلا صُلْحًا حَرَّمَ حَلالا، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا، قال: وَالْمُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ، إلا شَرْطًا حَرَّمَ حلالا، أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا، قالَ أبو عِيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ))

[أخرجه أبو داود والترمذي في سننهما عن أبي هريرة]

أي العقد كما يقولون: شريعة المتعاقدَين، فالحنابلة يجيزون أن يجعل البائع أو المشتري شرطاً مع البيع، بشرط ألا يخالف هذا الشرط مقتضى العقد، أو ألا يخالف ما ورد فيه نصّ صريح بالتحريم، أي شرط مقبول عند الحنابلة، بشرط ألا يخالف مقتضى العقد، مثلاً:

مما يقتضيه العقد: تسليم المبيع، فإذا بعتك هذه الدار، بشرط ألا تسكنها، وأن أبقى أنا فيها، هذا شرط غير صحيح، مما يقتضيه العقد: تسلّم البيت والسكنى فيها، فالحنابلة يجيزون الشروط، ما لم تخلّ بمقتضى العقد، أنا سأشتري منك هذا البيت، ولكن لن أدفع لك الثمن، الشرط مخلٌّ بما يقتضيه العقد، لذلك الحنابلة قالوا: أي شرط يخلّ بما يقتضيه العقد، أو ورد فيه نصّ محرّم، يحرّم هذا الشرط، فهذان الشرطان باطلان، فالشروط مقبولة .

أيها الأخوة، لكنّ الأحناف، والشافعيّة، والمالكية: أخذوا بمبدأ؛ أنّ أي شرط لا يصح، إلا إذا كان مما يقتضيه العقد، أو يلائمه، أو ورد العرف به، أو أجازه الشرع، وما سوى ذلك، لا يتفق البيع مع الشرط، انطلقوا من قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((كُلُّ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ مَرْدُودٌ، وَإِنِ اشْتَرَطُوا مِائَةَ مَرَّةٍ))

ليس في كتاب الله فهو باطل، وانطلقوا من أنّ النبي عليه الصلاة والسلام، نهى عن بيع وشرط، فجمهور الفقهاء على رفض الشروط، لأنّ النبي نهى عن بيع وشرط، ولأنّ كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، والحنابلة وحدهم أجازوا بعض الشروط، لكننا إذا دخلنا في التفصيلات، نرى أنهم يلتقون على قواسم مشتركة .

مما يقتضيه العقد كما قلت قبل قليل: أن تدفع الثمن، ومما يقتضيه العقد: أن تسلّم المبيع، فإذا اشترطت ألا تسلّم المبيع، أو ألا تدفع الثمن، فهذا الشرط باطل، لأن هذا الشرط مناقضٌ لطبيعة عقد البيع؛ عقد البيع انتقال مالٍ من جهة إلى جهة مُقابل عوض، فإذا رفضت المال فالعقد باطل، وإذا رفضت العوض فالعقد باطل، يلائم العقد أنّك إذا بعت شيئاً دَيناً، وأردت كفيلاً، أو أردت شيئاً يوثق صلتك بهذا المشتري، فهذا مما يلائم العقد، فلو اشترطت أنك إذا بعت هذا البيت، وصاحب هذا البيت الذي اشتراه لا يملك ثمنه، ويريد أن يبيع بيته، وبعد أن يبيع بيته يعطيك الثمن، وأمرك أن تفرغ له في السجلات العقارية، ألا تحتاج إلى كفيل؟ ألا تحتاج إلى رهن؟ إلى شيء موثّق؟ وإلا ضاع البيت منك، وهذا مما يلائم العقد .

شيء آخر: مسموح بشرط يقرّه العرف، أنا اشتريت قماشًا على أن تخيطه لي، ماذا أفعل به من دون خياطة؟ على أن تخيطه لي، أنا اشتريت هذا الجلد على أن تجعله حذاء لي، فهذا مما يقرّه

العرف، هناك مصالح كثيرة، أنا أشتري هذه المادة الغذائية على أن تعطيني ما يوضع عليها، القطايف تحتاج إلى القشطة، أبيعك فقط القطايف، لا تقبل هذا، هذا مما يجيزه العرف، فهذا شرط يجيزه العرف .

الشارع الحكيم، النبي الكريم، جعل بعض الشروط في النص النبوي الشريف، جعل الخيار، لدينا خِيار العيب، خِيار الشرط، خيار الرؤية، فهذه الخيارات هي شرط في الحقيقة، لكن الشرع أقرها.
إذاً: أي شرط يخلّ بمقتضى العقد فهو باطل، أي شرط لا يقره العرف فهو باطل، أي شرط لا يلائم العقد فهو باطل، أي شرط لم يرد فيه نصّ من حديث نبوي شريف فهو باطل، فالشرط الذي يقتضيه العقد فهو صحيح، والشرط الذي يقرّ به العقد فهو صحيح، والشرط الذي يلائم العقد فهو صحيح، والشرط الذي نصّ به النبي عليه الصلاة والسلام فهو صحيح .

إذاً: لدينا بيع وشرط، لكن شرط مقبول، حتى الحنابلة الذين أجازوا الشروط انطلاقاً من قول النبي عليه الصلاة والسلام، الذي قال في بعض أحاديثه:

((لا يَحِلُّ سَلَفٌ وَبَيْعٌ، وَلا شَرْطَانِ فِي بَيْعٍ، وَلا بَيْعُ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

يعني شرط واحد مقبول، شرطان منهيٌّ عنه قولاً واحداً، يبدو أن الشرطين عبءٌ على المشتري، يجب أن تشتري مني هذا البيت، ويجب ألا تسكنه، ويجب أن تبيعه لأخي بعد عام، شرطان مع العقد، هذا مما نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا يَحِلُّ سَلَفٌ وَبَيْعٌ، وَلا شَرْطَانِ فِي بَيْعٍ، وَلا بَيْعُ مَا لَيْسَ عِنْدَكَ))

لذلك نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن بيعتين ببيعة واحدة، تبيعني حتى أبيعك كذا ، نهى عن بيعتين ببيعة واحدة، وقال عليه الصلاة والسلام، هذا طبعاً من السنّة الفعليّة القولية ، والفعلية أنه ما كان يبيع بيعتين في عقد واحد .

لذلك يقول سيّدنا عمر:

((من دخل السوق من غير أن يتفقّه، أكل الربا شاء أم أبى))

وهذه المعلومات ضرورية لا للتجّار فحسب، بل لكل مسلم، لأن المسلم قد يبيع بيته، قد يشتري أرضاً، قد يشتري حاجة، قد يشتري شيئاً ثميناً، قد يُكلّف كتابة عقدٍ، وكل خلافٍ، ومنازعةٍ، ومخاصمةٍ، ومشادةٍ بين المسلمين، بسبب جهلهم أحكام البيوع .

وفي درس آخر إن شاء الله تعالى، ننطلق إلى شروط نفاذ البيع، نحن تحدّثنا عن شروط انعقاد البيع، فلو اختل أحدها أصبح البيع باطلاً، ثم تحدّثنا عن شروط صحّة البيع، فلو تخلّف أحدها أصبح البيع فاسداً، والفاسد يصَحَح، وبقي علينا شروط نفاذ البيع، فلو تخلف أحدها صار البيع متوقفاً، ثم

ننتقل إلى شروط لزوم البيع، فلو تخلّف أحدها، صار المبيع غير لازمٍ، وهذا نأخذه بالتفصيل بالشروط التي تحدّث عنها النبي عليه الصلاة والسلام.

ما تشربه علي من بيت النبوة :

والآن ننتقل إلى سيدنا عليّ كرّم الله وجهه .

أحياناً: يوضع على المائدة أطباقٌ عديدة، بعض الآكلين يميل لهذا الطبق، وبعضهم لهذا الطبق، وبعضهم لهذا الطبق، فإذا قال لك أحدهم: لو جعلت كل الأطباق من هذا الطعام لاحتجّ الآخرون، فلا بدّ من تنويع الأطباق، فالفقه يحتاج إلى كدّ ذهنٍ، لكنّ ثماره طيبة، والقصة ممتعة، ولها ثمارٌ طيبة، والحديث النبوي الشريف، فيه توجيهاتٌ طيبة، فلو جُمعَت هذه الأطباق الثلاثة على مائدةٍ واحدة، لعلّ الله سبحانه وتعالى ينفعنا بها جميعاً .

الحقيقة: هذا الصحابيّ الجليل ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم، تعرّف إلى النبي منذ أن كان طفلاً، ونشأ معه، فتخلّق بأخلاقه، وتأدّب بآدابه، وقد نستطيع أن نتلمّس من ملامح شخصيته شيئاً مما فعله النبي عليه الصلاة والسلام .

فسيدنا عليّ كرّم الله وجهه، ألَم يرَ النبي عليه الصلاة والسلام، يوم حمله عمّه أبو طالب، على أن يترك هذه الدعوة، ويريح نفسه؟ فهناك أشخاص بسبب صغيرٍ صغير، لمضايقةٍ بسيطة، لسؤالٍ وجواب، لاستدعاء طفيف، يقول لك: لا أريد هذه الدعوة إطلاقاً، قضية متعبة، النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الدين، ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

هكذا كان النبي، لذلك لا يوجد إنسان حقق هدف في الحياة، إلا بثباته على المبدأ، نحن نعلم أننا إذا قلنا عن إنسان: رضي الله عنه، فله معنى، وإذا قلنا عن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام: رضي الله عنهم، فهذا القول له معنى، فرضي الله عن صحابة رسول الله، هذا تقرير، وإذا قلنا عن إنسان: رضي الله عنه، هذا دعاء، وشتّان بين الدعاء والتقرير .

أنا أقول لفلان، وقد أعلم علم اليقين: أنّ معه أموالاً طائلة، أقول: لقد أغناه الله، هذا تقرير، وقد أرى إنساناً بحاجةٍ إلى المال، فأقول له: أغناك الله، أغناه الله لها معنى، وأغناك الله لها معنى، هذا تقرير، وهذا دعاء، لأنّ الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم قال:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

[سورة الفتح الآية: ١٨]

لذلك إذا سألتُ عن أعلى مرتبةٍ، ينالها الإنسان على وجه الأرض، أعظم مرتبة أن يرضى الله عنك، صدق القائل:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضابُ

لذلك عندما يسعى الإنسان إلى مرضاة الله عز وجل، هذا يعدّ أذكى إنسان، وهذا يُعدُّ أشدّ الناس طموحاً، لو أنه زهد في الدنيا، ما قولك: إذا كان ربّ السموات والأرض راضٍ عنك؟ ما قولك: فإنك بأعيننا؟ قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً)

[سورة مريم الآية: ٩٦]

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)

[سورة الحج الآية: ٣٨]

قد يتجلّى الله على قلبك تجلياً، لا ترى في الدنيا شيئاً، أبيت عند ربي، يطعمني ويسقيني .

فسيدنا علي، رأى النبي عليه الصلاة والسلام، يوم قال:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، ما تركت هذا الأمر، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

هذا هو الثبات، إذاً: هو كان ثابتاً، والثبات من صفات وملامح المؤمن، إذا كنت مؤمناً، قال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب الآية: ٢٣]

وهذا الصحابي الجليل، ابن عمّ النبي عليه الصلاة والسلام، رآه أيضاً يوم الفتح وقد بلغت القلوب الحناجر، وقد وضع أهل مكة رقابهم بين يدَي النبي، وكيف أنّ حياتهم كلهم كانت معلّقةً بين شفتَي النبي عليه الصلاة والسلام، ومع ذلك عفا عنهم أكرم عفوٍ، فقال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

فإذا لمحنا من خلُق هذا الإمام العظيم عفواً، فهو مما علّمه به النبي عليه الصلاة والسلام .

النبي عليه الصلاة والسلام مرّةً، ضنّ على نفسه بشربة لبن، ثم أرسلها إلى فقيرٍ من فقراء المسلمين، هذه مؤاثرة، علّمه النبي الثبات، وعلّمه النبي الصفح والغفران، وعلّمه المؤاثرة، وهذا الإمام العظيم أرسل إلى النبي زوجته، من هي زوجته؟ السيدة فاطمة.

أرسل إلى النبي زوجته، تسأله حقاً يسيراً، ناله جميع المسلمين، فإذا هو يجيبها، ودموع الوالد الحنون، تملأ عينيه، قال لها:

((لا يا فاطمة، لا أعطيك، وأدع فقراء المسلمين))

فلذلك أن يؤثر الإنسان فقراء المسلمين على أولاده، هذا شيءٌ من الكمال النبوي .

مرّةً عمه العبّاس، سأله ولاية، وهو لها أهلٌ، وبها جدير، فإذا النبي عليه الصلاة والسلام، يجيبه في أسف:

((إنّا والله يا عم، لا نولّي هذا الأمر أحداً يسأله، أو أحداً يحرص عليه))

إذاً: لم يولِّ من يلوذ به في هذا الموضوع .

في فتح مكّة حمل عليّ مفتاح الكعبة، وتوجّه تلقاء النبي عليه الصلاة والسلام، وهو جالسٌ وسْط أصحابه في المسجد، وقال له:

((يا رسول الله، اجعل لنا الحجابة مع السقاية، صلّى الله عليك، اجعلها لنا -يبدو أنه كان عملاً مرغوب به جدّاً- فإذا بالنبي عليه الصلاة والسلام يبسط إليه يمينه، ويأخذ منه مفتاح الكعبة، ثم ينادي أين عثمان بن طلحة؟ -وكانت وظيفة حجابة بيت الله الحرام معه، ومع أسرته من قبْل- حتى إذا نهض عثمان بن طلحة قائماً، أدناه النبي منه، ووضع مفتاح الكعبة في يده، وقال له: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم برٍّ ووفاء))

رفض أن يعطيه لابن عمّه سيّدنا علي، ورفض أن يولّي عمّه العبّاس، ورفض أن يعطي ابنته شيئاً، ويبقى فقراء المسلمين جياع، ورفض أن يشرب شربة لبنٍ، حيث آثر بها بعض فقراء المسلمين .

هذا سيدنا عليّ رأى المؤاثرة، رأى الثبات، رأى الصفح، رأى السّخاء، رأى النزاهة، رأى العفّة، تخلّقوا بأخلاق النبي، النبي أدّبه الله، فأحسن تأديبه، وسيدنا النبي عليه الصلاة والسلام، أدّب ابن عمه عليّ، فإذا صاحب الإنسانُ إنسانًا أكمل منه، قد يتعلّم من أخلاقه، قد تتعلّم من كلامه، وقد تتعلّم من أخلاقه، فمصاحبة الكبراء ضرورية جدّاً، أن تصاحب الكبراء حتى تقتبس من أخلاقهم، من ثباتهم على مبدئهم، من صفحهم، من ورعهم، من زهدهم، من تفانيهم، من خدمتهم، هكذا ..

أزل عنك هذا الوهم :

أناسٌ كثر، يتوهّمون أنّ بين هذا الإمام العظيم وسيدنا أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه خلاف، استمعوا إلى ما قاله سيدنا علي كرّم الله وجهه عن سيدنا الصدّيق رضي الله عنه، قال هذا الكلام حين انتقل الصدّيق إلى الرفيق الأعلى، فقال سيدنا عليّ:

((رحمك الله يا أبا بكر، كنت والله أوّل القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدّهم يقيناً، صدّقت رسول الله حين كذّبه الناس، وقمت معه حين قعدوا، وواسيته حين بخلوا.

-هؤلاء الذين اتبعوا النبي ساعة العسرة، هؤلاء لهم أجر كبير، الإنسان أحياناً يتبع الحق والحق قوي، ليس له أجر كمثل الذي اتبع الحق والحق ضعيف، إذا اتبعت الحق والحق ضعيف، فلك أضعافٌ مضاعفة، لذلك النبي الكريم عليه أتمّ الصلاة والتسليم، يقول:

((اشتقت لأحبابي، فقالوا: ألسنا أحبابك؟ قال: لا أنتم أصحابي، أحبابي أناسٌ يأتون في آخر الزمان، القابض منهم على دينه، كالقابض على جمر، أجرهم كأجر سبعين، قالوا: منا أم منهم؟ قال: بل منكم، قالوا: ولم؟ قال: لأنكم تجدون على الخير معواناً ولا يجدون))

من علامات آخر الزمان: أن المسلم يحسّ بأنه غريب، بدأ الدين غريباً، وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء، أناسٌ صالحون في قوم سوءٍ كثير .

المؤمن إذا جلس مع جماعة من أهله أحياناً، من أقربائه، يحسّ أنه غريب، هم ليسوا منضبطين بالشرع، لا يقيمون لأوامر الله قيمة، لا يعظّمون شعائر الله، هان الله عليهم، فهانوا على الله، يحسّ أنه غريب، يشعر بشعور لا يشعرون به، يطمح إلى مستويات في الإيمان لا يطمحون لها- .

قال له: صدّقت رسول الله حين كذّبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا .

-النبي عليه الصلاة والسلام في موقعة بدر، بعد أن انتهت الموقعة، وبعد أن وُضِع صناديد قريش في البئر، في القليب، خاطبهم بأسمائهم وَاحداً واحداً:

((يا عتبة بن ربيعة، يا شيبة بن ربيعة، يا أميّة بن خلف، هل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فإنّي وجدت ما وعد ربي حقاً، لقد كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس))

لذلك: حينما يأتي الإنسانَ ملَكُ الموت، وحينما يبعثه الله عز وجل، يقول: يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا، فيأتيه الجواب: هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون، هنيئاً لمن عرف الحقيقة قبل فوات الأوان، هنيئاً لمن عرف الحقيقة وهو في الدنيا، لأنه لا بدّ من أن تعرفها عند الآخرة، ولكن تعرفها بعد فوات الأوان، فالبطولة أن تعرفها الآن- .

قال: صدّقت رسول الله حين كذّبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا ، كنت والله للإسلام حصناً، وللكافرين ناكباً، لم تهن حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك.

-أحياناً: المؤمن يضعف، أما المؤمن الصادق، فقالوا: فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله، وما ضعفوا وما استكانوا، المؤمن الحق لا يضعف، ضعيف الإيمان يضعف، أحياناً يقول: معنوياتي

هبطت، يائس، شعرت أن الأمر صعب كثير، هؤلاء الضعاف، لكن المؤمنين الصادقين لا يضعفون إذا أصابتهم الشدة.

لم تهن حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك، كنت والله كما قال النبي فيك: ضعيفاً في بدنك، قوياً في دينك، متواضعاً في نفسك، فلا حرمنا الله أجرك، ولا أضلّنا بعدك))

هذا تأبين، هذا أرقى أنواع التأبين .

((رحمك الله أبا بكر، كنت والله أول القوم إسلاماً، وأخلصهم إيماناً، وأشدهم يقيناً، صدقت رسول الله حين كذبه الناس، وواسيته حين بخلوا، وقمت معه حين قعدوا، كنت والله للإسلام حصناً، وللكافرين ناكباً، لم تهن حجتك، ولم تضعف بصيرتك، ولم تجبن نفسك، كنت والله كما قال النبي فيك: ضعيفاً في بدنك، قوياً في دينك، متواضعاً في نفسك، فلا حرمنا الله أجرك، ولا أضلّنا بعدك))

شهادة الشيخان لأبي الحسن بالعلم :

كان سيدنا الصديق، إذا التقى بهذا الإمام العظيم، يقول له:

((أفتِنا يا أبا الحسن، أفتِنا))

وسيّدنا عمَر كان يقول:

((لولا عليّ لهلَك عُمَر))

يروي التاريخ: أن امرأةٌ جاءت لسيّدنا عمَر، وكان هناك أدب رفيع، فقالت له:

((يا أمير المؤمنين، إنّ زوجي صوّامٌ قوّام، سيدنا عمر ظنّ أنها تمدحه، فقال لها: بارك الله لك في زوجك، فسيدنا أبو الحسن، قال له: يا أمير المؤمنين، إنها تشكو زوجها، إنه صوّامٌ في النهار ، قوّامٌ في الليل -أي تركها نهائياً، ويقال: أن سيدنا علي قضى- قال له: إن كنت فهمت هذا فاقض بينهما، فقضى على هذا الزوج: أن يتفرّغ لزوجته في كل أربعة أيام يوماً، كما لو أنه تزوّج أربعة نساء))

أليس لها حق في كل أربعة أيامٍ يومٌ؟ .

فكان يقول سيدنا عمَر:

((لولا عليٌّ لهلَك عمَر))

أصغ السمع جيداً لهذه النصيحة :

أيها الأخوة، بقي ما ترويه كتب السيرة، من خلافٍ بين هذا الإمام العظيم وبين بعض أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، الذي رأيتُه أنّ أنْ تجهل هذه المعلومات، لا يضرّك جهلها، ولا ينفعك ذكرها، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يقول:

((إذا ذُكِر أصحابي فأمسكوا))

فنحن لسنا في مستوى أن نقول: إنّ الحق مع مَن كان،

((إذا ذُكِر أصحابي فأمسكوا))

وهذا أكمل موقفٍ، يقفه المؤمن بعد أصحاب رسول الله، هذه المعلومات لا تنفعنا إذا عرفناها، ولا تضرّنا إذا جهلناها، لكن الذي نعرفه أنّ أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كانوا كالنجوم

((أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم))

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٢٧-١٠١) : باب النصيحة - حديث الدين النصيحة - شروط نفاذ البيع

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٩-٠٢-١٩

بسم الله الرحمن الرحيم

منشأ هذا الدرس :

أيها الأخوة المؤمنون، ننتقل في الحديث الشريف إلى باب النصيحة، وقد عقد هذا الباب مبتدئاً ببعض آيات القرآن الكريم، فقال الله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

[سورة الحجرات الآية: ١]

وما دام المؤمنون أخوة، فلا بد من أن ينصح بعضهم بعضاً، من خصائص المؤمنين أنهم يتناصحون، والله سبحانه تعالى أخبرنا عن سيدنا نوح فقال:

(وَأَنْصَحُ لَكُمْ)

[سورة الأعراف الآية: ٦٢]

والنصح من صفات أنبياء الله الكرام، وأخبرنا عن سيدنا هود فقال:

(وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ)

[سورة الأعراف الآية: ٦٨]

إذاً: النصيحة أو النصح: النصح هو مصدر، والنصيحة اسم، النصيحة من صفات المؤمن، أو النصح من صفات المؤمن، والمؤمن ناصح اسم فاعل، أو نصوح صيغة مبالغة، أي كثير النصح، والنبي عليه الصلاة و السلام يقول في حديث جامع مانع، وقد قال عن نفسه صلى الله عليه وسلم:

((بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الصحيح]

في حديث جامع مانع، عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))

فحيثما كانت النصيحة كان الدين، لو أنَّ إنساناً يكثر من صلاته، وصدقته، وصيامه، غير أنه يغشّ المسلمين في بيعه وشرائه، هذا ليس مسلماً، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا))

[أخرجه البزار في مسنده عن عائشة]

وفي رواية أخرى، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ عَلَى صُبْرَةِ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ:

((مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة في الصحيح]

فالدِّين ليس أن تصلي خمس صلوات، الدِّين يظهر أشد ما يظهر في البيع والشراء، في التعامل اليومي، في الاحتكاك مع الناس، في الممارسات اليومية، هنا يظهر الدين، حينما فهم المسلمون أنَّ الدِّين: صوم، وصلاة، وحج، وزكاة ليس غير، صاروا وراء الأمم، أمَّا حين فهم أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، أنَّ الدِّين ورع، ونصيحة، واستقامة، والتزام، رفرفت راياتهم في الخافقين .

سيدنا عمر مثلاً، حينما رأى راعياً، أراد أن يمتحنه، قال:

((بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال: قل لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب، وخذ ثمنها، قال: ليست لي، قال: خذ ثمنها -أغراه بثمنها- قال: والله إنني لفي أشدِّ الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها: ماتت أو أكلها الذئب لصدَّقني، فإنِّي عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟))

هذا هو الدين، هذا الأعرابي، هذا البدوي، وضع يده على جوهر الدين، تعلَّم ما شئت ، أدِّ من الصلوات ما شئت، تكلم ما شئت، إن لم تكن مستقيماً على أمر الله فلست مسلماً، لذلك الدين النصيحة، يجب أن تنصح هذا المشتري، يقول لك: انصحن، هذا مسلم، ولو أنه غير مسلم، ولو أنه مجوسي، يجب أن تنصحه، لأنه عبد لله، أسلمك قياده .

فهذا تعريف للدِّين جامع مانع، أي: حيثما كانت النصيحة كان الدين، وحيثما غابت النصيحة غاب الدين، لذلك قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((يُوشِكُ الْأُمَمُ، أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ))

[أخرجه أبو داود عن ثوبان في سننه]

من أجل حب الدنيا، لا تنصحوا المسلمين، لذلك من الأحاديث الصحيحة في النصيحة، عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))

انصحه في البيع والشراء، ولا تخف بخساً ولا رهقاً، انصحه ولا تخف على رزقك، فالله تعالى يكافئك برزق حلال وفير .

إليكم تفسير هذا الحديث :

١-الدين النصيحة، قلنا: لمن؟ قال: لله:

فقال عليه الصلاة والسلام:

((الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))

فكيف تنصح لله؟ إذا رأيت إنساناً لا يعرف الله، انصحه كي يعرف الله عز وجل، إذا رأيت إنساناً، يظن بالله ظناً غير صحيح، أنا عند حسن ظن عبدي بي، فاجعله يظن بالله الظن الصحيح، إذا رأيت إنساناً لم تتضح له رحمة الله، بيِّن له رحمة الله، إذا رأيت إنساناً لم تتضح له عدالة الله، إذا رأيت إنساناً يقول لك: الله سبحانه وتعالى خلقنا ليعذبنا، لا، قل: الله سبحانه و تعالى خلقنا ليرحمنا بنص القرآن الكريم، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

[سورة هود الآية: ١١٩]

إذا رأيت هذا الإنسان لا يعرف الله كما ينبغي، عرِّفه بالله، رأيته يظن بالله ظن السوء، اجعله يظن بالله الظن الحسن، رأيته لا يعرف عدالته عرِّفه بعدالته، لا يعرف رحمته عرِّفه برحمته، لا يعرف أسماء الله الحسنى عرِّفه بأسماء الله الحسنى، إذا رأيته يقول لك: خلقنا على هذه الأرض، ولا ندري لماذا خلقنا؟ بيِّن له: لماذا خلقنا؟ هناك هدف كبير، قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)

[سورة الذاريات الآية: ٥٦]

هذا معنى النصح لله، أي أن تنصح الناس كي يعرفوا الله خالقاً، وكي يعرفوه مربياً، وكي يعرفوه مسيراً، وكي يعرفوا أسماءه الحسنى، وصفاته الفضلى، دُلهم على الطريق، قال تعالى:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة يونس الآية: ١١]

دُلهم على طريق التفكر، دُلهم على طريق الذكر، دُلهم على طريق فهم القرآن، هناك أبواب كثيرة لمعرفة الله سبحانه وتعالى، هذا معنى قول النبي عليه الصلاة و السلام: عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))

٢-لكتابه:

ولكتابه: إن رأيت يحيد في سلوكه، ويخالف آية قرآنية، قل له: يا أخي، الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٧٦]

إن رأيته يطلق بصره في الحرام، قل له: يا أخي، الله سبحانه وتعالى يقول:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

[سورة النور الآية: ٣]

إن رأيته ناقماً على إنسان، قل له: يا أخي:

(وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً)

[سورة الإسراء الآية: ٣٩]

حينما يشرك الإنسان مع الله إلهاً آخر، يقع في الألم، وفي الضيق، هذا من أبواب النصح لكتاب الله، قل له: يا أخي لا يحزن قارئ القرآن، إذا قرأت القرآن لا تحزن، لأنَّ فيه البشرى لك، قل له: من تعلّم القرآن، فرأى أنَّ أحداً أوتي خيراً منه، فقد صغَّر ما عظمه الله، حقَّر ما عظَّمه الله، قل له: لا يخرف قارئ القرآن، من تعلَّم القرآن، متَّعه الله بعقله حتى يموت، قارئ القرآن لا يخرف، قل له: القرآن غنىً لا فقر بعده، ولا غنىً دونه، قل له: هذا الكتاب فيه منهج تفصيلي، لكل حركة الإنسان على وجه الأرض .

بيِّن له إعجاز القرآن العلمي، بيِّن له إعجازه البلاغي، بيِّن له إعجازه البياني، بيِّن له إعجازه التشريعي، بيِّن له إعجازه الغيبي، بيِّن له دقة نظمه، بيِّن له روعة آياته، بيِّن له إذا تعلمت شيئاً فعلِّمه للناس، هكذا تنصح، قد يقول لك قائل: هذا القرآن لا يصلح لهذا الزمان، انصحه، بيِّن له أنَّ الله تعالى يقول:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة الآية: ٣]

معنى ذلك: أنَّ هذا الكتاب كامل شامل، قال تعالى:

(مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام الآية: ٣٨]

إذاً: يجب أن تعرف الله أنت أولاً، حتى تنصح له، ويجب أن تعرف القرآن، حتى تنصح له ولرسوله، بيِّن له عظمة هذا النبي، كيف أنَّه سيد الخلق؟ بيِّن له أنَّ هذا النبي أسوة لنا حسنة، بيِّن له أنَّ هذا النبي قدوة صالحة لنا، بيِّن له أن هذا النبي مشعل أمامنا، يضيء لنا الطريق، بيِّن له أنَّه أرحم بأنفسنا من أنفسنا، بيِّن لهذا الإنسان رحمة النبي، عدله، حبه للخلق، حلمه، شجاعته، وفاءه، عفوه، بيِّن له أنه يجب أن تحب النبي .

عن عِتْبَانَ بْنِ مَالِكٍ يَقُولُ:

((غَدَا عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَجُلٌ: أَيْنَ مَالِكُ بْنُ الدُّخْشُنِ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَّا: ذَلِكَ مُنَافِقٌ لا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلا تَقُولُوهُ؟ يَقُولُ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ، قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّهُ لا يُوَافَى عَبْدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِهِ إِلا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ النَّارَ))

إنه قدوته، يجب أن يكون النبي قدوتك، لا أن يكون زيد أو عبيد هو القدوة .

٣ـلأئمة المسلمين وعامتهم:

ولأئمّة المسلمين: إذا أجرى الله على يد إنسان الخير، عاونه، انصح الناس أن يذهبوا إليه، لا تبعد الناس عنه، لا تفسد العلاقة بين معلّم ومتعلّم .

ولأئمة المسلمين وعامتهم: لو جاءك من دهماء الناس إنساناً، أخي هذا غبي، لكن عند الله يحاسبك عليه، ولو كان من عامة المسلمين، ولو كان من دهمائهم، ولو كان من سوقتهم، انصحه، بيِّن له ما ينبغي أن يفعله، طبعاً: أن تنصحه في دينه و دنياه .

هذا الحديث من الأحاديث الشاملة، يجب أن تنصح له في دينه، ويجب أن تنصح له في دنياه، فحينما تحيد عن النصيحة، فقد ابتعدت عن الإسلام، بل إذا ابتعدت عنها ابتعاداً كلياً، خرجت من الإسلام، لأن الدين النصيحة، إن لم تنصح، فلماذا أنت مسلم؟ ما الذي يميِّزك عن الآخرين؟ أخلاقك، انضباطك، خوفك من الله عز وجل.

هل تصدقون: أنَّ السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت عن أحد أصحاب رسول الله، الذين خاضوا معه بدراً، وأحداً، والخندق في حروب ثلاثة، حينما رأت أنَّه خالف أوامر الشرع في البيع والشراء، قالت لمن حولها:

((قولوا له: إنَّه أبطل جهاده مع رسول الله، أبطل جهاده مع رسول الله))

قضية خطيرة جداً .

لذلك قال سهل التستري: والله لترك دانق من حرام خير من ثمانين حجَّة بعد الإسلام، من هنا قال النبي:

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلّط))

و:

((من لم يكن له ورع، يصدَّه عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيء من عمله))

هذه الأحاديث الشريفة التي تُشرَح في هذا المسجد، هي من الأحاديث الصحيحة، وثانياً: من الأحاديث الشاملة، إذاً: يجب أن تُحفَظ، هي من رياض الصالحين، ومن باب النصيحة، وهذا الكتاب لو أنَّ أحدكم، جعله في بيته، ورجع إليه، كتب هذا الحديث على ورقة، وحفظ هذا الحديث، وبلَّغه كما سمعه، فلعلَّ الله تعالى ينفع بك المسلمين .

إليكم هذان الحديثان اللذان يصبان في باب النصيحة :

وفي حديث آخر، عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

هكذا البيعة، فحينما تنصح الناس في بيعك وشرائك، في تعاملك، حينما تنصحهم، تجد أنَّ الله تعالى يتجلَّى عليك، تجد أنَّ الله تعالى يغنيك عن الناس، تجد أنَّ الله سبحانه وتعالى يحفظك، فإذا غششتهم فقد عرَّضت نفسك للهلاك، المال الذي تأخذه من غير وجه، هذا مال حرام، والمال الحرام يَتلَف ويُتلِف صاحبه، أي حينما تجد إنساناً فقدَ ماله كله، أو تجد إنسان وقع في مشكلة، قل: لا بد من حكمة بالغة كانت وراء هذه المشكلة .

والحديث الثالث والأخير في هذا الباب: عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

[أخرجه البخاري عن أنس بن مالك في الصحيح]

يجب أن تُحِب لأخيك ما تحبه لنفسك، لذلك إذا حسدك أخاك المؤمن، فهذا نقص في إيمانك، إذا فرحت له لخير أصابه، فهذا من علامة إيمانك بالله عزَّ وجل، علامة إيمانك: أن تفرح لأخيك، وعلامة نقص الإيمان: أن تحسده على ما آتاه الله .

مرة قرأت بيتاً من الشعر:

ملِك الملوك إذا وهبْ لا تسألنَّ عن السبب

الله يعطـي من يشاء فقف على حدِّ الأدب

أنا أجريت عليه تعديلا طفيفًا، وهو:

ملك الملوك إذا وهب قم فاسألنَّ عن السبب

الله يعطـي من يشاء فقف علـى حدِّ الأدب

أعطى الله كل عباده، اسأل الله من فضله، صدق القائل:

ملك الملوك إذا وهب قم فاسألنَّ عن السبب

إنَّ الله عزَّ وجل يحبُّ أن تسأله، يحبُّ أن تقف على بابه، يحبُّ أن تلحَّ عليه في الدعاء، الذي أعطاه يعطيك، لماذا الحسد؟ الذي وهبه يهبك .

عندما قال سيدِّنا عمر لسيدِّنا سعد:

((لا يغرَّنَّك أنَّك خال رسول الله، لا يغرَّنك أنَّك خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلاَّ طاعتهم له))

إنَّ الطاعة وحدها هي التي تقرِّب .

هذا الباب هو باب النصيحة .

عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الدِّينُ النَّصِيحَةُ، قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: لِلَّهِ، وَلِكِتَابِهِ، وَلِرَسُولِهِ، وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ))

والثاني: عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

والثالث: عَنْ أَنَسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

[أخرجه البخاري عن أنس بن مالك في الصحيح]

تصوَّر أن إنسانًا في بيعه وشرائه، نصح المسلمين ولم يغشَّهم، واعتدل في ربحه، ورحمهم، هل يعقل لهذا الإنسان المؤمن الطاهر، أن يسلَّط عليه إنسان آخر؟ إنَّ الأمر بيد الله عزَّ وجل .

من شروط نفاذ البيع :

١-الولاية على المبيع:

والآن إلى فقرة من فقرات البيوع، نحن في درس سابق، تحدّثنا على أنَّ شروط البيع: هناك شروط انعقاد، وهناك شروط صحة، واليوم نتحدث عن شروط النفاذ، إنَّ البيع قد يكون منعقداً ليس باطلاً، وقد يكون صحيحاً ليس فاسداً، ولكنه موقوف لا ينفذ أو ينفذ، قد يكون منعقداً، وقد يكون صحيحاً، ولكنه موقوف، فما الشروط التي إذا توافرت جعلته نافذاً؟ قال: لا بدَّ من نفاذ البيع من تحقق شرطين اثنين:

أولاً: الولاية على المبيع، وثانياً: عدم تعلق حق الغير، عدم تعلق حق بغير المتبايعَين للمبيع، يعني قد يبيع الإنسان هذا البيت وليس له، فهو ليس وليٍّ هذا البيت، ليس له الحق أن يبيعه، فهذا البيع صحيح منعقد وصحيح، ولكنه موقوف حتى يجيز المالك، وقد يبيع إنسان بيتاً، والبيع منعقد وصحيح، ولكن على هذا البيت إشارة رهن لجهة ثالثة، فالبيع لا يعدُّ نافذاً، إلاّ إذا تحقق شرطان اثنان: الولاية على المبيع، وعدم تعلّق حق بغير المتبايعَين للمبيع، إن توافر هذان الشرطان، فالبيع صحيح نافذ، وإن اختل أحد هذين الشرطين، أو انعدم الشرطان معاً، يصبح البيع متوقفاً، البيع موقوف مع عدم التنفيذ .

ما تعريف الولاية، وما أنواعها؟:

ما هي الولاية؟ الولاية: سلطة يسوِّغ لصاحبها التصرف بالشيء، إمَّا بتفويض من المالك، أو بتفويض من المشرِّع، وهذا يعني أن معي سلطة، أن أبيع هذا الكتاب، هذه السلطة في بيع الكتاب اسمها الولاية، وهذا يعني إمَّا أن أملكه، فالمالك مسلَّط على ملكه، وإمَّا أن أكون موَكَّلاً من مالكه بوكالة عامة أو خاصة، وإمَّا أن يوكلني القاضي في بيع هذا البيت، إمَّا وكالة من قاضي، أو وكالة من مالك، أو أن تكون أنت المالك، وهذا يعني إذا كنت تملك سلطة التصرف بهذا الشيء، فهذه هي الولاية .

لذلك هي قسمان: ولاية شرعية من قبل القاضي، أو ولاية وكالة من قبل المالك، أو أن تكون أنت المالك، فأنت مالك الولاية، لأنَّ كل مالك مسلّط على ملكه، إنَّ الأصل هو كل مالك هو ولي، الأصل أن تتفق الولاية مع الملكية، لكن أحياناً يفترقان، كيف يفترقان؟ في الأصل كل مالك وليٌّ على ما يملك، وكل ولي مالك لما تولى عليه، إلا أن هذا غير مطَّرد، فأحياناً تنقص الأهلّية، هذا البيت لفلان هو مالكه، ولكنه لا يملك التصرف فيه بنقصان الأهلية .

شيء آخر: وقد يكون المالك لا يستطيع البيع، مسافر أو أصابه مرض، يمنعه من أن يبيع، عندئذ ينيب مكانه، إذاً: توجد حالات نقصان الأهلية، أو السفر، أو المرض، أو السفه، تنفصل الملكية عن الولاية، يصبح مالك، ولكنه لا يملك الولاية .

هذا الذي دعانا إلى هذا البحث شروط نفاذ البيع، يجب أن يتوفر في المبيع شرطان: أن يكون المالك مالك الولاية، أن يكون البائع مالك الولاية، وأن لا يكون لهذا المبيع تعلق بحق لغير المتبايعَين .

تعريف بيع الفضولي :

الفضولي: هذا الذي يبيع ما لا يملك، اسمه عند العلماء والفقهاء: الفضولي، حول الفضولي بحث طويل ملخّصه، ورأي العلماء فيه: بين أن يكون باطلاً، وبين أن يكون موقوفاً ، على اختلاف في المذاهب،

ولكنَّ بيع الفضولي لا يعدُّ بيعاً نافذاً إلا في حالات، ما هي هذه الحالات؟ .

-أن يكون البيع في الأصل صحيحاً، حتى يجوز للمالك الأصلي، أن يجيز هذا البيع .

-أن يكون البائع والمشتري وقت الإجازة على قيد الحياة، لو أن البائع وقت الإجازة كان ميتاً، أو المشتري كان ميتاً، فالبيع باطلاً من أساسه .

-أن يكون المالك وقت الإجازة على قيد الحياة، لو كان المالك ميت، فالبيع باطلاً.

- وأن يكون المبيع وقت الإجازة موجود، لو كان المبيع معدومًا، فالبيع باطلاً.

- وأن يكون المبيع صحَّ قبل الإجازة، فلو كان فاسداً قبل الإجازة، فالبيع باطلاً.

يعني: لا ينقلب بيع الفضولي صحيحاً بإجازة الولي، إلاّ إذا كان البائع والمشتري على قيد الحياة وقت الإجازة، والمالك على قيد الحياة وقت الإجازة، والمبيع موجوداً وقت الإجازة، هذه الشروط إذا توافرت يمكن لهذا البيع؛ بيع الفضولي، أن ينقلب إلى بيع صحيح نافذ، عندما يجيز مالك المبيع.

من هو فاقد الأهلية، ومن هو ناقص الأهلية، وما أنواع الولاية، ومناطها ؟

الآن بيع القاصر: إذا كان المالك فاقد الأهلية تماماً، مَن هو فاقد الأهلية تماماً؟ الصبي غير المميِّز، هذا فاقد الأهلية تماماً، لذلك بيعه باطل، والمجنون بيعه باطل، وهناك حالات فيها نقص للأهلية، لا انعدام لها، من هو ناقص الأهلية؟ القاصر المميِّز، الشاب الذي لم يبلغ سن البلوغ، ولكنه مميِّز يبيع ويشتري، فهذا بيعه موقوف وليس باطلاً، أو معتوه ليس مجنوناً، وليس عاقلاً، أقرب للغباء منه للذكاء، فهذا بيعه موقوف وليس باطلاً، لكن هذا الناقص للأهلية إذا باع واشترى، هناك ثلاث حالات:

إذا تصرف تصرفاً ضاراً، إذا وهب ماله كله لإنسان، قدَّم له بيته، أو تصدَّق بماله كله عن غير وعي، أو ضاع بيته بغبن فاحش، فهذا التصرف من قاصر، من ناقص الأهلية، يعدُّ باطلاً لا ينفذ البيع، باطل البيع، باع بيعة فيها غبن فاحش، أو وهب ماله، أو تصدَّق بكل ماله بلا سبب، وهو غير

بالغ، هذا التصرُّف الذي فيه ضرر بالغ، يعدُّ باطلاً كلية، أماَّ إذا كان صبي مميِّز، قاصر مميِّز، أو معتوه، وباع بيعة بسعر ممتاز، أو عمل عملاً كله نفع، مثلاً قبل هبة غير مشروطة، أو قبل مال بشكل صدقة، فهذا التصرف يعدُّ نافذاً حقيقةً، لأن فيه نفعًا له ، فإذا كان فيه ضرر فهو باطل، إذا كان فيه نفع نفذ، أمَّا إذا كان تصرفه بين النفع والضرر، أجَّر داراً بأجر المثل، باع بيعةً بسعر السوق، أي هل هو قد ربح أم لا؟ مثله مثل غيره، في مثل هذه الحالة، يعدُّ ماله موقوف إلا إذا أجازه الولي، إذا أجازه الولي ينقلب هذا البيع من موقوف إلى صحيح، هذا القاصر .

إذاً: القاصر نوعان: قاصر منعدم الأهلية بين التمييز أو مجنون، يعتبر بيعه باطلاً، أما قاصر ناقص الأهلية، أقل من سن البلوغ، مميِّز أو معتوه، هذا إذا كان عمله كله فيه نفع لحاله، فهو نافذ، كله ضرر فهو باطل، بين النفع والضرر، موقوف على إجازة الولي، مثل ما قلنا قبل قليل الولي: إمَّا من قبل المالك، أو من قبل المشرِّع، من قبل المالك يكون معه وكالة، والوكالة من عقود التفويض، وهي وكالة عامة، أي إذا أراد إنسان أن يعمل وكالة من الواجب، أن يكون منتبهاً، يعمل وكالة عامة، وهذه الوكالة العامة خطيرة جداً، يمكن هذا الذي وكلته له، أن يطلِّق منك امرأتك، بهذه الوكالة العامة، يمكن له أن يبيع لك معملك، أن يبيع لك مسكنك الذي تسكنه، فإذا كانت القضية محدودة، وكِّل وكالة خاصة، هناك وكالة عامة ووكالة خاصة، إذاً: يجب على الإنسان ألاَّ يوقِّع على ورق أبيض، أن يقول: وقِّع لي وبعد ذلك نكتب السند، قد توقِّع له على بيع بيته، قد يكون السند بمئتين أو خمسمئة ليرة، وتوقِّع على ورق أبيض، فتستنتج أنه قد باع بيتك، فالإنسان من الواجب عليه، ألاَّ يوقِّع على ورق أبيض، وعليه ألا يوقِّع بمكان، توجد فيه مسافة كبيرة بين التوقيع وبين الكلام، لأنه يُضاف، تضاف أشياء لا ترضى بها أنت .

إذاً: كانت لدينا وكالة عامة ووكالة خاصة، والوكالة: عقد غير لازم، ما معنى غير لازم؟ أي أن الموكل في أي لحظة، له الحق في أن يعزل الوكيل، والوكيل في أي لحظة، له أن يرفض هذه الوكالة، عقد غير لازم .

والولاية نوعان: ولاية على النفس، وولاية على المال .

أحياناً: يولِّي القاضي الشرعي إنسانًا، الإشراف على الأيتام إشرافًا اجتماعيًا، يراقب ذهابهم، ومجيئهم، ودراستهم، ومدرستهم، وأخلاقهم، وأين يذهبون؟ ومن يصاحبون؟ هذه ولاية على النفس، وهناك ولاية على المال في البيع و الشراء .

والولاية إمَّا أن يكون مناطها القرابة؛ ولاية الأب، أو الجدّ، أو الأخ، أو العم، أو ولاية من قبل السلطان، والقاضي، ووصيّ القاضي، القاضي دائماً وليّ لمن لا وليَّ له، والقاضي نائب عن

السلطان، والسلطان له ولاية عامة على المسلمين، هكذا النظام الإسلامي، أولي الأمر له ولاية على المسلمين، هذا ينيب القاضي، والقاضي وليّ مَن لا وليّ له .

إنسان يتيم ليس له أحد، فالقاضي وليّه، يتولى أموره، ويحرّك له أمواله، ويوافق على شراء البيوت، هذا فعل القاضي، وأقوى أنواع هذه الولايات: أن يكون المالك نفسه هو وليّ ماله، ولاية الملك، المالك هو الوليّ، أو ولاية قرابة، أو ولاية قاضي، والأولياء يرتبّون وفق الأقرب فالأقرب، بنوة، أبوة، أخوة، عمومة، هذه هي الولايات، والوالي يجب أن يكون حراً بالغاً عاقلاً مسلماً، أن يكون المولّى عليه دون سن البلوغ، أو فيه جنون، أو عطل، أو غيبة مطلقة، أي غاب غياب مديد، يجب أن يكون له والي، ولي يتصرَّف بأمواله، والولي أيضاً إذا عمل عملاً فيه ضرر محض، فعمله باطل، وإذا عمل عملاً فيه نفع محض، فعمله صحيح و نافذ، وإذا عمل عملاً مثلاً؛ إذا باع بثمن المثل، فيه نفع وفيه ضرر، فتصرفه مقبول ونافذ أيضاً، إلاّ إذا كان فيه غبن فاحش، يعدٌّ تصرفه موقوفاً .

٢-خلو المبيع من تعلق حق لغير المتعاقدين :

الشرط الثاني من شروط نفاذ المبيع، الولاية شرط أول، والثاني خلو المبيع من تعلق حق لغير المتعاقدَين .

مرة طالعت في الصحيفة اليومية، أنَّه أكثر من أربعين شخصًا، عليهم ضريبة كبيرة جداً من المالية، تفوق حد الخيال، هؤلاء الأشخاص قد اشتروا بيوتاً من بناء، إلاّ أنَّ هذا البناء تعلَّق به حق الغير، فالإنسان عندما يشتري بيتًا، من الواجب أولاً: أن يعرف سجله العقاري، عليه رهن، أو ضريبة، أو مشكلة، أو قضية، فعندما يشتري الإنسان بعقد، ولا يطالب البائع بشهادة ملكية، أو ببيان عقاري للبيت، يكون هناك تعلّق حق الغير، فهذا حق الغير ينتقل من البائع إلى المشتري، وأنت لا تدري، إذا أنت الآن اشتريت بيتاً، ولم تبحث عن سجله العقاري، فمن السهل جداً: كل الالتزامات التي كانت على المالك الأول، تنتقل إليك بمجرد انتقال الملكية ، إلاّ إذا كان في عقد الشراء، فيه نص على ذلك، فالمؤمن كما قال عليه الصلاة و السلام:

((المُؤْمِنُ كيِّسُ فطِنُ حَذِر))

يعني: شراء بيت، قضية ليست سهلة، قضية مصيرية، فأول شيء اطلب منه، أحيانا البائع يحيطك بجو أنَّ معك ساعة، لا نريد هذه البيعة، إذا ما قبلت فهناك من يدفع أكثر، هذه أساليب ذكية جداً، يحيطون المشتري إذا لم تقبل، فهناك مدفوع أكثر، أساليب ذكية جداً، يحيطون بها المشتري، إذا ما قلت: الآن اشتريت، فلن تحصل على هذا البيت، فأنت تشتري، فتواجه بعدئذ مبلغًا ضخمًا جداً مترتبًا عليك، لأنك قد اشتريت بيتًا، ولم تبحث عن سجله العقاري، فهنا إذا تعلق بالمبيع حق الغير،

فالبيع موقوف غير نافذ، هنا إذا اشترى إنسان شيئًا ، ولم يبلغَه، اشتريت بيتًا، وأصبح مستأجَرًا، لم يبلّغك البائع بأنه مستأجَر، فلك الحق بأن توقف العقد، وأن تفسخه، إذا بلّغك ورضيت، ليس لك حق، فالبيت المرهون أو المستأجَر، لو أنَّه بيع متعلّقًا بحق الآخرين لم ينفذ .

هذا مجمل الكلام، شرطين: الولاية، وعدم تعلُّق حق الغير بهذا المبيع، فإذا توافر هذان الشرطان فالبيع نافذ، وإلاّ فالبيع موقوف أو باطل، هذا ملخص الدرس .

إن شاء الله ننتقل في درس قادم إلى شروط لزوم البيع، أنت لست بالخيار، إذا كان البيع منعقدًا صحيحًا نافذًا، أنت ملزَم أمام القاضي أن تدفع الثمن، وأن تأخذ المبيع شئت أم أبيت، هناك شروط للزوم البيع، نأخذها في درس قادم إن شاء الله تعالى .

ماذا عن نشأة عمر بن عبد العزيز؟

والآن إلى سيدِّنا عمر بن عبد العزيز، خامس الخلفاء الراشدين، كما يصفه المؤرّخون.
سيدِّنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وأرضاه، كان أبوه عبد العزيز بن مروان، والياً على مصر لأخيه عبد الملك بن مروان، حيث لبث عبد العزيز في هذه الولاية عشرين عاماً، أم عاصم أمّه، غادرت المدينة المنوّرة، حيث كانت تقيم لاحقة بزوجها عبد العزيز، مصطحبة معها ولدها الحبيب عمر، انتقل سيدِّنا عمر من المدينة إلى مصر، حيث يقيم أبوه، أبوه اختار مدينة حلوان بمصر، يبدو أنَّ أباه اكتشف أن هذه المدينة ذات مناخ جميل، فجعلها مركزاً لإقامته .
وذات يوم دخل عمر حظيرة الخيل، فركله جواد، فشجه وأدماه، وحُمِل الطفل إلى داره، وما كادت أمه تراه، حتى أخذها الروع، وفجعها المشهد، واستُدعي الأب، ورأى الدم يغطّي وجه ابنه، وقبل أن يغشاه الأسى، طوفت بخاطره ذكرى، ألقت على محياه بشراً و ابتساماً، لمَّا فرغ أبوه من تضميد جراحه، ربط على كتف زوجته، والبسمة تعلوه، وقال:

((أبشري يا أم عاصم، إن تكن يا عمر أشّجَّ بني أمية، إنك إذاً لسعيد))

هكذا قال له، ما قصة هذا الكلام؟ هذا الكلام له قصة .

وقبل أن نأتي على هذه القصة، لهذا الخليفة الخامس قصة أساسها: أنَّ سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، خرج مرة وحده في الليل يتعسَّس، أي يتفقد رعيته، فلعلَّ هناك جائعاً، أو مريضاً، أو مقهوراً، أو ابن سبيل، لعلَّ هناك شأناً من شؤون الناس، وفيما هو يتعسَّس، وكان متكئاً، سمع حواراً داخل دار، كان الحوار يجري على الشكل التالي:

الأم تقول لابنتها:

((يا بنيَّتي، امذقي اللبن في الماء -أي اخلطيه في الماء- البنت قالت : كيف أمذق، وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق؟ تقول لها الأم: إنَّ الناس يمذقون فامذقي، فما يدري عمر بنا إن مذقنا أو لم نمذق؟ فقالت الفتاة: يا أمّاه، إن كان أمير المؤمنين لا يرانا، فرَبُّ أمير المؤمنين يرانا، ولكن أين الله؟ -هذا هو الدِّين كله- واغرورقت عينا عمر بالدموع، وسارع إلى المسجد، فصلَّى الفجر بأصحابه، وعاد إلى داره، ودعا ابنه عاصماً، و أمره أن يأتيه بحقيقة أهل هذا الدار، وعاد عاصم إلى أبيه بمعلومات وافية، فقال: يا بنيّ، اذهب فتزوجها، فما أراها إلاَّ مباركة، ولعلَّها تلد رجلاً يسود العرب فتزوّج عاصم هذه الفتاة الفقيرة الشريفة الورعة، وأنجبت له فتاة أسموها ليلى، وكنُّوها أم عاصم، أم عاصم كانت شابة تقية، نقية، ورعة، تزوجها عبد العزيز بن مروان، فولدت منه عمر بن عبد العزيز))

هذه قصة عمر .

لكن أين قصةُ: إن تكن أشجّ بني أمية، إنك إذاً لسعيد؟ .

القصة: أنَّ سيدِّنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رأى رؤيا، ماذا رأى؟ رأى رؤيا، وقال بعد أن أفاق منها:

((من هذا الأشجّ من بني أمية، ومن ولد عمر، يسمى عمر، ويسير بسيرة عمر، ويملأ الأرض عدلاً -هذه يسمونها: الإرهاصات، يعني علائم مبكرة لعبقرية، وتفوق هذا الخليفة-.
سيدِّنا عبد الله بن عمر، ولِد له ولد اسمه: بلال، تفاءل أهله أن يكون هذا أشجٍّ بني أمية، ولكنه لم يكن، إنَّ أشجَّ بني أمية، هو عمر بن عبد العزيز))

انظر إلى شغفه بالعلم، ومن هو أستاذه، وما قال عنه أستاذه؟:

هذا الشاب أو هذا الطفل، مرة قال:

((لقد رأيتني بالمدينة غلاماً مع الغلمان، ثمَّ تاقت نفسي للعلم، فأصبت منه حاجتي))

تاقت نفسي للعلم، هنيئاً لأخ كريم، طاقت نفسه للعلم، فحضر مجالس العلم، وإنَّ رتبة العلم أعلى الرتب، والعالِم يحبه الله ورسوله، والده حينما رأى منه هذا النبوغ، وهذا الإلحاح في الطلب، جعل له فقيهاً من كبار فقهاء المدينة معلّماً له، هو: صالح بن كيسان، كان أستاذ عمر بن عبد العزيز .

ومرة سيدِّنا عمر بن عبد العزيز، وكان فتىً رجي، لأنه هو يقيم في مصر، وأبوه والي مصر، توجد بحبوحة وخير وعزّ وهو أمير، قال:

((يا أبت، دعن أذهب إلى المدينة فأجلس إلى فقهائها، وأتأدَّب بآدابهم))

كانت هذه رغبته .

مرة فاجأته أمه، وهو يبكي، وكان طفلاً صغيراً، فألقت نفسها عليه تسأله:

((ما الأمر؟ فقال: لا شيء يا أماه، إنَّما ذكرت الموت))

كان صغيراً، وكان أميراً، وكان أبوه والياً، وكان في بحبوحة، وكان وسيم المنظر، قال:

((إنَّما أخاف الموت))

يقول مُعلّمه صالح بن كيسان فقيه المدينة:

((ما خبرت أحداً، الله أعظم في صدره، من هذا الغلام))

لذلك من علامات آخر الزمان: أنَّ الناس يهون الله عليهم، يعني يهون أمره، تهون عليهم معصيته، تهون عليهم مخالفته، يهون عليهم خرق حدوده، لا يعبؤون أكان دخلهم حراماً أو حلالاً؟ هان الله عليهم، فهانوا على الله.

كان سيِّدنا عمر يقول:

((تعرفين يا أماه، لأكونن مثل خالي عبد الله بن عمر))

كان توَّاقًا أن يكون إنسانًا متفوقًا، كأصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام، ورضي الله عنهم . يقول سيدِّنا عمر عن نفسه:

((والله ما كذبت مذ شددت عليَّ إزاري، وعلمت أن الكذب يضرَّ أهله))

أيام تلتقي بإنسان ما صدق في حياته مرة، هذه لقطة من لقطات السلف الصالح .

تأمل يا عبد الله في هذا :

ذات مرّة تأخّر بعض الوقت عن صلاة إحدى الفرائض مع جماعة المصلين في مسجد رسول الله، سأله معلّمه ومؤدِّبه صالح بن كيسان عن سبب تأخره، فأجاب الغلام:

((كنت أرجِّل شعري -أمشِّط شعري- قال له أستاذه في عتاب: أوَ تقدِّم تصفيف شعرك على الصلاة؟ وكان عبد العزيز قد أوصى صالحًا، أن يكتب له دوماً بكل أخباره، كتب له: أن ابنك البارحة تأخر عن الصلاة، لأنه كان يرجّل شعره، فجاء أمر أبيه أن يحلق شعر رأسه كله، جاء أمر الأب من مصر إلى المدينة، أنْ يا عمَر احلق كل شعر رأسك، واستجاب الابن، وحلق كل شعر رأسه))

لأنه أخّر الصلاة، سبحان مبدّل الأحوال، إذا صلّى ابنك، تفرح به كثيراً، في أي وقت صلّى، بأي وقت، تأخر عن الصلاة قليلاً، استحقّ عقاباً، يأتي برسالة من بلد إلى بلد .

مرّة سيدنا عمر تكلم كلمة، لا تليق بحق بعض أصحاب رسول الله، فذات يومٍ ذهب لزيارة شيخه، أعرض عنه شيخه، ولم يغمره بما عوّده من ودّ، أدرك الغلام أنّ في نفس شيخه شيئاً، سأله، فقال له شيخه:

((متى علمت أنّ الله سخط عن أهل بدر بعد أن رضي عنهم؟ -مَن أنت حتى تنتقد أهل بدر؟ فليس من حق أي إنسان، أن يتكلم كلمة عن أحد أصحاب رسول الله، كائناً مَن كان، عندما ربنا عز وجل في القرآن قال:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الفتح الآية: ١٨]

مَن أنا حتى أنتقد عليهم؟- قال له: معذرةً إلى الله ثم إليك -انظر إلى هذا الأدب- معذرةً إلى الله ثم إليك، ووالله لا أعود لمثلها أبداً))

هذه لقطات من طفولة هذا الخليفة العظيم، هذا الفصل متعلق بطفولته، إن شاء الله في درسٍ قادم، ننتقل إلى فصلٍ آخر، حينما قال:

((تاقت نفسي للإمارة، فلمّا بلغتُها تاقت نفسي للخلافة، فلمّا بلغتُها تاقت نفسي إلى الجنّة))

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٢٨-١٠١) : باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٩-٠٢-٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مفتاح هذا الدرس :

أيها الأخوة المؤمنون، ننتقل إلى باب جديد من أبواب رياض الصالحين، ألا وهو باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٠٤]

أي أن الله سبحانه وتعالى، يأمرنا من خلال هذا الفعل المضارع المسبوق بلام الأمر، والذي يساوي فعل الأمر تماماً .

التفسير: وليكن من هذه الأمة الإسلامية التي آمنت بهذه الرسالة، ومن: للتبعيض، أي أنه ليس جميع المسلمين قادرين على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأن هذا الأمر، أي الدعوة إلى الله عز وجل، تحتاج إلى تبحر في العلم، فلا بد من أن تأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر، ولكن: (ولتكن منكم)، فالذي فسر من: على أنها للتبعيض، جعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، وسيأتي حديث نبوي شريف يوضح ذلك:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٠٤]

ما هو الخير؟ قال: أي شيء يرغب فيه الإنسان من الأفعال الحسنة؛ فالصدق خير، والأمانة خير، الرحمة والعفو خير، الانضباط ومحبة الخلق خير، الإحسان إلى الناس خير، فالخير ما تعارف الناس على أنه شيء طيب وحسن .

وقال بعض العلماء في تفسير هذه الآية:

((الخير هو الإسلام كله، وهو يسعدك في الدنيا والآخرة))

وإذا قلنا: منكم للبيان، فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فرض على كل مسلم، وإذا قلنا: من للتبعيض، فالدعوة إلى الخير فرض كفاية، إذا قام به البعض، سقط عن الكل، في هذا الموضوع وقفة يسيرة .

هذا الذي لم يتبحر في العلم، لو أنه دعا إلى اللهو، تكلم في موضوعات دقيقة؛ كأسماء الله الحسنى، في القضاء والقدر، في التخيير والتسيير، من دون علم، من دون فقه، ومعرفة، وتبصر، وقلب مستنير، ربما أوقع الناس في إشكالات كثيرة، أو تكلم بشيء لا يعلمه، أو شيء يشبه الكفر، وهو لا يدري، وتكون نيته حسنة .

لذلك الإمام أبو حامد الغزالي يقول:

((العوام لأن يرتكبوا الكبائر أهون عند الله، من أن يتكلموا بما لا يعلمون))

هذا الإنسان المسلم العادي، ما هو الطريق إلى الله إليه؟ بالعمل الصالح، فكل في اختصاصه، ومجاله، وكل في إمكاناته، فهذا إمكاناته بالمال، هذا بالعمل، هذا بالقوة، هذا بالجاه ، فعوام المسلمين يستطيعون أن يرتقوا إلى الله عز وجل، وأن يبلغوا أعلى الدرجات من خلال العمل الصالح، أما أن يدعوا العمل الصالح، ويغوصوا في موضوعات لا يعلمون بها، ويتكلمون بموضوعات ليسوا مطّلعين إليها، فمثل هذا العمل، يؤدي لمضاعفات خطيرة، فلذلك:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٠٤]

فهذه (مِن): إن كانت للتبعيض، فالدعوة لله، أو الإسلام، أو الخير مطلقاً، يجب أن يسبقها تبحر، وفهم، ودقة، وتأمل، وتبصر، وإشراق، أما إذا فهمنا (مِن): للبيان، فالدعوة للخير فرض عين على كل مسلم، فالتوفيق بين كلتا الحالتين: هو أن الدعوة للخير في الحدود التي أنت متأكد منها، هذه فرض عين، كأن ترى إنسانًا يشرب الخمر، ادعه إلى التوبة، هذه قضية ليست خلافية، لكن سمعت إنسانًا يقول شيئاً عن أسماء الله، أنت لا تعرف وجه الصواب في هذا، بل دله على من يعرف في أسماء الله الحسنى، فأنت فيما استبان لك من أمر، ادعُ إلى الخير، فيما لم يستبن لك، دله على من يدعوه إلى الخير، فالله سبحانه وتعالى حينما يقول:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٠٤]

(مِنْكُمْ): إما للتبعيض، فالدعوة للخير، تحتاج إلى علم، واطلاع، وقلب مشرق، وإلى إخلاص، وتبحر في العلم، أو أن تكون الدعوة للخير، في الحدود المتفق عليها، فيما ليس مختلفًا عليه، في الأمور الواضحة اليقينية والمقطوع بها، فهذا فرض عين على كل مسلم،

(وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

فإذا دعوت إلى الخير، أفلحت وأفلح من تبعك، لأن هذه الدعوة إلى الخير صنعة الأنبياء، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((وَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِهُدَاكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ))

خير لك مما طلعت عليه الشمس، خير لك من حرم النعم، فأنت لتقريب الفكرة: عندك ولد شارد، بعيد عن اتجاهك، شدّ وانحرف، وجاء إنسان، وقوّم اعوجاجه، ولمّ شعثه، وعرفه بك، وأرجعه إليك منيباً تائباً محباً مطيعاً، لا شك أنك تتمنى أن تقدم له روحك، إذا كان العبد الذي أودع الله في قلبه بعض الرحمة، يفرح أشد الفرح، لو أن ابنه الشارد رد إليه، فكيف بخالق الكون؟ إذا رددت إليه عباده، ودللتهم عليه، أكرمتهم، وعرفتهم، وأعنتهم، وقومت اعوجاجهم، وجمعت شتاتهم، كيف يحبك الله عز وجل؟ قال تعالى:

(وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء الآية: ١٤٧]

يشكرك، لذلك: ليس في الأرض عمل يرقى لمستوى، أن ترد الناس لله عز وجل وتعرفهم به، لذلك قوله تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً)

[سورة الأحزاب الآية: ٣٩]

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً)

[سورة البقرة الآية: ١٢٤]

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا)

[سورة السجدة الآية: ٢٤]

فهذه الآية التي افتتح بها باب: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، في رياض الصالحين، قال تعالى:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[سورة آل عمران الآية: ١١٠]

لا بد من أناس في كل أمة، يدعون إلى الخير، ولماذا؟ لأن الله يطمئننا، ويبلغنا، ويعرفنا، إذا يقول:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)

[سورة آل عمران الآية: ١١٠]

حول كلمة كنتم: دقة في فهمها، هناك أدلة دقيقة جداً في اللغة، تعني أن كنتم: أي أصبحتم، فحينما تدعون إلى الخير، وتأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، تصبحون بهذا خير أمة أخرجت للناس، في الجامعة العربية بمقرها القديم، مكتوب على جدران قاعة الاجتماعات، آيتان كريمتان:

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[سورة آل عمران الآية: ١١٠]

و:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا)

[سورة آل عمران الآية: ١٠٣]

فحينما تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر أيها العرب، تكونون خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)

[سورة البقرة الآية: ١٤٣]

ليس معنى وسطًا بين بينَ، لا، بل إنكم وسطاء بيني وبين خلقي، فالشيء الوسط هو الشيء الأمثل، والشيء الوسط هو الشيء الوسيط، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً)

[سورة البقرة الآية: ١٤٣]

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)

[سورة آل عمران الآية: ١١٠]

والله سبحانه وتعالى في آية ثالثة، افتتح بها النووي هذا الباب، من كتاب الحديث:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

[سورة التوبة الآية: ٧١]

أي يتعاونون في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ)

[سورة الأنفال الآية: ٧٣]

لذلك ربنا سبحانه وتعالى قال:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

[سورة المائدة الآية: ٢]

وقال عليه الصلاة والسلام:

((المؤمنون بعضهم لبعض نصحة، متوادون، ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة، متحاسدون، ولو اقتربت منازلهم))

وعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي موسى الأشعري]

شيء آخر: ربنا سبحانه وتعالى أوجب العقوبة والهلاك على اليهود، لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبق، مجامل، لا يجرح إنسانًا، ولو ارتكب الموبقات أمامه، فاستحقوا هذا الهلاك، وربنا سبحانه وتعالى يقول:

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ)

[سورة الكهف الآية: ٢٩]

قل الحق، ولا تخش فيه لومة لائم، كن من هؤلاء الذين وصفهم الله عز وجل، فقــال:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ)

[سورة الأحزاب الآية: ٣٩]

أي من صفة هؤلاء الذين يبلغون رسالات الله الضرورية الأساسية، أنهم يخشونه وحده، ولا يخشون أحداً غيره، ولو لم يكونوا كذلك، لانتهت رسالتهم، ولم يبلغوا عندئذ رسالات الله، والله سبحانه وتعالى يقول:

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة الحجر الآية: ٩٤]

هذه بعض الآيات التي وردت في مستهل هذا الباب، ولكم قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

[سورة الأنفال الآية: ٢٥]

فبعضهم يقول ـانطلاقاً من هذه الآية-:

((الرحمة خاصة والبلاء عام))

والتصحيح لهذه المقولة: أن الرحمة خاصة، والبلاء خاص، ماذا نفعل بهذه الآية؟ أي أن هذا المجتمع إذا لم يتناهَ أفراده عن المنكر، عمّ، وانتشر، وتوسع المنكر، فوقعوا في شر أعمالهم .

فإذا شبّ حريق في بيت، في الطابق العاشر بالنسبة لبيتك، ولم تنهض لتسهم في إخماد الحريق، ربما وصل الحريق إلى بيتك، هذا معنى الآية .

إليكم هذه الترجمة عن حياة راوي هذا الحديث: من رأى منكم منكراً.....:

الحديث الأول في هذا الباب: حديث رواه أبي سعيد الخدري، الذي هو سعد بن مالك، ابن سينان، وهما صحابيان، استشهد أبوه في وقعة أحد، فإذا قلت: عن أبي سعيد الخدري، يجب أن تقول: رضي الله عنهما، إذا قلت: عن ابن عباس، أقول: رضي الله عنهما، إذا قلت: عن عبد الله بن عمر، أقول: رضي الله عنهما .

فسعد وأبوه صحابيان، وأبوه شهيد في وقعة أحد، وقد روى هذا الصحابي عن رسول الله ألف ومئة وسبعين حديثاً، اتفق البخاري ومسلم من هذه الأحاديث على ستة وأربعين حديثاً ، وانفرد البخاري بستة عشر، ومسلم باثنين وخمسين حديثاً .

يقول أحد أصحاب رسول الله، عن أبي سعيد الخدري: لم يكن أحد من أحداث رسول الله أفقه من أبي سعيد، ومناقبه كثيرة، توفي بالمدينة يوم الجمعة، ودفن بالبقيع، من زار منكم المدينة المنورة، وزار البقيع، ففي هذه التربة الطاهرة أصحاب النبي عليهم رضوان الله .

إليكم تفسير هذا الحديث: من رأى منكم منكراً......:

حديث اليوم الأول: عَنْ طَارِق بْن شِهَابٍ، قَالَ:

((أَوَّلُ مَنْ قَدَّمَ الْخُطْبَةَ قَبْلَ الصَّلَاةِ مَرْوَانُ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا مَرْوَانُ خَالَفْتَ السُّنَّةَ، قَالَ: تُرِكَ مَا هُنَاكَ يَا أَبَا فُلَانٍ، فَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَمَّا هَذَا، فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيْهِ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا، فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

فكلمة رأى: لا تفيد المشاهدة فقط، بل المشاهدة والعلم معاً، قد تقول: رأيت العلم نافعاً ، وقد يظن أحدكم أن الإنسان عندما يرى بعينه منكراً، فليغيره بيده، تقول: رأيت الله أكبر كل شيء، أي رأيته بقلبك وعقلك وبفهمك .

فرأى: قد تأتي قلبية، وقد تأتي بصرية، قد تقول: رأيت الشمس ساطعة، فهذه بصرية ، إذا قلت: رأيت العلم نافعاً، هذه قلبية، لذلك الاسم المنصوب الثاني في رأى البصرية، يعرب حالاً، قد رأيت الشمس ساطعة، والاسم المنصوب الثاني في رأى القلبية، يعرب مفعولا به ثانيًا.

فالنبي الكريم يقول:

((من رأى منكم منكراً))

أي يا معشر المكلفين القادرين المسلمين، هذا خطاب لكم جميعاً، استفيد من كلمة من: اسم شرط جازم، فأي واحد منكم رأى منكراً، ورأى: تفيد رؤية البصر، أو رؤية العلم، علمت أن أخاك، يفعل كذا وكذا، لم تره بعينك، هذا يدخل في الرؤية في العلم، فاذهب إليه، ومره بالمعروف، وانهه عن المنكر، وكلمة فليغيره: لام أمر تفيد الوجوب، فلدينا أفعال وجوب، وأفعال للنداء، وأفعال للإباحة، وهكذا ...

فليغيره: تفيد الوجوب، أي ليغيره وجوباً في الشرع على الكفاية، لو أن أربعة رأوا منكرا، لو أن خمسة رأوا منكرا، أو جمعا من الناس، فعليك أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، على واحد منهم، هذا هو فرض الكفاية .

شيء تعرفونه جميعاً: الفرق بين فرض الكفاية وفرض العين، فرض الكفاية يجب على بعض المسلمين، فإذا قاموا به سقط عن الجميع، لكن فرض العين يجب على كل مسلم .

(فمن رأى منكم منكرا فليغيره): على الكفاية، إذا كان الذي رآه جمعا، أما إذا رأيت المنكر وحدك، ينقلب الفرض فرض عين، دخلت بيت أخيك، فرأيت ابن أخيك في حالة لا ترضي، ولم يره أحد سواك، وجب عليك أن تأمره بالمعروف، وتنهاه عن المنكر، وهذا فرض عين، أنك رأيته وحدك،

لو أن جمعا من الناس، رأوا منكرا، يجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على أحدهم فقط، فرض كفاية .

أحياناً: تجد مجموعة من الأشخاص المؤمنين، يمشون في طريق، يرون جميعاً طفلاً يعذب حيواناً، لو انفرد أحدهم، ونصح هذا الطفل، أن لا يعذب هذا الحيوان لكفى، فمن غير المعقول: أن تذهب جمعة من الناس، ليؤنبوا الطفل، لأنه سيخاف .

(من رأى منكم منكراً، فليغيره بيده): فتغير المنكر باليد: فرض عين إذا رأيته وحدك، وفرض كفاية إذا رأيته مع مجموع، كيف يُغير هذا المنكر باليد؟ بدخولك بيت أخيك، ومشاهدة ابنه، يشرب الخمر، تأخذها، وتكسر الكأس، فهذا من باب التغيير باليد، وأن تغير المنكر باليد، له شروط .

فقال العلماء في هذا الأمر: كتكسير أوان الخمر، وآلات اللهو، بالشرط الآتي: فإن لم يستطع، معنى لم يستطع: أي أنه لو أزال هذا المنكر بيده بالعنف، لحقه ضرر، يفضي إلى قتله، أو فقد أحد أعضائه، أو إيقاع النكال به إيقاعاً مهلكاً، أو فقد كلّ ماله، عندئذ لا يجوز إزالة هذا المنكر بيدك، فإذا أدت إزالة المنكر إلى تعذيبك عذاب لا يحتمل، هنا لا يجوز إزالة المنكر بيدك، لكن إذا خفت جهة ما خيفة فقط، وهذه الجهة لن تصل إليك، لكنك تهابها، فلو أن هذا الأخ إذا دخل بيت أخيه، قد يكون أخوه الذي هدد ابنه، ويعاقر الخمر أكبر منه، وقد يكون لهذا الأخ هيبة كبيرة عنده، وربما كان هذا الأب، ليس منضبطاً كثيراً، فهيبتك من أخيك، لا تعفيك من أن تزيل المنكر بيدك، فالهيبة وحدها لا تكفي، لذلك الإمام أحمد، روى عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ هَيْبَةُ النَّاسِ، أَنْ يَقُولَ فِي حَقٍّ إِذَا رَآهُ، أَوْ شَهِدَهُ، أَوْ سَمِعَهُ، قَالَ: وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ: وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ))

أي لا تمنع هيبة الناس رجلاً، أن يقول بحق إذا علم، لأن كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرب أجلاً، فإن لم يستطع، كان هناك تبعات خطيرة، على أن تزيل المنكر بيدك، قال: فبلسانك، أي بقوله المرتجى نفعه، من صياحه: كأن ترى لصاً في بيت وصحت به، وألقى الناس القبض عليه، وأخذوه للجهات التي تحاسبه، تكون قد أوقفت السرقة، بصياح، واستغاثة، وأمر، ونهي، وتوبيخ، وتذكير، هذا كله من باب:

((فمن لم يستطع، فليغيره بلسانه))

لكن لا يقبل منك أن تغير هذا المنكر بلسانك، إذا كنت قادراً على تغيره بيديك، قد تربي طفلة، هذه ابنتك، ونفقتها عليك، وأمرك نافذ فيها وعليها، فلو أنك رأيتها، تفعل منكراً، وسكت بعد نصيحتك لها بتهذيب لطيف، أخي أنا أحب تربية أولادي تربية ديمقراطية، رأيتها تخرج فاضحة، أو بثياب مبتذلة، وقلت: هذه أصلحها الله، أحب أن تكون حرة في تصرفاتها، هنا أنت قادر على إزالة هذا

المنكر بيديك، فأن تنصحها نصيحة لا تقدم ولا تؤخر، هذا لا يقبل منك، ولو فعلت هذا، لا بد من أن تقول لربها يوم القيامة: يا ربي لا أدخل النار حتى تدخل أبي قبلي، فلذلك لا يقبل منك، أن تزيل المنكر بلسانك، إذا كنت قادراً على إزالته بيدك، أحياناً يكون الإنسان ولياً على إنسان، يشرف عليه، وينفق عليه، ويتولى أمره، وهذا الإنسان محتاج إليه، فإذا فعل منكراً، أتعينه على ذلك؟ ليس هذا من الدين في شيء .

لو أنك تفعل هذا المنكر، يجب أن تنكر هذا المنكر بلسانك، فيما يبدو أول وهلة تناقض، كيف تفعل هذا المنكر، وتأمر الناس بتركه؟ والله سبحانه وتعالى يقرع بني إسرائيل حيث يقول:

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ)

[سورة البقرة الآية: ٤٤]

يا أيها الرجل المعلم غيره هلاّ لنفسك كان ذا التعليم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

العلماء قالوا: أنك إذا أنهيت هذا المنكر وأنت تفعله، ربما استحيت من نفسك، ربما استجاب هذا الذي تنصحه، فأوقعك في موقف حرج، ربما صغرت نفسك، أما هذا الذي تأمره، أن يترك هذا المنكر، لو علم أنك تفعله، لا يأتمر بأمرك، هذه حقيقة ثابتة، لا يمكن أن يأتمر الناس بأمرك، إذا علموا أنك تقول مالا تفعل، ولكن لو أن هذا الذي تنهاه لفرضاً، لا يعرف أنك تفعل هذا المنكر، ربما استجاب أو استفاد، فإذا استفاد أحرجك، وحجمك، وضيق عليك، ربما تستحي أنت، فتنتهي أيضاً .

يقولون:

((أن أحد قطاع الطرق، أوقف قافلة معها فتى، هذا الفتى أحد العلماء الكبار، يمكن مالك بن دينار، هذا عاهد أمه على ألاّ يكذب، أعطته نفقته لطلب العلم في بغداد، في الطريق، استوقفه بعض اللصوص، فسألوه: يا غلام معك شيء؟ قال: نعم، معي ثلاثمئة دينار، فعدوا هذا الكلام، من باب الاستهزاء، فتركوه، قطاع طرق آخرون استوقفوه فقالوا: يا غلام معك شيء؟ قال: نعم ثلاثمائة دينار، فقال كبيرهم: أتهزأ بنا يا غلام؟ قال: لا والله هذه، قال: كيف تقول هذا، وتعلم أننا سنستولي عليها؟ قال: والله عاهدت أمي على ألاّ أكذب، فهذا اللص استحيا من الله عز وجل، قال: أنت تعاهد أمك، ولا تخون عهدك، وأنا لا أعاهد الله على أن أتوب؟! وكانت توبته على يديه))

فالعلماء يقولون: سواء كنت ممتثلاً أمر الله أم غير ممتثل، يجب أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، لكن بيني وبينكم: إن لم تكن ممتثلاً لأمر الله، وعلم هذا الذي تنهاه، لن ينتهي أبداً، لن ينتهي إلا إذا رآك في المستوى المطلوب .

شيء آخر: يجب أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، سواء أأيقنت أن كلامك يؤثر فيه أم لم يؤثر، العوام يقولون: اضرب هذه الطينة في الحائط، إن لم تلصق، فستعلم، أنت افعل هذا؛ مر بالمعروف، وانه عن المنكر، لعله لم ينتهِ الآن، ربما بعد عام ينتهِ، علَّ كلمتك، تظل ترن في أذنيه لسنوات طويلة، لعله إذا ضاقت به الدنيا، يتذكر كلامك، لعله في ساعة من ساعات، عودته إلى الله عز وجل يرعوي، لذلك العلماء قالوا:

((يجب أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، أكنت في هذا المستوى، أو لست في هذا المستوى))

شيء آخر: يجب أن تأمر بالمعروف، وأن تنهى عن المنكر، أأيقنت بجدوى دعوتك أم لم توقن، هذا هو الإجماع .

شيء آخر: (لِمن لم يستطع): لأن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر باللسان، لو أدى إلى فتنةٍ، تفوق هذا المنكر، كأن يؤدي هذا الإنكار إلى فتنة بين الناس، تفوق هذا المنكر، عندئذٍ يسقط عنك هذا الوجوب .

ما هو المقياس؟ يجب أن توازي، لو أنكرت هذا المنكر، هل يزول؟ إذا كان يزول بلسانك فافعل، إن كان لا يزول باللسان، بل يؤدي إلى فتنة أكبر، عندئذٍ يسقط وجوب أن تنكره بلسانك . (فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ): يقول: اللهم إن هذا منكر، لا أرضى به، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الذَّنْبُ شُؤْمٌ عَلَى غَيْرِ صَاحِبِهِ، إِنْ رَضِيَ بِهِ فقد شَارَكَهُ بالإِثْمِ، وَإِنْ شَمِتَ بِهِ ابْتُلِيَ، وَإِنْ ذَكَرَهُ فقد اغْتَابَهُ))

(فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وذَلِكَ): يوجد روايتان:

((أضعفَ الإيمانَ))

والرواية الثانية:

((أضعفُ الإيمان))

فما الذي أضعفَ الإيمان بين الناس؟ أن الناس يكتفون بإنكار المنكر بقلوبهم، المعاصي ترتكب، والناس ساكتون، ينكرونها بقلوبهم، فإنكار هذا المنكر بالقلب، يؤدي إلى إضعاف الإيمان،

((وَذَلِكَ أَضعَفُ الإِيمَانِ))

أي أضعف أنواع الإيمان، أو

((وذلك أَضْعَفَ الإِيمَانِ))

أي أضعف الإيمان: إنكار المنكر بالقلوب .

الإمام الشعراني في أحد كتبه يقول:

((لا بُدَّ لِلْمُرِيدِ مِنْ أَنْ يُزِيلَ الْمُنْكَرَ، فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُزِيلَهُ، فَلْيَتَوَجَهَ إِلَى اللَّه تَعَالَى بِقَلْبِهِ، لِيُزِيلَ ذَلِكَ الْمُنْكَرِ))

يقول بعض العلماء:

((إن السلطان ينكر المنكر بيده، والعلماء ينكرونه باللسان، وضعاف المؤمنين ينكرونه بالقلب))

فالإنكار باليد يحتاج إلى قوة، هذا من اختصاص أولي الأمر ومن معهم، والإنكار باللسان هذا من اختصاص العلماء، لأن الله سبحانه وتعالى أوجب عليهم، أن يبينوا للناس الحق فلا يكتمونه، والإنكار في القلب، هذا من أضعف الإيمان، أو هذا الذي أضعف الإيمان .

هذا الحديث له معان كثيرة جداً، ولكن نكتفي بهذا القدر، وربما أخذ شرح هذا الحديث الموضوع الفقهي، الذي كنت أعالجه، وسوف أعود إلى درس البيوع، في الدرس القادم إن شاء الله تعالى .

إليكم ما كان يتميز به عمر بن عبد العزيز :

والآن إلى الخليفة الراشد الخامس، سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

يقول عن نفسه:

((إنَّ لي نفسًا تواقة -تتوق: أي طموحة، لذلك الإنسان بين أن يكون خاملاً، وبين أن يكون طموحاً، فكن طموحاً- لا تَنَالُ شيئاً، إلاّ تَاقت إلى ما هوَ أَفْضَلَ مِنْهُ))

نقطة هامّة دقيقة، يا أيها الأخ الكريم، لو تاقت نفسك إلى الدنيا، فالدنيا محدودة، متى تبدأ متاعبك؟ متى تشعر بالفراغ؟ متى تشعر بالسأم والضجر؟ متى تحس أنك استهلكت؟ إذا وصلت إلى أهدافك المادية فقط، لو أن أهدافك تنتهي عند المال، وحزت المال، تحس بالفراغ ، لو أن أهدافك تنتهي عند الشأن والوجاهة، ووصلت إليها، تشعر بالفراغ، لكنك إذا أردت الله سبحانه وتعالى، أردت ما عنده، تصبح حياتك كلها شباباً، المؤمن لا يشيخ، يكبر سنه فقط، ربما تضعف ذاكرته قليلاً أو لا تضعف، لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ تَعَلَمَ الْقُرْآنَ، مَتَّعَهُ اللَّهُ بِعَقْلِهِ، حَتَّى يَمُوتُ))

بفضل الله عز وجل، الله سبحانه وتعالى يحمي عباده المؤمنين من أرذل العمر، يمتع الله المؤمن بعقله، وصحته، وسمعه، وبصره إلى يوم يلقاه.

يا سيدي ما هذه الصحة؟ سبعة وتسعون عاماً، بصره حاد، سمعه مرهف، أسنانه في فمه، نشيط، وذاكرته قوية، قال له يا سيدي:

((ما هذه الصحة التي أكرمك الله بها؟ قال: يا بني، حفظناها في الصغر، فحفظها الله تعالى علينا في الكبر، من عاش تقياً، عاش قوياً))

ألا تدعون مع من يدعو؟ ومتعنا اللهم بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا، هذا ثمن الإيمان، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، شيء ثابت .

فسيدنا عمر بن عبد العزيز، كان تواق، كان طموح، قال:

((إنَّ لِيَ نفساً تواقة، لا تنال شيئاً، إلاَّ تاقت إلى ما هو أفضل منه))

يروى أن أحد الخلفاء، سأل أحد وزرائه:

((أريد أن ألتقي بزاهد، حتى أرتاح، فجاءه الزاهد، قال: ليس في الأرض من هو أزهد منك أيها الخليفة، قال: كيف، وأنا عندي الأخضر والأصفر والأبيض؟ قال: أنت زهدت في الآخرة، وأنا زهدت في الدنيا))

الحقيقة: أشد الناس زهداً، من زهد في الآخرة، لكن المؤمن أشدُ الناس طموحاً، فسيدنا عمر بن عبد العزيز:

((إنَّ ليَ نفساً تواقة، لا تنال شيئاً، إلاَّ تاقت إلى ما هو أفضل منه))

من نفسه التواقة، قال الكاتب:

((يتميز هذا الخليفة، بأن له أناقة للنفس))

نفسه أنيقة، هذه سمة عميقة، أناقة نفسه، ظهرت بمظاهر شتى، منها: الترفع عن اللعب مع الأنداد، والإقبال على مجالس الحكمة مع العلماء والفقهاء، النبي عليه الصلاة والسلام كان حينما يدعى إلى اللهو فيقول:

((لَمْ أُخْلَقَ لِهَذَا))

أحياناً: تجد طفلا في سن مبكرة، يحب ارتياد مجالس العلم، يحب أن يجلس مع العلماء، مع الكبراء، مع الفقهاء، مع المتفوقين، هذا الطفل له سن عقلي، يفوق سنه الزمني، فسيدنا عمر بن عبد العزيز عبَّر عن أناقة نفسه، بترفعه عن اللعب مع الأنداد والأقران، وبتردده على مجالس العلم مع العلماء والفقهاء، وعبَّر عن أناقة نفسه، بالترفع عن الدنايا كالكذب، فكان يقول:

((إنه يزري بصاحبه، ويوقع به الأذى والضر))

وكان يعبِّر عن أناقة نفسه، بتجنب لغو القول ولغو العمل، استعاض عن لغو القول، بالصمت المتأمل المفكر، أي الكلام الذي لا معنى له .

ومما سمعت:

((إن لم يكن لديك ما تقول، فلا غَنَاء في القول))

أي تكلم كلامًا مُجديًا، كلامًا مفيدًا، النبي الكريم يقول:

((أمرني ربي بتسع: خشية الله في السر والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

[ورد في الأثر]

أنت بين أن تنظر إلى شيء، عليك أن تعتبر، أو أن تبقى صامتاً، عليك أن تفكر، وبين أن تنطق، عليك أن تذكر الله عز وجل، وهذا هو التفوق، هذا الفلاح، فاستعاض عن لغو القول، بالصمت المتأمل، واستعاض عن لغو العمل، بالجد المثابر المتزن .

سيدنا عمر، كان أنيقاً جداً، كان يرتدي أبهى الثياب وأغلاها، ويضمخ نفسه بأبهج العطور وأغلاها، حتى أنه إذا عبر طريقاً، يعلم الناس أنه قد عبره من فوحان الرائحة العطرية، والنبي الكريم كان يحب التعطر، قال:

((حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب ...))

يضيف كتاب التاريخ، أن حديثه لفتيته، ومشيته فيهم أناقة، فكان يحب الجمال في كل شيء، طبعاً فيما أباح الله، ما ارتكب إثماً، ولا خطيئة، بل ضمن المباح، هذا قبل أن يصبح خليفة المسلمين .

أشر إلى مضمون هذا الكلام :

اسمعوا هذه القصة، قال:

((ذات مرة هذا الشاب، لحن يوماً في حديثه -لَحَن: أي أخطأ في النحو- فالنبي عليه الصلاة والسلام كان أفصح العرب، مرة لَحَن أمامه رجل، فقال بترفق : أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل))

كان منطق النبي، كأنه خرزات نظم يتحدرن، كلماته عقدٌ من اللؤلؤ .

فسيدنا عمر قد لَحَن، فكل بني آدم خطّاء، لَحَن في حديثه مع رجل، يشكو إليه ختنه، الذي هو صهره، فسأله عمر بن عبد العزيز:

((ومن ختنك؟ فقال الرجل: ختنني الخاتن الذي يختن الناس -فاعتقد أن يسأله من طهّرك؟ لكنه لم يقل له هذا- فأجابه باستهزاء: ختنني الخاتن الذي يختن الناس، فقال: إنما أسألك عن اسم ختنك،

-من هو صهرك؟- فأجابه الرجل معقباً: إذاً: كان ينبغي أن تقول: من خَتَنُك، وليس من خَتَنَكَ؟ قال: فسها عمر بن عبد العزيز لنفسه في نفسه، وفي اليوم التالي، أغلق عليه داره، وراح يتدارس نحو اللغة وقواعدها مع نفر من علماء النحات، حتى أجادها وأتقنها، وصار مضرب المثل في الفصاحة))

أما اليوم: تجد في حديث الرجل كلمة واحدة صح، وليس كلمة خطأ، فسيدنا عمر قال:

((تعلموا العربية فإنها من الدين))

فوق هذا: أنه أذاع في الناس، حينما كان والياً، أن الذين يتعلمون اللغة العربية، ويجيدونها، سيكون عطاءهم من بيت المال أوفى من الآخرين، فلهم عطاء زائد، لأنها لغة القرآن، ولغة النبي العدنان، هذه لغتنا تعلمها واجب، تذكروا هذا القول دائماً :

(أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)

[سورة التوبة الآية: ٣]

فبعضهم قرأها: ورسوله، ما معنى هذا؟ لو قرأت قوله تعالى:

(أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)

[سورة التوبة الآية: ٣]

الله برئ من المشركين، وبرئ من رسوله، لا، ليس هذا هو المعنى، أنّ الله بريء من المشركين ورسولُه، فرق كبير جداً، بينما أن تقول:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر الآية: ٢٨]

هذا أعوذ بالله، فمعناه فاسد، يجب أن تقول:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر الآية: ٢٨]

فإذا تعلمت العربية، من أجل أن تقرأ كتاب الله .

من أقوال عمر بن عبد العزيز :

من أقواله الشهيرة رضي الله عنه قال:

((عجبت لمؤمن، يؤمن أن الله يرزقه، ويخلف عليه، كيف يحبس ماله عن عظيم الأجر، وحسن الثواب؟))

وكان هذا الأمير الشاب، من أعطى الناس للجزيل، وطاقت نفسه للتقوى، فكان يقول:

((وددت لو أني لم أكن شيئاً مذكوراً، وددت أني دفقة في هذا الماء الجاري، وددت أني نبتة في أرض الحجاز))

شعر بخوف الله عز وجل، كان يقول:

((شيبني ارتقاء المنابر، وخوف اللحن))

أحياناً: سماع الكلام سهلا، لكن إلقاء الكلام، يحتاج إلى إعداد، إلى منطق، وتنظيم، وتحضير، ودقة في العرض، والفهم، والتفسير .

فرجل صعد المنبر، فأُرتِجَ عليه، فقالوا:

((ما بك ارتجى عليك؟ قال: ومالي لا يرتجى عليّ، وأنا أعرض عقلي على الناس؟))

فالذي يخطب، يعرض عقله على الناس، فالخطيب عندما يلقي خطبة، تبقى الناس طيلة الجمعة تنتقده، كأن أخطأ بهذه الفكرة، أو هذه الكلمة، فالانتقاد سهل، لكن العطاء يحتاج إلى جهد، فقال:

((شيبني ارتقاء المنابر، وخوف اللحن))

الخاتمة :

كان أنيقاً إلى درجة تفوق التصور، قال:

((مرة قُدِم له ثوب من أغلى وأثمن وأنعم حرير في البلاد، فأمسكه بأنامله، وتحسسه، ثم قال متأففاً: ما أخشنه من ثوب، وحينما صار خليفة، قدم له ثوب خشن، لدرجة أنه لا يرتديه أفقر الناس، أمسكه بيديه، وقال: ما ألينه، وما أنعمه، آتوني بثوب أخشن منه))

تبدلَ تبدلا كبيرا جداً .

ومرة هجا المتنبي كافورًا الإخشيدي بمصر، فقال:

يستخشن الخز حين يلبسه وكان يبرى بظفره القلم

لا زلنا مع هذا الخليفة العظيم، يوم كان أميراً:

((تاقت نفسي إلى الإمارة، فلما بلغتها طاقت نفسي إلى الخلافة، فلما بلغتها تاقت نفسي إلى الجنة))

وفي درس قادم إن شاء الله، نتابع الحديث عن هذا الخليفة، سيدنا عمر بن عبد العزيز.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٢٩-١٠١) : حديث إياكم والجلوس في الطرقات - حق الطريق وآدابه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٩-٠٣-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم شرح جزئيات هذا الحديث:((إياكم والجلوس في الطرقات......)) :

١- إياكم والجلوس في الطرقات .... نتحدث فيها :

أيها الأخوة المؤمنون، حديث اليوم: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: فَأَمَّا إِذَا أَبَيْتُمْ إِلا الْمَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَى، وَرَدُّ السَّلامِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري في صحيحهما]

إياكم: أداة تحذير، وإذا وردت إياكم في القرآن الكريم، فهي تحذير من الله عز وجل، في حديث الإفك، يقول الله عز وجل:

(يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً)

[سورة النور الآية: ١٧]

هناك تحذير من الله عز وجل، وإذا كان التحذير من الله، فكفى به محذراً، لأن الأمر كله بيده، قد يحذرك إنسان، ولا يقوى على ما يحذرك منه، ولكن الله سبحانه وتعالى إذا حذرك، فبيده كل شيء، وإذا حذرك النبي الكريم:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

[سورة النجم الآية: ٣]

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم الآية: ٤]

الله سبحانه وتعالى أمرك بنص القرآن الكريم، أن تَتَّبعَ أوامر النبي، قال تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)

[سورة الحشر الآية: ٧]

فالنبي يقول:

((إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ))

لكن: هل هذا التحذير على مستوى التحريم؟ لو كان كذلك، لكان الجلوس في الطرقات؛ كشرب الخمر، هل هو تحريم؟ لا، ولكن العلماء قالوا: هذا نهي، حمل على الكراهة ، أي مكروه أن تجلس في الطرقات، من منا برأيكم يجلس في الطرقات؟ الحقيقة: علماء هذا الحديث فسروه: على أن الذي يجلس في حانوت، يطل على الطريق، وعينه على المارة يتفحصهم، فهذا حكمه كحكم من يجلس في الطريق، وهؤلاء الذين يجلسون على شرفات منازلهم المطلة على الطرق المزدحمة، ويمتعون أبصارهم بمنظر المارة ذكوراً وإناثاً، فهؤلاء ينطبق عليهم الجلوس في الطريق، وهؤلاء الذين يجلسون في مقاهي الرصيف، هؤلاء ينطبق عليهم هذا الحديث أشد الانطباق، فهذا الذي يجلس في الطريق، أو يطل عليه من شرفة، أو يقبع في حانوت، يطل على الطريق، وهدفه أن يمتع النظر برؤية الناس، والذي يجلس في مكان عام، والناس يرتدون أبهى حلل، وليسوا ورعين، ولا متدينين، ويمتع نظره بمرآهم، ينطبق عليه هذا الحديث أشد الانطباق .

هذا الذي يتنزه في الطريق مجروحة عدالته، الذي يتنزه في الطريق، والذي يتحدث عن النساء، والذي يصحب الأراذل، والذي يعلو صياحه في البيت، والذي يطلق لفرسه العنان، والذي يقود برذوناً، والذي يطفف بتمرة، والذي يأكل لقمة من حرام، والذي يأكل في الطريق ، والذي يبول في الطريق، هؤلاء جميعاً مجروحة عدالتهم .

يقولون:

((الجنة بلا ناس ما بتنداس))

فهذه لا آية ولا حديث، بل كلام لا وزن له إطلاقاً.

فيحمل على الجلوس في الطرقات: التنزه فيها، أو أن تقف في طريق مزدحم بالنساء، أن تقبع في حانوت مطل على الطريق مزدحم بالنساء، أن تقبع في شرفة بيتك المطلة على طريق مزدحم بالمارة، أن تجلس في مقهى الرصيف، أو مكان عام يرتاده الناس غير المتدينين والمنضبطين والمحتشمين، هذا كله ينطبق على الجلوس في الطرقات، لكن هذا النهي نهي كراهة .

الإنسان أحياناً يضطر للوصول إلى طبيب عيادته في مكان مزدحم، فإذا كانت باتجاه الطبيب من دون أن يقف، أو ينظر، فهذا معذور، هناك إنسان مضطر إلى أن يذهب إلى مكتب مهندس في شارع مزدحم، وفي وقت حرج، فالله سبحانه وتعالى يعلم نيته، فهناك حاجات لا بد من قضائها، أو حالات إسعافية، وعلاجية، أو عقد صفقة، أو شراء بيت، أو بيعه، فالمكاتب يمكن أن تكون مطلة

على طرق مزدحمة، فلذلك هذا النهي نهي كراهة، أن النبي الكريم بعد أن نهانا على الجلوس في الطرقات، أعطانا بعض الرخص،

((قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ نَتَحَدَّثُ فِيهَا))

أي نحن نضطر أحياناً كالعمل، وقضاء الحاجات، والمعالجة، وشراء، وبيع، ولقاء، لأن أصحاب النبي، كانت مجالسهم مصونة، عما لا يعنيهم من المباحات، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه، ومالك في الموطأ عن أبي هريرة]

أيها الأخوة، حتى المباحات التي لا تعنيك، كان أصحاب النبي ينزهون مجالسهم عنها.

٢-فأما إذا أبيتم.........غض البصر:

فقال عليه الصلاة والسلام: (فَأَمَّا إِذَا أَبَيْتُمْ إِلا الْمَجْلِسَ): أي إذا كنتم مصرين على الجلوس في الطرقات لأسباب اضطرارية، فأعطوا الطريق حقه، ولك أن تقول: أعطوا الطريق حقها، لأن الطريق تؤنث وتذكر،

((قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ))

لأنك إذا متعت بصرك بما لا يحل لك، انقطعت عن الله عز وجل، حينما تخالف أمر الله، تجد حجاباً بينك وبين الله، وأصبح دينك معلومات، ثقافة، تقرأ الكتاب فتعجب به، تسمع لهذه المحاضرة فتطرب لها، وتتحدث عن روعتها، فيمتلئ عقلك بالمعلومات، وأما الصلة بالله فهي مقطوعة، فالطريق إلى الله ليست سالكة، ما الذي جعلها هكذا؟ المعاصي وهي بريد الكفر، فالكفر هو الإعراض .

فبكل اختصار: إذا أردت أن تتصل بالله، فاستقم على أمره، تستطيع أن تحضر كل مجالس العلم، وأن تقرأ أي كتاب، أن تفعل أي شيء، أما أن تتصل بالله، وأنت تخالف أمره، فهذا من سابع المستحيلات، لأن الله عز وجل لا يصلك، ولا يسمح لا أن تتصل به، ولا يتجلى على قلبك، إلا إذا رآك مستقيماً على أمره، وآثرته على كل من سواه، إذا كانت شهوة واحدة أغلى عليك من الله، فاعلم أن الطريق إلى الله ليست سالكة، أؤكد لكم ذلك من خلال القرآن الكريم:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا)

[سورة التوبة الآية: ٢٤]

أي أن هذا البيت ليس لك إذا آثرته على طاعة الله عز وجل، هذا المال والتجارة والشيء الفلاني والمسكن المريح كلها ليست لك، وهذه الزوجة تطالبك بما لا يرضي الله، والبنت التي تأخذ من قلبك كل مأخذ، تطالبك بما لا يرضي الله، إذا آثرت بقولك: أبي كان هكذا، وأنا أعمل عنده، فإذا خالفتُ أمره طردني، فتربصوا، أي اقعدوا مع القاعدين، لن تصلوا إلى الله، لن يتجلى الله على قلوبكم، لن تسعدوا بقربه، ولن تشعروا بثمرات الإيمان، يقول عليه الصلاة والسلام:

((ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ، مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ ـنَبِيًّا- رَسُولاً))

[أخرجه مسلم عن العباس بن عبد المطلب في الصحيح]

أي ما لم تذق طعم الإيمان، فلا تشعر أن هذا الدين ثمين، فكما قلت: هناك من يسمع، هناك من يطالع، من يثقف نفسه، لكن ما دام هناك مخالفات، فالحجب قائمة، يسمح الله لك أن تتعرف كل شيء، إلا أن تسعد بقربه، أن هذا يحتاج إلى أن تدع كل شهواتك التي لا ترضي الله تحت قدميك .

لذلك:

((فَأَمَّا إِذَا أَبَيْتُمْ إِلا الْمَجْلِسَ، فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: غَضُّ الْبَصَرِ))

طبعاً: إذا كان غض البصر في عهد النبي أمراً ثابتاً، والصحابيات كنَّ متلفحات بالمرط التي غطينَ بها وجوههن، فما بالكم بزمان، امتلأت بها الطريق بالكاسيات العاريات، المائلات المميلات؟ فإذا كان غض البصر مطلوباً في عهد أصحاب رسول الله، فمن باب أولى أن يطلب اليوم آلاف الأضعاف، حتى ينجو الإنسان بدينه .

قَالَ: (غَضُّ الْبَصَرِ): وهو بحث طويل، أنا أسميه مدرسة: غض البصر، لأنه مما ينفرد به الدين عن القوانين الوضعية، فالله عز وجل حرَّم السرقة، والقوانين الوضعية تحرم السرقة، وقد يكون العقاب في هذه القوانين فوق طاقة التحمل، لذلك هناك من يمتنع عن السرقة لا حباً بالله، ولكن خوفاً من عقوبات لا يحتملها، لكن غض البصر ينفرد به الدين، وليس في الأرض قانون وضعي، يحرم النظر إلى النساء إطلاقاً، فإذا كنت في الطريق، ولا يراك أحد، ومرت امرأة، وغضضت بصرك عنها، إذا كنت مستلقياً في فراشك، والنافذة مفتوحة، وقد وقفت امرأة على شرفة بيت جارك، فغضضت بصرك عنها، وقلت: إني أخاف الله رب العالمين، هل يستطيع الشيطان أن يقول لك: إنك منافق؟ هل يستطيع مهما كان ذكياً، أن يوسوس لك، أنك منافق؟ تنافق لمن؟ توسوس لمن؟ ترضي من؟ لا ترضي إلا الله .

خطر في بالي، أن الله أرادك أن تتقرب إليه، إذا كنت تمشي في الطريق مع كل غض بصر، فأنت تصلي باليوم خمس مرات، لكن بغض البصر، تستطيع أن تقبل على الله في اليوم آلاف المرات،

كلما مرت امرأة، وغضضت طرفك عن محاسنها، وقلت: إني أخاف الله رب العالمين، ولا أحد يحاسبك فيما فعلت، بل ربما لا يستطيع أحد، أن يشعر أنك تنظر، لذلك قال الله عز وجل:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾

[سورة غافر الآية: ١٩]

كثير من المهن التي تستطيع، أن ترى دون أن تُرى، ولا الزوجة الغيورة تستطيع أن تضبط زوجها بنظرة، الطبيب مهما فعلت زوجته الغيورة، طبيب أسنان، طبيب صحة، بائع يدخل عليه النساء، لكن وهو يعلم إذا يغض بصره بحزم، يرضي الله بهذا الغض، لذلك ليس الإسلام قيوداً، لا والله، لكنه حدود سلامتك، ليس غض البصر قيد لحريتك، بل إنه معراج بك إلى الله، كلما غضضت بصرك عن امرأة لا تحل لك، تعرج بهذا الغض إلى الله عز وجل، ألا تحب أن تعرج إليه باليوم آلاف المرات؟ هذا غض البصر .

((من غض بصره عن محارم الله، أورثه الله حلاوة في قلبه إلى يوم يلقاه))

فإذا نظرت، وسقطت من عين الله، ورسبت في الامتحان، وإذا غضضت البصر، يعني أنك نجحت في الامتحان، وارتقيت إلى الله، والذي أعطاك الله، والذي أمرك أن تغض بصرك، هو الذي يكافئك، في بيتك إن كنت عازبا أو متزوجاً، إن كنت عازبًا يأتي غض البصر، ليجعل حياتك هادئة ناعمة خالية من الاضطراب، والكبت كما يقول علماء النفس:

((الكبت سببه إثارة ومنع))

وإذا كنت متزوجاً، ألقى الله في قلبك محبة هذه المرأة، التي هي زوجتك، فسعدت بها، وسعدت بك، إن كنت عازبًا فرغك الله لمعرفته، وبناء مستقبلك، وإن كنت متزوجاً، ألقى في قلبك، وقلب زوجتك المحبة المشتركة، والتجربة أكبر برهان، مع أن الله لا يجرب ولا يشارط، لكن طبق وانظر.

قال: (غض البصر): سبحان الله! فالإنسان في أوامر متعلقة بالبيع والشراء، يمكن أن لا يبيع ويشتري، في أوامر متعلقة الحج، فربما لا يحج لعدم الاستطاعة، في أوامر متعلقة برمضان، وهو من العام للعام مرة، لكن غض البصر كل يوم، وكل لحظة، كأن الله جعل لك مناسبة، تقبل عليه في كل لحظة، انظر تَنْقطِع، غُضَ البصر تُقبَل، وأنت في الطريق .

ما معنى قوله تعالى :

﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾

[سورة المعارج الآية: ٢٣]

أي عندما يطبقون أمر الله دائماً، يشعرون أن الله يتجلى على قلوبهم، كما يتجلى عليهم في الصلاة، هذه صلاة من نوع آخر، صلاة فيها حقيقة الصلاة، وليس فيها حركات الصلاة، فإذا إنسان غض بصره، فدمعت عينه شعوراً: أن الله عز وجل راض عن هذه الصلاة، ولكن لا تجري على قواعد الصلاة، لذلك قال الله عز وجل:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[سورة المعارج الآية: ٢٣]

النبي الكريم قال:

((اشتقت لأحبابي، قالوا: أو لسنا أحبابك؟ قال: لا أنتم أصحابي، أحبابي أناس، يأتون في آخر الزمان، القابض منهم على دينه، كالقابض على الجمر))

لأن كل متر فيه امرأة بالطريق، أي حركة، بأي مكان عام، فيه نساء، جميع حركاتك ونشاطاتك فيها نساء، في التعامل مع الموظفين، يوجد موظفات، طلبوا منك الحضور للمدرسة، عليك أن تقابل المدرسات، دفع الهاتف موظفات، هذه مشكلة، أينما تحركت فالمرأة أمامك، والمرأة ليست كما ينبغي أن تكون، فهي كاسية عارية، مائلة مميلة، لذلك مناسبات كثيرة، ترقى بها إلى الله عز وجل .

قَالَ أَبُو أُمَيَّةَ الشَّعْبَانِيُّ، قَالَ:

((سَأَلْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا ثَعْلَبَةَ، كَيْفَ تَقُولُ فِي هَذِهِ الآيَةِ: (عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ)؟ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ، لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: بَلِ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ يَعْنِي بِنَفْسِكَ، وَدَعْ عَنْكَ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضٍ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلا، يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ، وَزَادَنِي غَيْرُهُ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ، قَالَ: أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ))

فأقل كلمة: هل تعتقد أنها ستأكلك؟ لا، لن تأكلني، فليست وحشًا، لكن الله سيغضب علي .

٣-وكف الأذى ..... والنهي عن المنكر :

قال: (وكف الأذى): أي أن تؤذي الناس بتعليقات المارة، الزبائن الداخلون الحانوت والخارجون، عقول متفاوتة، طباع وأمزجة متفاوتة، أمزجة مختلفة، لله في خلقه شؤون، تعلق على هذا قصير، وهذا طويل، وهذا وقح، وهذا خجول لدرجة الغباء، كأنك جالس في ميزان، هذا كله أذى، التعليق عليهم، والسخرية منهم، تقليدهم، ومحاكاتهم، وتجريحهم، والاستخفاف بهم .

يدخل إليك المشتري، ويقول لك: أريد بربع ليرة شاي، فإذا كان البائع بعيدًا عن الله يطرده، أعطه جبرًا لخاطره، قال رجل لبائع -قصة قديمة-: أريد جبنًا بفرنك، هل أحد يعطي جبنًا بفرنك؟ استحى

منه، فأعطاه قطعة، قال له: جيدة، من هذه أعطن، فالتعليق، السخرية، الاستخفاف، الغيبة، المحاكاة، التقليد، الاستعلاء، والتجبر، هذا كله من الأذى .

فالنبي الكريم قال: (وَكَفُّ الأذَى): كأذى المارة، صاحب الحاجة أرعن، أعمى، يمكن ألاّ يسلم عليك، أو يقسو عليك في القول، فتحمَّله، لأن المؤمن صدره رحب، وحليم، والحلم سيد الأخلاق، لعله أرعن، لأنه محتاج، قد يكون في بيته وضع خطير، زوجته مريضة ، ربما لا يملك ثمن الدواء، قد يدخل إليك بوجه متجهم، فلا تؤذه، ارحم حاله، لعل له عذراً، وأنت تلومه .

قال: (وَرَدُّ السَّلامِ): طرح السلام سنّة، لكن رد السلام فرض .

(وَالأمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ): فطفل يعذب حيوانًا، مره أن يمتنع عن ذلك، لاحظت البائع عندما زان، لم يجعل الوزن صحيحًا، ذكّره أن هذا من تطفيف الميزان، وربنا عز وجل قال:

(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)

[سورة المطففين الآية: ١]

توعدهم بالويل، فإذا وجدت أمامك مخالفة شرعية، تجاوز، تقصير، بدعة، قال له: اخصم لي لأدفع نقدي، سنتفق على السعر الفلاني، أتخصم بالمئة ستة؟ نسميه: حسمَ سماحٍ، حتى يكون شرعيًا، وأنت جالس، فأمر بالمعروف وانه عن المنكر، هذا أربى، لأن البيع انقلب إلى نقدي، والبيع لأجل أصبح أساسه، فللزمن سعر واضح، اشترى ولم ير، فلما جاءت البضاعة، ألزمه بها البائع، قل له: من اشترى، ولم ير، فله الخيار إذا رأى، هذه قاعدة في البيع بلّغه إياها .

اشترى أمامك زبون حاجة، وسأل ما سعرها؟ فأجاب: لا فرق بيننا، قال له: توقف فهذه جهالة، تفضي إلى المنازعة، الآن في مودة، وبعد لحظة، تصبح مشكلة، هو يعتقد أن الغرفة، ثمنها ثمانية وعشرين ألفاً، دفع له ثلاثين أو خمسة وثلاثين، وكلمة هذه دفعة متى، تنتهي الغرفة، قال له: ثمنها ثمانية وخمسون، قل له: ذلك من البداية .

رجل جاره نجار، وأعجبته غرفة نوم، فقال له: ابعثها لي، ما سعرها؟ لا فرق بيننا، بعث له دفعة كل جمعة، وصار هناك منازعة كبيرة بينهم، فإذا كنت في السوق، وكنت متفقهًا بالبيوع، وعلمت وجود بيعة خلاف الأصول، أو شراء خلاف الأصول، أو أخفي عيب البضاعة، ولم يبين السعر تماماً، فإذا تمكنت بأدب ولطف، من دون تدخل وتطفل، والأخ يثق بك، وتثق به، فأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، من أمر بمعروف، فليكن أمره بمعروف بالحسنى، والتلطف دون تشهير أو فضح، ولا تنصحه أمام الزبائن، تقول له: هذا حرام، لأنه سيطردك إذا فعلت هذا .

((قالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قالَ: غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الأذَى، وَرَدُّ السَّلامِ، وَالأمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ))

إليكم هذه الآداب التي استنبطها العلماء من أحاديث أخرى تتعلق بحق الطريق وآدابه :

العلماء رحمهم الله تعالى، أضافوا على هذه الآداب آداباً أخرى، أخذوها من أحاديث شريفة أخرى، من آداب الطريق:

١-إرشاد ابن السبيل: سألك شخص: أين المحل الفلاني؟ أين الثانوية الفلانية؟ أين وزارة التربية؟ أين إدارة النفوس؟ أين الشركة الفلانية؟ أين المكتب الفلاني؟ وتعرفه أنت، فإذا كنت مؤمناً ومنضبطاً، عليك أن ترشده إلى هدفه، إرشاد سريع، تقول له: أمامك، ما هذا؟ هل دللته على مكانه؟ أمامه طريق طويل، كيف سيعرف أنه في المكان كذا؟ اسأل يدلّوك، أنت دلّه ، ارسم له خريطة، إن كنتَ متفرغًا، فاذهب وأرشده، هذا هو المؤمن، فمن السنة النبوية المطهرة: أن ترشد ابن السبيل .

٢- تشميت العاطس: إذا عطس إنسان قل له: يرحمك الله، إذا كان الزوج مؤمنًا، والزوجة مؤمنة ومتحاربين، والزوجة عطست، فيضطر لأن يقول لها: يرحمك الله، لعلها ترد عليه، هدانا الله وأصلحكم، وأصلح بالكم، فيقع الصلح بهذه المناسبة، فإذا كان الزوج والزوجة متخاصمين، وأحدهم عطس، فيجب على الثاني أن يقول له: يرحمك الله، هذه تسبب مودة بين الزوجين، والأخوة، والأقرباء، والمتخاصمين .

٣- إغاثة الملهوف: إذا صادفت رجلا، أضاع ابنه، تجد وضعه غير طبيعي، فساعده ، أو رأيت طفلا، يسير تائهاً أرشده، سقط رجل أمامك في الطريق، فأغمي عليه، هذه إغاثة الملهوف، وسيارتك موجودة، خذه إلى المستشفى .

اليوم: لا مشكلة إذا سقط إنسان في الطريق، وأنقذه إنسان نعمة، هناك تعديل: إذا أخذ رجل مريضًا أو مصاب، ويدخله للمستشفى، ولا مسؤولية عليه، فقط أن يعطي اسمه ورقمه، فإذا لم تكن علاقة له بالموضوع، فليس عليه شيء، كانوا سابقاً يحتجزونه، معهم حق، لكن أصبح هذا القانون منعًا لإنقاذ الناس .

٤- وأعينوا على الحمولة: أحيانا يقع الحمل على الدابة، وصاحب الدابة واحد، ولا إمكان إلا لرجلين، ليرفعوا الحمل، اليوم على دراجة وقعت، اللحم سقط على الأرض، أو الحمص، الناس ينظرون إلى ما أصابه من بعيد، ولكن المروءة أن يساعده أحد، قد تكون البضاعة ثمينة، كُبّت على الأرض، والطريق مزدحم بالمارة، كيف سيلتقطها وحده؟ أنت مؤمن تسير بالطريق، وجدت رجلا، سقطت بضاعته منه حمل، إذا رأيت شاحنة، سقط منها صندوق، وهي تسير، وأنت خلفه بسيارتك، فعليك أن تحذره، وتلفت نظره لهذا .

٥- وأعينوا المظلوم: أنت لمحت بعينك رجلين يتشاجران، أحدهما ظالم، والآخر مظلوم، والكل ينظر لهم، لا يجوز، هذا سيدنا موسى لم يقف متفرجاً، ولكن لا تتصرف كذا وكذا، وتزيد عليه، لّطفها قليلاً، أوقفه عند حدوده، إذا كان متجاوزاً للحدود .

٦- واذكروا الله كثيراً: أنت جالس بمكان مطل على الطريق، لا بيع، ولا شراء، ولا زبائن، تكلم عن الله عز وجل، ذكر بالله، تكلم عن بعض آياته الكونية والقرآنية، عن بعض أحاديثه الشريفة والنبوية، عن محبتك لله عز وجل .

فجاء عالم جليل، وجمع هذه الآداب، في أربعة أبيات، مجموع هذه الآداب: أربعة عشر أدباً، فقال هذا العالم:

جمعت آداب مـن رام الجلوس على الطريق من قول خير الخلق إنساناً

أفش الـسلام وأحـسن في الكلام وشـمت عاطساً وسلاماً رد إحسانا

في الحـمل عاون و مظلوماً أعن و أغث لهفاناً واهد سبيلاً واهد حيرانا

بالعرف مـر وانه عن المنكر وكف أذًى وغض طرفاً وأكثر ذكر مولانا

جمعت آداب من رام، الجلوس على الطريق، من قول خير الخلق إنساناً، هذه تقديم، أفش السلام، وأحسن في الكلام، وشمت عاطساً، وسلاماً رد إحسانه، في الحمل عاون، ومظلوماً أعن، وأغث لهفاناً، واهد سبيلاً، واهد حيراناً، بالعرف مر، وانه عن منكر، وكف أذًى، وغض طرفاً، وأكثر ذكر مولانا، أربعة عشر أدباً، ينبغي أن تمر بها، إذا كنت متبعاً لسنة النبي عليه الصلاة والسلام .

هذا الحديث نحتاجه جميعاً، لأنه حديث يشمل كل إنسان، إنسان موظف، يضطر للذهاب إلى طبيب، وفي الطريق مشاهد، فعليه أن يغض عنها البصر، أحياناً يوجد عمل يحتاج إلى إغاثة لهفان، فالمؤمن صاحب مروءة .

سيدنا موسى، عندما رأى امرأتين تذودان -لم يقل: إنه لا علاقة له- بل قال: ما خطبكما؟ -هذه المروءة- قالتا: لا نسقي حتى يصدر الرعاء، وأبونا شيخ كبير، فسقى لهما) .

فهذه من المروءة، أن تسقي للضعيف، أن تعطي دورك لامرأة، أن تقوم بالمركبة العامة لامرأة مسنة أو متحجبة، هذه من المروءة، أحياناً إنسان يمثل جامعه أحسن تمثيل، فإن رأى منك عملا طيبًا، قال لك: أنت من علمك هذا التعليم؟ من أي جامع أنت؟ فيمكن لإنسان أن يجلب إنسانًا إلى المسجد، ويكون هداه على يده، بسبب معونة قدمها، وهو لا يعرفه، وعود نفسك أن تكون عامًّا، هؤلاء كلهم خلق الله، أعن أيّ ملهوف، أيّ عاجز، لا دع عملك أن يكون خاصًّا بالمؤمنين، أنت مؤمن، وهؤلاء الناس جميعاً هم عباد الله، وهم كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله، فإذا كنت مؤمناً تفعل هكذا .

ماذا صنع عمر بن عبد العزيز حينما عينه الوليد بن عبد الملك والياً على المدينة

والآن إلى بعض مواقف سيدنا عمر بن عبد العزيز، وفي هذا الفصل صار والياً على المدينة المنورة، ففي السنة الخامسة والعشرين، اختاره الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، ليكون والي المدينة وحاكمها، ماذا فعل حينما تولى إمارة المدينة؟ فعل شيئًا رائعًا جداً، وأول شيء فعله: أنه اختار عشرة من أئمة العلم والورع والفضل في المدينة، وجعلهم مجلس شورى .

وأنت اختر إنسانًا تثق بعلمه، ودينه، وصلاحه، ورجاحة عقله، واسأله، سؤال الطبيب له أجرة، سؤال المحامي له أجرة، سؤال أي خبير، يلزمه ثمن أتعابه مقدماً، إلا سؤال الرجل الذي نذر نفسه لخدمة الخلق، فهذا سؤال بلا ثمن، وإذا سألته استعرت ما عنده من معلومات وخبرات، إذا كان عنده، ربنا قال:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النحل الآية: ٤٣]

مفتاح العلم السؤال، أحياناً ألحظ أخًا، وقع في ورطة كبيرة، لا يسأل، اسأل يا أخي إن كان فيها حكم شرعي، هذا الطريق مسدود، هذا خطر، هذا زلق، هنا انقطاع عن الله، أو هضم للحقوق، أو سياسة غير معقولة، أن تعامل زوجتك هذه المعاملة، اسأل، فالسؤال بلا ثمن ، والإجابة بلا مقابل أتعاب، فهذا عمل أهل العلم، فهدفهم تقديم سنة النبي الكريم، إلى كل من يسأل عنها .

ماذا فعل هذا الوالي؟ بدأ باختيار عشرة من أئمة العلم والورع والفضل في المدينة، فجعلهم مجلس شورى، هم: عبيد الله بن عبيد الله بن عتبة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعروة ، وأبو بكر بن خزيمة، والقاسم بن محمد بن أبي بكر، وسليمان بن يسار، وخارج بن زيد بن ثابت، والقاسم بن محمد بن حزم، وسالم بن عبد الله، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، أكثرهم وردوا معنا في سير التابعين إذا ذكرتم ذلك، هؤلاء أبناء أصحاب رسول الله، أبناؤهم أو التابعون .

في أول اجتماع عقده معهم قال:

((إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه، وتكونون فيه لي أعواناً على الحق، أناشدكم الله إن رأيتم عدواناً أو باطلاً، إلا أبلغتموني أمره، وأرشدتموني إلى الحق))

هذه نصيحة أقدمها لكم: لا تقطعوا أمراً في أمر خطير، أمر مصيري، قبل أن تسأل من تثق به، اسأله وافعل ما تشاء، اسأله عن حكم الشرع عما يرضي الله ويغضبه، اسأله عمّا يرضي رسول الله، فخليفة مشهود له بالفضل، ورجل من عظماء المسلمين، جعل هؤلاء مستشاريه، العلماء الذين كانوا لصلاحهم وتورعهم وترفعهم، يتجنبون الولاة والأمراء، ولا يحملون لأكثرهم مودة، راحوا يهبون إجلالهم الصادق لابن عبد العزيز، حتى إن سعيد بن المسيب، وهو يومئذٍ من أعظم علماء المسلمين كافة، والذي يرفض طوال عمره، أن يسعى لزيارة أمير أو خليفة، بل وكان يرفض

استقبال الأمراء ومجالستهم، هذا العالم الورع الكبير، نراه اليوم يخف في جلال إلى دار الإمارة مرات ومرات، ليلقى عمر بن عبد العزيز، ويجالسه، ويحادثه، فإذا تواضعت لأهل العلم أحبوك، وقدموك، وقدموا لك كل شيء، فابن المسيب من أكبر علماء المدينة، وكان يرفض الذهاب والاستقبال، ومع ذلك عندما رأى ورع هذا الوالي، وتدينه، وتواضعه، وحرصه على إقامة أمر الله، سعى إليه مرات ومرات، ماذا فعل هذا الأمير الشاب؟ نشر بين الناس العدل، والأمن، وأذاقهم حلاوة الرحمة، وسكينة النفس.

ظاهرة حدثت :

في العام الثاني من إمارته، حدثت ظاهرة، يكتفي المؤرخون بتسجيلها، بينما نرى فيها سبباً وثيقاً من أسباب تطور هذا الوالي الروحي، تطور سريع، ما الذي حدث؟ .

في هذا العام، ولاه الخليفة إمارة الحج، ولم يكد موكبه يبلغ مكة المكرمة، حتى ألفى أهلها في قحط وعسر ومشقة، فما كان منه إلا أن دعا صفوة العلماء والصالحين، ومن شاء من عامة الناس أن يتبعهم، ثم خرج بهم إلى فضاء مكة، ثم وقف عمر بن عبد العزيز، يدعو الله، ويتضرع إليه بعد أن صلى بهم صلاة الاستسقاء، فإذا بشيء يشبه المعجزات، إذ لم يغادر مكانه، حتى هطل المطر غزيراً على غير موعد، ومن غير ميقات، ولم يصدق الناس أبصارهم، التي راحت تحدق في سماء زرقاء ناصعة صافية، ليس فيها مزعة من سحاب، وشهدت مكة في عامها هذا خصوبة نادرة .

في تقدير المؤلف: أن هذه الظاهرة، نقلته نقلة نوعية من حال إلى حال، كأنه شعر أن الله راضٍ عنه، أو كأنه تأييد إلا هي له، انتقل نقلة فجائية بعد هذه الحادثة، وأحياناً تسمى أيام الله، فربنا عز وجل عندما يكرمك، يكون محدق بك خطر، تدعوه بإخلاص، فيكشفه عنك، هذا يوم من أيام الله، أحياناً يخرق لك العادات إكراماً لك، أو يشفى ابنك من دون سبب، بعد أن أجمع الأطباء على أن مرضه خطير، أو تعود لك زوجتك إلى أخلاق لا تعهدها منها إطلاقاً، ما الذي حدث؟ والله صعب تفسير هذا، يكون الله عز وجل، جعلها لك يوماً من أيامه، وإكراماً لك .

فسيدنا عمر بن عبد العزيز، هذا الإكرام ما ضاع معه، أرجو أن لا يضيع معكم الإكرام، إذا ربك أكرمك بزوجة صالحة، أنقذك من ورطة، أكرمك بعمل مريح، كان شبح مرض، وإذا بالتحليل سليم، كان لديك مرض مستعصٍ، والله شفاك من دون سبب، هذه كرامة لك، وهي من آيات الله، وتعريف لك أن الله يحبك، فينبغي أن تكون على العهد، هذه من آيات الله لهذا الأمير .

لكنه كان أميراً، والإنسان في تطور، أنت قبل عشر سنوات غير اليوم، ويجب أن ترى فرقًا واضحًا جداً في مستواك النفسي، بأنك كنت تمزح، واليوم تركت هذا، كان لك أصدقاء تأنس بهم، اليوم كرهتهم، لأنهم غير نمط، فأنت يلزمك مؤمن راق، تعيش معه، كنت تسهر اليوم فتركتها، كان

لك أساليب بالتعامل مع الناس وتركتها، كان لك مواقف فيها تجبر، واليوم تركتها، كان لك أصحاب لا ترضى عنهم، اليوم تركتهم .

إذاً: هناك تطور، فربنا حليم، ينقلك درجة درجة، مثل الشمس، تأمل بها، تجدها ثابتة، تلةّ عنها ربع ساعة، تجدها انتقلت لمكان آخر، وأوضح غروب للشمس على البحر، تأمل بها، تجدها ثابتة، ويكون بقي لها ربع ساعة لتغيب، فأنت تنتقل من حال لحال، ويجب أن تلاحظ الفرق بين حالك اليوم وحالك قبل سنة، بصلاتك، وعبادتك، وإقبالك، ووجهتك، وعملك، وإخلاصك، وتوبتك .

سئل عمر :

أيها الأخوة، فيبدو أن سيدنا عمر بن عبد العزيز في الإمارة، كان له ميل للمظهر الحسن، رآه أحد الزهاد، يشتري ثوباً رافهاً بثمن غالٍ، فقال له:

((أو لا كان لك، أن تضع ثمنه بجيوب الفقراء؟ -فلم يغضب، ولم يستنكف- بل أجابه: وهل رأيتني أهملت الفقراء؟))

فهو ما أهملهم، وما أهمل نفسه، يوجد أرقى من ذلك، لكن الإمارة لن تشغله عن تجويد فضائله، وتنمية تقاه، فعكف على العبادة عكوفاً مثابراً، هذه الأحوال الطيبة في الإنسان؛ من عباداته، وإقباله، وذكره، وتلاوته للقرآن، أو قيامه لليل، تجد وجهه منيرًا، الجلوس معه مؤنس، هذا من إقباله على الله عز وجل، فهو أمير المعمعة، وفي عمل يحتاج لوقت كبير، ما أهمل عبادته .

ما قيل عنه :

قال:

((صلى وراءه أنس بن مالك صاحب النبي، ثم قال: والله ما صليت وراء إمامٍ، أشبه بصلاة رسول الله، من هذا الرجل))

وهو أمير، فلا مانع أنه لو كان لك عمل مهم بالحياة، أنه لا يوجد فيك دين، لا، من قال لك ذلك؟ الله أكرمك بعمل مهم، هل هناك تناقض؟ لا .

قال:

((وقف أبو النضر المديني، يخاطب علماء المدينة يوماً، فقال وهو يشير صوب عمر بن عبد العزيز: إنه والله أعلمكم العالم الجليل مجاهد بن جبر، الذي عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، والذي كان من الأئمة المعدودين، يقول عن عمر بن عبد العزيز: أتينا عمر ليعلمه، فو الله ما رجعنا من عنده، حتى تعلمنا منه))

هذا العالم الجليل .

الإمام الليث المشهور قال:

((ما التمسنا علم شيءٍ، إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز، أعلم الناس بأصله وفرعه، وما كان العلماء عنده إلا تلاميذ، أنعم بهذا الوالي العالم))

عمر لا يضيع وقته سدى :

أيها الأخوة، حصلت بينه وبين الوليد بن عبد الملك مشادة فعزله، وحينما عزله، عاد إلى الشام، وجعلها موطناً له، ماذا فعل وقت فراغ؟ .

قال:

((وفور رجوعه إلى الشام، وجد جيش الدولة، يتحرك للقاء جيش الإمبراطورية الرومانية الشرقية، التي كانت دائمة التحرش بالمسلمين، فامتطى عمر سلاحه، وحمل نيته الصالحة، وأخذ مكانه بين المقاتلين جندياً عادياً، يرجو غفر المؤمنين، أو عقب الشهداء الصالحين))

الوقت ثمين جداً، ترك الولاية أصبح لديه فراغ .

هذا السؤال لنا جميعاً: أنت عندك فراغ، فاقرأ كتابًا، تعلم قضية، اخدم الناس، افعل أعمالا طيبة، النبي الكريم قال:

((رجعنا من الجهاد الأصغر))

فالقتال في الحرب جهاد أصغر، إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس والهوى، ارفع مستوى عبادتك، احفظ القرآن، وتعلم تجويده، وعلومه، ولغته، هذا عمل طيب، انقل للناس معنى الحديث، أو انقل معنى هذه الآية، رد ملهوفهم أو أغثه، هناك أعمال طيبة كثيرة، لا تجلس بلا عمل، الوقت أثمن ما في الحياة، وفي درس قادم إن شاء الله نتحدث عنه خليفة .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٣٠-١٠١) : باب تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم والرحمة عليهم - حديث: المسلم أخو المسلم...، حديث آخر: لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٩-٠٥-١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد للدرس :

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا زلنا في باب: تعظيم حرمات المسلمين، وبيان حقوقهم، والشفقة عليهم، والرحمة بهم، وقبل قراءة الحديث الشريف، الذي هو موضوع الدرس اليوم، أحب أن أقدم كلماتٍ بين يدي هذه الأحاديث.

الحقيقة: أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، سعدوا بالإسلام أيما سعادة، أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام استخلفهم الله في الأرض، ومكّن الله لهم دينهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمنا، أي أن أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام قطفوا الثمار اليانعة للإسلام، سعدوا بالإسلام، وأسعدوا به العالم، اهتدوا وهدوا، والمسلمون اليوم يزيدون عن ألف مليون، ما هو السر الذي فقدناه؟ لماذا نحن -كما يقول بعضهم- ليست كلمتنا هي العليا، بينما أصحاب النبي عليهم رضوان الله كانت كلمتهم هي العليا؟ .

ربما كان فهمنا للدين فهماً خاطئاً، بيد أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله، فهموا الدين فهماً صحيحاً، وفهمناه فهماً خاطئاً، وأنهم وضعوا أيديهم على جوهر الدين، ووضعنا أيدينا على قشور الدين، هذا هو التفسير المعقول، لا بد من هذا التفسير، إما أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله فهموا الدين فهماً صحيحاً، وفهمناه فهماً مغلوطاً، أو وضعوا أيديهم على جوهر الدين، ووضعنا أيدينا على قشور الدين .

على كلٍ؛ هذه الأحاديث التي بين أيدينا اليوم تؤكد لكم: أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله فهموا الدين خلقاً، فهموا الدين صدقاً، فهموا الدين أمانةً، فهموا الدين إخلاصاً، فهموا الدين ورعاً، فهموا الدين حباً، فهموا الدين اتصالاً بالله عزَّ وجل، فهموا الدين تواضعاً، فهموا الدين عبودية، وربما نحن فهمنا الدين؛ صوماً، وصلاةً، وحجاً، وزكاةً، وليس غير .

في القرآن الكريم آلاف أفعال الأمر، يبدو أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله، كل فعل أمرٍ في القرآن طبقوه، وجعلوه أمراً واجب التنفيذ، وربما فهمنا أن الدين صلاةً وصياماً وحجاً وزكاةً، أما قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

[سورة الأحزاب الآية: ٤١]

ربنا سبحانه وتعالى وصف المنافقين، فقال:

(وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء الآية: ١٤٢]

ربما فهم أصحاب النبي عليهم رضوان الله، قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

[سورة النور الآية: ٣٠]

وفهمنا نحن أن الدين يُسر، وأن الله سبحانه وتعالى لن يحاسب الناس على الدقائق و الصغائر، وأن هذه صغيرة، الصغيرة في أثرها السلبي كالكبيرة، إنها حجاب .

فهذا التيار الكهربائي، إذا ابتعدا طرفا الشريط عن بعضهما ميليمتراً، أو سنتيمتراً، أو ديسيمتراً، أو متراً، أو عشرة أمتار، ما دام هناك تباعد، فالتيار قد انقطع، فالصغيرة صغيرة، والكبيرة كبيرة، ولكن أثر الصغيرة في قطع العبد عن ربه كأثر الكبيرة، لذلك ما الذي أهلك المسلمين؟ أنهم تركوا الكبائر، ووقعوا في الصغائر، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إياكم ومحقرات الذنوب ...))

هذا ذنبٌ تافه لا قيمة له، أنا لست نبياً، أنا لست صحابياً، صام، وصلى، ولم يرتكب كبيرةً، لم يزن، ولم يسرق، ولم يشرب الخمر، أما الغيبة، والنميمة، والنظر، والشبهات في كسب المال، والشبهات في إنفاق المال، هذا كله تساهل به، فإذا هو بعيدٌ عن الله عزَّ وجل بعداً كبيرا، فإذا الإسلام عنده ثقافة، أو حركاتٌ، وطقوس .

في بالإسلام جانب فكري، وفي جانب شعائري، الجانب الفكري لا يكفي، لأنه شرطٌ لازمٌ غير كافٍ، والجانب الشعائري لا يكفي حركاتٌ وسكنات لا معنى لها، ولكن الإسلام اتصالٌ بالله، والمشكلة: أن الاتصال بالله لا ينعقد، إلا إذا كان هناك استقامة على أمر الله .

جعلت هذه المقدمة تمهيداً لبعض هذه الأحاديث التي بين أيدينا، والتي ترون من خلالها: أن المسلم لا يكون مسلماً إذا صلى، وصام، وحج، وزكى، وزعم أنه مسلم، لا يكون المسلم مسلماً، إلا إذا كانت أخلاقه رضية، كما وصفها النبي عليه الصلاة والسلام .

إليكم مجموعة من هذه الأحاديث التي تصب في محور الدرس :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما]

إنما المؤمنون أخوة، قال تعالى:

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ)

[سورة البقرة الآية: ١٨٨]

(ولا تأكلوا أموالكم)

يعني مال أخيك مالك، آية دقيقة جداً، مال أخيك هو مالك، فإذا أكلت مال أخيك، فكأنما أكلت مالك:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

[سورة الحجرات الآية: ١٠]

و:

((لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه))

[أخرجهما البخاري ومسلم عن أنس بن مالك في صحيحهما]

فيا ترى هؤلاء المسلمون هل يعنيك ما يعنيهم؟ هل يؤلمك ما يؤلمهم؟ هل يفرحك ما يفرحهم؟ هل أنت منهم؟ هل أنت مهتمٌ بشؤونهم؟ هل تحرَص عليهم؟ هل ترحمهم؟ إذا كنت بائعاً، هل ترحمهم بالسعر؟ إذا كنت طبيباً، هل ترحم فقيرهم؟ إذا كنت محامياً، هل ترحم ضعيفهم؟ هل في قلبك رحمة تجاههم؟ هل تعاملهم كأخوانك؟ هذه علامة إذا شعرت بقلبك ينبض حباً للآخرين، ينبض رحمة، ينبض شفقة، ينبض عطفاً، فأنت مؤمن ورب الكعبة .

طبعاً: النبي عليه الصلاة والسلام استثناءً من هذا الكلام، يقول عليه الصلاة والسلام:

((انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قالوا: يا رسول الله، ننصره مظلوماً -هذه واضحة- فكيف ننصره ظالماً؟))

النبي عليه الصلاة والسلام أوتي جوامع الكلم، والعرب كانوا في الجاهلية مع أخوانهم على الحق وعلى الباطل، هذه الجاهلية:

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشدِ

أحد أفراد القبيلة مع قبيلته أعَلى الحق كانت أم على الباطل، في الخير أو في الشر، النبي عليه الصلاة والسلام فاجأ أصحابه بعبارةٍ، تشبه عبارات الجاهلية:

((انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قالوا: يا رسول الله، ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: بالأخذ على يده))

إذا أوقفت أخاك عند حده فقد نصرته، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

[سورة البقرة الآية: ١٩١]

إذا فتنت إنسانًا عن دينه، إذا دللته على معصية، إذا أغريته بالانحراف، إذا دفعته إلى مخالفة، إذا جعلت حب الدنيا يشغل قلبه كله، إذا جعلته ينصرف إلى شؤون الحياة، ويدع شؤون الآخرة فقد فتنته، والفتنة أشد من القتل، لأن القتل قد يكون المقتول شهيداً، وقد يستحق الجنة، أما هذا الذي فتنته، ربما دخل إلى النار، فلذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، فقالوا: يا رسول الله، ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: بالأخذ على يده))

فلذلك المؤمن الصادق، يهدي لأخوانه عيوبَهم، ولكن ليس معنى ذلك: أنه ينزِّه نفسه، لكن لو أن لك أخاً تحبه جداً، ورأيت على ثوبه ريشة طائر، يدفعك حبك له، أن تنزع هذه الريشة من على ثوبه، لو رأيت في كلامه زللاً، لو رأيت في معاملته خللا، حبك له الشديد يدفعك أن تنصحه، وفرقٌ كبير بين النصيحة والفضيحة، النصيحة بينك وبينه على انفراد، والفضيحة أن تُشَهِّر به .

من هنا قال سيدنا عمر رضي الله عنه:

((أحب ما أهدى إلي أصحابي عيوبي))

أما هذه المجاملة، مجاملة الأجانب دائماً، يثنون على بعضهم بعضاً، ولو كانوا على باطل، هذه المجاملة، أو هذه الأخلاق، أخلاق النفاق، أخلاق التخلي عن أخوانك، هذه أخلاق لا ترفع أخاك إلى المستوى المطلوب، وعندما يشعر الإنسان أن حوله أخوانًا صادقين، مؤمنين ، حريصين عليه؛ على استقامته، على إقباله، على إخلاصه، على ورعه، على عمله الصالح، ما دام الإنسان محاطًا بأخوة ناصحين فهو يرقى .

من يصدِّق أن سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، اختار أحد كبار العلماء، اسمه مزاحم فيما أذكر، اسمه عمر، وقال له:

((كن إلى جانبي وراقبني، فإذا رأيتني ضللت، فأمسكني من تلابيبي، وهزني هزاً شديداً، وقل لي: اتق الله يا عمر فإنك ستموت))

فحبذا لو أن كل واحدٍ منكم، اتخذ له أخاً في الله؛ ينصحه، ويزوره، ويتفقَّده، ويرعى شؤونه، ويبلغ إن كان مريضاً، يبلغ إن كان ذا حاجة .

((المؤمنون بعضهم لبعضٍ كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً، المؤمنون يدٌ واحدة، يد الله مع الجماعة، ومن شذَّ شَذَّ في النار))

و: (يد الله مع الجماعة): بالمعاونة، ويد الله على الجماعة بالحفظ .

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس في سننه]

و:

((عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

الإنسان لوحده، يتحلل من أمور الدين واحدةً واحدة، كيف يفتي لنفسه؟ وكيف يسوِّغ لنفسه؟ أن يفعل هذه المخالفة، وتلك المخالفة، وهذه ليست صالحة لهذا الزمان، وهذه أجازها العلماء، وهذه بلوى عامة، وهذه، وهذه، وبعد حين من الدهر، إذا هو من جنس الناس تماماً؛ لا يستقيم، ولا يرعوي، ولا يخشى، ولا يخاف، لذلك:

((الجماعة رحمة، والفرقة عذاب))

((ويد الله مع الجماعة))

و:

((عليكم والجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية))

وقد مرَّ بنا في درس سورة النور: كيف أن النبي عليه الصلاة والسلام يطمئن المؤمنين؟ إذا كنتم في المساجد، فالله في حوائجكم، هم في مساجدهم، والله في حوائجهم.

والحقيقة التي أحب أن أضعها بين أيديكم: هو أن الذي يشدك إلى الله عزَّ وجل، هو أن الذي يشدك إلى الدين، هو أن الذي يشدك إلى المسجد، هو أن الذي يشدك إلى مجالس العلم ، ليس الكلام، ولكن الله سبحانه وتعالى عاملك معاملةً جديدة، شرح صدرك، ويسَّر أمرك، وأطلق لسانك، هذه المعاملة الجديدة التي استحققتها بعد أن تبت إلى الله توبةً نصوحا، هذا الذي يشدك إليه .

لذلك البطولة: أن كل إنسان له ومضة؛ يفور ويهمد، ولكن البطولة في الثبات، يعني إذا كنت قد أزمعت حضور مجالس العلم، فهذا الوقت لله عزَّ وجل، الله عزَّ وجل يحب الذي يقف موقفاً واضحاً، فأنت عاهدت الله عزَّ وجل، أعاهدت إنساناً يموت؟ أعاهدت جهةً لئيمة؟ عاهدت خالق الكون على السمع والطاعة، فإذا عاهدته فكن عند عهده:

((من شغله ذكري عن مسألتي، أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

((عبدي كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد، كن لي كما أريد، ولا تعلمني بما يصلحك، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد، كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد، أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد))

إليكم هذا التعريف الجامع بهذا الحديث: المسلم أخو المسلم.........يوم القيامة :

١-المسلم أخو المسلم :

فالنبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما يقول:

((المسلم أخو المسلم))

لا تتصور أن الله عزّ وجل يحبك، وأنت على خصومةٍ مع أخيك، لا يحبك الله عزّ وجل، وأنت تؤثر نفسك على أخيك، الله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام فقال:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

[سورة الحشر الآية: ٩]

الحقيقة: في الإنسان هناك لذة اسمها: لذة الأخذ، وهناك لذةٌ اسمها: لذة العطاء، المؤمن يبقى في سعادةٍ كبيرة، ولكن هذه السعادة أو هذه اللذة بعد أن كانت في الأخذ، تصبح في العطاء، بعد أن كان يشعر بلذة إذا كسب مالاً وفيراً، الآن يشعر بلذة إذا أنفق مالاً وفيراً، بعد أن كان يشعر بلذة فيما لو انتقم، الآن يشعر بلذة فيما لو عفا، كان يشعر باللذة فيما لو أثبت شخصيته، أما الآن يشعر باللذة فيما لو أغفل شخصيته، وكان متواضعاً .

هناك تصعيدٌ واضحٌ في الميول، فـ

((المسلم أخو المسلم))

هذا الدين،

((الدين المعاملة))

النبي عليه الصلاة والسلام له تعريفاتٌ جامعةٌ مانعة للدين؛ الدين: مبتدأ، المعاملة: -خبر- . هذا تعريفٌ جامعٌ مانع .

((رأس الحكمة مخافة الله))

((رأس الدين الورع))

هذه التعريفات من قول النبي عليه الصلاة والسلام، يجب أن تأخذ منا مأخذاً كبيراً جداً ، يجب أن نهتم بها .

((المسلم أخو المسلم))

ألا تحس أن هذا المسلم أخاً لك في الله؟ ألا تحس أن هذا عبدٌ من عبيد الله؟ ألا تحس أن هذا المسلم من عيال الله، وأن أحبنا إلى الله أنفعهم لعياله؟ أنت إذا قدَّمت قطعة حلوى لطفلٍ صغير على مرأى من أبيه، ألا تشعر أن هذا العمل في الأساس موجهٌ إلى الأب؟ أكثر الناس الآن يتوددون إلى من يحبونهم، عن طريق خدمة أولادهم، ألا تحس أنك إذا قدَّمت خدمة لطفلٍ صغير على مرأى من أبيه، أنك فعلت هذا من أجل الأب فقط؟ وأنك بهذا ترقى إلى الأب؟ والخلق كلهم عيال الله، أتظن أن الله يرضى عنك، وأنت تخاصم فلاناً، وتشاحن فلاناً، وتغضب من فلان، وتكيد لفلان، وتحسد فلان، وتسيء إلى فلان، وتصلي وتصوم، أهذا هو الدين؟ لا والله .

٢- لا يظلمه :

((المسلم أخو المسلم، لا يظلمه))

أحياناً إذا بعته سلعة بثمن، يزيد عن ثمنها الحقيقي، أو إذا بعته سلعة، وأوهمته أنها من صنع كذا وكذا، وهي ليست كذلك، إذا بعته سلعة، وأوهمته أنك لن تجدها بعد اليوم، فاشترى فوق حاجته، إذا بعته سلعة، والكمية أقل مما كتب على العبوة، يعني: أي نقصٍ في الوزن، أو النوع، أو الكمية، إذا بعته سلعة، وسلَّمتها إياه في وقتٍ متأخرٍ، وقد فاته أن يبيعها، أو أن يستفيد منها، فقد ظلمته .

إذا عملت عملاً، ولم تؤده على الوجه الصحيح، فقد ظلمت صاحبه، إذا عالجت مريضاً، ولم تهتم به اهتماماً كافياً، فقد ظلمته، إذا توكلت عن وكيلً، ولم تبذل الجهد الكافي في كتابة المذكرات، وقبضت منه مبلغاً كبيراً، فقد ظلمته، أمانة الأعمال شيءٌ خطيرٌ جداً، إذا بعت قماشاً، ولم تُبْلِغ المشتري أن هذا القماش عيبه كذا وكذا، ودفع مبلغاً، وجعل منه ثوباً، وبعد أشهرٍ رأى خلله وعيبه، فقد ظلمته .

((المسلم أخو المسلم، لا يظلمه))

لا في البيع، ولا في الشراء، ولا في المجاورة .

النبي عليه الصلاة والسلام، حينما تحدث عن الجار، قال:

((ولا تستعل عليه بالبناء، فتحجب عنه الريح إلا بإذنه))

أحياناً: إذا سمحت لأولادك أن يأكلوا ما لذ وطاب على مرأى من أولاد جارك، فقد ظلمته، إذا أرسلت زوجتك إلى بيت أخيك المؤمن الفقير، وقد تزيّنت بالحلي الثمينة، وتباهت بها أمام زوجة أخيك، شعرت بالحرمان، شعرت أن زوجها فقير، فقد ظلمته، وأنت لا تشعر، هذا ظلم، يعني إذا أفسدت علاقة بين اثنين، بين أخوين، بين صديقين، بين شريكين، إذا أفسدت العلاقة بين التلميذ وأستاذه، فقد ظلمت أحدهما.

٣-ولا يسلمه :

((المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يسلمه))

لا يتخلى عنه، أنت في مركز قوي، وأخوك وقع في مشكلة، وبإمكانك أن تنقذه منها، تخليت عنه، أنت مسلم؟ لا والله، أخوك المسلم واقع في مشكلة، وأنت في مركز قوي، وبإمكانك أن تنقذه، وبإمكانك أن تصرفها عنه، وبإمكانك أن تنجِّيه منها، وتقول: أنا ما لي علاقة، وتنصرف إلى بيتك، وأنت مسلم؟ لا والله، ولو صليت، وصمت، وزعمت أنك مسلم، فقد ظلمته .

((المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه))

لا يسلمه، يدافع عنه، يرعى شؤونه، إذا جعل الله عزَّ وجل للواحد شأنًا، جعل له مكانة، هناك أشخاص يحبونه من أولي الحول والطول، وأخٌ لك عندهم، يجب أن تدافع عنه، يجب أن ترعاه، هذا من واجبات المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه .

وقد سمعت أن موظف تموين، دخل محلا فيه مخالفات، قال له: كذلك فلان مخالف، وفلان مخالف، وفلان مخالف، أنت مسلم؟ أنت خالفك هذا الموظف، لا بد أن تفضح الخمسة الذين هم حولك، وأنت مسلم؟ معنى هذا أنت أسلمته، هو جاء عندك فقط، فقال له: سأخالفك أنت وحدك، هكذا قال له .

٤-ومن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته :

((لا يظلمه، ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه))

إذا أحب الله عبداً، جعل حوائج الناس إليه، هذا الذي يطرق بابه ليلاً نهاراً، هذا مكرمٌ عند الله عزَّ وجل، إياك أن تتأفف، هذه النِعَم يقرك الله عليها ما بذلتها، فإذا بخلت بها سلبها منك .

يعني قصص كثيرة جداً بهذا المعنى، ما دام الله أكرمك بالجاه، بالقوة، بالمال، بالعلم، بالمكانة، بالخبرة ابذلها، العلم ابذله، والخبرة ابذلها، والمال ابذله، والجاه ابذله، حتى الله عزَّ وجل يزيدك قوةً، وعزاً، وغنىً، ومالاً، وشأناً، وخبرةً، فإذا بخلت بها، سلبها منك، وحوَّلها إلى غيرك .

((من كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته))

تصوروا المسلمون لو أنهم تمثلوا هذا الحديث، ما كان يحس أحدهم، أنه أخٌ للآخرين، ما ظلموا بعضهم بعضاً، ما أسلموا بعضهم بعضاً، كان بعضهم في حاجة بعض، أتظنون أن حالهم تكون كما هي عليه الآن؟ لا والله، وألف لا والله .

٥-ومن فرج عن مسلم......ستره الله يوم القيامة:

((ومن فرج عن مسلمٍ كربة، فرج الله عنه بها كربةً من كرب يوم القيامة))

فهذا المفرح للناس، دخل على أخيه فرآه كئيباً، ما مشكلتك؟ كذا وكذا، حللتها له، جعلته يضحك بعد أن كان عابس الوجه، كان مكتئباً فجعلته مسروراً، كان متشائماً فجعلته متفائلاً، كاد يضيق ذرعاً بهذه المشكلة، فجعلت ملامح وجهه تنبسط، فهؤلاء الذين يفرحون الناس، يقضون حوائجهم، يحلون مشكلاتهم، يفكون عُقَدهم، هؤلاء مؤمنون ورب الكعبة .

((ومن فرج عن مسلمٍ كربة، فرج الله عنه بها كربةً من كرب يوم القيامة))

هذه حقوق المسلم، والمسلم يفعل هكذا .

((الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يُسْلِمُهُ، وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ، كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً، فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

لا أحد يعرف لذة الستر، ما إن تتناهى قصة إلى أذنيك، حتى تقولها للإنس والجن، تجد قضية بين اثنين، بعد ساعتين أصبحت في البلدة كلها، أين الستر؟ حتى لو أن إنساناً تشاجر مع زوجته، الجيران في مشاجرة في البيت، اسمعوا، يصير في استماع وتنصت .

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه))

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

هذه الأخلاق المحمدية، وتراه يصغي للحديث بسمعه وبقلبه، ولعله أدرى به، النبي الكريم، علمنا أن أحداً، قال لك كلمات، فسمع وقع خطواتٍ وراء ظهره، فسكت، أو التفت، فهذا الحديث أمانة، لمجرد أن يسكت، إذا شعر أن أحداً يستمع إليه، فهذا الحديث أمانة، يجب أن يبقى أمانةً بينك وبينه، لذة أن تستر الناس .

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ:

((نَادَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَسْمَعَ الْعَوَاتِقَ فقال: يَا مَعْشَرَ، مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلْ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ يَتَّبِعْ عَوْرَةَ أَخِيهِ، يَتَّبِعْ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ))

((وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

هذا الحديث متفقٌ عليه، يعني اتفق البخاري ومسلم على صحته، وأعلى حديثٍ شريف، ما اتفق عليه الشيخان: البخاري ومسلم، وفي الدرجة الثانية ما أورده البخاري على شرطه، وفي الدرجة الثالثة ما أورده البخاري على شرط مسلم، وفي الدرجة الرابعة ما أورده مسلم على شرطه، فإذا قلنا: متفقٌ عليه، فهو من أعلى الأحاديث الشريف صحة .

إليكم شرح مفردات هذا الحديث: لا تحاسدوا.........وعرضه :

١-ما معنى: لا تحاسدوا كما جاءت في نص الحديث :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا، -وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ، أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ))

[أخرجهما البخاري مسلم عن أبي هريرة في صحيحهما]

الإسلام بذل، الإسلام تضحية، وليس الإسلام صلاةً، وصياماً، وحجاً، وزكاةً، وليس غير، وما تخلف المسلمون عن ركب الأمم، وما أصبحت كلمتهم ليست هي العليا، إلا حينما فهموا الإسلام ركعاتٍ جوفاء تؤدى، وتركاً للطعام والشراب في رمضان، وذهاباً إلى بيت الله الحرام، ودفعاً لجزءٍ من الأموال ليس غير .

يقول عليه الصلاة والسلام: (لا تحاسدوا): من هو الحاسد؟ الحاسد جاهل، واسألوا الله من فضله:

قل لي مـن بات لي حاسداً أتدري علـى من أسأت الأدب؟

أسأت علـى الله في فعله إذ لـم ترض لي ما وهـب

يعني وهذه علامة طيبة، من علامة إيمانك أنك تفرح لأخيك إذا آتاه الله شيئاً من الدنيا، أخوك اشترى بيت، الله يهنئه، المؤمن الصادق يشعر بلذة وارتياح، حينما تحل مشكلة أخيه، لا تقل هذه

اللذة فيما لو كان هذا البيت له، أخوك تعين بوظيفة جيدة، الحمد لله، قوةٌ لك ، أخوك تزوج قبلك، فلا تمتلئ حسدًا، جاء النصيب، آن الأوان، الله يبعث لي مثله، وأحسن، واسألوا الله من فضله، يعني:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ)

[سورة النساء الآية: ٣٢]

لا تتمن، بيت فلان أوسع، الله يهنئه فيه، أنا هكذا يناسبني، أروع كلمة قالها الإمام الغزالي:

((ليس في الإمكان أبدع مما كان))

هناك أناس فهموها فهماً مغلوطاً، فأوقعوا الحضرة الإلهية بالعجز، الإمام الغزالي يقصد:

((أنه ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني))

تناسبني هذه الزوجة على علاّتها، وهذا البيت على علاته، وهؤلاء الأولاد، هكذا ترتيب الله عزَّ وجل، في أولاد أذكى من أولادي، وفي أولاد أرقى من أولادك، هكذا الله عزَّ وجل خصك بهؤلاء الأولاد، ألا ترضى بحكم الله عزَّ وجل؟ لماذا قال الله عزَّ وجل:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

[سورة الطور الآية: ٤٨]

اصبر، لو كان حكم الله واضحاً، لا تحتاج لصبر، لكن:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)

[سورة الطور الآية: ٤٨]

شاء لك أن تكون ذريتك من البنات فقط، الحمد لله رب العالمين، هذا ترتيب ربنا عزَّ وجل، لماذا المؤمن عنده صحة نفسية؟ صحته النفسية سببها: أنه في استسلام لله عزَّ وجل، لكن الاستسلام متى؟ بعد بذل الطاقة، وبذل الجهد، ما بيده، أول بنت، ثالث بنت، رابع بنت، الخامسة، السادسة، السابعة، الحمد لله، قالت:

(قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى)

[سورة آل عمران الآية: ٣٦]

ربنا قال:

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ)

[سورة آل عمران الآية: ٣٦]

فجاء من هذه البنت، السيد المسيح عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، قال تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ)

[سورة البقرة الآية: ٢١٦]

والله هذه الآية وحدها تكفي، رب العالمين خالق الكون، يقول لك:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة الآية: ٢١٦]

ألا تفوض له؟ قال لك: اتركها لي، قال تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً)

[سورة البقرة الآية: ٢١٦]

المصائب تكرهها، قال تعالى:

(وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً)

[سورة البقرة الآية: ٢١٦]

المال والصحة، وقد يكون هذا فيما لو أنفق في معصية الله، فيما لو أورث صاحبه عجباً، وخُيلاءً، وغروراً، واستعلى به على الناس، لكان هذا شر .

لذلك المؤمن مستسلم، وأساساً أحد أسباب الصحة النفسية: هذا الاستسلام لله عزَّ وجل، الله اختارني بهذا الشكل، وبهذا اللون، واختار لي هذه الزوجة، وهذا البيت، وهؤلاء الأولاد، وجعلني موظف، الآن رفعوا الرواتب مثلاً، وجعلني تاجرًا، وجعل عملي خارج بلدي، هكذا ترتيب الله عزَّ وجل، هذا اختيار الله لك، ألا ترضى به؟ أنت عليك أن تكون عبداً لله، أجمل آية:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر الآية: ٦٦]

حيث لا يكون تقصير من قِبَلك، أنت تعرف تمام المعرفة، ما الذي يرضي الله؟ وما الذي يغضبه؟ افعل ما يرضيه، ودع ما يغضبه، وانتهى الأمر، أنا الذي عليّ فعلته، قال تعالى:

(أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)

[سورة الواقعة الآية: ٦٣-٦٤]

أنت عليك أن تلقي هذه الحبة، وعلى الله الباقي، فهذا الحسد سببه الجهل، لا يحسد إلا جاهل، وكأن الحسود يشك في حكمة الله عزَّ وجل، وكأن الحسود يشك في عدالة الله عزَّ وجل ، وكأن الحسود يرى أن الأمور تجري جزافاً .

وفي كلمات عامية هذه خطيرة جداً، هذه تعد انحراف بالعقيدة كقولهم: أخي الله عزَّ وجل يطعم الحلاوة لمن لا ضرس له، يعني هو ليس حكيمًا، أنت الحكيم فقط؟ فالإنسان يستسلم، الحسد أحد أسبابه: الجهل، أحد أسبابه: ضيق الأفق، أحد أسبابه: عدم التيقُّن من حكمة الله عزَّ وجل، عدم التيقن من عدالته، ومَن قال لك: إن الدنيا هي كل شيء؟ الحظوظ في الدنيا توزع توزيع ابتلاء، وسوف توزع في الآخرة توزيع جزاء، مَن قال لك: أن الدنيا هي كل شيء؟ .

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

[أخرجه الترمذي وابن ماجه في سننهما]

عَنِ الْمُسْتَوْرِدِ بْنِ شَدَّادٍ قَالَ:

((إِنِّي لَفِي الرَّكْبِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ أَتَى عَلَى سَخْلَةٍ مَنْبُوذَةٍ قَالَ: فَقَالَ: أَتُرَوْنَ هَذِهِ هَانَتْ عَلَى أَهْلِهَا؟ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مِنْ هَوَانِهَا أَلْقَوْهَا -أَوْ كَمَا قَالَ- قَالَ: فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى أَهْلِهَا))

٢-معنى التناجش :

فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا): التناجش: يعني بيع تمثيلي، عرضت السلعة على شخص فقلت له: هذه ثمنها مئة، فقلت له: أكثر سعرها ثمانون، مر واحد فغمزته، عندك منها؟ نعم، كم ثمنها؟ مئة، هذا هو ثمنها، الثاني مضطر لها، أنا آخذها، مكنت البيع، وبعد أن غمزته، دفع لك الثمن بأكمله، هذا بيع النجش، بيع تمثيلي، في شخص قام مثل دور المشتري، ودفع السعر المرتفع، والعملية كلها غير صحيحة، هذا التناجش .

التناجش فيه احتيال، فيه مكر، فيه خداع، وليس المكر والخداع والاحتيال من صفات المؤمن، المؤمن ما في قلبه على لسانه، والذي ينطق به في قلبه، وداخله كخارجه، وباطنه كظاهره، وسريرته كعلانيته، ليس عنده الازدواجية، هذا بيع تمثيلي، مكنا البيعة بهذه الطريقة.

٣-معنى التباغض:

فالنبي عليه الصلاة والسلام قال: (ولا تناجشوا، ولا تباغضوا): هذا البغض من الشيطان، إذا الإنسان رأى أن أخاه عنده عيب، فأنت عندك مئة عيب، يكون الإنسان منطقيًا، مثلاً بزوجته: لو تكوني على أطول، أنت كذلك عندك خمسون علة، هذه الكلمة من الشيطان، تسبب النفور بين الزوجين دائماً، هذا التباغض .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا ... -تَعْنِي قَصِيرَةً- فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً، لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ، قَالَتْ: وَحَكَيْتُ لَهُ إِنْسَانًا فَقَالَ: مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيْتُ إِنْسَانًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا))

إذا كانت كلمة قصيرة فقط، تفسد مياه البحر، ومياه البحر لا يفسد، فالمدن الساحلية الكبرى، المياه المالحة تسير فيها قرابة ثمانية كيلو مترات، ومع ذلك مياه البحر طاهرة، أما كلمة: قصيرة، فتفسد مياه البحر، فـ: (لا تباغضوا) .

وأهم شيء بين الزوجين، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا، رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ -أَوْ قَالَ غَيْرَهُ-))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة في الصحيح]

أحياناً شريكان لهم طباع معينة، عرفوا بعضهم وانتهى الأمر، هذا حاد وهذا هادئ، هذا غضوب، هذا مهمل، لكنه أمين، ومحب، وفيه مودة، فلما الإنسان يعرف أخلاق زوجته، يتعايش معها، لأنه ليس كل زواج مبني على الحب الصاعق، في زواج مبني على المصلحة، في زواج مبني على تقوى الله عزَّ وجل، مبني على تأدية رسالة، مبني على تربية أولاد، في أهداف كبرى جداً في الزواج أقلها: أن يكون مبنياً على الحب، لأن هذا الشيء زائل .

فهذا الذي تزوج امرأةً، ولم تعجبه، وشعرت أنه أعرض عنها، قالت له كلمة -اسمه عامر- قالت له:

((يا عامر، قد يكون الخير كامناً في الشر-أي إذا رأيتني شراً، فقد يكون الخير في، هذا ما تحمل- ترك المدينة، وهام على وجهه عشرين عاماً، عاد إلى المدينة، ودخل مسجدها، فإذا عالمٌ شاب، حوله آلافٌ مؤلَّفة، سأل عنه، فقالوا: هو مالك بن أنس، وهذا اسمه: أنس بن عامر والده، فهذا العالم ما عرف أن هذا أباه، فلما التقى به: يا فلان، قل لأمك: إن بالباب رجلاً، يقول لك: قد يكون الخير كامناً في الشر، فلما سمعت مقالة ابنها، قالت: يا بني، هذا أبوك دعه))

لا تعرف هذه التي ما أعجبتك، قد يكون منها خير كبير، تكون مصلية، صائمة، صالحة، وهذه التي أعجبتك، تكون طريقًا إلى جهنم، وأنت لا تعرف، قال تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة الآية: ٢١٦]

((إياكم وخضراء الدمن، قالوا: وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في المنبت السوء))

فالإنسان لا يبغض، والحقيقة كلمة قاسية، وكلمة قاسية حدث بها بغض، فأنت ابدأ بالكلمة الطيبة، لأن الكلمة الطيبة صدقة، الأنس، الاعتذار، السلام، التغاضي عن العيوب، هذه من صفات المؤمن .

٤-معنى التدابر:

(لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا): التدابر هو التقاطع، الآن لا تجد أسرة ما فيها خصومات، أخوان لا يكلم أحدهما الآخر، جاران متصارمان، قريبان متقاطعان، أخت لا تتكلم مع لأختها، الأم لا تزور ابنتها، الأب معاد لأخوته، فهذه مشكلة، هذا ليس من الدين في شيء،

((ولا تدابروا))

طبعاً: الإنسان ليس بحاجة لهذا الذي تدابر معه، لكن لك عنده حاجة دينية، لكن لو ذهبت إليه، وسلمت عليه، فاستحيا منك، حلت المودة محل التباغض، ومحل التدابر .

٥-معنى لا يبع بعضكم على بيع بعض...... أخوانا:

(ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض): بكم باعها لك؟ أنا عندي أرخص، الله يصلحك، كنت مر عندي، أفسدت له البيعة، فذهب وأرجعها، هؤلاء مسلمون؟! باع وانتهى الأمر .

(ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا): كن أخاً لأخيك، كن أخاً له بكل معاني الكلمة .

٦- معنى المسلم أخو المسلم.......التقوى ها هنا:

(المسلم أخو المسلم لا يظلمه -هذه رواية أخرى، الآن- ولا يحقره): ومن أدراك أن هذا الأخ الذي أمامك، قد يكون أفضل منك عند الله؟ ومن أدراك أن هذا الأخ له نوايا طيبة أعلى من نواياك؟ له إخلاصٌ أشد من إخلاصك؟ ومن أدراك أن له عند الله درجة لم تبلغها أنت، ولا بعشرات السنين؟ مَن أدراك؟ كيف حكمت عليه أنك فوقه؟ كيف احتقرته؟ .

(المسلم أخو المسلم لا يظلمه): لكن الإنسان الحقيقة، متى يحتقر أخاه المسلم؟ إذا كانت مقاييسه مادية، دخل فوجد بيته غرفتان، كيف تسكن في هذا البيت؟ كيف يسعك هذا البيت؟ إن هذا البيت لا يُسكن، ما عنده غيره هذا البيت، هذه إمكانياته، احتقرته لبيته، احتقرته لأن دخله قليل، معنى هذا: أن مقياسك مادي، معنى هذا: أنك لست مسلم .

سيدنا بلال رضي الله عنه، سيدنا الصديق، عندما اشتراه من أمية بن خلف، أراد أمية بن خلف يحقره،

فقال له:

((والله لو دفعت به درهماً واحداً لبعتكه -أنا أبعه بدرهم، فليس له قيمة عندي- فقال له سيدنا الصديق: والله لو طلبت به مئة ألف درهم لدفعتها لك، فلما أخذه وضع يده تحت إبطه -هذه أعلى درجة بالأخوة- وقال: هذا أخي))

أصحاب النبي القرشيون الهاشميون، كانوا إذا ذكروا بلالاً، قالوا:

((سيدُنا -على سيدنا الصديق- وأعتق سيدَنا))

وكان سيدنا عمر رضي الله عنه، يخرج إلى ظاهر المدينة، لاستقبال سيدنا بلال .

سيدنا عمر أمير المؤمنين، هذا الإسلام، الإسلام عظيم، الإسلام كلنا سواسية، لا تفاضل إلا بالتقوى، لا تفاضل إلا بالعمل الصالح، لا تفاضل إلا بالعلم، العلم، والتقوى، والعمل الصالح، صدق القائل:

لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

(لا يظلمه، ولا يحقره): إياك أن تحتقر أخاك المسلم، لأنه أقل وسامة منك، أو لأنه أقل دخلاً منك، أو لأن بيته أصغر من بيتك، أو لأن وضعه لا يعجبك، هذا الذي لا يعجبك، قد يفوقك .

(ولا يحقره): وفي عندنا احتقار داخلي، ليس شرطًا أن يكون الاحتقار خارجيًّا، قد يكون إنسانًا ذكيًّا ولبقًا، لكنه إذا كان من الداخل، أعرض عنه وازور، فهو لا يعرف الله عزَّ وجل.

الحقيقة: هناك غيبةٌ بالقلب، وهناك احتقارٌ بالداخل، لا ينبغي أن تحقر أخاك المسلم، قد يكون أرقى عند الله منك .

(ولا يحقره، ولا يخذله، التقوى ها هنا -ويشير إلى صدره ثلاث مرات- إنما التقوى هاهنا): يعني التقوى فيما وقر في القلب، وفيما وقر في الصدر، وليس في الشكل .

٧-بحسب امرئ من الشر......... وعرضه :

(بحسب امرئٍ من الشر -يعني يكفيه من الشر- أن يحقر أخاه المسلم): لذلك هذا الكلام موجه للرجال مرة، وللنساء ألف مرة، أحياناً امرأة تزور امرأة أخرى: ماذا قدم لك على الولادة؟ ما قدم لك شيئًا، يا خسارتك فيه، يأتي الزوج في المساء، فيجد زوجته في وضع متغير، هذا من الفساد .

(بحسب امرئٍ من الشر، أن يحقر أخاه المسلم): أنا الذي أراه من المؤمن، يسعى في التوفيق، إذا كان جالس بين شريكين، ينمي المحبة بينهما، وإذا دخل على أخته المتزوجة، ينمي محبتها بزوجها، يثني على زوجها كثير: والله عندك زوج لا يوجد مثله، الله يهنئكِ فيه، شهم، صاحب مروءة، هناك أشخاص بالعكس، كل نقطة ضعف في الزوج يكبرها، هذا شيطان، هي تكون موفقة معه، مسرورة منه، راضية بعيشتها، أخوها يقول لها: لماذا فعل هكذا معك؟ لماذا ما أخذكِ للنزهة؟ لماذا عمل معك هذا؟ صارا في تباعد، فهناك كلمة يهوي بها الإنسان في جهنم سبعين خريفاً، وهو لا يدري .

قال له:

((وهل نؤاخذ بما نقول؟ أَلاَ أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ، إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟))

تسعة أعشار المعصية، من أخطاء اللسان، وأخطاء الفرج .

((المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يحقره، ولا يخذله، التقوى هاهنا -ويشير إلى صدره ثلاث مرات- بحسب امرئٍ من الشر، أن يحقر أخاه المسلم))

(كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه): عرضه، دخل رجل بيتًا، فيجب أن يبالغ في غض البصر، زوجة أخيك، هذه عرضك، عرض أخيك، ومال أخيك مالك، فيجب أن تحافظ عليه، حفاظك على مالك، فالدم، والعرض، والمال .

الدم، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً)

[سورة النساء الآية: ٩٢]

مستحيل، فإذا وقع هذا، فليس أحدهما بمؤمن، مستحيل.

((كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

في درس قادم إن شاء الله :

أيها الأخوة الأكارم، بعد أن قصصنا عليكم في سنوات، قصص الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وبعد أن قصصنا أيضاً، قصص التابعين رضوان الله عليهم أيضاً، ثم خلفاء الرسول عليهم رضوان الله، أزمعت وأنا متوكلٌ على الله عزَّ وجل، أن نبدأ في الدرس القادم سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، لعل الله عزَّ وجل ينفعنا بها، لأن سيرة النبي شيءٌ خاص، قضية تشريع، موقفه قدوة، سكوته قدوة، تكلمه قدوة، زواجه مثالي، علاقاته مع الناس كلها مثالية، فإن شاء الله في الدرس القادمة، نبدأ فصولاً من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، كما هو العهد من درس الأحد، أن يكون جانبٌ منه في الحديث الشريف، وجانب آخر في الفقه، وجانب ثالث في السيرة النبوية المطهرة، نرجو الله سبحانه وتعالى أن ننتفع وإياكم بها، إنه على ما نقول شهيد .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٣١-١٠١) : باب قضاء حوائج المسلمين- حديث، من نفس عن مؤمن كربة........، أهمية دراسة السيرة النبوية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٩-٠٥-٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

أسئلة لا بد منها :

أيها الأخوة المؤمنون، في باب: قضاء حوائج المسلمين، من كتاب رياض الصالحين، يقول الله سبحانه وتعالى في الآية السابعة والسبعين من سورة الحج:

(وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة الحج الآية: ٧٧]

الله سبحانه وتعالى في هذه الآية، ربط الفلاح بفعل الخير، أليس هناك في القرآن الكريم آيات تحض على الاستقامة؟ بلى، وهناك آياتٌ تحضُّ على فعل الخير، فما العلاقة بين الاستقامة وفعل الخير؟ أو ما العلاقة بين الاستقامة وبين العمل الصالح؟ وأيهما مقدم على الآخر؟ وأيهما أخطر في حياة المؤمن؟ بل ما العلاقة فيما بينهما إذا كانا متكاملين؟ .

أيها الأخوة الأكارم، قضية دقيقة جداً: إذا كان الطريق إلى الله، مليئاً بالعقبات التي تحول بين العبد، والوصول إلى الله، كل معصيةٍ يعصيها الإنسان، عقبة كؤود فيما بينه وبين الله،

((المعاصي -كما قال عليه الصلاة السلام- بريد الكفر))

المعصية عقبة كؤود، المعصية حجاب بينك وبين الله، المعصية صخرة كبيرة تسد الطريق عليك، هذه المعصية، وكلما كبرت كلما زاد الحجاب، وإذا استقمت على أمر الله، وقد أمرك الله سبحانه وتعالى بالاستقامة، ماذا فعلت؟ إذا كانت كل معصية، ومخالفة، وانحراف، وتجاوز، وتعدٍّ عقبة في طريقك إلى الله، فالاستقامة تعني: إزالة هذه العقبات من طريق الإيمان، طريق إلى الله .

نقطة مهمة جداً: هذه المعصية حجاب، وهذه حجاب، وهذه حجاب، الطريق إلى الله مسدود، إذاً: ما تفعله من شعائر إسلامية، ليس إلا حركات وسكنات وقراءات، لا تقدم ولا تؤخر، ولا بد من أن تُمَل، ما دام هناك معاص، ما دام هناك مخالفات، ما دام هناك عدوان، إذاً: ما يفعله المخالف والمقصِّر من عبادات، ما هو إلا حركات وسكنات وقراءات ليس غير، فإذا ترك هذه المعصية فقد أزاح عقبة، أو هتك حجاباً، إذا ترك هذه المعصية، أزاح عقبة وترك حجاباً، هناك معاص متعلّقة في علاقتك بالنساء، فأنت بمجرد أن تغض بصرك عن محارم الله، أزلت من طريقك إلى الله عقبة

كبيرة، فإذا حررت دخلك من الحرام، أزلت أيضاً من طريقك إلى الله عقبة كبيرة، وكلما تركت معصية، وكلما تركت مخالفةً، وكلما تجاوزت عدواناً، فقد أزلت عقبةً من طريقك إلى الله عز وجل.

فلو فرضنا أن المؤمن استطاع أن يستقيم على أمر الله استقامة تامة، ماذا فعل؟ أزال كل العقبات التي كانت في طريقه إلى الله، إذا أزال كل العقبات من طريقه إلى الله، وبقي مكانه، من دون أن يتحرك إلى الله، ماذا فعل؟ لو أن لك بحمص حاجةً خطيرة، وكان على الطريق عقباتٌ كثيرة، فلو أزلتها، وبقيت في الشام، لم تفعل شيئاً، فلذلك الاستقامة والعمل الصالح شيئان متكاملان، الاستقامة تمهيدٌ للعمل الصالح، والعمل الصالح لا يكون إلا بالاستقامة، فالاستقامة أولاً، والعمل الصالح ثانياً، إذاً: الاستقامة والعمل الصالح متكاملان .

أنت إذا استقمت على أمر الله، كأن الله سبحانه وتعالى يعاتبك يوم القيامة، يقول لك: أما غضك للبصر، فقد تعجلت فيه الراحة لقلبك، وأما تركك الحرام، فقد كنت في حرز حريز ، حصَّنت مالك من التلف، وأما صدقك بين الناس، فقد رفعت من شأنك، وأما عفَّتك، فقد كانت كذا كَذا، وكأن الله سبحانه وتعالى يقول: ولكن ماذا فعلت من أجلي؟ هذه كلها فعلتها من أجلك ، كل ألوان الاستقامة، والانضباط؛ ضبط العين، والأذن، واللسان، واليد، وقبض المال وإنفاقه ، والعلاقة بالنساء، كل هذه الألوان من ألوان الاستقامة، إنما هي تعود عليك بالمنفعة في الدنيا قبل الآخرة، ولكن ماذا فعلت من أجلي؟ ما الذي قدمته من أجلي؟ من الذي وصلته من أجلي؟ من الذي قطعته من أجلي؟ متى غضبت من أجلي؟ متى رضيت من أجلي؟ ماذا فعلت من أجلي؟ .

فلذلك الآن جاء دور العمل الصالح، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة الحج الآية: ٧٧]

أي لا تفلحون إلا إذا فعلتم الخير، ولا يصح فعل الخير إلا إذا سبقته استقامة، فعل الخير يصح إذا سبقته الاستقامة، أما استقامة من دون فعل الخير، لا يحقق الفلاح كما ينبغي، لا يحقق النجاح كما ينبغي.

فالباب اليوم: باب فعل الخير، وقضاء حوائج المسلمين، في كتاب رياض الصالحين، وأتمنى عليكم أن يكون هذا الكتاب في مكتبتكم، وهل من كتابٍ أثمن من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ .
والشيء الذي أحب أن أنوه إليه: أن كتاب رياض الصالحين مقسَّم وفق أبواب دقيقة جداً، وتدور مع حاجات الناس في عباداتهم، ومعاملاتهم، وأخلاقهم، وأن هذا الكتاب إذا كان عندك في البيت، فإذا عدت في البيت بعد الدرس تفتحه، فتراجع فيه الحديث الذي تم شرحه، إنك كلما فتحته، تذكرت

دروس يوم الأحد كلها، ألا تحب أن يكون لك زاد، زاد من حديث رسول الله؟ حديث سمعت خلال نصف ساعة تفسيره، وجدته في الكتاب، فوجود الكتاب في بيتك، نوع من أنواع استذكار العلم .

إذا ذهبت إلى نزهة، أو دعيت إلى سهرة، أو أقمت حفلة، وأردت أن تكون هذه الحفلة فيها إرضاءٌ لله عز وجل، معك الكتاب، افتح الكتاب، وذكر أخوانك ومن حولك بما سمعته من تفسير لبعض الأحاديث الشريفة، لأن نقل العلم شيء مقدس، فتلقي العلم شيء، وإلقاؤه شيء آخر .

أصغ السمع لشرح الحديث :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ، مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[أخرجه مسلم عن أبي هريرة في الصحيح]

١-من نفس عن مؤمن........كرب يوم القيامة :

(مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ): وما أكثر كرب الدنيا؛ هموم، أشياء مقلقة، ديون، أعباء، مرض، يحتاج إلى نفقة، زوجة، زواج، دَيْن، الدَيْن هم، ومشروع الزواج هم، وأن يقع الإنسان في ورطةٍ، هذا هم كبير، وأن يخاف جهةً، هذا هم أكبر، وأن يفقد الأمن والطمأنينة، هذا همٌ أكبر، فإذا كنت تحب الله ورسوله، فأنت مصدر أمن وطمأنينة، أنت مصدر سلام وعافية، أنت تبثُّ الأمن في كلامك، وفي أعمالك .

(من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا): استمعوا، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، استمعوا ماذا يقول عليه الصلاة والسلام: (مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ): وما أشد كرب يوم القيامة، فكل إنسان بحكم إمكانياته، بحكم مكانته الاجتماعية، بحكم شأنه، بحكم حجمه المالي، يستطيع يخفف عن الناس آلامهم، يستطيع يكون مصدر خير، مصدر سلام، مصدر طمأنينة، فأنت إما أن تكون مصدر شر -لا سمح الله-، وإما أن تكون مصدر خير، فالله سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي:

((الخير بيدي، والشر بيدي، فطوبى لمن قدرت على يديه الخير، والويل لمن قدرت على يده الشر))

((وإذا أردت أن تعرف مقامك، فانظر فيما استعملك))

لذلك: يا أخي الكريم سؤال دقيق، اسأل نفسك كل يوم: أنا ماذا فعلت هذا اليوم؟ كل يوم ينشق فجره، يخاطب ابن آدم يقول:

((يا بن آدم، أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزود مني، فإني لا أعود إلى يوم القيامة))

هذا اليوم كيف مضى؟ هل دعوت فيه إلى الله؟ هل أمرت بالمعروف؟ هل نهيت عن المنكر؟ هل بثثت الطمأنينة في نفس إنسان؟ هل نفست عن مؤمن كربة؟ من أكرم أخاه المؤمن، فكأنما أكرم ربه.

أحياناً: أخوك المؤمن في قضية تقلقه، تخيفه، جئت أنت، واستخدمتك نفوذك ووجاهتك في بث الطمأنينة له، أو في إزالة هذه الكربة، لذلك اجعل شعارك كل يوم:

((إذا أردت أن تعرف مقامك، فانظر فيما استعملك))

بماذا استعملك الله عز وجل؟ وما أكثر الأبواب المفتحة بالعمل الصالح، فـ

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

هذا الحديث يجعل العلاقات الاجتماعية بين المؤمنين متماسكة جداً، فكل مؤمن انطلاقاً من تطبيق السنة، يسعى إلى تفريج الهم عن أخيه المؤمن، لو أن لك على أخيك المؤمن ديناً، وكان هذا الأخ المؤمن معسراً، وهو مهتم، ومغتم، ومنقبض، فعلمت أنه معسر، فقلت: يا أخي لك شهر آخر، حتى يفرج الله عنك هذا العسر، أنت بهذا فرجت عنه كربة من كرب الدنيا، أخوك له مشكلة تحل مالياً، وتملك أنت هذا المبلغ، وهذا أخوك في الله، فإذا دفعت له هذا المبلغ، فقد نفست عنه كربة من كرب الدنيا، لذلك ربنا عز وجل يعدك أن ينفس عنك كربة من كرب يوم القيامة، هذا الحديث يجب أن يكون في ذهن كل مؤمن، وأن يبقى ماثلاً أمام كل مؤمن .

٢-ومن يسر........والآخرة :

(وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ): الإنسان أحياناً يواجه عقبات، يقول لك: الأمر معسر أمامي، أضربها شرقًا، تأتي غربًا .

أغرِّب خلف الرزق وهو مشرِّقٌ وأقســم لو شرقت راح يغرِّب

هكذا قال بعض الشعراء، فهذا معسر، فإذا أنت نفست عنه هذا الإعسار، أزلت عنه هذا الإعسار، ماذا فعلت؟ أكرمت أخاك المؤمن .

فلذلك مرة ثانية أقول لكم: حجمك عند الله، بحجم عملك الصالح، الفقير من كان فقيراً من العمل الصالح، والغني من أجرى الله على يديه الخير، ومن لم يكن في زيادة، فهو في نقصان، وكما قال عليه الصلاة والسلام:

((لا بورك لي في يوم، لم أزدد فيه من الله قرباً))

عن الطريق العمل الصالح .

و:

((لا بورك لي في يوم، لم أزدد فيه من الله علماً))

إذاً: طلب العلم والعمل الصالح، لذلك وردت كلمة: الذين آمنوا وعملوا الصالحات أكثر من ألف مرة في كتاب الله، آمنوا وعملوا الصالحات، آمنوا الناحية النظرية، عملوا الصالحات الناحية العملية، والإيمان والعمل الصالح جناحان متكاملان، لا تطير إلى الله إلا بهما، فلو اكتفيت بالعلم لم تفلح، ولو عملت من دون علم لا تفلح، العلم بلا عمل كالشجر بلا ثمر، والعمل بلا علم ذنوب،

((وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ))

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((غفر الله لرجل ...))

فإذا مر معكم بالحديث الشريف كلمة: (غفر الله لرجل)، لا تظنوها كلمة: الله يرحمه، هذه الكلمات لكثرة استعمالها، فقدت مدلولها، هل تدري ماذا تعني كلمة: غفر الله، أو رحم الله عبداً؟ رحم الله عبداً، أي تجلى على قلبه، وإذا تجلى الله على قلبك، نسيت الدنيا وما فيها، فأنت تأكل، وتشرب، وتستمتع، وتذهب، وتتنزه، وتنام على فراش وثير، وتقيم في غرفة مكيفة ، وتركب مركبة وثيرة، وتنظر إلى مناظر جميلة، هذه كلها متع الحياة الدنيا، ولكن ينبغي ألا يغيب أن الله سبحانه وتعالى، فلو تجلى على قلبك، لذقت سعادةً لا توصف، ولهانت عليك الدنيا وما فيها، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((غفر الله لرجل، كان سهلاً إذا باع، سهلاً إذا اشترى، سهلاً إذا قضى، سهلاً إذا اقتضى))

هذا اليسر في التعامل دليل الإيمان، دليل العطف الذي أودعه الله في قلبك تجاه المسلمين، تدخل امرأة فقيرة جداً إلى صيدلي، تطلب دواء، مبلغها أقل من ثمن الدواء، ويشعر أنها ليست محتالة، بريئة، هناك من يطردها، هناك من يقول: أتقرب إلى الله بخدمة هذه المرأة العجوز، ليس كل الربح مادياً، وليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، كما قال السيد المسيح:

((ليس كل الربح مالاً))

هناك ربح، لأن تربح أخاً في الله، أفضل من أن تربح الدنيا وما فيها .

فعود على بدء: فأحياناً يرى الإنسان الأمور مسدودة أمامه، هل تحبون أن تكتشفوا الحل العجيب لتعسير الأمور؟ حل التعسير: العمل الصالح، إذا ضاقت عليك مذاهب الحياة، إذا ضاقت عليك السُبُل، إذا ظننت أن الله لن ينصرك في الدنيا ولا في الآخرة، قال تعالى:

(مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ)

[سورة الحج الآية: ١٥]

أي ليعمل عملاً صالحاً كما قال بعضهم، هذا العمل الصالح هو الذي يجعل العسر يسراً، والضيق فرجاً، والانقباض انشراحاً، والتلكؤ انطلاقاً، فمن ضاقت عليه السبل، من شعر أن أمره معسر، من شعر أن الدنيا كلها ضده، فعليه بالعمل الصالح، والعمل الصالح يرفعه، ولكل درجات مما عملوا، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، وربما كان التيسير في الدنيا قبل الآخرة .

فربنا عز وجل يقدر لسبب تافهٍ تافه، أن يجعل حياة الإنسان جحيماً، لسبب تَافه تافه يذهب المال كله، لسبب تِافه تافه يفقد حريته على مدى عشرين عامًا، ولسبب تافه، ولو أن هذا الحكم بسبب وجيه يقول: هذه بتلك، ولكن لسبب تافه، يفقد الإنسان حريته، ولسبب آخر يفقد ماله، ولسبب في صحته، تصبح حياته جحيما، إذاً: افعل الخير، وارجُ الله بهذا الخير، أن يجعل أمورك ميَّسرةً، وأن يتم عليك نعمة الهدى، ونعمة الصحة، ونعمة التوفيق .

فأنا الذي أعرفه: أن المؤمن يندفع إلى العمل الصالح اندفاعاً لا حدود له، فتنتهي حريتك في أن تفعل هذا العمل الصالح أو لا تفعله، حينما تعرف الله عز وجل، ويجب أن أقول لكم: إن العمل الصالح لا ينبغي أن يكون قاصراً على إنسان دون إنسان، أخي هذا من أخوان جامع النابلسي يجب أن أخدمه، هذا كلام مرفوض، يجب أن تخدم الناس كلهم، يجب أن تخدم المؤمنين كلهم، يجب أن تخدم المسلمين كلهم، يجب أن تخدم الناس كلهم، يجب أن تخدم الخلق كلهم، هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((الخلق كلهم عيال الله -وسع الدائرة وسعها لأقصى درجة- وأحبهم إلى الله، أنفعهم لعياله))

وهذا الذي تخدمه ولا تعرفه، تخدمه وقد لا يكون في المستوى المطلوب، ربما بهذه الخدمة، صار في المستوى المطلوب، أنت إذا خدمته، ربما جعلته مؤمناً، بعد أن كان غير ذلك، العمل الصالح أعظم من أن يكون لك به حسنة، العمل الصالح تجذب به الناس إلى الإيمان .

حدثني أخ، نسيت مَن هو: أن إنسان معذب في حياته جداً، وكان عصبي المزاج، ودائماً يسب الدين، وحياته شقاء بشقاء، وساكن بغرفة متضايق فيها مع أولاده وزوجته، فقال له شخص: هل حولك بيت أجرة لفلان؟ قال له: والله أجرة لا يوجد، لكن إذا تحب نتعاون على شراء بيت، الذي

حدثني اليوم أو البارحة لا أذكره، قال لي: هذا الإنسان بعد سكن في بيت مستقل، أصبح من المؤمنين الصالحين، دخل المسجد، وصلى، واقترب من المؤمنين.

طبعاً: الإنسان عبد الإحسان، فقول سيدنا علي خطير جداً، قال:

((قوام الدين والدنيا أربعة رجال؛ عالم مستعمل علمه -وإلا أداة تنفير- وجاهل لا يستنكف أن يتعلم -من صفات الجاهل التي تليق به: أن يكون متواضعاً، أما جاهل متكبر لا يحتمل، لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، هذا شيطان، فمن صفات العالم التي تليق به أن يستعمل علمه: أن ترى علمه في الممارسة اليومية، في التعامل اليومي، أن ترى علمه في علاقاته كلها- عالم مستعمل علمه، وجاهل لا يستنكف أن يتعلم، وغني لا يبخل بماله، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه .
-الآن دققوا ماذا يحدث لو اختل الأمر؟-: فإذا ضيع العالم علمه، استنكف الجاهل أن يتعلم -إذا ضيع العالم علمه، نفر الناس من العلم، وزهدوا في العلم، واحتقروا العلم، أنا لا أفعل فعله، أنا زاهد في علمه- وإذا بخل الغني بماله، باع الفقير آخرته بدنيا غيره))

أي عندئذٍ يبيع الفقير نفسه للشيطان، من أجل أن يؤمن حاجاته، وما يجري العالم من أعمال عنف، أساسها: أن الغني بخل بماله، فباع الفقير نفسه للشيطان .

إذاً: (وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ): هذا قانون، إذا ضاقت عليك الأمور، إذا سدَّت في وجهك سبل الرزق، إذا ظننت أن الدنيا كلها ضدك، إذا شعرت أن الله لن ينصرك في الدنيا ولا في الآخرة، فافعل عملاً صالحاً خالصاً لوجهه، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((استنزلوا الرزق بالصدقة))

يعني ادفع صدقةً، وعندئذٍ تشعر أن الله سبحانه وتعالى، أغدق عليك من نعمه .

٣-ومن ستر.......والآخرة :

(وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ): كان هناك رجل عالم فاضل، توفي رحمه الله، كان قاضيًا، جاءته امرأة إلى مركز عمله، يبدو أنها صدر منها صوتٌ، ورائحة كريهة، وقد شعرت بذلك، فأصبح وجهها محمراً من شدة الخجل، قالت لأختها: لعله سمعنا، فلما وصلت إليه قال: ما اسمك يا امرأة؟ قالت: اسمي فلانة، قال: ما سمعت، ارفعي صوتك، أنا لا أسمع، ارفعي صوتك، وما زال يقول: ارفعي صوتك، أنا لا أسمع، حتى تأكدت أنه ما سمعها .

هذا كرم، لا تحمروا الوجوه، من صفات المؤمن: أنه لا يحرج الناس، لا يضيق عليهم، لا يضعهم في زاوية ضيقة، لا يسفههم، لا يكذبهم، لا تحمروا الوجوه .

(وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ): الله من أسمائه الستِّير، فإذا كنت مؤمناً حقاً، تخلّق بأخلاق الله، وأنت خليفة الله في الأرض، وكما قال عليه الصلاة السلام:

((إن الله خلق آدم على صورته))

يعني تخلق بأخلاق الله، فإذا كان الله ستّيراً، فاستر أنت، الحقيقة: إذا طبّق الإنسان هذا الأمر، يشعر بسعادة كبرى، فأنت تعلم عن إنسان شيئًا، هذا الشيء ما تكلمت به لأحد، تشعر أنك في المستوى المطلوب، هكذا الإنسان .

والحقيقة: الحديث عن أحوال الناس، وعن فضائحهم، شيء ممتع، الناس يستمتعون بذلك؛ قصة غريبة تلقى في هذه الجلسة متعة بالغة، الناس ينصرفون إلينا، يستمعون باهتمام بالغ، هذه فضيحة، أنت فضحت فلاناً، لذلك:

((من تتبع عورات المسلمين، تتبع الله عورته، حتى يفضحه في عقر بيته))

الإنسان يجعل شعاره:

((من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعينه))

[أخرجه الترمذي في سننه، ومالك في الموطأ عن أبي هريرة]

((طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس))

الإسلام أخلاق، الإسلام صفات راقية، فهل أنت ستير؟ شاهدت مشكلة، أنت طبيب، جاءك مريض، وقص عليك قصته، معه مرض بسبب زلة قدم، هذا المريض له زوجة، وله أولاد، وتاب من هذه المعصية، يجب أن تذكر قصته للناس، هذا مخالف لأمانة الطب، أنت محامٍ، ثمة مشكلة بين زوجين، وعلاقة خاصة جداً بين زوجين، ولو حدثت بها الناس، لكانت مادة دسمة، بحديث ممتع، أينبغي لك أن تقول هذا للناس؟ لقد خنت أمانة الحرفة، فأحياناً المحامون، الأطباء، رؤساء المخافر، أحياناً ترفع لهم قضايا خطيرة جداً، وحساسة جداً، فإذا كان الشخص مؤمنًا، هذا الموضوع في طي الكتمان، لأن الله ستير .

سيدنا عمر، أذكر فتاة، زلت قدمها في عهده، وتاب الله عليها، ثم خطبت، فجاء أخوها يسأل سيدنا عمر، فقال له:

((جاء فلان يخطب أختي، أفحدثه بما كان منها؟ -يا لطيف، وكأن القيامة قامت- قال له: ويحك، والله لو حدثته بما كان منها، لعلوتك بالدرة))

تابت وانتهى الأمر، تابت وحسنت توبتها، فالإنسان يجب أن يكون ستّيراً، الآن البيوت متلاصقة، يحدث شجار بالبيت أحياناً، طبيعة البيوت الحديثة الآن طوابق، وشقق، فالكلام ينتقل من بيت إلى بيت، والإنسان لا يخلو من تخاصم مع زوجته، تخاصم مع أولاده، هل ما سمعته البارحة تذكره للناس؟! .

٤-والله في عون العبد......لم يسرع به نسبه :

((وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ، مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))

((إذا أردتم رحمتي، فارحموا خلقي))

((من لا يرحم لا يرحم))

تعين أخاك فيعينك الله، ترحمه فيرحمك، تستره فيسترك، تنفّس عنه كربةً من كرب الدنيا، فينفس الله عنك كربة من كرب القيامة، تضع عنه بعض الدين، يضع عنك بعض الوزر ، تفرج عن عسرته، يفرج الله عن عسرك يوم القيامة وهكذا .

أما الآن:

((وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ))

هناك أخ يأتينا من دوما، ومن حرستا، من أماكن بعيدة، أغلب الظن يظل ساعة ونصفًا، أو ساعتين بالطريق، لماذا جاء إلى هنا؟ لا يوجد ضيافة، ولا يوجد مقعد وثير، ولا لشيء مغرٍ، جاء ليلتمس علماً

.

استمعوا أيها الأخوة، ماذا يقول عليه الصلاة والسلام:

((وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ))

فأنت في طريقك إلى مجلس العلم، في الحقيقة أنت في الطريق إلى الجنة، والجنة السعادة الأبدية .

((وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ))

هذا اجتماع مبارك، اللهم اجعل جمعنا هذا جمعاً مباركاً مرحوماً، كما أدعو كل يوم:

((يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ))

شعور صعب أن يوصف، السكينة شعور يصعب وصفه، قال بعضهم:

((إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال، للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ، لأصفيائه المؤمنين))

هذه السكينة خاصة بالمؤمنين، لا يعرفها إلا من ذاقها، أما أهل الدنيا لا يعرفونها، لأنهم بعيدون عنها، لا يعرفها إلا من ذاقها، فالسكينة توازن، طمأنينة، ثقة بالله عز وجل، شعور بالفوز، شعور بالرضا، شعور بالاستسلام، شعور بالغنى، شعور بالنجاح، بالفلاح، بالتفوق، لذة روحية، سعادة مادية، والله أعلم، هذه السكينة .

(وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ): على المجموع، ولا تجعل فينا شقياً ولا محروماً، ولا تجعل فينا، ولا منا، ولا معنا، شقياً ولا محروماً .

((وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

لذلك:

((ما من عبد يذكر الله في نفسه، إلا ذكره الله في ملأٍ من ملائكته، وما من عبد يذكر الله في خلقه، إلا ذكره الله في ملأٍ خير منهم))

أنت إذا ذكرت الله عز وجل للناس، إذا ذكرت الله لأناس من مستوى معين، ذكرك أناس من مستوى أرقى بالطيب، والمديح، والثناء .

(وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ): تقول لي: أنا ابن فلان، وجدي كان فلانًا، تشرّفنا:

لا تقل أصلي وفصلي أبداً   إنما أصل الفتى ما قد حصل

دائماً: الإنسان حينما يفتقر من العمل الصالح يفتخر بنسبه .

((أنا جد كل تقي، ولو كان عبداً حبشياً))

الحديث الشريف الذي يلغي النسب:

((يا فاطمة بنت محمد، أنا لا أغني عنك من الله شيئاً، من يبطئ به عمله لم يسرع به نسبه، لا يأتيني الناس بأعمالهم، وتأتوني بأنسابكم))

ولكن هنا سؤال، قد يقول قائل عن النسب: ألم يقل سيدنا جعفر عن رسول الله: نعرف صدقه، وأمانته، وعفافه، ونسبه، له نسب رفيع اللهم صل عليه:

((خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم، إلى أن ولدني أبي وأمي، ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء))

الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، سيدنا يوسف، في القرآن إشارات إلى النسب، العلماء قالوا:

((فيما لو توافر الإيمان، والصدق، والأمانة، عندئذٍ يستأنس بالنسب))

فالنسب لا يذكر إلا إذا توافر الإيمان، والصدق، والصلاح، والطيب، والورع، والتقوى، عندئذٍ يمكن أن نقول: فلان ابن فلان، ما شاء الله على هذا النسب، أما نسب مع العمل السيىء، فلا يذكر إطلاقاً.

هذا الحديث، رواه الإمام مسلم في صحيحه، أعيده على أسماعكم مرة ثانية: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

هذا الحديث، من باب قضاء حوائج المسلمين، في كتاب رياض الصالحين، ارجعوا إليه إذا شئتم .

أهمية دراسة السيرة النبوية من حيث :

١-هي المفتاح الأول لكتاب الله :

كنت قد وعدتم في درس سابق، أن نبدأ الحديث -بعون الله جل وعلا- عن سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، والحقيقة هذا الموضوع جليل، وعظيم، وخطير، وسوف أمضي ما تبقى من الوقت، في التمهيد لهذا الموضوع الجليل .

أولاً: سيرة النبي عليه الصلاة والسلام؛ قراءتها ومدارستها ليست قراءة أحداث تاريخية، ولا دراسة أعمال بشرية، مما أَلِفَ الناس سماعه وقراءته، تكاد تكون سيرة النبي عليه السلام شيئاً متميِّزاً عن أية سيرةٍ أخرى، عن أي تاريخ، عن أيَّة ترجمةٍ شخصية لأي إنسان آخر، لماذا؟ لأن سيرة النبي عليه السلام، هي المفتاح الأول لفهم كتاب الله تعالى، ولأنه من خلال سيرة النبي،

يتضح لك: كيف فهم النبي هذه الآية؟ وكيف عمل بها؟ وكيف وقف الموقف الصحيح في هذا الموطن؟ .

إذاً: إذا أردت مزيداً من فهم كتاب الله، إذا أردت أن تعمِّق فهمك لكتاب الله، فعليك بسيرة النبي عليه السلام، فليست القضية أنه إنسان عظيم، نقرأ أحداث حياته، لا، هذا إنسان نبي مرسل، أي نموذج لكل البشر .

٢-تعد السيرة المنهج التفصيلي لتطبيق كتاب الله والعمل به :

شيءٌ آخر: سيرة النبي عليه النبي عليه السلام، تعدُّ المثل الأسمى للكيفية التطبيقية للعمل بكتاب الله، مفتاح كتاب الله الأول، والكيفية التفصيلية لتطبيقه والعمل به . من أمثلة ذلك :

عندنا شيء دقيق جداً: أن حياة رسول الله تشريع، سيدنا عمر هاجر، هو اجتهد أن يهاجر جهاراً، وأن يتحدّى بهذه الهجرة المشركين، وقال قولته الشهيرة:

((من أراد أن تثكله أمه، أو ييتم ولده، فليحقني إلى هذا الوادي))

هاجر جهاراً، وعلانية، ومتحدياً، ولكن سيدنا عمر لو أنه فشل بهذا التحدي، لو أنه قُتِل، يمثل مَن؟ يمثل نفسه فقط، لكن النبي عليه السلام حينما هاجر من مكة إلى المدينة، لأنه مشرِّع أخذ بالأسباب؛ اتجه نحو البحر، وقبع في غار ثور، ووكّل أناساً يأتونه بالأخبار، وأناساً يمحون الآثار، وأناساً يأتونه بالزاد، واستأجر راحلة، ودليلاً يتمتع بالخبرة الكافية، وهو مشرك، يعني أخذ بكل الأسباب، ثم توكل على رب الأرباب، فهل يعد النبي عليه السلام أقل جرأةً من سيدنا عمر؟! مستحيل، كان إذا حمي الوطيس، لم نر أقرب منه إلى العدو، كان إذا حمي الوطيس، واحمرت الحِدَق، كان أقربنا إلى العدو، كنا نتقي به العدو، كان شجاعاً، ومع ذلك: هاجر بهذه الطريقة لأنه مشرِّع، لو أنه هاجر كما هاجر عمر رضي الله عنه، لعد اقتحام الأخطار سنة، وترك الأخذ بالأسباب واجباً، وإلقاء النفس في التهلكة عملاً طيباً، لو أنه هاجر كما هاجر عمر، لهلكت أمَّته من بعده، هو مشرِّع .

فأنت إذا قرأت سيرة النبي، تقرأ شيئاً خطيراً جداً، تقرأ ما ينبغي أن تفعله أنت الآن، إنك تقرأ النموذج الأول لبني البشر، إذاً: حياته تشريع، وحياته نموذجٌ أسمى للكيفية التطبيقية لكتاب الله، وحياته مفتاح لفهم كتاب الله .

٣-تجسد السيرة الحقيقة الإسلامية في مجموعها الاعتقادي والسلوكي :

أيها الأخوة، الذي أريد أن أنبِّه عليه: إن حياة النبي عليه الصلاة والسلام، وما فيها من أحداث، ومواقف، وغزوات، إن هذه الحياة ليست وقائع تتلى، ولا معلومات، ولا ثقافات، ولا دراسات تاريخية، إنها تجسِّد الحقيقة الإسلامية في مجموعها الاعتقادي والسلوكي .

يعني إذا أردت أن ترى الإسلام مطبَّقاً في إنسان، ففي النبي العدنان، تحب أن تقرأ عن الإسلام، القرآن، تحب أن ترى الإسلام بعينيك، اقرأ سيرة النبي، تحب أن ترى قرآناً يمشي، النبي عليه الصلاة والسلام، الكون قرآنٌ صامت، والقرآن كونٌ ناطق، والنبي عليه الصلاة والسلام قرآنٌ يمشي، حياته شيء مهم جداً، بل إن حياة النبي عليه الصلاة والسلام في كل حركةٍ، وسكنة، سكوته حديث، سكوته إقرار، إذا فعل صحابيٌّ جليل شيئاً أمام النبي، وسكت النبي، فهذا الفعل مشروع، لأن النبي عليه الصلاة والسلام لا يسكت على غلط .

فامرأة نادت زوجها المسجَّى على فراش الموت، وقالت له على مسمع من النبي عليه الصلاة والسلام:

((هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله -لو أن النبي عليه الصلاة والسلام سكت، لكان كلامها صحيحاً- فقال عليه الصلاة والسلام: ومن أدراك أن الله - طبعاً من وراء حجاب- أكرمه؟ -من أنتِ حتى تعرفي الغيب؟ أو تعرفي ما سيكون؟- قولي: أرجو الله أن يكرمه))

قل: أرجو يا أخي، لا تزكي على الله أحداً، قال:

((وأنا نبي مرسل، لا أدري ما يفعل بي ولا بكم))

إذاً: يجب أن تعلم علم اليقين: أن النبي عليه الصلاة والسلام إذا سكت فسكوته إقرار، وإذا تكلم فكلامه تشريع، وإذا فعل ففعله منهج، إذاً: هل من سيرة إنسانٍ على وجه الأرض ترتقي إلى مستوى النبي الكريم؟ قراءة سيرته تكاد تكون شيئاً واجباً على كل مسلم، لأنك إذا قرأت سيرته، رأيت الإسلام على حقيقته، رأيت الإيمان، رأيت الصدق .

أيها الأخوة، أحب أن أنوِّه إلى أننا في أثناء الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام، لا نتحدث عنه كعبقري، كإنسان ذكي متفوق، بعض الأعاجم من العلماء، يركّزون على عبقريته ، وعلى تفوقه الذكائي، والقيادي، والاجتماعي، من أجل أن يقللوا من قيمة نبوته ورسالته، هوية هذا النبي الكريم، أنه نبيٌّ مرسل، فالحديث عنه من خلال نبوَّته ورسالته، ومن أنه المشرع، لا من زاوية عبقريته، وذكائه، وقدراته الاجتماعية، هذا انحراف عن الخط الصحيح للسيرة .

٤-يجد القارئ في السيرة النموذج الأعلى في القدوة :

شيء آخر: الله سبحانه وتعالى جعل النبي عليه الصلاة والسلام قدوةً لنا، ما معنى قدوة لنا؟ أحياناً الإنسان يقف في موقف الفقر، هو النبي عليه الصلاة والسلام ذاق طعم الفقر، فوقف الموقف الأكمل، حينما كان فقيراً:

((هل عندكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فإني صائم))

لم يسب بالدين، انظروا إذا كان فقير جاهل، يا لطيف،

((هل عندكم شيء؟ قالوا: لا، قال: فإني صائم))

علّم الفقير التجمل، والصبر، والحلم، وعلمه العفة، وعلمه الانتظار، وانتظار الفرج فرج .

والنبي عليه السلام ذاق طعم الغنى فلم يبطر، ولم يستعلِ على الناس، دخل عليه رجل أصابته رعدة، قال:

((هون عليك، إنما أنا ابن امرأة من قريش، كانت تأكل القديد في هذه البطحاء))

رأى رجل وادياً من الغنم، فقال للنبي الكريم:

((لمن هذا الوادي؟ قال: هو لك، قال: أتهزأ بي؟ قال: لا والله، هو لك، قال: أشهد أنك رسول الله، تعطي عطاء مَن لا يخشى الفقر))

ذاق الغنى، ووقف الموقف الأكمل، حينما كان غنياً، وذاق الفقر، ووقف الموقف الأكمل، حينما كان فقيراً، علّمك أيها الإنسان، كيف ينبغي أن تكون إذا كنت فقيراً، وكيف ينبغي أن تكون إذا كنت غنياً؟ .

وذاق القوة: دخل مكة في حشدٍ من الجيش، يزيد عن عشرة آلاف سيف، كلها تأتمر بحركةٍ من شفتيه، وبإمكانه أن يقضي على أعدائه من آخرهم بكلمة واحدة، أذاقه الله القوة، دخل مكة خاضعاً متذللاً، تذلل الشاكرين المغمورين بالنِعَم، ولم يدخل مكة دخول المتجبرين المتغطرسين، حتى إن ذؤابة عمامته، لامست عنق بعيره، النبي عليه السلام يغلب فلا يبطر، ويُغْلَب فلا يضجر .

وأذاقه الله طعم الضعف في الطائف، قال:

((إن لم يكن بك غضبٌ علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى))

وأذاقه طعم فقد الولد، فقال:

((إن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون))

أكمل موقف .

وذاق أن يقترن بامرأة، تكبره خمسة عشر عاماً، الآن: إذا الواحد كانت زوجته من نفس السن، يندب حظه، أخي أخذناها كبيرة، هكذا يقول لك، خمس عشرة سنة فوق عمره، ومع ذلك كان وفياً لها، عندما فتح مكة، ما قبل إلا أن ينام في خيمةٍ، نصبت له إلى جانب قبر خديجة وفاءً لها، وما رضي أن يقول كلمة لمَن جاءته بعدها، يقول:

((والله ما أبدلني الله خيراً منها))

علمك الوفاء الزوجي .

ذاق طعم اليتم: في دار أيتام من أشهر دور الأيتام، بمدخل الدار، رُسِمَ قبر النبي عليه السلام، وكتبوا تحته: (أكرم يتيمٍ على وجه الأرض) .

كان يتيم اللهمَّ صلِ عليه، ما ذاق طعم الأبوة، ذاق طعم اليتم، وموت الأولاد، وكبر الزوجة، وذاق الفقر، وذاق الغنى، والقوة، والضعف، كله ذاقه، لذلك جعله الله عز وجل قدوةً لنا، جعله قدوةً صالحة، وأسوةً حسنة، ومثلاً يحتذى، إذاً: قراءة سيرته، شيءٌ خطير جداً.

٥-المهمة التي بعث فيها محمد عليه الصلاة والسلام :

شيء آخر: النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إنما بعثت معلماً))

((إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق))

كان مربي من الطراز الأول، فإضافة إلى أنه نبي مرسل، كان مربياً من الطراز الأول، يعلمك كيف تؤدب وتربي؟ قال عليه والسلام:

((علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خيرٌ من المعنف))

[أخرجه الحارث في مسنده عن أبي هريرة]

السؤال والجواب، والأخذ والعطاء، والعتاب والمتابعة، والتوجيه والنصح أحسن من الضرب .

((علموا ولا تعنفوا ، فإن المعلم خيرٌ من المعنف))

قال:

((لا يكون الرفق في شيءٍ إلا زانه، ولا ينزع من شيءٍ إلا شانه))

كان إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً، كان يقول:

((لا تكرهوا البنات، فإنهن المؤنسات الغاليات))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، والإمام أحمد في مسنده عن عقبة بن عامر]

علمك كيف تتعامل مع الناس؟ .

كان يقول:

((لاعب ولدك سبعاً، وأدبه سبعاً، وراقبه سبعاً، ثم اترك حبله على غاربه))

كان مربيًّا من أعظم المربين، إذاً: قرأت عن حياته، تتعلم منه كيف يعامل زوجته، وأولاده، وأخوانه، وجيرانه، ومرؤوسيه، وجنوده، كان مثلا أعلى .

الخاتمة :

أيها الأخوة، فالشاب المندفع إلى الله عز وجل، يجد في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام نماذج بطولية رائعة، الداعية إلى الله، وما يلقى من خصومات، ومن معارضات، ومن متاعب، ومن هموم، ومن أعباء ربما لا يتحملها، إذا قرأ سيرة النبي، يستصغر نفسه، يقول: أنا لا شيء إطلاقاً .

إذاً: إذا قرأت سيرة النبي، كان عليه الصلاة والسلام، كان قدوة لك في الدعوة إلى الله، في الصبر، في تحمل الشدائد، في التفاؤل، في الثقة بالله عز وجل، في مواجهة الخصوم، في التلطف، في الرحمة .

الزوج، كلٌ منا زوج، أو أكثرنا، فهل يا ترى: لا يوجد مشكلة في البيت؟ قال عليه السلام:

((لا يفرك -أي لا يكره- مؤمناً مؤمنة، إن كره منها خلقاً، رضي منها خلقاً آخر))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

هكذا علمك النبي الكريم، منزعج من هذه الصفة، لكنها امرأة حصان، رزان، تطهو لك الطعام، تنظف لك البيت، تطمئن إذا غبت عنها، تحفظك في مالها، هذه كلها ميزات، ألا تشفع لها بهذه السيِّئة؟

((إن كره منها خلقاً، رضي منها خلقا آخر))

الأب عطفه وحنانه، حدبه على أولاده، إذا قرأ هذه السيرة، كان النبي عليه الصلاة والسلام قدوةٌ له في الأبوة .

إذا قرأ هذه السيرة قائد حربي، فالنبي الكريم، لما سيدنا جعفر بن أبي طالب، استشهد في مؤتة، توجَّه بنفسه إلى بيت جعفر، ورأى زوجته وقد عجنت عجينها، وألبست أطفالها، ودهنتهم، وغسلتهم، كلهم يتهيؤون للقاء جعفر -وهو قد استشهد في مؤتة- ذهب بنفسه لإخبارهم باستشهاده، كي يخف عليهم وقع هذا الخبر، أخذ أولاده وضعهم في حجره، قبَّلهم، عانقهم، ذكَّر أباهم بخير، وأعلمهم بالنبأ .

فإن كنت قائدًا، وإن كنت زوجًا، وإن شابًّا، وكنت داعية، أي إنسان إذا قرأ سيرة النبي الكريم، يرى في النبي عليه الصلاة والسلام نموذجاً أعلى، ومثلاً يحتذى، وقدوةً صالحة، وأسوةً صالحة .

وإن شاء الله في الدروس القادمة، نبدأ بعض الأحداث، ونستنبط منها بعض العبر، فلعل الله عز وجل ينفعني وإياكم بهذه السيرة .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٣٢-١٠١) : باب الشفاعة - من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٨٩-٠٥-٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم مفهوم الشفاعة كما بينته الآية :

أيها الأخوة المؤمنون، بابٌ جديد من أبواب رياض الصالحين، إنه باب الشفاعة، قال الله تعالى:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

[سورة النساء الآية: ٨٥]

الشفع هو الزوج، والوتر هو الفرد، وشَفِعَ بمعنى قرن، وهذه الآية أصلٌ في أن أيَّة حركةٍ من حركات الإنسان، تؤدي إلى جمع بين شيئين، إن كان هذا الجمع على خير، فلهذا الذي جمع على خير نصيبٌ وافرٌ من هذا الجمع، وإن كان هذا الجمع انتهى إلى شر، فهناك وزرٌ يتحمله من كان سبباً في هذا الجمع.

وربما كانت هذه الآية من أدق الآيات التي تحدد الطريق الصحيح في علاقات الإنسان الاجتماعية، أنت لو جمعت بين اثنين على خير، فأي خيرٍ من هذا الجمع لك منه نصيب، لو دللت إنساناً على الحق، فكل الخير الذي سيصدر عن هذا الإنسان، وعن ذريته إلى يوم القيامة لك منه نصيب، لو دللته على هدى، لو دللته على عملٍ صالح، لو دللته على ترك معصيةٍ أو مخالفة، أية دلالةٍ تدل بها إنساناً، كأنك تشفع بينه وبين هذه الدلالة، بينه وبين هذا الهدى، بينه وبين هذا الحق، أي لقاءٍ بين اثنين، كنت سبباً في زواجٍ ميمون، قال عليه الصلاة والسلام:

((من مشى بتزويج رجلٍ بامرأةٍ، كان له بكلِ خطوةٍ خطاها، وبكل كلمةٍ قالها: عبادة سنةٍ، قام ليلها، وصام نهارها))

جمعت بين أخوين، جمعت بين شريكين، دللت هذا الإنسان ليشارك هذا الإنسان، الأول مؤمن، والثاني مؤمن، فحصل الخير العميم من هذه الشركة، لك منها نصيب، دللت إنساناً على الدعاء، فكل الفضائل التي تأتيه من الدعاء، لك منه تصيب، دللته على التوكُّل، دللته على الافتقار إلى الله عزَّ وجل، دللته على الطاعة، دللته على أفعال الخير، أي شفاعةٍ بين شيئين، أي جمعٍ بين شيئين، ولو أن الأول من بني البشر، والثاني من نوعٍ آخر، جمعت بين هذا الإنسان وبين الدعاء، بينه وبين التوكل، بينه وبين الطاعة، بينه وبين شريكٍ آخر، جمعت بين زوجين، وفَّقت بين أسرتين، أية شفاعةٍ حسنة لك منها نصيب، وأية شفاعةٍ سيئة عليك منها وزر، قال تعالى:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً)

[سورة النساء الآية: ٨٥]

دللته على عملٍ، ففسد بهذا العمل دينه، قال تعالى:

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

[سورة البقرة الآية: ١٩١]

دللته على طريقةٍ في التعامل مع الناس، وقع من خلالها بمعصية الله عزَّ وجل، عليك من هذه الشفاعة وزر، وإثم، وحِمْل .

فانتبه أيها الأخ الكريم، اجعل حركاتك وسكناتك وفق الخير، لأنك إن دللت على الخير، فأنت كفاعل الخير، أحياناً قد يجتمع رجالٌ ونساء بدعوةٍ منك، وأنت لا تدري أن هذا الجمع، قد أوقعهم في مخالفةٍ للشرع، لو أنك جمعت بين كل أصهارك وبين زوجاتهم على مائدةٍ واحدة، فنظر هذا الصهر إلى زوجة عديله، أو إلى أخت زوجته، لو أنه نشأ فسادٌ، أو نشأت تمنِّيات، أو نشأت محاورات، أو نشأت نظرات، هذا الذي جمع بين هؤلاء جميعاً على مائدةٍ واحدة؛ باسم الكرم، وباسم الألفة، وباسم المحبَّة، وباسم لمِّ الشمل، وجمع الشتات، إنه شفع شفاعة سيئة، فعليه وزر هذه الشفاعة، قال تعالى:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا)

[سورة النساء الآية: ٨٥]

نصحت إنساناً ليفعل شيئاً، أدى به الأمر إلى معصية الله، وأنت لا تدري، على هذا الذي نصح وزرٌ ثقيل، هذه الآية في سورة النساء، رقمها خمسٌ وثمانون، قال تعالى:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

[سورة النساء الآية: ٨٥]

إذاً: قبل أن تنطق، قبل أن تنصح، قبل أن توجه، قبل أن تدعو، قبل أن تجمع، قبل أن تفعل، انظر إلى هذه الآية، ما الكسب الذي تكسبه من هذا اللقاء؟ من هذا الجمع؟ من هذه الدلالة؟ وما الوزر الذي تتحمله فيما لو نتج عن هذه الشفاعة معصية، أو مخالفة، أو فتنة، أو بُعد، أو شقاق، أو ما شاكل ذلك؟ .

ومن عادة الإمام النووي رحمه الله تعالى، في كتاب رياض الصالحين: أن يصدر الباب بآيةٍ كريمة متعلقةٍ بالموضوع .

إليكم ما يعنيه النبي من هذا الحديث: اشفعوا تؤجروا.....:

أما الحديث الشريف: عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا جَاءَهُ السَّائِلُ، أَوْ طُلِبَتْ إِلَيْهِ حَاجَةٌ، قَالَ: اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ))

(اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا): الإنسان إذا كان بإمكانه، أن ينفع أخاه فلينفعه، إذا كان بقدرتك، أو بمالك، أو بجاهك، أو بقوتك، أن تسدي لأخيك معروفاً فافعل، إذا كنت تستطيع أن تخفف عن أخيك هذه المشكلة فافعل .

النبي عليه الصلاة والسلام، إذا أتاه طالب حاجةٍ، أقبل على جلسائه، فقال:

((اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ))

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((والله لئن أمشي مع أخ في حاجته، أحب لي من صيام شهرٍ، واعتكافه في مسجدي هذا))

وربنا عزَّ وجل أمرنا بفعل الخيرات، وهذا عنوان الباب السابق:

(وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

[سورة الحج الآية: ٧٧]

وقلت لكم من قبل: أن حجمك عند الله بحجم عملك، أن حجمك عند الله بحجم تضحياتك وبذْلك، فطالب الحاجة قد يحتاج إلى مساعدة، إذا كنت مؤمناً حقاً فلا تضن عليه بهذه المساعدة، قد تستخدم جاهك، قد تستخدم خبرتك، قد تستخدم مالك، قد تستخدم وقتك، قد تستخدم عضلاتك .

((اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ))

أنت عليك أن تبذل قصارى جهدك، ولكن الأمر بيد الله، لأن الله عزَّ وجل يقول للنبي عليه الصلاة والسلام:

(لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ)

[سورة آل عمران الآية: ١٢٨]

قد تبذل كل ما في وسعك، من أجل أن تنفع أخاك فلا تستطيع، لأن الحكمة عندئذٍ التي أرادها الله عزَّ وجل، أن يبقى هذا الإنسان في هذه الحاجة، ولا تقضى له، أنت عليك أن تفعل الذي أمرك به النبي، وعلى الله الباقي، ليس عليك تحقيق هذه الحاجة، بل عليك أن تسعى إليها، فإما أن يقدِّرها الله على يديك، وإما ألا يفعل، وفي كل حالٍ: هناك حكمة بالغة من أفعال الله عزَّ وجل .

(وَيَقْضِي اللَّهُ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا شَاءَ): قد تحل هذه المشكلة على يديك، وربما لا تحل، قد يتم هذا الزواج وربما لا يتم، قد يتم هذا الصلح وربما لا يتم، قد تتم هذه التوبة وربما لا

تتم، قد يدعو هذا الإنسان وربما لا يدعو، قد يستقيم وربما لا يستقيم، أنت عليك أن تفعل، عليك أن تسعى، وليس عليك إدراك النجاح، هذا كما يقولون: بذل العناية المشددة، وعلى الله الباقي .

فالنبي عليه الصلاة والسلام، وما ينطق عن الهوى، يأمرنا جميعاً فيقول:

((اشْفَعُوا تُؤْجَرُوا))

وحينما يخدم كل إنسانٍ أخاه المؤمن، عندئذٍ يصبح المجتمع متيناً، متراصًّا، كأنه بنيانٌ مرصوص، يشد بعضه بعضا، مجتمع المؤمنين، مجتمع فيه معاونة، مجتمع فيه بذل، مجتمع فيه تضحية، مجتمع فيه مؤاثرة، قال الله تعالى:

(وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ)

[سورة الحشر الآية: ٩]

الأنصار رضي الله عنهم، حينما هاجر إليهم أخوانهم المهاجرون، قال أحدهم لأخيه الذي آخاه النبي معه:

((لي بستانان خذ أحدهما -هكذا، ولكن بعض الصحابة الكرام، وقف الموقف الأمثل- فقال له: بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق))

كلاهما وقف الموقف الأمثل، الأنصاري وقف موقف البذل والعطاء والمؤاثرة، والمهاجر وقف موقف التعفف، وانطلق إلى العمل، وهذا أمثل موقف، يقفه المؤمن من أخيه المؤمن .

على كلٍ؛ لا تنسوا هذا الحديث الشريف:

((والله لئن أمشي مع أخٍ في حاجته، أحب لي من صيام شهرٍ، واعتكافه في مسجدي هذا))

((واللهُ في عون العبد، ما دام العبد في عون أخيه))

والله سبحانه وتعالى يحبك أن تساعد أخاك، يحبكما معاً، ولكن من باب التحفُّظ: لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها، يعني: إذا جاءك أخوك في حاجة، قل: والله يا أخي، سأبذل كل ما أستطيع، سأبذل كل إمكاناتي في حدود ما أستطيع، لأنك قد تطالب بما لا تستطيع، قال تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة الآية: ٢٨٦]

حينما تنطلق إلى مساعدة أخيك، في علم الله أن هذه المساعدة قد تنجح، وربما لا تنجح ، إن نجحت فهذا هو الخير، وإن لم تنجح فهذا هو الخير، إن أمر المؤمن كله خير، فأنت عليك أن تسعى، وليس عليك إدراك النجاح، عليك أن تنطلق، وليس عليك أن تحقق الهدف، هذا على الله عزَّ وجل، وهذا متروكٌ لحكمة الله، ولعلمه، ولعدالته .

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ زَوْجَ بَرِيرَةَ، كَانَ عَبْدًا، يُقَالُ لَهُ:

((مُغِيثٌ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ، يَطُوفُ خَلْفَهَا يَبْكِي، وَدُمُوعُهُ تَسِيلُ عَلَى لِحْيَتِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْعَبَّاسِ: يَا عَبَّاسُ، أَلَا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا!؟ فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَوْ رَاجَعْتِهِ، فَإِنَّهُ أَبُو وَلَدِكِ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَتَأْمُرُنِي؟ قَالَ: إِنَّمَا أَنَا شَفِيعٌ، قَالَتْ: فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ))

((لو راجعته: -أي لو قبلتِ أن تبقي عنده، لو قبلتِ الوفاق- فقالت: يا رسول الله أتأمرني؟ . -النبي عليه الصلاة والسلام يعرف بالضبط، كيف يستخدم نفوذه الديني؟ هو رسول، ونبي، ومشرِّع، وما ينطق عن الهوى، ولكن هذه قضية شخصية، هي أعلم بالمشكلة من رسول الله، والزوج أعلم بالمشكلة منه- فقالت: أتأمرني؟ -يعني أمرك يوجب الطاعة- قال: لا، إنما أنا شفيع - أنا لا آمرك، لأن هذا حقك- فقالت –عندئذٍ-: لا حاجة لي فيه))

فرقٌ دقيق بين أن يأمرها النبي عليه الصلاة والسلام، وبين أن يشفع بينهما، إن أمرها فعليها الطاعة، فإن عصت فعليها إثم المعصية، وإنما النبي عليه الصلاة والسلام أمرها أو وجهها، أن تراجعه على أساس الشفاعة، لا على أساس الأمر .

هذان الحديثان في هذا الباب، يؤكدان على أن كل إنسانٍ أعماله، بل آثار أعماله مسجلة عليه، ويوم القيامة يقرأ الإنسان سجل أعماله، انظر كيف أفسدت هذه العلاقة؟ انظر كيف فرَّقت بين الزوجين؟ انظر كيف دللت هذا على فعل السوء؟ انظر، انظر، فإذا يتحمل أوزاراً، لا طاقة له بتحمُّلها، فالإنسان قبل أن يشفع بين اثنين، قبل أن يجمع بين اثنين، قبل أن يوجِّه، قبل أن يدل، قبل أن يدعو، عليه أن ينتبه إلى أن الشفاعة الحسنة له منها نصيب، بينما الشفاعة السيئة عليه منها كفلٌ، ووزرٌ، وحمل .

إليكم طائفة من هذه الآيات التي تصب في موضوعنا هذا :

الله سبحانه وتعالى يقول:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ)

[سورة النساء الآية: ١١٤]

تسمع كلام الناس من الصباح، وحتى النوم، لو دققت فيه، لو وزنته بميزانٍ دقيق، قد تجده لغواً، قد تجده سخفاً، قد تجده كلاماً فارغاً، قد تجده مديحاً، قد تجده افتخاراً، قد تجده استعلاءً، قد تجده إفساداً، قد تجده باطلاً، قال تعالى:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ)

[سورة النساء الآية: ١١٤]

الإنسان لا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، لا يستقيم عمله حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه، فاستقامة اللسان جزءٌ كبيرٌ جداً من استقامة المسلم، يعني استقامة اللسان تحتل مساحة كبيرة من مجموع الاستقامة، فالكذب، والغيبة، والنميمة، والبهتان، والإفك ، والسخرية، والسفاهة، والفُحش، والبذاءة، والإيقاع بين الناس، هذا كله من أخطاء اللسان.

((وهل نؤاخذ بما نقول؟ فقال: ويحك يا معاذ، وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم؟!))

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة، لا يرى لها بأساً، يهوي بها سبعين خريفاً في النار))

أحياناً كلمة تجعل هذا الإنسان لا ينام الليل، كلمة واحدة، كلمة تفرِّق بين زوجين، كلمة تفرِّق بين شريكين، كلمة تقلب حياة البيت إلى جحيم، فلذلك عليكم أن تعدوا أنفاسكم قبل أن تلفظوا كلمة واحدة، قال تعالى:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة النساء الآية: ١١٤]

النبي عليه الصلاة والسلام عندما قال:

((أمرت أن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرةً))

أنت صامت، يجب أن تفكر فيما أنت فيه، يجب أن تفكر فيمن حولك، فيما هو محيطٌ بك، أن تفكر في الآيات التي نصبها الله كي تعرفه بها، أن تفكر في كل شيء، هذا الفكر يجب أن يعمل، لا ينبغي أن يسكت، لا ينبغي أن يتعطّل، أما إذا سكت ففكر، وإذا نطقت فاذكر، هذه القصة ما أبعادها؟ ما أهدافها؟ ما جدواها؟ ما مؤدَّاها؟ ما الآثار السلبية التي تستنبط منها؟ قبل أن تنطق، ليس الهدف أن تضحك الناس، ولا أن تملأ وقت فراغهم، ولا أن تسليهم بمعصية الله، هناك من يسلي الناس بالغيبة، يسليهم بالنميمة، يسليهم بالإفك، يسليهم بالحديث عن أشياء لا تعنيهم، قال تعالى:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة النساء الآية: ١١٤]

إذاً: باب الشفاعة بابٌ واسعٌ جداً .

أحياناً: لو أن الله سبحانه وتعالى آتاك علماً، أو آتاك فضلاً، أو آتاك حكمةً، أو آتاك فهماً لكتاب الله، أو آتاك فهماً لحديث رسول الله، أو آتاك حالاً تَسْعَد به، كيف تشفع بين الناس في الدنيا؟ قد تلتقي مع إنسان، قد تُحسن إليه، قد تعينه على أمر دنياه، قد تعلّمه، قد تقدم له خدمةً جليلة من أجل أن يحبك، هذه شفاعةٌ، إن شفعت له في الدنيا فقد تشفع له في الآخرة، يعني كأنك وضعت خبرتك، وعلمك، وأحوالك، وطهارتك، ومبادئك، وقيَمَك، في خدمة هذا الإنسان، هذا معنىً آخر من معاني الشفاعة .

يعني أنت إذا أردت أن تهدي الناس إلى الله عزَّ وجل، يجب أن تشفع لهم في الدنيا حتى تقبل شفاعتك لهم في الآخرة، يعني علمتهم، دللتهم على الله عزَّ وجل، قال تعالى:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة النساء الآية: ١١٤]

أناسٌ كثيرون كلمة واحدة طيبة، تركت أثراً طيباً في أخلاقهم، أو في استقامتهم، أو جعلتهم ينعطفون نحو الحق، أو جعلتهم يتوبون من ذنوبهم، أو يقلعون عنها .

وقال تعالى:

(وَالصُّلْحُ خَيْرٌ)

[سورة النساء الآية: ١٢٨]

دخلنا في بابٍ آخر، هو الإصلاح بين الناس، أية مشكلةٍ، أي خصومةٍ، أي شقاقٍ، أي مأساةٍ، أي تباعدٍ، أي جفاءٍ، هذا لا ينبغي أن يتفاقم، لا ينبغي أن يتفجَّر، لا ينبغي أن نزيده تأججاً، الله سبحانه وتعالى يأمرنا أن يكون الصلح رائدنا، قال تعالى:

(وَالصُّلْحُ خَيْرٌ)

[سورة النساء الآية: ١٢٨]

لذلك: لا تدخل في قضيةٍ زوجيةٍ إلا من أجل الصلح، لقوله تعالى:

(إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا)

[سورة النساء الآية: ٣٥]

جعل الله التوفيق بين الزوجين، ثمنه أن تريد الإصلاح، لا أن تريد التفريق، قال تعالى:

(وَالصُّلْحُ خَيْرٌ)

[سورة النساء الآية: ١٢٨]

هذا بين الزوجين، وبين الشريكين، وبين الأخوين، وبين الأم وابنها، وبين الأب وابنه ، وبين الأخ وأخيه، وبين الجارين، وبين القريبين، وبين الزوجة وأم زوجها، قال تعالى:

(وَالصُّلْحُ خَيْرٌ)

[سورة النساء الآية: ١٢٨]

فأنت دائماً لا تسعى إلى تفاقم الأمور، أحياناً نقل الأخبار السيئة، أحياناً النميمة وحدها تزيد الهوَّة بين الناس، فإما أن يكون المجتمع متماسكاً، وإما أن يكون مفتتاً، فبالنميمة يتفتت المجتمع، وبالصلح يتماسك المجتمع .

هذه الأحاديث هي من صلب الدين، الناس في آخر الزمان، تقلَّص عندهم الدين حتى أصبح ركعاتٍ يصلونها جوفاء، وبعض الأفعال يؤدُّونها من دون علمٍ، ومن دون فهمٍ، أما أن يكون الدين نظاماً شاملاً، دستوراً واسعاً، يغطي كل نشاط الإنسان، فهذا فهمٌ فهمه الصحابة الكرام، المسلم يجب أن تحبه، لأنه متقيدٌ بكتاب الله وسنة رسوله، أما أن تفهم الدين صلاةً، وصياماً، وحركاتٍ جوفاء، وتنسى أنك مأمور بالاستقامة بلسانك، وبقلبك، وبجوارحك، هذا كله من ضعف فهم الإسلام في آخر الزمان .

إليكم مفهوم إصلاح ذات البين كما وردت في سورة الأنفال:

والآية الكريمة في سورة الأنفال:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

إصلاح ذات البين، هذه الآية لها ثلاثة معان:

المعنى الأول: أن تصلح نفسك، يا ترى بهذه النفس في ضغينة، في حسد، في كِبر، في بُعد عن الله، هل تشتهي هذه النفس شيئاً حرمه الله؟ هل تستمتع بمعصية؟ هل تستمتع بمخالفة؟ هل تركن إلى الذين ظلموا؟ هل تجلس معهم ساعاتٍ طويلة، وأنت في غاية الانسجام؟ هذه نفسٌ مريضة، قال تعالى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

الإنسان كيف يرعى عينه، ويخاف عليها من كل خلل؟ عليه أن يرعى نفسه، والسعيد من أوتي مقياساً دقيقاً لنفسه، يقول: أنكرت نفسي، نفسي لا تعجبني، إنها تحب أن تخالف، هذا مرض خطير، إنها تحب أن تستعلي، إنها تحب أن تخصَّ نفسها بشيءٍ طيِّب، إنها تؤثر نفسها على مَن سواها. الله قال:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

أصلحها بالتوبة، أصلحها بالإنابة، أصلحها بالإقبال على الله عزَّ وجل، أصلحها بالإرادة القوية، أصلحها بحملها على عزائم الأمور. قال تعالى:

(وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

أصلح نفسك، لا تجعل الدين أشياء شكلية خارجية، الدين له منارة وله ضياء، إن للإسلام مناراً وضياءً، المنار هذا البناء، والدين فيه بناء، فيه عبادات، فيه أوامر ونواه، لكن الدين مع هذه المنارة المرتفعة فيها ضياء، القلب إما أن يطهر وإما ألا يطهر .

((طهَّرت منظر الخلق سنين، أفلا طهرت منظري ساعة؟!))

كل إنسان يحاول أن يكون مظهره مقبول، مظهر بيته، مظهر مدخل بيته، لباسه، مركبته، يعني ثيابه، يحب أن يكون مظهره مقبول، فالله سبحانه وتعالى يقول في الحديث القدسي:

((عبدي طهرت منظر الخلق سنين، أفلا طهرت منظري ساعة؟))

والقلب بيت الرب، والقلب منظر الرب، المعنى الأول: (أصلحوا ذات بينكم): يعني أصلحوا نفوسكم؛ أصلحها بالإقبال على الله، أصلحها بالتوبة .

والمعنى الثاني: أصلح كل علاقةٍ بينك وبين الناس، أصلحوا ذات بينكم؛ في علاقة مع الزوج، خصومات دائمة، علاقة من الأولاد، علاقة من الجيران، علاقة مع الزبائن، علاقة مع المرؤوسين، علاقة مع الرؤساء، أنت موظف هناك من هو أعلى منك، من هو أدنى منك، علاقة مع هذا الذي يقف أمام الطاولة، علاقة مع مَن يشتري من عندك، علاقة مع مَن له علاقة معك علاقة مالية، فأصلحوا ذات بينكم .

والمعنى الثالث: أصلح كل علاقة بين اثنين، ولو لم تكن أنت طرفاً فيها، أصلح كل علاقة بين اثنين.

وقال تعالى في سورة الحجرات:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: ١٠]

يعني مثلاً: أخ بالجامع يتألم من أخ، أنت أحياناً ليس له حق أن يغضب منه، أو له حق، تتلقى الخبر من دون أن يكون، في لك فاعلية، أو لك نشاط إيجابي، لكن في أخ آخر مستواه أرقى، في مشكلة بين فلان وفلان، أجمع بينهما على خير، أدفع المذنب إلى الاعتذار من الذي أساء إليه، إذا تمكّنت من إصلاح ذات البين، فهذا عمل جليل، هذا البناء الشامخ فيه لبنة غير موجودة، فأحاول أن أسدها .

فأحياناً لقاء يحل مشكلة، أحياناً اعتذار لطيف، يذهب ما في الصدر من غل، أحياناً أسأت لأخيك قدم له هدية، هذه الهدية تذهب -كما قال عليه السلام- بوحر الصدر، تكلمت بحقه كلمة نابية، فوصلت إليه، صار هناك جفوة، فربنا عز وجل قال:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

أصلح نفسك، وأصلح علاقاتك، وأصلح كل علاقة بين اثنين، هذا الدين، هذا هو مجتمع المؤمنين، مجتمع المودة والمحبة، مجتمع الصدق، قال عليه الصلاة والسلام:

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته))

أما أن تتساهل بالغيبة، فهذا ليس من الدين شيء، هذه الأوامر الصريحة بالقرآن الكريم، وهذه النواهي كأن الله لم يأمر بها، وكأن الله لم ينه عنها، أنت تصلي، وتصوم، وتحج، وتزكي فقط، هذا الدين؟ هذه كما قال عنها النبي عليه الصلاة والسلام:

((بني الإسلام على خمس ...))

[أخرجهما البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر في صحيحهما]

هذه دعائم الإسلام، وليست هي الإسلام، هل تسمي دعامات البناء بناء؟ الدعامات شيء، والبناء شيء آخر، إذاً: هذه الآية يجب أن تكون لنا شعاراً:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

ثلاثة خطوط: أصلح نفسك بالتوبة، أصلحها بالإقبال على الله، أصلحها بالاستقامة على أمر الله، أصلحها بفعل الخيرات، هذه واحدة .

الآن: أصلح كل علاقة، لا تجعل علاقة مشوشة، لا تترك علاقة مضطربة، لا تترك حقدًا بينك وبين أخ، لا تترك هناك شحناء، في خصومة، في ذمة عالقة، في خلاف مالي، في خلاف على شيء من متاع الدنيا، اترك كل علاقة واضحة، إذا خلصت من إصلاح نفسك، ومن إصلاح العلاقات بينك وبين الآخرين، عندئذٍ ربما تنتقل إلى مرحلة ثالثة، وهي الإصلاح بين الناس، وهذا أعظم عمل، أن تكون مصدر خير للناس .

هذا الباب: باب الشفاعة، باب دقيق جداً في التعامل، فالإسلام كما قال سيدنا عمر:

((من شاء صام، ومن شاء صلى، ولكنها الاستقامة))

فقيمتك كمسلم عند الله، بانضباطك وفق أوامر الدين، لا بما تؤديه من عبادات جوفاء.

سؤال ورد :

شيء آخر: جاءني سؤال فقهي في الدرس الماضي: هل تجوز الصلاة بعد صلاة فريضة العصر، وبعد صلاة فريضة الفجر، وبعد صلاة الوتر؟ .

الحقيقة: أن الصلاة بعد طلوع الشمس، ليس هناك صلاة، أو بعد صلاة الفجر، ليس هناك صلاة، إلى أن تطلع الشمس، عندئذٍ تصلي الضحى، الصلاة بعد الفجر، ليس هناك لا سنة، ولا قضاء، ولا أي شيء آخر، حتى لو أردت أن تقضي سنة الفجر، وهي من السنن المؤكدة، تقضيها بعد طلوع الشمس، يحرم أن تصلي، والشمس تطلع إلى أن ترتفع، ويحرم أن تصلي، والشمس في كبد السماء، إلى أن تزول، ويحرم أن تصلي، والشمس تغرب إلى أن يذهب قرصها تحت الأفق، في ثلاثة أوقات .

ولا قضاء للصلاة بعد صلاة فريضة الفجر، ولا بعد فريضة العصر، ولا بعد صلاة الوتر، لأنه كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام، جعل صلاة الوتر آخر صلاة .

على كلٍ؛ أما تحية المسجد -كما جاء في السؤال- فهناك خلاف فيها: هل تصلى في وقت الكراهة؟ يعني إذا دخلت إلى المسجد قبيل المغرب، هل تصلي تحية المسجد؟ الأرجح: ألا تصلى تحية المسجد في وقت الكراهة .

ما هي الحكمة الربانية من هذا العرض التي قدمته قريش للنبي للتنازل عن دعوته، وما موقف النبي من هذا العرض، وماذا نستفيد من هذا الموقف بشكل مجمل؟:

وقد وعدتكم في الدرس الماضي، أن أبدأ موضوعاً في السيرة، الحقيقة: أنا قبل سنتين عالجت سيرة النبي عليه الصلاة والسلام من زاوية الشمائل، أما هذه المرة فسوف تعالج إن شاء الله تعالى من باب آخر، فنأخذ مواقف النبي عليه الصلاة والسلام مَوقفاً موقفاً، وما علاقتنا بهذا الموقف؟ .

كلكم يعلم أن النبي عليه الصلاة والسلام حينما جهر بالدعوة، وقد أمره الله سبحانه وتعالى أن يجهر بالدعوة، حيث قال له:

(فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ)

[سورة الحجر الآية: ٩٤]

حينما جهر بالدعوة، رأت قريش أن النبي عليه الصلاة والسلام سب آلهتها، وسفَّه أحلامها، وعاب دينها، رأت فيما بينها وبين زعمائها، أن يعرضوا على النبي عليه الصلاة والسلام، لعله يريد مالاً، عرضوا عليه أن يجعلوه أغنى أغنيائها، ولعله يريد مُلكاً، فعرضوا عليه ألا يقطعوا أمراً دونه، أي يملّكوه عليهم، ولعله إنما يريد متعةً، فعرضوا عليه أن يزوجوه من أجمل فتيات قريش .

الحقيقة: هذا العرض فيه حكمة بالغة، ما الحكمة من هذا العرض البالغ؟ هو أن النبي عليه الصلاة والسلام هو رسول الله، وهو مبرأ من كل هذه الأهداف الأرضية، هو فوق هذه الأهداف الأرضية، فوق أن يبتغي من هذه الرسالة ملكاً، وفوق أن يبتغي من هذه الرسالة مالاً ، وفوق أن يبتغي من هذه الرسالة متعة، ولكن حينما ينطلق أعداء الإسلام للنيل من النبي عليه الصلاة والسلام، ماذا يقولون؟ يقولون: إنما أراد من هذه الدعوة، أن يملك رقاب العرب، أو يقولون: إنما أراد حظوظه من الدنيا، أو يقولون: إنما أراد أن يكون سيداً عليهم، حينما جاءت هذه العروض الثلاثة من زعماء قريش للنبي عليه الصلاة والسلام، ورفضها جميعاً، وقال قولته الشهيرة:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

أيها الأخوة، لا أعتقد أن في هذا المسجد، أو في العالم الإسلامي واحدًا، ما سمع بهذا الخبر، أن النبي عليه الصلاة والسلام، حينما عرضت عليه قريش، أن يكون أغنى أغنيائها، أو أن يكون سيداً فيها وملكاً، أو أن يكون زوجاً لأجمل فتاة في قريش، كيف وقف النبي هذا الموقف؟ .

أردت من سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن تكون دليلاً لنا، أن تكون مناراً لنا، نبراساً، مشعلاً وضَّاءً، يعني: أنت أيها الأخ الكريم، أيها المؤمن، هل عندك في حياتك أشياء لا تساوم عليها أبداً؟ في بحياتك فوق المساومة، فوق المرونة، فوق الأخذ والعطاء، هذه لا أفعلها ورب الكعبة، ولو أطبقت السموات على الأرض، هذا هو الفرق بين كبار المؤمنين وبين صغارهم، فهل أنت مستعدٌ أن تنسحب من شركةٍ ذات أرباح طائلة، لأن كسب المال حرامٌ؟ عندك استعداد، دخل كبير أن تضعه تحت قدمك، لأن في هذا الدخل شبهة، لماذا وقف النبي هذا الموقف؟ لماذا قال:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي))

لماذا؟ .

إنه يعلمنا أنه يجب أن تكون صاحب مبدأ، يجب أن تكون شهوات الدنيا تحت قدمك من أجل مبدئك، يجب ألا تساوم على أمر دينك، موضوع الدين لا يساوم عليه، ليس هناك أنصاف حلول، بالمبادئ لا توجد مساومات، هذه حرام، لا أفعلها، لا أفعلها، ولو غضب الناس، ولو قالوا عني ما يقولون، ولو اتهمونني بأنني بعيدٌ عن أساليب اللباقة والكياسة الاجتماعية، أنا لا أدخل أمام نساءٍ كاسيات عاريات لأجلس أمام خطيبتي، لا أفعل هذا، هذا خلاف الدين، ولو أن الناس انتقدوني، وقالوا: لعل فيه عيباً خطيراً، لا، يجب أنت كمؤمن، لا توجد مساومات بالموضوع إطلاقاً، يجب أن تكون في حياتك أشياء لا تقبل المساومة، لا تقبل نصف الحل، لا تقبل القيل والقال، هذا الشيء لا أفعله، ولو ضحَّيت من أجله بمال الدنيا، فإذا قرأت سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، لماذا أنت تقرأها إذاً؟ أتقرأ هذه السيرة للتسلية؟ أتقرأها لأخذ العلم؟ أتقرأها لجمع الحقائق؟ لا والله ، يجب أن تقرأها ليكون النبي عليه الصلاة والسلام قدوة لك في هذا الموضوع، عرضوا عليه المال فأبى، عرضوا عليه المُلك فأبى، عرضوا عليه أن يكون زوجاً لأجمل فتاة في قريش فأبى، قال:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي))

أما هذا الموقف المرن، دائماً يخاف على مصالحة، يخاف على مكتسباته، يخاف على دخله الكبير، يخاف على ما هو فيه، مستعد أن يساوم، أن يقبل بأنصاف الحلول، أن يجامل، هذه شركة دخلها كبير جداً، أنا لا أنسحب منها، أخي نبحث عن فتوى لهذا الموضوع، نبحث عن حل، نسأل بعض الشيوخ، لعلهم يرخصون بهذه المخالفة الشرعية، هذا الذي يجعل مصلحته فوق كل شيء، ويقلب المبادئ من أجل مصلحته، ليس هذا هو المؤمن، الذي يجب أن يكون كذلك.

فهذه اللقطة من السيرة: يجب أن تسأل نفسك، هذه لا أستطيع أن أفعلها، هكذا تريد الزوجة، والله لست مستعداً أن أدخل في مشكلة معها، يا أخي سددوا وقاربوا، هذه معصية، ما هذه سددوا

وقاربوا؟! هذه معصية صريحة، أما إذا كنت مؤمناً كما أراد النبي عليه الصلاة والسلام، وكما كان لك قدوة حسنة، قال له:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

إليكم هذه الاستنباطات الثلاث من موقف النبي :

أول استنباط من هذا الموقف المشرف الذي وقفه النبي عليه الصلاة والسلام: أن تكون أنت أيها المؤمن صاحب مبدأ، وصاحب المبدأ لا يقبل أنصاف الحلول، هذا حلال أم حرام؟ حرام، إذاً لا أقبله، يجب أن تضع تحت قدمك أقوال الناس، وسمعتك الاجتماعية، واتهاماتهم لك، بأنك غير لبق، غير مرن، لا يوجد عندك كياسة، كما قال بعض الأدباء: صاروا يسمون التملُّق أدباً، واللكنة فصاحة، وأكل الحقوق كياسة ......

فبعصور التخلف الاجتماعي، يصبح النفاق لباقة، يصبح الكفر ذكاءً، يصبح أكل المال الحرام شطارةً، في مثل هذه المجتمعات، يجب أن تظهر دينك: أنا هذا الشيء لا أفعله، ولا أقبل به .

إذا قرأت سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وأردت أن تكون مؤمناً حقاً، وأردت أن تقتفي أثر النبي عليه الصلاة والسلام، وأن تجعله قدوة لك، هذا موقفك، كان النبي عليه الصلاة والسلام رجل مبدأ، وأنت كمؤمن يجب أن تكون رجل مبدأ، فأحياناً بعملك التجاري، تضطر إلى أن تضحي بمالٍ كبير من أجل سلامة استقامتك، فإذا كنت مؤمناً حقاً، والله الألف والمليون، واحد عند المؤمن، لأن هذا لا يرضي الله .

أحياناً بعلاقاتك الزوجية أو الاجتماعية، تضطر إلى أن تقف موقف مشرِّف، ربما غضب منه الغاضبون، وربما يلوكون هذه القصة بألسنتهم، فليفعلوا ما يشاؤون، أما هذا الذي يستطيع يرضي الناس كلهم فهو منافق، كأن سمعته أغلى عنده من رضاء الله عز وجل، لذلك يحرص على مصالحه قبل كل شيء، يحرص على سمعته قبل كل شيء، يسدد، يقارب، يتساهل بهذه، هذه لها عنده تخريج، وهذه لها عنده عذر، وهذه نأخذ رأي فلان الفلاني بذلك، وهو على مصالحه قائم، وعليها حريص، ويقرأ سيرة النبي، ولا يقف هذا الموقف البطولي .

طبعاً: لا يعني هذا أن تلقي بنفسك في التهلكة، ليس هذا أريد، ولكن إذا كان مبدؤك الذي تحرص عليه، يحول بينك وبين ربح جزيل، يعني يدخل عليك شبهة، فإذا رضيت بهذا الربح الجزيل مع الشبهة والمخالفة، فأنت لم تقف موقف النبي عليه الصلاة والسلام .

أعيد عليكم هذا السؤال: هل في حياتنا نحن أشياء ثابتة، مقدسة، لا يمكن أن ننال منها، ولا أن نساوم عليها؟ إذا فعلنا ذلك، فقد اقتفينا أثر النبي عليه الصلاة والسلام، هذا أول استنباط.

الاستنباط الثاني: أن النبي عليه الصلاة والسلام، حينما عرضوا عليه الملك، لماذا لم يقبل؟ .

أنا في الدرس الماضي قلت لكم: سيرة النبي عليه الصلاة والسلام من حيث الأحداث تعرفونها جميعاً، فلا جدوى من أن نعيد على أسماعكم، ما جرى في عهد النبي عليه الصلاة والسلام، ولكنه الذي أريد من درس السيرة: أن نأخذ موقفاً من مواقف النبي عليه الصلاة والسلام، ونعمق فهمه، ونستنبط منه الدلالات، والعبر، والحقائق، والتوجيهات .

فالآن سؤال آخر: النبي عليه الصلاة والسلام لماذا حينما عرضت عليه قريش أن يكون ملكاً عليها، لِمَ لَمْ يقبل، ويضمر في نفسه: أنه من خلال هذا الملك، يقيم دين الله عز وجل؟ .

الحقيقة الموضوع دقيق جداً: وهذا هو الفرق العظيم بين الإسلام وبين غيره من الأديان، أو وبين غيره من المذاهب .

في الإسلام لا يمكن أن نصل إلى الهدف النبيل إلا بوسيلةٍ نبيلة، الهدف النبيل له وسيلةٌ من جنسه، الهدف النبيل لا بد من أن نسلك له طريقاً نبيلاً شريفاً، أما أن نسلك إلى الهدف العظيم طريقاً فيه مخاتلة، أو فيه مخادعة، أو فيه موقف غير أخلاقي، هذا يرفضه الإسلام أشد الرفض .

ففي الإسلام الغايات النبيلة، لا تبرر الوسائل غير النبيلة، فلو أن النبي عليه الصلاة والسلام قَبِلَ المُلك، ليكف الدعوة إلى الله، وهو في نفسه، أضمر أن يقبل هذا المُلك، ليقيم دين الله، هذا صار موقفًا فيه احتيال، أو هذا الموقف فيه مخاتلة، هذا الموقف لا يليق بالنبي عليه الصلاة والسلام .

فلذلك: وهذا عندنا نحن في هذا العصر، لا ينبغي أن تسلك لهدف نبيل وسيلة غير نبيلة، الهدف النبيل له طريقٌ نبيل، الهدف الشريف له طريق شريف، الهدف المشروع له وسيلة مشروعة، هذه نقطة دقيقة جداً .

هناك أناس يصلون إلى أهدافهم التي يدَّعون أنها نبيلة، من خلال أساليب ملتوية، فيها احتيال، أو فيها إيهام، أو فيها كذب، أو فيها نفاق، هذا مرفوض أشد الرفض، لو أن النبي عليه الصلاة والسلام نوى في قلبه، أنه يقبل المُلك من قريش، من أجل أن يقيم دين الله عز وجل، وهم حينما وادعوه وسالموه، وعرضوا عليه المُلك، وملكوه عليهم، من أجل أن يكف عن هذه الدعوة، ثم فوجئوا بأنه دعا إلى الله، بعد أن صار ملكاً عليهم، ما الفرق بينه وبين المخادع إذاً؟ ما الفرق بين الصادق المخلص وبين الكاذب المخادع؟ إن الوسيلة غير المشروعة، لو قبلت تحت اسم الحِكمة واسم الغايات تبرر الوسائل، لاجتمع الشريف مع غير الشريف، ولو اجتمع الصادق مع غير الصادق، إذاً: هذه نقطة مضيئة ثانية من موقف النبي عليه الصلاة والسلام .

كن أنت صريحاً، أحياناً بالعلاقات التجارية يكون في خطأ بالحساب، أخي أنا لي حساب ما دفعه، هذا الأسلوب باسترجاع المال، أسلوب غير شريف، بَلِّغه أنه قد وقع خطأ بالحساب، وأنا لي عندك هذا المبلغ، فسوف آخذه مكان هذا المبلغ، بلغه، فإذا وافق فكان بها، أما أن تسلك لأخذ حقك أسلوب المخاتلة، والخطأ بالحساب، وما عنده علم، فهذا طبعاً أيضاً غير مقبول في الشرع .

بالمناسبة: الموضوع ما أردت أن أصل إلى كل أبعاده، لو أن لك حقاً ثابتاً، أي ما في خلاف إطلاقاً، وقد امتنع امتناعاً كلياً عن أن يدفعه إليك، وقد صار بيدك مال له، يجب أن تأخذه، ويجب أن تبلغه .

الاستنباط الثالث: من أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر، ما تركته، حتى يظهره الله أو أهلك دونه))

استنباطٌ نفى عنه كل أطماعه الأرضية، وأحياناً ربنا عز وجل وأنت في طريق الإيمان، يضعك في مشكلات، أو في مآزق، أو في امتحانات، ليس القصد منها أن يعاقبك، أنت مستقيم، بل إن القصد منها أن يظهر شرفك، أو أن يظهر ورعك، أو أن يظهر استقامتك، أو أن يظهر عفّتك، لذلك لا تحزن، قال تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة الآية: ٢١٦]

فهذه القصة لو أنها لم تقع، لاستطاع بعض أعداء الدين، أن ينالوا من النبي عليه الصلاة والسلام، إنما أراد بهذه الدعوة أن يتملّكهم، أن يملك رقابهم، أن يستعلي عليهم، لا، هذا العرض جاء من الله عز وجل، عن طريق زعماء قريش، لماذا جاء هذا العرض؟ ولماذا كان هذا الضيق؟ ولماذا كانت تلك المعارضة؟ ولماذا كانت هذه المأساة؟ من أجل أن يظهر شرف النبي عليه الصلاة والسلام .

فأنت أحياناً قد تصاب بضائقة مالية، وأنت في هذه الضائقة المالية، يأتيك عرضٌ مغرٍ ، لكن فيه شبهة، فترفضه، رفض هذا العرض، وأنت في ضائقة مالية؛ يظهر عفتك، ويظهر ورعك، ويظهر شرفك، لا قيمة لهذا الامتحان، لو لم تكن في ضائقة مالية، ولا قيمة لهذا العرض، لو لم تكن في ضائقة مالية، وهذه القصة كان من الممكن ألا تكون، ولكنها كانت لتعرف نفسك، وليعرفك الناس، لذلك:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة البقرة الآية: ٢١٦]

نهاية القول :

أيها الأخوة، فصار عندنا في هذا الموقف ثلاثة أسباب:

أول شيء: أن النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن وقف هذا الموقف، من هذه العروض المغرية، لا يستطيع أعداؤه حتى آخر الزمان، أن ينالوا من طهر نفسه، ومن نبل قصده، ومن نزاهة روحه، هذه العروض جاءت فرفضها . الهدف الثاني: أن النبي عليه الصلاة والسلام في حياته أشياء لا تقبل المساومة، وليكن ما يكون، فإذاكنت مؤمناً حقاً، فاقتف أثر النبي في هذا الموقف .

والشيء الثالث: أن النبي عليه الصلاة والسلام، أراد أن يقف هذا الموقف، ليكون درساً لنا في المستقبل.

فأنت لا تفعل إلا كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام، فالإنسان في حياته اليومية قبل أن يقدم، قبل أن يفعل، قبل أن يقف، قبل أن يتكلم، قبل أن يوافق، قبل أن يرفض، ليضع هذا الموقف النبيل نصب عينيه.

طبعاً: كل شيء تفعله أو تقوله مسجل عليك، هذا الموقف وقفه النبي قبل ألف وأربعمئة عام تقريباً، ولا يزال يتلى في كل مجلس علم، ولا يزال يذكر، ولا تزال هذه السيرة عطرة .

وأنت أيها المؤمن، إذا وقفت موقفًا أخلاقيًّا، أولادك، وأولاد أولادك، والناس من بعدك إلى مئات السنين، يقولون: جدنا فعل كذا وكذا، كان هذا موقفه، فإما أن تقف موقفاً يكون ذا ذكرٍ عطر، وإما أن تقف موقفاً آخر، يستحي منه الأحفاد والأبناء.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٣٣-١٠١) : باب علامات حب الله تعالى العبد، والحث على التخلق بها، والسعي في تحصيلها -حديث من عادى لي ولياً........، قصة حمزة بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلاة والسلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٠-٠٢-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم شرح مفردات هذا الحديث ومدلولاته: من عادى لي ولياً....... :

١-من عادى لي ولياً.......بالحرب :

أيها الأخوة الأكارم، كنا في كتاب رياض الصالحين، وهو كتابٌ جمع فيه الإمام النووي رحمه الله تعالى، نخبةً مختارة من الأحاديث الصحيحة التي نقلت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وحينما وصلنا إلى باب حقوق الزوج على زوجته، تابعنا هذا الموضوع، فتحدثت عن حقوق الزوجة على زوجها، ثم حقوق الآباء على الأبناء، ثم الأبناء على الآباء، ثم انتقلنا إلى حقوق المسلم على المسلم، وأنهينا موضوع الحقوق بحقوق الطريق .

والآن: نعود ثانية إلى كتاب رياض الصالحين، والباب اليوم: باب علامات حب الله تعالى العبد، والحث على التخلق بها، والسعي في تحصيلها .

الحديث اليوم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

هناك حديثٌ نبويٌ شريف، وهناك حديثٌ قدسي، والفرق بينهما واضح، كلاهما رواهما النبي عليه الصلاة والسلام، لكن الحديث القدسي رواه النبي عليه الصلاة والسلام عن ربه، فالمعنى من الله عزَّ وجل، وللحديث القدسي طريقةٌ خاصة، وصياغةٌ خاصة، ومعانٍ خاصة، على كلٍ؛ مر بنا من قبل طائفةٌ كثيرة من الأحاديث القدسية .

عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

[أخرجه البخاري عن أبي هريرة في الصحيح]

هذا الحديث القدسي فيه موضوعاتٌ شتَّى، أي عديدة، وفيه معانٍ دقيقة، فالله سبحانه وتعالى فيما يروي النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه يقول:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

الآن: من هو الولي؟ الولي هذه الكلمة مأخوذةٌ من عدة مصادر، الوَلْيُ القرب، وإلى يوالي ولياً، أي اقترب، فالولي هو القريب من الله عزَّ وجل، من أبسط معاني الولاية: أن يكون هذا الإنسان قريباً من الله عزَّ وجل .

السؤال الآن: متى يكون الإنسان قريباً من الله عزَّ وجل؟ باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، الطريق إلى الله سالكة، أبواب الله سبحانه وتعالى مفتَّحة، الخلق كلهم عند الله سواسية.

((يا سعد، لا يغرنك أنه قد قيل: خال رسول الله، فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له))

فإذا سمعت كلمة الولي، فلانٌ ولي، فلان من أولياء الله الصالحين، كلمة الولي بمعناها البسيط: الإنسان القريب من الله عزَّ وجل، الله سبحانه وتعالى مصدر الكمال، فالقريب منه كامل، الله سبحانه وتعالى مصدر السعادة، فالاقتراب من الله سعادة، فمن صفات الولي: أنه كامل، من صفات الولي: أنه سعيد .

يقول لك الولي وهو صادق: ليس في الأرض من هو أسعد مني، ليس في الدنيا، ليس بوفرة المال، ولا بعلو الجاه، ولا بكثرة الأموال والأولاد، لا، ليس في الأرض من هو أسعد مني بالله عزَّ وجل، إلا أن يكون أتقى مني، قال تعالى:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: ١٣]

فالولي هو الإنسان القريب من الله عزَّ وجل، والقرب من الله عزَّ وجل ثمنه: اتباع أمره، واجتناب نهيه.

الإمام الجنيد سئل:

((من ولي الله، أهو الذي يطير في الهواء؟ قال: لا، قالوا: أهو الذي يمشي على الماء؟ قال: لا، قال: الولي كل الولي، هو الذي تجده عند الحلال، وتفتقده عند الحرام))

أن يجدك حيث أمرك، وأن يفتقدك حيث نهاك، إذا فعلت هذا، فأنت من أولياء الله، طاعتك لله واجتنابك لما ينهى عنه، هذا العمل يدفعك إلى باب الله، يجعل الطريق إلى الله سالكاً ، يجعلك قريباً من الله عزَّ وجل، في القرب سعادة، في القرب نور، في القرب طمأنينة، في القرب شعور بالتفوُّق، شعور بالنجاح، شعور بالفلاح، في القرب توفيق، القرب من الله تعالى شيءٌ ثمينٌ جداً، فكلمة الولي من معانيها: أنه قريب، والكافر بعيد، قال تعالى:

(أولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

[سورة فصلت الآية: ٤٤]

الكافر بعيد عن الله، عمله السيء أبعده عن الله، معنى ملعون: أي أن الله أبعده، العمل السيء يبعد، والعمل الطيب يقرِّب، فالولي إنسان قريب، ويستحيل أن يكون الإنسان قريباً من الله عزَّ وجل دون أن يكون سعيداً، يسعد بالله، هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((يَا بِلَالُ أَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ))

هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ))

[أخرجه النسائي عن أنس بن مالك في سننه]

هذا معنى قول الله عزَّ وجل :

(وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ)

[سورة العلق الآية: ١٩]

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)

[سورة طه الآية: ١٤]

((الصلاة نور))

((الصلاة حبور))

((الصلاة طهور))

فباب الولاية مفتوح، هذا المعنى الساذج: أن هؤلاء أولياء الله، أناسٌ قلة اختصهم الله، باب الولاية مفتوح، أي واحدٍ من هؤلاء الحاضرين الأكارم، باب الولاية مفتوحٌ أمامه، أطعه، وأخلص له، واجتنب نهيه، تكن من أوليائه، قال تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[سورة يونس الآية: ٦٢-٦٣]

(مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا): العداء منوَّع؛ هناك عداء قولي، هناك عداء مادي، العداء من لوازمه الإيذاء، المعادي يؤذي، يؤذي بلسانه، ويؤذي بعمله، ويؤذي بإعراضه، فـ:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

هذا المعنى الأول للولي .

ولكن هناك معنى آخر: الولاية، والى يوالي ولياً، أي اقترب، أما والى يوالي ولايةً، أي نصر .

من معاني الولي: أنه ينصر دين الله عزَّ وجل، مجَنَّد في خدمة الحق؛ أفكاره، علمه، قوته، خبراته، وقته، ماله في خدمة الحق، يقدِّم كل ما عنده في سبيل: أن ينتشر هذا الدين، هذا المعنى الآخر من معاني الولاية .

فلان ولي، المعنى الأول: إنه قريب، والمعنى الثاني: إنه ينصر دين الله عزَّ وجل، والى يوالي ولياً؛ اقترب، والى يوالي ولايةً؛ نصر، قال تعالى:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

[سورة محمد الآية: ٧]

إذا أقمت أمر الله فأنت تنصره، لو أن طائفة من التجار، كلهم حينما يؤذن الظهر يتجهون إلى المساجد، فالذي لا يتجه، يشعر بالوحشة، ويشعر بالضيق، أما إذا كان الجميع لا يصلون، يشعر هذا الذي سيصلي بالانفراد، معنى ذلك: أنه كلما طبَّق الناس أمر الله عزَّ وجل، تمكن دين الله في الأرض .

ما الذي يمكن دين الله في الأرض؟ أن يطبقه الناس، أنت يمكن أن تنصر القرآن باتباع أحكامه، ويمكن أن تخذل القرآن بالبعد عن تطبيقه، فالله سبحانه وتعالى ليس بحاجةٍ إلى نصرٍ، لكن الله عزَّ وجل يقول:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ)

[سورة محمد الآية: ٧]

فهل الله سبحانه وتعالى خالق الأكوان بحاجةٍ أن ننصره؟ الحقيقة: إذا اتبعت أمره، وانتهيت عما نهى، فقد نصرت دينه، فكلَّما طبق الإنسان أوامر الله عزَّ وجل، اتسعت رقعة المؤمنين، وحينما

تتسع رقعة المؤمنين، هذه الرقعة إذا اتسعت، لا بد من أن تفرز أناساً يتولون أمرها، كلما ضاقت هذه الرقعة، جاء أناسٌ آخرون، أمروا بغير ما أمر الله، ونهوا عن غير ما نهى الله .

فلذلك: الولي بالمعنى الثاني من الولاية، ولكن والى يوالي ولايةً، الولاية المحبة، المعنى الأول: القرب، والمعنى الثاني: النصر، والمعنى الثالث: المحبة .

الله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين بأنه يحبهم ويحبونه، فالحب في الإسلام أصل، الإسلام دون حب، جسدٌ من دون روح .

((والله لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما))

فالمحبة أصل في الدين، فأنت إذا أحببت، وإذا نصرت، وإذا اقتربت، فأنت من أولياء الله، وهذه الأبواب كلها مفتوحة .

(مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا): لكن هناك شيء دقيق أوضحه بمثل، قد تقول: مليون، هذه كلمة، شتان بين أن تقولها، وبين أن تملكها، فرقٌ كبيرٌ جداً، قد تقول: طبيب، وهذه كلمة، شتان بين أن تلفظها، وبين أن تكون طبيباً، المسافة كبيرة جداً، قد تقول: ولاية، هذه كلمة ننطقها، ولكن شتان بين أن تلفظها، وبين أن تكون ولياً لله عزّ وجل، إذا كنت ولياً لله فأنت من أسعد الناس، فأنت من أكثرهم طمأنينةً، أنت من أكثرهم راحة نفسية، أنت من أكثرهم شعوراً بالنجاح، والتفوق، والفوز، قال تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب الآية: ٧١]

(مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا): المعاداة إذاً: من لوازمها الإيذاء، العداء حال نفسي داخلي، وسلوك ظاهري، الحال النفسي؛ الكراهية والبغض، والسلوك الظاهر؛ إما إيذاءٌ بالكلام، وإما إيذاءٌ بالفعل .

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

وفي القرآن الكريم ورد قوله تعالى:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٧٩]

المرابون، موضوع الحرب شيء مخيف، خالق الكون يحارب هذا الإنسان، كلك بيده؛ جسمك، أعضاؤك، أجهزتك، حركاتك، سكناتك، بيتك، أهلك، أولادك، عملك، تجارتك، مصنعك، وظيفتك، خصمك، أعداؤك كلهم بيده، مليون باب وباب، يمكن أن ينتهي الإنسان إذا حاربه الله عزّ وجل، فهنا الحديث:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

الآن: يا ترى أنا علي أن أتحقق من أنه ولي أو غير ولي؟ أنت خذ بالأحوط، إذا كان هذا الإنسان مظنة أنه ولي، فإياك أن تعاديه، هذا القسم الأول من الحديث .

عندنا في أصول الفقه المعنى المخالف:

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

؛ ولكن: ومن والى لي ولياً، أنت اخترع أو استنبط معنى آخر،

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ))

؛ فمن والى لي ولياً، لا شك في أن الله سيكرمه إكراماً شديداً، فمن أكرم أخاه المؤمن فكأنما أكرم ربه، هذا هو المعنى المخالف .

٢-وما تقرب إلي عبدي......عليه :

الفقرة الثانية من الحديث: (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ): مقام العبودية أعلى مقام يبلغه الإنسان، لكن هناك -كما قلت لكم من قبل- عبادٌ، وهناك عبيد، وفرقٌ كبير بين العباد والعبيد، العباد هم الذين عرفوا الله، واستسلموا له، وانقادوا لأمره طواعية، أما كل إنسانٍ من عبيد الله، هؤلاء مقهورون بالعبودية، يعني هو بيد الله، أو بعبارةٍ أخرى هو في قبضة الله عزَّ وجل، أنت عبدٌ لله بمعنى أنك في قبضته، في أية لحظةٍ ينهي حياتك، في أية لحظةٍ يصاب الإنسان بخلل في أجهزته، تصبح حياته جحيماً، في أية لحظة يفقد ماله كله، في أية لحظة ينهيه الله عزَّ وجل .

فمعنى عبد بالمعنى الأول: أنه مقهور، أنت في قبضة الله عزَّ وجل، فالعبد الذي جمعه عبيد، أي إنسانٍ على ظهر البسيطة من عبيد الله، لكن العباد أناسٌ عرفوا ربهم، واستقاموا على أمره، وتقربوا إليه، وأحبوه، هؤلاء عباد وليسوا عبيداً، قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً)

[سورة الفرقان الآية: ٦٣]

شيءٌ آخر: الله سبحانه وتعالى حينما ينسب العبد إلى ذاته، فهذه كما قال بعض شرَّاح الحديث:

((هذه نسبة تشريف))

فالله سبحانه وتعالى في عليائه نسبك إليه فقال: أنت عبدي، فكلما قرأت حديثاً قدسياً:

((يا عبادي))

((عبدي كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد))

هذه الأحاديث التي تفتتح بكلمة عبدي، ينبغي أن تهز مشاعر الإنسان، كأن يقول أب لابنه: أنت ابني، يعني منتهى الإنتماء، منتهى التشريف، منتهى العناية، منتهى العطف، منتهى التأييد، أنت ابني حقاً .

قال: (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ): قلت لكم في خطبةٍ سابقة: ربنا سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

[سورة المائدة الآية: ٣٥]

الوسيلة: أي شيءٍ قربك من الله عزَّ وجل، أنت في دمشق، والهدف حمص، أي شيءٍ قربك إلى هذه المدينة فهي وسيلة، فالدراجة وسيلة، والدراجة النارية وسيلة، والسيارة وسيلة، والقطار وسيلة، والطائرة وسيلة، إذا كان في بحمص مطار طبعاً، فكل شيءٍ يقربك إلى الله عزَّ وجل هو وسيلة .

إذاً: (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي): تقرب بعملٍ صالح، تقرب بطاعته، تقرب إلي بكف شهواته عن محارمي، تقرب إلي بإطعام الجائع والمسكين، تقرب إلي برعاية اليتيم، تقرب إلي بالنصح للمسلمين، تقرب إلي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تقرب إلي بقراءة القرآن، تقرب إلي بخدمة الخلق، تقرب إلي بتربية أولاده .

(وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ): يعني كل شيءٍ يمكن أن يرفع من مكانتك عند الله عزَّ وجل، كل شيءٍ تشعر أنه يقربك من الله، فهو من القُربات، فالإنفاق من القربات، والصلوات من القربات، والصيام من القربات، وعمارة المساجد من القربات، وخدمة الخلق، أي شيءٍ يرضي الله، فهو مما يقربك إليه .

وأنت أيها الأخ الكريم، بفطرتك تعرف ما الذي يرضيه، من دون أن يعلمك أحد، إذا أمطت الأذى عن الطريق، فأنت تتقرب إليه .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ))

أن تفرغ دلوك في دلو المستسقي قربة، أن تعطف على يتيم .

عَنْ سَهْلٍ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا))

[أخرجه البخاري في الصحيح، وأبو داود في سننه، والترمذي في سننه عن سهل بن سعد الساعدي]

أن ترعى أرملة، ليس لها أحد قربة، أن تنصح الناس في البيع والشراء قربة، أن تخدم عباد الله جميعاً قربة إلى الله عزَّ وجل، هذه القربات كثيرة جداً لا تعد ولا تحصى .

بعضهم قال:

((الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق))

((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ))

الآن: سوف ينبئنا الله عزَّ وجل في هذا الحديث القدسي، عن الشيء الثمين الذي يحب أن نتخذه قربة إليه، قال:

((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ))

الفرائض، لماذا؟ قال:

((لأن الأمر فيها جازم –الفرائض-، ولأن من يفعلها يثاب، ومن يتركها يعاقب))

من تعريف الفريضة: أنه يثاب فاعلها، ويعاقب تاركها، والأمر بها قطعي وليس ظنياً ، المكروهات، والمندوبات، الأمر بها ظني، لكن الفرائض الأمر بها قطعي، قطعيٌ في صياغته، قطعيٌ في لزومه، قطعيٌ في إيجابه، ومن يفعله يثاب، ومن تركه يعاقب، لذلك:

((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ))

الصلوات الخمس في الدرجة الأولى، صيام رمضان، حج البيت، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ)

[سورة آل عمران الآية: ٩٧]

أداء الزكاة، غض البصر، الكسب الحلال، الإنفاق الصحيح، تربية الأولاد، رعاية الزوجة، الإحسان إلى الجار، الأشياء التي وردت فيها نصوص ملزمة، بمعنى واجبة، هذه من الفرائض، لذلك قبل أن تذهب إلى العمرة كل عام، ولك أولادٌ ضائعون، محتاجون إلى رعايتك ، فأفضل شيءٍ أن تتقرب إلى الله عزَّ وجل بما افترضه عليك .

هناك أناسٌ يلهثون وراء النوافل ويدعون الفرائض، هناك أناسٌ لم يعرفوا نسبة أي شيءٍ في الدين إلى جوهره، فظنوا الأشياء الثانوية في الدين جوهراً، فألحوا عليها، وتمسكوا بها، وتركوا أصل الدين، لئلا نضيِّع الفرائض، ونُعْنَى بغير الفرائض، الله سبحانه وتعالى في هذا الحديث القدسي يقول:

((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ))

أمرك أن تكون صادقاً، فإذا فعلت أفعالاً طيبة نافلةً وكذبت، ماذا فعلت؟ أنت تركت الفريضة، واتبعت النافلة، هذا موقف فيه تناقض، هذا موقف غير متوازن، فالله سبحانه وتعالى في هذا الحديث يقول:

((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ))

قال تعالى:

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً)

[سورة النساء الآية: ١٠٣]

الزكاة:

((برئ من الشح من أدى زكاة ماله))

أنا لا أقول هذا تصوراً أو تخيلاً، ولكن أقول هذا عن وقائع اطلعت عليها، فتجد هناك شخصيات مضحكة، يترك الفرائض ويعنى بغير الفرائض، يحرم أولاده ليذهب إلى العمرة كل عام، وأولاده في أمس الحاجة إليه، لذلك المؤمن يجب أن يعرف أي شيءٍ يفعله، ما علاقته بجوهر الدين؟ .
هذا مثل يقرب هذا الموضوع: هذه السيارة، لو فرضنا أن رجلاً في طريقه سفر طويل، وأصاب المحركَ خللٌ خطير، وجد خللا في آخر الباب، يا ترى أيهما أهم: أن تصلح خلل الباب، أم أن تصلح خلل المحرك؟ هذا الذي يدع المحرك معطلاً، ويهتم بإصلاح باب السيارة، ويتألّم لهذا الخلل، وينسى أن هناك خللاً أخطر، وهو المحرك، هذا ما عرف أن المحرك هو جوهر السيارة، وأن هذا الباب يمكن أن يبقى بهذا الوضع إلى نهاية الطريق، فهذا المثل يوضح بعض حقائق الدين .

((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ))

بالمناسبة: العدل قسري، أما الإحسان فطوعي، ومع أن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)

[سورة النحل الآية: ٩٠]

العدل قسري، يعني قبل أن تفعل النوافل، عليك أن تؤدي الحقوق، عليك أن تتقن عملك ، عليك أن تنفع المسلمين، مثلاً النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ليس منا من وسع الله عليه، ثم قتر على عياله))

الأقربون أولى بالمعروف، الأقربون إليك أولى بمعروفك، لأنك تعرفهم، فالذي أريده: أن الله سبحانه وتعالى في هذا الحديث القدسي، أكَّد أن الشيء الذي يدفعك إلى الله سريعاً، أن تقوم بالفرائض، لذلك لا تقبل نافلة إلا إذا أديت الفريضة .

امرأةٌ مثلاً تصلي قيام الليل، والله شيء جميل جداً، تصلي صلاة الأوابين، تصلي الضحى، ومظهرها في الطريق فيه خلل، معصية للشرع، فأيهما أولى؟ أن يكون مظهرها في الطريق إسلامياً، تطبق فيه الشرع، هذه أولى من هذه .

يعني: في عندنا بالتعبير الحديث: سلم الأولويات، يجب أن تبدأ بالأولويات، فكلما انتهيت من شيء أساسي، انتقلت إلى شيءٍ آخر، أما أن تبدأ بالثانويات، وتدع الأشياء الأساسية، هذا ليس من الاستقامة في التفكير في شيء .

٣-وما يزال عبدي........لأعيذنه:

والفقرة الثالثة من الحديث:

((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ))

الآن: جاء دور النوافل، بعد الفرائض جاء دور النوافل، صلى الضحى، لماذا صلى الضحى؟ لأنه يحب الله عزَّ وجل، أدى زكاة الفريضة، ودفع فوق الزكاة مثل الزكاة صدقة، رعى أخوانه، رعى جيرانه، رعى أولاده وهو ملزمٌ بهم، ورعى يتيماً غير ملزمٍ به .

(وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ): وما يزال؛ مداومة، استمرار، يتقرب، ويتقرب، ينفق فوق الزكاة، يصلي فوق الفرائض، يصوم فوق رمضان زيادة عن رمضان، يفعل الصالحات، يخدم الناس .

(وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ): إلى أن يبلغ هذا العبد، أن يحبه الله عزَّ وجل:

((وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ))

يطعم الحيوان، ليس كل مصلٍ يصلي، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكفَّ شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب ، وآوى الغريب.
(وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ): وإذا أحبك الله نلت كل شيء، صدق القائل:

فليتك تحـلـو والحيـاة مريرةً وليتك ترضـى والأنـام غضابُ
ولــيت الذي بيني وبينك عامرٌ وبيني وبيــن العالمين خرابُ
إذا صح منك الوصل فالكل هينٌ وكـل الذي فوق الترابِ ترابُ

يا أيها الأخوة، إن شعور الإنسان بأن الله سبحانه وتعالى يحبه، هذا الشعور والله يفوق أن تملك الدنيا بأكملها، قبل درسين أو أكثر أو في الدرس الماضي، ثمة إنسان يملك محل في مكان مهم جداً، يقول لك: هذا المتر منه بخمسمئة ألف، لا يتكلم، تريد أن تبيع المحل؟ لا يتكلم ، فقط يرفع رأسه، محلان، ثلاثة، محل، وطابق، ومكتب، ومستودع كامل، شارع بأكمله وعلى الصفين، كل الشوارع التجارية الضخمة في المدينة تملكها أنت، وكل الشوارع التجارية في العالم كلها تملكها أنت، وكل الشركات ذات الجنسيات المتعددة الضخمة التي ميزانية أحدها كميزانية مجموعة دول، كل هذه

الشركات تملكها أنت، وكل ناقلات النفط لك، وكل شركات الطيران لك، والله الذي لا إله إلا هو لا تعدل هذه كلها أن يحبك الله عزَّ وجل .

(وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ): كيف؟ هذا الحديث مشكل، الله سمعنا، معنى الحديث يعني: كنت حافظاً لسمعه، هذا السمع أحفظه له، وهذه العين أحفظها له، وهذا اللسان أحفظه له، وهذه اليد أحفظها له، وهذه الرجل أحفظها له، كنت سمعه هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني: إذا فعل الفرائض، وفعل النوافل، وأقبل علي، استنار قلبه بنوري، عندئذٍ لا يسمع إلا الحق، لا يسمع الغناء، ولا الفحش، ولا البذاءة، ولا الكلام الفارغ، ولا الغيبة، ولا النميمة، ولا كلام السوء، فهذا السمع صار مصوناً بنور الله، هو استقام على أمره، أدى الفرائض، وأدى النوافل، وأقبل على الله عزَّ وجل، فاستنار قلبه عندئذٍ، حفظ الله له سمعه، لم يعد يمضي الساعات الطويلة في سماع ما لا يرضي الله عزَّ وجل، ولم يعد يمضي السهرات الطويلة في القيل والقال، وفي الخلافات والمشكلات، ولم يعد يتحدث عن النساء، لم يعد مزاحه رخيصاً .

(كُنْتُ سَمْعَهُ): فصار إنسانًا كاملا، لا يسمع إلا الحق، ويطرب للقرآن، أنا أقول لكم: والله الذي لا إله إلا هو، لو جمعت ذواقي الغناء في العالم، ما بلغ طربهم بما يستمعون إليه طرب المؤمن للقرآن، هذه الأذن تسمع القرآن، تسمع مدح النبي العدنان، تسمع الحق، تسمع النُصح، تسمع الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر .

المعنى الأول: أحفظ له سمعه، كنت حافظاً سمعه، المعنى الثاني: ما دام قد أقبل علي، عندئذٍ أحفظ له سمعه من أن يسمع باطلاً .

(كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ): أي كنت حافظاً لبصره .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ؛ عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

[أخرجه الترمذي عن ابن عباس في سننه]

فهذه العين التي تطيع الله فيها، الله سبحانه وتعالى يحفظها لك، والقصة الشهيرة تعرفونها، قلتها كثيراً، هذا العالم الجليل الذي بلغ السابعة والتسعين، وقد بدأ بتعليم الطلاّب العلم الشريف الشرعي، في الثامنة عشرة من عمره، يعني ظل يعلم سبعين عاماً، وكان إذا رأى أحد طلابه في الطريق قال له: يا بني، أنت كنت طالبا عندي، وكان أبوك طالبا عندي، وكان جدك طالبا عندي، علّم ثلاثة

أجيال، وهذا الذي بلغ الثامنة والتسعين وكان صحيحاً، حاد البصر، مرهف السمع، منتصب القامة، أسنانه في فمه، نشيطًا، قويًا، فكان طلابه يسألونه سؤال المتعلم:

((يا سيدي، ما هذه الصحة التي حباك الله بها؟ كان يقول قولته الشهيرة: يا بني حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر، من عاش تقياً عاش قوياً))

هذه: (كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ): حفظت له سمعه من أن يتلف، وحفظت له سمعه من الباطل: (كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ): وكذلك البصر .

الآن: (وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا): فهذه اليد لا تفعل إلا حقاً، لو أنها ضربت تضرب بالحق، تمسك بالحق، تلمس بالحق، هذه اليد لا يمس بها يد امرأةٍ لا تحل له.

(وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا)؛ أي أحفظ له يده عن أن تفعل منكراً، عن أن تفعل باطلاً، عن أن تعتدي، عن أن تفعل ما لا يجوز، وما لا يرضي الله عزَّ وجل .

(وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا): كذلك حركاته إلى المساجد، إلى الإصلاح بين الناس، إلى خدمة الخلق، إلى الدعوة إلى الله، إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى عمله ليكسب منه رزقه .

من لوازم حب الله تعالى لهذا الإنسان:

((وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ))

صار الإنسان غاليًا على الله عزَّ وجل، صار هذا الإنسان مستجاب الدعوة، غالٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ، نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ؟ هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

إذاً:

((وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ))

وفي الحديث الشريف:

((لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به))

إذا كان هواه علوياً، وتبعاً لما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام، صار سمعه، وبصره، ويده، ورجله، هذه كلها أصبحت تعمل وفق الأمر والنهي .

الآن: (وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ): إن سألني أعطيته، أما ولئن أعاذني لأعيذنه، هذه النون للتوكيد، لماذا جاء هنا نون التوكيد؟ قيل: لأن درء المفاسد مقدمٌ على جلب المنافع، الإنسان أحياناً يفزع،

ويطلب من الله الإكرام، لكن دفع الفزع عنه، ودفع الضر عنه، ودفع المصيبة عنه أوقع عنده من جلب المنفعة، لذلك ربنا سبحانه وتعالى مبالغةً في زيادة الطمأنينة لهذا المؤمن الذي أحبه الله عزَّ وجل، يقول:

((وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ))

على كلٍ؛ هذا الحديث أتمنى عليكم أن تعودوا إليه، وأن تقرؤوه في كتاب رياض الصالحين، في باب علامات حب الله تعالى العبد، والحث على التخلق بها، والسعي في تحصيلها .

أولاً فيه موضوعات دقيقة: ألا تؤذي أولياء الله، وأن تفعل الفرائض، وأن تتقرب إلى الله بالنوافل، وعندئذٍ تقطف الثمار والنتائج، طبعاً: هذا الحديث رواه البخاري، كما قلت قبل قليل .

إليكم الحديث عن حياة حمزة بن عبد المطلب قبل ظهور الإسلام :

والآن: إلى قصة سيدنا حمزة رضي الله عنه .

أيها الأخوة، قبل أن نتحدث عن بعض اللقطات، عن هذا الصحابي الجليل: سيدنا حمزة بن عبد المطلب، كانت مكة قبل أن يظهر الإسلام، حافلةً بألوان اللهو، وكانت المدينة الأولى في الجزيرة، والقرشيون منغمسون في تجارتهم، وملذَّاتهم، ولهوهم، وتباهيهم، وتفاخرهم، والنبي عليه الصلاة والسلام قبل البعثة كان مشغولاً بربه، كان يمضي الليل والنهار في التفكر في خلق السموات والأرض، كان يمضي الليل كله في مناجاة ربه.

لذلك هذا النبي العظيم، إضافةً إلى عبادته، وإلى حبه، كانت له أخلاقٌ سامية، هذه الأخلاق السامية ظاهرة، ظاهرة العيان، فأولو العقل واللب، هؤلاء الذين عاشوا مع النبي، ممن جاوره، ممن لاذوا به بقرابة، ممن كانوا معه، ممن كانوا في سنه، ممن تعاملوا معه قبل البعثة، طبعاً دهشوا لأخلاقه الرضيَّة، دهشوا لعفَّته، دهشوا لصدقه، لأمانته، لتعففه، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يبعث بعد، كان عليه الصلاة والسلام معقد أنظارهم، وكان يلفت نظر الناس من حوله، لما يتحلى به من أخلاقٍ رضية .

شيءٌ لطيفٌ في قصة النبي عليه الصلاة والسلام: أنه كان يمضي معظم الوقت متهجداً .

مرةً قالت له زوجته السيدة خديجة رضي الله عنها:

((ابق نائماً، أو خذ قسطاً من الراحة، فقال قولته الشهيرة: يا خديجة لقد انقضى عهد النوم))

انظر الإنسان كيف يمضي وقته؟ الوقت ثمين جداً، والحديث في الخطب السابقة عن الوقت:

((يا خديجة لقد انقضى عهد النوم))

فالإنسان يراقب نفسه، كيف أمضيت هذه الساعة؛ في لهوٍ، في نومٍ، في طلب علمٍ، في خدمة الناس، في قراءة القرآن؟ كيف أمضيتها؟ ما الذي يقلقني؟ ما الذي يهمني؟ ما الذي أفرح له؟ ما الذي أرجوه؟ ما الذي يخيفني؟.

((قل لي ما الذي يخيفك؟ أقل لك مَن أنت، قل لي ما يرضيك؟ أقل لك من أنت))

ربنا عزَّ وجل يقول:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات الآية: ٦١]

(فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا)

[سورة يونس الآية: ٥٨]

فرحك، وغضبك، وحزنك، ورجاؤك، وطموحك، وهدفك، هذا يحدد هويتك .

فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((انقضى عهد النوم يا خديجة))

أمر النبي كان معقد نظر أهل قريش، وكان سيدنا حمزة رضي الله عنه ترب النبي عليه الصلاة والسلام، هو عمه، ولكنه في سنه، كان ترب النبي، وكان أخاه من الرضاعة في الوقت نفسه، وكان ذكياً وعاقلاً، وكان حصيفاً، إلا أنه سلك مسلك زملائه من الشباب، حينما أقبل على الدنيا .

النبي عليه الصلاة والسلام أقبل على ربه، وهو أقبل على الدنيا، ولكن لا يخفى أن هذا الصحابي الجليل، كان على مستوىً رفيع من العقل، ومن الشجاعة، والمروءة، ولكنه انصرف إلى ما انصرف إليه الناس .

أحياناً: تجد إنسان يقع في مخالفة، لكن له معدن طيب، له معدن نبيل، عنده مروءة، من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام))

هؤلاء الذين أسلموا لهم جاهلية، ولكنهم وهم في جاهليتهم كانوا كراماً، كانوا أصحاب مروءة، كانوا أصحاب إنصاف .

فسيدنا حمزة مع أنه سلك مسلك أترابه قبل البعثة، لكنه يعرف أنه لسيدنا محمدٍ عليه الصلاة والسلام شأناً كبيراً، يعرف أن ذا أخلاقٍ رفيعة، هذا الذي عرفه عن النبي، كان ممهداً لإسلامه .

كان سيدنا حمزة، لا يعرف النبي عليه الصلاة والسلام معرفة العم بابن أخيه، كانت معرفة الصديق للصديق، والأخ للأخ، كان تربه، وكان أخاه من الرضاع، وحينما نشأا نشأا معاً، ولعبا معاً، وتآخيا معاً، وسارا معاً، لكن النبي أقبل على ربه، وسيدنا حمزة اتجه إلى ما اتجه إليه الناس .

إليكم قصة إسلام حمزة :

أيها الأخوة، في صبيحة أحد الأيام، خرج سيدنا حمزة كعادته إلى الكعبة، وعند الكعبة وجد نفراً من زعماء قريش، فجلس معهم يستمع لما يقولون، وكانوا يتحدَّثون عن سيدنا محمد ، ولأول مرة رآهم يقلقون من دعوة ابن أخيه، وتظهر في أحاديثهم نبرة الحقد والغيظ والمرارة، هو أعلن عن عدم مبالاته، وخفف عنهم، وقال: أن الأمر ليس خطيراً، وهم يعرفونه أنه يعرف حجم هذه الدعوة الجديدة .

الشيء الذي يلفت نظرنا في هذه السيرة: أنه خرج مرةً من داره متوشِّحاً قوسه، ميمِّماً وجهه شطر الفلاة، ليمارس هوايته المحببة وهي الصيد، وكان صاحب مهارةٍ فائقةٍ فيه، وقضى هناك بعض يومه، ولما عاد من قنصه، أي من صيده، ذهب كعادته إلى الكعبة، ليطوف بها قبل أن يقفل راجعاً إلى داره، وقريباً من الكعبة، لقيته خادمة لعبد الله بن جُدعان، ولم تكد تبصره حتى قالت له:

((يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمدٍ آنفاً من أبي الحكم بن هشام، وجده هناك جالساً؛ فآذاه، وسبَّه، وبلغ منه ما يكره .

-هو في الجاهلية، لم يسلم بعد، لكن أعماقه تحب النبي، صديقه، وتِربَه، وأخاه من الرضاع، ونشأ معه، والعاقل والذكي يقدِّر- مضت هذه الخادمة، تشرح لسيدنا حمزة ما صنع أبو جهلٍ برسول الله، واستمع هذا الصحابي الجليل لقولها جيداً، ثم أطرق لحظةً، ثم مد يمينه إلى قوسه، فثبَّتها فوق كتفه، ثم انطلق في خطىً سريعة حازماً صوب الكعبة، وفي هدوءٍ رهيب، تقدَّم حمزة من أبي جهلٍ، ثم استلَّ قوسه، وهوى به على رأس أبي جهل فشجه وأدماه ، وقبل أن يفيق الجالسون من الدهشة، صاح حمزة في أبي جهل: أتشتم محمداً، وأنا على دينه ، أقول ما يقول؟ ألا فرد ذلك علي إن استطعت .

-هذا الصحابي الجليل، عم النبي عليه الصلاة والسلام، أسلم في ساعة غضب، هناك أشخاصٌ يسلمون بعد التروي، والأخذ والرد، والمحاكمة والحسابات- في هذه اللحظة التي لم يحتمل، أن يصاب ابن أخيه بالأذى من قبل أبي جهل، أعلن إسلامه صراحة -وانتهى الأمر.

أيها الأخوة، لكن بعد أن أسلم، شعر أن هذا الدين فيه التزامات، وأنه ترك دين آبائه، هذه فطرة بالإنسان، لأن الإنسان يكره ترك ما ألفه، قال المتنبي:

خلقت ألوفاً لو رجعت إلى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

الإنسان أحياناً يتألم من ترك بيته، من ترك مركبته، الفراق صعب، فهذا معجب بسيدنا محمد،

لكنه على دين آبائه وأجداده، معجب فيه أخلاقياً، سلوكياً، ومحبته له، دفعته إلى هذا الموقف، لكنه أسلم الآن، ومعنى أسلم: أي عليه التزامات، ومواقف، وانحياز من فريق إلى فريق، وسيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام، حينما قال على سيدنا الصديق:

((ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة إلا أخي أبا بكر))

فسيدنا حمزة أعلن إسلامه، وترك هذا الجمع الذاهل يجتر خيبة أمله، وأبا جهلٍ يلعق دماءه النازفة من رأسه المجروح، ومد حمزة يمينه مرةً أخرى إلى قوسه، فثبتها فوق كتفه، واستقبل الطريق إلى داره، في خطواته الثابتة، وبأسه الشديد .

-وفي البيت وقع في صراعٍ مع نفسه؛ ترك دين آبائه، لم يألف هذا، لم يعرف ما الإسلام؟ ما حقيقته؟ وغير ذلك، هذا الصراع والأخذ والرد، والتمزق الداخلي، ألجأه إلى أن يطوف حول الكعبة، وأن يستخير الله عزَّ وجل- يروي ويقول: ثم أدركني الندم -على هذا الإسلام- على فراق دين آبائي وقومي، وبت من الشك في أمرٍ عظيم، لا أكتحل بنوم –لم يقدر على النوم- ثم أتيت الكعبة، وتضرَّعت إلى الله تعالى، أن يشرح صدري للحق، ويذهب عني الريب، فاستجاب الله لي، وملأ قلبي يقيناً -لأنه طالب حق وصادق- وغدوت إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فأخبرته بما كان من أمري، فدعا الله أن يثبِّت قلبي على دينه.

-وهكذا أسلم سيدنا حمزة، من عمالقة الإسلام، من عمالقة المسلمين، وله أعمال عظيمة جداً، ومن ذهب إلى المدينة المنورة، في مزار لسيدنا حمزة بأحد، مزار كبير، إذا وقف عند هذا المزار، عند قبره رضي الله عنه، ليذكر هذه المواقف القادمة .

الله سبحانه وتعالى أعز الإسلام بحمزة، فإذا كان للإنسان شأن، غني، عالم، وظف قوته، وغناه، وعلمه للحق، فهذا شرف له، أعز الله الإسلام بحمزة، ووقف شامخاً قوياً يذود عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن المستضعفين من أصحابه- .

منذ أن أسلم سيدنا حمزة، نذر كل عافيته، وكل بأسه، وكل حياته لله ولدينه، حتى خلع النبي عليه هذا اللقب العظيم فقال:

((حمزة أسد الله وأسد رسوله))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي لبيبة]

الإنسان إذا وزن نفسه مع هؤلاء يتلاشى نهائياً، ماذا فعلت أنت؟ نحن ماذا فعلنا؟ ماذا قدَّمنا؟ نقدم شيئاً يسيراً، ونمن على الله به، نذر كل وقته، كل بأسه، كل حياته، كل عافيته، كل ماله لله ولدينه، حتى إن النبي عليه الصلاة والسلام خلع عليه هذا اللقب، فقال:

((حمزة أسد الله وأسد رسوله))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي لبيبة]

في درسٍ قادم إن شاء الله تعالى، نتحدث عن موقفه الشريف والشجاع يوم بدر، وعن موقفه البطولي يوم أحد، وكيف استشهد يوم أحد؟ .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٣٤-١٠١) : باب القناعة والعفاف، والاقتصاد في المعيشة والإنفاق، وذم السؤال من غير ضرورة -حديث ليس الغنى...، حديث آخر: اليد العليا.......، قصة حمزة بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلاة والسلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٠-٠٣-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

ما الغاية من هذه المقدمة؟:

أيـها الأخـوة المؤمنون، ننتقل في هذا الـدرس، إلى بابٍ جديد من أبواب رياض الصالحين، للإمام النووي رحمه الله تعالى، والباب عنوانه: (باب القناعة والعفاف، والاقتصاد في المعيشة والإنفاق، وذم السؤال من غير ضرورة)، وقبل أن نشرح بعض الأحاديث التي وردت في هذا الباب، لا بد من مقدمة تربط هذه التوجيهات النبوية لأصل العقيدة .

حينما عرض الله سبحانه وتعالى الأمانة على السموات، والأرض، والجبال، وأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، وحملها الإنسان، فقال تعالى :

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ)

[سورة الأحزاب الآية:٧٢]

في هذه الآية: إشارة إلى أن الإنسان قبل حمل الأمانة، وقبل التكليف، وأن هذا الإنسان هو المخلوق الأول، فإذا عرف الإنسان نفسه عرف ربه، دائماً إذا ربطت الفروع بالأصل دائماً تأتي الحركة صحيحة، أما إذا ابتعدت عن الأصل، وبقيت في الفرع، ربما انحرف المسير، وربما ضل الإنسان الطريق، فالإنسان هو الذي قَبِلَ حمل الأمانة، إذاً: كأن الإنسان جاء إلى الدنيا ليكون أسعد المخلوقات، حينما يؤدي الأمانة كما أمر الله أن تؤدَّى .

بينما هناك صنفان من المخلوقات؛ صنف آثر المادة، وصنف آثر الروح، الملائكة مخلوقاتٌ من نور، عملها الدؤوب: التسبيح والتقديس، وليست مكلّفةً، وليست مختارةً، وليست مسؤولةً، ولا تحاسب، والحيوانات من نوع آخر، اختارت الشهوة، وعملها ضمن الاختيار الذي أنيط بها، ليست مسؤولةً، ولا مكلفةً، ولا محاسبة، ولكن هذا المخلوق العجيب: الإنسان الذي جمع الله فيه المادة والروح، جمع فيه المادة؛ فله جسد، لهذا الجسد متطلبات، وله نفس، ولهذه النفس متطلبات، تارةً يسمو، فيسبق الملائكة المقربين، وتارة ينحط، فيهوي به انحطاطه إلى أسفل سافلين .

الآن: ما دام الإنسان هو المخلوق الأول الذي قَبلَ حمل الأمانة، ما الذي يجعله يؤدي هذه المهمة؟ لا شك أنه العمل الصالح، لذلك: إذا عرفت أنك في الدنيا من أجل أن تعمل عملاً صالحاً، والدليل :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

أي أنك جئت إلى دار امتحان، إلى دار ابتلاء، إلى دار تكليف، إلى حياةٍ دُنيا، إلى حياة مؤقتة، إلى وقفة قصيرة، الشيء الذي تفلح به: أن تعمل عملاً صالحاً تلقى الله به، فتسعد به إلى أبد الآبدين . الملاحظ: أن الله سبحانه وتعالى، كان من الممكن، أن يخلق الدنيا بطريقة، حيث لا نعمل؛ البيوت جاهزة من دون أن تبني البيوت، الثياب منسوجة ومَخيطة، الطعامُ موجود من دون كسب رزق ولا سعيٍ، كان هذا من الممكن، لأنه كما تعلمون في علم العقيدة: ما سوى الله ممكن، الله سبحانه وتعالى واجب الوجود، وما سوى الله ممكن، هذه الحياة الدنيا كما هي عليه ممكنة، ويمكن أن تكون الدنيا من دون عمل، ولكن شاءت مشيئة الله عز وجل: أن كل شيء أودعه الله في الدنيا في الأرض من ثروات، يحتاج إلى عمل من قبَل البشر، فهذه المعادن التي أودعها الله في الأرض تحتاج إلى استخراج، تحتاج إلى تصفية من الشوائب، تحتاج إلى تصنيع، هذا الطعام الذي نأكله، يحتاج إلى أن تزرعه، وإلى أن تسقيه، وإلى أن تسمِّده، وإلى أن تعتني به، وإلى أن تفعل به كذا وكذا، إلى أن يصبح رغيف خبز، إذاً: ما من شيء خلقه الله سبحانه وتعالى، لن يصل إليك إلا بجهد بشري، هذا الجهد البشري أراده الله عز وجل ليكون -والعبارة دقيقة جداً - فرصة لك، لتعمل من خلاله العمل الصالح .

إذاً: أنت في حقيقتك مجموعة حركات، حركة، في عندنا صفة للأشياء سكونية، وصفة حركية، إما أن يبقى هذا الشيء في مكانه قابعاً إلى أبد الآبدين، نقول: هو سكوني، الإنسان طبيعته حركية، الإنسان موجود ليتحرك، أودع الله فيه الشهوات، ينطلق ليأكل، جعله الله يجوع، وهذا الجوع أحد الدوافع الكبرى لحركته في الأرض .

الآن: سيتحرك، في هذه الحركة؛ بإمكانه أن يكذب، وبإمكانه أن يصدق، في هذه الحركة؛ بإمكانه أن يخلص، وبإمكانه أن يخون، في هذه الحركة؛ بإمكانه أن ينصح، وبإمكانه أن يغش، إذاً: كل الذي تسعد به في الآخرة، لا يتبدى إلا من خلال حركتك .

لذلك هؤلاء الذين ينسحبون من الدنيا، يقبعون في صوامعهم، هؤلاء لا يرتقون إلى مستوى الذين خاضوا غمار الدنيا، وأطاعوا الله عز وجل، الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، خير من الذي لا يخالطهم، ولا يصبر على آذاهم .

فأريد من هذه المقدمة أن أقول: إن الإنسان في جوهره وقت وحركة، في تحرُّك، العمل تحرك، مجيئك إلى هذا المسجد حركة، ذهابك إلى عملك حركة، مشروع زواجك حركة ، أي شيء تفعله هو تحرك فيه دوافع، الحاجات الأساسية التي أودعها الله فيك هي الدافع، ومن خلال هذه الحركة يكون العمل الصالح، ليس في الإسلام انسحاب من الحياة .

النبي عليه الصلاة والسلام حينما أمسك بيد عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، رآها خشنة، فأمسك بها، وقال:

((هذه اليد يحبها الله ورسوله))

والنبي حينما قال:

((عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين))

سيدنا عمر كان يقول:

((إني إذا رأيت الرجل لا عمل له يسقط من عيني))

سيدنا علي يقول:

((قيمة المرء ما يحسنه))

ومن أجمل ما اطلعت عليه: أن سيدنا عمر رضي الله عن عمر، إحدى جولاته التفقُّدية في بلاد المسلمين، رأى في مدينة أكثر التجار من الأقباط، فعنَّفهم تعنيفاً شديداً، هم ماذا قالوا؟ قالوا:

((يا أمير المؤمنين، هؤلاء لقد كفونا مؤونة العمل -فأدرك هذا الخليفة الراشد ذي البصيرة الحادة، أدرك أنك إذا انسحبت من الحياة، أصبحت عبداً عند هؤلاء الذين يعملون- قال: كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم؟))

ببصره الثاقب رأى أن الحياة في جوهرها عمل، إنك ترقى بالعمل، ترقى بكسب المال، وترقى بإنفاق المال، وترقى بالتعامل مع المال، إذا قدَّمت عملاً جيداً فيه النصح، وفيه الإخلاص، وفيه الإتقان، وفيه الدقة، إن هذا مما يرفع من شأن المسلم .

لذلك: كما قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، إلا أن يتزود منهما معاً، فإن الأولى مطية للثانية))

فهذا المسلم لا يتقن عمله، الذي يضع نفسه في مؤخرة الركب، في الدرجة الدنيا من السلَّم، هذا المسلم يضيِّق على نفسه فرص العمل الصالح، لأن الله عز وجل يقول:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

هذه كلمةٌ عامةٌ شاملةٌ؛ إتقانك لحرفتك من العمل الصالح، إتقانك لتصرُّفاتك التي تفعلها في رعاية من يلوذ بك من العمل الصالح، حسن الرعاية من العمل الصالح .

فيا أيها الأخوة الأكارم، ما من شيءٍ يظهر فيه الإنسان على حقيقته إلا هو العمل، يؤكد هذا الكلام: أن سيدنا عمر -وتعرفون هذه القصة - حينما سأل عن شاهد فقال:

((من يعرف فلان؟ .

قال: أنا يا أمير المؤمنين .

قال: هل سافرت معه؟.

قال: لا .

قال: هل جاورته؟ .

قال: لا .

قال: هل حاككته بالدرهم والدينار؟ .

قال: لا .

قال: أنت لا تعرفه))

إذاً: متى يعرف الإنسان؟ من التعامل، من المجاورة، من الأخذ والعطاء، فالمقصود من هذا الكلام: أن المسلم يجب أن يكون متفوقاً في عمله، لأنه إذا تخلف في عمله بشكل أو بآخر، انحطت معنويات المسلمين، ما دام العمل يقوم به مسلم عملا غير متقن، أما ما دامت هذه الصنعة، صنعت في بلد أجنبي مثلاً كافر، إذاً: هي صنعة متقنة، أليس هذا مما يخدش سمعة المسلمين؟ .

من هذا المنطلق: من أن الإنسان هو المخلوق الأول، وأن الله جاء به إلى الدنيا ليعمل، ليكون عمله زاداً له في سعادته الأبدية، هذا العمل لا يصلح إلا إذا عرف الله عز وجل.

((الناس رجلان؛ بر تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله))

إليكم هذان الحديثان اللذان يخصان موضوعنا اليوم :

١-ليس الغنى عن كثرة العرض.....:

فالحديث الأول من أحاديث هذا الباب: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما وأبو يعلى وابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة]

العَرَض: المال، الإنسان يشعر بدافعٍ قوي، يدفعه إلى أن يكسب المال، فإذ جمع من المال ما شاء، لا يعد عند الله غنياً، هو غنيٌ بأعماله الصالحة، هذا الذي يؤكِّد المقدمة التي قلتها قبل قليل، هو غني عند الله بأعماله الصالحة، لا بماله، بمواقفه الشريفة، بعفَّته، بجوده، بكرمه، بمؤاثرته، هو غني عند الله بهذه النظافة الأخلاقية التي يتمتَّع بها .

لذلك كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه:

((الغنى والفقر بعد العرض على الله))

سيدنا موسى، حينما سقى لهاتين المرأتين، ابنتي سيدنا شعيب، قال:

(فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

[سورة القصص الآية: ٢٤]

النبي عليه السلام حينما دعا ربه فقال:

((لا بورك لي في يوم، لم أزدد فيه من الله قرباً))

إذاً: بعد أن تعرف هويتك؛ إنسان مكلف، المخلوق الأول في الكون، جاء الله بك إلى الدنيا كي تعرفه، وكي تتقرب إليه، إذا عرفت هويتك، أمامك شيئان أساسيان، الشيء الأول: هو العلم، والشيء الثاني: هو العمل، والعمل لن يصيب الهدف من دون علم، العلم مقدَّمٌ على العمل، لأن الحركة من دون علمٍ حركة طائشة، حركة غير صائبة، حركة غير مجدية، حركة عشوائية، حركة من غير جدوى، لكن العلم إذا سبق العمل يسدد العمل، والعمل نفسه يعمِّق العلم، فهناك علاقة ترابطية بين العلم وبين العمل، كلما ازددت علماً ازددت في الحركة صواباً ، وكلما ازددت صواباً.

((من عمل بما علم، ورَّثه الله علم ما لم يعلم))

هناك علاقة ترابطية بين العلم والعمل، هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((لا بورك لي في يوم، لم أزدد فيه من الله علما))

و:

((لا بورك لي في يوم، لم أزدد فيه من الله قرباً))

إذاً: أنت أمام شيئين أساسيين: أن تزداد علماً، وأن تزداد عملاً صالحاً؛ أن تزداد علماً: قال تعالى :

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً)

[سورة طه الآية: ١١٤]

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة الزمر الآية: ٩]

القيمة الوحيدة المرجِّحة التي أقر الله بها في القرآن: هي العلم .وأما العمل :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

الآن: هذه الأعمال أولها: أن تكون أباً كما أراد الله، إذا كنت أباً، إذا كنت ابناً، أن تكون ابناً كما أراد الله، إذا كنت جاراً، أن تعامل جارك كما أراد الله، فأولاً بُنيتك الأساسية يجب أن تؤديها كما أراد الله .

الآن: عملك، مهنتك، هناك مسلمون كثيرون، يعزفون عن إتقان أعمالهم، ويعزفون عن التفوّق فيها، بمنطلق غير صحيح، هو أن هذه الدنيا ظل زائل، صحيح هذا، ولكنك بها ترقى، ماذا قال عليه الصلاة والسلام؟ قال:

((لا تسبوا الدنيا، فنِعم مطية المؤمن))

أنت بالدنيا ترقى إلى الله، أنت بالعمل تكسب المال، بهذا المال تنفقه، بإنفاقك إياه ترقى عند الله، أنت لك حرفة، إذا خدمت بها المسلمين، ارتقيت إلى الله عز وجل، عندك خبرة، عندك قوة، عندك جاه، عندك علم، أي شيء تنفقه ترقى به، لذلك في سورة البقرة في مطلعها، يقول الله سبحانه وتعالى:

(الم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة الآية: ١-٣]

جوهر حياة المؤمن: العطاء، الإنفاق، وجوهر حياة المعرض عن الله عز وجل: الأخذ.

لذلك الإمام الشافعي قال:

((إذا أردت أن تعرف أنك من أهل الدنيا، أو من أهل الآخرة، فانظر ما الذي يفرحك؛ الأخذ أم العطاء؟))

جوهر حياة المؤمن عطاء، يعطي من علمه، يعطي من خبرته، يعطي من وقته، يعطي من ماله، يعطي من قوته، يعطي من جاهه، أساس حياته: أنه يعمل عملاً ليرضى الله عنه، وإذا رضي الله عنك:

ليتك تحلـو والحيـاة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب

إذاً: المؤمن حينما يستيقظ صباحاً، أمامه هدفان كبيران؛ أن يزداد علماً، وأن يزداد عملاً صالحاً، صار الانسحاب من الحياة، لا يتناسب مع هذه العقيدة، الانسحاب من الحياة، الهروب ، الانزواء، التقوقع، الانعزال، البُعد، عدم إتقان الأعمال، التواكل، التسيُّب، الإهمال، هذا كله ليس من صلب الدين، مما طرأ على الدين، والدين منه براء .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ))

ما الذي يجعلك غنياً؟ معرفتك بالله عز وجل، أعمالك الصالحة، هذه المقولة أقولها دائماً، والتكرار في بعض الأحيان مفيد، قال تعالى:

(وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الذاريات الآية: ٥٥]

كل إنسان له عمل، إذا ابتغى به وجه الله، وابتغى به خدمة المسلمين، وابتغى به أن يكفي نفسه وأهله، وكان في الأصل مشروعاً، ومارسه بطريقة مشروعة، ولم يشغله عمله عن طاعة، أو عن مجلس علم، هذا العمل نفسه عبادة، قد تلقى الله بمهنتك، قد تلقى الله إذا كنت طبيباً مخلصاً، أو محامياً مخلصاً، أو مدرساً مخلصاً، أو موظفاً مخلصاً، أو تاجراً نصوحاً، أو صانعاً متقناً، إتقان الصنعة جزء من الدين، هذا كله قد يجعلك من الله قريباً .

((لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ))

الإنسان من حين لآخر يقيِّم نفسه، كما قلت لكم دائماً: الإنسان من دون وقفات تأمُّل مع نفسه، من دون خلوة قصيرة مع نفسه، يقيِّم فيها نفسه؛ ماذا فعل؟ ماذا بقي عليه؟ ماذا أنجز؟ ما الذي لم ينجز؟ بماذا أفلح؟ بماذا لم يفلح؟ هذه الوقفة المتأنية مع النفس ضرورية جداً، هذه الرسالة التي جاءته، ما فحواها؟ .

الآن: بربكم لو أن أحدكم جاءته رسالة، من دون أن يفتحها، من دون أن يقرأها، من دون أن يفهمها، من دون أن يقف عند مضامينها، مزّقها، وألقاها في سلة المهملات، ألا يعد هذا مجنوناً؟! اقرأها، وبعد أن تقرأها، إن رأيتها سخيفة فألقها، لكن أنت كإنسان، جاءك خطاب؛ لا من صديق، ولا من زميل، ولا من قريب، جاءك خطاب من رب السموات والأرض، ألا ينبغي بادئ ذي بدء: أن تقرأ هذا الخطاب؟ أن تقرأه، وأن تستوعبه، وأن تفهمه ، وأن تتدبره، بعدئذٍ أحكم عليه، هذا الذي يحكم على الأشياء قبل أن يطلع عليها، إنسان في أحط درجات الجهل .

ما الشيء الذي يشغلك عن معرفة كتاب الله؟ هل في كل حياتك، هل في كل نشاطاتك، هل في كل أعمالك، شيء يفوق أن تعرف منهجك، وطريق سعادتك؟ لا والله .

لذلك: العلم والعمل، الغنى أن تعرف الله، الغنى أن تعرف أمره، الغنى أن تكون مستقيماً على أمره، الغنى أن يكون لك عند الله، رصيدٌ كبير من الأعمال الصالحة، هذا الغنى، بهذا افتخر، لهذا اسعَ، في هذا الحقل تنافس، في هذا الحقل تسابق مع أخوانك، في هذا الحقل، هنا البطولة، أما في مجال آخر: إنها معركة خاسرة، ولو كنت فيها فائزاً، إنها معركة لا قيمة لها، ولو تفوَّقت بها على خصمك، لأن الدنيا جيفة طلابها كلابها، والدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، لكن إذا أحسنت صنعك، أحسنت عبوديتك لله عز وجل، الله سبحانه وتعالى وعدك بنص القرآن الكريم، أن يوفقك في أعمالك، وأن ييسر لك أمورك .

((لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ))

لو ضيعت مئة ألف ليرة، من أجل أن تقف موقفاً مشرفاً، أو أن تقف موقفاً مطيعاً لله عز وجل، ترك هذا المبلغ هو الغنى، وأخذه هو الفقر .

لذلك الإمام ابن عطاء الله قال:

((ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك))

فقد يكون المنع عين العطاء، وقد يكون العطاء عين المنع .

هذا الحديث يمكن أن يكون شعاراً لكل مؤمن:

((لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ))

ليس الغنى أن يكثر مالك، ولكن الغنى أن تكثر طاعتك، ليس الغنى أن يعلو جاهك، ولكن الغنى أن يعلو جاهك عند الله، ابتغوا الرفعة عند الله، ليس الغنى أن يعظمك الناس، ولكن الغنى أن تكون عند رب العزة مكرماً، هذا الغنى .

والنبي عليه السلام يقول:

((إذا أردت أن تكون أغنى الناس، فكن بما في يدي الله، أوثق منك بما في يديك))

إذا أردت أن تكون أكرم الناس، فاتق الله، وإذا أردت أن تكون أقوى الناس، فتوكل على الله .

انطلاقاً من هذه المقدمة التي تؤكد قيمة العلم والعلم، انطلاقاً من هذه المقدمة التي تؤكد جوهر الإنسان، أنت أيها الإنسان المخلوق الأول، الذي سخر الله له السموات والأرض، أنت المخلوق الوحيد المكلَّف، أنت المخيَّر، أنت الذي أودع الله فيك الشهوات، لترقى بها صابراً أو شاكراً إلى رب الأرض والسموات، أنت الذي أودع الله فيك العقل، ليكون ميزاناً لمعرفة الأشياء، أنت الذي أعطاك الله فطرة عالية .

انطلاقاً من هذه المقدمة التي تؤكد هوية إنسان، وقيمة العلم والعمل.....

عن حكيم بن حزام رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال، الحديث متفق عليه، قبل أن نقرأه، ومعنى متفق عليه: أن الشيخين الإمام البخاري والإمام مسلم رحمهما الله تعالى اتفقا عليه، وأعلى أنواع الحديث الصحيح ما اتفق عليه الشيخان، ثم ما انفرد به البخاري، ثم ما انفرد به مسلم، ثم ما ورد في الكتب الصحاح الست، فإذا قلت: متفق عليه، يجب أن تكونوا في مستوى، قول سيدنا سعد رضي الله عنه، حينما قال:

((ثلاثة أنا فيهن رجل، وفيما سوى ذلك، فأنا واحد من الناس، ما سمعت حديثاً من رسول الله، إلا علمت أنه حق من الله تعالى))

٢-اليد العليا خير من اليد السفلى........:

عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما والنسائي في سننه عن حكيم بن حزام]

في حديث آخر: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ، وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ وَالتَّعَفُّفَ وَالْمَسْأَلَةَ:

((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى، والْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ))

[أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما وأبو داود والنسائي في سننهما ومالك في الموطأ]

فالعليا، النبي عليه الصلاة والسلام أوتي جوامع الكلم، وكلامه أفصح كلام بعد كلام الله عز وجل، اليد العليا؛ لذلك بعض الصالحين: كان إذا وضع الصدقة في يد الفقير، يضعها هكذا من تحت، ليكرم هذا الفقير، ويجعل يده هي العليا، هذا تأدُّب مع الفقير، لأن هذا الفقير الذي قبل أن يأخذ منك، له فضل عليك.

أحياناً في حالات نادرة، تندفع اندفاعاً شديداً إلى إكرام إنسان، لا يرضى، لا يقبل، حينما رفض هذا العطاء، منعك من هذا العمل الصالح، فهذا الذي يأخذ منك، له فضلٌ عليك، لأنه سمح لك، أن تتقرب إلى الله عز وجل، فكان السلف الصالح يعطي الصدقة هكذا، ولكن الحقيقة: العليا هي المنفقة المعطية، والسفلى هي الآخذة السائلة:

((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى))

يؤكد هذا حديثُ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

لك مركز قوي، لجأ إليك أخ، هذا الأخ أكرمته، أما إذا كان الإنسان ضعيفًا، لا يستطيع أن يفعل شيئاً، لا يستطيع حَراكاً، يحتاج لمن يعينه، هو مؤمن وهذا جيد، ونحن نريد ذلك، ولكن ليته كان قوياً، كلمة قوة: ماذا تعني؟ هل تعني مصارع؟ لا، القوة مطلقة، ماذا قال الله عز وجل؟ قال سبحانه:

(عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى)

[سورة النجم الآية: ٥]

القوة: التمكُّن من الشيء، هناك قوة في العلم، قال تعالى:

(وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٤٧]

هناك قوة في العضلات، رياضي، أحد الأشداء الأقوياء المصارعين، قال للنبي عليه الصلاة والسلام:

((إن صرعتني أؤمن بك، فصرعه النبي أول مرة، وثاني مرة، وثالث مرة))

واحد في أثناء بعض المعارك قال:

((أين محمد؟ لا نجوت إن نجا، فالنبي حينما سمع مقالته هذه، قال: دعوه، لم يرض أن يقف مكانه أحد، أمسك النبي الكريم الرمح، وكزه به وكزةً، فانقلب من على فرسه، يعوي كالكلاب، وقال: محمد قتلني، قالوا: ما قتلك، قال: والله لو بصق علي لقتلني))

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ))

كن قوياً في عضلاتك، وكن قوياً في أخلاقك، وكن قوياً في علمك، وكن قوياً في مركزك، لك مركز، أنت موظف، التقصير المستمر، يسبب ضعف مركز، ضعف مركزك يدخلك في اللوم والتوبيخ، وصار الناس في ازورار عنك، وأنت مؤمن، طالب بالمدرسة، حاول يغش، وله مظهر ديني، سقط من نظر أصدقائه، ضعف مركزك، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إياكم وما يعتذر منه))

يعني: أي عمل يضطرك إلى أن تعتذر دعه، كن عزيز الشأن، من صفات المؤمن كما وصفه النبي عليه السلام قال:

((إن الله يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها ودنيها))

((ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير))

فلا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه، أنت مؤمن غال على الله عز وجل، الله لا يتخلى عنك، إياك أن تضع نفسك موضع ذل، موضع صغار، فيه ضعف، فيه استكانة، المؤمن القوي؛ قوة في البُنية، وقوة في العلم، وقوة في الخبرة، وقوة في المركز، مطلق أنواع القوة، إذا كنت قوياً، بإمكانك أن تنفق من هذه القوة، فإذا كنت ضعيفاً، فأنت آخذ، ولست معطيًا .

((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ))

كأن النبي عليه الصلاة والسلام بعد أن دفعنا إلى كسب الرزق، وإلى أن يكون مركزنا قوياً، دفعنا إلى نعتني بأهلنا، هؤلاء ليس لهم أحد سواك، لماذا قال عليه السلام في بعض الأحاديث الشريفة:

((درهم تنفقه على فقير، درهم على مسكين، ودرهم تنفقه على أهلك، هذا الدرهم، أحب إلى الله تعالى من كل هذه الدراهم))

لماذا؟ لأن هذا الفقير أو المسكين، إن لم تعطه أنت، أعطاه غيرك، أما أهلك ليس لهم أحد سواك:

((وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ))

من هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((ليس منا من وسع الله عليه، ثم قتر على عياله))

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي))

[أخرجه ابن ماجه في سننه والبزار في مسنده وابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه عن ابن عباس]

وحينما ضم النبي عليه الصلاة والسلام ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها، حينما ولدت، قال عليه الصلاة والسلام معلماً لنا، قال:

((ريحانة أشمها، وعلى الله رزقها))

فالتفاؤل والاستبشار والمؤانسة، وأن تكون بساماً ضحاكاً، أن تكون عفواً كريماً، أن تكون حليماً في بيتك، المرأة والصغير ضعاف، مَن لهم غيرك؟

((وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ))

فليس للإنسان حق، أنْ يجيع أهله، ليطعم الآخرين، أهله أولى أن يأكلوا، لكن ليس أهله أولى، إذا أراد ينفق نفقة فيها إسراف، يطعمهم ما يحتاجون، وما لا يحتاجون، ويحرم الفقير، فهذا غير صحيح، لكل إنسان حدود، قال تعالى:

(وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً)

[سورة الإسراء الآية: ٢٩]

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً)

[سورة الفرقان الآية: ٦٧]

إذًا:

((وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى))

أحياناً: الإنسان في ساعة من ساعات صفائه، يتمنى أن ينفق كل ماله، إذا كان إيمانه ضعيفًا، وأنفق كل ماله، ثم شعر بالحرمان، وشعر بالندم على هذا الإنفاق، لا، ليس هذا هو الصواب، الصواب:

((أحب الأعمال إلى الله أدومها، وإن قلّ))

الإنفاق الشديد طفرة، هذه الطفرة إذا أعقبها ندم، هذا شيء لا يرضي لله عز وجل، إذا كنت واثقاً، من أنك من الإيمان، والإخلاص، والصدق، وقوة العزيمة، بحيث لا تندم على هذه النفقة، فأنفقها، فلا إسراف في الخير، ولكن إذا كان في الإيمان ضعف، في الإيمان تأخُّر، وكنتَ في ساعة من الصفاء، وأنفقت كل ما تملك، ثم شعرت بالحرمان، هذا الوضع فيه خلل، هذه فورة ثم همود، طفرة ثم تراجع، هذا لا يرضي الله عز وجل، لذلك:

((وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى))

أي أمّنت حاجات أهلك الأساسية، أنا لا أقول كلامًا غير واقعي، فهناك أشخاص يحرمون أولادهم وأهليهم لينفقوا، هذا إذا فعله كبار الصحابة، هم شيء، ونحن شيء آخر، النبي عليه السلام جاءته شاة فأنفقها، ما بقي شيء، السيدة عائشة قالت له:

((يا رسول الله، لم يبق إلا كتفها، فقال عليه السلام: بل بقيت كلها إلا كتفها))

سيدنا الصديق أعطى كل ماله، قال له :

((يا أبا بكر، ماذا أبقيت لنفسك؟ قال: الله ورسوله))

هذا التوجيه يسع الناس جميعاً، في مواقف أحياناً للصحابة، هي مواقف رائعة جداً، ولكن ليست حكماً شرعياً، مواقف خاصة، حالة من حالات القرب والصفاء، والإخلاص والفناء في حب الله، حملته على أن يفعل هذا، فالتقليد صعب، لو الإنسان قلد، وبعد التقليد شعر بالحرمان، وعرج، وندم، ويئس، فأصعب شيء: أن تندم على عمل صالح، كأنك ما عرفت الله عز وجل، حينما فعلت هذا من أجله، هذا معنى:

((وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى))

فكن أنت مكتفيًا، أما الدنيا فليس لها حدود، أنا أقول: كن مكتفياً، الأشياء الأساسية، أما إذا كنت تريد الرفاه، والأشياء الزائدة، والأشياء التي تعلو بها في نظر الناس، عندئذٍ لا يبقى من مالك شيء، تنفقه للفقراء والمساكين .

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْخَطْمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، وَكَانَتْ لَهُ صُحْبَةٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ))

((وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ))

انظر إلى العفة، كما ورد في بعض الآثار:

((العدل حسن، لكن في الأمراء أحسن، وأن السخاء حسن، ولكن في الأغنياء أحسن، وأن التوبة حسن، لكن في الشباب أحسن، وأن الحياء حسن، ولكن في النساء أحسن، وأن الصبر حسن، ولكن في الفقراء أحسن))

فالعفة صفة رائعة جداً، ماذا قال سيدنا جعفر، حينما حدَّث النجاشي؟ قال:

((حتى بعث الله فينا رجلاً، نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه))

اختار من كل صفاته هذه الثلاث؛ الأمانة، والصدق، والعفاف، وفي أحاديث أخرى، يقول عليه الصلاة والسلام:

((الإيمان عفيف عن المحارم، عفيف عن المطامع))

المحارم التي نهى الله عنها، والمطامع، الأشياء المباحة، لكن تحتاج إلى أن تريق ماء وجهك . فهنا: (وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ): من يطلب من الله أن يكون عفيفاً، يعفه الله عز وجل، أي يكرمه، لذلك:

((من جلس إلى غني فتضعضع له، ذهب ثلثا دينه))

((من جلس إلى غني فتضعضع له -تمسكن، تشكى الفقر، تشكى الألم، المرض، ليس معه ثمن، ليس معه كذا، من أجل أن يستعطف قلبه، ليأخذ من ماله-، ذهب ثلثا دينه))

المؤمن عزيز، والمؤمن إذا كان عزيزاً، الله سبحانه وتعالى لا يخيِّبه .

اجعل لربك كل عـزك   يستقر ويثبـت

فإذا اعتززت بمن يموت   فإن عزك ميت

((وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ))

طلب إنسان الصبر، فرزقه الله الصبر، وطلب إنسان البحبوحة، فأعطاه الله إياها:

قـل لمن بات لي حاسداً   أتدري على من أسأت الأدب؟

أســأت على الله في فعله   إذ لــم ترض لي مـا وهب

ملك المــلوك إذا وهب   قم فاســألن عن السبب

الله يعطــي من يشـاء   فقف علـــى حد الأدب

فاجعلها مع الله عامرة، هكذا الله عز وجل قال، كما في الحديث، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ، يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ))

باب الله مفتوح، باب مفتوح، قيام الليل وقت مناسب، لطلب الحاجات من الله عز وجل.

سيدنا زكريا، قال تعالى:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً)

[سورة مريم الآية: ٣-٤]

ما دعوتك يا رب مرة إلا وأكرمتني:

الله عـودك الجـميل فقس علـى ما قـد مضى

ورب ضـائقة يضيق بها الفتى ذرعـاً وعند الله منها المخرج

نـزلت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظن أنـها لا تفرج

((وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ))

فهذان الحديثان يؤكدان قيمة العمل، الغنى الحقيقي: معرفة بالله صحيحة، واستقامة على أمره، وأعمال صالحة، هي قربى لك عنده، والغنى الحقيقي: أن يكون الله سبحانه وتعالى راضياً عنك، يكفي الصحابة فخراً، أن الله عز وجل قال في حقهم:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ)

[سورة الفتح الآية: ١٨]

فإذا كنت في رضى الله عز وجل، فأنت من أغنى الأغنياء، وكفاك على عدوك نصراً، أنه في معصية الله، والدنيا زائلة، قال تعالى:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

[سورة الرحمن الآية: ٢٦-٢٧]

خلاصة ما ذكر في الدرس الذي فات :

والآن: إلى متابعة قصة سيدنا حمزة رضي الله عنه، عم النبي عليه الصلاة والسلام .

في الدرس الماضي: عرفتم كيف أن الصحابي الجليل، عم النبي عليه الصلاة والسلام، كان من ألمع رجالات قريش، كان ثاقب العقل، كان راجح العقل، ثاقب النظر، كريم النفس، من أصحاب

المروءات، حينما بلغه أن أبا جهل، تهجم على النبي عليه السلام، وأقذع عليه في الشتم، انهال عليه ضرباً، وفي ساعة حميَّةٍ ومروءة، قال:

((أتسبه وأنا على دينه؟ فقد أسلم ارتجالاً، فهؤلاء الذين حول أبي جهل، قالوا: يا حمزة، ما نراك إلا قد صبوت! -أنت أسلمت، حتى أنت يا حمزة أسلمت- قال: ومَن يمنعني، وقد استبان لي منه؟ أشهد أنه رسول الله .

-وأنت أيها الأخ الكريم، إذا اقتنعت أن الدين حق، لماذا خائف من الناس؟ حتى لا يقولون عني شيخ، إذا كان الله عز وجل هو الحق المبين، والطريق إليه واضحة وسالكة، وفي هذا الدين، السعادة في الدنيا والآخرة، أتخشى الناس؟ أتخشى أقرباءك؟ أتخشى أخوانك؟ أتخشى من حولك؟ أتخشى من فوقك؟ أتخشى من دونك؟ أتخشون الناس والله أحق أن تخشوه؟

قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الحديد الآية: ١٦]

قال: ومن يمنعني، وقد استبان لي منه؟ أشهد أنه رسول الله، وأن الذي يقول: هو الحق، فو الله لا أنزع، فامنعوني إن كنتم صادقين .

-إنه التحدي، كان سيدنا حمزة من كبار قريش، أعز الله به الإسلام وبعمر أيضاً-

أبو جهل حينما تلقى منه ضربة شديدة، كاد ينشب خلافٌ وتهجم على سيدنا حمزة، فوقف أبو جهل، وقال: دعوا أبا عمارة، فإني والله لقد سببت ابن أخيك سباً قبيحاً -أنا الحق علي، اعترف بذنبه- ثم رجع حمزة إلى بيته، ولكن ما له يفكر .

-أحياناً: الإنسان يقع بإشكال، تجده ساهيًا، أحياناً يصلي، يقرأ التحيات لله، وهو واقف ، ثم يرفع إصبعه هكذا، فما هذه الحركة؟!- ولكن ما له يفكر، ويفكر تفكيراً عميقاً، يشغل عليه نفسه، ويمر الليل عليه، ولم يذق فيه للنوم طعماً -هو تصور نفسه، أسلم ارتجالا، وانفصل عن مجتمعه، وترك دين آبائه وقومه، وصار منبوذ عند قومه، وشعر بوحشة، النقلة من دين إلى دين ليست سهلة-، وها هو الشيطان يحدثه: أنت سيد قريش .

-أحياناً: الإنسان تأتيه خواطر شيطانية، وخواطر رحمانية، أذن الظهر، فيقول له: لا تصل، فسيعرفونك صاحب دين، هذا من الشيطان، امرأة تريد أن تصافحك، فيقول لك: صافحها، لكي لا تحرج أمامها، زوجها له وظيفة كبيرة، يمكن أن يزعجك-، لا أنت سيد قريش، هكذا قال له الشيطان، اتبعت هذا الصابئ، وتركت دين آبائك، للموت خير لك مما صنعت، -دخل الوسواس .

أحياناً: الإنسان يختار زوجة لدينها، متى ما قرؤوا الفاتحة، تجده قد كنّ، وسكن، فلا ينام ليلتها، فإذا قال الله عز وجل:

(فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

إذا كان عملك عملته لله، فلماذا أنت خائف؟ قال تعالى:

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٧٥]

أقبل حمزة على نفسه يقول: ما صنعت يا حمزة؟! -ليس له إلا الله- قال: اللهم إن كان رشداً ما فعلت، فاجعل تصديقه في قلبي -أرحن يا رب، أنا قلق، في تمزق، في صراع- وإلا فاجعل لي ما وقعت فيه مخرجاً، -أنسحب من هذا الإسلام الذي أسلمته، إذا كان خلاف الحق، الأمر اشتد، تفاقم الأمر معه-، حتى غدا إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

قال له: يا بن أخي، -أقبل عليه خاشعاً، رأى في عينيه نوراً، يقذف في قلبه، ويقيده، فلا يستطيع فكاكاً، ما هذه القوة في عيني النبي عليه الصلاة والسلام؟ تقدم إليه- وقال: يا بن أخي، إني قد وقعت في أمر، ولا أعرف المخرج منه .

-بالمناسبة يا أخوان: الإنسان قوي بأخوانه، إذا وقع بشدة، وله أخ كريم يثق بإيمانه، وبإخلاصه، برجاحة عقله، إذا بقي وحده، فالشيطان يقوى عليه، وأعوان الشيطان، الله عز وجل ماذا قال؟ قال:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

إذا فعلت عملا صالحًا، وندمت عليه، وشعرت بخطر، وكأنك تورطت، وذهبت سألت واحداً من أهل الدنيا، فسيقول لك: أصلحك الله، ألم أقل لك: لا تفعل ذلك؟ أول شامت بك، يشمت فيك، يخوفك، إياك، هذه لها مضاعفات خطيرة جداً، الله يصلحك، أخطأت، دمرت نفسك فيها، إياك أن تسأل أهل الدنيا بأمرٍ فعلته لله، إياك أن تستشيرهم، إياك أن تلتمس عندهم الطمأنينة، إياك أن تلتمس عندهم النصيحة، لا ينصحونك، قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

عملت عملا لله، قال لك واحد: الله يصلحك، دمرت نفسك، لا، قال تعالى:

(وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ)

[سورة لقمان الآية: ١٥]

وارجع لأهل الإيمان يطمئنونك: لا تحزن، لا تخف، الله معك، هذا العمل طيب، الله عز وجل لن يضيِّعك، لن يتخلى عنك، سينصرك، التمس النصيحة عند أهل الإيمان، التمس الطمأنينة عندهم- .

فقال للنبي عليه السلام: يا بن أخي، إني قد وقعت في أمر، ولا أعرف المخرج منه، وإقامة مثلي على ما لا أدري ما هو، أرشد أم غي شديد؟ .

-أنا الآن لست متأكداً من هذا الذي فعلته البارحة، رشد أم غي؟ أحسنت صنعاً، حينما آمنت وأسلمت؟ اللهم صل عليه، سجل هذه السابقة لسيدنا الصديق، ولم يسجلها لأحد غيره، قال:

((ما دعوت أحداً إلى الإسلام، إلا كانت له كبوة، إلا أخي أبا بكر))

النبي عليه السلام أقبل عليه، ذكره بالله، وعظه، خوَّفه، بشَّره، سمع حمزة هذا وبكى، واطمأن قلبه، واستنار قلبه- فإذا وقعت في حيرة، أو بمشكلة، استخر الله عز وجل: يا رب إن كان في هذا الأمر خيراً لي في ديني ودنياي، وعاجل أمري وآجله، فاقدره له، إذا في خلاف ذلك، فاصرفني عنه، واصرفه عني- .

سيدنا حمزة بعد أن سمع النبي عليه الصلاة والسلام يطمئنه، ويذكره، ويخوفه، ويعظه، ويبشره، قال: أشهد إنك صادق، شهادة الصدق، فأظهر يا بن أخي دينك، فو الله ما أحب أن لي ما أظلته السماء، وأنا على ديني الأول -أظهر دينك، وأنا معك-، وما أحب أن لي ما أظلته السماء -كل شيء يعني- وأنا على ديني الأول))

كان في هذا الإسلام عزاً للإسلام كبير، هو أسلم قبل سيدنا عمر، سيدنا عمر حينما أسلم، وتوجه إلى النبي عليه السلام ومعه سيفه، ورآه أحد أصحاب النبي في دار الأرقم مقبلاً ومعه السيف، ظن أن هذا الرجل الشديد، جاء يريد شراً، فرجع الصحابي إلى النبي عليه السلام، وهو فزع فقال:

((يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف .

-هنا قام حمزة الأسد- قائلاً: فأذن له، فإن جاء يريد خيراً بذلنا له، وإن جاء يريد شراً قتلناه بسيفنا))

أيها الأخوة، ما عاد حمزة، صار حمزة آخر الآن، الآن باع كل شيء في سبيل الله .

ما هو الزاد الذي كان يمتلكه حمزة حينما هاجر إلى المدينة، وبمن تآخى ؟

أيها الأخوة، حينما هاجر مع النبي عليه الصلاة والسلام، نزل في المدينة فقيرا، لا يملك من الحياة شيئاً غير إيمانه، فمن كان غنيًا نحن أم هو؟ إذا كان مع واحد قرشان أو ثلاثة الآن، هو أغنى أم هذا

الصحابي الجليل؟ إن الغنى غنى النفس، هذا الموقف الشريف، هذه القوة في الحق، هذه الشهامة، هذه المروءة، هذا هو الغنى .

سيدنا النبي عليه السلام آخاه مع عبدٍ رقيق من المسلمين، وقبل هذا الصحابي الجليل أن يكون أخاً لسيدنا زيد بن حارثة، فتآخيا اثنين اثنين .

وهذه نصيحة لكل أخواننا، إذا كان كل أخ منكم، له أخ في الله، فقال: أنا فلان أخي، حاول يتفقده، إذا كان مرض، عاده، غاب عن الدرس، زاره في البيت، أصابه خير هنأه، وقع بمشكلة عاونه، إذا كل أخ اختص بأخ، يكون طبقنا الحديث الكريم:

((تآخيا اثنين اثنين))

إليكم أحد مواقف حمزة يوم بدر، وكيف خطط لقتل حمزة بن عبد المطلب؟

في معركة بدر الشهيرة، خرج منها الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلاً شرساً، سيء الخُلُق، فقال وقد بنى المسلمون حوضاً:

((أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه، فلما خرج ليشرب من هذا الحوض وهو عند المسلمين، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلما التقيا، ضربه حمزة قاطعاً قدمه إلى نصف ساقه، وهو دون الحوض، وقع على ظهره، تشخب رجله دماً، ثم حبا إلى الحوض، حتى اقتحم فيه، يريد أن يبر بيمينه، واتبعه حمزة، فضربه حتى قتله .

ثم نادى مناد قريش: يا محمد، أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال عليه السلام: قم يا عبيدة بن الحارث، قم يا حمزة، قم يا علي، -إلى أين يقومون؟ لتناول طعام الغداء؟ إلى أن يضعوا أرواحهم على أكفهم؟ قاموا ليموتوا، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، فأعلى درجة بالإنسان، أعلى عمل صالح يفعله: أن يقدم نفسه- وصاح عتبة بن ربيعة: من أنتم؟ فأجابه حمزة: أنا حمزة أسد الله، وأسد رسوله .

وتبارزوا، فقتل حمزة وصاحباه المشركين، ثم تزاحف الجمعان، وثار النقع، وحمزة كالسيل يهجم يميناً وشمالاً، وينتقل من مكان إلى مكان، فيفتك بالمشركين فتكاً ذريعاً، فتنهار الكتائب، ويفزع صناديد قريش، ويختلط حابلهم بنابلهم، ويولون الأدبار، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة))

أسر أمية بن خلف، أسره عبد الله بن مسعود، فبينما هما يسيران، قال أمية:

((يا عبد الله، من هذا الرجل الذي علَّم نفسه بريشة نعامة؟ -وضعها على صدره، من هذا؟- فقال: ذلك حمزة بن عبد المطلب، فقال: ذلك الذي فعل فينا الأفاعيل!؟))

فقد كانت له مواقف في بدر مشهودة، بل ربما كانت هذه المعركة، في معظم انتصاراتنا، بفضل هذه الشجاعة الخارقة، وهذا البذل الغير محدود .

ولكن شاء الله عز وجل أن يقع هذا الصحابي، عم النبي عليه السلام، أن يقع شهيداً، وأن يسميه النبي عليه السلام:

((سيد الشهداء))

هكذا شاءت مشيئة الله .

استعد القرشيون للقتال في العام التالي، وقبل أن يسير المشركون إلى القتال، دعا جبير بن مطعم غلاماً، يقال له:

((وحشي، يقذف بحربةٍ له قذف الحبشة، فقد كان ماهراً في قذف الحراب، قلما يخطئ، فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة عم النبي عليه الصلاة والسلام بعم طعيمة بن عدي، فأنت عتيق، -يبدو أن هذا الصحابي الجليل عم النبي عليه الصلاة والسلام، ما كان أحد يستطيع أن يواجهه، ولا سبيل إلى قتله إلا غيلةً- .
ثم خرجت قريش بحدِّها وحديدها، وجدها وأحابيشها، ومن تابعها من بني كنانة، خرجوا معهم النساء، التماس الحفيظة لئلا يفروا، وخرج أبو سفيان، ومعه امرأته هند بنت عتبة، وكانت كلما مرَّت بوحشي أو مر بها، قالت له: أبا دسمة اشف واشتهِ، -أي اشفِ غليلنا- وخذ ما تشتهي))

أي العتق .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٣٥-١٠١) : حديث لأن يأخذ أحدكم أحبله....، أحاديث شتى تتعلق بالحديث الأول، قصة سيدنا عمير بن سعد وعمه الجلاس

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٠-٠٤-١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم بياناً في معرفة معاني هذا الحديث: لأن يأخذ أحدكم.........:

أيها الأخوة الأكارم، قبل أن نبدأ درسنا، نُرَحِّب بضيوفنا الأكارم، وعلى رأسهم السيد وزير الأوقاف، الأستاذ عبد المجيد الطرابلسي، وصحبه الكرام، سائلين الله عز وجل، أن يديم نعمته علينا، فوزيرنا أكرمه الله، من أولي العلم، والفضل، والبيان، أستاذ في جامعة دمشق، وله مؤلفات قيمة، ويرأس أكبر جمعية للبر والإحسان في القطر، وهو فوق ذلك، خطيبٌ من الطبقة الأولى، نرجو الله أن ينفع المسلمين به .

أيها الأخوة الأكارم، لا زلنا في رياض الصالحين، ولا زلنا في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعلمون أن النبي عليه الصلاة والسلام، كان أجود ما يكون في رمضان، اخترت لكم من أحاديث رياض الصالحين، مجموعة من الأحاديث الشريفة، تتعلق بالإنفاق .

فالحديث الأول: عَنْ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أحبله، ثم يأتي الجبل، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةٍ من حَطبٍ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَه، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ، أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح عن الزبير بن العوام]

هذا الحديث الشريف يبين قيمة العمل، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما أمسك بيد عبد الله بن مسعود ورآها خشنة، قال عليه الصلاة والسلام:

((إن هذه اليد يحبها الله ورسوله))

النبي عليه الصلاة والسلام دخل إلى المسجد، فرأى إنساناً يصلي سأله:

((من يطعمك؟ قال: أخي، فقال عليه الصلاة والسلام: أخوك أعبد منك))

في هذا الحديث إشاراتٌ دقيقة: عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ))

وفي رواية:

((أَحْبُلَهُ))

جمع حبل، ولكن الجموع في اللغة العربية على نوعين، جموع قلةٍ وجموع كثرة، هذا من جموع القلة، وجمع الكثرة الحبال .

((لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبُلَهُ، -ثم يأتي الجبل، لماذا اختار النبي عليه السلام الجبل؟ يبدو أن صعود الجبل أمر شاق، فيعطينا النبي عليه الصلاة والسلام أعلى درجات بذل الجهد، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية:٢]

خلقنا ليبتلينا، فهنا حدد النبي عليه السلام الجبل، أو قال بعض شارحي الحديث: المقصود أي مكان آخر، على كلٍ؛ هناك بذل للجهد- ثم يَأْتِيَ الْجَبَلَ، فيأتي بِحُزْمَةٍ من حَطَبٍ عَلَى ظَهْرِهِ.

-قال بعضهم: على ظهر حماره، أو على ظهره هو، والأولى على ظهره، مبالغة في بذل الجهد، كم يقدّس النبي عليه السلام العمل، إذا فعل هذا؛ توجه إلى جبل، وجاء بحزمة حطب، وتجشم مشاق قطعها، ومشاق بيعها، خير له ألف مرة من أن يسأل الناس، بل إن الإمام الشافعي رضي الله عنه، يرى أن الذي يستطيع أن يكسب رزقه ويسأل الناس، فقد وقع في إثمٍ كبير، بل وقع في درجة الحرمة- .

((فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ من حَطَبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ))

فقد سئل الإمام علي كرم الله وجه:

((ما الذل؟ فقال: أن يقف الكريم في باب اللئيم، ثم يرده))

بل في نهج البلاغة قول للإمام علي كرم الله وجهه:

((واللهِ والله مرتين، لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يوم عاصف بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين، حتى يصيرا أبيضين، أهون علي من طلب حاجة من لئيم لوفاء دين))

أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يرده، لذلك من الذل: أن يحتاج الكريم اللئيم، فالنبي عليه السلام يقول:

((ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير))

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا يحل لمؤمن أن يذل نفسه))

يقول عليه الصلاة والسلام:

((شرف المؤمن قيامه الليل، وعزه استغناؤه عن الناس))

يقول عليه السلام :

((الإيمان عفيف عن المحارم، عفيف عن المطامع))

يعني: نفس المؤمن نفس راقية، شخصيته شخصية فذة، تأبى الضيم، تأبى الذل:

((من جلس إلى غني فتضعضع له، ذهب ثلثا دينه))

إذاً:

((لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أحبله، ثم يأتي الجبل، فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةٍ من حَطبِ عَلَى ظَهْرِهِ، فَيَبِيعَهَا، فَيَكُفَّ اللَّهُ بِهَا وَجْهَهُ .

-يستغني بهذا الدخل عن بذل ماء وجهه، يستغني بهذا الدخل، عن أن يريق ماء وجهه، يستغني بهذا الكسب، عن أن يقف بباب اللئيم-، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ))

لذلك سيدنا الصديق كان على ناقته، فنزل من على ناقته، وحوله أصحابه، تعجبوا، نزل ليلتقط زمام بعيره، فازدادوا عجباً، قالوا:

((يا خليفة رسول الله، نكفيك ذلك، قال: أمرني حبيبي ألا أسأل الناس شيئاً))

ما دمت قادراً على أن تقضي حاجتك بيدك فافعل، هذا من أخلاق المسلم، بل إن بذل الجهد قوام الطب الوقائي، الطب الوقائي قوامه: بذل الجهد، ما الذي يزعج الناس الآن؟ هذه الأمراض الوبيلة سببها: التوتر العصبي، والكسل العضلي، أجدادنا رحمهم الله عز وجل كانوا يتعبون ونفوسهم مرتاحة، أساس صحة القلب: في بذل الجهد، وفي راحة النفس، والناس اليوم يريحون عضلاتهم، ويتعبون أنفسهم، النبي عليه السلام قال:

((من جعل الهموم هماً واحد، كفاه الله هموم الدنيا والآخرة))

((اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها))

((ما من مخلوق يعتصم بي من دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده أهل السموات والأرض، إلا جعلت له من بين ذلك مخرجاً، وما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته، إلا جعلت الأرض هوياً تحت قدميه، وقطعت أسباب السماء بين يديه))

المؤمن مؤنته خفيفة، متوكل على الله، إذا أردت أن تكون أقوى الناس، فتوكل على الله، إذا أردت أن تكون أغنى الناس، فكن بما في يدي الله، أوثق منك بما في يديك، إذا أردت أن تكون أكرم الناس، فاتق الله، فإذا كسبت رزقاً بمشقة بالغة، خير لك ألف مرة، من أن تسأل الناس أعطوك أو منعوك .

الحقيقة: أن تقف على باب إنسان فتسأله، موقف حرج لك، فإذا ردك، فالموقف أشد حرجاً، فإذا

سألته مراراً، فالموقف بالنسبة إليه أيضاً حرج، يعني تكف عن إحراجه، وتكف عن إحراج نفسك، وتكف عن رده السيء، إذا كان سيء الخلق، فلذلك: النبي عليه الصلاة والسلام هكذا يأمرنا .

هذا الحديث، رواه الإمام البخاري رحمه الله تعالى، وصحيح البخاري كما يقول علماء السنة:

((أصح كتاب بعد كتاب الله عز وجل))

انظر إلى عملية البناء في المجتمع المسلم كما بينه النبي في هذه الأحاديث :

أيها الأخوة، ولكن عندنا حالة أخرى لهذا الحديث، في حديث آخر يتممه، عن ابن مسعود رضي الله عنه، النبي عليه الصلاة والسلام يعمل توجيهات للأطراف جميعاً، من خلال كل هذه التوجيهات، تغدو الحياة متوازنة، فمثلاً توجه إلى الأزواج قال:

((أكرموا النساء، فو الله ما أكرمهن إلا كريم، وما أهانهن إلا لئيم، يغلبن كل كريم، ويغلبهن لئيم، وأنا أحب أن أكون كريماً مغلوباً، من أكون لئيماً غالباً))

وتوجه إلى المرأة، قال:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي من دونك من النساء، أن حسن تبعل إحداكن لزوجها، يعدل ذلك كله))

أي الجهاد في سبيل الله .

الآن توجه إلى المؤمنين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ، فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلَهُ، أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ))

ولكن من جهة أخرى، توجه النبي عليه الصلاة والسلام إلى أصحاب الأموال، إلى الأغنياء، الأغنياء أوصياء الله عز وجل، في الحديث القدسي:

((الأغنياء أوصيائي، والفقراء عيالي، فمن منع مالي عيالي، أذقته عذابي ولا أبالي))

توجه النبي عليه الصلاة والسلام إلى الصنف الميسور، وحضَّهم على الإنفاق، تمنى على هؤلاء الفقراء أن يكونوا أعفَّة، تمنى على هؤلاء الفقراء أن يصبروا، تمنى على هؤلاء الفقراء ألا يبذلوا ماء وجههم، تمنى عليهم ألا يتضعضعوا أمام غني، وفي الوقت نفسه أمر الغني أن يعطي .

الحديث القدسي:

((أحب ثلاثاً، وحبي لثلاث أشد؛ أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد، أحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد، أحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد، وأبغض ثلاثاً، وبغضي لثلاثٍ أشد؛ أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد، أبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد، أبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد))

الآن: من أجل تحقيق التوازن في المجتمع، توجه النبي عليه الصلاة والسلام إلى الأغنياء، وإلى العلماء، فقال عليه الصلاة والسلام كما في حديث عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ قالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ، فهو يَقْضِي بها ويُعَلِّمُها، ورجلٌ آتَاهُ اللَّهُ مالا، فسَلَّطَهُ على هَلَكَتهِ في الحقِّ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن عبد الله بن مسعود]

طبعاً: قصد النبي عند شُرَّاح الحديث الحسد هنا: الغبطة، الحسد كخلق ذميم فيه معان: تمني زوال النعمة عن أخيك:

قل لمن بات علي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب؟

أسأت على الله في فعله إذ لم ترض لي ما وهــب

ملك المـلوك إذا وهب لا تسألـــن عن السبب

الله يعـطي من يشاء فقف علـــى حد الأدب

هكذا بيت الشعر، أما لو أجرينا على هذا البيت تعديلا طفيفًا :

ملك الملوك إذا وهب قم فسألن عن السبب

الله يعطي من يشاء فقف على حد الأدب

فالحسد المذموم: أن تتمنى زوال النعمة عن أخيك، ولكن الحسد هنا، في هذا الحديث الشريف، المقصود: الغبطة، يعني إذا أنعم الله على أخيك بنعمة، أنت تتمنى أن تكون هذه النعمة لك، الحسود يتمنى أن تزول عن أخيه، قال عليه الصلاة والسلام:

((لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ، فهو يَقْضِي بها ويُعَلِّمُها، ورجلٌ آتَاهُ اللَّهُ مالا، فسَلَّطَهُ على هَلَكَتهِ في الحقِّ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن عبد الله بن مسعود]

المال قوة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

القوة وحدها خطرة، القوة وحدها بيد الجاهل شيء خطير، ولكن القوة إذا أضيفت للإيمان كانت قوة بنَّاءة، كانت قوة دافعة، فالمال قوة، والعلم قوة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْن: رَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ الْحِكْمَة، فهو يَقضِي بها ويُعَلِّمُها، ورجلٌ آتَاهُ اللَّهُ مالا، فسَلَّطهُ على هَلَكَتهِ في الحقِّ))

أي أنفقه في طاعة الله، ماذا قال سيدنا أبو ذر قال:

((حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي))

ليس الفقير الصابر بأعظم أجراً من الغني الشاكر، الغني يعطي ماله لكل محتاج ومسكين . وفي الحديث القدسي: يوم القيامة يقف عبدان أمام الله عز وجل، يقول الله عز وجل لأحدهما:

((عبدي أعطيتك مالاً، فماذا صنعت فيه؟ فيقول: يا رب، لم أنفق منه شيئاً على أحد، مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فيقول الله عز وجل: ألم تعلم بأني أنا الرزاق ذو القوة المتين؟ إن الذي خشيته على أولادك من بعدك، قد أنزلته بهم -جعلتهم فقراء، ويقف العبد الآخر يقول-: عبدي أعطيتك مالاً، فماذا صنعت فيه؟ يقول: يا رب، أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خير حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، يقول الله عز وجل: أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

((أنفق بلالاً، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً))

((عبدي أنفق أنفق عليك))

((ما نقص مال من صدقة))

[أخرجه مسلم في الصحيح والترمذي في سننه ومالك في الموطأ عن أبي هريرة]

قال تعالى:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ)

[سورة البقرة الآية: ٢٧٠]

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

[سورة سبأ الآية:٣٩]

إذاً:

((رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ))

سيدنا عبد الرحمن بن عوف، حينما جاء المدينة -دققوا في أخلاق الصحابة- الأنصار رضوان الله عليهم، بذلوا كل ما في وسعهم لأخوانهم المسلمين، فالصحابي الجليل الذي النبي أخاه مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف قال له:

((دونك نصف مالي، ماذا قال له عبد الرحمن بن عوف: بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق))

الأول بذل، والثاني تعفف:

((بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق))

وسيدنا عبد الرحمن بن عوف، جاءت قافلة إلى المدينة، تعد سبعمائة راحلة، كلها محملة بأنفس البضائع، وقدمها كلها لفقراء المسلمين .

سيدنا عمر، كان إذا اضطرب بطنه، خاطبه وقال:

((قرقر أيها البطن أو لا تقرقر، فو الله لن تذوق اللحم حتى يشبع منه صبية المسلمين))

السيدة عائشة قالت:

((أخشى -عن سيدنا عبد الرحمن بن عوف- أن يدخل الجنة حبواً، فقال رضي الله عنه: والله لأدخلنها حبباً، وما ذنبي إذا كنت أنفق مئة في الصباح، فيؤتيني الله ألفاً في المساء!؟))

هؤلاء التجار المؤمنون، كما وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام:

((إن أطيب الكسب كسب التجار، الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا كان لهم لم يعسروا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا))

أيها الأخوة الأكارم،

((لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْن-كما قال عليه السلام- رَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ الْحِكْمَةَ- أي علماً، وفي بعض شرح هذا الحديث علَّمه القرآن الكريم- فهو يَقضِي بها ويُعَلِّمُها، ورجلٌ آتَاهُ اللَّهُ مالا، فسَلَّطَهُ على هَلَكَتهِ في الحقِّ))

وتعلمون الحديث الشريف، عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح وأبو داود والترمذي في سننهما عن عثمان]

لذلك هذان الحديثان يتكاملان، دعوة إلى أهل اليسار بإنفاق مالهم، ودعوة إلى الفقراء بالتعفف، وبذل الجهد، والكسب المشروع، فهو خير لهم ألف مرة، من أن يقفوا باب غيرهم .

الحقيقة الآن: عندنا حديث ثالث يكمل هذين الحديثين، فعن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه عبد الله بن عمر، هذا ابن الصحابي الجليل، عبد الله بن عمر، الذي قال عليه الصلاة والسلام:

((ابن عمر دِينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا))

هذا ابن سيدنا عمر، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه عبد الله بن عمر، عن عمر رضي الله عنهم قال:

((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم- الآن الحديث لمن؟ لسيدنا عمر، فإذا قال هذا الكلام سيدنا عمر، فهل هو من السنة؟ نعم .

فالسنة في التعريف الدقيق: ما أثر عن النبي عليه الصلاة والسلام من قول، أو فعل، أو إقرار، أو صفةٍ، أما أصحابه إذا قالوا قولاً، رفعوه إلى النبي بقرينة أو بأخرى، فهو من السنة- .

فيقول سيدنا عمر: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيني العطاء، فأقول: أعطه من هو أفقر مني، -هذا التعفف- فقال عليه الصلاة والسلام: خذه إذا جاءك من هذا المال شيء.

-أحياناً: يكون إنسان على درجة عالية من التعفف، وعلى درجة عالية من الفقر، فهو عاجز عن الكسب، ومع ذلك يتأبَّى، فإذا تأبى أن يأخذ شيئاً، وهو في أمس الحاجة إليه، كأنه يؤذي المعطي، وهذه حالة نادرة-.

يقول سيدنا عمر: خذه إذا جاءك من هذا المال شيء، وأنت غير مشرف، ولا سائل -مشرف بمعنى متطلع، ترمق هذا الشيء، تتمنى أن تأخذه- فخذه فتموله -اجعله مالاً لك- فإن شئت كله، وإن شئت تصدق به وما لا -أي ما لم تأخذه- فلا تتبعه نفسك))

لا تندم على فواته، قال سالم، هذا الموقف الرائع:

((فكان عبد الله لا يسأل أحداً شيئاً، ولا يرد شيئاً أعطيه))

أيضاً النبي عليه السلام قال:

((تهادوا تحابوا))

من صيغ تهادوا، فيها صيغة المشاركة، قدم لك هدية، رد على هذه الهدية بهدية أخرى وهكذا .

قصة لا يمل الزمان من تردادها :

والآن إلى قصة قصيرة، نحن درسنا في رمضان: قصة قصيرة عن عمير بن سعد، وعمه الجلاس.

تجرع الغلام عمير بن سعد الأنصاري، كأس اليتم والفاقة منذ نعومة أظفاره، فقد مضى أبوه إلى ربه، دون أن يترك له مالاً أو معيلاً، ولكن أمه ما لبثت أن تزوجت من ثري من أثرياء الأوس، يدعى الجلاس بن سويد، فكفل ابنها عميراً وضمه إليه .

طفل صغير توفي أبوه، أمه تزوجت من ثري من بني الأوس، هذا الثري ضم هذا اليتيم إليه، ولقد لقي عمير من بر الجلاس، وحسن رعايته، وجميل عطفه، ما جعله ينسى أنه يتيم، فأحب عمير الجلاس حب الابن لأبيه، كما أولع الجلاس بعمير ولع الوالد بولده، كلما نما عمير وشب، يزداد الجلاس له حباً، وبه إعجاباً، لما كان يرى من أمارات الفطنة والنجابة .

الآن عندنا مشكلة: الجلاس أكرم هذا اليتيم إكراماً ما بعده إكرام، هذا اليتيم أحب زوج أمه حباً جماً.

((يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها))

نشأت مودة بالغة بين هذا الطفل الكريم، وبين هذا العم الكريم .

هذا الطفل اليتيم أسلم وهو صغير، لا يتجاوز العاشرة من عمره، فالإيمان وجد إلى قلبه الغض طريقاً، ورأى فيه مكاناً خالياً، فتمكن هذا الطفل الصغير، كان لا يتأخَّر عن صلاة خلف رسول الله، وكانت أمه معجبةً به أشد الإعجاب، كلما رأته ذاهباً إلى المسجد، أو آيباً منه ، لذلك الدعاء القرآني:

(رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ)

[سورة الفرقان الآية: ٧٤]

سارت هذه الحياة هكذا، إلى أن وقع شيءٌ محيِّر، في السنة التاسعة للهجرة، أعلن النبي عليه الصلاة والسلام عن عزمه على غزو الروم في تبوك، وأمر المسلمين بأن يستعدوا ويتجهزوا بذلك، وكان عليه الصلاة والسلام إذا أراد غزواً، لم يصرح به إلا هذه الغزوة، لبعد الشّقة، ولبعد المسافة، ولشدة التعب والعطش، بيَّن لأصحابه الكرام أن الوجه تبوك .

طبعاً: الوقت كان وقت صعب، وقت نضج الفاكهة، وقت أن يلوذ الإنسان بالظل الظليل، أن يقبع في بستان فيه ماء نمير، أن يدخل إلى بيت حيث الراحة والأمن، أما أن يذهب إلى غزوة في حر الصيف اللاهب، ولا يعرف حر الحجاز إلا من كان في الحجاز، أو إلا من حج أو اعتمر، يعرف معنى حر الحجاز . قال:

((إن طائفة من المنافقين، أخذوا يثبطون العزائم، ويوهِّنون الهمم، ويثيرون الشكوك، ويغمزون النبي عليه الصلاة والسلام، ويطلقون في مجالسهم الخاصة من الكلمات، ما يدمغهم بالكفر دمغاً .

-الآن بدأت العقدة- قال: وفي يوم من هذه الأيام التي سبقت رحيل الجيش، عاد الغلام عمير بن سعد إلى بيته، بعد أداء الصلاة في المسجد، وقد امتلأت نفسه بطائفةٍ مشرقةٍ من صور بذل المسلمين، نساء المهاجرين نزعن الحلي، وقدمنها للنبي عليه الصلاة والسلام، عثمان بن عفان جاء بجراب فيه ألف دينار ذهباً، عبد الرحمن بن عوف قدم مائتي أوقية من الذهب، أخذ عمير يستعيد هذه الصورة الفذّة، ويعجب من تباطؤ الجلاس عن الاستعداد للرحيل ، ثم دعا عمه -أنه آن الأوان أن تبذل وأن تستعد- كأنما أراد عمير أن يستثير همة عمه الجلاس، فأخذ يقص عليه أخبار ما سمع من هذا البذل وهذه التضحية، لكن الجلاس قال كلمة نزلت على هذا الغلام كأنها صاعقة، قال الجلاس: إن كان محمداً صادقاً فيما يدعيه من النبوة -انظر إن كان صادقاً، إذا تفيد تحقق الوقوع، أما إن تفيد احتمال الوقوع:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ)

[سورة النصر الآية: ١]

لا بد من أن يأتي، أما إن :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا)

[سورة الحجرات الآية: ٦]

فإن تفيد احتمال الوقوع- قال: إن كان محمد صادقاً فيما يدعيه من النبوة، فنحن شر من الحمير .

-يفهم من هذا الكلام: أنه ليس مصدقاً نبوة النبي- لقد شده عمير مما سمع، فما كان يظن أن رجلاً له عقل، وسنه بهذه السن، ينطق بهذه الكلمات، اضطرب اضطراب شديد، كاد يصعق، عمه المحسن الكريم، الذي أحبه كأبيه، يقول هذا الكلام، لكنه رأى وهو طفل صغير في السكوت عن الجلاس والتستر عليه، خيانة لله ولرسوله، وإضراراً بالإسلام الذي يكيد له المنافقون، وأن في إذاعة ما سمعه عقوقاً بالرجل الذي ينزل من نفسه منزلة الوالد، وقع بصراع إن نطق بما قال عمه فضحه، وكأن في هذا النطق بهذا الكلام إنكاراً للجميل، وإن سكت فهي خيانة للنبي عليه الصلاة والسلام وصحبه الكرام .

-أنا لا أصدق، أن يقف غلامٌ صغير هذا الموقف، ماذا قال الغلام؟- التفت إلى عمه وقال: والله يا عم، ما كان على ظهر الأرض أحد، بعد محمد بن عبد الله، أحب إلي منك، فأنت آثر الناس عندي، وأجلهم يداً علي، ولقد قلت مقالةً؛ إن ذكرتها فضحتك، وإن أخفيتها خنت أمانتي، وأهلكت نفسي وديني، وقد عزمت على أن أمضي إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وأخبره بما قلت، فكن على بيِّنة من أمرك .

-يعني ما أراد أن يفعل شيئاً وراء ظهر عمه، فأنا أقر لك بالفضل، وأنت من أعز الناس، ومن أكرمهم، بعد النبي عليه الصلاة والسلام، ولكن هذا الأمر لا يحتمل- .

مضى عمير بن سعد إلى المسجد، وأخبر النبي عليه السلام بما سمع من الجلاس بن سويد، فاستبقاه النبي صلوات الله عليه عنده، وأرسل أحد أصحابه ليدعو له الجلاس، وما هو إلا قليل، حتى جاء الجلاس، فحيا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجلس بين يديه، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: ما مقالة سمعها منك عمير بن سعد؟ وذكر النبي له ما قاله، فقال: كذب علي يا رسول الله، وافترى بما تفوهت، ما تفوهت بشيء من هذا إطلاقاً.

أخذ الصحابة ينقلون أبصارهم بين الجلاس وفتاه عمير، كأنهم يريدون أن يقرؤوا على صحفتي وجهيهما، ما يكنه صدرهما، وجعلوا يتهامسون، فقال واحد من الذين في قلوبهم مرض: فتى عاق، أبى إلا أن يسيء إلى من أحسن إليه، وقال آخرون: بل إنه غلام، نشأ في طاعة الله، وإن قسمات وجهه لتنطق بصدقه .

والتفت النبي عليه السلام إلى عمير، فرأى وجهه قد احتقن بالدم، والدموع تتحدر مدراراً من عينيه، فتتساقط على خديه وصدره، وهو يقول هذا الغلام الصغير: اللهم أنزل على نبيك، بيان ما تكلمت به .

فانبرى الجلاس وقال: إن ما ذكرته لك يا رسول الله هو الحق، وإن شئت تحالفنا بين يديك، وإني أحلف بالله، أني ما قلت شيئاً، مما نقله لك عمير .

فما انتهى من حلفه، وأخذت عيون الناس، تنتقل عنه إلى عمير بن سعد، حتى إذا جاء الفرج، حتى غشيت رسول الله صلوات الله عليه وسلامه السكينة، فعرف الصحابة أنه الوحي، فلزموا أماكنهم، وسكنت جوارحهم، ولاذوا بالصمت، وتعلقت أبصارهم بالنبي عليه السلام، وهنا ظهر الخوف والوجل على الجلاس، وبدأ التلهف والتشوّف على عمير، وظل الجميع كذلك، حتى سُرِّي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم -يعني انتهى الوحي- فتلا قوله تعالى، اسمعوا الآية:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ)

[سورة التوبة الآية: ٧٤]

-هذه الكلمة التي قالها الجلاس، كلمة كفر، بل إن العلماء يقولون:

((من أمسك المصحف، وألقاه هكذا، ليهينه، فقد كفر))

أن تقول: لو كان محمد صادقاً فيما يزعم، فمعنى ذلك أنك لست متأكداً، قال تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

[سورة الحجرات الآية: ١٥]

أنت مشكك، قال تعالى:

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً)

[سورة التوبة الآية: ٧٤]

يعني يعلم السر وأخفى، قال تعالى:

(لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً)

[سورة الطلاق الآية: ١٢]

إذا علمت أن الله يعلم، استقمت على أمره، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

[سورة النساء الآية: ١]

فارتعد الجلاس من هول ما سمع، وكاد ينعقد لسانه من الجزع، ثم التفت إلى النبي عليه الصلاة والسلام، -وقال: ما تتوقعون أن يقول قبل قليل؟- قال: كذب وأتحالف أنني لم أقل هذا، قال: بل أتوب يا رسول الله، صدق عمير يا رسول الله، وكنت من الكاذبين، اسأل الله أن يقبل توبتي، جعلت فداك يا رسول الله، -لذلك:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

[سورة الزمر الآية: ٥٣]

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

وهنا توجه النبي عليه الصلاة والسلام إلى الفتى عمير بن سعد، فإذا دموع الفرح تبلل وجهه المشرق بنور الإيمان، فمدَّ النبي عليه الصلاة والسلام يده الشريفة إلى أذنه، وأمسكها برفق، وقال: وقَّت أذنك يا غلام ما سمعت، وصدقك ربك .

-السيدة عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك، كان أقصى مناها: أن يرى النبي رؤيا تبرئها، فإذا وحيٌ ينزل يبرئها .

فهذا طفل صغير، وحي ينزل على النبي، يبرئه من الكذب- عاد الجلاس إلى حظيرة الإسلام، وحسن إسلامه، وقد عرف الصحابة صلاح حاله، مما كان يغدقه على عمير .

-قد تتوقعون من الجلاس أنه قد جرح من ابن زوجته جرحاً بليغاً، لا، فبعد أن تاب إلى الله عز وجل، رأى أن هذا الغلام سبب توبته، وسبب رجعته إلى الله عز وجل .

يعني:

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله، نادى مناد في السموات والأرض، أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

وقد عرف الصحابة صلاح حاله، مما كان يغدقه على عمير من بر، وقد كان يقول كلما ذكر عمير:

((جزاه الله عني خيراً، فقد أنقذني من الكفر، وأعتق رقبتي من النار)).

هذا طفل صغير في العاشرة من عمره، رد إحسان عمه إحساناً مثله، عن طريق أنه حمله على التوبة .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٣٦-١٠١) : باب النهي عن سؤال الإمارة، أحاديث من ضمن هذا الباب، الحديث عن الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٠-٠٥-٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة درسنا اليوم :

أيها الأخوة المؤمنون، ننتقل في رياض الصالحين، إلى الباب الواحد والثمانين، باب: النهي عن سؤال الإمارة، واختيار ترك الولايات، هذا الباب مصدرٌ بقوله تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

أنت أيها الإنسان مخلوقٌ للدار الآخرة، الدار الآخرة هي كل شيء، وما سوى الآخرة لا شيء، وربنا سبحانه وتعالى سمَّى الحياة التي نحن فيها: حياة دنيا، الإنسان أحياناً يغيب عنه معنى الاسم، حياةٌ دنيا، والآخرة حياةٌ عليا، الحياة الدنيا محدودة، مشحونة بالمتاعب، قصيرة، تمضي سريعاً، تغر، وتضر، وتمر، هذه الحياة الدنيا، لكن الحياة العليا باقية، خيرٌ وأبقى، لا هم، ولا حزن، ولا خوف، ولا قلق، ولا خروج منها، فربنا سبحانه وتعالى يقول:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

التي أعددتها لعبادي المؤمنين، التي خلقت الإنسان من أجلها، قال تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

هذا الذي يريد العلو في الأرض، له الدنيا، وليست له الآخرة، أما قوله تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

الفساد له معان كثيرة، فهو من صفات المنافقين، قال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ)

[سورة البقرة الآية: ١١-١٢]

يكفي أن ترغِّب الناس في الدنيا، فأنت مفسد، يكفي أن تصرفهم عن الآخرة، فأنت مفسد، يكفي أن تحزنهم على أنفسهم، فأنت مفسد، يكفي أن تفرِّق بين الأخ وأخيه، فأنت مفسد ، أن تفرِّق بين

الشريك وشريكه، بين الزوجة وزوجها، بين الجار وجاره، بين كل اثنين تحابَّا في الله عزَّ وجل، أن تفرق بين طالب علم وبين من يعلمه، هذا يدخل في باب الإفساد، قال تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

الأمور تدور؛ يعلو فلان، يسفل فلان، يتقدَّم فلان، يتأخَّر فلان، تأتي الدنيا لفلان، تنصرف عن فلان، في نهاية هذه الدورة الطويلة يفوز المتقي .

العوام لهم كلمات لطيفة: التقوى أقوى، تدور الأيام، تأتي الشهور، تأتي السنين، يعلو مَن يعلو، يسفل مَن يسفل، يتقدم مَن يتقدم، يتأخر مَن يتأخر، يفوز في النهاية المتقين، فلذلك: البطولة الذي يضحك آخر الأمر، هناك من يضحك قليلاً ليبكي كثيراً، وهناك من يبكي قليلاً ليضحك كثيراً .

لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((ألا يا رب نفسٍ، طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب مكرمٍ لنفسه، وهو لها مهين، ألا يا رب مهينٍ لنفسه، وهو لها مكرم))

هكذا، قال تعالى:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

[سورة الواقعة الآية: ١-٣]

فلذلك، قال تعالى:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

كن مع الله ولا تبالِ، كن مع الحق، لأن الحق أبدي سرمدي، كن مع الشيء الثابت، وهو الله سبحانه وتعالى، الله لا يتبدل، ولا يتغير، ولا يتحول، هو الذي بيده كل شيء، فوق كل شيء، مصير كل شيء إليه، الله سبحانه وتعالى إذا كنت معه، كنت مع القوي، إذا كنت معه، كنت مع الغني، إذا كنت معه، كنت مع الحكيم، مع الرحيم، مع اللطيف، لذلك:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

الشيء الذي أحب أن أقف عنده: هو أن الحياة الدنيا دار ابتلاء، أي لو أن الله سبحانه وتعالى عاقب المسيء فور إساءته، وجازى المحسن فور إحسانه، لما كان هناك اختيار، ولكان هناك اضطرار، لكن ربنا عزَّ وجل: شاءت حكمته أن يمهل، المسيء يسيء، ولا أحد يحاسبه ، إلى أن يتوهَّم أن الله غافلٌ عنه، والمحسن يحسن، وربما لا يلقى الجزاء السريع، إلى أن يظن، أنه قد ضيَّع حياته سدى، ولكن يأتي الحساب الإلهي، يأتي الجزاء الإلهي، ليجزي المحسن، وليعاقب المسيء، قال تعالى:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

يعني: من طبيعة الحياة الدنيا، من خصائص السنن الإلهية: أن الله يمد، يمد للإنسان، إلى أن يظن أن الله غافلٌ عنه، افعل ما تشاء، افعل ما بدا لك، أحسن إذا شئت، هناك من يحسن، هناك من يسيء، هناك من يغش، هناك من ينصح، هناك من يكذب، هناك من يصدق ، هناك من يخلص، هناك من يخون، هناك من يعطي، هناك من يمنع، هناك من يؤذي، هناك من ينصح، افعل ما تشاء، ربنا عزَّ وجل يقول:

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

[سورة فصلت الآية: ٤٠]

أنت مخير، لكن لكل عملٍ جزاؤه، لكل موقفٍ حسابه، لكل عطاءٍ ثمنه، لكل حرمان عقابه، افعل ما تشاء، إن لكل حسنةٍ ثواباً، ولكل سيئةٍ عقاباً .

لذلك: حينما يصدِّق الإنسان خالق الأكوان، ويستقيم على أمره، ربما لا تبدو له حكمة الأمر، إلا بعد أن يطبقها، لو أنه طلب الحكمة قبل التطبيق، لاستوى المؤمن والكافر .

الآن قل للكافر: لا بد أن تفعل كذا، من أجل الحفاظ على قلبك، أو على رئتيك، أو على كُلْيَتَيك، هذه الأكلة تضر من أصيب بكليتيه، كافر، مؤمن، منافق، فاسق، يمتنع بدافع مصلحته، لكن المؤمن يفعل، ولا يفعل إلا بدافع إيمانه بالله، بعد أن يفعل، تأتي الحكمة الإلهية، لذلك: لا تطلب الحكمة قبل أن تفعل الأمر، إنك إذا طلبتها قبل فعل الأمر، لست مؤمناً، أين إيمانك بخالق الكون؟ إيمانك بالله عزَّ وجل من لوازمه: أن تبادر إلى تطبيق أمره، فهمت الحكمة أو لم تفهمها، ألم تعرف الله عزَّ وجل؟ هذا أمره، يكفي أن تطبق أمره، لأنه أمره، قال تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

إليكم هذه النصوص النبوية وما تحويها من معان وتوجيهات :

١-يا عبد الرحمن بن سمرة.......:

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَن بْن سَمُرَةَ قَالَ:

((قالَ لِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ، وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، وَائتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ))

الحديث متفق عليه، أي اتفق عليه الشيخان هما: الإمام البخاري والإمام مسلم، يبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام، رأى أن الإمارة مسؤولية كبيرة .

سيدنا عمر قال:

((والله لو تعثرت بغلة في العراق، لحاسبني الله عنها، لِمَ لمْ تصلح لها الطريق يا عمر؟))

فكلما عرف الإنسانُ اللهَ عزَّ وجل معرفةً أوسع، كلما شعر بالمسؤولية تجاه خالقه، ازدد معرفة بالله، يزدد شعورك بالمسؤولية، رأس الحكمة مخافة الله .

ألم يقل سيدنا عمر لأحد الولاة:

((ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارقٍ أو ناهب؟ قال: أقطع يده، قال: إذاً: فإن جاءني من رعيتك من هو جائعٌ أو عاطل فسأقطع يدك، إن الله قد استخلفنا عن خلقه، لنسُد جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفِّر لهم حرفتهم، فإذا وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً، التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية))

فهل ربان الطائرة -قائد الطائرة- تفرحه هذه الغرفة الفخمة المليئة بالساعات والأجهزة، وثلاثمائة راكبٍ في عنقه؟ بغلطة واحدة من هذا الربان، يودي بحياته وحياة الركاب، إذاً: هذا الكرسي، كرسي قائد الطائرة، يحتاج إلى علم غزير، وإلى سرعة بديهة، وإلى أعصاب متينة، وإلى قدرة على التصرف في حالات الانفعال، لأنك وأنت في الجو، قد يتعطل جهاز، قد تدخل في سحابة مكهربة، قد تأتي صاعقة، فلذلك هذا الكرسي لا يُفرح صاحبه على أنه وثير، ولا أنه جميل، ولا أن أمامه هذه الأجهزة الكثيرة، لا، هذا كرسي المسؤولية، هذا كرسي الحساب الدقيق، وقائد الطائرة لا يحاسبه أحد، ولكن الجو يحاسبه، أيَّة غلطةٍ يقول لك: وقد مات جميع ركابها، احترقت بهم، عددهم كذا، والملاحون سبعة، خبر في ثلاث كلمات .

فلذلك الأب مسؤول، والمعلم مسؤول عن ثلاثين طالبًا، أو أربعين، أو خمسين، مدير مدرسة مسؤول عن ست عشرة شعبة، وكل شعبة فيها خمسون طالبًا، صاروا ثمانمئة طالب، مسؤول عن مشكلاتهم، عن المدرسين، عن دوامهم، صار مدير تربية بمحافظة، صار مسؤولا عن ثلاثمائة مدرسة، وكل مدرسة فيها ثمانمئة طالب، فالإنسان كلما ارتفعت مستوى مسؤوليته ازدادت مسؤوليته، إذاً: الإمارة تحتاج إلى يقظة، إلى ورع شديد .

سيدنا عمر بن عبد العزيز، عيَّن مستشارًا خاصًّا من كبار العلماء، اسمه: عمر، قال له:

((يا عمر -أنا نسيت اسمه الثاني- إذا رأيتني قد ضللت، فأمسك بتلابيبي، وهزني هزاً شديداً وقل لي: اتق الله يا عمر فإنك ستموت))

مسؤولية كبيرة جداً .

فيبدو أن النبي عليه الصلاة والسلام خاف على أصحابه، أن يظنوا أن الإمارة وجاهة، أن يظنوا أن الإمارة فيها لذة، لا، قال:

((يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ، وُكِلْتَ إِلَيْهَا))

إذا أراد الإنسان الشيء لذاته، معنى ذلك أنه متعلقٌ فيه، متعلقٌ بمغانمه، إذا أرادها هو وأصر عليها، معنى ذلك أنه وكل إليها، والإنسان ضعيف .

يعني:

((إذا أراد ربك إنفاذ أمرٍ، أخذ من كل ذي لبٍ لبه))

السداد من الله عزَّ وجل، السداد، والرشاد، والحكمة، وأن يأتي موقفك موقف سليم، وأن تقف، وأن تتكلم كلامًا سديدًا، وأن تأخذ القرار الصحيح، هذا كله يحتاج إلى معونة من الله عزَّ وجل .

الإنسان أحياناً ينظر إلى الشيء من زاوية واحدة، تغيب عنه زاوية ثانية، يقع في شر أعماله، ينظر إلى ضغطٍ واحد، وينسى الضغط الآخر، فيهلك نفسه .

فهذه نقطة دقيقة جداً: أن الإنسان إذا وكّل أمره إليه فقد هلك، أما إذا أعانه الله عزَّ وجل فقد رشد .
دع الإمارة في عملك اليومي، سمعت عن طبيب، بلغ من الشهرة والتفوق، أنه أصبح الطبيب الأول في البلد، شعر بنشوة وهو يولد امرأةً، قطع الرحم وهو لا يدري، وقطَّع الأمعاء وهو لا يدري، وكادت تسحب منه الشهادة، لولا أنه أخذ هذه المريضة إلى أقرب مستشفى، وأسعفها بنفسه، يبدو أنه اتكل على خبرته، فوكله الله إليها .

هذه في الأعمال كلها، أصحاب المصالح، أصحاب المهن، المدرسون، الأطباء، المهندسون، كل إنسان: إذا شعر أنه متمكن من حرفته، قد امتلك زمامها، خبرته كثيرة، تراكمت خبراته، ضليع في هذا الشيء، يعرف من أين تؤكل الكتف؟ يعرف كيف يفعل؟ إذا شعر بهذا الشعور فقد أشرك، عندئذٍ يكله الله إلى ذاته، عندئذٍ يقع في شر عمله .

عندما قالوا:

((أن لكل عالمٍ هفوة، ولكل جوادٍ كبوة، ولكل حسامٍ نبوة))

ما أخطؤوا، متى يهفو العالم؟ إذا ظن أنه عالم، يظل المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل، في اللحظة التي تظن فيها أنك عالم، فأنت جاهل، لأن الله عزَّ وجل يقول :

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء الآية: ٨٥]

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة البقرة الآية: ٢٥٥]

لذلك فقمة المعرفة: أن تكون مفتقراً إلى الله عزَّ وجل، كلما ازدادت معرفتك ازداد افتقارك، كلما ازدادت معرفتك ازداد تواضعك .

بعض الأطباء نقل لنا قول بعض العلماء فقال:

((لم تبتل بعد أقدامنا ببحر المعرفة))

الله عزَّ وجل لا نهائي، فلذلك تقرأ أحياناً بأي فرع من فروع المعرفة، تشعر أن الذي قطعه العلماء في هذه السنوات الطويلة، يقولون لك: هذا العلم يعود تاريخه إلى ألف وثمانمئة وعشر سنوات، علم الاجتماع مثلاً، علم النفس، الكيمياء العضوية، الفيزياء الذرية، الفيزياء العضوية ، الفيزياء الكيميائية مثلاً، علم الحركات، قوانين الفلك مثلاً، علوم أحياناً تتعثر بصفحتين أو أربع صفحات في نهاية الكتاب عن المراجع، تجد خمسمئة مرجع باللغة الإنكليزية، وثلاثمئة بالفرنسي، ومئتين بالعربي، كل هذه الكتب حول هذا الموضوع، ومع ذلك:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة الإسراء الآية: ٨٥]

أنا حدثتكم قبل مرة، أن صديق لي طبيب في القلب، قال لي: ذهبت إلى بلد متطور، في مقياس العصر طبعاً، قال لي: لأحضر مؤتمر للأطباء، وجدنا أن هناك أربعة آلاف ومئة محاضرة، أربعة آلاف ومئة بحث جديد، قد اكتشف في العام الماضي، وقال لي: والله لو أن العلماء إلى يوم القيامة ضاعفوا جهودهم، لشعروا أن كل هذا الوقت، لا يكفي لمعرفة أسرار القلب، لذلك من علامات العلم: التواضع، المتكبِّر جاهل .

فهذا الكرسي، كرسي ربان الطائرة، يحتاج إلى علم، تصور أنك ودَّعت إنسانًا في المطار قبل فترة، وأنا خارج من بهو المطار، دخل شاب وسيم الطلعة، صافح شخصًا معي، فإذا هذا الشخص، هو الطيَّار الذي سيقود هذه الطائرة ليلاً من دمشق إلى بلدٍ بعيد، قلت: أيستطيع أحدٌ أن يجلس مكانه؟ تجلس بمقعد طيار، وتحرك طائرة ليلاً، والظلام دامس، تقلع من المدرج، وتتجه باتجاه الشرق، تنزل بمطار الساعة الثانية عشرة ليلاً، تخرج من المطار الساعة الواحدة، تتجه نحو الجنوب .

هذا إنسان درس دراسة عالية جداً، دراسة، وعلم، وأعصاب متينة، وتصرُّف جيد، إذاً: هذا الكرسي، كرسي المسؤولية .

فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلْ الْإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ، وُكِلْتَ إِلَيْهَا))

نحن توسعنا في معنى:

((وُكِلْتَ إِلَيْهَا))

الإنسان بأعماله كلها، الإنسان أحياناً بسببٍ تافه، يضيعُ منه شيءٌ كبير .

من عادتي أنا، إذا واجهت هكذا مشكلة، أقول: لا بد أن هناك تقصيرًا في الاستعاذة بالله، من الشيء الذي لا تهتم له، ماذا كان يقول النبي الكريم؟ قال:

((اللهم إني أعوذ بك مما أهتم له، ومما لا أهتم له))

يعني أحياناً شريط صغير، ينقطع في مركبتك، يعطلك عن السفر، تكون في منتصف الطريق، ولا تعرف أين الخلل في السيارة؟ تقف ساعات طويلة، أربع ساعات، عشر ساعات ، ولا تستطيع أنْ تغادر المركبة، ولا أن تتركها لحالها، وشريط صغير انقطع، وأنت لا تعرف ذلك، فهذا الشيء لا تهتم له أنت، فينبغي أن تستعيذ بالله مما تهتم له، ومما لا تهتم له، هذا هو التوحيد، لذلك: ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، الإنسان دائماً يوحِّد ..

((وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، أُعِنْتَ عَلَيْهَا، وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ))

سيدنا عمر -قلت لكم ذلك سابقاً- أنه جعل رجل والياً، وأحب أن يمتحنه، فقال له:

((خذ عهدك، وانصرف إلى عملك، واعلم أنه مصروفٌ رأس سنتك، وأنك تصير إلى أربع خلال، فاختر لنفسك، إن وجدناك أميناً ضعيفاً -أمين لكن ضعيف الشخصية- استبدلناك لضعفك -لا تصلح - وسلمتك من معرتنا أمانتك -لا نعاتبك، ضعيف الشخصية لكنك أمين -وإن وجدناك خائناً قوياً - شخصية قوية وحازمة، ولكن ليس فيه استقامة- استهنا بقوتك، وأوجعنا ظهرك، وأحسنّا أدبك، وإن جمعت الجرمين -ضعيف الشخصية وخائن- جمعنا عليك المضرتين -العزل والتأديب، أمين ضعيف عزل، قوي خائن تأديب، ضعيف خائن، عزل زائد، تأديب- وإن وجدناك أميناً قوياً، زدناك في عملك -نجدد- ورفعنا لك ذكرك، وأوطأنا لك عقبك))

أيها الأخوة، من أين أخذ هذا سيدنا عمر؟ من قوله تعالى:

(يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

[سورة القصص الآية: ٢٦]

تعلم إذا أردت تعيين شخص من عندك، تريد أن تتعاون مع شخص، اخترْ القوي الأمين .

الآن باللغة المعاصرة: الإخلاص والكفاءة، تريد إنسانًا مخلصًا ذا كفاءة، المخلص بلا كفاءة يهلكك، وذو الكفاءة لكنه خائن يخوّفك، لستَ مرتاحًا له، كفاءة عالية وفهيم، يقول لك : فالح، شاطر، ذكي، يعرف كيف يتصرف، لكنه يبلع، أو مستقيم لكن ما عنده إمكانيات، والله علّمنا في القرآن، قال تعالى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

[سورة القصص الآية: ٢٦]

وإذا أصاب الإنسان في عمله، إنساناً قوياً أميناً فلا يفرط فيه، ولكن ليكرمه على قدر ما يستطيع، مهما أعطاه فهو الرابح، إذا بعملك عندك محل، عندك مشروع، عندك معمل، ووُفِّقت بإنسان قوي وأمين، هذا من فضل الله عليك، لذلك أشخاصٌ كثيرون يصيبون مثل هؤلاء، ولكن لضيق أفقهم يفرِّطون بهم، لسبب تافه، طلب زيادة، فيقول له: ليس عندي زيادة، فتركه، الحقيقة: الطاقة البشرية بكل عمل، هي رقم واحد . الذي لفت نظري في الحديث:

((إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا))

فالدعاء الشريف:

((اللهم إنا نعوذ بك من أن تكلنا إلى أنفسنا))

المؤمن قبل أن يفعل شيئاً يقول:

((اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك وقوتك، يا ذا القوة المتين))

يجب أن يكون قالاً وحالاً، هذه قالاً سهلة، هكذا الأستاذ قال لنا في الجامع: إنه بعد ما يعمل عملا، حتى يقول:

((اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي، والتجأت إلى حولك قوتك، يا ذا القوة المتين))

القول سهل، أما ربنا عزَّ وجل يريد حالها، هل أنت مفتقر إلى الله عزَّ وجل؟ هل ترى أن الله كل شيء وأنت لا شيء؟

وما لي سوى فقري إليك وسيلةٌ فبالافتقار إليك فقري أدفعُ
وما لي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددت فأي بابٍ أقرع

يجب أن تكون هكذا .

الآن:

((وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا))

أنا والله حلفت يمينًا معظمًا، أنه لا أزور أختي، زر أختك وكفر عن يمينك، وأطعم عشرة مساكين، لا يقبل النبي منك أن تفعل شيئاً، لا يرضي الله عزَّ وجل على أثر يمين، من نذر أن يعصي الله، فلا يعص الله عزَّ وجل، فأي يمين تحلفه ألا تفعل خيرًا...

أخي أنا مرة، فعلت خيرًا مع إنسان، فأساء لي، فحلفت يمينًا بالله معظمًا، ألا أفعل خيرًا مع أحد، فما هذا اليمين؟ هذا اليمين مردود عليك، افعل الخير، وكفر عن يمينك .

فالنبي الكريم قال هكذا:

((وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، وَائتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ))

هذا توجيه نبوي .

٢-يا أبا ذر إني أراك ضعيفاً........:

حديثٌ آخر في هذا الموضوع: عَنْ أَبِي ذَرٍّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي: لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأبو داود والنسائي في سننهما عن أبي ذر]

هذه بنية أو طبع، هناك إنسان لين، هكذا طبعه، هذا الإنسان لا يصلح أن يقود مجموعة من الأشخاص، يستحي أن يعاتبهم، يستحي أن يحاسبهم، يستحي أن يؤاخذهم، يستحي أن يأخذ موقفًا صعبًا، لأنه يخجل دائماً، هذا مستضعف، يبدو أن بعض الأعمال تحتاج إلى قوة، لذلك الفقهاء: منعوا أن تكون المرأة قاضية، تجد الشخص من الواجب أن يُعدمَ، فتقول القاضية: والله حرام، يكون هذا قاتلا ومجرمًا، ربنا عزَّ وجل قال:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة الآية: ١٧٩]

قال:

(وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

[سورة النور الآية: ٢]

تحتاج لإنسان له قلب، يتحمَّل هذا القرار، فقال له:

((يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا))

أيها الأخوة، لم يقل إنك ضعيف، انظر إلى بلاغة النبي، إنك ضعيف، يعني أنت ضعيف، لكن: إني أراك، فقد تكون غير ذلك، كلمة: إني أرى، دائماً الأشخاص الموفقون في حديثهم، يكون كلامهم فيه

تحفظ دائماً، يقول لك: يبدو لي ذلك، إني أرى ذلك، كلمة: إني أرى؛ فيها لطف، ما فيها قصر، ما فيها جزم، ما فيها اتهام ثابت، إنك ضعيف يا أبا ذر، انتهى يعني ضعيف، لكن:

((يَا أَبَا ذَرٍّ إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا))

يتراءى لي ذلك، يبدو لي ذلك أنك ضعيف، وقد تكون غير ذلك، إذا أنت خاطبت أخًا مؤمنًا، فلا تكن قاسيًا عليه، قل له: إني أرى ذلك، لعلي مخطئ، هكذا الله علمنا، فقال:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة سبأ الآية: ٢٤]

هذه الآية، فيها دقة هائلة، قال تعالى:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى)

[سورة سبأ الآية: ٢٤]

أحدنا على صواب، والآخر على خطأ، قد أكون أنا على صواب، وأنت على خطأ، وقد تكون أنت على صواب، وأنا على خطأ، اسمع مني يا أخي، هذه الحجة أو هذا البيان، قال تعالى:

(وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ)

[سورة سبأ الآية: ٢٤]

خذ موقفًا معتدلا، حتى ربنا عزَّ وجل، عندما قال فرعون:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص الآية: ٣٨]

إله، معنى هذا: أنها كلمة كبيرة جداً، لا يوجد كلمة أكبر منها، أن يقول: أنا إله، لكن قالها بشيء، فيه شيء من التحفظ، قال تعالى:

(مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)

[سورة القصص الآية: ٣٨]

لكن المرة الثانية ماذا قال؟ قال :

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات الآية: ٢٤]

فقال تعالى:

(فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى)

[سورة النازعات الآية: ٢٥]

الآخرة لما قال:

(أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)

[سورة النازعات الآية: ٢٤]

الله عزَّ وجل بدأ بالآخرة، ثم بالأولى .

فلعلي أنا مخطئ، لعلك على صواب، ولعلي على خطأ، دائماً اترك مجال للحوار .

إذاً:

((يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي))

طبعاً: هذه من صفات المؤمن .

أنا أقول لكم هذه الكلمة: حينما تتمنى أن يقع بأخيك سوء، فأنت لست مؤمناً ورب الكعبة، يكفي أن تتمنى لأخيك زوال نعمةٍ عنه، أو أن يضعُف، أو أن ينحَّى عن هذا العمل، أو أن يفتقر، أو أن يفشل في هذا العمل، بمجرَّد أن تتمنى ذلك لأخيك المؤمن، فهذا ليس أخاك، أنت لست مؤمناً، أنت مع المنافقين، والدليل قوله تعالى:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

[سورة التوبة الآية: ٥٠]

من صفات المنافقين، قال تعالى:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

[سورة التوبة الآية: ٥٠]

قال:

((وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي))

وإذا كان أخوك المؤمن رأيته قد تفوق، والله عزَّ وجل أكرمه، وفعل الصالحات، والله عزَّ وجل أجرى على يديه الخير، أقول لك: هذه بشارةٌ لك، لأنك إذا أحببت لأخيك ما تحب لنفسك، فأنت مؤمن ورب الكعبة .

الحديث له تتمة، أنا سمعت من أمد قصير، أن له تتمة، فعَنْ أَنَسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما والترمذي والنسائي في سننهما عن أنس بن مالك]

هذا الحديث معروف، مطروق جداً، مألوف جداً، تتمته:

((ولا يؤمن أحدكم حتى يكره لأخيه ما يكره لنفسه))

إذا كنت لا تحب هذا العمل، فكيف دفعت إليه أخاك؟ لا ترضى بهذه المهمة، فكيف أرسلته لها؟ لا ترضى لنفسك بهذا العمل، فكيف أقنعته فيه؟ في زيادة مال منه، أنت لم ترضه لك، فكيف رضيته له؟ إذاً:

((ولا يؤمن أحدكم حتى يكره لأخيه ما يكره لنفسه))

يجب أن تحب له ما تحب لنفسك، ويجب أن تكره له ما تكره لنفسك .

قال:

((يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي: لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأبو داود والنسائي في سننهما عن أبي ذر]

مال يتيم خطر، عليه حساب شديد .

سيدنا عمر رضي الله عنه قال:

((ما أنا وأنتم إلا كالوصي على مال اليتيم، إن افتقر أكل بالمعروف، وإن اغتنى تعفف، وإن أكرمه الله ردَّ الذي أخذه))

هذا الموقف الدقيق: إن كان غني يتعفف، وإن كان فقير يأكل بالمعروف، وإذا أغناه الله يرد ما أخذ .

مرة قالوا لسيدنا عمر:

((يا أمير المؤمنين، الناس يخافون من شدتك، وقالوا: أنه كان النبي عليه الصلاة والسلام رحيماً بهم، وكان من بعده أبو بكر، فلما كان الأمر لك، خاف الناس شدتك .

فبكى وجمع الناس، وقال: أيها الناس، كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم خادماً له وجلوازه، وسيفه المسلول، فكان يغمدني إذا شاء -خادمه وخادم فرسه كذلك- وتوفي عني وهو عني راض، الحمد لله على هذا كثيراً، وأنا به أسعد -يعني عشت فخدمته خدمة مخلصة -، ثم كان أبو بكر -هذا ليس رسول- فكنت خادمه، وجلوازه، وسيفه المسلول، وكان يغمدني إذا شاء -أنا بخدمته، أنا الجانب القوي- وهو كان يسمح لي أو يوقفني، أما وقد آلت الأمور إلي -هنا في قضية ثانية .

أحياناً يكون في أب وأم، الأب شديد والأم رحيمة، يغضب الأب فالأم تخفف، لن يعيدها، صار في توازن، أما الأم ماتت، إذا الأب أراد أن ينقض على ابنه، فليس هناك من يتشفع له، لا يوجد تمثيلية الآن- .

فقال: أيها الناس وقد آلت الأمور إلي، فاعلموا أن هذه الشدة قد أضعفت -الآن صار وضع ثان-

فأنا ألين لكم من أحدكم، وإنني أضع رأسي على الأرض، ليطأه أهل العفاف والتقى، أما أهل الظلم والعدوان، فأنا شديدٌ عليهم.

-النتيجة- قال: أيها الناس، خمس خصالٍ خذوني بهن -حاسبوني-؛ لكم علي ألا آخذ من أموالكم شيئاً إلا بحقه، ولكم علي ألا أنفق من هذه الأموال شيئاً إلا بحقه -يعني آخذ منكم بالحق وأنفق بالحق-، ولكم علي ألا أجمِّركم في البعوث -يعني في الحروب، يعني ألاّ أترك الجندي سنتين في البعوث، فله زوجة، له أهل، له أولاد، أربعة أشهر فقط-، وإذا غبتم في البعوث -في الجهاد-، فأنا أبو العيال حتى ترجعوا، ولكم علي -الخامسة- أن أزيد في عطاياكم إن شاء الله تعالى، -يعني كلما ارتفع مستوى المعيشة، أرفع لكم رواتبكم-، ولكم علي أن أزيد عطاياكم إن شاء الله تعالى))

فقال له:

((يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي: لَا تَأَمَّرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلَّيَنَّ مَالَ يَتِيمٍ))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأبو داود والنسائي في سننهما عن أبي ذر]

٣-يا رسول الله ألا تستعملني:......

الحديثان الأخيران في هذا الموضوع: وعَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ، قُلْتُ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ -تضعني بوظيفة أو بعمل- قَالَ: فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي -هذا معنى ربت، شيء في منتهى المودة والمحبة- ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأبو داود والنسائي في سننهما عن أبي ذر]

يعني لو فرضنا إنسانًا، ارتدى ثوبًا أبيض، واشترى نظارات، واشترى سماعة صدر، واشترى جهاز ضغط، وكتب لوحة عند أشهر خطاط: الطبيب الفلان الفلاني، وحائز على الشهادة الفلانية، وبورد، وكذا، وإلى آخره، وفتح العيادة، وهو إنسان جاهل، لفترة محدودة يأتي الناس إليه، لكن إذا اكتشف أمره، يساق للمحاكمة ذليلاً، مخزياً، مهاناً، أليس كذلك؟ .

هذه مسؤولية، تعطيه دواء، فمات به، أحياناً خطأ بين حبة وحبتين يموت الإنسان، في أمراض معينة كأمراض القلب مثلاً، خطأ طفيف جداً، يموت المريض فيها، إذا نسي أن يسأله سؤالا، لم ينتبه للتخطيط، لم ينتبه للتشخيص، مات المريض .

مرة حدثني أخ، أنه في عملية جراحية، والطبيب المخدر لم يحضر، فكلفوا ممرضًا، الإنسان عندما يخدَّر، إذا بلع لسانه يختنق، ويموت فوراً، فالمريض مات، ليس من العملية، ولكنه مات، لأنه بلع لسانه، لأن الطبيب المخدر، يسحب له اللسان دائماً، ليكون مجرى الهواء سالك، لأنه تخدير كامل،

فنسي المساعد أنْ يسحب لسان المريض فمات، فيا ترى إذا ادعى الإنسان، وأخذ وجاهة الطبيب، ولبس الأبيض، وبدأ يكتب بالأوراق، وبدأ يستقبل المرضى، ويعطي التعليمات: كل شوربة، واترك الملح، واعمل كذا، وكله بجهل، وانكشف أمره، فهل تنتهي معه الأمور بسلام؟ .

فقال له:

((يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ))

هو بموضوع الطب بالمناسبة، النبي هكذا قال، فعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ تَطَبَّبَ، ولا يُعْلَمُ مِنْهُ طِبٌّ، فَهُوَ ضَامِنٌ))

[أخرجه أبو داود والنسائي في سننهما]

يُحاسَب، هناك أشخاص ذوو بنية سليمة، معه مرض معين، أخذ الدواء فاستفاد، خذ الدواء نفسه، لا تحتاج إلى الطبيب، قد يكون معه مرض ثان، قد يكون معه حساسية لهذا الدواء، أنت لا تفهم الذي معه، فهذه القضية خطيرة .

((مَنْ تَطَبَّبَ، وَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ طِبٌّ، قَبْلَ ذَلِكَ، فَهُوَ ضَامِنٌ))

قال:

((وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا))

٤-إنكم ستحرصون على الإمارة.......:

آخر حديث في هذا الموضوع: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّكُمْ سَتَحْرِصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ نَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنِعْمَ الْمُرْضِعَةُ، وَبِئْسَتْ الْفَاطِمَةُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح والنسائي في سننه عن أبي هريرة]

يكفي إذا قلت: فلان مسؤول، نحن أحياناً يغيب عنا معنى الكلمة: فلان مسؤول، ما معنى مسؤول؟ معنى هذا أنه مسؤول، وهذه تكفي، فلان مسؤول كبير، أي مسؤول كبير، وسوف تسأل؛ لم فعلت كذا؟ لم أعطيت؟ ولم منعت؟ لم قلت هذا الكلام؟ لم تساهلت مع فلان؟ لم عقَّدت الأمر على فلان؟ فكلمة مسؤول تعني: أنك مسؤول، فالإنسان إذا استطاع ألا يكون مسؤول، أكثر له راحة، وإذا أقحم، فليكن في مستوى هذه المسؤولية .

إليكم اسم هذا الصحابي الذي عينه عمر بن الخطاب والياً على المدائن، وما هي الكلمة التي ألقاها على مسامع الناس؟:

والآن إلى قصةٍ عن أحد أصحاب النبي عليهم رضوان الله .

خرج أهل المدائن أفواجاً، يستقبلون واليهم الجديد، الذي اختاره لهم أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب رضي الله عنه، خرجوا تسبقهم أشواقهم إلى هذا الصحابي الجليل الذي سمعوا عنه الكثير، سمعوا عن ورعه وتقاه، سمعوا عن بلائه العظيم في فتوحات العراق، وإذا هم ينتظرون الموكب الوافد، أبصروا أمامهم رجلاً مضيئاً، يركب دابة على ظهره، إكافٌ قديم -يعني ثوب قديم- وقد أسدل الرجل ساقيه، وأمسك بكلتا يديه بزاده، وحين توسَّط جمعهم، وعرفوا أنه حذيفة بن اليمان، الوالي الذي ينتظرون، كاد صوابهم يطير، ولكن فيم العجب؟ وماذا كانوا يتوقعون أن يجيء اختيار عمر؟ الحق أنهم معذورون، فما عهدت بلادهم أيام الفرس، ولا قبل فارس، ولاةً من هذا الطراز الجليل، دققوا في القصة .

سار حذيفة، والناس حوله محتشدون، وحافون به، وحين رآهم يحدِّقون فيه، كأنهم ينتظرون منه حديثاً، ألقى على وجوههم نظرةً خاصة، ثم قال:

((إياكم ومواقف الفتن، قالوا: وما مواقف الفتن يا أبا عبد الله؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير أو الوالي، فيصدقه بالكذب، ويمتدحه بما ليس فيه))

هذه مواقف الفتن .

اسمع ما يقوله عن نفسه :

هذا الصحابي الجليل، يقول عن نفسه:

((كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير، وكنت أسأله عن الشر، -عجيب! لأنه من عرف الخير وقع في الشر، لكن لا تسلم من الشر إلا إذا عرفت الشر، الفكرة دقيقة . ذات مرة قال سيدنا عمر:

((ليس بخيركم من عرف الخير، ولا من عرف الشر، ولكن من عرف الشرين، وفرَّق بينهما، واختار أهونهما))

يجب أن تعرف الشرَّين، وهذا أهون من هذا- .

قال :قلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهليةٍ وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، كنا في جاهلية، يأكل بعضنا بعضاً، نعتدي على بعضنا، نقطع الرحم، نأكل مال اليتيم، نأكل الميتة، نأتي الفواحش، نعبد الأصنام، هذه الجاهلية، إنا كنا في جاهليةٍ وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟.

فقال سيدنا رسول الله: نعم، هناك شر بعد هذا الخير .

فقلت: هل بعد هذا الشر من خير؟ -فبعد الشر الثاني في خير؟- .

فقال: نعم، وفيه دخن .

قلت: وما دخنه؟ .

قال: قومٌ يستنون بغير سنتي، ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر، -يحيرك؛ تجده يصلي، ويصوم، وأول سنة عنده احتفال في فندق، يصلي، ويصوم، وفي دخله في شبهة ، بتعامله في قضية ربوية، يقول لك: ماذا نفعل؟ نحن مضطرون، هكذا يفعل الناس كلهم- .

قال: وما دخنه؟ .

قال: قومٌ يستنون بغير سنتي، ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر .

-ثمة شيء جيد في حياتهم، وهناك شيء غير جيد، شيء مقبول، وشيء غير مقبول، مثل: أخي عملنا حفلة مختلطة، وفرنا بدل أن نعمل سفرتين برمضان، عملناها سفرة واحدة، هذه خلاف الشرع، هناك أجنبيات، شباب، وشابَّات، صاروا في اختلاط، والمغرب، لا يصير الصلاة قبل الإفطار، هكذا السنة .

فهؤلاء الجالسون مع بعضهم البعض، فهل هذه ليس فيها شيء؟ السنة الصلاة قبل الإفطار، وعلى ثلاث تمرات وكأس ماء، النساء والرجال على مائدة واحدة، فتجد الصهر يوازن: هذه غير هذه، ينظر في هذه، وجدها غير هذه، لماذا لم آخذ هذه أنا؟ الله يصلحني- .

قال: تعرف منهم وتنكر، -فيه دخن، فيه خير، ولكن فيه أخطاء، وتجاوزات، وانحرافات، ومخالفات للسنة، يا أخي دخلت فصُمدت، فماذا أفعل؟ أحرجوني يا أخي، كيف تجلس مع نساء كاسيات عاريات؟.

قلت: وهل بعد هذا الخير من شر؟ -انظر التسلسل هذا الشر الثالث، شر الجاهلية، وشر بعد الخير، وبعد الشر في خير، وبعد الخير هناك شر ثالث- .

قال: نعم، دعاةٌ على أبواب جهنم، من أجابهم إليها، قذفوه فيها .

-أي عمل فيه إيذاء للمسلمين، هذه دعوةٌ إلى جهنم، أي عمل في كشف العورات، دعوةٌ إلى جهنم، أي عمل فيه فتنة، دعوة إلى جهنم، أي عمل فيه إفقار الناس، دعوة إلى جهنم، أو إيذائهم، أي عمل من هذا القبيل، دعوة إلى جهنم- .

قلت: يا رسول الله، فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ .

فقال عليه الصلاة والسلام: تلزم جماعة المسلمين .

-يكون لك انتماء لجماعة مسلمة، لأن الإنسان يستشير، يسأل، يستأنس، يا بني هذا حرام، لا يجوز، وهذا حلال، الإنسان إذا لم يكن فقيهًا، لا يقطع شيئًا من دون استشارة، قد تقع في الحرام وأنت لا تدري، اسأل يا أخي، هذه لا تجوز، هذه علاقة ربوية، هذا المشروع كله معصيةٍ، ارتكبت في هذا المكان في صحيفته، وكل ما يرتكب في هذا البيت الذي أجرته بمئة ألف من زنا في صحيفتك، أمر خطير جداً، اسأل، لأن الله عزّ وجل قال:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية: ٢]

أنت قدَّمت لهم البيت، أنت ما لك ومالهم، وفي المساء أتوا بالخمر وبالنساء، فاسأل، هذه لا تجوز، هذه تجوز، هذه حرام، وهذه حلال-.

قال: فماذا تأمرني؟ .

قال: تلزم جماعة المسلمين . -هنا في آخر سؤال- .

قال: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ .

-هذه حالات نادرة، نحن الحمد لله في بلدة طيبة، بلدةٌ طيبةٌ وربٌ غفور، وشعائر الدين تمارس على قدمٍ وساق، والحمد لله رب العالمين، ولك أن تدخل أي مسجد؛ هناك خطب، وهناك دروس، وهناك علم، وهناك أناس طيبون، وفي عمل طيب، وفي بناء مساجد، وفي ورع والحمد لله، لكن لو فرضنا أنه كان في بلد ما في للمسلمين جماعة- .

قال: تعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرةٍ، حتى يدركك الموت، وأنت على ذلك) .

إذا كان ثمة فتن، ضلال، انحراف، اختلاط، كسب حرام .

((إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوىً متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فالزم بيتك، وأمسك لسانك، وخذ ما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بخاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة))

أما إذا كنت مع أناس طيبين، مستقيمين، عرفوا الحق، فكن أنت معهم، الجماعة رحمة، يد الله مع الجماعة، يد الله على الجماعة .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٣٧-١٠١) : باب: استحباب العزلة عند فساد الناس والزمان، أو الخوف من فتنة في الدين، ووقوع في حرام وشبهات ونحوه ، أحاديث شتى من ضمن هذا الباب، قصة حذيفة بن اليمان

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٠-٠٥-١٣

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم هذا السؤال التي أجابت عنه الشريعة الإسلامية :

أيها الأخوة المؤمنون، اخترت لكم اليوم من كتاب رياض الصالحين، الباب التاسع والستين، باب: استحباب العزلة عند فساد الناس والزمان، أو الخوف من فتنة في الدين، ووقوع في حرام وشبهات ونحوه، هذا عنوان الباب .

قبل أن نمضي في الحديث، عن آيات هذا الباب، وعن أحاديثه، هناك تقديم لا بد منه: الإنسان اجتماعي في طبعه، له نشاط اجتماعي، أحياناً يميل إلى أن يلتقي بالناس، وأحياناً يميل إلى أن يبتعد عنهم، يا ترى أيهما أفضل أن تكون مع الناس، أو أن تبتعد عنهم؟ .

الحقيقة: الشرع الإسلامي رسم منهج دقيق في كلتا الحالتين: فالبارحة في درس أصول الفقه ضربت مثلا: الشهوات التي أودعها الله في الإنسان قوى دافعة، هذه الشهوات مندفعة إلى تحقيق ذاتها، ولكن ما الذي يقف في طريقها؟ ما الذي يلجمها؟ ما الذي يضبطها؟ ما الذي ينظمها؟ أن تكون هناك قوة في مستواها، ضربت على هذا مثلاً:

ائتِ بميزان، وضع في إحدى كفتيه خمسة كيلو، يا ترى أنت إذا حضرت خطبةً لخطيبٍ من خطباء دمشق، وتأثرت من هذه الخطبة، إن الذي يوزن من هذه الخطبة بضع غرامات وضعت بالكفة الثانية، هل تكفي هذه الغرامات لترجيح الكفة؟ لا تكفي، فلا بد من أن يبلغ إيمانك حجماً أو وزناً، يكافئ الشهوات التي أودعى الله فيك .

الآن: أقدم لكم مقياس دقيقاً جداً: الإنسان حينما يعصي الله عز وجل، أو حينما يقصر، معنى ذلك: أن هذا الشيء الذي أقبل عليه أغلى عليه من الله عز وجل، إذاً: حجم إيمانه أو وزن إيمانه، أقل من هذه الشهوة التي انطلق إلى إروائها، فالحقيقة العلم، ومع أن العلم له قيمة لا حدود لها، لكن العلم ليس مقصوداً لذاته، العلم مقصود لغيره .

فالله عز وجل ماذا قال؟ لم يقل: قد أفلح من تعلم، قال:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

[سورة الأعلى الآية: ١٤]

لا بد من أن تزكي نفسك، قال :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ١-٢]

إذاً: الإيمان قد يبدأ بإعلان الشهادة، قد يبدأ مثلاً بسماع خطبة، بسماع درس، ولكن حجم الإيمان يبقى أقل من المطلوب، ما دام هناك مخالفات، ما دام هناك تقصير، ما دام هناك تجاوزات، ما دام هناك تساهلات، ما دام هناك شعور أن الله عز وجل، لن يحاسبنا على عملنا ونحن في ريعان الشباب، ما دام هناك تجاوز، تقصير، مخالفة، معصية، إذاً: حجمك إيمانك غير كاف .

لذلك: أيها الأخ الكريم التفت إلى تقوية إيمانك، هذا الإيمان لا ينجي، ولا يكفي، لا يكفي الإيمان إلا إذا استطاع، أن يلجم كل الشهوات، ويجعل الإنسان مستقيماً على أمر الله، الله عز وجل أعطانا شهوات، ولكن نظَّمها: شهوة النساء نظمها بالزواج، شهوة المال نظمها بالكسب الحلال، شهوة العلو في الأرض نظمها بالعمل الصالح، فهذه الشهوات التي أودعها الله فينا، لا يمكن أن تلبَّى إلا في قناةٍ نظيفة، رسمها الله عز وجل .

الآن: حتى الإنسان لا يظن أن التدين حضور مجلس علم، التدين أداء الصلوات الخمس، التدين صيام رمضان، التدين أداء الزكاة، التدين حج البيت، لئلا يظن أن الدين بهذا المستوى، وأنك إذا فعلت هذه الأشياء، قضي الأمر، وانتهى كل شيء .

هذه العبادات على عظم شأنها، إن لم تسبقها استقامة تامة، فلا شأن لها عند الله عز وجل، تماماً العبادات، تماماً كثلاث ساعات الامتحان، هذه الساعات الثلاث، يقابلها دراسة عام بأكمله؛ دراسة، ومذاكرة، وتلخيصًا، وتسميعًا، ومتابعة، وبحثًا، وتقصِّيًا، فإذا بذلت الجهد الكافي في أثناء العام الدراسي، ودخلت إلى قاعة الامتحان، كل التعب الذي بذلته في العام تجده في هذه الساعات الثلاث.

سنسمي العبادات السابقة: عبادات تعاملية، وسوف نسمي عبادات الصلاة والصوم والحج والزكاة: عبادات شعائرية، والعبادات الشعائرية لا قيمة لها إطلاقا إلا إذا أحكمت العبادات التعاملية .

إذاً: هذا الدرس له هدف إن شاء الله، أتمنى على الله عز وجل أن يمكنني من تحقيقه في هذا الدرس.

فما جوهر الدين؟ يجب أن تضع يدك على جوهر الدين، جوهر الدين: أن أشعر بشعور إسلامي، فلان الملاكم المسلم غلب خصمه غير المسلم، فأشعر بالفرح؟ لا والله، لا يكفي هذا، أو أن المناظر الفلاني في مناظرة عامة، حج خصمه، وجعله في الوحل؟ هذا شعور إسلامي بالطبع، أنت ترتاح لهذا الشعور، ويا ترى الإسلام أن أقرأ مقالات إسلامية؟ الإسلام أن أنتمي إلى جماعة إسلامية؟ الإسلام أن أحضر مجالس علم فقط؟ .

الإسلام أخطر من ذلك، وأعظم من ذلك، بكل المعلومات جملة وتفصيلاً، كل الحقائق، كل ما تسمعه، إن لم يترجم إلى حياة تعيشها، إلى مشاعر تحسُّها، إلى إقبال على الله عز وجل ، فهذه المعلومات لا تقدم ولا تؤخر .

مثلاً: الشمس ساطعة، إذا قلت: أنا مؤمن بأن الشمس ساطعة، ماذا فعلت؟ إن آمنت أو لم تؤمن فهي ساطعة، إن قلت: هي ليست ساطعة، فهي ساطعة، وإن قلت: هي ساطعة فهي ساطعة، إذا قلت: إن الشمس ساطعة، ماذا قدمت؟ ماذا فعلت؟ .

أؤكد لك أنك لم تفعل شيئاً، ما لم تتحرك نحو أشعة الشمس، كي تستفيد منها، دققوا في قوله تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

تماماً كما لو أن سبعة أشخاص على وشك الموت عطشاً، وأحدهم عرف النبع، وبقي في مكانه، وكلهم ماتوا عطشاً، هذا الذي عرف النبع، وبقي في مكانه، ومات كأخوانه عطشاً، ماذا استفاد من معرفة النبع؟ .

إذاً: أقول لكم: جوهر الدين التحرك نحو الله عز وجل، البحث عن أمره، تطبيق أمره، أن يكون بيتك مسلماً، أن يكون عملك وفق شريعة الإسلام، أن يكون هواك تبعاً لما جاء به نبي الإسلام، أن تكون عواطفك ألا تتخذ إلهك هواك، أن تتخذ الله عز وجل إلهاً واحداً، وحتى الإنسان لا يقل:

أنا صار لي سنوات طويلة المسجد ولم أستفد، لكي لا تكون نكسة مؤلمة جداً، والنكسات صعبة جداً، والإنسان أحياناً الله عز وجل يضعه في امتحانات صعبة، يضعه في ضغوط، أو في إغراءات، إما أن يضغط عليك، وإما أن يغريك، حقيقة إيمانك، تظهر على حقيقتها في الضغط، أو في الإغراء، فبهما إذا ترك الله عز وجل، فكل هذا الذي حصَّله، لم يستفد منه شيئاً، فلذلك افتتح القرآن الكريم، قال الله:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

[سورة الأعلى الآية: ١٤]

إذاً: تزكية النفس هدف كبير، النفس المنقطعة عن الله عز وجل نفسٌ متكبرة، نفسٌ تحب ذاتها، نفسٌ تحب أن تقضي شهوتها بشكل أو بآخر، فسماع الحق مرحلة لا بد منها، لتمثل الحق .

إذاً: الذي أتمناه على الله عز وجل، أن يكون واضحاً في ذهن كل منا، أن نعرف جوهر الدين، أو أن نمسك أيدينا، وأن نضعها على جوهر الدين .

وكنت أقول دائماً: هذا الأعرابي البدوي، حينما رآه عمر، ومعه شياه، وقال له:

((يا هذا، بعني هذه الشاة، وخذ ثمنها .

قال: ليست لي، -والقصة معروفة- .

فقال له في النهاية: خذ ثمنها .

قال: والله إنني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت، أو أكلها الذئب لصدقني، فإني عنده صادق أمين، ولكن أين الله؟))

الذي أتمناه على كل منا: أن نضع أيدينا على جوهر الدين، جوهر الدين تطبيقه، جوهر الدين الإقبال على الله عز وجل، جوهر الدين أن يكون قلبك مملوءاً بمحبة الله، هذا جوهر الدين، فكل شيء تتعلمه إن لم يؤد بك إلى هذا، إلى التطبيق، إلى أن تكون مسلماً حقيقياً ؛ مسلما في بيتك، ومسلماً في عملك، ومسلماً في مسجدك، ومسلماً في الطريق، ومسلماً في المحاككة في الدرهم والدينار، ومسلماً في السفر، ومسلماً مع جيرانك، إن لم تكن كذلك، فالعلم الذي تتعلّمه لا قيمة له إطلاقاً، بل هو وبالٌ على صاحبه، بل هو حجة عليه .

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((العلم علمان: مطبوع ومسموع، ولا ينفع المسموع ما لم يكن المطبوع))

إذا لم تنتقل هذه الحقائق إلى قلبك، وتترجم سلوكاً في حياتك، لم تستفد منها شيئا، إذاً: نحن الآن أمام موضوع جوهر الدين، جوهر الدين أن تفر إلى الله عز وجل، لقول الله عز وجل:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

[سورة الذاريات الآية: ٥٠]

فروا إليه، والفرار من شيء، تفر أنت من وحش كاسر، تفر من عدو قاس، تفر من أفعى رقطاء، تفر من سُمٍّ ناقع، تفر من وحش، ففروا إلى الله، إذاً: الأشياء التي ينبغي أن تفر منها مهلكة، والذي تتوجه إليه، عنده الأمن والطمأنينة، عنده السعادة .

لذلك: مواطن الفتن، أماكن الشبهات، أماكن المعاصي، أماكن العصاة، هذه كلها أماكن يجب أن تفر منها، إذاً: أنت بحاجة إلى عزلة، عزلة عن أهل الفساد، فسهرة لا ترضي الله، يجب أن تبتعد عنها، لأن لها كلاليب، لقاء لا يرضي الله، نزهة لا ترضي الله، اجتماعٌ لا يرضي الله، تجارةٌ لا ترضي الله، صفقةٌ كبيرة فيها شبهة كبيرة، لا ترضي الله، قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

[سورة الذاريات الآية: ٥٠]

كل شيء يمكن أن يؤثر على استقامتك، أو في وجهتك، أو في حسن علاقتك مع الله عز وجل، يجب أن تفر منه .

إذاً: أنت بحاجة إلى العزلة عن أهل الباطل، عن أهل الفجور، عن أهل السوء، فإذا كنت اجتماعياً، مرناً جداً، حيياً، لا تقل: لا إطلاقاً، هذه المرونة الاجتماعية، وهذه اللباقة مهلكة، دعاك أصدقاؤك لا يرضي الله، استحييت أن تقول لهم: لا .

والنفس كالطفل إن تهمله شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها إن الطعام يقوي شهوة النهم

إذاً: أنت بحاجة إلى عزلة .

كيف نوفق بين هاتين الآيتين؟:

أيها الأخوة، يقول الله تعالى :

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات الآية: ٥٠]

الآية الثانية جاءت في فضيلة الاختلاط مع الناس، قال :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

التعاون يقتضي التواجد، كيف أتعاون مع إنسان، وأنا بعيد عنه؟ كيف نوفق بين:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

[سورة الذاريات الآية: ٥٠]

وبين :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

التفسير سهل جداً، والتوفيق سهل جداً، يجب أن تلزم أهل الحق، يجب أن تأنس بذكر الله، يجب أن تحضر مجالس العلم، يجب أن تنتقي أخوانك، وأصحابك، وأصدقاءك من أهل الإيمان، لأنك إذا جلست معهم يزيدونك إيماناً .

بعض الصالحين له قول شهير، وأظنه قول ابن عطاء الله السكندري:

((لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله، ويدلك على الله مقاله))

أحياناً تجلس مع إنسان، تشعر أنك من الله قريب، هكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((خيار أمتي إذا رؤوا ذكر الله))

إذاً: أنت الآن بعد أن صلّيت، وصمت، وحججت، وزكيت، في العلاقات الاجتماعية، في الاتصالات، في الزيارات، في السهرات، في اللقاءات، في النزهات، في الرحلات، في الاجتماعات، في المشاركات، هذا التعامل اليومي، يجب أن يضبط بهاتين الآيتين :

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

[سورة الذاريات الآية: ٥٠]

و :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

إذاً: يجب أن تترك أهل الكفر، وأن تلزم أهل الإيمان، يجب أن تترك أهل الباطل، وأن تلزم أهل الحق، يجب أن تبتعد عن كل مكان فيه معصية لله، وأن تقترب إلى كل مكان فيه رضاء لله عز وجل، هذا أحد أنواع التوفيق بين:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ)

[سورة الذاريات الآية: ٥٠]

وبين :

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

والبر كما تعلمون صلاح الدنيا، والتقوى صلاح الدين، إذا أنت تعاونت مع أخ لحل مشكلة، للتوفيق بين شريكين، للتوفيق بين زوجين، لتأمين حاجات الناس، للتخفيف من أعباء الحياة، هذا من التعاون على البر، وأما التعاون على التقوى، أن تدل الناس على الله عز وجل ، وأن تأخذ بيدهم إلى الله عز وجل .

إليكم هذه الأحاديث التي تتعلق بموضوعنا اليوم :

١-إن الله يحب العبد......:

قَالَ عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ:

((كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه فِي إِبِلِهِ، فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ، فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ، وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ، فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ))

[أخرجه مسلم عن سعد بن أبي وقاص في الصحيح]

أما (التقي): فهو الذي اتقى الله عز وجل؛ اتقى عذابه بطاعته، اتقى ناره بترك المعاصي، اتقى غضبه باتباع رضوانه، اتقى الشرك بالتوحيد، اتقى الكفر بالإيمان، الوقاية من شيء خطر، فررت

منه إليه، لا ملجأ لك منه إلا إليه، فهذا التقي وقّافٌ عند كتاب الله في كل قضيةٍ ؛ ما حكم الشرع فيها؟ ما قول الله فيها؟ ما سنة النبي فيها؟ إن الله يحب العبد التقي .

على كلٍ؛ إذا في عندك رغبة جامحة، أن تكون محبوباً عند الله، تتبع في القرآن الآيات التي يقول الله فيها: إن الله يحب، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ)

[سورة التوبة الآية: ٤]

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ)

[سورة المائدة الآية: ١٣]

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ٤]

إن الله يحب الصادقين، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ)

[سورة البقرة الآية: ٢٢٢]

وإذا كنت تفرق وتخاف أشد الخوف، من أن تكون لست محبوباً، من ألا تكون محبوباً، فتتبع الله قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً)

[سورة النساء الآية: ١٠٧]

(فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ٣٢]

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة المنافقين الآية: ٦]

وهكذا، وإذا أردت أن تتبع ما في السنة النبوية المطهرة من توجيهات، أو من توضيحاتٍ، لمن يحب الله، ولمن لا يحب .

فهذا حديث يحقق لك المراد:

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ))

(الغني) هنا: ليس بالمعنى الذي يتصوره الإنسان، أي غني عن الناس، غني في نفسه، غني بمعرفة ربه، غني بعمله الطيب، غني باستقامته، غني بثقته بالله عز وجل .

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ))

لا يحب العلو في الأرض، قال تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ)

[سورة القصص الآية: ٤]

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

هذا العبد التقي الغني الخفي، هذا العبد يحبه الله عز وجل، الإنسان إذا ما عرف الله عز وجل ينشأ في نفسه حاجات، لأن الإنسان مفطور فطرة تعينه على معرفة ربه، فأودع الله فيه دافعاً قوياً نحو الطعام والشراب، لا شك في ذلك حفاظاً على وجود الإنسان، وأودع فيه دافعاً قوياً إلى الجنس الآخر، حفاظاً على النوع، وأودع فيه دافعاً قوياً، إلى أن يكون هذا أهمية، تجد شخصًا يأكل ويشرب، كل حياته، وكل أموره ميسرة، لماذا يسعى إلى أن يحتل مكانًا معينًا في المجتمع، ويدفع الملايين؟ يبحث عن هذا، من أجل تحقيق أهميته، من أجل أن يذكره الناس، من أن أجل أن يكون معروفاً، من أجل أن يقول: أنا كذا وكذا، فعلت كذا، نجحت كذا وكذا، فهذا دفاع ثالث .

دافع الطعام والشراب دافع، دافع الجنس دافع، الأول لحفظ الفرد، والثاني لحفظ النوع ، والثالث لحفظ الذِكر، لكن الطعام والشراب، له قناة نظيفة مسموح بها، أن تكون مالاً حلالاً، وهذا شيء جيد، والعلاقة بالمرأة لها قناةٌ نظيفة هي الزواج، وكيف يحقق الإنسان ذاته؟ وكيف يؤكد أهميته؟ وكيف يلبي هذا الدافع القوي؟ عن طريق العمل الصالح، لا عن طريق العمل السيء، فأنت إذا عرفت الله عز وجل، واستقمت على أمره، رفع الله لك ذكرك، هو يرفع لك ذكرك، هذا على الله، لا ينبغي أن يكون هذا مقصوداً من قبلك، لكنه يأتي، وأنت لا تدري، والدليل قول الله عز وجل:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح الآية: ١-٤]

وكلكم يعلم أن كل آية من كتاب الله عز وجل موجهة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وهي موجهة إلى كل مؤمن، ولكن على قدر إيمانه، وعلى قدر استقامته، وعلى قدر إخلاصه، وعلى قدر التزامه.

إذاً: أنت كمؤمن، الله سبحانه وتعالى سيشرح صدرك، وسيضع عنك وزرك، وسيرفع لك ذكرك، هذا الميل الثالث الذي الناس الآن متهافتون عليه بشكل جنوني، هذا الميل الثالث يتحقق في الإيمان، قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح الآية: ١-٤]

فالله عز وجل إذا أعزك فلا مذل لك، الله عز وجل خاطب النبي فقال :

(وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً)

[سورة الفتح الآية: ٣]

نصرًا عزيزًا غير مشروط، أحياناً تنتصر مع مليون شرط، تقدِّم مئة تنازل، مقابل هذا النصر، أما ربنا عز وجل فيقول :

(وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً)

[سورة الفتح الآية: ٣]

إذاً:

((إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ))

يتقي المحارم.

((اتق المحارم تكن أعبد الناس))

سألني أخ قال لي: لمجرد أن تتقي المحارم، تكون أعبد الناس، هكذا؟ قلت: لعل النبي عليه الصلاة والسلام أراد أنك إذا اتقيت المحارم، يصبح الطريق سالكًا إلى الله، الآن يمكن أن تكون أعبد الناس إذا اتقيت المحارم، أنه لم يعد هناك عقبات، ما دام هناك محارم، ومخالفات، ومعاصٍ، فهناك عقبات، إذا اتقيت المحارم، صار الطريق سالكاً، لتكون أعبد الناس، أما لئلا يتوهَّم متوهم، بمجرد أن تترك الحرام، وأن تغض بصرك، أصبحت في قمة العُبَّاد، لا، ليس كذلك، ولكنك إذا اتقيت المحارم، صار الطريق سالكاً، لأن تكون أعبد الناس .

هذا الحديث الشريف رواه الإمام مسلم، فحينما أقول: مسلم، أي الحديث صحيح، وحينما أقول: رياض الصالحين، هذا كتاب في أحاديث صحيحة قطعاً وحصراً، فإذا أردت أن تبقى في الصحاح، وألا تدخل في متاهات الضعاف والموضوعات، وأن تجنب لسانك الكذب على رسول الله، فاتبع الصحيح، وإياك والكذب على رسول الله .

فعَنْ أبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

متعمداً، أنا لست متعمدًا، لكن سمعت حديث أرويه .

في حديث آخر: عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ، يُرَى أَنَّهُ كَذِبٌ، فَهُوَ أَحَدُ الْكَاذِبِينَ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما والترمذي في سننه عن المغيرة بن شعبة]

إذاً: ولو لم تعلم أنه موضوع أو ضعيف، فأنت مؤاخذٌ، إذاً: يجب أن تتحقق، ولكي لا نكلفك بأعباء كثيرة جداً، رياض الصالحين أحاديثه كله صحيحة، لذلك آثرنا أن يكون هذا الكتاب، كتاب التدريس في مادة الحديث.

٢-أي الناس أفضل؟.......:

عَنْ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، أَنَّ رَجُلًا، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ:

((أيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: رَجُلٌ مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ امْرُؤٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ، يَعْبُدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ))

(بنفسه): يحملها على طاعة الله، فإذا زلت استغفر، وتاب، وكفر عن سيئته بدفع الصدقات، إذا وقع بصره على حرام، استغفر، وتاب، وكفر عن سيئته، إذا شعر أنه يحب ذاته، وبَّخها وعنَّفها، وحملها على المكارم، إذا شعر أنه يكره، أن ينال إنسان شيئاً ثميناً، إذاً: حسودة، يعالجها، جهاد النفس والهوى، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى)

[سورة الأعلى الآية: ١٤]

يجب أن تزكي هذه النفس، هذا يجاهد .

((رَجُلٌ مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ))

حبذا المال أصون به عرضي، وأتقرب به إلى ربي، حبذا المال أتقرب به إلى ربي، لأنه:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ)

[سورة الشعراء الآية: ٨٨]

المال قيمته، وأنت في الدنيا، وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، أما إذا حضر الموت وقلت: أعطوا فلانًا كذا، وفلان كذا، فالمال أصلح، ليس له عندك قيمة، لا شأن لك به .

لذلك: درهم تنفقه في حياتك، خير من مئة ألف درهم، ينفق بعد مماتك .

قدم مالك أمامك ليسرك اللحاق به، أما أن تكون تحت رحمة ناظر الوصية، وما أكثر الوصايا التي لم تنفَّذ، لا تكن تحت رحمة أحد، مالك الذي بين يديك ادفعه، وأنت صحيح شحيح .

هذا معنى:

((رَجُلٌ مُجَاهِدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ))

((قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ امْرُؤٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ، يَعْبُدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ))

إذا كان في مكان عام، فيه اختلاط، ومنكر، وأغانٍ، ونظر إلى النساء، ومعاصٍ، ولقاءات، لا ترضي الله عز وجل، فاعتزل، واجلس في بيتك .

فعَنْ أَبِي أُمَيَّة الشَّعْبَانِيِّ قَالَ:

((أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ الْخُشَنِيَّ، فَقُلْتُ لَهُ: كَيْفَ تَصْنَعُ بِهَذِهِ الْآيَةِ؟ قَالَ: أَيَّةُ آيَةٍ؟ قُلْتُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ)

قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْهَا خَبِيرًا، سَأَلْتُ عَنْهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: بَلْ ائْتَمِرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا، وَهَوًى مُتَّبَعًا، وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِخَاصَّةِ نَفْسِكَ، وَدَعْ الْعَوَامَّ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامًا، الصَّبْرُ فِيهِنَّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا، يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: وَزَادَنِي غَيْرُ عُتْبَةَ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنَّا أَوْ مِنْهُمْ؟ قَالَ: بَلْ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ)).

إذاً: النبي الكريم يقول:

((ثُمَّ امْرُؤٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَعْبُدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ))

الشِّعب طريق بين جبلين، لذلك الآن إذا عم الفساد، الأولى بالإنسان أنْ يلزم بيته، وعليه بخاصة نفسه.

فإذا كان لك صديق سيء فابتعد عنه، أما في علاقة عمل فلا مانع، ولا تحاسب عليها، أما أن تكون بينكما علاقة حميمة، لقاء في السهرة، فهذا لا يجوز .

((ثُمَّ امْرُؤٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ، يَعْبُدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ))

في رواية أخرى عند البخاري ومسلم:

((مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ، يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ))

٣-الجليس الصالح.......:

حديث ثالث: لا زلنا في الاعتزال، استحباب العزلة عند فساد الزمان، ولكن العزلة عن أهل الحق ليست محمودة، لقول النبي عليه السلام:

((الجليس الصالح خير من الوحدة، ولكن الوحدة خير من الجليس السوء))

الوحدة خير ألف مرة، الوحدة خير من الجليس السوء، ولكن الجليس الصالح خير من الوحدة، الإنسان مع أخيه المؤمن، يذكره هذا المؤمن، اجلس بنا نؤمن ساعة، أحياناً يذكرك بآية، الآية تفتح

لك باباً إلى الله عز وجل، أحياناً يذكرك بقصة تثبت نفسك بها، أحياناً الإنسان تضعف معنوياته، أحياناً يشعر بانقباض، تسيطر عليه مقاييس الناس، إذا خاف الناس خاف معهم، إذا قلق الناس يقلق معهم، إذا انهارت معنويات الناس، تنهار معنوياته معهم، إذا فسد الناس وشاع فيهم الضلال، يقول لك: أنا مع الناس، بلاء عام، ماذا نفعل؟ .

هذا من أخطار اختلاط الناس البعيدين، ولكن من ميزات لزوم المؤمنين: أن تكون مع المؤمنين، أنك تعيش أحوالهم، تعيش ثقتهم بالله عز وجل، تعيش طمأنينتهم، تعيش توحيدهم، لذلك الله عز وجل ماذا قال؟ قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١١٩]

جالسوهم، يعني أن تحضر مجلس علم، فهو تطبيق لقول الله عز وجل، أنت مع الصادقين، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

حديث آخر في استحباب العزلة عند فساد الناس والزمان .

في مطلع خطبة سابقة، أذكر عن الزكاة، بدأتها بما يلي، قلت:

((يا رب قد عم الفساد فنجِّنا، يا رب قد عجز الطبيب فداونا، يا رب قلت حيلتنا فتولنا، ارفع مقتك وغضبك عنا، ولا تعاملنا بما فعل ويفعل السفهاء منا، توفنا غير فاتنين ولا مفتونين))

أحياناً يحتاج الإنسان إلى بعد، الطرقات كلها نساء كاسيات عاريات، فأنت اختر طريق فرعي، اختر طريق فارغ من هؤلاء النساء الكاسيات العاريات، هذا من باب الابتعاد عن مواطن الفتن .

٤-يوشك أن يكون خير مال المسلم......:

يقول عليه الصلاة والسلام في حديث رواه الإمام البخاري: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ، غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح وأبو داود والنسائي في سننهما ومالك في الموطأ عن أبي سعيد الخدري]

حيثما أمكنك أن تكسب مال حلالاً فافعل، وحيثما أمكنك أن تبتعد عن مال حرام، أو عن مال فيه شبهة فابتعد، وإلا تفتن، والفتنة أشد من القتل .

الآية الكريمة دقيقة جداً، سنصور الآن: إنسانًا شابًّا في ريعان الشباب، مات في حادث سيارة، أو مات قبل التكليف، وقبل التكليف يدخل الجنة، أما إذا كبر هذا الشاب، وتاقت نفسه للدنيا، وأخذ من حرامها وحلالها، وانغمس في شهواتها وملذاتها، وابتعد عن الله عز وجل، وبقي صحيح الجسم معافى، حتى بلغ أشده، واستوى، وحتى بلغ عمره المديد، ومات، هذا الذي قتل، وذاك الذي قتل، أيهما أنجى له؟ الذي قتل، ربنا عز وجل قال:

(وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ)

[سورة البقرة الآية: ١٩١]

فإذا خطأ الإنسان وهو يقود سيارته، فدهس فتاة، فماتت، لو أنه أغواها، لكان موتها أشرف لها عند الله من أن تفتن، فدائماً الفتنة خطيرة جداً، لأن المفتون يعيش في حياته في بحبوحة، ولكن أمامه عذاب أبدي، لذلك يقول ربنا عز وجل:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة الآية: ١٧٥]

فأحياناً الإنسان بعود كبريت، أو يمسك إبريق الشاي بيده، وكانت يده باتجاه لهيب الغاز، وهو ليس منتبهًا، الغاز انطفأ، فحمل الإبريق، يظل يومين أو ثلاثة متألماً، قال تعالى:

(فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ)

[سورة البقرة الآية: ١٧٥]

أما كل جسمه بالنار يقعد، يا ترى ربنا يذكرها لنا تخويف أما حقائق؟ ربنا عز وجل صادق، قال تعالى:

(كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ)

[سورة النساء الآية: ٥٦]

(تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ * رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ * قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ)

[سورة المؤمنون الآية: ١٠٤-١٠٨]

البطولة أن تعد لهذا اليوم:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

إذًا:

((يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ، غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح وأبو داود والنسائي في سننهما ومالك في الموطأ عن أبي سعيد الخدري]

استنبط العبر من هذه الأحاديث :

أيها الأخوة، هناك غنى مطغٍ، في غنى مبني على معصية، مبني على كسب حرام، مبني على بضاعة محرمة، مبني على تعامل محرم، مبني على احتكار، مبني على إرهاق الناس، مبني على الكذب .

عندما قال النبي الكريم:

((إن أطيب الكسب كسب التجار -وصفهم سبع صفات دقيقة جداً- قال: الذين حدثوا ولم يكذبوا، -فإذا كان تجارة أساسها الكذب، فصار المال فيه شبهة- وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا باعوا لم يطروا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا))

هكذا، هذا التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين يوم القيامة، هذا التاجر الصدوق داعي إلى الله عز وجل من خلال أفعاله، إذاً: ابحث عن المال الحلال .

((... وَذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ، أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟))

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ))

رعى الغنم ثم رعى الأمم، النبي رعى الغنم أولاً، وفي أثناء الرعي، تفكر في خلق السموات والأرض، هذا التأمُّل في الكون .

الإنسان أحياناً كما قلت لكم دائماً: تستهلكه الحياة، ولا سيما في هذا العصر، مشاغل كثيرة، أعمال، لقاءات، حل مشكلات، تصليح آلات، دائماً مشغول، مستهلك، يأتي الموت فجأة من دون استعداد . فالإنسان يحتاج إلى ساعات تأمل، التأمل الذي سمح به، إذا تأمل مجزّأً، وليس انقطاعًا عن الناس كلياً، لا، فباليوم ساعة، نصف ساعة، ربع ساعة، عشر دقائق، جلست لوحدك فكر، أين كنت؟ أين المصير؟ ماذا حققت؟ ماذا اكتسبت؟ ماذا خسرت؟ ماذا فاتني؟ أين مكاني الصحيح؟ مقبول عند الله، غير مقبول؟ لي عمل صحيح؟ في مخالفة في كسب مال حرام؟ تأمل، ولا تكن مستهلكًا، تدور من دون أن تدري، هكذا وصف النبي المنافق قال:

((كالناقة عقلها أهلها، لا تدري لا لم عقلت، ولا لم أطلقت؟))

((مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ))

أصحابه كانوا يسألونه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((صَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِحْدَى صَلَاتَيْ الْعَشِيِّ -قَالَ مُحَمَّدٌ: وَأَكْثَرُ ظَنِّي الْعَصْرَ- رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَلَّمَ، ثُمَّ قَامَ إِلَى خَشَبَةٍ، فِي مُقَدَّمِ الْمَسْجِدِ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهَا، وَفِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَهَابَا أَنْ يُكَلِّمَاهُ، وَخَرَجَ سَرَعَانُ النَّاسِ، فَقَالُوا: أَقَصُرَتْ الصَّلَاةُ؟ وَرَجُلٌ يَدْعُوهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذُو الْيَدَيْنِ، فَقَالَ: أَنَسِيتَ أَمْ قَصُرَتْ؟ فَقَالَ: لَمْ أَنْسَ وَلَمْ تُقْصَرْ، قَالَ: بَلَى، قَدْ نَسِيتَ، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، ثُمَّ كَبَّرَ، فَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَكَبَّرَ، ثُمَّ وَضَعَ رَأْسَهُ، فَكَبَّرَ، فَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَكَبَّرَ))

لو لم أنس في حياتي كلها، وأنتم تنسون في الصلاة، تفعلون ماذا؟ لا تعرفون، فالله عز وجل أنساني كي أسن لكم سجود السهو، ربنا عز وجل قال:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)

[سورة الأعلى الآية: ٦-٧]

((مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ))

اشتغل النبي راعي غنم، واشتغل تاجر في أطراف مكة، واشتغل تاجرًا مضاربًا بجهده ، والمال من خديجة، لماذا جعل الله له حياته هكذا؟ كي يعلمنا أن العمل عمل شريف، أن كسب المال من وجه صحيح، أحد أنواع العبادات لله عز وجل، وأن الإنسان قد يرقى عند الله عز وجل، وله أن يلقى الله بعملٍ صحيح، كسب منه مالاً حلالاً .

بقي علينا في فصل آخر إن شاء الله تعالى، أن نعود إلى فضل الاختلاط بالناس، اليوم تحدثنا عن فضل العزلة عند فساد الزمان، وعند شيوع الفتن، وعند يقظة الشهوات، ولكن في باب آخر، وهو الباب السبعون، أقرأ لكم عنوانه: (فضل الاختلاط بالناس، وحضور جُمَعِهم، وجماعتهم، ومشاهد الخير، ومجالس الذكر معهم، وعيادة مريضهم، وحضور جنائزهم، ومواساة محتاجهم، وإرشاد جاهلهم، وغير ذلك من مصالحهم، لمن قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقمع نفسه عن الإيذاء، وصبر على الأذى) .

هذا باب آخر، فيه فضل أن تكون مع الناس، ولكن بالوجه الإيجابي، لا بالوجه السلبي.

من أقوال حذيفة بن اليمان :

والآن: إلى متابعة قصة الصحابي الجليل، التي بدأناها بالدرس الماضي، وهو سيدنا حذيفة بن اليمان .

من أقوال هذا الصحابي الجليل قال:

((إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم، فدعا الناس، من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، فاستجاب له من استجاب، فحيًّا بالحق من كان ميتاً .

-هذا الكلام دقيق وواضح، الكافر ميت، أموات غير أحياء، قال تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

[سورة فاطر الآية: ٢٢]

والمؤمن حي، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ٢٤]

كنتم موتى فأحياكم- فقال: إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم، فدعا الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، فاستجاب له من استجاب، فحيًّا بالحق من كان ميتاً، ومات بالباطل من كان حياً.

-أحياناً تقعد مع إنسان، فلا يوجد نبض عنده إطلاقاً، على الطاولة، وهو تارك للصلاة، عينه على النساء، طموحه إلى شهوة مهما كان الثمن، هذا ميت .

((وأبغض العصاة -كما قال الله عز وجل في الحديث القدسي- وبغضي للشيخ العاصي أشد))

ثم ذهبت النبوة، وجاءت الخلافة على منهاجها، ثم يكون ملكاً عضوضاً -ملك عضوض، أي يعض الناس- فمن الناس من ينكر بقلبه، ويده، ولسانه، أولئك استجابوا للحق، ومنهم من ينكر بقلبه ولسانه كافاً يده، فهذا ترك شعبة من الحق، ومنهم من ينكر بقلبه كافاً يده ولسانه -ساكت- هذا ترك شعبتين من الحق، ومنهم من لا ينكر بقلبه، ولا بيده، ولا بلسانه، فذلك ميت الأحياء))

أي أنك إذا عشت بعصر الفساد، والفساد أعجبك، ومرتاح بالفساد .

أحياناً ينتقل إنسان إلى بلد أجنبي، يقول لك: يا أخي الحياة غير، ألم تر الفساد؟ ألم تر الزنا في الطرقات؟ ألم تر انتشار مرض الإيدز؟ ألم تر زنا المحارم؟ ألم تسمع عنه؟ كيف انسجمت؟ يقول لك: بلد راق، الإنسان محترم هناك، صحيح محترم، ولكن هناك باب من جهنم ، فالإنسان عندما يستمرئ الفساد، ويعيش معه، ويرتاح له تماماً، فهذه مشكلة، مشكلة كبيرة، معنى ذلك: أنه ليس عنده الحساسية الراقية .

أحياناً يتمنى الإنسان بلدًا فيه مسجد، يصلي فيه، يسمع الأذان، يحضر مجلس علم، يأنس بمؤمنين طيبين، يتحمل متاعب لا حصر لها .

واحد يسأل سؤالا، وكنت أقوله دائماً: أن يا رب هذه مكة المكرمة بلدك الحرام، بلد طيب، أنت اخترتها لتكون مَحجًّا للناس، فلماذا هذا الحر الشديد؟ وهذه الجبال السوداء؟ ولا نبات؟ ولا نبع ماء؟ ولا مطر؟ ولا بحيرات؟ ولا أنهار؟ ولا غوطة؟ لأن الله لا يريد سياحًا، بل يريد حجّاجًا، فالحاج يأتي، ويذوب شوقاً وحباً وسعادة، والسائح يذهب بلادًا أخرى، لو كانت البلاد جميلة جداً، لاختلط الحاج بالسائح، وضاع الأمر .

وقد تجد بلدًا فيه دين، فيه صلاة، فيه مساجد، فيه دروس علم، فيه ذكر لله عز وجل، فيه أعمال طيبة، فيه جمعيات خيرية، فيه بذل، هذا بلد طيب، لكن فيه متاعب، لو كان في مثل غير تلك البلاد، ففيها رفاه زائد، فهذه مشكلة، اختلط هؤلاء بهؤلاء، فالذي بقي ببلد مؤمن مسلم، هذا البلد طيب، ترك البلد الطيب لبلد كافر، هذه نكسة في حياة الإنسان، سيجد مليون ميزة هناك، ولكن يفقد قلبه، يفقد روحه .

ولذلك:

((من أقـام مع المشركين، فقد برئت منه ذمة الله))

قال لي أحدهم: في جهاز اللهو ثمانون قناة، تعمل أربعاً وعشرين ساعة، واحد يقاوم جمعة جمعتين، ثم بعد ذلك ينجرف، أي شيء تريده موجود، ثمانون قناة تعمل أربعا وعشرين ساعة، تجد كل شيء مريحًا، ولكن فقدت دينك، فقدت محبتك لله، فقدت استقامتك، فقدت هذا الصفاء .

فهنا:

((ومنهم من لا ينكر بقلبه، ولا بلسانه، ولا بيده، فذلك ميت الأحياء))

فإذا جلست مع فاسق، كافر، فاجر، مرتاحًا، منسجمًا معه، أعجبك الترتيب، أعجبك الاختلاط، أعجبك تطلُّعُ كل إنسان إلى زوجة الآخر، أعجبك هذا النموذج، وكسب المال الحرام، والبنوك، والربا، وبطاقة صغيرة من غير أن تحمل معك الأموال، إلكتروني، تضعه في أي مكان، يحسب من حسابك بالبنك، شيء جميل جداً، ولكن مقابلها، الله يعينه عند الموت ، وهذه أصعب شيء، ربنا عز وجل قال:

(بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ)

[سورة سبأ الآية: ١٥]

أقم في بلدة طيبة، ولا تنسوا أن الشام كما ورد في الأحاديث الصحيحة، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، رَأَيْتُ عَمُودَ الْكِتَابِ، احْتُمِلَ مِنْ تَحْتِ رَأْسِي، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ مَذْهُوبٌ بِهِ، فَأَتْبَعْتُهُ بَصَرِي، فَعُمِدَ بِهِ إِلَى الشَّامِ، أَلَا وَإِنَّ الْإِيمَانَ حِينَ تَقَعُ الْفِتَنُ بِالشَّامِ))

[أخرجه البزار في مسنده عن أبي الدرداء]

في حديث آخر:

((الداخل إليها برضاي، والخارج منها بسخطي))

إليكم هذه المهمة التي اختارها النبي لحذيفة يوم الخندق، وانظر إلى موقفه :

سيدنا حذيفة -الآن في لقطة من لقطاته الرائعة- كان ذكياً جداً، النبي عليه السلام دعاه فلبَّى، لبى لأنه صادق مع ربه، إلى ماذا دعاه؟ الليل كان مظلماً في معركة الخندق ورهيباً، والعواصف تزأر وتصخب، وكأنما تريد أن تقتلع جبال الصحراء، وكان الموقف كله، بما فيه من حصارٌ، وعناد، وإصرار، يبعث على الخوف والجزع، وعندما ربنا عز وجل قال:

(وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً)

[سورة الأحزاب الآية: ١١]

من أصعب المواقف التي مرت بالمسلمين، النبي الكريم أراد من أحد أصحابه، أن يذهب إلى معسكر العدو، هذا فدائي، احتمال أن يقتل بالمئة مئة، بالمئة ثمانون، إذا كُشف قتل على الفور، النبي الكريم اختار سيدنا حذيفة، ليقوم بهذه المهمة البالغة العُسر .

وفي بعض الروايات قال:

((من يذهب إلى معسكر العدو؟ -عمل خطير جداً، هو لم يرد أن يذهب- فقال: قم أنت يا حذيفة .
قال: قطع المسافة بين المعسكرين، واخترق الحصار، وتسلل إلى معسكر قريش، وكانت الريح العاتية، قد أطفأت نيران المعسكر، فخيم عليه الظلام، واتخذ حذيفة رضي الله عنه مكانه وسط صفوف المحاربين .
خشي أبو سفيان قائد قريش، أن يفاجئهم الظلام بمتسللين من المسلمين، فقام يحذّر جيشه، وسمعه حذيفة، يقول بصوته المرتفع: يا معشر قريش، لينظر كل منكم جليسه، وليأخذ بيده، وليعرف اسمه، لعل ثمة غريبًا متسللا، يتلقى الأنباء .
فقال حذيفة: فسارعت إلى يد الرجل الذي جواري، وقلت له: مَن أنت؟ فقال: فلان ابن فلان، أنا فلان، لو بدأ ذاك، لانتهى سيدنا حذيفة، وهكذا أمَّن وجوده بين الجيش في سلام .
واستأنف أبو سفيان نداءه إلى الجيش، قائلاً: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلكت الكُراع -الخيل- والخف -الإبل- وأخلفتنا بني قريظة -أي اليهود- وبلغنا عنهم الذي

نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون؛ ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل .

-أرسل الله عز وجل عليهم ريحاً عاصفة، اقتلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، وعاشوا في متاهةٍ، ووقعوا في حيص بيص، كما يقولون، والله عز وجل :

(وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ)

[سورة الأحزاب الآية: ٢٥]

هنالك، لما أحد المنافقين قال:

((أيعدنا صاحبكم، أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته؟!))

قال صاحبكم، لم يقل النبي، أين قيصر وكسرى؟ على وشك ساعات وننتهي- .

قال: ثم نهض فوق جمله، وبدأ المسير، وتبعه المحاربون .

يقول حذيفة: والله لولا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي، ألا تحدث شيئاً حتى تأتيني لقتلته بسهم، صار معهم، ولكن النبي قال له: لا تحدث شيئاً حتى تأتيني .

عاد حذيفة إلى النبي عليه الصلاة والسلام فأخبره الخبر، وزفَّ إليه البشرى))

فالله عز وجل أحياناً: عندما الأب يمسك ابنه، يقربه على النهر، ولكنه يمسكه مسكة محكمة، الابن يظن أن الأب سيلقيه بالنهر، فيفزع، معناها: لا يعرف قلب أبيه، قال تعالى:

(قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء الآية: ٦١-٦٢]

كلا، أحياناً الإنسان يقربه الله عز وجل من الخطر، لكي يمتحن نوع ظنه، هل يسيء الظن بالله عز وجل، أما الله عز وجل بيده كل شيء؟ .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٣٨-١٠١) : بابان- الورع وإعانة الرفيق ، أحاديث من ضمن هذين البابين، قصة خالد بن الوليد

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٠-٠٥-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى ماذا يوصلان هذين الحديثين؟

أيها الأخوة المؤمنون، في رياض الصالحين عقد الإمام النووي رحمه الله تعالى، باباً تحت عنوان باب الورع، وفي هذا الباب أحاديث كثيرة، تبيِّن حقيقة الورع .

من هذه الأحاديث: عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ:

((سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، فَقَالَ: الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ منك))

[أخرجه مسلم في الصحيح والترمذي في سننه عن النواس بن سمعان الأنصاري]

معنى ذلك: أن أناساً كثيرين يتجهون إلى العلماء، لينتزعون منهم الفتاوى، وهم يعتقدون: أنهم إذا انتزعوا فتوى تحقق مصالحهم، أو تغطي بعض سلوكهم، إنهم بهذا قد أفلحوا ، مع أن الإنسان لا يعفيه هذا السلوك، من مساءلة الله سبحانه وتعالى له .

لذلك: عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ قَالَ:

((أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ لَا أَدَعَ شَيْئًا مِنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ، وَإِذَا عِنْدَهُ جَمْعٌ، فَذَهَبْتُ أَتَخَطَّى النَّاسَ، فَقَالُوا: إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ، فَقُلْتُ: أَنَا وَابِصَةُ، دَعُونِي أَدْنُو مِنْهُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، أَنْ أَدْنُوَ مِنْهُ، فَقَالَ لِي: ادْنُ يَا وَابِصَةُ، ادْنُ يَا وَابِصَةُ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، حَتَّى مَسَّتْ رُكْبَتِي رُكْبَتَهُ، فَقَالَ: يَا وَابِصَةُ، أُخْبِرُكَ مَا جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنْهُ أَوْ تَسْأَلُنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخْبِرْنِي؟ قَالَ: جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، قُلْتُ: نَعَمْ، فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهَا فِي صَدْرِي، وَيَقُولُ: يَا وَابِصَةُ، اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

وكما قلت لكم من قبل: الله عزَّ وجل أعطاك ميزانًا، فقال :

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ)

[سورة الرحمن الآية: ٧]

هناك ميزان عقلي، وميزان نفسي، وميزان شرعي، عقلك ميزان، نفسك ميزان، الشرع ميزان، لكن العقل قد يطغى، والفطرة قد تنطمس، ولكن ميزان الموازين: هو الشرع، لذلك ما دام الإنسان على منهج الشرع، فهو على الطريق الصحيح:

أحبابنا اختاروا المحبة مذهباً وما خالفوا في مذهب الحب شرعاً

فلذلك كنت أقول لكم دائماً: إن هذا الدين قد اكتمل، وقد تم، وقد رضيه الله عزَّ وجل:

(أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة الآية: ٣]

إذاً: ما من تشريعٍ على وجه الأرض، يمكن أن يسد ثُغرةً في الشرع، ولا أن يضيف نقصاً، ولا أن يحقق فائدةً، غفل عنها الشرع، هذا كله مرفوض، الحق كله أن تكون على الصراط المستقيم، فلذلك ربنا عزَّ وجل يقول:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

[سورة يونس الآية: ٣٢]

ليس هناك أحوال وسط، في موضوع الاستقامة، لا يوجد حل وسط .

أنت مثلاً تقول: هذا المستودع محكم أو غير محكم، الإحكام حالة واحدة، حد واحد، أما عدم الإحكام فحالات متعددة، فهذا المستودع قد يضيع ما فيه من مخزون في شهر، وهذه حالة، أو في شهرين، هذه حالة أخرى، في سنة، هذه حالة ثالثة، في ساعة، هذه حالة، هذا كله عدم الإحكام، أما الإحكام: فحالة واحدة لا يضيع شيءٌ، فالاستقامة له حدٌ واحد، والانحراف له أنواعٌ منوعة، لا يعلمها إلا الله، من هنا جاء التوجيه القرآني:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام الآية: ١٥٣]

هذا معنى من معاني الورع، فهل رأيتم في حياتكم بائع حليب، يضيف الماء أمام الناس ؟ لأنه يعرف بالفطرة، أن هذا العمل غير صحيح، وأنه غير مقبول، فلا يفعل هذا إلا في خلوةٍ، أما أمام المشتري، هل يستطيع أن يقول: انتظر، يا بني أعطن كأس الماء؟ مستحيل .

((اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

العمل الذي تفتخر به، لو أن الناس تناقلوه، لا تستحي، هذا عمل طيب، فبالنهاية حينما يوضع الإنسان في قبره، سيحاسب على فطرته، التي فطره الله عليها .

لو قال له: يا رب، أنا لم أتلقَ العلم من أحد، لم أستمع إلى درس دين، ما قرأت كتاباً، ما وضعني أبي في مدرسة، يقول له الله عزَّ وجل: دعك من كل هذا، أنا فطرتك فطرةً عالية ، لو أنك انحرفت عنها لعرفت ذلك، قال تعالى:

(فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس الآية: ٨]

أنت حينما تفجر، تعلم أنك قد فجرت بدافع الفطرة، رجل يقود سيارته في ساعة متأخرة من الليل، دهس طفلاً، وما أحد أوقفه، وما ساءله أحد، وما حاسبه أحد، يقول للمقرَّبين إليه: بقيت عشرين يوماً، لم أذق طعم النوم، لماذا؟ ما حاسبه أحد، لم يُكتب ضبطٌ بحقه، القضية كتبت ضد مجهول، فطرته حاسبته .

لذلك: نصحه الطبيب النفسي، أن يدفع لأهل الطفل مبلغاً كبيراً، لعله يستطيع أن ينام، إذاً: كل أنواع العذاب النفسية، أساسها الفطرة، والفطرة ميزان، حتى أؤكد لكم: أن تنتزع فتوى من عالم، تعطيه وصف معيَّن، تنتزع فتوى معينة، تغطي فيها حالة معينة، وتظن أنك قد نجوت من الله، لا، لا .

((اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

حتى أنه قد ثبت في حديث: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ نَحْوَ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهما ومالك في الموطأ عن أم سلمة]

إنسان طليق اللسان، قوي الحجة والبيان، ذكي، يستطيع بذكائه وبراعته في الحديث، وقوة إقناعه، أن يقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً . قالَ:

((إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ نَحْوَ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ النَّارِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهما ومالك في الموطأ عن أم سلمة]

لا تنجو من الله عزَّ وجل، لو فعلت فعلاً، وأقرك الناس عليه جميعاً، واستطعت بقوة إقناعك، أن تقنعهم بصواب عملك، وقد أثنى عليك الناس جميعاً، أنت لا تنجو من عذاب الله يوم القيامة، علاقتك مع الله إذاً، إذاً: الورع أن تبحث عن راحة نفسك، لذلك الإنسان أحياناً يسأل ويسأل، ويلح في السؤال، ليأخذ فتوى، لمجرد أن يسأل، لمجرد إلحاحه في السؤال، هو في قلق داخلي .

لذلك:

((الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

أقول لكم مرة ثانية: لو قال الإنسان لربه يوم القيامة: يا رب أنا ما تعلمت، لم يوجّهن أحد، والدي لم يضعن في مدرسة، سكنت في قريةٍ نائية، ليس عندنا خطيب مسجد، مثلاً لو جرى هذا الحديث يوم القيامة، ماذا يقول الله سبحانه وتعالى له؟ يقول له: يا عبدي أنا فطرتك فطرةً عالية، وبفطرتك التي فطرتك عليها، تعرف وحدك من دون معلم، من دون توجيه، من دون درس، ماذا ينبغي أن تفعل؟ .

إذاً: أول نقطة في درس الورع:

((الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ -مرتاح- وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

أوصاني أن أشتري له حاجات من السوق، لي أصدقاء أعطوني سعراً خاصاً، أيحق لي أن أحاسبه بسعر السوق، وآخذ الحسم لي؟ هذا السؤال يتكرر كثيراً، لأن الذي يفعل هذا لا يطمئن، أنت مؤتمن، هذا الذي أرسلك لشراء الحاجات من السوق، لم يظن أنك ستربح عليه، اعتقد أنها خدمة، فإذا كانت خدمة، فينبغي أن تكون خدمة من دون مقابل، وإن كانت مأجورة قل له: أنا لا أقوم بهذا العمل إلا بأجر، فلي حسم خاص، يستحي أن يقول له ذلك، إذاً: الاتفاق اتفاق خدمة، وليس اتفاق تجارة، ويخاف أن يأخذ الفرق، يخاف من الله، هذا الشيء حاك في صدره، يسأل، يقدم . أعطى زوجته قطعة من الذهب، وفي نيَّته أنه إذا اشترى بيتاً، يأخذها منها، كي يستعين بها على إتمام ثمن البيت، طلّق هذه المرأة، وهذه القطعة الذهبية لها، دعاه القاضي لحلف اليمين: أأنت أعطيتها هذه القطعة الذهبية عطاءً، هبةً، هديةً، أم أعرتها إعارةً؟ ما قال لها: أعرتكِ، فوقع في إشكال، إذاً: لا بد أن يؤثر السلامة، ويقدمها لزوجته .

أنا أقول لكم: حينما أرى إنسانًا يسأل، ويسأل، ويلح، ويطلب الفتوى، معنى ذلك: أنه في حالة غليان داخلي، أو في قلق، أو في اضطراب، ليس مرتاح .

إذاً:

((الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

وكل شيء تخاف أن يظهر، كل شيء تفعله بالسر، لا تحب أن يشيع عنك، هذا ليس صحيحاً، اطمئن .

أحياناً مثلاً يكتب على الحواشي: هذا القماش مصنوع في دولة شهيرة، بصناعة هذا القماش، أحياناً تأتي الحواشي من ورق حريري، تكوى به حاشية القماش، لو دخل عليك إنسان، وأنت تفعل هذا،

قماش من مصدر آخر، وأنت أعطيته صفة مصدر آخر، مصدر جيد جداً، لتأخذ فارقاً في الثمن، هل تفعل هذا أمام الناس؟ لا تستطيع، هذا هو المقياس الدقيق:

(وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ)

[سورة الرحمن الآية: ٧-٩]

إليكم فقه هذا الحديث :

في باب الورع حديثٌ آخر: يقول عليه الصلاة والسلام -أنا أقول لكم حديث من دون دقة في النقل، لأنني لم أعثر على الباب- الحديث الثاني في هذا الباب، عَنْ أَبِي الْحَوْرَاءِ السَّعْدِيِّ قَالَ:

((قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ: مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: حَفِظْتُ مِنْهُ: دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ))

[أخرجه الترمذي والنسائي في سننهما]

هذا هو الورع، يعني قضية فيها إشكال، فيها خلاف بين العلماء، دعها كلها، واخرج من هذا الخلاف، فأحياناً في موضوع الزكاة، في موضوع زكاة الحلي، في موضوع زكاة الزروع، العلماء قالوا:

((إنه فقط على الزبيب، والقمح، والشعير، والتمر))

هذا عنده مزرعة كرز، عنده مزرعة تفاح مثلاً، فيقول: يا أخي لا يوجد عليها زكاة هذه، لأن الفقهاء ما قالوا ذلك، الإمام الشافعي قال كذا، الحنفي قال كذا، خذ الأحوط، الورع يأخذ الأحوَط، وكلما بالغت في أخذ الرُخَص من المذاهب، فهذا من علامة رقَّة الدين، لأن النبي قال:

((لا زكاة إلا في القمح، والشعير، والزبيب، والتمر))

مشروع عسل، مشروع تفاح، مشروع أشجار مثمرة، مشروع ألبان، مشروع أجبان، مشروع دواجن، مشروع أبقار، يكلف مئات الألوف، مئات الملايين، وله دخل وفير، فالشرع هكذا تظنه، إذا لم يكن عندك زبيب، أو قمح، أو تمر، ليس عليك زكاة أبداً، يا ترى النبي عليه الصلاة والسلام قال: الزكاة في عينها أم في علتها؟ في علتها، لا في عينها، يعني شيء محصول غذائي وفير له دخل كبير، لا بد من أن تؤدى زكاته .

فأول شيء: إذا الشيء حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع الناس عليه، دعه، الشيء الذي تطمئن له خذه، أكثر هذا في الأمور المالية، في الحسابات، يا ترى هذا السفر إلى أوروبا هل أسجله على مصروف الشركة؟ فأنت الهدف الحقيقي من السفر، قد يكون الاطلاع، قد يكون الاستجمام، قد يكون لاستخدام عروض كثيرة جداً، وأنت اشتريت صفقة واحدة، أيجوز أن تحمل كل هذه المصاريف

على هذه السفر؟ الأحوط أن تخرج من الخلاف إلى موطن عدم الخلاف، هذا معنى آخر من معاني الورع .

سؤال ينبغي أن يحضر في الذهن :

أيها الأخوة، فلو لاحظتم، أو لو سألتموني: ما حقيقة الفساد في الأرض؟ .
مرة فكرت في هذا الموضوع، ما وجدت الفساد في الأرض، يزيد على حريةٍ في كسب الأموال، من دون قيدٍ أو شرط، من دون ورع، وعن حريةٍ، في اقتناص الملذات، فالفساد أساسه المال والنساء، وهذا أساس الفساد، ولو ذهبت إلى مجتمعات الغرب، ورأيت الناس وهم غارقون إلى قمة رؤوسهم في الفساد، ما زاد فسادهم عن كسب المال الحرام، وعن ممارسة الشهوات التي حرمها الله عزَّ وجل .
لذلك أمور النساء والمال، جاءت في السنة النبوية بعنايةٍ فائقة، الإنسان يؤخذ إما من شهوته، وإما من حرفته، إما من شهوته للملذات التي حرمها الله عزَّ وجل، وإما من حرصه على المال، لذلك أحكام كسب المال، أحكام إنفاق المال....
فهناك أشياء دقيقة جداً، أفاض فيها الشارع الحكيم قضايا النساء أيضاً؛ أمر بغض البصر، وأمر بالبعد عن مظان الزنا .
الآن: أكبر شخصية إن لم يكن مؤمناً، أو محصناً بالدين، عنده نقطتا ضعفٍ خطيرتان هما: المال والنساء، خصوم الإنسان، الإنسان الناجح في الحياة، الذي بلغ مرتبة عالية، من أين يؤتى؟ من المال والنساء، فإن هاتين النقطتين ضعف في حقه، أما المؤمن فمحصنٌ من هاتين النقطتين .

حكم الشرع في هذه المسألة :

شيءٌ آخر في موضوع الورع: أن سيدنا الصديق رضي الله عنه، كان له غلام، وكان هذا الغلام، يأتيه ببعض الخراج، يبدو أنه في أحد المرات سقاه لبناً، وبعد أن شرب اللبن هذا، أخبره الغلام بأن في هذا اللبن شبهة .
تروي الكتب الصحيحة: أن هذا الصحابي الجليل، سيدنا الصديق رضي الله عنه وأرضاه، وضع يده في حلقه، فقاء اللبن، قد يقول أحدكم: هل هذا حكمٌ شرعي؟ أقول لكم: لا، فإذا لم يعرف الإنسان، دُعي إلى طعام، وإذا بصاحب الطعام دخله مشبوه، لكن الموضوع إذا كان دخله كله حراماً، في حكم، وإذا كان ثمة تداخل، فهناك حكم آخر، قد يكون للإنسان دخل مشروع، ومع هذا الدخل المشروع، دخلٌ آخر غير مشروع، فأنت ليس عندك وسيلة فعالة للتفريق. فمثلاً:

هذه التفاحة، يا ترى من دخله المشروع أم من دخله غير المشروع؟ في مثل هذه الحالات، الفقهاء تسامحوا في تداخل المال، أما إذا كان المال حرامًا صرفًا، وأنت قد علمت ذلك، فلا ينبغي أن تأكله، ولا أن تستخدمه، ولا أن تعامل هذا الإنسان.

على كلٍ؛ سيدنا الصديق من باب الورع، أخذ بالأحوط، وقاء اللبن الذي شربه .

وكلكم يعلم الحديث الشريف الذي يقول فيه النبي عليه الصلاة والسلام:

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعة من مخلّط))

لأن الورع يجعل الطريق إلى الله سالكاً، وعدم الورع يجعل عقبات، كل مخالفة، وكل تقصير، صارت حجابًا .

الحقيقة في نقطة مهمة جداً: أن العمل الصالح له وظيفتان؛ الوظيفة الأولى: أنه يعينك على الإقبال على الله عزّ وجل، والوظيفة الثانية: أن الله عزّ وجل يثيبك عليه في الدنيا، فإثابة الله للذي يعمل صالحاً في الدنيا، هذه مضمونة .

((ما أحسن عبدٌ من مسلمٍ أو كافر، إلا وقع أجره على الله في الدنيا أو في الآخرة))

لكن أن تستخدم العمل الصالح، لترقى به إلى الله، إذا كان العمل تارةً صالحاً، وتارةً سيئاً، هذا مستحيل، لأنه عدم الانضباط، وعدم الاستقامة، هذا يسبب حجبًا بين العبد والله عز وجل، لذلك:

((ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعة من مخلّط))

و:

((من لم يكن له ورعٌ يصده عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيءٍ من عمله))

وفي درسٍ سابق، تحدثنا عن مراتب الورع؛ عندنا ورع الصالحين، وعندنا ورع العدول، وعندنا ورع الأتقياء، وعندنا ورع الصدِّيقين، كل ما حرمته الفتوى فتركه ورع.

العدول: ما معنى إنسان عدل؟ يعني أنه مستقيم، فإذا حرم الفقهاء هذا الشيء، فهو حرام، وتركه من باب الورع العدول، ولكن الأسباب التي تؤدِّي إلى ترك هذا الحرام، من تركها، كان ورعه ورع الصالحين، ترك الأسباب المؤدية، الطعام مباح تناوله، ولكن إذا كان تناول هذا الطعام، سيؤدي إلى كسل على الطاعة، فترك هذا الطعام الزائد: من باب ورع الصالحين، أما ورع الأتقياء: ترك الأسباب الأبعد التي تؤدي إلى الوقوع في بعض المحرَّمات ، أما ورع الصديقين: فترك ما سوى الله عزّ وجل، فكلما ارتقى مستوى الورع، ارتقى مقامك عند الله عزّ وجل .

إليكم جوامع الكلم في هذا الحديث :

وننتقل إلى بابٍ آخر هو: باب إعانة الرفيق، كما جاء في عنوان هذا الفصل، وقد صُدِّرَ هذا الباب بقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((واللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أخِيهِ))

يعني هذه مَا كَانَ: بمعنى ما دام، ما دمت أنت في خدمة الخلق، فالله سبحانه وتعالى ييسر لك أمورك، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل الآية: ٥-١٠]

أحياناً الإنسان يفرح إذا كانت الأمور ميسَّرة؛ في عمله، في بيته، في أعماله، إذا جاءت الأمور تباعاً، وأحياناً تنشأ العقبات، فتسبب للإنسان إحباطًا، هذا الإحباط مزعج جداً، يا ترى التيسير والتعسير له قانون؟ الجواب: نعم، القانون في قوله تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أعْطَى وَاتَّقَى)

[سورة الليل الآية: ٥]

أعطى ماذا؟ القرآن فيه إيجاز، وربما كان إعجازه في إيجازه، أعطى كل شيء، أعطى من وقته، أعطى من ماله، أعطى من علمه، أعطى من خبرته، أعطى من مشاعره، أعطى من رحمته، متى تعطي؟ إذا عرفت الله عزَّ وجل .

الآن: الناس لا يمكن أن يقدموا شيئاً من دون ثمن، وثمن باهظ، وتشعر أن هذا الثمن ليس ثمناً، هكذا الإنسان البعيد عن الله عزَّ وجل، المؤمن بالعكس أساس حياته العطاء، يجلس ساعات طويلة مع إنسان بلا مقابل، ينصح، يأمر بالمعروف، ينهى عن المنكر، يعلم الناس، يقدِّم لهم خدمات، لأنه يبتغي بهذا وجه الله عزَّ وجل، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أعْطَى)

[سورة الليل الآية: ٥]

أعطى: يا من جئت الحياة، فأعطيت ولم تأخذ، الأنبياء أعطوا كل شيء، وغير الأنبياء أخذوا كل شيء، فإذا كانت أساس حياتك العطاء، فأنت مؤمن ورب الكعبة، وإذا كانت أساس الحياة الأخذ، فأنت تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة، بماذا تفرح: بالعطاء أم بالأخذ؟ أهل الدنيا يفرحون بالعطاء، أهل الدنيا يفرحون بالأخذ .

أحياناً الإنسان أساس حياته، يسمونه باللغة الدارجة: استراتيجية الأخذ، هذه ضبطت معه، هذه انتهز الفرصة، هذه بليلة ما فيها ضوء قمر التوى بالبيت، هذا يقول لك: يعرف من أين تؤكل

الكتف، تجد عنده حاسة سادسة، هذا عمل له عقد فكتفه، هذا أساس حياته الأخذ، المؤمن بالعكس لا يرتاح، لا يقر له قرار، إلا إذا أعطى من كل شيء، أعطاه إياه الله، فكلام عزَّ وجل إعجازه في الإيجاز، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى)

[سورة الليل الآية: ٥]

لماذا أعطى؟ لأنه يبتغي بهذا العطاء وجه الله عزَّ وجل، يبتغي أن يرضى الله عنه، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل الآية: ٥-٦]

صدق بالحسنى، يعني هذا القرآن كله حسنى، قال تعالى:

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

[سورة المائدة الآية: ١٦]

إذا اتبع الإنسان ما في كتاب الله، يهديه الله سبل السلام، إذاً:

(أَعْطَى وَاتَّقَى)

[سورة الليل الآية: ٥]

أن يعصي الله عزَّ وجل، أحياناً الأشخاص يبني حياته على العطاء، لكن مع العطاء في تساهل في الشهوات، يعمل أعمال طيبة، وله أعمال الناس يثنون عليها، ولكن هو غير منضبط شرعاً، لا يستطيع أن يغض بصره، أخي عمَّر كذا، وفعل كذا، وقدم الخدمات الفلانية، وعضو في كذا، وعضو في كذا، والله شيء جميل، أعمال كالجبال، لكن لما يقدم الإنسان أعمالا كالجبال، وليس عنده إمكانية يضبط بها شهواته ابتغاء مرضاة الله عزَّ وجل، هنا في مشكلة، كأن هذه الشهوة التي أصر عليها أغلى عنده من الله عزَّ وجل .

فلذلك: الله عزَّ وجل يتأبى عليه، دفعت ألف، هذه عشرة آلاف، مليون، هذه عشرة ملايين، ضيعت وقتك الثمين في خدمة الخلق، أنا سأوفر لك وقتك، سأمتعك بصحةٍ طيبة، أعطيك مقابل ما أعطيت كل شيء، أما أن أتجلى على قلبك، وأما أن أذيقك طعم القُرب، وأنت تؤثر علي شيئاً آخر من شهوات الدنيا، هذا مستحيل، أنت إما أن تطلب ما عند الله عزَّ وجل، وإما أن تطلب القرب من الله، هذا القرب من الله أثمن مطلب، وأعلى شيء .

((ومن ذاق عرف))

عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تُوَاصِلُوا، قَالُوا: فَإِنَّكَ تُوَاصِلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: إِنِّي لَسْتُ كَأَحَدِكُمْ، إِنَّ رَبِّي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي))

سأعيد الفكرة مرة ثانية: ممكن أن تعطي، تعطي من وقتك، تعطي من مالك، تعطي من جاهك، تعطي من إمكانياتك، تطعم الناس، إلا أنك إذا كنت مصراً على شهوة، وتقول: هذه والله صعبة، لا تدقق كثير، الله عزَّ وجل غفور رحيم، الله لن يعاملنا على عملنا، فهذا كلام الناس .

يعني جلسنا، وشاهدنا، أكلناها؟ ما أكلناها، قاعدة: الله يستر عليها، مثلاً، يريد أن يقعد هذه القعدة، ويرغب فيها، وله أعمال طيبة جداً، يخدم الناس، ويعطي، ويطعم المساكين، هذا كله محفوظ، يعطيك أضعاف مضاعفة، معه مئة ضعف معهم، قال تعالى:

(وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً)

[سورة النساء الآية: ٧٧]

أما أن الله عزَّ وجل يتجلى على قلبك، يقربك منه، يخصك بالرحمة، هذه ما دمت تؤثر عليه شيئاً آخر، فهذا مستحيل .

فأنت أحياناً وازن، ماذا تريد؟ هل تريد ما عند الله أم تريد ذات الله عزَّ وجل؟ ما عنده يعطيه للمؤمن، ويعطيه لغير المؤمن .

إن الله يعطي الصحة، والذكاء، والمال، والجمال، للكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين .

حضرنا دروسًا، ونحن محسوبون عند الناس على أننا مؤمنون، ومعظم الأشياء الكبيرة تركناها، فهل من المعقول من أجل أشياء صغيرة نقطع الصلة بالله عزَّ وجل؟

ماذا قال النبي في حجة الوداع؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الشيطان يئس أن يعبد في أرضكم ـيعني: بعد الإسلام، أن تنشأ عبادة أصنام، هذا مستحيل، هذا انتهى أمره، هذه بلاد التوحيد-، ولكن الشيطان رضي فيما سوى ذلك، مما تحقرون من أعمالكم))

فهل من المعقول سيارة ثمنها ستة ملايين، أحدث موديل، تقف من أجل قشة بداخل الكاربيراتير؟ معقول هذه، معطلة ولا تسير؟ إذا ليس فيها محرك، هذه معقولة، لكن لسببٍ تافه جداً، توقفت حركتها .

فقد تجد أحد الناس صائمًا، حاجًا، مزكيًّا، ما بقي شيء، فغض البصر، هذا الاختلاط غير صحيح، هذه الشبهة في قبض المال لا تفعلها، هذه الشبهة بالإنفاق لا تفعلها، هذه الزيارات غير المنضبطة لا تفعلها، هذه النزهة بهذا المقهى لا تفعلها، فماذا رضي الشيطان؟ ما تحقرون من أعمالكم، هذه الأشياء التي أفعلها ما فيها شيء، الله لن يدقق علينا، هذه عقبة، ما دمت تؤثر هذا على مرضاة الله عزَّ وجل، فالله عزَّ وجل يتأبى، الله عزَّ وجل عزيز .

يقول أحدهم: يا رب راعنا، هذه عند الله غير واردة إطلاقاً .

يا رسول الله مثّل بهم، هؤلاء ائتمروا على قتلك، وأخرجوا أصحابك، وعذّبوهم، وكانوا زعماء الكفر، مشركين، كفار، فجار، مثل بهم، قال عليه الصلاة والسلام:

((لا أمثل بهم، فيمثل الله بي، ولو كنت نبياً))

كلما عرفت الله أكثر تنضبط أكثر، فهناك أشياء دقيقة بالنفس، النفس دقيقة، إذا نظرة في غير محلها، والعوام يسمونها: غبشة، صار في حالة سيئة، حالة قطيعة قصيرة، فالاستقامة التامة شيء ثمين جداً، بل هي التي ترد الإنسان إلى كل خير، هذا:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى)

[سورة الليل الآية: ٥]

أعطى واتقى أن يعصي الله، وليس أعطى ويقع في تساهلات، أعطى مع تجاوزات، أعطى ولا تدقق، أعطى والله غفور رحيم، أعطى ونحن عبيد إحسان، ولسنا عبيد امتحان، هذه من الكلمات التي ليس لها معنى، تعطي الإنسان فرصة أن يقصر مع الله عزَّ وجل، وعندما يقصر انقطع عن الله عزَّ وجل، قال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى)

[سورة الليل الآية: ٥]

أن يعصي الله عزَّ وجل، قال تعالى:

(وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل الآية: ٦]

صدق بهذا الكتاب، بهذا المنهج، بهذا الدين، بهذه السنة، قال تعالى:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

[سورة الليل الآية: ٧]

تأتي الأمور كما تشتهي، هذا هو التوفيق، الآية الكريمة:

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ)

[سورة هود الآية: ٨٨]

لا يتحقق شيءٌ على وجه الأرض، إلا إذا أمر الله عزَّ وجل .

أحياناً يقول بعض التجار: التجارة ليست بالذكاء، ولكنها بالتوفيق، هناك أشخاص لهم عقول راجحة، ومع ذلك لا يحققون أرباحًا، لأنه يبدو أنه ليس هناك توفيق، وأشخاص يوفّقهم الله عزَّ وجل، فالتوفيق سره، قال تعالى:

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل الآية:٥-٦]

إذاً النتيجة :

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى * وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى)

[سورة الليل الآية:٧-١١]

فالتيسير والتعسير أساسه :

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل الآية: ٥-٦]

والتعسير :

(بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل الآية:٨-٩]

بخل بما عنده، حتى خبراته، تجده لا يعطيها لأحد، فإذا أراد أن يفك المحرك، يقول لصانعه: ابق في الخارج يا بني، لماذا؟ حتى لا يتعلم، إذا تعلم، يفتح محلا وينافسه، عقله ضيق جداً، يرى أنه هو يرزق نفسه، بخل بخبرته، بخل بالمعلومات، بخل بالتوجيهات، بخل بالمال، بخل بالوقت .

الآن: خرج المريض، ورجع مرة ثانية ليسأل، فادفعهم، سؤال فقط، أول جلسة انتهت، هذه جلسة ثانية، هذا بخل، قال تعالى:

(أَعْطَى وَاتَّقَى)

[سورة الليل الآية: ٥]

(بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

[سورة الليل الآية: ٨]

استغنى عن طاعة الله، ما عنده اهتمام للطاعة، قال تعالى:

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل الآية: ٩]

رأى أن هذا القرآن الكريم، لا يصلح لهذا الزمن، هذا عصر علم، عصر تشريع وضعي، عصر أشياء تحتاج إلى دراسة جديدة، فهذا المعنى يجعل أموره معسرة، هذا قانون التيسير والتعسير .

((وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا دَامَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ))

((إِذَا أَرَدْتُمْ رَحْمَتِي فَارْحَمُوا خَلْقِي))

((الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، ارحموا أهل الأرض، يرحمكم أهل السماء))

[أخرجه الحاكم في مستدركه عن عبد الله بن عمرو بن العاص]

علم سجل في التاريخ منذ إسلامه، هو:

والآن: إلى موضوع آخر عن سيدنا خالدٍ بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه .

سيدنا خالد قصته عجيبة، هذا الاسم الكبير الكبيرُ الكبير، القائد الذي خاض مئة معركةٍ أو زهاءها، هكذا كتب على نصبٍ تذكاري، أقيم إلى جانب قبره في حمص:

((لقد خضت مائة معركةٍ أو زهاءها، وما بجسدي موطن شبرٍ، إلا وفيه ضربة بسيفٍ، أو طعنة برمحٍ، وها أنذا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء))

يعني الحرب لا تميت، لا يميت إلا أن ينتهي الأجل، هذه أول فائدة .

الفائدة الثانية: هذا الاسم الكبير، فكلمة سيدنا خالد، أكبر كلمة في التاريخ العسكري الإسلامي، كم عاش في الإسلام؟ سبعة أعوام، كل هذه البطولات، كل هذه المعارك، كل هذه الإنجازات في سبعة أعوام، لذلك العمر قد يطول ويهزل، وقد يقصر ويغتني، لا تبحث عن العيش إلى الستين أو الأربعين، الإمام الشافعي عاش أقل من خمسين سنة، الإمام النووي، هذا الإمام الذي له بطولات لا يعلمها إلا الله، له مؤلّفات، وله مواقف بطولية، تكتب بماء الذهب، مات بالأربعينات، يعني الأعمار لا قيمة لها عند الله، ولكن القيمة إلى المضمون.

مثلاً: افتح المحل ثلاثة أيام بالشهر، وبع كل يوم بمائة ألف، أحسن من أن تفتحه شهرًا، وتبيع كل يوم بمئة ليرة، فالعمر يقاس لا بامتداده الزمني، بل بغناه بالعمل الصالح، سبع سنوات سيدنا خالد .

مَن هو هذا الفاتك الذي فتك بالمسلمين يوم أحد؟ بأحد هو الذي سبب هذا الوضع الحرج للمسلمين، بعد أن لاح لهم النصر، وبعد أن أصبح النصر قاب قوسين، التف من ورائهم، وجاء من خلف ظهورهم، وانقض عليهم، فوقعوا في حرجٍ شديد .

معركة أحد، غير بدر، وغير الخندق، بأحد صارت مشكلة، فالرماة نزلوا من مواقعهم ، وطمعوا بالغنائم، أدرك ذلك، فجاء من خلف ظهورهم، وانقض عليهم، مَن هو الذي فتك بالمسلمين يوم أحد، والذي فتك بأعداء المسلمين بقية الأيام؟ سيدنا خالد .

خالد يختلي بنفسه :

سيدنا خالد قال:

((لقد خلا يوماً بنفسه -هذه النقطة مهمة جداً، هذا الذي نفتقده نحن، حياته مستمرة ومستهلكة مثل الآلة، وصل إلى البيت، أكل ونام، عنده بعد الظهر، كم مشكلة ليحلها؟ سهر، أكل، ونام، استيقظ في اليوم الثاني أكل، وذهب إلى عمله، حركة دائمة بلا معنى، طعام وشراب، وعمل واستجمام، إلى أن يأتي مَلك الموت .

فهذا الإنسان له أن يخلو بنفسه، من أنا؟ ما هويتي؟ أين كنت؟ وإلى أين المصير؟ ما جدوى هذه الدنيا؟ ولماذا أنا فيها؟- .

سيدنا خالد خلا بنفسه يوماً، وأدار خواطره الرشيدة على الدين الجديد، الذي تزداد راياته كل يومٍ تألُّقاً وارتفاعاً، وتمنَّى على الله علاَّم الغيوب، أن يمد إليه من الهدى بسببٍ))

إذا جلس أحدنا بينه وبين نفسه قال: يا رب اهدن واهد بي، يا رب في هذا الموضوع أرن فيه الخير، يا رب استعملن في الصالحات، يا رب دلن عليك، يا رب هب لي عملاً صالحاً يرضيك، يا رب وفقن لما تحب وترضى .

وقع في مشكلة، أقدم على مشروع، فليقل: يا رب إن كان في هذا العمل ما يرضيك، فاختره لي، وإلا فاصرفه عني، فهل لك مع ربك خلوات، في مناجاة، في دعاء، في استشارة، في استخارة، في تأمل، في نظرة للماضي، وللحاضر، وللمستقبل، في إعداد للموت، في تصحيح لما مضى، لما هكذا من دون تفكر**!!**.

خطوة خطاها خالد بعد التفكير :

أيها الأخوة، ولمع في فؤاده الذكي بشائر اليقين، فقال -هذا بينه وبين نفسه-:

((والله لقد استقام المَنْسِم، وإن الرجل لرسول، فحتى متى؟ اذهب والله فأسلم))

فكر، هذا ليس قضية رجلٍ يحتاج إلى منصب، أو إلى مال، أو إلى زعامة، سيدنا النبي، وضح لكل ذي عينين أنه رسول، وأنه مؤيد من قِبَل الله عزَّ وجل، وأنه على خلقٍ عظيم، إلى متى أنت؟**!** .

فأحياناً الإنسان يخاطب نفسه:

إلى متى أنت باللذات مشغولُ وأنت عن كل ما قدمت مسؤولُ

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الحديد الآية: ١٦]

أيا عبدنا ما قرأت كتابنا أمـا تستحي منا ويكفيك ما جـرى؟

أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا؟ أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً

وتنظر ما به جاء وعدنا؟

إلى متى أنت هكذا؟ الواحد يخاطب نفسه، يأتي على الدروس باستمرار، ومتى سيستقيم استقامة تامة؟ متى سيأخذ عهد مع الله عزَّ وجل على طاعته التامة؟ إلى متى هذا الموقف المتردد؟ والله يا أخي نحن محتارون، أصلحنا الله وهدانا، الله يتوب علينا، إلى متى هذا الموقف المائع المتردد؟ يجب أن تأخذ موقف حازم لأنك تعامل الله عزَّ وجل .

انظر سيدنا خالد قال:

((إلى متى؟ إن الرجل لرسول، فحتى متى؟ اذهب واللهِ فأسلم))

خاطب نفسه .

أصغ السمع لخالد:

الآن يحدثنا هو مباشرةً، كيف توجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام؟ .

كان بمكة، فتوجه إلى المدينة، كي يعلن إسلامه، قال:

((وددت لو أجد من أصاحب - يا ليت في الطريق رفيق، طبعاً الرفيق قبل الطريق- فلقيت عثمان بن طلحة، فذكرت له الذي أريد، فأسرع الإجابة -توافق خواطر- وخرجنا جميعاً فأدلجنا سحراً - يعني قبل الفجر- فلما كنا بالسهل، إذا عمرو بن العاص، فقال: مرحباً بالقوم، قلنا: وبك، قال: أين مسيركم؟ فأخبرناه ، وأخبرنا أيضاً أنه يريد النبي عليه الصلاة والسلام .

-يعني لا تنشأ عندك حاجة، أن تصالح الله عزَّ وجل صلحًا كاملاً، وليس نصف صلح، لا تنشأ حاجة توبة نصوح، لا تنشأ حاجة أن تدع كل مخالفة إلى غير رجعة، من علامة الإيمان: أن تكره أن تعود في الكفر، كما تكره أن تلقى في النار- .

فاصطحبنا جميعاً -سيدنا خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، وعمرو بن العاص- حتى قدمنا المدينة أول يومٍ من صفرٍ سنة ثمانٍ للهجرة، فلما اطلعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، سلّمت عليه بالنبوة -كانت قريش يسلمون عليه باسمه، لكن الذي عرف رسول الله سلم عليه بالنبوة- فرد علي السلام بوجهٍ طلق .

-هذه كذلك من علامة الإيمان، إذا كنت تعرف شخصًا ليس فيه دين، معاند، ضد الدين، ووجدته قرب من الدين، إن لم تفرح، فأنت لست مؤمناً، إذا ما نسيت كل عداوة سابقة، فلست بمؤمن، لو كان أكل مالك، إذا وجدته قد دخل الإيمان في قلبه، فهذه سعادتك العظمى.

أضرب على ذلك مثلاً: سيدنا عمير بن وهب، لما جاء المدينة ليقتل محمداً، وعلى عاتقه سيف حاد، سيدنا عمر رآه، فقال:

((هذا عدو الله، جاء يريد شراً -قيده بسيفه، وساقه إلى النبي، القصة تعرفونها سابقاً . لكن موطن الشاهد فيها: أن النبي عليه الصلاة والسلام شيء مؤنس، لما رأى رسول الله، رأى كوكب غير كوكب، نفس طاهرة، نفس تحب البشر، الذي يحقد لا يكون داعية، من كان يدعو إلى الله، يجب أن يضع كل حظوظه تحت قدمه، لو الإنسان فعل بك ما فعل، وجاء منيباً، إن لم تفرح فرحك بنجاة ابنك من الغرق، فلست مؤمناً .

فالمشكلة-: أنه دخل سيدنا عمير على النبي الكريم، فقال له: يا عمر أطلقه، -لأنه كان مقيدًا- فأطلقه، قال: ابتعد عنه، وادنُ مني يا عمير، -هذا جاء يقتل نبيًّا كريمًا، جاء ليقتل، وليس ليصالح، قاتل مجرم- قال: يا عمر –بمودة- ما الذي جاء بك إلينا؟ .

قال له: جئت لأفك أسر أخي -هو عنده تغطية معقولة- .

قال له: وهذا السيف الذي على عاتقك؟ .

قال له: قاتلها الله من سيوف، وهل نفعتنا يوم بدر؟ .

قال له: ألم تقل لصفوان كذا، وكذا، وكذا؟ -وقد اتفق مع صفوان، أنه لولا ديون ركبتني، ولولا أطفال

صغار، أخاف عليهم العنت، لذهبت وقتلت محمداً، وأرحتكم منه- قال له : ألم تقل هذا لصفوان؟ فوقف، وقال: أشهد أنك رسول الله .

-موطن الشاهد ليس هنا، ولكن موطن الشاهد- أنه يقول سيدنا عمر: دخل عمير على رسول الله، والخنزير أحب إلي منه، وخرج من عنده، وهو أحب إلي من بعض أبنائي))

إن لم تكن كذلك، فلست مؤمنًا، عدو لدود لك، أكل مالك، ثم تاب إلى الله، إن لم ترحب به، لم تفرح من أعماقك، لا تشعر أنك بالجنة لأنه آمن، لست مؤمناً، انضم أخ كريم للمؤمنين، عبد شارد، عاد إلى ربه، إنسان بعيد عن الله، اهتدى إلى الصواب .

انظر النبي ماذا فعل؟ ماذا فعل سيدنا خالد مع رسول الله بأحد؟ إذا كان سندخل بالحقد هو الذي أفشل المعركة، عمل التفاف، وقتَّل، وفعل- .

قال: فلما سلمت عليه بالنبوة، ردَّ علي بوجهٍ طلق -أنا عند كلمة طلق وقفت- فأسلمت، وشهدت شهادة الحق، فقال عليه الصلاة والسلام: يا خالد -هذه كلمة تكتب بماء الذهب واجعلوها ببالكم- قد كنت أرى لك عقلاً، رجيت ألا يسلمك إلا إلى خير .

-إنسان واحد يحيرني، هو أن يكون ذكيًا، وآتاه الله عقلاً راجحًا، وله معصية، أين عقلك؟ هذا الإنسان يحير، إذا كان الإنسان ضعيف التفكير، محدودًا، فالأمر مختلف، أما الإنسان المفكر، المتفوق باختصاصه، المثقف، الدارس، آتاك الله عقلا، وترتكب هذه المعصية، وتفعل هذا المنكر، وتتأخر في التوبة إلى الله عزَّ وجل، لا تحضر مجالس العلم، لتتعرف إلى الله عزَّ وجل- قال له: يا خالد، قد كنت أرى لك عقلاً، رجيت ألا يسلمك إلا إلى خير.

قال: وبايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقلت: يا رسول الله، استغفر لي كل ما أوضعت من صدٍ عن سبيل الله، -له ماض خطير، وليس ماضيًا عاديًا، قائد معركة أحد، وهو الذي التف على المؤمنين-.

قلت: يا رسول الله علي ذلك، فقال: اللهم اغفر لخالد بن الوليد، كل ما أوضع فيه من صدٍ عن سبيلك .

وتقدم عمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة، فأسلما وبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم)).

ويجب يا أخي الكريم، أن تعرف إذا قلت: يا رب، ما بقي شيء، الإسلام يجب ما قبله ، هذا عفو الله عز وجل .

((لو جئتني بذنوبٍ، ملء السموات والأرض، غفرتها لك ولا أبالي))

قل: يا رب، يقول لك الله عزّ وجل:

((لقد قبلت، لبيك يا عبدي))

علة هذه التسمية لخالد بأنه سيف من سيوف الله هي :

في قصة ثانية شهيرة جداً: كلكم يعلم أنه في غزوة مؤتة في أرض الشام، هذه الغزوة حشد لها الروم مئتا ألف مقاتل، وأبلى فيها المسلمون بلاءً حسناً، وتذكرون أن النبي عليه الصلاة والسلام، عيَّن سيدنا زيد بن حارثة، ثم جعفر، ثم عبد الله بن رواحة، وسيدنا زيد سرعان ما قتل، فأخذ منه الراية سيدنا جعفر، ولكنه سرعان ما قتل، فأخذ الراية ابن رواحة، وابن رواحة كان شاعرًا، يبدو أنه بساعة من ساعات التردد، القضية الموت قريب جداً، الكلام سهل، فأول قائد قتل، والثاني قتل، وهو القائد رقم ثلاثة، صار في تردد، تردد ثلاثين ثانية، ثم قال:

يا نفس إلا تقتلي تموتِ   هذا حمام الموت قد صليتِ

إن تفعلي فعلهما رضيتِ   وإن تــوليت فقد شقيتِ

وقاتل حتى قتل، والنبي قال:

((أخذ الراية أخوكم زيد، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، وأخذ الراية أخوكم جعفر، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة ثم سكت، فلما سكت، قال أصحابه: ما فعل عبد الله؟ قال: ثم أخذها عبد الله، فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه. -ما دام تردد للموت، هبط مقامه، القصة انتهت هنا، ولكن لها تتمة، ماذا حصل بعد ذلك؟ جاء سيدنا خالد- ثم قال عليه الصلاة والسلام: ثم أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله، -هذه أول تسمية من سيدنا رسول الله لسيدنا خالد- ثم أخذ الراية سيفٌ من سيوف الله، ففتح الله بها على يديه))

فمن هذا السيف؟ إنه سيدنا خالد، كيف تمت إمارته؟ طبعاً هو بمؤتة، كان حديث عهد بالإسلام، خجل لم ير من حقه أن يكون قائد، فجاء أحد الصحابة الكرام وهو سيدنا ثابت، وقال :

((خذ اللواء يا أبا سليمان، -شعر أن هذا الإنسان أفضل من يقود المعركة، مئتا ألف جندي من الروم، والمسلمون أنهكوا، أول قائد قتل، والثاني، والثالث، صفيت معركة إبادة، امتنع سيدنا خالد- فقال له: لا، لا آخذ اللواء، أنت أحق به، لك سنٌ، وقد شهدت بدرا، أجابه ثابت: خذه، فأنت أدرى بالقتال مني .

-هذه اللقطة مهمة جداً، لا نريد زعامات، ولكن نريد مصلحة عامة، إذا كان من المصلحة، أن يتولى أخوك فوله، أنت مؤمن، وجالس في سهرة، هذا أبسط عمل، هو يستطيع أن يتكلم أكثر منك،

اتركه، لا، يريد هو أن يأخذ مكانه، إذا كان من المصلحة أن يتكلم أخوك، فاجعله صدر المجلس، واسكت أنت، نذهب وفدًا، المصلحة: أن يتكلم فلان، اسكت أنت، إذا عزَّ أخوك فهن أنت .

سيدنا ثابت لو يريد قيادة جيش لاستلمها- قال له: دعك من هذا، أنت أدرى مني بالقتال، فو الله ما أخذته إلا لك .

-هذا الإخلاص لله، إذا كنت مخلصاً لله، لا تؤثر نفسك على من هو أكبر منك، لا تؤثر نفسك على من هو أعلم منك، لا تؤثر نفسك على من هو أقدر منك، إذا عزَّ أخوك فهن أنت، أما التنافس فليس من صفات المؤمن إطلاقاً- .

ثم نادى في المسلمين: أتريدون إمرة خالد؟ قالوا: نعم .

اعتلى سيدنا خالد جواده، ودفع الراية بيمينه إلى الأمام، كأنما يقرع بها أبواباً مغلقةً، آن لها أن تفتح عن طريقٍ طويلٍ، فيقطعه البطل وثباً في حياة النبي وبعد مماته .

ولِيَ هذا الصحابي الجليل سيدنا خالد إمرة الجيش، بعد أن كان مصير المعركة قد تحدد، فضحايا المسلمين كثيرون، وجناحهم مهيض، وجيش الروم في كثرته الساحقة، كاسحٌ ظافرٌ، مدمْدم، وسيدنا خالد بحنكةٍ رائعة، وعبقريةٍ فذَّة، استطاع أن يناور، أن ينسحب ليغريهم بالمتابعة، ينسحب ويلتف عليهم، ينسحب، ويلتف إلى أن ورَّطهم، فأوغلوا في الصحراء، وخافوا من كمينٍ خطير، عندئذٍ توقفوا .

ولما عاد سيدنا خالد بجيش المسلمين إلى المدينة، أول من وصفه بأنه قد انتصر، سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام .

-لأن الإنسان غالٍ على الله، إنقاذ حياة الإنسان شيء ثمين جداً، صار النصر الآن إنقاذ حياة الصحابة، بعد أن أصبحت المقابلة مستحيلة، مئتا ألف مقابل آلاف عديدة، وكثر القتل، والضحايا كثيرون جداً، بقي أن تنجو بأصحاب النبي، بحفَّاظ القرآن، بهؤلاء الأعلام، هذا هو النصر، فالمناورة ذكية جداً، تقدم، وتراجع، والتف، وتقدم، وتراجع، والتف إلى أن أنقذ الجيش- بعضهم قال له: فرارٌ فرار، فقال عليه الصلاة والسلام: بل كرار))

يعني هذا أحد أنواع النصر، إذ أنقذت أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام .

قبل أن تنقد ابحث :

لنا مع هذا الصحابي الجليل وقفةٌ أخرى إن شاء الله تعالى في وقتٍ آخر، لكن أنهي الدرس بهذه اللقطة الأخيرة :

أحياناً الإنسان يقرأ التاريخ، فيجد فيه بعض الثغرات، يعني سيدنا عمر حينما تولى الخلافة، عزل سيدنا خالد، المستشرقون البعيدون عن روح الإسلام، وعن روح البطولة، يفسرون هذا بعداوات

الجاهلية، وتفسيرات مضحكة، المسلمون منها براء، لكن عثرت على نصٍ دقيقٍ دقيق، يوضح هذا العزل .

أن سيدنا خالد، حينما عزل، جاء المدينة، وقال:

((يا أمير المؤمنين لمَ عزلتني؟ -ماذا فعلت؟- .

فقال: يا أبا سليمان، والله إني لأحبك، -اطمئن- .

قال له: لم عزلتني؟ .

قال: والله إني لأحبك .

فسأل مرة ثالثة قال: لم عزلتني؟ -جاء الجواب- .

قال: والله ما عزلتك يا ابن الوليد، إلا مخافة أن يفتتن الناس بك، لكثرة ما أبليت في سبيل الله))

كلما دخل معركة ينتصر، اعتقد الناس: أن خالد هو الذي ينصرهم، خاف سيدنا عمر على التوحيد، فعزله ليرى أصحابه، كيف أن الله هو الناصر؟ هذا التفسير يليق بأصحاب رسول الله، أما أن نعيد الموضوع لخلافات جاهلية، ولعداوات قبلية، هذا الشيء الإسلام وضع كل الجاهلية تحت قدمه .

أنتم تعرفون، عندما جاء جبلة بن الأيهم لسيدنا عمر، وهو ملك من ملوك الغساسنة، جاء وأسلم، فلما أسلم، وهو ملك، له تاج، وله مظاهر العظمة والكبرياء، في أثناء الطواف حول الكعبة، بدوي من فزارة، داس طرف ردائه، فلما داس طرف ردائه، انخلع الثوب من كتفه، هو ملك عظيم، فالتفت نحو هذا البدوي، وضربه ضربة هشَّمت أنفه، هذا البدوي شكاه لسيدنا عمر، وبعض الشعراء قد صاغ هذا الموقف صياغة شعرية:

فقال له:

أصحيحٌ ما ادعى هذا الفزاري الجريح؟

فقال جبلة:

لست ممن يكتـــم شيئا أنا أدبت الفتى أدركت حقي بيدي

قال له:

أرضِ الفتى لا بد من إرضـائه ما زال ظفرك عالــقاً بدمائه

أو يهشمن الآن أنفك -سيدنا عمر يخاطب ملك- وتنال ما فعلته كفك

قال:

كيـــف ذاك هـو سو قة وأنـا عـــرشٌ وتاج

كيف ترضى أن يخر النجم أرضا!؟

قال له:

نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها أقمنا فوقها صرحاً جديدا

وتساوى الناس أحراراً لدينا وعبيدا

قال:

أنا مرتدٌ إذا أكرهتني

قال:

عنق المرتد بالسيف تحز

عالمٌ نبنيه كل صدع فيه بشبا السيف يداوى وأعز الناس بالعبد بالصعلوك تساوى

أنا أخذت المقطع:

نزوات الجاهلية ورياح العنجهية قد دفناها ....

ثم ترجع أنت أيها المؤرخ، تفسر عزل سيدنا خالد تفسيرًا جاهليًّا عصبيًّا، تفسيرًا قبليًا، الإسلام قضى على العصبية القبيلة، والجاهلية، فالتاريخ يحتاج إلى تفسير، يليق بأصحاب النبي، فهذا العزل كان إنقاذاً للتوحيد فقط وليس غير .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٣٩-١٠١) : باب الورع وترك الشبهات ، أحاديث شتى تتعلق بهذا الباب، قصة خباب بن الأرت

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٠-٠٥-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مصدر هذا الدرس :

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا في الحديث النبوي الشريف، ومن كتاب رياض الصالحين، وفي باب الورع وترك الشبهات، ومن عادة النووي رحمه الله تعالى: أنه يصدِّر أبواب كتابه بالآيات القرآنية التي تتصل بموضوع الباب، ومن العجبِ أنه صدَّر باب الورع وترك الشبهات بقوله تعالى:

(وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

[سورة النور الآية: ١٥]

تحسبونه هيناً: حديث الإفك، وهو عند الله عظيم .

وفي الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ -مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ-، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا فِي الجنة، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ -مِنْ سَخَطِ اللَّهِ-، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح والترمذي في سننه ومالك في الموطأ عن أبي هريرة]

أحياناً كلمة، تسبب طلاق امرأة من زوجها، كلمة تسبب ترك طالب علمٍ من معلّمه، كلمة ثالثة تسبب التفريق بين زوجين، أو بين أخوين، أو بين شريكين، كلمة تسبب انصراف الإنسان عن الحق واتباع الباطل . لذلك:

((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ -مِنْ سَخَطِ اللَّهِ-، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

وقد وفّق الإمام النووي رحمه الله تعالى، في تصدير هذا الباب بهذه الآية:

(وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

[سورة النور الآية: ١٥]

الآن: معظم المسلمين يظنون أن شرب الخمر، والسرقة، والزنا، هذه هي المعاصي، وهو بحمد الله تعالى بعيد عنها، ونسي أن الغيبة، والنميمة، وقول الزور، ونسي أن احتقار المسلم، نسي أن الاستعلاء على الخلق، هذه كلها من الذنوب العظيمة التي تقطع الإنسان عن الله عز وجل، أضرب لكم هذا المثل:

لو أن شريط الكهرباء الذي يوصل كهرباء المؤسسة إلى البيت، وفي البيت مصابيح، ومراوح، وبراد، وأجهزة كهربائية كثيرة جداً، إذا انقطع هذا الشريط الذي يوصل تيار المؤسسة بالمنزل، كل هذه المصابيح انطفأت، وكل هذه الأجهزة تعطّلت، ما قيمة هذا الانقطاع إن كان صغيراً أم كبيراً؟ إذا كان بين الشريطين سنتيمتر واحد، أو ميليمتر، أو عشرة سنتيمترات، أو متر، كله انقطاع .

الدعاء النبوي الشريف:

((اللهم لا تقطعنا بقواطع الذنوب))

إنسان مقطوع عن الله لذنب صغير أو لذنبٍ كبير، في كلا الحالين فهو مقطوع، من أين الخطر؟ حينما يحسب المسلم، أن هذا الذنب صغير، لا قيمة له، فإذا هو مقطوع عن الله عز وجل .

فسهرة مختلطة، لم نفعل فيها شيئًا يا أخي، ولكن مزحنا، فهذا ذنب، هذه المرأة التي أمامك، لا يحل لك أن تنظر إليها، إذا أردت أن تصلي، شعرت أنك بعيد عن الله عز وجل، ما الفرق بين الزنا وبين هذه؟ طبعاً الزنا أكبر، وهذه أصغر، ولكن كلاهما ساهم في بعدك عن الله عز وجل، فالإنسان لو أنه مقطوع عن الله لأسباب كبيرة نقول: لا بد من أن يقطع، أما أن يفقد كل هذه الميزات، كل هذه الخيرات، كل هذا التجلي، كل هذا الإقبال، لأسباب تافهة، كم تكون خسارته؟ .

فالإنسان أحياناً تضيع عليه صفقة ثمنها مليون، وهو ليس معه مليون، لكن معه مليون إلا ليرة مثلاً، فمن أجل ليرة واحدة، ضاعت عليه هذه الصفقة، يكون ندمه أشد، إذا ضيع الخير الكثير لسبب تافه، أما إذا ضيع الخير الكثير لسبب وجيه، يقول لك: لا أملك ثمنها.

فالنبي عليه السلام أشار إلى آخر الزمان، فعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ: يَعْبُدُونَ شَمْسًا، وَلَا قَمَرًا، وَلَا وَثَنًا، وَلَكِنْ أَعْمَالًا لِغَيْرِ اللَّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

هذه صغائر الذنوب، هذه قواطع .

ماذا قال عليه الصلاة والسلام؟ قال:

((إياكم ومحقرات الذنوب، فإنها تجتمع على صاحبها حتى يهلكنه))

تتراكم، والمثل الشهير الذي أضربه دائماً: الصغيرة تشبه انحراف المقود سنتيمتراً واحدًا، هذا الانحراف إذا استمر، فالسيارة في الوادي، إذا استمر والطريق مستقيم وعريض، أما الانحراف مستمر، لا بد من أن يسقط في الوادي، أما الانحراف الخطير المفاجئ فيسقطها فوراً، الانحراف الصغير: لماذا هو صغير؟ لأن تلافيه سهل، إن الحسنات يذهبن السيئات.

لذلك قال عليه السلام:

((لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار))

(وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

[سورة النور الآية: ١٥]

الإمام النووي رحمه الله تعالى، افتتح هذا الباب: باب الورع وترك الشبهات، بقوله تعالى :

(وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

[سورة النور الآية: ١٥]

وقوله جل وعلا :

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ)

[سورة الفجر الآية: ١٤]

بالمرصاد يراقب كل أعمالك، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيرها، ما تراه كبيراً، وما تراه صغيراً، فإذا كان الإنسان مراقبًا، يحاسب نفسه على أدق التصرفات، إذا أراد أن يصوّر نفسه، تجده يعدل من مظهره، لأنه لا يحب أن يكون مظهره فيه خطأ، وهي صورة عادية ليس لها أي قيمة، في الصورة العادية الإنسان يحاول أنْ يحسِّن شكله، إذا قابل إنسانًا له قيمته تجده ينتبه لثيابه، لألوانه، يضبط كلماته، ما دام تحت المراقبة، وإذا كانت عليه مراقبة كاملة، تجده يحاسب نفسه على الحركات والسكنات، وكل كلمة لها معنى، يوضِّح ما دام تحت مراقبة تامة، فإذا كان الله عز وجل يراقبه، فلا بد من ترك الشبهات، ولا بد من أن يكون ورعاً، هذه الآيات التي صدر بها هذا الفصل أو هذا الباب .

الآن: إلى أعمال النبي عليه الصلاة والسلام، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ بتمرة في الطريق، فقالَ: لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح وأبو داود في سننه عن أنس]

إذاً: النبي عليه الصلاة والسلام ورع، والورع ترك ما لا بأس به حذراً مما به بأس.

إليكم شرح هذا الحديث الذي يصب في موضوعنا اليوم :

الحديث الشهير في الورع كلكم يعرفه، وهناك أحاديث أصبح تداولها بين أيديكم كثير .

عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: وَأَهْوَى النُّعْمَانُ بِإِصْبَعَيْهِ إِلَى أُذُنَيْهِ: إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبينهما أمور مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ

اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم عن النعمان بن بشر]

فأنت بعته هذا الكتاب ديناً بمئة ليرة، ثم باعك إياه نقداً بثمانين ليرة، الكتاب نفسه، تقول لي: هذا بيع وشراء صحيح، بعته بإيجاب وقبول، وقبض وتسليم، ثم باعك هذا الكتاب بإيجاب وقبول، وقبض وتسليم، هذا بيع حلال إذاً .

يأتي رجلٌ مرابٍ، يحضر كتابًا، ويضعه على الطاولة، وكلما أراد إنسان شراءه، طلب قرضاً منه بفائدة، فيبيعه الكتاب ديناً بألف ليرة، ويكتب: من فلان، ثمن كتاب كذا ألف ليرة، وفي الوقت نفسه يقول له: أتبيعني إياه بثمانمئة؟ يقول له: نعم، يفتح الدرج، ويعطيه ثمانمئة ليرة، فيا ترى هذا العمل بيع وشراء أم ربا؟ .

قد يحدث لمرة واحدة، وفي صفاء ونية طيبة، أنت بعت بيعة بإيجاب وقبول صحيحين، وبيع حقيقي ليس خلبيًّا أو شكليًّا، وبعدما بعت، جاءك هذا بعد أسبوع، قال لك: هذا الكتاب أريد أن أرجعه، أنت يمكن أن ترجعه على أساس الإحسان، لأن الله عز وجل يقول:

(إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ)

ولكن أنت أحببت أن تكون بالعدل، العدل أن هذا الكتاب بعته بيعاً قطعياً، والبيع صحيح، والإيجاب صحيح، والقبول صحيح، قال: لك أتشتريه مني؟ مثلاً قد يحدث هذا لمرة واحدة، لظرف قاهر اشترى كتابًا، مع افتتاح المدارس، بعد شهر جاء، وليس له زبون لانتهاء الموسم، ليس لي مصلحة أن أرجعه، فأنت اشتريته منه شراء آخر، يجوز في حالات نادرة جداً، أن يكون فعلاً بيعًا وشراءً، لكن أن تجعل هذا الكتاب وسيلة لتحليل الربا، هذا صار حرام.

فالمتشابهات من جهة تشبه الحلال، ومن جهة أخرى تشبه الحرام، أنا أريد أن أعلم هذه المرأة التي معنا في الدائرة، أريد أن أبين لها الحجاب، وكذا، وكذا، والله هذه دعوة إلى الله، ولكنها امرأةٌ زينةٍ، فأية دعوة إلى الله هذه؟! دخل شيء ثان، بينهما مشتبهات، الحلال بين والحرام بين واضح كالشمس، وأنت تعرف الحلال والحرام بالفطرة من دون تعليم، اشترى طعامًا وأكله من مال حلال، فهذا حلال، أخذ ما ليس له، حرام بالفطرة .

هناك شبهات؛ دخلت معه في بيت، دفعت الربع، ويجب أن أؤدي هذا المبلغ بعد شهرين، أو بعد سنة كما أخذه، ولي عندك أجرة، لا يجتمع في الشرع ضمان وأجار، إذا كان الضمان فلا يوجد أجار، أنت مالك، والمالك لا يستأجر، وإذا كنت أنت مستأجرًا، فلا يوجد ضمان، إذا أخذت أجرة على أوضاع البيت، فبعد سنة يرخص، يرتفع، يستملك، يحترق، لا نعرف، فالموضوع دقيق .

((وبينها أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس))

لذلك سيدنا رسول الله قال:

((تفقهوا قبل أن تحجوا))

تفقهوا قبل أن تدخلوا السوق، ومن دخل السوق بلا فقه، أكل الربا شاء أم أبى، والإنسان يقول لك: استقامة، فالاستقامة يجب أن تعرف الأمر، إذا أردت أن تستقيم على أمر الله، يجب أن تعرف أمر الله عز وجل، معرفة أمر الله حتم واجب .

((فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ))

لأن في الإنسان مشكلة، يمكن أن نسميها بالفيزياء: مبدأ العطالة، وهي أن الجسم المتحرِّك يرفض السكون، والجسم الساكن يرفض الحركة، الدليل:

إذا كنت في سيارة منطلقة بسرعة، والسائق لسبب قاهر استعمل المكبح، أنت تهجم نحو الأمام، لماذا؟ لأن السيارة وقفت بفعل المكبح، أما أنت كجسم متحرك فترفض الوقوف، فعندما وقفت، هي بقيت، أنت تسير، أكثر الحوادث تأتي من الإيقاف السريع، لذلك ببعض الدول حزام الأمان لا بد منه، ما حزام الأمان؟ أنك جسم منطلق بسرعة، تساوي سرعة السيارة، فإذا توقفت فجأة، أنت ترفض الوقوف، وتظل ماشيًا إلى الأمام، فيحدث اصطدام، وتقع في مشكلة .

الآن: الجسم الساكن يرفض الحركة، والدليل: إذا أقلعت السيارة، تشعر أن المقعد الخلفي يدفعك نحو الأمام، لأنك تريد أن تبقى ساكنًا، والآن القمر الصناعي يعطونه سرعة ابتدائية يبقى يدور إلى الأبد، نظرياً طبعاً، ما دام قد أخذ سرعة، وليس هناك قوى مقاومة واحتكاك، فالجسم المتحرك يرفض السكون، هذه هي العطالة، طبعاً القوانين واحدة .

طبق هذا القانون على النفس، عندما يستمرئ الإنسان الحرام، يظل ماشيًا فيه، ولا يقف من حرام إلى أشد، الإنسان طبيعته متحركة، إذا مشى بطريق الإيمان من حسن لأحسن، من موقف فيه ورع إلى موقف أشد ورعاً، من موقف فيه إحسان إلى موقف أشد إحساناً، من صلاة متقنة إلى ما بين الصلاتين في صلاة، فكلما الإنسان مشى بالإيمان يرتقي، وإذا بدأ بطريق الانحراف، حينما تذل قدمه، عندنا قانون مهم جداً، هذا القانون أيضاً هو مادي، فأنت حينما ترى صخرة في رأس جبل، أنت الآن في كل الاختيار؛ لك أن تدعها في مكانها، ولك أن تدفعها نحو الهاوية، ولكنك إذا دفعتها نحو الهاوية، ليس في اختيارك أن توقفها في مكان معين، لا بد من أن تستقر إلى القاع .

الإنسان أحياناً يدفع ابنه أو زوجته إلى شيء من مخالفة للشرع، يظن فقط هذه، هو يريد هكذا فقط، ولكن هذا الأمر تجده يتفاقم، إلى أن تقع المشكلة الكبيرة، هذه قاعدة: الحرام يجر إلى حرام أشد، ماذا قال البوصيري رحمه الله تعالى :

فلا ترم بالمعاصي كسر شهوتها إن الطعام يقوي شهوة النهم

الخطوة نحو الحرام تتبعها خطوات، تساهل في مخالفة تتبعها مخالفات، نظرة تتبعها ابتسامة، يتبعها حديث، يتبعها موعد، يتبعها لقاء، يتبعها زنا، يتبعها فضيحة، يتبعها طلاق، يتبعها جريمة من نظرة، ومعظم النار من مستصغر الشرر، فالإنسان متحرِّك، هذا الذي سأل النبي عليه الصلاة والسلام -الحديث معروف عندكم-:

((ماذا ينجي العبد من النار؟ .

قال: إيمان بالله .

قال: مع الإيمان عمل؟ .

قال: أن تعطي مما أعطاك الله .

قال له: لا أستطيع .

قال له: أن تكف أذاك على الناس، وذكر له أشياء كثيرة النبي عليه السلام، فقال أبو ذر رضي الله عنه: أو إن كف أذاه عن الناس دخل الجنة .

فقال عليه الصلاة والسلام: ما من عبد مسلم، يصيب خصلة من هذه الخصال، إلا أخذت بيده، حتى تدخله الجنة))

هناك شيء اسمه تعاظم، أنت امش في طريق الإيمان، تجد نفسك في نمو، اليوم قرأت القرآن، غداً تقرأ القرآن مع التدبر، بعد غد: تقرأ مع التدبر والتفكُّر، وبعده: قراءة، وتدبر، وتفكر، وتطبيق، بعدئذٍ يصبح القرآن ربيع قلبك، احضر مجلس علم، تشتهي الثاني، والثالث، وغير نوع، وحديث، وتفسير، وعقيدة، وفقه، فالإنسان باللغة الأجنبية: ديناميكي، أي طبيعته متحرك، فإن مشى في طريق المعاصي، تتبعه خطوات نحو المعاصي، والطاعات أيضاً تأخذ بيدك إلى الله عز وجل .

((وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ، وَقَعَ فِي الْحَرَامِ))

يا أخوان، النبي عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، فسيدنا سعد رضي الله عنه قال:

((والله ما سمعت حديثاً من رسول الله، إلا علمت أنه حق من الله تعالى))

النبي عليه الصلاة والسلام يقول حديث، لو صدقناه جميعاً، أحياناً الإنسان يسمع أحاديث كثيرة، ولكن على قدر إيمانه يصدق، لو صدقت النبي بهذا الحديث، لما اقترفت معصية .

((ما ترك عبد شيئاً لله، إلا عوضه الله خيراً منه، في دينه ودنياه))

يعني من سابع المستحيلات، أن تدع شيئًا لله وتكون خاسرًا، إلا أن تكون أنت الرابح ، إلا أن يعوِّض الله عليك من الدنيا والآخرة، هذا قانون، ولكن ربنا عز وجل امتحانه دقيق، يأتيك شيء فيه شبهة، ويغلق الله عليك كل الأبواب، لا يوجد غيرها، لو كان في باب مفتوح خير، وباب شر، فتقول: أنا أريد الحلال يا أخي، لأنها سهلة، باب الحلال مفتوح، أما ربنا عز وجل لكي يكون الامتحان دقيقًا، يفتح لك باب فيه شبهة، والأبواب كلها مغلقة، إما أن تقول: والله لا أفعل هذا ولو مت جوعاً، أو تقول: يا أخي أنا مضطر، كله مسكر، طبعاً عندما قلت: مضطر كتب عليك ذلك، وأخذت علامة عند الله عز وجل، ربنا عز وجل قال:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية: ٢]

((كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ))

من ترك ما استبان، كان لما اشتبه أترك، ومن وقع فيما اشتبه عليه، كان لما استبان أوقع، إذا كان في قضية شك تركتها، طبعاً سيكون تركك للشيء الواضح مقطوعًا مئة بالمئة، أما شيء فيه شبهة وقعت فيه، المرة القادمة ستقع في الحرام، على أساس أن الإنسان متحرك.

((أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ))

((واتق المحارم تكن أعبد الناس))

هذا الحديث معروف عندكم، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام لما وجد تمرة في الطريق قال:

((لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنْ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح وأبو داود في سننه]

هذا الموقف من النبي في منتهى الورع، ولكن المنافق أحياناً يعمل موقف فيه ورع، ويكون واضحًا، أنه ليس ورع، أنها تلبسة .

في عهد سيدنا عمر، وفي موسم الحج، والناس منشغلون في الطواف والسعي، رأى رجلٌ لوزةً، أمسكها وصاح بأعلى صوته، حتى ملأ الدنيا صخباً وضجيجاً: من صاحب هذه اللوزة؟ سمعه سيدنا عمر وقال له:

((كلها يا صاحب الورع الكاذب))

قال لي أحدهم: شاركت شخصًا في مشروع، ونحن نمشي في الطريق معا، وجد خمس ليرات رفعها، ووضعها في جيبه، بعد شهر قال له: أنت لي معك ليرتين ونصف، قال له: لماذا؟ قال له: مرة كنا نمشي معاً، ووجدت خمس ليرات، وهذه ليست لي فقط، لأننا كنا معا، طار عقله، ما هذا الورع؟ ولكن المشروع يخسر، كل سنة يخسر، الزبائن كثر، مدرسة ثانوية والطلاب كثر، بعد ذلك

طلب الدفاتر، ظهر أنه محا خانة واحدة بالمصاريف، دفع كذا مئة، تصبح كذا ألف، أما الخمسة ليرات قال له: لك نصفها .

أحيانا يكون فيه الورع كمصيدة، الورع مصيدة، قال له:

((كلها يا صاحب الورع الكاذب))

أما النبي عليه السلام:

((لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ مِنْ الصَّدَقَةِ لَأَكَلْتُهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح وأبو داود في سننه]

أحاديث شتى من هذا القبيل :

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ الْحَارِثِ، أَنَّهُ تَزَوَّجَ بنتا لِأَبِي إِهَابِ بْنِ عَزِيزٍ، فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ، فَقَالَتْ:

((إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُ عُقْبَةَ وَالَّتِي تَزَوَّجَ، فَقَالَ لَهَا عُقْبَةُ: مَا أَعْلَمُ أَنَّكِ أَرْضَعْتِنِي وَلَا أَخْبَرْتِينِي، فَرَكِبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ، قال، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ: فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ، وَنَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ؟))

[أخرجه البخاري في الصحيح وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم عن عقبة بن الحارث]

فليست القضية سهلة، صار في مخالفة للشرع، صار في أخوة من الرضاعة، صار العقد باطلا، فأصحاب النبي عليهم رضوان الله، ما بلغوا ما بلغوا، إلا أنهم وضعوا كل حظوظ أنفسهم تحت أقدامهم، ما دام هذا العمل يرضي الله أفعله، لا يرضيه لا أفعله .

عَنْ أَبِي الْحَوْرَاءِ السَّعْدِيِّ:

((قُلْتُ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ: مَا حَفِظْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: حَفِظْتُ مِنْهُ: دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيبَةٌ))

[أخرجه الترمذي والنسائي في سننهما عن أبي الحوراء السعدي]

هذه قاعدة تكتب بماء الذهب:

((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ))

في أثناء الحساب هناك شك، أنا أنصحك: ادفع له الحساب كاملاً، هذا أكثر اطمئناناً لقلبك، والله يعوض عليك، لكن أنت لست متأكدًا، وهو ليس متأكدًا، ما دام هناك شك في أن الدخل حرام:

((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ))

والأذكى من ذلك، سجِّلْ كلَّ شيء، اكتب وصلا بالدَّين، من كتب حجة على مَن لم يكتب .

((دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ))

قضية أجازها عالم، ولم يجزها عالمان، صارت القضية خلافية، اخرج من الخلاف، خذ بالأحوط، أفت بالأسهل وخذ بالأحوط، الموقف الشريف أن تفتي بالأسهل، وأن تفعل بالأحوط، العكس أن تأخذ الأسهل، وأن تفتي بالأشد، هذا موقف صعب، لنفسه يفتي بالأسهل، للآخرين يفتي بالأحوط، فالعكس هو الصواب .

عن نافع رضي الله عنه:

((أن عمر كان فَرَضَ للمهاجِرينَ الأولين أرْبَعَةَ آلاف، وفرضَ لابن عُمَرَ ثلاثَة آلافٍ وخمسمائة، فقيل لهُ: هو من المهاجرين، فَلِمَ نَقصْتَهُ من أربعةِ آلافٍ؟ قال: إنَّما هاَجرَ به أبوهُ، يقول: ليس هو مِمَّنْ هاجَرَ بنَفْسِهِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

لأن ابنه هاجر معه، ما جعل هجرته تامة، جعلها ناقصة، لذلك أنقص له فيما فرض له، أيضاً هذا من ورع سيدنا عمر .

عَنْ عَطِيَّةَ السَّعْدِيِّ -وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَبْلُغُ الْعَبْدُ، أَنْ يَكُونَ مِنْ الْمُتَّقِينَ))

وفي رواية:

((لا يبلغ العبد حقيقة التَّقْوى، حَتَّى يَدَعَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ، حَذَرًا مما بِهِ الْبَأْسُ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن عطية السعدي]

تقريباً موضوع الورع يلخص بكلمتين، قالها النبي عليها الصلاة والسلام:

((ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مخلط))

و:

((من لم يكن له ورع، يصده عن معصية الله إذا خلا، لم يعبأ الله بشيء من عمله))

ما العمل الذي كان يرتزق منه خباب بن الأرت ؟:

والآن: إلى صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، إنه خباب بن الأرت.

جاء في التعليق على هذا الصحابي الجليل: أنه أستاذٌ في فن الفداء، إذا قرأنا قصة هذا الصحابي، يشعر كل واحد منا، أنه ما فعل شيئًا، فقد تأتي إلى مجلس علم، مسجد آمن، فيه كل وسائل الراحة، ساعة من ساعات الوقت، تمضيها في هذا المكان الطاهر، وتشعر أنك فعلت شيئاً، لقد حضرت مجلس علم، لقد جئت من أطراف المدينة .

كان صانع سيوف، فخرج نفر من القرشيين، يسرعون الخطا، ميممين وجههم شطر دار خباب، ليتسلموا منهم سيوفهم، التي تعاقدوا معه على صنعها، كان صانع سيوف، وقد كان خباب سيَّافاً يصنع السيوف، ويبيعها لأهل مكة، ويرسل بها إلى الأسواق، وعلى غير عادة خباب، الذي كان ما يفارق بيته أبداً، لم يجده ذلك النفر من قريش، فجلسوا ينتظرونه، وبعد حين طويل، جاء خباب على وجهه، علامات استفهامٍ مضيئة .

لما ينتقل الإنسان نقلة مفاجئة من حالة الكفر إلى حالة الإيمان، من الضياع إلى الوجدان، من الشقاء إلى السعادة، من الاضطراب الفكري إلى العقيدة الصحيحة، من الخوف إلى الطمأنينة، من الشرك إلى التوحيد، يدخل في جنة .

فهذا الصحابي يبدو أنه قد عاد لتوه من عند رسول الله، وكان قد التقى معه اللقاء الأول، فالله يجعلنا من الذين يسمح لهم أن يلتقوا بالنبي عليه السلام، طبعاً: الذين آمنوا وعملوا الصالحات، مع الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين .

نسأل الله أن يجعلنا أهلا لذلك، ولكن يبدو أن النبي عليه السلام، الإنسان إذا التقى به لقاءً واحداً، يشعر أن كيانه كله قد اهتز، يشعر أن النور قد سرى في كل أنحاء جسمه، فهذا سيدنا خباب يصنع السيوف في بيته، واتفق مع نفر من قريش على صنع السيوف، وجاؤوا لاستلام السيوف، لم يجدوه، عاد من توه من عند النبي، وجدوا على محيَّاه علامات استفهام مضيئة، وفي عينيه دموع الفرح، وحيا ضيوفه وجلس، وسألوه عجلين:

((هل أتممت صنع السيوف يا خباب؟ .

وجفت دموع خباب، وحل مكانها في عينه تألق وسرور، وقال، وكأنه يناجي نفسه: إن أمره لعجيب!! .

-إذا كنا نريد أن نقيس، إذا كنت مؤمنًا صادقًا، فيجب أن يحتار الناس في أخلاقك العالية، يجب أن يحتاروا في كمالك، يجب أن يحتاروا في وفائك، وتواضعك، وإنصافك، ورحمتك، وحجتك القوية، وصفائك، وروحانيتك، هكذا الأنبياء، وإن الله أمر المؤمن بما أمر به المرسلين، فالتقى لقاء واحدًا، صار في حيرة- قال: إن أمره لعجيب!! .

فسألوه: أي أمرٍ يا رجل؟ -أمر من؟ هؤلاء زبائن السيوف- أي أمر يا رجل؟ نسألك عن سيوفنا، هل أتممت صنعها؟ -شارد سيدنا خباب، صار بعالم آخر- .

قال: هل رأيتموه؟ هل سمعتم كلامه؟ من؟.

وينظر بعضهم إلى بعض في دهش وعجب، ويعود أحدهم، فيسأله في خبث :هل رأيته أنت يا خباب؟ ويسخر خباب من مكر صاحبه، فيرد عليه السؤال قائلاً :مَن تعني؟ .

ويجيب الرجل في غيظ: أعني هذا الذي تعنيه أنت، من هذا الذي رأيته؟ ومن هذا الذي أمره عجيب؟ -أي ماذا حدث لك؟- .

ويجيب خباب بعد إذ أراهم -أنه أبعد منالاً من أن يستدرج، وأنه إذا اعترف بإيمانه الآن أمامهم، فليس لأنهم خدعوه عن نفسه، واستجرّوا لسانه، بل لأنه رأى الحق وعانقه، وقرر أن يصدع به ويجهر به- يجيبهم قائلاً في نشوة وغبطة: أجل لقد رأيته وسمعته، رأيت الحق يتفجر من جوانبه، رأيت النور يتلألأ من ثناياه .

وبدأ عملاؤه القرشيون يفهمون، عرفوا أنه النبي اللهم صل عليه، فصاح به أحدهم: من هذا الذي تتحدث عنه يا عبد أم أنمار، -وكان سيدنا خباب عبدًا لأم أنمار- .

وأجاب خباب -في هدوء القديسين-: ومن سواه يا أخا العرب؟ ومن سواه في قومك يتفجر الحق من جوانبه، ويخرج النور من ثناياه؟! .

وصاح آخر وقد هب مذعوراً: أراك تعني محمداً؟ .

وهز خباب رأسه المفعم بالغبطة وقال: نعم، إنه رسول الله إلينا، ليخرجنا من الظلمات إلى النور .

ولم يعلم بعد ذلك شيئاً، لا يدري بعد ما قال هذه الكلمات، ولا ماذا قيل له؟ كل ما يذكره أنه أفاق من غيبوبته، بعد ساعات طويلة، ليرى زواره قد انفضوا، وجسمه وعظامه تعاني رضوضاً وآلاماً، ودمه النازف يضمخ ثوبه وجسده، يبدو أنهم ضربوه ضرباً لا يحتمل ، حتى إنه غاب عن الوعي، تكّسرت عظامه، سال الدم من جسمه، بعد ساعات أفاق من غيبوبته، -هذا أول درس في الفداء .

فإذا غضب الأب من ابنه لأنه يصلي، يقول له: لا أتحمل، تكلم معك كلمتين، إذا غضب الشريك من شريكه، لأنه رفض أن يأكل الربا، يقول لك: لست مسروراً، صار شيء، نحن يجب أن نعلم: ماذا قدمنا للإسلام؟ أصحاب النبي عليهم رضوان الله، قدموا كل شيء، بفضل تضحياتهم، وبذلهم، وصبرهم .

الآن: نحن في بحبوحة كبيرة جداً، تأتي إلى المسجد، المسجد مفعمًا بالمصلين، في بحبوحة، وفي راحة، وفي أمان، لا شيء علينا، نحن في نعمةٍ كبيرةٍ جداً، نحن جاءنا الإسلام لقمة سائغة، تفضل احضر الدرس، تستطيع أن تصلي، وتحضر مجالس علم، وتقيم الحق في بيتك، وتفعل الخير، الأمر في يسر وسهولة جداً، وهذا من فضل الله علينا في هذه البلدة، ولكن هل تدري ماذا فعل أصحاب النبي، حتى صار الإسلام بهذا اليسر؟ هل تدري كم تحملوا من تعب، من شقاء، من تعذيب، من قطيعة، من فقر، من هجران، من تشرُّد؟ هل تدري ماذا فعلوا؟-.

يقول الشعبي، وهو من التابعين: لقد صبر خبابٌ، ولم تلن له على أيدي الكافر قناة، فجعلوا يلصقون ظهره العاري بالرضف، حتى ذهب لحمه))

أحد الشعراء قال:

لو قال تيهاً قف على جمر الغضا لـوقفت متـمثلاً ولـم أتوقف

أو كان من يرضى بخدي موطئاً لـوضعته أرضاً ولم أستنـكف

حالات الحب، حالات الشوق إلى الله عز وجل، لو قال محبوبه:

لو قال تيهاً قف على جمر الغضا لـوقفت متـمثلاً ولـم أتوقف

أو كان من يرضى بخدي موطئاً لـوضعته أرضاً ولم أستنـكف

فكانوا يلصقون ظهره العاري بالرضف، حتى ذهب لحمه .

لماذا جاء خباب إلى رسول الله، وماذا كان جواب؟

مرة سيدنا خباب من شدة الآلام التي تحملها، لأنه كان عبدًا لامرأة كافرة اسمها: أم أنمار، وكانت تسهم أيضاً في تعذيبه، جاء خباب إلى النبي عليه السلام فقال: يا رسول الله، كان النبي متوسداً ببرد في ظل الكعبة . فعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ قَالَ:

((شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، قُلْنَا لَهُ: أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا؟ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ لَنَا؟ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ، يُحْفَرُ لَهُ فِي الْأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ، مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الْأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ))

النبي له رؤية بعيدة، لا بد من أن ينصر الله هذا الدين، لأنه دينه، ولأن الأمر كله بيده ، ولكن إذا جاء الضيق، فمن أجل أن يظهر الصادق، من أجل أن يرق الإنسان إلى الله عز وجل، الشيء الذي يأتي باليسر بلا ثمن لا قيمة له، هذا الذي آمن بالنبي في وقت العسرة، في وقت الشدة والضيق، له أجر آخر، غير أجر الذي آمن به في الرخاء .

خاض سيدنا خباب معركة أخرى مع أم أنمار، سيدته، فكانت تأخذ الحديد المحمَّى الملتهب، تضعه فوق رأسه ونافوخه، وخباب يتلوى من الألم، لكنه يكظم أنفاسه حتى لا تخرج منه زفرة، ترضي غرور هذه السيدة، ومر به النبي عليه السلام، هذا في وقت الضعف، والحديد المحمَّى فوق رأسه، فطار قلبه رحمة وحناناً وأسىً، ولكن ماذا يملك عليه؟ قال عليه الصلاة والسلام:

((اللهم انصر خباباً))

دعا له النبي .

ولكن هذه المرأة الظالمة الشريرة التي عذَّبت عبدها هذا التعذيب، أصيبت بمرض عضال في رأسها، وكان من جملة الأدوية: أن يكوى رأسها بالنار .

حدثني أخ قال لي: هناك امرأة بعيدة عن الدين بعدًا شديدًا جداً، تكره كل امرأة ديِّنة، وكان لها عمل، بحسب عملها، كل فتاة أو امرأة لها مظهر ديني، كانت تبطش بها، قال لي: فجأة وقد رأيتها، وضعت على رأسها حجاباً، قلت: سبحان الله، لقد هداها الله عز وجل، ولكن القصة ليست كذلك، إن مرضاً خبيثاً أصاب شعرها، فطلبت من الطبيب أن تضع شعر مستعارًا، بعد أن حلقوا لها رأسها كله، فقال لها: لا، لا بد من وضع هذا القماش على رأسك.

فربنا عز وجل أحياناً ينتقم، فالإنسان لا يكون أداة بيد الشيطان، يكون بيد الرحمن، يكون داعيًا للإصلاح، فحينما يقف الإنسان موقفًا، ليطفئ نور الله عز وجل، يقصمه الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

فهذه المرأة أصابها مرض في رأسها، اضطرت أن تكويه بالنار، جزاء ما فعلته بعبدها سيدنا خباب .

انظر في هذا :

كلكم يعلم أن النبي عليه السلام قال:

((مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَقْرَأَ الْقُرْآنَ غَضًّا كَمَا أُنْزِلَ، فَلْيَقْرَأْهُ عَلَى قِرَاءَةِ ابْنِ أُمِّ عَبْدٍ))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه عن عمر بن الخطاب]

من هو ابن أم عبد؟ عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن مسعود، كان يعد خباباً مرجعاً له فيما يتصل بالقرآن وحفظه ودراسته، انظر الجمع بين التضحية والعلم، بقدر ما هو أستاذٌ في الفداء، هو أستاذٌ في القرآن، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً، لو اتخذه لعلمه .

فأن تقول: أنا لا أعرف، ليس لي دخل، أنت مظنة علم، أنت على ثغرة من ثغر الإسلام .

فهذا خباب بن الأرت، كان يقرأ القرآن على أحد أصحاب رسول الله: سعيد بن زيد، عندما فاجأهم عمر بن الخطاب متقلداً سيفه الذي خرج به، ليصفي حسابه مع محمد، ولكن لم يكد يتلو القرآن المستور في الصحيفة التي كان يعلم منها خباب، كان خباب عند سيدنا سعيد بن زيد يعلمه القرآن، فدخل سيدنا عمر، سيدنا خباب من خوفه من عمر، اختبأ في مكانه، دخل عمر، وأمسك بهذه الصحيفة، وقرأها، ثم صاح سيدنا عمر صيحته المباركة:

((دلوني على محمد، وسمع خباب كلمات عمر هذه، فخرج من مخبأه، -كان خائفًا منه أولاً، فلما سمع كلمات عمر هذه، خرج من مخبئه- الذي كان قد توارى فيه، وصاح: يا عمر، والله إني

لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه صلى الله عليه وسلم، فإني سمعته بالأمس يقول: أَعِزَّ الْإِسْلَامَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ قَالَ: وَكَانَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ .

وسأله عمر من فوره: وأين أجد النبي يا خباب؟ .

فقال خباب: عند الصفا، في دار الأرقم بن أبي الأرقم .

ومضى عمر إلى النبي عليه الصلاة والسلام -والقصة معروفة- ظنه أصحاب النبي جاء ليقتل النبي، ومعه سيفه، ودخل إلى دار الأرقم))

وكانت هذه أسعد لحظات حياته .

هذه أيام الله، يوم عرفت الله، يوم عقدت الصلح معه، يوم تبت توبة نصوحاً، يوم بكيت من شدة الندم على ما مضى، يوم قرأت القرآن فانشرح صدرك، يوم دخلت المسجد فشعرت كأنك في جنة، هذه أيام الله تذكرها دائماً، يوم عدت إلى الله عوداً طيباً، وأنت في بحبوحة، وأنت في شبابك، وأنت في صحتك، هذه أيام الله .

ما سبب بكاء خباب وهو على فراش الموت، وفي أي سنة مات ؟

سيدنا خباب مرض مرَض الموت، فجاءه عوَّاده يواسونه، فبعضهم قال له:

((أبشر يا أبا عبد الله، فإنك ملاق أخوانك غداً .

فأجابهم وهو يبكي -وبعد حياة النبي عليه الصلاة والسلام، وبعد خلافة سيدنا الصديق، وسيدنا عمر، وسيدنا عثمان، ذهب إلى الكوفة، وجاءه مالٌ وفير، بنى بيتاً في الكوفة، وصار من أغنياء الصحابة، وكان في هذا الغنى كريم كرمًا شديدًا، ولكنه كأنه شعر بعد موت النبي بالتمتع بالحياة، ولكن أصحاب النبي الأوائل ما تمتعوا بالحياة، شعر بينه وبينهم بفارق كبير- فأجابهم وهو يبكي: أما إنه ليس بي جزع، ولكنكم ذكرتموني أقواماً وأخواناً، مضوا بأجورهم كلها، لم ينالوا من الدنيا شيئاً، وإنا بقينا بعدهم، حتى نلنا من الدنيا، ما لم نجد له موضعاً، إلا التراب.

-لأنه عاش بعدهم حياة مديدة، واغتنى، وبنى دار، وكان كريماً وسخياً، ومع ذلك رأى نفسه دون أصحاب النبي- وأشار إلى داره المتواضعة التي بناها، ثم أشار مرةً أخرى إلى المكان الذي فيه أمواله وقال: والله ما شددت عليها من خيط، -كان الناس يضعون الأموال بكيس وله خيط، يشنق الكيس لم يدفع شيئاً، العوام يقولون عن البخيل: شانق الكيس- فهنا جاءت في قول الصحابي الجليل: والله ما شددت عليها من خيط، ولا منعتها سائلاً .

ثم التفت إلى كفنه الذي كان قد أعد له، وكان يراه ترفاً وإسرافاً، وقال ودموعه تسيل: انظروا هذا كفني، ولكن حمزة عم النبي علي الصلاة السلام، لم يوجد له كفن يوم استشهد، إلا بردة ملحاء -بالية- إذا جعلت على رأسه، قلصت عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه، قلصت عن رأسه))

هذا عم النبي سيدنا حمزة .

ومات خباب في السنة السابعة والثلاثين للهجرة، سبعة وثلاثون عاما عاشها بعد الهجرة، مات أستاذ صناعة السيوف في الجاهلية، ومات أستاذ صناعة الفداء والتضحية والقرآن في الإسلام .

انظر إلى هذه الآيات بمن نزلت؟ :

أيها الأخوة، كفار قريش، وزعماء قريش الأغنياء المتكبِّرون، جاؤوا النبي عليه الصلاة والسلام يوماً، فقالوا: اجعل لنا يوماً نلتقي بك، ويوماً لهؤلاء أمثال خباب وصهيب وبلال، هؤلاء من دهماء الناس، صغار، عبيد، يوماً لنا، ويوماً لهم، بماذا أجاب النبي؟ هل تدرون بماذا أجاب النبي؟ ماذا طلبوا منه؟ يوما لنا ويوماً لهم، القرآن الكريم أجاب عنه، قال الله عز وجل يخاطب النبي الكريم:

(وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ * وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا)

[سورة الأنعام الآية: ٥٢-٥٤]

يعني خباب وصهيب وبلال قال تعالى:

(فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

[سورة الأنعام الآية: ٥٤]

ربنا عز وجل في عليائه، يرحب بهؤلاء الصغار؛ سيدنا خباب، سيدنا بلال، سيدنا صهيب، هؤلاء الفقراء العبيد، لأنهم:

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)

[سورة الأنعام الآية: ٥٤]

النبي الكريم عليه الصلاة والسلام بعد هذه الآية، كلما دخل عليه سيدنا خباب، وصهيب ، وبلال، كلهم عبيد فقراء، من الطبقة السفلى في المجتمع، كلما دخلوا عليه، ماذا يقول لهم؟ يقول لهم:

((أهلاً بمن أوصاني ربي بهم))

الإنسان لا يحتقر إنسان، فهذا الذي تجده على بابك واقف، أنت قد تكون بوظيفة عالية جداً، وعندك مستخدم على الباب، قد يكون أرقى عند الله منك، فمقياس القرآن مقياس التوبة، مقياس الإخلاص، مقياس الاستقامة، مقياس المحبة، مقياس الطاعة، مقياس العمل الصالح، هذا المقياس، فرب مبلغ أوعى من سامع، رُبَّ إنسان تحتقره قد يكون عند الله أعلى منك بكثير .

كلمة قالها علي بن أبي طالب تهز عرش القلب وتبكيه :

آخر الكلمات التي قيلت في هذا الصحابي الجليل: سيدنا خباب، كلمة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، حين كان عائداً من معركة صفين، فوقعت عيناه على قبرٍ غضٍ رطيب، فسأل:

((قبر من هذا؟ فقالوا: هذا قبر خباب، فتملاه خاشعاً آسياً، وقال: رحم الله خباباً، لقد أسلم راغباً، وهاجر طائعاً، وعاش مجاهدا))

يا أخوان، الدنيا ساعة، اجعلها طاعة، كله ماضٍ، كل ما تشاء، واسكن في أي بيت تشاءه، كله موقت، وكله إلى زوال، وكله إلى فناء، والذي يبقى العمل الصالح، الذي يبقى هذه المواقف المشرفة، هذه الطاعة، هذا الإخلاص، هذا الفداء، هذه التضحية، هذا البذل، هذا العطاء، هذا الذي يبقى، وما سوى ذلك فانٍ، لذلك قيل:

((الدنيا جيفة، فمن أرادها، فليصبر على مخالطة الكلاب))

الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له، الحقيقة: أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله، كل واحد يمثل نموذج بشري، كأنه في حكمة بالغة، كأن ثمة تخطيطًا دقيقًا جداً: أن الله عز وجل، اختار للنبي عليه الصلاة والسلام أصحاباً، يمثلون كل الطبقات، كل الفعاليات، كل المناشط، كل المستويات؛ كبار، وجهاء، عظام، صغار، فقراء، ضعاف، أحرار، عبيد، أغنياء، فقراء، مرضى، أصِحَّاء، أذكياء، أقل ذكاء، تجد في أصحاب النبي من كل النماذج البشرية، وكل واحد له قدوة .

فإذا كان شأن الواحدِ في المجتمع ضعيفًا، وعمله متواضعًا جداً، لا أحد يعرفه، وما ضره أنه لا أحد يعرفه، إذا كان الله يعرفه، له من هذه القصة أسوة حسنة، الناس لا قيمة لهم في هذا الموضوع، إذا كان الله يعرفك، يعرف إخلاصك، النبي الكريم كانوا إذا دخلوا عليه رحب بهم، قال:

((أهلاً بمن أوصاني بهم ربي))

فإن أكرمكم عند الله أتقاكم، فلا يهمك المرتبة الاجتماعية، تكون بعمل متواضع جداً، لا أحد يعرفك، عمل بسيط ليس له شأن إطلاقاً، ولكنك إذا كنت مستقيماً على أمر الله، لك عند الله شأن كبير، والله عز وجل لا بد من أن يرفع لك ذكرك، قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح الآية: ١-٤]

هذه من لوازم المؤمنين .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٤٠-١٠١) : باب ذكر الموت وقصر الأمل ، حديث: كن فِي الدنيا.....، وقول ابن عمر: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، صور من حياة الصحابة نستنبط منها مدى محبتهم وطاعتهم للنبي عليه الصلاة والسلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٠-٠٦-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم هذه الآيات التي بدأ بها النووي كعنوان لهذا الدرس :

أيها الأخوة المؤمنون، في رياض الصالحين، كتابنا في الحديث الشريف للإمام النووي رحمه الله تعالى، وهو من أفضل كتب الحديث، لما ينطوي عليه من أحاديث صحيحة، انتقاها ورتبها على أبواب، يمكن أن تكون هذه الأبواب موضوعات، تهم كل مسلم، في الباب الخامس والستين باب: ذكر الموت وقصر الأمل .

كلكم يعلم أن الموت حق، وأن الموت نهاية كل حيّ، لا يختلف في هذا اثنان، ولكن الشيء الذي يختلف فيه هو: أن زيداً من الناس، يستعد لهذه الساعة، وعمرو لا يستعد، أما لو سألت عمرًا: هناك موت؟ يقول لك: نعم، سوف تموت، يقول لك: نعم، فلا يختلف شخصان في العالم الإسلامي أو في بني البشر على أن الموت نهاية كل حي، ولكن الشيء الذي نختلف فيه هو: أن المؤمن يستعد لهذه الساعة، هذه الساعة أدخلها في حساباته اليومية، أدخلها في برامجه، وغير المؤمن غفل عن الموت، فلما جاء الموت، كانت هذه الساعة عصيبة عليه، قال تعالى:

(ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق الآية: ١٩-٢٢]

هل من إنسان على وجه الأرض أشد كفراً، وعناداً، وعتواً، وعلواً، وطغياناً، مِن الذي قال: أنا ربكم الأعلى؟ ومع ذلك قال: آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل، إذاً: كشفُ الغطاء لا بد منه، كل بطولتك، كل فوزك، كل نجاحك، كل فلاحك، في أن تعد نفسك للموت قبل أن يأتي الموت .

لا أريد أن تفهموا مني، أنه على الإنسان أنْ يترك عمله، فالذي يدخل الموت في حساباته اليومية؛ متفوق في عمله، متفوق في دراسته، متفوق في وظيفته، متفوق في صنعته، متفوق في تجارته، لأن طبيعة الحياة لا تتناقض مع الموت، ولكن الموت يحجزك عن معاصي الله عز وجل .

على عادة الإمام النووي رحمه الله تعالى في صدر الباب، يصدّر هذا الباب بطائفة من الآيات الكريمة، من هذه الآيات التي صدَّر الإمام النووي، فصل: ذكر الموت وقصر الأمل قوله تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

كل: تفيد الشمول، قال تعالى:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

يفهم من هذه الآية: أن الدنيا دار جزاء، قد يشجِّع الله عز وجل المؤمنين، فيثيب بعضهم في الدنيا، وقد يحذِّر الناس، فيعاقب بعض الناس في الدنيا، ليس عقاب المسيئين في الدنيا عقاباً نهائياً، وليس ثواب المؤمنين المحسنين ثواباً نهائياً، إنما ثواب المؤمنين ثوابٌ تشجيعي، وعقاب المنحرفين عقابٌ تحذيري، ولكن رصيد الحساب، وكامل الجزاء، والتوفية الكاملة، والحق الكامل، والعدل التام، والقسطاس المستقيم يوم القيامة .

لذلك: قد يموت الإنسان من دون أن يأخذ حقه الكامل، ما دام يوم القيامة يوم العدل، ويوم القسطاس، ويوم الجزاء، ويوم الدينونة، فلا بأس بذلك، قال تعالى:

(وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ)

[سورة الرعد الآية: ٤٠]

يمكن أن نتوفينك قبل أن ترى الذي نعدهم، لا مانع، لا ينبغي أن نعتقد أن الدنيا دار جزاء، الدنيا دار بلاء، والآخرة دار جزاء، ولكن هناك محسنٌ يثاب على إحسانه تشجيعاً لبقية الناس، وهناك مسيءٌ يعاقب على إساءته تحذيراً لبقية الناس، عيِّنات .

هذا كلام أسوقه لكم، لئلا يرى أحدٌ منكم إنساناً منحرفاً، كافراً، فاجراً، ويزداد قوة، ومنَعَة، وغنى، فتقول: أين العدالة؟ ولئلا ترى إنساناً مؤمناً ضعيفاً في الظل، يعاني من مشكلات، فتقول: أين العدالة؟ الدنيا دار ابتلاء، قال تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

[سورة الملك الآية: ٢]

هذا المفهوم مريح جداً، إذاً :

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

أريد أن أضيف شيئاً: البلاء لا يستمر، البلاء كالامتحان، الامتحان ثلاث ساعات، إما أن تنجح، وإما أن ترسب، فهل من المعقول أن يكون العمر كله ابتلاء؟ لا، والدليل:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ)

[سورة المائدة الآية: ١٨]

الإمام الشافعي عندما استنبط من هذه الآية: أن الله لا يعذب أحبابه، هذا لا يتناقض أن تعتقد: أن الإنسان مبتلى في الدنيا، الابتلاء موقت، الابتلاء محدود، أما حياة المؤمن فتستقر على الإكرام، ولكن لا بد من أن تبتلى؛ في مالك، في صحتك، في وقتك، في مكانتك، في حريتك، لينظر الله عز وجل كيف نعمل؟ إذاً:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

إنما تفيد القصر، أي التوفية الكاملة التامة، إحقاق الحق، أن يأخذ الإنسان حقه كاملاً، أن يعطى كل إنسانٍ ما يستحق، أن يفصل الله بين عباده، هذا يوم القيامة، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

أحياناً: الإنسان يضع مبلغ استثمار، يقبض دفعات على الحساب، نقول له: هذا المبلغ ليس هو ربحك، هذا دفعة على الحساب، قد يأخذ القليل أو الكثير، ولكن حقه محفوظ، فإذا جاء يوم الحساب، كان هذا المبلغ الكامل، إذاً هذه:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

تعني: أن الدنيا دار ابتلاء وفيها جزاء، ولكن جزاء عينات من الجزاء، فيها عقاب وفيها ثواب، العقاب تحذيري، والثواب تشجيعي، ومع ذلك المؤمن مبتلى، وحياته تستقر على الإكرام، والدليل:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي)

[سورة النور الآية: ٥٥]

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران الآية:١٨٥]

لا أعتقد أن إنسانًا على وجه الأرض، لا يتمنى أن يكون فائزاً، ناجحاً، المشكلة أن تنجح على أي مقياس، هنا المشكلة، على مقياس أهل الدنيا: الغني هو الناجح، القوي هو الناجح، صحيح الجسم هو الناجح، مَن له أولاد متفوقون نجباء هو الناجح، من له زوجة تروق له هو الناجح، من عنده مال يضفي عليه أمناً هو الناجح، هذا مقياس البشر، ولكن البطولة: أن تتعرف إلى مقياس الله عز وجل، الله عز وجل قال:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب الآية: ٧١]

الله عز وجل قال :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس الآية: ٩-١٠]

الله عز وجل قال :

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ١-٢]

مقاييس القرآن غير مقاييس الناس، قد تكون عند الناس فالحاً، ورائعاً، وذكياً، وليس عند الله كذلك، فالبطولة أن تبحث عن مقياس القرآن في التفوق .

إذاً: ما من واحد على وجه الأرض، إلا ويتمنى أن يكون فائزاً، ناجحاً، فالحاً، ولكن على أي مقياس؟ يجب أن تكون على مقياس القرآن من الناجحين، وربنا عز وجل قال:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ١]

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

[سورة الشمس الآية: ٩]

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب الآية: ٧١]

وكفاك على عدوك نصراً، أنه في معصية الله، إذاً :

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

الإنسان يقول: صدق الله العظيم، كلام رب العالمين، كلام طيب، من الأدب أن تقول: صدق الله العظيم، ولكن يا ترى ربنا عز وجل يقول:

(فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

لو كنت تعاني ضائقة مالية، وأنت في أشد الحاجة إلى المال، ولك صديق في بحبوحة كبيرة، وهو غارق في المعاصي، لو شعرت للحظة واحدة، أن هذا الصديق الذي في بحبوحة ، هنيئاً له، وأنا محروم، والله ما عرفت معنى هذه الآية، وقولك: صدق الله العظيم غير صحيح، أنت لست مصدقاً ربك في هذه الآية، ولكن هذا متى يعرف؟ عندما يلقى الإنسان ربه ، المؤمن يعرق لشدة خجله من هذا الإكرام الذي أكرمه الله به، هذه ساعة الموت، قال تعالى:

(فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ)

[سورة المدثر الآية: ٨-١٠]

هذه الآية الأولى .قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

قلت لكم البارحة، يوم الجمعة: هذا المسجد المتواضع، الأخوة الأكارم المحدودون، والله رحل من هذه المسجد عشرات، عمر التدريس والخطابة في هذا المسجد ثمانية عشر عامًا، في هذه المدة المحدودة رحل عشرات، كل شهرين أو ثلاثة، تجد أخًا يرحل، كان ملء السمع والبصر، كان معنا، في دروسنا، في مجالسنا، جلس، يستمع، يقرأ، ذهب إلى بيته، الآن تحت أطباق الثرى، هكذا الدنيا، فليست قضية تشاؤم، تذكر لنا ذكر الموت، اتركنا مسرورين، لا، ليس هذا الموت، الموت موضوعه واقعي جداً، بعد الموت أجمل مما قبل الموت، هذه الحقيقة، أريد الدليل .

الدليل: النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ، فَرِحَ بِصَوْمِهِ))

النبي لا ينطق عن الهوى، يعني ما يقول، كلمة فرح: أي فرح حقيقة، وعندنا فرحٌ: أي عرس، ونجاح، وفرح في شراء بيت، في مناسبة، في حفلة، في سهرة، عندنا مناسبة فرح، معناها لا يوجد فيها بكاء، فإذا مات إنسان مؤمن على الإيمان فرح، الموت عرس المؤمن، وهذا الذي يعد لهذه الساعة طوال عمره، إذا نجح في هذه الساعة، فهنيئاً له، قال تعالى:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ)

[سورة يس الآية: ٢٦]

تفضل، قال تعالى:

(قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي)

[سورة يس الآية: ٢٦-٢٧]

لا يتمنى المؤمن، وهو يلقى الله، إلا أن يطلع هؤلاء الذين يبكون عليه من حوله، أين هو؟ لذلك ورد في بعض الأحاديث الصحيحة:

((إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح والنسائي في سننه]

في ظاهر هذا الحديث تناقض مع آية كريمة، ربنا عز وجل يقول:

(وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)

[سورة الأنعام الآية: ١٦٤]

ما علاقة الميت؟ ما ذنبه أن يعذب ببكاء أهله عليه؟ ولكن بعض علماء الحديث، فسروا هذا الحديث، ووجهوه توجيهاً رائعاً، قال: لا أحد يعذب المؤمن، إذا بكى أهله عليه، ولكن هو يتألم، هو

يرى أنه في أعلى درجات النعيم، وهم يندبون حظهم لفقده، هو يعذَّب لعذابهم، لذلك من السنة: الإنسان إذا حزن، مسموح لك أن يحزن القلب، وأن تدمع العين .

شيء آخر: ممنوع، شيء آخر: معصية كبيرة، هذا الذي يمزق ثيابه، وهذا الذي يلطم جبينه، أو يلطم صدره، وهذا الذي يشد شعره، وهذه التي تقول: أن الجسر هد في البيت، هذا الكلام كله كلام غير إسلامي، كله كلام غير صحيح، كلام فيه اعتراض على قضاء الله وقدره ، كلام فيه شرك .

((إن العين لتدمع، والقلب ليحزن -فقط، هذا مسموح، هذا من طبيعة البشر- ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون))

والأحاديث والقصص كثيرة جداً، ولا أعتقد أن أكثر من مائة وخمسين صحابي، في كل سير هؤلاء الصحابة، قاسم واحد مشترك: أنهم جميعاً كانت أجمل لحظات حياتهم، حينما لقوا ربهم .
سعد بن الربيع، هذه القصة أعيدها كثيراً، لأنها مؤثرة، هذا الصحابي الجليل الذي افتقده النبي عليه الصلاة والسلام بعد إحدى المعارك، فسأل عنه، لا أحد يعلم عنه شيئاً، كلف صحابي آخر، يتفقده بساحة المعركة، فانطلق إلى ساحة المعركة، فإذا هو في حالة النزع، فقال له:

((يا سعد، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أتفقدك، أأنت في الأحياء أم في الأموات؟.
قال: في الأموات -في النزع الأخير- ولكن أبلغ رسول الله مني السلام .
-أنا سألت أحد أصدقائي الأطباء، عن حالات الإنسان عندما يموت، قال لي طيار: كنا في طائرة فوق مدينة أوروبية، والطائرة دخلت بسحابة مكهربة، وحدث فيها خلل كبير في أجهزتها، وتحطم زجاجها، وجهاز الرادار تحطم، وكان الموت محققاً، فقال لي: ما من واحد رأى الطائرة بعد هبوطها، وإلا وعجب من سلامتها! قال: لو رأيت منظر الركاب، وقد أيقنوا أن الطائرة على وشك السقوط؛ هذا يرفع صوته، وهذا يصرخ، وهذا يضرب نفسه، وهذا يقول: يا زوجتي، يا أولادي، والطيار مضطر أن يبلغهم شيئاً، موضوع الأحزمة وتدابير السلامة، ما من إنسان يفهم منه كلمة، لا يوجد راكب يسمع منه كلمة، حالة هياج منقطعة النظير، إلى أن وجدوا راكبًا من الركاب، ناسبَ أن يبلّغ الركاب، يجلس هادئاً، توجهوا إليه، فإذا هو مغمى عليه، هذا الوحيد .
فكيف قال له وعلى وشك الموت-: أبلغ رسول الله مني السلام، وقل له: جزاك عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وقل لأصحابه: لا عذر لكم عند الله، إذا خُلِص إلى نبيكم، وفيكم عين تطرف؟))
يبدو أن هذا الصحابي كان في أعلى درجات السعادة، فبطولتك تظهر عند الموت، حينما يغادر الإنسان الدنيا بكاملها، كل شيء جمعه في الحياة، يفقده في طرفة عين، لذلك :

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

الدنيا تضر، وتغر، وتمر، ممكن تفكر بالموت تفكير جدي، وتكون بالدنيا متفوق، لأنك تسير على أصول، على منهج، على مجموعة قيم؛ تأكل، وتشرب، وتلبس، وتجلس مع أهلك، وتعمل في معملك، في متجرك، في وظيفتك، في دراستك، في قاعة تدريسك، في قوس المحكمة، في عيادتك، ليس معنى هذا: أن الإنسان حينما يدخل الموت في حساباته، يصاب بالسوداوية، أنت متفائل، لكن أجمل فكرة سمعتها: أن خط بياني صاعد صعود مستمر، والموت نقطة على هذا الخط الصاعد، عملية تحول بسيط من وضع إلى وضع، ثياب خلعتها، قال تعالى:

(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٥]

الآية الثانية في هذا الباب الذي عقده الإمام النووي عن الموت، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[سورة المنافقون الآية: ٩]

هل نحن نصدق كلام الله عز وجل؟:

(وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[سورة المنافقون الآية: ٩]

دائماً عندك مقياس، هذا مقياس مهم جداً، أنت كائن تتحرك، الإنسان ديناميكي متحرك، يخرج من بيته لعمل، لكسب مال، لإنفاق مال، لعقد مال، لشراء، لنزهة، لتجارة، لأداء عمل معين، لزيارة صديق، في حركة، هذه الحركة، هذه كلمة واسعة جداً، أنت متحرك ، إلى النزهة حركة، إلى عملك حركة، إلى التعزية حركة، إلى التهنئة حركة، إلى قضاء ساعة من ساعات اللهو حركة، أنت متحرك، كل حركاتك وسكناتك قسها بمقياس واحد، العمل الذي له تأثير، أو يستمر أثره إلى ما بعد الموت، هذا عمل جيد، افعله وأكثر منه، والعمل الذي ينقطع أثره بعد الموت، هذا عمل فيه خسارة، ابتعد عنه، هذا المقياس، قال تعالى:

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)

[سورة الكهف الآية: ٤٦]

إذاً :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[سورة المنافقون الآية: ٩]

خاسر، لأن الإنسان مجموعة أيام، فإذا استهلك أيامه .

كنت أضرب مثل دائماً: الذي ينفق المئات، يلقيها في الطريق، يلقى عليها الحجز، أو الحجر، عندنا حجر صحي، وحجر عقلي، هذا إنسان سفيه، فكل إنسان ينفق ماله جزافاً، هذا يعد في الشرع سفيهاً، والسفيه يمنع من التصرُّف في أمواله، لكن ما دام الإنسان يدفع كل ماله، من أجل الحفاظ على حياته، أيهما أغلى؟ الحياة، الإنسان يدفع كل أملاكه، يبيع بيته، ويجري عملية جراحية خارج البلد مثلاً، حياته أغلى من ماله، لكن إذا كان إنفاق المال جزافاً، يعد صاحبه سفيهاً، فما قولكم بإنفاق الوقت جزافاً؟ هذا أشد سفاهة، أشد خسراناً، أشد غبناً، أشد انحرافاً، فلذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ)

[سورة المنافقون الآية: ٩-١٠]

أيضاً عز وجل رحيم، لم يقل: أنفقوا ما رزقناكم، قال: أنفقوا مما، هذه مِن للتبعيض، قال تعالى:

(وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ)

[سورة المنافقون الآية: ١٠]

بماذا جاء الجواب؟ قال تعالى:

(وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

[سورة المنافقون الآية: ١١]

فهذه ساعة الموت طريق مسدود، تندم بهذه الساعة ندم، ليس له معنى إطلاقاً، كما قلنا لكم سابقاً: الإنسان عندما يرتكب جريمة، ويحكم عليه بالإعدام، عند تنفيذ حكم الإعدام، يحب أن يبكي، يضحك، يرجو، يتجلد، ينهار، كله مثل بعضه، أي موقف يقفه لا يؤثر في تنفيذ الحكم، والإنسان عند الموت، قال تعالى:

(وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآَنَ)

[سورة النساء الآية:١٨]

وفرعون قال له ربه :

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ)

[سورة يونس الآية: ٩١]

إذاً: البطولة قبل فوات الأوان .

إليكم شرح هذا الحديث، ويليه هذا القول :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

((أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ))

[أخرجه البخاري في الصحيح والترمذي في سننه عن عبد الله بن عمر]

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ:

((إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح والترمذي في سننه عن عبد الله بن عمر]

الغريب يكتفي بحاجات محدودة، الغريب إنسان مسافر إلى بلد، نزل في فندق، لو كان لون الستارة غير مناسب مع لون الفرش لا يتأثر، هو مسافر، ليلة واحدة تمضى، شعور الغريب شعور مسعد، لا أحد يغضبه، البلد ليس بلده، والبيت ليس بيته، ويهمه من هذا البلد ومن هذا البيت بُلغته فقط، ما يحتاجه، إذا سافر الإنسان ينقل معه حاجات محدودة بقدر سفره ، ولكن بماذا يعتني؟ ببيته، بمركز إقامته الدائم، فإذا اعتبر الإنسان نفسه في الدنيا مسافرًا أو غريبًا، تحل كل مشاكله، إذا اعتبر الدنيا مديدة، وهي كل شيء، تنشأ مشكلات له، لا يعلمها إلا الله، لذلك الموت يذيب المشكلات، والنبي عليه الصلاة والسلام مثلما علمنا، كل يوم نفكر دقائق في الموت، حتى المشكلات الضاغطة من أجل أن تذوب، من أجل أن تصغر، هذا حديث لطيف وقصير .

قال له:

((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ))

يا مسافر، يا غريب، يا غريب مسافر، لا يعنيك إلا الأشياء الدقيقة التي جئت من أجلها، إذا واحد سافر لبلد من أجل يعقد صفقة .

لو فرضنا تاجرا، ذهب إلى بلد أجنبي، حتى يشتري صفقة، إذا كان يعلق على هذه الصفقة آمالا كبيرة جداً، وفي بلده ينتظرون هذه البضاعة على أحر من الجمر، له في هذا البلد هدف واحد، هدف واحد ليس له ثان: أن يوفق في شراء هذه الصفقة، لمجرد أن يتفق على البضاعة والنوعية والسعر، يعطي تعليمات الشحن، يقطع تذكرة للرجعة مع تأكيد الحجز ، كل حاجاته في هذا البلد عقد هذه الصفقة .

وهكذا النبي الكريم:

((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ))

أما إذا كان هدف الإنسان آخر في السفر، يريد أن يستقر، يشتري بيتًا، ويرى الأماكن الجميلة والمقاصف، إذا كان لك هدف واحد، هناك آية تؤكد هذا المعنى، قال ربنا عز وجل:

(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

[سورة القصص الآية: ٧٧]

فلو سألت معظم الناس حولك عن هذه الآية، يقولون: الإنسان له أن يستمتع في الدنيا، والله عز وجل سمح له، مع أن المعنى السياقي يقول :

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

[سورة القصص الآية: ٧٧]

على بعض أقوال المفسرين، وليسوا كلهم: أنك جئت للدنيا لمهمة، لك منها نصيب هو العمل الصالح ومعرفة الله عز وجل، إياك أن تنسى هذا النصيب من الدنيا، نقول لطالب ذهب إلى الدراسة بفرنسا: إياك أن تنسى الدراسة، أنت الآن بهذا البلد لمهمة واحدة وهي الدراسة، ولا تنس المهمة الأولى التي من أجلها، ذهبت إلى هذا البلد، قال تعالى:

(وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا)

[سورة القصص الآية: ٧٧]

ما هو النصيب؟ قال تعالى:

(وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)

[سورة القصص الآية: ٧٧]

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ)

[سورة القصص الآية: ٧٧]

كله، ابتغ فيما أتاك الله من مال، أو من صحة، أو من قوة، أو من شباب، أو من وجاهة، أو من شأن، أو من خبرة، قال تعالى:

(وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ)

[سورة القصص الآية: ٧٧]

هذا الحديث الأول:

((كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ))

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ:

((إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح والترمذي في سننه عن عبد الله بن عمر]

معنى دقيق، أنت الآن صحيح، فاقرأ القرآن، تعلم العلم الشرعي، جاهد في سبيل الله، جاهد نفسك وهواك، ازدد معرفة بالله عز وجل، اعمل أعمالا صالحة، لأنه لو جاء المرض وقف عملك الصالح، خذ من صحتك لمرضك .

فالناس في الدنيا يقول لك: أنا الآن شاب، يجب أن أكسب أكبر مبلغ من المال حتى لما أكبر أصرف منه، هذا المعنى الشائع بين الناس، الإنسان في أول حياته، يعمل بطاقة كبيرة جداً، ليؤمن مستقبل حياته، هذا المعنى المادي.

أما المعنى الآخر: خذ من صحتك لمرضك .

وأنت صحيح، بإمكانك أن تصلي، وأن تصلي قيام الليل، وأن تقرأ القرآن، وأن تحفظ القرآن، وأن تحضر مجالس العلم، وأن تخدم الناس، وأن تتقرب إلى الله وأنت صحيح، لا توجد مشكلة، لا يوجد هم، فإذا جاء خريف العمر، والخريف فيه مشكلات، مقلقات، تراجع بالصحة، قلق بالحياة، تأتي هذه الذخيرة من المعرفة والعمل الصالح، تغطي لك هذه الفترة المتأخرة من حياتك، ومع ذلك في بشارة من رسول الله عليه الصلاة والسلام :

((من تعلم القرآن متعه الله حتى يموت))

حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر، والدعاء النبوي الشهير:

((ومتعنا اللهم بأسماعنا، وأبصارها، وقوتنا، ما أحييتنا، واجعله الوارث منا))

الملاحظ: أن الصالحين الله عز وجل يكرمهم حتى في صحتهم، وحتى في نشاطهم، وحتى في حيويَّتهم، والحقيقة: أن الإنسان نفسه لا تشيخ، يشيخ جسمه، لأن المؤمن له سبب، غير المؤمن أهدافه محدودة، أهدافه مادية، فإذا بلغها انتهت أهدافه، تصبح حياته مملة .

الآن: انظر للشاب في أول حياته، تجده مملوءًا بالأحلام، يقول لك: سن الأحلام، يحلم ببيت معين، بزوجة معينة، بعمل معين، بوظيفة راقية، بتجارة رائجة، هكذا سيربي أولاده، كل حياة الشاب أحلام، فإذا تزوَّج تحددت؛ هذه زوجته، لم يعد في أحلام، انتهت الأحلام، عمله تحدد، بيته تحدد، كل أحلامه تحددت، لا أقول: تلاشت، بل تحددت، إذا كان يرغب بالمال جاءه المال، شبع من المال، أكل ما يشتهي، شرب ما يشتهي، سافر إلى أي مكان يشتهيه، انتهت الأمور، لذلك حياة غير المؤمن حياة مملة، يصير ساخرًا .

طبيب مشهور جداً، دخله كبير، أكثر كلامه سخرية مع المرضى، من ملله، عنده كل يوم من دخله عشرة آلاف مثلا، لا توجد عنده مشكلة، لكن المشكلة لا يوجد عنده هدف، بلا هدف الحياة مملة .

أما من أين تأتي سعادة المؤمن؟ هدفه الله عز وجل، والله لا نهائي، الهدف المادي محدود، هدفك المال، المال بلغته، هدفك المنصب، وصلت له، هدفك الأولاد، هؤلاء الأولاد، هذه زوجته.

واحد مرة كان بخريف عمره، قال له: مليت من سويسرا، من أمريكا، رحت لهنا ، رحت للصين، لليابان، كله مليت من العالم، يمكن إذا واحد ما رأى بلد بالعالم، وسيسافر سفرة بعيدة، لا ينام ليلته من فرحه، أما هذا سافر إلى أن مل، كل شيء يمل .

بالمناسبة: كل شيء ما سوى الله يمل، البيت الفخم، مَن الذي يعجب به؟ الزائر فقط، أما صاحب البيت، مستهلك البيت على اتساعه، وفخامته، وتزييناته، المنصب الراقي من يعجب به؟ المراجع فقط، مكتب فخم، ثمانية تلفونات، تزيينات رائعة، حجَّاب، أما هو المنصب يصير شيئًا مألوفاً بعد زمن، كل ما سوى الله يمل .

بالأدق من ذلك؛ لا يمكن أن يعطيك شيء مما سوى الله سعادة مستمرة، لكن المؤمن ما دام هدفه الله عز وجل، والله لا نهائي، مهما سعيت في معرفة الله، فالله أعظم، لهذا أقول، وهذا كلام قطعي: حياة المؤمن في شباب دائم، مهما قرأت هذا القرآن، فهناك معان غابت عنك، فأنت معه في حياة، في تجدد، مهما فهمت حديث رسول الله، هناك أحاديث لم تفهمها بعد، وهناك معان دقيقة في أحاديثه لم تفهمها، فأنت مع الحديث في تجدد دائم، صليت صلاة راقية جداً، شيء مضحك أن تقول: هذه أرقى صلاة صليتها، الله عز وجل لا يوجد نهاية لمعرفته، الإيمان له بداية وليس له نهاية، هذا سر شباب المؤمن الدائم، المؤمن شاب، بالسبعين شاب، بالثمانين شاب .

والقصة التي أذكرها دائماً والمشهورة: هذا الرجل من علماء دمشق رحمه الله تعالى، توفي عمره سبع وتسعون سنة، بدأ بالتعليم سبعة عشر عام، أي أنه علَّم ثمانين سنة، كان إذا رأى الشاب يقول له: أنت يا بني كنت تلميذي، وكان أبوك تلميذي، وكان جدك تلميذي، علَّم ثلاثة أجيال، وأخبرنا عنه، أن صحته تامة، سمعه مرهف، بصره حاد، أسنانه صحيحة، قامته منتصبة، لا يشكو شيئًا، وله كلمة شهيرة: يا بني حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر .

والله زرت في العيد شخصًا من الصالحين، قال لي: أنا في حياتي، لم آكل قرشًا حرامًا، ولم أفعل الحرام، زرته كان عمره اثنتين وتسعين سنة، قال لي: عملنا تحاليل كاملة، لا يوجد شيء إطلاقاً .

كأنه في قانون:

((حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر))

((من عاش تقياً عاش قوياً))

((من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

فالمؤمن في شباب دائم، غير المؤمن ما دامت أهداف الإنسان مادية، فإذا بلغتها انتهت سعادتك، انتهت كل سعادتك، وإن أردت فاسأل، وعاين، وتأمل، ودقق .

انظر لأهل الدنيا، الذين حصلوا كل ما فيها، أنا واثق مما أقول، لو سألت أغنى أغنياء العالم يقول لك: أنا أشقى إنسان، لماذا أشقى إنسان، ولا توجد عندك مشكلة؟ انقباض؟ والدليل:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

[سورة طه الآية: ١٢٤]

هذه الآية، الآن على الأرض خمسة آلاف مليون إنسان أو أكثر، إذا كان هناك إنسان واحد على وجه الأرض، أعرض عن الله، وهو سعيد، هذا القرآن يكون غلطًا، مستحيل أن يكون الإنسان معرضًا، ويكون سعيدًا، ومستحيل لإنسان مستقيم، أن يكون شقيًّا، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل الآية: ٩٧]

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

[سورة طه الآية: ١٢٤]

في بعض التفاسير، سئل أحد العلماء: فما بال الأغنياء والملوك، لا يوجد عندهم مشكلة؟! فقال: ضيق القلب، انقباض، لا يوجد سرور، لا يوجد انشراح، كل شيء موجود، لكن لا يوجد سرور .

مرة دخلت بيتا بالجادة الخمسة عشرة، الأرض عدسة، الفرش بساط مقطَّع، غرفتين، صاحب البيت مؤمن، موظف وظيفة متواضعة جداً، في نظافة بالبيت، شهد الله شعرت بسعادة وانشراح .

أقول لكم: الفرش بساط بسيط، وضعه بالديار، جلسنا عليه، عمل لنا كأس شاي، والبيت عدسة، والجادة رقم خمسة عشرة، أنا شعرت بسرور عجيب؛ هذا البيت فيه روحانية، فيه مودة، فيه شعور بالسرور، وتدخل بيتًا ثمنه خمسون مليونا، فيه أثاث بعشرة ملايين، وبلاطه مستورد من إيطاليا، فيه انقباض .

موضوع الانقباض والانشراح شيء يحير، الله عز وجل يعطي ويحرم السعادة، ويمنع ويعطي السعادة، لا تعرف .

النبي الكريم هو أسعدنا، ألا نقول: بالصلاة على النبي، وعلى أسعدنا محمد عليه الصلاة والسلام؟.

مرة قرأت كلمة: إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين، لما يخرج الإنسان من ذاته لإسعاد الآخرين فهو أسعدهم، طريق الإيمان مُسْعِد، أنت ممن تعرف نفسك، اجلس مع المعرضين، إذا كان لك أصدقاء قدامى معرضين شاردين، اجلس معهم، انظر لمستوى كلامهم ، انظر إلى عقليتهم، انظر طموحاتهم كلها أرضية، انظر لأخلاقهم، انظر لمزاحهم، لا تعرف حالك، لا تعرف رقيك، نظافتك، مستواك، سموك، إلا إذا جلست مع أهل الدنيا، إذا واحد أنيق ، نظيف، معطر، جلس مع واحد ثيابه قذرة، ورائحته قذرة، وهيئته رثة، يتضايق الناس منه، هذا بالنواحي المادية، فكيف بالنواحي المعنوية؟ مزحة جنسية، تشعر نفسك كأنك مع ميت القلب، ما هذا؟! تشعر بسموك، تشعرك بنظافتك.

فلذلك: لكي يعرف الإنسان قيمة إيمانه، فالإنسان مثل عقرب الساعة يبدو واقفًا، الشمس تبدو واقفة، لكن تشاغل عنها خمس دقائق، تجدها قد أفلتت، إذا كنت داخل غرفة في الشتاء، تشاغل عنها

خمس دقائق، تجدها قد أفلتت، قطعت عشرة سنتيمترات، المؤمن كذلك يبدو أنه هوَ هو، لكن من أين تعرف نفسك؟ من أقرانك، من أترابك، اجلس معهم بعد سنة، أنت غير مستوى صرت، لك أهدف نبيلة، أهداف عليا، لك طموحات عند الله عز وجل، عندك انضباط شديد، لسانك مهذب، أخلاقك رضية، عندك رحمة، ليس عندك سخرية للناس، ولا سوء أدب معهم، فهذا الإيمان طريق ثمين جداً، فإذا سار الإنسان في هذا الطريق فليهنأ به .

إذاً:

((وَخُذْ مِنْ صَحَّتِك لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ))

لأن رأس مالنا حياتنا، ما دمنا أحياء، وأدق من ذلك: ما دام القلب ينبض فأنت بخير، الباب مفتوح، الصلح مع الله ممكن، التوبة ممكنة، إصلاح الماضي ممكن، الرُقِيّ ممكن، ما دام القلب ينبض، رأس مالك حياتك، ما دمت حيًّا فأنت بخير، فالإنسان يستغل حياته، يذهب الصيف، يأتي الشتاء، ثم الربيع، ثم الخريف، والله فتحنا هذا المحل من عشر سنوات، هذه السنوات كيف مضت: في طاعة أم في معصية؟ في يقظة أم في غفلة؟ في ذكر أم في سهو؟ في حب أم في جفاء؟ .

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ:

((إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح والترمذي في سننه عن عبد الله بن عمر]

إن شاء الله في درس قادم، نتابع هذا الباب، حيث بقيت مجموعة أحاديث مهمة جداً نتابعها في الدرس القادم، لكن أتمنى ألا يقول أحد: الأستاذ تكلم عن الموت، نحن الآن لا نريد أن نعكر حالنا، الموت ليس تعكيرًا، الموت عرس، مثل ما قلت لكم: للصائم فرحتان؛ فرحة عند إفطاره، وفرحة عند لقاء ربه .

والموت يضبط أعمالك، يجعل لك هدفًا واضحًا، وهذا شيء حق وواقعي، فلا يوجد موضوع أكثر واقعية من الموت، لأنه الرحيل مستمر .

سألت أحد الأشخاص، لهم عمل في دفن الموتى: كم حالات الموت بالشام؟ أنا بحسب تقديراتي خمسة أو عشرة أموات، قال لي: في دمشق أربعون ميتا، أو خمسون، في رمضان في موسم، يموتون بالمئة خمسون، الناس في رحيل مستمر .

وأنا هذه الكلمة أقولها على المنبر دائماً: واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا.

نذهب إلى التعزية، مات فلان نعزيه، مات فلان نعزيه، في يوم واحد الناس يعزونه، التعزي باستمرار، كل يوم تعزية، فلان رحمة الله عليه، مات، كم عمره؟ دائماً هناك استفهام، لكن في مرة واحدة الناس سيستفهمون عنك: كم عمرك يوم مت؟ هذا حق .

فالإنسان يستعد لهذه اللحظة، والاستعداد ليس صعبًا، تعامل مع الله واضح جداً، الأمور واضحة، هذا شرعه، هذا كتابه، لا يوجد ضبابيات، القضية مزاجية، لا، الأمر واضح، قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

[سورة النحل الآية: ٩٧]

الجوارح تضبطها، الدخل تضبطه، الإنفاق تضبطه، اللسان تضبطه، تتعلم أمر دينك، تصلي صلاة متقنة، تذكر الله عز وجل، تفكر بالكون، ترقى، تسعد .

ما وراء هذه القصص :

الآن: بقي علينا فقرة قصيرة في الدرس، نحن يوم الجمعة في الخطبة، تحدثنا عن حب أصحاب النبي عليهم رضوان الله لرسول الله، تمنيت أن أضيف إلى هذه القصص، بعض القصص الرائعة، عن حب أصحاب النبي عليهم رضوان الله .

رجل من أصحاب رسول الله، يرى النبي عليه الصلاة والسلام بيده خاتماً من ذهب، بالمناسبة خاتم الذهب الأبيض لا يجوز، أنت مسلم، الذهب حرام، الآن هناك شيء اسمه ذهب أبيض، لكن هذا ذهب، هذا ذهب، الجائز للرجال الفضة .

فالنبي رأى في يد رجل خاتمًا من ذهب، فينزعه النبي، ويطرحه في الأرض، فلا يتبرم الرجل، ولا يشمئز، بل ينشرح صدره، ويسر بذلك .

حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ سَهْلٍ التَّمِيمِيُّ، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي مَرْيَمَ، أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، أَخْبَرَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ عُقْبَةَ، عَنْ كُرَيْبٍ مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رَأَى خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ، فِي يَدِ رَجُلٍ، فَنَزَعَهُ فَطَرَحَهُ، وَقَالَ: يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ، فَيَجْعَلُهَا فِي يَدِهِ، فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خُذْ خَاتِمَكَ انْتَفِعْ بِهِ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا آخُذُهُ أَبَدًا، وَقَدْ طَرَحَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

والذهب ثمين، على طول هو ثمين، ليس عندنا في هذا الوقت، بل في كل العصور هو ثمين، قال:

((والله لا آخذه بعد أن طرحه رسول الله))

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ:

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَزَلَ عَلَيْهِ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السُّفْلِ، وَأَبُو أَيُّوبَ فِي الْعِلْوِ، قَالَ: فَانْتَبَهَ أَبُو أَيُّوبَ لَيْلَةً، فَقَالَ: نَمْشِي فَوْقَ رَأْسِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ، فَتَنَحَّوْا فَبَاتُوا فِي جَانِبٍ، ثُمَّ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: السُّفْلُ أَرْفَقُ، فَقَالَ: لَا أَعْلُو سَقِيفَةً أَنْتَ تَحْتَهَا، فَتَحَوَّلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعُلُوِّ، وَأَبُو أَيُّوبَ فِي السُّفْلِ، فَكَانَ يَصْنَعُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَعَامًا، فَإِذَا جِيءَ بِهِ إِلَيْهِ، سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِهِ، فَيَتَتَبَّعُ مَوْضِعَ أَصَابِعِهِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا فِيهِ ثُومٌ، فَلَمَّا رُدَّ إِلَيْهِ، سَأَلَ عَنْ مَوْضِعِ أَصَابِعِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقِيلَ لَهُ: لَمْ يَأْكُلْ، فَفَزِعَ وَصَعِدَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَحَرَامٌ هُوَ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا، وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ، قَالَ: فَإِنِّي أَكْرَهُ مَا تَكْرَهُ أَوْ مَا كَرِهْتَ، قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُؤْتَى))

وفي رواية أحمد عَنْ أَبِي أَيُّوبَ:

((أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَزَلَ فِي بَيْتِنَا الْأَسْفَلِ، وَكُنْتُ فِي الْغُرْفَةِ، فَأُهْرِيقَ مَاءٌ فِي الْغُرْفَةِ، فَقُمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ بِقَطِيفَةٍ لَنَا، نَتْبَعُ الْمَاءَ شَفَقَةً، يَخْلُصُ الْمَاءُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَنَزَلْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا مُشْفِقٌ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ نَكُونَ فَوْقَكَ، انْتَقِلْ إِلَى الْغُرْفَةِ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَتَاعِهِ، فَنُقِلَ وَمَتَاعُهُ قَلِيلٌ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كُنْتَ تُرْسِلُ إِلَيَّ بِالطَّعَامِ فَأَنْظُرُ، فَإِذَا رَأَيْتُ أَثَرَ أَصَابِعِكَ، وَضَعْتُ يَدِي فِيهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ هَذَا الطَّعَامُ، الَّذِي أَرْسَلْتَ بِهِ إِلَيَّ، فَنَظَرْتُ فِيهِ، فَلَمْ أَرَ فِيهِ أَثَرَ أَصَابِعِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَجَلْ إِنَّ فِيهِ بَصَلًا، فَكَرِهْتُ أَنْ آكُلَهُ، مِنْ أَجْلِ الْمَلَكِ الَّذِي يَأْتِينِي، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَكُلُوهُ))

رسول الله مضياف، وأصحابه يدخلون إلى عنده، فوق صعب، إنه أرفق بنا أن نكون في الأسفل، لما يغشانا من الناس، فقبل سيدنا أبو أيوب الأنصاري، قال:

((فلقد رأيتني ليلة، وقد انكسرت جرةٌ -بالغرفة التي فوقنا، لم يكن إسمنت، وبلاط، تراب، وجرة انكسرت بالغرفة العلوية، وحتماً الماء سوف يسقط على النبي- لنا فيها ماء، فأهرق ماؤها، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا -لحاف- ليس لنا لحاف غيره، ننشف به الماء، فرقاً -خوفاً- من أن يصل إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وكنا نصنع طعاماً، فإذا رد ما بقي منه، تيممنا موضع أصابعه - نصنع له طعاماً، ونقدمه له، وإذا بقي شيء من الطعام، نتيمن موضع أصابعه- فنأكل منه، نريد البركة، فرد علينا عشاؤه ليلة، -لقد قدمنا العشاء فرده-، وكنا جعلنا فيه ثوماً أو بصلاً، فلم نر فيه أثر أصابعه، فذكرت له الذي كنا نصنع، والذي رأيناه من رد الطعام، ولم يأكل منه شيئاً، فقال عليه الصلاة والسلام: إن وجد فيه ريح هذه الشجرة -طبعاً: ليس من المحرم علينا أن نأكله، ولكن النبي له خصوصيات، نحن مكروه أن نأكله في أيام الجُمع، عندك مجلس علم ، عندك خطبة جمعة، أما في الأيام العادية موضوع ثان- وأنا رجل أناجي ربي، فلم أحب أن يوجد مني ريحه، فأما أنتم فكلوه))

أما أنا فرجل أناجي ربي، ما أحب النبي عليه الصلاة والسلام أن يأكل طعاماً فيه هذه الرائحة، هذا موقف ثان من مواقف أصحاب النبي عليهم رضوان الله .

موقف ثالث أعلق عليه أهمية كبرى: أسند ابن إسحاق، عن عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما، أن سعد بن معاذ رضي الله عنه، قال في غزوة بدر:

((يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه -إذا زار الإنسان موقعة بدر، في الحجاز، هناك موضع العريش، بنيت له غرفة صغيرة لرسول الله، قاد المعركة منها- ونعد عنده ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله، وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمَن وراءنا من قومنا؟ -هذا شيء معروف بالموقعة، أما موطن الشاهد:- فقد تخلف عنك أقوامٌ، ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً، ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك))

فأثنى عليه رسول الله، أنا أعجبني في هذه القصة، موقف هذا الصحابي من أخوانه، من زملائه، فالإنسان ليس له حق يتكلم على أخوانه، ليس له حق يتهم أخوانه بالتقصير .

قال له:

((يا رسول الله، لقد تخلف عنك أقوام، ما نحن بأشد حباً لك منهم، يحبونك كما نحبك، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً، ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك، ويجاهدون معك))

فأثنى عليه رسول الله، كأنه ربنا يحبنا أن نكون متعاونين، يثني بعضنا على بعض، نحسن الظن ببعضنا، لا نسيء الظن، إنسان مستقيم مؤمن، قال له: أنت لم تفهم شيء عن شيء، لا تتهم إنسان من دون بينة، إذا في بينة، تكلم بالبينة، وعند الضرورة .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٤١-١٠١) : باب فضل قراءة القرآن ، أحاديث شتى من ضمن هذا الباب، سيرة أسيد بن حضير، مع قصة إسلام سعد بن معاذ

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٠-٠٦-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم هذه الأحاديث التي وردت بشأن فضل قراءة القرآن :

١-إن الله يرفع بهذا الكتاب......:

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا في كتاب رياض الصالحين، واليوم في الباب الذي عنوانه: فضل قراءة القرآن . قَالَ عُمَرُ:

((أما إنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ))

[أخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب في الصحيح]

معنى ذلك كما قلت في الدرس الماضي، يوم الجمعة: أن هناك مصادر عدَّة للمعرفة؛ منها الكون، ومنها الحوادث، لكن القرآن معرفةٌ شاملة، القرآن بيانٌ إلهي، فيه آياتٌ كونية، وفيه مشاهد ليوم القيامة، وفيه وعدٌ ووعيد، وفيه تبشيرٌ وإنذار، وفيه حِكَم، وفيه قصص، وفيه أمثال، وفيه أخبار، وفيه مُغَيَّبات، وفيه أحكام، إذاً: بيان إلهي، الله عزَّ وجل قال:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)

[سورة المائدة الآية: ٣]

الذي يكملك أيها الإنسان هو كلام الله عزَّ وجل، أنت مخلوق في أعلى درجات التعقيد؛ نوازع، دوافع، شهوات، ميول، إدراك، طموحات، فطرة، صبغة، كائن من أعقد الكائنات، لا تعقيد عجز بل تعقيد إبداع.

قد تجد طاولة في بيتك، هذه الطاولة غير معقدة، لوحٌ من الخشب، وأربع قوائم، لكن قد تفتح جهاز حاسب إلكتروني، تجد فيه العجب العجائب، تقول: يا أخي شيءٌ معقد، هل تعني بالتعقيد أن الشيء ضعيف؟ لا، بل تعني بالتعقيد شيء عظيم، ترى آلاف الصمامات، التفصيلات، المؤشرات، العدادات، الضوابط، تشعر بصداع في الرأس من شدة التعقيد، تقول: يا أخي شيء معقد، وتعني بالتعقيد أنه شيء عظيم .

وأنت أيها الإنسان من أعقد المخلوقات في الكون، أنت الإنسان المخلوق المكرم، ولأنك مكرم تحتاج إلى تعليمات، تحتاج إلى منهج، إلى دستور؛ افعل ولا تفعل، لا تنس أيها الأخ الكريم قوله تعالى:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء الآية: ٩]

إعجاز القرآن في إيجازه، قال تعالى:

(لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء الآية: ٩]

أقوم في أي شيء؟ في كل شيء، إذا طبَّقت آيات القرآن المتعلقة في الصحة، تهتدي إلى صحةٍ طيبة طوال حياتك، قال تعالى:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا)

[سورة الأعراف الآية: ٣١]

إذا اهتديت وطبقت آيات القرآن الكريم في شأن الزواج، قال تعالى:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً)

[سورة النساء الآية: ١٩]

آياتٌ كثيرة في الزواج، في الأولاد، في التربية، في التجارة، في البيع، في الشراء، لو طبَّقت آيات القرآن الكريم في كل شؤون حياتك، لهداك القرآن إلى الحالة المثلى، إلى التي هي أقوم، قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

[سورة الإسراء الآية: ١٩]

أقول لكم دائماً: ربما كانت التعليمات أهم من الآلة، ما الذي يؤكد هذا؟ الآلة المعقدة إن استخدمتها من دون تعليمات خرَّبتها، وإن خفت عليها من العطب، وليس معك التعليمات، وجمَّدت الآلة، خسرتها، إذاً: التعليمات أخطر من الآلة، ما الذي يؤكد ذلك؟ قول الله عزَّ وجل:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآَنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ)

[سورة الرحمن الآية: ١-٣]

لماذا قُدَّم تعليم القرآن على خلق الإنسان؟ لأن التعليمات التي جاءت في هذا القرآن الكريم من الخطورة حيث قدِّمتْ على وجود الإنسان، فوجود الإنسان من دون هذه التعليمات، وهذه التوجيهات، وهذا المنهج، وجودٌ عابث لا قيمة له، ما قيمة الإنسان وهو كالشاة العائرة بين الأغنام؟ ما قيمة الإنسان وهو كالناقة الحرون؟ ما قيمة الإنسان وهو كالتي تَخْبِط خبط عشواء؟ راقب الناس، راقب الضالين، راقب التائهين، راقب الشاردين، تجد الإنسان ضائعًا، لا يعرف لماذا هو في الدنيا؟ ساعةً يُقبل على لذاته ليقتنصها، ساعةً يقبل على جمع الدرهم والدينار، ساعةً يكون مع زيد، وأخرى مع عبيد، هذه الحالة؛ التيه والضياع تعبير عن أن هذه الآلة المعقدة ذات الطاقات الكبيرة

من دون توجيه، آلة من دون توجيه، كيف أن المركبة إذا انطلقت بسرعةٍ عالية، وليس لها موجه، فالدمار محقق، فإنسان من دون قرآن هلاك، دمار، شقاء، ضياع، قلق، قال تعالى:

(الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن الآية: ١-٤]

القرآن مقدمٌ على وجودك، لأن وجودك من دون قرآن لا معنى له، ضياعٌ، شقاءٌ، قلقٌ عدوانٌ، انحرافٌ، تجاوزٌ، بغيٌ، خوفٌ، يأسٌ، سوداويةٌ، هكذا .

فلذلك: النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام مسلم، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أَنَّ النَبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ))

القضية أولاً بادئ ذي بدء: لا شيء مقدمٌ عليك، فقبل أن تهدي الآخرين، عليك أن تهدي نفسك، صدق القائل:

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

عندئذٍ إذا قلت، يسمع بقولك، إذا قلت، يقتدى بك، لأنك جئت بالحقيقة مع البرهان عليها، البرهان عليه؛ سلوكك، تطبيقك، التزامك، فهذا الحديث خطير.

((إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا))

يعني: إذا قرأت القرآن، وعرفت ما فيه، عرفت مضامينه، عرفت إرشاداته، عرفت توجيهاته، عرفت قوانينه، فكم كنت أتمنى على أخوتنا الكرام، أن يقرؤوا القرآن، ليكتشفوا القوانين الذي جاء به، القوانين يعني قواعد ثابتة، سنن قطعية، طرائق مُقَنَّنة لا تبدل، لا تغير ، لا تعدل، لا تجمد، لا يضاف عليها، لا يحذف منها، قال تعالى:

(لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ)

[سورة يونس الآية: ٦٤]

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ)

[سورة الكهف الآية: ٢٧]

ما هي كلماته؟ قوانينه، لو سألنا الآن: مَن يذكر آية فيها قانون؟ تعامل ثابت مع الله، لما خلق الله عزَّ وجل الإنسان، وضع له منهجًا ثابتًا، قواعد صارمة، مَن يذكر من كتاب الله آية تأخذ معنى القانون؟ السنة الثابتة، القاعدة الأصيلة التي لا تتبدل ولا تتغير، ولا تُجَمَّد ولا تعدل .

الآن تكلم أخونا عن آية، الآية هي قانون التيسير والتعسير، كل واحد منا إذا بدأ بعمل، وجد فيه عقبات، الطريق مسدود، تعسيرات، الجهاز تعطّل، الآلة كُسِرَت، ما وجد شخصًا بعد موعد رسمي،

ركب السيارة من جهة إلى جهة، سافر إليه، فوجده سافر، ليس هناك شيء أشق على النفس من التعسير، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلاً))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه عن أنس بن مالك]

عندما تجد الأمور ميسَّرة بعملك، ببيتك، بزواجك، بعلاقاتك مع أخوانك، تشعر براحة كبيرة جداً، تحس أن الله يحبك، وإذا جاءت الأمور معسرة؛ الطريق مسدود، الطريق خطر، الشخص تخلى عنك، فلان وعدك فأخلف، اللقاء لم يتم، الوساطة لم تنجح، تحس بضيق شديد ، لكن هذا الضيق الذي أساسه التعسير، وهذه الراحة التي أساسها التيسير، ألها قانون؟ هذا هو القانون:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل الآية: ٥-١٠]

إما أن تكون مسيراً إلى التعسير، وإما أن تكون مسيراً إلى التيسير، ثمن التيسير، قال تعالى:

(أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل الآية: ٥-٦]

صدَّقت بهذا القرآن، أو صدقت بهذا الدين، آمنت به، تبنَّيته، وأعطيت مما أعطاك الله، عملت الصالحات، واتقيت أن تعصي الله، اتقيت أن تعصيه، يعني استقمت على أمره، وعملت الصالحات، وآمنت بالله وبدينه، هذا ثمن التيسير، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ)

[سورة الليل الآية: ٨]

آثر أن يأخذ لا أن يعطي، آثر أن يكون أنانياً، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى)

[سورة الليل الآية: ٨]

عن طاعة الله عزَّ وجل، قال تعالى:

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى)

[سورة الليل الآية: ٩]

لم يعبأ بهذا الدين، قال: هذا الدين ليس لهذا الزمان، هذا علامة تخلف، علامة ضعف ، حالة من حالات الجهل، هذه غيبيّات، قال تعالى:

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل الآية: ١٠]

هذا قانون، فإذا أنت أدركت هذا القانون، وآمنت بالله؛ خالقاً، مربياً، مسيراً، آمنت بكتابه منهجاً صحيحاً، قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، صحيحاً، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأعطيت مما أعطاك الله، ترى الأمور تجري كما تحب، لذلك هذا قانون .

قانون آخر:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

[سورة الإنفطار الآية: ١٣-١٤]

إذا وجدت فاجرًا واحدًا في نعيم، فالقرآن فيه غلط، القرآن حق، الأبرار في نعيم، نعيمٌ في الدنيا، ونعيمٌ في الآخرة، نعيم بهذه الطمأنينة، نعيمٌ بهذا الاستقرار، نعيمٌ بهذا الشعور أن الله يحبهم، نعيمٌ بهذا الشعور أن الله راضٍ عنهم، قال تعالى:

(وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

[سورة الإنفطار الآية: ١٤]

جحيم البُعد، جحيم القلق، جحيم المعصية، جحيم الانحراف، جحيم العدوان، جحيم البغي، جحيم القلق، في جحيم، فإذا أردت أن تكون في نعيم فكن باراً، وإذا خشيت أن تكون في نعيم فلا تكن فاجراً، هذا قانون .

فأنت عندما تقرأ القرآن الكريم، لا تقرأه قراءة هكذا، هذا القرآن كلام الله عزَّ وجل، والله أمرنا أن نقرأه، وأن نتدبر آياته، معنى التدبر: أن تقف عند الآيات متأنياً، ماذا تعني هذه الآية؟ ماذا علي أن أفعل تجاهها؟ ماذا علي أن أقوم؟ ما الموقف الذي يجب أن أقفه من أجلها؟.

قانون ثالث:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

هذه الدار، هذه الحياة الأبدية، هذه السعادة الكبرى، ثمنها لهؤلاء الذين لا يحبون أن يستعلوا على خلق الله، لا يحبون أن يبنوا مجدهم على أنقاض الآخرين، ولا أن يبنوا غناهم على فقرهم، ولا حياتهم على موتهم، ولا أمنهم على قلقهم، قال تعالى:

(لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

الإفساد: التفريق بين المؤمنين، التفريق بين الشركاء، التفريق بين الأحبة، التفريق بين الأم وابنها، الأم وابنتها، بين الزوج وزوجته، بين الأخ وأخيه، بين الصديق وصديقه، بين الجار وجاره، قال تعالى:

(لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

هذا كلام خالق الكون، كلام المُبْدِع، كلام المصمم، كلام الذي لا يمكن أن يطرأ على كلامه تغيير ولا تبديل، فأنت مع القول الثابت، قال تعالى:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة إبراهيم الآية: ٢٧]

ما الذي يجعلك مطمئناً؟ أنت مطبق لآيات قرآنية، قطعية الثبوت، وربنا عزَّ وجل جاءت من عنده، وهو أصدق القائلين، فيكفي أنك إذا قرأت آيةً كريمة، وهي قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة الجاثية الآية: ٢١]

يجب أن تشعر في كل دقيقةٍ، وفي كل ثانيةٍ، أن لك عند الله معاملة خاصة، لأنك مؤمن، إن الله يدافع عنك، وأنت في عنايته، ورعايته، وحفظه، هذا الشعور مسعد، تشعر بالطمأنينة أن خالق الكون يدافع عنك، خالق الكون يحفظك .

((عبدي أعطيتك مالاً، فماذا صنعت فيه؟ قال: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خيرٌ حافظاً، وأنت أرحم الراحمين، قال: أنا الحافظ لأولادك من بعدك))

فيعني يكفي أن تدعو وأنت مسافر:

((اللهم أنت الصاحبُ في السفر، والخليفة في الأهل، والمال، والولد))

هل تستطيع أن تصاحب إنساناً في السفر، وأن يكون هذا الإنسان في الوقت نفسه خليفة لك في البيت؟! مستحيل، لا يجتمع في بني البشر صاحبٌ ومستخلف، إن كان مستخلفاً لا يكون صاحباً، وإن كان صاحباً لا يكون مستخلفاً، لكن الله سبحانه وتعالى في الوقت ذاته، يكون صاحبك في السفر، وخليفتك في الأهل، والمال، والولد .

هذا الشعور أن الله سبحانه وتعالى مكانك في البيت؛ يرعى أولادك، يرعى أهلك، يحفظهم من كل خطر، وهو معك بالتيسير والتوفيق، والمعونة والإمداد، هذا شعور مسعد.

الحقيقة: أن المؤمن لا يعرف قيمة إيمانه، ولا المدى الذي وصل إليه، ولا الإنجاز الذي حققه، إلا إذا اطّلع على أهل الدنيا، فرأى ضياعهم، رأى شقاءهم، رأى حيرتهم، رأى سيرهم في طريق مسدود، رأى ضيقهم، انقباضهم، قال تعالى:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد الآية: ٢٨]

((إن القلوب لتصدأ، قيل: وما جلاؤها؟ قال عليه الصلاة والسلام: ذكر الله وتلاوة القرآن))

إذا ضاقت نفس إنسان، شعر بانقباض، لأن الإنسان أحيانا يأتيه انقباض ومعالجة، هذا الانقباض، علاجه تلاوة القرآن، لأنه قد تكون قضية ضاغطة كبيرة، فيقرأ قول الله عزَّ وجل :

(يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ)

[سورة التوبة الآية: ٢١]

يرى أن هناك عطاء كبير ينتظره .

أنا مرة ضربت مثل، أعيده مرة ثانية: لو أن إنسانًا دخله ألف ليرة في هذه الأيام، وعنده ثمانية أولاد، وبيته بالأجرة، وعنده أمراض عديدة، ومشكلات كبيرة، وليس له من الدنيا شيء، وله عم غير متزوج، يملك مئات الملايين، ومات فجأة بحادث، فهذه المئات من الملايين، صارت إليه بمجرد وفاة عمه، ولكن هذا الإنسان الفقير، لا يستطيع قبض هذه الأموال إلا بعد سنة، إجراءات الإرث وما شاكل ذلك، لماذا هو في هذا العام من أسعد الناس، مع أنه لم يقبض ليرةً واحدة، ولم يرتفع مستوى طعامه، ولا درجة، ولا لباسه، ولا بيته، ولا شيء من هذا القبيل؟ لأنه دخل في الأمل، هذا المثل وإن كان صارخًا، وقد يكون غير واقعي ، لكنه ينبئ عن شيء .

هذا الإنسان الفقير المديون، الذي عليه ضغط شديد، ثمانية أولاد، دخله ألف ليرة، بيته بالأجرة، مجموعة أمراض، عليه نفقات أعباء ديون، حينما يشعر أنه امتلك فجأةً مئتي مليون ، ولكن لن يقبضها إلا بعد عام مثلاً، ترى في هذا العام مستبشر، كلما رأى شيئاً، طمح إلى شرائه، يعيش في أحلام ممتعة، هذه أحلام، أما المؤمن يعيش في واقع، قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ)

[سورة القصص الآية: ٦١]

فالإنسان إذا قرأ القرآن، تأتي آية بشارة، تأتي آية، لما ربنا عزَّ وجل: حكى عن قارون، قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً)

[سورة القصص الآية: ٨٠]

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[سورة القصص الآية: ٧٩]

فإذا وجد نفسه كلما رأى بيت فخم، كلما رأى مركبة فخمة، كلما رأى محلا تجاريا، تذوب نفسه تمنياً لهذا المحل، أو لهذا البيت، يرى نفسه مع أهل الدنيا، القرآن يوجهه: أنه إذا فعلت هذا يا عبدي، فأنت مع أهل الدنيا، مع الذين لا يعلمون، إذاً: كلما ضاق الإنسان، ضاقت نفسه، شعر بإحباط أحياناً، شعر بقضية ضاغطة عليه، إذا قرأ القرآن، انشرحت نفسه، واطمأنت، وشعرت بأنها عند الله فائزة .

إذاً:

((إن القلوب لتصدأ، قيل: وما جلاؤها؟ قال عليه الصلاة والسلام: ذكر الله وتلاوة القرآن))

إذاً:

((إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ))

قد ترتفع بهذا الكتاب إلى أعلى عليين، لذلك احرص على قراءته، احرص على فهمه، احرص على تطبيقه، هو كتاب العمر، الكتاب المقرر .

إذا واحد دخل لمكتبة، أربعة جدران إلى السقف، كلها كُتُب، وعنده امتحان بعد أسبوع، والمادة أساسية، وهو في الصف الأخير، والمادة الأساسية، وإذا تخرج من هذه الجامعة، عين في منصبٍ رفيع، وتزوج، واشترى، أيحق له أن يقرأ كتاباً آخر غير الكتاب المقرر؟ القرآن الكريم هو الكتاب المقرر، هو كتاب الإنسان، هو كتاب العمر، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام، تعوَّذ من علمٍ لا ينفع، لك أن تقرأ ألف كتاب وكتاب، اختر الكتاب كما تختر الأصحاب، كما تختار الأصدقاء، هذا الكتاب يزيد فهمي للدين، إذاً: أقرأه، هذا الكتاب العلمي يزيد فهمي لآيات الكتاب الكونية، أقرأه، هذا الكتاب يفيدني في كذا، أقرأه، هذا الكتاب لا يعنيني، لا أقرأه .

إذاً:

((إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ))

كل هذا الكلام الآن منصب على أنك: لو قرأت هذا القرآن، وفهمته، وطبقته، أما إذا انطلقت إلى تعليمه، أصبحت عند رسول الله من خير الناس.

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح وأبو داود والترمذي في سننهما عن عثمان بن عفان]

التعليم، قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)

[سورة المائدة الآية: ٣٢]

إذا ذكّرت إنسانًا بآية قرآنية، شرحتها له، فاستوعبها وتأثر بها، وطبقها، فكانت هذه الآية سلماً له إلى الله عزَّ وجل، إذا أحييت هذه النفس، فكأنما أحييت الناس جميعاً، قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)

[سورة المائدة الآية: ٣٢]

لذلك نحن حتى الآن نقول: إذا قرأته أنت، قرأته لنفسك، وفهمته لنفسك، وطبقته في حياتك، سعدت في الدنيا والآخرة، فكيف إذا أسعدت به الآخرين؟ .

٢-لا حسد إلا في اثنتين.......:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ))

يعني: إذا كان ممكنًا، أن تغبط أخاك المؤمن على شيء، طبعاً هنا المقصود بالحسد الغبطة، الغبطة الحسد المشروع، والحسد المذموم هو أن تستكثر الخير على أخيك، وأن تتمنى أن يزول عنه، هذا هو الحسد الذي نهى الله عنه، قال تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ)

[سورة الفلق الآية: ١-٥]

ولكن علماء الحديث وجهوا هذه الكلمة في هذا الحديث: على أنها الغبطة، والغبطة إذا رأيت أخاك متعلمًا لكتاب الله، يجب أن تغار منه، يجب أن تغبطه، أن تبارك له هذا التعلُّم، وأن تتمنى أن تكون مثله، هذه غبطة، والغبطة مطلوبة .

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ))

إذا كان هناك شخصيتان في المجتمع مرموقتان، تشرئب إليها الأعناق، تطمح إليها الأبصار، إذا كان في المجتمع شخصيَّتان، يمكن أن تكون هاتان الشخصيتان مرموقتين، معظمتين، مبجلتين، محببتين، يمكن أن نغبط هاتين الشخصيتين، وهما: رجل علمه الله القرآن، فهو يعلمه آناء الليل وأطراف النهار، ورجل آتاه الله مالاً، فهو ينفقه آناء الليل وأطراف النهار.

فلذلك :

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر الآية: ١-٢]

الزمن يمشي، حركة الزمن تعني: أنك خاسر، لأنه كلما مضى يوم، اقتربت النهاية، والنهاية تعني: انتهاء اللذائذ، الدنيا فيها متاعب، فيها لذائذ، فيها مسرات، فيها طعام، فيها شراب، فيها زوجة، فيها أولاد، فيها وجاهة، فيها مكانة اجتماعية، فيها أشياء كثيرة، فيها رحلات، فيها سياحات، فكلما مرَّ عقرب الزمن، اقتربت من النهاية، إذاً: الزمن ليس في صالحك، إذاً: تحرك الزمن يعني أنك في خسارة.

شخص ذهب إلى مكان جميل، كلما انقضى يوم، انقضى بِضْعٌ من هذه الرحلة، واقتربت النهاية، فربنا عزَّ وجل قال :

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ)

[سورة العصر الآية: ١-٢]

علاقتك مع الزمن علاقة خسارة، حركة عقارب الساعة تعني: أنك في خسارة، تعني: أنك تقترب من النهاية، تعني: أن العمر بدأ بالتناقص، يعني الزمن: هو العد التنازلي، المركبة الفضائية قبل أن يطلقوها يجرُون ما يسمى: بالعدّ التنازلي، يدققون قطعةً قطعة في المركبة، فإذا كانت تامة وجاهزة، يقولون مثلاً: إن في المركبة ثلاثة آلاف قطعة، يفحصون القطعة رقم ثلاثة آلاف جاهزة، ألفين وتسعمئة وتسعة وتسعين جاهزة، ألفين وتسعمئة وثمانية وتسعين، وهكذا، هذا اسمه العد التنازلي، إلى أن يصلوا إلى الصفر، وهو يعني إطلاق المركبة، فأنت مع الزمن في عدٍ تنازلي .

لو فرضنا أن إنسانًا مكتوبٌ له عند الله، أن يعيش ستين عامًا، فهناك عدٌّ تنازلي، أيام بالتقويم، يضعون رقمًا مع اليوم، وهذا الرقم من العام، وفي أيام يضعونها أرقام متعاكسة، واحد كانون الثاني يضعون الواحد، اثنين اثنين، ثلاثةٍ ثلاثة، رقم تسعين، خمسة وتسعين، يعني مضى من هذا العام خمسٌ وتسعون يومًا .

أحياناً بالعكس العدّ تنازلي، أول يوم من شهر كانون الثاني، يضعون ثلاثمائة وخمسة وستين، اثنين كانون الثاني ثلاثمائة وأربعة وستين، فإما أن تقول: كم من يوم مضى في هذا العام؟ أو كم يوم بقي منه؟ فأنت مع الزمن في عد تنازلي، وكلما استيقظتَ صباحاً، مضى يوم ، نقص عمره يومًا، هذا هو العد التنازلي، فربنا عزَّ وجل قال:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

[سورة العصر الآية: ١-٣]

هؤلاء مستثنون من هذه الخسارة، إذا كان لك في كل يوم تعليم الناس القرآن، أو إنفاق المال، أو عمل صالح، فأنت لست في خسارة .

إذاً: عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَهُوَ يُنْفِقُهُ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ))

بالمناسبة: رجل آتاه الله القرآن، يقرأه قراءةً صحيحة، شيء جميل، إذاً: هو يعلم الناس التجويد، هذا عمل جيد جداً، إنسان آتاه الله معانيه، إذاً: هو يعلم الناس تفسيره، إنسان آتاه الله أن يطبقه، وأن يدعو الناس إلى تطبيقه .

فالنبي عليه الصلاة والسلام جعل هذا الحديث مطلقاً:

((رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ))

من أين أوتيت القرآن، فأنت رابح، قرأته فأنت رابح، حفظته فأنت رابح، جوّدته فأنت رابح، فهمته فأنت رابح، درَست علومه فأنت رابح، فسَّرته فأنت رابح، طبَّقته فأنت رابح.

((رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ))

المطلق على إطلاقه .

٣-إن الذي ليس في جوفه.......:

الحديث الثالث: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنْ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عباس]

بيتٌ خربٌ مهجور، تشبيهٌ رائع من النبي عليه الصلاة والسلام، تجد كل ثقافته معلومات حياتية، هكذا حدث، هكذا قال فلان، هكذا قيل، بعيد عن القرآن الكريم، أما إذا كان له وعاء مشحون بالمعلومات الدنيوية، الأسعار، الفُرَص، المناسبات، اللقاءات، أخبار المجتمع، أسعار البيوت، أسعار الأراضي، الأخبار العالمية يتَّبعها تماماً، أما إذا أراد أن يقرأ آيةً واحدة لا يستطيع، هذا بيتٌ خرب، لأنه إذا جاء ملك الموت كل هذه المعلومات لا تعنينا، هذه عملة زائفة ليست رائجة عند الموت، لكن الذي يقرأ القرآن، ويفهمه، ويحفظه، ويفسِّره، ويعمل به، هذه عملة رائجة عند الموت، فالنبي عليه الصلاة والسلام يحذرنا أن هذا الذي ليس في جوفه شيءٌ من القرآن كالبيت الخرب .

هناك موضوع إن شاء الله في الدرس القادم سنبحثه: أن الإنسان إذا قرأ القرآن، وحفظه في مرحلةٍ من حياته، ثم أهمله، فهذا ذنبٌ عظيم، فعلى الإنسان أن يراجع محفوظاته القرآنية من حين لآخر، وإلا عاتبه الله عزّ وجل، وحاسبه، وآخذه .

عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ:

((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ، فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنْ الْإِبِلِ فِي عُقُلِهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما]

إذا أهمل الإنسان محفوظاته القرآنية، ربما ضاعت منه، ووقع في إثم شديد، وله موضوعٌ آخر إن شاء الله تعالى، نأخذه في درسٍ قادم .

سؤالان وردا :

وردني سؤال في الدرس الماضي، أحب أن أجيب عنه كما وعدت السائلتين .

السؤال هو: هل هناك من مخالفةٍ شرعية لامرأةٍ تزجج حواجبها إذا كانت كثيفة؟ .

هذا موضوع مطروح سابقاً، وموضوعٌ يحتاج إلى تفصيل، الإجابة عن هذا السؤال: من الغلو في الزينة التي حرمها الإسلام النمص، والنمص هو نتف الشعر، هذا من الغلو في الزينة التي حرمها الإسلام، والمراد بالنمص: إزالة شعر الحاجبين لترفيعهما أو تسويتهما، لكن الذي أجاب عن هذا السؤال، يتأكد حرمة النمص، إذا كان النمص شعاراً للخليعات من النساء .

في عهد النبي عليه الصلاة والسلام كان بعض النسوة من الخليعات، البغايا، كان هؤلاء النسوة ينتفن حواجبهن، فإذا فعلت امرأةٌ مسلمة هذا الفعل، فإنما تشبَّهت بهذه النسوة الخليعات المنحرفات البغايا، لذلك تتأكد حرمة النمص إذا كان شعاراً للخليعات من النساء .

وقال بعض علماء الحنابلة:

((يجوز الحف، -فالحف شيء، والنمص شيءٌ آخر، حف الشارب، وحف الحواجب يعني: ترقيق الحواجب، إذا كان في الحاجب كثافة تؤذي العين-.

يقول بعض علماء الحنابلة: يجوز الحف، فيقال: حفت المرأة وجهها أو زينته بإزالة الشعر))

وأخرج الطبري عن امرأة أبي إسحاق، أنها دخلت على عائشة، وكانت شابَّة، فقالت:

((المرأة تحف جبينها لزوجها، قالت: أميطي عنكِ الأذى ما استطعتِ))

عندنا مبدأ ثابت: أن على المرأة أن تتزين لزوجها، وهذا من أولى واجباتها، لأن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((فليتزوج فإنه أغض للبصر))

[أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

ما معنى أغض للبصر؟ أن الزوج إذا رأى امرأته بشكلٍ مُرضٍ ومقبول، من غير شيء منفر، فهذا الوضع يعينه على غض بصره، والمؤمن مأمور بعض بصره في كل الحالات، ولكن الذي يعينه أكثر، الذي يدعوه إلى غض بصره، أن تكون زوجته كما يريد، فإذا تزيَّنت المرأة لزوجها فقط بشكلٍ أنه يرضى عن زينتها، فهذا عمل من صلب الدين للمرأة، وهي مأمورةٌ به، ومحاسبةٌ عن التقصير به، لكن حينما تأتي امرأةٌ مسلمة، لتقلّد الخليعات من النساء، المنحرفات، الفاجرات، السافرات، تقلد هذه المرأة المسلمة هؤلاء النسوة الخليعات، فإن في هذا حطاً لمكانتها الإسلامية، أما إذا شاع الشيء بين الناس، وكان مقبولا عند العفيفات الطاهرات، وكان يرضي زوجها ذلك، وبدل أن تنتف الشعر، إذا زججت حواجبها وحفتهم، فهذا شيءٌ مقبولٌ كما جاء في المذهب الحنبلي .

عندنا كليات في الفقه، من أساسيات الفقه: أن المرأة مطالبةٌ بالتزين لزوجها .

سؤال رقم اثنين: صبغ الشعر، ويتعلق بموضوع الزينة: صبغ الشعر في الرأس، فقد ورد: أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى، يمتنعون عن صبغ الشيب وتغييره، ظناً منهم أن التجميل والتزيُّن ينافي التعبُّد والتدين، والإسلام على عكس ذلك .

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تنظفوا، واستاكوا، تطيبوا، تزينوا لنسائكم))

هذا مطلوب، والمرأة أيضاً مطالبةٌ أن تتزين لزوجها، وفي آية دقيقة بهذا المعنى :

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٢٨]

لها حقٌ عند الرجل كما له حقٌ عندها، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح الذي رواه الإمام البخاري، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَصْبُغُونَ فَخَالِفُوهُمْ))

[أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

إذاً: صبغ الشعر لا شيء عليه، بل هو مستحبٌ، وهذا الأمر للاستحباب كما يدل عليه فعل الصحابة، فقد صبغ بعضهم كأبي بكرٍ وعمر، وترك بعضهم مثل عليٍ وأبي بن كعب وأنس .

الشيء الذي أحب أن أذكره هو: أن الإنسان إذا صبغ شعره ليغشّ مخطوبته، أو أن المرأة إذا صبغت شعرها لتغشّ خاطبها، فهذا الشيء نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام، فإذا كان فيه عملية غش وتدليس فهذا لا يجوز، أما إذا كانت عملية تزيين للزوج، فمسموحٌ بصبغ الشعر للرجال والنساء معاً، كما ورد في هذه الأحاديث .

إليكم قصة إسلام أسيد بن حضير وسعد بن معاذ :

والآن: إلى بعض سيرة أصحاب رسول الله رضوان الله عليهم .

اليوم سيدنا أسيد بن حضير بطلٌ يوم السقيفة، هذا رجل من زعماء الأنصار، جلس أسيد بن حضير وسعد بن معاذ، وكانا زعيمي قومهما، يتشاوران في أمر هذا الغريب الذي جاء من مكة يسفه دينهما، ويدعو إلى دينٍ جديد، مَن هو هذا الغريب الذي جاء من مكة يسفه دين أهل المدينة، ويدعو إلى دينٍ جديد؟ إنه مصعب بن عمير .

هذا الصحابي الجليل الذي أرسله النبي عليه الصلاة والسلام إلى المدينة سفيراً له، وهو أول سفيرٍ في الإسلام . قال سعدٌ لأسيد:

((انطلق إلى هذا الرجل فازجره، وحمل أسيدٌ حربته، وأغذ السير إلى حيث كان مصعب في ضيافة أسعد بن زرارة من زعماء المدينة الذين سبقوا إلى الإسلام، -سيدنا مصعب بن عمير سفير النبي

عليه الصلاة والسلام، أوفده النبي إلى المدينة، ليعلم الناس الإسلام، ونزل في ضيافة أسعد بن زرارة، وجاء الآن أسيد بن حضير ليزجره عن هذه الدعوة- .

وعند مجلس مصعب وأسعد بن زرارة، رأى أسيد جمهرةً من الناس، تصغي في اهتمامٍ للكلمات الرشيدة التي يدعوهم بها إلى الله مصعب بن عمير، وفاجأهم أسيد بغضبٍ وثورةٍ، وقال له مصعب

-دققوا في هذا اللفظ: من أمر بمعروف، فليكن أمره بمعروف، المسلم لطيف، المسلم له ظلٌ خفيف، قال له مصعب: هل لك في أن تجلس فتستمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره .

-كلام منطقي، اسمع يا أخي، الإنسان قبل أن يرفض، عليه أن يسمع، قبل أن يهاجم، عليه أن يتحقق، قبل أن يشتم، عليه أن يتبصر-، قال له: يا أخي اجلس فاستمع، فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره .

كان أُسَيْد رجلا مستنير العقل، ذكي القلب، حتى لقَّبه أهل المدينة بالكامل، وهو لقبٌ كان يحمله أبوه من قبله، فلما رأى مصعباً يحتكم به إلى المنطق والعقل، غرس حربته في الأرض، وقال لمصعب: لقد أنصت، هاتِ ما عندك .

-الموقف الآن، سيدنا مصعب بن عمير كان منطقيًا، وأديبًا، ولطيفًا، هكذا الدعوة إلى الله، يا أخي استمع، قبل أن تهاجم اقرأ، قبل أن ترفض استمع إلى هذا الشريط، تعال استمع إلى هذا الدرس، اسمع يا أخي قبل أن تحكم غيابياً، قبل أن تتهم، قبل أن تهاجم، قبل أن تجرِّح ، قبل أن تهرف في ما لا تعرف، تحقق، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ)

[سورة الحجرات الآية: ٦]

قال له: والله لقد أنصت، هاتِ ما عندك .

وراح مصعب يقرأ عليه من القرآن، ويفسر له دعوة الدين الجديد، الدين الحق الذي أُمِرَ محمدٌ عليه الصلاة والسلام بتبليغه، يقول الذين حضروا هذا المجلس: والله لقد عرفنا في وجه أُسيد الإسلام قبل أن يتكلم، عرفناه في إشراقه وتسهُّله .

-أحيانًا تجد وجهًا يتألق إذا سمع آية، تفسير آية، تفسير حديث، تأثر فتألق الوجه، أصبحت العينان زئبقتين، هناك إشراق بوجهه، وابتسامة الرضا-

فقالوا: والله لقد عرفنا في وجه أسيد الإسلام قبل أن يتكلم، عرفناه في إشراقه وتسهله، ولم يكد مصعب ينهي حديثه، حتى صاح أسيدٌ مبهوراً: ما أحسن هذا الكلام، وما أجمله! .

-يا أخوان، الحق مثل الغذاء تماماً، الحق كلام ربنا عزَّ وجل، القرآن مأدبة الله عزَّ وجل، فإذا أكل إنسان من مأدبة الله-.

قال: والله ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ -ماذا أفعل؟ انشرح قلبه- .

فقال له مصعب: تطهر بدنك وثوبك، وتشهد الشهادة الحق، ثم تصلي .

-طبعاً الصحابي الجليل سعد بن معاذ كان على دين آبائه، فأرسل أسيدٌ بن حضير كي يزجر سيدنا مصعب بن عمير عن دعوته، وهو ينتظره .

الآن- رجع أسيد بن حضير إلى سعد بن معاذ، نظر إلى وجهه، وقال: أقسم لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به، -قبل أن يتكلم، قبل أن ينطق بكلمة، وجد وجهًا مشرقًا، فيه راحة، فيه طمأنينة، لأن الحق مسعد، فقد ذهب حانقاً، حاقداً، متألماً، فيه بغض، وعاد بوجه مشرق-، قال: والله أقسم لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به .

فقال أسيد: أجل، نعم .

-هناك شيء بسيدنا أسيد، كان ذكيًّا جداً، لو قال لسيدنا سعد بن معاذ: اذهب فأسلم كما أسلمت، ربما لا يرضى، قد يحنق، قد يهاجمه، فأراد بأسلوبٍ ذكي، أن يجره إلى سيدنا مصعب .

الآن- أراد سيدنا أسيد من سعد بن معاذ، أن يجره إلى سيدنا مصعب، وكان مصعب -كما ذكرنا-، ينزل ضيفاً على أسعد بن زرارة، وأسعد بن زرارة هو ابن خالة سعد بن معاذ، هناك قال أسيد لسعد: لقد حُدِّثت أن بني حارثة، قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وهم يعلمون أنه ابن خالتك، يريد سحبه لعند مصعب .

وقام سعدٌ تقوده الحمية والغضب، وأخذ الحربة، وسار مسرعاً إلى حيث أسعد ومصعب، ومن معهما من المسلمين، ولما اقترب من المجلس لم يجد ضوضاءً، ولا لغطاً، وإنما هي السكينة تغشى جماعةً، يتوسَّطهم مصعب بن عمير، يتلو آيات الله في خشوع، وهم يصغون إليه في اهتمامٍ عظيم، هناك أدرك الحيلة التي نسجها له أسيد، لكي يحمله على السعي إلى هذا المجلس .

-أحياناً هذه لها معنى، يكون الإنسان متفانيًا في الحق ومندفعًا، لكن الله ما آتاه القدرة على إقناع الآخرين، القدرة على الإقناع، القدرة على البيان، القدرة على التفصيل، التوضيح، هذه قدرة الله عزَّ وجل، يؤتيها من يشاء من عباده، فإذا أراد المسلم أن يهدي الآخرين، وليس عنده إمكانية، عنده أسلوب واحد، هو أن يأتي بهم إلى المسجد، أقنعه أن يأتي ليصلي معك العشاء في المسجد أو

المغرب-

.

فسيدنا أسيد ماذا فعل مع سيدنا سعد؟ جلبه إلى المسجد، وهنا أدرك الحيلة التي نسجت له، ولقد صدقت هذه الفراسة، فكما كاد سعد يسمع حتى شرح الله له صدره للإسلام، وأخذ مكانه بسرعةٍ بين المؤمنين

.

سيدنا مصعب جاء للمدينة سفيرًا، آمن به جماعة كُثُر، وهؤلاء الجماعة أضيف إليهم سيِّدان من سادة الأنصار؛ أسيد بن حضير، وسعد بن معاذ)).

من مواقف أسيد بن حضير :

أيها الأخوة، عندنا مشكلة، هذا ابن أبيّ زعيم المنافقين، هذا الذي كره النبي عليه الصلاة والسلام، وتحدث عنه بما لا يرضي الله عزَّ وجل، وكان خصماً عنيداً له، السبب: أن هذا الرجل كان على وشك، أن يتوَّج ملكاً على المدينة، فلما جاء النبي عليه الصلاة والسلام ذهب ملكه، فصار عنده حقد.

أنا أعجبني من موقف سيدنا أسيد، أنه لما قال هذا المنافق الكبير أو زعيم المنافقين:

((لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، قال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه منها إن شاء الله، هو والله الذليل وأنت العزيز .

-كأنه طمأن النبي، والتمس له العذر-، قال له: يا رسول الله ارفق به، فو الله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز، ليتوجوه على المدينة ملكاً، فهو يرى أن الإسلام قد سلبه ملكاً))

هذا الكلام لطيف مع رسول الله، يعني هذا الرجل يعاديك، وأنت الأعز، وهو الأذل، لكن له وضع نفسي خاص، هذا كان على وشك أن يكون ملكًا، فلما جاء الله بك خسر ملكه بهذا الإسلام، كأنه أعطاه تبريرًا لطيفًا، أو أعطاه شيئًا من العذر بهذا الموقف المعادي .

فالإنسان ليس له حق أن يؤجج، له الحق أن يبرر، المسلم يبرر ولا يؤجج، عارضك شخص، أو تكلم عليك، وليس له حق في الكلام عليك، هذا يسيء، أنت أججته أكثر، هذا له وضع خاص، مزعوج من قضية، إذا وجدت خصومة، فالمفروض أن تهفف ولا تكبر، تصغر الأمر .

هناك أشخاص يكبرون، وأشخاص يخففون، أما هذا الموقف فقد أعجبني، قال:

((يا رسول الله ارفق به، فو الله لقد جاءنا الله بك، وإن قومك لينظمون له الخرز، ليتوجوه على المدينة ملكاً))

فهو يرى أن الإسلام قد سلبه ملكاً .

موقف آخر له:

آخر موقف لهذا الصحابي الجليل، لما صار الخلاف بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام على الخلافة، بعض الأنصار طالبوها لأنفسهم، وبعضهم طالبوها لسيدنا الصديق، ماذا قال أسيد؟ خاطب الأنصار فقال:

((تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من المهاجرين، فخليفته إذاً ينبغي أن يكون من المهاجرين، ولقد كنا أنصار رسول الله عليه الصلاة والسلام، وعلينا اليوم أن نكون أنصار خليفته، وكانت كلماته برداً وسلاماً في هذا المجلس))

لذلك سماه علماء السيرة: بطل يوم السقيفة، بهذه الطريقة اجتمع الشمل، والتأم الجميع، وبايعوا سيدنا الصديق .

قال:

((أنتم الأنصار، يجب أن تكونوا أيضاً أنصار خليفة رسول الله))

وتوفاه الله عزَّ وجل، وقال وهو على وشك الموت:

((اصبروا حتى تلقوني على الحوض، كان في ساعة بشرى من الله عزَّ وجل))

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٤٢-١٠١) : باب إكرام الضيف وصلة الرحم - حديث: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه...، حديث آخر: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته...، قصة ثابت بن قيس

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٠-٠٧-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

مناسبة هذا الدرس :

أيها الأخوة المؤمنون، بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك، الشيء الذي ألفه المسلمون في هذا العيد، هذه الزيارات فيما بينهم، فبحثت عن بابٍ في رياض الصالحين، يتناسب مع عيد الأضحى المبارك، فما وجدت من بابٍ أقرب من باب إكرام الضيف، ومن باب صلة الرحم .

فالله سبحانه وتعالى يقول :

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً)

[سورة الذاريات الآية: ٢٤-٢٥]

كما هي العادة، كل باب يعقده الإمام النووي رحمه الله تعالى، يفتتحه بالآيات الكريمة التي لها علاقة بالباب، فالآية التي تناسب إكرام الضيف قوله تعالى :

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ)

[سورة الذاريات الآية: ٢٤-٢٦]

أهله: هنا بمعنى زوجته وأولاده، ومعنى كلمة راغ: أسرع، هل هناك معنى آخر لـ: راغ؟ .

علماء اللغة قالوا: أسرع خفيةً، لو وقف إنسان من بيننا وركض، هذا الفعل ليس من معناه راغ، ركض على مرأى من الحاضرين، أما راغ من معانيها: أنه أسرع مختفياً، إذاً: هذا الذي يسأل ضيفه: أتحب أن تأكل حتى أحضر لك الطعام؟ خالف آداب الضيافة، إذا أردت أن تكرمه، فلا داعي أن تسأله، إنك إذا سألته لن يرضى، وقد يكون في أعلى درجات الجوع ، ويقول لك: لا .

أما راغ فتعني: أنه تسلل، أو أسرع مختفياً من ضيوفه، كي يعطي إشارة إلى أهله لإعداد الطعام، قال: هذا أول أدب من آداب الضيافة، فلا ينبغي أن تقول للضيف: هل تأكل؟ لعلك لمْ تأكل، لعلك أكلت، قل لي: ما شأنك؟ ماذا تحب أن تأكل، حتى أحضر لك الطعام؟ ويحدث جلبة وضجيجًا، لا، هذا ليس من كرم الضيافة، من تمام كرم الضيافة: ألا تشعر الضيف أنك ذاهب لإعداد الطعام، قال تعالى:

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[سورة الذاريات الآية: ٢٦]

أولاً: هذه الفاء الأولى والثانية: تفيدان الترتيب على التعقيب، طبعاً الواو تفيد العطف، وثم تفيد الترتيب على التراخي .

لو أن ربنا عز وجل قال: فراغ إلى أهله، ثم جاء بعجل ثمين، أي جاء بعد ساعتين، أو ثلاثة، أيضاً من آداب الضيافة: سرعة إعداد الطعام، قال تعالى:

(فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ)

[سورة الذاريات الآية: ٢٦]

خرج، فلم يلبث إلا قليلاً، حتى عاد بالطعام، إذاً: عدم استئذان الضيف لإعداد الطعام، وعدم الإطالة بإعداد الطعام، هذا أدب ثانٍ من آداب الضيافة، قال تعالى:

(فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ)

[سورة الذاريات الآية: ٢٦]

كما قال عليه الصلاة والسلام:

((المؤمن كالنحلة، لا يأكل إلا طيباً، ولا يطعم إلا طيباً))

عندنا ثلاثة آداب: عدم إعلام الضيف، والسرعة في الخروج لإعداد الطعام، وسرعة إعداد الطعام، وتهيئة الطعام الذي يروق لك، تطيب به نفسك .

أحياناً الضيف يستحي، المائدة طويلة جداً، هناك صحن يحب أن يأكل منه، ربنا عز وجل أعطانا أدبًا رابعًا :

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ)

[سورة الذاريات الآية: ٢٧]

يجب أن تلاحظ توزيع الطعام على المائدة، هذا الطبق فيه طعامٌ، يحبه هذا الضيف، بعيد عنه، قد يستحي أن يمتد إليه، قد يستحي أن يمد يده، قد يستحي أن يقول لك: قرب لي هذا الطبق، الإنسان الضيف يغلب عليه الحياء، هذا على صاحب البيت، قال تعالى:

(فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ)

[سورة الذاريات الآية: ٢٧]

قرب الطعام، وسكت الضيف، أحياناً يأتي المضيف بصحن الفاكهة، ولا يقول للضيف: تفضل، يمضي ربع ساعة، عشر دقائق، ثلث ساعة، المضيف مشغول بموضوع، وقدم الفاكهة ، أو قدم الطعام، ولم يقل للضيف: تفضل، كلمة تفضل من لوازم الإضافة، عدم الاستئذان، عدم الإعلام، السرعة في إحضار الطعام، اختيار أطيب الطعام، تقريب الطعام، الدعوة إلى الطعام، خمسة آداب من آداب الضيافة، تضمنتها هذه الآية الكريمة، قال تعالى:

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ)

[سورة الذاريات الآية: ٢٤-٢٧]

إذاً: تعلمنا من هذه الآية، خمسة آداب في إكرام الضيف، وقد تعلمون جميعاً أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم))

ليس معنى هذا أنك ملزم أن تكرم كل ضيف، ولكن أحياناً ترحيبك الشديد، واستقبالك للضيف، وتواضعك له، هذا يدخل على قلبه السرور، أضعاف ما تقدم له من طعام وشراب.

((إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، فسعوهم بأخلاقكم))

شيء آخر: من آداب الضيافة بين المؤمنين: ألا يتكلف المفقود، وألا يجود إلا بالموجود .

لو أن هذا طبق، صار ظل الضيف خفيفًا، وعبئه قليلا، ألاّ نتكلف المفقود، وألا نجود إلا بالموجود، والنبي عليه السلام في أحاديث كثيرة وجه السيدة عائشة، وأمرها ألا تتكلف للضيف، لأن الإنسان إذا تكلف للضيف، ربما استثقل حضوره .

فإذا طرق بابك أخ كريم، فالذي عندك قدمه له، إذاً: إتيان الضيف لا يشكل عبئاً عليك، أما إذا كان لا بد من التكلف، وتكليف الإنسان ما لا يطيق، فعندئذٍ يصبح الضيف ثقيلاً على المضيف .

شيء آخر: إذا صار اجتماع بين الأخوة الأكارم، مثلاً لقاء على حفظ قرآن كريم، أنا أرجح أو أفضل، ألا تكون الضيافة مكلفةً، لأن الحاضرين أنواع؛ بعضهم الموسر، بعضهم أقل يسارًا، بعضهم له دخل محدود، فإذا ارتفع مستوى الضيافة، ربما لا يستطيع هذا الذي حضر هذه الوليمة أن يجري مثلها، لذلك اللقاءات التي فيها بذْخٌ وتكلف شديد قد تنتهي سريعاً، فإذا كان هذا اللقاء لله عز وجل فسر بسَيْرِ أضعف الحاضرين . وقال تعالى :

(وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)

[سورة هود الآية: ٧٨]

هذه إشارة ثانية: إلى أن الإنسان يحب أن يكون أمام ضيفه في شكل جيد؛ في مظهر البيت، في تربية الأولاد، في كل شيء، قال تعالى:

(وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ)

[سورة هود الآية: ٧٨]

أما كما يفهم عامة الناس من قوله تعالى :

(قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ)

[سورة هود الآية: ٧٨]

هذا لا يعني أن سيدنا لوط عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام قدَّم لضيوفه بناته، هذا ليس صحيحاً، لكن لأنه نبي كريم، فبنات المؤمنين كأنهن بناته، أي يا أيها الضيوف لماذا تبغون الشيء الذي نهى الله عنه؟ هؤلاء البنات في هذه البلدة، هؤلاء الذين يمكن أن تكون العلاقة مشروعة فيما بينكم وبينهن، فهنا بناتي، بمعنى كل بنات القرية بمثابة بنات سيدنا لوط ، أما أن يقدم بناته، وليس المقصود بنتًا بالذات، عليكم أن تحيدوا عن هذا الانحراف إلى الطريق المشروع الذي سنه الله عز وجل .

إليكم هذان الحديثان اللذان يعنيان درسنا اليوم :

١-من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه........:

الآن: عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة]

الحقيقة: أن النبي عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث الدقيق: ربط إكرام الضيف، وصلة الرحم، والقول الطيب الحَسَن، ربط هذه كلها بالإيمان بالله واليوم الآخر، لأن الإيمان بالله، كل هؤلاء الناس عباده، فإذا آمنت بربك، آمنت بخالقك، عرفت ما عنده من عطاء، وما عنده من عقاب، الآن التقرُّب إلى الله، يتم عن طريق إكرام عباده، إذاً: من لوازم الإيمان أن تكرم عباده، هذا معنى دقيق جداً، بشكل أن الإيمان من دون عمل يتبعه، من دون ثمرة يثمرها ، من دون شيء يعطيه هذا المؤمن، فإيمانه مشكوك فيه، ما حقيقة إيمانك؟ ما الدليل على إيمانك؟.

أحد التابعين الكبار سئل:

هل أنت مؤمن؟ -هذا موضوع خلافي، فهل يا ترى يقول: نعم أنا مؤمن، أما أن يقول: إن شاء الله مؤمن؟ هذا موضوع خاض فيه العلماء خوضاً كبيراً -، قال: إن كان الإيمان كما قال الله عز وجل:

(آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٨٥]

إن كان الإيمان وفق هذه الآية، فأنا مؤمن، أما إذا كان الإيمان :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ٢]

على هذه الآية، فأنا مؤمن إن شاء الله، أما على تلك فأنا مؤمن قطعاً))

هذا من أدق الأجوبة حول هذه الموضوع .

الإيمان نفحات، هذه النفحات قد تأتي، وربما لا تأتي، قد تأتي في وقت دون وقت، كلكم يعلم: قد تقرأ القرآن تشعر بأشواق، تشعر بسرور، تشعر بسعادة، وقد تقرأ أحياناً لا تجد شيئاً، فالإنسان له أحوال، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، والطبراني في المعجم الأوسط عن محمد بن مسلمة]

لذلك العلماء قالوا: إن يوم الجمعة في ساعة رحمة، فإذا هيأ الإنسان نفسه، واستعد، وتوضأ، وصلى، وجاء المسجد، لعل هذه الساعة تكون في صلاة الجمعة، فتأتي الرحمة، كل واحد له مع الله خبرة عاطفية، ببعض المجالس، ببعض الساعات، إما في صلاة، أو في قراءة قرآن، أو في مجلس علم، أو في تأمُّل في ملكوت السموات والأرض، يشعر أن شيئاً علوياً قد هبط إلى قلبه، يشعر أن سعادة لا توصف شعر بها، هذه ربما لا تعود له مرة ثانية في أسبوع واحد، هذه هي النفحة، يقول لك: والله حضرت درساً لا أنسى طعمه حتى الآن، الدرس الثاني ليس كذلك، هذه نفحة الله عز وجل:

((إن لربكم في أيام دهركم نفحات فتعرضوا لها))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، والطبراني في المعجم الأوسط عن محمد بن مسلمة]

أنت هيِّئ نفسك بالاستقامة، هيِّئ نفسك بالانضباط، هيِّئ نفسك بالعمل الصالح، لكن لا شك أن الله عز وجل حينما قال:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

هذه الآية مطلقة، والمطلق في القرآن على إطلاقه، لقاء الله عز وجل في الصلاة، لقاء الله عز وجل في الدنيا، لقاؤه في الدنيا، يعني هذا الاتصال بالله عز وجل، هذا الاتصال بالله ثمنه العمل الصالح، قاعدة .

قد تقف على باب إنسان أيام، دون أن يسمح لك بالدخول عليه، وقد تنتظر شهوراً، ولكن الله سبحانه وتعالى فتح باب رحمته على مصراعيه، وقال :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

وبعضهم قال: هذه الآية من الآيات القليلة في القرآن الكريم، التي تلخِّص القرآن الكريم، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ)

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

ماذا يوحى إلي؟ هذا القرآن، ما ملخصه؟ قال تعالى:

(أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

يجب أن تؤمن بالله واحداً، هذا يسمونه: توحيد الربوبية والألوهية، خالق واحد، ورب واحد، وإله واحد، هو الله سبحانه وتعالى، هذه كلمة، أي إنسان يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، ولكن قد تأتي ظروف، وتأتي مواقف محرجة، وتأتي إغراءات، وتأتي ضغوط، يبدو للمقصر أن هناك إلهاً آخر، لذلك يطيع هذا الذي ظنه إلهاً، ويعصي ربه، إذاً: هذا الإيمان النظري لا يكفي، كلما اجتهدت في معرفة الله عز وجل، ارتقى مستوى توحيدك، إلى أن تشعر أن كل خلية في جسمك، وكل شُعَيْرَة في جسمك تنطق بـ: لا إله إلا الله، لا معطي ولا مانع، ولا خافض ولا رافع، ولا معز ولا مذل، ولا قابض ولا باسط، ولا مسعد ولا مشقي، ولا محيي إلا الله عز وجل .

فأنت الآن بأي تعامل مع جهة، مع دائرة حكومية، تسأل: من بيده التوقيع؟ مَن بيده الموافقة؟ من هو الشخص الأول في هذه المؤسسة؟ من هو الذي بيده الأمر؟ بيده الموافقة وعدم الموافقة؟ أنت بدافع طبيعتك الإنسانية في تعاملك مع جهات متعددة، تحب أن تعرف من هو الشخص الأول؟ من هو الذي بيده كل شيء؟ من هو الذي إذا قال: نعم نعم، لا لا؟

يمكن أن تدخل مستشفى فتجد حجابًا، وتجد ممرضين، وتجد أطباء، وتجد موظفين، ومحاسبين، لكن يا ترى من الذي يسمح لك أن يقبل هذا المريض في سرير بالدرجة الأولى؟ المدير العام، فأي حديث تجريه مع أناس جانبيين مضيعة للوقت، لا يمكن أن يسمح لك بإدخال مريضك إلى هذه المستشفى إلا بموافقة المدير العام، هناك أطباء كُثُر، ورؤساء شُعَب بالأطباء، ومدراء مخابر، ومحاسبون، وممرضون، وحجّاب، وحرس .. إلخ، كل هؤلاء ليس بيدهم شيء .

وإذا كشفت في الدنيا أن الأمر كله بيد الله، خصومك بيد الله، أعداءك بيد الله، أحبابك بيد الله، زوجتك، أولادك، مَن هم دونك، من هم فوقك، صحتك، أجهزتك، قلبك، رئتاك، الكليتان، الدماغ، الأعصاب، إذا عرفت أن كل شيء بيد الله، قطعت علاقاتك مع الخلق، وربطتها مع الحق، هذا هو العلم، بل هذه نهاية العلم، لذلك قالوا: نهاية العلم التوحيد .

أي توحيد هذا، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((من قال: لا إله إلا الله بحقها، دخل الجنة، قالوا: وما حقها؟ قال: أن تحجزه عن محارم الله))

تكلمت كثيراً في هذا الموضوع، وأحب أن أقول، وأعيد عليكم هذا التشبيه: الشهوات التي أودعها الله في الإنسان قوى كبيرة، فاندفاعك إلى الطعام والشراب، اندفاعك إلى كسب المال، اندفاعك إلى

قضاء الملذات، هذه شهوات أودعها الله فيك كأنها محرك، تدفعك نحو تحقيقها، هذه الشهوات قوى، لا تقف في وجهها كلمات .

فلو السيارة منطلقة بسرعة مئة، ضع ورقًا هشًا في طريقها، هل يستطيع هذا الورق أن يقف في طريقها، أو أن يمنعها عن متابعة السير؟ هذه القوة المندفعة لا يقف في وجها إلا قوة كبرى، العلم قوة، إذا كان ضئيلا، وزنه عشرة غرامات، والشهوات خمسة كيلو، عشرة أخريات، عشرون، إلى أن تتشكل قناعات .

إذا كان الإنسان يسكن مثلاً -لا سمح الله ولا قدر- في طابق مرتفع، ومعه مرض يقتضي أن يكون طابقه أرضيًّا، سأل أول طبيب قال له: والله يجب أن تسكن في طابق أرضي ، وأعطاه تعليلا جيدًا، سأل الثاني، سأل الثالث، الرابع، قرأ نشرة، قرأ مقالة، خلال شهر، كلما سأل طبيب، وأشار عليه أن يسكن هذا الطابق الأرضي، وأن يدع هذا الطابق العلوي، إلى أن تتراكم هذه القناعات، في أحد الأيام ينطلق إلى الدلال، ويسأله عن بيت أرضي، تحرك الآن، ما الذي حركه؟ قناعاته .

أكلة يحبها الإنسان، أكل منها فحدثت له اضطرابات هضمية، سأل الطبيب، فقال له: يجب أن تمتنع عنها، لم يأخذ كلامه على محمل الجد، أعادها مرة ثانية فحدث معه اضطرابات أخرى، المرة الثالثة اضطرابات أشد، الرابعة سيتشكل معه قرحة دائمة، إلى أن تراكمت هذه القناعات، فحملته على ترك هذا الطعام، لاحظ نفسك لن تأخذ موقف عملي إلا بقناعة كبيرة .

أنا مرة ضربت مثلا، مرة جئت من شارع العدوي، في أيام الشتاء الباردة، وجدت إنسانًا يركض في الساعة العاشرة ليلاً، برد شديد، ويرتدي ثياب الرياضة، قلت: ما الذي حمل هذا الإنسان على أن يفعل ما يفعل؟ الناس جميعهم في بيوتهم، في غرفهم الدافئة، مع أهلهم، مستلقون على أرائك وثيرة، يشاهدون، يسألون، يمزحون، يتحدثون، وهذا مَن أمره أن يفعل هذا؟ إنها قناعاته، قناعته أن الرياضة شيء ثمين جداً، فيها وقاية للقلب .

هذه قاعدة مهمة جداً:

((كل حركاتك وسكناتك أساسها القناعة))

فإذا كنت بطلاً فابحث عن قناعات صحيحة، كي تحملك هذه القناعات على سلوك معين .

إذًا:

((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه))

ما العلاقة بين هذا وذاك؟ الناس رجلان؛ إنسان مؤمن بالله عز وجل، أعماله كلها صالحة، يقدم خدمات للناس بلا مقابل، يبذل خبراته، يبذل معلوماته، يبذل وقته في خدمة الخلق، ما الذي جعله يفعل هذا؟ إيمانه بالله عز وجل، أن الله سبحانه وتعالى يحبه إذا فعل هذا ، وهؤلاء عباده، فإذا أكرمهم فكأنما أكرم ربه، هكذا جاء في الحديث:

((من أكرم أخاه المؤمن فكأنما أكرم ربه))

الإيمان هو الأساس لهذا، لما سئل النبي عليه الصلاة والسلام:

((ماذا ينجي العبد يوم القيامة؟ قال: إيمان بالله))

الآن: الإنسان ما الذي ينجيه من الأمراض؟ يكون في عنده قناعات، أن الأمراض تحيل حياته الإنسانية إلى جحيم، والأمراض أسبابها الجراثيم، أسبابها عدم النظافة، فتجد الأطباء يبالغون في النظافة لماذا؟ لقناعات ثابتة عندهم .

فالقضية ليست قضية أننا قرأنا كتابًا، أو سمعنا خطبة، القضية أعمق من ذلك، يا ترى: هل لديك قناعات متراكمة، بحيث تجعلك تأخذ موقفًا معينًا من كل موضوع؟ حتى الواحد لا يغش نفسه، ويمشي في طريق فيه وهم، ويتوهم أنه مؤمن كبير، وهو مؤمن عادي، وأقل من العادي، حتى لا يكون غاشًا لنفسه، ظالماً لنفسه، يمتحن إيمانه هذا الامتحان: ما الذي قدمته في سبيل الله؟ ما الذي منعت؟ من أرضيت؟ من أغضبت؟ من وصلت؟ من قطعت؟ فما الموقف التي وقفتها بناء على إيمانك بالله؟ وما المواقف الأخرى التي وقفتها بناء على حبك لله؟ .

هذا الشيء الأساسي، لفت نظري هذه الصيغة:

((من كان يكرم بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه))

فالإنسان إذا أكرم ضيفه كما قال سيدنا عمر:

((هذه التفاحة أكلتها ذهبت، أطعمتها بقيت))

الإنسان لا يدري ما هي الثمرة من إكرام الضيف؟ قد يؤمن هذا الضيف على يد هذا الذي أكرمه، الضيف في عنده حساسية، ولا سيما المقصود بالضيف هنا، ليس ضيف البلد، إنسان انتقل من بلد إلى بلد، ولم يكن على عهد النبي الكريم هذه الفنادق، فلما يكون الإنسان مسافرًا، ويدخل على بيت، ويرحبون به، ويقدمون له الطعام والشراب والمأوى والنوم، فهذا إكرام كبير جداً .

((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه))

كلمة الرحم بمعناها الواسع: الأقرباء من جهة الأب أو من جهة الأم، بمعناها الضيق: أقرباء الأم، بمعناها الواسع: أقرباء الأب والأم .

((ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه))

ومرة ألقيت هذا الموضوع خطبة هنا، فجاءتني أسئلة كثيرة، الرحم، الآن له بنات خالة، له بنات عمة، إذا زار عمته أو خالته، أحرج من بنات عمته أو خالته، وقع في إحراجات، وتعليقات ساخرة، وفي أسئلة وأجوبة، وقد ينساق معهم، قد يألف الجلسة، وقد تحمله هذه المجاملة على ارتكاب معصية، فهو قد يخرج من بيت عمته أو بيت خالته، وقد وقع في إشكال كبير، أهذه هي صلة الرحم؟ لا والله، لذلك قالوا: دع خيراً عليه الشر يربو.

وكلكم يعلم أن سد الذارئع أحد أبواب الأحكام الشرعية، الأحكام الشرعية مصادرها: القرآن، والسنة، والإجماع، والقياس، هذه المصادر الأساسية، هناك مصادر فرعية؛ منها الاستحسان، منها العُرف، منها المصالح المرسلة، ومنها سد الذرائع .

فسد الذرائع باب أو مصدرٌ من مصادر الأحكام الشرعية، كإنسان يوجد في بلدة فيها خمور، وفيها معاصر للخمور، فبعض العلماء حرم في هذه البلدة زراعة العنب، لأن هذا العنب بالتأكيد سوف يصبح خمراً، إذاً: ما أدى إلى معصية فهو معصية، فكل ما أدى إلى معصية فهو معصية .

فالإنسان إذا أخذ موضوع الرحم بشكل مطلق؛ ووصل أقرباءه من دون انضباط، من دون تحفظ، من دون ما يعلن عن اتجاهه الديني، من دون أن يرفض الاختلاط، من دون أن يرفض بعض المعاصي، هذه ليست صلة الرحم، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ)

[سورة التوبة الآية: ٦٢]

((ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق))

هل واضح ذلك؟ .

((ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليصمت))

((يا رسول الله أو نؤاخذ بما نقول؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على مناخرهم في جهنم إلا حصائد ألسنتهم؟))

الحديث المعروف الذي يقول فيه النبي عليه الصلاة والسلام:

((لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك]

يا أخوان، كما قلت لكم سابقاً: الإيمان جهد، الجنة ثمنها كبير، ألا إن سلعة الله غالية، يجب أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وأن تذكر الموت والبلى، هذا الرأس فيه عينان، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[سورة البلد الآية: ٧-٨]

فهل الذي خلق لك العينين لا يراك؟! قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ * أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

[سورة البلد الآية: ٧-٨]

إذاً: اللسان بابٌ كبير من أبواب المعاصي، لذلك قالوا: هناك معاصٍ في الأقوال، ومعاصٍ في الأعمال، واللسان باب كبيرٌ جداً من معاصي الأقوال، الصامت في سلام، والمتكلم إما له أو عليه . والإنسان قد يتكلم كلمة لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً؛ قد تفرِّق بين زوجين، بين أخوين، بين شريكين، قد تفسد علاقة بين إنسانين، قد تجعل إنسان يتألم من نفسه .

٢-من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته........:

وعن أبي شريح، خويلد بن عمرو الخزاعي رضي الله عنه قال:

((سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جائزته، قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: يومه وليلته .

-الضيف المسافر الذي يأتيك من فج عميق ويقصدك، له عندك جائزة، جائزته أن تستضيفه يوماً وليلة، لذلك ثمة أشخاص يحبون أن يكونوا مستعدًا للضيف، يقول لك: هذه الفرش للضيوف، يهيئ غرفة الضيوف، حيث إنه يستقبل بها الضيوف، والإنسان بحسب اتساعه، هناك أشخاص يهيئون طابقًا بأكمله.

أعرف أناسًا ميسورين، عندهم طابق بأكمله للضيوف .

زرت مرة رجلاً في بعض المناطق، قال لي: هذه الشقة كلها للضيوف، خذ حريتك، شيء جميل إذا كان الأخوة في الله صادقة، والإنسان ميسور .

لذلك-: فليكرم ضيفه جائزته قالوا: وما جائزته يا رسول الله؟ قال: يومه وليلته، والضيافة ثلاثة أيام، فما كان وراء ذلك، فهو صدقة))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما]

هناك جائزة، وضيافة، وصدقة، يوم وليلة جائزة، من حق الضيف، ثلاثة أيام من حق الضيافة، ما زاد عن هذه الأيام الثلاثة، فهو صدقة على هذا الضيف .

بطاقة دعوة :

نحن بالمناسبة: كل عيد تأتي زيارات الأخوة لبعضهم البعض، قد تأتي أحياناً مخفقة، ينطلق من بيته إلى بيت صديقه بطرف المدينة الثانية ربما لا يجده، يشعر بالإحباط، فنحن في العيد الماضي، والله سبحانه وتعالى تفضل علينا بهذه الطريقة، صارت الزيارة في المسجد، في قاعة المكتبة، عندنا ثاني أيام العيد يوم الثلاثاء، من الساعة العاشرة -إن شاء الله تعالى- وإلى أذان الظهر، ثلاث ساعات تقريباً، فكل الزيارات تكون في هذا الوقت، والإنسان يتفرغ في العيد إلى أقربائه، الذين لا يتاح له أن يتصل بهم، أو أن يزورهم إلا في أيام العيد، أيام العيد، أيام زيارة الأقارب، وأيام صلة رحم .

انظر إلى هذه الكلمات التي خرجت من ثنايا هذا الصحابي أمام رسول الله في هذا الموقف، فمن يكون هذا الصحابي إذاً؟ ولماذا لم يعين النبي غيره؟:

ننتقل إلى قصة صحابي جليل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

صحابي اليوم: سيدنا ثابت بن قيس، هذا خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، النبي عليه الصلاة والسلام له شاعر، وله خطيب، فكان حسَّان شاعر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان ثابت خطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الكلمات تخرج من فمه قوية صادعة جامعة رائعة .

وفي عام الوفود، وفد على المدينة وفد بني تميم، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

((جئنا نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، -هكذا كانت العادات في الجاهلية، جئنا نفاخرك، أي جئنا لنفتخر عليك، وهو النبي عليه الصلاة والسلام، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم))

لو أنه طردهم، ما فعل شيئاً، ولكنه حلم عليهم، واستوعبهم -بالتعبير الحديث-، واحتواهم.

كلمة كبيرة جداً أن يقول إنسان لرسول الله: جئنا نفاخرك، جئنا نفتخر عليك، نحن كذا ، نحن كذا، مَن من البشر، بإمكانه أن يقول كلمة مدح لنفسه، أمام النبي الكريم؟! .

الآن: إذا زرت المقام النبوي الشريف، لو كان يقف أمام المقام أكبر شخصية معاصرة، لا قيمة لها أمام قبر النبي، أحياناً موسم الحج يأتي وفود من دول كثيرة، يأتي رؤساء، حكماء، وزراء، رؤساء جمهوريات، ملوك، إذا دخل هؤلاء جميعاً الحرم النبوي الشريف، لا ترى لواحد منهم شأناً وهو في الحرم، لمَن الشأن في الحرم النبوي الشريف؟ للنبي عليه الصلاة والسلام .

فهذا يقول: جئنا نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، فابتسم النبي عليه الصلاة والسلام، أنت أحياناً لا يعرف أحدهم قيمتك، تجاوز حده، كن حليمًا، قد يكون للإنسان رتبة، له مكانة، له وظيفة عالية، له مؤلف .

ذات مرة، شخص لم يكن معي النظارات، كنت في مكان، لا بد أن أوقع توقيعًا، قلت له: والله اقرأ لي ما المكتوب؟ ظنني أميًّا، قال لي: هذه هكذا، قال لي: تحب أوقع أنا عنك؟ قلت له: شكراً، أنا أوقع .

فإذا نسي أحدكم النظارة، واضطررت فسألت: اقرأ لي ماذا كتب، إذا لم يعرفك أحدهم فهل تشتمه؟!.

النبي الكريم بكل تواضع، أنت مخبوء بثوبك، فمَن يعرفك؟ إذا سافر الإنسان فلا أحد يعرفه، الآن في الحج لا أحد يعرف أحدًا، أنت كما قال الله عز وجل:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)

[سورة الأنعام الآية: ٩٤]

هذا تعليم لنا، نبينا الكريم، سيد الخلق، حبيب الحق، يوحى إليه، المعصوم، سيد ولد آدم، يقول له شخص: جئت أفاخرك، هذا يجب أن يطرده، يخرجه، أخرجوه عني، النبي تبسَّم عليه الصلاة والسلام، يكون للواحد شهادة بسيطة، وظيفة متواضعة، له مكانة وضيعة، له مؤلف واحد، إذا ظنه الناس غير متعلم، يقول: يا أخي لم يعرفوا قدري، لم يعرفوا مكانتي، لا، ، تعلم من النبي الكريم التواضع- .

قال: جئنا نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا، فابتسم النبي عليه الصلاة والسلام وقال: قد أذنت لخطيبكم فليقل .

-تفضل فاخرنا يا أخي- فقام خطيبهم عطارد بن حاجم، ووقف يزهو بمفاخر قومه، ولما آذن بانتهاء، قال عليه الصلاة والسلام لثابت بن قيس: قم فأجبه، ونهض ثابت فقال: الحمد لله الذي السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمره، ووسع كرسيه علمه، ولم يكن شيءٌ قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا أئمة، واصطفى من خير خلقه رسولاً، أكرمهم نسباً، وأصدقهم حديثاً، وأفضلهم حسباً، فأنزل عليه كتابه، وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان به، فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس أحساباً، وخيرهم فعالاً، ثم كنا نحن الأنصار أول الخلق إجابة، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله)). تكلم ارتجاليًا في حضرة النبي .

بالمناسبة: الإنسان يتكلم، وقد يكون طليق اللسان، أما أن يتكلم بحضرة مَن علّمه، أو بحضرة نبي عظيم، يفقد أربعة أخماس قدراته، انظر إلى طبيب متخرجٍ حديثاً، وقل له: عالج هذا المريض في حضرة أستاذك، يرتبك، هذا الشيء معروف .

الإنسان يجول ويصول مع مَن دونه، أما مع أقرانه، طبيب في بسهرة، يتكلم كما يشاء، لا يوجد من يردّه، أمّا بوجود طبيبين آخرين في السهرة، فقد يخطأً، أحياناً أطباء، أحياناً محامون، أحياناً مدرسون، أحياناً مثقفون، أحياناً علماء، فإن تتكلم بطلاقة أمام أنداد لك من مستواك، فالقضية ليست سهلة، أما أن تتكلم أمام النبي الكريم، فهذا الشيء يحتاج إلى قدرات عالية جداً .

هذا الخطيب اللامع، دائماً أهل اللسان بطولاتهم في اللسان فقط، في الخطابة، والتأليف .. إلخ، لكن قلما يجمع الإنسان بين بطولة السنان واللسان .

من بطولات هذا الصحابي سجلها التاريخ في حقبه الغابر:

أيها الأخوة، هذا الخطيب الصحابي الجليل فبقدر ما هو خطيب مصقع، بقدر ما هو بطل شجاع، ففي معركة اليمامة التي شن فيها مسيلمة الكذاب حرباً شعواء على المسلمين، صاح هذا الصحابي الجليل وخطيب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((والله ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ذهب غير بعيد، وعاد، وقد تحنَّط، ولبس أكفانه، وصاح مرة أخرى: اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء -يعني جيش مسلمة- وأعتذر إليك مما صنع هؤلاء

-أي تراخي المسلمين في القتال .

النقطة الدقيقة في هذه الحادثة: أن النبي عليه الصلاة والسلام ربَّى أصحابه على معرفة الله، وعلى الإخلاص له، فكان معهم أو لم يكن معهم .

فأنت إذا كنت داعية لله عز وجل، المفروض أن تبني أخوانك بناء حيث يكونون ورعين معك، وبعيداً عنك، في حلهم وترحالهم، في جدِّهم ولهوهم، في إقامتهم وسفرهم، في يسرهم وعسرهم، في إقبال الدنيا عليهم، وفي إدبارها عنهم، ماذا قال الله عز وجل؟ قال:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب الآية: ٢٣]

وانضم إليه سالم مولى النبي عليه الصلاة والسلام، وكان يحمل راية المهاجرين، وحفر الاثنان لنفسيهما حفرة عميقة، ثم نزلا فيها قائمين، وأهالا الرمال عليهما، حتى غطت وسط كل منهما، وهكذا وقف طودين شامخين، نصف كل منهما، غائص في الرمال، مثبت في أعماق الحفر، بينما نصفه الأعلى، صدره وجبهته وذراعاه، يستقبلان جيوش الوثنية والكذب، وراحا يضربان بسيفيهما، كل من يقترب منهما من جيش مسيلمة، حتى استشهدا في مكانهما .

-خطيبٌ، ولكنه بطل، هكذا كان السلف الصالح، بقدر ما هو عالم، بقدر ما هو شجاع، بقدر ما هو منطقي، ونظري، وفكري، بقدر ما هو عملي، ويضحي- .

قال: وكان مشهدهما رضي الله عنهما هذا أعظم صيحة أسهمت في رد المسلمين إلى مواقعهم، حيث جعلوا من جيش مسيلمة الكذاب تراباً تطأه الأقدام))

من مبشرات ثابت بن قيس كما بينها له محمد رسول الله:

هذا الخطيب المصقع كما يقولون، لما نزل قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[سورة لقمان الآية: ١٨]

أغلق ثابت باب الدار، وجلس يبكي، وطال مكثه على هذه الحال، حتى نمي إلى النبي عليه الصلاة والسلام أمره، فدعاه وسأله، فقال ثابت:

((يا رسول الله، إني أحب الثوب الجميل، والنعل الجميل، وقد خشيت أن أكون بهذا من المختالين.

-الإيمان الحقيقي، إذا قرأت كتاب الله عز وجل، ورأيت وصفاً من أوصاف المؤمنين لا ينطبق عليك، أو رأيت وصفاً من أوصاف المنافقين ينطبق عليك، يجب ألا تنام الليل، هذا الحد الأدنى في الإيمان، أما أن تقرأ أوصاف المؤمنين، وأنت بعيد عنها، أن تقرأ أوصاف المنافقين، وبعضها متلبِّس بها، وتنام مطمئن البال مرتاحاً، ليس هذا من صفات المؤمنين- .

قال: يا رسول الله، إني أحب الثوب الجميل، والنعل الجميل، وقد خشيت أن أكون بهذا من المختالين . فأجابه النبي صلى الله عليه وسلم وهو يضحك راضياً: إنك لست منهم، بل تعيش بخير، وتموت بخير، وتدخل الجنة))

فبشره النبي عليه الصلاة والسلام .

حادثة مشابهة: لما نزل قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ)

[سورة الحجرات الآية: ٢]

أغلق ثابت عليه داره، وطفق يبكي، كان خطيب مفوه، صوته جهوري، مرتفع، يبدو أنه كان قد يعلو صوته فوق صوت النبي، فظن أن هذه الآية قد تنطبق عليه، فجلس يبكي، ويندب حظه، فلما سأله النبي عن غيابه، قال:

((يا رسول الله، إني امرؤ جهير الصوت، وقد كنت أرفع صوتي فوق صوتك يا رسول الله، وإذاً: فقد حبط عملي، وأنا من أهل النار أيضاً، النبي الكريم أجابه: إنك لست منهم، بل تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، ويدخلك الله الجنة))

من كرامات ثابت بن قيس :

آخر قصة من قصص هذا الخطيب الصحابي الجليل: لما استشهد سيدنا ثابت رضي الله عنه، مر به واحد من المسلمين، الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام، ورأى على جثمانه درعاً ثمينة، فظن هذا الرجل الحديث العهد بالإسلام، أن من حقه أن يأخذها، فأخذها، ولندع راوي الواقعة يرويها بنفسه: بينما رجل من المسلمين نائم، أتاه ثابت في منامه، فقال له:

((إني أوصيك بوصية، فإياك أن تقول: هذا حلم فتضيعه، إني لما استشهدت بالأمس، ومر بي رجل من المسلمين، فأخذ درعي، وإن منزله في أقصى الناس، وقد كفأ على الدرع برمة، وفوق البرمة رحل، فأتِ خالدًا، فمره أن يبعث فيأخذها، فإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقل له: إني عليَّ من الدين كذا وكذا، فليقم بسداده،

-هذه كرامة-.

فلما استيقظ الرجل من نومه، أتى خالد بن الوليد، فقص عليه رؤياه، فأرسل خالد من يأتي بالدرع، فوجدها كما وصف ثابت تماماً، ولما رجع المسلمون إلى المدينة، قص المسلم على الخليفة الرؤيا، فأنجز وصية ثابت، وقالوا: هذه ليس في الإسلام كله، وصية ميت أنجزت بعد موته على هذا النحو، سوى وصية ثابت بن قيس، فكرامة له، لأنه بذل روحه في سبيل الله، هذا الدين الذي عليه))

سيدنا النبي كان إذا مات أحد أصحابه يقول:

((أعليه دين؟ فإن قالوا: نعم، قال: صلوا على صاحبكم))

لا يصلي على أحد من المسلمين، إلا إذا برّأ الساحة من الدين، لذلك: إذا كان الصحابة الكرام إذا توفي أحد أخوانهم يقول أحدهم: عليّ دينه يا رسول الله، أنا أدفع دينه، صل عليه، علي دينه لعظم حق الدين، فهذا المنام أحياناً يكون كرامة من الله عز وجل .

أنا سمعت عن رجل صالح جداً من أولياء الله، يسكن بيتًا صغيرًا، وصاحبه طلبه منه، وبطريقةٍ أو بأخرى أخرجه منه، فصار بلا مأوى .

أحد الأشخاص الميسورين، رأى في المنام النبي عليه السلام، وقال له:

((اشتر لفلان بيتاً))

القصة وقعت ببلدة عربية، فالمنام أحياناً يكون كرامة من الله عز وجل، فهذه رؤيا واضحة تماماً، إنسان استشهد في عليه دين، وعنده درع أخذت منه بلا حق، فقال لمسلم: استشهدت وعلي درع ثمينة أخذها فلان، بيته في المكان الفلاني، وضعها في المكان الفلاني، خذها وأعطها لسيدنا خالد، وقل لأبي بكر: علي دين فلينفذ وصيتي، وهذه أول وصية لميت أنجزت بعد موته .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٤٣-١٠١) : باب - أحاديث شتى تحت عنوان: ما يوافق الفطرة وما يخالفها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-٠١-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

ما المقصود بهذين الحديثين، وماذا نستنبط منهما ؟

أيها الأخوة المؤمنون، عَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ:

((سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ فقالَ: الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن النواس بن سمعان]

عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ الأَسَدِيِّ:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ لِوَابِصَةَ: جِئْتَ تَسْأَلُ عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ؟ قالَ: قُلْتُ: نَعَمْ، قالَ: فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ، فَضَرَبَ بِهَا صَدْرَهُ، وَقالَ: اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ يَا وَابِصَةُ ثَلاثًا، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، والإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

هذان الحديثان علامَ يدلان؟ على كلمة واحدة: البر، الفطرة .

أيها الإنسان فُطِرت فطرة عالية، بحيث لو فعلت شيئاً سيئاً، شعرت بالضيق، ترددت، حاك هذا في صدرك، كرهت أن يطّلع عليه الناس، من دون علم ومعلومات، من دون تدريس وتوجيه، من دون قراءة، من دون خطابة، الله سبحانه وتعالى تفضّل على الإنسان ففطره فطرة عالية، بحيث إذا أساء، عذبته فطرته .

إذاً: نستنبط استنباطًا آخر: أن الفتوى وحدها من دون أن تطمئن وترتاح لها، لا تنجيك من عذاب الله، وأكبر دليل عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا أَقْضِي لَهُ بِمَا يَقُولُ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِشَيْءٍ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ بِقَوْلِهِ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلا يَأْخُذْهَا))

إذاً: هل من فتوى أعظم من أن يفتي النبي عليه الصلاة والسلام، وهو المعصوم، وهو المشرّع، وهو سيد الخلق؟ لو انتزعت من فم النبي فتوى ولست محقاً، وحاك في صدرك، وتردد في

صدرك، وشعرت بالحرج والضيق، وضاقت نفسك، ووخزك ضميرك، وانقبض قلبك، فالفتوى لا قيمة لها .

لذلك قالوا: الفتوى تحتاج إلى تقوى، وقالوا: هناك فتوى، وهناك تقوى، فالتقوى أن تراقب الله عز وجل، وأن تجعل من اطمئنان قلبك ونفسك مقياساً صحيحاً لهذا الذي تقبله من الفتاوى أو تفتيه من الفتاوى .

بالمناسبة: كلما كنت جباناً في الفتوى، كانت هذه صفة عالية فيك، وكلما كنت جريئاً في الفتوى، كانت هذه الجرأة جسراً إلى النار .

قبل أن تفتي للناس، والحقيقة: المشكلة: الفتوى اختصاص، فالإنسان يدرس الأحكام الشرعية بعمق بالغ، بتوسع كبير، باطلاع واسع، بدراسة المذاهب كلها، فإذا سئل ربما أجاب ، أما الناس فقد ألفوا أن أي إنسان له مسحة دينية أصبح مفتيًا.

يقول: سألت إمام الجامع، هل الإمام مفتٍ؟ الإمام يقرأ القرآن، يوجد إمام، وخطيب، وعالم، وداعية، وقاض، ومجتهد، الفتوى شيء والاجتهاد شيء، والقضاء شيء والفتوى شيء، والدعوة شيء، الداعية غير العالم، والعالم شيء والخطيب شيء، والمدرس الديني شيء، والإمام شيء، والقارئ شيء، كلٌّ اختصاصه .

أي إنسان له مسحة دينية رقيقة، يسأله الناس دائماً، أكثر الأسئلة في الطلاق، والإجهاض، والمواريث، وتوزيع الإرث، يسأل عنها أناسًا لا يعلمون شيئاً، لذلك ليس العلم الديني كلأً يرعاه كل الناس، اختصاص، قد تكون ديّنًا، وقد تكون عابدًا، وقد تكون ورعًا، وقد تكون مؤمنًا، وقد تكون ناجيًا، ولكن أن تفتي، فهذا شيء كبير جداً .

قصة تلوتها عليكم عشرات المرات، أعلم علماء العصر: الإمام أحمد بن حنبل، جاءه وفد من المغرب العربي، أعتقد الطريق، يحتاج إلى ثلاثة أشهر، ومعهم ثلاثون سؤالاً، وعرضوا هذه الأسئلة على الإمام أحمد، فعرف منها سبعة عشر سؤالاً، فلما سألوه عن الأسئلة الباقية، قال:

((لا أعلم، فقالوا: جئناك من أقصى الدنيا، وأنت الإمام أحمد، إمام العصر ولا تعلم، فقال: قولوا لهم: الإمام أحمد بن حنبل لا يعلم))

وطّن نفسك أن تقول: لا أعلم، مهما كنت كبيرًا جداً، وعظيما جداً، إذا قلت: لا أعلم، اسأل غيري، وهذا الذي يسرع بالإجابة: لا يعلم حقيقة لا يعلم .

هذا الحديث متواتر تواترًا معنويًا، ورد بصيغ عديدة، فإذا تواتر الحديث تواتراً معنوياً، فالموضوع مهم جداً .

إليكم هذه الروايات التي وردت عن النبي بشأن موضوعنا اليوم :

١-أتيت رسول الله......:

عَنْ وَابِصَةَ الأَسَدِيِّ قَالَ:

((أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ لا أَدَعَ شَيْئًا مِنَ الْبِرِّ وَالإِثْمِ إِلا سَأَلْتُهُ عَنْهُ، وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَسْتَفْتُونَهُ، فَجَعَلْتُ أَتَخَطَّاهُمْ، قَالُوا: إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: دَعُونِي فَأَدْنُوَ مِنْهُ، فَإِنَّهُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ أَنْ أَدْنُوَ مِنْهُ، قَالَ: دَعُوا وَابِصَةَ، ادْنُ يَا وَابِصَةُ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا قَالَ: فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا وَابِصَةُ أُخْبِرُكَ أَوْ تَسْأَلُنِي، قُلْتُ: لا، بَلْ أَخْبِرْنِي، فَقَالَ: جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، فَجَمَعَ أَنَامِلَهُ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِنَّ فِي صَدْرِي، وَيَقُولُ: يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ))

أخ كريم، وجد محضرًا في بعض أحياء دمشق الحساسة، استطاع بذكاء بارع أن ينزل بالمزاد بشكل تمثيلي، فالمحضر مثلاً -هذه قصة من اثنتي عشرة سنة- سعره سبعمائة وخمسون ألفًا، تمكن من إنهائه بأربعمائة وخمسين ألفًا، المزايدات قليلة جداً، ثم جاء يسألني قال: تمكنت أن أشتري هذا المحضر بمبلغ أقل من ثمنه الحقيقي بالثلث تقريباً، فما الحكم الشرعي؟ طبعاً بهذا المحضر، من أصحاب المحضر أيتام، قلت: لماذا جئت تسألني؟ قال: لأنني متضايق، قلت له: هذا هو الجواب .

الإنسان عندما يسأل، يكون منزعجًا وقلقًا .

لو فرضنا أنك عطشان، وبرّاد الماء جاهز، والكأس جاهزة، والماء بارد، وترغب بماء بارد، وجسمك يحتمل الماء البارد، شربت كأس ماء بارد، ممكن أن تسأل عنها مفتيًا، أنك فعلت شيئا خطأ، هل لها مشكلة؟ ما الحكم الشرعي؟ هنا لا يهمك لأنها بديهية، الحلال ليس له مشكلة، لا أحد يختلف عليه، لا أحد يسأل عنه، أولادك يطلبون الفاصولياء، أحضرت الفاصولياء واللحمة، وطهيتهم، وأكلتم فاصولياء ورزا، هل يلزم هذه سؤال مفتٍ؟ بديهي، فعندما تسأل، يعني هذا: أنك قلق، لماذا؟ لأنه أصبح هناك تردد، بمجرد أن تسأل، أنت قلق، لذلك قالوا:

((نفي الشيء أحد فروع تصوره))

إذا باعك أحدهم شيئًا قال لك: أنا لم أرفع الثمن عليك، معنى هذا أنه رفع الثمن عليك، هو شعر بوخز ضمير، فبادر إلى النفي، وهذا النفي إثبات، أحياناً الإنسان الذي ينفيه كأنه يثبته.

لذلك قالوا:

((نفي الشيء أحد فروع تصوره))

٢-البر ما انشرح له الصدر....:

هناك رواية ثانية: قال: سمعت وابصة، وذكر الحديث مختصراً، ولفظ الحديث المختصر:

((البر ما انشرح له الصدر، والإثم ما حاك في صدرك، وإن أفتاك عنه الناس))

لذلك لي كلمة شهيرة: كل إنسان سألني سؤال، أقول له: الفتوى موجودة، تريد الفتوى أم التقوى؟ فإن كنت تبحث عن الفتوى، فليس هناك مشكلة، إنك تجد لكل معصية فتوى، وعوام الناس يقولون لك: ضعها برقبتي، من أنت؟ ومن أنت حتى أدعها في رقبتك؟ صدق القائل:

يقولون هذا عندنا غير جائز ومن أنتم حتى يكون لكم عند

من أنتم؟ أنتم فقهاء؟ هل أنتم مرجع في الدين؟ مجتهدون؟ علماء؟ .

٣-ما الإيمان؟......:

وفي رواية: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ، أَنَّ رَجُلا سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: إِذَا سَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ، وَسَاءَتْكَ سَيِّئَتُكَ، فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا الإِثْمُ؟ قَالَ: إِذَا حَاكَ فِي صدرك شَيْءٌ فَدَعْهُ))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه والحاكم في مستدركه عن أبي أمامة]

٤-ما رأيت شيئاً....:

الشيء الذي له إشكال ضيق؛ تردد، خوف، قلق، خجل، دعه، وأدق ما في هذا المعنى قول حَسَّان بْن أَبِي سِنَانٍ:

((مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَهْوَنَ مِنَ الْوَرَعِ؛ دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لا يَرِيبُكَ))

٥-قلت: يا رسول الله، أخبرني....:

وفي رواية أخرى: عَنْ الْخُشَنِيِّ يَقُولُ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَخْبِرْنِي بِمَا يَحِلُّ لِي وَيُحَرَّمُ عَلَيَّ، قَالَ: فَصَعَّدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَصَوَّبَ فِيَّ النَّظَرَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْبِرُّ مَا سَكَنَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَالإِثْمُ مَا لَمْ تَسْكُنْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَإِنْ أَفْتَاكَ الْمُفْتُونَ))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير والإمام أحمد في مسنده عن الخشني]

أحياناً: الإنسان يستفتي إنسان يتلقى الفتوى لصالحه، وتجده يبحث عن إنسان آخر يسأله، وتأتي الفتوى الثانية لصالحه، يبحث عن إنسان صالح، هذا البحث والتجول بين المفتين دليل قلق .

٦-أفتن عن أمر......:

عن وائل بن الأتقع رضي الله عنه قال:

((قلت للنبي صلى الله عليه وسلم: أفتن عن أمر لا أسأل عنه أحداً بعدك، فقال عليه الصلاة والسلام: استفتِ نفسك، قلت: كيف لي بذلك؟ قال: تدع ما يريبك إلى مالا يريبك، وإن أفتاك المفتون، قلت: كيف بذلك؟ قال: تضع يدك على قلبك، فإن الفؤاد ليسكن للحلال، ولا يسكن للحرام))

الفؤاد يسكن ويرتاح للحلال، ولا يسكن ولا يرتاح للحرام .

٧-يا رسول الله، ما يحل لي.....:

ورواية سابعة: عن عبد الله بن معاوية بن حديج، أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:

((يا رسول الله، ما يحل لي مما يحرم علي، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فردد عليه ثلاثا، كل ذلك يسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: أين السائل؟ ثم قال: أنا ذا يا رسول الله، قال ونقر بأصبعه: ما أنكر قلبك فدعه))

٨-الإثم حزاز القلوب....:

وفي حديث مختصر مفيد، صحّ عن ابن مسعود، ولعله رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((الإثم حزاز القلوب))

إذا أحضر الإنسان شفرة، وشد عضلاته، وحركها على جلده، يشعر بوخز الجرح، شعر بألم الجرح، فقال: الإثم حزاز القلوب، تشعر بأن قلبك جرح، تشعر بحجاب نشأ بينك وبين الله، تشعر أن القضية غير صحيحة، غير مقبولة، غير مريحة .

الهدف من هذا الدرس: أن ينمو أيها الأخوة عندكم حس فطري، يدلكم على الحلال وعلى الحرام .

وفي رواية أخرى لهذا الحديث المقطوع أو المرفوع: قال عبد الله:

((إياكم وحزاز القلوب))

بالمناسبة، أحياناً: يكون ميزان الإنسان دقيقًا جداً، أحياناً: يكون في الميزان خطأ، مثل القبّان، ضع عليه ورقة هل تتحرك؟ مجموعة لا تتحرك، كتاب لا يتحرك، ابدأ بالكيلو، هناك ميزان يتحرك بكتاب، وميزان يتحرك بورقة، تضع الورقة، وتزنها، تكتب كلمة: محمد، ترجح كفة .

فكلما كان إيمان المؤمن عاليًا، يكون ميزانه حساسًا، يحاسب نفسه على النظرة، على الكلمة، على الالتفاتة، على الابتسامة، على حركة الرأس، إذا قال أحدهم له: أفعلها، فيها ظلم، إذا هزّ برأسه بالموافقة، فأصبح شريكه بالإثم.

((من أعان ظالماً -ولو بشطر كلمة، وليس كلمة بكاملها- جاء يوم القيامة مكتوب على جبينه: آيس من رحمة الله))

وفي قول:

((من أعان ظالماً سلّطه الله عليه))

قال عبد الله:

((إياكم وحزاز القلوب، وما حزّ في قلبك فدعه))

وقال أبو الدرداء:

((الخير في طمأنينة، والشر في ريبة))

٩-أرأيت شيئاً......:

وروى ابن مسعود من وجه منقطع، أنه قيل له:

((أرأيت شيئاً، يحيك في صدورنا، لا ندري حلال هو أم حرام؟ فقال: إياكم والحكاكات، فإنها الإثم))

الحكاكات التي تحيك في الصدور، لست مرتاح، يقول لك: لم أرتح لهذه القسمة، كتبت وصية ولم أرتاح، باع البيت ولم يرتاح، في البيت عيب، في ضعف في الأساسات، فلما اشتراه مشترٍ، لم يقل له شيئًا، قال له: كله حلال، تفضل، انظر، البيت واضح، لكن هذه علّة خفية.

أنا أعرف رجلا، لديه مركبة فيها عطل كبير في المحرك، فقال لي: في مساء اليوم الذي باعها: الحمد لله بعتها، وألبستها لرجل آخر، وقال هذا مفتخراً، وكأنه عدّ نفسه ذكياً، واشترى سيارة من طرطوس جاهزة، وأخذها أفخر نوع، وبلونٍ كحلي العروس، أحضرها في اليوم الخامس، أصيبت بحادث، جعلتها مسطحة .

فجاءني وقد علاه الضجر، فقلت له: ألم تقل لي قبل خمسة أيام: ألبستها لرجل؟ .

((الإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس))

إخفاء العيب؛ غش، حرام، سواء في بيع بيت أو سجادة، يسترخصها المشتري فيها علة إذاً، أما إذا ذكرت العلة، وخفضت الثمن، فلا شيء عليك .

إليكم معاني البر :

النبي عليه الصلاة والسلام فسّر البر بحسن الخلق، وفسره بما اطمأنت إليه النفس.

فمرة ثانية تعقيباً على الدرس السابق: الإنسان الذكي العاقل، يعرف نمط جسمه مبدئياً، هذه الأكلة لا تناسبني، هذه الأكلة تسبب لي إعياء، هذه الأكلة هضمها صعب، أحياناً يتحسس حساسية دقيقة جداً، ليت هذا الإنسان الحريص على جسمه، وعلى أجهزته، وأعضائه، يتحسس الحساسية نفسها بقلبه، هذا العمل أظلم له قلبه، هذا العمل حجبه عن الله، هذا العمل أساء له، هذا العمل أربكه، هذا العمل أشعره بالقلق، فكلما أصبح لدى الإنسان القدرة على الاستبطان الداخلي كما يسمى، أو تأمل الذات، أو التضفر بالذات، ويتابع أحوال قلبه، من انطلاق إلى خمود، إلى قلق، إلى تراجع، إلى خجل، إلى إقدام، إلى فخر، إلى حياء، الإنسان الذي يتتبع أحوال قلبه تتبع دقيق، هذه علامة إيمانه .

وهذا ما أكده سيدنا عمر قال:

((تعاهد قلبك))

لماذا أقبلت على الله في الصلاة؟ لماذا هذه الصلاة صليتها محتجباً عن الله؟ شعرت بالحجاب، الحجاب معه مخالفة .

البر هو الإحسان، وهو معاملة الخلق بالإحسان إليهم، الإحسان كلمة مطلقة، لن تكون مؤمناً إلا إذا أحسنت للآخرين إحساناً مطلقاً في كل الأحوال .

بعضهم قال:

((أولى الناس بالإحسان الوالدان))

وبعضهم قال:

((الإحسان إذا أطلق، انطلق للإحسان للخلق عموماً))

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيِ اللّهم عَنْهم قَالَ:

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى إلى النبي صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أَبُوكَ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

وقد قيل:

أخي البر شيء هين وجه طلق وكلام لين

عن جَابِرٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلا الْجَنَّةُ، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا الْحَجُّ الْمَبْرُورُ؟ قَالَ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلامِ))

عندما قال ربنا عز وجل:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

بعضهم قال:

((البر صلاح الدنيا، والتقوى صلاح الآخرة))

بعضهم قال:

((البر الإحسان والعمل الصالح، والتقوى اجتناب المعاصي))

اتقِّ أن تعصي، البر الإحسان، البر إيجابي، والتقوى سلبية، هذا معنى آخر، قال تعالى:

(وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية: ٢]

الإنسان قد يأثم دون أن يعتدي، لو فرضنا أنه شرب الخمر، لم يعتدِ على أحد، لكنه اعتدى على نفسه، فشربُ الخمر إثمٌ، أما أن تغتصب مال أخيك فهذا عدوان، إذا كانت المعصية طالت الغير فهي عدوان، أما إذا طالت النفس وحدها فهي إثم، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية: ٢]

بعضهم قال:

((البر أن يراد به فعل جميع الطاعات الظاهرة والباطنة))

قوله تعالى:

(لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آَمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)

[سورة البقرة الآية: ١٧٧]

فالبر جماع كل خير، العقيدة الصحيحة مع العبادات، مع المعاملات، مع الأخلاق، مع الصبر، هذا كله جاء في الآية براً، وكل هذا تطمئن إليه النفس .

عندما قال عليه الصلاة والسلام:

((البر حسن الخلق))

بعضهم قال: قصد به التخلق بأخلاق الشريعة، والتأدب بآداب الله التي أدب بها عباده في كتابه، حيث قال عن رسوله صلى الله عليه وسلم:

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)

[سورة القلم الآية: ٤]

وكان عليه الصلاة والسلام كما تقول السيدة عائشة:

((كان خلقه القرآن))

فكان القرآن له خلقاً كالجبلة والطبيعة لا يفارقه، أحياناً يتعرض الإنسان إلى استفزاز، فتحدثه نفسه بالانتقام، لكن يقع في صراع، فينتصر على نفسه بشق الأنفس، ويضبط أعصابه، ويكظم غيظه، ولا يفعل شيئاً، هذا ليس على خلق عظيم، وصل لهذا الخلق بشق الأنفس، وبمشادة مع نفسه كبيرة جداً، بجهاد كبير، لكن المؤمن الكامل في الأعماق، معنى في الأعماق: تمكن الأخلاق من نفسه، الأخلاق العالية متغلغلة في أعماق أعماق نفسه، احتمال أن يتغير، لكنه نادر جداً .

مثلا: تخيل ميزانًا، وضع في كفته خمسة وعشرون كيلو، لو أمسكت ليرة سورية، ووضعتها فيه، هل تحرك الليرة الكفة؟ مستحيل، إذا الخُلق خمسة وعشرون كيلو، والاستفزاز ليرة سورية لا تؤثر، لكن إذا كان الخلق كله ليرتين، ووضعت ليرة ونصفًا مع نسمة هزة بسيطة، تجد أن الكفة اهتزت .

فهناك إنسان على الحرف دائماً، ينتكس، وينهار، وينفجر، وينكث عهده، وينتقم، ويغضب بسرعة، وهناك إنسان عميق، كلما ارتقى إيمانه، تغلغل الخلق في أعماقه، وفي كيانه كله، حيث لا تبدو عليه نكسات مفاجئة، لأن النكسات المفاجئة لا تعرف طريقا إليه .

بم يتعلق هذان الحديثان، وما ثمرتهما؟ :

أيها الأخوة، أدق حديث قاله النبي عليه الصلاة والسلام متعلق بالفطرة، وهو قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه عياض بن حمار:

((وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ ...))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي]

معنى حنفاء: أي ميالين للحق، أنت مفطور على ميل الحق، مسلمين، مستسلمين لأمر الله، لأن أمرَ الله عز وجل وفق الفطرة، فإذا رأيت أمر الله، وكانت الفطرة سليمة، أسلمت إليه، وملت إليه، الميل قلبي والاستسلام سلوكي .

عَنْ عِيَاضِ بْنِ حِمَارٍ الْمُجَاشِعِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ:

((أَلا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي، أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي، مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا ...))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي]

ففي الأصل: الإنسان مفطور على أن ترتاح نفسه لمعرفة الله ولطاعته، مفطور بطريقة لا ترتاح نفسه إلا لمعرفة الله وطاعته، حنفاء مسلمين، لكن الشياطين اجتالتهم عن دينهم، فحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي، ما لم أنزل به سلطاناً .

والحديث الآخر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

((كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ الْبَهِيمَةِ تُنْتَجُ الْبَهِيمَةَ، هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ؟))

لِمَ لمْ يقل النبي الكريم: أو يسلمانه؟ لأن الإسلام بالفطرة، لذلك قال تعالى:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

[سورة الروم الآية: ٣٠]

فإقامة وجهك للدين حنيفاً، هو عين فطرتك، وعين جبلتك، وهو عين طبيعتك، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ)

[سورة النحل الآية:٩٠]

العدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، هذا فطرة، والفحشاء، والمنكر، والبغي، هذا عكس الفطرة، وقال تعالى في آية أخرى:

(وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)

[سورة الأعراف الآية: ١٥٧]

قال الله عز وجل:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد الآية: ٢٨]

كلام رب العالمين، هذا القلب؛ قلق، خائف، وجل، منقبض، يائس، إذا ذكر الله عز وجل اطمأن، وارتاحت النفس، قال تعالى:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد الآية: ٢٨]

عَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ قَالَ:

((سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ: الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن النواس بن سمعان]

وهذه إشارة إلى أن الإثم، ما أثر في الصدر، حرجاً، وضيقاً، وقلقاً، واضطراباً، فلم ينشرح له الصدر .

تنبيه هام :

بالمناسبة: هناك من يظن أن الحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما أمور مشتبهات، تتمة الحديث:

((لا يعلمها كثير من الناس))

ما معنى هذا الكلام؟ معنى هذا الكلام: أن قليلاً من الناس يعلمون حقيقة هذه المشتبهات، إذاً: اسأل عنها، إذا وقع الإنسان بتردد: يا ترى هذا حلال أم حرام؟ فقال: هذه إذاً شبهة، ما دام لها وجه حلال ووجه حرام، معنى هذا أنها شبهة، هذه الشبهة من يعلمها؟ يعلمها العلماء، لكن عامة الناس لا يعلمونها.

مثلاً رجل قال لك: أنا سأدينك مال لتشتري البيت، لكن هذا المبلغ، يعادل ربع ثمن البيت، تعطيني أجرة، ما دام هذا المبلغ معك، فإن وفيّتني إياه، تنتهي الأجرة، فظاهر الكلام أجرة، دين وأجرة، لكن ما دام المبلغ لا يزيد ولا ينقص، ويضمنه صاحب البيت الذي اشتراه يضمنه، لو احترق البيت يكون المبلغ دينًا، وأما الذي أخذه كل شهر فهذا ربا، أما لو اتفق الطرفان على أن هذا البيت ربعه لفلان، فهلك البيت، كإصدار قرار مصادرة، أو قرار استملاك، أو تهدم، أو احترق، هذا على من؟

الذي أعطاك المبلغ من أجل أن يعينك على شرائه، يقول لك: أنا لا دخل لي، أنا أقرضتك أربعمئة ألف، أريدها كاملة، فكل شيء قبضته أجرة فهي ربا، أما إذا كنت مسؤولا عن البيت، لو هدم، أو لو احترق، أو لو استملك، فأنت مسؤول، وتقيِّم البيت تقييمًا جديدًا، حينما وفيت الدين، فالأجرة حلال .

اشترى فلان قطعة، فأعطيت الصانع مبلغًا، حرام وحلال، إذا اقتطعت هذا المبلغ من ربحك الخاص فهو حلال، ليس فيه إشكال، أما إذا أضفته على المشتري دون أن يعلم، وأكرمت الصانع، أصبح هذا حرامًا، فحتى الشبهات يعلمها الخاصة من الناس، المتبحرون في الفقه يعلمونها، إذا وقع الإنسان في شبهة ليسأل عنها .

المؤمن ليس له خيار بعد استقامته :

الحقيقة: المؤمن كما قال الله عز وجل:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: ٣٦]

أنت في الأساس مخير، لكن بعد أن عرفت الله عز وجل، وعرفت أمره ونهيه، كأن اختيارك قد انتهى، أصبح اختيارك وفق الشرع، إذا أنت مؤمن .

الطبيب مثلاً: بعد أن عرف الجراثيم، والأوبئة، والعدوى، ودقائق الأمور، لم يعد مخيرًا، كل شيء يعقمه، كأنه سلك طريقًا إجباريًا، علمه بالعدوى، والجراثيم، والأوبئة، والمضاعفات، علمه العالي، جعله يسلك طريقاً إجبارياً، كأن اختياره ألغي .

هناك حالات خاصة بالصناعة، لو أخطأت فيها، لما نجح العمل، فالقواعد الخاصة تجعل كل من يعمل في هذه المصلحة، يتحرك وفق هذا المنهج، وهذا البرنامج، هذا البرنامج أصبح إجباري، لأن كل أصحاب الصنعة، يبتغون الكمال لصنعتهم، ما دام يبتغي الكمال .

سألت مرة جراح قلب، قال لي: كل مراكز الجراحة في العالم متشابهة، لأن القلب قوانينه واحدة، ما دامت القوانين واحدة، إذاً: فالإجراءات متشابهة، معنى هذا: كل مراكز جراحة القلب بالعالم، تسلك ممرًا إجباريًا، فأنت مخير، لكن بعد أن عرفت الحق، وعرفت طريق الجنة، وعرفت ما يرضي الله، وما يغضب الله، بعد أن عرفت منهج الله، عرفت ما يقرب وما يبعد، فأنت بشكل أو بآخر ملزم، لا بد من أن تسلك هذا السبيل، لتصل إلى الله عز وجل، هذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

[سورة الأحزاب الآية: ٣٦]

هل تستطيع ألاّ تصلي؟ هل تستطيع ألاّ تغض بصرك؟ هل تستطيع الكذب؟ هل تأكل مال حرام؟ لا تستطيع، انظر كيف أنك تسير في الطريق الإجباري، لأنك مؤمن، لأنك آمنت بالله، وعرفت

منهجه، وحرصاً على مصلحتك، وعلى سلامتك، وسعادتك في الدنيا والآخرة، سلكت هذا الطريق الإجباري .

الهدف من هذا الدرس :

أيها الأخوة، الموضوع الذي أركز عليه في هذا الدرس: أن تمتلك هذه الحساسية القلبية للحق والباطل، للحلال والحرام، للمعروف والمنكر، أن يشعر قلبك أن هذا منكر، أن تشعر نفسك أن هذا حرام، أن تشعر أحاسيسك وفطرتك، أن هذا لا يرضي الله، وأعظم شيء أن تنتقل الأمور من الإدراك إلى الشعور.

أحياناً: الأقوياء في اللغة العربية، يتكلم بطلاقة من دون أن يعرب، لكن يأتي لسانه وفق قواعد الإعراب، سمّاها العلماء: سليقة، لكن الإنسان في بدايته يتكلم ويعرب، كلما وصل إلى كلمة: يا ترى منصوبة أم مرفوعة؟ مفعول به، إذاً ينصبها، خبر كان ينصبها، اسم كان يرفعها، قبلها حرف جر يجرها، دائماً يعرب مع كلامه، هذا ما ارتقى إلى مستوى السليقة، لكن عندما ينطلق لسان الإنسان وفق قواعد اللغة، من دون وعي منه، فهذا دليل كبير على قوته في اللغة .

عادة عندما يرتقي الإنسان، ويتحرك حركة عفوية وفق الشرع، معنى هذا: أن نفسه ارتقت ارتقاءً كبيرًا جداً، إلا في حالة واحدة: إذا الإنسان انطمست بصيرته بالشهوات، هذا لم يعد قلبه مفتيًا له، هذا إذا قلت له: استفتِ قلبك، يقول لك: جاء الحل، هكذا يحدثني قلبي، هذا أصبح دجالا، إذا انطمس قلب الإنسان بالشهوات، هذه الأحاديث كلها تنطبق عليه، لأن النبي قال:

((وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي، مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن عياض بن حمار المجاشعي]

فالفطرة تصلح للمؤمن، أما غير المؤمن فلا يحكَّم إلا بالشرع، أما فطرته فقد تقوده للمعصية .

لذلك أيها الأخوة: قبل أن تفعل، قبل أن تقدم على شيء، إذا كان لديك صفاء، اسأل نفسك، انقباض، حرج، حز قلبك، حزاز القلب، شعرت بضيق، لست مرتاحًا، شعرت بحجاب بينك وبين الله دعه، وانتهى الأمر، شعرت بقلق دفعك للسؤال، لمجرد أنك تنطلق سائلاً، فأنت في شك من أمرك، حاك في صدرك .

فهذا مقياس أضعه بين أيديكم للحلال والحرام: يخبرني أخوان كثيرون بأنه غير مرتاح، وزعت هذه القسمة، ولست مرتاحًا، هذا عذاب الفطرة، وعذاب الفطرة صعب جداً ومستمر، لا يتوقف، فدائماً أرح نفسك .

ذات مرة، سألوا مئة زوج سؤالا علميًا: لماذا لا تخون زوجتك؟ فجاءت ثلاثة أجوبة ، طبعاً جاءت أجوبة كثيرة، صنفوها في ثلاثة مستويات أخلاقية؛ أول قسم لا يستطيعون، لأن زوجاتهم معهم في العمل، القسم الثاني لا يتحملون عبء الذنب، القسم الأرقى لا يحبون الخيانة .

عندما يصل الإنسان إلى درجة، لا يستطيع أن يعمل إثما، لأنه ضُغِط عليه، فهذه درجة جيدة، وإذا كان في الأساس تعاف نفسه المعصية، هذه أرقى .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٤٤-١٠١) : باب - درجات المسؤولية في الإسلام كما ورد في هذا الحديث: كلكم راع....

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-٠١-٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ما علاقة هذه الآية بهذا الحديث، وما هو شرح قول النبي: كلكم راع....

أيها الأخوة الكرام، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، -قالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أبيهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ- وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عمر]

وأصح الأحاديث ما رواه الشيخان البخاري ومسلم .

أيها الأخوة، الله سبحانه وتعالى في سورة العصر حينما قال:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر الآية: ١-٣]

كلمة وتواصوا بالحق: أن تؤمن بالله، وأن تعمل صالحاً لا يكفي، لأنك إن آمنت بالله وعملت صالحاً فالباطل ينمو، فإذا نما الباطل حاصر الإيمان، فلا بد أن ينمو الإيمان نمواً يكون معه قوياً، إذاً: التواصي بالحق ركن أساسي من أركان الدين:

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر الآية: ٣]

لكن التواصي بالحق يحتاج إلى مؤهلات، من أبسط هذه المؤهلات: أن تكون أنت مثلاً أعلى، بمكانك أن تتحرك وأنت ثابت .

إذا كنت مثلاً أعلى الناس ينظرون، يراقبون، يلاحظون، يتأملون، فمن أوسع أنواع التواصي بالحق: أن تطبق الإسلام، أن تقيمه في بيتك، وأن تقيمه في عملك .

أما علاقة هذا الحديث بالآية الكريمة: فهو أن الإنسان يُسأل عما استرعاه الله بالدرجة الأولى، أنت مسؤول عن هؤلاء الذين استرعاك الله عليهم، أنت مسؤول عن هؤلاء الذين ولاك الله عليهم، أنت مسؤول عن زوجتك، وعن بناتك، وعن أولادك، الذين جعلهم الله تحت إمرتك، وجعلك قيماً عليهم،

فحتى يتحرك الإنسان حركة صحيحة ضمن الأصول، عليه أن يعتني بمن أوكلهم الله إليه، فالحديث يقول:

((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

يمكن أن نستخدم مثلا لتوضيح الفكرة: الإنسان كلما ارتفع في الجو، اتسعت دائرة رؤيته، بل إن رواد الفضاء الذين تخطوا جاذبية الأرض، وساروا باتجاه القمر، رأوا الأرض كلها بقاراتها وبحارها .

أنت إذا وقفت في الشارع، لا ترى إلا بضع بنايات، أما إذا صعدت إلى جبل قاسيون ترى دمشق بأكملها، أما إذا ركبت الطائرة، وارتفعت أربعين ألف قدم، ترى ما مسافته مئتا كيلو متر تقريباً، فكلما ارتفعت في الجو كلما اتسعت رقعة رؤيتك، هذا المثل ينطبق تماماً: على أن الإنسان كلما أعطي ميزة اتسعت دائرة مسؤوليته .

معلم في صف محاسب عن طلاب هذا الصف، ثلاثين طالبًا، لكن مدير المدرسة محاسب عن سبعمئة طالب، فكلما كانت ولاية الإنسان أوسع، وأوكل الله سبحانه وتعالى إليه أناسًا أكثر، كانت مسؤوليته أوسع، فحتى يتحرك الإنسان حركة صحيحة، وحتى لا يهمل ما أوكله الله بهم، ويتحرك حركة غير صحيحة .

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِه، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، -قالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أبيهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ- وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عمر]

هذا الحديث أصل في تحمل المسؤولية التي سوف يحاسب عنها الإنسان يوم القيامة.

كنت أقول هذه الكلمة: زيد من الناس أنت له وغيرك له، لكن ابنك الذي هو في بيتك من له غيرك؟ من غيرك يربيه؟ من غيرك يدله على الله؟ من غيرك يعنى بصحته؟ من غيرك يعنى بدراسته؟ من غيرك يعنى بأخلاقه؟ من غيرك يعنى بمستقبله؟ من غيرك يعنى بتزويجه؟ فأنت مسؤول عن هذا الذي أوكله الله إليك، وجعلك قيماً عليه، جعلك أباً له، أو زوجاً لهذه المرأة، أو أخاً كبيراً لهؤلاء الأخوة وهكذا .

بالمناسبة: لكن هذه المسؤولية يفهمها بعض الناس على أنها مسؤولية مادية، فالأب يتوهم أنه بمجرد أن يجلب لأولاده طعاماً وشراباً، وأن يؤمن لهم كساء في الشتاء ووقوداً، وما يحتاجون من حاجات مادية، فقد أدى الذي عليه .

والحقيقة: أن المهمة الأكبر والأخطر، والتي سوف يكون السؤال عنها أشد هي: مسؤولية الأب عن دين أولاده، وعن أخلاقهم، وعن مستقبلهم الأخروي، لأنه ورد في الأثر: أن الابن إذا لم يعتن أبوه بدينه واستوجب النار، يقول: يا رب لا أدخل النار حتى أُدخِل أبي قبلي .

فالآباء الذين يعتنون بأبنائهم من حيث: طعامهم، وشرابهم، وكسائهم، وحاجاتهم المادية، ولا يلقون بالاً لدينهم، وأخلاقهم، وصلاتهم، ومستقبلهم الأخروي، ومصيرهم إلى الجنة أو إلى النار، هؤلاء الآباء قدموا شيئاً زائلاً، ينتهي بانتهاء الحياة .

فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما يقول:

((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

الرعاية لا تتجزأ، الرعاية وحدة متكاملة، كما أنك ترعى صحته، عليك أن ترعى دينه، كما أنك ترعى حاجاته المادية، عليك أن ترعى حاجاته الروحية، كما أنك ترعى في ابنك ارتباطه في البيت، يجب أن ترعى ارتباطه بالله عز وجل .

حقيقة أذكرها لكم مستنبطة من آية كريمة، ولها علاقة وطيدة بهذا الموضوع، لا تقتضي الرعاية العنف ولا القسوة .

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف))

[أخرجه الحارث في مسنده عن أبي هريرة]

لأن المعلم خير من المعنّف، وأحاديث كثيرة تتحدث عن الرفق .

عَنْ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأبو داود في سننه عن عائشة]

والله عز وجل رفيق يحب الرفق في الأمر كله، فكلما نما الإيمان في قلب الإنسان ازداد رفقاً بمن حوله، ازداد لطفاً بمن حوله، أحياناً يقرأ الإنسان الآية، ولا ينتبه إلى خطورة معانيها، حينما قال الله عز وجل:

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

يخاطب الله من؟ يخاطب النبي عليه الصلاة والسلام، من النبي عليه الصلاة والسلام ؟ نبي هذه الأمة، رسول هذه الأمة، سيد الأنبياء، سيد المرسلين، المعصوم الموحى إليه، هو الذي يقع في قمة

البشر، إذا كان البشر هرماً فهو في القمة، ومع كل هذه الميزات والخصائص، ومع كل هذا النبي نفسه، سيد الأنبياء، سيد المرسلين، الموحى إليه، صانع المعجزات، المعصوم، سيد ولد آدم، الذي أسري به، وعرج به إلى السماء، هو نفسه لو كان فظاً غليظ القلب، لانفض الناس من حوله .

فإذا كنت مؤمناً ليست لك هذه الميزات، ولا تلك الخصائص، ولا هذا التفوق، مؤمن عادي، فإذا كنت فظاً غليظ القلب، فأن ينفض الناس من حولك من باب أولى، إذاً: أنت لا تستطيع أن تصل إلى قلوب الناس إلا بالكمال .

وكنت أقول لكم سابقاً: الأقوياء يملكون القوالب، لكن الأنبياء ملكوا القلوب، وشتان بين أن تملك قالباً وبين أن تملك قلباً، الأنبياء ملكوا القلوب، لكن الأقوياء ملكوا القوالب، فمن أجل أن تكون مسؤولاً عن رعيتك التي هي أسرتك، ينبغي أن تكون محسناً، ينبغي أن تكون كاملاً، ينبغي أن تكون رحيماً، ينبغي أن تكون منصفاً، أن تكون مضحياً، أن تؤثر مصالح من حولك على مصلحتك.

أيها الأخوة، أجد نفسي مدفوعاً إلى توضيح حقائق، نحن في أمس الحاجة إليها: الإنسان ينبغي أن يعرف حده، وينبغي أن يقف عنده، فهذه الأسرة التي جعلني الله سيدها أو رأسها أو قيمها أو رجلها، هي الأسرة التي أوكلني الله إياها، وسوف يسألني عنها، فإذا اعتنى الرجل بأسرته، والمجتمع مجموعة أسر، إذا اعتنى كل إنسان بأولاده، بأخلاقهم، ودينهم، وصلواتهم، ومستقبلهم، وعلمهم، وصحتهم، وحركاتهم، وسكناتهم، وإذا اعتنى كل أب ببناته، بصلاتهن، واستقامتهن، وبحشمتهن، بتربيتهن، فإذا اعتنى الأب ببناته وأولاده، وساعدته الأم على ذلك، صلحت هذه الأسرة، فإذا صلحت كل الأسر جنباً إلى جنب، صلح المجتمع، فهذا الذي يدعو إليه النبي عليه الصلاة والسلام، لا حاجة لأن يكون للإنسان طموحات عريضة جداً، واسعة جداً، تكفيه أسرته إذا اعتنى بها .

وكنت أقول لكم دائماً: إن الأبوّة الكاملة يمكن أن تكون سبباً كافياً لدخول الجنة، إن الأمومة الكاملة يكفي أن تكون سبباً كافياً لدخول الجنة، وإن البنوّة الكاملة يكفي أن تكون سبباً كافياً لدخول الجنة، والأحاديث على هذا كثيرة جداً .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْجِهَادِ، فَقَالَ: أَلَكَ وَالِدَانِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ))

وفي حديث آخر عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ:

((أَنَّ رَجُلا مِنَ الْيَمَنِ هاجر إلى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقَالَ: هَلْ لَكَ أَحَدٌ بِالْيَمَنِ؟ قَالَ: أَبَوَايَ، قَالَ: أَذِنَا لَكَ، قَالَ: لا، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَاسْتَأْذِنْهُمَا، فَإِنْ أَذِنَا لَكَ فَجَاهِدْ، وَإِلا فَبِرَّهُمَ))

[أخرجه أبو داود في سننه عن أبي سعيد الخدري]

والإنسان أيها الأخوة، إن لم يكن ذا خير عميم لأقرب الناس إليه، فلن يكون خيره لأبعد الناس، لأن في الحديث عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي، وَإِذَا مَاتَ صَاحِبُكُمْ فَدَعُوهُ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن عائشة]

وهناك مثل كنت أستخدمه كثيراً: إن فحص قيادة السيارة، يفحص الطالب في أصعب أعمال في القيادة، يفحص بأن يعود بالمركبة القهقرى، في طريق ملتو، وإشارات خفيفة، حيث لو تجاوز واحدة، وقع فكشف أمره، لماذا إذا أتقن العودة بالمركبة القهقرى بطريق ملتو، ضيق، محصور بعلامات خفيفة، ونجح في هذا؟ هنا فقط أصبح كل شيء سهلا عليه .

والنبي عليه الصلاة والسلام جعل مقياس فضل الإنسان لا انضباطه الخارجي، ولكن انضباطه في بيته، جعل المقياس للانضباط الداخلي، لأن داخل البيت لا يوجد رقابة، ولا يخشى الإنسان على سمعته، وهو في بيته، ولا يخشى وهو في بيته، أن يتحدث الناس عنه بما لا يرضى، وهو في البيت عليه أن يكون كاملاً، حتى يتحقق هذا الحديث الشريف:

((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

بالمناسبة: لا تعتقد أبداً أنه يمكن أن تعفى من مسؤوليتك تجاه أولادك وزوجتك أمام الله عز وجل، لو قلت: إن المجتمع فاسد، لو قلت: هناك بلوى عامة، لو قلت: المجتمع أصبح في فساد عريض، هذا الكلام لا يعفيك من المسؤولية، لو قلت: المدارس لا يوجد فيها توجيه صحيح مثلاً، يوجد فساد عام، هذه الكلمات كلها لا تعفيك، من أن الله سبحانه وتعالى سيسألك عن أولادك يوم القيامة، وإن كان تربية الأولاد في زمن الفساد أصعب منه في زمن الصلاح ، هذا شيء ثابت، لكن الأجر على قدر المشقة .

أردت من هذا الحديث: أننا عندما نقيم الإسلام في بيوتنا، ولدينا دائرة أخرى، أذكرها لكم دائماً: أعمالنا إذا أقمنا أمر الله عز وجل في بيوتنا، وفي أعمالنا، هنا تنتهي مسؤوليتنا، هذا الذي في قدرتنا، هذا الذي أوكله الله إلينا، هذا الذي سيحاسبنا الله عنه، هذا الذي نحن قادرون على أن نصلحه، عندئذٍ ننتظر من الله عز وجل العلي القدير، أن يغير هو الشيء الذي لا نستطيعه، لو أن السماء شحت في الأمطار، هل نستطيع إنزال الأمطار؟ لا، هذه فوق طاقتنا، فالحركة منطقية جداً، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[سورة الرعد الآية: ١١]

إذاً:

((كُلُّكُمْ رَاعٍ))

هل يوجد إنسان ممكن ألاّ يكون مسؤولا إلا بحالات نادرة؟ إذا أخذ ما أوهب أسقط ما أوجب، إذا سلب من إنسان عقله سقطت عنه المسؤولية، أما إذا أُودِع في الإنسان عقلٌ، لو كان الابن أمينًا على مال أبيه، هناك أولاد يتلفون أموال آبائهم .

أبسط مثل: حينما تستهلك الكهرباء استهلاكا غير منطقي، فالابن لا يشعر بالمسؤولية ، لا يشعر أن هذه طاقة، يجب أن يستهلكها استهلاكاً مع حكمة، فإذا أسرف في استهلاك هذه الطاقة، وجعل أباه يدفع مبلغًا فوق طاقته، فقد خان الأمانة، هذا الطفل الذي في البيت، فالابن مسؤول، والزوجة مسؤولة:

((أيما امرأة قعدت على بيت أولادها، فهي معي في الجنة))

لا يجب على الإنسان أن يهمل ما أوكله الله به، ويتطلع إلى آفاق هو معفى منها، المرأة أوكلها الله ببيت زوجها وبأولادها، وبتأمين حاجاتهم وطعامهم وشرابهم، وتهيئة البيت المريح لهم، وتهيئة الحاجات النظيفة لهم .

الله سبحانه وتعالى أوكل هذا إلى المرأة، فإذا قصّرت في واجبها، وتطلعت إلى عمل آخر، هذا يوقعها في التناقض، لأن درءَ المفاسد مقدم على جلب المنافع .

هذه الأفكار وإن بدت بسيطة، هي خطيرة جداً، لأن الإنسان إذا سعد في بيته أنتج في عمله، حينما تهيئ الزوجة لزوجها جواً مريحاً، وعلاقات طيبة، وحاجات موفورة، وبيتاً منظماً، هذا يدعو الزوج إلى أن يضاعف إنتاجه خارج البيت، وهذا الذي يقولونه دائماً: إن كل إنسان ناجح وراءه زوجة مخلصة، هذا كلام جزء منه صحيح، إلى حد ما مقبول .

٢-والرجل راع......عن رعيته :

((وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ، وَهُوَ مَسؤول عَنْ رَعِيَّتِهِ))

طبعاً: كلمة الأهل هنا لا تعني الزوجة فقط، تعني الوالدين إذا كانا عند الابن، وربنا عز وجل قال:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣]

يكون الابن في أحد أطوار حياته عند أبيه مكاناً وإشرافاً وإنفاقاً، لكن في طور آخر: يكون الأب عند ابنه مكاناً وإشرافاً وإنفاقاً، فإذا أصبح الأب عندك، وأنت عنه مسؤول، فهذا من أهلك وحاسب عنه .

فالوالدان، والأولاد، والزوجة، أولاً ينبغي أن ينفق عليهم، وما من مرض أشد في إفساد ذات البين من الشح، وربنا عز وجل قال:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الحشر الآية: ٩]

فأولاً ينبغي أن تنفق عليهم، وثانياً ينبغي أن تعلمهم أمر الدين، أن تنفق عليهم حتى يشعروا بالامتنان، لأن الله سبحانه وتعالى في بعض الأحاديث القدسية يقول:

((يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جُبلت على حب من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها))

فالابن إذا رأى أن أباه يغدق عليه من الحاجات التي هي في أمس الحاجة إليها، يميل قلبه، عندئذٍ يأتي تعليم الدين، إذاً: الإنفاق عليهم، وتعليمهم أمر دينهم، وترغيبهم في الخير .

هناك آباء يدرب أولاده في سن مبكر على الإنفاق على معاونة الضعيف، على إكرام اليتيم، على الإحسان، على التصدق، على بر الوالدين، على صلة الأرحام، فكلما كان الأب أكثر قرباً من الله عز وجل .

هناك آباء تجار يصطحبون معهم أولادهم في سفر التجارة، يقول لك: حتى أعلمه السفر، ونزول الفنادق، واللقاء مع مدير شركات، فإذا كان طموح الأب، أن يكون ابنه تاجراً كبيراً منذ نعومة أظفاره، يعلمه على بعض أساليب التجارة، وبعض خبراتها، أما الأب المؤمن، فعليه أن يعلم ابنه منذ نعومة أظفاره، على حفظ كتاب الله، وعلى التأدب بآداب الإسلام، وعلى حب النبي عليه الصلاة والسلام، وعلى طلب العلم، وعلى الأنس بأهل الله عز وجل، وعليه أن يحذرهم، أحياناً يسلك الآباء سلوك المنع .

أنا أرى أن التحصين الداخلي للابن أنجع من المنع الخارجي، الكبت ربما انتهى إلى انفجار، المنع الخارجي ربما أغرى الابن بالانحراف، أما إذا حصنته من الداخل بالعلم، بالإقناع، بالتعليم، بأن يعيش في بيئة راقية، هذا أرقى بكثير من أن تكون قامعاً له، القمع قد يؤدي إلى انحراف خطير، لكن التحصين الداخلي بالعلم، هذا يؤدي إلى تحصين خارجي.

لذلك سيدنا علي يقول: العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق .

الحقيقة، الآن: في الظروف الصعبة؛ ظروف المعيشة، وشراء البيوت وتأسيسها، قضايا الزواج، الآباء مسؤولون أمام الله عز وجل، عن تزويج أبنائهم، كل بقدر استطاعته، قال تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة الآية: ٢٨٦]

لكن الآباء الأبطال الذين يقلقون لضياع أبنائهم، ولمصيرهم السري، فهم يحرصون على تأمين زواجهم، وتأمين استقرارهم، هذا من الأعمال الطيبة، والراقية جداً .

والشباب الآن: في أمسِّ الحاجة إلى آباء، يجعلون نصب أعينهم، تزويج أولادهم، وتأمينهم، والآية الكريمة:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

[سورة النور الآية: ٣٢]

الأيامى جمع أيم، ومعنى الأيم: الذي لا زوجة له، ذكراً كان أو أنثى، فمعنى أنكحوا الأيامى: زوجوا الفتيات، وزوجوا الشباب، الفتاة والشاب بحاجة إلى الزواج، الشاب بحاجة إلى زواج بتيسير وسائل الزواج؛ المسكن ولو كان متواضعًا، ولو كان بمكان بعيدًا، ولو كان غرفة واحدة، تيسير المسكن، وتيسير الحاجات الأساسية، وتزويج الفتاة يكون بالتساهل مع الخاطب المؤمن، قال تعالى:

(وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ)

[سورة القصص الآية: ٢٧]

فالآباء إذا لم يشقوا على خاطبي فتياتهم، والأبناء إذا توافرت لهم سبل الزواج، نكون قد طبقنا هذه الآية:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ)

[سورة النور الآية: ٣٢]

من حقوق الأهل على الأب: أن يطعمهم مما يأكل، وأن يلبسهم مما يلبس، وأن يحسن أسماءهم، وعليه حق الدين أن يختار لهم الأم الصالحة .

أول حق للأولاد على أبيهم: أن يحسن اختيار أمهم، لأن علاقة الأولاد بأمهم، أشد بعشرات المرات من علاقتهم بأبيهم .

الآن: لدينا حالة نجدها في المجتمع، هناك آباء كثيرون يردون خطاب بناتهم؛ إما بداعي احتقارهم لفقر الخطاب، أو انتظاراً للخاطب الغني، أو رغبة في الحسب أو النسب، إلى أن يعضلها فتبقى عانساً، لذلك قال تعالى:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً)

[سورة النور الآية: ٣٣]

والآية دقيقة جداً: فالأب الذي يعضل بناته، يضع العقبات تلو العقبات أمام خطابها، ينتظر الغني، ينتظر صاحب الحسب والنسب، ينتظر الشاب الذي لا يتوافر مثله إلا في المئة ألف، هذا الأب قد ينتهي به المطاف إلى أن يلقي ابنته بلا زوج، وعندئذٍ يكون قد قوّى فيها دافع الشهوة، فإذا زلت قدمها، ففي رقبة الأب، لأنه هو السبب .

قرأت قبل أيام مقالة كتبتها كاتبة، تقول ملخصه: خذوا كل شهاداتي، وأعطوني زوجاً ، لأن حاجة الأمومة التي أودعها الله في قلب الأنثى، تفوق أية حاجة، حاجة الأمومة، فالمرأة لا شيء يملأ فراغها كابن تربيه، أو فتاة تربيها، فالآباء عليهم أن ينتبهوا كثيراً .

هناك آباء مسافرون، مقيمون في بلاد أجنبية، لا أحد يخطب فتياتهم، هؤلاء إذا بقوا هناك، فالانحراف متوقع من الفتيات، أو أن تبقى الفتاة بلا زوج أيضاً، هذا شيء متوقع.

أعرف أشخاصاً كثيرين، وهم في أوج نجاحهم في بلاد الغرب، جمعوا أمتعتهم، وعادوا إلى بلدهم، ضماناً لمستقبل فتياتهم .

فالإنسان يعيش ليؤدي رسالة، وأولاده وبناته أحد أكبر بنود هذه الرسالة .

٣-والمرأة راعية......عن رعيتها :

يقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا))

نساء الصحابة رضوان الله عليهم كنا يخدمن أزواجهن، ويربين أولادهن، ويدبرن منازلهن، بل ويساعدن أزواجهن في أعمالهم، فهذا فضل كبير تكسبه المرأة إذا كانت مضحية معطاءة .

فلذلك كانت تقول الصحابية الجليلة لزوجها قبل أن يخرج من بيته:

((يا فلان نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام))

فالمرأة التي لا تحمل زوجها فوق طاقته، تتلطف بطلباتها، مؤونتها قليلة، طلباتها يسيرة، لا تحرج زوجها، لا تدفعه إلى أن يكسب مالاً حراماً، لا تدفعه إلى أن يكون ابناً شقياً بعيداً عن أهله، المرأة الصالحة المؤمنة هي التي تقل طلباتها، ويعظم خيرها، لذلك إذا أدت المرأة ما عليها دخلت جنة ربها .

والمرأة كما تعلمون أيها الأخوة، ليس بينها وبين الجنة كما قيل إلا الموت، فالمرأة الصالحة ليس بينها وبين الجنة إلا أن تموت، فإذا ماتت فهي في الجنة، لأنها صلت خمسها، وصامت شهرها، وحفظت نفسها، وأطاعت زوجها، فدخلت جنة ربها .

والمرأة على دين خليلها، بالمناسبة: طبيعة المرأة طبيعة انقيادية منفعلة، ولولا هذه الطبيعة، لما رأيت زوجين تحت سقف واحد، لولا أن المرأة من طبيعتها، أنها انفعالية انقيادية ، تفتخر أن يقودها زوجها، وأن يحميها زوجها، لولا أنها بهذه الطبيعة، لما رأيت زوجين تحت سقف واحد، الرجل قيادي المرأة، تميل إلى أن تكون منقادة بزوجها، وهذه من نعم الله الكبرى، فهذه المرأة التي تترك

القيادة لزوجها، هذه إذا أطاعت ربها، حينما تطيع زوجها، دخلت جنة ربها، لذلك الله سبحانه وتعالى يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا)

[سورة التحريم الآية: ٦]

هذه آية أصل، القرآن الكريم دقيق جداً، فالإنسان أحياناً يقرأ، يقول الله لك:

(قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ)

[سورة التحريم الآية: ٦]

أنت مسؤول عن أهلك، قال تعالى:

(نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

[سورة التحريم الآية: ٦]

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((المرأة على دين خليلها))

هكذا المرأة من طبيعتها الانفعال، بمعنى: أنها تابعة وليست متبوعة .

((وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا))

تسره إذا حضر بمظهرها، وتحفظه إذا غاب في نفسها وماله وولده، ومن حفظت نفسها، وبرت زوجها، وأدت حق ربها، لن يكن بينها وبين الجنة إلا الموت، أي أصبحت على أبواب الجنة .

لكن لئلا يظن الزوج أن له كل شيء، وأنه ليس لها شيء، قال تعالى:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٢٨]

لا يوجد إنسان يسعد في حياته الزوجية إلا إذا كان واقعيًا، وكان منطقيًا، كما أنه يحب أمه، كذلك هي تحب أمها، فإذا أردت أن تكون بارة لأمك، وأنت عاقاً لأمها، لا تستقيم حياة زوجية بهذه الطريقة، أردتها أن تكون بارة لأمك، لأنها أمك، واستخففت بأمها، فهذا موقف متناقض غير مقبول، لذلك هذا العش سرعان ما يتهدم، لأننا خالفنا طبيعة النفس البشرية، لذلك:

(وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٢٨]

وربنا عز وجل يقول:

(فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى)

[سورة آل عمران الآية: ١٩٥]

أحياناً الإنسان يكون عنصريًا، يظن نفسه من طبيعة أخرى غير طبيعة المرأة، الله عز وجل يقول:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

[سورة الأعراف الآية: ١٨٩]

من طبيعة واحدة، مكلفة كما أنت مكلف، مكلفة بالإسلام كما أنت مكلف بالإسلام، مكلفة بأركان الإيمان كما أنت مكلف بأركان الإيمان، فأنت متساوٍ مع امرأتك في التكليف والتشريف، أنت مكلف كما هي مكلفة، وأنت مشرف كما هي مشرفة .

والحقيقة: حينما تكون المرأة فقيهة، تعرف واجباتها تجاه زوجها وأولادها، وتعرف واجباتها تجاه ربها، وحينما تكون فقيهة، تعرف أحكام العبادات وأحكام المعاملات، هذه تربي أسرة بأكملها، لذلك آمال كبيرة جداً معقودة على أن تكون المرأة المسلمة تعرف أمر دينها، وأمر الحياة التي تعيشها، لذلك الأولاد الذين تنجبهم امرأة تعرف الله عز وجل أولاد سعداء، لأنهم ينشؤون كما تعرفون في ظل رعايتها وعلمها .

وليس بعيداً عنكم قول المرأة التي اشتكت النبي عليه الصلاة والسلام قالت:

((إن زوجي تزوجني وأنا شابة، ذات أهل ومال، فلما كبرت سني، ونفر بطني، وتفرق أهلي، وذهب مالي، قال لي: أنت علي كظهر أمي، ولي منه أولاد، إن تركته إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا))

هو الذي يكسب الرزق .

أحياناً الأم الجاهلة، تعلم ابنها الكذب، لأنها تكذب أمامه على زوجها، تعلمه الإهمال، أحياناً تعلمه عدم الانضباط، تخيفه وتنشئ عنده عقد نفسية من أجل أن تسكته، تخيفه بكلمات لا معنى لها، هنا يوجد غول، هنا بعبع، هنا كذا، يوجد أشياء خطيرة جداً، هذه كلها عقد ينشأ عند الطفل عقد، بدل أن تعلمه أمر الله عز وجل، وأمر التوحيد، وأمر القرآن، فلذلك يجب أن تعتني عناية بالغة بتعليم فتياتنا، لأنهن أمهات المستقبل، تعليم الدين الحقيقي: الكتاب، السنّة، الواجبات .

آلاف الأسر تنهار لا لسبب وجيه بل بجهل المرأة، لتقصير أبيها في تعليمها أمر دينها، لتقصير أبيها وأمها في تعليمها حقوق الزوج وحقوق الأولاد .

٤-والخادم راع في مال سيده :

الآن:

((وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ))

تقريباً موظف، مؤسسة تجارية، فيها موظفين، الشيء المألوف الآن: أنت موظف بهذا المحل، هذا المال الذي تحت إشرافك، هذا المال أمانة في عنقك، فلذلك الخادم يُسأل عن مال سيده: هل رعاه أم ضيعه؟ أتلفه أم صانه؟ .

كثير من الأشخاص في غياب صاحب المحل لا يبيع أو يكون قاسيًا مع الزبائن، ويمكن أن يصرف عشرات الزبائن حتى لا يتعب، الحياة لا تستقيم إذا لم يكن فيها أمانة، أما إذا كان هناك إنسان مخلص لصاحب المحل، فنشاطه في حضوره وفي غيبته واحد، هذا المؤمن .

والولد أيضاً مسؤول عن مال والده، أكثر مشاكل الأسر اليوم: الولد القوي يأكل حق الصغير، الكبير يأكل حظ الصغير، والذكر يأكل حق الأنثى، أكثر الأسر تجد أن الأبناء أكثر الإرث بيدهم، والفتيات محرومات من حقهن الشرعي في مال أبيهن .

فعندما يعتدي الأخ الذكر على حقوق أخوته الإناث، أو الأخ الأكبر يعتدي على حقوق أخواته الصغار، أصبح هناك اختلال في الميزان، هذه الأسرة تنتهي بعداوات لا حد لها .

أنا مطّلع على بعض القصص التي لا تصدق، يوجد عداوات بين الأخوة، بسبب هضم الحقوق، والعدل، والسوية في توزيع الإرث، عداوات لا حصر لها، فالابن مسؤول عن مال والده الذي تركه، يجب أن يعطي كل ذي حق حقه .

ودائماً هذه الآية الكريمة: يقع الناس في حيرة فيها:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة التغابن الآية: ١٤]

من تفسيرات هذه الآية: عندما يعصي الإنسان الله عز وجل، بضغط من زوجته، وبضغط من أولاده، ثم يلقى الله عز وجل ليحاسب عن عمله حساباً عسيراً، يرى أن هذا الابن الذي عصى الله من أجله، انتهت علاقته به إلى عداوة، ويرى هذه الزوجة التي عصى الله من أجلها، انتهت علاقته بها إلى عداوة، فهذا أحد معاني هذه الآية .

الإنسان أحياناً يخسر الجنة من أجل أهله المارقين من الدين، هو يعمل ليلاً نهاراً، وأهله من أجل إنفاق الأموال الطائلة على المباهج، وعلى المعاصي، هو يتحمل اسم الغش، والكذب، وكسب المال الحرام، لينفق على أهله، هذا المال على أمور لا ترضي الله عز وجل ، فعلى الإنسان أن ينتبه لهذه الناحية .

آخر كلمة عن هذا الحديث مع محور الدرس في هذا اليوم :

نعيد على مسامعكم هذا الحديث، والحقيقة: أن هذا الحديث الآن يحل مشكلات المسلمين: الفساد العام، هذا الفساد العام في الطرقات، في خروج الفتيات مثلاً، كل فتاة لها أب، لها بيت، كيف أطلقها أبوها؟ كيف سمح لها أبوها بأن تخرج بهذا الشكل؟ فلذلك:

((كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا ومَسْؤولة عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أبيهِ وَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عمر]

وبصراحة أيها الأخوة: نحن لم نألف أن نتكلم كلامًا، نستمع إلى كلام لا طائل منه، هذا كلام رسول الله، هذا كلام الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، هذا كلام سماه علماء الحديث وحياً غير متلو، هذه حقائق، فأنتم لا تسعدون إلا إذا سعدتم بأهلكم، لا تسعدون إلا إذا انتظمت حياتكم في البيت، لا تسعدون إلا إذا كان بيتكم إسلامياً، وهذه مسؤولية كبيرة منوطة بكل مسلم، وحينما تصلح الأسر يصلح المجتمع .

شيء طبيعي جداً، صلاح المجتمع تحصيل حاصل، إذا أصلحنا الأسر صلح المجتمع ، لا حاجة لأن نطمح لأكثر من إصلاح أهلنا وأولادنا وبيتنا، أما إذا كان هناك منافذ للضلال، ومنافذ للهو، وهناك أشياء تفسد، وفي المنزل أشياء تفسد الأخلاق، فالأب مسؤول مسؤولية كبيرة جداً، ويأتي وقت يفقد السيطرة كلياً على من في البيت، وعندئذٍ والله كل يوم يشعر بطعنات في صدره كطعنات الخنجر، إذا كان أهمل أولاده أطلق لهم الحرية، نشؤوا على معاص، على أشياء لا ترضي الله عز وجل، فلما كبر سنهم، وشعروا بقوتهم، تمردوا على أبيهم وأمهم، واستعلوا عليهم، والأب عندئذٍ يكاد قلبه يعتصر ألماً، وتكاد نفسه تذوب هماً، حينما يرى أولاده على غير شاكلته، ويرى أولاده على غير المنهج الذي أراده الله عز وجل.

هذا الكلام أقوله لكم لا عن ثقافة ولا عن معلومات حصلتها؛ ولكن والله هي عن خبرات: لا تسعدون إلا إذا سعدتم بأهلكم، بزوجاتكم، وأولادكم، وبناتكم، لا تشعر بالتوازن إلا إذا كان هذا البيت إسلامياً، فالأمر يحتاج إلى تشمير، يحتاج إلى إكرام، يحتاج إلى صبر، يحتاج إلى تؤدةٍ، يحتاج إلى وعي، إلى تخطيط، من أجل أن تنقل هذه الأسرة إلى مصاف هذه الأسر الإسلامية، بيت القرآن، قد يكون الحديث كله ليس عن القرآن، وليس عن الصحابة، وليس عن القيم العليا، ولكن عن الساقطين والساقطات .

يمكن أن يكون الحديث في البيت عن أهل الانحراف، وأهل الفجور، عن أزيائهم، وحفلاتهم، وعن نزهاتهم، وعن طريقة نومهم، واستيقاظهم، وعن تمريناتهم، وعن لقاءاتهم، يكون البيت مشحونًا بأفكار ومعلومات لا تليق بالمسلم، إذا قطعت المنافذ السيئة، وفتحت المنافذ النظيفة، تجد أن هذا الابن سمت نفسه، وارتقت عزائمه، وأصبح في المستوى الذي يرضيك .

فنحن لا يعنينا أن أخواننا الكرام في المسجد سعداء بربهم، وسعداء بدينهم، وسعداء بهذا الهدى، يعنينا أن يسعدوا أيضاً بأهلهم، يعنينا أن تكون بيوتهم إسلامية، لكن بالحكمة والموعظة الحسنى .

دائماً تذكروا هذه الآية: يخاطب الله النبي عليه الصلاة والسلام، وهو سيد الخلق وحبيب الحق، وهو المعصوم، والذي أسري به، وعرج إلى السماء، صاحب المعجزات، يقول له :

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

حدثني أخ بقصة، تأثرت لها كثيراً: هو كان في بلد من بلاد النفط، بلد عربي، فيوجد حاجب أو خادم أو فراش من بلاد شرقي آسيا، يعمل في هذه المدرسة، هو مدرس، قال لي: مرة مدرس قدم له كأس من الشاي، هو استغرب، فهؤلاء من قلة شأنهم، لا يبالي بهم أحد، ولا يسلم عليهم أحد، فراش يمسح الأرض ويكنس، فالمدرس مسلم، والمسلم ليس عنده عنصرية، قدم له كأس من الشاي لهذا الفراش، فتعجب هذا الفراش وسأله: لماذا قدمت لي هذا الكأس مع أن أحداً في هذه المدرسة لا يسلم علي؟ قال له: بدافع أنك أخ في الإنسانية وأراك تتعب، قال له: أريد أن أتعرف إلى دينك، طبعاً هو وثني، أعتقد أنه بوذي، على كلٍّ وثني .

هذا الإنسان معه ليسانس بالعلوم الطبيعية، لكن من فقره الشديد، جاء من بلاده، ليعمل فراش بمبلغ زهيد، فهذا الكأس من الشاي الذي قدمه له لفت نظره، قال لي: جلسنا معه حوالي خمسة أيام متتاليات كل يوم حتى الساعة الثانية عشرة، حتى بينت له القرآن والعقيدة، قال: أسلم وأحسن الإيمان .

فالدعوة إلى الله، تحتاج إلى نعومة، إلى احترام للإنسان، إلى لطف، إلى حكمة بالغة، إلى قيم إنسانية، هذا المدعو إنسان له مشاعر وكرامة، هذا المدعو إنسان عنده أحاسيس، إذا راعيت الأحاسيس، وكنت محسنًا، متواضعًا، لطيفًا، لا يعلم إلا الله الخير الذي قد ينجم من أخ، يدعو إلى الله بالحكمة، وربنا عز وجل قال:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

[سورة النحل الآية: ١٢٥]

أحياناً خدمة تقدمها لإنسان أبلغ من محاضرة، أحياناً ابتسامة تبتسم بها أمام موظف خائف، أو يشعر أن بينك وبينه مسافة كبيرة جداً، ابتسامتك اللطيفة في وجهه تطمئنه، وتبث فيه الشعور بالولاء لك، أحياناً ابتسامة أو كلمة: الله يعطيك العافية، هذه تؤثر، فالمؤمن عنده حصافة وحكمة، فقد يملك قلوب الناس بحكمته، وتواضعه، وباهتمامه بالآخرين، أحياناً يكون الإنسان قد لفّ يده، قل له: خير إن شاء الله، حقيقة هذا أخوك، يقول لك: يدي مكسورة وضمدتها، تجيبه: عافاك الله، ماذا كلفتك هذه الكلمة؟ كلفتك اهتمامك به ومحبتك له، وبأننا بحاجة لأن نكون كتلة واحدة، المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

أنا لا شيء يسعدني كأن أرى المؤمنين عامة، وليس أخوان جامعنا فقط، هذه نظرة ضيقة جداً، المؤمنين عامة متحابون، متعاونون، متواصلون، متزاورون، هذا الذي يرضي الله عز وجل .

أيها الأخوة، قال تعالى:

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ)

[سورة النحل الآية: ١٢٥]

من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف، الموقف الأخلاقي أبلغ من خمسين محاضرة، والإنسان يصل إلى أهدافه بالبر، والإحسان، والكلمة الطيبة، أضعاف مما يصل إلى أهدافه بالقسوة والعنف، والنبي الكريم يقول:

((علموا ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف))

فكل درس أجعل له محور، هذا الدرس إن شاء الله محوره: نحن مسؤولون أمام الله عن بيوتنا، وزوجاتنا، وأولادنا، وفتياتنا، فعلينا أن نعنى بهم، والأب عندما يعتني بأولاده وهم صغار، ينشؤون على طاعة الله، فإذا أهملهم صغاراً، لا يستطيع أن يقودهم كباراً، الأمر يخرج من يده وانتهى، والحسرة التي تملأ قلب الأب، الذي أهمل ولده صغيراً فانحرف، ولا يقوى على تربيته كبيراً، هذه الحسرة لا يعرفها إلا من ذاقها .

اسأل رجل أهمل ابنه صغيرًا، فلما شبّ ابنه عن الطوق، انحرف انحرافاً شديداً، أسرة بأكملها تشقى بهذا الابن .

فأخواننا الشباب الذين تزوجوا حديثاً، أولادهم أمانة في أعناقهم، لينشأ ابنك على محبة الله ورسوله، على تلاوة القرآن، على ارتياد المساجد، ليكن معك دائماً، من أجل أن تضبط سيره وحركته، فنحن مسؤولون عن أسر، إذا صلحت البيوت صلح المجتمع، فنحن نهمل أسرتنا، ونتطلع إلى آفاق واسعة جداً، ونسلك طريق غير صحيح، طريق العنف، هذا أسلوب ما أنزل الله به من سلطان، وأسلوب لا يرضي الله عز وجل، الأقربون أولى بالمعروف، وبالهداية، وبالعناية، وبالتوجيه، وهكذا .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٤٥-١٠١) : باب - أحاديث شتى مضمونها: العدو الأكبر للإنسان هو اتباع هواه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٦-٠٨-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحة عن عنوان درسنا اليوم :

أيها الأخوة الكرام، الدرس اليوم: أحاديث مختارة من الكتب الصحيحة في موضوع واحد، ألا وهو اتباع الهوى، فمن أخطر ما يهلك الإنسان أن يتبع الهوى، قال تعالى:

(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة ص الآية: ٢٥]

أكبر عدو للإنسان هواه، إن اتباع الهوى هوان، من هوى فقد هوى، أكبر عدو للإنسان الجهل، وثاني أكبر عدو الهوى، فلذلك: هناك أحاديث شريفة صحيحة كثيرة، تزيد عن خمسين حديثاً في الكتب الصحيحة، كلها تحذر المؤمن من اتباع الهوى، يعني الجهل يسبب هلاك، واتباع الهوى يسبب هلاك .

مثلاً: قد تجد طبيباً يدخن، أن تقول: لا يعلم، والله هو أعلم الناس بمضار التدخين، ما الذي أهلكه؟ لم يهلكه جهله، هو عالم، ويعلم تماماً: أن الدخان يسبب أمراض كثيرة ومميتة، بدءاً من السرطانات، مروراً بتضييق الشرايين، إلى موات الأعضاء، إلى آخره .....، ومع ذلك يدخن، فإذا أصيب بمرض عضال من التدخين، هل نقول: أرداه جهله؟ لا هو أعلم الناس بمضار التدخين، هذا أرداه هواه .

فإما أن يهلك الإنسان لجهل، أو أن يهلك باتباع الهوى، فلذلك ثاني أكبر خطر يهدد المؤمن اتباع الهوى، ومشكلة اتباع الهوى أنه يوجد أهواء صغيرة إن اتبعتها توسعت، فقد يخطط الإنسان أنا أفعل هذه فقط، ليس باختياره أن يبقى في هذه، هذه تنقله إلى أكبر منها، وإلى أكبر منها، وفجأةً يجد نفسه في القاع، هذه سماها القرآن الكريم خطوات الشيطان، ينقلك من خطوة إلى أكبر، من خطوة إلى أخرى، لذلك المؤمن يحتاج حزم، إلى قوة في الدين، تساهل في هذا اللقاء فيه اختلاط، اللقاء الثاني صار عليه حجة، يقال له: أما جلست أنت في اللقاء الأول، لا يستطيع أن يرفض، لأنه تساهل في أول لقاء في الاختلاط، ضعف موقفه، والطرف الآخر أصبح أكبر منه، كان في اختلاط محشوم، ثم صار الاختلاط غير محشوم، ثم خلوة، يكون على علم بالمحرمات، إذا هو فجأةً وقع في الفواحش المحرمة، إن اتباع الهوى هوان .

الأحاديث التي وردت في فصل هذا الباب :

١-الكيس من دان نفسه.......:

في الحديث الصحيح: عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن شداد بن أوس]

دان: أخضع، دانت له الرقاب، أي خضعت له الرقاب، دان نفسه: أخضع نفسه له.

((وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا))

يوجد أهواء في الطعام والشراب، أهواء بالعلاقات الاجتماعية، طبعاً في بعض البلاد الأخرى الأعراس كلها مختلطة، نحن في نصف مصيبة، النساء لهم يوم، والرجال لهم يوم، أما هناك فالأعراس مختلطة، هذه أهواء اجتماعية، يوجد أهواء بالطعام والشراب، وأهواء بالعلاقة بالمرأة، وأهواء أساسها العلو في الأرض، فالإنسان يحذر أن يتبع الهوى، لأنه عندئذٍ يسمى عند رسول الله: عاجزاً، ضعيف الرأي .

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

أيها الأخوة، العاقل هو الذي عرف الله، أما التفوق في اختصاص، في حرفة بدرجة علمية، بمهارة يدوية، هذا اسمه التفوق، اسمه ذكاء، ما كل ذكي بعاقل، لا يسمى الإنسان عاقلاً إلا إذا عرف الله، ولا يسمى عاقلاً إلا إذا عمل للآخرة، ولا يسمى عاقلاً إلا إذا دان نفسه، ولا يسمى عاقلاً إلا إذا سيطر على أهوائه، ولا يسمى عاقلاً إلا إذا ألجم نفسه .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه، قَالَ:

((قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح ومالك في الموطأ عن أبي هريرة]

هذا الحديث معروف، ومألوف، ومطروق على مسامعكم جميعاً، ولكن الأشياء المحكمة ينبغي أن نركز عليها .

((وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

من تعريفات العاقل الذي لا يندم: لمجرد أن تندم، معنى هذا: أنك اتخذت قرارًا خاطئًا، لمجرد أن تندم، تحركت حركةً خاطئة، لمجرد أن تندم، وقعت في وهم كبير، أو في ضلال بعيد، لذلك العاقل لا يندم، لأنه فعل ما يفعله، وترك ما ينبغي أن يتركه، وتعلق بالمهم، وترك الأقل أهمية .

٢-ما أسر إلي شيئاً كتمه الناس....:

عَنْ أبي الطُّفَيْلِ قَالَ:

((قُلْنَا لِعَلِيِّ بْنِ أبي طالِبٍ: أَخْبِرْنَا بِشَيْءٍ أَسَرَّهُ إِلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَا أَسَرَّ إِلَيَّ شَيْئًا كَتَمَهُ النَّاسَ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ تخوم الأرض، يعني الْمَنَارَ))

في الإسلام لا يوجد خصوصيات، في الإسلام لا يوجد كلام لا يلقى على عامة الناس، حتى من أغرب الأحكام الفقهية: أي مسجد يسع مئة ألف في دمشق؟ الأموي، ما بين حرمه وصحنه، يسع مئة ألف مصل، هذا المسجد لو وقف على منبره أعظم الخطباء، وله أبواب، إذا أغلقنا أبوابه وأرتجناها، فالخطبة باطلة، والصلاة باطلة، في الإسلام لا يوجد شيء مغلق، كله مفتوح، كلام لا يلقى على عامة الناس، شيء متداول داخلياً، ممنوع أن يصرح به، هذا ليس في الإسلام إطلاقا .

فلو أن خطبة من أروع الخطب، ألقيت على مئة ألف مصل، والباب مرتج، فالخطبة باطلة، والصلاة باطلة، وعلى المصلين أن يعيدوا صلاتهم، لماذا؟ لأن هذا الدين دين الله، دين لكل الخلق، دين يتسع للخلق جميعاً .

فلذلك: قَالَ:

((مَا أَسَرَّ إِلَيَّ شَيْئًا كَتَمَهُ النَّاسَ))

يوجد أشخاص عندهم رغبة، هذا الشيء لك، ولكن لا يقال للناس، هذا ليس دينًا، الدين الذي يلقى على عامة الناس، لأنه دين الله . فَقَالَ:

((مَا أَسَرَّ إِلَيَّ شَيْئًا كَتَمَهُ النَّاسَ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ الْمَنَارَ))

معنى لعن الله: أي أبعده، هذه من العبارات التي يتخذها العلماء أساساً للكبائر، إذا قال عليه الصلاة والسلام:

((لعن الله من فعل كذا وكذا))

فهذا الفعل يعد من الكبائر .

((لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ))

أحياناً تذبح الأغنام على أقدام بعض الأشخاص، هذا ذبح لغير الله، أحياناً يعظم غير الله تعظيماً يفوق الحد المعقول.

عَنْ مَيْمُونِ بْنِ أَبِي شَبِيبٍ، أَنَّ عَائِشَةَ مَرَّ بِهَا سَائِلٌ، فَأَعْطَتْهُ كِسْرَةً، وَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ، عَلَيْهِ ثِيَابٌ، وَلَه هَيْئَة، فَأَقْعَدَتْهُ فَأَكَلَ، فَقِيلَ لَهَا فِي ذَلِكَ، فَقَالَتْ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

لا أن يُعبَدَ الرجل من دون الله، لا أن يُعظم تعظيماً يفوق كل تقدير، النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا جلس يجلس حيث ينتهي به المجلس .

عقبة بن عمرو رضي الله عنه قالَ:

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[أخرجه ابن ماجة في سننه عن عقبة بن عمرو]

النبي عليه الصلاة والسلام حينما قالت له السيدة عائشة:

((والله لا أقوم إلا لله، قال: عرفت الحق لأهله))

وحينما قال له الأعرابي بفظاظة:

((أعطني من هذا المال، فهو ليس مالك، ولا مال أبيك، قال: صدق إنه مال الله))

بهذه البساطة .

فالنبي عليه الصلاة والسلام مع أنه سيد الخلق، مع أنه سيد البشر، مع أنه سيد الأنبياء والمرسلين، عاش بين الناس كواحد منهم، هو سيدهم، وهو في قمة المجتمع البشر، ومع ذلك عاش كواحد منهم.

لما جاء أخو أبي العاص زوج ابنته زينب، معه قلادة، أرسلته إليه ابنته زينب، لتفدي بها زوجها، بكى النبي عليه الصلاة والسلام، ابنته ترسل أخا زوجها بقلادة أهدتها إليها أمها السيدة خديجة عند زفافها، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن شئتم أطلقتم لها أسيرها))

ما استبد برأيه، ترك الأمر لأصحابه، النبي عليه الصلاة والسلام هو سيد البشر، لكنه عاش كأنه واحد من بني البشر .

وَلَكِنِّي سَمِعْتُهُ يَقُولُ:

((لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثـًا))

إنسان أحدث في هذا الدين ما ليس منه، إنسان ابتدع، وأضاف على عقائده عقائد زائغة، أضاف على عباداته عبادات ما أنزل الله بها من سلطان، غير، وبدل، وحور، وشوه، ونفى، وأثبت، واختصر، وأضاف، غير معالم الدين، هذا مبتدع، لا ينبغي أن تعظمه، ولا ينبغي أن تحترمه .

سمعت عن إنسان مبتدع، ألف كتابًا أساء إلى هذا الدين إساءة بالغة، إن في عقائده، وإن في عباداته، والكتاب راج، لأنه تملك أهواء الناس، ليس العتب على المؤلف، إلا أنني عتبت على أحد الدعاة، دخل عليه وأخوانه أمامه، فقام له، ووضعه إلى جنبه، وأثنى على علمه، وذكائه، ومؤلفه، هذا مبتدع؛ لا ينبغي أن تعظمه، لا ينبغي أن تبجله، لا ينبغي أن توهم الناس إنه إنسان عظيم .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيِ اللَّه عَنْهَا قَالَتْ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح وأبو داود في سننه عن عائشة]

((وَشَرَّ الأُمُور مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّار))

[أخرجه مسلم في الصحيح والنسائي في سننه]

((وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا))

لماذا لا تصلي؟ يقول: قال تعالى:

(الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ)

[سورة الحج الآية: ٤١]

هكذا فهمت الآية، هذا مبتدع، لم تأكل الربا؟ يقول: الربا كان في عهد رسول الله ربا استهلاكي، وهذا ربا استثماري، هذا مبتدع، غير في دين الله، أحل الربا، لِمَ تسمع الغناء؟ يأتيك بحديث ضعيف أو موضوع يجيز الغناء، لِمَ تفعل كذا وكذا؟ يأتيك بحديث دليله ضعيف، هذا مبتدع، والمبتدع لا ينبغي أن تعظمه، ولا أن تبجله، ولا أن تقدره، لأنك عندئذٍ توهم الناس أنه على حق .

((لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا))

أحدث في هذا الدين ما ليس فيه، وأساساً من علامات الدعوة الصادقة الخالصة إلى الله: أن تدعو إلى الله من خلال اتباعك لا ابتداعك، من خلال إنصافك لا من عدم إنصافك وجحودك، من خلال التعاون لا من خلال التنافس .

((وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ تخوم الأرض، يعني الْمَنَارَ))

أحيانا الابن يكون أبوه ملء السمع والبصر، يأتيهم ضيف، الأب يثني عليه، يذهب الابن مع أبيه لزيارة هذا الضيف، إذا به متفلت، لا يوجد انضباط في البيت، فإذا سمع الابن ثناء أبيه على هذا الإنسان، وهو غير منضبط، غير ملتزم، ماذا فعلنا بهذا الطفل؟ اضطربت أفكاره، لذلك: إن الله ليغضب إذا مدح الفاسق .

نحن عندنا كلام يقال دائماً: لبق، قد لا يصلي، يقول لك: مرن، لبق، اجتماعي، رقيق الحاشية، لطيف العبارة، متحدث، ذكي، وقد يكون ماله حرامًا، قد يكون تاركًا للصلوات الخمس، قد يكون تاركًا للفرائض، قد يكون مبتدعًا .

أنا أشد ما أتألم، حينما أكون في عقد قران، يقف هذا الخطيب، فيثني على هاتين الأسرتين المتصاهرتين العريقتين، والحاضرون جميعاً يعلمون من هو الشاب الخاطب؟ وما أخلاقه؟ وما التزامه؟ فإذا تكلم هذا الداعية كلاماً غير صحيح، وأثنى على العروس ثناءً غير صحيح، ضعضع مكانته أمام الناس .

حينما استخلف سيدُنا الصديق عمرَ بن الخطاب، وحينما لامه بعض أصحابه على هذا الاستخلاف، قال:

((أتخوفونني بالله؟ إذا سألني الله عز وجل أقول: يا ربي لقد استخلفت عليهم أرحمهم، ومع ذلك قال: فإذا بدل وغيّر، فلا علم لي بالغيب))

لا تزكي على الله أحدًا، قل: لا أعلم، أو قل: هذا علمي به، فإن بدل وغير، فلا علم لي بالغيب، فلذلك: إذا مدح الإنسانُ الفاسقَ كسب إثماً كبيراً .

((وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ تخوم الأرض، يعني الْمَنَارَ))

إنسان تسلم عملا لا بأس به، عملا إداريًا، فمن يعمل معه، أراد أن يتقرب إليه، فسمى أحد الشوارع باسم أبيه، وأبوه كان مفتياً، وكان إنساناً صالحاً، وعالماً جليلاً، هذا الابن العاق، غضب أشد الغضب، لأن الذي يعمل معه، سمى أحد الشوارع باسم والده؛ العالم، الجليل، المفتي، قال له: ماذا فعل؟ هذا إنسان كان بعيدًا عن الروح الحديثة، ماذا فعل؟ بدأ هذا الابن العاق يسبّ أباه، فما كان من هذا الموظف، إلا أن قال له: يكفي أنه قدمك للأمة، هذه لعن والديه.

يقول لك: والدي دقة قديمة، أبي لا يعرف، جاهل، هذا من الكبائر، لأنه سبب وجوده .

كثير من الحالات: إنسان وصل إلى مكانة رفيعة في المجتمع، وله أب دين، صالح، وملتزم، لكنه على غير نمط ابنه، فالابن يطعن في أبيه، من أجل يتجمل أمام الناس .

إذاً:

((لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ تُخُومَ الأَرْضِ، يَعْنِي الْمَنَارَ))

ولعن الله من غيّر تخوم الأرض: أي اغتصب شبرًا من أرض غير الحدود، هذه كلها من الكبائر .

أنا أتمنى على أخوتنا الكرام، أن يعرفوا ما الكبائر؟ لعلنا في دروس قادمة إن شاء الله، نقف عند الكبائر، الكبائر هذه مهلكة، لأنه يوجد أشياء كثيرة، نعدها من الصغائر، وهي من الكبائر، فالإنسان حري به أن يعلم الكبائر، لأن الكبائر مهلكة، الكبائر حجاب بينك وبين الله، قال تعالى:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

[سورة النساء الآية: ٣١]

أما النقطة الدقيقة: أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار، لعل الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا في دروس قادمة في موضع الكبائر، نتحدث عن الكبائر كبيرةً كبيرة، وسوف تفاجؤون أن هناك من الأعمال ما يعده عامة المسلمين من الصغائر، وهي من الكبائر، وقد يسأل أحدهم: لا أجد في صلاتي حلاوة، لأنه متلبس في كبيرة وهو لا يدري، قد يكون مبتدع، قد يكون مرتكبَ ذنب يتوهمه صغيراً، وهو عند الله كبير، والدليل: حديث الإفك، ماذا قال الله عنه؟ قال تعالى:

(وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

[سورة النور الآية: ١٥]

البطولة: أن تتطابق رؤيتك للشيء مع تقييم القرآن له، هذه البطولة، الخطر الكبير والجهل الجاهل، والوهم الخطر: أن ترى شيئاً بحجم غير حجمه في القرآن الكريم، لذلك المنافق يرى ذنبه كذبابةٍ يدفعها عن وجهه، أما المؤمن فيرى ذنبه كجبل جاثم على صدره، فإذا استصغر الإنسان ذنبه فذنبه كبير، معنى ذلك: أن رؤيته للشيء اختلفت مع تقييم الله له في القرآن والسنة.

٣-من أراد أن يكرم دينه.......:

وقد ورد في بعض الأحاديث الصحيحة عن عبد الله بن مسعود، هذا الحديث لعبد الله بن مسعود، وهذا اسمه مقطوع، يوجد عندنا مقطوع، وموقوف، ومرفوع، المرفوع إلى النبي عليه الصلاة والسلام، والموقوف على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمقطوع عن التابعين .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((مَنْ أَرَادَ أَنْ يُكْرِمَ دِينَهُ، فلا يَدْخُلْ عَلَى السُّلْطان، وَلا يَخْلُوَنَّ بالنِّسْوَانِ، ولا يُخَاصِمَنَّ أصْحَابَ الأهْوَاءِ))

[أخرجه الدارمي في سننه عن ابن مسعود]

يعني لا تدخل على السلطان، ولو قلت: آمره وأنهاه، ولا تخلون بامرأة، ولو قلت: أعلمها القرآن، حينما يخاصم الإنسان صاحب الهوى تهبط مكانته، لأن صاحب الهوى لا يناقش، وإذا ناقشته لم تفلح، ما ناقشني جاهل إلا غلبني، ولا ناقشت عالمًا إلا غلبته.

يوجد طرفة: إنسان عنده دابة، يعمل عليها، يحمل عليها حوائج الناس، ويعيش من هذا الرزق، ماتت، ماذا يفعل؟ من أين يأكل؟ كيف يعيش؟ دفنها وأقام عليها قبة، وسماها باسم ولي من الأولياء . الناس بدؤوا يزورون هذا المقام، ويقدمون له الهدايا، عاش في بحبوحة كبيرة، هو في حال آخر صار، هذا الإنسان الذي يعيش من خلال هذه الخزعبلات: هل يمكن أن تقطع أن المدفون هنا حمار؟ هو دفنه بيده، وقناعته: أن المدفون في هذا المكان مثلاً دابة أشد من قناعة الذي يناقشه، هل يعترف؟ صاحب الهوى لا يعترف، المنتفع لا يعترف، الغبي لا يعترف، لذلك لا تناقش صاحب الهوى، لأنه إلهه هواه منتفع بالهوى، من الذي أهل أن تناقشه؟ الإنسان الحر الذي يبحث عن الحقيقة، الذي يبحث عن الحقيقة، هذا يحاور، ويناقش، ويعاون، أما إنسان صاحب أهواء، فمنتفع انتفاعًا كبيرًا بشيء، ويغطيه بخرافة، أو ببدعة، أو بإيهام، هذا لا يناقش . لذلك:

((مَنْ أَرَادَ أَنْ يُكْرِمَ دِينَهُ، فلا يَدْخُلْ عَلَى السُّلْطان، وَلا يَخْلُوَنَّ بالنِّسْوَانِ، ولا يُخَاصِمَنَّ أصْحَابَ الأهْوَاءِ))

والآية الكريمة:

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى)

[سورة الأعلى الآية: ٩]

يوجد عندك حاسة سادسة، هذا الإنسان مفكر صادق، يبحث عن الحقيقة، قدم له روحك، أما إنسان مغموس في أهوائه، وشهواته، ويكذب، ويدجل، أنت أرقى من أن تناقشه .

(فذكر إن نفعت الذكرى)

((ومن تكلم بالحكمة لغير أهلها فقد ظلمها، ومن منعها أهلها فقد ظلمها))

وقال أبو قلابة:

((لا تجالسوا أهل الأهواء -إقناعه صعب، لأنه منغمس في أهواءه- ولا تجادلوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالاتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون))

أخواننا الكرام، المؤمن لا يتحرك إلا على بصيرة، لا يجلس إلا في مكان ينفع الناس فيه، لا يجلس إلا في مكان إلا يقدم النفع للناس، إلا أنه كثير من اللقاءات غير مجدية، غير نافعة، فيها ضلال، فيها زيغ، فيها انحراف، فيها معصية، فيها لغو، غيبة، نميمة، اختلاط، انحراف، لا تجلس إلا

مجلساً يليق بك، لا تصاحب إلا مؤمناً، لا يأكل طعامك إلا تقي، لا تنطق إلا بالحق، لا تنظر إلا لتعتبر، لا تتحرك إلا لتخدم الناس، أما التحرك العشوائي، هذا شيء لا يليق بالمؤمن، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ١-٣]

لا تجالسوا أهل الأهواء، ثم إنك عندما تجالسهم، هم لا يقيمون لك قيمة، يتجاهلوك أحياناً . أنت سهرت عندهم يقولون: هاتوا الطاولة لنلعب، وأنت جالس، هذه إهانة لك، أو لعبة أخرى، أو غيبة، أو متابعة عمل فني رخيص، ما دورك أنت في هذه الجلسة؟ لا تجالسوا أهل الأهواء، ولا تجادلوهم، لأنهم منتفعون، لأنهم غارقون في أهوائهم، لأنهم يدافعون عن حظوظهم، لا عن حقائق يؤمنون بها، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالاتهم.

أنا دائماً أكرر وأقول: لا تنس لعبة شد الحبل، إذا كان في مجلس أمكنك أن تشدهم إليك فاجلس معهم، لك هيبة عندهم كن معهم، أما إذا أمكن أن يشدوك إليهم، إلى ضلالتهم، إلى انحرافهم، إلى لغوهم، إلى مجلس الباطل عندهم، ابتعد عنهم .

لذلك الإمام الغزالي في الإحياء، عقد بابين رائعين: العزلة والخلطة، متى ينبغي أن تعتزل الناس؟ ومتى ينبغي أن تخالطهم؟ إذا خالطتهم وأخذت بيدهم إلى الله فخالطهم، أما إذا خالطتهم وأخذوا بيدك إلى الشيطان فابتعد عنهم، هذا المقياس عندك .

((ولا تجالسوهم، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالاتهم، أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون))

أنه جاءه رجل وقال:

((إن فلان يقرأ عليك السلام، قال: بلغني أنه قد أحدث، فإنه إذا كان قد أحدث، فلا تقرأ عليه السلام))

المبتدع، المحدث، لا غيبة له، ولا سلام عليه، لأن هذا إنسان خطير، الكافر الإنسان يبتعد عنه، يحذره، أما المبتدع تحسبه أنه على حق .

كثير من الأخوان، ذهبوا إلى بلاد الغرب، يوجد مساجد كثيرة، كلها بدع، أفكار منحرفة، يوجد نبي بعد رسول الله، عاش في الهند مثلاً، يحرمون، ويحللون، ويبيحون، فكل إنسان قبل أن تدخل إلى هذا المسجد، قد يكون في بدع خطيرة، عقائد زائغة جداً، فلا ينبغي أن تنساق مع هذه العقائد الزائغة.

وحدثنا الأعمش قال:

((كان إبراهيم لا يرى غيبة للمبتدع))

أنا بدأت الدرس بهذه المقدمة، وأحب أن أعيدها على أسماع الأخوة الذين جاؤوا متأخرين: أول عدو للإنسان الجهل، إلا أني ضربت مثل: الطبيب الذي يدخل: هل هو جاهل في مضار التدخين؟ ما الذي حمله على التدخين؟ هواه، اتباع الهوى .

إذاً: صار في عدوين، العدو الأول الجهل، والعدو الثاني اتباع الهوى، فالإنسان يأخذ من الجهل، أو من اتباع الهوى، قال تعالى:

(وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ)

[سورة ص الآية: ٢٥]

٤-إنك في زمان كثير فقهاؤه.....:

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ قَالَ لإِنْسَانٍ:

((إِنَّكَ فِي زَمَانٍ، كَثِيرٌ فُقَهَاؤُهُ، قَلِيلٌ قُرَّاؤُهُ، تُحْفَظُ فِيهِ حُدُودُ الْقُرْآنِ، وَتُضَيَّعُ حُرُوفُهُ، قَلِيلٌ مَنْ يَسْأَلُ، كَثِيرٌ مَنْ يُعْطِي، يُطِيلُونَ فِيهِ الصَّلَاةَ، وَيَقْصُرُونَ فيه الْخُطْبَةَ، يُبَدُّونَ أَعْمَالَهُمْ قَبْلَ أَهْوَائِهِمْ، وَسَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، قَلِيلٌ فُقَهَاؤُهُ، كَثِيرٌ قُرَّاؤُهُ، تحْفَظُ فِيهِ حُرُوفُ الْقُرْآنِ، وَتُضَيَّعُ حُدُودُهُ، كَثِيرٌ مَنْ يَسْأَلُ، قَلِيلٌ مَنْ يُعْطِي، يُطِيلُونَ فِيهِ الْخُطْبَةَ، وَيَقْصُرُونَ الصَّلَاةَ، ويُبَدُّونَ فِيهِ أَهْوَاءَهُمْ قَبْلَ أَعْمَالِهِمْ))

[أخرجه مالك في الموطأ عن ابن مسعود]

أحياناً: العلوم الإسلامية نامية جداً، ولا يوجد تطبيق، والحقيقة: نحن في عصر عجيب، كل شيء ميسر، الكتب ميسرة، الأشرطة ميسرة، يمكن أن تستمع إلى القرآن بشريط، أو أن تقرأه بمصحف بأفخر طباعة، موضوع في كتاب، مؤلف، الطباعة أنيقة، شيء مبذول .

كان الأجداد ينتقل أحدُهم من المدينة إلى البصرة، يركب ناقته وحيداً، هذا الذي يقطع ما بين المدينة والبصرة على ناقة احتمال موته بالمئة ثمانون، العلماء قالوا: السفر مظنة هلاك .

يوجد وحوش، قطاع طرق، حر يهلك في النهار، كان يركب ناقته، ليتلقى حديثاً واحداً عن رجل سمعه من رسول الله في البصرة .

الآن تدخل إلى أي مكتبة، تأخذ كتاب حديث، كله موثق، مخرج، مختصر، مشروح بمبلغ معقول، الأمور ميسرة جداً، ولكن لا يوجد تطبيق، هذه مشكلة العصر الحديث، الأمور العلمية ميسرة جداً، أما السلوكية فضعيفة جداً، أما أجدادنا فكانوا في سلوكهم متفوقين، وكانت وسائل الاتصال ضعيفة جداً، العلوم تحتاج إلى تصنيف، والتصنيف كان ضعيفًا، والطباعة كانت غير موجودة، كان النوابغ يستأجرون دكان وراقٍ ليلاً ليقرؤوا الكتب .

أنا درست في الخمسينات: أكثر الكتب غالية جداً، كلها ملخصات ودفاتر، أما الآن فكل شيء ميسر، ونحن في زمان:

((زَمَانٌ قَلِيلٌ فُقَهَاؤُهُ، كَثِيرٌ قُرَّاؤُهُ، يُحْفَظُ فِيهِ حُرُوفُ الْقُرْآنِ، وَتُضَيَّعُ حُدُودُهُ، كَثِيرٌ مَنْ يَسْأَلُ، قَلِيلٌ مَنْ يُعْطِي، يُطِيلُونَ فِيهِ الْخُطْبَةَ، وَيَقْصُرُونَ الصَّلَاةَ، يُبَدُّونَ فِيهِ أَهْوَاءَهُمْ قَبْلَ أَعْمَالِهِمْ))

هذه من علامات آخر الزمان .

٥-من دعا إلى هدى.......:

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أوزارهم شَيْئًا))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأبو داود والترمذي في سننهما ومالك في الموطأ عن أبي هريرة]

إذا دعا إنسان إلى ضلالة، دعا إلى بدعة، دعا إلى شيء ليس من الدين، دعا إلى سلوك متفلت من منهج الله، كان قدوةً لغيره، كل من تبعه فهو في رقبته يوم القيامة.

٦-من أحدث حدثاً........:

عن عَلِيٍّ رَضِي اللَّه عَنْه:

((مَا عَهِدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا خَاصَّةً دُونَ النَّاسِ، إلا شَيْءٌ سَمِعْتُهُ مِنْهُ، فَهُوَ فِي صَحِيفَةٍ فِي قِرَابِ سَيْفِي، قَالَ: فَلَمْ يَزَالُوا بِهِ حَتَّى أَخْرَجَ الصَّحِيفَةَ، قَالَ فَإِذَا فِيهَا: مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، وَالْمَلائِكَةِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلا عَدْلٌ، قَالَ: وَإِذَا فِيهَا إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي أُحَرِّمُ الْمَدِينَةَ، حَرَامٌ مَا بَيْنَ حَرَّتَيْهَا وَحِمَاهَا، كُلُّهُ لا يُخْتَلَى خَلاهَا، وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا، إلا لِمَنْ أَشَارَ بِهَا، وَلا تُقْطَعُ مِنْهَا شَجَرَةٌ، إلا أَنْ يَعْلِفَ رَجُلٌ بَعِيرَهُ، وَلا يُحْمَلُ فِيهَا السِّلاحُ لِقِتَالٍ، قَالَ: وَإِذَا فِيهَا الْمُؤْمِنُونَ، تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، أَلا لا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ))

النبي عليه الصلاة والسلام حرم المدينة، من قتل، وقطع شجرة، لأنها من أحب بلاد الله إلى الله . حينما خرج من مكة المكرمة، قال:

((يا رب لقد خرجت من أحب البلاد إلي، فأسكني أحب البلاد إليك))

فكانت المدينة المنورة بنص هذا الحديث الشريف: أحب البلاد إلى الله، ولأن الله يحبها، جعلها محرمة على كل عمل يؤذي أهلها .

والشيء الذي يلفت النظر في هذا الحديث: أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا))

ماذا يقابل ذلك؟ إذا دعا الإنسان دعوة إلى الله صادقة، أو تبنى داعية، أحيانا الإنسان يعاون طالب علم، إما أن تعلم الناس، وإما أن تعين من يعلم الناس، فأنت في الأجر سواء، بالمقابل:

((مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا أَوْ آوَى مُحْدِثًا))

من دعا إلى الله أو عاون من دعا إلى الله له مثل أجره .

((مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، وَالْمَلائِكَةِ، وَالنَّاس أَجْمَعِينَ، لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلا عَدْلٌ))

لأن هذا الدين دين الله عز وجل، كيف نحافظ عليه كما بدأ؟ لابد من شرطين: ألا نضيف عليه، وألا نحذف منه، فإذا حذفنا منه تعطل المنهج، وإذا أضفنا عليه شوهناه، إذا أضفنا عليه اتهمناه بالنقص، لأن الله عز وجل يقول:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة الآية: ٣]

فمن أجل أن يبقى كما بدأ، ينبغي ألاّ نضيف عليه، وألاّ نحذف منه .

((مَنْ أَحْدَثَ حَدَثًا، أَوْ آوَى مُحْدِثًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، وَالْمَلائِكَةِ، وَالنَّاس أَجْمَعِينَ، لا يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلا عَدْلٌ، قَالَ: وَإِذَا فِيهَا إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي أُحَرِّمُ الْمَدِينَةَ، حَرَامٌ مَا بَيْنَ حَرَّتَيْهَا وَحِمَاهَا، كُلُّهُ لا يُخْتَلَى خَلاهَا، وَلا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلا تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا، إِلا لِمَنْ أَشَارَ بِهَا، وَلا تُقْطَعُ مِنْهَا شَجَرَةٌ، إِلا أَنْ يَعْلِفَ رَجُلٌ بَعِيرَهُ، وَلا يُحْمَلُ فِيهَا السِّلاحُ لِقِتَالٍ، قَالَ: وَإِذَا فِيهَا الْمُؤْمِنُونَ، تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ، وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، أَلا لا يُقْتَلُ مُؤْمِنٌ بِكَافِرٍ، وَلا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ))

هذه من أروع القواعد الاجتماعية في حياة المؤمنين:

((تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ))

الناس سواسية، المؤمنون أخوة:

((يَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ))

يعني أقلهم مكلف بأكثرهم، وأكثرهم متكفل بأقلهم، وهو متضامنون، متعاونون، متكافلون، متساندون .

((المؤمنون بعضهم لبعض نصحة متوادون، ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون، ولو اقتربت منازلهم))

خلاصة القول :

أيها الأخوة، كملخص لهذا الدرس، أتمنى على الأخوة الكرام أن ينتبهوا إلى شيئين: إلى أن أعدى أعداء الإنسان هو الجهل، وأعدى أعدائه هو الهوى، فإما أن تذل قدم الإنسان لجهل أو لاتباع هوى، فمن حصن نفسه من الجهل بالعلم، ومن اتباع الهوى بالطاعة لله عز وجل، والنبي عليه الصلاة والسلام ما خير بين اثنين إلا اختار أهونهما وأيسرهما، إلا أن يكون فيما يغضب الله عز وجل، وأنت اختار الأسهل، لكن إياك أن تختار الهوى، والإنسان يعلم نفسه علم اليقين، قال تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

[سورة القيامة الآية: ١٤]

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٤٦-١٠١) : باب التقوى - ثمار التقوى- شبكة الضعف التي يقع فيها ابن آدم وحصنه منها منافذ الشريعة الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٣-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

عادة أدرج عليها :

أيها الأخوة الكرام، من عادتي في التدريس: أن يكون لكل عام منهج، ففي العام الماضي كان هناك كتاب مختارات في الأحاديث الشريفة، للشيخ أحمد الهاشمي، وفي هذا العام أردت أن نأخذ كتاباً هو كتاب رياض الصالحين، هو من أعظم الكتب التي ألفها الإمام النووي رحمه الله تعالى، وهذا الكتاب ينطوي على أحاديث رسول الله الصحيحة، وقد بوِّبت وفق موضوعات يحتاجها كل مسلم، وبدأ الإمام رحمه الله تعالى كل باب بالآيات التي تتعلق بهذا الباب، ثم يأتي بالنصوص الصحيحة من كتب البخاري ومسلم التي تنتمي إلى هذا الباب، وفي كل درس إن شاء الله نختار أحد الأبواب، نقف عند الآيات المتعلقة بهذا الباب، ثم بعض الأحاديث التي تشتد الحاجة إليها في هذا الموضوع .

إليكم هذه الآيات التي أرشدنا إليها النووي في كتابه مع تفسير معانيها :

أيها الأخوة الكرام، من أبواب هذا الكتاب: باب التقوى، قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٠٢]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا)

[سورة النساء الآية: ١٣٦]

يعني حق الإيمان .

قال بعض أصحاب رسول الله في شرح هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٠٢]

أن تطيعه فلا تعصيه، وأن تذكره فلا تنساه، وأن تشكره فلا تكفره .

وفي آية أخرى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

[سورة التغابن الآية: ١٦]

وقد يفهم بعض الناس هذه الآية على معنى ما أراده الله عز وجل، يعني اتقوا الله ما استطعتم، بالحد الأدنى، لكن الله عز وجل يقول:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

[سورة التغابن الآية: ١٦]

بالحد الأعلى، فالآية تحمل على حدها الأعلى، لا على حدها الأدنى، والإنسان وحده يعلم مدى استطاعته، ولن تستطيع أن تكذب على جهتين، لن تستطيع أن تكذب على نفسك، لأن الله عز وجل يقول:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

[سورة القيامة الآية: ١٤]

لن تستطيع أن تكذب على الله، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

[سورة النساء الآية: ١٤٢]

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ)

[سورة الحاقة الآية: ١٨]

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر الآية: ١٩]

خائنة الأعين لا يمكن لبشر أن يعرفها، مستحيل، جالس في البيت، النافذة مفتوحة، أمام النافذة شرفة الجيران، خرجت الجارة بثياب متبذلة إلى الشرفة، وأنت في مكان معتم، وهي في مكان مشرق، وليس في الأرض كلها إنسان، يستطيع أن يضبطك بهذه النظرة إلا الله.

أنت طبيب، مريضة بين يديك، تشكو جهة في جسمها، لك أن تنظر إلى مكان الشكوى، أما إذا نظرت إلى مكان آخر، من يستطيع أن يكشف هذه النظرة الثانية؟ الله وحده، لذلك:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ)

[سورة غافر الآية: ١٩]

إذًا:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

[سورة التغابن الآية: ١٦]

في الحد الأعلى .

والآية الثالثة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً)

[سورة الأحزاب الآية: ٧٠]

إذا قلتم قولا سديدا، فهذا القول السديد طريق إلى تقواكم .

منعطف خطير :

أيها الأخوة،

((قالَ: ألَا أخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ اللَّهِ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فَقَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ -أَوْ قَالَ: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ- إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟))

[أخرجه الترمذي عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ في سننه]

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((حَكَيْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا فقال: مَا يَسُرُّنِي أَنِّي حَكَيْتُ رَجُلًا، وَأَنَّ لِي كَذَا وَكَذَا، قَالَتْ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ صَفِيَّةَ امْرَأَةٌ، وَقَالَتْ: بِيَدِهَا هَكَذَا، كَأَنَّهَا تَعْنِي قَصِيرَةً، فَقَالَ: لَقَدْ مَزَجْتِ بِكَلِمَةٍ لَوْ مَزَجْتِ بِهَا مَاءَ الْبَحْرِ لَمُزِجَ))

ما بال المسلمين في سهراتهم غيبة، ونميمة، واستهزاء، ومحاكاة، وتنتهي الجلسة بـ: الله يتوب علينا، لم نعمل شيئا، هو ارتكب كل الكبائر، فالغيبة من الكبائر .

قف عند معاني هذه الآية :

أيها الأخوة، أما قوله تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

[سورة الطلاق الآية: ٢]

تؤلف حول هذه الآية مجلدات؛ من يتق الله: يعني من يطع الله، يجعل له مخرجاً: لك أن تفهمها فهما مطلقا، ولك أن تفهمها فهما مخصصا، من يتق الله في اختيار زوجته، يبحث عن ذات الدين، يجعل الله له مخرجا من الشقاء الزوجي، من يتق الله في تطليق امرأته، يطلقها طلقة واحدة ويندم، يجعل الله له مخرجا لإرجاعها، القضية سهلة، من يتق الله في تربية أولاده، يجعل الله له مخرجا لعقوقهم، من يتق الله في كسب ماله، يجعل الله له مخرجا من إتلاف المال.

((ما تلف مال في بر وبحر إلا بحبس الزكاة))

من يتق الله في عينه، يجعل الله له مخرجا من فقد البصر، عينان لا تمسهما النار، يقاس عليها عين تغض عن محارم الله، نرجو الله سبحانه وتعالى في الأعم الأغلب: أن الله لن يفجعك فيها، أذن لا تسمع إلا الحق، نرجو الله عز وجل ألاّ يفجعك بها، لسان يذكر الله، نرجو الله عز وجل ألاّ يفجعك به، قدمان تنقلانك إلى المسجد، نرجو الله عزوجل ألاّ يفجعك بهما، يدان تتصدقان، هذه الأعضاء، والحواس، والجوارح، إذا كانت في طاعة الله ترثك ولا ترثها.

((وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا، وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا))

هم يرثون صاحبهم، وليس الصاحب هو الذي يرثهم .

ومعنى مخرجا: لم يكن هناك مخرج، لو فرضنا مكانا فيه عشرة أبواب، لا تحتاج إلى مخرج، متى تحتاج إلى مخرج؟ حينما تغلق الأبواب كلها، حينما تسد المسارب كلها، فأنت متى تشعر أنك بحاجة إلى مخرج؟ إذا ضاقت عليك الأمور، لذلك قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

[سورة الطلاق الآية: ٢]

إن كان في ضائقة، حلقاتها مستحكمة، صدق القائل:

نزلت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظن أنها لا تفرج

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

[سورة الطلاق الآية: ٢ – ٣]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً)

[سورة الأنفال الآية: ٢٩]

في قلبك نور؛ ترى الحق والباطل، ترى الخير والشر، ترى الجمال والقبح، هذا النور أحد ثمار التقوى.

هذه الآيات بشرح مختصر .

المقربون عند الله عز وجل :

أيها الأخوة، أما الأحاديث: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

((قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ، فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ، قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونَ؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا))

أي أعظم الناس بمقياس الدنيا أغناهم، بمقياس الدنيا أقواهم، بمقياس الدنيا أشدهم صحة، بمقياس الدنيا أكثرهم وسامة، بمقياس الدنيا أكثرهم ذكاء، الذكاء، والوسامة، والقوة، والغنى، هذه مقاييس الدنيا، مقياس الله عز وجل: قيل:

((يا رسول الله، من أكرم الناس؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ))

والدليل:

(إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ)

[سورة الحجرات الآية: ١٣]

فقط: عند الله مقياس واحد .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمْ: الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أنس بن مالك]

كنت مرة في فندق في المغرب، كان هناك مؤتمر إسلامي، حضرته عند الفجر، سمعت قراءة قرآن رائعة جدا، أطللت من الشرفة، وجدت مستخدم الحديقة، يصلي بصوت عذب، وكأن الله سبحانه وتعالى يتجلى عليه، واللهِ شعرت أن هذا المستخدم، الذي يعمل في تقليم الحشائش في الحديقة، ربما كان عند الله أرقى من كل نزلاء الفندق، والفندق فخم جدا.

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

دخل على النبي رجل من أصحابه، وقف له، عجب القوم! قال له:

((أهلا بمن خبرني جبريل بقدومه، قال: أو مثلي؟ قال: نعم يا أخي، خامل في الأرض، علَم في السماء))

أحيانا يكون الإنسان شرا من الدواب، والدليل:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة الآية: ٦]

يعني شر ما برأ الله، إذًا: قد تجد يركب دابة، المركوبة أكرم على الله منه، الدابة، قال تعالى:

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً)

[سورة الجمعة الآية: ٥]

فَقَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ، ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ، ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ - الكريم ابن الكريم، ابن الكريم، ابن الكريم، فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله- قَالُوا: لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ، قَالَ: فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِ؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا))

أحياناً: تجد إنسانا لم يصطلح مع الله بعد، لم يلتزم، لكن في قلبه رحمة، لكنه لا يأكل أموال الناس بالباطل، لا يكذب عليهم، ولم يصطلح مع الله بعد، هذا الإنسان الأخلاقي الذي في قلبه رحمة، دع كل أملك فيه، وخذ بيده إلى الله، وابتعد عن إنسان، يقوم بكل الالتزامات، ونفاقه واضح، فقال عليه الصلاة والسلام:

((خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا))

الحقيقة: فقِهوا بمعنى عرفوا الحكم، أما فقُهوا أصبحوا فقهاء، إذا كان الإنسان في الجاهلية، وعرف الله عز وجل، كان خيِّرا، خيره يستمر في الإسلام .

نقطتا الضعف عند الإنسان هما :

وعَنْ أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، أن رسول الله صلى الله عليه سلم قَالَ:

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فناظر كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ))

زاد في رواية:

((فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَتْ فِي النِّسَاءِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح والنسائي في سننه عن أبي سعيد الخدري]

أنا أقول لكم هاتين الكلمتين: هناك مزلقان، هناك مطبان، هناك لغمان، هناك انحرافان ، هناك كلابتان، يأخذان المؤمن، ويلقيانه في الهاوية؛ المال والنساء، وفي الإنسان نقطتا ضعف هما: المال والنساء .

فإن أردت أن تغري إنسانا؛ فإما بالمال، وإما بالنساء، فمن حصن نفسه ضد هاتين النقطتين، فقد سلم دينه؛ المال والنساء، كم من حالة فاحشة سببها خلوة؟ وكم من حالة زنا سببها صديق سوء؟ وكم من فجور سببه: شيء تشاهده أو تقرأه، لا يرضي الله عز وجل؟ فالمؤمن ما لم يبتعد عن كل المثيرات .

وبالمناسبة: موضوع النساء ليس هناك نهي عن الزنا أبدا، هناك نهي عن أن تقترب من الزنا، لأن هذه المعصية لها قوة جذب، هناك منطقة خطرة بينك وبينها، فإذا لم تجعل بينك وبين هذه الفاحشة هامش أمان طويل، فهناك انزلاق كبير، وأعلم من القصص ما لا يعد و لا يحصى عن أناس، زلت أقدامهم بخلوة، أو بتساهل في حكم شرعي، فإذا هذا الحكم، ينقله إلى الهاوية .

هذه الشهوة لها خصوصية، أدق خصوصية هذه الشهوة، هذا البحث العلمي الذي اكتشفه عالم في أمريكا، لا يفقه عن ديننا شيئا: الإنسان إذا استثير جنسيا، الدماغ يفرز مادة تعطل المحاكمة، يكون إنسانا محترما جدا، مكرما جدا، عنده أولاد، عنده أصهار، له مكانة، يقع في خلوة مع امرأة، فتزل قدمه، طيب أين عقله؟ قد تكون هذه أقل من زوجته بمئات المرات، لماذا زهد في هذه المرأة التي هي حل له، وزلت قدمه مع امرأة دونها بكثير، وفي الحرام؟ أين محاكمته؟ تعطلت، لذلك:

((ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما))

مرة في قضية تحتاج إلى أخ، يعمل في المحاماة، فلي صديق قال لي: زرت محاميا شكا له من زوجته، من هي زوجته؟ محامية، كانت تعمل عنده في المكتب، كان كل شيء قبل الزواج بخمس سنوات، هذه خلوة مخيفة جدا، ليس هناك مزح بالموضوع .

فلان قريبتنا، ولا أحد في البيت، لا تقل لها: تفضلي، الأهل غير موجودين، لا تؤاخذينا، هذا المؤمن، يأخذ موقفا .

فهناك نقطة ضعف في الإنسان: المرأة والمال، فكل إنسان يحصن نفسه من النساء و من المال يسلم بدينه .

اعلم هذه الحقيقة :

أيها الأخوة، مرة ثانية أقول لكم: ليس هناك شهوة أودعها الله في الإنسان، إلا جعل لها قناة نظيفة.

((وما ترك عبد شيئا لله إلا عوضه الله خيرا منه في دينه و دنياه))

وإذا كان شابا لم يتزوج بعد، أعطيكم هذا المثل، ولكن احفظوه: كلما رأيت امرأة في الطريق، فغضضت البصر عنها، كأنك وضعت ليرة ذهب في صندوق مقفل، تُعطى مفتاحه عند الزواج، تفتح، فتجد مئة ألف ليرة ذهبا، مستحيل لشاب يغض بصره عن محارم الله، وتكون حياته الزوجية كشاب متفلت قبل الزواج، هذا يتناقض مع وجود الله، لقوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية الآية: ٢١]

مستحيل أن تكون حياة المستقيم كحياة المنحرف، حياة العفيف كحياة غير العفيف، حياة الصادق كحياة الكاذب، ليس في الآخرة، في الآخرة بديهية، في الآخرة شيء مفروغ منه ، يوم الدينونة، في الدنيا الدنية، قال تعالى:

(سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ)

[سورة الجاثية الآية: ٢١]

إذا استوى هؤلاء مع هؤلاء، هذا يتناقض مع وجود الله، لا مع عدالته، مع وجوده، فلا تخف .

((ما ترك عبد شيئا الله إلا عوضه الله خيرا منه في دينه ودنياه))

سمعت عن أخ من أخواننا الكرام، جاءته فرصة وكالة أجهزة معينة، قد لا ترضي الله عز وجل، و الوكالة أرباحها خيالية، فيها أجهزة قد تستعمل استعمالا لا يرضي الله عز وجل، ركلها بقدمه، ففتح الله عز وجل له بابا آخر، أفضل منه بكثير، الله موجود، تضحي من أجله ثم تخسر؟ هذه أخلاق الله

عز وجل؟ تضحي من أجله فتخسر؟ خفت من معصية، فيكون الذي اقترفها أحسن منك؟ ليس هناك عدالة، والدين باطل .

هذه آية أخواننا الكرام، أتمنى عليكم أن تكون محفورة حفرا في أذهانكم، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية الآية: ٢١]

وقال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة الآية: ١٨]

وقال عز وجل:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم الآية: ٣٥ – ٣٦]

واللهِ لو أن هناك وقتا لهذه الآية، عندي فيها ألف قصة معاصرة، مستحيل أن تستقيم وتخسر، مستحيل أن تعصي وتربح، مستحيل أن تطيع الله ويذلك الله، مستحيل أن تعصيه و يعزك .

استيقظ من هذا الحلم :

أيها الأخوة، هناك مطبات، وهناك حبل مرخى أحيانا، مرخى إلى حين، حتى القوى الكبرى في العالم التي تعيش على أنقاض الشعوب، هذه القوى الكبرى لا بد من يوم تدفع فيه الثمن باهظا، هناك إله موجود، إما أن تؤمن بإله، أو تقول: ليس هناك إله، إذا لم يكن هناك إله، معنى ذلك أن القوى الكبرى تفعل ما تشاء، أكثر الناس مساكين، يظنون أنهم يفعلون ما يشاؤون، ما عظم الناس شيئا إلا وضعه الله، وعرفت الله من نقض العزائم، هذه مسلمات الدين، قال الله عز وجل:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ)

[سورة إبراهيم الآية: ٢٧]

أمر وقع :

قلت لكم مرة في رمضان الماضي: اليهود قاتلهم الله، عندهم مئة وخمسة وعشرون ضابط كوماندوز من أعلى مستوى، كلف كل واحد خمسة ملايين دولار تدريبات من عشرين سنة، أرادوا أن يرسلوا طائرة إلى جنوب لبنان، ليعتقلوا المسلمين ليلة القدر، ما الذي حصل؟.

وقعت طائرة فوق طائرة، فماتوا جميعا، وما عرفوا اليهود منذ أن أسسوا دولتهم في فلسطين بخسارة أكبر من هذه الخسارة، مئة وخمسة وعشرون ضابطا، وجدوا الصندوق الأسود للطائرة العليا، آخر كلمة قالها الطيار: أنا أسقط، ولا أدري لمَ أسقط في ليلة القدر؟! و الله قال:

(سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)

[سورة القدر الآية: ٥]

أناس في المساجد، تريدون مفاجأتهم بخطف، غير معقول .

وسمعت من صديق لي، كان طبيبا في الحرم المكي، إمام الحرم، رجل صالح (السديس)، صالح جدا، وبكّاء، دعا ربع ساعة، في أثناء الربع ساعة، وقعت الطائرتان، إذا تدخل الله، فشيء مخيف، لكن إذا تدخّل لصالحنا على ما نستحق، أن يتدخل الله لصالحنا .

وأنا أكثر دعاء أدعو به في الخطبة:

((اللهم انصرنا على أنفسنا، حتى نستحق أن تنصرنا على أعدائنا))

لأن المعركة بين حقين لا تكون، لأن الحق لا يتعدد، والمعركة بين حق وباطل لا تطول، لأن الله مع الحق، أما بين باطلين فلا تنتهي .

إذًا:

((إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانَتْ فِي النِّسَاءِ))

ما هي العبرة التي نستنبطها من هذه القصة ؟:

هناك قصة ذكرتها سابقا، ولكن الآن مناسبتها: فاتقوا الدنيا، الدنيا في أولها مبهرة، في وسطها هذا اللمعان يخف، أما في آخر الدنيا ليست بشيء، شيء ساقط، فمن السعيد؟ الذي عرفها في أول حياته، عرف حجمها الحقيقي، الإنسان يؤخذ بها في أول حياته، في وسط حياته المال شيء، لكن ليس كل شيء، في أول حياته المال كل شيء، المرأة كل شيء، في الوسط، هذا من دون طلب علم، شخص عادي، من دون طلب علم، من دون خصوصية، مثل عامة الناس، أول الحياة المال شيء مهم جدا، والمرأة مهمة جدا، لكن في الوسط شيء، وليس كل شيء، أما على شفير القبر، أو على فراش الموت، ليسا بشيء .

فكان لي صديق توفي رحمه الله، يشتغل صانعا في الحميدية في محل تجاري، فكان عنده دعابة، يكنس المحل، ويضع القمامة في علبة فخمة، ويلف العلبة بورق الهدايا، لفها بشريط أحمر، ويعقده، ويضع العلبة على طرف الرصيف، يمر واحد، فيرى العلبة، ويظن أن فيها شيئا ثمينا، لعله يكون

فيها عقد ألماس، أو فيها شيء ثمين، عطر، أو جرابات فرضا، أقل شيء فيها مبلغ ثلاثمئة ليرة، يأخذها المارّ ويسرع، فيلحق به هذا الشخص، بعد مئتي متر يفك شريطها، وبعد مئتي متر يفك الورق، بعد مئتي متر ثالثة يفتحها، فيجد زبالة المحل، يسب، ويصيح .

هذا الرجل عنده هذه الدعابة، وهذا مثل مضحِك صارخ، ولكن واللهِ الدنيا كذلك، والله على فراش الموت، يراها ليست بشيء، شيء سخيف .

((الدنيا جيفة، طلابها كلابها، الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له))

فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن سهل بن سعد الساعدي]

كنت في أمريكا، رأيت من الزينة والفخامة، الشيء الذي لا يصدق، واللهِ مجلس علم هنا، مسجد هنا، يرفع فيه الأذان، صلاة تنعقد مع الله عز وجل، حقيقة تعرفها عن الله، جلسة مع أهلك وأولادك، واللهِ خير من الدنيا وما فيها، ولكن لا أحد يعرف، لها بريق، أما العبرة أن ترى الحقيقة .

أحيانا: يكون الواحد مغمض العينين، يضع يده على أفعى، ملمس، ناعم، شكل انسيابي، إذا فتح عينيه، ووجدها أفعى، يخرج من جلده، فالعبرة أن تفتح عينيك، العبرة أن ترى الحقيقة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الحديد الآية: ٢٨]

العبرة: أن يكون في قلبك هذا النور .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٤٧-١٠١) : باب التفكير في عظيم مخلوقات الله تعالى، وفناء الدنيا، وأهوال الآخرة....-دعوة للتفكير- من هو العاجز والكيس كما وضحهما المصطفى في كلامه؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٤-١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

من الأخطاء الشائعة في العالم الإسلامي في هذا العصر :

أيها الأخوة الكرام، الإمام النووي رحمه الله تعالى، عقد في كتابه رياض الصالحين بابًا، حول التفكير في عظيم مخلوقات الله تعالى، وفناء الدنيا، وأهوال الآخرة، وسائر أمورهما، وتقصير النفس، وتهذيبها، وحملها على الاستقامة .

الحقيقة أيها الأخوة: أن في الدين شقين؛ معرفة الله، ومعرفة منهجه، معرفة منهجه، هناك تفوق في العالم الإسلامي في كل مكان في معرفة منهج الله؛ كتب الشريعة، أحكام الزواج، أحكام الطلاق، أحكام الميراث، علماء كبار، مؤلفات ضخمة، ومحاضرات متنوعة، ولكن الشق الأول، وهو معرفة الله عز وجل، هناك تقصير في هذا الشأن، السبب هو أن الإنسان إذا عرف الآمر، وعرف الأمر بعده، تفانى في طاعة الآمر، أما إذا عرف الأمر ولم يعرف الآمر، تفنن في التفلت من أمره، وليس هناك تفسير لتقصير المسلمين في طاعة، إلا أن جانب معرفتهم بالله ضعيف جدا، بينما معرفتهم بالشرع واضحة .

هل هناك في العالم الإسلامي واحد لا يعرف أن الربا حرام، والغش حرام، والاحتكار حرام، والاحتيال حرام؟ ومع ذلك أناس كثيرون جداً، غارقون إلى قمة رؤوسهم في المعاصي المالية، والمعاصي الاجتماعية، وهم يعلمون علم اليقين أنها محرمة، ما السبب؟ لأن معرفتهم بالآمر ضعيفة جداً، والإنسان كما تعلمون: قيمة الأمر من قيمة الآمر.

لو كنت في ثكنة، وجاءك الأمر من صاحب سبع نجوم، طبعاً غير الثمانية، غير النجمة، غير النجمتين، غير الثلاث، غير لواء، كلما ارتفعت الرتبة، يصير الأمر عظيماً، ويكون تنفيذه فوريًا، فكلما عظم عندك الآمر عظم الأمر، فإذا وجدت إنسانا مقصرا في طاعة الله، معنى ذلك: أن جانب معرفة الله عنده ضعيف عنده .

أمر موجه إليك :

أيها الأخوة، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا)

[سورة سبأ الآية: ٤٦]

دقق في الآية: تقوموا، القيام في معنى الأمر الجاد، أحيانا تكون في نقاش، هل تلاحظون هذه الملاحظة؟ أحيانا إنسان لشدة انفعاله، ولعظم الأمر يقف، يتكلم واقفا، فقيام الإنسان دليل اهتمامه الكبير، بل إن الله عز وجل، يأمرنا أن نقوم لهذا الأمر، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى)

[سورة سبأ الآية: ٤٦]

فإما أن تجلس وحدك، تتأمل في هذا الدين، أو أن تجلس مع أخ لك في الله، تتأمل في هذا الدين .
قال سيدنا معاذ:

((يا أخي اجلس بنا نؤمن ساعة))

هل يخطر في بال واحد منا، أن يسهر مع صديق له، مع أخ كريم، يتباحثون في أمور الدين، في أمور الشريعة، في أمور معرفة الله؟ كل الحديث عن أسعار الدولار، عن البيوت، وعن البضائع، وعن القوانين، والأنظمة، وعن السماح بالاستيراد، وعن كساد البضاعة، وعن ضعف الأسواق، وعن ارتفاع المصروف، وعن قلة الدخل، وعن السوق البائرة، والبضاعة الكاسدة، هذا عند التجار، وعند الأطباء زيد وعبيد، وفلان أجرى عملية ليس لها لزوم، وفلان طبيب نصح المريض بإجراء العملية، والعملية كانت مؤذية، ادخل إلى المحامين، مهنتهم القضايا، والدعاوى، والقضاة، والمدرسين، والمدير، والبرامج، والساعات، والتعويضات القليلة، كل سِلك، وكل مهنة لها هموم، فلما يكون كل حديث الإنسان في الدنيا، ابتعد عن جوهر الحياة، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى)

[سورة سبأ الآية: ٤٦]

أخواننا الكرام، الحديث عن الله، الحديث عن الدنيا يفرق، خمسة أشخاص في جلسة، واحد موظف، والأربعة تجار، يقول أحدهم: أنا عملت الصفقة الفلانية، ربحت بالمئة مئة، والله سافرت إلى المحل الفلاني، فندق، الليلة بثمانية آلاف، ولكن والله شعرنا بسرور، هذا الذي دخله محدود، ما الذي حدث معه؟ حطمته، فإذا تحدثنا عن الدنيا فإنها تفرِّق، أما إذا تحدثنا عن الله عز وجل تجتمع القلوب .

لذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا، فَتَفَرَّقُوا عَنْ غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ، إِلَّا تَفَرَّقُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ ذَلِكَ الْمَجْلِسُ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

نصيحة لك :

أيها الأخوة، نصيحة لوجه الله، إياك أن تجلس مجلسا دون أن تذكر الله .

((من أكثر من ذكر الله، برئ من النفاق))

((ابن آدم، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني))

أذكر آية، الشيء الذي أتمناه: أن أحدنا حضر خطباً بعدد حياته، من الصف الثاني أخذه أبوه إلى الجامع، كل جمعة فيها خطبة، في السنة خمسون خطبة، في عشر سنوات خمسمائة خطبة، في عشرين سنة ألف خطبة، ما علق بذهنك آية مشروحة شرحا جيدا، أو حديث شريف صحيح؟ فإذا تعلم الإنسان، ولم يحاول أن يحفظ، ولم يحاول أن يثبت، كأنه ما تعلم شيئا، كل ما ليس في القرطاس ضاع، يبقى مع الهواء، أما المؤمن إذا سمع آية، كتب رقمها وسورتها، ذهب إلى البيت راجعها وسجلها عنده، سمع حديثا سجله، جلس جلسة له يذكره، مشكلتنا: أن السماع سهل، ولا يحتاج إلى مجهود، أما التثبت وتقييد المعلومات فيحتاج إلى جهد، فالمعلومة التي سمعتها، إن لم تقيدها، فلا قيمة لها .

فعَنْ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ قَالَ:

((قَيِّدُوا هَذَا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ))

[أخرجه الدارمي في سننه]

طبعا: نحن كتابنا هذا، رياض الصالحين، إذا كان عند كل أخ، فالأمر سهل، تحدثنا عن باب التفكر عن عظيم مخلوقات الله عز وجل، يقرأ الآية، يتذكر كل ما قيل حولها، يقرأ الآية الثانية، يتذكر كل ما قيل حولها .

أنا حرصت أن يكون الكتاب منهجيا بين أيدينا، دعته ابنته إلى طعام الغداء، كيف يا بنيتي؟ الحمد لله، رأيت الحرَّ قد هجم، نعم يا أبي، بعد الحر، وبعد حالها، وحال أبنائها، كلهم بخير، تكلم كلمة جديدة، اذكر آية قرآنية، أو حديثا شريفاً، اجعل الجلسة روحانية، اجعل الجلسة لله عز وجل، والمؤمن أينما جلس، إذا دعي إلى وليمة، دعي إلى عقد قران، دعي إلى حفلة، دعي إلى سهرة، زار والدته، أو أخوته، أو أصهاره، عنده شيء يقوله .

لذلك: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

[أخرجه البخاري في الصحيح والترمذي في سننه عن عبد الله بن عمرو]

اذكر آية عن رسول الله، اذكر حديثاً، فلا بد للإنسان أن يتعلم، ويحفظ، حتى إذا تكلم، كانت الذخيرة معه، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ)

[سورة سبأ الآية: ٤٦]

دعوة النبي، دعوة عظيمة جداً، قال تعالى:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ)

[سورة القلم الآية: ٢]

من هو المجنون؟ الذي لم يعرف هذه الدعوة، لأنه:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ)

[سورة الواقعة الآية: ١ – ٣]

دقق في هذا الكلام :

أيها الأخوة، الآن بمقاييس البشر: الذكي، المتفوق، الشاطر الذي معه المال، الذي حصل بيتا فخما، الذي عنده مركبة جيدة، عنده دخل كبير، عنده وكالة حصرية، عنده مكانة اجتماعية، أما عند الله عز وجل: فالمتفوق هو المستقيم، هو الطائع .

كنا في عرفات، ذكرت لكم في خطبة: قد تجدون في العالم فنادق جميلة جدا، من ذوات الخمس نجوم، وروّاد هذه الفنادق، جالسون في الشرفات، يتمتعون بالنسمات اللطيفة، والمناظر الجميلة، والجبال الخضراء، والبحيرات، وأطايب الطعام، لكنهم إذا كانوا في سخط الله، وأنتم في عرفات مع هذا الحر الشديد، ومع هذه الوعثاء، ومع هذا العج، وهذا الثج، كنتم في رضوان الله، من هم السعداء؟ هؤلاء الذين وقفوا في عرفات، العبرة بالحقائق لا بالصور، العبرة بالنهايات، العبرة بمن يضحك آخرا، قال تعالى:

(ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى * أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى)

[سورة القيامة الآية: ٣٣- ٣٥]

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق الآية: ١٣]

أما المؤمن:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق الآية: ٩]

ينقلب: أي في النهاية، العبرة من يضحك آخراً، من يفرح آخراً، هذه البطولة .

وكنت أقول دائماً: الإنسان العاقل يعيش المستقبل، والأقل عقلا يعيش الحاضر، والغبي يعيش الماضي، فإذا عشنا المستقبل، فأخطر حدث في المستقبل مغادرة الدنيا، والمغادرة سريعة جدا، وقد تأتي فجائية، إذًا: أعقل العقلاء هو الذي استعد لهذه المغادرة الطارئة .

فكر في حقيقة هذه الآيات :

أيها الأخوة، الآية الثانية في هذا الباب:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٩٠ – ١٩١]

البارحة في خطبة الجمعة، ذكرت أن مرصداً عملاقاً، يعمل بالأشعة تحت الحمراء، اكتشف وجود سحابة في الكون، هذه السحابة يمكن أن تملأ محيطات الأرض ستين مرة في أربع وعشرين ساعة، فيها من الماء العذب ما يكفي لملء محيطات الأرض الخمسة، الأرض ستين مرة في أربع وعشرين ساعة، هذا من باب قوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

[سورة الحجر الآية: ٢١]

فالذين يقولون: هناك شح في المياه في العالم، فهذا تقنين تأديب لا تقنين عجز، فإذا فكرت في خلق السموات والأرض عرفت الحقيقة .

من مشاهد آيات الله في الإنسان :

مرة قلت لأخوتنا الكرام: أنفُك فيه عشرون مليون نهاية عصبية، وكل نهاية عصبية فيها سبعة أهداب، وكل هدب مغطى بمادة مخاطية، تتفاعل مع الرائحة، ومن هذا التفاعل ينشأ شكل هندسي، مربع، مثلث، شكل مفتاح، هذه الرائحة ذات الشكل الهندسي، تصل إلى الدماغ، هذا رمز، وفي الدماغ ملف للروائح، الملف فيه عشرة آلاف رائحة، هذا الشكل الهندسي يعرض على هذا الملف بندا بندا، فحينما تطابق تقول: هذه رائحة الياسمين، تعرفها ياسمينًا، عند التطابق بين هذا الشكل، والملف الذي في الدماغ، قال تعالى:

(هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

[سورة لقمان الآية: ١١]

مرة ذكر أحد الأطباء: أن مركز الذاكرة في الإنسان كحبة العدس، هذه الحبة تتسع لستين مليار صورة.

ومرة شاهدت إنساناً في بلد، أنا فيه أول مرة، هذا الإنسان كأني أعرفه، ما كنت أتذكر أين شاهدته، ثم تذكرت أن ابنه كان طالبا عندي، وأن ملامح الأب كملامح الابن، قلت: أنا علمت ثلاثين سنة،

كل سنة هناك شعبتان، كل شعبة فيها حوالي خمسين طالباً، أربعمئة طالب على ثلاثين سنة، فهل من المعقول أن هذه الصورة انطبعت؟ رأيت ملامح وجه الأب تشبه ملامح وجه الابن .

هذه الذاكرة، ستون مليار صورة في ذاكرة الإنسان، المتوسط يعيش خمسين سنة تقريباً، فهذه ستون ملياراً، وحجمها كحجم حبة العدس .

يقولون الآن: هارد فيه غيغا في الكمبيوتر، الهارد له وزن، وحجم كحجم الكف تقريبا، إذا قلنا: فيه غيغا، أي فيه مليار، لكن حجمه كبير، أما حبة العدس، هذه الصور المرتبة، الشيء المهم قريبة، الأقل أهمية وسطى، غير المهمة بعيدة، لذلك:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٩٠ – ١٩١]

أخواننا الكرام، بعض العلماء يرى: أن أرقى عبادة على الإطلاق هي عبادة التفكر، لأنك كلما تفكرت في مخلوقاته، ازددت تعظيما لله عز وجل، وكلما ازددت تعظيما له، ازددت خشوعا له، وطاعة له، فأقرب عبادة تعرفك بالله عزوجل التفكر، في القرآن الكريم هناك من الربع إلى الثلث، آيات كلها في التفكر .

دعوة لك :

أيها الأخوة، آية ثالثة، قال تعالى:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

[سورة الغاشية الآية: ١٧]

من منا يصدق: أن عين الجمل ميكروسكوب وتيليسكوب في آن واحد، تريه البعيد قريباً، والصغير كبيراً، وعين الجمل، لها جفن شفاف، يمنع دخول الغبار في الصحراء، والجمل يمكن أن يعيش أشهراً بلا ماء، بلا طعام، بلا ماء، تصميم جسمه يمكن أن يأخذ الماء من الخلايا، الخلية فيها ماء، ممكن أن يعيش الجمل أشهراً بلا ماء، لأنه سفينة الصحراء.

والآن: في العالم جيوش، تستخدم الجمال في الصحراء، ليس هناك وسيلة مضمونة وراقية في الصحراء إلا الجمال، قال تعالى:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

[سورة الغاشية الآية: ١٧]

لاحظ الدواب، كلها تنام على جنبها إلا الجمل، نومه على شكل متوازن، له سفينات في أرجله، وفي يديه، وفي بطنه، مثل الطراريح يجلس، فلو كان ينام على جنبه، وأردت أن تحمل عليه

البضاعة، كيف تفعل؟ إذا وقف، لا بد لك من سُلّم، إذا انزاح جانبا يؤذيك، أما هو فمرتاح، يجلس جلسة نظامية، وتحمل عليه، ثم يقف، قال تعالى:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

[سورة الغاشية الآية: ١٧]

وركضة الجمل مثل الميزان، تتوازن مع حركته؛ باعتبار أن الجمل يعيش في الصحراء، والماء نادر جداً، الجمل بوله لزج، يستهلك أقل كمية من الماء، لحل الحموض في دمه، لأن الماء ثمين جداً، وبإمكانه أن يأكل الشوك، وقال تعالى:

(أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا)

[سورة فاطر الآية: ٤٤]

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)

[سورة يونس الآية: ١٠١]

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ)

[سورة الغاشية الآية: ١٧]

ومن آياته الباهرة في جسدك أيضاً :

أيها الأخوة، قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً)

[سورة عبس الآية: ٢٤ – ٢٥]

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ)

[سورة الطارق الآية: ٥ – ٧]

هناك أشياء في الجسم دقيقة جداً؛ المثانة مثلاً فيها عضلات، لولا العضلات لكان إخراج ما في هذه المثانة، يحتاج إلى ساعات، لا بد من تنفيس، إذا كان هناك مستودع للماء الساخن، من دون أنبوب هوائي، لا ينزل الماء، إذًا: حكمة هذه المثانة التي فيها البول، فيها عضلات، فإفراغها سريع جداً، لكن لولا المثانة التي ينزل فيها كل عشرين ثانية نقطتا بول، نقطة بنقطة، ولم يكن هناك هذا المستودع، كان لا بد من فوط، ليس هناك حل ثان، نزول مستمر، فبهذه المثانة كرامتك محفوظة، تلقي محاضرة، تركب سيارة، تركب طائرة، كل عشرين ثانية، تنزل نقطتان في المستودع، صارت لتراً ونصفاً، تشعر بحاجة إلى إفراغ المثانة، هذه من نعم الله العظمى .

لذلك: كان عليه الصلاة و السلام، إذا خرج من الخلاء يدعو....

فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَرَجَ مِنْ الْخَلَاءِ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنِّي الْأَذَى وَعَافَانِي))

[أخرجه ابن ماجة في سننه عن أنس بن مالك]

وكان يقول أيضاً:

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه))

الطعام فيه لذة، وفيه قوة، وفيه فضلات، فالفضلات خرجت، والقوة استفدت منها، واللذة تمتعت بها .

((الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه))

خاتمة الحديث :

ومن هذه الأحاديث المتعلقة بهذا الباب: عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قَالَ:

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا، وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن شداد بن أوس]

دانَها حاسبها، دانها يعني ضبطها، فالعاقل هو المنضبط، حضارة الشرق مبنية على ضبط الذات، وحضارة الغرب مبنية على استغلال الطبيعة .

أحد زعماء بريطانيا تشرشل له كلمة، قال: ملكنا العالم ولم نملك أنفسنا، أما المسلم فضبط نفسه، وضبطُ النفس ثمن الجنة .

هناك شهوات، التفلت طريق إلى النار، الاستجابة للغرائز طريق إلى النار، هناك في حياة الإنسان ممنوعات، ومحرمات، ومكروهات، ما دام هناك خطوط حمراء وضبط، فهذا ثمن الجنة، قال تعالى:

(وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى)

[سورة النازعات الآية: ٤٠ – ٤١]

لذلك: الجنة ثمنها هذا الضبط، قال الله عز وجل:

(بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة هود الآية: ٨٦]

أي ما بقي لكم من النساء الزوجة، وما بقي لكم من المال الكسب الحلال، وما بقي لكم من رفعة الشأن، أن تتفوق في معرفة الله .

الإنسان يغنّي، فيصير مشهوراً جداً، أو يمثّل، أو يرتكب جريمة، فيظهر اسمه على أول صفحة، فهناك طريق إلى الشهرة، وأشهر مخلوق من هو؟ إبليس، معروف في كل لغات العالم، فلا يتألم الواحد إن لم يكن مشهوراً .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((رُبَّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

هذا الباب، الباب التاسع: التفكير في عظيم مخلوقات الله تعالى، وفناء الدنيا، وأهوال الآخرة، وسائر أمورهما، وتقصير النفس، وتهذيبها، وحملها على الاستقامة .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٤٨-١٠١) : باب النهي عن البدع ومحدثات الأمور - الغاية من طرح هذه الآيات والأحاديث في مجمل حديثنا اليوم

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٤-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم ما تشمله هذه الآيات من معان :

١- الحق لا يتعدد :

أيها الأخوة الكرام، عقد الإمام النووي رحمه الله تعالى، في كتابه رياض الصالحين، بابا سماه: باب النهي عن البدع ومحدثات الأمور، وقد صدر هذا الباب، ببعض الآيات الكريمة المتعلقة بهذا الموضوع.

قال الله تعالى:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

[سورة يونس الآية: ٣٢]

الحق واحد، والحق لا يتعدد، وبين نقطتين لا يمر إلا مستقيم واحد، فلو حاولت أن ترسم مستقيما ثانيا لجاء فوق الأول، فالحق واحد لا يتعدد، كل ما سوى الحق باطل، والآية الكريمة دليل قطعي على هذه الحقيقة، قال تعالى:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

[سورة يونس الآية: ٣٢]

أيّة زيادة على الدين ضلال، أي حذف من الدين ضلال، أيّ تأويل باطل ضلال، أية بدعة ضلال، أية محدثة ضلال، لأن هذا الدين من عند الخالق، والله عز وجل يقول:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة الآية: ٣]

فمن أجل أن يستمر الدين كما بدأ، ينبغي ألاّ يضاف عليه، وألاّ يحذف منه، والدليل الملموس: هذه الأنهر اذهب إلى منبع النهر، ماء عذب، فرات، نقي، صاف، اذهب إلى مصب النهر مياه سوداء، من شدة ما جاءها من روافد ليست منها، فأصبحت هذه المياه سوداء، فلذلك قال تعالى:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

[سورة يونس الآية: ٣٢]

والذي يلفت النظر هو: أن الله سبحانه و تعالى جعل الحق مفردا والباطل متعددا، فكما أنه لا يمر بين نقطتين إلا خط مستقيم واحد، كذلك يمر بين النقطتين مئات الخطوط المنحنية، والمنكسرة، والمنحرفة، فالباطل يتعدد، أما الحق فلا يتعدد، لذلك قال الله تعالى:

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٥٧]

لَمَ لمْ يقل: يخرجهم من الظلمات إلى الأنوار؟ جمع بجمع، النور واحد، قال تعالى:

(يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٥٧]

ظلمة المعصية، وظلمة الغفلة، وظلمة المخالفة، وظلمة الشهوة، وظلمة الإعراض، هذه كلها ظلمات بعضها فوق بعض، والدليل الآخر:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام الآية: ١٥٣]

إذًا: الحق لا يتعدد، لذلك المعركة بين حقين لا تكون، لأن الحق لا يتعدد، ومعركة بين حق وباطل تطول، لأن الله مع الحق، أما بين باطلين فلا تنتهي، هذه الآية الأولى:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

[سورة يونس الآية: ٣٢]

قال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة الآية: ٣]

التمام عددي، والكمال نوعي، وعدد القضايا التي عالجها الدين تامّ، وطريقة المعالجة كاملة، وهذا دين الله عز وجل لا يحتمل الزيادة، ولا إضافة، ولا تعديل، ولا تأويل منحرف، ولا تفريع، ولا تشتيت، دين الله عز وجل، دين كامل كمالاً مطلقاً، قال تعالى:

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

[سورة يونس الآية: ٣٢]

و:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

[سورة المائدة الآية: ٣]

٢- القرآن دليل على أنه من عند الله :

الآية الثانية هي قوله تعالى:

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾

[سورة الأنعام الآية: ٣٨]

الله لا ينسى، قال تعالى:

﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾

[سورة طه الآية: ٥٢]

الإنسان أحياناً ينشئ قانوناً، وينسى فئة من الناس لا يشملها القانون، أحياناً يعدّل هذا القانون، وينسى شريحة لم يصبها التعديل، أحيانا كثيرة يحدث شيئًا ليس مغطى بالقانون، القانون من صنع البشر، أما هذا القرآن فمن عند خالق البشر، والله سبحانه وتعالى قال:

﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾

[سورة طه الآية: ٥٢]

إذًا: الآية الأولى:

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾

[سورة يونس الآية: ٣٢]

والآية الثانية:

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾

[سورة الأنعام الآية: ٣٨]

لذلك: هذا القرآن الكريم الذي جاءنا قبل ألف وأربعمئة عام، مع تقدم العلوم تقدما مذهلا وهائلا، لم تظهر حقيقة تناقض القرآن الكريم أبداً، لأنه كلام خالق البشر، الله عز وجل قال:

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾

[سورة النحل الآية: ٨]

هذا كان في عهد النبي، والنبي لا يعلم الغيب، لو أن هذا الكلام كلام رسول الله لانتهت الآية هنا، ولكن لأنه كلام الله، يقول الله عز وجل:

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

[سورة النحل الآية: ٨]

فإذا ركب الإنسان طائرة، فهو تحت قوله تعالى:

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

[سورة النحل الآية: ٨]

إذا ركب سفينة، إذا ركب قطاراً، مركبة سريعة، قال تعالى:

﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾

[سورة الأنعام الآية: ٣٨]

هذه الآية الثانية .

٣- المرجعية في الإسلام هما الكتاب والسنة :

الآية الثالثة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

[سورة النساء الآية: ٥٩]

طبعا: أطيعوا الله من خلال قرآنه، وأطيعوا الرسول من خلال سنته، وأولي الأمر منكم، من هم أولو الأمر؟ .

قال الإمام الشافعي:

((هم العلماء الذين يعرفون الأمر، وهم الأمراء الذين كلّفوا بتنفيذ الأمر))

فجهة تعلم ولا تملك، وجهة تنفذ ولا تعلم، كلاهما يتكاملان، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

[سورة النساء الآية: ٥٩]

العلماء والأمراء، قال:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

[سورة النساء الآية: ٥٩]

في الدين من هو الحكم؟ قال:

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

[سورة النساء الآية: ٥٩]

حدث خلاف حول قضية بين المؤمنين وعلمائهم، بين المؤمنين وأمرائهم، من هو المرجع والحكم؟ كتاب الله وسنة رسوله، قال تعالى:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

[سورة النساء الآية: ٥٩]

حقيقة لا بد من أن تعلمها :

أيها الأخوة، الآن أضعكم أمام حقيقة خطيرة، هل يليق بالله عز وجل أن يقول كلاما لا معنى له؟ مستحيل، لما قال ربنا عز وجل:

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

[سورة النساء الآية: ٥٩]

لو أن هذا القرآن ليس كاملاً، لا يغطي كل حاجات الإنسان، وحدثت مشكلة، وجئنا لنردها إلى الله، فلم نجد فيها شيئاً، معنى ذلك: أن هذه الآية لا معنى لها .

شيء قطعي: ما من قضية، يعاني منها الإنسان إلى يوم القيامة، إلا ولها في كتاب الله وفي سنة رسوله جواب شافٍ، هذا تشريع كامل مطلق، لو لم يكن ذلك، لما كان لهذه الآية من معنى، أي سؤال يخطر في بالك، تجده في هذا الكتاب .

الآن: سألتني سؤالا فما وجدت له جواباً، فكلامي غلط، أي سؤال يخطر في بالك تجده في هذا الكتاب، فأنت سألتني سؤالاً، فتحت فلم أجد جواباً، صفحة صفحةً، كلمة كلمةً، فقرةً فقرة، معنى ذلك: أن كلامي غير صحيح، لما يقول ربنا عز وجل:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ)

[سورة النساء الآية: ٥٩]

أيْ في أيّ موضوع، قال تعالى:

(فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

[سورة النساء الآية: ٥٩]

لو أردنا أن نرده، فلم نجد فيه شيئاً، معنى ذلك: أن الآية لا معنى لها، هذا الشيء مستحيل في جنب الله عز وجل .

هذه الآية تؤكد قطعاً: أن كل قضايانا الاجتماعية، والاقتصادية، والشخصية، والعلاقات، والمعاملات، أصولها في كتاب الله، وتفاصيلها في سنة رسول الله، لأن النبي عليه الصلاة والسلام كلّف أن يبيّن للناس ما نزل إليهم، هذا واضح .

أهمية هذه الآيات :

أيها الأخوة، هذه الآيات مهمة جداً، ينبغي لكل واحد -وأنتم تجار- أن يقيم جرداً، جردًا لمعلوماتك، جردًا لمعتقداتك، جردًا لتصوراتك، إذا كان فيها شيء خلاف الكتاب والسنة ينبغي أن تحذفه، وأن تتخلى عنه، فالإنسان أحيانا يتلقى تلقيّا عفوياً من دون تمحيص .

مثلاً: يمكن لإنسان في أيام الشتاء القارس، أن يدخل إلى الحمام، وفيه صنبور الماء الساخن، وصنبور الماء البارد غير المحتمل، فإذا توهم أن كل الثواب على المشقة، فبدل أن يتوضأ بالساخن المريح توضأ بالماء البارد، أله أجر؟ لا أجر له أبداً، السبب: أن كل شيء أشار إليه النبي فهو من عند الله، قال تعالى:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم الآية: ٤]

٤- الأمر إذا ضاق اتسع :

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((بَيْنَا النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ، إِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِمٍ، فَسَأَلَ عَنْهُ، فَقَالُوا: أَبُو إِسْرَائِيلَ، نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ، وَلَا يَسْتَظِلَّ، وَلَا يَتَكَلَّمَ، وَيَصُومَ، فَقَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ، وَلْيَسْتَظِلَّ، وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ))

وعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

((أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رَأَى شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ، قَالَ: مَا بَالُ هَذَا؟ قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم عن أنس بن مالك]

قاعدة أساسية: المشقة في الإسلام لا يمكن أن تُطلب لذاتها، والمشقة لا يمكن أن نتعبد الله بها، لأن الله عز وجل يقول:

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)

[سورة الحج الآية: ٧٨]

الأمر إذا ضاق اتسع، هذا مبدأ، فالذين يرون أن في تعذيب النفس، وفي حملها على ما لا تطيق، وفي حرمانها من الطعام والشراب، والذين لا يتزوجون، ولا يأكلون، هؤلاء يخالفون منهج الله عز وجل .

وفي الحديث: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

((جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بُيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخْبِروا كأنَّهم تَقَالُّوها، قالوا: فأينَ نَحنُ مِن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؟ قال أحدُهم: أمَّا أنا فأصَلِّي اللَّيلَ أبداً، وقال الآخرُ: وأنا أصُومُ الدَّهرَ ولا أفْطِرُ، وقالَ الآخرُ: وأنا أعْتَزِلُ النِّساءَ ولا أتَزَوَّجُ أبداً، فجاءَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: أنتم الذين قُلتم: كذا وكذا؟ أمَا واللهِ، إنِّي لأخْشَاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصُومُ وأفْطِرُ، وأصَلِّي وأرْقُدُ، وأتَزَوَّجُ النِّساءَ، فمَن رغِبَ عَنْ سُنَّتِي فليس منِّي))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح والنسائي في سننه عن أنس بن مالك]

ظهر شاعر في المعرّة، حرّم اللحم على نفسه، تجاوزا وتطاولا على الله عز وجل، ومجاوزة لمنهج الله عز وجل، هذه الآية الرابعة .

٥- المقصود بالطريق المستقيم في هذه الآية :

قال تعالى:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً)

[سورة الأنعام الآية: ١٥٣]

بالمناسبة: الخط المستقيم أقصر الخطوط، لذلك الصراط المستقيم هو أقصر طريق إلى الله، هذا الصراط ينقلك إلى الله مباشرة .

شيء جميل جداً: أن تعاهد نفسك على الصدق، والأمانة، والعفة، والاستقامة، وألاّ تغش أحداً، وألا تحتال على أحد، وألا تأخذ ما ليس لك، وأن تقنع بالذي لك، إذًا: أنت مستقيم ، إذًا: أنت مع الله، إذًا: أنت في رعاية الله، وفي توفيق الله، وفي حفظ الله، قال تعالى:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ)

[سورة الأنعام الآية: ١٥٣]

الطرق غير المستقيمة، الملتوية، الطويلة، وغير موصلة مسدودة .

تصور إنساناً يمشي في طريق، ثم فوجئ بأنها مسدودة، ألا يشعر بإحباط شديد، وكل الناس الآن يتوهم: أن طريق السعادة المال، يأخذ المال من حله ومن حرامه، بالمعقول وبغير المعقول، يأخذ المال بشكل مقبول وبشكل غير مقبول، هكذا توهم، بعد حين يكتشف أن المال ليس كل شيء، بل يكتشف أن المال ليس بشيء .

أحياناً: الإنسان يدنو أجله في الأربعين، منذ أسبوع تقريبا أو أسبوعين، شخص شاب في ريعان الشباب، ثمانية وثلاثون عاماً، عنده سبع أخوات، متزوج من امرأة شابة، له ولدان ، في أعلى درجات صحته، خلال دقائق، صار من أهل القبور، نهي ذاتي عصبي للقلب، هذا المرض منتشر كثيراً بلا سبب، من عشر سنوات أو عشرين سنة، أمراض القلب تصيب المتقدمين في السن، الآن المستوى إلى الثلاثة والثلاثين، إلى الاثنين والثلاثين، إلى الثامنة والعشرين، احتشاء عضلة قلبية، بالأربعة والثلاثين، والستة والثلاثين، الإنسان يكون ملء السمع والبصر، فيصبح تحت الثرى في لحظة، قال تعالى:

(وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ)

[سورة الأنعام الآية: ١٥٣]

٦- برهان محبتك لله هي طاعتك لرسول الله :

وقال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي)

[سورة آل عمران الآية: ٣١]

دعوى المحبة سهلة جداً، يدعيها كل إنسان، ولكن العبرة بالبرهان، برهان محبتك لله طاعتك لرسول الله، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ)

[سورة آل عمران الآية: ٣١]

هذه بعض الآيات التي تؤكد: أن الدين ينبغي ألاّ يزاد عليه، وألاّ ينتقص منه،

((كُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح والنسائي في سننه عن جابر بن عبد الله]

سؤال ينبغي أن يطرح :

سؤال: أين مكان الابتداع، والاختراع، والتطوير، والتغيير، والتحسين؟ يمكن أن تحسّن بيتك، تحسّن دخلك، تحسّن تجارتك، تخترع أجهزة، ممكن هذه في الدنيا، محل الابتداع هو الدنيا، ومحل الاتباع هو الدين، الدين من عند خالق البشر، كماله مطلق، أما الدنيا فمن صنع البشر، فكل مركبة فيها تعديل .

من يذكر مركبة؟ أقدم سيارة، ادرسها، شيء مضحك، تشغيل من الأمام، تذكرون، والبوق على الهواء، والإضاءة فوانيس، والدولاب صب، ليس فيها علبة سرعة، حركة واحدة مكشوفة، أول قطار اخترع، كلف صاحبه إنساناً، يمشي أمامه، يحذر الناس منه، إذا كان الإنسان يمشي أمام القطار، كم هي سرعة القطار؟ .

الآن: هناك سرعات فلكية، كونكورد تقطع الأطلسي كله في ساعتين، فالدنيا من صنع البشر، المطلوب أن نطورها ونحسّنها، صار هناك مساجد، وصار فيها إضاءة، وتهوية، و تكييف، وتدفئة، ماء ساخن، ماء بارد، لا مانع، التطوير مطلوب في الدنيا، أما في الدين فلا يوجد تطوير .

محتويات هذه الأحاديث :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا))

[أخرجه أبو داود في سننه عن أبي هريرة]

ما هو التجديد في هذا الحديث؟ .

أضرب لكم مثلاً: بناء محطة الحجاز تعرفونه، قبل سنوات أتوا بجهاز حديث، أزال عنه ما علق به خلال عشرات السنين، رمل مضغوط، تجديد الدين أن تزيل عنه ما ليس منه، فلان مجدد، أي أرجعك إلى أصل الدين، إلى صفاء الدين، إلى نقاء الدين، الدين بسيط، نحن عقدناه، الدين منطقي، نحن جعلناه غير منطقي، الدين معه أدلة، نحن قلنا: هكذا الإيمان.

فالتجديد في الدين: أن تعيد الدين إلى أصله، أن تزيل كل ما علق عليه وليس منه، هذا هو التجديد، إياك، ثم إياك، ثم إياك: أن تظن أن التجديد أن تعبّر على البناء، نضيف غرفة، نقيم سوراً، نضيف طابقا ثانياً، لا، الدين لا يحتمل التجديد بهذا المعنى، يحتمل التجديد أن تزيل عن أحجاره ما علق

عليها، من غبار عبر السنين، هناك كثير من الأبنية الآن عن طريق الجهاز الرملي، رجعت إلى رونقها، وجمالها السابق، حجر أبيض صار أسود، من دخان السيارات، وأوكسيد الفحم، صار البناء أسود، فلما أزلنا عنه كل ما علق به، مما ليس منه، هذا هو التجديد .

فإذا قلت: تجديد في الدين يعني: عملية حذف ما أضيف عليه، هذا التجديد، الدين لا يحتمل أن تضيف عليه .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ))

رد: أي مردود .

هل الصحابة اشتروا سوطاً عريضاً، ووضعوا طربوشاً، والتفوا حوله مثل مظلة؟ هذا من الدين؟ هل في الصحابة من أتى بسكين، فأدخلها في بطنه، فخرجت من الطرف الثاني؟ هل هذا دين؟ لا، ليس هذا بدين، هذه بدع ما أنزل الله بها من سلطان، لذلك التجديد أن تزيل عن الدين بدعه، لأنه:

((كُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّار))

وأنا أنصح كل أخ كريم: ألا ّتقبل شيئا من الدين إلا بدليل، وألاّ ترفض شيئا منه إلا بالدليل، اقبل بالدليل، وارفض بالدليل، ولولا الدليل: لقال من شاء ما شاء .

مرة زرت أخا كريماً في بناء الأوقاف، قال لي: كل هذه الشام، بناء الأوقاف عال، الطابق العاشر، مفتوح من أربع جهات، قال: هذه المدينة المترامية كلها ملكي، لكن بلا دليل، الكلام سهل، لولا الدليل: لقال من شاء ما شاء، العبرة: أن تأتي بالدليل .

لذلك: إن كنت ناقلاً فالصحة، أو كنت مدعياً فالدليل .

عوّد نفسك أن يكون عقلك منهجياً، آلاف القصص، آلاف الخرافات، آلاف الإضافات ، آلاف التحليلات، آلاف الشطحات، إذا كان كل من قال كلمة، أصبحت من الدين، صار الدين شيئا مضحكا، صار الدين ركاما، والدين صاف .

لذلك: ما جاءنا عن صاحب هذه القبة الخضراء، فعلى العين والرأس، وما جاءنا عن سواه، فنحن رجال وهم رجال، كل إنسان يؤخذ منه ويرد عليه، إلا صاحب هذه القبة الخضراء .

نحن عندنا القرآن، وعندنا الحديث الصحيح، هذا هو ديننا، فأي شيء في الكتاب والسنة على العين والرأس، وأي شيء خلاف الكتاب والسنة فهو مرفوض، هذا درس اليوم .

آخر حديث: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا خَطَبَ، احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ، يَقُولُ: صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ، وَيَقُولُ: بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ))

[أخرجه مسلم في الصحيح والنسائي في سننه عن جابر بن عبد الله]

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن نكون في مستوى هذه الآيات، لا تقبل شيئاً من دون دليل، ولا ترفض شيئاً من دليل، وليكن معك مقياس، لأن مقولات الدين كبيرة جداً، ولا نتوحد إلا إذا عدنا إلى الكتاب والسنة، ولا يلتئم شملنا إلا إذا دقننا في منهج ربنا، أما كل إنسان تكلم كلمة نأخذها، فالقضية لا تنتهي .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٤٩-١٠١) : باب تعظيم حرمات المسلمين، وبيان حقوقهم، والشفقة عليهم، ورحمتهم - كيف تتقرب أمة النبي منه؟ وكيف شبه النبي مجتمع المؤمنين مع بعضهم البعض؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٤-٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

قارن واستنتج :

أيها الأخوة المؤمنون، إنني أسعى في درس الأحد، أن أختار من المواضيع الفقهية، أو من الحديث الشريف، ما نحن في أشد الحاجة إليه، وما يعد حلاً لمشكلاتنا، وما يعد علاجاً لنقائصنا .

حينما يفكر الإنسان: أيّ فرق جوهري بين الرعيل الأول من المسلمين والرعيل الأخير .

قد يجد في آخر الزمان: مظاهر إسلامية صارخة؛ مساجد، ومآذن، وزخارف ، وخطباء، ومحاضرين، وكتبًا، وأشرطة، ومؤتمرات، ومناصب، وشهادات، ولكن الذي كان على عهد رسول الله شيء آخر، لعل من بعض الفروق: الحب بين المؤمنين، الإخلاص، النصيحة، التواضع، التعاون، التواصل، التآزر، التكاتف، التضامن، لذلك لا يصلح آخر هذه الأمة، إلا بما صلح به أولها.

الشيء الذي يلفت النظر: عناية الناس بالشعائر، وإهمالهم للمعاملات، يؤدون العبادات، يصلون، يصومون، يحجون، يعتمرون، ولكن في التعامل اليومي، ليسوا كما ينبغي أن يكونوا عليه .

قلت مرة، وأنا في مكة المكرمة: لو فهم أصحاب رسول الإسلام كما نفهمه نحن الآن، لما خرج الإسلام من مكة المكرمة، ما وصل إلى المدينة، كيف وصل هذا الإسلام إلى مشارق الأرض ومغاربها؟ لا بالعبادات الشعائرية، ولكن بالعبادات التعاملية، على مستوى مسجد صغير متواضع، خصومات، أطراف، تشكيك، حسد، عدوان، هذا ضمن مسجد، وضمن مؤمنين، وضمن أناس يستمعون إلى الحق في الأسبوع أربع مرات، يشحنون بخطبة، ودرس الجمعة، ودرس السبت، ودرس الأحد، ودرس الاثنين، مع ذلك تجد ليسوا كما ينبغي أن يكونوا، ليسوا على الحب الذي ينبغي أن يكونوا، ليسوا على الوفاء الذي ينبغي أن يكونوا، ليسوا على ضبط اللسان الذي ينبغي أن يكونوا، ضبط اللسان نصف الدين . عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، حتى يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك]

توجيه نبوي لنا معاشر المسلمين :

أيها الأخوة، الذي يحيرني أقول لإنسان: أنت لماذا تصلي؟ يقول لك: فرض، أعوذ بالله، هل غاب عن ذهنك: أن أي أمر بالقرآن هو فرض؟ قال تعالى:

(وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً)

[سورة الحجرات الآية: ١٢]

نهي هذا:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)

[سورة الأحزاب الآية: ٧٠-٧١]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عن عليّ بن الحسين، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه ومالك في الموطأ]

طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس .

بالمناسبة: أي شيء يمتن علاقتك بأخيك أمرك النبي به، وأي شيء يضعف علاقتك بأخيك نهاك النبي عنه، أمرك أن تزوره، تعوده، تقرضه، تعينه، تنصحه، تلبي دعوته، تصل صديقه، تعاونه، وأي شيء يضعضع العلاقة بين المؤمنين نهاك النبي عنه، نهاك أن تغتابه، نهاك أن تنقل إليه شيئاً يغيظه، نهاك أن لا تلبي دعوته، نهاك أن تزدريه، نهاك أن تتخلى عنه ، نهاك ألا تنصره، نهاك أن تحتقره، أي شيء يقرب أمر به، أي شيء يبعد نهى عنه، إذاً: ماذا يريد النبي؟ ومن خلال توجيه النبي ماذا يريد الله عز وجل؟ يحبنا متعاونين، متناصرين متآزرين، متناصحين .

عَن ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ لا يَجْمَعُ أُمَّتِي -أَوْ قَالَ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عَلَى ضَلالَةٍ، وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَفَعَهُ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ، مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ، فَإِذَا خَانَهُ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا))

الذي أراه الود بين المؤمنين، والحب بين المؤمنين، والتواصل، والتزاور، والتناصح، والتباذل، والتعاون، والتكاتف، والتواضع، هذا الذي يقوي علاقتنا بالله عز وجل .

اسمع هذه الكلمة :

أنا أقول لكم كلمة: ليس كل المؤمنين على المستوى الذي ينبغي أن يكونوا عليه، ما الذي يحصل؟ .
لو أن أحدهم أساء للآخر، لم يبعده عنه، ولكن أبعده عن المسجد، أبعده لا عن المسجد، ولكن أبعده عن الدين، بل أبعده عن الله عز وجل، ممكن من تصرف غير أخلاقي، غير حكيم، غير شرعي، أن تجعل أخاك يبتعد عن مسجدك، وعن دينك، وعن ربك، يمكن من تصرف آخر شرعي، تشد الناس إليك .

فيا أيها الأخوة الكرام: الوقت ثمين، العمر قصير، والمغادرة على الأبواب، ونحن في أمس الحاجة، إلى أن يعود أمر هذا الدين، إلى ما كان عليه من حب ووفاء، أي إذا لم نقدر على مستوى مسجد، على مستوى أخوة .

أنا أؤكد لكم: أننا نرى بعضنا أكثر من أهالينا، الحياة معقدة جداً، والوقت معظمه في العمل، لكن ترى أخاك بالخطبة، بدرس التفسير، بدرس السبت، بدرس الأحد، بدرس الاثنين، فهذه الرؤية، وهذا التواصل، هذا ينبغي أن يترجم إلى تعاون .

أنا اليوم يؤلمني أن يكون بين المؤمنين بعض المشكلات، يؤلمني جداً أن يكون هناك جرح عميق بنفسه من أخيه، يؤلمني أن يقف المؤمن، ويقول: فلان أساء إلي، والله الذي لا إله إلا هو في الروضة الشريفة، ومواجهها قبر النبي صلى الله عليه وسلم، والسنة كما علمنا أن نقف أمام قبر النبي، وأن نسلم عليه، وأن نقول له:

((جزاك الله عنا كل خير، لقد أديت الأمانة، وبلغت الرسالة، ونصحت الأمة، وكشفت الغمة))

والسنة: أن تنتقل إلى قبر سيدنا الصديق، والله عندما انتقلت إلى قبره، خطر في بالي أول كلمة، قالها النبي، قال:

((ما ساءني قط))

بكل هذا العمر، ولا بكلمة، ولا بنظرة، والله ينبغي أن نتعامل هكذا .

يقول الأخ: والله فلان ما أساء إلي أبداً، أحسن لي، كان وفياً، كان متواضع، ساعدني ، زارني، عادني، عرض علي مبلغًا من المال، واساني، أكرمني، صبرني، دلني على الله، هداني، لا يوجد فيها شيء، الدنيا كلها تجري .

أنا أتمنى المودات مكان العداوات، التواصل مكان التقاطع .

اليوم صباحاً في درس الفجر مر حديث:

((من حلف على يمين))

أي حلف يمين منعقدة على شيء، والخير في خلاف هذا الشيء، فعليه أن يحنث بيمينه، ويُكفر عنها، ويفعل الذي هو خير، أنت مخلوق للعمل الصالح، فأتمنى التوجيهات النبوية أن تنقلب إلى واقع، الأخ له حرمة .

((من عامل الناس فلم يظلمهم، حدثهم فلم يكذبهم، وعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته))

الأخ له حرمة، ليس كل إنسان عرضه مباح، كل إنسان يتحدث عن ضعف إيمانه، و عن قلة وجدانه، وعن قلة أمانته، ببساطة، بلا دليل يقيني، هذه مشكلة كبيرة .

أرجو الله سبحانه و تعالى أن نكون متعاونين، متناصرين، متكاتفين .

عن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَحْكِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَزَاورِينَ فِيَّ، وَالْمُتَحَابُّونَ فِي اللَّهِ، عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ))

الدرس لم يبدأ بعد، قدمت لهذا الدرس، لأننا في أمس الحاجة إلى هذا التواصل، و نحن نرقى عند الله، ويحبنا الله، ويبارك لنا أعمالنا، وينظر إلينا بعين العطف والرحمة، إذا تناصرنا، وإذا تعاونّا، وإذا تكاتفنا .

إليكم هذه الآيات التي باشر النووي فيها كتابه في باب تعظيم حرمات المسلمين :

الإمام النووي رحمه الله تعالى، عقد في كتاب رياض الصالحين باباً، سماه باب تعظيم حرمات المسلمين، وبيان حقوقهم، والشفقة عليهم، ورحمتهم، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الحجر الآية: ٨٨]

عَنْ أَبِي مُوسَى، أن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا))

[أخرجه النسائي في سننه]

قال تعالى:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة المائدة الآية: ٥٤]

والعياذ بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ضعاف النفوس يستعلون على أخوانهم المؤمنين، وهم أحقر من شاة أمام أقويائهم -أعدائهم-، يتذلل لكافر، ويستعلي على مؤمن، يقسو على مؤمن، ويلين مع كافر، يتكبر على مؤمن، ويتواضع لكافر، الآية معكوسة، الله عز وجل قال:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة المائدة الآية: ٥٤]

ويقول تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الحجر الآية: ٨٨]

لفتة نظر :

وهناك لفتة لطيفة جداً، هناك آية أخرى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الشعراء الآية: ٢١٥]

والآية هذه:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الحجر الآية: ٨٨]

هناك فرق لمن اتبعك، ما الحكمة؟ الحكمة هي أنت كمؤمن، يجب أن تلتقي مع كل مؤمن تعرفه أو لا تعرفه، من مسجد أو من غير مسجد، من جماعتك أو من غير جماعتك، من بلدك أو من غير بلدك، لا بد من أن تنضوي تحت مظلة المؤمنين جميعاً، ومن ضعف الأفق، ومن ضعف اليقين، أن تقتصر على أبناء مسجدك.

يوجد مساجد أخرى فيها مؤمنون، طاهرون، صادقون، محبون، متواضعون، هؤلاء أخوانك في الله، فلا تكن ضيق الأفق، لا تكن قاصر النظر، أي مؤمن صحت عقيدته، وصح سلوكه، فهو أخي في الله، أنفتح عليه، وأساعده، وأحترم مشاعره، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الحجر الآية: ٨٨]

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الشعراء الآية: ٢١٥]

ما هو المراد من هذه الآية ؟ :

أيها الأخوة، أما الآية التي تلفت النظر في سورة المائدة، هي قوله تعالى:

(مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)

[سورة المائدة الآية: ٣٢]

أنت في حياتك، ألاّ تطمح تحيي إنسان، من الكفر إلى الهدى، أن تدله على الله عز وجل، تأخذ بيده إلى الاتصال بالله، هذا الذي أحييته، سوف يختار زوجة صالحة، وينجب أولادًا صالحين، وسوف يتعامل مع الناس وفق منهج الله عز وجل، لعلك بعد حين، ترى مئة شخص، هم على شاكلته، وكلهم في صحيفتك .

فالنبي صلى الله عليه وسلم، قف عند قبره، تتعجب، أقول لك: ألوف مؤلفة، لا والله، ملايين مملينة من شتى بقاع الأرض، من ماليزيا، من إندونيسيا، من باكستان، بنغلادش، الهند ، من سيلان، من سيريلانكا، من كل دول إفريقيا، من آسيا، من أوروبا، ملايين مملينة يقفون أمام قبره خاشعين، يبكون، يناجونه، وهو واحد فقط، هل من المعقول أن إنسانًا واحدًا عاش ثلاثًا وستين سنة، وفي الدعوة ثلاثًا وعشرين سنة فقط، يغير معالم الناس؟ قال تعالى:

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)

[سورة المائدة الآية: ٣٢]

اقرأ هذا الكلام :

حينما كنت في أمريكا، ألقيت خطبة، في أكبر جامع في بعض الولايات، الأسبوع الثاني أنا اعتذرت، لأنه يوجد عندي سفر إلى الولاية ثانية، ثم تأخر السفر، فحضرت خطبة، قام رجل من آسيا يخطب، والله أبكانا جميعاً، ماذا قال؟ .

قال: نحن كنا عباد الوثن، نحن كنا نعبد النار، أنتم أيها العرب، جئتم إلى بلادنا، وهديتمونا إلى الله، نحن أتباع لكم، أنتم أسيادنا، نحن بفضلكم أصبحنا مسلمين، أنتم أولاد الصحابة والتابعين، آباؤكم وأجدادكم نشروا هذا الدين في شتى بقاع الأرض، ويخاطب المتفلتين هناك .

وأنتم الآن: تبيعون الخمر، وأنتم بدلا من أن تغيروا معالم هذه البلاد، ذبتم في عاداتها وتقاليدها، وكل حين يقول: سامحوني، أنتم لكم فضل علي .

قال: نحن ليس لنا تاريخ، التاريخ لكم، نحن أمة بلا تاريخ، نعبد الأصنام، نعبد الأوثان، نعبد الحجر، نعبد النار، تفضلتم علينا بهدايتنا، نحن في صحيفتكم .

يقول: أنتم أولاد التابعين والصحابة الكرام، أنتم لكم تاريخ، لماذا أنتم هكذا هنا؟ لماذا أنتم متفلتون؟.

أي لا يوجد فيها عمق، ولكن هناك عاطفة صادقة، فأنت هل تعرف من أنت؟ أنت تنتمي إلى أمة، جعلها الله وسطاً بين الأمم، أي وسطاء بين الله وخلقه، الله حملك مهمة كبيرة جداً، حملك رسالة، الإنسان عندما يهتم بشؤونه الشخصية ينتهي، أما إذا اهتم بالمسلمين يرقى عند الله .

كلمة في محلها :

أقول لكم كلمة دقيقة: والله لن يرضى الله عنا، إلا إذا حملنا هموم المسلمين، من لم يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، أنت حامل هم المسلمين؟ قدمت شيئاً؟ أي شيء قدمته، كل إنسان يقدم شيئاً من اختصاصه، قدمت شيئاً للمسلمين، قدمت خبرتك .

أحياناً يقول لك الطبيب: أنا أداوي أشخاصا مجاناً، لأني أنا طبيب، وأقدم جزءاً من علمي زكاة، هذا شيء جميل .

يقول لك المحامي: أنا أي إنسان فقير مظلوم، أدافع عنه لوجه الله، هذا جميل جداً.

يقول لك المدرس: أنا أستاذ لغة أو رياضيات، إذا وجد عندك أخ فقير، وعنده شهادة، أنا أدرسه، قدم شيئاً، هذا قدم تدريسًا، هذا قدم هندسة .

يأتي أخ يقول لك: أنا كهربائي، هل هناك مجال أن أخدم المسجد؟ جزاك الله الخير، قدم شيئاً، فيجب أن تقدم شيئاً، وكل إنسان باختصاصه، هل هناك إنسان بالأرض ليس له ميزة؟ .

أحياناً أجد أخًا كتلة وفاء، وحب لله ورسوله، يقدم شيئاً ضمن إمكانيته، رب درهم سبق ألف درهم.

زارنا إنسان من مصر، في أثناء الخطبة، اضطر أن يقضي حاجة، دخل دورات المياه، قال لي: لم أرَ في حياتي على الأرض مسجداً، فيه دورات مياه نظيفة، كهذا المسجد، كالبيت تماماً .

وهناك أخ من أخواننا، والله أنا أكبره، جزاه الله خيرًا، بكل تواضع، يقوم بتنظيف هذه الدورات بأعلى مستوى، فمرافقه كلها جيدة .

أعرف رجلاً بمسجد، توفي رحمه الله، تدخل إلى مرافق المسجد، إذا وُجد بيتٌ في الشام، سيدته معها مرض الوسواس بالنظافة، تنظف المكان خمس مرات، وتضع المنظفات والمعطرات، فهذا الجامع مرافقه أنظف من أي بيت بدمشق، كأنه الآن انتهى بناؤه، السجاد بالآلات، والشامبو، البللور، مرافق المسجد .

مرة التقيت معه قال لي: أنا أنطلق من قوله تعالى:

(أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ)

[سورة البقرة الآية: ١٢٥]

كل هذا العمل، ينطلق به من آية كريمة .

والآن: يوجد هنا أخوان، والله أبطال، عدد كبير، أنتم لا تنتبهون، تأتون إلى الجمعة، فتجدون الجامع يلمع، مرتبًا، نظيفًا، من عشرين إلى ثلاثين أخًا، ينظفون هذا المسجد جميعه، ينظفون السجاد، يلمعون البللور، جهد جبار، وليس جهد واحد، أو اثنين، أو ثلاثة، من عشرين إلى ثلاثين، يعملون ساعتين، وثلاثاً، نريد عملاً لله، عملاً تتقرب فيه، يا رب هذا العمل فعلته لأجلك، الإنسان يمر بمآزق بحياته، النبي علمنا أن ندعو الله بصالح أعمالنا، إذا عُمِل لوجه الله ، خدمة مسجد، معاونة أخ، إنسان قدم علمه الطبي، بارك الله به .

هناك أخوة أطباء، وهم جنود مجهولون، وهم أعلام عند الله، لا توجد مشكلة طبية إلا تجد، أنه حملها من مستشفى إلى مستشفى، من طبيب لطبيب، من محلل لمحلل، يقول لي: أنت ارتاح منها، أرسل لي إياه، والله له أياد بيضاء على هذا المسجد، لا يعلمها إلا الله، أطباء، وهناك محامون، يوجد مهندسون، تجده يقدم جهود، تجد هناك مشكلات في المسجد يقدمها .

أنا أريد عملاً لوجه الله، عملاً خالصاً، لا تبتغي منه لا سمعة، ولا كلاماً، ولا مديحاً، ولا ثناء، ولا تعليق صحيفة، ولا بطاقة شكر إطلاقاً، عملت هذا لله عز وجل، قال تعالى :

(وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً)

[سورة المائدة الآية: ٣٢]

أحياناً أخ، يعينك بشيء آخر، وهي من المعاملات، يعاونك على هداية الناس، أخ يجلس معه، يناقشه، يسمعه شريطاً، يقنعه، يدعوه للمسجد، يتفقده، يزوره، يطمئن عن صحته ، على هذه المتابعة، انتمى انتماء كاملاً، ولزم المسجد، هذا الأخ الأول بارك الله به، كل أعمال الأخ الثاني في صحيفته، فالمعاونة أنواع، هناك ألف باب لمعاونة المؤمن، أحد هذه الأبواب تفقد الأخ .

أحياناً أراجع نفسي، هناك أخ من شهر لم أره، لعله مريض، أو مسافر، فعندما يطرق بابه تكسب وده، عيادة المريض مهمة جداً .

أخ أمام أهله، جاءه أصدقاؤه، جاء المؤمنون فانتعش، نريد عملاً صالحاً، فهل من المعقول: أن نتلقى طوال حياتنا علمًا؟ ليس معقولاً كل العمر نتلقى، وفي الأخير؛ متى نلقي؟ متى نتحرك؟ متى نقدم؟ متى نخدم؟ متى نساعد؟ متى نعاون؟ متى ننصح؟ .

أنا والله لا أدعوكم لهذه الأعمال، لأنه يوجد تقصير، هناك أخوة يقدمون أشياء للمسجد لا يعلمها إلا الله، من جهد عضلي، وفكري، ووقت، ومال، ولا تنسوا قول الله عز وجل، حينما قال:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الفتح الآية: ٢٩]

متى كانوا أشداء؟ لأنهم مع النبي، والنبي معهم، العمل الفردي غير مجد، ولا يحقق شيئاً، والإنسان مهما كان عظيماً، فهو ضعيف بنفسه، أما بأخوانه فهو قوي، قوي بمن حوله .

ماذا تفهم من هذا الأمر؟ :

أحد كبار التابعين، وهو الأحنف بن قيس، وصفه أحد الكتاب، ليس هذا ذماً له، ولكن لبيان عظمة الإنسان، قال:

((كان قصير القامة، أسمر اللون، مائل الذقن، ناتئ الوجنتين، صغير العينين، أحنف الرجل – أعرج، هل هناك شيء آخر؟- ناتئ الوجنتين، غائر العينين، ضيق المنكبين، أحنف الرجل، أسمر اللون، قصير القامة، ليس شيء من قبح المنظر، إلا وهو آخذ منه بنصيب، و كان مع ذلك سيد قومه، إذا غضبَ غضب لغضبته مئة ألف سيف، لا يسألونه فيما غضب، وكان إذا علم أن الماء يفسد مروءته ما شربه))

ومرة كان في مجلس معاوية، وأراد أخذ البيعة لابنه يزيد، والناس تكلموا كلاماً طيباً عن يزيد، وأثنوا عليه ثناء كبيراً، وجعلوه في أعلى عليين، فلما جاء دور الأحنف بقي ساكتاً، فسكوته أحرج المجلس، قال له:

((تكلم يا أحنف، قال: والله أخاف الله إن كذبت، وأخافكم إن صدقت))

فكان تلميحاً أبلغ من تصريح، أي القضية قضية تعاون .

انظر إلى هذا التشبيه النبوي للمؤمنين :

الحديث الأول المتفق عليه، وهذا أعلى حديث في كتب السنة، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا))

[أخرجه النسائي في سننه]

أنا شبهت المؤمنين كالأسرة، الأب يذهب إلى العمل، يأتي بالمال، الأم تطبخ، الابن يدرس، كل واحد له دور، أما الأدوار متكاملة، بيت بلا مال لا معنى له، إذاً: مال بلا طبخ، و تنظيف ليس له قيمة، طفل دون أن يدرس، هناك خلل بالأسرة، فالمؤمنون أسرة، كل واحد يقوم بدور، والأدوار متكاملة .

والحديث الآخر المتفق عليه: عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ......))

[أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما عن النعمان بن بشير]

انظر إلى التطبيق العملي لهذين الحديثين اللذين سبقا ذكرهما :

يقول صحابي للنبي، وقد مر عليه إنسان:

((والله إني أحبه، قال له: قم فأعلمه، تبعه و قال له: إني أحبك في الله، فقال: أحبك الذي أحببتني فيه))

أي إذا أحد يحب أخاً، لا يضن بكلمة، أن يقول له:

((والله إني أحبك))

بالمناسبة: لا يوجد إنسان يقصر ويُحب، إذا كنت تريد أن تُحب فلا تقصر، ليكن ظلك خفيفاً، لا تتميز على أقرانك أبداً .

الحقيقة: أن سيد الخلق، وحبيب الحق، في بعض المواقف للنبي عليه الصلاة والسلام ترويها مرة، مرتين، وثلاثاً، وخمساً، وعشراً، ومئة لا تشبع منها، عندما قال:

((وعلي جمع الحطب))

إذاً: من هو؟ هو سيد الخلق بالمقياس الحضاري، زعيم أمة، قمة المجتمع، قائد عسكري، رئيس دولة، نبي هذه الأمة، أكمل الخلق عند الله، حبيب الله، ومع ذلك عندما قال أحدهم:

((علي ذبحها، وقال الثاني: علي سلخها، وقال الثالث: علي طبخها، قال: وعلي جمع الحطب، قالوا له: نكفيك ذلك، قال: أعلم أنكم تكفونني، ولكن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

لو طبقنا جميعاً هذه السنة، لكنا كالبنيان المرصوص، لا أحد يتميز على أحد، هناك شخص بأحسن مكان يجلس، أكبر تفاحة يأكلها، يكون مع أخوانه ينام، ويأخذ راحته، الأكل جاهز، يقوم، ويأكل، استحى، يشاركهم في الأكل، يوفر نفسه، وعلي جمع الحطب .

هذه السنة: إن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه، هذه وحدها تكفينا جميعاً، تجد هناك تواضعًا، تواصلاً .

طرفة لها مغزى :

ومن من باب الطرفة: هناك صناعة في أمريكا، تراجعت كثيراً، صناعة السيارات، وتفوقت عليها الصناعة في اليابان، وأسواق أمريكا أصبحت مغزوة بالسيارات اليابانية، وقد أرسلوا وفودًا ظاهرة وغير ظاهرة لكشف السر، أي ما سر تفوق اليابان بالسيارات؟ عندهم علم أعلى؟ لا .

اكتشفوا حقيقة مذهلة: السر تفوق اجتماعي، وليس تكنولوجيًا، لأن مدير المعمل هناك في اليابان، يأكل مع العمال، العامل يشعر بقيمته، كأن العامل له علاقة بالمعمل، بإدارته، بنجاح المعمل، فهذه

المشاركة الاجتماعية بين المدير والعمال، تعمل حماساً، والحماس أدى إلى إتقان، والإتقان أدى إلى رواج، رواج صناعة غزت أسواق أمريكا، ليس لأسباب تكنولوجيا، بل لأسباب اجتماعية .

هذا هو نبيك :

أيها الأخوة، فكان النبي يأكل مع المسكين، ومع العبد، تستوقفه امرأة في الطريق، تكلمه كثيراً .
دخل عليه أعرابي قال له:

((أين محمد؟ أيكم محمد؟ -ولا أريكة يوجد له، ولا لباسًا خاصّا أبداً، مثله مثل الصحابة- قال له: أنا))

وفي رواية قال له:

((ذاك الوضيء))

معقول نبي هذه الأمة، يقول عنه واحد: أيكم محمد؟ لا يوجد له ميزة، ولا ميزة مثله، مثل أخوانه .
هناك أناس عنده رغبة، هو على الأريكة، والناس جالسون على الأرض، أول شيء له، أول صف، وإن لم يكن أول صف، فمشكلة .

مرة داعبت شخصاً فقلت له: والله أنا أشتهي صالة للأفراح، طولها خمسة كيلو مترات، ولكن صف واحد، تحل كل مشاكل هؤلاء، الناس يجلسون جميعاً بالصف الأول، إذا لم يكن أول صف فمشكلة، إذا لم تقل له: فضيلة، فمشكلة، إذا لم تقل له: سماحة، فمشكلة، هذه كلها أقنعة مزيفة .

ماذا قال سيدنا الصديق؟:

((من كان يعبد محمداً -بدون ألقاب- فإن محمداً قد مات، و من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت))

إذاً: هذا الحديث وحده:

((إن الله يكره أن يرى عبده متميزاً على أقرانه))

لا تتميز أبداً، عامل نفسك كأقل واحد .

تعلم من نبيك :

وفي غزوة بدر أيضاً هناك قصتان: عندي شيء لا يصدق، كل ثلاثة على راحلة، قال لهم:

((وأنا، وعلي، وأبو لبابة على راحلة .

-رأساً عامل نفسه كجندي، كل ثلاثة على راحلة، هناك ثلاثمائة صحابي، ثلاثة، ثلاثة ، و لكن هو

قائد الجيش- قال: وأنا، وعلي، وأبو لبابة على راحلة .

ركب النبي عليه الصلاة والسلام، -والآن جاء دوره بالمشي، معقول الصحابة أن يجعلوه يمشي؟- توسلا إليه أن يبقى راكباً قال: لا، ما أنتما بأقوى مني على السير، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر))

أنا محتاج لأجر المشي، هذه السنة تفضل، وطبقها، وانظر ماذا يحصل معك؟ لا يوجد إنسان يكرهك، لا يوجد إنسان لا يحبك، عامل نفسك كأقل إنسان دائماً، حتى في بيتك.

مرة أخ قال: إن والدنا رحمه الله، كنا نقسم البطيخة، ونعطيه اللب كله له، فقال له أخ: رحم الله والدك، ولكن هذا شيء خلاف للسنة، الأب واحد من الأسرة، ممكن أطيب شيء للأب.

قدموا لسيدنا عمر أطيب قطعة باللحم، بكى، وقال:

((بئس الخليفة أنا، إذا أكلت أطيبها، وأكل الناس كراديسها))

عامل نفسك كأقل إنسان، يحبك الناس جميعاً، عندما تقول له: أنا مرتبتي أعلى منك، هنا مكاني، هذه أريد، هذه لي، انتهى .

قال لي شخص: أخذنا مزرعة بمبلغ اثنين وعشرين مليوناً، نحن ثلاثة أخوة، تدخل النساء هذه الغرفة لي، لا بل لي، بل لي، كل يوم مشكلة، بعناها باثني عشر مليوناً، لم نتحمل هذه الخصومات، أوجه غرفة لفلانة، لا لفلانة، لا لفلانة، انتهت لخصومات .

لو كان المؤمنون كما ينبغي أن يكونوا، لكنا في حال غير هذا الحال، لا تتميز أبداً.

تركب سيارة لحلب مع أخوانك، أنت أحسن مكان، أن تطول الطريق، غير معقول اعمل تناوب، ادع أخاك الذي يجلس بمكان ضيق، ليجلس مكانك، صار هناك محبة، يوجد شخص، يأخذ أحسن مكان، ويظل ساكتاً للأخير، يجلس بأحسن مكان، أحسن سرير له، هذا آخذ صفر بالعلاقات الاجتماعية، أنت آثر أخاك دائماً . لذلك: عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ يَقُولُ:

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَثَلُ المؤمنين في تَوَادِّهم، وتراحُمِهم، وتعاطُفِهم، مثلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو تَدَاعَى له سائرُ الجسد بالسَّهَر والحُمِّى))

[أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما عن النعمان بن بشير]

ميزان خذه مقياساً لنفسك :

اسمحوا لي بهذه الكلمة، وهي مقياس دقيق: كن جريئاً، وراقب نفسك، إذا أصاب أخاك خير، إذا تضايقت رسبت، وإن فرحت نجحت، يجب أن تفرح لخير أصاب أخاك، الدليل قوله تعالى:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ)

[سورة التوبة الآية: ٥٠]

(إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ)

[سورة آل عمران الآية: ١٢٠]

إذا وقع أخوك في مشكلة، وأنت فرحت، فدعه يأكلها، شيء داخلي، وشيء مخيف، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النور الآية: ١٩]

لم يعمل شيئاً، لم يتكلم ولا كلمة، فقط أحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، لا يوجد عنده غيرة، إذا أصاب أخاك خير، أخذ شهادة عليا فلا تغر منه، بل افرح له، تزوج قبل منك ، اشترى بيتًا، تعين في منصب رفيع، إذا حزنت، فابك على نفسك، لأنك في خندق المنافقين، وأنت لا تشعر، وإذا فرحت فاشكر الله عز وجل، لأنك مؤمن ورب الكعبة، علامة إيمانك: أن تفرح لأخيك .

قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تَنَاجَشُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ أَخْوَانًا))

خاتمة القول :

درسنا اليوم:

((الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا))

[أخرجه النسائي في سننه]

و:

((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))

[أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما عن النعمان بن بشير]

ملحوظة أخيرة :بين القول والعمل مسافة كبيرة، لاحظ لو أن رجلا قال: ألف مليون، بين أن تملكها، وبين أن تلفظ بها، كم هي المسافة؟ أفقر إنسان يقول لك: ألف مليون، فهذه الأحاديث بين أن تقرأها وتشرحها، وبين أن تطبقها مسافة كبيرة جداً، فنحن يهمنا التطبيق، يهمنا أن تنقلب حقائق هذا الدرس، إلى سلوك بين المؤمنين بالتعاون والتناصح .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٥٠-١٠١) : باب ستر عورات المسلمين، والنهي عن إشاعتها - ما هي البيانات التي حذر منها الشارع الحكيم في هذا الدرس؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٥-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

هل يحاسب الإنسان على خواطره ؟ :

أيها الأخوة الكرام، عقد الإمام النووي رحمه الله تعالى باباً في كتابه رياض الصالحين، سماه باب: ستر عورات المسلمين، والنهي عن إشاعتها، وبدأ فصله وبابه ببعض الآيات الكريمة، وقبل أن أذكر أول آية، لا بد من تمهيد .

في الأصل: الله جل جلاله لا يحاسب الإنسان إلا على عمله، أما خواطره، وتمنياته، وأحلامه، فهذا شيء لا يحاسب عليه الإنسان، وهذا من رحمة الله علينا، أما إذا استرسل الإنسان في خواطره فيما لا يرضي الله، يخشى أن تنقلب هذه الخواطر إلى أعمال، فالأولى للإنسان إذا فكر في معصية، أو فكر في مخالفة، أو فكر في شهوة محرمة، أن يمنع تفكيره، وأن يسد على الشيطان الباب، لئلا ينمو هذا التفكير، ولئلا تشتد هذه الخواطر، فتنقلب إلى عمل، وهذا من رحمة الله بنا .

ما هما الموطنان اللذان يحاسبان بهما الإنسان على إرادته؟ :

١-الحرم المكي :

أيها الأخوة، لا تحاسب إلا على الأعمال، إلا في موضعين اثنين في كتاب الله؛ الموضع الأول: هو أن الإنسان إذا كان في الحرم المكي، وأراد به سوءًا، ولم يفعل شيئاً، يحاسب على إرادته، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ)

[سورة الحج الآية: ٢٥]

الإرادة فقط، ما فعل شيئاً، ولا تكلم بكلمة، إلا أنه تمنى، أو أراد أن يؤذي الحجاج، أو أن يؤذي الحرم، لحرمة هذا البيت، لأن هذا البيت مهوى أفئدة المسلمين، لأن هذا البيت فيه يعبد الله عز وجل، فيه تنعقد التوبة، فيه يصطلح مع الله، لا بد من توفير جو الأمن له .

وكلكم يعلم: أن الحاج ممنوع أن يقطع نباتًا، قام واحد إلى جانبي في عرفات بحركة ليس لها معنى إطلاقاً، بحركة لم يفكر بها إطلاقاً، قطع ورقة من شجرة قال لي: ما حكمها؟ قلت له: عليها صدقة .

ممنوع أن تقطع ورقة من نبات، لو أن إنساناً دهس جرادة عليه كفارة، كل جرادة تمرة يتصدق بها، ممنوع تقتل حيواناً، ممنوع أن تقطع نباتاً، ممنوع أن تجادل مسلماً، ممنوع أن تفكر بمقدمات اللقاء مع النساء، قال تعالى:

(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ)

[سورة البقرة الآية: ١٩٧]

وكلكم يعلم محظورات الإحرام؛ ألاّ تقطع نباتاً، وألاّ تقتل حيواناً، والأبلغ من ذلك: أنه ممنوع أن تفكر بالإساءة للحرم، هذا الموطن الأول .

٢-في إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا :

الآية الثانية، وهي محور درسنا، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النور الآية: ١٩]

لا تكلم، ولا نطق، ولا أشار، ولا غمز، ولا لمز، وما فعل شيئاً من هذا القبيل، إلا أنه أراد أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا .

يعني: فرح إذا افتضحت دعوة إلى الله، فرح إذا افتضح إنسان مؤمن، فرح أن تشيع الفاحشة .

لذلك محور هذا الدرس: هو أن المؤمن إذا سمع قصة، قد تكون صحيحة، وقد يتأكد من صحتها، لكنه إذا رواها، ماذا يفعل؟ يضعضع ثقة الناس بالدين .

ما هو الهدف من رواية هذه القصص؟ :

أيها الأخوة، من يومين زارني شخص، قال لي: عندي مشكلة بالقضاء، تحتاج إلى شاهد، أتينا بالشاهد، قال: عشرة آلاف، لأني ما رأيت، سأشهد بما لم أر، فلما علم أن هناك حلف يمين، قال: أريد عشرين ألفًا، دفع عشرين، ووضع يده على المصحف، وحلف.

طبعاً: هذه القصة إذا ذكرناها، تضعضع ثقة الناس بالدين، قلت له: زارنا شخص من أمريكا قبل أسبوع، سائق تكسي سيارة أجرة، وجد في سيارته، محفظة فيها عشرة آلاف دولار، وفيها ذهب

وألماس، وقدمها إلى رئيس الشرطة في واشنطن، مدير الشرطة اتصل بحاكم الولاية، وحاكم الولاية أحب أن يعرف هذه الطبقة الشابة البريئة الذي سوف تكون المستقبل، جمع طلاب الثانويات مع المدرسين، وعرض عليهم هذه المشكلة؛ إنسان وجد في سيارة محفظة، هذا المبلغ، وهذه الأساور، وهذه الحلي، ماذا يفعل؟ المفاجأة كانت أن الجميع بلا تردد وبعفوية أجابوا: بأنه يأخذها، فقال حاكم الولاية: لكن هناك رجل مسلم ردها، ولم يأخذها، الذي حصل أن حاكم الولاية، أقام حفل تكريمي لهذا الإنسان .

أنت تقول: إن إنسان باع دينه بعشرة آلاف، يوجد إنسان خمسمئة ألف لم يأخذ منها قرشاً واحداً .

أحد أخواننا الكرام قال لي: يوجد عامل عندي، وجد في حقيبة ثمانمئة ألف، وردها إلى صاحبها .

هناك قصة ترفع من معنوياتنا، وثمة قصة تهدم من معنوياتنا، فأنت كونك مسلمًا، إذا ذكرت قصة عن مسلم، باع دينه بعشرة آلاف، ماذا تستفيد؛ إلا أنك ضعضعت ثقة المسلمين؟.

أنا مهمتي: أن أقوي الإيمان، مهمتي: أن أقول قصة أرفع المعنويات، مهمتي: أن أقوي الثقة بالدين، فالذي يحب أن تشيع الفاحشة بالمسلمين .

قبل أيام زلت قدم إنسان، ويعمل بالحقل الديني، أكبرت جداً الأسلوب الذي عولجت به هذه المشكلة، أسلوب رائع جداً، ستره ولم يشع هذه الفاحشة بين المسلمين، بقيت أيام عديدة، وأنا أكبر هذا التصرف الحكيم، أولاً: ستره، وثانياً: أعطاه مهلة، وثالثاً: ما أشاع هذه الفاحشة.

فالذي أنا أتمناه عليكم من خلال هذا الدرس: تسمع من القصص الشيء المعقول، والشيء غير المعقول، فلا بد من مقص رقابة، ليس كل شيء يدخل إلى القطر مسموح نشره ، وهذه لحكمة بالغة، هناك قصص منحطة، هناك أفلام فيها انحطاط شديد، يوجد رقابة، يوجد مقالات هدامة، ممنوع نشرها، وأنت أيضاً .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[أخرجه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة]

أن تكون ناقلاً عشوائيًّا، والحقيقة: هناك عدد كبير من القصص لا أصل لها، والسبب أن الكافر، العاصي، الشارد، مختل توازنه، متى يستعيد هذا التوازن؟ إذا كشف فضيحةً لإنسان ينتمي إلى الدين، تموج هذه الأفكار، وهي ليس لها أصل، مستحيل .

الحديث بالأثر:

((من أساء الظن بأخيه كأنما أساء الظن بربه))

إنسان يحضر دروسًا من ثلاثين سنة، وهو يعرف الحلال والحرام، وتتهمه في أمانته ، معنى هذا أن الدين باطل، كل هذا الوعي والتدريس .

أولاً: أنا أطمئنكم أن قصصاً كثيرةً جداً تلصق بالمؤمنين، وهم منها براء، إلا أن الذي يلصقها بهم يرتاح، يحقق التوازن مع نفسه، لأنه منحرف، إذا أقام إنسان مستقيم عليه الحجة، أما حينما يروج هذه القصص، معنى ذلك: هو لم يكن مخطئاً في انحرافه، لا يوجد أحد على الصواب .

والشيء الذي أتمنى أن يكون واضحاً لكم: هو أن الله هو الحق، ولا بد من أن يحق الحق .

البارحة في درس الأحمدية، قال لي أخ: عندنا موظف، كان عند جدي، ثم عند والدي ، ثم عندي الآن، عمره سبعون سنة، قال لي: أنا غادرت المحل، وجاء إنسان ليشتري، يبيع سجادًا، اشتروا حاجات، وقال لي: الصندوق نقص خمسمئة ليرة، مشكلة، فقال له: الصندوق نقص منه خمسمئة ليرة، ما هي القصة؟ قال له: جاء إنسان صرف خمسمئة ليرة، لعلي أنا نسيت أعطيته الخمسمئة من الصندوق، ووضعتها في جيبي، هذه خمسمئة ليرة، وأنا آسف، بعد دقيقتين يأتي الزبون الذي اشترى السجاد، قال: أنا أخطأت مع هذا الأخ الموظف، له معنا خمسمئة ليرة تفضل .

عندما قال له: الصندوق نقص منه خمسمئة ليرة، لم يتحمل، فغطى الموضوع، وقال: لعلي أنا أخطأت، ووضعتها في جيبي، الله عز وجل أرجعه ليظهر الحق حتى كان نقياً .

أحد أخواننا رحمه الله توفي، وكان عنده معمل حلويات، قال لي: طلبت مئة قالب زبدة ، عدّهم، فوجدهم تسعة وتسعين، اقترب من معطف أحد الصناع، فوجد في جيبه قالب زبدة، الأمر واضح، فقال لي: ألجمني الله عز وجل، ثاني يوم زرت المعمل، لأدفع له الثمن، قال له : البارحة بعثت لك مئة قالب، اشترى صانعك واحدًا، أعطن ثمن التسعة والتسعين .

الله هو الحق، فإذا كان الإنسان مظلومًا، ينصره الله، يكشف الحقيقة، ولو بعد حين، لكن إياك أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا .

أنا أنصح أخواننا الكرام، عدّ إلى المليون قبل أن تتهم أخاً مؤمناً، قبل أن تفضح مؤمناً، المؤمن غاليًا على الله، هناك من يلبس مؤمنًا تهمة بغير ما اكتسب، هذا عمل كبير جداً عند الله، قال تعالى:

(إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ)

[سورة النور الآية: ١٥]

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

[سورة النور الآية: ١١]

فلذلك أنا أقول لكم الحقيقة: أي شيء تحدث به نفسك، لا تحاسب عليه إلا في حالة الحج، والحالة الثانية في بلدك: إذا رغبت أن تشيع الفاحشة في الذي آمنوا .

سمعت قصة راجعها، تأكد منها، تأكدت من صحتها، ولكن لا يوجد فائدة من الحديث عنها، إلا أن تضعضع الثقة بالدين، ممكن أن تسكت، الله ستير، فالآية الكريمة:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النور الآية: ١٩]

استفد من هذه الوقائع :

كان عندنا قاض في الشام، من كبار القضاة الأولياء، جاءت امرأة من الريف، صحتها جيدة، يوجد درج، يبدو أنه ظهر منها صوت قبيح، فخجلت خجلاً ليس معقولاً، قالت: سمعنا، وعندما وصلوا إليه قال: ما اسمك يا أختي؟ قالت له: فلانة، فقال لها: ما سمعت، ارفعي صوتك، أنا سمعي ضعيف، رفعت صوتها، قال لها: ما سمعت، ارفعي صوتك أيضاً، فقالت لها: معنى هذا: أنه ما سمعنا .

هذا الأدب، لا تحمروا الوجوه، لا تخجل إنسانًا، إنسان استحى منك، أنت أدر وجهك إلى جهة أخرى، لا تحدق فيه، أخطأت خطأ.

أحياناً: يكون للواحد عمل مثلاً، يحب أن يدخن، شاهدك، فألقاها على الأرض، وداسها بقدمه، أنت أدر وجهك، طالما استحى منك، لا تؤكد، دع ماء وجهه محفوظاً، وهذا من الحكمة، طالما يوجد خجل، فاحفظ له خجله، استحى منك، احفظ له حياءه منك .

قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النور الآية: ١٩]

أحياناً: يتكلم إنسان كلمة لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً .

إنسان أخطأ، أنت اتهمته أمام الناس بهذا الاتهام، فحطمته، أنشأت له عقدة، لكن هكذا ورد ببعض الكتب، أنه جيء للنبي بسارق فقالوا:

((هذا سارق، فغضب النبي قال: هلا قلتم رأينا يده في جيب فلان؟))

لعله لم يسرق، اذكر ما رأيت، لا تتهم، الإنسان غال على الله عز وجل، الإنسان لما تعطيه فرصة إلى أن يتوب، ويتوب على يدك .

هناك قصة: الإنسان الذي تزوج زوجة، وبعد مضي خمسة أشهر من زواجه بها، كانت في الشهر التاسع، طبعاً الولد ليس منه، واعترفت له أنها أخطأت، وتابت إلى الله، يقول هذا الرجل: بإمكاني أن أسحقها، يفضحها، يطلقها، ينهيها .

خطيب مسجد جامع الورد، رأى النبي الكريم في المنام، قال له: قل لجارك فلان: إنه رفيقي في الجنة، وهو الخطيب، وليس له البشارة، خطيب، ومدرس، وخاطف الأضواء كلها، والبشارة ليست له، لجاره السمان .

طرق بابه، وقال له: لك عندي بشارة، والله لن أقولها لك، إلا إذا قلت لي: ماذا فعلت مع ربك؟ فذكر له القصة، ولما اعترفت، وتابت، جاء بولادة في الليل، ولدت، وحمل الغلام، ودخل إلى المسجد في صلاة الفجر، بعد أن نوى الإمام صلاة الفجر، وضع الغلام وراء الباب ، ولما انتهت الصلاة، بكى الغلام، فحلق المصلون حوله، وجاء هو كإنسان غريب قال: ما القصة؟ قالوا: انظر هذا الغلام، قال: أنا سوف أربيه، أعطوني إياه، أخذه ورده إلى أمه .

في هذه الدروس، أبحث عن موضوع، نحن في أمس الحاجة إليه، لاحظت في قصص الآخرين نفرح بها، هذه القصص كلما كثرت سقطات المسلمين، تتضعضع الثقة بهذا الدين، إذا المؤمن هكذا، القصة التي تضعضع ثقة المؤمنين لا تروها، والقصة التي ترفع معنويات المسلمين، يوجد قصص تزكي الحماس فيهم، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النور الآية: ١٩]

يروى أن سيدنا عمر، له صديق، ذهب إلى بلاد الشام، وعاقر الخمر، وكفر، فبعث له كتاب لطيف، وقال له:

((أحمد الله إليك، غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول، لا إله إلا هو، إليه المصير، يا رجل تب إلى الله، فقرأ الكتاب، وبكى، وبكى، حتى تاب إلى الله توبة نصوحاً، فقال: هكذا افعلوا مع أخيكم، كونوا عوناً له على الشيطان، ولا تكونوا عوناً للشيطان عليه))

لا تكن فضّاحاً، كن ستاراً، الله عز وجل ستار، أنت تتقرب إليه بالستر، الله عز وجل غفار، فتقرب له بالمغفرة، اغفر للناس، خذ العفو، خذ، لا أحد يعطي طعامًا متفسخًا، تقدم له قطعة حلويات، تقدم له هدية ثمينة، تقدم له قطعة ألماس، قال تعالى:

(خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)

[سورة الأعراف الآية: ١٩٩]

شيء ثمين، وكلما ارتقيت تسمو عن أن تنتقم، تسمو عن أن تفضح، تسمو عن أن تشيع هذا الخبر والعياذ بالله، تسمع قصصًا تنتقل من إنسان إلى إنسان، وكلها تزعزع الثقة بين المؤمنين، فأنت كن عامل بناء لا عامل هدم، يوجد كلمة تهدم، ويوجد كلمة تبني .

اقرأ هذه الأحاديث :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

والمؤمن مربي، والذين حوله قد يخطئون، قد يتجاوزون، أعط فرصة للتوبة، يوجد شخص إذا بطش بَطش جباراً .

قال لي رجل: مؤسسة حركتها بمئات الملايين، شيء لا يذكر، أعطه فرصة للتوبة، وخبر عنه الأمن الجنائي، وفُضح، وتعذب، قال لك: لا أعيدها، أعطه فرصة، استر .

هذا الذي أتمناه، أنك سمعت قصة: لا تكن ناقل أمين، هنا الأمانة غلط، اعمل مراقبة، هذه القصة إذا رويتها، لا ينتفع بها أحد، بل يتأذى بها المسلمون، اخزن ولا تروها، ليس كل شيء سمعته يلقى.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ))

[أخرجه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه عن أبي هريرة]

لا بد من مراقبة، لذلك: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا فِي الدُّنْيَا إِلا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

حينما تستر أخاك، يسترك الله يوم القيامة، فما حساب هذا الذي يفضح نفسه، هذه أقبح.

عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى، إِلا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ، أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلاً، ثُمَّ يُصْبِحَ، وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ))

كلام هام :

مرة كنا في نزهة، أخ قال: أنا كنت أفعل كذا قبل أن أتوب، كبائر كلها، قلت له: ليس لك مصلحة أن تتكلم هذا الكلام، طالما أنك تبت إلى الله، وأقلعت عن شرب الخمر، لمَ تفضح نفسك أمام

الحاضرين؟ هل أنت تتباهى، لأن الحاضرين لا يعرفون عنك شيئاً؟ قال: لأظهر فضل الله علي، قلت له: هذا خطأ، لا يجوز أن تتكلم عن جاهليتك، الله عز جل تفضل عليك بالستر الجميل، فاقبل ستر الله عز وجل .

نحن في الإسلام، لا يوجد عندنا اعتراف للشيخ أبداً، نحن عندنا قبول بستر الله عز وجل، الله سترك، فاقبل ستر الله، واسكت عن كل شيء، حصل قبل ذلك، والعبد لا يغفر .

قال لي شخص: أسر له شخص عن فاحشة فعلها بالجاهلية، قال لي: مضى على هذه القصة عشرين سنة، كلما أراه، أذكر فاحشته .

الإنسان لا يستر، الله عز وجل ستار، إذا رجع العبد إلى الله، إذا تاب العبد توبةً نصوحة، أنسى الله حافظيه، والملائكة، وبقاع الأرض كلها، خطاياه وذنوبه، هذا ستر الله عز وجل .

عندنا الآن نقطتان: ممنوع أن تتكلم كلمة عما قبل توبتك، لا قصة، ولا عملنا، ولا سافرنا، ولا دخلنا إلى محل معين، ولا ارتكبنا، ولا شربنا، لا تتكلم كلمة عن الماضي، هذا ستر الله عز وجل فاقبله، وإذا سمعت قصة عن المؤمن لا تليق، لا تذكرها .

إليكم هذه الحالات التي استنبطها النووي من كتب الفقه في مجال التكلم بالقول السيء؟:

بالمناسبة: الإمام النووي في كتابه أيضاً: بين استنباطاً من أحكام الفقه، أن هناك ست حالات، أنك يمكن أن تقول شيئاً سيئاً، قال تعالى:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً)

[سورة النساء الآية: ١٤٨]

١-في القضاء:

فإذا رفعت أمرك إلى قاض، وقال لك: ماذا فعلت يا بني؟ تقول: لا أستطيع أن أتكلم يا سيدي، لكي لا أغتابه، قال لك: اذهب، لا بد من أن تعرض قضيتك على القاضي، فهنا رخصة عند القاضي .

٢-الرخصة الثانية:

إذا أيقنت أن هذا الإنسان قوي، وبإمكانه أن يزيل هذا المنكر، هذا البيت فيه دعارة، وتعرف شخصًا يغار على الدين، وهو قوي، تقول له: فلان له بيت دعارة، من أجل أن تزيل المنكر .

٣-الحالة الثالثة:

في الفتوى، تستفتي، إذا لم تتكلم بالحادثة، لأن الفتوى على قدر الوصف ، لكن ثمة ترتيب بالفتوى. قل لي: صديق صار معه كذا، كلفني أن أسألك، فيها ذكاء، وفيها حكمة، إذا كانت القضية مزعجة، وفيها فضيحة، وأنت مضطر، أن تبحث عن حكمها الشرعي، تقول: لي صديق، جرى معه ما جرى، وكلفني أن أسألك، قد يكون فعلاً، وقد يكون معك، صارت هذه الحادثة .

٤-موطن النصيحة:

موضوع زواج، هنا لو طلب ابنتك تعطيه، طبعاً أعطية، وأنت لا تفعل ذلك .

في موضوع الشراكة؛ شراء بيت، البيت فيه مشكلة، في أمر بإخلائه، معروض على الدلال، وتعرف أناسًا، همهم أن يبيعوا، والبيت خمسة طوابق، يصعد المشتري، ويهلك من التعب، ماذا يفعل الدلال؟ عند كل طابق يتكلم، له قصة، لا يشعر على نفسه المشتري، هو خبير في هذه المسألة، كلمه قصة ممتعة، الطابق الثاني قصة ثانية، الطابق الثالث وهكذا، وعندما يصل إلى الخامس يقول له: انظر إلى هذه المناظر الجميلة، ودلال ثان صلى العشاء باتجاه الشمال، حتى أقنعه أن هذه قبلة، يوجد أساليب كثيرة .

فأنت بحاجة إلى نصيحة في شراء بيت، في زواج، يجب أن تنصح، إلا أنه يوجد نقطة مهمة جداً جداً، وأنا أعيدها، وأكاد أن أقول: جريمة، أن أعطي ابنتي إلى فلان، فقال له : لا تعطه، ولما جاؤوا إليه ليرد الجواب، يقولون: قال فلان: إنك ليس بجيد .

لي أخ يعمل بالمالية، قال لي: جاءت شكوى على إنسان، أن عنده مستودعات، وعنده بضائع، أغلقنا الموضوع، شكوى ثانية، أغلقنا الموضوع، شكوى ثالثة، أغلقنا الموضوع، شكوى للوزير، هل هذا معقول؟ وراء الموضوع، شخص يجب أن يحطم هذا الشخص، إلى درجة، يريد أن يسحقه سحقًا، فكان هذا الموضوع: أن هذا الرجل، سأل عنه أشخاصًا، نصحوهم ألاّ يزوجوه، وبلغه من قال لهم .

أنا قلت كلمة: تكاد تكون جريمة، إذا سألك إنسان، واستنصحك في موضوع زواج، أنت سألت، وأخذت جوابًا، وانتهى الأمر، أما أنا أقول: من الذي بلغني، فلا .

عَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ قَالَ:

((مَرَّ رَجُلٌ عَلَى حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَذَا يُبَلِّغُ الأمَرَاءَ الْحَدِيثَ عَنِ النَّاسِ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ))

قالَ سُفْيَانُ:

((وَالْقَتَّاتُ النَّمَّامُ))

من أكبر الكبائر: إذا استنصحك رجل، أن تبلغ الشخص، ماذا قال عنه فلان؟ هذه قضية المالية، كان السبب أن هناك سؤالاً عن زواج، والمسؤول نصح، والسائل بلغ الشخص أن فلانًا، قال عنك كذا، وصارت القضية كيدًا .

٥- في التعريف:

من قال هذه الأبيات؟ من قال هذا النص؟ الجاحظ، الجاحظ عيونه جاحظة، أما لأن اسمه جاحظ، لم تعد غيبة، من قال هذه الأبيات؟ الأعمش، الأعمش يعني بصره ضعيف، التعريف .

وأضافوا أن تذكر مبتدعاً: رجل مبتدع، يأتي بأفكار ليست من الدين، رأيت كتابًا فيه شبهات، وأنت فندت هذا الكتاب، إذا طرح عقيدة زائغة، طرح تفسيراً لآيات غير صحيح، فهذا الذي مسموح به .

٦- المجاهر بالمعصية، الفاسق فاجر:

وأناس كثيرون يفعلون هذا، يرتكب الزنا، ويقول، ويشجع الناس على الزنا، ويشجع الناس على المنكرات، يشرب الخمر ويقول، فإذا جاهر إنسان بالمعصية، فلا غيبة له .

هذه الرخص التي يمكن أن تعد رخص بالغيبة التي نهانا الله عنها .

متى يعفو الإنسان عن المخطئ، ومتى لا يعفو؟ :

وفيما رواه الإمام البخاري، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

((أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ، قَالَ: اضْرِبُوهُ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ، وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّهُ، قَالَ: لا تَقُولُوا هَكَذَا، لا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ))

لا للضغط الكثير، دع للصلح مكانًا، أخطأ إنسان، فلا تسحقه حتى العظم، أعطه فرصة يتوب .

لذلك عندنا قاعدة: سألني أخ من يومين، أنه دخل إلى بيتي لص، وبإمكاني أن أسقط حقي، وبإمكاني أن أطالب بحقي، فتتضاعف العقوبة، فماذا تأمرني أن أفعل؟ فقلت له القاعدة، قال تعالى:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ)

[سورة الشورى الآية: ٤٠]

هذا عائد إليك، إذا غلب على ظنك، أن عفوك عنه يصلحه، فيجب أن تعفو عنه، وإذا غلب على يقينك، أن عفوك عنه يزيده إجراماً، فيجب ألاّ تعفو عنه، أنت بريء من الحقد، بريء من الانتقام، لكن المصلحة، مصلحة المسلمين .

شاب أرعن، طائش، وقح، دهس بنتًا، لو عفونا عنه، سوف يستمر في غيه، لا نعفو عنه، أما إنسان يقود مركبة، ويسير على سرعة ثلاثين، قفز طفل أمامه، ومات، الرجل بريء ، إذا عفوت عنه، ترفع ثقته بالمسلمين .

إذا كان القانون معك، والحادثة بسيارته، لكنه كان يسير في سرعة معقولة، وبشكل أصولي، والطفل جاء أمامه، ومات الطفل، ولم يتمكن من أن يوقف السيارة، إذا كان عفوك عنه، يقربه من الله، فيجب أن تعفو عنه .

سؤال ورد من ورائه حكمة:

أنا أسأل هذا السؤال كثيراً في موضوع الصدقات: له قريب لا يصلي، نعطيه جزءاً من زكاتنا، أقول لهم: إذا أعطيته، وقربته من الله، أعطه، وقليل دين، وغير ملتزم، جاء رجل دين أكرمه . يقولون:

((شخص كان يشرب الخمر، وكان طريح الأرض، ويلفظ اسم الله عز وجل من فم نجس، مر الإمام مالك بن دينار، وهو من كبار العلماء، فغسل فمه بيده، فلما استيقظ قيل له : أتدري من غسل فمك؟ قال: لا، قالوا: الإمام مالك))

من شدة خجله، تاب إلى الله .

يقولون -وهذه قصة رمزية-:

((أنه سمع الإمام مالك في المنام صوتاً من السماء، يقول له : يا مالك، طهرت فمه من أجلنا، فطهرنا قلبه من أجلك .

فجاء إلى المسجد صباحاً، رأى رجل يصلي، ويبكي، قال له الإمام مالك: من أنت يرحمك الله؟ فقال له: الذي هداني أخبرك بحالي))

إذا أنت رأيت شخصاً منحرفاً، واحتويته، وعطفت عليه، فلك أجر كبير .

أبو حنيفة النعمان، كان له جار مغنٍّ، لا يريحه، ولا يدعه ينام الليل، وهو يغني، ويقول: أضاعوني وأي فتى أضاعوا

فلما سجن، ذهب، وتوسط له لدى مدير الشرطة وقتها، فأطلق سراحه إكراماً لأبي حنيفة، وفي الطريق قال له: يا فتى، هل أضعناك كما كنت تقول؟ فتاب على يده .

الإنسان العاصي محطم نفسياً، إذا رأى مؤمناً احتواه، وأحاطه برعايته، يذيبه خجلاً، وإذا ضغطت عليه زيادة، تكفره، قد يسب الدين، الأمر يحتاج إلى حكمة .

فقَالَ:

((لا تَقُولُوا هَكَذَا، لا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح وأبو داود في سننه عن أبي هريرة]

خلاصة القول :

أنا أتمنى أن تكون محاور هذا الدرس واضحة:

أول محور: إياك أن تنقل قصة تشيع بها الفاحشة بين المؤمنين، أولاً إن لم تكن متأكداً منها، تأكدت منها صحيحة، هل هناك جدوى من ذكرها؟ لا يوجد جدوى، تسكت ستراً لسمعة المسلمين، ستراً لحالهم.

ثاني محور: أما الذي ارتكب بعض المعاصي في الجاهلية، فممنوع أشد المنع، أن يذكر منها شيئاً إطلاقاً، ستره الله عز وجل، احتواه، فقبل ستره .

الشيء الثالث: في الغيبة المباحة، في النصيحة، إذا استنصحك إنسان، ونقلت .

أيها الأخوة، في هذا المسجد مع الأسف، ومعي صارت، واحد استنصحني بشراكة، والشخص صعب جداً، فنصحته فبلغه، تصبح لا تستطيع أن تنصح، تقول له: اسأل غيري .

أنا متأكد، أن هذا الإنسان صعب جداً، وذمته قليلة، بلغه، فقال له: سألت الأستاذ، فقال عنك: إنك لست جيداً .

أنت قطعته عني وانتهى، الإنسان يدع هذا الذي يدرس، آخر ورقة بيد الشخص، وهي تسمى أوراق رابحة، هكذا يسمونها، أنا أتكلم كلامًا من حرقة، وأتمنى إذا أردت أن تنقل نصيحة إنسان لصاحب الموضوع، فأنت ارتكبت جريمة، قطعت الخير، وتنشأ عداوات لا تنتهي، آلاف العداوات بين الأسر، سببها نصحه، ونقل النصيحة لصاحبها، وهو يظن أنه لم يعمل شيئاً .

قل له: الموضوع صرفنا عنه نظر، قدم لك نصيحة ثمينة جداً، هذه أشياء أنا أحاول بفضل الله، أن أضع يدي على جراحات المؤمنين، هذه الأشياء يقع بها المسلمون، المسلمون مجتمعاتهم ممزقة، عداوات ضمن الأسرة الواحدة، فإذا اتقينا أن نشيع الفاحشة في الذين آمنوا لاستنصحنا بعضنا، ولم ننقل إلى الشخص صاحب الموضوع تتماسك الأمة، وفي تماسكها نقوى على أعدائنا .

أنا سوف أنقل لكم قصة: أحياناً شركة إذا خلافات داخلية تنتهي، الآن أعضاء هذه الشركة، يضعفون عن مواجهة متاعب التجارة، أمّا إذا كان فيها تماسك داخلي، من السهل أن تنحل كل

مشاكل الشركة، فلما يكون المسلمون بأسهم بينهم، فهذه مشكلة كبيرة جداً، طاقاتنا، جهودنا، كلها داخلية، وبالريف أيضاً: يوجد مثل هذه المشكلات، عداوات، وثأر، كلها من الغيبة .

رجل قال لي: عندنا لقاء أسبوعي، قلت له: شيء جميل، نخبة من المثقفين، قال لي: أستاذ، ماذا تظن عمر هذه السهرة؟ قلت له: لا أعرف، قال: سبع عشر سنة، لم نغب أسبوعًا، قال: مرة سألنا بعضنا، ما سر هذه السهرة؟ قالوا كلمتين: لا يوجد فيها اختلاط، ولا غيبة، إذا ألغيت الغيبة والاختلاط تستمر، صار غيبة، صار عداوات، صار في امرأة، نظرت إليه، لا، لم أنظر إليه، انتهى الأمر .

فالغيبة تفتت المجتمع تفتيتاً، إذا استنصحك إنسان، فلا تنقل نصيحته إلى صاحب العلاقة، اعتذر بشكل أو بآخر .

إذا أكرمك الله عز وجل بالتوبة، فإياك أن تفضح نفسك، إياك، ثم إياك، ونحن لا يوجد عندنا في الإسلام اعتراف، سترك الله، فاقبل ستره فقط، ومن أكبر الكبائر أن يسترك الله عز وجل، وأن تفضح نفسك .

هذا الباب الذي عقده الإمام النووي في رياض الصالحين، وسماه: باب ستر عورات المسلمين، والنهي عن إشاعتها لغير الضرورة، وبدأه بقوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة النور الآية: ١٩]

طبعاً هذه الآية: جاءت في سورة النور .

السيدة عائشة قيل عنها: إنها زنت، وهي زوجة رسول الله، والمؤمنون ضعاف الإيمان، روجوا هذه القصة، والمؤمنون الكبار قالوا: هذا بهتان عظيم، ظنوا بأنفسهم خيراً.

أيها الأخوة، مئات المرات، أسمع قصة عن إنسان، له دعوة، له أخوان، أقول: مستحيل، هذه القصة باطلة، لا أقبلها، أحسن الظن بأخوانك، نقبل أي قصة بلا تحقق، بلا دليل ، بلا تحقق، فكرنا أن نشوه سمعة فلان، لا تقبل أي قصة، بنص هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

[سورة الحجرات الآية: ٦]

تندم أشد الندم .

هذه محاور الدرس: قبول ستر الله عز وجل، لا تذكر قصة إلا بعد المناقشة، يوجد فائدة منها، ترفع المعنويات أم تهبط بها .

قال لي: من دون يمين بعشرة آلاف مع يمين بعشرين .

أنا ذكرت له ثلاث قصص: رجل ثمانمئة ألف أرجعها، والثاني بأمريكا عملوا له حفل تكريم، وآخر كتب لي، ورقة لا أعلمه، أعتز بها .

قال لي: حضرت درس الاثنين، درس الأمانة، وأعدت إلى الورثة عشرين مليون ليرة ، لا يعلمون عنها شيئاً، ولا وثيقة، ولا شهادة، أخذتها من والدهم، ومات بحادث .

إذا ذكرت قصة، تريد أن تضعضع معنويات المسلمين، فأنت ممن يحب أن تشيع الفاحشة في الذين أمنوا، وأذكر قصة أخرى، أرفع بها معنويات المسلمين، وقصة لا تعرف أولها لا تتكلم بها .

كنت مرة عند أحد أقربائي بالعيد، يوجد أمامنا بناء، فقال لي: ترى هذا البناء ثلاثة طوابق، صاحبه تزوج امرأة شابة، بعدما توفيت زوجته، والشابة ببالها أمواله، تحببت إليه حتى كتب لها البناء كله، وبعد أن طوب لها البناء طردته، وهي تحب واحدًا غيره، إنسان بقي بلا بيت .

قلت له: هذه القصة آخر فصل، نريد الفصل الأول، وقلت له: هذه القصة ليست مضبوطة، والشخص هو ابن عمي، فقال لي: نعم، هذا كان أخًا أكبر، ومات أبوه، وأخذ المال كله له من أربع أخوات، الآن هذه القصة مضبوطة، أما من دون هذا الفصل الأول، فمن الصعب أن أصدقها بكل هذه البساطة، إلا أن يكون مغتصبًا لهذا المال .

إذا كنت لا تعرف كل فصول القصة، فلا تروها، تعرف كل فصولها اروها، لأنك إذا رويت آخر فصل، تنشأ مشكلة وظلم .

إنسان فقد كل ماله بلا سبب، وهذا الذي أتمناه: أن كلامك محاسب عليه .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: إنَّ العبد ليتكلّم بالكلمة -مِنْ رضوان الله- لا يُلْقِي لها بالا، يرفعه الله بها في الجنة، وإن العبد ليتكلم بالكلمة -من سَخَط الله- لا يُلْقِي لها بالا، يهوي بها في جهنم))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح والترمذي في سننه ومالك في الموطأ]

ويجب أن تعد كلامك من عملك، أما أن أتكلم من دون شروط، إذا رويت قصة، وليس متمكن منها، تفضل وصلّ، الصلاة مقياس، استقامتك علامتها: إقبالك في الصلاة، إذا كنت محجوباً في الصلاة، معنى هذا أنك محجوب .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٥١-١٠١) : باب وجوب أمر أهله بالصلاة - المهمة القدسية التي أنيطت في عنق الآباء تجاه أولادهم وخطورتها إذا تفلتوا منها

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٥-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ما الذي يسعد الأب في حياته، وما الذي يشقيه؟ :

أيها الأخوة الكرام، الإمام النووي رحمه الله تعالى، عقد باباً في كتابه رياض الصالحين، سماه: باب وجوب أمر أهله بالصلاة، وأولاده المميزين، وسائر من رعيته، بطاعة الله تعالى، ونهيهم عن المخالفة، وتأديبهم، ومنعهم من ارتكاب كل منهي عنه .

أولا: ربنا عز وجل صمم الإنسان بطريقة أسرية، كل إنسان له أب، وأم، وأولاد، وأخوة، وأخوات، ووضع في قلب الأب والأم من الرحمة والعطف الشيء الذي لا يوصف، من الذي يشقي الأب؟ أن يرى ابنه شقياً، من الذي يسعده؟ أن يرى ابنه سعيدا، لذلك أحد أكبر مصدر للشقاء: شقاء أولاد الإنسان، وأحد أكبر مصدر سعادة الإنسان: أن يرى أولاده سعداء.

وحينما كنت مسافراً إلى أمريكا قلت لهم: لو أن الإنسان عندكم حقق نجاحا إدارياً كنجاح كلينتون، وحقق نجاحا ماليا كنجاح أوناسيس، وحقق نجاحاً علمياً كنجاح أنشتاين، ولم يكن أولاده كما يتمنى يشقى بشقائهم .

أنا أقول لكم: أخطر موضوع يعاني منه الأب، أن يرى ابنه شقياً، إما بتفلته من الدين ، أو بعدم صلاته، أو بعدم انضباطه، أو بعد توفيقه في الحياة، يبقى الابن الشقي طعنة في صميم القلب، إلا أن المشكلة مثل السرطان تماماً، يكشف بعد فوات الأوان، السرطان لا يكشف في البدايات أبداً، ولا سيما سرطان الثدي، كحبة العدس، لا يكشف، إلى أن يصبح الورم كالبرتقالة فيُكشف، لكن بعدما انكشف، انتشر في الدم، نسميه انتقالاً، انتقل المرض عبر الدم إلى كل أماكن الجسم وانتهى .

والمشكلة: أن كشف هذه المشكلة، تكون بعد فوات الأوان، أما الانتباه لها في الوقت المبكر، فيحتاج إلى علم، يحتاج إلى فهم، يحتاج إلى متابعة، أن تكشف المشكلة قبل فوات الأوان .

طفل محبب مهمل، في سن معينة، هو بعيد عن أمه وأبيه، فجأة ينسلخ منهما، ويوالي أهل السوء، غاب عن البيت، جاء الساعة الثانية ليلاً، سألته، تهجم عليك، ضرب أمه، ضرب أخوته، تطاول على والده، انتهى .

الآن: اكتشفنا الورم الخبيث، متى؟ بعد فوات الأوان، أما لو كان صغيراً دون الخامسة، كان معك، وعلمته الدين، وعلمته القرآن، وعلمته الفقه، وعلمته البطولة، علمته إنفاق المال في سبيل الله،

علمته ارتياد المساجد، علمته أخلاق المسلمين، فهمته عن أصحاب رسول الله، حببته بالمسلمين، صار معك معيناً، قال تعالى:

(فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ)

[سورة الصافات الآية: ١٠٢]

ولا شيء أسعد على الإطلاق، أن يكون ابنك معيناً لك في حياتك، من أن يكون ابنك منضبطاً، من أن يكون ابنك في خدمتك، من أن يكون لك لا لغيرك .

حقائق من واقعنا :

أخواننا الكرام، هناك آباء يبكون الآن دماً، لي قريب سنة ١٩٧٤، ترك مئة مليون، وكلكم تجار، وتعرفون معنى مئة مليون سنة ١٩٧٤، قبل أن يموت بخمسة أيام، قال لزوجته ، وقد وجد أولاده متفلتين، شاردين، قال ابن لأمه: هذه البنت إذا لم تخطبيها لي، يجب أن تسبح بين الرجال، شرطه أن تسبح بين الرجال، هذا طلبه، علم الأب بطلب ابنه، فقال كلمة، قالها واحترق قلبه، اعتصر قلبه، قال: اتبعنا ــباللغة الدارجة- العراط، تركنا الذهب، جمع ثروة طائلة، اعتبرها فحماً، وترك أولاده، واعتبرهم ذهباً، أهمل أولاده .

كل واحد منا يا أخوان معرض لهذه المصيبة، أن يكتشف أن ابنه منحرف، ابنه زان، ابنه شارب للخمر، ابنه له سهرات لا ترضي الله، ابنه له غطات مع رفاق السوء، ابنه لا يعبأ بالدين إطلاقاً، ماذا تفعل به؟ ابنك، كم من أب سيق إلى المخفر ليرى ابنه ملقى القبض عليه؟ إذا لم ترع ابنك وهو صغير دون الخامسة، إن لم ينشأ على طاعة الله، إن لم ينشأ على محبة الله، إن لم ينشأ على محبة رسول الله، محبة أصحاب رسول الله، محبة المؤمنين، إن لم يتأدب بأدب الإسلام، إن لم يعرف الخير، عود ابنك أن يكون معك في مجالسك، عود ابنك أن يكون عنده تفكير حر، عود ابنك أن يكون كريم النفس، لا تقمعه قمعاً، علمه تعليماً .

((علموا أولادكم ولا تعنفوهم، فإن المعلم خير من المعنف))

لما تربي ابنك تربية عالية، وتراه يصلي، ويغض بصره، وهو صادق أمين، له سمعة طيبة، يُدخِل على قلبك من السعادة، واللهِ ما لا يوصف .

مرة قلت لأب، وابنه صالح، والأب فقير، أقسمت له بالله أيماناً معظمة: إن هذا الابن لو كُشف لك الغطاء، لرأيته أغلى من ألف مليون دولار، تلمسها بيدك، ابنك متفلت، هذا لا يعرف إلا بعد الموت، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ)

[سورة الطور الآية: ٢١]

كل أعمال ذريته في صحيفتك، لأنه تعب، فإذا بذلت خمس وقتك لأولادك، تجلس معهم، تحفظهم كتاب الله، تأخذهم إلى معهد شرعي، تنشئهم على طاعة الله، تصلي معهم، تداعبهم، ينتمون إليك، ولا ينتمون إلى أولاد الجيران، لا تقل: ليس لدي وقت، إذا لم يكن لديك وقت، فأنت لست ناجحاً في الحياة .

أخي أنا أخرج قبل الشمس، قبل أن يستيقظوا، وأعود بعد أن يناموا، يحسب نفسه ملبِّيًا للغرض، وأفلح، هو جندي، لا بد من وقت تصرفه في خدمة أولادك .

كثير من الأخوان يسافرون، ويتركون بيوتهم، ليس هناك رجل، تفلت الأولاد، والبنات انحرفن، والأبناء وقعوا في الفاحشة، ليس هناك أب، فأكبر دخل يأتيك، وأنت بعيد عن أهلك وأولادك خسارة، وأقل دخل يأتيك، وأنت مع أولادك تربيهم هو ربح .

أقول كلاماً عن معاناة: كل إنسان يعمل في الدعوة، بحكم عمله، تأتيه مئات القصص ، والقصص كلها خبرات، كلها تجارب، كلها حقائق، من له ابن يبذل من أجله في اليوم ساعة أو ساعتين، فلما يستقيم، و يصلح حاله، يكون عندئذ قرة عين لوالديه، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)

[سورة الفرقان الآية: ٧٤]

ما وراء هذه الآية :

أيها الأخوة الكرام، الإمام النووي رحمه الله تعالى، عقد في كتابه رياض الصالحين باباً سماه: باب وجوب أمر أهله، دقق في هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

[سورة التحريم الآية: ٦]

أهليكم، كما أنك مكلف أن تقي نفسك النار، فأنت مكلف أن تقي أهلك النار، لأن البنت يوم القيامة –هكذا ورد في بعض الآثار– تقول: يا رب لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي.

قصتان لهما عبرة :

هناك قصة مشهورة: أن طفلاً صغيراً فقيراً سرق بيضة، فعلمت أمه، فأثنت عليه، تفاقم الأمر حتى وقع في جريمة، حكم عليه بالإعدام، فلما وقف أمام المشنقة ليعدم، قيل له: ألك حاجة؟ قال: أن أرى أمي، فجاؤوا بها إليه، قال: يا أمي، مدي لسانك كي أقبّله قبل أن يحين الحين، مدت لسانها فقطعه بأسنانه، وقال: لو لم يكن هذا اللسان مشجعاً لي في الجرائم ما فقدت حياتي .

لا تكذب أمام ابنك، لا تقل له: أنا لست هنا، لا تؤاخذني، أنت بهذا العمل مجرم، طفل صغير، وأبوه جالس في البيت، دق الجرس، قال له: قل له: لست موجوداً، هذا هو الكذب .

لي قريب مقيم في أمريكا، جاء إلى بلده الشام، معه طفل، عمره خمس سنوات، في أثناء النهار أزعج أهله، قالت له جدته: اهدأ وارتح، وفي المساء آخذك معي، فركن، في المساء لم تأخذه، قال لها: أنت كذابة، على الفطرة .

علمه الصدق، علمه على الأمانة، اهتم به، أمّن له كل حاجاته، علمه القرآن، اعتن به ، واتركه معك دائماً .

هناك آباء كبار في عيني، يوم العيد يأخذ أولاده على المراجيح، يسرّه، هذا مقامه، لم يبعثهم وحدهم، خاف عليهم، لم يحرمهم، ولم يتركهم، أخذهم بيده، وألعبهم .

كان النبي عليه الصلاة والسلام يدخل بيته، يركب الحسن والحسين على ظهره، يمشي على أربع، هذا سيد الأمة، سيد الخلق هكذا، في البيت واحد من أهل البيت .

قف عند هذا الكلام :

أيها الأخوة، هذا الكلام أقوله لكم من محبتي: كل واحد منكم مسلم غال على الله، ومستقبلنا في أولادنا، فلا بد أن تقعد مع أهلك، وأن تعلمهم، لا أبالغ أنك لو أخذت الأهل نزهة، فأدخلت عليهم السرور، والله هي كالعبادة في سبيل الله، من يصدق أنه خرج في نزهة وكسب أجراً؟ إذا كان الهدف أن تدخل على قلب أهلك السرور ضمن الأدب، وليس في المقهى ، حيث الغناء، والنساء كاسيات عاريات، ليس هذا مكاننا نحن أبداً، هذا ليس مكان المؤمنين الطاهرين .

فالمؤمن لما يكون إيمانه قوياً، فكل حركاته وسكناته في سبيل الله، حتى لو جلس مع أهله، حتى لو قعد مع أولاده أربع ساعات، وأصغى لهم، وناقشهم، وسمع لهم، وأضحكهم، وأدخل على قلبهم السرور، المؤمن إذا دخل إلى البيت، يصير في البيت عيد، وهناك آباء بمجرد أن يدخلوا البيت – والعياذ بالله– دخل معه البلاء إلى البيت، يصرخ دائما، ويضرب، ويضجر، ويسب، فصار وجوده في البيت مشكلة وعبئاً، وإذا خرج من البيت يقول أهله: الحمد لله ارتحنا، يتنفسون أهله الصعداء .

أعرف أبناء مرض أبوهم، فلما جاء الطبيب، وقال لهم: حالة عرضية، لم يحتملوا ذلك ، انزعجوا جداً، نريد أن يموت، هذا الأب بخيل إلى آخرته، ينتظر أهلُه موتَه، الأب البخيل .

هناك صديق أب، توفي من يومين، رأى ابنه، فسأله: إلى أين ذاهب؟ قال: أنا ذاهب لأسكر على روح أبي، والله هذا الكلام دقيق، كلام واقعي، كلام فيه معاناة، انتبهوا .

أحد أكبر مصادر سعادتك أولادك، والأبوة المثالية طريق إلى الجنة، الأبوة المثالية رسالة، رسالتك أولادك، والمسلمون بخير إذا كان أولادهم بخير، وإذا كان أولادهم شرقاً، وغرباً، وانحرافات، لا

يعلمها إلا الله، أين المسلمون؟ ألا ترى في الطريق نساء كاسيات عاريات؟ أين آباؤهم؟ أين أمهاتهم؟ أين أخوتهم الذكور؟ أين أزواجهم؟ هؤلاء المسلمون، قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم الآية: ٥٩]

ما هي المسؤولية التي وقعت في عنقك أيها الأب من خلال هذه الآية؟ :

أيها الأخوة، الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

[سورة التحريم الآية: ٦]

أنت محاسب على أهلك، محاسب عن بيتك، فيه معصية، فيه مخالفة، فيه صحن هوائي، وغافلك ابنك، وجلس إلى الساعة الخامسة فجراً، يرى أشكالاً وألواناً، وقع في شبكة الزنا، وقع في عادات منحرفة جداً، فلم يعد يصلي، أنت حتى ترى حوارا في الشارقة، حتى ترى ندوة الاتجاه المعاكس، هدمت أولادك، اقرأ كتاباً بدل ذلك، انتبهوا أيها الأخوة .

حدق البصر في هذا :

قال لي مرة شخص كلاماً، وصار يبكي، قال: ماذا أريد أن أقول؟ قال: ابنتي حامل من ابني، من جراء هذا الصحن، هذه مصيبة، إذا أكلت الزيت والزعتر فليس مصيبة، إذا كان غداؤك كأس شاي مع خبزة يابسة فليس مصيبة، هذا وسام شرف، لكن الأخرى مصيبة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

[سورة التحريم الآية: ٦]

أذكر لكم هذا الكلام من قلبي، وليست القضية قضية معلومات، كتب، تجارب، حالات تنتهي إلى سمعي .

أحد علماء دمشق الأجلاء، جاءه شخص، قال له: أرجوك أن تذكر قصتي على المنبر ، وأنا سامحتك، عندي صحن، وكنت سهران مع زوجتي، وأولادي، يدير القنوات، فوقع على منظر خبيث، فقلبناه، وما انتبهت أن ابني حفظ رقم المحطة، قال لي: الساعة الثانية عشرة نعسنا، فنمنا، استيقظت الساعة الثانية على صوت أنين، وجد ابنه على ابنته، قال له: اذكرها على المنبر، وذكرها على أشهر منابر دمشق، أين يذهب المسلمون؟ في أي طريق يسيرون؟ طريق الهلاك .

فأنا أتمنى على أخواننا الكرام، اعتن بأولادك، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

[سورة التحريم الآية: ٦]

لما أرى الابن مع أبيه في المسجد، كأنك أعطيتني مليون ليرة، وأنا يهمني ابنك أكثر منك، لا تغضب مني، أنت نجوت، في هذه السن لا تفعل شيئا، أما ابنك فهو معرض لكل انحراف، نحن واللهِ في العيد من باب تشجيع الصغار في الزيارة، نضع أكلات غالية، وهدية عيد لكل طفل، جاء مع أبيه، يحب المسجد، كم أخذنا الصغار على المسابح، سبحوا، أكلوا، ولعبوا الكرة، وفق رغباته المشروعة، حتى يحب القرآن، يحب السنة، يأتون إلى الدروس.

فالقضية: أن خصوم المسلمين أذكياء جداً، وأقوياء، وأغنياء، فإذا لم يكن المسلمون كحد أدنى مثلهم بتربية أولادهم، ضاعت هذه الأسر، وتجد هؤلاء الشباب متسكعين في الطرقات .

أمر الهي آخر موجه إليك أيها الأب :

أيها الأخوة، الآية الثانية:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

[سورة طه الآية: ١٣٢]

سيدنا عمر حينما طعن واغتيل قبل الفجر، بعدما طُعن وسال منه الدم، وقبل موته بدقيقة، كان قلقاً على شيء، شيء محيّر، ماذا يقول؟ قال:

((هل صلى المسلمون الفجر؟))

مطعون، اغتالوه، ودمه يسيل، ويخاف أن المسلمين لم يصلوا الفجر:

((هل صلى المسلمون الفجر؟))

يأتي الأب فيقول للأم: هل أكل الأولاد؟ أكلوا، هل جاؤوا؟ جاؤوا، هل لبسوا؟ لبسوا، هل سأل مرة: أصلى الولد العشاء قبل أن ينام؟ ليست مشكلة، اسأل أمه: هل صلى العشاء؟ هل صلى الفجر حاضراً؟ هذا هو المطلوب من الدرس، قال تعالى:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

[سورة طه الآية: ١٣٢]

اعتن بأولادك، قد يكون البيت متواضعاً جداً، وهو قطعة من الجنة، وقد يكون البيت ثمنه مئة وستون مليوناً، وهو قطعة من جهنم، هذه مفارقات الحياة، هناك بيت صغير في رأس الجبل، فيه زوج، وزوجة، وأولاد مربون، قطعة من الجنة، وتجد بيتا في أفخر أحياء دمشق متفسخ، فيه انحراف، فيه شقاء زوجي، قال تعالى:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

[سورة طه الآية: ١٣٢]

بطولتك في بيتك، بطولتك أن تكون زوجاً ناجحاً، وأن تكون أباً ناجحاً، وأن تكون صاحب بيت منضبط، وأن تربي أولادك تربية عالية، هذه بطولتك، إذا نجحت فهنيئا لك.

أحيانا أخ في المسجد ممتاز، قال لي: عندي ثلاث بنات، والله معك حق، بعثنا له خطيباً، فرأى البنات بثياب فاضحة، قال الأب: أنا واللهِ لم أقدر عليهم، نشأت متفلتاً، وعرفت الله بعد الخمسين، أنا الآن بناتي بهذا الوضع، لا سيطرة له عليهم، هذا شيء صعب جداً.

المشكلة: صارت بعد فوات الأوان، وهو صغير، من السهل جداً أن تربيه، أما إذا كبر، وفلت من يديك، انتهى أمرهم، ذكراً كان أو أنثى، والبنت أصعب .

فيا أيها الأخوة، هذا الباب باب خطير، قال تعالى:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

[سورة طه الآية: ١٣٢]

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً)

[سورة التحريم الآية: ٦]

إليكم هذه الأحاديث التي تشمل معنى درسنا اليوم :

عمر بن أبي سلمة رضي اللّه عنهما: قال:

((كنتُ غُلاما في حجْرِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت يَدي تطيشُ في الصحفة، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ياغلامُ سَمَّ اللّه، وكلْ بيمينك، وكلْ مما يليك، فما زالتْ تلك طِعْمَتي بعدُ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح وأبو داود والترمذي في سننهما ومالك في الموطأ]

انظر على هذا التهذيب،

((يَا غُلَامُ، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ))

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ يَقُولُ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئول عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ ومَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، -قَالَ: وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ: وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ- وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن ابن عمر]

نهاية المطاف :

أيها الأخوة، آخر كلمة أقولها لك: لا تصدق أن ثمة إنساناً على الأرض أو جهة، تحل محلك في تربية أولادك، تقول: الزمن فسد، ماذا نفعل؟ المدرسة مقصرة، وأنت مسؤول وحدك ، وليس هناك

جهة تحل محلك، أنت مَسْؤُولٌ أمام الله عن أولادك، والأولاد أمانة في عنق والديه، والله سبحانه تعالى الموفق .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٥٢-١٠١) : باب النهي عن الفحش، وبذاءة اللسان - الصفات الأخلاقية الحسنة التي ذكرها النبي في طبيعة المؤمن والصفات الأخلاقية المذمومة التي نهى عنها من يتصف بها في أحاديث أخرى

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٥-٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هي الغاية التي ناشدتني إلى معالجة هذا الموضوع؟ :

أيها الأخوة الكرام، عقد الإمام النووي رحمه الله تعالى، في كتاب الصالحين باباً سماه: باب النهي عن الفحش، وبذاءة اللسان .

وكما قلت لكم دائماً: إني أحاول بفضل الله تعالى، أن أعالج المشكلات التي تتفشى بين المسلمين، مشكلة المزاح الرخيص، مشكلة المزاح الجنسي، مشكلة الكناية عن العورات، مشكلة الكلام المبطن، هذا شيء شائع بين المسلمين، ويظن المسلم أنه بهذا يضحك من في المجلس أو أنه يضحكه، وفاته أن هذا يتفاوت مع السلوك القويم، يتناقض مع سنة رسول الله، يتناقض مع طهر الإنسان، يتناقض مع عفته، قضية الفحش، قضية المزاح المتعلق بالعورات، المزاح المتعلق بالعلاقة بين المرأة والرجل، المزاح المتعلق بالقسم الأسفل من الإنسان، هذا المزاح لا يمكن أن يتفق مع أخلاق المؤمن، الإيمان عفة عن المطامح، عفة عن المحارم، الإيمان لسان نظيف .

يروون: أن رجلاً له خصوم، هددهم أن يدوسهم بحذائه، فقال خصومه: نرضى أن نداس بحذائك، لأنه أنظف من لسانك .

لا يوجد شيء يصغر الإنسان عند الله وعند المؤمنين كبذاءة اللسان، كالفحش، كتسمية العورات، كالمزاح المبطن، كالمزاح الذي يحمر الوجه منه .

أنا لا أتكلم من فراغ، ذهب أحدهم في رحلة إلى القطر الشقيق لبنان، ورفاقه هم أصحاب محلات، أكثرهم يحملون شهادات عليا من دمشق إلى بيروت، مزاح جنسي، معقول**!**؟ هؤلاء هم المسلمون .

حدثني أخ كان في مؤتمر أوروبي، قال: الطاولة التي فيها مسلمون في أثناء الطعام كله مزاح جنسي، أنت مسلم ألا تستحي من الله؟ ألا تستحي من حولك؟ لولا أن هذه الظاهرة متفشية ما جعلت لها درساً، لكنها متفشية، مؤلمة .

أنا والله لا أصدق أن إنساناً يرتاد بيوت الله، ولـه اتصال بالله، وله حياء من الله، وعنده ما يسمى بالخجل، أن يجري على لسانه مزاحاً جنسياً رخيصاً .

وأنا أقول لكم هذا الكلام، ولا أعلم أن أحداً من أخوتنا الكرام يفعل هذا، لكن من باب التحذير، حتى يوجد شيء أكاد أقوله لكم: لا يجوز أن تضحك إذا تكلم أمامك بطرفة جنسية، الضحك تشجيع، ينبغي أن تنقبض، ينبغي أن تأخذ موقفًا، ينبغي أن تعلن عن انزعاجك، ألا ترى أنك تجلس مع مؤمن ثلاثين سنة، أربعين سنة، لا تسمع منه كلمة واحدة بذيئة، ولا كلمة واحدة فيها ذكر للعورات، ولا كلمة مبطنة؟.

معظم الناس دائماً يبطن، يحضر ضمير الغائب، ويقصد به عورة الرجل، أي فعل عادي ميكانيكي يلغمه، هذا لا يجوز، المؤمن بريء، المؤمن طاهر، فحينما الإنسان تسول له نفسه، أن يمزح مزاحاً رخيصاً .

مرة كنت في الحج، سمعت من بعض المسلمين مزاح، يندى له الجبين، وهم في الحرم بمكة، أنا لا أتكلم من هواء، أتكلم من واقع، هذا الذي يتوهم أنه بالمزاح الجنسي يضحك الحاضرين، إن الشيطان يوسوس له ذلك، نحن معنا سنة، معنا منهج رسول الله، ولا يمكن أن تكون مؤمناً، إلا إذا كنت متبعاً لمنهج رسول الله، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة آل عمران الآية: ٣١]

بماذا وصف النبي خلق المؤمن، وما شرح مفردتا: الطعان واللعان؟ :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِطَعَّانٍ، وَلا بِلَعَّانٍ، وَلا الْفَاحِشِ الْبَذِيءِ، وَقَالَ ابْنُ سَابِقٍ: مَرَّةً بِالطَّعَّانِ وَلا بِاللَّعَّانِ))

ما دمنا قد قرأنا الحديث، لا بد من أن نقف عند كلمة الطعان، سلوك شائن، يعني دائماً يشكك، دائماً يتهم، دائماً يطعن، والعوام لهم كلمة رائعة، كلمة باللغة الدارجة، الذي فيه شوكة تنغزه، إذا كان الإنسان غير مستقيم يتوهم أن الناس غير مستقيمين، إذا كان الإنسان مخادعًا يتوهم أن الناس مخادعون، إذا كان للإنسان ظاهر وباطن يتوهم أن الناس لهم ظاهر وباطن، أما المؤمن فكما قال عليه الصلاة السلام:

((تركتكم على بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا ضال))

المؤمن سريرته كعلانيته، وسره كجهره، وخلوته كجلوته .

لو فرضنا أنك راقبت هاتف مؤمن، وسجلت له حديث شهر، أنا مؤمن ومتأكد أنه لن تستمع إلى كلمة يستحي منها، دون أن يعلم سجل مكالمات، هو مؤمن، وأهله، لن تجد كلمة واحدة يستحي بها، لا يوجد عنده ازدواجية، لا يوجد عنده شيء، يقال في مكان، لا يقال في مكان، الازدواجية نفاق

داخله كخارجه، خلوته كجلوته، سره كعلانيته، لا يوجد عنده شيء معلن وشيء غير معلن، لا يوجد موقف رسمي، كلماته بالمثاقيل، وموقف آخر كلامه بذيء، أما عند معظم الناس فهكذا، له جلسات وحديث لا يرضي الله عز وجل .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِطَعَّانٍ، وَلا بِلَعَّانٍ، وَلا الْفَاحِشِ الْبَذِيءِ، وَقَالَ ابْنُ سَابِقٍ: مَرَّةً بِالطَّعَّانِ وَلا بِاللَّعَّانِ))

وكل شيء يسبه، الشيء الفاحش هو الشيء الذي يستحيا به .

الرسول عليه الصلاة والسلام رأى فتاة من قريباته، ترتدي ثياباً، ليست تحجب الجسم، رقيقة، قال:

((يا بنيتي إن هذه الثياب تصف حجم عظامك))

هل يوجد كلمة مثيرة؟ يوجد كلمة تثير الشهوة، العظم لا يرى اللحم، هو الذي يرى، هذا هو الحياء، لذلك ضبط اللسان جزء من الإيمان .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ، وَلا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ حتى يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أخرجه الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالك]

يقول لك رجل: أنا من هذا الجامع، الحقيقة: الانتماء للمسجد ليس انتماء إلى مكان، انتماء إلى أخلاق المسجد .

أنا لا أتصور إنساناً، يرتاد المساجد، وله مزاح جنسي، لا أتصور إنساناً له صلة بالله ويتكلم بالعورات، لا أعتقد إنساناً يقتدي بسنة رسول الله، له كلام ملغوم، يكني معظم الناس، وأنا متأكد من هذه الكلمة؛ في أعمالهم، في دوائرهم، في الأسواق التجارية، في الرحلات، دائماً كلام ملغوم ويضحكون، وشيء ممتع بالنسبة لهم، ويوجد أطفال وصغار وكبار.

أنت تعطي الطفل تنبيهًا مبكرًا لنواحي هو في غنى عنها، وتعطي الفتاة تنبيها مبكرا جداً في موضوعات، كثير هي في غنى عنها، فلذلك:

((لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِطَعَّانٍ، وَلا بِلَعَّانٍ، وَلا الْفَاحِشِ الْبَذِيءِ))

ولا تنس أنك إذا تحدثت حديثاً لا يرضى الله عنه، والذي فيه بقية حياء يخجل، والله في كلمات لو سمعتها بشريط، لامتقع لونك من شدة الخجل، تلقى في المجالس العامة، في محل تجاري، في دائرة، في سوق، في سيارة، في رحلة، وهو مرتاح جداً .

يوجد رجل أنيق جداً، تكلم كلاماً بذيئاً جداً، فقال له أحدهم: إما أن تلبس مثل كلامك، أو تتكلم مثل لباسك، هذا الكلام لا يناسبه هذه الأناقة، فإذا كان كلامك بهذا الشكل، فالبس لباسًا يتناسب مع كلامك .

دائماً المؤمن بالمعنى الدارج، مغسول ألف مرة، نظيف، دروس العلم تهذب يا أخوان.

أنا كنت أقول كلمة: لا تعرف قيمتك حتى تجلس مع رجل من سنك لا يرتاد دروس العلم، من كلمتين تكشفه، لا يوجد أدب، لا يوجد حياء، ولا خجل أبداً، لا يراعي أن هناك صغار في الجلسة، الطفل يجب أن يحافظ على حيائه، على طهارته، شيء مبكر أن ينتبه الطفل عليه، هذا الذي ذهب رحلة، وبكل الرحلة، يمزح مزاحاً بذيئاً جداً، ومعه ابنه، وابنه صغير جداً، فقلنا له: هذا لا يجوز، فقال: دعه يعرف مبكراً، بالعكس أنت تنبه الطفل إلى موضوعات، هو في غنى عنها، وبينه وبينها مسافات طويلة جداً .

يا أيها الإخوة الكرام، هذا الذي أتمناه: أن يكون مطبقًا في حياتنا، ولا أبالغ تجلس مع مؤمن سنة وسنتين، وعشرًا وعشرين، وخمسين، لا يمكن أن تسمع منه كلمة بذيئة، ويوجد أناس يقولون: لا حياء في الدين، الدين كله حياء، واقتدِ بالنبي عليه الصلاة والسلام في التعبير اللطيف .

ما وراء هذه الآيات؟ :

أيها الأخوة، يقول تعالى:

(أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً)

[سورة المائدة الآية: ٦]

هذه يسمعها مليون شخص، هذا هو كلام القرآن الكريم:

(فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آَتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الأعراف الآية: ١٨٩]

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ٥-٧]

كل الانحرافات دخلت وراء هذه الآية، يوجد علاقة مصممة من قبل خالق الكون، علاقة سوية بين الرجل وزوجته فقط، هذه مسموح بها، وهذه نظيفة، ولا تنس أنه لا يجوز للزوج ولا للزوجة إطلاقاً، أن يتحدثا بهذه الموضوعات، حتى ولو لكبار، هذا سر لله عز وجل ، قال تعالى:

(وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً)

[سورة النساء الآية: ٢١]

أقدس عقد على الإطلاق، عقد الزواج، العلاقات حميمة جداً، هذه العلاقات لا ينبغي أن تذكر، ترى ما الذي حدث في جلسات رسمية؟ في أكثر من جلسة، أينما تجلس مع أناس يعملون في الحقل الديني، الله يقويك، وهو يقصد شيئا ثانيا، هذا الكلام ليس جميلاً، هذا شغل الناس الشاغل، وهذه البرامج والفضائيات ترسخ هذا الشعور، سيصبح الإنسان كتلة تبحث عن الجنس، فكلمة موحدة للعصر، عصر الجنس، أما عصر الصحابة فهو عصر البطولات، وعصر المؤمنين عصر البطولات، وكل واحد له ذوق، وهذا الذوق الإيماني الرفيع لا يقبل هذا المزاح إطلاقاً .

يوجد كتب تدرس في الجامعات، في قسم اللغة الإنكليزية، في قسم اللغة العربية، في قسم الاجتماعيات، العورات بأسمائها دون حياء، دون خجل، فعندما الإنسان ينحرف، يدفع الثمن باهظاً.

عندهم حجة لا تقف على قدميها، الإنسان يجب أن يكون واقعياً، يمكن أن تكون واقعياً، وتعبر عن الواقع بأسلوب لطيف .

يوجد كلمة دقيقة: أن الأدب من حقه، أن يعالج قضايا اجتماعية متعلقة بالسقوط الجنسي، ولكن على نحو تنفر من الرذيلة لا على نحو تحبها، وأكثر الأعمال الفنية تعرض الرذيلة على نحو تشتاق إليها، وتحبها، وتكبر أبطالها .

إن مجتمعا بأكمله يمكن أن يسقط إذا كان هذا هو الأدب السائد، هذا يسمونه الأدب المكشوف، هذا الأدب المكشوف، مشكلة كبيرة جداً، إذا الناس تعلقوا بهذا الأدب انتهى المجتمع، هذا في اللغة التركية أدب سيس، ليس أدباً، وخطأ كبير أن تقول: هذا أدب .

((لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِطَعَّانٍ، وَلا بِلَعَّانٍ، وَلا الْفَاحِشِ الْبَذِيءِ))

انظر إلى الفرق بين الولاء والمصلحة، وما الذي يرفعك عند الله؟ :

عَنْ أَنَسٍ، أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إلا شَانَهُ، وَمَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إلا زَانَهُ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أنس]

الإنسان لماذا تصعد ميوله؟ ولماذا تستقيم حركاته وسكناته؟ من أجل أن يلقى الله، وهو عنه راض، الله عز وجل كامل لا ترقى عنده إلا بالكمال، في الأرض يوجد نظام آخر، أنت يمكن أن تكون موظفاً عند تاجر كبير درجة أولى، ورغم بذاءة اللسان لا سمح الله، ورغم الانحراف الأخلاقي، لكن عندك غلة كبيرة جداً، فصاحب المحل يحبك كثيراً، لا لأنك أنت مهذب، لا لأنك بائع جيد .

عندما يبني الإنسان علاقات الولاء على مصالحه، فهذه مشكلة كبيرة جداً، علاقات الولاء تبنى على أساس الكمال، في الحقل الديني علاقات الولاء تبنى على أساس الكمال لا على أساس

المصالح، أما على أساس المصلحة، صاحب محل تجاري، عنده صانع منحرف جداً، بذيء جداً، لكن بائع درجة أولى تجده يحبه، ويوده، في أمور الدين لن تستطيع أن ترقى عند الله إلا باستقامتك، عظمة الدين، قد ترقى عند كل الناس بما عندك من إمكانات، بقدراتك، أما عند الله بكمالك ترقى، فرق كبير أن ترقى عند الله بكمالك، وبين أن ترقى عند أهل الدنيا بقدراتك .

انظر إلى هذا التطبيق العملي لهذين الحديثين:

يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم، رأى رجل يغتسل عرياناً أمام الناس، فقال:

((خذ إجارتك لا حاجة لنا بك، إنني أراك لا تستحي من الله))

حدثني طالب، ذهب إلى جامعة، في الدول الشرقية، في موسكو، أضخم جامعة هي جامعة موسكو، دخل إلى دورات المياه، فقال: شيء عجيب، صالون مساحته خمسون متراً بعشرين متراً، يوجد به مئة مرحاض، الناس مع بعضهم لا يوجد تكليف، هل من المعقول أن يقضي إنسان حاجة أمام إنسان؟ هكذا، عندما يخلع الإنسان قناع الحياء لم يعد إنساناً، كائن يتحرك لقضاء شهوة، أو تحقيق شهوة، أما الإنسان مهذب .

((مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلا شَانَهُ، وَمَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلا زَانَهُ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أنس]

طبعاً: هذا الحديث يذكرنا بحديث آخر، عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الرِّفْقَ لا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلا زَانَهُ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلا شَانَهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأبو داود في سننه عن عائشة]

صار عندنا شيئان: الحياء والرفق يرفعان الشيء، وعدم الحياء، الفحش، والعنف، لاحظ الشاردون عن الله، العصاة تتميز أفعالهم بالفحش وبالقسوة، كلامه فاحش، وأفعاله قاسية، المؤمن كلامه منضبط، أفعاله لطيفة رحيمة .

ما أثر تربية النشء إن لم تكن على النهج المستقيم؟ وما مضمون رسالة الأنبياء في الأرض؟ :

أيها الأخوة، ما قولك أن ابناً ينشأ في أسرة، الأب مزاحه رخيص؟ وأكبر معلم هو الأب والأم، ولن تستطيع أن تقنع أولادك بشيء، إن لم تكن أنت قدوة لهم، فالكلمات الفاحشة من الأب، واللعن، والسباب، هذا يكسب الأولاد هذه الصفات، فأقرب طريق إلى تربية الأولاد أن تكون أنت القدوة، ويلاحظ البيت الهادئ، الأولاد هادئون، الأب المنضبط، الأولاد منضبطون، قلما تجد ابناً نشأ في أسرة منضبطة في الكلام، منضبطة في السلوك، والشاب منحرف، ويستقي من أمه وأبيه.

حدثونا بالجامعة، أنه أجروا تجارب على أم، ترضع ابنها بقسوة، حينما يكبر الابن، ينشأ قاسي الطباع.

يوجد شيء يغيب عن الناس، أخطر سن في التربية، من الرابعة إلى السابعة، العادات والتقاليد والمبادئ، هذه تترسب في أعماق الإنسان.

مرة قلت لكم: لي قريب كان في أمريكا، جاء زيارة في الصيف، عنده طفل صغير عمره خمس سنوات، ويظهر أنه عمل صخباً في البيت، فقالت له جدته: اركن آخذك نزهة، فركن، في المساء لم تأخذه، فقال لها: أنت كاذبة، طبعاً يوجد فيها وقاحة، ولكن يجب ألا تكذب عليه، لا تعلم ابنك الكذب، لا تقل له: إذا طرق الباب، أنا لست هنا، فيقول ابنه: قال أبي :إنه ليس هنا، كن قوياً وجريئاً، اعتذر عن استقباله، لأنه لا يوجد موعد مسبق.

يوجد قضية في اللغة، كلمة غدا، أي ذهب إلى عمله باكراً، وكلمة راح، أي عاد إلى بيته.

لو طرق باب إنسان، فقال له: الوالد موجود، فقال له: الآن راح، فقال له: سلم عليه، الطفل لم يكذب، يعني الآن جاء، فقال العلماء: هذا كذب في الفقه، أما في اللغة فقد صدق، ولكن العبرة ماذا فهم هذا الإنسان؟ فهم أنه ليس في البيت، الغدو الذهاب والرواح العودة، على كلٍ؛ الكذب على ما فهم، لا على معنى اللغة المعجمي .

أيها الأخوة، والإنسان قدر إمكانه إن لم يستطع، أن يفي بعهده أن لا يعد، أفضل ألف مرة أن لا تعد من أن تعد وتخلف، وهذا شيء دقيق في التربية وفي التعامل.

أيام صاحب محل تجاري، يأتيه موظف، فيقول له: سوف أشاركك إن شاء الله، ما هذه الكلمة أشاركك؟ دخل بعالم، وسوف يصبح صاحب محل، ويعمل ليل نهار، ويضحي، ويقدم كل شيء، وصاحب المحل تكلم كلاماً لا معنى له، ولا يقصد شيئا إطلاقاً، متى الانفجار؟ حينما يكتشف الموظف أن كلام صاحب المحل غير صحيح، يسموه إحباطاً، والإحباط شيء متعب جداً، فلذلك كلما كان إيمان الإنسان قوياً، يقتصد بالوعود، لا تعد، عد الشيء الذي بإمكانك أن تنفذه.

الأنبياء بماذا جاؤوا؟ الآن يوجد دول ,عندها صواريخ نووية، يفجرون آسيا بقنابل نووية، يوجد مخترعات، كمبيوتر، محطات فضائية، شيء مذهل، الأنبياء بماذا جاؤوا؟ هل أحضروا مطبعة ملونة؟ قمراً صناعياً؟ جاؤوا بكلمة، كلمة صادقة، الأنبياء الذين قلبوا وجه التاريخ، الذين رسخوا القيم في المجتمعات البشرية، جاؤوا بالكلمة، والكلمة أخطر سلاح، الكلمة الصادقة، والآن: الناس عندما كفروا بالكلمة، لأن هناك من تكلم ولم يصدق.

الإنسان فيه صفة، من أخطر الصفات :المصداقية، أن تكون صادقاً فيما تقول، المصداقية هي التي ترفعك عند الله وعند الناس، والإنسان إذا تكلم ولم يفعل فقد مصداقيته، فقد مكانته.

من أمراض مجتمعاتنا اليوم، وما علاج هذا المرض :

يوجد شيء آخر، يوجد مرض اجتماعي، أساسه الكلام، وهو منتشر ومتفش بين الناس، ولا سيما الشباب، هو المبالغة، كل شيء له حجم، هذه العلبة لها حجم، إذا أعطيتها حجماً قدر الجامع، فهذه مبالغة، لها أطوال؛ طول، وعرض، وارتفاع، طبعاً يوجد إنسان يقلل، ويوجد إنسان يبالغ، والموقفان غير صحيحين، حتى على مستوى المهن كلها، طبيب مثلاً، طبيب سياسته يكبر الوهم، ترى مريضاً يقع في إشكالات كبيرة من الوهم، يتصور إذا كبر الوهم، هذا الإنسان يبقى عنده، طبيب آخر يسهل كثيراً إلى درجة، أن المريض لا يلتزم بالتعليمات، كلاهما غلط .

مرض اليوم: المبالغة، العلم هو الوصف المطابق للواقع مع الدليل، لا ترقى عند الناس إلا بالموضوعية .

قال لي رجل: يوجد عندنا قيمة واحدة، هي قيمة أخلاقية، وفي الوقت نفسه قيمة علمية يلتقي العلم مع الأخلاق، إذا غضب من إنسان، يعريه من كل فضيلة، وإذا أحب إنساناً يصبغ عليه كل فضيلة .

هذه تحدث في الزواج، خاطب عنده أخلاق، فهم، نسب، حسب، ذكاء، الخطبة لا تتم، صار بذيئاً، صار يقع في الساعة، تنشأ أمراض ليس لها أصل وانحرافات، والله يعلم بماضيه، وأمه منحرفة على مهل، لأن الخطبة لم تتم، هذا خطأ كبير المبالغة .

لا تكن إنسانا كامل إلا بالموضوعية، الموضوعية نقطة لقاء بين العلم والأخلاق، الموضوعية قيمة علمية، والموضوعية قيمة أخلاقية، يعني أن تصف الشيء بحجمه، تلاحظ بعض المسلمين أو بعض المؤمنين غير الناضجين يبالغون، إذا أحب إنسانا جعله نبياً، وإذا كره إنساناً أفكاره لا كما يحب كفّره، التكفير سهل، من كفر مسلماً فقد كفر، عد إلى المليون قبل أن تقول: فلان كافر، لا نكفر أهل القبلة، إنسان يتجه نحو القبلة، هذا إنسان كافر؟ إنسان يشهد أنه لا إله إلا الله، كافر؟ إنسان يصلي الصلوات الخمس، كافر؟ أما يمكن أن يختلف معك في الرأي، لا يوجد مشكلة، الاختلاف في وجهات النظر لا يفسد علاقة الود بين المؤمنين.

لذلك: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ -قَالَهَا ثَلاثًا-))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأبو داود في سننه عن عبد الله بن مسعود]

المتنطعون المبالغون في الأمور .

انظر إلى هذا التصرف من النبي، علام يرشدنا؟:

أنا لا أقول: إن إنساناً ينجو من المبالغة، لكن بقدر إمكانك، حاول أن تكون موضوعياً بوصف الأشخاص، والإنسان إذا كره شخصاً، يهدر له كرامته كلها، ينسى كل فضائله.

تصور إنساناً صحابياً، ارتكب خيانة عظمى، أرسل كتاب إلى قريش، إن محمداً سيغزوكم، فخذوا حذركم، بربك أليست هذه خيانة عظمى، في كل النظم، في العالم القديم والجديد؟ سيدنا عمر تألم أشد الألم، وقال:

((يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال له النبي عليه الصلاة والسلام: لا يا عمر، إنه شهد بدراً، -سيدنا عمر نظر إلى الخيانة العظمى، أما النبي فنظر إلى سابقته الفضلى- سأله النبي لمَ فعلت هذا يا حاطب؟ قال: والله ما كفرت، ولا ارتددت، ولكن أنا لست لصيقاً بقريش، أردت بهذا أن تكون لي عندهم يد أحمي بها أهلي وولدي، فاغفر لي هذا يا رسول الله، فالنبي عليه الصلاة والسلام قال: إني صدقته فصدقوه، ولا تقولوا فيه إلا خيراً))

أنت تستطيع إذا عاداك رجل، وسئلت عنه أن تتكلم عن فضائله، تكون بطلاً، خصم لدود، أكثر الناس يجعله مجرماً، إذا كان إنساناً تحبه، تتعامى عن كل رذائله، هذا الموقف غير إسلامي، غير صحيح، المبالغة موقف غير إسلامي وغير علمي .

كن موضوعياً حتى لا تدخل من أصناف هذين الحديثين:

أيها الأخوة، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ -قَالَهَا ثَلَاثًا-))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأبو داود في سننه عن عبد الله بن مسعود]

لا تبالغ، أعط الإنسان حقه وحجمه، تقرأ كتاب من فلتات العصر، كتاب عادي، اللهم صل عليه، عندما رأى زيد الخير، قال:

((يا زيد، ما وصف لي رجل فرأيته إلا رأيته دون ما وصف، إلا أنت يا زيد))

الوصف يعطي هالة كبيرة، الآن بالبيع والشراء، بضاعتك تبالغ بميزاتها لدرجة أنك تحلف أيماناً، وأفضل نوع، ولا يوجد منها، وهي بضاعة عادية، فيها عدد من العيوب كبير جداً، تتوهم أنك إذا مدحت البضاعة تباع، لا يوجد إنسان غبي، أعط الحجم الحقيقي للبضاعة، هذا بالبيع والشراء لا تبالغ .

الآن: يأتي إنسان معه بضاعة ثانية، ليست من عنده، قال لي بائع: يشتري ظروف بذور من خصومه، يأتي إنسان يريد بذرة ليس عنده، يقول البائع: ماذا تريد؟ النوع الفلاني، يقول له: خذه مجاناً، هذا ليس له قيمة، ويلقيه على الأرض، حتى يصغر البضاعة المنافسة له ، موقف غير أخلاقي، وغير علمي، الرزاق هو الله عز وجل .

يوجد بعض الأساليب في الدعاية، ترفع البضاعة على حساب بضاعة ثانية، والآن ممنوعة، تمدح بضاعة، وتذم بضاعة منافسة، وعلى مستوى رسمي ممنوع هذا، أنت امدح بضاعتك، أما أن تسوء بضاعة الآخرين فهذا غلط .

الصدق أساس النجاح، لا تعتمد الكذب إطلاقاً، ولا المبالغة، المبالغة نوع من الكذب، ولكن ليس كذبا مئة بالمئة، تكبير حجم، دائماً الإنسان من ضعف إيمانه، يصغر أشياء، ويكبر أشياء، هذا معنى قوله تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى)

[سورة النجم الآية: ٣]

أنا قلت لكم هذه القصة: أريد أن أشتري ستائر، فدخلت إلى محل وقلت له: أريد ستائر لغرفة ضيوف، عرضها ثلاثة أمتار، عمل لي محاضرة، وقال لي: أستاذ لكي تكون جميلة جداً، يجب أن تأخذ عرض الحائط، ضرب اثنين زائد متر، فتكون جميلة جداً، فاخترت نوعاً من القماش، فقاسه، فكان أقل بمتر من ضعف عرض الحائط، فقال لي: هذا المطرز على الفرد أجمل بكثير، أعطاني قاعدة معاكسة فوراً، ينطق عن الهوى .

كن موضوعياً في بيعك، في شرائك، في وصفك، في تقييمك .

أحدهم ينتمي لمسجد يبالغ مبالغات غير معقولة، ويصغر أي مسجد آخر، هذا سلوك غير علمي، وغير إسلامي، وغير أخلاقي، أعط كل ذي حق حقه .

النبي رأى صهره مع الأسرى، جاء ليقاتله، قال:

((والله ما ذممناه صهراً))

كصهر ممتاز، أما الآن جاء ليقاتلنا مشرك، وبإحسانه، وإنصافه، وكماله، جلبه إلى الإسلام، وأسلم.

المحور: لا تكن فاحشاً، ولا بذيئاً، ولا طعاناً، ولا لعاناً، ولا تكن مبالغاً الأولى طبعاً، فيها انحراف خطير، أما الثانية فيها مباعدة عن الموضوعية والعلم، والمبالغة تعمل تشويشاً وتصورات خاطئة، وتعمل صدمات، وحينما تكتشف أن الواقع أقل مما قيل لك، تقع في إحباط في السفر، في الدخل، في البضاعة، في التجارة، في المعاملات الاجتماعية .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ يَبْغَضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

يوجد أناس متقعرون، فصيح فصاحة زائدة عن الحد، فصاحة فيها مبالغة، فصاحة فيها تشدق، فصاحة فيها نوع من التصنع، الإنسان يكون طبيعياً .

تطبيق عملي للكلام الذي نقوله:

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ:

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

كن طبيعياً محبوباً جداً، لا كهنوت، ولا أساليب هيمنة، لا تقدم ولا تأخر، النبي كان واحداً من أصحابه.

دخل رجل على رسول الله، فقال:

((أيكم محمد؟))

لم يعرفه، أين جالس؟ ليس له أي ميزة.

في رواية:

((قد أصبت))

وفي رواية:

((ذاك الوضيء))

كان مع أصحابه فقال:

((وعلي جمع الحطب، علي ذبحها، وعلي سلخها، وعلي طبخها ، فقال عليه الصلاة والسلام: وعلي جمع الحطب))

في معركة بدر قال:

((كل ثلاثة على راحلة، وأنا وعلي، وأبو لبابة على راحلة))

في الخندق: حفر مع أصحابه، حفر بيده في الخندق، في بدر صاحباه يركبان، وهو يمشي، ليس معقولا سيد الأمة، جاءته شاة ليأكلها في الخندق، أطعم منها أصحابه جميعاً .

ما لم يقتد العلماء والدعاة برسول الله فلن يفلحوا، دققوا لن يفلحوا، ولن تنجح دعوتهم ، وسيبتعد الناس عنهم، يجب أن تطبق السنة لمعاملة النبي لأصحابه .

من أمثلة هذا الحديث:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

يوجد في أحكام تجويد تصنع غير مقبول، ائت بالأحكام كلها، وأعط للحروف مخارجها، والمدود حقها، من دون مبالغة، من دون تقعر، من دون تصنع، وكأنك تنسى معاني كتاب الله، حينما تركز فقط على الأحكام .

ضع هذا الحديث في ميزانك أيها المسلم :

عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا))

[أخرجه الترمذي في سننه]

ذهب حسن الخلق بكل شيء، قال أحد العلماء:

((الإيمان حسن الخلق، فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك في الإيمان))

مؤمن وقح لا يوجد، مؤمن كلامه قاس، مؤمن مزاحه رخيص لا يوجد، مؤمن طعان ، مؤمن لعان لا يوجد، مؤمن فاحش، مؤمن بذيء لا يوجد، مؤمن مبالغ لا يوجد، مؤمن يذكر العورات بأسمائها لا يوجد، فمن زاد عليك بالخلق زاد عليك في الإيمان، والنبي قال:

((الإيمان حسن الخلق))

عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

تكلف، الإنسان أحياناً يجلس، ويوجد من هو أعلى منه بكثير، عنده رغبة أن يعرض عضلاته، يعرض ثقافته، تراه يقحم نفسه إقحاماً غير لائق، يوجد شخص أعلى منك، اسكت، كلما كان الإنسان عنده أدب، يدع الكلام لمن هو أعلم، أما يقتحم، يطرح موضوعاً ليس متمكناً منه، يأتي برأي بلا دليل، يأتي بحجة واهية .

أحياناً تسمع العجب العجاب، وشيء مضحك، فلذلك المتفيقه متكلف الفقه، المتشدق الذي يتقعر بالكلام، الثرثار، كان كلامه فصلاً، لا نزراً، ولا هذراً، البلاغة في الإيجاز، أبلغ كلامٍ كلام النبي صلى الله عليه وسلم، لا يوجد فيه إطناب ممل، ولا إيجاز مخل .

يوجد شخص تسحب الكلمة منه سحباً، وشخص ثرثار يهلكك في الكلام، البلاغة بين الإيجاز المخل، والإطناب الممل .

عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

أخواننا الكرام، الإنسان يحب البساطة، وقالوا: البساطة نصف الجمال، إذا كنت بسيطاً في لبسك، بسيطاً في كلامك، عبارتك بسيطة، حركاتك معتدلة، لا يوجد تصنع، لا يوجد تكلف ، لا يوجد تقعر، لا استعلاء، لا يوجد حركات غير طبيعية، تصبح محبوباً، كن طبيعياً عفوياً ، والعظماء دائماً عفويون .

خلاصة القول :

كملخص إلى هذا الدرس: أولاً البذاءة والفحش، والمزاح الرخيص، والمزاح الجنسي، والكلام المذموم، والكناية عن العورات، والمبالغة، هذه كلها تتناقض مع أخلاق المؤمن .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِطَعَّانٍ وَلَا بِلَعَّانٍ وَلَا الْفَاحِشِ الْبَذِيءِ))

هذه عبارة تفيد أنه من كانت فيه هذه الصفات، فهو بعيد عن الإيمان، وهذا شيء خطير، ويشبه هذه العبارة:

((ليس منا من خبب امرأة على زوجها))

((ليس منا من غش))

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قَالَ:

((لَا جَلَبَ، وَلَا جَنَبَ، وَلَا شِغَارَ فِي الْإِسْلَامِ، وَمَنْ انْتَهَبَ نُهْبَةً فَلَيْسَ مِنَّا))

[أخرجه النسائي في سننه]

((ليس منا من تكبر))

فكل كلمة فيها ليس منا، فيها نهي شديد .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَيْسَ الْمُؤْمِنُ بِطَعَّانٍ وَلَا بِلَعَّانٍ وَلَا الْفَاحِشِ الْبَذِيءِ))

عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلا شَانَهُ، وَمَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلا زَانَهُ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أنس]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ -قَالَهَا ثَلاثًا-))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأبو داود في سننه عن عبد الله بن مسعود]

عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: الْمُتَكَبِّرُونَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

أيها الأخوة، هذه أخلاق المؤمن، هوية المؤمن سلوكه، قد تجد في الهوية أنا فلان، والدي مسلم، ووالدتي مسلمة، أما الهوية الحقيقية هذا السمت الحسن، وهذا الانضباط في اللسان، ولولا أنني وضعت يدي على حالات كثيرة جداً في المجتمعات الإسلامية، من حيث الفحش والبذاءة، وينتمي إلى المسلمين، ويصلي، ما جعلت هذا الدرس حول هذا الموضوع.

فأرجو الله سبحانه وتعالى أن ينقلب هذا الدرس إلى انضباط، أن ينقلب إلى سلوك، أن ينقلب إلى تهذيب، أن ينقلب إلى هوية صارخة، المؤمن مضرب المثل بأخلاقه العالية، والأخلاق هي الإيمان، ومن زاد عليك بالخلق، زاد عليك بالإيمان، والأخلاقي يوجد أكثر من عشرة أحاديث صحيحة، الأخلاقية أكمل شيء في الإيمان، أكمل شيء في الإسلام، الأخلاق السيئة تفسد العمل، كما يفسد الخل العسل، هكذا .

فأرجو الله سبحانه وتعالى، أن نتخلق بأخلاق رسول الله، عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ:

((سَأَلْتُ عَائِشَةَ، فَقُلْتُ: أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَتْ: كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ))

كلامه لطيف، حركاته لطيفة، وإياكم والمبالغة، والتصنع، والأساليب التي يتوهمها الإنسان، تجلب له التعظيم، كن طبيعياً، كن واقعياً .

الصحابة الكرام على علو قدرهم، سيدنا الصديق له جيران عجائز، كان يحلب لهم الشياه، فلما صار خليفة، ليس من المعقول أن يتابع لهم العمل، مستحيل، فجيرانه تألموا في صبيحة اليوم الأول لتسلمه منصب الخلافة، يعني أعلى منصب في العالم الإسلامي، طرق باب أحد العجائز، قالت لابنتها:

((يا بنيتي افتحي الباب، فتحت، فقالت الأم: من الطارق؟ قالت: حالب الشاة يا أماه))

هل من المعقول: سيدنا الصديق، خليفة المؤمنين، الرجل الأول بعد رسول الله، يحلب الشاة لجيرانه؟ مكانتك هي هي .

هل من المعقول: إنسان يدخل على النبي، يقول:

((أيكم محمد؟))

النبي يمشي وصاحبه يركب، قال له:

((يا رسول الله ابق راكباً، قال: ما أنتما بأقوى مني على السير، ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر))

هذه أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، المؤمنون إذا طبقوها سعدوا، الدعاة إذا طبقوها سعدوا، والإنسان ينجح ويعلو في عين الناس بقدر متابعته للنبي، ويصغر ويخفق بقدر ابتعاده عن سنة النبي، والإنسان مخير، وبإمكانه أن يدرس كلماته، لا تتكلم كلاما ارتجاليا، لا تحاول أن تضحك من في المجلس، هذه الرغبة الجامحة دعك منها، لا تحاول أن تضحكهم على حساب إنسان أو على حساب طرفة جنسية رخيصة، أو على حساب تعليق، أو على حساب محاكاة، أو على حساب الطعن، أو على حساب غمز، أو على حساب همز، هذا كله محرم في الإسلام .

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟))

يجب أن نعد كلامنا من أعمالنا، كلامك عمل، اضبط عملك بضبط اللسان واللسان، صدق القائل:

احذر لسانك أيها الإنســان   لا يلدغنك إنه ثعبــان

كم في المقابر من قتيل لسانه   كانت تهاب لقاءه الشجعان

الإنسان أحياناً يدمر نفسه بكلمة غير لائقة، من دون دراسة، والإنسان كلما علا شأنه في المجتمع، يحاسب على حركاته، وسكناته، وعلى كلمة، وعلى كلمة قالها، لم يقصد منها ما أراد .

لذلك: قال عليه الصلاة والسلام:

((أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟ قالوا: لا، قال: خاطبوا الناس بما يفهمون))

اجعل عبارتك واضحة محددة، اللهم صل عليه له تعليمات مذهلة، يسير مع زوجته صفية، رأى صحابيين قال لهما:

((على رسلكما، هذه زوجتي))

البيان يطرد الشيطان، وضح، استخدم عبارة واضحة، لا تتقعر، دون تشدق، دون تفيقه، دون مبالغة، دون فحش، دون بذاءة، دون إسراف، هذا المؤمن .

والنبي قال:

((إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم))

[أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط]

أول مرحلة تتصنع الكمال، بعد ذلك ينقلب الكمال طبيعة فيك، إنما الكرم بالتكرم، الأدق من ذلك: ثمن الحلم التحلم، ثمن الكرم التكرم، أنت حينما تتصنع الكرم تغدو كريماً، أنت حينما تتصنع الحلم تغدو حليماً، حينما تتصنع الكلمة اللطيفة الراقية تغدو مهذب الكلام، والشيء المهذب راق جداً .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٥٣-١٠١) : باب بر الوالدين وصلة الرحم - ماذا عن الطبع والتكليف وما يدور حولهما؟ وماذا عن صلة الرحم وما يتصل بها من أشياء تتعلق بها؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٦-٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم هذا الفرق بين الطبع والتكليف :

أيها الأخوة الكرام، الإمام النووي رحمه الله تعالى، عقد في كتابه رياض الصالحين باباً سماه: باب بر الوالدين وصلة الأرحام .

أيها الأخوة الكرام، في الإسلام أحكام شرعية تخص الفرد وحده، وفي الإسلام أحكام شرعية تخص الجماعة، والإنسان فيه نوازع فردية، وعليه تكاليف اجتماعية، فنوازعه الفردية متعلقة بطبعه، وطبع الإنسان فردي، أما الناحية الاجتماعية فتكليفية، كيف؟ .

طبع الإنسان يميل إلى إطلاق البصر، لكن التكليف يأمره بغض البصر، طبع الإنسان يقتضي أخذ المال، والتكليف يقتضي إنفاق المال، طبع الإنسان يقتضي أن ينام، أما التكليف فيأمره أن يصلي صلاة الفجر، فالتكليف متناقض مع الطبع، متوافق مع الفطرة، طبع الإنسان فردي، والتكليف يأمره أن يتعاون، أن يتواصل، أن يتزاور، فالناحية الاجتماعية في الإسلام تكليف، أما الناحية الفردية طبع .

مثلاً: لن تجد في القرآن الكريم كله آية واحدة تحض الآباء على بر أولادهم، مستحيل ، لأن هذا مركب في الطبع، مؤمن، غير مؤمن، مسلم، غير مسلم، ملتزم، غير ملتزم، جاهل ، متعلم، أي أب حرصه على أولاده لا يوصف، يعيش لأولاده، أي أم، أما الأبناء كلفوا ببرّ الآباء، لأن هذا ليس في طبعه، بر الآباء تكليف، أما رحمة الأبناء طبع، من أجل أن تسير الحياة، من أجل أن يعيش الناس، من أجل أن يربى الأولاد، أودع في قلوب الآباء محبة الأولاد، هل تصدق؟ هل يعقل أن يصدر مرسوماً تشريعياً يأمر الناس بتناول الطعام؟ مستحيل ، السبب أن تناول الطعام شيء مركب في طبع الإنسان، فلا داعي للأمر به، كلام لا معنى له ، تحصيل حاصل، لكن الناس مأمورون ألاّ يسرفوا، قال تعالى:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

[سورة الأعراف الآية: ٣١]

الإنسان يميل أن يأكل أكثر مما يحتاج، هناك نهي عن أن يأكل كثيراً، لكن ليس هناك أمر أن يأكل، أما قوله تعالى:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا)

[سورة الأعراف الآية: ٣١]

فهذا أمر إباحة متعلق بأيام الصيام، فلذلك: الإنسان طبعه فردي، يميل إلى الفردية، يميل إلى التقوقع حول ذاته، يميل إلى تحقيق مصالحه، يميل إلى تأمين أكبر دخل له ولأولاده ، هذا من طبعه، ولا يثاب عليه، الذي يقبض المال، ويشتري الطعام ليأكل، ويشتري بيتاً واسعاً، ينام، يتزوج، ينجب الأولاد، يربي الأولاد، هذا كله من مقتضى الطبع، أما حينما تتعاون مع الآخرين، حينما تصل رحمك، حينما تبر أباك، حينما تبر أمك، فهذا تكليف، هنا تؤجر، فلذلك ورد في الأحاديث الصحيحة، وفي الآيات الكريمة نصوص كثيرة، تحض المؤمنين على التواصل، يكاد يكون النظام الإسلامي قائمًا على التكافل الاجتماعي على مستوى الأسرة .

ماذا نسمي الحركة نحو فعل الخير؟ وماذا نسمي الحركة خلافها؟ :

أعرف أخاً كريماً عنده معمل، دخله جيد جداً، أقسم لي بالله أنه ما من شاب من آل صاحب هذا المعمل إلا وزوجه، واشترى له بيتاً، هذا الذي يريده الله عز وجل، حيث يقول:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

وأنا أقول لكم: إن لم نتعاون على حل مشكلة الشباب، ربما تفشت الدعارة في كل أحياء دمشق، التعاون تكليف، أما الناحية الفردية طبع، كل واحد من دون توجيه، من دون انصياع، من دون درس علم، من دون حضور خطبة، من دون قراءة كتاب، من دون تلقي العلم في جامعة، هو حريص على دخل مرتفع، وعلى بيت مريح، وعلى زوجة جميلة، وعلى أولاد نجباء، هذا شيء طبيعي، أما حينما يزور أخته في طرف المدينة، ويتجشم المشاق ليصل إليها ، حينما يكرمها، فهذا تكليف، بذل جهداً، بذل من وقته، و بذل من ماله، وبذل من جهده كي يصل رحمه .

فالإنسان أحيانا يقصر، فتجده ينساق مع هوى نفسه، يميل إلى الراحة، إلى المكوث في البيت، إلى قطيعة الناس، كم من أخت فقيرة لها أخ قريب لا يزورها في العام مرة، شأنها ضعيف، زوجها فقير، أسكنها خارج دمشق، نسيها الأخ الكبير، يمشي مع طبعه، وطبعه فردي، عنده كل يوم حفلة، ولقاء، وسهرة، ونزهة، واجتماع، وموائد تقام، أخته فقيرة، قد يستحي بها، يستحي بزوجها، فكل إنسان يتحرك مع طبعه لا قيمة له مع الله، أما الذي يتحرك مع التكليف فهذا هو الحق .

أحياناً: يدعى الإنسان إلى عقد قران فاخر جداً، في أرقى صالة، أو في أرقى فندق، طبعاً يلبي الدعوة تلبية بحذافيرها، يأتي في الوقت المناسب، يرتدي أجمل ثياب، تلبية دعوات الأغنياء من الدنيا، أما لو دعاك صديق أقام عرساً بمنطقة نائية، والعرس في الطريق، وكرسي وكأس شاي تذهب، وتتكلف بنزينًا بمئتي ليرة، وتلبي دعوة إنسان فقير؟ هنا المشكلة ، تلبية دعوة الفقراء من

الآخرة، وتلبية دعوة الكبراء من الدنيا، إذا لبيت دعوة الأغنياء بالشيراتون أو الميريديان أو الشرق، وفيه ضيافة فخمة جداً، وفرقة منشدين من الطراز الأول ، وهناك كلمات، وهناك زهور وورود، أما إذا كان العرس في قرية، ولو كان لقريبك، لو كانت أختك، لو كان صديقك، لو دعاك طالب علم.

ويشهد الله أني مرة لبيت دعوة طالب علم أول جادة من فوق، في مكان توقفت السيارة، وتابعت المشي على الأقدام، ما أكلت طعاماً أخشن ولا أبسط من هذا الطعام في رمضان، على بساط بلاستيكي، شربت الماء في كأس الشاي، شهد الله ما لبيت دعوة وكنت بها سعيداً كهذه الدعوة، صار فيها تجلٍّ عجيب، طالب علم يقول: هل من الممكن يا أستاذ إذا دعوناك اليوم أن تلبي؟ فقلت: آتي، على عيني، من أنا حتى لا آتي؟ .

فأنت لا تعرف لمّا تلبي دعوة متواضعة، دعوة مؤمن صادق كم تشعر بسعادة؟ وكم يتجلى الله على قلبك؟ وقد تدعى إلى قصر النبلاء، مع أن هذا القصر لا يرتاده النبلاء، يرتاده غير النبلاء، لكن فيه فخامة كبيرة جداً .

أردت من هذا الكلام أن أقول لكم: الفردية طبع، والجماعية تكليف، فأنت تتعاون وتلبي دعوة أخوانك، وتصل رحمك، لك أخت فقيرة، لك ابن عم فقير في طرف المدينة، في العيد ماذا تفعل؟ تلبي وتزور الكبراء في حي المالكي، يجب أن تزور الأقرباء بصرف النظر عن مستواهم الاقتصادي، أنت لا تعرف لما تزور إنساناً هو في السلم الاجتماعي في الدرجة السفلى، كم تدخل على قلبه من السعادة؟ .

أنا قال لي سائق: مرضت، وأسكن في قرية، في حوران، وزير بعث ابنه ليزور سائقه، قال لي: أموت ولا أنسى هذه الزيارة التي سعدت بها، لم ينس، بعث لي ابنه ومعه هدية أمام أهل قريتي، فأنا مهم جداً، فلا تعرف قيمة الزيارة، وعيادة المريض، وصلة الرحم، هذا تمهيد .

هل يقصد بصلة الرحم الزيارة فقط؟ لكن ماذا تعني؟ :

أيها الأخوة، والذي أريد أن أقوله لكم: حينما يصل الإنسان رحمه فهو ينفذ أمر الله عز وجل، ماذا قال الله عز وجل؟ قال تعالى:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً)

[سورة النساء الآية: ٣٦]

المؤمن الصادق يزور أقاربه، يزورهم واحداً وَاحداً، أكثر الناس يتوهمون القريب أن يزوره فقط، هذا فهم ساذج، الزيارة من منطلق أن تزوره، ثم تتفقد أحواله، ثم تساعده في الدنيا، ثم تأخذ بيده إلى الله، هذا بالضبط معنى صلة الرحم .

نزور بنت الأخت، نزور ابن الأخ، نزور ابن خالة، وبنت الخالة، أزوره لأرفع معنوياته، ثم أتفقد أحواله المعيشية، ثم أساعده، ثم أدله على الله، أحد أبواب الجنة صلة الرحم ، تبدأ بالزيارة وتنتهي بالهداية، هذا هو المعنى العميق لصلة الرحم، لا أن تفهم صلة الرحم زيارة فقط، إذا زرت إنساناً، والعين بصيرة، وما قدمت شيئاً، ماذا فعلت؟.

هذه هي صلة الرحم :

أيها الأخوة، بالمناسبة: الله عز وجل أحياناً يفتح على أشخاص باب الغنى، بعض الأغنياء هناك سبب لغناهم، لأنهم يتفقدون أرحامهم، يصلونها، يدفعون المال، موسم المدارس ، موسم الشتاء، موسم الأعياد، الأسرة كبيرة، والدخل محدود، وأنت تاجر، إذا زرت أختك، أو بنت أختك، بنت خالتك، بنت عمك، الأقرباء الذين أوصلك الله بهم، فإذا زرتهم، وتفقدت أحوالهم، ثم ساعدتهم، ثم دللتهم على الله، فهذه هي صلة الرحم الحقيقية .

أنا لا أنسى صديقاً من أصدقائي، أخاً كريم من أخواننا، وهو مهندس، زار أخته مرة، فرأى بينها وبين زوجها خصومة على مبلغ من المال تتمناه أن يعطيها إياه كي تقوم بحاجات بناتها، والزوج دخله محدود، ويقول: هذا الراتب لا يكفي طعامنا، فدبّري شأنك دون أن تأخذي شيئاً، واشتدت الخصومة، فتبرع بمبلغ من المال، يقدمه لهذه الأسرة شهرياً، مع أن دخله محدود، قال: أدفع ثلاثمئة ليرة في الشهر، قال: أول شهر أطرق باب أختي، وأقدم لها المبلغ، على ستة أشهر، قال: والله طلبت هي مني أن ألقي على بناتها درساً، حدثت بآية أو حديث، قصة عن الصحابة، صار عندهم درس، وطلاقة لسان، وفائدة، قال: ما مضت سنة أو سنة ونصف، إلا أن كل بنات أختي تحجبن .

هذه صلة الرحم، صلة هداية، صلة مساعدة، بدأ بالزيارة، وتمر بتفقد الأحوال، كيف أنتم؟ كيف وضعكم؟ كيف الأولاد؟ وكيف دراستهم؟ هل عليكم ديون أو مشكلة؟ هذا المؤمن، طبعا عليهم دين، وتستطيع أن تساهم في سداد هذا الدين بجزء من مالك، معك ألف أو ألفان قدمتها لأختك .

أحد أخواننا بالبزورية قال: معي خمسة آلاف في آخر الشهر، وضع صعب جداً، اتصلت به أخته، وقالت: أريد خمسة آلاف، قال: وقعت في صراع، هذه الخمسة لآخر الشهر ، وأختي طلبت مني، ماذا أفعل؟ وقعت في صراع، فغلب حبي للخير على حاجتي للمال، قدمت لها هذا المبلغ، يقسم بالله العظيم دخل إلى محله تجاري، جاءه إنسان من السعودية، عندك هذه البضاعة؟ فقال: لا، قال: أين

أجدها؟ قال: في المعمل الفلاني، قال: خذن إليه، فوصل إلى المعمل، هذا الأخ يريد البضاعة الفلانية، في اليوم الثاني بعث له عشرة آلاف، يبدو أنه اشترى صفقة كبيرة، قدم له عشرة آلاف، قال: أنا ترددت في دفع المبلغ .

وأخ ثان له ابن عم توفي، وهو أخواننا الكرام، قال لي: زرت البيت، والميت على المغسل، ابن عمته دكتور في الجامعة، فسأل أولاده: هل على أبيكم دين؟ قالوا: نعم، قال: استحييت أن أقول لهم كم؟ قلت لهم: الدين علي، قال: في ذهني عشرة آلاف، أو عشرون، أو خمسة وعشرون، أو ثلاثون.

في اليوم الثاني، علم أن الدين مئة وثلاثون ألفاً، قال: والله دفعتها حبا وكرامة، والله ذكر هذه القصة في صحن جامع النابلسي وبكى، في يوم السبت، وكانت الجنازة يوم الخميس ، يوم السبت بعنا في هذا الموسم السيء مع كساد الأسواق، نصيبي من الربح الصافي، في اليوم الواحد مئة وثلاثين ألفا، وهم ثلاثة شركاء، قال تعالى:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ)

[سورة سبأ الآية: ٣٩]

درسنا اليوم صلة الرحم، لك أخوات بنات، لك بنات أخوات، لك أولاد عم فقراء مكسورين، يجب أن تزورهم، ويجب أن تتفقد أحوالهم، ويجب أن تعينهم، ويجب أن تأخذ بيدهم إلى الله، هذا هو موضوع درسنا اليوم .

اسمع هذا الحكم الشرعي :

أيها الأخوة، قال تعالى:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى)

[سورة النساء الآية: ٣٦]

بالمناسبة: لا تُقبل زكاة مال أحدكم وفي أقربائه محاويج، فمن أولى الناس بالزكاة؟ أقرب الناس إليك نسباً، هم أولى الناس بالزكاة، طبعاً ما عدا الأب والابن والزوجة، وما سوى ذلك، يجوز أن تدفع الزكاة لهم، دفع الزكاة لهم لها أجران؛ صدقة وصلة في وقت واحد، قال تعالى:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)

[سورة النساء الآية: ٣٦]

ماذا تستنتج من هذا الكلام؟ :

أيها الأخوة، قال تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)

[سورة النساء الآية: ١]

كنت مرة في الخليج عند مدير شركة ضخمة، جاءه هاتف، فقال: حاضر، حاضر، بعدما وضع السماعة، قال لي: أتعرف من خبرني؟ عنده ابن له خمس سنوات، قال له: تعال وأوصلني إلى رفيقي، قال: حاضر، عنده حوالي خمسين مهندساً تحت يده، فقلت: سبحان الله**!** ما هذه الرحمة التي أودعها الله في قلوب الآباء؟ كيف يتدلل الابن على أبيه، ويطالبه بعنف؟، قال له: تعال وأوصلني إلى رفيقي، وعمره خمس سنوات، وأبوه مدير شركة ضخمة، قال له: حاضر، انظر إلى الآية:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)

[سورة النساء الآية: ١]

لولا أن الله أودع في قلوب الآباء هذه الرحمة، لما تجرأ الابن أن يسال أباه بجد وعنف .

هناك قصة رمزية، ولكنها مؤثرة جداً: سيدنا موسى رأى أمًّا تخبز على التنور، وعلى طرف التنور ابنها، تضع الرغيف في التنور، وتقبله، وتضمه، وتشمه، قال:

((يا رب ما هذه الرحمة؟ قال: هذه رحمتي أودعتها في قلب أمه، وسأنزعها ــالقصة تعليمية ــ نزع الله الرحمة من قلبها، فلما بكى ألقته في التنور))

هذه القصة كلها، إذًا: هذه الرحمة من الله عز وجل، قال تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ)

[سورة النساء الآية: ١]

لولا أن الله أودع في قلب الآباء هذه الرحمة، لما تجرأ ابن أن يسأل أباه، يسأله، ويلح عليه، ويطالبه، وأحياناً: يكون في سؤاله قسوة .

من هم الأرحام؟ :

ويقول الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ)

[سورة الرعد الآية: ٢١]

الرحم بالمعنى الفقهي الدقيق: الأقرباء من طرف الأب، أو من طرف الأم، أقرباؤك، أعمامك، أولاد أعمامك، أخواك، أولاد أخوالك، عماتك، أولاد عماتك، من طرف الآباء والأمهات، هؤلاء الرحم، وصلة الرحم تزيد في الرزق .

إليكم هذه الأحاديث التي وردت في صلة الأرحام :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إنَّ اللَّهَ تعالى خَلَقَ الْخَلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنهم، قامت الرحم، فقالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنْ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فذلك))

ثم قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فاقرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم)))

[أخرجهما البخاري ومسلم عن أبي هريرة في الصحيح]

أحيانا يغتني الإنسان، ويكبر حجمه، وينسى أقرباءه، صدقوني: كم من الأعمام معهم مئات الملايين، وأولاد أخوته، يموتون من الجوع؟ هذه مشكلة كبيرة جداً .

إنسان في بحبوحة، وأولاد أخوته، يموتون من الجوع، أحياناً: ينفق مئات الألوف ليقول الناس: محسن كبير، فإذا سأله أولاده سؤالاً، ضاق بهم ذرعاً.

((أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فذلك))

ثم قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((فاقرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: (فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم)))

[أخرجهما البخاري ومسلم عن أبي هريرة في الصحيح]

وفي رواية للبخاري، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الرَّحِمَ شَجْنَةٌ مِنْ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ اللَّهُ: مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح عن أبي هريرة]

العلاقة النسبية ثمينة جداً، أحياناً أخوين، أحدهما في قمة المجتمع، والثاني في الحضيض، أحياناً ابن عم لك بحاجة لك، ابن خالة لك بحاجة إليك .

عَنْ أبي هريرة رضي الله عنه:

((أن رجلاً قال: يا رسولَ الله، إن لي قرابة، أصلِهُم ويقطعونني، وأُحْسِن إليهم ويُسيئُون إليَّ، وأحلُم عنهم، ويجهلون عليَّ؟ قال: لئن كنتَ كما قلتَ فكأنما تُسِفُّهُم المَلَّ، ولن يزال معك من الله ظهير عليهم ما دُمتَ على ذلك))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

كأن النبي أعجب بهذا الإنسان، الذي يحسن ويساء إليه، ويكرم ويمنَع عنه، ويصل ويقطعونه، لذلك أخلاق الأنبياء كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أمرني ربي بتسع؛ خشية الله في السر والعلانية، وكلمة العدل في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأعفو عمن ظلمني، وأعطي من حرمني، وأن يكون صمتي فكراً، ونطقي ذكراً، ونظري عبرة))

خلاصة القول :

أيها الأخوة، ملخص الدرس: صلة الرحم أمر تكليفي، جزاؤها في الدنيا أنها تزيد في الرزق، من أراد أن يكون في بحبوحة في رزقه فليصل رحمه، والصلة زيارة، ثم تفقد، ثم معاونة، ثم هداية إلى الله عز وجل .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٥٤-١٠١) : باب النهي عن التباغض، والتقاطع، والتدابر - نداء رباني للمسلمين- مجموعة أحاديث تخص هذا النداء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٦-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

في أي باب وردت هذه الآية في كتاب النووي ؟ :

أيها الأخوة الكرام، عقد الإمام النووي باباً، في كتابه رياض الصالحين، سماه باب: النهي عن التباغض، والتقاطع، والتدابر، وافتتح هذا الباب بآية كريمة، هي قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[سورة الحجرات الآية: ١٠]

وأقدس علاقة بين رجلين هي: علاقة الأخوة الإيمانية، لذلك: هذه العلاقة لا تحتمل أي شائبة، والله عز وجل حينما قال:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

الأصل في العلاقة بين المؤمنين هذه الأخوة، فإن لم تكن كذلك، فهي حالة مرضية، تقتضي المعالجة والدليل، قال تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[سورة الحجرات الآية: ١٠]

إليكم محتويات هذا الحديث :

أيها الأخوة، الحديث الذي يقصم الظهر، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ، وَالصَّلاةِ، وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ))

[أخرجه أبو داود والترمذي في سننهما عن أبي الدرداء]

ويُرْوَى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((هي الحالِقة، لا أقول: هي تحلِقُ الشَّعْرَ ، ولكن تَحْلِقُ الدِّين))

[أخرجه أبو داود والترمذي في سننهما عن أبي الدرداء]

هل تصدق: أن سوء العلاقة مع أخيك، قد تنسف لك إيمانك كله؟ وهذا نص حديث رسول الله، سوء العلاقة مع أخيك، قد تنسف لك إسلامك، وقد تنسف لك إيمانك، وقد تنقلك من الإيمان إلى غيره، ومن الطاعة إلى غيرها، ومن الإقبال على الله إلى الإدبار والقطيعة.

يا أيها الأخوة الكرام، لعل أجمل ما في الحياة: أخ في الله، تحبه ويحبك، وتنصحه وينصحك، وتزوره ويزورك، وتخدمه ويخدمك، وتخلص له ويخلص لك، وتعينه ويعينك، لست وحدك في الحياة، إنك مع فريق من المؤمنين، مشكلتك مشكلتهم، قضيتك قضيتهم، ما يؤلمك يؤلمهم، ما يسعدك يسعدهم، هذا مجتمع المؤمنين، وإن لم يكن كذلك، فلسنا مؤمنين، هذا من أخص خصائص المؤمنين، إن لم تكن مع أخوانك كذلك، فلست مؤمناً، قال تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[سورة الحجرات الآية: ١٠]

لذلك: أيها الأخوة، كل إنسان يعلم علم اليقين بفطرته: أن هذه الكلمة تباعد بينه وبين أخيه، وإن هذه الكلمة تقرب بينه وبين أخيه.

استنتج :

سيدنا الصديق حين مر بالطريق، ورأى صحابياً اسمه حنظلة، رآه يبكي، قال:

((مالك يا حنظلة تبكي؟ قال: نافق حنظلة، قال: ولمَ يا أخي؟ قال: نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين، فإذا عافسنا الأهل ننسى- .

دققوا: سيدنا الصديق،

((ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر))

((سدوا كل خوخة علي إلا خوخة أبي بكر))

((ما ساءني قط فاعرفوا له ذلك))

هذا القمة، العملاق في الإسلام، يخاطبه صحابي عادي، تتبدل أحواله تبدلاً كبيراً بين أن يكون مع رسول الله، وأن يكون في بيته- قال له: أنا كذلك يا أخي))

انظر إلى هذا التواضع والأنس، أحياناً: يشكو أخ لك ابنه، فتقول له: أنا ابني، -والحمد لله- هذه لا يعملها، هناك مشكلة عامة، أكثر الأسر كذلك، الطفل بهذا السن، يكون نوع من الطيش.

دائماً: الإنسان يتواضع لا يتعالى، فالصحابة الكرام كانوا في أعلى درجات الحب .

ما الذي ينقص المسلمون اليوم؟ :

أيها الأخوة، أقول لكم دائماً: ينقصنا الحب، المساجد موجودة، المكتبات بعدد مخيف، الأشرطة، الأفلام الدينية، المحطات الفضائية، المناقشات، الحوارات، علماء كبار، مراكز علمية عالية، كل شيء موجود، ولكن لا يوجد الحب في الله.

ذهب إنسان إلى بلد، اشترى محلاً تجاريًا بسرعة، لا يوجد فروغ، رأساً جاءه هاتف وفاكس، الاستيراد سهل جداً، البضاعة تأتي، ثم تخلص، ثم ينشأ لها إجازة بعد أن تأتي، يكاد يختل توازنه لكثرة التسهيلات، كل شي مؤمّن، لكن اكتشف حقيقة، أنه لا يوجد زبائن، ألغيت التجارة .

رجل خطب ابنة الملك قال: أنا وأمي وأبي موافقون، لكن هناك عقبة صغيرة، أن توافق هي وأمها وأبيها، إذا لا يوجد حب، لا يوجد مجتمع مؤمن .

دائماً: يا أخواننا الكرام، لا نستهلك طاقاتنا فيما بيننا، إذا غضب الله علينا، جعل بأسنا بيننا.

على مستوى شركة، إذا كان فيها خلاف تنتهي وتحلُّ، لأن المفروض أن يتعاونوا على حل المشكلات الخارجية، فإذا وُجد خلاف فيما بينهم، ضاعت طاقاتهم وقدراتهم فيما بينهم، وأصبح عدوهم قوياً.

أنا ألح على ذلك، أحب أن يكون المسجد كتلة واحدة كالجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى، شعار المؤمنين إن صح التعبير: الكل لواحد، والواحد للكل .

أحياناً: أشعر بغبطة ما بعدها غبطة، شاب من أخواننا تزوج، ترى الأخوة أعانوه، درسوا ما ينقصه، قدمت له الهدايا، هذا قدم له برادًا، وهذا ثريا، وهذا سجادة، أعانوه على تأثيث البيت، على شراء الأغراض، الحياة مع المؤمنين والله جنة، من المودة، والتعاون، والتناصح، والوفاء.

فأنا أغتبط، وأشعر بسعادة لا تقدر بثمن، حينما أرى التعاون والحب والود، وأتألم ألماً لا حدود له، حينما أرى البغضاء والشحناء والأحقاد، هذا ليس من أخلاق المؤمنين في شيء، قال تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

[سورة الحجرات الآية: ١٠]

ما هو وجه التطبيق لهذا الموقف الذي اتخذه عمر بن الخطاب؟ :

أيها الأخوة، سيدنا خالد، ماذا فعل سيدنا عمر معه؟ قال له:

((لِمَ عزلتني؟ قال له: والله يا بن الوليد ما عزلتك إلا مخافة أن يفتتن الناس بك، لكثرة ما أبليت في سبيل الله))

الذي يبتغي وجه الله لا يعنيه الموقع، يعنيه العمل، والذي يريد الدنيا يعنيه الموقع، فلذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة الآية: ٥٤]

أنا سمعت كلمة أطرب لها: إذا عز أخوك فهن أنت .

أنتم في وفد، تقبلوا شخصًا، أخوك تكلم كلاماً طيباً، وكلاماً جيداً، وكلاماً مقنعاً، وطليق اللسان، وأنت ما تكلمت ولا كلمة، ولكن أخاك قام بالغرض، ولو كنت في التعتيم، وهو تحت الأضواء، فنحن أسرة، الوفود دائماً يدخلون ثلاثين، ويتكلم واحد منهم، يختارون أفضل إنسان، أكثرهم فصاحة، أكثرهم جرأةً، أكثرهم حكمةً، أكثرهم طلاقةً، يتكلم، والباقي صامتون جميعاً، ولكن هذا تكلم بلسانهم جميعاً، وحقق الهدف، فإذا عز أخوك فهن أنت، هذا الذي يريد وجه الله.

من هو المؤمن؟ ومن نصيره؟ :

أيها الأخوة، المؤمن ولي من أولياء الله، لأن الله عز وجل يقول:

(فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

[سورة المائدة الآية: ٦٩]

فهذا الولي من نصيره؟ الله جل جلاله، من خصمك دونه؟ الله جل جلاله، الإنسان يعد إلى المليون قبل أن ينال مؤمناً، هذا مؤمن .

بالمناسبة: لو أن إنساناً قتل مؤمناً، فهو في جهنم خالداً مخلداً إلى أبد الآبدين، قال تعالى:

(وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً)

[سورة النساء الآية: ٩٣]

من لوازم المسجد في الإسلام :

الآية الثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة الآية: ٥٤]

تواضع فيما بينهم، لو أن إنسانًا مؤمنًا، مديرَ عام، ومن باب الصدف كان حاجبه مؤمنًا، والله لا يستطيع هذا المدير العام، أن يستعلي على هذا الحاجب ولا درجة، هذا مؤمن، مواقع مختلفة، أما المرتبة فواحدة، ولحكمة أرادها الله عز وجل في المساجد، وفي الحج لا توجد مراتب دنيوية، يكون الإنسان مدير عام، عنده مكتب، عنده موظفون، ومكتب، وعنده خدم وحشم، يأتي إلى المسجد يوم الجمعة، قد يأتي الحاجب في أول صف، وهو في آخر صف، نحن في المساجد ليس عندنا مراتب .

دخل الإنسان إلى بيت الله فهو مؤمن، مثل الحج يقولون: يا حاج، يكون هذا الحاج غنيًا، ضابطًا كبيرًا، معاون وزير، اسمه حاج، وأنت في المسجد اسمك مؤمن، فإذا وجدت مراتب دنيوية يدعها

المؤمن خارج المسجد، نحن نريد أن نعيش الإسلام، أن نعيش التعاون، أن نعيش التواضع، أن نعيش التكاتف، أن نعيش التواضع، هكذا علمنا النبي عليه الصلاة والسلام .

ما فحوى هذه الآية؟ :

الآية الثالثة: قال تعالى:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)

[سورة الفتح الآية: ٢٩]

الآن لا يوجد عمل فردي، الإنسان كفرد ضعيف، حتى في التجارة، حتى في الصناعة، حتى في أي عمل، الفرد ضعيف، والآن في العالم لا يوجد حياة إلا للتجمعات، الأجانب أدركوا هذه الحقيقة، أوروبا كلها سوف تصبح دولة واحدة، الدول عندما تكون فرادى تؤكل واحدةً واحدة، فإذا اجتمعت أصبحت كتلة كبيرة، هذا على مستوى الدول، على مستوى الأعمال: الفرد غير ناجح، ولا بد من التعاون .

يقول لك أحدهم كلمة مؤلمة جداً: فلان جيد، أما إذا شاركته فلا يكون جيداً، معنى هذا أنه في الأصل ليس جيدًا، الجيد جيد بالعلاقة الحميمة، الجيد جيد بالسفر، الجيد جيد بالمحاككة، بالدرهم والدينار، الجيد جيد في النزهة، الجيد جيد بالمجاورة .

قال له:

((أتعرفه؟ قال: نعم، -زكاه- قال: هل سافرت معه؟ قال له: لا، قال: هل جاورته؟ قال: لا، قال: هل حاككته بالدرهم والدينار؟ قال: لا، قال: أنت لا تعرفه))

سيدنا عمر أديب، قال له:

((يا هذا إني لا أعرفك، ولا يضرك أني لا أعرفك))

قد تكون أحسن مني، إذا لم يعرفك فليس المعنى أنك سيء، لا .

أكثر كلمة مؤثرة، لما جاءه رسول من معركة نهاوند، وقال له:

((مات خلق كثير، قال له سيدنا عمر: من هم؟ قال: إنك لا تعرفهم، فبكى عمر، وقال: ما ضرهم أني لا أعرفهم، إذا كان الله يعرفهم))

سيدنا الإمام الشافعي يقول:

((أنا أتمنى أن يلقى علمي على الناس دون أن يعزى إلي))

أخ كريم، قال لي: سمعت هذه الخطبة كثيراً تأثرت بها، أتسمح لي أن ألقيها خطبة كما هي، قلت له: ألقها كما هي، فقال: لا أستطيع أن أذكر الاسم، قلت له: مستحيل أن تقول للناس: هذه الخطبة من فلان، اعزها إليك، وأنا أسامحك، أنا أريد هذا الحق أن ينتشر بين الناس.

قال لي أخ: أنا كنت في بلدة في محافظة، وخطيب المسجد يلقي خطبة كلمة كلمةً من كتابك، قلت له: هذا شيء يسعدني، في الإسلام حقوق النشر لكل مسلم، الإخلاص لله يقتضي هذا، أنا لا أريد اسمًا، ولا مكانة، والناس يعرفون أنه من عندي، خذ هذا الكتاب، وألق ما فيه من الخطب إلى ما شاء الله، وأنت في حل من أن تعزو هذا إلى صاحبه، العبرة الإخلاص . أنا لا أتكلم من فراغ، أنا أسعد كثيراً عندما أرى الأخوة في تعاون، ويؤلمني أن أرى التباغض والألم بينهم.

قبل أن نغادر الآية:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآَزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً)

[سورة الفتح الآية: ٢٩]

دقق: على من كانوا أشداء؟ على الكفار، هذا التعاون يجعلهم في قوة، والإنسان حينما يتعاون مع أخيه، يصنع المؤمنون شيئاً ثميناً، أما إذا لم يتعاونوا فهم فرادى، بيت الشعر المشهور:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسرت أحادى

وأساساً: العدو فرّق تسد، هذا شغله الشاغل .

لو لاحظتم مثلاً بريطانيا استعمرت الهند، أبقت مقاطعة مع بلد لا تنتمي إليها، معنى هذا أنه هناك مشكلات لا تنتهي لمئة سنة قادمة، ويوجد حروب، وتفجير نووي، السودان أبقوا جنوبه، هناك تخطيط في العالم لخلق مناطق متوترة باستمرار، هذه تفرق الناس، تبدد قواهم، وتجعل بأسهم بينهم، يشترون سلاحاً، ويعيشون على أنقاضنا، لذلك قال تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة الأنفال الآية: ٤٦]

هناك في الشام معمل أدوية، بمعلوماتي الدقيقة: يكاد يكون أول معمل من حيث القفزة النوعية في صناعة بعض الأدوية، هذه الحبوب كانت تضغط من خلال السبيرتو، السبيرتو محرم، وتمكن

طبيب مسلم أن يستخدم طريقة بالماء، يضغط الحَب، ويؤدي المفعول نفسه، ويكاد يكون الأول في الشرق الأوسط، انهار المعمل وأغلق بخلاف بين الشركاء.

الخلاف يضعف الأمة، يضعف الشركات، يضعف الجوامع، يضعف المسلمين، دائماً حاول أن تتعاون، لا أن تتنافس، حاول أن تكون أنت وأخوك رقمًا كبيرًا، لا تكن أنت وأخوك جُداء داخليًا، اجعله مجموعًا لا يكون ضربًا.

إليكم شرح هذا الحديث :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لا تَبَاغَضُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ أَخْوَانًا، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ))

لا تباغضوا: البغض شعور داخلي، كيف يضبط؟ لا تحب فلانًا، وحب فلانًا، الإنسان ليس مسيطراً على مشاعره .

معنى الحديث: لا تعمل عملاً يؤدي إلى البغضاء، النبي صلى الله عليه وسلم ذكر أشياء كثيرة، إذا دعاك أخوك فيجب أن تلبي دعوته، إذا مرض فعليك أن تعوده، إذا استقرضك فعليك أن تقرضه، إن استعانك فعليك أن تعينه، إن أصابه خير فعليك أن تهنئه، إن أصابته مصيبة فعليك أن تعزيه، إن طلب الإعانة أعنته، هذا المؤمن، أما إذا دعاك ولم تلبه، ذكرته بسوء في غيبته، قصرت في واجبك اتجاهه، فقد عملت بأسباب البغضاء، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تَبَاغَضُوا وَلا تَحَاسَدُوا...))

الحسد دليل نقص العلم، لأننا كلنا عباده، والله عز وجل:

(وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً)

[سورة النساء الآية: ٣٢]

ملك الملوك إذا وهب قم فاسألن عن السبب

اسألوا الله من فضله، وبدل أن تستهلك طاقاتك بالحسد، استهلكها بطاعة الله، حتى يعطيك الله عز وجل، والحسود دائماً مغلوب ومهزوم، والحسود محجوب عن الله عز وجل، والمؤمن يتمنى لأخيه كل خير.

((لا تَبَاغَضُوا وَلا تَحَاسَدُوا وَلا تَدَابَرُوا))

يمكن أن يسير أخوك على الرصيف اليمين، وأنت على اليسار، فتنتقل من رصيف إلى رصيف كي تسلم عليه، موضوع السلام شيء عظيم .

النبي علمنا، إذا كان المسلمان يسيران معاً، وفرقت بينهما شجرة، فإذا التقيا بعدها، يقول أحدهما: السلام عليكم .

أحياناً: يسير رجلان، ركبا سيارة، يقولان: السلام عليكم، هذه الكلمة؛ اسم السلام، اسم الله عز وجل، افشوا السلام تسلموا، السلام يقرب القلوب.

((لا تَبَاغَضُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ أَخْوَانًا))

لماذا خلق الله الكون؟ وهل لهذا السؤال علاقة بالحديث؟ :

أيها الأخوة، كل الذي أتمناه على الله عز وجل، أن تنقلب هذه الحقائق إلى سلوك يومي، الحب سر الحياة، الكون لماذا خلقه الله؟ .

دقق الآن: ما هو الكون؟ هو ما سوى الله، الله عز وجل هو الذات الكاملة، وما سوى الله هو الكون، في القرآن اسمه السموات والأرض، التعبير القرآني عن الكون، هناك تعبير علمي حديث، هو الكون، الكون ما سوى الله، لماذا خلق الله الكون؟ هذا أضخم سؤال، ليسعد مخلوقاته، فالحب هو الأساس، والله عز وجل خلق مخلوقاته، لا أقول: عباده، مخلوقاته؛ الشمس، والأرض، والتراب، والصخر، والحيوانات، والطائر، والسمك، والدليل القوي، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[سورة هود الآية: ١١٩]

الإسعاد هو الأصل، معنى هذا: أنه يوجد حب، يلاحظ الأب .

مرة كنت في الخليج، أزور رجلا مدير شركة ضخمة جداً، الهاتف قرع، فقال له: حاضر، قال لي: أتعلم من يكلمني؟ عنده ابن عمره أربع سنوات، قال له: تأتي، وتأخذني إلى صديقي، وتحت يده ثلاثمئة موظف .

أنا والله دمعت عيني، تأثرت، لأن الله سبحانه وتعالى أودع في قلب الآباء رحمة، حيث إن الابن يتدلل، يعرف مكانته عند أبيه، ويعرف مكانته عند أمه، هذا الطلب بالإلحاح، وهذا من رحمة الله الذي أودعها في قلوب الآباء.

فلما يرى الإنسان هذه الرحمة.......

والقصة المشهورة التي تروى في الكتب، ولها معنىً كبيراً، وإن لم تكن وقعت: أن سيدنا موسى كان يسير في الطريق، فرأى أمًّا تخبز في التنور، وابنها على طرف التنور، كلما وضعت الرغيف في التنور ضمته، وشمته، وقبلته، فعجب هذا النبي الكريم من رحمة هذه الأم بولدها، فسأل الله عز وجل، فقال:

((هذه رحمتي أودعتها في قلبها، وسأنزعها، فلما نزع من قلبها رحمة بكى ابنها، فألقته في التنور))

انتهت العملية.

الله عز وجل في الأصل خلق الكون ليسعده، الحب هو الأساس في الكون، والآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة الآية: ٥٤]

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)

[سورة هود الآية: ١١٩]

هذه أول بديهيات العقيدة، أنت مخلوق لترحم، مخلوق للسعادة، أما حينما يخرج الإنسان عن منهج الله، فهناك تؤدبه، لمصائب وضع استثنائي، يوجد آية قرآنية دقيقة بهذا المعنى، قال تعالى:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

[سورة الأنعام الآية: ١٧]

الخير مراد، أما الشر فغير مراد، كيف يضطر الطبيب أن يفتح البطن ليستأصل الزائدة؟ فتح البطن غير مطلوب، المطلوب هو الإكرام، فالخير مراد من قبل الله عز وجل، الشر غير مراد، علاج استثنائي، حالة استثنائية .

مثلاً: أسست ثانوية ضخمة، الأصل أن يكون هناك طلاب مهذبون، دوامهم صحيح، وسائل معينة، قاعات، مقاعد، حدائق، مكتبات، الأصل إكرام الطلاب، قد يضطر مدير الثانوية إلى ضرب طالب أخلاقه منحرفة، أو يسرق، قد يضطر إلى ضربه، هل نقول: أنشئت هذه الثانوية من أجل أن يضرب طلابها؟ ما هذا الكلام؟ هذا الكلام غير مقبول إطلاقاً، أنشئت من أجل أن يعلم هؤلاء الطلاب، أنشئت من أجل أن يسعدوا، أن يكونوا قادة للأمة، صرح جامعي كبير، تشعر أن هذه الجامعة أسست كي تخرج قادة للأمة، أما حينما نحرم طالب ست دورات هذا يكون قد غش في الامتحان، وهذه حالة نادرة، إذا غش طالب في الامتحان، يحرم ست دورات من الامتحان، هل

نقول: أسست هذه الجامعة كي توقع ألوان العقاب في الطلاب؟ لا، الأصل هو إسعاد الخلق، وليس إيذاءهم.

أخواننا الكرام، هذا حديث متفق عليه، إذا قرأتم في كتب الحديث: متفق عليه، فهو أعلى أنواع الحديث، اتفق عليه البخاري ومسلم، اتفق عليه الشيخان.

عن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لا تَبَاغَضُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ أَخْوَانًا، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ))

إليكم هذا الفرق بين الأسر المسلمة وبين الأسر غير المسلمة، وما سبب التقصير في الأسر

أيها الأخوة، هناك أسر في تقاطع، عمره عشرون عاماً، وثلاثون عاماً، لا يعرفه، ولا يشاهده، ولا يسلم عليه، ولا يزوره، وقد يكون ابن عم، وقد يكون أخاً، وقد يكون ابناً، هكذا الناس.
الحقيقة: نحن عندنا ميزة في بلادنا، نحن بلاد نامية، هكذا صنفونا، يوجد عندنا مشكلات كثيرة، ولكن عندنا ميزات كثيرة .
يوجد أخ خرج إلى ألمانيا لحضور معرض صناعي، فنزلوا في بيت، قال لي: ما وقعت عيني في حياتي على حديقة لهذا البيت، أجمل من هذه الحديقة، شيء عجيب، أنواع الورود، المروج الخضراء، الأشجار المثمرة، فسأل: ما سر هذه العناية الفائقة؟ فقالت صاحبة البيت: إنني أعتني بهذه الحديقة ثلاثمئة وأربعةٍ وستين يوماً من أجل أن أستقبل أولادي في العام كله يوماً واحداً، ترغبهم في زيارتها، تعتني بالحديقة من أجل أن تستقبلهم، وهي تستعد لاستقبالهم، ولم يأتوا، وفي الليلة بكت، قال لي: نزلنا إلى السوق، واشترينا لها هدية، وبكت بكاءً شديداً، هؤلاء هكذا يعيشون، أما عندنا يقول الأب لابنه: اليوم مساءً لم أرك، البارحة كان عنده، وقبل البارحة، أما اليوم فلم أرك، أين كنت؟ هذه نعمة كبيرة جداً، ونحن عندنا نعم كثيرة لا نعرفها إلا إذا فقدناها.
مرة أخ طرق بابي، وكان عندنا شهادة، إذا لم يكن الإنسان معه شهادة، ومعه دكتوراه، الأنظمة في سوريا تمنع تعليمه، حتى لا نخسر علماءنا، أحدثوا شهادة اسمها ما يعادل الثانوية، شهادة بسيطة تاريخ وجغرافية، كل واحد معه دكتوراه، وليس معه بكالوريا حتى يتعين في الجامعة يقدم فحصاً، وأنا كنت مكلفاً أن أصحح أوراق العربية .
طرق بابي شخص، وأحب أن يزورني، قلت له: تفضل، وقال لي: ممكن أنا قدمت فحصاً اليوم في امتحان ما يعادل الثانوية، أتمنى أن تساعدني في النجاح، قلت له: أنا لا أرسب أحداً، لأن قناعتي أن هؤلاء أبناءنا، يجب أن يأتوا، وأن يقدموا خدماتهم لأبناء وطنهم، قلت له: ما قصتك؟

قال: أنا طبيب أقيم في بريطانيا بمانشستر، هكذا قال لي، وسأذكر لكم التفاصيل، وعندي سيارة جاكور، دخلي ثمانية آلاف جنيه في الشهر، مبلغ خيالي، وليس عندي مشكلة، إلا مشكلة واحدة، قلت له: ما هي؟ قال: بناء فيه ستة طوابق، الطابق السادس، ولندن باردة جداً، وطابق سادس، ومحكم الإغلاق، ويوجد رجل توفي، ومضى على وفاته ستة أشهر، لما تفسخت الجثة، و ظهرت الرائحة، طبعاً خرقوا الباب، واقتحموا البيت، ما الذي فوجئ به؟ .

هذا الأخ الطبيب أن له ستة أولاد في لندن، ما خطر في بال واحد منهم، أن يزور أباه في هذه الأشهر الستة، فقال لي: عرفت مصيري، واتخذت قراراً بالعودة إلى وطني، وقدم فحصاً ونجح، ولا أعلم ماذا حدث بعد ذلك؟.

نحن عندنا ميزات كثيرة جداً، هذه الأسرة مستمرة، أطول زواج في أمريكا سنتان، نسب الطلاق خمسة وستين بالمئة، كل مئة زواج خمسة وستون، تنتهي إلى الطلاق، في ألمانيا سبعة وثلاثون، كان في بلدنا اثنين بالألف، الآن خمسة عشر بالمئة، الصحون عندما تكثر، يكثر معها الطلاق، يعمل موازنات لا تعجبه زوجته، من اثنين بالألف إلى خمسة عشر بالمئة .

فنحن في نعم كثيرة، في نعم الانضباط الأسري، في نعم التواصل، في نعم الحب، نحن عندنا سهرات، يأتي الأب وأولاده يسهرون عند والدهم، هكذا يقول لك، شيء جميل، تجد كل شيء موفراً، ولكن لا يوجد حب، القلب مقيت .هذا حيث أصل:

((لا تَبَاغَضُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ أَخْوَانًا، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ))

هذا الحديث أصل في العلاقات الاجتماعية، اعتذار، ابتسامة، زيارة في بيته، الهدية تذهب بِحَرِّ الصدر، مهما كان الخلاف مستعصيا، هدية، ابتسامة، اعتذار .

أنا لم أقصد أن أزعجك، لأن قوتنا في تعاوننا، قوتنا في محبتنا، جامع صغير، توجيه واحد، وكتاب واحد، النبي واحد، والقرآن واحد، ونوع التوجيه واحد، وخلافات لا يتحمل، يتحمل حباً، معاونة .

أنا بيتي مطل على المسجد، أحياناً أشاهد يوم الخميس عشرين، ثلاثين أخاً، ينظفون المسجد، والله كأنهم جنود لله عز وجل، لوجه الله، لا يأخذون شيئاً، تنظيف الصحن، وتنظيف السجاد، ودورات المياه لوجه الله هذا الحب .

علام تدل هذه القصص؟ :

أيها الأخوة، عندنا أستاذ في الجامعة تقاعد، وهو من أكابر الأساتذة في الجامعة، أقيم له حفل تكريمي كبير جداً، أذكر أنه ألقى الخطباء كلمات كثيرة، فجاء دوره في الكلام، وهو أستاذ في علم النفس، فقال: الإنسان الذي لا يشعر بحاجة إلى أن يُحِب، ولا يشعر بحاجة إلى أن يُحَب، هذا ليس

من بني البشر، من خصائص الإنسان أن يحب، يجب أن تحب زوجتك، تحب أولادك، تحب جيرانك، أن تحب المؤمنين .

أيام ترى طفلاً ابتسامة في وجهه، قال أخ كريم: أنا دخلت من زمن إلى مسجد لأصلي، وكان يلبس في قدميه حذاءً جديداً، فسرق، وهذا الطفل بحسب سنه، عنده شيء كبير جداً، وهو فرح به، فبكي، فشاهده رجل صالح، فأخذه إلى محل أحذية، واشترى له حذاء، يقول هذا الأخ: مضى على الحادثة أربعون سنة، ما تركت فرض صلاة من محبتي بالمسجد، لأنني بكيت، أخذني رجل إلى محل، واشترى لي هذا الحذاء، وكنت أخاف من أبي، وليس لي من حيلة إلى هذا الحذاء.

أقول لكم ألف قصة بهذا المعنى: رجل يتكلم عن تاريخ سبب انتمائه إلى الدين، وهو قاض كبير، يسير في سيارته تعطلت، وكانت سيارة أجرة تسير، فتوقفت، وقال له: خير؟ قال: السيارة معطلة، تحب أن تركب معنا، أم نصلح لك سيارتك؟ فقال: لا، أصلحوا لي السيارة، والرجل الذي يسوق السيارة الأخرى رجل عظيم، فخلع الطربوش وصلح له السيارة، فقدم صاحب السيارة بطاقته إلى هذا الرجل، وقال له: أنا القاضي فلان، فقال له: أنا معلم ابتدائي، وهو رجل داعية كبير في مصر، تعال إلينا، سبب انتمائه إلى الدين هذا الموقف الأخلاقي .

فأنا أريد، وألح على الحب، مودة، تعاون، تضحية، إيثار .

أقول لكم دائماً: حياة المؤمن مبنية على العطاء، وحياة المنافق والكافر مبنية على الأخذ، المؤمن يؤثر أخوانه، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الحشر الآية: ٩]

أخ حدثني، وقال لي: افتقرت، وانقطع دخلي كلياً، يأتي أصدقائي المؤمنون إلي، ويقولون: أحضر لنا كأس ماء، يذهب فيعود، فيرى في جيبه ألف ليرة، وهو لا يملك ثمن طعام، بذكاء لطيف لا يعرف من أين جاء؟.

يوجد أخ من أخواننا، أنا أعده بطلاً، هو متآخٍ مع أخ، النبي الكريم قال:

((تآخيا اثنين اثنينْ))

هو يعمل عملاً، مورده ألفان، وهي قصة قديمة، يوزع مواد غذائية، وأخوه يعيره سيارته، هذا الأخ الذي هو أخ له في الله، فقد عمله فجأةً، جاء وشكا له همه، فقال له: تعال، واجلس إلى جانبي في السيارة، أنا عوضاً أن أصف السيارة، وأقدم إلى المحل هذه العلب، أنت أعطيه إياها، ونتقاسم الربح مناصفة، ألف لك، وألف لي، يقسم بالله العظيم، الله ألهمه عملاً، ربحوا في أول شهر ستة عشر ألف ليرة، بعد أن نوى أن يعطيه من الألفين ألفاً، فقال له: هذه ثمانية آلاف .

عندما يرى الله أنك تحب أخوانك وتكرمهم، ماذا يفعل معك؟ يغمرك بالفضل، قال تعالى:

(هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ)

[سورة محمد الآية: ٣٨]

انظر إلى هذا التلازم بين هذا الحديث وهذه الآية :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ، وَيَوْمَ الْخَمِيسِ، فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا، إلا رَجُلاً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ، فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا، أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا))

هذه المغفرة حجبت عنهما معاً بسبب المشاحنة، لذلك الآية الكريمة:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

دقق أولاً: أصلح نفسك مع الله، والله الواحد منا يعرف إذا كانت نفسه عامرة مع الله أم خربة، إذا كان في الطاعة فهي عامرة، وإذا كان في المعصية فهي خربة، إذا كان في الإحسان فهي عامرة، وإذا كان في الإساءة فهي خربة، إذا كان في الإخلاص فهي عامرة، وبعدم الإخلاص خربة، فأهم علاقة المسلم فيما بينه وبين الله.

خطوة مباركة :

اليوم أخبرني شخص، أبكاني على الهاتف، قال لي: أنا عملت عملاً سقطت من عين الله، أنا لم أسأله: ما هذا العمل؟ هكذا الأدب، لست مكلفاً أن أعرف: ماذا عمل؟ فقال لي: ألي توبة عند الله؟ قلت له: لك توبة، وحب، وكرامة.

((عبدي لو أن ذنوبك، بلغت عنان السماء، ثم جئتني تائباً، غفرتها لك ولا أبالي))

قلت له: قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الزمر الآية: ٥٣]

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

[سورة الحجر الآية: ٤٩]

إذا تاب العبد توبة نصوحاً، أنسى الله حافظيه، والملائكة، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه.
قلت له: الإسلام يجب ما كان قبله .

أقنعته على التوبة، فقال: أنا أذنب نفس الذنب، فقلت له: يوجد حل، إذا أذنب إنسان نفس الذنب، وتاب منه، يكفيه أن يتوب إذا عاده مرة ثانية، يحتاج إلى ترميم صدقة وتوبة .

((استرضي الله بالصدقة))

((وصدقة السر تطفئ غضب الرب))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن أبي أمامة الباهلي]

((وباكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتخطاها، وإن الصدقة لتقع في يد الله قبل أن تقع في يد الفقير))

قلت له: من فضل الله علينا، أن الله يسترضى، بينما الأقوياء لا يسترضوا، قال تعالى:

(وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ)

[سورة الشعراء الآية: ١٣٠]

الإنسان القوي لا يسترضى مهما حاولت، لكن الله عز وجل يرضى بالتوبة، يسترضى بالصدقة، يسترضى بالصيام، بالقيام، بالعمل الصالح، يسترضى بشيء وهو ينتظرك.

هكذا تكون عملية الجرد :

أيها الأخوة، الحركة العملية من الدرس: أن تعمل جرد، أولاً: كيف علاقتي مع الله؟ يوجد أشياء، شوائب، حواجز، حجب، فإذا كانت مع الله عامرة، حاول أن تعمل جردا لعلاقاتك مع من حولك، الذي له أب وأم على قيد الحياة، علاقتك مع أمك وأبيك، مع أخوتك، مع جيرانك، مع زوجتك، مع أولادك .

الآن: كله جيد، نصعد إلى مرحلة ثالثة: هل يوجد حولك علاقة سيئة بين شخصين؟ حاول أن تصلح بينهما .

فهذه الآية من أدق الآيات، وهذا الدرس العملي، وهذا مهمتنا بعد الدرس، اعمل جرد لكل علاقاتك، علاقة مع الله، مع الآخرين، أية علاقة بين اثنين، شابتها شائبة، حاول أن تصلحها، هذا الذي يرضي الله عز وجل، وهذا الذي يرفع عنا مقت الله وغضبه، الله عز وجل إذا رآنا في هذه الخصومات، مقتنا جميعاً، وعندئذ لا يرحمنا، وعندئذ يبدو أنه تخلى عنا.

احذر من هذا يا مسلم :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ؛ مَالُهُ، وَعِرْضُهُ، وَدَمُهُ، حَسْبُ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ، أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ))

[أخرجه أبو داود في سننه عن أبي هريرة]

دمه: لا تقتله، وماله: أن لا تبتز أمواله بالباطل .

وأقول لكم: كم طريق يوجد؟ في مليار طريق لابتزاز أموال الناس بالباطل، هذه السرقة المشهورة نوع من الغباء، ولكن يوجد أسلوب أن تسلبه ماله دون أن يشعر، يوجد أسلوب تبيعه بيعة فيها غش، الغش يعني السرقة، التدليس يعني السرقة، إخفاء العيب يعني السرقة، الاحتكار يعني السرقة، يوجد آلاف الطرق للابتزاز، كله غير مشروع، التضخيم، مريض لا يحتاج إلى تصوير، أو تخطيط، أو إيكو، أنت موثوق، طلبت منه تصوير، والآلة عندك، وتخطيط كل مريض باستمرار بشكل آلي، إذا كان ليس بحاجة، وكلفته بمبلغ ضخم، وهو ليس بحاجة، من يعلم ذلك؟ الله وحده يعلم، كسب المال الغير مشروع، له ألف طريق، قال تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ)

[سورة القيامة الآية: ١٤]

((الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ))

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ مَالُهُ وَعِرْضُهُ ...))

[أخرجه أبو داود في سننه عن أبي هريرة]

الاتهام من دون دليل، الاتهام الباطل، سوء الظن بالآخرين، هذا من المعاصي الكبيرة.

أكثر الناس يقولون: تكلمنا، ما الذي صار؟ الله يغفر لنا، لا، الله لا يسامحك، حقوق العباد مبنية على المشاحة .

كل إنسان يتكلم على الناس بالباطل، يغتابهم، وهو يتوهم أنه لو تاب إلى الله، القضية حلت هذه القضية، لا، لم تحل، هذا الذي استغبته بالباطل، سوف يقف أمام الله يوم القيامة، وسوف يقول: يا رب أعطن مظلمتي من فلان، فلان تؤخذ حسناته، فإذا فنيت حسناته طرح عليه سيئاته، حتى يطرح في النار .

عد إلى المليون قبل أن تستغيب أخاً بالباطل .

الشيء الدارج: إذا أزعجك، جرده من الإيمان كله، بهذه البساطة، إذا صار سوء تفاهم بين المؤمنين، كل طرف ينفي عن الطرف الآخر الإيمان، عندما تنفي عن البنت شرفها، أنت طعنتها بأثمن ما تملك .

دقق: بنت قل عنها: إنها ليست متعلمة، شكلها وسط، بسيطة، أما زانية، وهي بريئة، فهذا اتهام كبير جداً، كما لو أنك اتهمت فتاة في شرفها، فقد ارتكبت أكبر الكبائر، كذلك لو اتهمت مؤمناً بإيمانه، هذا ليس فيه إيمان، من الذي قال لك ذلك؟ هذا أيضاً من الجرم الكبير.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٥٥-١٠١) : باب الاستخارة والمشاورة - ماذا عن الشورى وعن الاستخارة في الإسلام؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٦-١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو الأمر الذي وجه إلى النبي من الله من خلال هذه الآية، وهل هذا الأمر موجه إلينا؟ :

أيها الأخوة الكرام، في كتاب رياض الصالحين للإمام النووي رحمه الله تعالى باب عنوانه: باب الاستخارة والمشاورة، وقد صدر الإمام رحمه الله تعالى هذا الباب بعدة آيات كريمة متعلقة بهذا الموضوع .

فالآية الكريمة أمر موجه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، من هو النبي؟ سيد الخلق، حبيب الحق، ذو الخلق العظيم، الكامل، أعلم من في الأرض، أقرب المخلوقات إلى الله، أشدهم خشيةً له، أشدهم حباً له، ومع كل ذلك: أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يشاور أصحابه، هل بعد هذا المقام من مقام؟ هل بعد هذه المرتبة من مرتبة؟ هل بعد هذا العلم من علم؟ هل بعد هذا التفوق من تفوق؟ هل بعد هذه العصمة من عصمة؟ ومع كل هذه الميزات، أمر الله النبي عليه الصلاة والسلام أمراً موجهاً إليه، وموجهاً إلينا بالتبعية، لأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

[سورة آل عمران الآية:١٥٩]

فأنت مكلف أن تشاور من حولك، والجماعة لا تقوى إلا بالمشاورة، ولا تضعف إلا برأي الفرد، بالمشاورة كل أفراد الجماعة تتفاعل، وتتعاضد، وتتكاتف، ويقوي بعضها بعضاً.

من هو الشقي؟ ومن هو الموفق؟ :

أيها الأخوة، في أي مجتمع لو فتح باب المشاورة، لرأيت الذين حولك، عندهم آراء دقيقة جداً، قد تغفل عنها أنت، عندهم حقائق، عندهم وجهات نظر، عندهم تصورات صحيحة ، الإنسان أحياناً يكون تحت ضغط معين، هذا الضغط كالغشاوة، يعيق رؤيته الصحيحة، أما حينما يكون بعيدًا عن الضغط، ما الذي يحصل؟ يستفيد من آراء الآخرين، فإن أردت النجاح في كل ميادين الحياة، فشاور من حولك .

من أنت أمام رسول الله؟ من أنت أمام سيد الخلق؟ من أنت أمام المعصوم؟ من أنت أمام الذي يوحى إليه؟ العظماء يشاورون دائماً، يستعينون بمن هم حولهم .

وأحياناً ولا أبالغ: طفل صغير صافي الذهن، قد يعطيك رأياً، لم يخطر على بالك، فالإنسان يسعد حينما يستعير عقول الرجال، من شاور الرجال استعار عقولهم .

أنت أحياناً تشتري كتابًا بمئتي ليرة، هذا الكتاب استغرق تأليفه عشر سنوات، حتى ألفه صاحبه، قرأ تقريباً أربعمئة كتاب، واستخلص من كل هذه الكتب هذا الكتاب، عصارة أفكاره، ومطالعاته، وتجاربه، وخبراته، وأذواقه، وملخص رؤيته، صبها في الكتاب، فهل تساوي هذه الأفكار هذا المبلغ؟ من استشار الرجال استعار عقولهم .

أنت يمكن أن تأخذ عقلا راجحًا، خبرات متراكمة، حكمة عميقة، بسؤال أديب، بسؤال واحد، تأخذ كل هذه الخبرات .

من هو الشقي؟ هو الذي ينفرد برأيه، من هو الموفق والسعيد؟ هو الذي يستعين بآراء من حوله، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

موقف للنبي تعليم لنا :

النبي عليه الصلاة والسلام في معركة بدر فيما أذكر، اختار موقعاً لأصحابه، فجاء صحابي جليل اسمه الخباب بن المنذر، هذا الصحابي من شدة أدبه، ومن شدة غيرته .

سيدنا عمر رضي الله عنه يقول:

((أريد عاملاً -يعني والياً- إن كان أميراً على أخوانه بدا وكأنه واحداً منهم، وإن لم يكن أميراً بدا وكأنه أمير))

غيرةً على الحق .

فالخباب بن المنذر من شدة غيرته، وحبه لرسول الله، بحسب خبرته هذا الموقع غير جيد، ويخاطب من؟ يخاطب سيد الخلق، يخاطب المعصوم، يخاطب الذي يوحى إليه، قال:

((يا رسول الله، أهذا الموقع وحي أوحاه الله إليك أم هو الأمر والمكيدة؟ -سؤال تمهيدي رائع، إذا كان وحياً فما كان لي أن أنطق بكلمة، ما كان لي أن أبدي ملحوظة- قال له: وحي أم رأي؟ قال: بل رأي، قال: والله يا رسول الله ليس بموقع .

-ما هذا الأدب؟ ما هذه الغيرة؟ والنبي عليه الصلاة والسلام وهو قمة البشرية ما رأى في هذا

انتقاصًا لقدره، رأى في هذا إخلاصاً له- .

قال: أين ترى المجلس؟ فأشار له بموقع آخر، فقال: هذا هو الصواب، وأمر أصحابه أن ينتقلوا))

النبي بهذه القصة ضرب مثلاً أعلى .

هناك فضيلة لا يذكرها أحد، وقلما تعالج في درس، وقلما تعالج في خطبة، وقلما درج في كتاب، هذه الفضيلة اسمها مركّب، اسمها فضيلة الرجوع إلى الحق، هذه فضيلة إذا أخذت موقفًا غير صحيح، اتخذت قراراً غير صحيح .

إنسان مخلص، محب، متواضع، حكيم، لطيف، وجهك توجيهًا، وقال لك: الصواب هكذا، فحينما تقول له: جزاك الله خيراً، أنا شاكر لك جداً، سوف أنفذ ما نصحتني به، الأول ناصح، والثاني فاضل، لأنه رجع إلى الحق، والرجوع إلى الحق فضيلة جداً .

فهذا هو الخباب بن المنذر في أعلى درجات الإخلاص، في أعلى درجات الغيرة على مصلحة المسلمين، في أعلى درجات الأدب، قال له:

((هذا موقع أوحاه الله إليك، أم هو الرأي والمكيدة؟ قال: هو الرأي، -يعني اجتهاداً- قال: يا رسول الله، والله ليس بموقع))

والنبي عليه الصلاة والسلام سأله عن الموقع المناسب، وأمر أصحابه أن يتحولوا إليه، وهكذا علمنا النبي فضيلة من أعظم الفضائل: أن ترجع إلى الحق، لا أن تتمادى في الباطل، أن ترجع إلى الصواب، لا أن تركب رأسك، أن ترجع إلى الخير، لا أن تجانب الخير، لذلك ربنا قال عز وجل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

عود نفسك أن تسأل أهلك، أولادك، أخوانك، إلا أنه محظور عليك أن تشاور كافراً، محظور عليك أن تشاور من غفل عن الله، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

إذا شاورت الضال دلك على الضلال، إن شاورت أهل الهوى دلوك على الهوى، إن شاورت أهل الدنيا دلوك على الدنيا، إن شاورت أهل الحق دلوك على الحق، إن شاورت أهل الحب دلوك على الحب لله عز وجل، إن شاورت أهل الإيمان نصحوك بالإيمان، قال تعالى:

(وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة لقمان الآية: ١٥]

رأي ونصيحة :

أيها الأخوة، أنا أرى من علامات التوفيق: أن يكون لك مرجع، أنت بحاجة إلى مرجع ، لكن بحاجة إلى مرجع مركزي، يعطيك الدليل من الكتاب والسنة، لا إلى مرجع مزاجي، أحياناً الإنسان يتخذ والده مرجعًا، ووالده غير متعلم، غير مهتد، مرة يوافق، ومرة لا يوافق، بلا سبب، بلا دليل، هذا ليس بمرجع، أما المرجع الديني يقول لك: افعل ولا تفعل، وهذا شيء مباح أو مندوب، لا تفعل هذا شيء محرم، هذه الآية، وهذا الحديث .

أنا أشعر أن كل واحد منا، مهما علا مقامه، بحاجة إلى مرجعية، يا سيدي عرضوا علي كذا وكذا، فما رأيك؟ ما حكم الشرع في هذا؟ هل تنصحني في هذا الذي عرضوه علي؛ شراكة، مشروع عمل، سفر، وظيفة، زواج؟ ماذا أفعل؟ لا بد لك من مرجع، لأن الإنسان حينما يستشير، يستعير عقل المستشار .

أنا أنصح كل أخواننا، ليكن لك مرجع في كل حقل، إذا كنت تعمل في التجارة، وتعرف تاجرًا قديمًا، صالحًا، مؤمنًا، فاتخذه مستشاراً لك قبل أن تعقد صفقة، قبل أن تدخل في شراكة، قبل أن تشتري محلاً بسعر غال، ارجع إلى هذا المرجع، قال تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنبياء الآية: ٧]

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)

[سورة الفرقان الآية: ٥٩]

في الأمور المتعلقة بالدين فقط، اسأل أهل الحق، في موضوع الصلاة، موضوع الاستقامة، موضوع الإقبال على الله، موضوع تزكية النفس، موضوع حفظ القرآن، موضوع فهم القرآن، فاسأل به خبيرا .

وفي موضوع الدنيا قبل أن تقدم على مشروع، على تأسيس عمل، على شراء محل، على توقيع عقد، على سفر، على إقامة،

(فاسأل أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)

يوجد عندك رجل خبير في الدنيا، وهو مؤمن، ورجل خبير في الآخرة، وهو مؤمن، إذا كانت القضية أخروية دينية، فاسأل رجل الدين الموثوق .

الإمام الشاطبي يقول: لا بد لك من رجل عالمٍ، ورعٍ، حاذقٍ، ضابط، ضبطه شديد، قدراته العقلية عالية، عدالته النفسية عالية، شيخ ورع، حذق، ولا بد لك من مرجع في أمور الدنيا قبل التورط، قبل إنفاق المال كله، كم من تاجر باع صفقة إلى مكان بعيد، وذهبت الصفقة، ولم يأته ثمنها، فأفلس؟ عشرات، مئات .

ترى الشخص محترمًا، هيئته محترمة، يوقع له شيك بلا رصيد، ويقول له: ضد الشحن، يرسل بضاعة إلى بلاد بعيدة، والبضاعة تستلم، ولا يدفع ثمنها .

وأنت انتقل من بلدك، تسافر، ولا تجده، يغيب، وينسحب، وأنت كل سفرة تكلفك ألوف مؤلفة، لو استشرت ما بعت الصفقة إلى الخارج .

أخواننا الكرام، هذا الدرس حياتي، حيوي بشؤون التجارة، والصناعة، والزراعة، والسفر، والإقامة، والعمل، وتأسيس المشاريع، شؤون الزواج اسأل المؤمنين، إياك أن تستشير الكافر، إياك أن تستشير الغافل، إياك أن تستشير المنحرف، اسأل به خبيراً،

(واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)

عندك مستشارون، مستشار في الدنيا، ومستشار في الآخرة، وإنك إن استشرت استعرت عقل هذا المستشار، بل كله، طبعاً بالأدب، والحكمة، واللطف، والاحترام، هذا عن أمر النبي عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

[سورة آل عمران الآية:١٥٩]

من صفات المؤمنين كما ذكرها الله في القرآن :

أيها الأخوة، ربنا عز وجل حينما وصف المؤمنين، فمن صفاتهم؟ قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة الآية: ٥٤]

من صفاتهم: قال تعالى:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

[سورة التوبة الآية: ٧١]

من صفاتهم: قال تعالى:

(وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٠٤]

ومن صفاتهم: قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

انظر إلى الفرق بين المؤمن والمنافق، وماذا نستنبط من مواقفهما؟ :

أيها الأخوة، أنا أرجو الله سبحانه وتعالى ألا تتخذوا قراراً إلا بعد استشارة، الإنسان أحياناً يستشير زوجته، لأن الآية الكريمة:

(أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَى)

[سورة الطلاق الآية: ٦]

ائتمروا من فعل مشاركة، يعني تأمرها وتأمرك، تنصحها وتنصحك، تشير عليها وتشير عليك، عنده أولاد ناضجين يستشيرهم، قد يأتيه رأي دقيق جداً، قد يأتيه رأي عميق، قد يأتيه رأي من زاوية لم تخطر في باله، زملاؤه في العمل، جيرانه، لكن يجب أن تكون الاستشارة محصورة في أهل الإيمان، المؤمنون نصحة . ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((المؤمنون نصحة متوادون، ولو ابتعدت منازلهم، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون، ولو اقتربت منازلهم))

يعني أحياناً: الشيء الصارخ في حياة المؤمنين التناصح، كل أخ يحرص على مصلحة أخيه، لا تفعل، لا تغادر، افتح باكراً، لا تبع ديناً، لا تسافر إلى هذا المكان، اعمل كذا، صل الصلاة على وقتها .

الكفار غششة، حياتهم كلها مقالب، كلها خداع، حينما يعيش الإنسان بينهم كأنه يمشي في حقل ألغام، الكافر ماكر، والكافر خداع، والكافر ذو وجهين، والكافر يظهر لك شيء، ويبطن لك شيء .

الشيء الصارخ في مجتمع المؤمنين التناصح، والشيء الصارخ في مجتمع المنافقين أو الشاردين هو الغش، والمنافقون بعضهم لبعض غششة متحاسدون، ولو اقتربت منازلهم .

حتى في البيع والشراء، أقرب الناس منه، إذا اشترى يغشه، لماذا؟ هذا يستحي أن يناقشني .

المنافق الغشاش إذا جاءه قريبه، صديقه الحميم، ماذا يوجد عنده من بضاعة كاسدة يبيعه إياها، رأس مالها عليه بليرتين فرضاً، مئتا ليرة، يحضر صديقه ويقول له: قل إنك بعتني إياها بخمسمئة من باب الطرفة، يقول: بعتك إياها بخمسمئة، يأتي زبون، ويقسم له بالله العظيم: أن إنسانًا باعه إياها بخمسمئة، وهو يصلي، هذا شيء مضحك جداً.

أيها الأخوة، أشعر أحياناً أن الذي يفعل هذا، لا يعرف الله إطلاقاً، عندما تتجاهل أن الله يعلم، وأن الله لا تخفى عليه خافية، وأن الله عليم بذات الصدور، وأن الله لن يعاقب، ولن يحاسب، ولن يؤدب، فأنت حينئذ لا تعرف الله .

تصور طالبًا، له أستاذ من أرقى الأساتذة، من الأساتذة الأعلام لم يدرس، وقال: إن الأستاذ بهدية بسيطة يعطيني السؤال، لماذا؟ ادرس، والأستاذ بينه وبين هذا السلوك ما بين الأرض والسماء، فهذا هو الظن السوء، قال تعالى:

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)

[سورة آل عمران الآية:١٥٤]

يظن أن الله لا يحاسب، ولا يعاقب، ولا يؤاخذ، ولا ينتصر لهذا المظلوم .

الله موجود :

ثمة قصة ذكرتها لكم: كان رجل يركب سيارة، ينطلق بها إلى المطار، أحب أن يري مَن إلى جانبه براعته في القيادة، وجد كلبًا صغيرًا على طرف الطريق، احتل من الطريق ثلاثين سنتيمترا، فأراد أن يظهر براعته في القيادة، فقطع يدي هذا الكلب .

قال لي: الذي يركب جنبه، سمعتها من فمه، فجأةً انحرف نحو اليمين، انتبهت، فإذا به يضحك ضحكة هستيرية، قال له: انظر قصصت يديه فقط، يقسم بالله العظيم، وأنا أصدقه، مضى على هذا الحادث سبعة أيام، في يوم السبت التالي، في المكان نفسه، إحدى عجلات مركبته، أصيبت بعطب فنزل، وهيأ العجلة الجديدة، وفك العجلة السابقة المعطوبة، وحاول أن يسحبها من مكانها، فوقعت

السيارة فوق العجلة، والعجلة فوق يديه، حتى الرسغين، وإلى أن وصل إلى المستشفى، اسودت يداه، فقطعت من الرسغين .

قال لي: والله أسبوع بكامله، وفي المكان نفسه، هل يتمنى هذا الإنسان أن يفقد يديه؟ لا، لأنه لا يعرف الله، ظن أن هذا الكلب لا أحد يدافع عنه، إله عظيم، فهذا الكلب يشعر بالبرد، ويجلس على طرف الطريق، من أجل أن تبرز براعتك في القيادة، تقطع يديه، فكان الجزاء من جنس العمل، بعد أسبوع واحد، قطعت يداه من الرسغين كما فعل بالكلب .

أنا هذا الذي أراه: حينما أرى إنساناً يأكل مالاً حراماً، حينما أرى إنساناً يعتدي على أعراض الناس، حينما أرى إنسانًا يغتصب ما ليس له، حينما أرى إنساناً يستطيل على الناس ، أقول من أعماقي: هذا لا يعرف الله، ولو عرف الله لوقف عند حده .

لا تعرض على هذا الأمر الإلهي، إذا نبيك أمر به :

الآية الأولى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

أنت اسأل نفسك، ومن أنا حتى لا أشاور؟ إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام قد أمر أن يشاور، فمن أنا حتى لا أشاور؟ وإذا كنت في مجتمع المؤمنين، فمجتمع المؤمنين أمرهم شورى بينهم، والجماعة ترقى بالشورى، وتهلك برأي الفرد، لذلك هذه الأمة الإسلامية وصفت بأنها: خير أمة أخرجت للناس، لماذا؟ لعلة أنهم: يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، علة الخيرية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحينما تتخلى هذه الأمة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تفقد خيريتها، وتصبح كغيرها من الأمم، ليس لها أي ميزة على الإطلاق، قال تعالى:

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

[سورة المائدة الآية: ١٨]

ليس لنا أي ميزة، لا تقل: أمة محمد مرحومة، إذا كانت أمة محمد تعصي الله، إذا كان نساؤها كاسيات عاريات، هذه الشام أمامكم، والطرقات أمامكم، هؤلاء الفتيات اللواتي في الأسواق، بأبهى زينة، أليس لهم آباء؟ أليس لهم أمهات؟ أليس لهم أخوة؟ أين الغيرة؟ أين الشرف؟ لا يوجد شيء، كل ما عندها من مفاتن ظاهرة لكل مار .

مرة أنا قلت لأحدهم: فرق كبير بين سيارة عامة وسيارة خاصة، فالخاصة أنيقة جداً، معتنى بها، جديدة، مرتبة، لأنها لصاحبها فقط، أما العامة فلكل الناس، الذي ترتدي ثياباً فاضحة، وتمشي في الطريق، هذه عمومي، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

أمر الله النبي عليه الصلاة والسلام، أن يشاورهم بالأمر .

إليكم حديث الاستخارة :

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ، يَقُولُ: إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ ولا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ، خَيْرٌ لِي فِي دِينِي، وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ، شَرٌّ لِي فِي دِينِي، وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي، قَالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ))

نصف الدرس مشاورة، ونصف الدرس الثاني استخارة لأهل الخبرة من المؤمنين، دقق لأهل الخبرة من المؤمنين، لا يكفي خبير، خبير منافق يغشك، لا يكفي مؤمن جاهل، إيمانه على العين والرأس، ولكن لا يوجد عنده خبرة .

أحياناً: يكون الرجل مؤمنًا، ولكن السؤال طبي، وليس سؤالاً دينيًا، اسأل الطبيب المؤمن . جاءني سؤال من يومين امرأة، قالت: هل يجوز أن أسقط الحمل؟ لأن الحمل يؤذيها، قلت لها ببساطة: عليك بطبيب مسلم حاذق ورع، وافعلي ما يقوله لكِ .

فأنت بالاستشارة، يجب أن تستشير أولي الخبرة من المؤمنين، لا يكفي أن تستشير مؤمن غير خبير، لا يعرف، كما أنه لا يكفي أن تستشير خبير غير مؤمن يغشك، الخبير غير المؤمن لا ينصحك، والخبير غير المؤمن يغشك، المؤمن غير الخبير لا يفيدك، والخبير غير المؤمن لا ينصحك، عليك بأولي الخبرة من المؤمنين، هذه الاستشارة للخلق، أما الاستخارة للخالق، للحق .

إليكم شرح حديث الاستخارة :

أيها الأخوة، حديث الاستخارة يعني عميق إلى درجة مذهلة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ ...))

أيّ أمر، والله سأقوم، وأصلي الظهر، لأستخير الله، أصلي أم لا أصلي؟ لا يوجد استخارة في العبادة، ولا بالفرائض، ولا في المحرمات، صيام، حج، لا يوجد استخارة، الاستخارة في المباحات فقط، أسافر أم لا أسافر؟ السفر مباح، أتاجر أم لا أتاجر؟ التجارة مباحة، تتزوج هذه أم هذه؟ الزواج مباح، في العبادات لا يوجد استخارة، شرع عظيم من عند خالق عظيم، ينفذ وكفى، أما أنا ساكن، وعندي دخل في الشهر ثمانية آلاف، وعندي خمسة أولاد، وجاءني عرض على دولة نفطية في الخليج، بثلاث آلاف درهم، لكن ممنوع أن آخذ زوجتي، احتار، زوجتك وأولادك من دون أن تشاهدهم سنة، من دون تربية، من دون توجيه ، محروم منها، ومحرومة منك، ثلاث آلاف ضرب اثني عشر، تسعة وأربعين، وسكن، خمسة عشر، والطعام عشرة، بقي لك عشرة آلاف، تضحي من أجل عشرة آلاف بأولادك، وتربية أولادك، وجامعك، ودينك، وآخرتك، لا، ليس لك مصلحة، هذه استشارة، أحب أن يضيف إلى الاستشارة استخارة .

((إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ...))

الله عز وجل هو العليم، يعلم خبايا الأمور، يعلم البواطن، يعلم النتائج، أنت لا تعلم .

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ))

الله يعلم، وعلى كل شيء قدير، أنت استعنت بعلم الله وقدرته .

قال لك رجل: أنا أشاركك، ناعم، لطيف، كل إنسان يستطيع أن يعمل شهر عسل مع إنسان ثان، حتى في الشراكة، تراه لطيفًا ورعًا، فوراً على الصلاة، يخاف من الله، وبعد أن يسجل المحل باسمه، يريك نجوم الظهر .

قال لي أحدهم: أسير مع شريكي، وجد خمس ليرات، أخذها، ووضعها في جيبه بعد جمعة، جاءت في الحسابات ليرتان ونصف لي، والشركة تخسر وتخسر، طلب دفتر الحسابات، حذف صفر من كل شيء، وواضع صفرًا له في كل الحسابات .

قال لي: لا نربح، أما الخمس ليرات فمناصفة، لا يجوز، وزع ورعاً منه، دائماً الإنسان يستطيع أن يمثل .

في الخطبة تريه أجمل ما عندها، ويريها أجمل ما عنده، لطف، أناقة، حياء، وتواضع ، بعد الدخول تسمعه صوتًا خشناً، أين نعومتها؟ أين الحياء؟ كل إنسان بإمكانه أن يمثل تمثيلًا متقنا، ويوجد تمثيل غير متقن .

قال لي أخ كريم: يفعلون تمثيلية بمعهد شرعي، بين سيدنا بلال وصفوان بن أمية، سيده الكافر الظالم، فيعذب سيدنا بلال، يقول بلال:

((أحدٌ أحد، أما سيده الظالم، -وهو أخ يمثل دور صفوان-، فقال له: لن أرفع عنك العذاب حتى تكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم))

هذا تمثيل غير متقن إطلاقاً، ليس من المعقول أن يصلي عليه، وهو يحاربه .

يستطيع الإنسان أن يمثل تمثيلاً دقيقاً في الشركة، في الصحبة، في الزواج، في السفر ، من يعلم الحقيقة؟ الله عز وجل .

الاستخارة:

((اللَّهُمَّ إنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ))

كلام دقيق جداً، يعني يا رب أنا لا أعلم، فعلّمني، أنا لا أعرف هذا الشخص، أنت الخبير به، قال تعالى:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً)

[سورة الإسراء الآية: ١٧]

أنت لك الظاهر، والله يتولى السرائر:

((اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي...))

أهم شيء الدين، أنت مثلاً لك دخل محدود، وعندك أسرة وأولاد، وبصعوبة بالغة تمشّي أمرك، ولكن ثمة وظيفة بعشرة أمثال راتبك، لكن في بؤرة نجسة، نساء كاسيات عاريات، خمور، محاسب، لا تناسبك، عشرة أمثال، لكن يذهب دينك .

كان سيدنا عمر إذا أصابته مصيبة قال:

((الحمد لله ثلاثًا، الحمد لله الذي لم تكن في ديني))

إذا سليم دينك، فكل شيء يهون، إيمانك سليم، استقامتك صحيحة، كلّ شيء يهون، أحيانا يأتي دخل كبير، ولكن مع بؤرة سيئة، للتقريب: قد يكون المحل لتصليح سيارات بشارع كله سيارات، وأصوات، وروائح، وزيت، وشحم، وصريخ، ويوجد محل بأرقى شوارع دمشق، يبيع ألبسة

نسائية، العين ترغب المحل الأنيق، والجيد، والزبائن الحسناوات، أما هناك فأسلم للدين بكثير، صحيح أن المناظر مؤذية، والروائح كريهة، لكن الإيمان سليم، أما هناك فالمرأة يبدو منها كل شيء، وحوار، وسؤال، وجواب، هذه المصلحة مزعجة .

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ، وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي، وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ: عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ...))

إذا كان يصلح لك لأمر دينك وأمر دنياك، في عاجل أمرك وآجله، ينفعك في دنياك وأخراك .

الآن: جواب الاستخارة منام، لا، تفتح المصحف لا على التعيين، لا تحس بإنشراح؟ لا، انقباض؟ لا، جواب الاستخارة بحسب نص الحديث التيسير أو التعسير، تعسرت الله عز وجل أجابك، تيسرت أجابك بالتيسير، هذا هو الجواب، أما الآن فيوجد موضة جديدة لم أفهمها، فلانة تستخير لنا، لا يستخر أحد لأحد، العباد عند الله سواء، والله وكّلنا الشيخ يستخير لنا، لا توكل لا الشيخ ولا غير الشيخ، كل إنسان يستخير لنفسه، ما ورد عن النبي أن أحداً كلفه أن يستخير له، ليس بينك وبين الله حجاب، كل العباد عند الله سواسية .

مرة ثانية، لا موضوع فتح مصحف، ولا منام، الله عز وجل يجيبك على استخارتك بالتيسير، جواب الاستخارة التيسير، ويجيبك عن استخارتك بالسلبية بالتعسير .

((وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي، وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةِ أَمْرِي ...))

إذا أنت دخلت إلى محل صديقك الحميم، وتريد أن تشتري قطعة بخبرتك، وعلمك، وشطارتك، طبعاً خبرتك لا شيء أمام صاحب المحل، وصاحب المحل رجل دين، وصالح، وصادق، وأمين، وخبير، قلت له: أنا أوكلك أن تختار لي قطعة مناسبة، ماذا فعلت؟ أنت استعرت كل خبرته، وكل إخلاصه لك، عندما المؤمن يستخير الله عز وجل، ماذا فعل؟ يا رب أنت قادر، وأنا لست قادرًا، أنت تعلم، وأنا لا أعلم، أنت علام الغيوب، وأنا لا أعلم الغيب، إذا كان في هذا الزواج خير لابنتي، في دينها ودنياها، وعاقبة أمرها، فيسره لها، وإذا لم يكن فيه خير، فاصرفها عنه.

((وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي، وَمَعَاشِي، وَعَاقِبَةِ أَمْرِي، أَوْ قَالَ: فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ، فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ))

هنا إضافة جديدة، واصرفني عنه، أحياناً الإنسان يتعلق بشيء، ويتعسر، فلكي لا يبقى متعلقًا به قال: يا رب اصرفني عنه، واصرفه عني، لذلك:

((ما كان الله ليعذب قلبًا بشهوة، تركها صاحبها في سبيل الله))

((وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي، قالَ: وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ))

هذا الكلام يكتب بماء الذهب، كل كلمة علم، كل كلمة حقيقة، كل كلمة قانون، إذا صلى أحد منا في كل شؤون حياته ركعتين في المباحات طبعاً، ودعا في هاتين الركعتين بهذا الدعاء، وانتظر إذا يسر الله الأمر، معنى هذا: أن الله اختار له بعلمه، واختار له بحكمته، واختار له بقدرته، واختار له بفضله، وإذا تعسر الأمر لا يندم، وإذا رضيت بقضاء الله، يكافئك أن ينسيك إياه .

أحيانا: يخطب رجل فتاة على جانب عال من الجمال، ويتعلق بها، ووضعت عثرات تعجيزية أمامه، لم يوافق أهلها، معنى هذا: أنها ليس فيها خير، الله يكافئه كيف؟ على رضائه بقضاء الله وقدره، أن ينزعها من قلبه .

((فاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، أما وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي، قالَ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ))

العبرة: لا أن تحوز المال، العبرة: أن ترضى بما قسم لك من المال، العبرة: لا أن تحوز أعلى زوجة، العبرة: أن ترضى بهذه الزوجة، العبرة: لا أن تحوز أعلى مرتبة بالمجتمع، أن ترضى بهذه المرتبة الذي أقامك الله بها .

((وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ))

يا رب إني مجمع على السفر، أو على الشراكة، في هذا العمل التجاري، أو على الزواج من فلانة، هذا دعاء الاستخارة، وهذه صلاة الاستخارة، والمؤمن بين الاستشارة والاستخارة، استشارة لأولي الخبرة من المؤمنين، والاستخارة لرب العالمين، فأنت جمعت إخلاص المؤمنين، ومحبة المؤمنين، وخبرات المؤمنين، ونصح المؤمنين، وجمعت بين علم الله عز وجل، وقدرته، وحكمته، وفضله، ثم توكلت على الله، وهذا سلوك المؤمن، وعندئذ لا يخيب ظنك، تأتي الأمور كما تريد، وكل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادته متعلقة بالحكمة المطلقة، وحكمته المطلقة متعلقة بالخير والمطلق .

احذر أن تصنع مثل ما صنع هؤلاء :

أيها الأخوة، أناس كثيرون يتخذون قرارات ارتجالية غير مدروسة، أحدهم مدرس قدم طلب إعارة إلى بلد عربي، جاءته الموافقة، طرح، وجمع، ولم يستشر أحدًا، قال لنفسه: هل من المعقول أن أدع بيتي مجمدًا خمس سنوات، أبيعه، وأضع ثمنه في استثمار، وأعود، وآخذ الربح؟ فباع البيت بمئة ألف، ووضعها بالاستثمار بالمئة عشرة في السنة، فصار ثمن البيت ثلاثة ملايين بعدما عاد .

يوجد رجل يعمل في التدريس، وله دعوة، وله لسان طليق، وله تأثير في الطلاب، ولكن مدرس ثانوي، فنال الدكتوراه، يريد أن يكون أستاذًا جامعيًا، زهد في التدريس والطلاب والدعوة، وبحث

عن مكان ليكون أستاذًا في الجامعة، وهي قصة غريبة جداً، وكان معه مبلغ من المال، يساوي خمسة وثلاثين ألفًا، وجد بيت في الميسات ثلاث غرف وصالون ، هكذا كان سعره، والقصة قديمة جداً، وقال: أعود وأشتري بيتًا، عين أستاذًا في جامعة ببلد عربي، وسافر، ودرس، وعمل، ودروس خاصة، وتأليف، مات خمسين موتة، بعد سنة ونصف أو سنتين، جمع حوالي ثلاثمئة ألف .

أخوه أحد أصدقائي قال له: ابحث لي عن بيت، البيت نفسه لم يبع، صار ثمنه ثلاثمئة ألف، جهد سنتين وثلاث على الأرض، وبعد ذلك جمع مالا كبيرًا، وضعه في شركة استثمارية في الخليج، فأفلس، عشر سنوات تدريس وتعب، لا اشترى بيتًا، ولا تزوج .

إذا اختار إنسان شيئًا خلاف مشيئة الله عز وجل، يدفع الثمن باهظاً، استخر الله عز وجل، إنسان أقامه الله بدعوة، أقامه بنشر الحق، هذا منصب رفيع جداً، يجب أن تخضع كل شيء لهذا المنصب، وليس أي مكسب طارئ تلغي الدعوة وتذهب، هذه عند الله كبيرة جداً، الله قادر أن يشغلك ليلا نهارًا عشر سنوات عمل بلا مقابل، كل شيء حصله، ذهب فرق أسعار، وإفلاس شركة .

وإنسان قال لله عز وجل: بارك لي به، إذا بارك الله لك بشيء، بمال قليل تصنع منه الشيء الكثير، البركة سر، لا أحد يعرف القوانين .

ترى شخصًا دخله محدود، يعيش، ويأكل، ويلبس، ولا ينقصه شيء، ورجل يدخل عليه نهر من الخيرات، ودائماً يشكو الفقر، لا يوجد بركة، إذا استقام الإنسان، وأكل المال الحلال، في هذا المال بركة، الله عز وجل يعينك على إنفاق هذا المال بشكل حكيم جداً، وإذا كان الدخل غير حلال، فكما جاء المال يعود، المال الذي يأتيني سهلاً يذهب سهلاً، ومن أخذ البلاد بغير حرب، يهون عليه تسليم البلاد .

الهدف من هذا الدرس :

هذا الدرس مفاده: أن يكون لك علاقة بالله .

مرة قال لي أخ كلمة أعجبتني: فتحت خطًا ساخنًا مع الله، سؤال وجواب، واستخارة، واعتذار، وترج، وابتهال، صار في صلة بالله عز وجل، أنت ترى المجتمع متوحشًا، كل من حولك كالذئاب، فلذ باللهِ، صدق القائل:

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجابنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

ولذ بحمانا و احتم بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغل وأخلص لنا تلق المسرة وإلهنا

يوجد خط مفتوح مع الله، الله عز وجل ليس بينك وبينه حجاب، قال تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

[سورة البقرة الآية: ١٨٦]

اسأله وترجاه، المؤمن يذلل أمام الله، وعزيز أمام أهل الدنيا، أهل الدنيا بالعكس أمام الأقوياء أذلة، ويستنكف أن يعبد الله .

أحد الأخوة الأطباء توفي، ويوجد علاقة ود بيني وبينه، فذهبت لتشييع جنازته، ولي صديق، وصل إلى أعلى درجة علمية وإدارية، إلى عميد كلية، يحمل دكتوراه، أيضاً هو صديق المتوفى، شيعنا الجنازة إلى مكان الصلاة، دخلت حتى أصلي، لم يدخل، ولم يصل، وقف، صلاة الظهر، ثم صلاة الجنازة، استنكف أن يعبد الله، هو أكبر من الصلاة .

فأهل الدنيا يذلهم الله أمام القوي، يصبح مثل الطفل، لأنه استنكف أن يعبد الله، المؤمن عزيز النفس، يلبسه الله مهابة، ويرفع قدره، ويعلي مقامه، لكن مع الله عز وجل في منتهى الذل والتواضع، في منتهى الافتقار إلى الله، ودرس بدر وحنين أهم درس، ببدر قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٢٣]

بحنين خذلهم الله، قال تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة الآية: ٢٥]

وفيهم رسول الله، تقول: ما يتخلى عنك، تقول: الله يتولاك، أنت بين التولي والتخلي، وفي اليوم عندك ألف امتحان، بالافتقار إلى الله يتولاك، بالاعتزاز بنفسك يتخلى عنك، تقول : أنا عندي شهادات عليا، خبرات، أنا تعبت حتى وصلت إلى هذه الدرجة، هذا كله كلام فارغ، مع الله لا يوجد ذكي .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٥٦-١٠١) : باب الصدق - الصحبة في الإسلام - متى يكون العبد صادقاً عند الله، ومتى يكون كاذباً؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٧-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

أمر خطير :

أيها الأخوة الكرام، عقد الإمام النووي رحمه الله تعالى باباً، في كتابه رياض الصالحين، سماه: باب الصدق، وبدأ هذا الباب بهذه الآية الدقيقة الخطيرة التي هي قانون، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١١٩]

هناك شيء في حياة المؤمن خطير جداً، هي البيئة التي تحتضنه، الأصحاب الذين يصحبهم، الجلساء الذين يجالسهم، الأهل الذين يسامرهم، النزهات التي يذهب مع أصحابه إليها، هؤلاء الذين حولك من هم؟ إن كانوا من أهل الدنيا جروك إلى الدنيا، إن كانوا من أهل المعصية، ومن أهل البهتان، ملؤوا سمعك أكاذيب، إن كانوا من أهل الباطل زينوا لك الباطل ، إن كانوا من أهل الشهوات أغروك بالشهوات، وإن كانوا من أهل الصدق، من أهل العفاف ، من أهل المروءة، من أهل الكرم، من أهل الطاعة، من أهل الآخرة سحبوك إليهم .

لذلك: بعد أن تؤمن، أخطر شيء: البيئة التي تحتضنك، البيئة التي تحيط بك، الظروف التي تؤثر فيك، الأصحاب الذين تصحبهم، مع من تجلس؟ مع من تصحب؟ مع من تمضي وقتا طويلاً؟ مع من تذهب إلى النزهات؟ مع من تحضر في سهرة؟ هؤلاء إن كانوا طيبين كنت معهم طيباً، وإن كانوا سيئين كنت معهم سيئاً، فلذلك لا يمكن أن يسلم إيمانك إلا بصحبة أهل الإيمان، لا يمكن أن يسلم دينك إلا بصحبة صالحة، لا يمكن أن تكون عفيفاً إلا مع الأعفة، إن كنت مع المنحرفين أخلاقياً، رأيت المعصية غنيمة، والفسق والفجور مغنماً، أما إذا كنت مع أهل الإيمان، رأيت العفة مغنماً، كأن الله عز وجل يقول: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، أي اتقوا سخطه، اتقوا معصية تستحقون عليها العقاب، اتقوا انحرافاً ينتهي بكم إلى النار، اتقوا صفات الجلال بصفات الكمال، كن مستقيما لئلا يبطش الله بك، كن عفيفاً لئلا يسحقك الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

ما وراء هاتان القصتان :

ذهب شاب إلى الخليج، وهو في ريعان الشباب، عمره ست وعشرون سنة، ذهب بعقد عمل، جاءه دخل، اشترى سيارة، في أول رحلة بها إلى دبي من أبو ظبي، أصابه حادث فقطع عموده الفقري، فصار مشلولاً، في السادسة والعشرين على الكرسي، انتهى، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

هناك أمراض يعوي من ألمها الإنسان عويَ كالكلاب، اتق صفات جلال بصفات الكمال، كن مستقيماً لئلا يقهرك الله عز وجل .

لي صديق يحمل دكتوراه في العلوم، صديقه يحمل دكتوراه أيضا في الجيولوجيا، درس في فرنسا، وتزوج فرنسية، وجاء إلى بلده الذي احترمه كثيراً، وعينه في منصب رفيع قريباً من مدير عام في الصناعة، بيته في أبي رمانة، فقد بصره .

طبعاً: جاملوه شهراً وشهرين، يبعثون البريد إلى البيت مع مستخدم، موضوع معين، ما توجيهك؟ فيقول: مع الموافقة، بعد شهرين سرحوه، قال لصديقي: واللهِ أتمنى أن أجلس على الرصيف أتسول، وليس لي إلا معطف على كتفي، وأن يرد الله إلي بصري، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

هذه العين التي تطلقها في الحرام، لعل الله يحرمك منها، هذه الأذن التي تسمع الغناء الفاحش، لعل الله يحرمك منها، خف من الله .

((يا موسى خفني، وخف نفسك، وخف من لا يخافني))

اخط هذه الخطوة :

أيها الأخوة، أحد أكبر الضمانات: أن تعيش مع المؤمنين، وفي الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ، أَنَّهُ سَمِعَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه]

المؤمن ينهض بك، قال ابن عطاء الله السكندري:

((لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله، ولا يدلك على الله مقاله))

إذا أحببته ترقى إلى الله، وإن استمعت إليه ازددتَ علماً .

((لا تصاحب من لا ينهض بك إلى الله حاله، ولا يدلك على الله مقاله))

درس اليوم: البيئة، الأصحاب، الأصدقاء، الجيران، الأخوان الكرام، مع من تجلس؟ مع من تسهر؟ مع من تذهب إلى نزهة؟ من تشارك؟ من تدعو إلى بيتك ليأكل؟ الفسقة يحسدونك، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١١٩]

من أجل أن تزدادوا صدقاً، من أجل أن تزدادوا استقامة، من أجل أن تزدادوا قرباً إلى الله عز وجل، جرب أحيانا جلسة روحانية –بالتعبير العامي– جلسة فيها تجلٍّ، جلسة فيها ذكر لله عز وجل، يقول لك: واللهِ لا أنساها إلى سنة، سررنا، لماذا سررتم؟ لأن فيها ذكر الله عز وجل .

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال:

((مَا اجتمعَ قوم في بيت من بُيُوتِ الله تباركَ وتعالى، يَتْلُونَ كتابَ الله عزَّ وجلَّ، ويَتَدَارَسُونَهُ بينهم، إلا نزلت عليهم السكينةُ، وَغَشِيَتْهم الرحمةُ، وحَفَّتْهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده))

[أخرجه أبو داود في سننه عن أبي هريرة]

تحفهم الملائكة، وتتنزل على قلبهم السكينة، وتتغشاهم الرحمة .

((وما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه، إلا قاموا عن أنتن من جيفة حمار))

قناعة نابعة من خبرة :

أيها الأخوة، أنا أقنعكم الآن، أينما جلست، آخر خطبة سمعتها، آخر درس سمعته، لم يعلق شيء بذهنك، ولا حديث، لا آية، ولا قصة، حاول أن تذكرها لمن حولك، وأنت على المائدة، وأنت في دعوة، وأنت في سهرة، وأنت في سفر، حاول أن تذكر الله كثيراً، قال تعالى:

(كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آَيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ)

[سورة البقرة الآية: ١٥١-١٥٢]

كما ذكرناكم ذكروا غيركم، كما هديناكم اهدوا غيركم، كما ألقينا عليكم الحق ألقوه على غيركم، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١١٩]

قلت لأحدهم كلمة، قلت له: إذا أكرمك الله بهداية إنسان، كما قالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((فَوَ اللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ))

قلت له من باب الدعابة: خير لك من مارسيدس، ماذا ظن؟ ظن أنها سيارة، لا، المعمل كله لك، كل شيء لك، ليس السيارة، يمكن من أضخم معامل العالم، كله ملكك، مبيعاته لخمس قارات،

محجوز لشهرين، وثمن السيارة عندنا خمسة عشر مليوناً، الشبح، المعمل كله لك، لأن يهدي الله بك رجلا واحدا، خير لك مما طلعت عليه الشمس، خير لك من حمر النعم.

الحمُر جمع حمار، أم الحمْر جمع أحمر، النِّعم جمع نِعمة، أما النَّعم جمع الأنعام، الماشية، الغنم، خير لك من حمر النعم، خير لك من الدنيا وما فيها، خير لك مما طلعت عليه الشمس .

شركة أدوية أسبرين، ما تقدر فائضها النقدي غير الأرباح الموزعة، غير تغطية رأس المال، عندها فائض نقدي بمئة وستين مليار دولار كل سنة .

وهناك رجل مالك شركة ميكروسوفت، كمبيوتر، قيل عنه: إنه أغنى إنسان في العالم.

الآن: حجمه المالي خمسون مليار دولار، شاب في مقتبل العمر، برنامج الويندوز، وبرامج الكمبيوتر كلها من إنتاجه .

((خير لك من الدنيا وما فيها))

((خير لك من حمر النعم))

((خير لك مما طلعت عليه الشمس))

[أخرجه الحاكم في مستدركه]

خذ هذه الصحبة واحذر من غيرها :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١١٩]

كن معهم، فاصحبهم، وتأدب في مجالسهم، وخل حظك وراءك مهما قدموك، صدق القائل:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرا

فاصحبهم وتأدب في مجالسهم وخل حظك مهما قدموك ورا

هذه القصيدة لأبي مدين شعيب .

اجلس مع أهل الله في أدب، وعفة، وتواضع، وذوق، وقرب من الله، هذا معنى قول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١١٩]

واللهِ لن تجد إنساناً أديباً إلا وله منهل علمي ينهل منه، لن تجد إنساناً أديباً إلا وله مسجد يتأدب بأدبه، ابن المسجد متميز، سمته حسن، عنده حياء، لا ينطق بكلمة نابية، أما إذا جلستُ مع أناس لا أعرفهم، أكشفهم في دقيقة واحدة من مزاحهم الرخيص، ليسوا من أصحاب الطريق إلى الله، هؤلاء

أبناء الطريق، هناك ابن طريق، وهناك ابن الطريق، ابن طريق إلى الله سالكة، وهناك ابن الطريق، من مزاحهم المنحرف، من نظراتهم الوقحة، من كلامهم القاسي، من استعلائهم، فقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١١٩]

لمصلحتك، تقتبس منهم الشيء الكثير، لذلك: إذا كان للإنسان أخٌ مؤمن، وفيٌّ، ليعضّ عليه بالنواجذ، لأنه كما قال بعض العلماء:

((هو أندر من الكبريت الأحمر))

نادر جداً، صديق صدوق، صديق مؤمن، نصوح .

شعرت مرة، أن بعض أخواننا في المسجد، كل خمسة يقيمون لقاء أسبوعياً، كل اللقاء ود ومحبة، أنس ولطف، تناصح، ترتاح نفوسهم، الإنسان اجتماعي، الإنسان لو عزلناه عن أخوانه في مكان، عزلناه عن الضوء، وعن الساعة، وعن التاريخ، وعن الليل والنهار، وعن الأشخاص عشرين يومًا، يختل توازنه العقلي، فالإنسان اجتماعي .

لذلك ورد:

((الجليس الصالح خير من الوحدة، لكن الوحدة خير من جليس السوء))

إذا وُجد جليس السوء فعش وحدك، فهو أرقى أنواع العبادة، قال تعالى:

(وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفقاً)

[سورة الكهف الآية: ١٦]

نقطة هامة :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الصِّدْقَ بِرٌّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ فُجُورٌ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّار، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا))

الآن: هناك موضوع سريع، هناك صدق الأقوال وصدق الأفعال، لو سألتني: ما الكتاب الذي تقرأ منه؟ قلت لك: أنا أقرأ كتاب رياض الصالحين، أنا صادق، وإنه رياض الصالحين، جاء كلامي مطابقاً للواقع، هذا صدق الأقوال، هذا الشيء سهل، لكن الشيء الصعب صدق الأفعال، أن تقف أمام الحجر الأسود، وأن تستلمه، وأن تبكي، وأن تقول: يا رب، باسم الله، الله أكبر، اللهم إيمانا بك،

وتصديقاً لكتابك، واتباعاً لسنة نبيك، وعهداً على طاعتك، ثم انتهى الحج، ورجعت إلى الشام، جلست في البيت، وذهبت إلى المحل، حلحلت الأمور، بعد شهرين من الزمن، عدت كما كنت، تقول في البيع: بديني رأس مالها أكثر، وهي رأس مالها أقلّ، قال تعالى:

(وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ)

[سورة الأعراف الآية: ١٠٢]

هذا ما كذب في لسانه، بل كذب في أفعاله، أفعاله لم تأت مطابقة لعهد الله عز وجل، هذا اسمه صدق الأفعال، أو كذب الأفعال .

فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ))

فإذا كنت صادقا في أفعالك، هداك الصدق إلى البر، إلى سبب الجنة، وهو العمل الصالح، يصلح عملك إذا كنت صادقاً مع الله عز وجل .

((إِنَّ الصِّدْقَ بِرٌّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ فُجُورٌ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا))

نريد صدق الأفعال، لا صدق الأقوال، لأن الله عز وجل أثنى على سيدنا إبراهيم فقال:

(وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى)

[سورة النجم الآية: ٣٧]

وفّى ما عليه .

قصتان من هذا العصر :

لي قريبة، لها زوج توفي، كانت له زوجة ميتة، له منها أولاد شباب، فهذا القريب قال لزوجته في ساعة صفاء: لي عند رجل خمسمئة ألف، وضعتها استثماراً، هي لك إذا متُّ، كلمة، ليس هناك ورقة، ولا شهود، ولا على مسمع من أولاده، فلما مات قالت لأولاده: أبوكم قال لي كذا، فقالوا: حاضر يا خالة، نزلوا إلى المحل التجاري، قالوا لصاحبه: اكتب وصلاً لخالتنا، بدلاً من وصلِ والدنا، فدهشتْ، بهذه البساطة، بعد أسبوع، أعطوها خمسة عشر ألف ليرة، وقالوا لها: هذا المهر، قالت: جزاكم الله خيراً، بعد أسبوع قالوا لها: سألنا شيخاً فقال: يجب لك تسعون ألفاً، وليس خمسة عشر، على السعر الجديد، أعطوها تسعين ألفاً، هذا الشيء الطبيعي، بلا دين، لكن لأن أداء الحقوق صار نادراً، صار هذا الفعلُ أمراً عظيماً .

هناك أخ من أخواننا، أقام بناية ضخمة جداً، من عشرين سنة، بناها وباعها، هناك تأخير إداري للترسيم، باع البيت بثلاثين ألفاً، وأصبح ثمنه اثني عشر مليوناً بعد عشرين سنة ، وهو غير مرسم،

فالجماعة قلقوا قلقاً شديداً، عرضوا عليه، وأحدهم أحد أخواننا من كبار تجار الحريقة، عرضوا عليه كل بيت مليون حتى يرسّمه لهم، بيتك ثمنه اثنا عشر مليونا، اشتريته بثلاثين ألفا، ولكن ليس باسمك، تدفع مليونا حتى يصير باسمك، عرضوا عليه، صدقوني، مئة مليون، البناية فيها مئة وحدة، ضخمة جداً، بين بساتين وأقبية وطوابق، عرضوا عليه مئة مليون، ماذا قال؟ قال: لا، أنا بعتكم، وقبضت الثمن، وربحت عليكم، وليس لي عندكم شيء، ولما يحين الوقت، سأكتب البيت باسمكم، بعد شهرين وفى بعهده، كتب البيوت بأسماء أصحابها .

هذا أمر نادر، لا، هذا الأصل، هذا الحق، هو لم يفعل شيئا إلا ما أمره الله، ولكن لأن المستقيم نادر، صارت القصة غريبة جداً، من قلة الخير، وقلة الوفاء، والذمة، أصبحت القصة نادرة، هذا وضع مئة مليون تحت رجله لئلا يغضب الله عز وجل، لماذا آخذ منكم مليونا؟ أنا بعتكم في زماني بثلاثين ألفا، وربحت عليكم سبعة آلاف، وقبضت المبلغ، وليس لي عندكم شيء، لك عندي أن أفرغ لك باسمك، هذا هو الدِّين .

ومرة ثانية الدين ليس في المسجد، إياك أن تظن أن كل من دخل المسجد، صار صاحب دين، تدخل المسجد لتأخذ تعليمات الصانع، وتدخل مرة ثانية وتقبض الأجرة بالصلاة ، لكن أين دينك؟ بالبيت، أين دينك؟ في الدكان، أين دينك؟ في العيادة، أين دينك؟ في المكتب، أين دينك؟ في حفلك، هذا الدين .

أكثر الزوجات يقلن: هذا صاحب دين، يصلي، لا، هذا كلام باطل، لا تكفي الصلاة حتى يكون صاحب دين .

قال سيدنا عمر لرجل:

((من يعرفك؟ قال: فلان يعرفني، قال: ائتني بمن يعرفك، أتى بشخص، وقال: هذا يعرفني، قال له: هل سافرت معه؟ قال: لا، قال: هل حاككته بالدرهم و الدينار؟ قال: لا، قال: هل جاورته؟ قال: لا، قال: أنت لا تعرفه))

نصيحة لك :

فيا أيها الأخوة، كلمتان، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١١٩]

لا بد لك من مجلس علم، لا بد لك من أخوان مؤمنين، اسهر مع المؤمنين، ادع المؤمنين، سافر مع المؤمنين، شارك المؤمنين الصادقين، وليس المزعبرين، حتى لا تصاب بخيبة أمل .

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه]

وإن الصدق في الأفعال يهدي إلى البر، وإلى العمل الصالح،

((إنَّ الصِّدْقَ برٌّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ فُجُورٌ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ كَذَّابًا))

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٥٧-١٠١) : باب التحذير من ارتكاب ما نهى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم عنه - متى يهلك الإنسان، ومتى لا يهلك؟ ومتى يغار الله، وهل ينجو إذا بلغه فتوى غير صحيحة فأخذ بها من عذاب الله؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٨-٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هي المنهيات والمأمورات في الشرع، وما فائدة مجالس العلم؟ :

أيها الأخوة الكرام، في كتاب رياض الصالحين، وهو من الكتب القيمة في الحديث الشريف، أحاديثه صحيحة، وأبوابه منظمة، وفي كل باب كما تعلمون، بدأ ببعض الآيات المتعلقة بموضوع الباب، ثم يأتي بالأحاديث الصحيحة، اخترت لكم اليوم باب: التحذير من ارتكاب ما نهى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم عنه .

هناك منهيات، وهناك مأمورات، المنهيات إن فعلت واحداً منها حجبت عن الله عز وجل، خطورتها أنها تحجب عن الله، أما إذا أمرك الله، أن تدفع من مالك صدقةً، فتصدق بقدر ما تستطيع، لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، ما أمرتكم به فافعلوا منه ما تطيقون، ما نهيتكم عنه فاتركوه كلياً .

المنهيات لها شيء، والمأمورات لها شيء، المنهيات مهلكة .

ضربت مثلاً سابقاً: مستودع منهي أن يكون غير محكم، إذا كان غير محكم فكل ما فيه تخسره، أما حينما تكلف أن تملأه، وهو محكم، فاملأ منه بقدر ما تستطيع، كل شيء وضعته في هذا المستودع محفوظ، لأنه محكم، الأمر بقدر ما تستطيع، الصدقة صلاة النفل، صيام النفل، الدعوة إلى الله، القدرة على إقناع الناس بقدر ما تستطيع، أما إطلاق البصر فمحرم، لأن فيه نهيًا، يقول الله عز وجل:

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة النور الآية: ٦٣]

دائماً في الأمن الجنائي كلما وقعت جريمة، هناك مقولة: ابحث عن المرأة، في الأعم الأغلب: وراء كل جريمة امرأة، قياساً على هذه القاعدة: كلما وقعت مشكلة فابحث عن المعصية .

لذلك: بركة مجالس العلم، أنها تعرفك بمنهج الله، تعرفك بموقعك من الدين، هذا هو الحكم الشرعي، هذا هو الحلال، هذا هو الحرام، فأنت حينما تعرف الحلال والحرام، والخير والشر، وما ينبغي وما لا ينبغي، تعرف موقعك، وأول خطوة في حل أي مشكلة: أن تحددها، فإذا حددتها كانت التحديد أولى مراحل حل المشكلة .

لذلك العلماء قالوا:

((درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، دع خيراً عليه الشر يربو، لا مؤاثرة في الخير))

يتوهم الإنسان أن هذه المرأة فيها خير، وسأدعوها إلى الله، وسأجلس معها ساعات طويلة، ولو في خلوة بنية هدايتها، والأخذ بيدها إلى الله، هذا منزلق شيطاني، درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، دع خيراً عليه الشر يربو، قال تعالى:

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة النور الآية: ٦٣]

العذاب الأليم بعد المعصية، والفتنة فساد ذات البين، فساد العلاقات، فساد علاقة زوجية، انتهت إلى الطلاق، فساد بين شريكين، انتهت إلى فصم الشركة، فساد بين أقرباء، انتهت إلى المعاداة والحرب، هذا كله من المعاصي .

من مشاكل العالم الإسلامي اليوم :

أيها الأخوة، يوجد مشكلة يعاني منها العالم الإسلامي اليوم، في كل قطر هناك فتاوى كأنها تبيح الحرام، هنا في هذا البلد فرضاً، يوجد فتوى من أكبر عالم بإباحة الربا، هنا في هذا البلد -بلد في شمال أفريقيا- يبيح الصحون الفضائية، ورؤية الأفلام الإباحية، هكذا ببساطة، هنا يبيح الاختلاط .

فالمشكلة الخطيرة: أنت محاسب أمام الله وحدك، وكل إنسان يتكل على فتوى، أنا أعده ساذجاً، سوف تحاسب حساباً عسيراً، ولن ينجيك هذا الذي اعتمدت على فتواه .

ما وراء هذا المثل :

أيها الأخوة، فأحياناً القضية مضحكة، أضرب لكم مثلاً في رياضيات: الأعور نصف بصير، صحيح، البصير له عينان، هناك عين معطوبة .

عندنا قاعدة في الرياضيات ثابتة: أن حدين أو أكثر إذا ساويا حداً واحداً فهما متساويان .

أحضر مثلاً بالعملات، خمسة آلاف ليرة تركي تساوي دولارًا، خمسين ليرة سورية وألف خمسمئة ليرة لبنانية تساوي دولارًا، هل أنت تعتقد أن الخمسة آلاف ليرة تركي تساوي ألف وخمسمئة ليرة لبنانية؟ تساوي خمسين ليرة سورية؟ لماذا هذه الحدود متساوية؟ لأن جميعها تساوي حداً واحداً، هل هذه القاعدة واضحة؟ .

الأعور نصف أعمى، صحيح، والأعور نصف بصير، نصف الأعمى ونصف الأعور متساويان، أليس كذلك؟ .

إذا عندنا كسران عشريان، بإمكانك أن تقسمهما على عدد ثابت، والقيمة لا تتغير، ممكن أربعة من ثمانية، أربعة من ثمانية تقسيم اثنين، اثنين من أربعة، الأعور نصف بصير، والأعور نصف

أعمى، نصف الأعمى ونصف البصير ساويا حداً واحداً فهما متساويان، إذاً: نصف البصير يساوي نصف الأعمى، تقسيم اثنين، يكون الأعمى كالبصير، الله عز وجل قال:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

[سورة فاطر الآية: ١٩]

ما رأيك بهذه في الرياضيات: هل هي مقبولة؟ هذا نقاش بيزنطي، طبعاً الرياضيات مقبولة، ولكن في الأمور الاجتماعية، والإنسانية غير مقبولة، يمكن أن أعمل لك كلمة أولى، وثانية، وحاجيات، تكون النتيجة أن الشيء المحرم مباح؟ ليس معقولا، فالحرام حرام، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

[سورة النور الآية: ٣٠]

ما كل محاكمة رياضية تؤدي إلى حكم شرعي، فلذلك قال تعالى:

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة النور الآية: ٦٣]

وقال تعالى:

(وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ)

[سورة آل عمران الآية: ٢٨]

الله عز وجل وضع منهجًا، وهذا المنهج لا بد من أن يتبع، فإذا خالفه الإنسان دفع الثمن باهظاً .

ما الذي ينبغي أن تفعله؟ :

ذكرت لكم البارحة، أن المؤمن كان جريئاً، وآمن، وتحمل بعض المشاق، لكن قبض الثمن باهظاً يوم القيامة، والكافر رد هذا المنهج، ودفع الثمن باهظاً يوم القيامة، وفي الدنيا قضية منهج، الله عز وجل هو الذي أمر، وهو الذي نهى، وهو الحكيم الخبير .

أنا أريد ألاّ تعتمد على فتوى، في مصر يوجد فتوى، في الجزائر هناك فتوى، بالمغرب في فتوى، فتاة تسبح بملابس السباحة، قالوا: هذا هو الحجاب في المغرب، شيء لا يصدق، ما بقي من الإسلام إلا اسمه، وما بقي من القرآن إلا رسمه، هذا في آخر الزمان .

الإسلام كيان جامد، واضح المعالم، هذا الكيان سخناه فصار لزجًا، سخنّاه فصار مائعًا، سخناه فصار بخارًا .

الآن: الإسلام بخار ليس له حجم، يقول لك: فكر إسلامي، أرضية إسلامية، خلفية إسلامية، مشاعر إسلامية، ولكن السلوك لا يوجد شيء منه إطلاقاً، والأمثلة كثيرة جداً.

فأنا الذي أريد أن أؤكد عليه: لو استطعت أن تنتزع من فم النبي صلى الله عليه وسلم فتوى، ولم تكن محقاً، لا تنجو من عذاب الله، لا تعتمد إلا على النص الصحيح، فالمحلل محلل، والمحرم محرم، وما سمح الله به سمح الله به، وما لم يسمح به ما لم يسمح به .

أنت المسؤول :

أيها الأخوة، راقب نفسك، عندك بيت، تريد أن تبيعه، خرجت منه، فرأيت أمامك وسيطًا عقاريًا، سألته: هل تشتري هذا البيت؟ قال لك: بثلاثة ملايين، بربك هل تبيعه فوراً ؟ تقول له: ادخل نكتب العقد، لا تسأل وسيطًا آخر ثالثًا، رابعًا، خامسًا، لماذا في بيع بيت تسأل عدة وسطاء، وفي أمر دينك تعتمد على فتوى غير صحيحة؟ يوجد أشياء محرمة قطعاً بثنايا الكتب .

بالمناسبة: هذه بيوت الشام كلها، هل يوجد بيت لا يوجد فيه سلة مهملات، وهذه ألطف كلمة؟ لو جمعت قمامات البيوت كلها، لصار عندك جبل من القمامة، أليس كذلك؟ إذا كان في كل كتاب يوجد دس، وأخذنا هذا الدس، بكل كتاب فقه يوجد تطرف، حكم غير مقبول، أخذنا هذا الحكم، وجمعنا كل هذه السقطات من الكتب في كتاب .

أنا وقع تحت يدي كتاب قبل سنة تقريباً، اطلعت عليه من دفته إلى دفته، والله ما من معصية في الإسلام إلا وهي مغطاة بفتوى، قلت: كأن هذا الكتاب حاوية، كيف جمع مؤلفه كل هذه السقطات من كل الكتب في كتاب واحد؟ كأنه سمح لما دون الزنا بقليل للشباب، كسب المال الحرام مسموح، واللقاء مع الفتاة مسموح، والاختلاط مسموح، والربا مسموح .

الآن: مشكلة المسلمين، يظن أنه إذا أخذ فتوى من أي إنسان، نحن في بلدنا العلماء منضبطون، ويوجد تشدد، ولكن تأتينا فتاوى بعيدة جداً من مصر، من شمال أفريقيا، غير معقولة إطلاقاً، كأنها تبيح الحرام الصريح، فإذا اعتمد الإنسان على هذه الفتوى، لا ينجو من عذاب الله، لأنه يوجد فتوى، ويوجد تقوى، والتقوى أولى أن تعتمد عليها، فالآية الكريمة:

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة النور الآية: ٦٣]

لذلك: العلم لا يؤخذ إلا عن الرجال، ومن لم يأخذ العلم عن الرجال، فهو ينتقل من محال إلى محال، لأنه من أدراك أن هذه الفتوى دست على هذا العالم، وهو منها بريء.

من دسائس الماكرين :

يقول الإمام الشعراني: إني حملت كتاباً معيناً، وذهبت به إلى مكة المكرمة، وفي هذا الكتاب أشياء كثيرة لا ترضي الله عز وجل، التقى بأحد علماء مكة المكرمة، فوجئ أن هذا العالم عنده نسخة بخط المؤلف، فلما عرض نسخة المؤلف الأصلية على هذه النسخة، كل شيء أنكره في هذا الكتاب،

لم يجده في هذه النسخة الأصلية، إذاً: هو مدسوس، وقال: ودسوا علي أنا كتاباً ما ألفته، ودسوا على الإمام أحمد بن حنبل عقائد زائغة، ودسوا على الإمام الفيروز آبادي كتاباً ما ألفه، ودسوا على الغزالي في إحيائه كلاماً ما قاله، ودسوا على أبي حنيفة كلاماً ما قاله، عندنا بحث مطول عن الدس في الإسلام .

هل يمكن لامرأة حسناء تصلي بين الصحابة؟ الحكم الفقهي إذا حازت المرأة رجلاً فالصلاة فاسدة، امرأة تصلي بين أصحاب رسول الله، وبعضهم يصلي خلفها، ليرى محاسنها في أثناء ركوعها وسجودها، وبعضهم يصلي أمامها لئلا يرى محاسنها، هذا كلام غير مقبول إطلاقاً، الصحابة أرفع من هذا .

هل صحَّ أن النبي عليه الصلاة والسلام، كان يمشي في الطريق فرأى بابًا مفتوحًا، نظر إلى امرأة عارية تماماً، تغتسل فوقعت في نفسه، فقال: سبحان الله، فأمره الله عز وجل أن يتزوجها، والقصة لا أصل لها إطلاقاً .

أنا أريد أن أضع بين أيديكم مقاييس دقيقة: ما كل شيء تقرأه في الكتاب صحيح إطلاقاً، يوجد أشياء مدسوسة، يوجد أشياء ليس لها أصل .

حدثني دكتور في التاريخ، والله أنا أكبرته، أجرى بحثاً مطولاً حول قصة الراهب بحيرة، قصة لا أصل لها إطلاقاً، قصة دست في التاريخ الإسلامي، وكم من قصة دست في التاريخ الإسلامي ولا أصل لها؟ .

من معالم التاريخ الإسلامي :

أيها الأخوة، الحقيقة الدقيقة: أنه ما أتيح للتاريخ الإسلامي رجال عظام كما أتيح للحديث الشريف، هناك رجال عمالقة قرؤوا الحديث، ومحصوا الحديث، وفرزوا صحيحه من ضعيفه، من موضوعه، ودرسوا الرجال، ودرسوا علم الجرح والتعديل، إلى أن توصلوا إلى تصفية هذه السنة من كل ما دس عليها، ومن كل حديث موضوع، أو ضعيف دخل فيها، أما التاريخ ففيه أشياء غير معقولة إطلاقاً، ومبالغات لا يقبلها عقل، فهذا الدين كما قال النبي:

((ابن عمر دينك دينك، إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا))

استقامت عقيدتهم، واستقام تفكيرهم، واستقامت سيرتهم .

تنبيه هام :

أيها الأخوة، أنا أنبه أخوتنا الكرام، أن هناك فتاوى من خارج بلادنا ليست صحيحة ، وليست مقبولة، وهناك عليها ألف دليل يبطلها، قوله تعالى:

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾

[سورة البقرة الآية: ٢٢٣]

مكان الحرث معقول، فهل يعقل أن تجد فتوى بإباحة الإتيان من مكان آخر؟ مستحيل .

يقول لك: في الكتاب الفلاني، في الصفحة الفلانية، أنت الآن ساكن في الشام، ذهبت إلى بريطانيا مثلاً، ورأيت كتاب جغرافيا من أعلى مستوى، ألفه ثلاثة وثلاثين دكتورًا في الجغرافيا، وطبعته أكبر دار نشر، فتحت إلى الشرق الأوسط، فإذا دمشق على الساحل، تحت بيروت، هل تصدقه؟ مستحيل .

أنت من أبناء دمشق، ودمشق مدينة داخلية، لو تجد ألف كتاب، يضع دمشق تحت بيروت لا تصدق، الواقع أقوى من أي نص .

مثلاً: أنا أردت من مثل الرياضيات، وهو مثل مضحك، أن الأعور نصف أعمى، الأعور نصف بصير أيضاً، إذا ساوى حدّان في الرياضيات حداً واحداً فهما متساويان، نكتب نصف الأعمى يساوي نصف البصير، قسم على اثنين، صار الأعمى كالبصير، والله تعالى قال:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾

[سورة فاطر الآية: ١٩]

هذا شيء للتسلية مع أنه رياضيات، ما كل معادلة رياضية تفضي إلى تعطيل حكم شرعي نقبلها .

اليوم إذا كان في فرنسا، لا بد للفتاة أن تخلع حجابها، كي يسمح لها بدخول مدرسة فرنسية يقال: هكذا النظام هناك، أخي هذه ضرورة، ما معنى الضرورة؟ الضرورة مطاطة، ماعت، وساخت، وساحت، الضرورة: أن تخاف الهلاك أنت، ومن تعول جوعاً، أو عرياً، أو تشرداً، هذه هي الضرورة .

حينما تهدد حياتك بالخطر، وحياة من حولك، من أولادك، وأهلك جوعاً، أو عرياً، أو تشرداً، فهذه هي الضرورة، أما إذا أمكنني أن أضع ابنتي في معهد شرعي إسلامي، بإمكاني أن أدرسها، أما أن أجعلها هكذا سافرة، تدخل إلى المدارس، وتختلط بالطلاب في سن المراهقة، وقد تفسد، وقد تخسر دينها، وقد تخسر شرفها مثلاً، فهل نسمي هذا ضرورة؟ .

الحقيقة: أنا أستمع إلى فتاوى عجيبة جداً .

مرة سئلت على الهاتف: هناك امرأة صاحبة دين جداً، وحافظة كتاب الله، وجاءتها زجاجة -لا أسمي اسمها بدرس دين- زجاجة خمر بالاسم الكبير، وغالية جداً، هل مسموح أن تقدمها هدية لإنسان غير مسلم؟ يوجد فتاوى مضحكة .

فيا أيها الأخوة، محور الدرس اليوم، الآن: يتصدر لنا فتاوى من العالم الإسلامي غير مقبولة إطلاقاً، أنا لا أدخل بالتفاصيل، ونحن بفضل الله هذه البلدة بلدة مباركة، فيما أعتقد أن علماءها ورعون، وأن علماءها منهجيون، ولا يفتون إلا بالحق وبالدليل، أما إذا جاءتنا فتاوى عن التمثيل،

والغناء، والاختلاط كله مسموح، ولم يبقَ شيء أساساً، صار الدين غازاً، كان جسم صلباً، وله حجم معين، صار لزجاً، يتشكل كما تريد، وصار مائعاً يدخل بأي قارورة، ثم صار غازاً ليس له حجم، ولا شكل ثابت، بقي ثقافة إسلامية، خلفية إسلامية، أرضية إسلامية، نزعة إسلامية، اتجاه إسلامي، تفكير إسلامي، مشاعر إسلامية، مكتبة إسلامية، ولكن لا يصلي، الإسلام صار وردة نتزين بها على صدورنا، لن تنجو من الله بفتوى .

احذر من بطش الله :

مرة قال لي صاحب مطعم، والمطعم يبيع خمراً: أنا ليس لي علاقة إن شاء الله، هي في رقبة شريكي، قلت له: أنت تأخذ الأرباح، قال: هذه ليس لها علاقة، أنا مضطر أن آخذ أرباحي، ولكن برقبته إن شاء الله، لا ينجو من عذاب الله، أنا أعطيكم أفكاراً دقيقة، فلذلك:

(وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ)

[سورة آل عمران الآية: ٢٨]

والآية الثانية:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

قال لي شخص البارحة: أنا دفعت زكاة مالي ضعفاً بالخطأ، هل أستطيع أن أستردها؟ قلت له: أجمل خطأ بكل حياتك، أن تخطئ مع الله في دفع الزكاة، لأن الله يمكن أن يعطيك ملايين مملينة، ممكن أن يجعلك شحاداً، هل تريد أن تحاسبه بهذه الدقة؟ دفعت زيادة وانتهى الأمر، تريد أن تسترجعها، يريد أن يحسبهم على السنة القادمة .

سمعت من يومين عن إنسان، وقع في خطأ بسيط، كان بالإمكان أن يتلافاه، كان سوف يدفع قريباً من مئتي مليون، وأنت تجمع المال ألفاً وراء ألف، مئة وراء مئة، وتدفعها مئتي مليون، وأنت راغب لتنجو من عذاب أكبر، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

ذكرت هذا كثيراً، الإنسان بهذا الميليمتر، قطر الشريان الأبهر التاجي، كل حياتك، وكل نشاطك، ومكانتك، وهيمنتك، وشخصيتك، وأولادك أمامك، ومحلك التجاري، ومركبتك، وسجلك التجاري، ومستورداتك، وصادراتك كلها، على هذا الميليمتر إذا ضاق، فلا شيء في الحياة له معنى عندك .

تحتاج إلى قثطرة، وزرع، وبالون، وراصور، ومدأب، يا ترى بالشام؟ أم بالأردن؟ أم في لبنان؟ أم في أمريكا؟ أم في بريطانيا؟ ومتى؟ وتحاسب الله عز وجل على مبلغ دفعته خطأ بالزكاة، وتريد أن تسترده بالسنة القادمة، قال تعالى:

(إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

قال لي رجل: والله يا أستاذ لي معمل وبيت مع الحديقة ألف متر مساحته، ثلاث سيارات، سيارة للمعمل، وسيارة للسفر فخمة جداً، وسيارة للمدينة، قال: ما دخل بيتي الحلويات إلا بالصواني، وما دخلت الفاكهة إلا بكميات الجملة، وجدته والله يأكل علبة السردين بلا صحن، وينام على طاولة التفصيل في غرفة قميئة في أطراف دمشق، خسر ماله كله، إن الله إذا أخذ أدهش، قال تعالى:

(إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

خلاصة ما سبق :

أنا أقدم لكم حقيقة دقيقة جداً: المأمورات، أمرك الله سبحانه وتعالى بالصدقة، بخدمة الخلق، بالدعوة إلى الله على قدر ما تستطيع، أما المنهيات فلا يوجد فيها حل وسط ، الاستقامة يجب أن تكون محكمة، وإلا فقد قال تعالى:

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة النور الآية: ٦٣]

وقال تعالى:

(إنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

[سورة هود الآية: ١٠٢]

الله عز وجل يعلم كيف يداوي؟ يقول لك: أنا مقيم في بلد الإنسان حرياته مقدسة، كرامته مقدسة، وممكن أن يأخذ حقه الكامل، يعني في هذا البلد لا يوجد أدوية للمنحرف، يوجد مليون دواء من نوع ثان، يوجد حوادث سير، زنوج، يوجد أمراض عضالة، ألم يقدر الله عز وجل أن يخلق إنساناً من دون مرض؟ قادر، وأكثر الحيوانات لا تمرض، عندما يكون المرض ليس له علاقة بالتكليف، لا يوجد حاجة للحيوان أن يمرض .

الدواب مثلاً تأكل، وعندما تشبع تترك الطعام، مهما حاولت لا يمكن أن تأكل لقمة زائدة، هي مجهزة ألا تضر نفسها، الحيوان غريزياً مصمم ألا يضر نفسه .

الله عز وجل جعل المرض أداة تأديبية للإنسان، وأثمن شيء صحة الإنسان .

أنا أعرف شخصاً، فقد بصره، ويحمل أعلى شهادة، ويحتل أعلى منصب، في بعض الوزارات، ومتزوج من امرأة فرنسية، وله دخل، ومكانة، وهيمنة، ومرتبة قريب من وزير، فقد بصره، له

صديق هو صديقي، بعد شهرين سرح من عمله، فزاره في بيته، فقال له: والله أتمنى أن أجلس على الرصيف، أسأل الناس لقمة آكلها، وليس على كتفي إلا هذا المعطف، وأن يرد الله لي بصري .

مرة كنت عند طبيب، سمعت مكالمة، قال له الطرف الثاني: أي مكان في العالم، وأي مبلغ، قال له الطبيب: السرطان بالدرجة الخامسة لا يوجد أمل إطلاقاً، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

يوجد شخص قصته مفيدة جداً، والقصة فيها موعظة: يوجد شخص له عمة وأب، اشترك أبوه مع عمته في شراء بيت في جمعية سكنية، فالعمة لها إلمام بالقوانين، واطلاع واسع، فالبيت كان ثمنه مئتان وخمسون ألفا من عشرين سنة .

الآن: ثمنه ثمانية عشر مليوناً، فهذه الأخت طلبت من أخيها أن يخرج من البيت، قال لها: ما هذا الكلام؟ قالت له: البيت كله لي، والبيت باسمها، ولكن أخاها دفع نصف ثمن البيت بالتمام والكمال، ولكن ما خطر في باله، أن يطالب أخته بتسجيل نصف البيت له ، أخت نسبة من أب وأم، قالت له: سوف أعطيك مليوناً وتخرج، وإلا أستطيع أن أخرجك.

هذا الأخ كم من ابن عنده؟ ثلاثة عشر ولد موظف، ودخله محدود، وليس له إلا هذا البيت، والأخت الملمة بالقوانين، يبدو أنه يوجد عندها خطة مسبقة بإخراجه من البيت ، طبعاً الأخ لا يوجد شيء باسمه، ولا يوجد وصل بالمبالغ، بين أخ وأخته المعاملة .

جاء الابن أحد أخوانا، وقال لي: هكذا فعلت معنا عمتي، القصة طويلة، وبشيء مختصر، التهديد نفذته، وأخرجته من البيت، وسكن نصف الأولاد في بيت الجدة، والنصف الآخر في بيت الجد، ووضعت الأغراض في مستودع، وهذه الأسرة شردت، وانتهى الأمر ، والهدف تحقق .

أخت شقيقة لأخ شقيق، دفع نصف ثمن البيت بالتمام والكمال، ولكن خطأه لم يسجل حصته في البيت، ولم يأخذ وصلاً منها، لما صار البيت ثمنه ثمانية عشر مليوناً، دخل الطمع .

يقول لي هذا الأخ: عمتي معها سرطان، والعياذ بالله، لا تنام الليل، وصوت صياحها، يصل إلى كل الطوابق، أعرف السرطان بالأمعاء يبقى سنتين، بعد شهر قال لي: توفيت، وذهبت إلى البيت، وألقيت كلمة في البيت، من وريثها الوحيد؟ أخوها، عاد إلى البيت هو وأولاده، بعد شهرين من خروجه من البيت، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

هناك قصص يشيب لهولها الولدان، عندما يتدخل الله، عندما يظلم الإنسان.

أنا أنصح أخواننا الكرام، لا تعتمد على فتوى مستوردة، وأنا أطمئنك، لكل معصية فتوى، لكل معصية تخطر في بالك فتوى، الحمد لله الإفتاء نشاطه واسع جداً، ماذا تريد نجعل فتوى؟ .

قال لي شخص: يوجد مخالفة، يريد شاهداً، يشهد عكس المخالفة، وجد شاهداً، فقال له الشاهد: عشرة آلاف ليرة، لأني أنا شاهد زور، فقال له: يوجد حلف؟ قال: نعم، فقال له : عشرون ألفا، لأنني سوف أحلف على القرآن، قال لي: والله دفعت له عشرين ألفا، حتى شهد شهادة زور، وحلف على القرآن كذباً، قال تعالى:

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة النور الآية: ٦٣]

أعرف شخصاً، استطاع أن يخلص بيتاً بثلث قيمته، بيت جيد جداً، مساحته مئتان وخمسون متراً، غربي، قبلي، صار أصحاب البيت مرغمين على بيعه، وكسب الدعوى، والدعوى بقيت ثماني سنوات، والله في اليوم الثلاثين من توقيع العقد توفي، ما تمتع بالبيت ، خرج إلى الدار الآخرة متلبساً باغتصاب بيت، الإنسان يفكر .

أيها الأخوة، أحد أخواننا نسأل الله أن يرده بالسلامة، الآن هو مسافر، ساكن في بيت فخم جداً، ولـه مرتبة عسكرية عالية جداً، طرق باب صاحب البيت، والبيت يسكنه منذ ربع قرن، ويعطيه أجرة بالتمام والكمال، طرق بابه، قال له: أنا البيت سوف أفرغه، وبعد أسبوع تعال واستلمه، اختل توازن صاحب البيت، بعد أسبوع قال له: هذا المفتاح، والله يجزيك الخير، ويستطيع أن يأخذ خمسة ملايين ليرة فروغًا، ما أخذ قرشًا، هذا الإيمان.

لا تعرف الله عز وجل كيف يحفظك؟ يحفظك بصحتك، الغلطة مع الله كبيرة جداً، الله بيده كل الخيارات .

سأقول لكم ماذا بيده؟ دسام القلب بيده، والشريان التاجي بيده، سيولة الدم بيده، نمو الخلايا بيده، الكبد بيده، يوجد تشمع كبد، الفشل الكلوي بيده، الأعصاب، الخثرة، الدماغ بيده، كل شيء بيده، فلما الإنسان يستقيم يحفظه .

إليكم هذه الآيات التي وردت في باب التحذير من ارتكاب ما نهى الله ورسوله عنه:

نذكركم بالآيات في مطلع هذا الباب:

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

[سورة النور الآية: ٦٣]

(وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ)

[سورة آل عمران الآية: ٢٨]

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

[سورة هود الآية: ١٠٢]

اسمع إلى جمالية هذا الحديث ومعانيه :

في هذا الباب حديث شريف واحد: عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللّه عَنْه، أن النَّبيِّ صَلَّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ اللَّهَ تعالى يَغَارُ وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ المرء مَا حَرَّمَ اللَّهُ عليه))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة]

فالإنسان لما يأتي ما حرم الله عليه، يغار الله عز وجل، ومن دلائل غيرته: أنه يسوق له شدةً يردعه عن هذه المعصية، تقريباً أكثر الشدائد التي تصيب المؤمن العاصي المقصر من هذا القبيل .

الإنسان اجتهد أن هذا سيفعله، والشيء محرم، لو أن ربنا تركه لاعتقد: أن هذا مباح، فلا بد من تدخل الله عز وجل، بلفت النظر بهذا الإنسان، إما بخاطر، وإما بنصيحة، إذا ما ارتدع بمصيبة، وهذه فلسفة المصائب للمؤمنين، لما يرتكبون ما حرم الله، الله عز وجل يعاقبهم حتى يردعهم، قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم الآية: ٤١]

نتائج الفساد، كان من الممكن أن يقع فساد، ولا تظهر نتائجه، الاختلاط، الإباحية في العالم الغربي، كان ممكنًا أن تكون من دون إيدز، أليس كذلك؟ عند الله كل شيء ممكن، الله وحده واجب الوجود، وما سواه ممكن الوجود، من الممكن أن يصير فساد أخلاقي وإباحية مطلقة، واختلاط ما بعده اختلاط، وانحلال ما بعده انحلال من دون إيدز، ولكن ما الذي يحصل؟ يتفجر الفساد بشكل انفجاري، في سلسلة متوالية هندسية، متوالية انفجارية، لو كان الفساد من دون نتائج، انتشر بشكل انفجاري .

ولكن الآن: في كل العالم، الإنسان يعد للمليون، قبل أن يفعل فاحشة، وليس خوفاً من الله، بل خوفاً من مرض الإيدز .

الآن: يوجد ردع شديد جداً .

مرة كنت في الجامعة، وضعوا لوحة شكل شاب وفتاة بشكل رمزي، وفوقه احذر الإيدز .

الإنسان كان يحذر معصية الله عز وجل، يرقى إلى أعلى عليين، الآن حتى لو استقام خوفاً من الإيدز، هبط أجره، لأنه لا يخاف من الله، ولا من الآخرة، بل يخاف من مرض الإيدز، امتنع عن الزنا خوفاً من هذا المرض، البطولة: أن تمتنع عن الزنا خوف الله عز وجل، فلذلك يمكن للفساد أن يكون من دون نتائج سيئة، عندئذ يتفاقم بشكل انفجاري ، ولكن قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم الآية: ٤١]

الهدف هو أن نرجع، كما جاء في هذا الحديث:

((إنَّ اللَّهَ تعالى يَغَارُ وَغَيْرَةُ اللَّهِ أنْ يَأْتِيَ المرء مَا حَرَّمَ اللَّهُ عليه))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة]

الله يغار، ويسوق له بعض الشدائد التي تردعه عن هذه المعصية .

زبدة القول :

وأنا أقول لأخواننا: عندما تصل إلى مرتبة، أن تفهم على الله، تكون قد حققت مراحل واسعة وجيدة في الإيمان، لماذا ساق لك هذه المصيبة؟ لماذا ضيق عليك؟ لماذا أضعت هذا المبلغ الكبير من المال؟ لماذا فقدت هذا الشيء؟ لماذا سلط عليك إنسانًا يضغط عليك؟ لماذا يوجد سبب؟ ابحث عن السبب، ولا تكن ساذجًا، كما قال الله عز وجل في كتابه العزيز:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء الآية: ١٤٧]

والنصيحة الثانية في هذا الدرس: لا تعتمد على فتوى لست واثقاً منها، لأن الفتوى جسر إلى جهنم، ولا تنجيك هذه الفتوى من عذاب الله .

مرة خطر في بالي هذا المثل: أنه يجوز أن نقرب النار من البارود، بشرط ألاّ يحصل انفجار، هل هذا ممكن؟ يمكن أن نقرب النار من البارود، بشرط ألاّ يحدث انفجار، هذا كلام مستحيل، افعل هذه المعصية بشرط ألاّ يقع فساد، أي فساد، المعصية كلها فساد أساساً .

هذا الذي أرجوه من الله عز وجل، أن تكون قضية المنهيات دقيقة جداً، وتكون في هوامش أمان بينك وبينها كثيرة، لأنه كلما ألغيت هوامش الأمان، وقعت في الحرام .

تصور الحرام نهرًا عميقًا مخيفًا، له شاطئ مائل، كله حشائش زلقة، وله شاطئ جاف مستوي، الشاطئ الجاف المستوي فيه أمان، والشاطئ المائل الذي فيه حشائش زلقة، احتمال السقوط في النار بالمئة تسعون، ويوجد نهر، المعصية هي النهر، والشبهة الشاطئ المائل، والشيء البين الشاطئ الجاف المستوي، أنت سر على الشاطئ الجاف المستوي، وكن في بحبوحة، فإذا حمت حول الحمى وقعت فيه.

((كَمَا أنَّهُ مَنْ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أنْ يُوَاقِعَهُ، ألا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، ألا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُه))

عد إلى المليون قبل أن ترتكب ما نهى الله عنه، ولا تعتمد إلا على النص الصحيح الذي لا لبس فيه، قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ)

[سورة النور الآية: ٣٠]

قلت كلمة دقيقة اليوم: أنا أقول لك: أريد كأس ماء، أنت اجتهدت، الأستاذ يسعل، سوف أحضرها ساخنة، مقبول، أنت اجتهدت، سوف أحضرها بطاسة، كأس بللور، كأس ألمنيوم، من إبريق، كله مقبول، إلا أن تأتي له بكأس خمر، هكذا فهمت، هذه مستحيلة .

يمكن أن تجتهد، كله مقبول، أما أن تفهم أن كأس الماء كأس خمر، فهذا ليس فهمًا ، ولا اجتهادًا، ولا فتوى، القضية دقيقة، أنا أقول لك: قال تعالى:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ)

[سورة فاطر الآية: ١٩]

تعمل لي معادلات، ويكون النتيجة الأعمى كالبصير، هذه ليست مقبولة، هذا شيء مرفوض، ألم يقل له: أنا أقنعك أن على الطاولة ثلاثة فراريج، فقال له: كل واحدة أنت، أنا آكل واحدة، وأمك الثانية، وأنت كل الثالث يا بني، كلام فارغ .

فأرجو الله سبحانه وتعالى إيقاع سلوكنا وفق الشريعة الواضحة .

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ، مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ، لَنْ تَضِلُّوا؛ كِتَابَ اللَّهِ،وَعِتْرَتِي، أَهْلَ بَيْتِي))

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٥٨-١٠١) : باب الحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر - من معاني النذير في القرآن الكريم والسنة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-٠٩-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

جهز زادك يا بن الأربعين إلى الآخرة :

أيها الأخوة الكرام، في كتاب رياض الصالحين باب عنوانه: باب الحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر .

الحديث المأثور:

((من دخل في الأربعين فقد دخل في أسواق الآخرة))

إذا وصل الإنسان إلى الأربعين، يجب أن يعد العدة لمغادرة الدنيا، تماماً كما لو كنت في نزهة لتمضي عشرة أيام في اللاذقية مثلاً، لاحظ نفسك في اليوم الثامن تغيّر الخطة، تهيئة الأغراض، قطع التذاكر، شراء الهدايا ...إلخ .

من اليوم الثامن، هناك ترتيب جديد، هناك حركة معاكسة، واستراتجية جديدة، فقياساً على هذا السلوك اليومي، من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة .

لذلك: ورد في بعض الأحاديث أنه:

((من بلغ الأربعين، ولم يغلب خيره شرّه، فليتجهز إلى النار))

عاش أربعين سنة، أربعين خريفاً، أربعين شتاء، أربعين صيفاً، أربعين موسم فواكه، نشأ، وكبر، وتزوج، وأنجب، وزوج أولاده، صدق القائل:

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول؟

تعصي الإله وأنت تظهر حب ه ذاك لعمــري في المقال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحــب لمن يحــب مطيع

مفتاح هذا الدرس هذه الآية :

أيها الأخوة، من عادة الإمام النووي، أن يفتتح كل باب من أبواب كتابه رياض الصالحين بالآيات المتعلقة بهذا الباب، قال تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

[سورة فاطر الآية: ٣٧]

أي: عمّرناكم عمراً كافياً كي تتذكروا، لو كان العمر ساعة لما كفى، شهر لا يكفي، سنة لا تكفي، أما قوله تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ)

[سورة فاطر الآية: ٣٧]

أي عمراً مديداً، يتذكر فيه الإنسان ما ينبغي أن يتذكره، أي أنت عمّرت عمراً يكفي أن تعرف الله، العام الدراسي تسعة أشهر، الفحص ثلاث ساعات، ثلاث ساعات يقابلها تسعة أشهر، السبت، الأحد، الاثنين، الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، الجمعة، الأسبوع الأول، والثاني، والرابع، أول شهر، وهكذا . تسعة أشهر ضرب أربعة أسابيع، وستة وثلاثون، يوم الجمعة عطلة، وكل يوم ست ساعات، وست محاضرات، وست وظائف، ولم يدوام، ولم يقرأ، ولم ينتبه، ولم يفكر، رسوب، قال تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ)

[سورة فاطر الآية: ٣٧]

أي: عمّرناكم عمراً كافياً كي تتذكروا، ما هو أخطر مرض يصيب الإنسان؟ قد يقول أحدكم: السرطان، صحيح، هو مرض وبيل –والعياذ بالله– الإنسان يموت به، فإذا كان مؤمناً فإلى الجنة، ولو كان معه مرض السرطان، مرض سكتة دماغية، سكتة قلبية، تشمع كبد، فشل كلوي، كلها خطيرة، ولكن لو كان صاحبها مؤمنا يموت إلى الجنة، أما المرض الخطير الذي يسبب شقاءه الأبدي، فهو مرض الغفلة عن الله، قال تعالى:

(وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ)

[سورة الأعراف الآية: ٢٠٥]

نزل أحدهم بالسيارة، أول نزول سرعة معتدلة، ولم يستعمل المكابح، ليس معه مكابح ، في النزول بدأ يشتد ويشتد، وهو مرتاح، ضمن أنه مكابح، والسيارة منطلقة، وهو مرتاح، ومنتعش بهذه السرعة .

حينما يكتشف أنه لا يملك المكابح، والمنعطف حاد في النهاية، والحادث حتمي، وقد يموت، أكبر خطر ارتكبه السائق، أنه لم يفحص المكابح، غفل عنها، أكبر مرض يصيب الإنسان الغفلة، أن يغفل عن الله عز وجل، والناس –واللهِ– في معظمهم غافلون، يعيشون لحظتهم، أكلنا، وشربنا، ونمنا، وسهرنا، شاهدنا المسلسلات إلى الساعة الثانية صباحاً، استيقظنا بعد الشمس، نزلنا إلى المحل، تحدثنا، واشترينا، وبعنا، وربحنا، وتغدينا، ونمنا، وسهرنا مع المسلسلات، وهكذا .

كلمة نابعة من القلب :

أقول لكم هذه الكلمة، وأنا واللهِ بها صادق: هل يمكن أن تستيقظ كل يوم كالسابق إلى ما شاء الله، وإن كان السؤال محرجاً؟ لا، مستحيل، لي أجل .

وقد سمعت عن مغنٍّ حريص عن حياته حرصاً، يكاد يفوق حد الخيال، لا يصدق، ما ركب طائرة في حياته، ما أكل إلا لحماً أبيض في حياته كلها، لأنه أخف، السمك والدجاج، ما أكل في المساء طعاماً إطلاقا إلا الفواكه، الرياضة يومية، أنا كنت أتوقع أنه لا يموت، فمات.

إذًا: ممكن أن تستيقظ كل يوم دائماً كاليوم الثابت؟ معنى ذلك: أنه لا يوجد موت، والموت قائم، معنى ذلك: أنه في يوم ستستيقظ في وضع لم يكن من قبل، لا نعرف من أين يبدأ؟ من القلب، أو الكبد، أو الكليتين، أو من الأعصاب، أو من الدماغ، لا نعرف، كلنا على هذا الطريق، فلا يتشاءم أحدنا، وأنا معكم، من هو البطل في طريق المغادرة؟ الذي يستعد لهذه اللحظة التي لا بد منها، كل مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت، صدق القائل:

والـليل مـــهما طال فلا بد من طــلوع الفجر

والعـمر مـــهما طال فلا بد من نـــزول القبر

كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوما على آلة حدباء محمولُ

فإذا حملت إلى القبور جـنازة فاعلم بأنك بعدها محـمولُ

من هو النذير في هذه الآية؟ :

١-النبي عليه الصلاة والسلام :

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

[سورة فاطر الآية: ٣٧]

من هو النذير؟ العلماء قالوا:

((النبي عليه الصلاة والسلام))

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً)

[سورة الأحزاب الآية: ٤٥-٤٦]

وقد أعذر من أنذر، قال تعالى:

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)

[سورة الزمر الآية: ٧١]

هذا الواقع .

٢-القرآن الكريم :

والنذير قالوا:

((القرآن الكريم))

القرآن هو النذير، لأن فيه مشاهد القيامة، مشاهد أهل الجنة، وأحوال أهل الجنة، أحوال أهل النار، البرزخ، عذاب القبر، الصراط المستقيم، كل شيء في القرآن الكريم، هذا نذير .

إذا كان الشخص راكباً دراجة، وجد طريقاً مريحاً جداً لراكب الدراجة، وطريقًا آخر متعباً جداً، فطرته ودراجته تدعوه إلى أن يسلك الطريق الهابط، والذي عليه لوحة مكتوب عليها: الطريق الهابط ينتهي بحفرة ما لها من قرار، والطريق الصاعد المتعب ينتهي بقصر منيف، وهو ملكٌ لمن وصل إليه .

فاللوحة هي النذير، نحن نبهناك، وعلى اللوحة ناظور، إن شئت أن ترى بعينك فلك ذلك، هناك بيان، وهناك ناظور، فلا هو قرأ البيان، ولا استعمل المنظار، اتبع شهوته، الطريق النازلة أكثر راحة .

((أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ ثَلَاثًا، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

المعنى الثاني: هو القرآن، المعنى الأول: النذير هو النبي عليه الصلاة والسلام .

قال لك:

((عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من أحببت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به))

[أخرجه الحاكم في مستدركه]

مرة وقفت في سوق الحميدية، نظرت نظرة، فقلت: سبحان الله! كل خمسين سنة هناك طقم جديد، الشاب يفتح المحل، يزينه، يرتبه، يكبر، ويكبر أولاده، يختلفون، فيبيعون المحل، يأتي طقم ثان، وبيوت الشام كلها كل خمسين سنة فيها طقم جديد، والمحلات طقم جديد، وكل حال يزول .

٣-سن الأربعين وقيل: الستين :

المعنى الثالث: النذير سن الأربعين، وكما قلت قبل قليل:

((من دخل في الأربعين دخل في أسواق الآخرة))

وليس معنى ذلك: أن الذي في سن العشرين يعصي الله، هذا كلام غير مقبول إطلاقاً.

وقد ورد في حديث قدسي:

((أحب ثلاثاً، وحبي لثلاث أشد، أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد، وأحب المتواضعين، وحبي للغني المتواضع أشد، أحب الكرماء، وحبي للفقير الكريم أشد، وأبغض ثلاثاً، وبغضي لثلاث أشد، أبغض العصاة، وبغضي للشيخ العاصي أشد، أبغض المتكبرين، وبغضي للفقير المتكبر أشد، أبغض البخلاء، وبغضي للغني البخيل أشد))

حدثني أخ، يعمل محاسباً في شركة ضخمة عملاقة، أرباحها الشهرية قريباً من مليونين، هو يعمل محاسباً، صاحب المعمل يغيب ساعة، يتناول طعام الغداء في مطعم، ثم يرجع، هذا الذي يعمل معك، لا يمكنه أن يأكل شيئاً، وأرباحك بالملايين في الشهر، قال تعالى:

(وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)

[سورة الحشر الآية: ٩]

إذا لم يكن الإنسان بخيلاً، فهذه من نعم الله الكبرى، الإنسان بالبخل يصبح مذموماً، إذا كان أبًا بخيلاً، ومرض، وجاء الطبيب، يريد أولاده أن يرتاحوا منه، فيقول: هذه حالة عرضية ، والحمد لله، فيقول الأولاد: نحن لا نريدها عرضية، يخيب ظن الابن، أريد مرضاً خطيراً، لأن أباه بخيل، لو كان كريماً تصعد روح أولاده قبله من خوفهم عليه، بين أن تعيش بين أحباب، وبين أن تعيش بين أعداء، بين الكرم والبخل، الكريم محبوب، يتمنى الناس بقاءه.

هناك أب يدخل البيت، فيصبح البيت عرساً، من أخلاقه العالية، يحبه أولاده، وهناك أب إذا خرج من البيت، الحمد لله إن شاء يطيل غيابه، يأتي الساعة الواحدة ليلاً، نرتاح قليلاً، هناك إنسان ظله ثقيل جداً، يحاسب، وينتقد، ويسب، ويضرب، الجو مكهرب، الجو عدواني، كان النبي الكريم إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً .

صلى مرة النبي إماماً، فأطال السجود كثيراً، حتى ظنه أصحابه أنه فارق الحياة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَدَّادٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إِحْدَى صَلَاتَيْ الْعَشِيِّ الظُّهْرِ أَوْ الْعَصْرِ، وَهُوَ حَامِلٌ الْحَسَنَ أَوْ الْحُسَيْنَ، فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَضَعَهُ، ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ فَصَلَّى، فَسَجَدَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلَاتِهِ سَجْدَةً أَطَالَهَا، فَقَالَ: إِنِّي رَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُول

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ فِي سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ، قَالَ النَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ صَلَاتِكَ، هَذِهِ سَجْدَةً قَدْ أَطَلْتَهَا، فَظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ أَوْ أَنَّهُ قَدْ يُوحَى إِلَيْكَ، قَالَ: فَكُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي، فَكَرِهْتُ أَنْ أُعَجِّلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ))

اتركه يستمتع، هكذا كان النبي في بيته......

كان النبي الكريم إذا دخل بيته بساماً ضحاكاً، كان يقول:

((أكرموا النساء، فو الله ما أكرمهن إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم))

هناك رجل، يطرد زوجته إلى بيت أهلها الساعة الثانية صباحاً بقميص النوم، يركلها برجله، ليس هناك سيارات أجرة، هناك رجال وحوش، هناك رجل مؤمن، كله رحمة، كله ود ، كله حلم، كله صبر، كله حكمة، كلما قربتَ من الحكيم صرتَ حكيماً، من الرحيم تصير رحيماً، ومن الحليم تصير حليماً .

المعنى الثالث للنذير: الأربعون، وقالوا:

((سن الستين))

هناك حديث في هذا المعنى الدقيق، فعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ، عَنْ رسول الله صلى الله عليه وسلم قالَ:

((لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين، لقد أعذر الله إليه))

[أخرجه الحاكم في مستدركه]

أي: أن الله عز وجل أنذر وأعذر، إذا بلغ الإنسان الستين ولم يستقم .

٤-الشيب:

شيء آخر، المعنى الرابع: الشيب .

((عبدي كبرت سنك، وانحنى ظهرك، وضعف بصرك، وشاب شعرك، فاستحي مني، فأنا أستحي منك))

أبشع منظر في الأرض شيخ متصابٍ، مراهق على كبر، خمسيني مراهق، خمسيني يغمز ويلمز، ويتكلم كلاماً مائعاً مع النساء، وأحياناً يلامس، وأحياناً يصافح مصافحة حارة، وأحياناً يصف جمال الفتاة فيخجلها، وهو في الخمسين، هناك من هذه الحالات الشيء الكثير، شيخ متصاب، عند العوام: نفسه خضراء، فهذا الإنسان يخالف منهج الله عز وجل .

((وأبغض العصاة، وبغضي للشيخ العاصي أشد))

٥-المصيبة :

المعنى الخامس: النذير المصيبة، المصيبة تلفت النظر، رجل سارح ويمشي في المعاصي والآثام، لا يسمع خطبة، ولا يهمه عالم، ولا يهمه كتاب، يقول: مِن اليوم إلى غد يفرجها الله، من الذي يرجعه إلى الله؟ مشكلة .

قال لي صاحب مطبعة: هيأت خمسمئة ألف ليرة، وسافرت إلى أمريكا للراحة والنزهة، هكذا قال بالضبط، دينه رقيق، وترك زوجته في الشام، وسافر ليتسلى، قال: وصلت إلى أمريكا، بعد أيام شعرت بآلام في ظهري لا تُحتمل، ذهب إلى الطبيب فقال له: سرطان في النخاع الشوكي، قال: بركت، قطع إجازته، وعاد إلى الشام، من مسجد إلى مسجد، من شيخ إلى شيخ، بعد ذلك عافاه الله، التشخيص الأول كان فيه خطأ، لكن الله أرجعه .

الله يعلم كيف يعالج؟ فالمصيبة لفت نظر، والله يعلم من أين يوجعك بالضبط؟ هناك شخص لا يؤثر فيه المال .

أخوه أخذ سيارته المرسيدس، أصابها حادث، فشقت نصفين، لم يتنازل حتى ليراها، مليونير، قال: بيعوها، دخل إلى دائرة حكومية أهانه موظف، شعر أن قلبه سيقف، رأساً على الطبيب، هذا علاجه عذاب مهين، أما المال فلا قيمة له عنده .

قال لي شخص: واللهِ أبلغوني أن مستودعي احترق فيه قريباً من عشرين مليوناً بضاعة، قال: لم أرد أن أنزع نفَس الأركيلة، الذي حدث حدث، هناك أشخاص بهذه الدرجة، عشرون مليوناً في المستودع بضاعة احترقت، قال: لم أغيّر جلستي، احترق احترق، هذا لا يعالَج بالملايين، يعالَج بمشكلة في القلب، هذا موضوع ثان .

الله يعلم لكل إنسان دواءه، ويعلم كيف يعالج، ومصيبته مصيبة، مصيبةُ الله عز وجل مصيبة، تأتي في المكان المناسب .

كم من معنى للنذير؟ القرآن، والنبي، والأربعون، والستون، والشيب، والمصائب.

٦-موت الأقارب :

وموت الأقارب نذير أيضاً، فهذا إنسان تعيش معه ليلاً ونهاراً، ملء السمع والبصر، فجأة صار خبراً، أين فلان؟ مات .

دخلت دائرة حكومية، وهناك محاسب لي عنده قضية، العادة طاولته مملوءة بالأضابير والمعاملات، أعان الله هذا الموظف، دخلت مرة أخرى فلم أجد شيئاً، البللور نظيف ممسوح، وليس على الطاولة غرض، أين فلان؟ فقيل لي: مات، كيف مات؟ فقيل: كان جالساً فانقلب ومات .

جاء إلي رئيسه في صلاة الجمعة في جامع النابلسي، فقلت له: فلان مات، فقال: مات عندي في الغرفة، قال: دخل علي، وجلس، قلت له: نريد وصلاً للسيارة، لأنه محاسب، قال: فرأيت عينه جمدت، وقع ميتاً في مكتبي .

ومن ثلاثة أشهر تقريباً، عندنا في مسجد النابلسي، كان أحدهم جالساً يستمع الخطبة، فمات، خرج من بيته ماشياً، ورجع إليه محمولاً .

مرة كنت في مسجد الحنابلة، دعيت إلى مولد نبوي، رحّب بي أحدهم في المدخل ترحيباً غير طبيعي، كأنه عضو جمعية، أهلاً وسهلاً، جلست، وبعد دقيقتين لاحظت أن الوضع في المسجد فيه اضطراب، ما هنالك؟ لم يتكلم أحد، بعد ربع ساعة قمت، فقيل لي: الذي استقبلك قبل قليل مات الآن، والله ذهبنا إلى مستشفى أمية، مات فوراً، قبل دقيقتين استقبلني ورحب بي، فموت الأقارب نذير، فهذا معنى الآية، وهذه المعاني .

معاني النذير جاءت في تفسير القرطبي: النبي، والقرآن، والأربعون، والستون، والشيب، والمصائب، وموت الأقارب، قال تعالى:

(أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

[سورة فاطر الآية: ٣٧]

حديث خطير :

الحديث الثاني: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً))

قال لي أحدهم: أنا عمري ستون سنة، كل سنة أعيشها زائدة مكسب، هذا الحد القانوني، والنبي قال:

((معترك المنايا بين الستين والسبعين))

فإذا وصل أحدنا إلى الستين، وليس معه مشكلة، معنى ذلك: أن الله عز وجل سيحاسبه حساباً خاصاً، هناك ناس في الأربعين .

وقد كنا مرة في حلب، رأينا بناء في حي الشهباء، سمعت أن هذا البناء كلف خمسة وثلاثين مليوناً سنة ١٩٧٤، الآن يكلف سبعمئة مليون، وقتها كلف خمسة وثلاثين مليوناً، وكان الدولار بثلاث ليرات، رخام أونيكس بخمسة ملايين، صاحبه عمره اثنان وأربعون عاماً توفي، كان طويل القامة، والقبر كان قصيراً، جاء الحفار ووضع يده على صدره فدفعه، ودخل ملتوياً، قيل: دفعه برجله، وأنا سمعت أنه دفعه بيده، صاحب هذا القصر هذا هو مصيره.

تذكرة لك :

أخواننا الكرام، قضية الموت قضية خطيرة جداً، وأنا أحب أن أذكره دائماً، أذكر نفسي .

وفي الحديث: عَنْ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، يَعْنِي الْمَوْتَ))

[أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط]

والتفكر في الموت يضبط الإنسان .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٥٩-١٠١) : باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها - التزم ما أمرك به الشرع ولا تفتش عما نهاك عنه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-١١-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

التزم ما قاله نبيك ولا تتعد الحدود :

أيها الأخوة الكرام، في كتاب رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، حديث متفق عليه، والحديث المتفق عليه من أعلى درجات الحديث الصحيح، هذا الحديث ورد في باب المحافظة على السنة، وحينما شرحته في مسجد آخر، وجدت فيه قواعد مذهلة، يعد أصلاً من أصول الدين .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال:

((قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: دَعُوني ما تركتُكم، فإنما أهلكَ من كان قبلَكم كثرةُ سؤالِهم، واختلافُهم على أنبيائهم، فإذا نهيتُكم عن شيء فاجْتَنِبُوه، وإذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح والترمذي والنسائي في سننهما عن أبي هريرة]

يمكن أن نقف على كل كلمة في هذا الحديث: الشيء الأول: الله عز وجل أمر بأمور، ونهى عن أشياء، أمر بأشياء، ونهى عن أشياء، وسكت عن أشياء، فهذا الذي سكت الله عنه عز و جل لا ينبغي أن تسأل عنه .

معنى ذلك: أن الحقيقة الأولى: حقيقة الذات الإلهية، هي مصدر سعادتنا، ومصدر أمننا، ومصدر طمأنينتنا، ومصدر أشواقنا، ومصدر محبتنا، ومصدر غِنانا، ومصدر قوتنا، وسبب انتصارنا، هذه الحقيقة الأولى .

كل شيء يقربك إلى الله، أمرك النبي به، مهما بدا لك صغيراً، وكل شيء يبعدك عن الله، نهاك الله عنه، وكل شيء لا يقرب ولا يبعد سكت عنه، الشيء الذي أمر به يقرب، والشيء الذي نهى عنه يبعد، والشيء الذي سكت عنه حيادي لا يقرب ولا يبعد .

لو وقفنا في الصلاة، ورأينا مصليًّا يلبس قميصاً، ومصليًّا يلبس قميصاً ملوناً، ومصليًّا يلبس قميصاً بنياً، اختلاف ألوان هذه القمصان لا تقدم ولا تؤخر، ولا تزيد المرء إقبالاً، ولا تبعده عن الله عز وجل، إلا إذا كانت ثيابه مخالفة للسنة، طبعاً: هنالك أحكام للثياب ليس هذا مقام التفصيل فيها.

فعود نفسك الشيء الذي سكت الله عنه، أنه ما سكت عنه إلا لحكمة بالغة، هذه الحكمة لا تقل عن ذكره غيره، ذكر شيئًا بحكمة بالغة، وسكت عن شيء بحكمة بالغة، فهؤلاء الذين غاصوا في كتب

الإسرائيليات، ليعرفوا تفاصيل قصص القرآن، وأسماء أبطالها وملابساتها التي لم تذكر في القرآن، هؤلاء خالفوا هذا الحديث .

وكنت أقول لكم دائماً: إن الله عز وجل حينما يذكر قصة في القرآن يذكرها لحكمةٍ بالغة، يريد أن يعلمنا نموذجًا بشريًّا، يريد أن يقدم لنا قاعدة، أما حينما تطالب بالتفاصيل والجزئيات، فأنت أردت غير ذلك، أردتها قصة وقعت ولم تقع، أراد الله أن تكون هذه القصة قاعدة .

فحينما يسكت الله عن شيء، لا ينبغي أن تسأل عنه، لأنه لا جدوى من السؤال عنه.

أستاذ في الجامعة، أراد أن يعلم طلابه في كلية الاقتصاد درساً بليغاً في عوامل التجارة الناجحة، فقال: لي صديق أحبه كثيراً على قرب مني، اشترى محلاً تجاريًّا في مكان ازدحام الأقدام، قاعدة أولى، وانتقى بضاعة أساسية في حياة الإنسان، قاعدة ثانية، وانتقى من هذه البضاعة أجود أنواعها، قاعدة ثالثة، وما باع دَيناً، قاعدة رابعة، وأحسن معاملة الزبائن، قاعدة خامسة، ولم يخالف القوانين النافذة، قاعدة سادسة، فنجحت تجارته، وربح أرباحاً طائلة ، وتزوج، واشترى بيتاً ومركبةً، وكان في بحبوحة من أمره .

أحد الطلاب أخذ بالتفكير: هذا الذي حدثنا الأستاذ عنه، هل هو أبيض أم أسمر؟ ثم رفع إصبعه، وهو يظن أن ما يفعله حسناً، وأن هنالك شيئاً قد نسي الأستاذ أن يقوله، طبعاً لم ينسَ الأستاذ شيئاً، فلا علاقة بين بياض الرجل أو سواده بالقواعد السابقة، ولا علاقة لزواجه بالقواعد السابقة، ولا حتى أسماء أولاده.

الآن: الأستاذ يعطي درسًا في الاقتصاد، ولا يروي قصة، يعطي حقائق وقوانين وأسسًا، فحينما تبحث عن تفاصيل لا تقدم ولا تؤخر، ولا تضيف شيئاً على مغزى القصة، فأنت سألت عن شيء سُكِتَ عنهُ لِحكمةٍ بالغةٍ، فعود نفسك أن ما ذكره الله، هو ما يجب أن تذكره .

كأن تسأل مثلاً: أستاذ: بالجنة أليس للزوجة حوري؟ لا تشغل نفسك بها، فالله عز وجل ذكر شيئًا عن الجنة، ولم يذكر كل شيء، ذكر الشيء المحبب والمرغِّب، ولم يذكر كل شيء .

رجل يسير في الطريق، لِيصل إلى قصر فيه كل شيء، فجأة وقف، لن أتابع المسير، وسأل نفسه: كم غرفة في القصر؟ حسناً، أنت لو سرت إليه، ستعرف جواب هذا السؤال، إذاً: هذه الوقفة، ثم الأسئلة الكثيرة جداً، والتي لا معنى لها، والتي تعيق وصولك إلى هذا القصر، هي أسئلة غير حكيمة .

فالنقطة الأولى: دعوني ما تركتكم: فالذي ذكره الله عز وجل، وذكره النبي، هو قمة في الحكمة، والذي نهى عنه قمة في الحكمة، والذي سكت عنه قمة في الحكمة .

ماذا تستفيد من هذا الموقف؟ :

فالإمام أحمد ابن حنبل، أكبر حجة ملكها في موضوع خلق القرآن:

((هل تكلم النبي في خلق القرآن؟ قالوا: لا، هل تكلم أصحابه في خلق القرآن؟ قالوا: لا، هل يليق بالنبي أن يكتم عنا علماً؟ قالوا: لا، هل يؤخر بيان الوقت إلى غير وقته؟ قالوا: لا، قال: فالسؤال لا أهمية له، ولا يقدم، ولا يؤخر، ولا يميت))

إذاً: عوِّد نفسك على منهجية التفكير، العمل المجدي، الشيء العملي، الشيء الذي يرقى بك .

خطأ أنقذ نفسك منه :

أيها الأخوة، افتح كتب التفسير، فستجد إسرائيليات كثيرة، كاسم زوجة العزيز، وماذا فعل يوسف بعدها؟ يتكلمون عن أشياء سكت عنها القرآن، وسكت عنها النبي صلى الله عليه وسلم .

((دعوني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم))

كرجل بعد صمت سألني: هذه القطعة من الملابس من صنع الكفار، فهل يجوز لي أن ألبسها؟ الجواب: ما من نص يمنعك مِن لِبسها، وهي من صنع غير مسلم، البسها أو ارمها، ما المشكلة؟ ثم يعيد السؤال: ولكنها من صنع الكفار، لِم التعنت، والتطرف، والمبالغة، والمراوغة عند بعض المسلمين؟.

كأن يقول أحدهم: يوجد حبة سمسم بين أسناني في رمضان، فهل أفطرت؟ ويكون قد أتى بمعصية لا يتحملها جبل، ولكنه يسأل عن حبة السمسم، ما هذا التناقض العجيب؟ فهو يقع في مخالفة كبيرة، ويدقق في شيء لا يذكر .

((دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا أَهلَكَ مَنْ كَانَ قَبلَكُم: كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ، واخْتِلافُهُمْ عَلَى أنبِيَائِهِم))

مثلاً: أمر الله بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة، قالوا:

((ما لونها؟ قال جل وعلا:

(فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ)

[سورة البقرة الآية: ٦٩]

ما عمرها؟ ما شكلها؟ ما هي؟ كلما أضفت سؤالاً، أُضيف شرطاً بهذا الموضوع .

فلذلك: الأولى أن تكتفي بما ذكره الله عز وجل، وأن تكون عملياً، فكل واحد منا يعلم معلومات، تزيد على عمله بمليون ضعف، وأنا بهذا لا أبالغ، والله عز وجل لا يقبل إلا العمل ، فالكلام لا قيمة له، فلقد كان أصحاب النبي يقرؤون عشر آيات ويطبقونها، ونحن الآن نقرأ ألف آية، ولكن دون تطبيق .

جاء أعرابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له:

((عظني ولا تطل، قال له: قل آمنت بالله ثم استقم، قال له: أريد أخف منها، قال له: إذاً: فاستعد للبلاء، قال له: عظني وأوجز، قال له آخر: فن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره، قال الأعرابي: كُفيت، قال: فقُهَ الرجل))

إنك لتعجب أن أعرابياً، سمع آية فكفته، طبقها، فدخل الجنة بها، بينما تجد آخر عنده من الكتب الكثير، ولكن لا استقامة عنده .

ضَرَبتُ مثلاً لا تظنوه مبالغة: إنسان يحمل أعلى شهادة في الدين، ومن أكبر الجامعات ، له مئتا مؤلف، وله مكتب فخم، وجاءته صحفية مثلاً، فملأ عينيه من محاسنها، وعنده مستخدم لا يجيد القراءة ولا الكتابة، ولكنه سمع من شيخ أنه ينبغي له أن يغض بصره عن الأجنبية، فغض بصره عنها، بمقياس الأرض الأول يحمل شهادة عليا، وهو أحد أعلام الدين، فهو عالم، والآخر جاهل، أما بمقياس الله فالمستخدم الذي غض بصره عن المحارم، هو العالم ، والذي ملأ بصره من محاسنها، هو الجاهل .

بطولتك أنت أن تعتمد مقاييس الله، لا أن تعتمد مقاييس البشر، فإذا تطابقت مقاييسك مع مقاييس الله عز وجل، فأنت من أسعد السعداء .

((فإنما أهلك من كان قبلكم: كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم))

تجلس مع أحدهم، تجده لا هم له إلا الموازنة بين العلماء، فإن كان فلان منهم عالياً أو غير عالٍ، فما نفعك من ذلك، تكلم بما ينفعك، اعمل عملاً طيباً، اقرأ القرآن، دل إنسانًا على الله، أعن مسكيناً، ساعد أرملة، ساعد أولادك، وابتعد عن الكلام الذي لا ينفع .

وللأسف: الكثير من الناس على هذا النحو، همه أن يجد خطأً، همه الانتقاد، همه الطعن وتقييم الناس، من تظن نفسك حتى تفعل هذا؟ هل أنت وصيٌّ على المسلمين؟ من وكلك لتقييم الناس، لتوزع ألقاب الإيمان والكفر عليهم، وتقول: هذا لا خير منه، وهذا شارد، أو ضائع، من كلفك؟ تكلم كلامًا مجديًا، تكلم كلامًا نافعًا.

نفذ تعليمات نبيك :

أيها الأخوة، لم يبدأ الدرس بعد، الدرس هو:

((فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه))

أجمل ما في هذه الفقرة من الحديث:

((فاجتنبوه))

أي اجعلوا بينكم وبينه هامش أمان، لو أن الله عز وجل قال: حرمت عليكم الخمر، معنى ذلك: أن بيعها ليس حراماً، وشراءها ليس حراماً، والمتاجرة بها ليست حراماً، وأن تجلس مع شاربها ليس حراماً، وأن تمسكها بيدك ليس حراماً، الحرام فقط أن تشربها، أما أن يقول الله عز وجل: فَاجْتَنِبُوهُ . معنى ذلك: أن تجعل بينك وبينها هامش أمان، وهناك كلمة رائعة للسيد المسيح يقول:

((ليس الشريف هو الذي لا يقع في الخطيئة، ولكن الشريف الذي يهرب من أسباب الخطيئة))

فالمؤمن لديه دائماً هامش للأمان، عنده منطقة عزل، بموضوع الزنا مثلاً إطلاق البصر، دخل في المنطقة المحرمة، مع أنه لم يزنِ، إلا أنه دخل في المنطقة التي تقرب من الزنا، النظر عميق ومخيف، له شاطئ مائل زلق، وشاطئ مستو جاف، الأكمل أن تكون على الشاطئ الجاف، أما الشاطئ المائل الزلق فهو خطر، إذا وقفت عليه ربما لا تقع في النهر، سبعون بالمئة تقع، من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه .

فأروع ما في هذا التوجيه: أن تجعل بينك وبين كل معصية هامش أمان، الزنا ألاّ تطلق نظرك في الحرام، وألا تصحب الأراذل، وألا تخلو بامرأة لا تحل لك، وألا تستمع إلى مغامرات الزناة، وألا تتابع ما لا ينبغي أن لا تتابعه، أما هامش المال الحرام فأن تدع المال الذي فيه شبهة لله، خذ الحلال مئة بالمئة، وهذا هو الورع الذي يدع بينه وبين الحرام هامش أمان .

قال عليه الصلاة والسلام:

((فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه))

ولم يقل فاتركوه، أي اجعلوا بينكم وبينه هامش أمان .

ما معنى: المنهيات حدية والمأمورات نسبية؟ :

دخلنا الآن في موضوع آخر: هو أن المنهيات حدية أما المأمورات فنسبية، كيف هذا؟.
أعطيكم مثالاً: أنا يلزمني مستودع للوقود، لأن الوقت شتاءً، صنعت هذا المستودع، أهم ما في هذا المستودع إحكامه، وضعت في هذا المستودع ألف لتر، وأحكمت إغلاقه، ومنعت عنه التبخر، لو تركت هذا المستودع ألف عام، ما نقص منه شيء، وهذا معنى محكم ، المهم في المستودع شيئين؛ إحكامه وتعبئته، تعبئته بقدر ما تستطيع، أي ما تملك من مال، فمعك مائة ليرة فإنك تملأ بها، ومعك أكثر املأ بهم، فالتعبئة بقدر الاستطاعة، أما الإحكام: هل يجوز أن يكون الإحكام بقدر ما تستطيع؟ إن لم يكن محكماً عبأته أو لم تعبئه سيان.
في أيام عصيبة جداً، أيام حرب، كانت هناك أزمة على الوقود، قال لي صديق لي: بعد محاولات عدة، استطعت أن أملأ خزّاناتي من الوقود السائل، وطبعاً كان فرحي لا يوصف، دفعت المبلغ عداً

ونقداً، وارتحت، لأنني ضمنت الدفء في الشتاء، وفجأة وجدت أن الصنبور الذي يوصل الوقود إلى بيت الخلاء مفتوحاً، وأن جميع ما ملأ من الوقود، قد ذهَب في بيت الخلاء.

إذاً: إن كان المستودع الذي ملأته غير محكم الإغلاق، ملأته أم لم تملأه سيان، الاستقامة حدية، الإحكام حدي، أما التعبئة نسبية .

قال لك الله: أنفق من مالك، أنفق بقدر ما تستطيع، قال لك: صلِّ النفل، صلِّ بقدر ما تستطيع، اقرأ القرآن بقدر ما تستطيع، وكذلك إنفاق المال وصيام النفل بقدر ما تستطيع، فالأوامر نسبية، أما المنهيات فحدية .

لو أنك صنعت مستودعًا عند أحدهم، تقول له: هل تم الأمر؟ يقول لك: إن شاء الله، قد تم، خذه واذهب، فهل ستقبل منه هذا الكلام، أم ستقول له: جربه لي؟ بل ستسأله: هل له من إشكال؟ هل يتسرب منه الوقود؟ .

إذاً: أنت لن تقبل المستودع وهو غير محكم، وكذلك هذا الدين، المنهيات حدية، أما المأمورات فنسبية، عندما تفهم هذه الحقيقة سوف تسمو وترتفع، أما عندما تفهم أن المنهيات نسبية حينها تقول: الله غفور رحيم، بقدر ما أستطيع أفعل .

إذاً: المستودع غير محكم، ولو عبأته فسوف يفرغ، وهذا هو كلام العوام وعملهم، إن آخر مؤمن في الأرض، في أصعب زمن الفتن، مطالب أن يستقيم كما يستقيم الأنبياء، فالاستقامة حدية شاغلة، أما العمل الصالح: فالنبي هدايته عمت الخافقين، كل من اهتدى إلى الله بصحيفة النبي صلى الله عليه وسلم، لهم أعمال كالجبال، إذاً: أنت بالاستقامة يجب أن تكون كالأنبياء، يقول أحدهم: هل هذا الكلام معقول؟ هل لديك دليل؟ أقول له: طبعاً:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ)

[سورة هود الآية: ١١٢]

((إن الله أمر المؤمنين كما أمر المرسلين))

لأنه هل يعقل أن الجراح الأول في العالم، يعقم الإبرة والممرض الناشئ لا يستطيع تعقيمها؟ هل من أحد يقبلها؟ مستحيل، لأن أقل ممرض في الأرض، يجب أن يقوم بإجراءات التعقيم كما يفعلها أكبر طبيب في الأرض، هذا الدين، الاستقامة فيه حدية، والعمل الصالح نسبي، قدر ما تستطيع .
يقول عليه الصلاة والسلام:

((إذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه))

وكلمة اجتنبوه: أبلغ من اتركوه، أي اجعلوا بينكم وبينه هامش أمان، كونوا في بحبوحة الأمن .

((وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم))

أمرك بصدقة فأتوا منها ما استطعتم، العمل الصالح نسبي، والاستقامة حدية، والاستقامة أرضية العمل الصالح، والعمل الصالح لا يقبل إلا على أرض من الاستقامة، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ)

[سورة فصلت الآية: ٣٠]

تعليق لطيف :

بقي على كلمة

((استطعتم))

تعليق لطيف: في بعض اللغات الأجنبية معانٍ، تستنطق من النبرة، وفي بعض اللغات، علامات الترقيم، جزء من النص، بالنسبة لنا القضية غير واضحة، أما الفاصلة، فاصلة منقوطة، اعتراض، استفهام، تعجّب، نقطة، فقرة، أول كلمة بعد السطر، هذه كلها مصطلحات دقيقة جداً، تعني كل شيء في النص، تضيف على النص معاني دقيقة جداً، وفي بعض اللغات النبرة تغير المعنى .

مثلاً:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

[سورة التغابن الآية: ١٦]

نحَوِّل لفظها، ففي المرة الأولى: بذل بعض الجهد، والثانية: تفخيم، استنفاذ كل الجهد، مما يشكل لنا معنى جديدًا .

فلعل النبي الكريم يقول:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ)

من باب التشديد، واستنفاذ المجهود، هذا الحديث رائع:

((دَعُوني ما تركتُكم، فإنما أهلكَ من كان قبلَكم كثرةُ سؤالِهم، واختلافُهم على أنبيائهم، فإذا نهيتُكم عن شيء فاجْتَنِبُوه، وإذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح والترمذي والنسائي في سننهما عن أبي هريرة]

لذلك: إذا صحب الإنسان الأراذل تجرح عدالته، وتكلمنا ذات مرة عن قضية العدالة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((مَنْ عَامَلَ النَّاسَ فَلَم يَظْلِمهُم، وَحَدَثَهُم فَلَم يَكذِبْهُم، وَوَعَدَهُم فَلَم يُخْلِفْهُم، فَهُوَ مِمَّن كَمُلَت مُرُوءَتُه، وَظَهَرَت عَدَالَتُه، وَوَجَبَت أُخُوَتُه، وَحَرُمَت غَيْبَتُه))

ولنفرض أنه إذا عاملهم فظلمهم، ووعدهم فأخلفهم، وحدَّثهم فكذبهم، فهو ممن سقطت عدالته، سقطت حقوقه المدنية، لا تقبل شهادته، العلماء فرقوا بين سقوط العدالة وبين جرح العدالة، قال:

((من صحب الأراذل جرحت عدالته))

فبصحبة الأراذل دخلت بالهامش الذي ينبغي أن تدعه بينك وبين المعصية، دخلت بالشاطئ المائل الزلق، صحبة الأراذل في منطقة الشاطئ المائل الزلق، الحديث عن النساء، جرحت عدالته .

الإنسان يقول: أهلي، أهل البيت، هذا التعبير قرآني، وهناك إنسان يتحدث عن زوجته، عن ميزاتها، الآخرون ليس لهم علاقة بهذا، ليس من المروءة الحديث عن ميزاتها، أما من قلة المروءة، ومن انعدام المروءة، الحديث عن جمالها، فالحديث عن النساء يجرح العدالة، صحبة الأراذل تجرح العدالة، التنزه في الطرقات تجرح العدالة .

يقولون أحياناً: الجنة بلا ناس ما بتنداس، لو أخذت أحدهم إلى مكان جميل جداً، فيه مناظر طبيعية، فيه أشجار، لا تجده مسروراً، يفضل مكان مزدحم، هذه صحبة الأراذل، الحديث عن النساء، التنزه في الطرقات، هذه تجرح العدالة، ويوجد تتمة للموضوع .

تطفيف بتمرة: أحياناً يزن لك البائع بنًّا غالياً جداً، أو شايًا بورق الإسمنت، ورق أكياس، باعك ورق الأكياس بثمن البن، هذا تطفيف، هذا يجرح العدالة، أحياناً يضع الحاجة بكفة ميزان بقوة، فيطبش الثقل، فيزيلها فوراً، هذا ليس وزنها، بل قوة اندفاعها، أحياناً مروحة متجهة باتجاه الميزان، وهو منتبه لها، في وقت اتجاهها، على الكفة يضع الحاجة .

أما في القماش عند الشراء، تجده بخط منحن على المتر، وإذا أراد البيع يقوم بشده حتى يتمزع القماش، فيكون القماش في أثناء البيع مشدودًا، وفي أثناء الشراء يصبح خطًّا منحنيًا، هذا التطفيف الذي يجرح العدالة، وهناك من يقوم بأكثر من الغش، فيقوم بحقن البرتقالة خمس حقن من الماء (سيروم)، فالبرتقالة الواحدة تملأ كأساً كاملة، فأساليب الغش لا تنتهي، لكن هذا الذي يجرح العدالة، تطفيف بتمرة أكل لقمة من حرام، يلعق بإصبعه ربع أوقية لبن، أو يتذوق الجبن، ثم يسأل كم ثمن الكيلو؟ تطفيف بتمرة فهو لا ينوي الشراء بالأصل، أيضاً من قاد برذوناً، مربي الكلب الكبير مسرور به، يربطه بحبل خوف الناس منه.

أعرف أخًا يسكن في بناء، أولاده مصابون بأمراض، بسبب هذا الكلب الذي يقف في مدخل البناء، شيء مخيف، كلب كبير، فصاحبه طبعاً متفق معه، لكن البقية غير متفقين معه، من أطلق لفرسه العنان جرحت عدالته، فهذه سرعة زائدة، في الإسلام سرعة الإنسان الشديدة لا تقبل شهادته، ليس المُخَاطِرُ محموداً، ولو سلم، من بال في الطريق، يشتمونه أحياناً: ملعون ابن ملعون، فهذا شيء

مزعج، فمن بال في الطريق جرحت عدالته، إن سار عاري القدمين تجرح عدالته، من أكل في الطريق تجرح عدالته، فهناك شيء اسمه سقوط عدالة، وشيء اسمه جرح عدالة .

((فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه))

أي اجعل بينك وبينه هامش أمان، يوجد شهوات فيها قوة جذب، والله أعلم، أية شهوة فيها قوة جذب، تحتاج إلى هامش أمان:

((وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم))

الآن: فهمنا أن هناك شيئاً أمرنا الله به، وأن هناك شيئاً نهانا الله عنه، وأن هناك شيئا سكت الله عنه، سكت عنه لا نسياناً، ولكن رحمة، ويبدو أن هذا الشيء المسكوت عنه حيادي لا يقرب ولا يبعد، فأنت إذا سألت، وضيقت، وتعنت، تكون قد جلبت لنفسك قيدًا أنت في غنىً عنه .

البائع غير مكلف يسأل المشتري: ماذا تفعل بهذه الحاجات؟ تبيع أنت أطباقا غير مكلف، أما إذا كنت تعلم أن هذه الصحون ذاهبة إلى مكان معصية أو إثم فهذا موضوع آخر، فأنت غير مكلف أن تسأل .

الشيء الثاني:

((فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم))

الملخص: المنهيات حدية، المأمورات نسبية، والدين أمر ونهي، ولا أمر ولا نهي، سكوت، فالأمر نَفِذْهُ، والنهي اترِكْهُ، والذي سَكَتَ عنه لا تسأل عنه، هذا هو الدين، أما هناك أناس شددوا على أنفسهم، وضيقوا، فضيق الله عليهم

ما دلالة هذا الحديث؟ :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

((قال النبي صلى الله عليه وسلم: كلُّ أُمَّتي يدخلون الجنة إلا مَن أبى، فقالوا: يا رسولَ الله مَن يأبى؟ قال: مَن أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى))

[أخرجه البخاري في الصحيح عن أبي هريرة]

معنى ذلك: أنت مخير، وأنت حينما تطيع الله، فقد اخترت طريق الجنة، وحينما تعصي الله عز وجل، اخترت طريق جهنم، والإنسان لا ينبغي أن يعتذر بالأقدار، من أنبأك أن الله قدر عليك ذلك؟ هذا كلام الشيطان، أنت مخير، وطريق الجنة واضح، وطريق النار واضح .

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)

[سورة الإنسان الآية: ٣]

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ)

[سورة البقرة الآية: ١٤٨]

(فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ)

[سورة الروم الآية: ٩]

(وَمَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٧٩]

اليوم مر معنا بدرس بالطاووسية، أن الله عز وجل غفور، ومعنى غفور: أنه يعفيك من العقوبة، ومعنى غفور: أنه يستر عن الناس ذنبك، ومعنى غفور أنه يستر عنك ذنبك، وأنت في الجنة، فالله عز وجل أعفاك من إنزال العقوبة، وأخفى ذنبك عن الخلق، ثم أنساك هذا الذنب وحجبه عنك يوم القيامة، وهذه المغفرة ثمنها أن تستغفر .

مثلاً: إنسان عليه ثلاثون مليوناً، ومنزله ثمنه خمسة ملايين، سيارته مليونان، فلو باع منزله وسيارته لا يقضي دينه، قال لك صاحب الدين: قل لي: سامحني، أتنازل لك عن هذا الدين، كلمة واحدة تنجو بها من عذاب، ومصادرة، ومن شقاء، شيء عجيب أن المغفرة بيد الإنسان .

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً)

[سورة نوح الآية: ١٠]

بالمناسبة: ما أمرك أن تستغفره إلا ليغفر لك، ما أمرك أن تتوب إليه إلا ليتوب عليك، ما أمرك أن تدعوه إلا ليجيبك، ما أمرك أن تستعين به إلا ليعينك، لمَّا أمرك أن تستعين به، وأنه لا يعينك كلام لا معنى له .

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً ، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً)

[سورة نوح الآية: ١٠-١٢]

انظر إلى هذه المفارقة بين هذا الحديث وبين واقعنا اليوم :

والحديث الأخير: عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال:

((وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، إن هذا لموعظة مودع، فإذا تعهد إلينا، قال: قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم، فسيرى اختلافا كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين من بعدي، وعليكم بالطاعة، وإن كان عبداً حبشياً، عضوا عليها بالنواجذ))

فكان أسد بن وداعة، يزيد في هذا الحديث:

((فإن المؤمن كالجمل الأنف حيث ما قيد انقاد))

[أخرجه ابن ماجه في سننه والحاكم في مستدركه عن العرباض بن سارية]

الإسلام العظيم الذي هو رسالة السماء إلى الأرض، والذي أسعد الخلائق كلها، يغدو رقص عند بعض الحلقات، وطرب عند حلقات أخرى، وأداة لكسب المال عند بعض الناس، وتجارة في الوحل عند فئة أخرى، من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً .

فإذا كنتم في هذا، فالماء يجب أن يكون صافياً، نقياً، فلا رائحة له، ولا طعم له، فإذا صار الماء أسود ماذا تفعل؟ اذهب إلى النبع، وأوضح مثل: نبع بردى، ومصبه، مياه النبع: صافية، عذبة، أما مصبه: مياه آسنة، سوداء، تراكمات بدع، خرافات، خزعبلات، اجتهادات، انحرافات، تقولات، جهل، تجارة، تملك، أصبح الدين كما ترى، فإذا كنت في مثل هذا الزمان، فارجع إلى الكتاب والسنة .

((وإنَهُ مَنْ يَعِش مِنْكُمْ، فَسَيَرَى اخْتِلافاً كَثِيراً، فَعَلَيكُمُ بِسِنَتي وسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَاشِدِينَ المَهدِيينَ، عُضُوا عَلَيهَا بِالنَوَاجِذِ))

شيء ما فعله صحابي، شيء ما درسه الصحابة، ما اختلف عليه الصحابة، ينبغي ألا نبحث فيه، وألا نذكره، وألا نختلف فيه .

((وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ))

أقسم لي إنسان بالله، قال لي وهو يصلي العشاء: وضع الجهاز أمامه، ويتابع المسلسل في أثناء الصلاة، فالصلاة أصبحت شكلية، أما هذا فشيء لا بد من متابعته .

رواية أخرى: قَالَ:

((أوصيكم بتقوى الله، والسمع، والطاعة، وإن كان عبداً حبشياً مجدعاً، فإنه من يعش منكم، فسيرى اختلافا كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين فتمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة))

[أخرجه أبو داود سننه، والإمام أحمد في مسنده، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه عن العرباض بن سارية]

شمر عن سواعدك يا مسلم :

أيها الأخوة، عن معقل بن يسار رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((العِبَادَةُ في الهرج كهجرة إليَّ))

[أخرجه مسلم في الصحيح والترمذي في سننه عن معقل بن يسار]

عبادة في الهرج: في زمن الفتن، زمن أن تشغل المرأة الساحة كلها، في الطريق، لو اشتريت بضاعة تافهة جداً، فلا بد من صورة امرأة عليها، هذا سقوط للمرأة، أصبحت المرأة سلعة، أو أصبحت لترويج السلع، فحينما يكون العصر هكذا فـ:

((الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ))

إن أردت أن تكون مهاجراً إلى الله ورسوله، فاعبد الله في زمن الفتنة.

((كيف بكم إذا أصبح المنكر معروفاً والمعروف منكراً؟ قالوا: أو كائن هذا يا رسول الله؟ قال: كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف؟))

الآن: بتركيا لا يمكن لطالبة أن تدخل الجامعة أو أي مكان حكومي بالحجاب، مستحيل، إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٦٠-١٠١) : باب الأمر بأداء الأمانة - ما هي أخطر أمانة كلف بها الإنسان؟ وما واجبه تجاهها؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٨-١٢-٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

من أهم أنواع الأمانات التي حملت في عنق الإنسان وأخطرها :

أيها الأخوة الكرام، عقد الإمام النووي رحمه الله تعالى في كتابه المبارك، كتاب رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين عليه أتم الصلاة والتسليم، عقد باباً سماه: باب الأمر بأداء الأمانة، لأن الله سبحانه وتعالى قال:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

[سورة النساء الآية: ٥٨]

وجاءت كلمة (الأمانة) جمعاً، لأن هناك عشرات، بل مئات، بل آلاف الأمانات التي في أعناق كل مسلم .

فإذا أردنا أن نفصّل، فنفسه التي بين جنبيه أمانة في عنقه، فإما أن يزكيها، وإما أن يدسيها، وقد قال الله عز وجل:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس الآية: ٩-١٠]

إن عرّفتها بربها، وحملتها على طاعته، ودفعتها إلى التقرب منه، فانعقدت صلاتها بالله عز وجل زكت، فإذا زكت سعدت في الدنيا والآخرة، فنفسك التي بين جنبيك أمانة في عنقك، وأشد أنواع الظلم أن تظلم نفسك، ظلم النفس أشد أنواع الظلم، إنك تظلم نفسك حينما تؤثر الدنيا على الآخرة، حينما تبيع آخرة بدنيا محدودة، حينما تبيع آجلاً بعاجل، حينما تبيع جنة عرضها السموات والأرض بدنيا كلها متاعب، حينما تبيع رضا الله عز وجل بشهوة طارئة، فنفسك التي بين جنبيك أمانة في عنقك:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس الآية: ٩-١٠]

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ١]

بالمناسبة: لم ترد كلمة (أفلح) في القرآن إلا في مواطن، منها:

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

[سورة المؤمنون الآية: ١]

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾

[سورة الأعلى الآية: ١٤-١٥]

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾

[سورة الشمس الآية: ٩]

الفلاح عند الله؛ أي النجاح، أي التفوق، أي الفوز، هذه كلها بمعنى واحد، منوط بتزكية النفس، فنفسك التي بين جنبيك أمانة، قال تعالى:

﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

[سورة البقرة الآية: ٥٧]

قد يحترق محل إنسان، يخسر كل البضاعة، يخسر كل التزيينات، هذه خسارة ولا شك ، والإنسان قد يفلس، قد يخسر كل رأس ماله، وعليه ديون، قد يخسر بعض أهله، يموت ابنه في حادث، لكن لو سألتني: ما أشد أنواع الخسارة؟ قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾

[سورة الزمر الآية: ١٥]

خسرت الآخرة، خسرت الجنة، خسرت الأبد، حصلت الدنيا، لذلك ورد عن رسول الله :

((ألا يا رب نفس طاعمة، ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفس جائعة، عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة، ألا يا رب مكرم نفس، وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه، وهو لها مكرم))

أسمع قلبك قبل عقلك هذا الكلام :

أخواننا الكرام، أخطر شيء أمانة النفس، نفسك التي بين جنبيك، قبل أن تفكر في أحد ، قبل أن تفكر في زوجتك، وأولادك، وجيرانك، وأمك، وأبيك، قبل أن تفكر في كل من حولك ، نفسك التي بين جنبيك، هل أديت أمانتها؟ أمانتها: أن تعرفها بالله عز وجل .

الإنسان تجده في دوام محله ثماني ساعات، وأحياناً ليس هناك بيع، ولكنه ملتزم بالدوام، أحياناً السهرة عشر ساعات، ننام الثانية صباحاً، ويضن بدرس علم مدته ربع ساعة، يقول لك: ليس عندي وقت، وقت حرج، وهناك شيء مؤلم، لا أقوله إلا للتوضيح: حضر درس علم، ولكنه يقوم في نصف الدرس، والدرس كله ربع ساعة، ضاقت عليك نفسك بخمس دقائق لله عز وجل، تجلس ساعات في كلام فارغ، ساعات تجلسها في المحل، لا بيع ولا شراء، وفي بيت من بيوت الله، والدرس ربع ساعة، أو ثلث ساعة، طبعاً لك ألاّ تحضر، لكن حضرت، تقف أمام الناس وتمشي،

لها معنى غير لائق، كلام لم يعجبك، كلام الله عز وجل، كلام النبي، إذا لم يكن لك وقت تعرف فيه الله .

وهنا كلمة دقيقة: إذا جاء أحدهم من أمريكا معه (بورد)، اشترى عيادة بالدَّين، واشترى أجهزة بالدَّين، واختصاصه هضمية، ووضع لافتة وكتب عليها: الدوام من الخامسة إلى السابعة مساء، جاء أحدهم الساعة السادسة، قال له: واللهِ ليس عندي وقت، أنت معك شهادة، معك طب، وعندك عيادة، والوقت نظامي، وعليك ديون، وجاء في الوقت النظامي، لماذا لست متفرغاً له؟ أنت متفرغ لأي شيء .

فإذا قال الواحد: أنا ليس لي وقت أحضر مجلس علم، أو أقرأ القرآن، نقول له: وقتك لأي شيء، أخطر شيء في حياتك: أن تعرف سر وجودك، غاية وجودك، الهدف الكبير الذي خُلقت لأجله، إذا لم يكن لك وقت لهذه الأهداف الكبيرة، فوقتك لأي شيء .

قال لي أحدهم ببراءة: الحمد لله، الله أعطانا الصحة والمال، لا ينقصنا شيء، ولي أصدقاء نسهر سويا كل أسبوع، نلعب النرد تسلية، ببراءة، مع أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((من لعب النرد، فكأنما غمس يده في لحم خنزير ودمه))

محرم تحريماً قطعياً أن تلعب بالنرد، النصوص أمامك، النرد لعبة فارسية، معروفة على عهد النبي الكريم، فالوقت ثمين .

مر أحد العلماء أمام مقهى، وهو الشيخ بدر الدين الحسني -رحمه الله تعالى-، قال:

((يا بني، لو أن الوقت يُشترى من هؤلاء لاشتريناه منهم))

المؤمن ليس معه دقيقة فراغ، هدفه كبير، الإنسان تعرف إلى الله، وسلك طريق الجنة، ليس عنده وقت يضيعه في اللغو إطلاقاً. قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ١-٤]

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

[سورة النساء الآية: ٥٨]

أخطر أمانة: هي أمانة النفس. قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً)

[سورة الأحزاب الآية: ٧٢]

قال: يا رب أنا لها، حملها، فإذا أدى الأمانة سعد إلى أبد الآبدين، وكان فوق الملائكة المقربين، أما إن خان الأمانة كان في أسفل سافلين، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ)

[سورة البينة الآية: ٦]

شر: اسم تفضيل، أي شر ما برأ الله عز وجل، فالإنسان بين أن يكون خير البرية، أفضل من الملائكة المقربين، وبين أن يكون شر البرية .

ماذا أعددت لربك غداً عن تصرفاتك؟ :

أيها الأخوة، في الحديث الصحيح المتفق عليه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة]

ففي موضوع عدم أداء الأمانة، نبدأ بأمانة النفس، أمانة الإنسان، الحياة تجذب .

قال لي أخ: الدنيا تأخذنا، إذا غفل الإنسان عن الله، أخطر مرض يصيبه مرض الغفلة عن الله، إذا غفل عن الله، يمكن أن يمضي ساعات طويلة ممتعة في سهرات، في لقاءات، في نزهات، في عَشاء، في فنادق، في سهرات مع أصدقاء، في سهرات مختلطة، في أفلام، في أجهزة، محطات فضائية، رأينا في الجزيرة كذا، والمحطة الفلانية كذا، (أم بي س) كذا، ممكن أن تقضي وقتك كله في غفلة، لكن المشكلة التي لا تحتمل: عندما يأتي ملك الموت، ماذا أعددت لهذه الساعة؟ قال تعالى:

(أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

[سورة النمل الآية: ٨٤]

يجيب الكفار:

(إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ)

[سورة التوبة الآية: ٦٥]

فلذلك:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

[سورة المدثر الآية: ٣٨]

كل إنسان حبيس عمله، إذا ارتكب الإنسان جريمة لم يعد حراً، خسر حريته، وصار في السجن، قال تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ)

[سورة المدثر الآية: ٣٨]

قال تعالى:

(إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ)

[سورة المدثر الآية: ٣٩]

المؤمنون. قال تعالى:

(فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ)

[سورة المدثر الآية: ٤٠-٤٢]

ما الذي أوصلكم إلى هنا؟ قال تعالى:

(قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ)

[سورة المدثر الآية: ٤٣-٤٤]

الآن دقق:

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)

[سورة المدثر الآية: ٤٥]

مع التيار العام، تيار تفلت، تيار فاضح للنساء، هكذا الموضة، هذا جواب المسلم. قال تعالى:

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ)

[سورة المدثر الآية: ٤٥]

إذا أكل الناس الربا أكل، ظهرت النساء كاسيات عاريات، أظهروا نساءهم كاسيات عاريات، يمضون الوقت كله في مسلسلات لا ترضي الله، مع الناس .

مشكلة المسلمين اليوم هي :

أيها الأخوة، قال تعالى:

(وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ)

[سورة المدثر الآية: ٤٥-٤٦]

قد يقول أحدكم: هل يعقل أن يقول مسلم: ليس هناك يوم دين؟ لا، التكذيب العملي أخطر من التكذيب القولي، لا أحد يقول من كل المسلمين: ليس هناك يوم الآخر، ليس هناك تكذيب قولي، ولكنه تكذيب عملي .

لو راقبت إنساناً لا تجد أنه يعمل للآخرة أبداً، كل همه الدنيا، استقامته ضعيفة جداً، كسبه للمال فيه شبهات، وإنفاقه للمال فيه شبهات، بيته غير منضبط، بناته غير منضبطات، فالذي يقول: أنا مؤمن بالآخرة يعمل لها، فهذا دعوى، كالطبيب مثلاً حكّم، وكتب وصفة، أنت لا تصدق علمه، واعتبره

جاهلاً، وهو معه اختصاص، قد تكون ذكياً، فتثني عليه ثناء طيباً، وتمدحه، جزاك الله خيراً يا طبيب، أكرمتنا، وتعطيه أجرته، لكن عدم شراء الوصفة: دليل على أنك لم تصدقه .

أنا لا أريد اللسان، أريد الواقع، حينما لم تشتر الدواء الذي وصفه لك هذا الطبيب، فأنت كذبته تكذيباً عملياً، فإذا لم يعمل الإنسان العمل الصالح، معنى ذلك: أن الآخرة لم يدخلها في حسابه، فهو مكذب، فما كل تكذيب بالقول، التكذيب بالعمل، وهو أخطر بكثير، كم من إنسان يصف لك أكلة معينة، أو يقول: ائت بورق الصبارة واغلِها؟ تقول: شكراً سأفعل، ولكنك لا تفعلها، لأنك لست مقتنعاً بها، فالمحك هو الفعل، وليس الكلام، إذا لم تكن مقتنعا فلن تفعلها، فكل إنسان يرتكب الحرام، ويعتدي على أموال الآخرين، فلم يدخل الآخرة في حسابه إطلاقاً، مع أنه إنسان عادي جداً جداً، ولكن ينتمي إلى جهة معينة، قال لك: تعال يوم الخميس الساعة الواحدة، تكون هناك الواحدة بالضبط، وثلاثة أيام لا تنام الليل، لأنك تعرف معنى هذا الاستدعاء، عليك مشكلة، فإذا آمنت بالله الإيمان الذي يليق به، وأعطاك نهياً وأمراً تنفذه فوراً.

نهاية المطاف :

أخواننا الكرام، أخطر شيء: أمانة النفس، نفسك التي بين جنبيك. قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس الآية: ٩-١٠]

إن عرفتها بربها، وحملتها على طاعته، وحملتها على التقرب منه، حتى سعدت بقربه في الدنيا، ودخلت جنة ربها في الآخرة، فقد أديت الأمانة، وإن لم تفعل فقد ضيعت أخطر أمانة في عنقك، وهي نفسك؛ لكن البعض يفهم الأمانة فهما مضحكاً ساذجاً ....

وضع عندك أحده خمسة آلاف ليرة، بعد سنة قال لك: أعطني إياها، فأعطيته، هذا معنى ضيق وصغير جداً من معاني الأمانة، نفسك أمانة، أنت علمك الله شيئا .

وفي الحديث: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً))

[أخرجه البخاري في الصحيح والترمذي في سننه]

العلم الذي تحمله أمانة في عنقك، ينبغي أن تؤديه لأصحابه، الله جعلك غنياً، المال الذي عندك أمانة في رقبتك، يجب أن تنفقه في حقه، يجب أن تعطيه للفقير والمسكين، أعطاك علماً، أعطاك جاهاً، كل واحد مظلوم هو رقبة في رقبتك، ما دمت قادراً على أن تنصفه فيجب أن تنصفه، معنى الأمانة واسع جداً، الدليل: أن الله قال:

(إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا)

[سورة النساء الآية: ٥٨]

الأمانات جمع، هناك ألف أمانة وأمانة، بدأت بأخطر واحدة، أمانة النفس، أكبر خسارة: أن تخسر نفسك يوم القيامة. قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ)

[سورة الزمر الآية: ١٥]

أكبر فشل في الحياة: ألاّ نعرف الله عز وجل. صدق القائل:

فابدأ بنفسك فانهها عن غيها فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

لا تنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٦١-١٠١) : باب ملاطفة اليتيم، والبنات، وسائر الضعفة، والمساكين، والمنكسرين، والإحسان إليهم، والشفقة عليهم، والتواضع لهم، وخفض الجناح لهم - من مظاهر رحمة الإسلام على المستضعفين في الأرض كالفقراء واليتامى ونحو ذلك

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٣-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

ما معنى خفض الجناح في هاتين الآيتين؟ :

أيها الأخوة الكرام، عقد الإمام النووي باباً، في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، سماه باب: ملاطفة اليتيم، والبنات، وسائر الضعفة، والمساكين، والمنكسرين، والإحسان إليهم، والشفقة عليهم، والتواضع لهم، وخفض الجناح لهم.

يقول الله عز وجل:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الشعراء الآية: ٢١٥]

وفي آية أخرى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الحجر الآية: ٨٨]

خفض الجناح هو التواضع، التواضع صيغة في اللغة على وزن تفاعل، تفيد التصنع، فإذا قلنا: فلان تواضع، ليس معنى هذا أنه وضيع، هو كبير عند الله ، لكنه تواضع، وإذا قلنا: فلان تعاظم، ليس معناه أنه عظيم، ولكنه تصنع العظمة .

وقد جاء في الحديث، عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِداً مِنْهُمَا، أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ))

[أخرجه ابن ماجه في سننه]

فإذا تواضعت فأنت لست بوضيع، وإذا تعاظمت فأنت لست بعظيم، والتواضع أن تضع نفسك في المكان الذي لا تجرح فيه الآخرين .

ما دلائل هذه الآيات؟ :

والله عز وجل قال:

(لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ)

[سورة النساء الآية: ١١٤]

هناك كلام ينطق به عن الآخر، يفتخر بماله، بأولاده، بأهله، بتجارته، ببيته، بمركبته ، هذا الكلام يجرح، المؤمن لا يفتخر، وقد قالوا:

((كثرة الظهور تقصم الظهور))

ماذا فعل قارون؟ قال تعالى:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)

[سورة القصص الآية: ٧٩-٨١]

لا تحاول أن تظهر ما عندك، أظهر ما عند ربك من فضل، أكثر الميسورين هكذا، الله عز وجل قال:

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

[سورة الضحى الآية: ١١]

أيّة نعمة أمرك أن تحدث الناس بها؟ النعمة المشتركة بين الناس، نعمة السمع والبصر ، نعمة الشمس والقمر، نعمة الذرية والأولاد، هذه نِعم مشتركة، حدث الناس بها، أما النعم الخاصة، أنت وكيل شركة حصري، لك دخل كبير جدا، لا تجلس في مجلس وتفتخر بهذا الدخل، هذا كلام يجرح، وكلام يكسر، وكلام يشعر الإنسان الغافل بالحرمان .

سيدنا عمر له كلمة يقول:

((من دخل على الأغنياء، -والقصد: الأغنياء الشاردين، الأغنياء الغافلين، أما الغني المؤمن فأنعِم به وأكرم، متواضع، أديب، سخي، كريم النفس، هنا الغني الشارد المقصر-، خرج من عندهم، وهو على الله ساخط))

لأن مظاهر الفخامة في بيته، تنكمش منها، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له))

لا تصاحب إنسانًا أعلى منك، أنت أمامه صغير، وهذا الوضع مؤلم لك، صاحب إنسانا يفتخر بمجيئك إليه، لا تصاحب إنساناً لا يتفرغ لك .

الشيء الملاحظ والدنيا عيد: الأغنياء كل الناس يزورونهم، هو شامخ بأنفه، ليس له وقت، هؤلاء الفقراء لا أحد يزورهم، زيارة الأغنياء والأقوياء من الدنيا، أما زيارة الضعفاء والمساكين فمن الآخرة.

لك قريب يسكن في طرف المدينة، يسكن في حي فقير، اذهب إليه وزره، يمتلئ أنسًا بك، يفتخر بك، لذلك: كن مع الضعفة والمساكين ترقَ عند الله، ولا تكن مع الأغنياء والأقوياء، فهذا من حب الدنيا .

((ومن جلس إلى غني فتضعضع له، ذهب ثلثا دينه))

تلبية دعوة :

أيها الأخوة، أنا العبد الفقير: دعيت مرة إلى قصر النبلاء في رمضان، إلى تناول طعام الإفطار، أنا أعلم علم اليقين: أن الأكل نفيس جداً، المدعوون من كبراء هذا البلد، عندي طالب تركي فقير جداً، قال لي: يا أستاذ إذا دعوتك هل تأتي؟ فقلت: نعم سآتي، قال: اليوم دعوتك، قلت: آتيك إن شاء الله، ذهبت، وبيته في أول جادة من فوق، وصلت إلى بيته في ربع ساعة مشياً، تعثرت مرتين، لصعوبة الصعود، وصلت إليه، والله الذي لا إله إلا هو ما مر بي في عشر سنوات ماضية سرور بهذا اللقاء كهذا السرور، جلسنا على الأرض، على فرشة من إسفنج، سماكتها سنتيمتر ونصف، ووضع الأكل على الجرائد، والله كأس الشاي ليس عنده من القياس الكبير، شربنا الماء في كأس الشاي، أكل عادي جداً، وأقلّ من العادي، كان هناك تجلّ وسرور، والله دعاني العام القادم، فقلت: آتيك إن شاء الله، وأخذت معي زوجتي وابنتي، هو أخ تركي .

أنا كنت في تركيا، فدعاني إلى بيت صهره، بيت فخم في استانبول، أين عمك؟ فقال: له قصر على البحر الأسود، ما استوعبت الأمر، كيف أعطوك ابنتهم ماداموا أناساً على هذا الغنى؟ يسكن في بيت في آخر جادّة من فوق، والأثاث متواضع جداً، فكان الجواب: أن ابنتهم التي هي زوجته، طلبت من الله طالب علم مستقيم، وأصرت على ذلك، فأخذتُ معي أهلي لأريهم، أين كان يسكن أبوها، وزوجها طالب علم مستقيم؟ تسكن في هذا البيت، فلما يتجلى ربنا عز وجل على إنسان، أقول لكم: والله كان هناك سرور وتجلٍّ لا يصدق .

مرة دعيت إلى عقد قران في إحدى قرى ريف دمشق، أهل البلدة هناك كانوا في الطريق، لا يحتاجون إلى صالة، يضعون الكراسي، ويضيفون كأس الشاي، وأذكر أنه مرّ بائع المازوت، في أثناء الحفل، ألقيت كلمة، شعرت أنها تركت أثرا كبيراً، ثلاثون شخصاً في هذا اللقاء، صاروا يحضرون في مسجدنا، بسبب هذه الكلمة .

ومرة دعيت إلى عقد قران، فيه من البذخ والفخامة ما لا يوصف، ما رأيت وجها عليه نوراً، يمكن أن تجد عند الفقراء حالة كبيرة، تواضع، قرب من الله، الأكل خشن، وطبعا هناك أغنياء من أرقى ما يكون، الغنى لا علاقة له، هناك غني مؤمن، وغني غير مؤمن، لكن يغلب على الفقراء والمساكين القرب من الله عز وجل والتواضع، فهذه قاعدة .

إذا لبيت دعوة قوي أو غني فهذه التلبية من الدنيا، وإذا لبيت دعوة فقير مسكين ضعيف فهذه الدعوة تلبيتها من الآخرة، أنت لا تعرف إذا زرت إنسانا ضعيفا فقيراً، وأكرمته ، وآنسته، أنه يتكلم عن هذه الزيارة سنة، لذلك:

((لا تصاحب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له))

فالإمام النووي رحمه الله تعالى، عقد باباً في هذا الكتاب الطيب، فقال:

((باب ملاطفة اليتيم، والبنات، وسائر الضعفة، والمساكين، والمنكسرين))

قف هنا :

يروى أن أحد خلفاء بني أمية، عبد الملك بن مروان، دخل عليه وفد، وتقدمه غلام صغير، فغضب أشد الغضب، وقال لحاجبه مؤنّبا:

((ما شاء أحد أن يدخل علي إلا دخل حتى الصبيان، قال له الصبي، وهو صغير جداً، قال له: أيها الأمير، إن دخولي عليك لم ينقص من قدرك، ولكنه شرفني يا أمير المؤمنين، أصابتنا سنةٌ أذابت الشحم، وسنةٌ أكلت اللحم، وسنةٌ دقت العظم، وعندكم فضول مال، فإن كانت هذه الأموال لعباده، فعلام تحبسونها عنا، ونحن عباده؟ وإن كانت لكم فتصدقوا بها علينا، وإن كانت لنا، فلمَ لا تعطونا إياها؟ .

يقول هذا الخليفة عبد الملك بن مروان: واللهِ ما ترك هذا الغلام لنا في واحدة عذراً، فصيح متكلم))

ودخل مرة وفد حجازي على عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى، فتقدمهم غلام أيضاً، فقال:

((اجلس أيها الغلام، وليقم من هو أكبر منك سنًّا، فقال هذا الغلام: أصلح الله الأمير، المرء بأصغريه؛ قلبه ولسانه، فإذا وهب الله العبد لسانا لافظاً، وقلبا حافظاً، فقد استحق الكلام، ولو أن الأمر كما تقول، لكان في الأمة من هو أحق منكم بهذا المجلس))

القضية ليست بالحجم، هناك من هو أحق منك بهذا المجلس، فالإنسان لا يتكبر .

يروى عن نابليون، أنه كان إمبراطور أوروبا، انتبه إلى حارسه الشخصي وهو نائم، فأخذ البندقية من يده، ووقف مكانه إلى أن استيقظ، علمه درساً لطيفاً، فالإنسان لا يتكبر على الفقراء والمساكين، لأن الله عز وجل أكبر .

إليكم هذه الآيات وهذه الأحاديث التي تصب في عنوان درسنا :

وفي الحديث، قَالَ أَبُو مَسْعُودٍ الْبَدْرِيُّ:

((كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي بِالسَّوْطِ، فَسَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ خَلْفِي: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، فَلَمْ أَفْهَمْ الصَّوْتَ مِنْ الْغَضَبِ، قَالَ: فَلَمَّا دَنَا مِنِّي، إِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَقُولُ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، قَالَ: فَأَلْقَيْتُ السَّوْطَ مِنْ يَدِي، فَقَالَ: اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ، قَالَ: فَقُلْتُ: لَا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأبو داود والترمذي في سننهما]

إذًا:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الشعراء الآية: ٢١٥]

والآية الثانية:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

لعلك تُدعى على حفل مختلط، والمكان فخم، والطعام طيب، والضيافة رائعة، والمناظر خلابة، ولكن فيه اختلاط، وفيه معاص، أما إذا صبرت نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، لعلك تجد حياتهم خشنة، لكن هم قريبون من الله عز وجل، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

الآية الثالثة:

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

[سورة الضحى الآية: ٩-١١]

الآية الرابعة:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ)

[سورة الماعون الآية: ١-٢]

يدفعه، قال تعالى:

(وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ)

[سورة الماعون الآية: ٣]

وفي الحديث: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ:

((اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

أيها الأخوة، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قال،

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هَكَذَا، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا شَيْئًا))

[أخرجه البخاري في الصحيح وأبو داود والترمذي في سننهما]

معنى ذلك: أن الذي يكرم اليتيم، يحق له أن يجاور سيد المرسلين في الجنة، قال تعالى:

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

[سورة الضحى الآية: ٩-١١]

وتكريما لليتامى، كان النبي يتيماً، سيد الخلق كان يتيماً، ولكن لليتم معنى ثان، فليس اليتيم من فقد أبويه، ولكن اليتيم كل اليتيم: من وجد أما تخلت أو أبًا مشغولاً .

عندنا يتم حقيقي، وهو أن يفقد الطفل أمه، وأباه، أو أحدهما، وعندنا يتم حكمي، أن تكون أمه مشغولة عنه بزياراتها، وأبوه مشغول عنه بحظوظه، فهناك أولاد ينشؤون في بيوت فيها وفيها أمهات، ولكنهم حكماً يتامى .

تعريفات لهذه الفقرة: المسكين، السائل، المحروم، حكم فقهي :

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ:

((قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَا اللُّقْمَةُ وَلَا اللُّقْمَتَانِ، إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ، وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ يَعْنِي قَوْلَهُ:

(لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا)

قبل أن آتي إليكم، دعيت إلى اجتماع لجمعية خيرية، والجمعية عريقة في دمشق، وكلفت أن ألقي كلمة توجيهية، فقلت: يقول الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ)

[سورة المعارج الآية: ٢٤-٢٥]

من هو المحروم؟ هو المتعفف، لا يسأل فيُحرم، أما السائل يقتحم، يسأل بإلحاح مرات عديدة، إلى أن تعطيه كي تستريح منه، أما المحروم فهو إنسان عفيف عزيز النفس، تغلو عليه نفسه، فلا يسأل حتى يحرم، والله عز وجل قال:

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً)

[سورة البقرة الآية: ٢٧٣]

فهذا الذي يستحق، تحسبه غنياً أنيقاً، كلامه مضبوط، عزيز النفس، لا يبذل ماء وجهه لأحد، فكيف نساعده؟ هو لا يسأل، الذي يسأل يقتحم، و ينال، وقد لا يستحق .

بالمناسبة: هناك جمعية في دمشق لمكافحة التسول، قدمت خدمات كبيرة، أحد أعضائها من أخواننا في المسجد، قال لي: أنا حققت مع ألف وأربعمئة خمسين متسولا، بين رجل وامرأة، كم من فقير فيهم؟ خمسة أشخاص، وكل واحد له حوالي ثمانمئة ألف ليرة، وبعضهم خمسمئة ألف، أموال طائلة، ويحترفون التسول، فهذا المتسول يسألك، وابنه يضع على يده جبصاً، ولا يوجد فيها كسر، أو يعصب لعينه، فتظنه أعمى، وهو يبصر، يستدر عطفك فتعطيه، قد تفاجأ من دخله، يقترب من دخل تاجر كبير.

حدثني أخ، أقسم لي بالله، يعرف متسولا حجمه المالي أربعون مليوناً، سيارات وبيوت، فلذلك: ينبغي للإنسان أن يتحقق، قال تعالى:

(يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً)

[سورة البقرة الآية: ٢٧٣]

بالمناسبة: أكثر أخواننا التجار دافعو الزكاة، يتوهم أنه لمجرد أن ينفق هذا المال انتهى ، وأدى الذي عليه، لم يؤد، لا بد من أن تضع هذا المال في محله الصحيح، في الفقير المؤمن ، هذه حقيقة، لذلك: الإمام الشافعي، وهذه حقيقة قد تفاجؤون بها، إذا دفعت زكاتك لإنسان كافر دون أن تعلم، لا تسقط عنك الزكاة، كيف؟ .

عليك عشرة آلاف، دفعتها لشخص، ظننته لا يصلي، ويشرب الخمر، لكن لا تعرفه، في المذهب الشافعي: لا تسقط عنك الزكاة بدفع هذا المبلغ لهذا الإنسان، الدليل: النبي قال:

((تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

هذا ليس من فقراء المسلمين، من فقراء الكفار، لذلك لا تسقط الزكاة عن دافعها، إذا دفعها لإنسان ينكر الصلاة أو إنسان متفلت .

حديث آخر: في رواية أخرى: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال، قال رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ، تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ، وَلَكِنْ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ، وَلَا يُفْطَنُ بِهِ، فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ، وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

مظهره مقبول، لا يفطن له، وليس عنده ما يكفيه، ولا يسأل الناس، هذا الإنسان الذي يستحق الزكاة والصدقة .

احذر من هذه الوليمة :

وفي حديث آخر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((شَرُّ الطَّعَامِ طعَامُ الْوَلِيمَةِ، يُمْنَعُهَا مَنْ يَأْتِيهَا، وَيُدْعَى إِلَيْهَا مَنْ يَأْبَاهَا، وَمَنْ لَمْ يُجِبْ الدَّعْوَةَ، فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ:

((بِئْسَ الطَّعَامُ طعَامُ الْوَلِيمَةِ، يُدْعَى إِلَيْهِ الْأَغْنِيَاءُ وَيُتْرَكُ الْمَسَاكِينُ، فَمَنْ لَمْ يَأْتِ الدَّعْوَةَ، فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ))

اجلس مع الأغنياء، لا يأكلون اللحم، معه أسيد أوريك، ومعه نسب عالية، يأكل بقرفٍ، أم الفقير فيأكل بنهمٍ، فأنت أجرك مع الفقراء، لا مع الأغنياء، فطعام الولائم إذا فيها تنافس، وكسر عين، وفخامة، وأكل من المطاعم الفخمة، واعتزاز، هذه وليمة ينبغي ألاّ تلبّى، لأنها ليست على حب الله، بل أحياناً من أجل الشيطان .

((بئس الطَّعَامِ طعَامُ الْوَلِيمَةِ، يُدْعَى لَهَا الْأَغْنِيَاءُ، وَيُتْرَكُ الْفُقَرَاءُ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٦٢-١٠١) : باب الوصية بالنساء - من وصايا النبي عليه الصلاة والسلام

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٤-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ما المراد بكلمة: (المعروف) في الآية الكريمة؟ :

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، ونحن اليوم في باب الوصية بالنساء، فقد قال الله عز وجل:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة النساء الآية: ١٩]

وكلمة (بالمعروف) تشير إلى الفطرة، فالإنسان بالفطرة السليمة يحب الكمال، فإذا انطلق في سلوكه وفق فطرته السليمة ترتاح نفسه، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي في سننه عن النواس بن سمعان]

فالإنسان مفطور فطرة سليمة، فإذا وقف الموقف الكامل ترتاح نفسه، ويطمئن قلبه، ويسعد .

لو أن الإنسان عاشر امرأته بالإحسان، صبر عليها، رحمها، دلها على الله، أكرمها، عاملها كشريك حياته، يشعر براحة، أما إذا ظلمها وقسا عليها، ولم يعاملها كما ينبغي، يشعر باضطراب .

فالمعروف هو الشيء الذي تعرفه النفس بفطرتها، فالمعاشرة بالمعروف كما فسرها بعض العلماء:

((ليس أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها))

فرق كبير بين أن تفهم المعاشرة بالمعروف: أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل ينبغي أن تفهم المعاشرة بالمعروف: أن تحتمل الأذى منها .

من ميزات الزواج الإسلامي :

أيها الأخوة، من عظمة هذا الدين: أن الزواج الإسلامي يمتد إلى آخر العمر تقريباً، إلا ما ندر، ذلك أن في الإسلام حقيقة، وهي أن الله بين الزوجين، ما معنى أن الله بين الزوجين؟ . أي أن كل طرف، الزوج أو الزوجة، يخشى الله أن يظلم الطرف الآخر، يخاف، وكل طرف يرجو رحمة الله بالتجاوز عن سلبيات الطرف الآخر وخدمته، التجاوز عن سلبياته قد تبتغي بها وجه الله، وإكرام الطرف الآخر تبتغي به وجه الله، فإذا كان الله بين الزوجين، فهذا الزواج وُجد ليستمر، لذلك: أطول

زواج في بعض البلاد الغربية سنتان، نسب الطلاق ٦٧%، هذا الرقم قديم، الإحصاء قبل عشر سنوات، أي كل مئة زواج ينتهي منها ٦٧ إلى الطلاق .

في بعض البلاد الأقلّ تمدنا نسب الطلاق ٣٧%، عندنا –والحمد لله– قبل عشر سنوات، كانت نسبة الطلاق ٢-١٠٠٠، في بلاد المسلمين، لأن الزواج وُجد ليبقى .

حدثني أحد القضاة، أن قبل سنة، كان هناك إحصاءً، صار الطلاق ١٥%، والسبب هذه الصحون، هذه الصحون هي أحد أسباب الطلاق، لأن غض البصر أحد أسباب الوفاق بين الزوجين، وإطلاق البصر أحد أسباب الشقاق، العلم أحد أسباب الوفاق، والجهل أحد أسباب الشقاق، عدم التطبيق أحد أسباب الشقاق، سوء التصرف أحد أسباب الشقاء، إطلاق البصر أحد أسباب الشقاق، التعالي على الطرف الآخر أحد أسباب الشقاق، خروج المرأة من بيت زوجها دون إذنه أحد أسباب الشقاق، لو تتبعت أسباب الشقاق لوجدتها كثيرة، كلها مخالفات للشرع، فذلك يقول الله عز وجل:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة النساء الآية: ١٩]

وقال تعالى:

(وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً)

[سورة النساء الآية: ١٢٩]

فالذي عنده زوجتان، لا يستطيع أن يعدل العدل المطلق بينهما، العدل المطلق فوق طاقة البشر، العدل المطلق متعلق بميل القلب، ولكن العدل التام متعلق بالسكنى، والإنفاق، والوقت، والمبيت .

فالعدل التام بين الزوجتين أن تجعل لكل منهما بيتاً، وأن تنفق الإنفاق نفسه، وأن تبقى عندها الوقت نفسه، فإذا حققت العدل التام، فما عليك إذا تزوجت .

ماذا عن زواج المسيار؟:

أيها الأخوة، هناك الزواج المسيار، هذا زواج لم يكن من قبل .

إنسان مقيم في جدة دائماً، يتزوج في الشام امرأة، وفي القاهرة امرأة أخرى، وفي أبها أخرى، وفي الطائف واحدة، إذا سافر في السنة أو السنتين يذهب إليها، عند الناس هي متزوجة، ولكن معاني الزواج غير متحققة، لا ينفق عليها، ولا يبيت عندها، لكن هي متزوجة ، ربما انحرفت هذه المرأة، بسبب أنها عند الناس متزوجة، ولا أحد يستطيع أن يحاسبها إطلاقاً، فكل زواج ليس على منهج الله عز وجل، زواج له إشكالات كبيرة جداً .

إليكم بياناً في شرح هذا الحديث :

وفي الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خيراً، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه عن أبي هريرة]

بنية المرأة العقلية، والنفسية، والاجتماعية، والإدراكية، تختلف عن بنية الرجل، الرجل الذي يتمنى، وينتظر أن تكون زوجته مثله، رجل غير حكيم، هي من بنية أخرى .

يروى أن مِلكاً، كان يتفقد رعيته، فدخل بستاناً، رأى فيه حصاناً يدور حول الرحى، وقد عصب صاحب البستان عينيه، ووضع في عنقه جلجلاً، هذا الملك ذكي جداً، استدعى صاحب البستان، وسأله:

((لِمَ عصبت عينيه؟ فقال: لئلا يصاب بالدوار، قال له: جيد، ولمَ وضعت في عنق الجلجل – الجرس- في عنقه؟ قال: إذا توقف أعرف أنه توقف، ما دام الصوت مستمر فهو يدور، فإذا انقطع الصوت دلّ على أنه توقف، تأمّل المِلك، وكان ذكياً جداً ، قال له: فإذا وقف وهزّ رأسه، وكان الفلاح أذكى، قال له: وهل له عقل كعقلك؟ أنا عندي حصان))

فالزوج لما ينتظر من زوجته، أن تكون مثله، في طريقة التفكير، فهو مخطئ، لو أنها مثله لمَا سكنت عنده، ولمَا قبلت أن تخدمه، ولمَا قبلت أن تكون زوجة له، الله عز وجل أعطاها خصائص ثابتة، عاطفتها جياشة، إدراكها ليس كإدراك الرجل، اهتماماتها ليس كاهتمامات الرجل، وأفقها ليس كأفق الرجل، هي مشغوفة بأولادها، بإطعامهم، بتربيتهم، بإرضاعهم، بتنظيم البيت وتزيينه، كل اهتماماتها جمالية، وانفعالاتها عاطفية، بنيتها عاطفية، واهتماماتها جمالية، أما الرجل فبنيته عقلية، واهتماماته واسعة جداً .

أحياناً: كم من زوجة ضاقت بكتب زوجها ذرعاً؟ كم من زوجة ضاقت بعلم زوجها؟ هي تريد أن تجلس معه، وتتحدث معه عن جارتها، وعن أختها، وعن الغسالة، والغسيل، ليست مهتمة بقضايا الصرب، ولا بمثل هذه الموضوعات، تقول لك: مللنا من الأخبار، اهتماماتها غير اهتماماتك، بنيتها غير بنيتك، أنت تتحمل زوجة حين تأتي ظهراً، وتجد البيت قذراً، غرفة النوم مضطربة، المطبخ كله صحون، تحتاج إلى تنظيف، الأولاد مهملون، لكنها تستمع إلى الأخبار، هل تسرّ بها وتتحملها؟ هل تتحمل أن تكون ملاءة السرير ليست نظيفة؟ وهي ذات فهم عميق، تريدها زوجة أنيقة، مرتبة، نظيفة، أولادها مرتبون، هندامهم حسن. لذلك:

((المرأة المؤمنة تسرك إن نظرت إليها))

وفي رواية:

((إن نظرت))

إن نظرت إلى غرفة نومك، إن نظرت إلى المطبخ، إن نظرت إلى أولادها، تسرك إن نظرت إليها، وتحفظك إن غبت عنها، وتطيعك إن أمرتها، لأن بنية الزوجية النفسية والعقلية والاجتماعية تختلف عن بنية الرجل، بنيتها عاطفية، واهتماماتها جمالية، والرجل بنيته عقلية، واهتماماته شمولية، لذلك الزوج يسكن إلى زوجته، لأنه يكمّل نقصه بها، والزوجة تسكن إلى زوجها، لأنها تكمّل نقصها به، نقص الانفعال يكمله بزوجته، نقص الإدراك تكمله بزوجها، يسكن إليها، وتسكن إليه، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم الآية: ٢١]

((اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خيراً، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ))

لها عقلية خاصة، عقليتها أنها تحب ابنها ولو كان سيئا، تدافع عنه ولو كان مخطئاً، ولو كان مذنباً، لأن هذه الحياة لها حكمة إلهية، هذا الطفل من يربّيه؟ من هو الكائن الذي يحتمل أخطاءه؟ أمّه، أكثر الأمهات يكون ابنك كتلة شر تحتويه، تعطف عليه، وتتعامى عن خطئه، وأكثر الأزواج فيما بينهم، الزوجة تدافع عن أولادها، والأب لا يتحملهم .

معنى ذلك: أن هذه المرأة نفسها آية من آيات الله، أنها إنسان، وقد يكون عندها طفل سيء الأخلاق، قد يكون دميم الشكل، لكن كما يقول العوام: القرد في عين أمه غزال، حتى يعمر الكون، وتستمر الحياة .

لو كان حب الأم لطفلها على أساس جماله يموت الدميم، أيّ طفل مهما كان شكله، مهما كان لونه، مهما كان شكل وجهه، وفيه عاهات، فهناك في الحياة قلب يحبه، ويعطف عليه، ويحتمله، ويستوعبه، المرأة لولا أنها بهذا الشكل، لمَا صلحت أن تكون زوجة، مستحيل.

((اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خيراً، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ))

أي في عقلها ضعف، لأن العقل الراجح جداً لا يسمح لها أن تعيش مع زوجها، لأن نفسيتها نفسية انقياد، الرجل نفسيته قيادة، هي انقياد، هي تحب من يحميها، لذلك الزوجة غير الزوج، شهوة الرجل الجنسية شهوة حسية، يثيره منظر المرأة، أما شهوة المرأة الجنسية فهي شهوة اجتماعية، يثيرها إنسان شخصيته قوية، كريم، يحميها، قال تعالى:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ)

[سورة القصص الآية: ٢٦]

أجمل ما في المرأة عند الرجل حياؤها، وأجمل ما في الرجل عند المرأة قوته وأمانته، فشهوتها الجنسية شهوة اجتماعية، وشهوته الجنسية شهوة حسية، المرأة تثيره، لكن لا يثيرها جسم الرجل بقدر ما تثيرها شخصيته، وكرمه، وحدبه، ودفاعه عنها .

أيها الأخوة، هناك شيء دقيق في الحياة، لذلك المرأة والرجل متكاملان، لو أنهما متشابهان لتضادّا، لأنهما متكاملان توافقاً، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً)

[سورة الروم الآية: ٢١]

فالمودة والرحمة بين الزوجين من خَلق الله عز وجل، لذلك الزوج العاقل هو الذي يقبل زوجته بعقليتها وطباعها، والزوج غير الحكيم يتمناها مثله، لو أنها مثله لما عاشت معه أساسا .

برنامج حصل :

أيها الأخوة، كان هناك برنامج في الكمبيوتر للتزويج، هذا في أمريكا، وجدوا أن أسباب الطلاق: التنافر في الطباع، ووجدوا أن أسباب الوفاق الزوجي: كثرة القواسم المشتركة بين الزوجين .

أحياناً: الصديقان يجلسان عشر ساعات مع بعضهما، لا يمل أحدهما الآخر، السبب؟ هناك قواسم مشتركة كبيرة جداً، أحياناً يسهر الأطباء مع بعضهم، يتكلمون إلى الساعة الواحدة في الطب، المحامون مع بعضهم، لأن هناك موضوعات كثيرة جداً مشتركة بينهم، وتجلس مع أخوانك المؤمنين ساعات لا تمل، لأن قيمك قيمه، وأهدافك أهدافه، ومبادؤك مبادئه، وآلامك آلامه، أفراحك أفراحه، أتراحك أتراحه، طموحاتك طموحاته، كثرة القواسم المشتركة تعين على التوافق، كل واحد منا في حياته يمكن أن يجلس مع إنسان عشر ساعات لا يمل منه، بالعكس، تتمنى أن تبقى معه، ويمكن أن تجلس مع إنسان خمس دقائق لا تتحمله .

لذلك: أعظم إكرام للنبي: أن الله اختاره، واختار له أصحابه، من التكريم البالغ لك، أن يكون من حولك على شاكلتك .

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام، كان إلى جانبه سيدنا الصدِّيق، وسيدنا عمر، وسيدنا عثمان، سيدنا علي بن أبي طالب، أعلام، أما إن وضعت مع الرسول شخصاً جاهلاً، أو شخصاً بعيد عن الله، فهذا أكبر عقاب له، وأنت أكبر عقاب تعاقب به، أن يكون من حولك ليسوا على شاكلتك، أنت أخلاقي، ومن حولك ليسوا أخلاقيين، تحب الله، وهم لا يحبون الله، تخافه، هم لا يخافونه، مشكلة كبيرة جداً .

فهذا البرنامج في الكمبيوتر، تأتي الفتاة تُسأل ألف سؤال، طباع الإنسان؛ تحبين النوم باكراً أم متأخراً؟ قبل أن تنامي، ماذا تقرئين، قصة أم مجلة، أم تنامين مباشرة؟ كيف تمضين العطلة

الأسبوعية:؛ في نزهة، في مسرحية، في البيت، على البحر، على الجبل؟ فتسأل ألف سؤال وتجيب عنها، ويأتي الشاب ويُسأل ألف سؤال ويجيب عنها .

الشاب يغيب شهراً أو شهرين، يسأل الجهاز: أي فتاة أقرب لي؟ فيعطيه الجواب، أقرب طباع لك هذه، ويقولون من باب الطرفة: إن هذا الجهاز يرتكب بعض الأخطاء، يعطي اسم رجل بدل اسم فتاة .

((فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ))

فكل حكمة الرجل، أن يصبر على زوجته، وأن يقبلها بعقليتها، وطباعها، وخصائصها ، وبنيتها، ليسعد بها .

توجيه نبوي لمعاشر الرجال :

أيها الأخوة، صح في رواية سَمُرَةَ يَقُولُ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّكَ إِنْ تُرِدْ إِقَامَةَ الضِّلَعِ تَكْسِرْهُ، فَدَارِهَا تَعِشْ بِهَا))

[أخرجه البزار في مسنده، والإمام أحمد في مسنده]

هذا من باب الطرفة: القلب داره تعش به، والزوجة دارها تعش بها، والمركبة دارها تعش بها .

وفي رواية في الصحيحين: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ

((الْمَرْأَةُ كَالضِّلَعِ، إِنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا، وَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا، وَفِيهَا عِوَجٌ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

وفي رواية لمسلم: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ، فَإِنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا، وَبِهَا عِوَجٌ، وَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهَا كَسَرْتَهَا، وَكَسْرُهَا طَلَاقُهَا))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

هذا توجيه النبي عليه الصلاة والسلام .

توجيه آخر من النبي للرجال :

الحديث الرائع، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

((لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أنت عليك بالإنصاف، إذا انزعجت من إنسان عدّد سيئاته، وعدِّد حسناته، فإذا غلبت حسناته سيئاته فهو إنسان جيد . يقولون:

((إن أحد ملوك الأندلس، المعتمد بن عباد، كان ملكاً من أكبر ملوك الأندلس، كان مرة يتنزه في حديقته، فرأى بركة ماء، وقد هبّ النسيم اللطيف على سطح الماء، فجعله كالشبكة، فقال:

نثر الريح على الماء زرد

-أي شبكة حديد، سلسلة، أحياناً: الريح يجعل على سطح الماء مثل الشبكة- فأراد إتمام البيت فما استطاع، سمع جارية وراءه تقول:

يا له درعاً منيعاً لو جمد

أكملت البيت:

نثر الريح على الماء زرد يا له درعا منيعا لو جمد

-مرة كنت في عمل تربوي في وزارة التربية والتعليم، وكان معنا شاعر، وكنا في مهمة صعبة، فجيء بضيافة (كنافة مبرومة)، وهناك رجل داعب شاعرًا هناك، قال له: أبا فلان مبرومة بالفستق

انظر إلى الشاعرية. قال:

تصيح: أين نلتقي؟

في حلب لذيذة و حلوة في جلّق
غرد إذا أكلتها في نشوة وشرِّق
مبرومة كأنها سوارة الخورنق

هذه الشاعرية- .

لأنه هو شاعر، وهي شاعرة، أُعجب بها إعجاباً شديداً، وتزوجها، وأكرمها إكراماً منقطع النظير، فهي كانت جارية فقيرة، فحنت مرة إلى حياة الفقر، والتعب، والشقاء، والطين، طلبت له أن تدوس في الطين، فجاء بالمسك والكافور، ومزجهما بماء الورد، وقال: هذا هو الطين فدوسي فيه، ثم جاء ابن تاشفين من شمال أفريقيا، وقضى على الملوك جميعاً، ووضعه في السجن، وافتقر، بعدما أصبح إنساناً عادياً، ولم يعد مِلِكاً، فقد ملكه وافتقر، ومكث في السجن، وكانت ثيابه في شكل مزرٍ، كانت تقول له زوجته، هذه الجارية: لم أرَ منك خيراً قط ، فقال لها: ولا يوم الطين، يوم الطين نسيتها))

لذلك: جاء في الحديثِ:

((وأريت النَّارَ، فلم أرَ منْظرا كاليومِ قطُّ أفظعَ، ورَأيْتُ أكْثرَ أهْلِهَا النِّسَاءَ، قالُوا: بم يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ: بكُفْرهِنَّ، قِيلَ: أيَكْفُرْنَ باللَّهِ؟ قالَ: يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، ويَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ، لوْ أحْسَنْتَ إلى إحْدَاهُنَّ الدَّهْر كله، ثُمَّ رَأتْ مِنْكَ شَيْئًا، قالَتْ: مَا رَأيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قطُّ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم ومالك في الموطأ]

فلذلك: كما يقول عليه الصلاة والسلام:

((لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إنْ كَرهَ مِنْهَا خُلُقاً رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

إنْ ذكرت سيئاتها فاذكر حسناتها .

أذكر مرة: أن أخاً، جاءني يريد تطليق زوجته، وكان غاضباً منها أشد الغضب، وكان بركاناً ثائراً، سألته سؤالاً: هل تخونك؟ فقال: أعوذ بالله، لا تخونني، طاهرة كماء السماء، قلت : كيف طبخها؟ فقال: طبخها ممتاز، قلت له: غير نظيفة؟ قال: لا والله نظيفة، لم ينتبه لنفسه، فقد أثنى على عفتها، وعلى نظافتها، وأثنى على طبخها، ثم استحيا من نفسه، فلم يكمل، وخرج وهو يقول: (ماشي الحال) رضيت بها .

((لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إنْ كَرهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ، أوْ قالَ: غَيْرَهُ))

كن منصفاً، لا تنظر إلى السيئات فقط، انظر إلى الحسنات .

دخل أحدهم المسجد، وأحدث جلبة كبيرة جداً، فعَنْ أبِي بَكْرَةَ:

((أنَّهُ انْتَهَى إلَى النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ رَاكِعٌ، فرَكَعَ قبْلَ أنْ يَصِلَ إلَى الصَّفِّ، فذكَرَ ذلِكَ لِلنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالَ: زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا ولَا تَعُدْ))

[أخرجه البخاري في الصحيح، وأبو داود والنسائي في سننه]

اعتبر سرعته ليدرك الركعة الأولى ميزة، ولكن لا تعدها مرة ثانية،

((زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا ولَا تَعُدْ))

كل زوج إذا رأى ميزات زوجته، وأثنى عليها، يصير من السهل جداً، أن تصلحها من نواحٍ أخرى، لكن دائماً تنتقد، قد يكون البيت مرتباً نظيفاً، كل هذا يتعامى عنه، أين يجد الخطأ يلوم عليه، هذا اسمه قنّاص، الذي يتصيد الأخطاء فقط، اسمه قنّاص، هذا ليس زوجاً، الزوج يقدّر الأشياء الإيجابية، ويثني عليها .

((لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إنْ كَرهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٦٣-١٠١) : باب حق الزوج على المرأة - ما الذي يسعد البيت المسلم؟ وما الذي يخربه؟ وما واجب الزوج تجاه زوجته؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٤-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم هذا أيها الزوج :

أيها الأخوة الكرام، باب جديد من أبواب رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، اسمه: باب حق الزوج على المرأة .

أيها الأخوة الكرام، نظام القيادة في الحياة، أن لكل مؤسسة قائداً واحداً، مستشفى له مدير، ثانوية لها مدير، وزارة لها وزير، أية مؤسسة، أي تجمع، لا بد له من قائد يملك القرار ، وهذه الأسرة خلية من خلايا المجتمع، مؤسسة من مؤسسات المجتمع، لا بد لها من واحد يعطي الأمر، طبعاً: هذا الواحد يجب أن يكون أعقلها وأكملها، وأوسعها أفقاً، وألينها عريكة، وأطيبها نفساً، فربنا عز وجل جعل من الرجل الذي ميزه الله بأشياء كثيرة، تؤهله ليكون قائداً لهذا البيت .

أيها الأخوة، لكن النقطة الدقيقة جداً هي: أن هذه القوامة درجة واحدة، تريدها متزينة أمامك ينبغي أن تتزين لها، تريدها أن تحترم أمك وأباك، ينبغي أن تحترم أمها وأبيها، تريدها أن تكون وفية لك كن وفياً لها، تريدها أن تكون صابرة كل مما تأكل، لا تأكل أنت في المطاعم، وتدع لها أخشن الطعام .

حينما تكون مؤمناً، حينما تطبق شرع الله عز وجل، أو حينما تزكي نفسك، حينما تتصل بربك، حينما ترقى، لا تسمح لنفسك أن تعاملها معاملة دونك، تطعمها مما تأكل، تلبسها مما تلبس، تحترم أمها وأباها، كما أنك تريد منها أن تحترم أمك وأباك، تدلها على الله، كما أنك سعيد بمعرفة الله، تسمح لها لطلب العلم، كما أن العلم زكاك ورفعك، تسمح لها أن تطلب العلم، لها ما لك، وعليها ما عليك، هي مساوية لك في التشريف، والتكليف، والمسؤولية، مساوية لك في أن لها عند الله مكانة لا تقلُّ عنك أبداً، تأمرها وتأمرك، تنصحها وتنصحك، تدلها وتدلك، ترقى بها وترقى بك، أرأيت إلى هذه المساواة؟ .

أيها الأخوة، لكن لحكمة بالغة أرادها الله عز وجل، لا بد لهذا البيت من قائد، فأعطاك مرتبة القيادة، إذا كان هناك فرقة عسكرية، فيها لواء وعميد، نمنح القيادة للواء، والعميد تحت جناحه، لكن الثاني ليس مجندا، هو عميد، بينهما درجة ورتبة واحدة، فإذا ظننت نفسك بينك و بينها من السماء إلى الأرض، فأنت جاهلي، لا تعرف الحقيقة .

إليك أيتها المرأة، واسمع أيها الرجل :

أيها الأخوة، إنسان مكرم، مكلف، مسؤول، محاسَب، قد يسبقك عند الله عز وجل، أول من يمسك حِلِق الجنة أنا، -أول إنسان يدخل الجنة هو النبي-، فإذا امرأة تنازعني، تريد أن تدخل الجنة قبلي، قلت:

((من هذه يا جبريل؟ قال: هذه امرأة مات زوجها، وترك لها أولاداً، فأبت الزواج من أجلهم))

أحياناً: امرأة صالحة، مؤمنة، تقية، عفيفة، واللهِ امرأة من هذا النوع، واللهِ قلامة ظفرها تساوي مليون رجل متفلت، امرأة ترعى زوجها، وأولادها، وتحسن إليهم، تيسر لهم طريقهم، حياتهم، طعامهم، شرابهم .

فذلك: قال عليه الصلاة والسلام:

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي مَن دونك من النساء، أن حسن تبعل المرأة زوجها، يعدل الجهاد في سبيل الله))

جهاد، والجهاد كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟ قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ))

أعلى شيء في الإسلام، أن تقدم حياتك في سبيل الله عز وجل، والمرأة التي تحسن تبعل زوجها وأولادها، في مرتبة المجاهد يوم القيامة، علموا هذا نساءكم، علموا هذا فتياتكم، علموا هذا بناتكم .

((اعلمي أيتها المرأة، وأعلمي مَن دونك من النساء، أن حسن تبعل المرأة زوجها، يعدل الجهاد في سبيل الله))

إياك أن تستخف بها، إياك ألا تلقي لها بالاً، إياك أن تزور عنها، هي إنسان كريم، لها عند الله شأن كبير .

واللهِ هناك امرأة أنصارية، أنا أقسم بالله ولا مئة مليون رجل، يرقى إلى مستواها، في معركة أحد أشيع أن النبي قد قُتل، فخرجت إلى ساحة المعركة، فإذا أبوها مقتول، لم تعبأ، فإذا زوجها مقتول، فلم تعبأ، تقول:

((ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا ابنها مقتول، لم تعبأ، تقول: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أخوها مقتول، أبوها، وأخوها، و زوجها، وابنها، وتقول: ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، -قلقة عليه-، فلما طمأنوها، أنه على قيد الحياة، قالت: أروني أنظر إليه، فلما رأته حياً، قالت: يا رسول الله، كل مصيبة بعدك جلل))

هل منا واحد عنده مثل هذه المحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ .

فيا أيها الأخوة الكرام، لا تزدري المرأة، لا تقل: هذه امرأة، وأنت أيضاً رجل، لا تزدري المرأة، فهي مكرمة عند الله، الله هيأها بشكل، بجسم، بنفسية، بعقلية، بعاطفة، أنت تتكامل معها، تكمل نقصك بها فتسكن إليها، وتكمل نقصها بك فتسكن إليك.

أنا أتمنى أن يكون بيت المسلم جنة، قد يكون البيت صغيراً، والطعام خشناً، والثياب رخيصة جداً، ولكن هناك ود بين الزوجين.

إليكم هذه الأحاديث التي توصي النساء بالرجال :

أيها الأخوة، أحاديث كثيرة توصي الرجال بالنساء، وأحاديث كثيرة توصي النساء بالرجال .
فعَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً – أي لا يكرهها-، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ))

قال تعالى:

(وعاشروهن بالمعروف)

[سورة النساء الآية: ١٩]

قال علماء التفسير:

((ليست المعاشرة أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها، بل أن تحتمل الأذى منها))

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أن رسول الله صلى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا، أَنْ يَسْجُدَ لِأَحَدٍ، لَأَمَرْتُ الزوجة، أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة]

لعِظم حقه عليها .

طبعاً: السجود خضوع، لذلك: المرأة دينها يسير، أربعة أرباع، فعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا صَلَّتْ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ زَوْجَهَا، قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ))

[أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، والإمام أحمد في مسنده]

إذا صلت المرأة خمسها ربع، وصامت شهرها ربع ثان، وحفظت نفسها ربع ثالث، وأطاعت زوجها، دخلت جنة ربها، ويمكن أن يكون دين الرجل مئة ألف بند، إذا باع بيعة بعقدين، إذا أطلق

بصره، إذا حلف يمينا كاذبة، قواعد الشرع كبيرة جدا، فأنت مكلف بمنهج تفصيلي، أما هي ففي بيتها، تصوم شهرها، وتصلي خمسها، وتحفظ نفسها، وتطيع زوجها، تدخل جنة ربها .

حديث آخر: عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ، وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ، دَخَلَتْ الْجَنَّةَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

هذه الأحاديث ينبغي أن تعرفها النساء، لأن رضى زوجها عنها جزء من دينها، والله عز وجل يرضى عنها، بل إن المرأة التي تسترضي زوجها، وهي مظلومة، لها عند الله مكانة كبيرة جداً، رأبا للصدع، ولمًّا للشمل، تحقيقا للسعادة الزوجية .

أصغ السمع إلى هذا القانون الرباني :

أيها الأخوة، المسلم بحاجة إلى أن يتفقه أمر دينه، وإلا مع الجهل، تصبح بيوت المسلمين جحيماً، كلام قاس، نظرات قاسية، تفلت من منهج الله، فالله عز وجل يغري بينهما العداوة والبغضاء، والقانون معروف، كل بيت فيه تقصير .

قال أحدهم ــ واسمحوا لي بهذه الكلمة ــ، قال أحدهم لصاحبه: نحن بألف خير، فقال الثاني: لا، والله لسنا في خير، فقال: لِمَ؟ ما ينقصك؟ قال: لا أنام حتى أرى عشرين امرأة أجمل من زوجتي على الشاشة، ولا تنام هي حتى ترى عشرين رجلاً أجمل من زوجها، أين نحن والخير؟ ما دام هناك إطلاق بصر إلى الشاشة، معنى ذلك: أن هناك امرأة أجمل بكثير، فينصرف الإنسان عن زوجته، يراها أسوأ زوجة، وهي تراه أسوأ زوج، هدِم البيت، حتى نعيش مع الحضارة ونتنور، ونرى ما يحدث في العالم، لكن أنت خربت بيتك، هذا أكبر شيء هدم بيوت المسلمين، يتابع ما يُعرض على الشاشة، وإذا كان عنده صحن هوائي، فالأمر خطير .

فلذلك: قضية السعادة الزوجية شيء ثمين، له ثمن باهظ، الثمن الباهظ غض البصر، وبعد غض البصر، يتولى الله عز وجل التوفيق بين الزوجين، إذا بني الزواج على طاعة، و لو افتقر إلى معظم مقومات نجاحه، تولى الله في عليائه التوفيق بين الزوجين، فإذا بني على معصية الله، ولو توافرت له كل أسباب النجاح، يتولى الشيطان التفريق بينهما .

جرّب، غض بصرك بحزم أسبوعاً، وامتنع عن مشاهدة أي شيء على الشاشة، و انظر كيف تعامَل من قِبل الله عز وجل، وانظر كيف تكون زوجتك لك، وكيف يخلق الله الود بينكما، وتغدو أسعد زوج، وتغدو هي أسعد زوجة .

وحينما تنظر إلى غيرها، والتي عندك لها خمسة أولاد، وامرأة شريفة، من عائلة راقية، ما تدربت على أساليب إغراء الرجال مثل بعض الشركات، هؤلاء كلهن مومسات، يتدربن بأساليب علمية

على أساليب إغراء الشباب والرجال، زوجتك شريفة، من عائلة طاهرة ، مستقيمة، ليس عندها الأساليب التي تراها أنت، فلذلك: إذا كان عندك البديل، انتهت زوجتك من حياتك، هذا كلام علمي، إذا أردت سعادة زوجية، فعليك بطاعة الله عز وجل .

اعتقد هذا الحق :

أيها الأخوة، هناك شيء ثان، أنا أعتقد، ولا أتمنى أن يكون الأمر كذلك: مَن منكم أيقن بالحور العين؟ لا أحد، مع أنه حق، إذا غض الإنسان بصره في الدنيا، فيما يبدو أنه حرم نفسه أن يستمتع بمفاتن النساء، وغض بصره، له عند الله في الجنة من الحور العين، ما تحار بها الألباب، على أبد الآبدين .

أحد الصحابة طلبت منه زوجته حاجة، فقال لها:

((اعلمي يا امرأة، أن في الجنة من الحور العين، ما لو أطلت إحداهن على الأرض، لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن، أهون من أن أضحي بهن من أجلكِ))

ليس في الإسلام حرمان، ولكن هناك قناعة، الله عز وجل قسم لك هذه الزوجة، هذه هدية من الله، إذا غضضت بصرك عما سواها في الطريق، وعلى الشاشة، الله عز وجل يخلق من عنده ودًّا بينكما، تراها أفضل زوجة، وتراك أفضل زوج، فإذا كان بينكما ود، نشأ الصغار على صحة اجتماعية عالية جداً، قد يكون البيت قطعة من الجنة، وهو بيت متواضع .

دخلت بيتاً مرة، أول جادة من فوق، الأرض إسمنت ليس فيه بلاط، والله البساط رخيص، ولكنه نظيف، بيت متواضع، عبارة عن غرفتين، ومشرقة –بالتعبير القديم–، وأثاث متواضع جداً، ولكن شعرت أن هذا البيت قطعة من الجنة، لأن فيه طاعة لله، فيه صلوات، بيت فيه السلام عليكم، بيت فيه تسمية .

أدخل السعادة إلى بيتك :

أيها الأخوة، جاء في الحديث، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

((إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ -طوال الليل شجار بين الزوجين-، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمْ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ))

إذا دخلت وقلت: السلام عليكم، هرب الشيطان، جلست إلى الطعام: بسم الله، وجدت شيئاً طيباً في البيت، أثنيت على زوجتك، صليتم جماعة، وقرأتم القرآن، صار البيت رحمانياً ، أما إذا كان هناك مسلسلات، وصحون، وكلما اتسعت الصحون على السطوح، ضاق صحون المائدة، ليس هناك

عمل، بضاعة كاسدة، لأنك كبّرت الصحن على السطح، فصغر صحن الأكل، كلما رخص لحم النساء، غلا لحم الضأن، كلما قلّ ماء الحياء، قل ماء السماء.

فلذلك: أيها الأخوة، قضية السعادة الزوجية مهمة جداً، هي أساس السعادة في الدنيا، هذا بيتك، أول خلية اجتماعية، زوجتك، وأولادك، إذا كان البيت متماسكاً، وفيه ود، ومحبة، و تعاون، ينعكس هذا التفاهم على الأولاد، يقال: هذا الإنسان تربيته عالية، ولو لم يكن ملتزماً كثيراً، لا يؤذي أحداً، تربى في بيت إسلامي، لو كان الابن غير ملتزم إلى حد ما، لكن في قلبه رحمة، وشفقة، وخوف من الله، أسعد شيء أن يكون بيتك إسلامياً، زوجتك مؤمنة، أنت مؤمن، في البيت ذكر لله عز وجل، ليس البيت قبراً، البيت روضة من رياض الجنة، فإذا دخل الإنسان وسلّم، وجلس، وسمّى، ورأى شيئاً جميلاً في البيت، فأثنى على زوجته، وربّى أولاده، وحفظهم كتاب الله، وجلس معهم، فهذه سعادة .

كلام من الواقع :

أيها الأخوة، دخلت مرة بيتاً، يريد أحد الأخوة أن يشتريه، فطلب مني أن أراه، فقبلت ذلك، دخلنا الغرفة، وكان الرائي (التلفاز) مفتوحاً، وأمامه طفل مضطجع على ظهره، واضعاً رجلاً فوق رجل، ولم يتحرك لما دخلنا، ومعي أبوه، هذا الرائي وحش .

وقد قال أحدهم لهذا: أخرجت الوحش من بيتي، من هو الوحش؟ فقال: ضيف زارنا، وضعناه في صدر البيت، أصغينا له ساعات طويلة، أنا وزوجتي وأولادي، كرمناه تكريماً كبيراً، بعد حين اكتشفت أن هذا الضيف وحش، أقام علاقة متينة جداً بينه و بين أولادي، على حساب علاقتهم معي، أقام علاقة طيبة جدا بينه وبين زوجتي وأولادي، وأنا أصبحت مهمتي أن آتي لهم بالطعام فقط ليأكلوه، وهم مع الوحش، مهمتي أن آتي لهم بالطعام، ثم اكتشفت أنه ما لم أطرد هذا الوحش من بيتي، يقضي علي وعلى أسرتي.

شيء خطير: يوم كنا صغاراً، إذا ذهب أحدنا إلى فيلم السينما، كان يعاقب من أشد أنواع العقاب .

الآن: في كل بيت ملهى ليلي، هذه بيوت المسلمين، شيء مؤلم جداً، فإذا لم يقم الإنسان الإسلام في بيته، ما ربّى الأولاد تربية إسلامية، ولم يكن في البيت طهر وعفاف، ذكر لله، وتلاوة القرآن، وإقامة الصلوات، وفيه روحانية الإسلام، فيه تجليات من الرحمن، هذا البيت قطعة من الجحيم، كله مشاكل، وصخب، وضرب، وتكسير، وسبّ، وطرد على بيت الأهل، وحرد، هذا من فعل الشيطان، أما إذا كان هناك طاعة للرحمن، اختلف الأمر .

أخواننا الكرام، لا أحب أن أطيل عليكم، ولكن أحب أن يكون بيتكم إسلامياً، بالتوبة، بغض البصر، بالصدق، بتربية الأولاد، أداء الصلوات، أيقظها على صلاة الفجر، هل صلى المسلمون الفجر؟

تعشى الأولاد؟ نعم، سرور، قال لها: هل صلوا العشاء؟ لا يسألها، لكن يسألها عن الأكل وكتابة الوظائف فقط، هذا البيت المسلم .

اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً. والحمد لله رب العالمين .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٦٤-١٠١) : باب ما هي الأمور التي يرضاها الله لنا؟ وما هي الأمور التي يكرها لنا؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٤-١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو مركز الثقل في هذا الحديث؟ :

أيها الأخوة الكرام، مع رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين عليه أتم الصلاة والتسليم، باب من أبواب هذا الكتاب، تشتد الحاجة اليوم إلى تطبيق مضمونه .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ تعالى يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

مركز الثقل في هذا الحديث: أن المال قوام الحياة، شاءت حكمة الله أن يجعله قوام الحياة، فلذلك المرء يوم القيامة يسأل عن ماله: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ يسأل عن علمه ماذا عمل به؟ يسأل عن شبابه فيما أبلاه؟ وعن عمره فيما أفناه؟ وعن علمه ماذا عمل به؟ وعن ماله من سؤالين: من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟ .

من صفات غير المؤمن: أنه يسرف ويبذر، الإسراف في المباحات، والتبذير في المعاصي، وأهل الدنيا الشاردين عن الله عز وجل، إن أنفقوا المال، أنفقوه إسرافاً وتبذيراً ، وإن منعوهُ، منعوه بخلاً وتقصيراً .

وحينما يرى الإنسان، ماذا يحل بالمسلمين في بعض بقاع الأرض؟ مئات الألوف في العراء، لا غطاء، ولا كساء، ولا ماء، وحينما الإنسان يسرف في إنفاقه، يكون قد تجاوز الحد الشرعي الذي أمر الله به .

انظر إلى كيفية إنفاق المال وفق الطريق المشروع ونتيجته، وبين إنفاقه من غير هذا الطريق

أيها الأخوة، الله عز وجل كره إضاعة المال، إنسان قد تقوم حياته على خمسين ألف يحتاجها للزواج، قد تقوم حياته على بيت يأوي إليه، وقد يكون في طرف المدينة، قد تستقيم حياته على دخل

في الشهر خمسة آلاف، فالذي ينفق المال جزافاً من دون وعي، من دون دقة، من دون حكمة، ماذا يفعل؟ .

يحرم أناساً كثيرين قوام حياتهم، لاحظوا أن الشاب إذا وجد عملاً، بحث عن زوجة، فإذا وجد مسكناً، كان الزواج، قوام الأسرة مسكن متواضع، وعمل فيه دخل .

فأنت حينما تنمي المال عن طريق الأعمال، تحتاج إلى فرص عمل، وحينما تنمي المال عن طريق المال تربية ربوية، لا تحتاج إلى فرص عمل، فكل من يجعل كسب المال عن طريق الأعمال، هذا عمل شرعي ويرقى بصاحبه، أما الذي يجعل كسب ماله عن طريق توليد المال، هذا طريق ربوي، هذا يشيع البطالة في الناس .

أيها الأخ الكريم، لا تظن منهج الإسلام منهجًا عباديًا، هو منهج تعاملي أيضًا، المجتمع المؤمن، يجب أن يكون مجتمعًا متماسكًا، مجتمعًا مكتفيًا، لا أقول بالغنى المعنى الشائع، الغنى الاكتفاء، أن يكفي الإنسان أن يجد قوت يومه، أن يجد كساءه، أن يجد ما يطعم أولاده، ما يكسوهم، ما يربيهم .

علة وجود الإنسان في الأرض :

أيها الأخوة، فالحديث:

((إِنَّ اللَّهَ تعالى يَرْضَى لَكُمْ ثلاثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثلاثًا، فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

العبادة علة وجودك على وجه الأرض، أنت في هذه الأرض من أجل أن تعبد الله، والعبادة لها مفهوم دقيق جداً؛ العبادة أن تتعلم، والعبادة أن تعمل، والعبادة أن تتصل بالله، العبادة معرفة، العبادة سلوك، والعبادة انفعال، اتصال بالله، فالعبادة لأنها علة وجودنا وغاية وجودنا، وأنت حينما تعبد الله، تكون في أعلى مستويات النجاح والفلاح .

يا أيها الأخوة الكرام، قضية العبادة أخطر موضوع يعالج في بيوت الله، يجب أن يكون همك أن تعبد الله، لكن سبحان الله! كيف أن هذا المفهوم ضاق، حتى ظن الإنسان إذا صلى يكون قد عبد الله؟ العبادة تشمل كل شؤون حياتك، بدأ من تنظيف جسمك إلى علاقتك بزوجتك .

أدق الخصوصيات: العبادة فيها منهج، فيها توجيه، فقضية أننا صلينا، فعبدنا الله عز وجل، هذه قضية، فيها جهل كبير جداً، عبدنا الله، يعني راعينا منهج الله عز وجل في كل شؤون حياتنا، في احتفالاتنا، يجب أن نعبده، في أحزاننا، في إنفاق المال، في كسب المال، في كل حركة وسكنة من حياتنا، هناك عبادة، ولا يغيب عن ذهنكم، أنني ألح على مفهوم العبادة المطلق، أن تعبد الله فيما أقامك، وفي الظرف الذي وضعك فيه، وفي الزمان الذي أضلك .

تصور إنسانًا عنده ضيف، عبادته الأولى إكرام الضيف، عنده مريض؛ عبادته الأولى معالجة المريض، في وقت السحر؛ العبادة الأولى أن تصلي في أيام رمضان؛ أن تصوم في يوم عرفة؛ أن

تصوم، يوجد وقت، وظرف، هوية، وكل إنسان يحدد هويته، المرأة عبادتها: أن تحسن تبعل زوجها، الغني عبادته: إنفاق المال، القوي عبادته: إنصاف الضعيف، العالم عبادته: إنفاق العلم، والعبادة معرفة، والعبادة سلوك، والعبادة سعادة، يعني: علم، وعمل، وإقبال على الله عز وجل .

((فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوه))

لكن كلمة تعبدوه، قد يفهم منها: أنك تعبده وقد تعبد غيره معاً، لا، أن تعبدوه وحده أول شيء، وأن تعبدوه وفق ما أمرك أن تعبده فيه .

لذلك: من البديهي أن العمل عند الله عز وجل لا يقبل إلا بحالتين: إلا إذا كان خالصاً وصواباً وفق المنهج، وفي إخلاص لله عز وجل .

إليكم تفسير هذا القول: (ولا تشركوا به شيئاً) :

قال:

((وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا))

الآن: قد يجد الإنسان أقوياء في الأرض، ويبدو أن الأمر بيدهم، ويبدو أنهم يفعلون ما يريدون، هذا امتحان لنا جميعاً، قال الله عز وجل:

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

[سورة الشورى الآية: ٥٣]

الآية محيرة، بيد من كانت حتى صارت إليه؟ هي بيده دائماً، ما معنى الآية إذاً؟ قال: أهل الدنيا في الدنيا، يتوهمون أنها بيد زيد أو عبيد، ولكن يوم القيامة حتى أهل الغفلة، يرون أن الأمر بيد الله وحده، لكن المؤمنين وهم في الدنيا، لا يرون الأمر إلا لله.

أنت في زحمة، ما يجري في العالم قطب واحد، متحكم بالعالم؛ قرار واحد، بطش، قتل، تدمير، أنت في هذه الزحمة، هل ترى أن الله وحده الفعال، وأنه لا يقع شيء في ملكه إلا إذا أراد، وأن يد الله فوق أيدي كل الناس، وأن الله عز وجل إليه يرجع الأمر كله؟ التوحيد مريح جداً، من دون توحيد ينشأ ألف سؤال وسؤال، مع التوحيد يتلاشى ألف سؤال وسؤال .

((ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد))

التوحيد أن لا ترى مع الله أحداً .

((فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا))

الشرك مخيف، إذا رجل قال: أنا عندما أصوم يوم الاثنين والخميس، أشعر بنشاط والحمد لله، إن شاء الله سوف أصوم دائماً، لم يعد صيامًا، صار رياضة، أو سلوكًا صحيًّا، العبادة أن تبتغي بها

وجه الله عز وجل، كل عبادة يشوبها حظ دنيوي لم تعد عبادة ، إن العبادة التي أردت بها وجه الله عز وجل، فذلك: الإنسان قد يشرك وهو لا يشعر، قال تعالى:

(وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

[سورة يوسف الآية:١٠٣]

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ)

[سورة يوسف الآية: ١٠٦]

والعبادة هي التوحيد، أن توحد الله عز وجل، طبعاً: ربما لا تملك تفسيرًا جاهزًا، أنت مكلف أن تعبده، ومكلف أن تفوض الأمر إليه، وأن تستسلم له .

لا يمكن أن تعرف الله إلا من هذا الطريق :

أيها الأخوة، ودائماً أقول لكم: يوجد طرق لمعرفة الله آمنة، وطرق غير آمنة، الطرق الآمنة أن تعرفه من خلقه، والطرق الآمنة أن تعرفه من كلامه، أما لو أردت أن تعرفه من أفعاله، فربما لا تستطيع أن تفسر أفعاله تفسيراً يليق بكماله، هنا المشكلة .

يعني: كأنك أن تعرف الله من خلال أفعاله حقًا، ربما لا تملك التفسير الصحيح، لأن عقلك قاصر عن إدراك حكمة الله، ولن تستطيع أن تعرف حكمة الله، إلا إذا كان لك علم كعلمه، وهذا مستحيل .

إذاً: دعك أن تعرف الله من خلال أفعاله، أعرفه من خلال خلقه، طريق آمن وسالك، أعرفه من خلال قرآنه، أما من أفعاله، فأرجئ هذه إلى مرحلة بعيدةٍ، والله عز وجل يفعل شيئاً لا تفهم تفسيره، بعد حين ينكشف لك الأمر، فتسجد لله عز وجل ذوباناً في كماله.

مداخلة :

كنت ذكرت لكم من قبل، أن صلى الله عليه وسلم أعطى توجيهًا في معركة بدر، توجيهًا صعب تفسيره، عمه مقيم في مكة، ومعركة بدر على وشك أن تبدأ، فقال:

((لا تقتلوا عمي العباس))

إذا أساء الإنسان الظن، نحن نقتل آباءنا وأخواننا في سبيل الله، لأنهم كانوا كفاراً، فلماذا ينهانا النبي عن قتل عمه؟ كأنه بدا له أن القضية قضية تعصب، بعد حين اكتشف أن عمه العباس مسلم، وهو عينه في مكة، وإنهم لو أنه لم يشترك معهم في الغزوة لكشف نفسه .

لو أن النبي قال: هو مسلم لكشفه، وأنهى دوره، لو سكت لقتلوه، لو أن عمه العباس، امتنع عن أن يدخل في المعركة، كشف نفسه أمام كفار قريش، وانتهى دوره الاستطلاعي.

لو أن النبي الكريم قال: لا تقتلوا عمي العباس، إنه مسلم، أيضاً: الخبر يتناقل، وينتهي دوره، لو أن

النبي سكت، هو مع الكفار، مسموح لهم أن يقتلوه، ربما يقتلوه .

فقال:

((لا تقتلوا عمي العباس))

بعد أن انكشف الأمر، وظهرت حكمة النبي عليه الصلاة والسلام.

كان يقول هذا الصحابي:

((ظلت أتصدق عشر سنين، على أمل أن يغفر الله لي، سوء ظني برسول الله))

ماذا لو كشف الغطاء؟ :

أيها الأخوة، ما من حدث محير في الأرض، واللهِ لو كشف الغطاء، لذاب الإنسان محبة لله وتقديراً لحكمته، لكن عقولنا قاصرة عن إدراك حكمة الله عز وجل .

فقد تجد حدثاً غير معقول، هجمة على الإسلام شرسة في العالم كله، المسلمون يقتلون، يشردون، تغتصب نساءهم، يقتل شبانهم، يلقون في العراء بلا طعام، ولا شراب، ولا مأوى، ولا شيء، ضعيف الإيمان، يرى هذا ظلماً شديداً .

الله عز وجل خلق المؤمن لجنة عرضها السموات والأرض، لحكمة لا نعلمها، لعل الله عز وجل يكتب لهم من الرحمة ما لا ندركه نحن، أما الكافر يفعل فعلاً لعله يخلد في النار إلى أبد الآبدين .

أحياناً: تعجب من النار، يا ربي إلى الأبد؟ حينما ترى جرائم بعض الناس وقسوتهم، وفعلهم الشنيع، حينما ترى أن هؤلاء المجرمين، لا يروي غليلك إلا أن يكونوا في النار إلى أبد الآبدين، فشكر الله عز وجل على أن بصرك في الحقيقة، وأنت في الدنيا ، الناس في عمى، هؤلاء الذين يقترفون هذه الجرائم، هم في عمى، أما المؤمن فذو بصيرة .

ما الذي يجمع مجتمع المؤمنين؟ وما الذي يجمع مجتمع أهل الدنيا؟ وماذا نستنتج من كلاهما؟

((يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

طبعاً: أن تعبدوه أوّلا، وألا تشركوا به شيئاً ثانيًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .

هذا مفهوم دقيق، نقول: يجب أن نتحد، كيف نتحد؟ لا بد من شيء يوحدنا، إن لم يكن هناك شيء يوحدنا، فالوحدة مستحيلة، لأنه يوجد أهواء، ومصالح، ومنازعات .

الآن: مجتمع أهل الدنيا مجتمع الخصومات، والعداوات، والمشاحنات، لأنه يوجد مصالح والمصالح متضاربة، أما بين المؤمنين فيوجد مبادئ، وهذه المبادئ متعاونة، أهل الدنيا

يتخاصمون، أما أهل الآخرة فيتعاونون، وهذا فرق كبير، فإذا كانت الدنيا بيننا تخاصمنا، وإن كانت الآخرة بيننا تعاونا، لذلك:

((وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا))

حقيقة لا بد من أن تسجلها في ذاكرتك :

أخواننا الكرام، يوجد حقيقة دقيقة وخطيرة؛ ما من عداوة أو بغضاء بين اثنين، إلا بمعصية ألم بهما أحدهما أو كلاهما، قال تعالى:

(فَنَسُوا حَظّاً مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)

[سورة المائدة الآية: ١٤]

بين زوجين، بين أخوين بمسجد، بين جارين، بين صديقين، بين شريكين، بين أي اثنين، أحدهما عصى الله عز وجل، شرد عن الله صار ماديًّا، والمادي يحب أن يأخذ ما له، وما ليس له، حينما يأخذ ما ليس له، أورث عداوة أخيه، وصار في خصومات.

الإنسان أحياناً: يحب أن يحلل الأمور، بين الأسر عداوات، بين الشركاء، بين أبناء الحي الواحد، بالمدارس، بالمستشفيات، هذه عداوات المعاصي .

لو أننا اتقينا الله عز وجل، لأحب بعضنا بعضاً أبداً، هذه قاعدة .

تريد أن يسود الود، والحب، والوئام، والتعاون، والتفاني، والمؤاثرة، والإخلاص، أطع الله، إن أطعت الله عز وجل طلبت مالك، وتركت ما ليس لك، وكل إنسان أخذ ماله، وترك ما ليس له، أحبه الناس .

تجد دعوى عشر سنوات، دعوى إخلاء، لأن هذا البيت مغتصب، صاحب البيت أولى أن يزوج ابنه في البيت، أولى منك، أنت عندك بيت آخر، وتغتصب بيتًا وتمنع صاحبه أن يزوج ابنه .

طبعاً: يوجد عداوة، ومحاكم، ومحامون، ويوجد دفع مشروع وغير مشروع، ويوجد هموم، وتوتر أعصاب، لأن الرجل أخذ ما ليس له .

لو تتبعت مشكلات الناس، لوجدت أساسها العدوان، لمجرد أن تأخذ مالك فقط، لا يوجد ولا مشكلة، عدد الدعاوى في قصر العدل بعشرات الألوف، بضع عشرات الألوف، ستة آلاف دعوى إخلاء، لأنه يوجد بيت مسكون بمئة ليرة في الشهر، وثمنه عشرون مليونًا، هذا عدوان، طبعاً يوجد ظروف مخففة، هذا موضوع شائك لا يحسم بكلمة، موضوع معقد، لكن الإنسان يعلم علم اليقين ما إذا كان ظالماً أو غير ظالم .

هذا الاعتصام، الوئام، الحب، التفاني، التعاون، أساسه طاعة الله من الفريقين، لكن يوجد معصية، وإهمال لطاعة الله عز وجل، فصار بينهما عدوان، ومع العدوان عداوة، العدوان يقتضي العداوة، والمجتمع الذي فيه عدوان، وعداوات ممزق، لذلك وصف الله عز وجل الكفار وقال:

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى)

[سورة الحشر الآية: ١٤]

إذاً: الله عز وجل رضي لنا أن نعبده، والعبادة معرفة، وسلوك، واتصال بالله، ناحية معرفية، سلوكية، وجمالية، ويرضى لنا أن لا نطيع أحداً سواه، وإذا عبدناه أن نعبده كما يريد هو لا كما نريد، وأن نعتصم بحبل الله جميعاً، هو الذي يوحدنا .

في المطر يكون في الجو بخار ماء، لا تنعقد ذرات المطر، إلا على جزيء من غبار، يجب أن يكون شيء تنعقد عليه حبة المطر، والمجتمع لا بد من شيء تنعقد عليه القلوب، لا بد من شيء يوحدنا، يجمعنا، يؤلف بيننا، هو القرآن .

((أَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا))

وشيء ملاحظ، تسافر أحيانًا إلى أقصى الدنيا، تلتقي بمسلم، لا يحسن أن يتكلم العربية، تشعر مع أنه لا يتكلم العربية، أقرب إليك من أخيك النسبي، ما الذي جمعك به؟ الإسلام والقرآن .

((يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا))

لا تضحِّ بأخيك الإنسان، إياك أن تفترق، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ)

[سورة الأنعام الآية: ١٥٩]

ابتعد عن هذا الطريق :

((وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ))

يعني كل وقته؛ ماذا قال فلان؟ من رد عليه؟ كيف كان الرد؟ هل الذي رد عليه تلقى رداً على كلامه؟ داخل بمقالة القيل والقال، مع أنه إذا اتجه إلى الأعمال، لكان خيراً له، بالتعبير العامي: - العي- دعك من العي، دعك من المجادلة، من المشاحنة .

ابن درس فلسفة في فرنسا، جاء إلى أبيه، وهو جالس مع أمه، وعلى المائدة دجاجتان مشويتان، فالابن ذكي جداً، ومعه شهادة فلسفة، وعنده قوة إقناع شديدة، فأحب أن يفتخر أمام والده فقال:

أستطيع أن أقنعك أن هاتين ثلاثة فراريج، وليسا اثنتين، الأب أذكى من ابنه، فقال له: أنا سوف آكل واحدة، وأمك الثانية، وأنت كل الثالثة .

ترى جلسات بموضوعات صغيرة جداً، تافهة جداً، هامشية جداً، تهلكنا، استهلكنا، على سؤال: يا ترى إذا المرأة ماتت هل يجوز لزوجها أن يغسلها؟ طبعاً يوجد حكم فقهي عند الأحناف لا يجوز، عند البقية يجوز .

الآن: أريد شيئًا واقعيًا، كم مرة يمكن أن تغسل زوجتك؟ ولا مرة، مكتب دفن الموتى جاهز، نبقى في هذا الموضوع، وماذا قال أبو حنيفة؟ وماذا قال الشافعي؟ ولماذا يجوز؟ ولماذا لا يجوز؟ انتهى العقد بالموت، إذاً: أصبحت أجنبية عنه، لا، لم ينته، والنبي غسل، لا، تدخل في موضوع، لا تحتاجه أبداً في حياتك، لكن دخلنا في هذه المتاهة .

((وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ))

كما قال بعض التابعين عن الخوارج:

((يقتلون صحابياً جليلاً، ويسألون عن دم البعوضة طاهر أم نجس؟))

يوجد أشياء يفعلونها، وهي كبيرة جداً، ويحتكمون إلى أشياء صغيرة، فالذي أتمناه هذا العي، وهذه كلمة معبرة، القيل والقال، دعك من هذا، اتجه نحو الأعمال .

انظر إلى هذا المثال المطروح :

أوضح مثل أضربه: لو فرضنا جبلاً شامخًا على قمته قصر، هذا القصر لمن وصل إليه، ويوجد أناس يستبقون إلى هذا القصر ليصلوا إليه، أنت من الأكمل: أن تجد السير، كي تصل إلى هذا القصر أم تقف؟ كم غرفة فيه؟ سمعنا أن فيه مئتي غرفة، ليس معقولا، دخل في متاهة المناقشة، كم غرفة؟ الغرفة ما مساحتها؟ ما نوع الأثاث؟ .

أنت لو أسرعتَ في السير، ودخلت إلى القصر، لفهمت كل شيء، الموضوع جمده الآن، وامش، وإن كان مثلا غريبًا، ولكنه معبر تماماً، شيء سوف أعرفه تماماً، أما العبرة فأن أغذ السير كي أصل إليه، لذلك الناجحون في الحياة، لا يوجد عندهم وقت للقيل والقال، وقتهم مصروف في الأعمال، وكل إنسان يحب القيل والقال تائه وشارد .

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ، إلا أُوتُوا الْجَدَلَ، ثُمَّ تَلا: مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

وكل إنسان يحب القيل والقال تائه وشارد، ترى قضية عليها تفريغ .

من أخطاء الدعاة :

رجل أسلم بمصر، التحق بمسجد، استلمه فقيه، ستة أشهر في أحكام المياه، كاد يخرج من جلده .
الحقيقة: كتب الفقه قبل أن تكون المياه في البيوت، المياه مياه برك، آبار، ويوجد أحكام كثيرة جداً، والفقهاء عندهم وقت فارغ، دخلوا في متاهة، رأيت لو توضأ بماء الحمص مثلاً: ما نوع وضوئه؟ ماء الفول المدمس، توضأ بالبن، أدخلك في متاهة، فهذا الغربي الذي أسلم، وعلق مع هذا الشيخ ستة أشهر في أحكام المياه .
أنا قناعتي، عندما أدرس الفقه، أحب أن أختار موضوعًا، له علاقة بحياتنا، تشتد الحاجة له . مرة كنت في العمرة، يوجد درس بين المغرب والعشاء بمكة المكرمة، جلست وقلت لنفسي، أستمع إلى درس: عتق العبيد، لا يوجد الآن ولا عبد تعتقه، أحكام عتق العبيد، موضوع غير واقعي، في الكتب موجود، ولكن الآن الموضوع غير موجود إطلاقاً ، هل يوجد على علمكم سوق للعبيد اشترينا وبعنا؟ يوجد الآن شعوب بكاملها تستعبد، أما عبيد الأفراد فلا يوجد الآن، ما وجدت غير هذا الموضوع، أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بال في صحن، وشربت زوجته الصحن، ما وجدت غير هذه السيرة؟.
إذا بقر رجل بطن بقرة، قد يأتي على الروث، كل كتاب فيه الصحيح والخطأ، أنت خذ الصحيح، ودعك من هذا الجدل .

((يَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ))

العي، الجدل، الحوار .

أمنية غالية :

رجل كان في ندوة فضائية، وصار في تهجم على الدين شديد، فقام، ومشي، في أثناء عرض الندوة على الهواء قال لهم: لا أرغب أن أبقى، قالوا له: أنت في حوار، قال لهم: بل نحن في خوار، خوار البقر، هذا خوار، وليس حوارًا، وفعلاً خوار، إذا كان في تهجم على الدين، بقرة تخور، وليس إنسانًا يتكلم، وكان كلامه معبرًا .
أنا أتمنى أن تبتعد عن المشكلات، عن العي، عن الجدل العقيم، عن أن تستخدم نفسك في موضوعات ثانوية جداً، موضوعات هامشية جداً لا تقدم ولا تأخر، ويوجد أسئلة كثيرة.

والله يطرح أسئلة كثيرة على الدعاة إلى الله، لا تعد ولا تحصى كلها، أولاً تاريخية، ثانياً كيفما كان الجواب لا نتأثر به إطلاقاً، يعني سيدنا يوسف بعد أن صار عزيز مصر، هل تزوج زليخاء؟ والله لا أعرف .

جاءني سؤال يوم الجمعة: أين سوف يدفن المهدي؟ قلت له: دعه يأتي حتى نراه، ولكن ليست المشكلة أن نجد له قبرًا، شيء مضحك، هكذا المسلمون، مستهلكة طاقاتهم في موضوعات ثانوية . هذا الحديث:

((يَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ))

هذا المستشرق الذي أسلم، وعلق مع الشيخ ستة أشهر، وخرجت روحه، وخرج من جلده، فترك الإسلام، وجده طريقًا طويلاً، متى يصل إلى التيمم، ثم الوضوء، ثم الاغتسال، الصلاة، الصوم ستة أشهر في أحكام المياه، فترك الإسلام، ثم التقى بالإمام محمد عبده قال له: الماء الذي تشرب منه توضأ منه، أنهى له الستة أشهر في كلمة واحدة، وانتهى الأمر .

لا تضع عمرك بهذا :

((يَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ))

ذهب إنسان إلى بيروت، وجلس إلى جانب السائق، فقال له: بيروت كبيرة، فقال له: لا بأس بها، ثم قال له: هل هي على البحر؟ فقال له: طبعاً على البحر، فقال له: يوجد صخر؟ قال له: نعم، يوجد صخر، أهلكه بالأسئلة، سوف تصل، وترى كل شيء، عوض أن تستهلك جهدك بالأسئلة، استمتع بالطريق، فإذا وصلت إلى بيروت، رأيت كل شيء، هذا المؤمن، وهذا على كثرة السؤال .

بنو إسرائيل عندما قال الله لهم: اذبحوا بقرة، لو أنهم تناولوا أية بقرة فذبحوها لأجزأتهم، ما زالوا يسألون، ويشدد الله عليهم، إلى أن كلفوا ذبح بقرة، طلب صاحبها ثمنها ملء جلدها ذهباً، كلما تشددت بالسؤال، شدد الله عليك .

قال لي رجل: يجوز أن ألبس ثياباً من صنع إنكلترا؟ قلت له: يجوز، فقال: أليس حرام يا أستاذ؟ قلت له: لماذا حرام؟ فقال: صنع الكفار، فقلت له: لا تلبسها إذاً .

لما ترى الإنسان كثير التشدد، تراه في نواح كثيرة يفلت .

رجل جلس مع زوجته، وهي واضعة غطاء الصلاة، فقال لها: أنا زوجك، وهم جالسون في بيت عربي، فقالت له: يوجد عصافير، فدخل معها إلى الغرفة أيضاً، مشددة غطاء صلاة، حتى عمت له قلبه، فقال لها: هنا لا يوجد عصافير، فقالت له: هنا يوجد ملائكة، سافر هذا الرجل، فوكل رجل يراقب له البيت، وجد الرجال يدخلون إلى البيت في غيابه .

فإذا رأيت الإنسان متشددًا بشكل غير معقول، فعنده تفلت غير معقول، وهذا شيء ملاحظ جداً .

أعدى أعداء الإنسان هو :

أهداني إنسان كتابًا فيه بعض الجرائم، امرأة مسجونة بتهمة ما أذكرها، وهي ساحرة، دجالة، أو ما شابه ذلك، وفي قانون العقوبات اسم دقيق: لمن يسحر أو يدجل على الناس، فهذه المرأة تقول: أنا لا أفعل شيئاً، لكنني أوهم الناس، أنني أحل مشكلاتهم، فمثلاً تأتيني امرأة علاقتها بزوجها سيئة جداً، فأنا أبتز مالها، وأوهمها أنني أسحرها، وأنا أفك السحر بينها وبين زوجها، ولكن أعطيها توجيهات تكون نظيفة جداً، أنيقة، تتزين له، تطيعه، تسمع كلامه، من ذكائها: أعطتها أسباب الوفاق الزوجي، هي ما سحرت، وما فعلت شيء إطلاقاً، ولكن أوهمتها أنها إذا تزينت له، وأطاعته، واستمعت كلمته، تحترم أهله، تحفظين ماله، تكونين تحت طلبه دائماً، لا تزعجيه، طعامه جاهز، نومه هادئ، سوف يحبك، هي أعطتها أسباب الود، ثم حجابًا، وأسماء، وخربشات، وتمتمات، وطلاسم، وبخورًا، وظلمة، هذه كلها زعبرة، وفعلاً لما طبقت أحبها زوجها، ماذا ظنت؟ أن الساحرة فكت لها السحر الذي كان زوجها مسحورًا به، هذا كله كذب .

أنا أتألم جداً من الجهل، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، العدو لا يستطيع أن يفعل بك كما تفعل أنت بنفسك إذا كنت جاهلاً .

خاتمة القول :

أخواننا الكرام، أنا وجدت أن الحديث بعون الله، نحن بحاجة ماسة له، أولاً قضية إضاعة المال، إذا كان من الممكن، أن يوفر إنسان ألف ليرة، يوجد قضية، اطلعت عليها خصومة بين زوجين شديدة جداً، أن معطف الزوجة لا يمكن أن تخرج به، بوضع مزرٍ جداً، وسمعت ثمن المعطف الآن ألف ليرة، إذا وفر إنسان ألف ليرة، وقدمها إلى زوج بحاجة إلى معطف لزوجته، ألم يحل مشكلة؟ ممكن أن يتناول الإنسان بألف ليرة، وممكن أن يوفر الألف، ويأكل في البيت، ويحل مشكلة زوجين مثلاً .

أحياناً: زواج شاب مبني على خمسة آلاف أحياناً، وقد تكون عندك ليس لها قيمة، خمسة آلاف تحل مشكلة، عشرة آلاف، فإذا كنت تقتصد بمصروفك، ويوجد عندك مال قليل، ساعد به أخاك، تكون مؤمنًا ورب الكعبة .

أنتم ترون إذا خرج الإنسان من بيته، شيء أنا لا أراه، ولكن أسمع، شيء لا يصدق من عذاب الناس، إذا أخرجوا من ديارهم بالبرد والثلج، آلاف الأطفال ماتوا من البرد، لا يوجد غطاء، أطفال ماتوا ودفنوا في أثناء الطريق، امرأة كبيرة بالسن من شدة البرد ماتت، الذي يوجد عنده بطانية زائدة

.

مرة أخوان أفارقة، كانوا في الشام حوالي خمس سنوات، أنا ما انتبهت، لا يوجد عنده بساط في البيت، والفصل شتاء، لا يوجد إنسان إلا وعنده ستة بسط وسجادة، فإذا تعاونا، هذا ينقصه سجادة، هذا مدفئة، ترى في كل بيت سقيفة، وفيها أشياء غير مستعملة منسقة، أنت عندك منسقة، عند غيرك مهمة جداً .

تصور إنسانًا لا يوجد عنده ثمن مدفئة، طالب علم لا يوجد عنده مدفئة، فإذا أحصى كل إنسان، ماذا يوجد عنده في البيت من أشياء ليس بحاجة لها؟ يوجد برادات زائدة، غسالة قديمة زائدة، مدفئة زائدة، سجادة قديمة مثلاً، طالب علم لا يوجد عنده أثاث إطلاقاً، قدم له سجادة مستعملة، لا يوجد مانع، قدم له مدفأة، الألف تحل مشكلة، يمكن أن يكفه وقود طول السنة لطالب علم، يسكن بغرفة واحدة.

أنا دعوتي إلى عدم إضاعة المال، لا تبذر، لا تسرف، إذا كان ممكنا أن تضغط نفقاتك، صندوق العافية أجرى ألف وخمسًا وثلاثين عملية بخمسين مليون ليرة، لو دفعت أنت يوم الجمعة عشر ليرات فلك مساهمة، من فضل الله مسجدنا يجمع أكبر رقم، وهذا الرقم لعملية واحدة .

تصور مرة، دخلت إلى بيت الأب، مصاب باحتشاء عضلة قلبية، وبرك، ممنوع أن يتحرك، ممنوع أن يتكلم، وهو عامل بمعمل نسيج، ودخله محدود جداً، وأولاده بكآبة شديدة، قال لي: جاءتني مكالمة هاتفية من رجلٍ، أن العملية على حسابي، امرأة التي قالت له: اتصل بالدكتور الفلاني، اتصل به، فقال له: أنا جاهز، يوم الأربعاء العملية، والعملية نجحت نجاحًا باهرًا .

أنا زرته بعد العملية، وجدت أولاده يرقصون من الفرح، هذه المرأة ماذا فعلت؟ أدخلت الفرحة على خمسة أطفال وأمهم، وصار البيت جنة، لأن العملية نجحت، وعاش حياته الطبيعية .

عندما ترى عرسًا، كلف خمسة وثمانين مليونًا، إذا كل عملية جراحية بمئتي ألف، المليون كم مئتي ألف؟ خمسة، الخمسة وثمانون مليونًا، تعمل لأربعمئة وعشرين إنسانًا عملية قلب، هل أقول لكم، رقم لا يصدق: خمسة عشر ألف إنسان في بلدنا، بحاجة إلى عملية قلب، وكل طاقاتنا حوالي خمسة آلاف عملية في السنة، عندنا عشرة آلاف ليس لهم مكان، ولا يملكون ثمن العملية .

فالإنسان قبل أن يبذخ، ينظر ماذا يجري في العالم الإسلامي؟ ينظر ماذا يجري من الجوع، والعطش، والتشرد، والبرد؟ فأنت ليس لك الحق، أن تنفق إلا الحد المعقول، لا أقول الأدنى، بل المعقول من غير إسراف، مخيلة، إنفاق مال بلا طائل، من غير إتلاف مادي، إضاعة المال، لأن المال قوام الحياة، ممكن أن تحل مشكلة إنسان .

أنا أحياناً: لا أصدق ألف ليرة تقدمها لإنسان، جاءني اتصال هاتفي من امرأة مستورة، كل إنفاقها بالسنة ثلاثة آلاف ليرة، وضعت عند رجل عشرة آلاف أو عشرين ألفًا، ثلاثة آلاف إنفاقها السنوي، تنفق بالليرة، وليس لها دخل سوى هذا الدخل، فإذا قدم إنسان لإنسان ثلاثة آلاف ليرة، معنى هذا

حل لها مشكلتها طول السنة، أنا الرقم أصغره جداً، لأن الإنسان يقول: هذا مبلغ بسيط، هذا بسيط عندك، عند من يريده، ليس ببسيط، بل كبير جداً .

مرة كنت في جلسة، فقال رجل: يا أخي، إذا أنت لم تكن داعية إلى الله، تبنى داعية.

يوجد طالب علم، جاء من أفريقيا، فقير جداً، إذا أنت قدمت له مبلغًا، وسكن في بيت مع خمسة رفقاء، وأكلوا أخشن الطعام يعيشون، ويطلب العلم، ويصبح داعية، ويعود إلى بلده خطيبَ مسجد، معه معهد شرعي، بدأ ينشر الحق، هذا في صحيفتك، الإنفاق على طلاب العلم، من أعظم الأعمال، وهذه البلدة الطيبة معروفة في العالم الإسلامي، أنها تحب طلاب العلم، وترعاهم، وكأنهم في بيوتهم.

والله رمضان الماضي، أخوة كثُر جداً، وأكثرهم ما استطاعوا أن يصنعوا وليمة لطلاب العلم، يقفون في الدور على العمل لصالح، طالب علم جاء من بلاد بعيدة، دعوته إلى طعام الإفطار، أكرمته، ألفت قلبه، جبرته، إذا أنت معك مال زائد، يوجد مليون باب لإنفاق هذا المال، ولرأب الصدع، ولم الشتات، وتأليف القلوب، يوجد أبواب للخير لا يعلمها إلا الله، بدءاً من تعليم الصغار، لإكرام طلبة العلم، للعناية بالأرامل والأيتام، يوجد أبواب لا تعد ولا تحصى، ولكن من هو السعيد؟ الذي استخدمه الله في الخير، من هو الشقي؟ الذي جعل الله الشر على يديه .

((يا عبادي الخير بيدي، والشر بيدي، فطوبى لمن قدرت على يده الخير، والويل لمن قدرت على يده الشر))

ثلاثة أشياء:

((يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

وممكن أن نستخدم وقتنا، وجهدنا، وكل طاقاتنا، في موضوعات ثانوية جداً، يوجد عندك أول رمضان، يوجد عي، أستاذ هل صيامنا صحيح؟ يا أخي أنت إنسان مسلم في بلد مسلم، وهذا البلد يوجد له وزير أوقاف، وقاض شرعي، القضية ليست معلقة في رقبتك ، يجب أن نشتغل يومين في أول يوم، هل صيامنا صحيح أم غير صحيح؟ لماذا عندما أحضرت دشًا، لم تسأل أحدًا؟ لماذا في هذه سألت فقط؟ لأنه عيّ، يرتكب أكبر عمل على الناعم من دون سؤال، ولا يسأل أحدًا، أما أنه وصل إلى موضوع صيامنا صحيح أم غير صحيح!؟ .

((وَيَكْرَهُ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ الْمَالِ))

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٦٥-١٠١) : باب النفقة على العيال - ما ورد عن النبي عليه الصلاة والسلام في شأن نفقة الرجل على أهل بيته، وترغيبه بها، وتحذيره إذا قصر بها، وهل يعد كسب الرزق وإنفاقه فيما شرعه الله عبادة؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٤-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

من هو المسؤول على نفقة الأولاد في الأسرة؟ وما هما الحديثان اللذان وردا في هذا الباب؟:

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، والباب اليوم، باب النفقة على العيال، قال تعالى:

(وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٣٣]

أي: على الأب الوالد أن يرزق أولاده، وأن يكسوهم بالمعروف، وقال تعالى:

(لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا مَا آتَاهَا)

[سورة الطلاق الآية: ٧]

باب النفقة نظام اجتماعي رائع، تكافل اجتماعي، الإسلام ضمن التكافل على أساس النسب، وعلى أساس الجغرافيا، الجار مسؤول عن جاره، والأب مسؤول عن ابنه، والابن عن أبيه، والأخ عن أخيه، نظام التكافل الاجتماعي على أساس النسب، وعلى أساس الموقع، هذا نظام رائع جداً .

الإنسان عليه أن يرزق أولاده الذين أنجبهم هو .

وفي الحديث: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه]

((وليس منا من وسّع الله عليه ثم قتّر على عياله))

وفي الحديث: عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرجل عَلَى دابته فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح والترمذي في سننه]

أنصت السمع لهذا الكلام :

أيها الأخوة، الرجل يطعم امرأته لقمة، يراها يوم القيامة كجبل أحد، والمسلم كل حياته عبادة، وهو في بيته يعبد الله، وإذا كسب رزقاً حلالاً، وأنفقه على عياله فهو في عبادة، وإذا أدخل الفرحة والسرور على قلوب أهله وأولاده فهو في عبادة، وإذا كدّ وسعى من أجل رزقهم فهو عبادة، فكيفما تحرك الإنسان، بشرط أن يكون مؤمناً، وأن تكون نياته عالية وطيبة، كل حركاته وسكناته عند الله عبادة، بل إن العلم الذي ترتزق به، والحرفة التي تحترفها، والوظيفة التي تشغلها، المهنة التي تمتهنها، إذا كانت في الأصل مشروعة، وسلكت بها الطرق المشروعة، ونويت كفاية نفسك، وأهلك، وخدمة المسلمين، ولم تشغلك عن فريضة، ولا عن واجب، أو عن طاعة، انقلبت هذه الحرفة إلى عبادة .

فالخمسة آلاف مليون إنسان في العالم، يعملون كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة، ولا أجر لهم، أما المؤمن فعمله في دكانه، وفي مكتبه، وفي قاعة درسه، وفي مكتبه الهندسي ، وفي حرفته المهنية، إذا كانت هذه الحرفة مشروعة، ولم تسلك فيها الطرق غير المشروعة ، ليس فيها كذب، ولا تدليس، ولا احتيال، ولا غش، ولا احتكار، ولا استغلال، ونويت بها كفاية نفسك، وأهلك، وخدمة المسلمين .

فقد كان السلف الصالح إذا فتحوا دكانهم يقولون:

((نويت خدمة المسلمين))

نحن يمكن أن يكون عملك جنة، بيتك جنة، أنت تعيش لمهمة راقية جداً، هؤلاء المسلمون حينما تصدقهم ولا تكذبهم، حينما تنصحهم ولا تغشهم، حينما تخفف عنهم متاعب الحياة ولا ترهقهم، هؤلاء في صحيفتك، لو يكشف الإنسان أن مهنته ممكن أن تكون عبادة.

وقد حدثني أخ، فقال: أنا عندي معمل أبيع قطعاً غذائية للصغار، (بسكويت)، هو أخ، أنا أحترمه كثيراً، قال: الأب يعطي ابنه عشر ليرات صباحاً، الطفل يشتري بها قطعة حلوى من إنتاجنا، هل من المعقول أن أعطي ابن هذا المسلم، بضاعة سيئة فاسدة، منتهية المفعول؟ أكون قد سرقت منه عشر ليرات، أقسم بالله، يشتري أغلى بضاعة، أفضل زبدة، أفضل شوكولا، أفضل فانيلا، هذا يعبد الله في تقديم قطعة حلوى للطفل جيدة جدا، بسعر معتدل، فهل تصدقون أن مثل هذا العمل هو عند الله عبادة؟ .

أنت حينما تبيع و تشتري، لكن تنصح المسلمين، لا تغشهم، لا تستغلهم، لا تحتال عليهم، لا تبتز

أموالهم، حينما تنصحهم، وحينما تقدم لهم خدمات جليلة، وأنت مع الله دائماً، فأنت في عبادة، من تتاح له فرصة، أن يجعل دكانه مكان عبادة، وبيته مكان عبادة، ومكتبه مكان عبادة، هكذا المؤمن، قال تعالى:

(وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة التوبة الآية: ١٢١]

واللهِ إلى درجة أنه لو كان الإيمان راقياً، وكنت متألقا مع الله، وكنت قريبا منه، واللهِ لو أخذت أهلك في نزهة، لعدّت لك عبادة، ماذا تنوي بهذا؟ تنوي إدخال السرور على قلب زوجتك وأولادك .

حينما تشتري لعبة لابنتك الصغير، النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((من اشترى لعبة فكأنما تصدق على محاويج))

هذه الطفلة الصغيرة كل عالمها اللعبة، هناك استثناء في الشرع في موضوع الدمى واللعب بها، فالإنسان أدخل على قلب أولاده السرور، فاقترب من الله، أدخل على قلب زوجته السرور، فاقترب من الله، أتقن عمله اقترب إلى الله، نصح المسلمين اقترب إلى الله .

كلكم قد تشترون حاجة متقنة جداً، بسعر معتدل جداً، تستعملها ثلاثين سنة، وتدعو لصانعها: الله يبارك له فيها، الله يوفقه، أعماقك ممنونة للذي باعك إياها، وأحيانا تشتري حاجة فيُلعَن صاحبها مليون لعنة .

اشترى رجل خيطاً، وصنعه جوارب من صوف، وباع الجورب بثمانين ليرة، ثلاث لبسات تنقطع، موظف بسيط معه الروماتيزم، اشترى جوربين، هذه في ثلاث لبسات تُرمى، فتأتي صاحبَ المعمل كل يوم مليون لعنة، والإنسان في النهاية بكلمتين؛ إما رحمه الله، وإما لعنه الله .

يتلخص عملك في كلمة واحدة، الله يرحمه، دون تفاصيل، لأنه إنسان نصوح، مستقيم، أو إذا غش الناس، الله لا يوفقه، لذلك لما ينحرف الإنسان يلعنه الله، وتلعنه الملائكة، ويلعنه الناس أجمعون .

اليوم التركيز: يمكن أن يكون عملك عبادة، ممكن أن يكون دكانك مسجداً، ليس فيها كلمة زائدة، ولا نظرة لامرأة، ولا كلمة مرنة، قال تعالى:

(وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً)

[سورة الأحزاب الآية: ٣٢]

وهناك استقامة ونصيحة .

دخلت امرأة إلى محل تريد (مانطو)، أراها صاحب المحل ثوبا أغلى شيء عنده، فقالت: أريد أحسن منه، فقال: هناك أحسن، لكنه غالٍ، قالت: هاته، قال لي: والله أنزلت ثوبًا مثل الأول تماماً، ولكن أراه إياها بطريقة أخرى، وأخذ ضعف ثمنه، استغل غباء المشتري، ليكن في دكانك الصدق والاستقامة، ليس فيها كذب، أنت مع الله، والناس لضعف إيمانهم في كسب المال بأي طريقة حمق وغباء، ويجمعه شيئاً فشيئاً، ويذهبه الله دفعة واحدة .

قال أحدهم: كان مصيري السجن عشرين سنة، دفعت مليون ليرة فتفاديناه، الله كبير.

أتمنى من المسلم، ألاّ يفهم الدين أنه أتينا إلى المسجد وصلينا، الدين ليس هذا، الدين صدق، وأمانة، ونصيحة للمسلمين، وإتقان عمل .

لي صديق عنده بنت مثل الوردة، عمرها ثماني سنوات، طار صحن هوائي في أثناء الرياح الشديدة من مكانه، وقع عليها فقتلها، حققوا في القضية، فإذا بالرجل صاحب الصحن وضع له مسمارين فقط، من أصل ستة مسامير، وقع بفعل الرياح الشديدة، فقتل، هذا يحاسب عند الله قاتلاً .

((إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه))

اقرأ هذه الأحاديث :

اسمعوا هذا الحديث، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ -أي في الحرب- وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

((أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ))

السبب: أن الناس أنت لهم، وغيرك لهم، أما أولادك من لهم غيرك؟ إذا أنت لم تشبعهم ، فمن يشبعهم؟ إذا أنت لم تلبسهم، فمن يلبسهم؟ إذا أنت لم تؤمّن لهم حاجاتهم التي يبتغونها، إذا كان كسبك حلالاً ومدروساً، وأمّنت حاجات بيتك، هذا نوع من العبادة .

وفي حديث آخر: عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ الرجل عَلَى دابته فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح والترمذي في سننه]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَنْصَارِ، أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ:

((أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟ قَالَ: بَلَى، حِلْسٌ -بساط- نَلْبَسُ بَعْضَهُ، وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ، وَقَعْبٌ -إناء- نَشْرَبُ فِيهِ مِنْ الْمَاءِ قَالَ: ائْتِنِ بِهِمَا –النبي صلى الله عليه وسلم كان من الممكن أن يعطيه، ولكنه علّمنا- فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟ قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ، قَالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ؟ -مَرَّتَيْنِ، هذه مزايدة مشروعة، أَوْ ثَلَاثًا- قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا، فَانْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا، فَائْتِنِي بِهِ، فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عُودًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ، وَبِعْ، وَلَا أَرَيَنَّكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، ففعل، فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ، فَاشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا، وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا، فقالَ له رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ الْمَسْأَلَةُ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثٍ؛ لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

أيها الأخوة، ما فتح امرؤ على نفسه باب مسألة، إلا فتح الله عليه باب فقر، بمجرد أن يفكر في التسول، تسدّ كل الأبواب في وجهه، ما فتح امرؤ على نفسه باب مسألة، إلا فتح الله عليه باب فقر .

حديث ثالث: عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ له:

((وإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفقةً، تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا أُجِرْتَ بها، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

لو أطعمتها لقمة تؤجر عليها، لكن أخاف أن تفهموا شيئاً، أنا ما أردته من هذه الأحاديث .

أي: ليس لنا إلا البيت، كل شيء إلى البيت، ولا ندفع خارجه قرشاً، هذا غير صحيح، أن تؤمِّن لزوجتك وأولادك الشيء المعقول، أما فوق المعقول فأنت محاسب عليه، قال تعالى:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)

[سورة الأعراف الآية: ٣١]

من أجل أن ترضيهم، تأتي بستة أنواع من الفواكه، وستة أنواع من الطعام، ألبسة بغير حساب، هذا إسراف، أمّن لهم الحاجة المعقولة، بالمعروف، وما سوى ذلك أنفقه على فقراء المسلمين .

سيدنا عمر جاءه رسول من أذربيجان، جاءه بحلوى، أكلها عمر، وجدها طيبة، قال له :

((يا هذا، هل يأكل عندكم عامّة المسلمين هذا الطعام؟ قال: لا، هذا طعام الخاصة، فكتب كتاباً وبّخ فيه والي أذربيجان، قال له: كل مما يأكل منه عامة المسلمين، كيف يعنيك ما يعنيهم إن لم تأكل ما يأكلون؟ وقال: حرام على بطن عمر، أن يذوق طعاماً، لا يطعمه فقراء المسلمين، وأرسل بهذه علبة الحلوى إلى فقراء المسلمين من أهل الصفة ليأكلوها))

وعَنْ أبي مَسْعُودٍ البدري، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا أَنْفَقَ الرجل عَلَى أَهْلِهِ نفقة يَحْتَسِبُهَا، فهي لَهُ صَدَقَةً))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، قَالَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه]

هذا موضوع ثان، هؤلاء الأولاد تطعمهم وتكسوهم، لكنك لا تهتم بصلاتهم، ولا بدينهم، ولا بعقيدتهم، ولا بعلاقتهم بربهم، فهذا أكبر إثم عند الله .

((كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه]

هؤلاء الذين يطعمهم، ينبغي أن يعتني بهم، أن يعتني بصلاتهم، الأب يصل إلى البيت مساء، يسأل زوجته: كتبوا الوظائف، فتقول: نعم، يا ترى هل يسألها: هل صلوا؟ أما المؤمن فيسأل عن صلاة أولاده، لقول الله عز وجل:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

[سورة طه الآية: ١٣٢]

عَنْ خَيْثَمَةَ قَالَ:

((فإن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأبو داود في سننه]

الحديث الأخير: عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَخَيْرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والنسائي في سننه، عن حكيم بن حزام]

الشاهد:

((وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ))

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٦٦-١٠١) : باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد - متى يقبل الله النفقة في سبيله؟ وهل إذا أنفق الرجل من ماله ينقص، وما الفائدة من هذا الدرس التي ينبغي أن نجنيها؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٥-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

إليكم هذه الأحكام الفقهية التي تتعلق بموضوع الإنفاق فيما أمره الله :

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، والباب اليوم: باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد .

أيها الأخوة، قد تستغربون، وقد لا تصدقون، أن رجلاً عنده محل يبيع الألبسة الجاهزة والأحذية، في أحد أسواق دمشق المهمة، أراد أن يرسل الزكاة من بضاعته، فأرسل إلى أحد المساجد أحذية، كل حذاء بقياس مخالف للثاني، ممكن؟ عنده مخزون كبير، حذاء يساري والثاني يميني، مقياس أحدهم ٤١، والثاني ٤٢، و٣٦، ٣٨، كل واحد بمقياس، وواحد يساري والثاني يميني، أرسل هذه البضاعة كزكاة ماله إلى بعض المساجد، ألقيتْ في المهملات، فالذي يتألم له الإنسان أشد الألم، أن الشيء الذي لا تحبه، الشيء الذي تبغضه، الشيء الذي تشمئز منه، تدفعه كزكاة مالكك، مع أن الله عز وجل يقول:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

[سورة آل عمران الآية: ٩٢]

أي الشيء الذي تحبه، والشيء الذي تحرص عليه، الأكلة التي تحبها، إلا أن العلماء استثنوا الألبسة، أما في الطعام، فلا يجوز أن تعطي ما تكره، قال تعالى:

(وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٦٧]

أما في اللباس فمسموح لك أن تقدم ثياباً جيدة، لكن أنت لا تحب هذا اللون، الأذواق مختلفة في الثياب، فإذا كانت الثياب نظيفة وجيدة، يأخذها وهو طيب القلب، ففي الطعام لا يقدّم إلا الجيد، أما في الثياب فمسموح أن تقدم ثيابك التي لا تعجبك الآن، أو قياسها صغير، يمكن أن تقدمها للفقراء، وهذا من السنة، قال تعالى:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

[سورة آل عمران الآية: ٩٢]

لأن هذا الذي تحبه هدية إلى الله عز وجل، وكلما كان الذي تقدم له الهدية كبيراً عندك تعتني بالهدية، إذا كان للإنسان أقرباء في مستوى رفيع جداً، وأراد أن يقدم لهم هدية يختار أجمل شيء، أفخر شيء، أغلى شيء، حتى الغلاف يختاره من أعلى مستوى، حتى الشريط، حتى الورق، هكذا الهدية، فإذا كان الشيء مقدماً لله عز وجل، فيجب أن يكون في أعلى مستوى .

الآية الكريمة:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٦٧]

لو أن الإنسان حج من مال حرام، فإذا وضع رجله في الركاب، وقال: لبيك اللهم لبيك، يناديه مناد فيقول:

((لا لبيك ولا سعديك، وحجك مردود عليك))

هذا إذا كان المال حراما، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ)

[سورة البقرة الآية: ٢٦٧]

أنفق المال الحلال الطيب، الذي من كسبك، قال تعالى:

(لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٨٨]

أنفق من مال اكتسبته أنت، أنفق من مال طيب، أنفق من مال زكي، قال تعالى:

(وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ)

[سورة البقرة الآية: ٢٦٧]

قارن :

حدثني شخص عن شيء، واللهِ يندى له الجبين، قال لي: في مطعم كانت أسرة جالسة، طلبت دجاجاً، هناك خادمة، بعد أن يأكلوا اللحم، يبقى العظم، وعليه بقية لحم صغيرة جداً، تقدمه سيدة الأسرة للخادمة، هذا عمل يغضب الله عز وجل .

هناك بيوت فيها ظلم شديد، هناك بيت فيه خادمة، وكان عندهم وليمة، والوليمة فيها ما لذ وطاب من الطعام، بقي بعض الأكل من أسبوع، فألزمت السيدة الخادمة أن تأكل وحدها هذا الطعام القديم، ولم تذق من الطعام الجديد لقمة واحدة .

لما يخسف ربنا عز وجل بأسرة تأتي فجأة نقمة الله عز وجل، وهذا بأسباب، كلما كانت علاقتك مع الله قوية تتأدب مع الله .

وقد بلغني، -وما أدري مبلغ هذا الحديث من الصحة-، أن النبي الكريم رأى تمرة على السرير فأكلها، فحجب عنه الوحي أسبوعين، فقال:

((يا عائشة، لعلها من تمر الصدقة))

تمرة واحدة أكلها خطأ، حدب عنه الوحي أسبوعين تقريباً .

وفي حديث آخر: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ نَائِمًا، فَوَجَدَ تَمْرَةً تَحْتَ جَنْبِهِ فَأَخَذَهَا فَأَكَلَهَا، ثُمَّ جَعَلَ يَتَضَوَّرُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ، وَفَزِعَ لِذَلِكَ بَعْضُ أَزْوَاجِهِ، فَقَالَ: إِنِّي وَجَدْتُ تَمْرَةً تَحْتَ جَنْبِي فَأَكَلْتُهَا، فَخَشِيتُ أَنْ تَكُونَ مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ))

لذلك:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

[سورة آل عمران الآية: ٩٢]

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٦٧]

إذا قدم الإنسان هدية لله عز وجل، يقدمها في أعلى مستوى.

حدثني أخ كريم، أنه كان من تجار العصرونية، رجل صالح جداً، توفي رحمه الله، إذا دعا الموظفين إلى الأكل، لا يأكل معهم حتى لا يستحوا، فإذا انتهوا من الطعام، أكل ما بقي من طعامهم، ومات في ليلة القدر، وهو يتلو القرآن، وعاش عمراً مديداً، أمضاه في الصلاح، فقضية الهدية يجب أن تقدَّم لله عز وجل في أعلى مستوى .

اقرأ أيها التاجر :

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

((كَانَ أَبُو طَلْحَةَ رضي الله عنه أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ، فِيهَا طَيِّبٍ، قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

جاء أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أنزل عليك

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ تعالى، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

كان من كبار أغنياء الصحابة، لكن غناه كان نخلاً.

وبالمناسبة: كم تعيش النخلة من السنوات؟ قرابة ستة آلاف عام، النخل التي في المدينة التي أكل منها النبي لا تزال قائمة حتى الآن، تعيش النخلة ما يزيد عن ستة آلاف عام.

وقال لي أحد أخواننا: إن في العراق خمسين مليون نخلة، لم يبق منها بعد الحرب إلا النذر القليل، كانت أكبر ثروة في العراق غير النفط النخيل، والتمرة عبارة عن صيدلية، فيها ست وخمسون مادة غذائية، التمر فيه مواد مهدئة، فالذي عنده انفعالات حادة، التمر فيه مواد مهدئة، والتمر فيه مواد قابضة، فالذي عنده ميوعة زائدة في الدم، فالتمر فيه مواد قابضة، والتمر فيه مواد ملينة، قال تعالى:

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً)

[سورة مريم الآية: ٢٥]

فالمرأة الحامل، تحتاج إلى مادة ملينة، كي تبقى الأمعاء فارغة، فيكون الطريق سهلاً لخروج الجنين، تحتاج إلى مادة مهدئة ومسكنة، وتحتاج إلى مادة قابضة، لأن بعد الولادة هناك عشرة آلاف شريان سينقطع، فلا بد من مادة قابضة، ومادة ملينة، ومادة مهدئة، مادة سكرية هي الطاقة، وكل هذا في التمر، وقالوا: التمر صيدلية بكاملها، من فيتامينات، وفيه ثمانية معادن، تقريباً ربع حاجتك من المعادن في اليوم، يؤمّنها لك مئة غرام من التمر .

وفي حديث عَائِشَةَ قَالَتْ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا عَائِشَةُ، بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ، يَا عَائِشَةُ، بَيْتٌ لَا تَمْرَ فِيهِ جِيَاعٌ أَهْلُهُ أَوْ جَاعَ أَهْلُهُ، قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا))

والتمر لا يتلوث أبداً، وله بحث طويل، فيه مواد مهدئة، ومادة مرممة، ومواد سكرية ، ومواد قابضة، ومواد ملينة، وهو أنسب فاكهة للمرأة التي على وشك الولادة، قال تعالى:

(وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً)

[سورة مريم الآية: ٢٥-٢٦]

وهي من الأشجار المعمرة .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

((كَانَ أَبُو طَلْحَةَ رضي الله عنه أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالْمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرُحَاءَ، -وهو بستان كله نخل قبالة المسجد النبي-، وَكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْخُلُهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ، –بستان فيه نبع ماء، كله نخيل أمام المسجد النبوي، هذه له، وهي أحب ماله إليه، فرضاً: يكون لأحدنا أرض بالمليحة، وأرض بالمخيم، وأرض بالمعرة، وأرض في الزبداني؛ حيث المناظر جميلة، والهواء نقي، ونبع ماء نقي، مسوّرة، كلها مشجرة، هذه أحب ماله بيرحاء-.

قَالَ أَنَسٌ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

جاء أَبُو طَلْحَةَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أنزل عليك:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا –أي خيرها- عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

استنبط هذه الحقيقة من هذه الحادثة مع مثال عليها :

أتمنى عليكم أن تضعوا أيديكم على هذه الحقيقة، هذه الحقيقة تستنبط من حادثة بسيطة جداً .

فعَنْ عَائِشَةَ:

((أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا بَقِيَ مِنْهَا، قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا، قَالَ: بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا))

[أخرجه الترمذي عن عائشة في سننه]

النبي عليه الصلاة والسلام جاءته شاة، وأراد أن يوزعها، وزع معظمها، ولم يبق منها إلا القليل، فخشيت عائشة رضي الله عنها أن يوزعها كلها، وتبقى بلا طعام، فقالت:

((يا رسول لم يبق إلا كتفها، فقال عليه الصلاة والسلام: بل بقيت كلها إلا كتفها))

توسيعاً لهذا المثل أقول: الشيء الذي تستهلكه زال، والشيء الذي تنفقه بقي، ما الذي يفنى؟ الذي تستهلكه، وما الذي يبقى؟ الذي تنفقه .

مثل آخر: يروى أن سيدنا عمر، أنه أمسك تفاحة بيده أعجبته، كبيرة الحجم، عبقة الرائحة، طيبة المذاق، أمسكها ليأكلها، قال:

((أكلتها ذهبت، أطعمتها بقيت))

فلو فرضنا هذه الأرض بيرحاء التي يحبها كثيراً سيدنا طلحة، أمضى فيها كل يوم ساعتين أو ثلاثاً، أشجار النخيل، الثمار طيبة، ينبوع ماء، إلى أن جاءه الموت، تركها وذهب، ٍأما حينما أنفقها قبل أن يموت، جعلها لنفسه ذخراً في الجنة، فالشيء الذي تستهلكه، والذي تنفقه يبقى .

وأنا أنصح أخواننا الكرام، لا تعتمد على الورثة أبداً، والله عندي أكثر من عشر وصايا لم تنفذ واحدة منها، أهل الميت لا تسخو أنفسهم لتنفيذ الوصية، أبونا لم يكن يعلم، نحن أولى، مزقت كل هذه الوصايا، لم يرضوا بتنفيذها .

أعرف رجلاً، ترك أربع بنايات لأولاده قبل أن يموت، تمنى أن يكتب مبلغ مئة ألف، والله لم ينفذوا الوصية، لذلك: درهم تنفقه في حياتك، خير من مئة ألف درهم يُنفق بعد مماتك.

أحدهم ترك له والده قريباً من مئة مليون سنة ١٩٧٤، سأله أحدهم وقد رآه ماشياً: إلى أين ذاهب؟ قال: أنا ذاهب لأسكر على روح أبي.

((روح الميت ترفرف فوق النعش، تقول: يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل و حرم، وأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي))

فَقَالَ:

((يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أنزل عليك

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَيَّ بَيْرُحَاءَ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، - هذا هو الربح الحقيقي، الشيء الذي تنفقه- ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ، فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ: أَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ))

سؤال يكثر ترداده :

أيها الأخوة، كثير من الأخوان يسألونني: أحوالنا فاترة، صلاتنا ليس فيها حال، وليس فيها إقبال، ليس فيها تأثر، نقرأ القرآن فلا نتأثر، نحن مستقيمون، نصلي فلا نشعر بشي، نذكر الله فلا تأتينا النفحات، فما السبب؟ .

في أحسن الأحوال، في أحسن التأويلات، أنك إذا كنت مستقيماً، سلمت من عذاب الله ، لكنك لا تسعد باستقامتك، لا تسعد إلا بإنفاقك، إن أردت السلامة، فاستقم على أمر الله، وإن أردت السعادة، فاعمل عملاً صالحاً، يقربك إلى الله .

قصص ليست خيالية وإنما واقعية :

أحد أخواننا طبيب أسنان، هو متفوق جداً، جاءته مدرِّسة معلمة في الابتدائي، في أسنانها خطأ، قال لي: تقويم الأسنان يكلف سبعين ألفاً، فلما ذكر لها الأجرة، أحجمت واعتذرت، قال لي: وهي تعتذر، هذه معلمة، ومنظر فمها غير مقبول، وهو مثار الضحك والسخرية من قِبل الطالبات، فقال: نويت أن أقوّم لها أسنانها لوجه الله تعالى، قال لها: نحن نبدأ بالتقويم، وإن شاء الله تسرِّين، قال: بقيت ستة أشهر تقريباً عشت في جنة، هو عنده مئتا مريض، وكلها فواتير ضخمة، ثمانون ألفاً، أما هذه فلله عز وجل، قال: والله عشت ستة أشهر في أسعد حال، قدمت شيئاً لله، فلما انتهى قال لها: يا أختي هذه هدية، بارك الله بمالك، لا أبتغي شيئاً .

فأتمنى من كل أخ، أن يكون له عمله لوجه الله، لا تبتغ منه أجرة، ولا سمعة، ولا ثناء، ولا مكانة، ولا تنويهًا ولا شكرًا في الجريدة، ولا رخامة، هو عمل لوجه الله، بينك وبين الله خالص، هذا الذي يسعدك .

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((بَخٍ ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ))

لذلك اسأل نفسك هذا السؤال: لو أن ملك الموت جاءك فجأة، ما العمل الذي تعرضه على الله إذا وقفت بين يديه؟ وهل أنت مخلص في هذا؟.

ورد في بعض الصحاح، عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إنَّ أولَ النَّاسِ يُقْضَى يومَ القيامةِ عليه، رجلٌ استُشْهِدَ، فأُتِيَ بهِ ، فعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتى استُشْهِدتُ، فقال: كذبتَ، ولكنكَ قاتلتَ لأن يقالَ: جَرِيءٌ، فقد قيل، ثم أمِرَ به، فسُحِبَ على وَجْهِهِ، حتى أُلقِيَ في النَّارِ، ورجلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ، وَعَلَّمَهُ، وقرأ القرآن، فأُتيَ به، فعرَّفهُ نِعَمَهُ، فعرفهَا، قال: فما عملتَ

فيها؟ قال: تَعلَّمْتُ العِلْمَ، وعلَّمْتُهُ، وقرأتُ فيكَ القرآنَ، قال: كذبتَ، ولكنكَ تعلَّمْتَ العلم ليقال: عالمٌ، وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثُمَّ أمِرَ به، فَسُحِبَ على وجهه، حتى أُلقيَ في النَّار، ورجلٌ وسَّعَ اللهُ عليه، وأعطاهُ من أصنافِ المال كُلِّهِ، فأُتيَ بِهِ، فعرَّفَهُ نِعَمه، فعرفها، قال: فما عَمِلْت فيها؟ قال: ما تَركتُ من سبيلٍ، تُحِبُّ أنْ يُنفق فيها، إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنكَ فعلت ليُقال: هو جَوادٌ، فقد قيل، ثم أمِرَ به، فَسُحِبَ على وجهه، ثم أُلقيَ في النَّار))

[أخرجه مسلم في الصحيح والنسائي في سننه]

فينبغي أن تبحث عن عمل، تقدمه بين يدي الله عز وجل، وأن يكون هذا العمل خالصاً لله تعالى، تبتغي به وجه الله .

السبت الماضي، زارني طبيب في البيت، والله تكلم كلاماً، بقيت ساعات في نشوة كلامه، له عيادة خاصة، ويعمل في مستشفيات خاصة، وله وظيفة في مستشفى عام، يقسم بالله إنه يبقى مع مرضى المستشفى العام إلى الساعة الواحدة ليلاً، يعتني بهم، وكأنهم في عيادته، قال: هؤلاء واسطتهم الله، فقراء، أقسم بالله يعتني بهم عناية، يتابع حالاتهم، طعامهم، شرابهم ، أحياناً: عشر ساعات، يأتي بيته الساعة الواحدة، أين كان؟ في مستشفى عام، فهذا مؤمن، الذي يرى هذا المريض الفقير، هذا واسطته الله عز وجل .

أقسم لي رجل يعمل في سجن عدرا، أن قاضيًا يأتي من دمشق، فيقيم في السجن عشر ساعات، يلتقي مع مساجين الذين دعاواهم مرفوعة عنده واحداً، يا بني! خصمك قدم هذه الوثيقة، هل هذه صحيحة؟ إذا كانت مزورة، فأخبرني حتى لا أظلمك، يا بني! محامو خصمك قدم مذكرة فاقرأها، فيها إشكال، لأنه يخاف الله عز وجل، يذهب يوم الثلاثاء إلى السجن عشر ساعات، يسأل المساجين مسجوناً مسجوناً، عما قدِّم في حقه من مذكرات، وشهادات، ووثائق، لعل يكون فيها شيء من الغلط أو التزوير، يتأكد بنفسه حتى يستطيع النوم، لأنه قاض .

أخواننا الكرام، لا بد من عمل صالح، قال تعالى:

(وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

[سورة فاطر الآية: ١٠]

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً)

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

كثير من أخواننا في رمضان، يحبون أن يدعوا طلاب العلم الأجانب، شيء طيب جداً، طلاب أفارقة، وأتراك، وشيشان، وداغستان، طلاب علم، فهذا يقدم لهم الطعام عشاء فاخراً، ويؤنسهم، ومع كل واحد ظرف فيه مبلغ من المال هدية في رمضان، هذا عمل لوجه الله، لا يعرف واحدا منهم، تتبنى طالب علم، أو لك دفعات لأسرة فقيرة، لك عمل طيب .

أحد أخواننا، له سيارة يعيش من دخلها، صدمته سيارة، وصل مؤخرة السيارة إلى المقعد الخلفي، لا بد لتصليحها من مبلغ سبعين ألف ليرة، والذي صدمه، يريد أن يضربه أيضاً، قال لي: كان هناك

امرأة، تمشي في الطريق فجاءته، وقالت له: هذه تصليحها علي، لا تتأسف، يبدو أنها امرأة ميسورة الحال، رأت إنساناً، مظلوماً، فقيراً، سيارته محطمة، فقالت له : تصليحها علي .

الإنسان مخبوء بثوبه، إنسان لا عمل له، لا قيمة له عند الله تعالى، طبيب، مهندس، محام، مدرس، تاجر ....

هناك مطعم في حلب، يبيع الحمص والفول، الصحن بخمس ليرات، جاءه طفل وقال له: أعطن بربع ليرة صحن فول لآكل، فقال للخادم: أعطه صحناً عادياً بخمس ليرات كاملاً، قال: بربع ليرة، فقال: بخمس ليرات .

هناك إنسان عنده رغبة لإكرام الناس، فأنت اسأل نفسك هذا السؤال: هل لك عمل طيب خالص لله عز وجل، لا تبتغي به إلا وجه الله عز وجل؟ .

هذا درس اليوم، وأنفق مما تحب، لا تنفق مما تكره، قال تعالى:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ)

[سورة آل عمران الآية: ٩٢]

بيرحاء أجمل أرض قدّمها لله عز وجل .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٦٧-١٠١) : باب الخوف - ما علة وجود المصائب في الأرض؟ ومتى تتوقف هذه المصائب لمن ابتلي بها؟ وكيف نفسر ظاهرة الشر من حيث المصطلح الديني؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٥-٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو سياق هذا الدرس؟ :

أيها الأخوة الكرام، قد يتساءل المرء: مصائب تتلو مصائب، كوارث تتلو كوارث، قصف وتدمير، مجاعات وهلاك، أمراض وبيلة، قد يسأل سائل: لماذا هذه المصائب؟ لماذا هذا الضغط؟ لماذا هذه الأمراض والأوجاع؟ .

أيها الأخوة، العبرة: أن تتقن تفسير ما يجري، لأنك إن أتقنت تفسير ما يجري توازنت ، أما إذا فهمت هذا الذي تراه فهماً غير صحيح، فربما انعكس على عقيدتك، سوء ظن بالله عز وجل، قال تعالى:

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٤]

هذه المصائب التي تطغى على بعض الشعوب أو على معظمها، هناك ضيق اقتصادي، ونقص في المياه، ونقص في الدخول، وأمراض وبيلة تستشري، وترتفع نسبها ارتفاعاً بسلسلة انفجارية، وهناك حروب، ومن يموت جوعاً وبرداً، فقد يسأل سائل: لماذا هكذا؟ ما تفسير ذلك؟ .

أيها الأخوة الكرام، طبعاً هذه التساؤلات، سقتها لكم تمهيداً، لباب في كتاب رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، عقده الإمام النووي رحمه الله تعالى، وسماه باب الخوف، يجب أن تخاف كي لا تخاف، فإما أن تأمن فتخاف، وإما أن تخاف فتأمن، الذي يخاف من الله عز وجل يأمن، والذي يأمن مكر الله، يخيفه الله عز وجل .

لغز حله موجود :

بادئ ذي بدء، اجعل هذه الآية، شعاراً لك في حياتك:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

[سورة النساء الآية: ١٤٧]

الكون مسخر تسخيرين قال:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾

[سورة الجاثية الآية: ١٣]

هذا الكون مسخر تسخيرين، مسخر تسخير تعريف، ومسخر تسخير تكريم، لمجرد أن تعرف الله، وأن تشكره على نعمه بعمل صالح، يكون ثمناً لجنة إلى الأبد، تتوقف المعالجة، قال تعالى:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ﴾

[سورة النساء الآية: ١٤٧]

ما دام الكون قد سُخِّر للإنسان تسخيرين، تسخير تعريف، وتسخير تكريم، ورد فعل التعريف أن تؤمن، ورد فعل التكريم أن تشكر، فإن آمنت وشكرت، لا يمكن أن تصاب بالعجب، وهذا كلام الله عز وجل، قال تعالى:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ﴾

[سورة النساء الآية: ١٤٧]

أحياناً: يزور أخ في المستشفى فيقول: شيء لا يحتمل، جناح الخثرات في الدماغ، أكثر الناس فقدوا الحركة، شلت حركتهم، جناح تشمع الكبد، جناح الفشل الكلوي، جناح أمراض القلب، جناح أمراض الأورام الخبيثة، تأتي إلى مكان آخر شعوب تنزح، أطفال يموتون في الطريق، قصف متتال، موارد ضيقة، ما تفسير ذلك؟ قال تعالى:

﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾

[سورة المؤمنون الآية: ٣٠]

كلما رأيت شيئاً مؤلماً، لا تنس هذه الآية:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ﴾

[سورة النساء الآية: ١٤٧]

ضم هذه الحقيقة إلى يقينك :

أيها الأخوة الكرام، سأقول لكم هذه الحقيقة: الشر المطلق، أي أن الشر بالشر يتناقض مع وجود الله، إما أن تؤمن أن لهذا الكون إلهاً، يوجد شر نسبي بالنسبة إليك، الشر النسبي موظف للخير المطلق، إن آمنت أن لهذا الكون إلهاً، يجب أن تنفي عن كون الله عز وجل الشر المطلق، لا تنس هذه الآية:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

[سورة السجدة الآية: ٢١]

تذكر هذه الآية:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: ٤١]

الفساد من كسب البشر، ومن فعل الله عز وجل، لا يكون إلا الخير، الخير المطلق، فعل الله كله خير، ولكن ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، كان من الممكن أن يظهر الفساد في البر والبحر، والله عز وجل لا يذيق هؤلاء الذين فسدوا بعض ما عملوا، ممكن أن تنتشر الإباحية في العالم، وينتشر الزنا في العالم، وينتشر الشذوذ في العالم، دون أن يظهر مرض الإيدز، ممكن، هذا المرض لو أنه لم يظهر، لتفاقمت هذه الإباحية إلى درجة عمت القارات كلها .

قرأت عن شرق آسيا، شيء لا يصدق، يكاد يكون الدخل الأول من طريق الدعارة في آسيا، تجارة الرقيق الأبيض أغلى تجارة وأربحها، والفتيات يؤخذون من القرى، ليتدربن على فنون الانحراف، ويبعن في سوق الرقيق الأبيض، قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ)

[سورة الروم الآية: ٤١]

في بعض بلاد أفريقيا، مرض الإيدز، انتشر بنسبة ثمانين بالمائة من نسبة السكان .

أنا قبل عامين، أعدت خطبة إذاعية عن مرض الإيدز، وحصلت وقتها على أدق إحصاء، وربما كان عدد المصابين في العالم سبعة وثلاثين مليون مصابٍ، وهذا المرض يتطور بنسب .

لدينا نسب عددية اثنان، أربعة، ستة، ثمانية، عشرة .... وسلسلة الأولى اسمها حسابية ، والثانية هندسية .

الآن: السلسلة الثالثة اسمها: سلسلة انفجارية، حسابية، هندسية .

فأنا معلوماتي الدقيقة التي استقيتها من منظمة الصحة العالمية، أنه في عام ٢٠٠٠، توجد سبعة وثلاثون مليون إصابة إيدز في العالم .

كنت في أميركا قبل سنة تقريباً أو قبل ثمانية أشهر، فوجئت أن عدد المصابين بالإيدز قبل ثمانية أشهر، ثمانية وخمسون مليونًا في العالم، دقق:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا)

[سورة الروم الآية: ٤١]

معنى ذلك: كان من الممكن ألا يذيقهم بعض الذي عملوا، ممكن إباحية، فساد، رقيق أبيض .

والآن: هذه المحطات الفضائية، هناك انعكاسات في بلدتنا الطيبة خطيرة جداً، وقد يكون أجهل الناس في بلدتهم أهل البلد، أكثر أخواننا المؤمنين رواد مساجد، من بيوتهم إلى أعمالهم، وهم بعيدون عما يجري من فساد، لكن الفساد الذي ينتشر من خلال هذه المحطات الفضائية المنحرفة، يكاد لا يصدق .

مرة سمعت، أن برنامجاً تلفزيونياً في أميركا، جرى حول الزنا، فجاءت الهواتف إلى هذا البرنامج، لتؤكد أن ثلاثة وثلاثين بالمئة، من حالات الزنا في أميركا زنا محارم، بين الأخ وأخته، والأب وابنته، وربما لا تصدقون أن هذا المرض الوبيل، وصل إلى بلدنا .

يوجد حالات زنا محارم كثيرة جداً، بسبب هذه المحطات التي نستقبلها، والتي جعلت الأرض كلها كانوا يقولون: إنها قرية، ثم قالوا: إنه بيت .

الآن: هذه المحطات، جعلت الأرض كلها غرفة واحدة، فالفساد ينتشر، الخبرات تنتقل.

شيء أنا ذكرته قبل أسبوعين في الخطبة: أن أشد أنواع التأثير السلبي هو على الأطفال، لأن الطفل يتلقى نماذج للسلوك، وأساليب للحياة، كلها تتناقض مع قيمنا، وديننا، وإسلامنا، وتستطيع هذه المحطات، أن تفعل في الصغار، ما لا تستطيع المدرسة، مهما ارتقت، والأسرة مهما ارتقت، أن تفعله في الصغار، الذي يبنيه الأب، والذي تبنيه المدرسة، تهدمه هذه الصحون، فنحن أمام خطر، هذا الفساد، قال تعالى:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)

[سورة الروم الآية: ٤١]

تجد شعوباً تموت من الجوع، شعوب تفتك بها أمراض وبيلة، شعوب تأتيها زلازل، شعوب تأتيها حروب أهلية، شعوب تنزح، فنسأل الله السلام .

على أي تفسير نفسر هذه الوقائع؟ :

ذكرت لكم مرة، أنه من الممكن، إذا كان لنا جيران، عانوا من حرب أهلية، دامت أكثر من سبعة عشر عاماً، أكلت الأخضر واليابس، هذه الحرب الأهلية التي جرت، يمكن أن تفسر تفسيرًا دوليًا، مراكز قوى في العالم، تحركت فحطمت مركزًا ماليًا كبيرًا، وممكن أن تفسر تفسيرًا عربيًا، وممكن أن تفسر تفسيرًا طائفيًا، وممكن أن تفسر تفسيرَ طرفة أصابتها عين، وممكن أن تفسر تفسيرًا قرآنيًا، وهذا هو الصحيح، وهو الحق، وهو التفسير المعتمد، هذا الذي ينبغي أن نؤمن به، قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل الآية: ١١٢]

هل تصدقون أن الذين يدفعون زكاة أموالهم من بين أصحاب الدخل الكبير، من بين أصحاب الأنصبة التي تجب عليهم، لا يزيدون على خمسة بالمئة؟ ولو دُفعت زكاة أموالهم، ما رأيت فقيراً واحداً
.

سمعت مرة أرقامًا من الصعب تصديقها، لو أن زكاة الأموال دُفعت في بلد ما، لغطت كل حاجات

الفقراء، فالزكاة لا تدفع، الصلوات لا تؤدى، الانحراف يستشري، المعصية يتباهى بها، الاختلاط على قدم وساق، قيام الليل حتى الساعة الخامسة في قنوات المجاري، لا في المساجد، فهذا الفساد المستشري يتبعه ضغط، وحينما يهون أمر الله عز وجل على الناس، يهونون على الله عز وجل، واسألوا الله السلام؛ فأينما ذهبت. قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

[سورة النحل الآية: ١١٢]

مثلاً: أحياناً يكون الإنسان جالسًا على المائدة، يسمع الأخبار، يقال: سقطت طائرة تقل ثلاثمئة راكب، وقد مات كل ركابها، هذا خبر تستمع إليه، وأنت تأكل، فرق كبير بين أن تستمع إلى هذا الخبر، وأنت في البيت على الأرض مستقر، وأمامك زوجتك وأولادك، وبين أن تكون أحد ركاب هذه الطائرة، مسافة كبيرة جداً .

أحد أخواننا، كان يعمل مضيفاً، قال: دخلت الطائرة في غيمة مكهربة في سماء باريس ، هذه الغيمة المكهربة أتلفت مقدمة الطائرة، وجهاز الرادار، وبللور غرفة القيادة، والطائرة كانت على وشك السقوط، لولا أن الله عز وجل تداركها بالرحمة فنزلت سالمة، وهذه الطائرة سورية، فيصف هذا المضيف، ما رأى بعينه من الركاب، هذا يضرب رأسه، وهذا يصرخ بويله، وهذا ينادي زوجته، وهذا يندب حظه، وهذا ينادي أولاده، قال لي: منظر فظيع، تمنى ربان الطائرة، أن يبلغ الركاب كلمات، بأنهم هاجوا، وماجوا، وخرجوا من أماكنهم، والطائرة في خطر شديد، فأمر مضيف الطائرة، أن يكلف أحد الركاب، أن يبلغ الركاب شيئاً، قال: ما وجدت رجلا يسمعني، الجميع في غيبوبة، قال: ثم عثرت على رجل متماسك وهادئ، فقال: هذا مناسب جداً، فانطلقت إليه، لأكلفه أن يبلغ الركاب رسالة ربان الطائرة، فإذا هو مغمى عليه .

فيا أيها الأخوة، أردت من هذا الدرس، أن يكون تفسيرًا إسلاميًا، تفسيرًا قرآنيًا، تفسيرًا دينيًا، تفسيرًا إلهيًا لما يجري .

هذا كلام الله :

أيها الأخوة، توجد آلام أساسها: مرض، وفقر، وقهر، وحروب أهلية، وزلازل، وفيضانات، وشح مياه، معدل أمطار دمشق حتى الآن تسعة وثلاثون مترًا، وانتهى الشتاء، المعدل في حده الأدنى مئتان واثنا عشر، حتى الآن تسعة وثمانون ميليمترًا، وكأس الماء هذا، نرجو أن نشربه طوال العام، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ)

[سورة النساء الآية: ١٤٧]

هذا كلام خالق الكون، لا يمكن أن يساق العذاب لأناس شكروا وآمنوا، آمنوا بالله وعرفوه، وشكروا بفعلهم نعمه .

فيا أيها الأخوة الكرام، الإله واحد، وسنّته واحدة، كل إنسان شارد مقصر، لا بد من أن يعالجه الله عز وجل، لكن مرة هنا، مرة هنا، مرة في أوربا، مرة في الخليج، مرة في الكويت ، ومرة في لبنان، مرة في آسيا ...

حدثني أخ، قال: عشرُ الحجاج السنة من آسيا، لم يأتوا من شدة الفقر، أصيبوا بأزمات اقتصادية طاحنة، هذه مصيبة .

فأنا لا أريد أن أملأ الدرس بالمآسي، والتشاؤم، والخوف، والقلق، ولكن أريد أن أبين: أن الله عز وجل لا يمكن أن يسوق لعباده عذاباً إلا بسبب، لقول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

[سورة النساء الآية: ١٤٧]

هذا الشيء عام، لو أردنا على مستوى فردي .

أنت الأخ الكريم، إذا جاءك ما لا ترضاه، فاتهم نفسك، إياك أن تحابي نفسك، إياك أن تقول هذه ترقية، لا، قل: هذا عقاب لشيء فعلته، لذلك هناك قاعدة: المؤمن الكامل إذا ألم به مكروه يتهم نفسه، فإذا ألم بأخيه مكروه يحسن الظن به .

يوجد آية ثانية، قال تعالى:

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

[سورة سبأ الآية: ١٧]

أيعقل أن نجازي غير الكفور؟ قال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة الآية: ١٨]

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)

[سورة القلم الآية: ٣٥-٣٦]

أنا لا أذكر هذا، إلا من باب التوضيح، أحد خطباء دمشق الذين أحترمهم، ذهب إلى بلد في أوروبا، هو أصله من هناك، بلد إسلامي في شرق أوروبا، قال: خطبت في أضخم مسجد في ألمانيا، أقسم لي بالله من فمه إلي، من دون وسيط، قال: والله امتلأ المسجد بالمصلين، وألقيت خطبة مؤثرة جداً، الذي لا يصدق أن معظم المصلين في جيوبهم زجاجات خمر، يشربونها في أثناء سماع الخطبة، من شدة التأثر بهذا الخطيب .

هذا ما كان في ألمانيا، فيجب ألاّ تتهم الله عز وجل، ويجب نتألم نحن، والله نتمنى أن ينتصروا، وأن يعودوا إلى بلدهم، نتمنى لكل بلد إسلامي، أن يكون في أعلى درجة من البحبوحة، والأمن، والاستقرار؛ ولكن:

(ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا)

[سورة الروم الآية: ٤١]

هذا مثال للتوضيح :

أيها الأخوة، دقق في هذه الآية:

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة الروم الآية: ٤١]

كان من الممكن، ألاّ يذيقهم بعض الذي عملوا، ممكن، عندئذٍ لا يرجعون .

ذكرت مثل من يومين، قال ابن لأبيه: يا والدي العزيز، لا أحب الدراسة، قال: كما تتمنى، لمجرد أن قال هذا الابن كلمة واحدة، وافقه الأب أن يترك المدرسة، هذا بعد حين، كل أصدقائه بمراتب عالية، وشهادات عالية، وتزوجوا، وذو مركبات، ومكانة، هو فقير مشرد، ليس عنده بيت أو مصلحة، مهان، فنقم على والده .

اسمحوا لي أسوق لكم الحوار، عندما صار الولد عمره خمسة وثلاثين عاما، وليس بيده شيء، لا يملك شيئًا من حطام الدنيا، ومهمل وفي الدرجة الدنيا، وكل أصدقائه بالمدرسة أصبحوا شخصيات لامعة، فقال لأبيه: يا أبت لمَ لمْ تصفعني عندما قلت لك: إنني لا أريد المدرسة؟ لمَ لمْ تضربني؟ لمَ لمْ تقنعني؟ لمَ لمْ تضغط علي؟ أنت سببت شقائي بهذا التساهل.

وتأكدوا: أن كل إنسان ينحرف، يسوق الله عز وجل له شدة، ويعود بها إلى الله، هذه الشدة هي نعمة من نعم الله الباطلة .

هناك طائفتان من النعم؛ طائفة النعم الظاهرة، وطائفة النعم الباطنة، عندما يتدخل ربنا عز وجل، بأن يصحو عبده مما هو فيه، لذلك ربنا عز وجل قال:

(فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

[سورة النحل الآية: ٥١]

افهم معنى هاتين الآيتين :

الإمام النووي رحمه الله تعالى، من عادته في كتاب رياض الصالحين، أنه يصدّر كتابه أو بابه بآيات قرآنية، ماذا تفهمون من قوله تعالى:

(فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

[سورة النحل الآية: ٥١]

ماذا تفهمون من:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة الآية: ٥]

لو أن الله قال: نعبدك ونستعين بك، هل تختلف عن:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة الآية: ٥]

تختلف اختلافًا كبيرًا جداً، قال تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ)

[سورة الفاتحة الآية: ٥]

فيها قصر، أي لا نعبد غيرك، هنا لو أن الله عز وجل قال: ارهبوني؛ أي خافوني، ولكم أن تخافوا غيري، أما إذا قال:

(فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

[سورة النحل الآية: ٥١]

لا تخف إلا من الله، لأن الله إذا كان معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك؟ وقد نجد أناسًا في أعلى درجة، أنت سمِّ هذه الدرجة، أحياناً في أعلى درجة مالية، في أعلى درجة صحية، أعلى درجة اجتماعية، فجأة يصبح في أدنى درجة، يؤخذ ماله كله، وقد يُهان إهانة ما بعدها إهانة، ما الذي حصل؟.

اسمحوا لي بهذه الكلمة: أي إنسان قوي في فترة معينة، بإمكانه أن يفعل ما يريد، هذا الإنسان إن لم يدخل خوف الله في حساباته، فهو أكبر أحمق وغبي، قال تعالى:

(فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

[سورة النحل الآية: ٥١]

يوجد دعاء نبوي، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عُمَرَ رضي الله عنهما، أن رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كان يدعو:

((اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَمن تَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَمن فُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَمن جَمِيعِ سَخَطِكَ))

[أخرجه الحاكم في مستدركه]

فجأة، الإنسان يكون راسمًا خِططًا لعشرين سنة، نقطة دم في الدماغ تجمدت، خثرة بالدماغ شُلَّ، دخل بخط آخر، تمييع الدم، يلزمه معالجة فيزيائية، وتمرينات شاقة، ساعتان كل يوم، والحركة ضعيفة جداً، وكلها خثرة دم، لا تزيد على رأس الدبوس، تجمدت في شرايين الدماغ، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

في هذه الآية: -ألا بذكر الله تطمئن القلوب-، ما المراد بأداة الحصر فيها؟

قال تعالى:

(فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

[سورة النحل الآية: ٥١]

لو قسنا على هذه الآية، آية أخرى:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد الآية: ٢٨]

لو أن الله قال: تطمئن القلوب بذكر الله، وقد تطمئن بغير ذكر الله، أما عندما قال ربنا عز وجل:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)

[سورة الرعد الآية: ٢٨]

أي أن القلوب لا تطمئن إلا بذكر الله حصراً، معاني القصر والحصر في القرآن مهمة جداً، هذا كلام خالق الكون .

مرة استفدت من قضية: إنسان أقام تعهد في وزارة من وزارات الدولة، فلما استلموا المشروع منه، خصم المهندسون الذين تسلموا المشروع خمسمئة ألف ليرة، لوجود نقص ومواد، كانت من الدرجة الثانية، فأقام دعوى، من هو الحكم؟ بدفتر السلوك على المتعهد، أن يستخدم المواد من أفضلِها، فاحتكموا لمجمع اللغة العربية، ما معنى كلمة من أفضلِها؟ ليس معنى من أفضلِها أفضَلها، مادة جيدة، لكن لا تعني هذه العبارة، أنها أفضل ما في السوق، فلما جاءت فتوى مجمع اللغة العربية أن (من) لا تعني الأفضلية المطلقة، تعني الأفضلية النسبية، ما معنى كلمة من؟ إذا كان كلام البشر دفتر شروط، عادوا إلى معنى كلمة (من)، وإلى الأفضلية النسبية والمطلقة، والمحكمة حكمت للمتعهد، أن يسترد المبلغ المخصوم عليه، فكيف بالقرآن الكريم، وهو كلام خالق الأكوان؟ يجب أن تقف عند كل حرف من حروفه .

الله عز وجل قال:

(فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

[سورة النحل الآية: ٥١]

لا تخف إلا من الله، لأنه لا إله إلا الله، وما من إله إلا الله .

من مشاهد هذه الآية :

الآية الثانية، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

وما تسمعونه من أخبار، تفسير لهذه الآية، خمسمئة ألف طفل، يموتون كل عام من الجوع في بلد، وأطفال كثر ماتوا، وأيديهم في أيدي آبائهم من شدة البرد، ودفنوا في الطريق، سماع الخبر شيء، ومعاينته شيء آخر.

العوام لهم كلمة: إذا عدّ الرجل العصي غير إذا كان يأكلها، فنحن نعد العصي، ونرى القصف، أما الذين يتحملون، هذا شيء لا يحتمل، قال تعالى:

(رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا)

[سورة البقرة الآية:٢٨٦]

كلمة من ورائها غاية :

أنا أقول كلمة: عندما تعرف الله عز وجل وتطيعه، قطعت أربعة أخماس المسافة، تعبير آخر أوضح: عندما تفهم على الله، هذه مقابلها هذه، وأنت كأب، وممكن أن تؤدب ابنك تأديبًا شديدًا، وتبقى ساكتاً، لا تبين له السبب، هذا اسمه تشفٍّ، التربية شيء، والتشفي شيء آخر، إذا ضرب إنسان ابنه ضربًا مبرّحًا، ولم يتكلم ولا كلمة، هذا يعني أنه تشفٍّ، وليس أبًا، ضربته لهذا السبب، الأب العادي لا يؤدب إلا ويبين السبب، فكيف بخالق الأكوان يسوق للإنسان المصيبة، ويعطي فروعه السبب؟ هذه من أجل كذا .

قال لي رجل: شخص يلوذ بي، يريد أن يعمر ملحقاً صغيراً لابنه، كلما عمره يهدم، فجاء ووسّطه، ويبدو أن هناك معرفة مع المكلف بالمراقبة، قال: يسرها، قال: مساء طُرق الباب، وضع مبلغ من المال جيد، قال: عندما علمت، أرغيت، وأزبدت، وغضبت، وتكلمت بحقه كلاما قاسياً، أنا خدمته لله، أنا لا آخذ شيئاً .

قال: في اليوم الثاني خفّ غضبي قليلاً، طبعاً في اليوم الأول نوى أن يرده له، في اليوم الثاني خف غضبه، في اليوم الثالث لم يعد هناك مشكلة، في اليوم الرابع قبل به، في اليوم الخامس صرفه.

قال: دخل لص إلى البيت، أخذ أربعة أضعاف المبلغ، فقالت له زوجته: أشكو هذا للشرطة، فقال: أنا أعرف ما الذي فعلته؟ لماذا تصل لمستوى تفهم فيه على الله؟ هذه مقابل هذه .

وصدقوني أيها الأخوة، الله عز وجل يلقي في الروع دائماً، قال: أعطني أربع قطع، قال: أنا لا أبيع مفرق باعتزاز، صاحب معمل، يبيع ثلاثمائة دزينة، ما هذا! أربع قطع؟ ليس عندي مفرق، فخرج هذا مكسور الخاطر .

قال: والله ثلاثة وثلاثون يوم، لم يدخل المحل زبون واحد .

لنا أخ، يبيع بكميات ضخمة جداً بعض الحاجات، أرقام فلكية، قالت له امرأة: أريد قطعة واحدة، فغضب أيضاً، وأرغى، وأزبد أيضاً، توقف البيع عنده شهراً كاملاً، قال: الآن تحل الدزينة، وتبيعها قطعة واحدة، أدباً مع الله، الله يؤدب الإنسان على مخالفات، وعلى تقصير، وعلى اعتزاز، وعلى شرك خفي، ويعلق الأمل بغير الله، فيلهم الله عز وجل هذا الشخص بالتخلي عنك، هكذا فعل الله عز وجل، البطولة فقط أن تفهم عليه، هذه من أجل هذه، وهذه من أجل هذه، يجب أن تعلم علم اليقين: أنه لا يقع شيء إلا بعدل مطلق، وبحكمة مطلقة ، ورحمة مطلقة، ولكن عقلنا قاصر عن إدراك هذا المطلق، يجب أن تسلم .

سجل هذه الآيات في دفترك اليومي :

قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ)

[سورة هود الآية: ١٠٢]

هذا كلام الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ)

[سورة هود الآية: ١٠٣]

لا ملجأ منه إلا إليه، قال تعالى:

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

[سورة عبس الآية: ٣٤-٣٧]

قد تقع عين الابن على أمه، أو عين الأم على ابنها يوم القيامة فتعرفه، تقول له: يا بني! لقد جعلت لك صدري سقاءً، وبطني وعاءً، وحجري وطاءً، فهل من حسنة يعود علي خيرها اليوم؟ يقول: ليتني أستطيع ذلك يا أمي، إنما أشكو مما أنت منه تشكين، فبكى النبي عليه الصلاة والسلام .

أحياناً: يساق إنسان إلى السجن، يأتيه مئة هاتف، أما بالآخرة فلا يوجد هاتف، قال تعالى:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ)

[سورة الأنعام الآية: ٩٤]

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

[سورة الحج الآية: ١-٢]

أخواننا الكرام، حقيقة مهمة جداً: كل صفات النساء لا تؤنث، تبقى مذكرة، تقول: امرأة طالق، وامرأة بكر، وامرأة ثيّب، وامرأة عانس، كل صفات النساء، تبقى مذكرة لا تؤنث ، أما كل صفة تشترك فيها المرأة مع الرجل، تُذكر وتؤنث، مدرسة ومدرس، عاملة وعامل، حاملة وحامل، ما معنى حاملة على ظهرها؟ في بطنها؟ تنفرد بها؟ نقول: امرأة حامل، أي في بطنها، حاملة على ظهرها، امرأة مرضعة، وامرأة مرضع، إذا قلنا: مرضع، ابنها يلتقم ثديها، أما إذا قلنا: امرأة مرضعة، ابنها على يديها، لأن الأب يستطيع أن يضع الابن على يديه، قال تعالى:

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا)

[سورة الحج الآية: ٢]

ابنها على يديها تلقيه، ولا تهتم له، من شدة الخوف، قال تعالى:

(وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

[سورة الحج الآية: ٢]

محور هذا الدرس: يجب أن نخاف كي نطمئن، فإذا اطمأننا اطمئناناً ساذجاً نخاف، لأن حال المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، وكل إنسان لم يدخل في حسابه خوفه من الله، إنسان غبي، وأحمق، وشقي، قال تعالى:

(وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ)

[سورة الطور الآية: ٢٥-٢٦]

كنا خائفين، فاستحققنا الطمأنينة هذا اليوم، لو كنا غير خائفين، لخفنا هذا اليوم .

ما وراء هذه الأحاديث :

ورد في بعض الأحاديث القدسية: عن الحسن، عن النبي صلى الله عليه وسلم رفعه، قال:

((لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، وإن أخفته في الدنيا، أمنته في الآخرة، وإن أمنته في الدنيا، أخفته في الآخرة))

[أخرجه البزار في مسنده]

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ، أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

((لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُسْأَلَ عن أربع: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ ما عمل به؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ؟))

[أخرجه الترمذي في سننه]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ:

((قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)

ثم قالَ: أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا؟ قالُوا: اللَّهُ ورَسُولُهُ أعْلَمُ، قالَ: فَإِنَّ أَخْبَارَهَا، أنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ أو أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، تَقُولَ: عملت كذا وَكَذَا، في يوم كَذَا وكذا، فَهَذِهِ أَخْبَارُهَا))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة]

(يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)

[سورة الزلزلة الآية: ٤]

يومئذ تنقل الأرض كل ما فعله العباد على ظهرها .

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ يقول:

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غالِيَةٌ، ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ))

[أخرجه الحاكم في مستدركه عن أبي هريرة]

معنى أدلج: سار في أول الليل، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، من خاف أن يبيت في العراء، يسرع في السير في أول الليل، كي يصل إلى بيته في وقت مناسب .

((مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غالِيَةٌ، ألا إنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ))

عَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا قالَتْ:

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تُحْشَرُونَ حُفَاةً، عُرَاةً، غُرْلا، قالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقالَ: الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاك))

الآن: إذا ساقوا رجل إلى الإعدام، ووجد فتاة ترتدي ثيابا فاضحة يتأثر، ذاهب للإعدام، بالأصل لا يرى شيئا، الأمر أفظع من أن يعنيهم ذلك، هذا يوم الخوف، لذلك: العاقل، والذكي، والبطل، والفالح، والناجح، والقوي، والموفق، هو الذي يعد لهذا اليوم عدته، وهو الذي إذا بكى كل من حوله، ضحك وحده عند الموت .

هناك أناس صالحون، يتوفاهم الله عز وجل، كيف كان مستوى الجنازة ومستوى التعزية؟ وكيف كان الأمر بعده؟ هو دخل الجنة، قال تعالى:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)

[سورة يس الآية: ٢٦]

وهناك إنسان مهما احتفلنا، ومهما كانت الجنازة محترمة، وذبح الذبائح، وأطعم الفقراء، إذا لم يكن وضعه مع الله جيد، هذا لا ينفعه إطلاقاً .

أروي قصة: رئيس المنافقين، كان يجلس إلى جنب النبي، كتفه بكتفه، وهو على فراش الموت، طلب قميص النبي، ألبسه النبي القميص بيديه، فلما مات، قال:

((الآن استقر في جهنم حجر، كان يهوي به سبعين خريفاً))

لكن قيل: إنه يوجد صحابي آخر، طلب قميص النبي ولبسه، فقيل له:

((لماذا؟ قال: إذا جاءني الملك، وقال لي: من ربك؟ أقول: الله ربي، وما دينك؟ الإسلام ديني، ومن نبيك؟ قال: هذا قميصه))

((تُحْشَرُونَ حُفَاةً، عُرَاةً، غُرْلا، قَالَتْ عَائِشَةَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟ فَقَالَ: الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يُهِمَّهُمْ ذَاكِ))

آخر حديث: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((بَلَغَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَنْ أَصْحَابِهِ شَيْءٌ، فَخَطَبَ فَقَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْجَنَّةُ والنار، فَلَمْ أَرَ كَالْيَوْمِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح عن أنس بن مالك]

خلاصة القول :

أيها الأخوة، الآن الملخص: يجب أن تخاف إلى درجة، ألا تيئس من رحمة الله، ويجب أن ترجو رحمة الله إلى درجة، ألا تنسى بعض الطاعات، أحياناً الرجاء ينقلك إلى البحبوحة، وإلى التساهل في الطاعة، وأحياناً أخرى الخوف الشديد ينقلك إلى اليأس، فالتوازن ضروري جداً بين الرجاء والخوف، يريد رجاء لا ينقل إلى التساهل، ويريد خوفاً لا ينقل إلى اليأس، يجب أن تعبد الله خوفاً وطمعاً، رجاءً وخشية، رغباً ورهباً .

وأنت كأب، ممكن أن تكون سهل، والقضية سهلة، ممكن أن تكون عنيف جداً، والقضية سهلة، ولكن بطولتك كأب أو مرب، ألا يعرف من حولك قوي، وشديد، ورحيم، وليّن، في آن واحد، ألا تيئّسهم من رحمتك، وألا تطمعهم في فضلك، بين الطمع واليأس .

هذا باب الخوف إن شاء الله، إن أحيانا الله في الدرس القادم في باب الرجاء، إذا جمعنا الدرسين معاً نتوازن، اليوم خوف، إن شاء الله في درس قادم نتحدث عن الرجاء، يجب أن نرجو رحمة الله، وأن نخاف عقابه .

نهاية المطاف :

ورد في بعض الأحاديث القدسية، عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن داود عليه السلام قال فيما يخاطب ربه عز وجل: يا رب، أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك؟ قال: يا داود، أحب عبادي إلي، نقي القلب، نقي الكفين، لا يأتي إلى أحد سوءا، ولا يمشي

بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبني وأحب من يحبني، وحببني إلى عبادي، قال: يا رب، إنك لتعلم إني أحبك وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى عبادك؟ قال: ذكرهم بآلائي، وبلائي، ونعمائي))

العلماء قالوا:

((ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني))

إذا دخل أحد إلى مستشفى، يجد شيئا مخيفا، أمراضا وبيلة، هذا مشلول، هذا معه أزمة قلبية، هذا معه تشمع كبد، هذا معه فشل كلوي، ولو دخل الإسعاف، لوجد شيئاً أصعب، حوادث سير، ودهساً، وتكسير جمجمة، وقطع عمود فقري، وبتر يد، وبتر رجل، هذا بلاء الله عز وجل، أي إنسان فقد حريته عشرين سنة فرضاً بساعة غضب، أو أسرة مشردة، أو فقر مدقع، وأحياناً تجد إنسانا في بحبوحة، وفي مكانة علية، وصحة طيبة، وأولاده أبرار، وزوجته صالحة، ومنزله واسع، ومركبه وطيء، ورزقه في بلده، وله عمل صالح كبير، رجل يطمعك برحمة الله، والآخر يخوفك، أنت بحاجة للخوف والطمع في آن واحد .

في الجسم هرمون التجلط، وهرمون التمييع، لو أطبقنا هرمون التمييع وحده، أصبح الدم سائل، لدرجة ينزف دمه كله من نقرة دبوس، ولو سمحنا لهرمون التجلط وحده، أصبح الدم وحل بالأوعية، يموت الإنسان فوراً، الإنسان يموت فوراً من تميع الدم، وتجلط الدم، أما هذان الهرمونان يفرزان مفرزاتهما بحكمة بالغة في توازن، ليس هو مانعاً لدرجة النزف، وليس هو لزجاً لدرجة التجمد، والحياة تحتاج إلى توازن، والإسلام متوازن ووسطي ومعتدل، والإنسان الناجح معتدل، لا يوجد عنده تطرف، ولا إفراط، ولا تفريط، ولا مبالغة، ولا تقصير ، ولا إجحاف، ولا تثيب، هذا الموقف المعتدل هو الكامل، والفضيلة وسط بين طرفين.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٦٨-١٠١) : باب وجوب أمر أهله، وأولاده المميزين - ما هو الأمر الرباني الموجه إلى الأسر المسلمة؟ وما هي المشاكل التي قد تحصل إذا تخلفت عن تنفيذ هذا الأمر؟ وما هو التطبيق العملي له؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٥-٠٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تنويه هام :

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، ولا زلنا في باب وجوب أمر أهله، وأولاده المميزين، وسائر من في رعيته بطاعة الله تعالى، ونهيهم عن المخالفة، وتأديبهم، ومنعهم من ارتكاب منهي عنه. قال تعالى:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

[سورة طه الآية: ١٣٢]

أنت مأمور أن تأمر، قد يأتي الأب متأخراً، فيسأل زوجته: هل كتب الأولاد وظائفهم؟ هل تناولوا طعام العشاء؟ .

راقب نفسك، هل تسألهم: هل صلوا العشاء؟ شيء مهم جداً، لأن الله عز وجل يقول:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

[سورة طه الآية: ١٣٢]

وهذه الآية فيها لفتة لطيفة، قال تعالى:

(لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ)

[سورة طه الآية: ١٣٢]

هناك معان كثيرة لهذه الآية:

أولاً: البيت الذي تقام فيه الصلوات الخمس، من قبل رب البيت، ومن قِبل الأهل والأولاد، هو بيت مرزوق، قال تعالى:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً)

[سورة طه الآية: ١٣٢]

ثم إنك إن كلفت ابنك بعمل، وترجو نجاحه، ولم تعبأ بصلاته، ولا بعباداته، فإنه لن يوفق في هذا العمل، فإذا كنت مهتماً بصلاته، جاءه رزق وفير، فالعبرة أن تربي ابنك على طاعة الله، كي يستحق الرزق الوفير، أما إذا ربيته على كسب الدرهم والدينار، قد لا يحصل من هذا شيئاً، و يخسر آخرته، قال تعالى:

(وَأمُرْ أهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ)

[سورة طه الآية: ١٣٢]

والآية الثانية:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

[سورة التحريم الآية: ٦]

وقائع :

قال لي أخ من يومين في محل تجاري: يا أستاذ، هناك ندوات من أجمل ما يكون بالجزيرة، والشارقة، وهنا وهناك، قلت له: وأولادك ألا تخشى عليهم، أن يستيقظوا في منتصف الليل، فيفتحوا هذه القنوات، وأن ينحرفوا؟ ألا تخشى عليهم ذلك؟ فسكت .

أنت لك زوجة، ليس عندك مشكلة، أردت أن تشاهد برامج ثقافية ممتعة، لكن هذا الابن المتقد الذي بينه وبين الزواج عشرون سنة، ماذا يفعل؟ .

اتصلت بي اليوم، امرأة تشكو زوجها، قالت لي: زوجي طبيب نسائي، وحتى الخامسة صباحاً، من قناة إلى قناة، وهو يشاهد مناظر تخزي، وعندنا بنات يحفظن كتاب الله، ويصلين الليل، وأنا أخشى عليهم أن يروا أباهم هكذا، أو أن تزل قدمهم، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

[سورة التحريم الآية: ٦]

هذه الفتاة التي استحقت دخول النار تقول:

((يا رب، لا أدخل النار حتى أدخِل أبي قبلي))

ما قولك؟ لأنه سيّبني، ولم يعبأ بديني، ولم يأمرني بالخير، ولم ينهني عن الشر، وهذا شيء ملاحظ، الأب مسالم، لا يهمه إن صلى أولاده أم لم يصلوا، استقاموا أم لم يستقيموا، تزوجوا فتاة مؤمنة أو غير مؤمنة، محجبة أو متفلتة، هو مرتاح، يأكل، ويشرب، وينام، و يعطي الأوامر، والماء يجري من تحته ولا يشعر، أهذا أب؟ هذا أمره كان فرطاً، قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

طبعاً: درس اليوم محرج، أنت مكلف بتربية أولادك، مكلف بحجاب بناتك، مكلف بتعليمهم أمور دينهم، مكلف بأن تضبط سلوكهم، مكلف أن تعلم أين يذهبون؟ ومع من يلتقون؟ ومع من يسهرون؟ ومتى يأتون إلى البيت؟ أما إذا سيّبت الأمر، والله الذي لا إله إلا هو، قد تأتي ساعة على الأب أو الأم، يتمنيا لأن يموتا، ولا يسمعا هذه الأخبار .

توفي شاب صديق لي، رحمه الله، اختلف مع زوجته فطلقها، وله منها شاب وشابة، تزوج امرأة أخرى تروق له، اشترطت عليه ألا يكون أولاده عنده، فانصاع لأمرها، ووضع أولادهم عند جدهم، عند والده ووالدته، طبعاً والده في الثمانين، ووالدته في السبعين، إنسانان كبيران لا يحسنان ضبط الأمور، ثم اكتشف فجأة أن ابنه هرب نهائياً، وابنته وقعت في الفاحشة، ماذا يحصل لهذا الإنسان؟ .

خطر قد يداهمك :

أيها الأخوة، الخطر الآن قريب، أكثر من مئة حاجز، يخطف ابنك منك، الآن هناك شمة واحدة، يصير بها مدمن مخدرات، هناك نوع من المخدرات الآن، نوع من الهيروين، شمة واحدة، يبيع ما فوقه وما تحته، حتى يشم، ويسرق ليشم، إذا زلت قدم الابن في المخدرات، زلت قدمه بصحبة المنحرفين، ماذا يحصل لك أيها الأب؟ أكبر سعادة تملأ قلب الأب أن يرى ابنه صالحاً، أكبر إكرام يناله الأب أن يرى ابنه في طاعة الله، أكبر قرة عين يتمتع بها الأب أن يرى ابنه مستقيماً، فلذلك:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا)

[سورة طه الآية: ١٣٢]

نصيحة :

أيها الأخوة، هذه النصيحة يمكن أخواننا الذين تجاوزوا الأربعين، قد لا يستفيدون منها ، وهي مؤلمة جداً، إذا لم تلحق ابنك في سنواته الخمس الأولى تخسره، يأتي وقت تخسره فجأة، هذا ليس ابنك، يأتيك الساعة الثانية ليلاً، وهو أطول منك، وإن ضايقته يهجم عليك، لما أهملته في الخامسة، ونشأ في انحراف غير منظور عندك، تفاقم الانحراف في الخامسة عشرة ، وتأتيني معلومات بحكم عملي في الدعوة من آباء وأمهات مما يُبكي، يبكي الأب أمامي مثل الصغار، ابنه يرافق أصدقاء السوء إلى الساعة الثانية، كلامه قاس، شرس، يده للضرب، يضرب أخوته، يريد المال .

قال لي أحد أخواننا، وهو موظف، قال: ابنه يكسر الثريات والمرايا، حتى أعطيه مبلغاً، يغيب يوماً، ويكون قد صرفه كاملاً في الرذالة والانحراف، قلت له: أنت لم تهتم به، فقال: نعم، لم أهتم به، سار على هواه، فانفلت فجأة، يأتي على الأب والأم ساعة، يموتا من الألم، إذا رأى ابنه منحرفاً، أما إذا كان عندك استعداد، أن ترعاه منذ الخامسة من عمره، وهو معك دائماً، تجلس معهم، تسهر معهم، تأخذهم إلى نزهة .

أنا معجب بشكل غير معقول، بأب هو وأولاده وأمهم سواء، يأكلون سويا ثلاث وجبات، كل نزهة الكل مع بعضهم، الأب المنضم للأسرة، يتعلم من الأب الأخلاق، والعادات، والعبادات، والدين، ولما ينسلخ الابن من البيت، ينضم إلى الأولاد المنحرفين انتهى، بعدما يكبر الابن قليلاً، لا تستطيع أن تحدثه بكلمة، إهمالك القديم دفعت ثمنه الآن، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ)

[سورة التحريم الآية: ٦]

أؤكد لكم: أن أي أب عنده ولد صالح، هذا الولد يساوي ألف مليون دولار، وهذا رقم كبير عندنا، لأنه شيء مسعد، أن يكون ابنك صالحاً، مستقيماً، يمشي ضمن المنهج، لا تخرجه من المخفر الساعة الثالثة صباحاً، من أجل بيت الدعارة، أو من أجل السرقة، فتكتب تعهّداً، لم يفعلها معك، ابنك في مسجد مع مؤمنين .

أنا أقول كلاماً، من كثرة ما أسمع من بعض أخواننا –تلطف الله بهم–، مما يشكون من أولادهم، والزمن صعب الآن، هناك مغريات كثيرة، فتن كثيرة، كل شيء في الطريق ظاهر، ليس هناك شيء مخفي، إذا لم تحصنك نفسك تضيع .

اقرأ :

بالمناسبة: قبل ستين سنة، إذا أحب الرجل أن يزور حديقة الحيوانات، يجد كل الوحوش في أقفاص، والزوار طلقاء، وهناك الآن حدائق حيوانات في أفريقيا الوحش فيها طليق، والزائر ضمن القفص، يدخل بسيارة مصفحة .

الآن: وضع الناس العام: أنّ أهل الفتن، والفجور، والمعاصي، والآثام طلقاء، ويستطيعون أن يقنعوا أيّ إنسان، وكل بيت فيه ملهى ليلي، وهناك شاب وشابة، والأب يسهر مع زوجته .

مرة اتصلوا بطبيب للإسعاف، هو صديق مدير ثانوية، وهو قص علي القصة، اتصلوا به للإسعاف، لبى الطلب، في أثناء المعالجة، تفقد الساعة، فرآها الثانية عشرة والربع، فضرب رأسه، وقال: يا ويلي، لم يتكلم حينها، ثم ذكر ذلك لصديقه، فقد كان يشاهد فيلم فيديو الساعة العاشرة، لما جاء أمر الإسعاف، نسي أن يخبّئ الفيلم، بعد الساعة الثانية عشرة، جاء ابنه وابنته سيشاهدون الفيلم، انتهى الأب عند أولاده، لكن المفاجأة ليست هنا، أقسم بالله لصديقه، وهذا سر من أسرار حياته، قال له: وجدت ابني فوق ابنتي، أقسم بالله، فقبل أن تأتي بهذه البدع إلى البيت، قبل أن تقول: أنا عصري، أريد أن أطلع على ما يجري، هناك أخطار كبيرة جداً، فطوبى لمن وسعته السنة، ولم تستهوه البدعة .

انظر :

أيها الأخوة، من أحاديث هذا الباب، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَقُولُ:

((أَخَذَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كِخْ كِخْ ارْمِ بِهَا، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

النبي لم يتساهل بتمرة، ليس هناك عند الناس شيء اسمه حرام، على همج، حلال حرام، يجوز أو لا يجوز، يريد الأموال، يريد أن يصرف، أمانة مودعة، ربح فاحش، تصريح كاذب، يريد الأموال، هذه التمرة قال عليه الصلاة والسلام:

((كِخْ كِخْ ارْمِ بهَا، أمَا عَلِمْتَ أنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟))

عَنْ عُمَرَ بْن أبي سَلَمَةَ قال:

((كُنْتُ غُلَامًا فِي حَجْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ -أي ينقّي-، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا غُلَامُ، سَمِّ اللَّهَ تعالى، وَكُلْ بيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

علّم ابنك الأدب .

مرة كنت في وليمة، أحدهم أتى بابنه، وعلى المائدة صحن كبير من الكباب، الابن يمسك السكين بلقمة واحدة، خرق اللحم ليأكل، وهكذا الثاني، والثالث، صاحب البيت أصابه الحرج، والأب لم ينتبه، هكذا علمته أن يأكل؟ يأكل اللحم فقط، من دون خبز، شيء لا يحتمل ، ليس هناك أبشع، من طفل غير مهذب، يحرج الناس .

مرة دخلنا بيتاً، صعد طفل بحذائه على أريكة، فوقها قماش أبيض مثل الثلج، وأبوه ساكت، هذا معقول؟ لا بد أن تربي ابنك .

((يَا غُلَامُ سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ، فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ))

علّمه، علّمه كيف يتثاءب، يضع يده؟ علمه كيف يشرب، يسمي الله؟ .

نكتة لطيفة :

هناك نكتة، في حفلة من الحفلات، كانوا يقدمون الليمون، ليس هناك إلا صحن كبير واحد، فيه كؤوس شراب الليمون، فجاء أحدهم فشربها كلها، انزعجوا منه كثيراً، قالوا له: ألا تعرف السنة، ثلاث مرات؟ فقال: أين الثانية والثالثة؟ .

وكان مرة بعض الشباب جالسين، يأكلون أكلاً غير طبيعي، فقال أحدهم: نريد آية تصور هذا الوضع، قال أحدهم:

(وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ)

[سورة التكوير الآية: ٥]

لا بد أن تعلم ابنك، أن يكون لطيفاً، يسلم، ويجلس، ويسكت، يأكل بأدب، يأكل مما يليه، يسمي، يقول: الحمد لله، إذا شرب، يبعد الإناء عن فيه .

اسمع :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال:

((سَمِعَت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: كُلُّكُمْ رَاعٍ وكلكم مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ راعٍ فِي أَهْلِهِ، وَمَسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ راعية فِي بَيْتِ زَوْجِهَا، ومَسؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ راعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ، وَمَسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

كل إنسان محاسب، أمّ جالسة عند الجيران، وأولادها في الطريق، يتعلمون البذاءة والكلمات الفاحشة، ويتعلمون السرقة، هي مرتاحة مع الجارة، وأولادها متفلتون، فالإنسان مكلف أن يربي أولاده .

أحد أخواننا، وهو جالس في محل تجاري أمام جامع النابلسي، واللهِ تكلم كلاماً أثلج صدري، قال لي: دخل أولاد ليشتروا، كان وضعهم وحركاتهم وكلامهم غير مقبول، قال: ثم دخل بعض طلاب المعهد بأدب في وقوفهم، إذا كان الطالب مربًّى، يقرأ القرآن، له توجيه و انضباط، شيء جميل جداً.

ملاحظة :

عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

هناك ملاحظة، أريد بيانها لكم: كثير من البيوت ضمنها تفلت عجيب، ممكن من الشاب أن يلبس (الشورط) أمام أخواته البنات؟ ممكن لبنت أن تقوم بقميص النوم الشفاف أمام أخوتها الصبيان؟ .

واللهِ يا أخوان معظم بيوت المسلمين هكذا، المفروض ألاّ ترى الأخت أخاها إلا باللباس الكامل، واللهِ هناك أسر أكبرها، ممنوع أن يكون الابن في البيت في لباس قميص الشيال، لا يمكن أن تراه أخته لابساً ذلك، ودائما الأخت تلبس لباس النوم الطويل غير الشفاف، وتحته سروال، كيفما تحركت فهي مستورة، وإلا فهناك شيء اسمه: زنا المحارم بدأ يتفاقم .

لماذا النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((استأذن على أمك، قال: إنها أمي، قال: أتحب أن تراها عريانة؟))

ليس للأب أن يدخل على ابنته فجأة، يدق الباب، لعلها نائمة، وهي مكشوفة، ليس للأب حق، أن يرى من ابنته إلا لباس الخدمة، الأب، والابن، والعم، والخال، هذه ثياب الخدمة، ثياب المحارم، أما التي من غير كُمّ، والصدر مفتوح، وفوق الركبة ممنوع، ينشأ منه انحرافات، وليس كل إنسان، يعرف الذي يحدث في البلد، هناك مشكلات كبيرة جداً.

مشاكل وحلول :

قال عليه الصلاة والسلام:

((مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ، وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

أحياناً: يكون في البيت غرفتان للضيوف، من أجل الوجاهة، صالون مع صالون، و البنات والشباب في غرفة واحدة، دع غرفة الضيوف واحدة، وفرق الشباب عن البنات، ولا تخطئ .

((وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ))

أي إذا كانوا صغاراً، فإذا كبروا، فضع كل جنس في غرفة، عمر غرفة ثانية، وخفض المصروف إلى الربع، وكل كل يوم معكرونة، وأقم غرفة لأولادك، وغرفة للبنات، أما شابة في الثامنة عشرة، وأخوها في السادسة عشرة، في غرفة واحدة، ولو كان لكل واحد سرير، يجب أن تفرق بين الشابات والشباب في الغرف، وبين الصغار في المضاجع، هذه من السنة أساساً .

الذي يحب أن ينشأ أولاده على منهج قويم، فيجب أن يضحي الأب، يضحي براحته، هناك أسر في الشام، البيت ثمنه ثلاثون مليوناً، لا يباع، والأولاد من غير زواج، يتّقدون شهوة، لا يزوج الأب أولاده، البيت أوجه، في حي راق، بع البيت، واشتر لكل ولد بيتاً، وأنت خذ بيتاً صغيراً، يكفيك أنت وزوجتك، لا، لا بد أن يسكن في بيت مساحته أربعمئة متر من أجل الاستقبالات، والدعوات، والضيوف، عندك ثلاثة شباب، يتألمون من حرقة الشهوة، والطرق كلها مغلقة أمامهم .

وهناك آباء –والله– أبطال، يكون سكنُه في أرقى حي، فيذهي ويسكن في دمر أو زملكا، ويزوج أولاده، البيت في الشام يساوي ثلاثة بيوت خارجها، هناك آباء أبطال، يقول: أنا يكفيني بيت صغير، ولا بد أن أزوج أولادي، وتزويج الابن عمل صالح كبير جداً، ابنك حصنته، الزواج حصن، وهناك آباء معه مئات الملايين، لا يقبل خاطباً لابنته إلا غنياً مثله، غنى على غنى، إذا كان الشاب مؤمناً،

أحيانا يكون طبيباً، ولكن ليس عنده بيت، فخذ لابنتك بيتاً، وسع الأمور، مثلما أعطيت ابنك بيتاً، فأعط ابنتك بيتاً، وسجله باسمها أو مناصفة، وبعضهم يعدون أن هذا الصهر ضحك عليهم، لا، لم يضحك عليك، لم يعد للإنسان أن يبدأ بدءاً قوياً، هناك ضعف الآن .

وفي الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ، مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ، فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا أن تَفْعَلُوا، تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ))

[أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة]

أنا أعرف أباً، جزاه الله خيراً، هيأ لكل بنت بيتاً، إذا جاءها خاطب مؤمن راق، يقول : معها بيت، حلت المشكلة نهائياً، بناته غاليات عنده، فإذا جاءه شاب مؤمن مستقيم، ولكن ليس عنده بيت، وله دخل يكفي المصروف، ولكن ليس معه ثلاثة ملايين للبيت .

أخواننا الكرام، إذا كان الرجل ميسوراً، فليزوج أولاده وبناته، ويكون قد أدى رسالته، لأنّ الأبوة رسالة .

توجيه لك :

الحديث الأخير: وعَنْ أبي ثرية، سَبْرَةَ ابْنِ مَعْبَدٍ الْجُهَنِيِّ، قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلِّمُوا الصَّبِيَّ الصَّلَاةَ لسَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُ عَلَيْهَا ابْنَ عَشْرِ سنين))

[أخرجه الترمذي وأبو داود في سننهما]

الصلاة أهم شيء في الدين، الصلاة عماد الدين، فمن أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها هدم الدين .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٦٩-١٠١) : باب بر الوالدين وصلة الأرحام - ما الفرق بين العبادة لله والإحسان للوالدين؟ وهل أوصى القرآن بهما؟ وما هي الأحاديث التي جاءت بخصوص بر الوالدين؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٥-١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

انتبه إلى معنى هذه الآية :

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، وننتقل اليوم إلى باب: بر الوالدين، وصلة الأرحام .

قال تعالى:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة النساء الآية: ٣٦]

هناك معنى دقيق في هذه الآية: العبادة لله، والإحسان للوالدين، أما أن يُعبد الوالدان من دون الله، فإذا أمر الوالدان بما يغضب الله عز وجل، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

قالت أم سعد لابنها:

((يا بني إما أن تكفر بمحمد، وإما أن أدع الطعام حتى أموت، فقال يا أمي: لو أن لكِ مئة نفس، فخرجت واحدةً واحدة، ما كفرت محمد، فكلي إن شئت أو لا تأكلي))



يجب أن تفرق بين العبادة والإحسان، الوالدان يجب أن تحسن إليهما، يجب أن تؤثرهما على نفسك، يجب أن تكون في خدمتهما طوال حياتك، هذا هو الإحسان، أما أن تقول لك أمك: طلق امرأتك، وإلا أغضب عليك، لا غضب لها ولا رضا، أما أن يحملك أبوك على كسب مال حرام، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

هذا المفهوم ينبغي أن يكون واضحاً، ولا أتكلم من فراغ، هناك آلاف القصص، وآلاف القضايا تُعرض عليَّ، سببها: أن الأب يجبر ابنه على المعصية، إن لم تظهر زوجتك أمام كل الأقرباء، فلن أعطيك شيئاً .

آباء مسلمون، يصلون في المساجد، يجبرون أبناءهم على الاختلاط، ويربطون رضاهم بالاختلاط، أمهات وقد يكن محجبات، يجبرن أولادهن على ما لا يرضي الله عز وجل، لجهل أو لبعد عن الدين.

المفهوم الساذج: أنه يجب أن أطيع أمي، من قال لك ذلك؟ يجب أن أحسن إلى أمي، الطاعة لله، والإحسان للوالدين .

ما المراد بحرف الباء في كلمة:

(وبالوالدين إحساناً)

وماذا قال العلماء حول هذه الآية؟ :

أيها الأخوة، الآية واضحة، قال تعالى:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة النساء الآية: ٣٦]

هذه الباء باء الإلصاق، أمسكت به، من معاني الباء: أنها للإلصاق، وقد تأتي الباء للسببية، قال تعالى:

(فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ)

[سورة النساء الآية: ١٦٠]

بسبب ظلمهم، وقال عز وجل:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

بسبب رحمة من الله لنت لهم، هذه الباء سببية، وعندنا باء الظرفية، مررت بدمشق، هذه الباء ظرفية، هناك باء للإلصاق، أمسكت به، لو فتحنا معاجم اللغة، الفعل أحسن يتعدى بـ، إلى، أحسنت إليه، ليس هناك في اللغة أحسنت به، لكن في القرآن:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣]

أي: إحساناً بالوالدين، فهذا الفعل ورد في كتاب الله على خلاف القاعدة، القاعدة: أحسن إليه، وفي القرآن:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣]

قال العلماء:

((معنى ذلك: أن الإحسان للوالدين ينبغي أن يكون بالذات مباشرة، وكأنك ملصق به))

قد يكون الإنسان مشغولاً، وقد يكون عنده سائق، يقول له: خذ أبي إلى المكان الفلاني، هذا لا يجوز، يجب أن تأخذه أنت، يجب أن تخدمه بذاتك، أو يكلف إنساناً، يسأل عن حاجات أمه فيأتيها بها، قال تعالى:

(وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣]

يجب أن يكون إحسانك إلى والديك بالذات مباشرة، يجب أن تلتصق بهما إذا أحسنت إليهما، السبب: أن الأب والأم أحياناً، يتجاوزان أمور الدنيا، يحتاجان إلى وجودك، إلى مؤانستك، إلى أن تكون معهما، لا إلى أن تقدم لهما كل الحاجات، يتمنى الأب أن يرى ابنه أمامه، وهذا أفضل عنده ألف مرة، من أن يرسل له فاكهة، أبوك يريدك أن تكون أمامه .

هذه هي حضارة العصر! :

أيها الأخوة، العالم الغربي الآن، يعاني ما يعاني، إنسان مرض يؤخذ إلى مأوى العجزة مباشرة، هذا المتقدم في السن، يسعده أن يكون بين أولاده .

هناك امرأة ثرية جداً، ولها أولاد كثر، أصيبت بالشلل، فالأولاد تبرموا منها بضغط من زوجاتهم، كل واحد منهم رفض أن يستقبلها، فاتفقوا على أن يضعوها في مأوى العجزة.

والآن: هناك مستويات عالية جداً، فندق خمس نجوم، خدمات من أعلى مستوى، غرفة مكيفة، طعام من الدرجة الأولى، نظافة، أناقة، جمال، مبلغ كبير جداً، تقريباً من ثلاثمئة ألف سنوياً، المبلغ فلكي، كل هذا الرفاه لا يعدل أن يكون هذا الإنسان العاجز بين أولاده، فهذه المرأة الثرية، وجدت نفسها في مأوى العجزة، في رفاه عال جداً، طلبت كاتب العدل، وكتبت كل أموالها من دون استثناء للجمعيات الخيرية، وانتقمت من أولادها .

ما الذي يسعد الأبوين؟:

أيها الأخوة، هناك الآن علم اسمه: علم نفس الشيوخ، صار للإنسان المتقدم في السن نفسية خاصة، علم نفس الشيوخ، يبيّن أن هذا الإنسان عنده حساسية بالغة جداً، ما الذي يسعده ؟ أن يكون بين أولاده، فالخدمة من الدرجة العاشرة، وهو في بيت أولاده أفضل عنده من خدمة من الدرجة الأولى، وهو في مأوى العجزة، قد يكون الابن ميسوراً، وجوده عند والديه لا يعدله وجود، فلذلك قال تعالى:

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣]

التقدم في السن

يقول الإنسان: والله أنا عندي خمسة أولاد في بيتي، يأكلون من رزقي، أنا أربيهم، هم عندي، ولما يكبر في السن تنعكس الآية، أنا أبي عندي، كنتَ أنت عنده، والله عندي ثلاثة أولاد، أربعة أولاد، لما تقدم الابن في السن، صار يقول: أنا عند ابني، من عندك؟ عندي أبي ، والحمد لله، كبر في السن، قال تعالى:

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣]

إذا كان والد أحدنا شاباً، فهيماً، مثقفاً، يكون إرضاؤه سهلاً جداً، ليس بحاجة إليه بالهاتف والزيارة، يسأل عنه، أما إذا كبر الأب، وتقدمت به السن، وضعفت ملكاته، ويحتاج إلى خدمة عالية المستوى، وإلى تنظيف، وإلى طعام خاص، صار الأب عبئاً، الرضا هنا، قال تعالى:

(إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣]

هو كبير، وهو عندك، وما معنى كبير؟ .

ابدأ واعمل قبل أن تصل إليك هذه الأمور السبعة :

أخواننا الكرام، الحديث الذي يقصم الظهر، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، وْالدَّجَّالَ، والدجال شَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، وْالسَّاعَةَ، والسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ؟))

[أخرجه الترمذي والنسائي في سننهما عن أبي هريرة]



هناك بدوي في شمال جدة، له أرض، فلما توسعت جدة، وصلت إلى أرضه، فباع أرضه عن طريق مكتب عقاري خبيث جداً، اشتراها بربع قيمتها، وأنشأ عليها بناية من اثني عشر طابقاً، هم ثلاثة شركاء، والقصة واقعية، وقعت في جدة، أول شريك وقع من رأس البناء على الأرض، فنزل ميتاً، والشريك الثاني دهسته السيارة، وانتبه الثالث إلى أن موت الشريكين بسبب احتيالهما على صاحب الأرض، فبحث عن صاحب الأرض ستة أشهر حتى عثر عليه ، ونقده ثلاثة أضعاف ما قد أعطاه من قبل، فقال له هذا البدوي: ترى أنت لحقت حالك، كلمة بليغة جداً .

وأنا أحب ذكر هذه القصة، حتى نلحق حالنا نحن، الإنسان ما دام قلبه ينبض، ما دام هناك بقية من الحياة، فإنه يمكنه أن يتدارك نفسه، يقول عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ))

أي أدركوا أنفسكم، فماذا ينتظر أحدكم من الدنيا؟ هذه الدنيا أمامكم، أنتم كلكم واقعيون ، ماذا أمامنا؟ ممكن أن أستيقظ كل يوم كالبارحة على طول؟ مستحيل، لا، في أحد الأيام تجد في نفسك مشكلة، لأن الإنسان لا بد أن يغادر الدنيا، كيف يغادرها؟ بمرض .

عُقد في دمشق مؤتمر أطباء القلب، ثبت أن هناك مورثاً، يحدد طريق موت الإنسان، حينما يولد، أحد المورثات طريقة موته، والله فلان مات، خيراً، ما المرض الذي مات به؟ تشمع كبد، الثاني فشل كلوي، والرابع جلطة في القلب، الخامس خثرة في الدماغ، السادس ورم خبيث في العظام، كل واحد له طريقة، يغادر بها الدنيا، هذا سماه النبي: مرض الموت.

لو كان صاحبه صدِّيقاً، فلا بد أن يموت، يتفاقم، فهل يمكن أن أستيقظ كل يوم كاليوم السابق إلى ما شاء الله؟ مستحيل .

يقول عليه الصلاة والسلام:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ))

ما الذي ينتظر أحدكم من الدنيا؟ ما الذي أمامك؟ أيّ إنسان شارد، ساهٍ لاهٍ .

هذا ما أشار إليه النبي:

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا))

هناك الآن محلات ضخمة جداً، وليس هناك بيع، بقيت تجارة البناء أربح تجارة خلال ستين سنة، قبل سنتين وقفت، بيت دفِع ثمنه خمسة عشر مليون ونصفاً، بيع قبل أيام بخمسة ملايين ونصف، فالذي يحمل أبنية وبيوتاً قرش ونصف، أحياناً: يأتي الفقر فجأة، الوضع صعب، وليس هذا من باب التشاؤم، هناك وضع غريب في العالم، الأموال كلها تجمّع بيد الأقوياء .

في حرب الخليج، انتقل من الشرق إلى الغرب سبعمئة وخمسون مليارا، كان في أمريكا عجز من خمسين سنة، فترمّم عجزهم، عندهم رواج الآن، يفوق حد الخيال، وعندنا كساد يفوق حد الخيال .

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا))

قد يأتي فقر مفاجئ .

هناك أخ من أخواننا قال: كنت وسيطاً في زواج، رجل عنده في المنطقة الحرة معامل ومشاريع، خطب ابنته مهندس راق جداً، صاحب دين، فقابله بكِبر ليس بعده كِبر، قال له: أنت كم معاشك في الشهر؟ قال له: عشرة آلاف، قال: هذا لا يكفي ابنتي يوماً واحداً، اذهب لا حظّ لك عندنا، فصرفه، الله كبير، والرجل راوي القصة من أخواننا، لأن هناك قرابة، فجأة صدر قانون ألغى عمل المناطق الحرة، وكان عليه التزامات بالملايين، هناك تفاصيل ليس هذا مقامها، فجأة افتقر، وصار مكشوفاً، تفاقم الأمر لدرجة أنه سأل الوسيط، وقال له: هذا الذي خطب ابنتي في زمانه، هل تزوج أم لم يتزوج؟ فقال: لم يتزوج، قال: هل تقنعه أن يخطبها مرة ثانية؟ فأقنعه، خطبها مرة ثانية، ووافق، بعد ذلك عمِل العمُّ عند الصهر محاسباً، هذا فقر منسٍ مفاجئ، هناك قصص كثيرة جداً، فمثلما يعطي الله فيدهش، فإنه يأخذ ويدهش .

واللهِ حدثني أخ، قال: كان عندي مئات الملايين، لم يعد معي ثمن رغيف خبز، الله عز وجل رتب له ترتيباً، جعله يتمنى أن يأكل، أُخِذ منه هاتفه .

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا))

كان بالدخل المعقول مستقيماً، من مسجد إلى مسجد، فلما اغتنى صار من ملهى إلى ملهى، اختلف وضعه، هذا الغنى المطغي أحد المصائب، أحد أكبر المصائب: أن تغتني غنى يحملك على المعصية .

((هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا))

هناك أمراض مفسدة، لا يستطيع صاحبها الأكل، ولا أن يمشي، يعيش معلولاً.

((أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا))

يخرف، يعيد القصة مليون مرة، يكون قد أكل من لحظات، فيأتي الضيف فيقول له: لا يطعمونني، هذا هرم مفند، وهناك مرض مفسد، وغنى مطغٍ، وفقر منسٍ .

((أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا))

نعيه على الجدران، ماذا ينتظر أحدكم من الدنيا؟ الذي لا يريد الله، أعرض عن ذكر الله، أعرض عن العمل الصالح، أعرض عن هذا الدين، ماذا ينتظره؟ أحد السبعة .

أدرك نفسك بهذا الخير :

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، وْالدَّجَّالَ، والدجال شَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، وْالسَّاعَةَ، والسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ؟))

[أخرجه الترمذي والنسائي في سننهما عن أبي هريرة]

بادروا: أي أدركوا أنفسكم، مثل ذاك البدوي، قال: ترى أنت لحقت حالك، أدرك نفسك بتوبة، أدرك نفسك بعمل صالح، أدرك نفسك بإنفاق، أدرك نفسك بطلب علم، أدرك نفسك بضبط أمورك، بإقامة الإسلام في بيتك، في عملك، أدرك نفسك بتلاوة القرآن، بتربية أولادك ، أدرك نفسك .

ما المراد بكلمة:

(أف)

في هذه الآية؟ وما هو الأمر الإلهي الموجه إلينا من خلال هذه الآيات؟

قال تعالى:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣]

ما هو الأفّ؟ الأف زفير، صوت مرتفع، تأفف، التأفف فصاعداً محرم، ماذا يقابل الأف؟ غلق الباب في وجههم بقوة، هذا أقلّ شيء ممكن، وهناك أبناء –والعياذ بالله– يقول لأمه: كل البلاء منكِ، أسأل الله أن يخلّصنا منك، وهناك أبناء يضربون آباءهم، فما دامت كلمة أف محرمة، فما قولك فيما فوق الأف؟

قال بعض العلماء:

((لو أن في اللغة كلمة أقلّ من أف، لذكرها الله عز وجل))

قال تعالى:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣-٢٤]



بصراحة: الأم تتمنى حياة ابنها، فإذا كبرت قال: الله يخفف عنها، إذا قالها في قلبه، فلا شيء .

لذلك: لا تجد آية قرآنية، يوصي الله فيها الآباء بأولادهم، لماذا؟ لأن محبة الأولاد فطرة وطبع، هل يمكن أن يصدر مرسوم جمهوري، أنّ على المواطنين تناول طعام الفطور، وإلا فهم تحت طائلة السجن؟ لا داعي، كل الناس جائعون، ولا بد أن يأكلوا، فكل شيء مركب في الفطرة، لا يحتاج إلى قوانين، حب الأبناء مركب في فطرة الإنسان، أيّ أم مسلمة، فاجرة ، فاسقة، منحرفة، تحب ابنها، ولكن ليس كل ابن يحب أباه، لذلك: جاء الأمر ببرّ الآباء، لا ببرّ الأبناء، قال تعالى:

(وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

[سورة لقمان الآية: ١٤]

سبحان الله! موضوع الجنين، الجنين يحتاج إلى كلس، الأم لا تشرب الحليب، والجنين يأخذ حاجته من الكلس من عظام أمه، فأغلب النساء الحوامل اللواتي لا يأكلن الحليب والجبن بكميات معقولة، يصبن بنخر في أسنانهن، وهشاشة عظامهن، لأن الجنين أخذ حاجته من الكاس من عظام أمه، قال تعالى:

(حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ)

[سورة لقمان الآية: ١٤]

ورد في بعض الآثار:

((ليعمل العاق ما شاء أن يعمل، فلن يدخل الجنة))

وأنا أنصحك، ألاّ تشارك عاقًا، لو كان فيه خير، لكان لأمه وأبيه، لا تشاركه، ولا تعامله، هذا عديم الخير .

هذا هو ديننا :

عَن عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((سَأَلْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ تعالى؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا، قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: بِرُّ الْوَالِدَيْنِ -يا لطيف، بعد الصلاة- قلت: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

أعظم الأعمال: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا، ثم ماذا؟ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، ثم ماذا؟ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: أَبُوكَ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

لذلك سئل النبي صلى الله عليه وسلم:

((من أعظم النساء حقاً على الرجل في حياتك؛ أمّ ، وأخت، وزوجة، وبنت، وخالة، وعمة؟ أعظم امرأة لها حق عليك أمك، فلما سئل: من أعظم الرجال حقاً على المرأة؟ قال: زوجها))

هذا كلام النبي، أعظم النساء حقاً على الرجل أمه، وأعظم الرجال حقاً على المرأة زوجها .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ:

((أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: أُبَايِعُكَ عَلَى الْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ، أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ تعالى، قَالَ: هَلْ لك من وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ، بَلْ كِلَاهُمَا، قَالَ: فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنْ اللَّهِ تعالى؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

خدمة الوالدين جهاد في سبيل الله .

خاتمة القول :

أيها الأخوة، هذا الدرس عن بر الوالدين، الذي أتمناه أن يُترجم إلى واقع، وإلا فلا قيمة لهذا الدرس إطلاقاً، قل: ألف مليون، هذا كلام، تملّكُ هذا المبلغ شيء، وأن تنطق بهذا الرقم شيء آخر .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٧٠-١٠١) : باب عيادة المريض وتشييع الميت ودفنه - ما الحكمة الربانية من ظاهرتي التثبيت والتحريك بين الأشياء في الكون؟ وهل هناك وسائل أخرى لزيادة الرزق من بوابة الشرع؟ وما هي الأحاديث التي تخص زيارة المريض والدعاء

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٥-١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

من حقائق الكون :

أيها الأخوة الكرام، في كتاب رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، باب من أبواب هذا الكتاب، عنونه مؤلفه، وقال:

((كتاب عيادة المريض، وتشييع الميت، والصلاة عليه، وحضور دفنه، والمكث عند قبره بعد دفنه))

أيها الأخوة، كمقدمة لهذا الموضوع: الله جل جلاله، جلت حكمته، ثبت في هذا الكون أشياء، وحرك أشياء، آلاف الأشياء ثبتها الله عز وجل، دورة الأفلاك ثابتة، يمكن أن تعلم بعد ألف عام: كم الساعة؟ وكم الدقيقة تشرق الشمس؟ .

دورة الأفلاك ثابتة، بل إن أدق ساعة في الأرض، تضبط على مرور نجم، وقد تسبق أو تقصر ثانية في العام، والذي لا يقصر ولا يسبق ثانية في العام هو النجم، دورة الأفلاك ثابتة، خصائص المواد ثابتة، حديدٌ حديد، فضة فضة، الذهب ذهب .

لو أن هذه الخواص تتبدل، لكان هناك مشكلة ما بعدها مشكلة، تضطرب الموازين، تشتري الذهب، فبعد حين يصبح حديداً، تشتري الحديد، فبعد حين يلين، ينهار البناء، خصائص المواد ثابتة، خصائص البذور ثابتة، الذي تلقيه حباً في الأرض تجنيه ثمراً .

إن أردت أن تستقصي الأشياء التي ثبتها الله لا تعد ولا تحصى، تثبيت هذه الأشياء، تثبيت خصائصها، تثبيت دوران الكواكب، تثبيت نظام الكون، تثبيت الفصول، تثبيت المواسم، هذا كله من فضل الله علينا.

إذاً: أن هذا الثبات، يضفي على الحياة نظاماً مريحاً، وحرك أشياء، وحرك الرزق، وحرك الصحة، قد تأتي أمطار، فتنبت الأرض ما لا عين رأت، وقد تشح الأمطار، فيموت الحيوان لموت النبات، وقد يهجر الإنسان أرضه، وهذا شيء ملاحظ .

من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام :

أيها الأخوة، وقد ذكرت شح الأمطار ثبت الآن: أن مجموع الهطولات المطرية في الأرض ثابت كل عام من آلاف السنين، وإلى آلاف السنين، مجموع الهطولات المطرية في الأرض قاطبةً ثابت، طبعاً: بعد أن صار كل بلد، عنده مقاييس أمطار دقيقة.

لو جمعنا الهطولات في الأرض، لكان الرقم متكرراً كل عام، لكن هذه الكميات تزيد في هذه المنطقة، وتقلّ في هذه المنطقة، هذا ما توصل إليه العلم .

الآن بعد جهد جهيد، وبعد دراسات مضنية، وبعد استقصاءات متعبة، وبعد هذه الأجهزة الحديثة التي تقيس كمية الأمطار في العالم، أما أن يقول النبي عليه الصلاة والسلام في حديث صحيح:

((ما عام بأمطرَ من عام))

فهذا من دلائل نبوة النبي عليه الصلاة والسلام، إذ أن النبي عليه الصلاة والسلام ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى .

ما علة هذا التثبيت والتحريك بين الأشياء في الكون؟ :

أيها الأخوة، الله عز وجل ثبت أشياء، وحرك أشياء، من الذي حركه الصحة؟ ومن الذي حركه الرزق؟ الذي ثبته من أجل استقرار النظام في الحياة، والذي حركه من أجل تربية الإنسان، علة التحريك التربية، وعلة التثبيت النظام، فالشيء الذي يدفعك إلى الله، قد يكون خوفك على صحتك، وخوفك على رزقك .

وفي الإنسان مطلبان عجيبان: الإنسان حريص حرصاً لا حدود له على حياته، وعلى رزقه، وقد تلاحظ أن كل الناس الذين ضعف إيمانهم، يعصون الله عز وجل خوفاً على آجالهم أن تقترب، وخوفاً على أرزاقهم أن تقل . وقد ورد في الأثر القدسي:

((يا عبدي، خلقت لك ما في السموات والأرض، ولم أعي بخلقهن، أفيعييني رغيف أسوقه إليك كل حين؟ لي عليك فريضة، ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي، لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك، فلأسلطن عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً، أنت تريد، وأنا أريد، فإذا سلمت لي بما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد، أتعبتك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد))

من أسباب زيادة الرزق :

١-الطاعة لله وأداء الصلوات :

وقد تمنى علي بعض من قبل الأخوة الكرام، أن أبين لهم الوسائل التي شرعت لزيادة الرزق، ذكرت هذا في درس سابق، ولا بأس أن أمر على هذه الوسائل مروراً سريعاً، لأن الله حرك الرزق، حرك الرزق للتربية، وثبت الخصائص لاستقرار النظام، قال تعالى:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)

[سورة طه الآية: ١٣٢]

يعني تفرغ لتربية أولادك، ولترسيخ قيم الدين فيهم، والرزق لهذه الأسرة مضمون ، يعني بيت تؤدى به الصلوات، ويتلى فيه القرآن، وتقام فيه حدود الله عز وجل، هذا بيت مرزوق، ومحل تجاري يؤدي أفراده الصلوات الخمس، ويطاع الله في البيع والشراء، هذا محل مرزوق، فطاعة الله عز وجل، وأداء الصلوات أحد أسباب زيادة الرزق، قال تعالى:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً)

[سورة الجن الآية: ١٦]

٢-الاستقامة على أمر الله :

ثانياً: الاستقامة على أمر الله، أحد أسباب وفرة الرزق، قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة الأعراف الآية: ٩٦]

لو أن أهل كل قرية، اتقت أن تعصي الله، اتقت أن تبيع الخمر، أمرت بالمعروف، لم تسمح للنساء الكاسيات العاريات، أن يفسدن الشباب، قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

(سورة الأعراف الآية:٩٦)

٣-صلة الأرحام :

صلة الرحم تزيد في الرزق، الإنسان حينما يرعى أفراد أسرته الأقربين والأبعدين، كل إنسان تفوق في الدنيا، له دخل كبير، فرعى أفراد أسرته، يعني زوج شبابهم، عالج مرضاهم، أطعم جائعهم، رعى أرملتهم، رعى أيتامهم، هذا له عند الله رزق كبير، فصلة الرحم تزيد في الرزق .

٤-إتقان العمل :

وإتقان العمل يزيد في الرزق، شيء معلوم لديكم جميعاً: أنه في أيام الكساد سبعون بالمئة من أصحاب المصالح، يبقون بلا عمل، أما المتقنون فلا تتوقف أعمالهم أبداً، النخبة أعمالهم مستمرة، فإتقان العمل جزء من الدين .

والنبي عليه الصلاة والسلام، حينما دفن أحد أصحابه الكرام، الذي حفر القبر وردمه، أبقى فرجةً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((هذه لا تؤذي الميت، ولكنها تؤذي الحي، إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه))

مرة أطلعني صاحب معمل -معمل تطريز- على الآلات التي صنعت في سويسرا، الثوب المصنوع في سوريا، على أحدث آلات في العالم، يباع كله -وهذه القصة قديمة بالسبعينات- بثلاثمئة ليرة، والثوب المصنوع على الآلة نفسها، يباع المتر بثلاثة آلاف ليرة، الفرق هو الإتقان، والآلة نفسها، ولكن هنا لا يوجد إتقان .

يعني: أخطاء كثيرة جداً، تجدها في الثوب، إذاً: سقط سعره .

إذاً:

((إن الله يحب من العبد إذا عمل عملاً أن يتقنه))

إتقان العمل جزء من الدين، أحياناً: عدم الإتقان يسبب جريمة .

أنا ذكرت لكم من قبل: أن صديقًا لي، وضع صحنًا من هذه الصحون التي على السطوح، وموضوع مشروعية الصحون، يعالج في مكان آخر، لم يحكم تثبيته، ففي أيام عاصفة، طار هذا الصحن، وأزهق حياة طفلة بريئة بعمر الورود، فعدم الإتقان أحياناً يسبب جريمة، أو يسبب أذىً للمسلمين .

حدثني أخ، مثلاً: حديد غير متقن، في شوائب فحم، المهندس حتى ينام مطمئناً، يضع في البناء ضعفي الحاجة المناسبة، ما معنى أن في الحديد شائبة فحم؟ قد ينكسر الحديد، إذا ألقيت قضيب حديد فيه شوائب فحم، من مكان مرتفع، قد يأتي قطعتان في الأرض، لأن الشوائب غير موزعة

توزيعًا منتظمًا، بل موزعة توزيعًا عشوائيًا، فإذا كان في نقطة ضعفًا، ينكسر قضيب الحديد، فالمهندس حتى ينام مطمئناً، يضع كمية مضاعفة، فعدم إتقان صناعة الحديد، تسبب أن ندفع ضعف الكميات اللازمة في إنشاء الأبنية، ونحن في أمس الحاجة إلى هذا المال، عدم الإتقان أحياناً، يسبب تلف مواد كبيرة جداً، يسبب أمراض، يسبب فقرًا أحياناً، إتقان العمل جزء من الدين .

هناك نقطة دقيقة جداً: أن منهج الله عز وجل منهج موضوعي، كيف؟ إذا جاء ملحد أو عابد نار، أي إنسان، ولو كان كافراً بكل الأديان، وطبق منهج الإسلام في حياته الدنيا، قطف كل ثماره عدا الجنة، لأن منهج الله عز وجل تعليمات الصانع، فإتقان العمل جزء من الدين، وهو أحد أسباب الرزق .

٥-الإنفاق في سبيل الله :

وأن تنفق من مالك في سبيل الله أيضاً، هذا أحد أسباب زيادة الرزق، وأن تؤمن وتتقي أن تعصي الله عز وجل، أحد أسباب زيادة الرزق، وأن تستقيم على أمر الله، أحد أسباب زيادة الرزق، وأن تصل رحمك بالمعنى الشرعي: أن تزورها أولاً، وأن تتفقد أوضاعها ثانياً، وأن تمدها بالعون ثالثاً، وأن تهديها إلى الله رابعاً، هذه صلة الرحم في الإسلام، أحد أسباب زيادة الرزق .

فالرزق متغير لعلة التأديب والتربية، والصحة متغيرة لعلة التأديب والتربية .

حديث الساعة :

درسنا اليوم عن الصحة .

عن الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّه عَنْه يقول:

((أَمَرَنَا رسول اللَّه صلى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعٍ، وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ؛ أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجِنَازَةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِبْرَارِ الْقَسَمِ -أو المقسم- وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي والنسائي في سننهما عن البراء بن عازب]

سؤال هذا جوابه :

مرة ذكر لي أخ، قال لي: مرة تألمت أشد الألم، ألماً لا حدود له، لأني مرضت ثلاثين يوماً، ولم يزرن أحد من أخوة المسجد، بماذا نجيبه؟ يوجد جواب شرعي، حينما يكون وجودُ الإنسان قوياً ويغيب، فغيابه صارخ، وأخوته يتحرونه، أما إذا كان بالأساس وجوده غير قوي، إذا حضر درسًا

يغيب عشرة، فإذا -لا سمح الله ولا قدر- مرض، وغاب، ماذا يظن من حوله؟ أنه غاب على عادته بلا سبب، أما إذا كان وجودُ الإنسان مع الجماعة قويًا، ووجوده يدعم، يُسأل عنه إذا غاب .

فإذا رفعك الله عز وجل بمرتبة علمية، بشهادة، بعمل صناعي، بتجارة ناجحة، بمنصب رفيع، بشهادة عالية، بشيء متميز به، ولزمت مجالس العلم، فوجودك يقوي هذا المجلس، وأنت لا تدري، وجودك يشجع عشرات، بل مئات من حولك، أن يحضروا، فأنت حينما تحضر مجلس علم، أنت تقوي هذا المجلس، وتزيد سواد المؤمنين، إذا دخل إنسان إلى سينما، ماذا يفعل؟ يزيد من سواد رواد السينما، فالبطولة: أن تكون عوناً للحق لا عوناً للباطل .

نقطة هامة :

النبي أمرنا بعيادة المريض، يوجد نقطة مهمة جداً، قد تغيب عنا جميعاً: المرض نافذة إلى السماء، يرافق المريض المؤمن رقة عجيبة جداً .

مرة عدنا أخًا من أخواننا، أجريت له عملية جراحية، والله رأيت تألقاً في وجهه، وإقبالاً على ربه، وقرباً منه، هذا التألق، وهذا الإقبال، وذاك القرب، لا تحدثه ألف خطبة في مسجد .

الله عز وجل رحيم، إذا أخذ صحة أحد عباده، ليعوض عليه أضعافاً مضاعفة من رحمته .

لذلك ورد:

((الدنيا دار التواء ولا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها، لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى، وجعل الآخرة دار عقبة، فجعل بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً، فيأخذ ليعطي، ويبتلي ليجزي))

إذا أخذ منك بعض الصحة، ليعطيك أضعاف مضاعفة من القرب منه .

لذلك ورد في الحديث القدسي الصحيح، في هذه المناسبة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا بْنَ آدَمَ! مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِ، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ، لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ، يَا بْنَ آدَمَ! اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِ، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أُطْعِمُكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ، لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا بْنَ آدَمَ! اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِ، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ، وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ، لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

رب العزة، خالق السموات والأرض، وجدت الله عند المريض، وجدته قريباً من الله، كان مقبلاً على الله، كان مستسلماً لأمر الله، كان منغمساً في رحمة الله:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة الزخرف الآية: ٣٢]

المرض وراءه أسرار :

أيها الأخوة، أنا الذي أراه: المؤمن بالذات، المرض يرقى به .

((مالكِ يا بنيتي؟ قالت: حمى لعنها الله، قال: لا تلعنيها، فو الذي نفس محمد بيده، لا تدع المؤمن، وعليه من ذنب))

شيء قطعي وثابت ومدعم بعشرات الأحاديث: أن مرض المؤمن تكفير له .

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن، وأنا أحب أن أرحمه، إلا ابتليته بكل سيئة، كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده، حتى أبلغ منه مثل الذر، فإذا بقي عليه شيء، شددت عليه سكرات الموت، حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

وقد يأتي المرض ضيفاً، ويخرج وقد التفت إلى الله، ويخرج وقد أقبلت على الله، ويخرج وقد اصطلحت مع الله، ويخرج وأنت أسعد الناس بالقرب من الله، والسبب مرض.

ما وراء هذه القصص :

حدثني أخ، كان يعمل في مكان، ولهذا المكان إنسان الأمر بيده، قال لي: ما رأيت جباراً، ولا إنساناً أشرس، ولا أقوى، ولا أقسى قلباً منه، لا يوجد عنده كلمة طيبة، إذا بطش لا يرحم، قال لي: مرض فدخلت عليه، فقال له: كيف حالك يا بني؟ إن شاء الله أنت مرتاح؟ قال لي: بحياتي ما سمعت هذه الكلمة اللينة منه، بعد المرض قال هذه الكلمة اللينة.

رجل قاس على رجل آخر قسوة بالغة، يريد أن يحطمه، أن يفتك به، مرض فعدته، فذكر لي: أنه طلب من هذا الإنسان أن يسامحه .

الله عز وجل طبيب، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، طبيب دواؤه يصيب العلة والداء معاً .

((أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ، لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟))

فإذا زار الإنسان مريضًا، يشعر برقة هذا المريض، أو بصفاء هذا المريض، طبعاً: الشرط أن يكون مؤمنًا .

حدثني طبيب قال: والله جاء مريض معه مرض خبيث في أمعائه، ولكن أشهد أنه مؤمن، ما دخل عليه إنسان إلا قال له ابتداءً: اشهد أنني راض عن الله، يا رب لك الحمد ، قال لي: عجيب هذه الغرفة، فيها نورانية عجيبة، كل ما يقرع الجرس، يتهافت الممرضون في خدمته، والأطباء كذلك،

وكلما دخل عليه إنسان يقول له: يا رب اشهد أنني راض عنك، ومعه مرض خبيث، ثلاثة أيام بعدها توفي .

وقال لي: ولحكمة أرادها الله، ودرساً بليغاً أراده الله، جاء مريض آخر بالمرض نفسه في الغرفة نفسها، قال لي: يسب الأنبياء كلهم، يسب الدين، يسب الإله، قال لي: رائحة لا تقابل، يقرع الجرس لا أحد يرد عليه، فالله عز وجل أطلع الناس في المستشفى على مرض واحد، آلام واحدة، أعراض واحدة، لكن المؤمن كيف وضعه؟ والكافر كيف وضعه؟ .

لي صديق رحمه الله، أصيب بمرض خبيث في أمعائه، تقول زوجته: بقي يعاني من هذا المرض سنتين، قالت: والله ما سمعت إلا يحمد الله على هذا المرض، قلت لوالدها -لوالد زوجته- الذي نقل لي الخبر، قلت له: والله لو لم يكن في حياته إلا هذا الصبر على هذه الآلام، لكانت كافية لدخوله الجنة، الصبر، قال تعالى:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

سورة الزمر الآية: ١٠]

إذاً: يجب أن تعلم علم اليقين: أن المرض أداة فعالة لتربية الإنسان وللرقي به .

طبعاً: القصص على هذا كثيرة جداً، وأنا من كلماتي التي أكثر ترددها في الدروس، يعني: ادخل إلى مسجد، ولا تبالغ، تجد سبعين بالمئة من المصطلحين مع الله، اصطلحوا معه، عقب تأديب إلهي، ولكنه ناجح، الله عز وجل يؤدب، وتأديبه فعال .

أمر وجه إلينا من النبي :

١-عيادة المريض :

((أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجِنَازَةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِبْرَارِ الْقَسَمِ -أو المقسم- وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام))

طبعاً: يعنينا من هذا الحديث الطويل: عيادة المريض .

((من دعي ولم يلبِ فقد عصى أبا القاسم))

تلبية الدعوة جزء من الدين، لكن بعض الناس أصلحهم الله، يلبون دعوة الأقوياء والأغنياء، ويهملون دعوة الفقراء .

ولي تعليق في هذا الموضوع: تلبية دعوة الأغنياء، والكبراء، والأقوياء من حب الدنيا، وتلبية دعوة الفقراء، والمساكين، والضعاف من أعمال الآخرة .

٢-اتباع الجنازة :

((وَاتِّبَاعِ الْجِنَازَةِ))

يمكن لا يوجد موعظة تفوق هذه الموعظة:

((كفى بالموت واعظاً يا عمر))

إنسان في النعش، أين سيذهبون به؟ إلى القبر، ماذا في القبر؟ هنا المصير، هنا نهاية الإنسان، في القبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران، والإنسان بحاجة إلى أن يكثر هذه الصور، صور القبر، والدفن، والتغسيل، والتشييع .

مرة حضرت تكفين ميت، جاء بقطعة قماش طويلة، غمسها بالماء، ثم ربط بها رجليه وشدها، ثم لف بالكفن، وغطى الكفن وجهه، ووضع، هذا الإنسان، أين شخصيته، وقوته، وحريته، وحركته، وهيمنته، ونظراته المعبرة، ودقة فهمه؟ أصبح جثة هامدة، وهذا مصير كل إنسان منا .

ترفرف روح الميت فوق النعش وتقول:

((يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبن الدنيا بكم، كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة علي))

أمر من النبي:

((أَمَرَنَا بِعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الْجِنَازَةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِبْرَارِ الْقَسَمِ -أو المقسم- وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وإجابة الداعي، وإفشاء السلام))

٣-إبرار القسم ونصر المظلوم :

((وَإِبْرَارِ الْقَسَمِ وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ))

أيها الأخوة، لا أبالغ بعملي في الدعوة، عشرات الألوف من قضايا الطلاق، اطلعت عليها، يقول لها الزوج: لا تفعلي هذا، ويحلف بالطلاق ألاّ تفعل، لا يحلو لها إلا أن تحنث بيمينه، وتضعه في موقف حرج، هذا من فعل الشيطان .

إنسان أقسم عليك، وقد تكون أشياء سخيفة، لا تزوري أختك خلال شهر، تزورها، وتصبح مطلقة، وتجعل زوجها يتسكع على أبواب المشايخ، هذا يقول له: على رأي ابن تيمية ترجعها، وهذا يقول

له: لا ترجعها، الأحناف لا يرجعونها، حلف عليك ألا تزوري أختك اطلبيها إليك، يجب أن تحنث باليمين، هذا أمر نبوي: (إبرار المقسم، ونصر المظلوم).

عدل ساعة يعدل أن تعبد الله سبعين عاماً، إنسان مظلوم وأنت قادر أن تنجده .

٤-إجابة الداعي وإفشاء السلام :

((وإجابة الداعي، وإفشاء السلام))

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه، أن رَسُولَ اللَّهِ صلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

((حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ: رَدُّ السَّلامِ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيض، وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِز، وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِس))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

أي شيء يمتن علاقتك بأخيك أمرك النبي به، وأي شيء يضعف علاقتك بأخيك، نهاك الله عنه، نهاك أن تحقر أخاك، نهاك أن تغتابه، نهاك أن تقعد بين اثنين محبين، نهاك أن تفشي سراً، نهاك أن لا تلبي دعوةً .

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه، أن رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَوْ دُعِيتُ إِلَى كراع أَوْ ذراع لأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح عن أبي هريرة]

كراع يعني القدم، إنسان يقول لك أحياناً: هذه الخطوات أطول من اللقمات، يدعى إلى محل بعيد، ويتكلف مشقة كبيرة حتى يصل، من سيارة إلى سيارة أو ثمن بنزين، وهذا الطعام لا يتناسب مع هذه المسافات الكبيرة، ولكن تلبية الدعوة واجب ديني .

من تطبيقات هذا الحديث :

عَنْ أبي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ:

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَطْعِمُوا الْجَائِعَ، وَعُودُوا الْمَرِيضَ، وَفُكُّوا الْعَانِيَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح، وأبو داود في سننه]

العاني: الأسير .

حدثني أخ، جزاه الله خيراً، هذا الأخ تبرع بمبلغ ضخم، سدد به كل الغرامات المدنية، يوجد مخالفات مدنية، مخالفة قانون بسيطة جداً، وأطلق سراح هؤلاء، إنسان أطلقه من الأسر، ورده إلى أهله بأربعة آلاف ليرة، ألفين سفر، وألفين غرامة، وانتهت المشكلة .

أبواب الخير لا تعد ولا تحصى، والله سبحانه وتعالى أساساً ودود، تودد إلينا بنعمه، وخلق الود بين عباده، بين الزوجين، بين الأخوين، بين الأم وابنها، وشرع لك ألف طريق لتعبر عن مودتك له، تودد إليك، وخلق الود بين عباده، وشرع ألف طريق، كي تتودد إليه، منها فكّ العاني .

يوجد أخ، جزاه الله خير، يذهب إلى سوق العصافير، يشتري العصافير المقيدة ويطيرها، العصفور طليق، أو يشتري كميات ضخمة من طعام الطيور، عنده آلاف الطيور فوق السطوح يأكلون، مشهد حيوان جائع يأكل، شيء مريح جداً .

لذلك: النبي صلى الله عليه وسلم علمنا، إذا زرع الإنسان شيئًا، وأكل الطير منه، فهو له صدقة، دون أن يدري، أي حيوان يأكل من زراعتك شيئاً، فهو لك صدقة .

وحوش النظام العالمي الجديد، أتلفوا محصول الحمضيات، ليبقى سعر الحمضيات مرتفعاً، الزنوج الفقراء، –طبعاً: أتلفوه بمزارع ضخمة، وسورها بأسلاك شائكة وأتلفوه-، يأتي الطفل الزنجي من تحت الأسلاك، ويأخذ برتقالة ويأكلها، ماذا فعلوا في العام القادم؟ سمموا المحصول، تسمع بأمور عجيبة، فائض السوق المشتركة، مشتقات الحليب بما يساوي حجم أهرامات مصر، ألقوها في البحر، والشعوب تموت من الجوع، والحفاظ على السعر المرتفع .

قرأت خبرًا بنفسي في مجلة خليجية، تم إطلاق النار على عشرين مليون رأس غنم في أستراليا، للحفاظ على أسعار اللحم المرتفع، وشعوب تئن من الجوع، وحوش .

أما النبي صلى الله عليه وسلم نبّه إلى أنه: إذا أكل طير من قمحك، وأيّ حشرة تأكل من العنب، كلها صدقة لك .

أنا ولدت قريبًا من هذا المسجد، كنت أسمع، وكان يوجد هنا في الحي نحو الشرق قليلاً، منطقة اسمها: جرم الشاويش قديماً، فيها ساقية، كل أصحاب البساتين، يضع سلة فواكه لعابر السبيل .

مر طفل، يوجد مشمش، تفاح، كمثرى، ويوجد سكينة صغيرة موضوعة، انضباط اجتماعي عجيب، لا أحد يشتهي شيئًا، كل إنسان يحمل الفواكه، يضع جزءًا من الفواكه التي يملكها .

ذهبت إلى بلدة في شمال لبنان، بلدة متمسكة ملتزمة، يوجد هناك تقليد، كلما رأوا هناك ضيفاً، يعطونه من الفواكه، ما يكفيه أسبوعاً هدية، دراق، أجاص، تفاح، أحياناً يسير إنسان في الطريق، ليس من أهل هذه البلدة، قد يكون ضيفًا، يقدمون له فواكه كثيرة جداً، يوجد ألفة، كان الإنسان يأتي إلى بلد ألف فيدعوه إنسان، أما الآن: في دمشق ترحب بكم فقط، تذهب: رافقتكم السلامة، أما إنك تجد أغلى الأسعار.

عَنْ ثَوْبَانَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَادَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَرْجِعَ))

الخرفة: أي جناها، أي ثمارها .

يوجد حديث، ولكن الآن في وضع دقيق: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَعُودُ مَرِيضًا، لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ، فَيَقُولُ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ، إلا عُوفِيَ))

[أخرجه الحاكم في مستدركه عن ابن عباس]

يجب أن نفرق بادئ ذي بدء بين مرض الموت، الأمراض كلها في كفة، ومرض الموت في كفة، لو كان صديقًا، مرض الموت، الأمر سيتفاقم حتى الموت، مهما كان مرتبته الإيمانية عالية، إذا دخل في مرض الموت، لأن الحديث القدسي، والله حديث مخيف، يقول الله عز وجل:

((ما ترددت في شيء أنا فاعله، ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته))

الموت الذي يقدره الله للمؤمن، أعظم عطاء على الإطلاق، في الوقت المناسب، في الظرف المناسب .

والدعاء النبوي:

((اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اجعل الحياة زاداً لنا من كل خير))

فالموت بالوقت المناسب .

عَنْ أَبِي قَتَادَةَ بْنِ رِبْعِيٍّ الْأَنْصَارِيِّ، أَنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُرَّ عَلَيْهِ بِجِنَازَةٍ فَقَالَ:

((مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟ قَالَ: الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ، يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا، إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ، وَالْبِلادُ، وَالشَّجَرُ، وَالدَّوَابُّ))

مرة كنا في جلسة، وأخ من أخواننا، كان مدير مالية دمشق، قلت له: كلما أرى جنازة أقول: هنيئاً له، انتهى من المالية، قال لي: والله ما انتهى، لأنه يوجد تركات .

((وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ، وَالْبِلادُ، وَالشَّجَرُ، وَالدَّوَابُّ))

يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((ما ترددت في شيء أنا فاعله، ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأنا أكره مساءته))

لما يكشف الغطاء يقول العبد: يا رب لك الحمد على أن توفيتني في الوقت المناسب.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ، فَظَهْرُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا، وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ، وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلَاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ، فَبَطْنُ الْأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قال رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ عَادَ مَرِيضًا، لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ، فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مِرَاتٍ: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ، إِلا عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه]

الحديث دقيق جداً، ويجب أن نتعلمه جميعاً، إلا أن يكون قد حضر أجله، هذا وضع خاص، إذا مرض الموت، هذا ليس له حل .

من اكتشافات الطب :

قبل أسابيع عدة، عقد مؤتمر للأطباء في دمشق، مؤتمر أطباء القلب، حدثني أحد الحاضرين في هذا المؤتمر، قال لي: الشيء الذي لا يصدق: أنه تم اكتشاف مورث في الإنسان، يحدد سبب موته، الناس كيف يموتون؟

جاءت امرأة إلى طبيب، تريد أن تعمل عملية قلب، قال لها: يا أختي نجاح العملية بالمئة ثمانون، قالت له: كيف؟ قال لها: إذا مئة إنسان أجروا هذه العملية، يموت عشرون، ويعيش ثمانون، قالت له: لا، أريد مئة بالمئة، قال لها: إذا بالمئة مئة، كيف يموت الناس إذاً؟ لا يوجد طريقة، كل إنسان سوف يغادر الدنيا بسبب، هذا يغادرها تشمع كبد، هذا فشل كلوي، هذا سكتة قلبية، هذا خثرة بالدماغ، هذا ورم خبيث .

هذا المؤتمر الذي عقد قبل أسابيع في دمشق، أغرب شيء في المؤتمر: أنه تم اكتشاف مورث في الهندسة الوراثية، هذا المورث يحدد مرض الموت في الإنسان، وهذا مصداق قوله تعالى:

(الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ)

[سورة الملك الآية: ٢]

منذ أن خلق الإنسان في هندسته الوراثية، سبب موته، فالموت حق .

إليك هذا الخبر :

أيها الأخوة، الشيء الأغرب: قبل عام في سفرتي الأخيرة، أُخبرت عن مورث سرطاني لكل إنسان، هذا المورث له قامع، القامع يشل فاعليته، كل إنسان يوجد عنده مورث سرطان وقامع، متى يحدث هذا المرض؟ حينما يفك القامع عن هذا المورث، ما الذي يفك القامع؟ الشدة النفسية، الخوف، القلق الشديد، ما الذي يؤدي إلى الخوف الشديد، والقلق الشديد، والحسد، والحقد؟ الشرك بالله، قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ)

[سورة الشعراء الآية: ٢١٣]

أحد أكبر أسباب العذاب: الشرك بالله، الذي يفك هذا القامع .

هكذا حدثني طبيب كريم في لوس أنجلوس، عن هذا الموضوع، الذي يفك هذا القامع ذرة البلاستيك، فإذا اشترى إنسان لبنًا مصفى، يقول لك: نعمة، كلامه صحيح، يأتي بالسكينة، ويقحط اللبن مع الكيس بسكينة حادة، تأخذ معها بعض ذرات البلاستيك، كيلو فول مثل النار، يوضع في كيس بلاستيك، الحرارة تذيب بعض ذرات البلاستيك أو مادة حامضية في صحن بلاستيك، الحرارة والحمض، والعامل الميكانيكي، هذا الذي يفك القامع ، الذي يفك القامع ذرة البترول، الذين يعملون في إصلاح السيارات، إذا لم ينظفوا أيديهم تنظيفًا مبالغًا به آخر الدوام وأكلوا، ربما دخلت بعض ذرات البنزين أو المازوت التي تحت أظافرهم إلى جوفهم، ففكت هذا القامع .

لذلك: الآن عجلات السيارة على الزفت، يتطاير منها هذه الذرات، واستعمال المكابح أيضاً، نسب السرطان مرتفعة جداً .

الآن: في العالم، في الدول النامية، ارتفاع غير معقول، أحد الأسباب: ذرة البترول، وذرة البلاستيك، والشدة النفسية، والإشعاع الذي ينتج عن المفاعلات النووية، ولكن أكثر شيء الشدة النفسية، فالإنسان إذا وحد، واستقام على أمر الله، وعاش في بحبوحة .

هذا أحدث موضوعين: أن كل إنسان عنده مورث للسرطان، وله قامع يشل حركته، ويوجد حالات يفك هذا القامع، وكل إنسان عنده مورث في مغادرة الدنيا .

دعاؤك لأخيك في ظهر الغيب لا يرد:

أيها الأخوة، الحديث:

((أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ، إلا عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ))

ويوجد رواية، عَن ابْن عَبَّاسٍ، عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ عَادَ مَرِيضًا، لَمْ يَحْضُرْ أَجَلُهُ، فَقَالَ عِنْدَهُ سَبْعَ مِرَات: أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَظِيمَ، رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَشْفِيَكَ، إلا عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ))

لذلك: دعوة الأخ لأخيه في ظهر الغيب لا ترد .

أتمنى عليكم جميعاً، إذا مرض أخ كريم، أن نزوره جميعاً، الزيارة ترفع معنوياته ، وأن تدعو له بهذا الدعاء .

يوجد حديث آخر: عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إِذَا جَاءَ الرَّجُلُ، يَعُودُ مَرِيضًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ اشْفِ عَبْدَكَ، يَنْكَأُ لَكَ عَدُوًّا، أَوْ يَمْشِي لَكَ إِلَى صلاة))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه]

دعوة الأخ لأخيه بظهر الغيب لا ترد، إذا أحدنا زار مريضًا، فليدعُ له بهذا الدعاء.

في هذا الحديث:

((لكل داء...))

ملمحان ما هما؟ :

أيها الأخوة، الحديث الذي يملأ الإنسان راحة .

عَنْ جَابِرٍ، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ:

((لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ، بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه]

إذا قرأه مريض، يمتلئ قلبه ثقة بالله، وإذا قرأه طبيب، كأن النبي صلى الله عليه وسلم يحثه على اكتشاف الدواء، أي مرض له دواء .

((فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ، بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

أي إذا وفق الطبيب لتشخيص المرض، واختيار الدواء المناسب برئ، ولكن بإذن الله، لا يسمح الله للمادة الفعالة بالدواء أن تفعل فعلها، إلا أن يأذن الله عز وجل، لذلك: المؤمن الصادق يعالج نفسه وأهله عند الأطباء المتفوقين، ويأخذ الدواء بعناية بالغة، ويتصدق لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((داووا مرضاكم بالصدقات))

وبعدئذ: يدعو الله عز وجل أن يشفيه، هذا الطريق الصحيح السالك: معالجة عند طبيب جيد، تشخيصه صحيح، دواءه صحيح، تناول الدواء بعناية بالغة، الصدقة، ثم الدعاء، وهكذا يتم الشفاء .

من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام للمريض :

من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام للمريض: عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ:

((دَخَلْتُ أَنَا وَثَابِتٌ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، فَقَالَ ثَابِتٌ: يَا أَبَا حَمْزَةَ اشْتَكَيْتُ، فَقَالَ أَنَسٌ: أَلَا أَرْقِيكَ بِرُقْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ الْبَاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لا شَافِيَ إِلا أَنْتَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا))

[أخرجه البخاري في الصحيح، وأبو داود والترمذي في سننهما]

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا:

((أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَخَلَ عَلَى أَعْرَابِيٍّ يَعُودُهُ، قَالَ: وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا دَخَلَ عَلَى مَرِيضٍ يَعُودُهُ، فَقَالَ لَهُ: لا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ))

وكان عليه الصلاة والسلام إذا عاد مريضاً يسأله عن أحواله، خير إن شاء الله، ما هذا المرض؟ صديقي مات بهذا المرض، هذه عادة سيئة جداً، إذا عاد الإنسان مريضاً، يجب أن ينفس له بالأجل، يعطيه أملاً، وهذا من السنة، طبعاً: تنفيس الأجل لا يطيل الأجل، ولكن يملئ نفس المريض بالراحة.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٧١-١٠١) : باب حق الجار والوصية به - بماذا يتميز الدين الإسلامي من حيث الناحية الاجتماعية؟ وما حقوق الجار؟ وما هي الأحاديث التي تتضمن حقوق الجار وعدم إيذائه؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٥-٢٢

بسم الله الرحمن الرحيم

من روائع الأنظمة في الإسلام :

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، والباب اليوم: باب حق الجار والوصية به .

أول الموضوع: أن الإسلام جاء بنظام من أرقى أنواع الأنظمة الاجتماعية، التكافل الاجتماعي، على أساس نسبي، وعلى أساس جغرافي، على أساس نسبي: كل إنسان مكفول من قِبل أحد أقربائه، هذا بحث النفقة في الإسلام، نفقته على أبيه، أو على أخيه الأكبر، أو على عمه، هناك تسلسل دقيق جداً، كل أسرة متضامنة متكاتفة، وكأنهم ضمان جماعي على نطاق الأسرة، فالمجتمع خلايا أسر، وكل أسرة متكفلة بأفرادها .

بعض الأسر في دمشق، لها تقليد رائع، أن موسريها متكفلون بمعسريها، رجل من أهل اليسار، كل شباب هذه الأسرة يسعى لتزويجهم، وتأمين بيوت لهم وأعمال، فإذا تضامنت كل أسرة في دمشق، وفي أي مدينة في سورية فيما بينها، فالغني تكفل بالفقير، والموسر تكفل بالمعسر، والقريب تكفل بالبعيد، لكن بحال غير هذه الحال، وقد تجد في بعض الأسر فردا يملك مئتي مليون، وفردا لا يملك قوت يومه، ولا يتعاونون، مع أن التعاون من واجبات المسلم، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

انظر إلى هذا الرزق الذي وعد الله عز وجل من يصل رحمه :

أخواننا الكرام، هناك نصوص كثيرة، تدل على أن صلة الرحم، تزيد في الرزق، كل إنسان يتفقد أهله مطلقاً يزيد رزقه، الذي دفعته يعوّض عليك .

هناك أخ كريم، له ابن عم موظف، وتوفي بمرض عضال، قال لي: دخلت إلى بيته و هو يغسَّل، فسألت أولاده: أعلى أبيكم دين؟ قالوا: نعم، قال: توهمت أو ظننت أن الدين لا يزيد على خمسة وعشرين ألف ليرة، موظف معاشه يكفيه، لعله استقرض في مرضه الأخير، قال : قلت لهم: عليّ

دينه، في اليوم التالي سألتهم: كم الدين؟ قالوا: مئة وثلاثون ألفاً، قال لي: والله نقدتها بكاملها، لأني وعدتهم
.
حدثني بهذه القصة في صحن جامع النابلسي، وبكى، قال لي: يوم السبت مع أن الأسواق كاسدة بعنا، وكانت حصتي الصافية من مبيعات يوم واحد مئة وثلاثون ألفاً، أقسم بالله وهو حي يُرزق، إذا أراد ربك إظهار الفضل عليك، خلق الفضل ونسبه إليك، الاسم لك، والمال مال الله .

أخواننا الكرام، شيء مجرب، كل إنسان يتفقد أفراد أسرته، ويعطف عليهم، فله استثناء خاص .

لي قريب، توفي والده وهو صغير، هو أكبر أخوته، له ست أخوات بنات، وثلاثة ذكور، فَعلَ فِعلَ الأب، يعطي كل واحدة في العيد عشرة آلاف، هذه يؤمّن لها حاجاتها، وكسوة أولادها، أجرة بيتها، مصروفها، ومع كل الظروف الصعبة، يدخل عليه دخل كبير، شيء مجرب، أي إنسان يتفقد أسرته، ليس أولاده، أولاد أخيه .

هناك رجل في الميدان –بارك الله به– توفي أخوه، وترك له خمس بنات، زوج البنات الخمس، ليس أقلّ من بناته ولو بشعرة، كل شيء أنفق على بناته، أنفق مثله على بنات أخيه لوجه الله تعالى .

وهناك أخ من أخواننا، هنا في الحريقة، أنا أذكره بخير، له أخ توفي، قال لي: والله لا يدخل بيتي شيء، إلا ولأخي قبله، بعد موته، لا يدخل بيته شيء من سمن، ولا من فاكهة، ولا من حلويات، فإلى أخيه مثله، وكل إنسان ينفق على أقربائه، له رزق استثنائي .

صلة الرحم تزيد في الرزق، وتنسأ في الأجل، هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام.

أنواع التضامن الاجتماعي في الإسلام :

أيها الأخوة، عندنا تضامنان؛ تضامن اجتماعي: على أساس القرابة، والنسب، والأسر، وتضامن آخر: على أساس الجغرافيا، الجوار، والجوار أربعون بيتاً شمالاً جار، وأربعون جنوباً جار، وأربعون شرقاً جار، وأربعون غرباً جار، وفي النظام الحديث أربعون من فوقك جار، وفي اليابان أربعون من تحت جار، في اليابان ثلاثون طابقاً تحت الأرض، فصار عندك أربعون يميناً، وأربعون يساراً، وأربعون شمالاً، وأربعون جنوباً، وأربعون من فوق، وأربعون من تحت، كل هؤلاء جيران، أي جار له عليك حق الجوار، و لو كان مجوسياً .

إليكم هذا المثال على حق الجوار :

كان لأبي حنيفة جار مغنٍّ، أقلقه إقلاقاً لا يحتمل، كان مغنياً، طوال الليل يغني، ويقول:

أضاعوني و أي فتى أضاعوا ليوم كريهة و سداد ثغر

اعتقل هذا المغني بمخالفة شرعية، فذهب أبو حنيفة النعمان بقضه وقضيضه، بكل تألقه إلى السجان، وتوسّط له فأخرجه، وفي الطريق قال له:

((يا فتى هل أضعناك ؟))

والغناء الذي كان يغنيه:

أضاعوني و أي فتى أضاعوا

فأي إنسان له عليك حق الجوار، أي إنسان في محيط أربعين، في أربعين، في أربعين، في أربعين، في أربعين، له عليك حق الجوار .

فإذا كان مسلماً، فله عليك حقان؛ حق الجوار، وحق الإسلام، فإذا كان ابن عمك له عليك ثلاثة حقوق؛ حق الجوار، وحق الإسلام، وحق النسب .

وفي الحديث: عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

من هو الجار الجنب، والصاحب بالجنب في هذه الآية ؟ :

قال تعالى:

(وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)

[سورة النساء الآية: ٣٦]

(وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ)

[سورة النساء الآية: ٣٦]

الجار الجنب والصاحب بالجنب، الجار الجنب هو الجار الملاصق لبيتك، أما الصاحب في الجنب فهو زميل العمل، جوار مهني، هناك جوار سكني، وهناك جوار مهني، الجوار المهني جوار العمل، مدرس معك في الثانوية، هذا جار، مهندس معك في الدائرة، طبيب معك في المستشفى، موظف معك في الدائرة، هذا جار، قال تعالى:

(وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ)

[سورة النساء الآية: ٣٦]

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

لشدة وصية النبي بالجار، أما نحن الآن: فأي شيء يتألم منه جارنا نعضّه منه.

من أخلاق الجار في هذا العصر :

أخ من أخواننا، عنده بيت أرضي، بأحد أحياء دمشق بالمهاجرين، له وجيبة داخلية، فسحة كبيرة، بناية واجبتها إلى الداخل، وبيته أرضي، والوجيبة نحو الداخل، وابنه في سن الزواج، وتمنى أن يزوجه، وهناك دكان تابع للبيت، جعلها غرفة النوم، واضطر أن يعمّر مطبخاً، مساحته متران بمتر واحد، بوجيبته، في أرض عنده في بيته، لا يمنع منظراً، ولا ضوءاً، ولا شمساً، ولا رياحاً، بناية من أربعة طوابق، البناء السفلي أرضي، عمر مترين بمتر حتى يزوج ابنه، الدكان قلبها غرفة نوم، ويحتاج إلى حمّام، الجار من وفقه في الطابق الرابع، اشتكى عليه فهدّموها له، ولكن لوجه الشيطان فقط، إذا كان فيها إيذاء، فهذا موضوع ثان، إذا كان فيها حجب شمس أو حجب مناظر، فهذا موضوع ثان لا ندخل فيه، أما إذا لا تتأذّى إطلاقاً، ولا بالمليار واحد، وتؤذي جارك، هكذا أخلاق الناس اليوم، لأنهم تنكر بعضهم لبعض، فاستحقوا جميعاً غضب الله عز وجل، لا أحد يرحم غيره أبداً، وقد يكون من أقرب الناس إليك، يتفنن في تطبيق أقسى أنواع القوانين، قد لا يكون في الأمر شيء، وقعت ورقة التسعيرة، هذه لا تنتهي بشهرين سجنا، وقعت هذه الورقة، يمكن للإنسان أن يغض بصره، يقول له: اضبط أسعارك، ممكن أن ينصحه، لذلك: حينما لا نرحم بعضنا، نستحق غضب الله عز وجل .

من حقوق الجار :

عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

إذا أعطى الله لرجل عمراً مديداً، يذكر أهل هذه البلدة الطيبة قبل خمسين سنة، كان هناك شيء اسمه: السكبة، أي كل جار يقدم لجاره صحنا من طعامه، فالإنسان أمامه عشرة أصناف من الطعام، حتى إذا كان للأكلة رائحة، لا يشتهي الطفل .

وقد ورد في بعض الأحاديث:

((أتدري ما حق الجار؟ إذا استعان بك أعنته، وإذا استنصرك نصرته، وإذا استقرضك أقرضته، وإذا مرض عدته، وإذا مات شيعته، ولا تستطل عليه بالبناء، فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإذا اشتريت فاكهة فاهد له منها، فإن لم تفعل فأدخلها سرا، ولا يخرج بها ولدك ليغيض ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك، إلا أن تغرف له منها))

انظر وتمعن، ماذا ترى؟ :

أيها الأخوة، بعض رياض الأطفال، يعطي الأب لابنته، عمرها أربع سنوات، خمسمئة ليرة، لأنه غني، هذا حمق، هؤلاء الطالبات مع كل واحد عشر ليرات، أو خمس عشرة، أو خمس وعشرون، أو خمسون، وتعطي ابنتك خمسمئة ليرة، وتحدث مشكلة في المدرسة، وإذا كان سعر الموز مئة وخمس وسبعون ليرة، يعطيها موزتان، الفاكهة النادرة يحب أن تأكلها في البيت أنت وأهلك، لا أن تعطيها لابنك في المدرسة، وهناك حلويات غالية جداً، كلها أجنبية، ثمنها مئة ليرة، يعطيها لابنته في الروضة، تتباهى بها أمام زميلاتها .

((ولا يخرج بها ولدك ليغيض ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك، إلا أن تغرف له منها))

ركبت مرة في سيارة إلى بيروت، وجلس إلى جانبي رجل معه كيس من الفستق وفواكه، يأكل طوال الطريق، وهذا الطفل الصغير يشتهي، أعطه موزة، هذا حمق، أنت تأكل أكلاً نفيساً أمام الناس في الطريق، أو في السيارة، ألا تراعي شعورهم؟ الطفل قد يشتهي هذه الأكلة، وليس عنده منها .

فموضوع الأولاد في المدرسة، لا تعط ابنك إلا الشيء المقبول والمعقول الذي يستطيعه كل الطلاب، تفاحة صغيرة، سندويش، قطعة من الحلوى وطنية ثمنها خمس ليرات، إذا كنت غنياً، فأطعمه في البيت، أما في المدرسة، فيجب أن تعطيه من مستوى البقية، لا يحدث بينهم تنافس .

((ولا يخرج بها ولدك ليغيض ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك، إلا أن تغرف له منها))

هذه أخلاق الجار .

أنعم بهذا الجار ولا تكن بخلافه :

قال لي أحد أخواننا: في غيابي حدث معه حادث سير، جارنا أخذ ابني إلى المستشفى ، وعالجه وأنهى الموضوع، وأرجعه إلى البيت، وأنا لا علم لي، هكذا الجوار، إذا كانت علاقة الإنسان مع الجيران طيبة جدا، يصيرون مثل الأهل، لو سافرت أسبوعاً، فأنت مطمئن، كل من حولك لك أهل، حياة الإيمان جميلة جداً، حياة فيها بحبوحة، فيها سرور، فيها راحة، أخطر شيء جارك، راعه، لا تؤذه، لا تشتك عليه .

قد يقول لك أحد الجيران: إذا أردت أن تبني غرفة: أنا لا مانع عندي، ولكن عليك بجيرانك، لا يتركونك تعمر، إذا كان في الأمر أذى، فهذا موضوع ثان، ولكن إذا لم يكن هناك أذى، صار هناك حب الأذى، إذا لم يكن هناك إيذاء للجار، فهذا الذي يسعى لإغاظة جاره، هذا عنده حب الأذى، قال أحد الشعراء:

حرٌّ ومذهب كل حر مذهبـي   ما كنت بالغاوي و لا بالمتعصبِ

يأبى فؤادي أن يميل إلى الأذى   حب الأذية من طباع الــعقربِ

لي أن أردّ مساءة بـــمساءة   لو أنني أرضى ببرق الــخلّبِ

حسب المسيء شعوره ومقاله   في سره: يا ليتني لم أذنـــبِ

إذًا:

((يَا أَبَا ذَرٍّ إِذَا طَبَخْتَ مَرَقَةً، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ))

وفي رواية أخرى عند مسلم، عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ:

((إِنَّ خَلِيلِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْصَانِي، إِذَا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُا، ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنْ جِيرَانِكَ، فَأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

وقائع :

سيدنا الصديق، كان يحلب الشياه لجيرانه العجائز، لما صار خليفة المسلمين، ليس من المعقول أن يستمر في ذلك، فدخل إلى قلبهم بعض الحزن، في صبيحة اليوم الأول من توليه الخلافة، طرق باب أحد الجيران،

((يا بنيتي افتحي الباب، قالت: من الطارق؟ قالت: جاء حالب الشياه يا أماه))

لم يتخلف يوم تولى الخلافة عن شياه جيرانه العجائز، وهو خليفة المسلمين .

أنا أرى أنه يمكن لأحدنا، أن يكون جاراً مثالياً، أولاً: يشجع الآخرين على أن يكونوا مثله بالعناية والرعاية والاهتمام، لك جار مسافر، أمّن له كل حاجاته في غيابه .

أعرف بناء في بعض أحياء دمشق، أنا والله معجب بأصحابه، عنده سهرة كل يوم الاثنين، يدعون كل يوم الاثنين، أحد علماء دمشق، سهرة وعشاء ودرس، كل جيران البناية من دون استثناء، يصلون كلهم في مسجد واحد، أقاموا حديقة في الطابق الأول للأطفال، مراجيح وألعاب، وأقاموا قاعة استقبال فخمة جدا، كل الأفراح والأتراح بهذا المكان والولائم، وأتوا بمولّد في حال انقطاع الكهرباء، يكفي البناء بأكمله .

أنا ما رأيت في الشام بناء منضبطاً، فيه خدمات عالية جداً كهذا البناء، بسبب تعاون الجيران، يتلقون العلم كل يوم الاثنين، ويصلون الجمعة في مسجد واحد، وعندهم كل يوم الاثنين دعوة، ولهم حديقة لأولادهم؛ شلال، وألعاب، ومراجيح، وقاعة استقبال فخمة لأفراحهم وأتراحهم، ومولد كهرباء، كأنهم يعيشون وحدهم، شيء جميل جداً .

لو أن كل بناية هكذا يفعلون، لاختلف الأمر، تجد خصومات من أجل الضوء الأوتوماتيكي، خصومات من أجل تنظيف الدرج، ودفع ثمنه، ما هذا المجتمع؟ .

ما مضمون هذه الأحاديث؟ :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْجَارُ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ: شَرُّهُ))

يخاف من جاره، هذا إنسان شرّير، إذا كان الناس يتقونك –لا سمح الله– هذه صفة مدح أو ذم؟ أنا عندي ذم .

وقد ورد في الحديث:

((إِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ))

تخاف من جارك، إذًا: هذا جار سيء جداً، لا بد أن تطمئن له .

وفي رواية أخرى مخيفة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

إلى جهنم .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَمْنَعْ جار جَارَهُ، أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ))

تطبيق عملي :

أذكر لكم قصة، ولكنها متواضعة، مرة كنت جالساً في بيتي، وكنت أسمع صوت طرق، ربع ساعة، نصف ساعة، ساعة، وبعد ذلك ما بقي شيء، هذا جار لي يبيع الزهورات ، حبست الزهورات عنده، ففتح فتحة في السور، والذي يحدث يحدث، فجاء على وجيبة بيتي ، فتح فتحة، فقال لي: أنا اختنقت الزهورات عندي، سامحنا، فقلت له: ولكن عندي نشر غسيل وعيال، قال لي: انظر لك حلاً، قلت: تضع لي لوح حديد مربع، بعيداً عن الحائط عشرة سنتيمترات، يستر النظر، ولكن لا يمنع التهوية، فقال: كما تريد، فصلّ ووضع الحديد .

أنا ما كنت أعرف الذي جرى، فصارت رائحة الزنبق طوال اليوم في البيت، وضع (الأسبيراتور) حتى يهوي مستودع الأزهار، أنا وافقت، لأنه جار، ومعه الحق، ولكن حتى لا أتأذى، قلت له: ضع لي حاجزاً من حديد، فوضعه بعيداً عن الحائط عشرين سنتيمتراً، حيث إذا مد الواحد رأسه، كل الزوايا ميتة، وهكذا لا مانع عندي، وأنت حلت مشكلتك، ركب (الأسبيراتور)، وخزّن الزنبق والورود، عشت سنتين أو ثلاثا، ثم تركت البيت، رائحة الزنبق طوال الليل والنهار في البيت .

أحياناً: الإنسان ينفع جاره، فيكرمه الله إكراماً شديداً، وصار بيننا مودة، من هذه الموافقة، هو مضطر، وأنا مضطر ألاّ أكشف، وجدنا حلاً وسطاً، هو تحققت مهمته، وأنا تلافيت الضرر، لا تكن ضد الجار، حاول أن تعينه، حاول أن تحل له مشكلته . فالحديث:

((لَا يَمْنَعْ أَحَدُكُمْ جَارَهُ، أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً فِي جِدَارِهِ))

لزمه أن يضعه خشبة أو مكيّفا، لا أتركه، ما هذا؟ .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

الأمير عبد القادر الجزائري، له جار فقير، اضطر أن يبيع بيته، دُفع له مبلغ قليل، فغضب، فقال:

((واللهِ لا أبيع جوار الأمير بثلاثمئة ذهباً، فأوصل أحدهم هذا الكلام للأمير، فبعث إليه، وقال له: خذ ثلاثمئة ليرة ذهباً، وابق جاراً لي))

أتمنى أن يكون كل واحد منا، أن يعيش في بيت أهل، تكون البناية أهلاً، فيها ود شديد وتعاون تهديهم .

اقرأ يا هذا :

كان أحدهم سليط اللسان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

((مَن يقض لسان فلان؟))

إن شاء الله ظننت أن تأتي بمقص وتقص لسانه، يمكن أن تقص لسانه بالإحسان إليه، إذا كان لك جار سفيه، فقدّم له هدية، تجده سكت وسكن، طريق إيجابي وسريع جداً، قدّم له هدية .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَهَادَوْا، فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ شِقَّ فِرْسِنِ شَاةٍ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

هكذا علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا خاف الرجل من جاره، فهذه مشكلة، لأن أقرب إنسان لك جارك، تخاف منه، لك عيال، ولك بنات، يخرجون ويدخلون، فهناك مشكلة، فلا أعتقد أن من مصلحة أي إنسان، أن يعادي جيرانه، يكون أحمق .

قف عند هذه النقطة :

هناك نقطة دقيقة، ورد في القرآن الكريم:

(وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)

[سورة النساء الآية: ١٩]

قال العلماء قولاً رائعاً، قالوا:

((ليست المعاشرة بالمعروف، أن تمتنع عن إيقاع الأذى بها ، بل أن تحتمل الأذى منها))

فإذا قسنا الأمر على ذلك، معاشرة الجار بالمعروف، لا أن تمتنع عن إيقاع به، بل أن تحتمل الأذى منه.

خاتمة القول :

أيها الأخوة، أرى مناسبة حزينة، الجار إلى جوار جاره، يفتح له بيته، هناك أعمال طيبة جدا، جميلة جدا، ولكن أتمنى أن يوجد كل واحد جيراناً من الطراز الأول، بالإحسان، واللطف، والتهنئة، والزيارة في العيد، وفي المناسبات .كنت مسافراً، وجئت بالتفاح، خذ له كيساً صغيراً، قد يكون أغنى منك، ولكن الهدية لها معنى كبير، أنه استفقدني، رأيت ابنه فأعنه، قدم له حلوى، هناك بالعكس، يده للضرب إذا أخطأ، هذا مثل ابنك، هذه توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم .

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُزَاعِيِّ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي جَارَيْنِ فَإِلَى أَيِّهِمَا أُهْدِي؟ قَالَ: إِلَى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَابًا))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَيْرُ الْأَصْحَابِ عِنْدَ اللَّهِ تعالى خَيْرُهُمْ لِصَاحِبِهِ، وَخَيْرُ الْجِيرَانِ عِنْدَ اللَّهِ تعالى خَيْرُهُمْ لِجَارِهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

درسنا اليوم: العناية بالجيران، لك جار سفيه، فإذا كان هو سفيهاً، فلك أجر أكبر، إذا كنت كاملا معه، لم يعد سفيهاً، استوعبه .

مرة ذكر لي رجل كبير في السن، توفي رحمه الله، قال لي: الجيد لا يريدك، أنت يريدك الرديء، باللغة العامية، كلام عميق، أنت يحتاجك رجل رديء، سفيه، شرس، تحتويه، توجّهه، وتكرمه، وتقدم له هدية، تزوره، تجده قد تلملم وانضبط، أنت قصصت له لسانه بالإحسان إليه، هذا سلوك الإنسان مع جاره .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينقلب هذا الدرس إلى واقع عملي .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٧٢-١٠١) : باب الرجاء - ما هو أكبر خطأ يرتكبه الإنسان بحق ربه؟ وبماذا أوصى النبي المسلم قبل أن يموت؟ وما مضمون هذا الحديث: أنا عند ظن عبدي بي....؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٥-٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

وسطية الإسلام :

أيها الأخوة الكرام، في درس سابق: تحدثت عن باب الخوف من كتاب رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، وقد وعدتكم قبل أسبوعين أو أكثر، أن أعالج في درس آخر باب الرجاء، لأن الإسلام متوازن، ولأن الإسلام وسطي، ولأن الحق وسط بين طرفين، وأن الفضيلة وسط بين رذيلتين، وأن التطرف انحراف، وأن الغلو في الدين مرفوض، وأن الإفراط مرفوض، والتفريط مرفوض .

الاعتدال، والوسطية، والتوازن، جوهر هذا الدين العظيم، الدين الواقعي، الدين الذي يتناسب مع الفطرة، فهناك دعاة إلى الله، يملؤون قلب أخوانهم خوفاً، لدرجة أنهم ييئسون من رحمة الله، وهناك دعاة إلى الله، يملؤون قلوب أخوانهم طمأنينة على معاصيهم، وأملاً بعفو الله عنهم على انحرافاتهم، وهؤلاء أيضاً تطرفوا، ولكن الأصل: أن يتوازن الإنسان بين الخوف والرجاء، أن يرجو الله، كما قال سيدنا عمر .

((لو أنزل الله أنه معذباً واحداً من خلقه، لخفت أن يكون أنا، ولو أنزل أنه راحم واحداً من خلقه، لتمنيت أن يكون أنا))

هذا الموقف الدقيق: أن ترجوه، وأن تخافه، وأن تحبه، وأن تخشاه، وأن تطيعه دون أن تطمع، وإن قصرت دون أن تيئس، هذا الموقف المتوازن، هو جوهر الدين .

في الدرس الماضي في هذه السلسلة، تحدثت عن الخوف، واليوم: أتحدث عن الرجاء.

مثال لتقريب الفكرة :

أيها الأخوة، كنت أقول من قبل: أن التجارة مجموعة نشاطات؛ شراء محل، شراء مستودع، تعيين موظفين، استيراد، مراسلات، توزيع البضاعة، جمع ثمنها، إجراء حسابات دقيقة، توزيع الأرباح، هذه نشاطات تجارية، كل هذه النشاطات لا قيمة لها، ولا جدوى منها، إن لم يكن هناك ربح، التجارة كلها فيها كلمة واحدة، يجب أن تربح، وإلا فلست تاجراً، والدين كله قياساً على هذا التمهيد.

يجب أن تتصل بالله، سعادتك في اتصالك، شعورك بالأمن باتصالك، التوفيق في الدنيا باتصالك، امتناعك من عدوك باتصالك، المعنويات المرتفعة باتصالك، تيسير أمورك في الدنيا باتصالك، قطف ثمار الدين من خلال اتصالك بالله .

لذلك: يا أيها الأخوة، كلام مختصر: أي شيء يقربك إلى الله ينبغي أن تفعله، وأي شيء يبعدك عن الله ينبغي أن تجتنبه، وليس إلا الله، وما من إله إلا الله؛ كل السعادة عنده، وكل التوفيق عنده، وكل الأمن عنده، وكل التيسير عنده، وكل جوانب الحياة الإيجابية عنده، فلذلك:

يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث المتفق عليه، -والحديث المتفق عليه من أعلى درجات الحديث-، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((يقول الله تعالى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي ملأ، ذَكَرْتُهُ فِي ملأ خَيْرٍ مِنْهُ، وَإِنْ تَقرَّبَ إِلَيَّ بشِبْرٍ، تَقرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه، عن أبي هريرة]

هل تظن أن الله يسلمك؟ هل تظن أن الله يضيع علمك؟ مستحيل.

معقول !:

جاءني أخ كريم قبل يومين، قال لي: أحمل شهادة عالية، أعمل عملاً فيه شبهة، فسألت عالماً عن حكم عملي في هذا المكان، فقال: حرام، سألت عالماً آخر قال: ابحث عن عمل آخر، فإذا وجدت العمل الآخر، دعك من العمل الأول، قال لي: أنا لم أحتمل أن أبقى في هذا العمل، بعد أن علمت أنه حرام، فتركته، ومضى علي سنة ونصف، ولم أجد عملاً، وكاد يبكي، قلت له: والله الذي لا إله إلا هو، لزوال الكون أهون على الله، من أن يضيعك الله عز وجل، تترك عملاً من أجله، وخوفاً منه، وابتغاء رضوانه وينساك؟! أهكذا أخلاق الله عز وجل؟ هكذا ظنك بالله؟

الله بيده كل شيء، بيده مقاليد السموات والأرض، بيده كل أبواب الرزق، قد يعطي إنساناً شارداً عنه ملايين ألوف الملايين، ولا يعطيك أنت، ولكن كل شيء له وقت، اصبر، ولا تخف، طمأنته .

أهكذا ظنك بالله؟! :

أيها الأخوة، يُقال:

((إن سيدنا موسى -هكذا ورد في الكتب- في سنة من سنوات الجفاف، دعا ربه بالسقيا، فقال الله له: يا موسى، إن فيكم عاصياً -يعني عدم نزول المطر بسبب معصية من أحدكم-، فقال سيدنا موسى لقومه: من كان عاصياً لله فليغادرنا، ثم نزلت الأمطار بغزارة كبيرة، دون أن يغادر أحد

من قوم موسى، -هكذا تروي الروايات-، قال: يا رب، من هذا الذي كان يعصيك؟ قال: عجبت لك يا موسى، أستره وهو عاص، وأفضحه وهو تائب؟!))

أيوجد واحد من عامة الناس ليس له جاهلية؟ عندما كان غارقاً بالمعاصي ستره الله، وتاب عليه، وحجب سيئاته عن الناس، وأظهر حسناته، فبعد أن تبت إلى الله، واستقمت على أمره، واصطلحت معه، أيعقل ألا توفق؟ قال تعالى:

(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آَمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

[سورة القصص الآية: ٥٧]

يعني: حينما كانوا يعبدون الأوثان، مكن الله لهم حرماً آمناً، فإذا آمنوا بالله يُتخطفون؟ أهذا منطق؟!.

أكثر الناس يقول لك: أنه إذا رجل يخشى من الله، ولم يودع ماله في مصرف ربوي، يتعرض للقتل في بيته، أهذه أفعال الله عز وجل؟ الذي يخاف الله يُقتل، والذي لا يخاف ولا يسأل يعيش بأمن، أهذا كلام مقبول؟! تطيعه وتخسر؟ تطيعه وتخاف؟ أهذا ظنك بالله عز وجل؟.

اسمع هذه الكلمة :

هناك كلمة لأحد المفسرين في معرض تفسير، قوله تعالى:

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٤]

كلمة رائعة، يقول صاحب التفسير:

((لو أنك اعتقدت: أن الله يضع أولياءه الذين أفنوا حياتهم في طاعته في النار، ويضع الذين ناصبوه العداء في الجنة، وكلا الأمرين عندك في الحسن سواء، ولا يرجح أحدهما، ولا ينفى الآخر، إلا بالخبر الصادق، فأنت لا تعرف الله، وقد ظننت بالله ظن السوء، وظننت به غير الحق ظن الجاهلية))

أيعقل أن يضع الله أولياءه المؤمنين، الذين أفنوا حياتهم في طاعته في النار؟ ماذا قال الله عز وجل؟:

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

[سورة سبأ الآية: ١٧]

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية الآية: ٢١]

أيها الأخوة، لو لم يكن في كتاب الله عز وجل، إلا هذه الآية لكفت، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية الآية: ٢١]

مستحيل، وألف ألف مستحيل، أن يُعامل المستقيم كالمنحرف، والطائع كالعاصي، والصادق كالكاذب، والمخلص كالخائن، والمنصف كالجاحد، مستحيل .

فيا أيها الأخوة المؤمنون، أبشروا، الأمر يحتاج إلى رجاء .

قصص تكاد لا تصدق! :

جرى في هذا المسجد عدة قصص، لغرابتها لا تُصدق: إنسان يحب الله ورسوله، مستقيم، يحفظ كتاب الله، يسعى جهده لخدمة أهل العلم، لكن هو شاب؛ لا شهادة، ولا بيت، ولا مأوى، ولا عمل، ولا مصلحة، ليس لديه أمل ولا بالمليار واحد، أن يسكن في بيت، ليس لديه شيء، ليس لديه قوت يومه، ولا من أجل أن يتزوج، في ليلة واحدة؛ بيت، بعده زواج، خطابة ، تدريس، بداية معهد، شيء غير معقول، بقدرة قادر .

هذه نقطة، يجب أن تكون أوضح من الشمس عندنا: مستحيل أن تعصيه وتربح، ومستحيل أن تطيعه وتخسر .

((وما ترك عبد شيئاً لله، إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

نزلت فلما استحكمت حلقاتها فُرجت وكان يُظن أنها لا تُفرج

يأتي مرض عضال، ثم يذهب وكأنه لم يكن، تأتي مشكلة اقتصادية طاحنة، تذهب وكأنها لم تكن، يجب أن تحسن الظن بالله، الإله العظيم لا يسلمك لأحد، ولن يضيع عليك عملك، وطبعاً: الله عز وجل لحكمة بالغة، يحب أن يعرف عباده، هو يعرفهم، ولكن يحب أن يعرفوا أنفسهم، يقربه من الخطر.

أحياناً: يمزح أب مع ابنه، يمسك يده فوق الماء، والأب متمكن، الابن على حسن ظنه بوالده .

من أيام الله :

أيها الأخوة:

((أيعدنا صاحبكم أن تُفتح علينا بلاد قيصر وكسرى، وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته؟))

أين هي بلاد قيصر وكسرى؟ الإسلام بقي له ساعات، وينتهي كله، لا رسالة، ولا دعوة، ولا قرآن، ولا نبي، ولا أحد، عشرة آلاف مقاتل، جاؤوا ليبيدوا المسلمين، عن طريق صحابي، عن طريق رجل من غطفان، اسمه: نعيم ابن مسعود .

كان رجلاً عادي، مستلقياً في خيمته، حاور نفسه، قال:

((يا نعيم، ما الذي جاء بك إلى هنا؟ -جاء من غطفان- هذا الرجل الذي جئت لتقاتله، لم يسفك دماً، ولم ينتهك عرضاً، ولم يغتصب مالاً، ألك عقل يا نعيم؟ أيعقل أن تقاتل رجلاً كهذا الرجل، وله أصحابه الكرام؟ -مناقشة دقيقة، وهو مستلق على فراشه، في خيمته، طبعاً الحرب قاب قوسين، هو زعيم غطفان، ما الذي جاء بك إلى هذا المكان؟ علام تقاتل هذا الرجل؟- .
فنهض وتوجه إلى معسكر المسلمين، ودخل على النبي الكريم، النبي قال له: نعيم ابن مسعود؟ قال: نعم جئتك لأسلم، لأشهد أنه لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، -أخذ قراراً رائعاً- قال له: مرني يا رسول الله، قال: أنك واحد لا تستطيع أن تفعل شيئاً، ولكن خذل عنا ما استطعت، -بذكاء رائع- ذهب نعيم إلى اليهود، –طبعاً: لم يعلموا بإسلامه-، نصحهم أن لا يتورطوا مع قريش في قتال، حتى يأخذوا منهم رهائن، وجاء قريش، وأخبرهم أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا مع المسلمين، وسيأخذون منكم رهائن، ويقدمونهم إلى محمد لقمة سائغة ليقتلهم، وهكذا وقع الشقاق بين الفريقين المتحالفين، وأرسل الله رياحاً قلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وأطفأت نارهم، وأرسل رياحاً عاتية، ملأت عيونهم غباراً، وكفى الله المؤمنين القتال، قال: هناك ابتلي المؤمنون، وزلزلوا زلزالاً شديداً))

قد يؤخر الله النصر، يؤخر الرزق، يؤخر الزواج، لا تقنط ولا تيأس، لك عند الله حق.

شخص يحسن الظن بربه :

أخٌ متقدم في السن في الثمانينات، زارني في البيت، وهو فقير، قال لي: معي ألف ليرة، هي لجامع النابلسي، قلت له: ليوم الجمعة، صل الجمعة، وادفعها إلى اللجنة، قال: طيب، استأذن في الذهاب، قلت له: سنضيفك كأس من الشاي، وقطعة حلوى، أكل أول لقمة، ودعا دعاء، واللهِ قد أبكاني، قال: سبحان من قسم لنا هذا، ولا ينسى من فضله أحداً .

احفظ هذا الدعاء، الله عز وجل لا ينسى من فضله أحداً، لك عنده حق أطعه .

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا   فإنا منحنا بالرضا من أحبنـــا
ولذ بحمانا واحــتم بجنابنـا   لنحميك ممـا فيه أشرار خلقنـا
وعن ذكرنـا لا يشغلنك شاغل   وأخلص لـنا تلق المسرة والهنـا
وسلم إلينا الأمر في كل ما يكن   فما القــرب والإبعاد إلا بأمرنـا

فيـا خجلي منه إذا هو قال لي أيـا عـبدنا ما قرأت كتابنـا؟
أما تستحي منا ويكفيك ما جرى؟ أما تختشي من عتبنا يوم جمعنا؟
أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً وتنظر مـا به جـاء وعدنــا؟
فأحبابنا اختاروا المحبة مذهبا وما خالفوا في مذهب الحب شرعنا
فلو شاهدت عيناك من حسننـا الذي رأوه لمـا وليت عنا لغيرنـا
ولو سـمعت أذنـاك حسن خطابنا خلعت عنك ثيـاب العجب وجئتنا
ولو ذقت من طعم المحبة ذرة عذرت الذي أضحى قتيـلاً بحبنـا
ولو نسمت من قربنـا لك نسمة لمت غريباً واشتياقاً لقربنـــا
ولو لاح من أنوارنـا لك لائـح ترك جميع الكائنات لأجلنـــا
فما حبنا سـهل وكل مـن ادعى سهولته قلنا لـه قد جهلتنـــا

أبشر يا مسلم :

أيها الأخوة، حسن الظن بالله، لا تخف، ما دمت مطيعاً لله، فلا تخف، لا تخش أحداً، الله معك، وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا وجدت الله ما فقدت شيئاً .

الناس أحياناً بحاجة إلى معنويات عالية، يسمح الله أحياناً للكفار أن يكونوا أقوياء، الحياة ألوان، المؤمنون يمتحنون أحياناً بالضعف، والغطرسة، والكبر، والغنى، والقوة، والسيطرة بيد الكفار، وهذا ما يجري في العالم اليوم، الذين يغرقون في الزنا، والشذوذ، والخمور، والمخدرات، بيدهم كل أسلحة العالم، مسيطرون .

يعني: معقول وزير الصحة البريطاني الحالي بمؤتمر صحفي يقول: أنا شاذ جنسياً! ما هذا؟ ما هذا الكلام؟ هؤلاء الذين بيدهم القوة الناتو، قال: هو شاذ جنسياً .

معقول أضخم مدينة بأمريكا، وأجمل مدينة، خمسة وسبعون بالمئة شاذون؛ نساء ونساء، ورجالٌ ورجال؟!، لم ألمح فيها إلا طفلا واحدًا، لا يوجد أطفال، الطرق كلها مغلقة، امرأة مع امرأة، ورجل مع رجل، هكذا أسرهم، هؤلاء الذين بيدهم القوة الآن، هذا شيء لا يدوم، يعني مستحيل وألف مستحيل، أن تنجح خططهم إلى ما لا نهاية، هذا يتناقض مع وجود الله، يعني لا ييأس أحد، لا يضعف أحد، قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٣٩]

أنت مع خالق الكون، مع من بيده كل شيء .

حقيقة اعلمها :

درسنا اليوم: الرجاء؛ إياك أن تضعف، إياك أن تستكين، إياك أن تخنع أبداً، ارفع رأسك يا أخي، أنت مؤمن، لا تنس هذه المقولة: إذا كان الله معك فمن عليك، قد يسخر الله عز وجل عدوك اللدود لخدمتك، فإذا لم تكن معه، يتخلى عنك أقرب الناس إليك، هذه حقيقة . لذلك:

((أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني))

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً)

[سورة الأحزاب الآية: ٤١]

ما معنى هذه الآية؟ :

أيها الأخوة، عندنا صلوات خمس، لكن ما معنى قوله تعالى:

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ)

[سورة المعارج الآية: ٢٣]

ألا يريد أن يعمل؟ ألا يريد أن يكسب قوت يومه؟ يريد أن ينام؟ .

قال بعض العلماء:

((على صلاتهم دائمون بالدعاء))

مع الله دائماً؛ قبل أي عمل، قبل أن يدخل إلى أي مكان، قبل أن يبدأ بأي عمل .

أنا أذكر قصة أتأثر فيها: طبيب جراح أعصاب متفوق جداً، يُعد من أوائل الجراحين في هذه البلدة، أول شيء يفعله، والمريض على طاولة العمليات، يصلي ركعتين لله عز وجل، وفي السجود يفتقر إلى الله؛ يا رب أعن، يا رب خذ بيدي، يا رب وفقن إلى إنجاح هذه العملية، والعمليات كلها بالدماغ، وله سمعة طيبة جداً، بافتقاره إلى الله تفوق .

((وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي))

إذا كان إلهك معك، ممن تخاف؟ من يجرؤ على أن ينالك بكلمة، إذا كان الله معك؟ .

((وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي))

فرصة للتائب :

أيها الأخوة،

((لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة))

لو فرضنا أنك تاجر، ولك عند رجل خمسمئة ألف بسند واحد، وضاع منك السند، قال لك: ائت بالسند، وخذ المبلغ، المبلغ ضخم، والسند ضاع منك، لم تترك مكان إلا وبحثت فيه، ثم وجدته، ألا تفرح؟ يتناسب الفرح مع الرقم .

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وَاللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ، يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ))

تقرب من ربك :

((وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا))

تقربت بركعتي صلاة، تقربت بغض البصر، تقربت بضبط اللسان، تقربت بإنفاق المال، تقربت بتربية أولادك، تقربت بالنصيحة لمسلم، تقربت بإتقان علمك، الطرق إلى الخلاق بعدد أنفاس الخلائق .

قد تجد مِلِكًا كل شيء بيده، ولكن ليس هناك طريق إليه، لا يمكن أن تقابله إطلاقاً، بيده كل شيء، والطرق إليه مغلقة، أما ملك الملوك، وهو الله عز وجل، فتح لك إليه طرائق بعدد أنفاس الخلائق، كلها سالكة إليه؛ غضَّ بصرك عن امرأة جميلة، طريق إلى الله، اصدق، قل الحق، ولو كان مراً، طريق إلى الله، كن أميناً .

أقسم لي رجل بالله على ورقة قال: أعدتُ إلى أسرة عشرين مليون ليرة، لا يعلمون أين هي، مات والدهم فجأة بحادث، وقد أعطاني إياها كي أستثمرها، ولا يعلمون عنها شيئاً، سمع درس الأمانة بجامع العثمان، فرد هذا المبلغ لورثة هذا الرجل، ولا يعلمون عنها شيئاً .

هذا طريق إلى الله، إذا كنت أميناً، طريق إلى الله، العفة طريق إلى الله، الصدق طريق إلى الله، إتقان علمك طريق إلى الله، فالطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق .

((وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا))

خالق يتقرب منك، تتودد إليه، يتودد إليك، تذكره يذكرك، تكرم عباده يكرمك، تذكره في ملأ، يذكرك في ملأ خير منهم، تنفق ينفق عليك .

استنتج :

أخ من أخواننا، له ابن عم دكتور في الجامعة، توفي بمرض، قال لي: إنه سأل أولاده أعليه دين؟ قالوا: نعم، قال في نفسه: لعله خمسة وعشرون ألفاً، في اليوم التالي سأل: كم الدين؟ قالوا: مائة وثلاثون ألفاً، قال: دفعتهم عداً ونقداً لوجه الله، قال لي: والله في يوم السبت ربحي الصافي من يوم واحد مئة وثلاثون ألفًا، تكلم بهذه القصة في صحن المسجد وبكى .

أعرف رجلاً، أنفق مبلغًا لوجه الله، المبلغ جيد، قال لي: والله ما مضى عدة أشهر، حتى رُزقت عشرة أضعافه .

((أنفقْ أنفق عليك))

((أنفق بلالاً، ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً))

أنفق لا تخف، إذا أراد الإنسان أن ينفق ثم أحجم، معناها دخل فيه إبليس:

((خبي قرشك الأبيض ليومك الأسود))

هذا كلام إبليس .

إبليس له كلمات كثيرة يقول لك:

((امش في جنازة، ولا تمش في زواج))

أي من أخذ أمي فهو عمي، معناها هو منافق، أيضاً كلام إبليس، اعملوا إحصاء لكلمات إبليس، كلها كلمات إبليس،

((فخار يكسر بعضه))

كلام إبليس، هذه الكلمات كلها تنفر الناس من العمل الصالح.

ما مفهوم هذا الكلام؟ :

((من خالط الناس، وصبر على أذاهم خير ممن لم يخالطهم، ولم يصبر على أذاهم))

لو كانت العزلة لها مليون ميزة، مضار الاجتماع مع الناس له مليون فضيلة، يكفي أنك لوحدك، ليس لك عمل صالح؛ يا رب أنا آمنت بك، ماذا فعلت من أجلي؟ ما فعلت شيء، أما ممكن أن تخالط الناس فتنزعج، قد يحمدون وقد لا يحمدن لك عملك، قد يتهمونك ظلماً وبهتاناً.

يروى أن سيدنا موسى بالمناجاة قال:

((يا رب لا تبقي لي عدواً، قال: يا موسى هذه ليست لي))

أليس لله أعداء؟ وصف الله فقال: أعداء الله .

النقطة الدقيقة: أنك عندما تقرب من الله، تلق مودة من الله عز وجل.

أنا أستحلفكم بالله واحدًا وَاحدًا، ما من إنسان اصطلح مع الله، إلا شاهد من الله ودٌّ عجيب؛ تيسير أمور، راحة، صار إنسان آخر في بيته، في عمله، قويت شخصيته، أصبحت رؤيته واضحة، صار كلامه سديد محبوب، ألقى الله حبه في قلوب الخلق، لم يكن هكذا .

فلذلك: قناعتي فيما يشد الناس إلى الدين، ليس هي أفكار الدين، أفكار الدين سهلة، وواضحة، وصحيحة، لكن لا تكفي الأفكار كي تشدك إلى الدين، الذي يشدك إلى الدين معاملة الله لك، التي بُنيت على توبتك له، معاملة جديدة.

((وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه، عن أبي هريرة]

فكلما قربت خطوة، اقترب منك عشر خطوات، الشبر ذراع، والذراع باع، مشيت هرولة.
هذا الحديث يلقي في قلبك التفاؤل والثقة، بأن الله يحبك .
سمعت مرةً كلمة أعجبتني: الدعاء يقوي العقيدة، قد يكون الإنسان واقعًا في ورطة، في أزمة، فلجأ إلى الله، ليس له إلا الله عز وجل، فيريه الله رأي العين، كيف أنه صار مستثنى من أي إجراء صعب، هذه لكرامتك عنده .

ما معنى هذا الحديث؟ :

حديث آخر في باب الرجاء: عَنْ جَابِرٍ، أنه سمع النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ وَفَاتِهِ بِثَلَاثَة أيام يَقُولُ:

((لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ، إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بالله عز وجل))

سأضرب مثلاً، ولكن مضحك: معقول مجند في جيش ضخم، ووالده هو قائد الجيش، أعلى قائد، جاء واحد عريف فهدده، فبكى؟ معناها: أنه أحمق .

إذا كنت مستقيمًا، وأنت مع الله عز وجل، وجاء إنسان فخوفك، أو إنسان هددك، وأنت صدقته، معنى ذلك: أنت لا تعرف عن الله شيئاً، الله بيده كل شيء، هذا هو الإيمان .

هناك للأنبياء مواقف عجيبة؛ سيدنا موسى مع شرذمة، يعني عدد قليل من بني إسرائيل هاربون، من وراءهم؟ فرعون، وما أدراك ما فرعون؟ فرعون بجبروته، ببطشه، بقوته، بجنوده، بأسلحتهم، وهم شرذمة قليلون، وإنهم لنا لغائظون .

فقال أصحاب موسى: إنا لمدركون، انتهينا، أمامنا بحر، لا أمل لنا، الأمل صفر، قال تعالى:

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء الآية: ٦١-٦٢]

أصبح البحر طريقاً يبساً، فعبره موسى وأصحابه، فلما خرجوا من البحر، دخل فرعون، وهو في الوسط، عاد البحر بحراً، غرق فرعون، هذه قدرة الله عز وجل .

إذاً:

((لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ، إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ بِاللَّهِ الظَّنَّ))

هذه (لا) ما إعرابها؟ ناهية جازمة، يعني ينهانا الله عز وجل عن أن نموت، فهل الموت بأيدينا؟ هكذا الإعراب، لا: ناهية جازمة، يموتن: فعل مضارع مجزوم بلا، الموت ليس بيدك، معنى هذا الحديث: لا يأتينك الموت إلا وأنت تحسن الظن بالله، يعني: كن دائماً محسناً الظن بالله عز وجل .

إليكم نظرة المؤمنين إلى الله جل جلاله، وإلى نظرة الغرب إليه :

أيها الأخوة، من أجل أن تحسن الظن بالله ينبغي أن تعرفه، الإله العظيم في الغرب خلاق فقط، أما عند المؤمنين فعَّال، قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ)

[سورة الزخرف الآية: ٨٤]

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)

[سورة هود الآية: ١٢٣]

انتبه إلى هنا :

أيها الأخوة، هناك قضايا في بعض القصص القرآنية، قد لا ننتبه لها، لما قال الله عز وجل لأم موسى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)

[سورة القصص الآية: ٧]

تمعن بهذه الآية: إذا خفت عليه فألقيه في اليم، فهل معقول هذا الكلام؟ في اليم، ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك .

هذا الصندوق الذي فيه طفل في اليم بنهر النيل من يسيره؟ الله عز وجل .

إذا كان صندوق صغير بتسيير الله، وهو في النهر، وسار الصندوق، واقترب من قصر فرعون، واعترضه غصن فوقف، وألقى الله في روع امرأة فرعون، أن انزلي إلى الساحل، فإذا بصندوق، ففتحته، فإذا فيه طفل، ألقى الله حبه في قلبه، قال تعالى:

(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

[سورة القصص الآية: ٩]

بكى، حرمنا عليه المراضع، تحريم منع لا تحريم شرع، أم موسى قالت لأخته:

(قصيه)

تتبعي أخباره . الشيء مستحيل بالمنطق، الإنسان يخاف على ابنه، فيلقيه في البحر، والبحر يقوده إلى قصر، ويقود امرأة فرعون إلى ساحة القصر، وترى هذا الصندوق، وتفتح الصندوق، فترى سيدنا موسى، ألقى الله في قلبها حبه، منعت قتله، ثم كبر هذا الطفل، وصار نبياً مرسلاً، وأزال ملك فرعون .

رأى فرعون في المنام، أن طفلاً من بني إسرائيل، سوف يقضي على ملكه، القضية سهلة جداً، فأمر بقتل كل أبناء بني إسرائيل، هذا الطفل الذي سيقضي على ملكه، رباه في قصره وهو لا يدري.

[فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا]

يا الله! إذا كان الإنسان على حق، ما أعظمه!، إذا كان على حق، كان على الصواب، كان على منهج الله عز وجل، إياك أن تكون خاطئاً .

عش مع معنى هذه الآية :

أيها الأخوة، هناك آية حيرتني فترة، قال:

[إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما، وإن تظاهرا عليه، فإن الله هو مولاه ظهيراً]

[سورة التحريم الآية: ٤]

معقول من أجل امرأتين، استنفر بلد معينة، فيها جيش، وفيها طيران، وفيها بحرية، وفيها أجهزة أمن، وفيها شرطة، وفيها وزراء، معقول إذا امرأتان اعترضوا على شيء، نستنفر القوى الجوية، والقوى البرية، والبحرية، والشرطة، والأمن، معقول؟ لا يتناسب، فما معنى الآية؟ .

امرأتان ضعيفتان، إن تتوبا إلى الله فقد صغت .

المعنى: إذا أردت أيها الإنسان، أن تحارب الله ورسوله، اعرف من هو الطرف الآخر، هذا الذي يريد أن يكيد للمؤمن، أن يطعن في الدين، أن يمنع بيوت الله، أن يُذكر فيها اسمه، أن يسعى في خرابها، هذا الذي يريد أن يكيد المسلمين، هل يعلم من هو الطرف الآخر؟ من هو خصمه؟ .

يمكن لرجل واحد، أن يقف أمام دولة عظمى، أيقدر؟ أنتم ترون دولة عظمى تقصف ولا تذر شيئاً، أيقدر رجل واحد يقف أمامها؟ هذا مثل بسيط، فإذا كان الإنسان يريد أن يقف في وجه الدين، يريد أن يمنع عملاً طيباً، أن يمنع علماً يريد أن ينتشر، أن يمنع مسجد فيه ذكر لله عز وجل، اعلم من هو الطرف الآخر؟ من هو خصمك؟ .

إذا كان الشرطي العادي، لا يجرؤ على أن يضربه، يقول لك: هذا ابن دولة، لا تجرؤ عليه، تستطيع أن تضرب واحدًا عاديًا؟ لا تستطيع، الدولة كلها معه، بالميزان اليومي تعرف من وراءه، فلذلك: حينما يريد الإنسان أن يعتدي على أهل الحق، من وراءهم؟ الله جل جلاله.

ما هو محتوى هذا الحديث؟ :

أيها الأخوة، الحديث الأخير في هذا الدرس: عن أَنَس بْنَ مَالِكٍ قَالَ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ، يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[أخرجه الترمذي في سننه]

((يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي، -يعني: إنك إن دعوتني ورجوتني-، غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيك .

-يعني: مهما كنت فاعلاً من السيئات، مهما تكن سيئاتك كثيرة، على ما أنت عليه، من إسراف في المعاصي والآثام- .

يَا بْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

البطولة: أن تتوب إلى الله والقلب ينبض، أما عند الغرغرة، لا توبة، وهو على فراش الموت، تُقبل توبة العبد ما لم يغرغر .

إذا دخل في النزع لا يوجد توبة، يعني يجب على الإنسان أن يدرك نفسه، ما دام في بحبوحة العيش، ما دام يمشي على قدمين، ما دام أعطاه الله أمل، فعليه بالتوبة.

اقرأ هذا الحديث مرة ثانية :

نعيده مرة ثانية: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:

((يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي، غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً))

[أخرجه الترمذي في سننه]

قصص تلفت النظر :

رويت قصة، وأعدتها مرتين أو ثلاثا، ولكنها مناسبة الآن: رجل كان له أرض في شمال جدة، فلما توسعت مدينة جدة، وصلت إلى أرضه، هو بدوي، نزل ليبيعها، مكتب عقاري خبيث جداً، اشتراها منه بربع القيمة، ضحكوا عليه، عمروها بناية من اثني عشر طابقًا، أول شريك وقع من على العمارة فمات، والثاني دهسته سيارة، وانتبه الثالث أنه سبب الحادثة هو المال الحرام، الذي أخذوه من هذا البدوي، بحث عن صاحب الأرض ستة أشهر، حتى وصل إليه، ونقده ثلاثة أضعاف حصته، قال له البدوي: ترى أنت لحقت حالك .

أدركوا أنفسكم، ممكن كل شيء له حل الآن .

كان ثمة رجل يأكل مالاً حرامًا في معمل، قال لي صاحب العمل: لم أكن أعرف هذا السارق، فرَّغت شخصاً يراقبه، فلم يظهر معي، وينقصني بضاعة ومال، أضع ألفين ثم تختفي من جيبي، وهو يراقب المعطف طوال النهار، يبدو أن يده خفيفة جداً، وذكي ذكاء شيطاني طبعاً .

قال لي: دخل علي رجل بعد عشر سنوات، قال له: أنا كنت عاملاً عندك، وكنت أسرق من معملك، وجئتك تائباً، فأي شيء تريده، فسوف أدفعه لك، قال: والله لك أن تعود إلى المعمل موظفًا، وأنا سامحتك .

هناك حالات كثيرة ....

لي قريب توفي رحمه الله، لديه محل حلويات، قال لي: إن شخصاً دخل عليه، فألقى ظرفًا وخرج، فتحه، فإذا فيه ثمن قطعة حلوى أكلت منذ عشرين عاماً، دون أن يدفع ثمنها، فيبدو أنه تاب إلى الله عز وجل .

إذا مات الرجل، فيستطيع أن يدفع التائب المبلغ المأخوذ صدقة عنه، يصبح الإنسان بريئًا، كل شيء يُحل .

أذكر أن إنساناً اغتصب جزءًا من أرض، ولما أراد أن يحج إلى بيت الله، استسمح من أصحابها، وعرض عليهم ثمنها، وهذا أيضاً أدرك نفسه .

فأنت اعمل جردًا، ماذا عليك من حقوق قديمة؟ سجلها وأدرك نفسك، كما قال البدوي: ترى أنت لحقت حالك، فمن الممكن للإنسان أن يصلح كل شيء .

سائل يسأل :

سؤال أنا لم أفهمه، قال: إذا لقيت شخصاً، لا يوجد في قلبه تقبل للإسلام، فطمأنته لذنوبه كي يتوب فتاب، هل يجوز؟ .

نعم يجوز، إذا أنت طمعته برحمة الله، وهونت له ذنوبه، فتاب من ذنوبه، هذا عمل طيب.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٧٣-١٠١) : باب تحريم العقوق وقطيعة الرحم - هل يعتبر عاق الوالدين من المعصية الكبيرة أم الصغيرة؟ وما عاقبته في الشريعة الإسلامية؟ وما المنزلة التي استحقها قاطع الرحم أيضاً؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٥-٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

ما سبق ذكره وما أضيف إليه :

لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، وننتقل اليوم إلى باب جديد، وهو: باب تحريم العقوق وقطيعة الرحم .

يقول الله عز وجل:

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ)

[سورة محمد الآية: ٢٢-٢٣]

صلة الرحم تزيد في الرزق، صلة الرحم تزيد في العمر، بمعنى فسره الفقهاء: أن العمر بمضمونه وبأعماله، لا بفترته وزمانه، فصلة الرحم تكسب العمر غنى، يظهر أثره يوم القيامة، فلذلك: الرحم مَن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله، قال تعالى:

(فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ)

[سورة محمد الآية: ٢٢-٢٣]

لذلك ورد:

((ليعمل العاقُّ ما شاء أن يعمل، فلن يدخل الجنة))

وقد ذكرت لكم في الدرس السابق أنه: لو أن في اللغة كلمة أقلّ من أفّ، لذكرها الله عز وجل، قال تعالى:

(الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)

[سورة البقرة الآية: ٢٧]

أمرَ الله أن توصل الرحم، وهم يقطعونها . وقال تعالى:

(وَقضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣-٢٤]

وقال تعالى:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

[سورة النساء الآية: ٣١]

قطيعة الرحم، وعقوق الوالدين من الكبائر .

النبي صلى الله عليه وسلم حينما سئل:

((من أعظم النساء حقاً على الرجل؟ قال: أمه، فلما سئل: من أعظم الرجال حقاً على المرأة؟ قال: زوجها))

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ لَا يَسْكُتُ))

من أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ: عقوق الوالدين .

ما مغزى هذه القصص؟ :

أحد أخواننا الكرام، أراد أن ينشئ لابنه عملاً في مصر، أسس له معملاً بسيطاً، فهذا الابن رُبّي تربية إيمانية، في أحد الأيام وهو راكب سيارته، يبدو أنه كان متعباً تعباً شديداً، اصطدم بسيارة ثانية، السيارة الثانية فيها إنسان، يزيد عمره على التسعين، من الصدمة توفاه الله، فمعه هاتف خلوي، اتصل بالمعمل، بموظفي المعمل، هكذا حصل، ماذا أفعل؟ فقالوا: دعك في مكانك، وسنأتيك، بعد فترة بسيطة، جاء موظفو المعمل، وتوجهوا جميعاً إلى مخفر الشرطة، هؤلاء الموظفون توجهوا مباشرة إلى مخفر الشرطة، وفعلوا شيئاً، وجاؤوا إلى مكان الحادث، قال: فلما وصلت إلى مخفر الشرطة، سألني الضابط: ماذا حدث؟ فذكرت له الذي حدث، لم يتكلم ولا كلمة، قال: اكتب ووقع على الضبط، الضبط بخلاف ما وقع، أنت بريء مئة في المئة، لست مداناً إطلاقاً، قال: ولكن هذا الذي كتبته لم يحدث، أنا تسببت في موته، وكنت متعباً، ليس هو الذي صدمني، أنا

الذي صدمته، قال له: عجيب! لم يكن في حياتي إنسان، أردت أن أخلصه، وأراد أن يوقع نفسه، قال: هذه شهادة زور، لا أفعله، وأنا أدفع علي من تبعات .

أرأيت إلى الإيمان؟ هذا الضابط صعق، هل من الممكن لإنسان كتب لك ضبطاً، وخلصتك نهائياً، وتذهب إلى البيت، وأنت تريد أن تجعل نفسك متسبباً في موت إنسان؟ قال له : هكذا، القصة طويلة، دفع الدية كاملة، وعيّن أولاده في المعمل، وأعطاه مكافأة، وصار صديق العائلة، لاستقامته، شهادة الزور تقلب الحق باطلاً، والباطل حقاً .

((أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ، فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ، فَمَا زَالَ يَقُولُهَا حَتَّى قُلْتُ لَا يَسْكُتُ))

عدل ساعة يعدل عند الله، أن تعبده ثمانين عاماً، إذا وطّنا أنفسنا على أن نقول كلمة العدل، وألا تأخذنا في الله لومة لائم، أحبنا الله عز وجل، أما إذا اعتدى بعضنا على بعض عن طريق شهادة زور، أبغضنا الله عز وجل .

حدثني شخص أن عنده مشكلة، وله شاهد، فقال الشاهد: أريد خمسة آلاف، واشهد لك بما تريد، ثم فجأة قال له: أريد عشرة، قال له: قد قلت: أريد خمسة، قال: هناك حلف يمين على المصحف، سيحلف على المصحف كذباً، قال: عشرة، المجتمع الذي يشهد شهادة الزور هذا لا شأن له عند الله عز وجل .

هناك قصص كثيرة جداً، حينما يشهد الإنسان شهادة الحق .

حدثني شخص، هو أخ من الحجاز، قال لي: في موسم الحج دية المقتول بالسيارة مئتا ألف ريال، وديته في غير موسم الحج مئة ألف، قال: كنت راكباً سيارتي، طبعا الطريق أوتستراد، في طريق فرعي، ظهرت سيارة شاحنة صغيرة، لما رآني وقف، فلما وقف تابعت سيري، لما تابعت سيري خرج، فحدث حادث، وراح ضحيته ثلاثة قتلى، قال لي: الدية ستمئة ألف ريال، جاءت الشرطة، هذا البدوي السائق قال: الحق علي، هو قصر سرعته لما رآني، فلما رآني وقفت، تابع سيره، وأنا أخطأت وخرجت، بهذه الشهادة ألغيت عنه كل الديات، هذه شهادة حق .

أحياناً: يشهد الإنسان شهادة حق، قال: والله هذا البدوي كبر في عيني، أكرمه إكراماً كبيراً، إنسان يستطيع أن يبتز منك ستمئة ألف ريال، تقريباً ثمانية ملايين ليرة سورية، ولكن هو قانع قناعة تامة، أن الحق عليه، لا علاقة له، فالإنسان حينما يقول كلمة الحق، يسعد بها إلى أبد الآبدين .

لحظة تفكير سعد بها إلى أبد الآبدين :

مرة صحابي جليل، اسمه نعيم بن مسعود، جاء ليقاتل النبي صلى الله عليه وسلم في معركة الخندق، هو من زعماء غطفان، جلس في خيمته، صار بينه وبين نفسه حوار، وهذا الحوار سبب سعادته الأبدية، قال:

((ما الذي جاء بك يا نعيم؟ لك عقل راجح، أيعقل أن تقاتل هذا الرجل، لم يسفك دماً، ولم يغتصب عرضاً، ولم يأخذ مالاً، وأصحابه كذلك؟ علام تقاتله؟ ماذا فعل حتى تقاتله؟ -حوار- .

يقول: إنه أمضى نصف الليل وهو يحاور نفسه، أيليق برجل له عقل كعقلك، أن يقاتل هذا الرجل؟

قال: فنهض، وتوجه إلى معسكر المسلمين، والتقى النبي صلى الله عليه وسلم، قال له: نعيم؟

قال: نعم، قال: من الذي جاء بك إلينا؟ قال: جئت مسلماً، جئت لأشهد أنه لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فرح به النبي صلى الله عليه وسلم، قال: مرني يا رسول الله، ماذا أفعل؟ قال: أنت واحد خذّل عنا، -هل تصدقون أن الإسلام بقي له ساعات حتى ينتهي نهائياً؟- .

فهذا الصحابي الجليل، ذهب على اليهود، وتكلم كلاماً ذكياً جداً، وذهب إلى قريش، وتكلم كلاماً طيباً، ووقع الشقاق بين قريش واليهود، وأرسل الله رياحاً عاصفة، قلبت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، واقتلعت خيامهم، وانتهت المعركة بانصراف المشركين عن المسلمين، وكفى الله المؤمنين القتال))

صار نعيم صحابياً جليلاً، صار سيّدًا، لأنه فكر، وكل واحد منا أحيانا يمشي مع التيار ، الناس فعلوا هذا يفعله، ركبوا هذا الصحن فيركبّه، لبس نساؤهم ثياباً فاضحة، يقول: هكذا الموضة، مع التيار، وهناك إنسان يفكر، أنا مسلم، هذه زوجتي، وسأحاسَب عنها، هذه ابنتي، وسأحاسب عنها، هذا لا يجوز، وهذا يجوز، بهذا التفكير السديد يسعد ويرقى عند الله عز وجل .

من الكبائر :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الْكَبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

اليمين الغموس ليس لها كفارة، لأنها تغمس صاحبها في النار، من حلف يمينا ليقتطع بها حق أخ مسلم، فيمينه يمين غموس، ولا كفارة له، هناك يمين لغو، ويمين منعقدة، ويمين غموس، اليمين الغموس تحلفها، لتقتطع بها حق أخ مسلم .

فالكبائر كما قال صلى الله عليه وسلم:

((الْكَبَائِرُ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَالْيَمِينُ الْغَمُوسُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

احفظ هذا الحديث :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مِنْ الْكَبَائِرِ: شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَهَلْ يَشْتِمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

كل إنسان يسيء إلى الآخرين، يتسبب في مسبة والده، وهذا اسمه: سد الذرائع، قال تعالى:

(وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ)

[سورة الأنعام الآية: ١٠٨]

أحياناً: المجنون يستفزه إنسان فيسب الدين، أنت السبب، ما دام مجنوناً، وكلما استفززته سبّ الله، وسبّ الدين، فكأنك أنت الذي سببت، وهذا يفعله معظم الناس، إنسان مختل يستفزونه، يعلمون بالضبط ما الذي يثيره، يستفزونه، فإذا به يشتم الأنبياء، ويشتم الإله، وهكذا.

وفي رواية أخرى: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

((إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْكَبَائِرِ، أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَيْفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ؟ قَالَ: يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ، فيسب أمه))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

ما يجب عليك أن تفعله :

وعَنْ أبي محمد بن جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

((لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ))

قَالَ سُفْيَانُ في روايته:

((يَعْنِي قَاطِعَ رَحِمٍ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

وهذا الشيء واقع، لك أخت متزوجة من زوج فقير، هي خارج اهتمامك، لا بد أن تزورك من حين لآخر، حينما تلبي دعوة أهل الدنيا، حينما تلبي دعوة الأغنياء والأقوياء، هذا من الدنيا، أما حينما تصل رحمك، تزور أختك، أختك تسكن في التلّ، اذهب إلى زيارتها يوم الجمعة، خذ معك أكلة طيبة، واذهب لزيارتها، تعتز بك، تفتخر أمام زوجها، تجبر خاطرها، أجمل شيء الأسر

المتماسكة، ليست البطولة أن تزور أختك دائماً، إذا كان زوجها غنياً، البطولة أن تصل الإنسان الفقير، الإنسان الذي في الدرجة السفلى في المجتمع، هذا زيارته و صلته، ترفع من شأنه .

ما حرم عليكم :

عَنْ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ، أن النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

((إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعَ وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

((قِيلَ وَقَالَ، -العيّ، يستنفذ طاقاته في موضوعات جانبية جداً، لا تقدم ولا تؤخر-، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ))

لو أنك استقمت على أمر الله، لرأيت كل ثمار الإيمان، أسئلة دقيقة جداً، وكثيرة جداً، ومحرجة جداً، يمطرها الإنسان ترفاً، وقد يعرف الجواب، قضية ترف .

((إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَوَأْدَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعَ وَهَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

ماذا عن هذا الكلام؟ :

أيها الأخوة، قال تعالى:

(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً)

[سورة النساء الآية: ٣١]

أحد العلماء، وهو الإمام الذهبي المشهور -رحمه الله – له كتاب الكبائر، جمع سبعين كبيرة، والإنسان يجب أن يعلم ما الكبائر؟ قد يفعل الكبائر، ويظنها صغائر، قد يفعلها، ويحسبها صغائر، وهي كبائر، والقاعدة:

((الذنب مهما كان صغيراً، إذا أصررت عليه، انقلب كبيراً، ولا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار))

والصغيرة إذا حرفت مقودك درجة سنتيمتر واحد هذه الصغيرة، إصلاحها سهل، ولكن لو ثبتّ الانحراف، تهوي إلى الوادي، كالكبيرة تماماً، الكبيرة حرف المقود تسعين درجة، فجأة يصير في الوادي، أما الصغيرة فحرفها سنتيمترًا واحداً، ثبّتناه، نصير بعد فترة في الوادي، فالصغائر إذا أصررت عليها انقلبت إلى كبائر، لذلك: إذا ارتكب الإنسان معصية، مهما بدت صغيرة، وأراد أن

يستمر عليها، هذه المعصية الصغيرة هي عند الله كبيرة، وكلما صغر الذنب في نفسك كبر عند الله، وكلما استعظمت الذنب صغر عند الله .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٧٤-١٠١) : باب: كتاب السلام - كيفية التعامل في فهم النصوص من الكتاب والسنة مع ذكر أمثلة من السنة على ذلك- من وسائل الدعوة إلى الله؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٥-٣٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أيها الأخوة الكرام، المؤمن والمسلم يتعامل مع النصوص، لأن دينه وحيٌ، والوحي هو القرآن، والنبيُّ عليه الصلاة و السلام بيَّن القرآن، فأنت مع نصَّين؛ كتابٍ وسنة، فتعامل المؤمن في شأن دينه، في الأعمِّ الأغلب مع النصوص، وأهمُّ شيء في التعامل مع النصوص: أن تفهمها فهماً صحيحاً، لذلك: تأويل الأحاديث منحة إلهية كبيرة، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ)

[سورة يوسف الآية: ٢١]

وقال تعالى:

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ)

[سورة الأنبياء الآية: ٧٩]

أي منحة كبيرة جدًّا جدًّا، أن يعينك اللهُ على فهم النص كما ينبغي، فهم النص كما أراده قائلُه؛ إن كان قرآناً كما أراده اللهُ عز وجل، وإن كان سنةً كما أرادها النبيُّ عليه الصلاة والسلام . أيها الأخوة، هذه المقدِّمة قدَّمت بها .

إليكم المراد من هذا الحديث :

أيها الأخوة، يقول عليه الصلاة والسلام، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ، لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ: تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

كلام النبيِّ، المؤمن القوي، أي قويٌّ في علمه، قويٌّ في ماله، قويٌّ في منصبه، القوة أنواعٌ ثلاثة: إما انك عالمٌ، وكما تعلمون العالِم مرجع العالَم كله، ورؤساء الدول في العالم لا يتَّخذون قراراً إلا بعد أن يسألوا أهلَ الخبرة، وأهل الخبرة وأهل العلم يضعون الخيارات أمامهم، فكل إنسان يريد أن

يأخذ قراراً صحيحاً، وأن يقف موقفاً صحيحاً، عليه أن يسأل أهل الخبرة، وربُّنا عز وجل قال: إذا كانت القضية متعلّقة بالدين:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنبياء الآية: ٧]

والقضية إن كانت متعلّقة بالآخرة، قال تعالى:

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)

[سورة الفرقان الآية: ٥٩]

أنت أمام عالِميْن؛ عالم دنيوي وعالم أخروي، في شأن معرفة الله، والإقبال عليه، والوصول إليه، وبلوغ محبَّته، عليك أن تسأل به خبيراً، قال تعالى:

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً)

[سورة الفرقان الآية: ٥٩]

وفي شؤون الدنيا، عليك أن تسأل أهل الذكر الذين يعلمون، قال تعالى:

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ)

[سورة الأنبياء الآية: ٧]

العلمُ قوةٌ، قوة كبيرة، ماذا يسمُّون هذا العصرَ؟ عصر المعلوماتية؛ أي كثافة المعلومات، شيءٌ لا يُصدَّق، وأيُّ حركة صحيحة تحتاج إلى معلومات صحيحة، وأيُّ قرار صحيح يحتاج إلى معلومات صحيحة، وأيُّ موقف قويٍّ يحتاج إلى معلومات صحيحة، فالعلمُ قوةٌ، والمالُ قوةٌ، المال قوام الحياة، واللهُ عز وجل جعل المالَ قوام الحياة، واللهُ عز وجل جعله نعمة، قال تعالى:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى * وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

[سورة الضحى الآية: ٦-٨]

أنا كنت ذكرتُ سابقا: أن هناك فقر الكسل وهو مذموم، وفقر القدر وهو فيه معذور، وعندنا فقر الإنفاق الممدوحُ، الذي ينفق ماله ليلا ونهارا قد يفتقر، هذا الفقر الممدوح .

عَنْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قال:

((أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَتَصَدَّقَ، وَوَافَقَ ذَلِكَ مني مَالًا، فَقُلْتُ: الْيَوْمَ أَسْبِقُ أَبَا بَكْرٍ، إِنْ سَبَقْتُهُ، قَالَ: فَجِئْتُ بِنِصْفِ مَالِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟ قُلْتُ: مِثْلَهُ، وَأَتَى أَبُو بَكْرٍ بِكُلِّ مَا عِنْدَهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟ قَالَ: أَبْقَيْتُ لَهُمْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، قُلْتُ: لَا أَسْبِقُهُ إِلَى شَيْءٍ أَبَدًا))

[أخرجه أبو داود والترمذي عن عمر بن الخطاب في سننهما]

فقر الكسل مذموم، وفقر القدر معذور، وفقر الإنفاق محمود، فالمالُ قوة، والعلمُ قوة، و أن تكون في منصبٍ حسَّاس تنفع المسلمين، مدير مستشفى، مدير جامعة، مدير مثلا تربية، الأمور كلها بيدك، تصدر القرار الصحيح، الذي يعود خيرُه على المسلمين أيضا، هذا شيءٌ محمود .

إليكم عملية الربط العلمي الصحيح في فهم هذين النصين :

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قال: فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الأغنياء بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا، يَا عَائِشَةُ لَا تَرُدِّي الْمِسْكِينَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، يَا عَائِشَةُ أَحِبِّي الْمَسَاكِينَ وَقَرِّبِيهِمْ، يُقَرِّبُكِ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك في سننه]

وقبل قليل حديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ، لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ: تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

ثم عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قال: فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الأغنياء بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا، يَا عَائِشَةُ لَا تَرُدِّي الْمِسْكِينَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، يَا عَائِشَةُ أَحِبِّي الْمَسَاكِينَ وَقَرِّبِيهِمْ، يُقَرِّبُكِ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك في سننه]

أي إذا أحبَّ الإنسان أن يقلّل من شأن إنسان، يقول لك: درويش، مسكين، ليس بيده شيءٌ، هذا مفهوم الجميع، فكيف نوفّق أن النبيَّ تمنى أن يكون مسكيناً، وأن يُحشر مع المساكين، وبين قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ، لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ: تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة]

هكذا فهمُ النصوص، أي إذا كانت القوةُ سبيلُها معصية الله مرحبًا بالضعف، إذا لم يوجد إلا سبيل واحد للقوة، أن أدفع ديني ثمنًا لها، لا واللهِ، ديني أغلى، أبقى ضعيفا، ولا أضحّي بديني، إذا كان سبيلُ الغنى كسبَ المال الحرام، لا واللهِ، أبقى فقيرا مسكينا، ولا أضحِّي بديني، والنبيُّ علّمنا إذا

بإمكانك أن تكون قويًّا، وأنت في منهج الله، وأنت تطيع اللهَ عز وجل، فالقوة جيِّدة، وبإمكانك أن تكون غنيًّا من طريق مشروع، فالغنى جيِّد، وبإمكانك أن تكون عالما، لكن في طريق صحيح، فالعلمُ ضروري، أما إذا كان طريقُ القوة أن تبيع دينك، أن تكون منافقا، إذا كان طريقُ المال أن تكون آكلاً للمال الحرام، واللهِ أنعِمْ بالفقر، وأنعِم بالضعف، هنا المعنى، أيْ مسكين حينما تجد طريقَ القوة، طريقَ المعصية، طريق التضحية بدينك، الآلاف من الأشخاص في سبيل دنياهم ضحُّوا بدينهم، فلعنهم اللهُ، ولعنتهم الملائكةُ، و لعنهم الناسُ أجمعين .

طبعًا ذكرتُ هذا كتمهيد، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قال: فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ: إِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الأغنياء بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا، يَا عَائِشَةُ لَا تَرُدِّي الْمِسْكِينَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، يَا عَائِشَةُ أَحِبِّي الْمَسَاكِينَ وَقرِّبيهمْ، يُقرِّبُكِ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك في سننه]

أي حينما يكون طريقُ القوة متلبِّسا بالمعصية، حينما يكون الغنى عن طريق المال الحرام، وحينما تكون القوةُ عن طريق بيع الدين، حينما يكون العلمُ عن طريق الولاء لغير المؤمنين.

عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قال: فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ: إِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ الأغنياء بِأَرْبَعِينَ خَرِيفًا، يَا عَائِشَةُ لَا تَرُدِّي الْمِسْكِينَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، يَا عَائِشَةُ أَحِبِّي الْمَسَاكِينَ وَقرِّبيهمْ، يُقرِّبُكِ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

[أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك في سننه]

هكذا توازن .

إليكم هذا المثال من أحاديث رسول الله الذي يتوهم القارئ أن فيها تناقض:

أيها الأخوة، وأحيانا تجد في الأحاديث ما يشبه التناقضَ .

عَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ، عن المقداد:

((أَنَّ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ، فَعَمِدَ الْمِقْدَادُ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَكَانَ رَجُلًا ضَخْمًا، وجَعَلَ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ الْحَصْبَاءَ، فَقَالَ عُثْمَانُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا رَأَيْتُمْ الْمَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمْ التُّرَابَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

النبيُّ عليه الصلاة و السلام يذمُّ المدَّاحين ثم يقول:

((المؤمن إذا مُدِح، ربا الإيمان في قلبه))

أي: نما، كيف نجمع بين الحديثين؟ القضية بسيطة، إذا مدحتَ إنساناً جاهلاً، يعتدُّ بنفسه، ويستعلي بمديحه، ويصدِّق أنه إنسان عظيم، فأنت أعنتَه على الكِبر، أما إذا مدحت مؤمناً، يرى فضلَ الله عليك، يزداد حبَّ لله عز وجل، ويزداد تواضعا، ويزداد عطاءً، إذا مؤمن فامدحْه، المديحُ يرفع معنوياته
.

عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ:

((أَنَّ رَجُلًا، كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرَّ رجُل، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَأُحِبُّ هَذَا، فَقَالَ لَهُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَعْلَمْتَهُ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَأَعْلِمْهُ، فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّكَ فِي اللَّهِ، قَالَ: أَحَبَّكَ الله الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ))

[أخرجه أبو داود عن أنس بن مالك في سننه]

إذا كنت تحبُّ أخًا أخلاقه عالية، وسمتُه حسنٌ، واستقامته جيِّدة، لِمَ تضنُّ عليه بكلمات الحبِّ؟ قل له: يا فلان، واللهِ إني لأحبك في الله، يقول لك: أحبك الذي أحببتني فيه، إذا كانت عندك مشاعر نبيلة فلا تُخفِها، أظهرها، وإذا أظهرتها يشتدُّ الودُّ بين المؤمنين، ونحن في أمسِّ الحاجة إلى مجتمع مؤمن، متماسك، قوي، قال تعالى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ)

[سورة الأنفال الآية: ٤٦]

قبل هذا الدرس، كنتُ في لقاء، ذكرتُ: أنك إذا دعوتَ إلى الله مخلصا اتَّبعت، أما إذا دعوتَ إلى ذاتك بدعوة مغلَّفة بالدعوة إلى الله ابتدعتَ، المخلص يتَّبع، وغير المخلص الذي يدعو إلى ذاته يبتدع، من أجل أن تنفرد، ومن أجل أن تقول: ليس في الأرض مثلي، لا بدَّ من أن تبتدع، شيءٌ في الدين لم يرد .

فهناك دعوةٌ إلى الله خالصة، وهناك دعوة إلى الذات مغلَّفة بالدعوة إلى الله، فالدعوة إلى الله من خصائصها: الاتِّباع، والدعوة إلى الذات من خصائصها: الابتداع، أن تأتيَ بشيء ليس من الدين، الدعوة إلى الله من خصائصها: التعاونُ، والدعوة إلى الذات من خصائصها: التنافسُ، الدعوة إلى الله من خصائصها: الإنصافُ، أن تثني على ما عند الآخرين بالفضل، و الدعوة إلى الذات من خصائصها: الجحودُ، أن تجحد ما عند الآخرين، فهناك دعوتان؛ دعوة إلى الله خالصة، ودعوة إلى الذات مغلَّفة بالدعوة إلى الله .

إذًا: إذا مدحتَ المؤمنَ، ربا الإيمانُ في قلبه، رأى فضلَ الله عليك، قال تعالى:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء الآية: ١١٣]

أما إذا مدحتَ المنافق، تاهَ بمديحك، واستعلى، ونسيَ اللهَ عز وجل، لذلك: المدَّاحون كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إذَا رَأَيْتُمْ الْمَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمْ التُّرَابَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أما إذا مدحت مؤمناً، رَبا الإيمان في قلبه، هذه أمثلة فيما يبدو أنه فيها تناقض بين الأحاديث .

حديث جرى :

موضوعنا اليوم: من كتاب رياض الصالحين، من كلام سيِّد المرسلين، عليه أتمُّ الصلاة و التسليم، والباب: كتاب السلام .

حدَّثني رجلٌ، عاش في فرنسا حقبةً من الزمن، قال لي: الشيءُ العجيب، أينما التقيتَ بأيِّ إنسان، يسلِّم عليك، قلتُ: واللهِ هذا ديننُا، ومع الأسف الشديد أن نقصِّر في تطبيق ديننا، ويأتي أهلُ الدنيا من خلال عقولهم، ومن خلال عاداتٍ وتقاليد، يطبِّقون ما في ديننا، وحينما ذهبتُ إلى أمريكا، الذي وجدتُه أن كلَّ شيءٍ إيجابي إسلامي، دون أن يشعروا، قادهم ذكاؤهم إلى أن يطبِّقوا تعاليم الدين، لا عن إيمان بالله أبدا، ولا عن إيمان بالآخرة أبدا، ولا عن حبٍّ للمسلمين أبدا، عظمة هذا الدين أنه موضوعي، ومعنى موضوعي: أن الملحِد لو طبَّقه، لقطف ثمارَه في الدنيا، لو طبَّقه الملحِدُ، لقطف كلَّ ثماره في الدنيا، لكن قال تعالى:

(فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آَتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ)

[سورة البقرة الآية: ٢٠٠]

قصة اختيار درسنا اليوم :

سببُ اختياري هذا الدرس: أن أحدَ إخواننا الكرام، قبل أن يصطلح مع الله، يعمل في المكان، وحوله زملاء كلُّهم شاردون عن الله عز وجل، في شرود، اصطلح مع الله، وذاق طعمَ القرب، وأقبل على الله، وتبدَّلت حياتُه رأساً على عقب، وغيَّر اتّجاهه -كما يقال-: مئة وثمانين درجة، قال لي أحدهم، وأراد أن يبالغ: غيَّر اتّجاهه ثلاثمائة وستين درجة، معنى ذلك: أنه ما فعل شيئا، أحياناً الإنسانُ يريد أن يبالغ، فيقع في التناقض .

قال لي شخص، وهو قارئ للقرآن، قال: إن إنساناً أراد أن يتقرَّب مني، فتمثَّل ببيت من الشَّعر، ولكن أخطأ في حركة واحدة، فعكسَ المعنى، قال:

أحبُّ الصالحين ولستَ منهم لعلي أن أنال بهم شفاعة
وأكره مَن بضاعته المعاصي ولو كنا سواءً في البضاعة

هي: أحب الصالحين ولستُ منهم، هذا كلام الإمام الشافعي، أحب الصالحين ولستُ منهم تواضعا، هو منهم واللهِ، لكن تواضعا .

فهذا الشاب، أراد أن يتقرَّب إلى قارئ القرآن، فقال: أحب الصالحين ولستَ منهم، رأيتم: كيف أنّ لغتَنا دقيقة؟ حركة واحدة، قلبت المعنى رأسا على عقب.

رجل آخر، كان في وليمة، فأكل كثيرًا، وله تلاميذ، سيدي ثقلتَ، والنبيُّ قال:

((مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ؛ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ))

فنظر إليهم وقال: كلٌّ منا أدرى بثلثه .

ورجل آخر، أراد أن يقلّد الذين يتحدَّثون في العلم، كلُّ هؤلاء الناس صعدوا إلى القمر، قال في نفسه: غيِّرْ أنت، قال: يا بني صعدوا إلى الشمس، وهناك تلميذ فهيمٌ، فقال له: يا سيدي، الشمس لسان، لها طول مليون كيلومتر، فزوَّر له كلمة، وقال له: بالليل .

هذا الأخ كان مثل هؤلاء الناس، من حوله زملاء شاردون عن الله عز وجل، اهتدى إلى الله، واصطلح معه، وغيَّر اتِّجاهه الكلّي، واللهُ عز وجل أكرمه بسعادة كبيرة جدًّا، من وفائه لأصدقائه، تمنى لهم الهداية، هذا الصديق شارد جدًّا، وقد يكون علمانيا، وأتمنى أن أقول: بدل كلمة علماني، جهلاني، كلمة علم لا تليق بواحد يحارب الدينَ، نسميه: جهلانيا على الأصح، هذه مصطلحات كلُّها غلطٌ، مجتمع الفسق، والفجور، والزنا، والانحراف، والخمر يسمُّونه: مجتمع المخملة، وأنا أسمِّيه: مجتمع جنطيز، أبشع أنواع الأقمشة .

وعلى كلٍّ؛ هذا الأخ لما رأى أصدقاءه، يتمنى لهم الهداية إلى الجامع ليأتوا، ولا يقرؤون كتب الدين، ولا يسمعون شريطًا، لكن لو دعاهم إلى طعام نفيس يأتون، فاستخدم الولائمَ سبيلا إلى هدايتهم، دعاهم إلى الطعام، ودعا أخا كريما حدَّثهم عن ربِّهم، على جلستين ، وثلاث، وأربع، وخمس، وعشر، أصبح أكثرهم في هذا المسجد عن طريق إطعام الطعام .

اتبع هذه الدعوة :

أيها الأخوة، هذا الحديث حيَّرني طوال حياتي، سئل عليه الصلاة والسلام عن أفضل الإسلام، فقال:

((إطعام الطعام))

ليس إطعام الطعام هكذا بسذاجة، أن تبتغي من إطعام الطعام جلبَ الإنسان، وتقريبَه، وجمع الناس. هناك أخٌ من أخواننا، واللهِ أخٌ كريم بسيط، يعمل في دمشق، ونُقِل عملُه إلى الكويت، وهو هنا ألِف الدروسَ؛ الجمعة، والسبت، والأحد، والاثنين، وأخوان طيِّبين طاهرين، وجوّ إيماني، وهناك اشتغل

في فندق، أين الثرى من الثُّريا؟ وهو متحرِّق لهداية الناس، هو يعمل في مصبغة، بمستوى عالٍ جدًّا، فندق خمس نجوم، كيف يهدي ما حولَه من الموظَّفين؟ فاسمعوها مني من دون تعليق .

قال لي: أكلة الفول نادرة هناك، فأصنع لهم أكلة الفول بالدرجة الأولى، وتكلِّفني، ثم أدعوهم إلى عَشاء في البيت، ما يتخلَّف أحد، أسمعهم شريطا كلّ خميس، أو كل جمعة يدعوهم لعشاء، ويسمعهم الشريطَ، فصار إطعامُ الطعام هادفًا .

وأحياناً: تصنع وليمةً تدعو الناسَ، بيتك يتكلم بالحق، وبيتُك يؤلِّف القلوبَ، وبيتك يجمع الناسَ، وبيتك ينوِّر قلوبهم، لعلَّ طريقَ العقل يبدأ من الفم، ولمَّا النبيُّ سئِل عن أفضل الإسلام؟ قال:

((إطعام الطعام))

كثير من الأخوة، يطبِّقون هذا الشيءَ، ما يقبل أخٌ أن يقعد بالجامع فرضًا، هو بعيد عن جوِّ الجامع، لا يقبل، أما ادعُه إلى بيتك لسهرة، يأتي على عشاء، ويأتي على ضيافة كريمة مثلا، وأنت تستغلُّ المناسبة، وتدعوه إلى الله عز وجل، فكلُّ الذي أنفقتَه هو في سبيل الله، كلُّ المال الذي أنفقته في سبيل تأليف قلبه، هو في سبيل الله، نسميها: دعوةً ذكية إلى الله عز وجل، وهناك دعوات ساذجة، وهناك دعوات ذكية .

هناك تعبيرٌ نبوي، يقول عليه الصلاة والسلام:

((أبضِع تبع))

نوِّع بضاعتك تبع، كذلك الدعوة تحتاج إلى تنويع، هناك درس عام، وهناك درس خاص، وهناك سهرة، وهناك نزهة، ووليمة، الهدف واحد، الهدف جمعُ الناس، وتقريبهم إلى الله، وإشاعة الألفة بينهم، فهناك أعمال ذكية جدًّا؛ مظهرها وليمة، ومظهرها سهرة، ومظهرها نزهة، هي لا وليمة، ولا سهرة، ولا نزهة، هي دعوة إلى الله ذكية، وهناك دعوة ساذجة .

يقول لك: ليس لي وقت فارغ، يقول الحجَّاجُ، وقد مرَّ على صاحب دكَّان، يبيع قدورًا، رآه يصلي قاعدا، طلب منه قدرا في أعلى الدكان، أتى بالسُّلم وصعد، قال له: عفوا التالي، فنزل ورجع صاعدا للمرة الثانية، قال: ما انتبهت عليه، هذا الذي على اليمين، نزَّله عشر مرات، قال له: تصلِّي قاعدا، أما في البيع والشراء فنشيط جدًّا .

الشخص أحيانا يقول لك: لست فارغاً لك، وأحياناً: تسمعه الحقَّ بشكل مركّز ومباشر، يتثاءب أو ينام، اشتهيتُ أن أجد إنساناً واحداً، أن يكون له من الخمس مئات مثلي، ليس أحد مثلي أبدا، وأحيانا يعدُّ اثنتين مع بعضها، ليس مثلي أبداً .

فأنا قصدي: أن هناك دعوة ذكية إلى الله عز وجل، ممكن أن تدعو الناسَ إلى وليمة، إلى طعام، وإلى نزهة، وأنت تنوي هدايتهم، وتنوي تعريفهم بالله، وتنوي بأن تأخذ بأيديهم إلى الله .

في الحقيقة: أخوة كثُر فعلوا هذا، وكان لفعلهم أثرٌ كبير، هذا معنى إطعام الطعام، إطعام الطعام بشكل هادئ، أن تتخذ من إطعام الطعام وسيلةً لهدايتهم، واللهُ عز وجل يعوِّض لك أضعافاً مضاعفة.

اتخذ أخاً لك في الله :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَيُّ الْإِسْلَامِ خَيْرٌ؟ قَالَ: تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في صحيحهما]

الدرس العام جيِّد جدًّا، ولكن يأتي أخٌ أحياناً لا يعرفه أحدٌ، ولا يعرف أحدًا، يغيب شهراً، لا يسأل عنه أحدٌ، ليس له علاقات مع الأخوة الكرام، وأحياناً: تجد شخصاً تدعوه إلى البيت، وتكرمه، وتضيِّفه، وتحدِّثه بحادثة، فصار بينكم ألفةٌ، لما يأتي إلى الدرس، في نيته أن يرى أخاه، وأنا حريص على أن تكون علاقات المسجد طيِّبة جدًّا، يكون لكم أخوان بالمسجد، والإنسان يعيش مع أخوانه، وأحيانا تكون الأخوَّة إما على أساس جغرافي، وإما على أساس حِرفي، إما هناك قرابة، وإما هناك حرفة، وإما هناك جوار، إذا فقدَ الإنسان أخًا .

النبيُّ علَّمنا اللهم صلِّ عليه، أخوان تآخيا في الله اثنين اثنين، هذا الكلام ذكرته كثيراً جدًّا، أتمنى عليكم، وأتمنى واللهِ، وأشدِّد: أن تتخِذ أخًا واحداً مبدئيًّا، أخا في الله حقيقي، تسأل عنه إذا غاب، ويسأل عنك إذا غبتَ، تتفقَّدهُ ويتفقَّدك، وتنصحه وينصحك، تزوره ويزورك، تتَّصل به هاتفيا، ويتَّصل بك .

تقليد في مصر لا حرج في اتباعه :

أيها الأخوة، مثلاً: بعض الأخوان على مشارف الزواج، وأنا ذكرتُ موضوعًا في درس سابق، ولكن الآن سأذكره بالتفصيل .

كنتُ مرة في مصر، فوجدتُ هناك تقليدا رائعا جدًّا، إنسان يريد أن يتزوَّج، أحدُ أصدقائه يتولى إدارة الهدايا، يسأل من كان على وشك الزواج ماذا تحتاج؟ القائمة طويلة، يحتاج إلى ثرية، وإلى برَّاد، ليس برَّاد شاي، ويحتاج إلى غسَّالة، ويحتاج إلى سجَّادة، يحتاج إلى مطبخ، وإلى الحاجات كلها، وأيُّ إنسان يقدِّم له هدية، يرجع إلى المسؤول عنه، يقول له: أرني القائمة، أنا أجلب الثرية،

هو نوى ألفي ليرة، وثمنها أربعة آلاف، أنا أدفع تمام الثرية، فلا تأتي الهديّةُ إلا في مكانها، عندك قائمة الحاجيات، طبعا بالمعقول، وكلُّ إنسان يريد أن يقدِّم هدية .

أنا أتمنى أن تُطبَّق هنا في المسجد، أيُّ إنسان مقدم على زواج، تأتيه هدايا عشوائية، كلُّ واحدة بثمنها، أحيانا يأتي الواحد بثلاثين صينية، صينية واحدة، وما عنده ثريات، تأتي مثلا حاجاتٌ متكرِّرة، ثماني ساعات حائط، وليس عنده غسالة، قضية عشوائية، إذا أنت نويت تقديم هدية لأخيك، لماذا لا تمسكه؟ أي أخ تزوج، ما المانع أن كلَّ إنسان يعرفه، يهديه هديةً من دون استثناء؟ كلُّ إنسان يعرفه، هذه الهدية موضوع ديْن، وسوف يُؤدَّى هذا الديْنُ على التراخي، فإذا تزوج الإنسان، استلم هذا الموضوعَ أخٌ، فما أحد يقدِّم هديَّةً لهذا الأخ إلا عن طريق المسؤول عن الهدايا، ومعه قائمة تفصيلية، يحب ثلاثة أن يشتركوا في سجَّادة، خمسة في برَّاد مثلا، واحد قدَّم فرضًا أدوات المطبخ، أو خمسة قدَّموا، حيث إن كلَّ الهدايا تصُبُّ في حاجيات الإنسان الأساسية، هذا من باب:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

فهذه دعوة ذكية إلى الله، أنك أنت تؤلِّف القلوبَ بإطعام الطعام .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَهَادَوْا، فَإِنَّ الْهَدِيَّةَ تُذْهِبُ وَحَرَ الصَّدْرِ، وَلَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا، وَلَوْ شِقَّ فِرْسِنِ شَاةٍ))

[أخرجه الترمذي عن أبي هريرة في سننه]

أن تقدِّم هديَّةً، وأخوك يردُّ لك بهدية.

((أيُّ الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت، ومن لم تعرف))

أنا أتمنى كلَّما كانت علاقاتكم وشيجة، ومحبَّتُكم وافرةً، أحبَّكم اللهُ عز وجل، واللهُ في عون العبد، ما كان العبدُ في عون أخيه .

يمكن أن تكون مشكلةُ الإنسان في عشرة آلاف، عشرة أشخاص، خمسة أشخاص، يحلُّون مشكلتها خلال ساعة، ممكن مشكلتُه في خمسين ألفًا، عشرة أشخاص يحلُّون مشكلتها، مستوى أعلى، أما هذا التعاون فهو عنوان الدين الصحيح، وأنت أمام أمرٍ إلهي، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

إذًا: معنى إطعامُ الطعام ليست قضية أن تدعوه، وكسرت له عينه، رأى بيتنا، ورأى ترتيباتنا، ورأى طبخَ زوجتي، وأكلا من الدرجة الأولى، أكلَ وهو خجِلٌ، هذا إطعام الطعام لوجه الشيطان،

أما إطعام الطعام لوجه الرحمن، فأن تطعم أخاك لتقرِّبه منك، ولتؤلّف قلبه، أكثر شيء المسافرون، المسافر إذا استقبلتَه، ورحَّبت به، وأطعمتَه، تترك أثرا عميقا جدًّا .

ما يتعلق بمفهوم الأخوة في الإسلام :

أيها الأخوة، نحن أَلِفنا عادات بالية، أن نسلّم على من نعرف، أما النبيُّ فيقول:

((على من عرفت، ومن لم تعرف))

السلام عليكم، يقول لك: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، والسلام: اسمُ اللهِ عز وجل، وهو السلام، فإذا سلّمتَ على أخيك، ملأتَ قلبَه أمنًا وطمأنينة .

عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((أَمَرَنَا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَبْعٍ، وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ، أَمَرَنَا بِاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، وَعِيَادَةِ الْمَرِيضِ، وَإِجَابَةِ الدَّاعِي، وَنَصْرِ الْمَظْلُومِ، وَإِبْرَارِ الْقَسَمِ، وَرَدِّ السَّلَامِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَنَهَانَا عَنْ آنِيَةِ الْفِضَّةِ، وَخَاتَمِ الذَّهَبِ، وَالْحَرِيرِ، وَالدِّيبَاجِ، وَالْقَسِّيِّ، وَالْإِسْتَبْرَقِ))

معنى ذلك: أن النبيَّ عليه الصلاة والسلام، كلُّ شيء يقرِّب الأخَ من أخيه أمرك به، و كلُّ شيء يبعِد الأخَ عن أخيه نهاك عنه، أنت لك علاقة مع الحقِّ، ومع الخلق، سنَّة النبيِّ كلُّ شيء يقرِّبك إلى الحق أمرك به، وكلّ شيء يبعدك عن الله نهاك عنه، وكلُّ شيء يقرِّبك من أخيك أمرك به، وكلُّ شيء يبعدك عن أخيك نهاك عنه،

((وَعِيَادَةِ الْمَرِيضِ))

أيها الأخوة، لا يعلم أحدٌ إلا اللهُ: كم من الخير يكون في عيادة المريض؟ المريض موصول بالله عز وجل، عنده شفافية كبيرة جدًّا، يأتي الأخُ المؤمنُ فيعوده، ودعاءُ الأخ العائد للمريض لا يُردُّ، ذكرت هذا في دروس سابقة، دعاء الأخ المؤمن لأخيه؛ ما لم يكن مرض الموت بالشفاء لا يُردُّ، واتّباعُ الجنائز، وتشميت العاطس، ونصر الضعيف، وعون المظلوم، وإفشاء السلام، وإبرار المقسم، أي إذا أقسم الإنسانُ فينبغي أن تبرَّ قسَمه، لا أن تجعله يحنث.

وفي الحديث الصحيح: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ، إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

يعني: أن السلام معه الحبُّ، والحُبُّ معه استقامة .

والقاعدة الثابتة:

((أن أخويْن أقربُهما إلى الله، أشدُّهما حبًّا لصاحبه، ولا تنقطع هذه الصلةُ إلا بذنبٍ أصابه أحدُهما))

اِبحثْ عن أيِّ علاقة ضعُفت، أو عن أيّ علاقة فسدتْ، سببُها: أن الاثنين أو أن أحدَهما وقع في ذنبٍ .

أيها الأخوة الكرام، كلامي دقيق، ألف تصرُّف ذكيٍّ، وحكيم، وصادق، وحار، يشُدُّ أخاك إليك، وتصرُّف واحد أحمق يقطعه عنك، والمؤمن يصل ولا يقطع، يقرِّب ولا يبعِّد، يحبِّب ولا ينفِّر، قبل أن تخلف وعدَك معه فكِّر، وقبل أن توعدَه، هل بإمكانك أن تنفِّذ وعدك؟ من الناس من عنده الوعد سهلٌ، يعِد ويترك الناسَ يعيشون في أحلام تحقيق الوعد، ثم يخلف، فإذا أخلف الوعدَ، سقطت قيمةُ هذا الذي وعد، ولو كان ديِّناً .

أنا أعتقد أن كلَّ من انتكس عن الدين، بسبب معاملة سيِّئة تلقَّاها من أحد المؤمنين، فأنت سفيرُ هذا الدين، فقبل أن تمزَح مزحةً جارحة، وقبل أن تسخر، وقبل أن تعلِّق تعليقا سخيفا، وقبل أن تتطاول، فكِّر أن هذا الذي أمامك، إن قرَّبتَه إلى الله، كانت كلُّ أعماله في صحيفتك، وإن أبعدتَه عن الله، كانت كلُّ سيِّئاته في صحيفتك .

عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ قال، قال رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ، إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أنا أتألَّم ألما شديدا، لما المسلمون يستعملون السلام الأجنبيِّ BYE، ما معنى هذه BYE؟ كلام لا معنى له، ولا تستح بإسلامك، وهناك كلمات أخرى يستخدمها غيرُ المسلمين من باب التفرنج، ومن باب التقعر، ومن باب تقليد الأجانب، أردتَ أن تقيم احتفالا لابنتك الصغيرة، وأن تدعوَ صديقاتها، فاجعَلْ عنوان الاحتفال عيدَ المولد، لا عيد ميلاد، كنْ إسلاميًّا، دعوة الأصدقاء ممكنة، وإطعام الطعام ممكن، ولكن ليس على أساس عيد ميلاد، على أساس عيد مولد .

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن سَلَامٍ قَالَ:

((أول ما قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ، انْجَفَل الناس إليه، فكنتُ فيمن جاءه، فلما تأمَّلْتُ وجهه واسْتَثْبَتُّه، عرفتُ أنَّ وجهه ليس بوجهِ كَذَّاب، قال: فكان أولَ ما سمعتُ من كلامِهِ، أن قال: يا أيُّها الناس، أفْشُوا السلام، وأطعموا الطعام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام))

[أخرجه الترمذي في سننه]

نهاية المطاف :

أيها الأخوة، بعد ذلك نحن صار عندنا فكرٌ مادي، كلمة البركة لا نعرفها، أو ربما لا نصدِّقها، أو ربما لا ندخلها في حساباتنا .

يقول لي شخص: صنعتُ طعاماً لوجه الله، أقسم بالله أكلناها اثني عشر يوماً بعد ما انتهت الدعوة، شيءٌ جميل، واللهُ عز وجل يطرح البركة في هذا الطعام، ضيَّفتَ، وألّفت القلوبَ، وأحبَّك الناسُ، وأكلت بعدها اثني عشر يوماً .

مرَّةً دُعينا إلى عقد قران، وفي هذا العقد طعام العشاء، في مزرعة كبيرة جدًّا خارج دمشق، المدعوُّون ألف شخص، ورجل من أخواننا قال: واللهِ أنا حضرت دفعة من الطعام مليون ليرة، كلُّ مدعوٍّ ألف ليرة، أنواع منوَّعة من الطعام، أنا وجدت الطعامَ الذي أُكل لا يجاوز الخمسَ بالضبط، لكن أنا تريَّثتُ، ما حكمت، ثم سألت بعد أيام، ماذا حصل للطعام؟ فقيل لي: أُخذ الطعام، ووُضِع في علبٍ في البرَّادات، وأكله يُتمٌ قرابة عشرين يوماً، قيل لي: حبة أرزٍّ واحدة لم تذهب هدراً، من الذي دفع هذا الثمنَ؟ رجلٌ من أهل الغنى، دفع مليون ليرة مقابل ذلك لتزويج الشباب، أطعم الطعام، وألَّف القلوبَ، وأكل هذا الطعامَ أيتامٌ، ودفع مقابل ذلك مليون ليرة، ما عليه مأخذٌ، العبرةُ: أن إطعام الطعام يؤلّف القلوب، ويجمع الشَّملَ، وقد يُستخدَم إطعام الطعام وسيلة للدعوة إلى الله عز وجل، واللهُ ربُّ النوايا .

أحياناً: تأخذ إنساناً إلى النزهةِ، وفي نيَّتك أن تقرِّبه إلى الله .

والآن: كنتُ أقول دائماً: الطرف الآخر غنيٌّ جدًّا أجانب وأقوياء، ويستخدمون أساليب ذكية في خطف أبنائنا وشبابنا، فالمسلم يجب أن يكون أذكى، وأن يستخدم وسائل ذكية وحضارية لجلب الصغار، وتحبيبهم للإسلام، والأطفال مستقبل الأمة، والذي أراه لا شيءَ في الحياة، ليس هناك من عملٍ، يعلو على تربية الأولاد، لأن الكبار بالسنِّ يمثّلون الماضي، والكهولَ يمثّلون الحاضرَ، أما الصغار فيمثّلون المستقبل، وبقدر رعايتهم، وتحبيبهم الدين، أنا أتألّم ألمًا لا حدود له، من إنسان نهرَ طفلا من المسجد، هذا السنُّ يشكّل عُقدا أحيانا، وأحيانا الطالبُ يكره اللغة العربية، لأن أستاذ العربية قديما، ضربَه ضربا مبرِّحا، أو أهانه، قد يكره الإنسان الرياضيات، كلّ ذلك من أستاذ الرياضيات، وقد يكره الدينَ من أبٍ ظالمٍ، الأب ظالمٌ ديِّنٌ، يكره الدينَ، وقد يكره المساجد من تصرُّف أحمق في المسجد، دُفِع الطفل أو نُهر.

مرة في طرابلس من يسمع دروس هذا المسجد في الإذاعة، أبٌ أراد أن يأتيَ بابنه إلينا في العطلة النصفية، كي يحضر دروس العلم هنا، وهنا أخٌ دفعه إلى الصفِّ الخلفي، واللهِ جاءني يبكي، جاء

من طرابلس، حتى يحضر دروسَ العلم، ويصلّي، دفعه إنسان إلى مكان آخرَ، فترك في نفسه أثرًا مؤلمًا جدًّا، فأنا أتمنَّى أن يكون الطفلُ محترمًا جدًّا، ومكرَّمًا جدًّا، لأنه إذا أحبَّ المسجدَ أحبَّ الإسلام، وأبناؤنا أمانةٌ في أعناقنا، والقضيةُ الآن لا تحتمل حلاً وسطًا، قد نكون أو لا نكون، الطرفُ الثاني لا يرحمنا أبدًا، يتمنى أن يفسدنا، وأن يفسد أخلاقنا .

كلُّ شيءٍ في الأرض، يدعو إلى الفساد، أينما ذهبتَ، المرأة في شكل فاسد، وفي شكل متفلّت مبتذل، الفساد مركّز، العالم كلُّه، ونحن نُحارَب من قِبَل أعدائنا الألِدَّاء، لإفساد علاقاتنا، ولإفساد الأسرة، ولإفساد التربية .

كنتُ أقول سابقا: قديما حدائق الحيوان فيها وحوشٌ في أقفاص، والزُّوارُ طلقاء، الآن بالعكس، الوحوش طلقاء، فإذا ما دخل الزُّوارُ إلى غرفة مصحَّفة يُؤكَلون، ممكن أن يكون الطريق، سببَ فساد ابنك، أينما ذهب الابنُ فيه فساد، فإذا أنت حصَّنتَه بالعلم، وكان معك في المسجد، وأحبَّ هذا الدينَ، وليس ثمة شعورٌ، يغمُر قلبَ الأب، كأن يرى ابنَه صالحا، هذه قرَّةُ عين، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً)

[سورة الفرقان الآية: ٧٤]

أردتُ من هذا الدرس: أن أبيِّن أنَّ إطعام الطعام، ليس من أجل إطعام الطعام فقط، إطعامُ الطعام من أجل الدعوة إلى الله، ومن أجل تأليف القلوب، ومن أجل تقريب البعيد، من أجل تمتين القريب، والطعام الذي يُطعَم يُنفَق في سبيل الله، اللهُ عز وجل يعوِّض عليك أضعافاً مضاعفة .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٧٥-١٠١) : باب: بر أصدقاء الأب، والأم، والأقارب، والزوجة، وسائر من يندب إكرامهم - ما بينه النبي في بر الوالدين بعد موتهما مع بيان صور من الوفاء للنبي مع زوجته خديجة ومع الأنصار

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٦-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

ما واجبك تجاه والديك بعد موتهما :

أيها الأخوة، لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، والباب اليوم باب: بر أصدقاء الأب، والأم، والأقارب، والزوجة، وسائر من يندب إكرامهم . عَنْ ابْنِ عُمَرَ قال:

((قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنَّ أبَرَّ البِرِّ، أنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أهْلَ وُدِّ أبيه))

[أخرجه الترمذي في سننه]

عَنْ أَبِي أُسَيْدٍ مَالِكِ بْنِ رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ قَالَ:

((بَيْنَا نَحْنُ جلوس عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلَمَةَ، فقالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ بَقِيَ مِنْ برِّ أَبَوَيَّ شَيْءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوْتِهِمَا؟ فقالَ: نَعَمْ، الصَّلَاةُ عَلَيْهِمَا، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمَا، وَصِلَةُ الرَّحِمِ الَّتِي لَا تُوصَلُ إِلَّا بِهِمَا، وَإِكْرَامُ صَدِيقِهِمَا))

[أخرجه أبو داود في سننه]

أربعة أشياء أنت مكلف بأن تقوم بها بعد موت الأب والأم: الدعاء والاستغفار، مع كل صلاة: رب اغفر لي ولوالدي، لأن الأب والأم سبب وجودك .

وفي الحديث: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَا يَشْكُرُ اللَّهَ مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ))

[أخرجهما أبو داود الترمذي في سننهما عن أبي هريرة]

من أفضل النعم وأعظمها :

أيها الأخوة، أعظم نعمة على الإطلاق نعمة الإيجاد، إذا تصفح الإنسان كتاباً مطبوعاً مثلاً في سنة ١٩٢٠، في أثناء تصفح حروف هذا الكتاب، هل للقارئ وجود؟ له اسم؟ له حيز؟ له كيان؟ قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)

[سورة الإنسان الآية: ١]

أنت الآن موجود، فهذه أكبر نعمة على الإطلاق، أن الله أوجدك من عدم، سمح لك أن تكون، أن تولد، عندنا إنسان اسمه فلان، متاح له أن يسكن الجنة إلى أبد الآبدين، إذا أرضى الله عز وجل، متاح له أن يسعد إلى أبد الآبدين، لذلك قالوا:

((النعمة الأولى نعمة الإيجاد، والنعمة الثانية نعمة الإمداد))

أمدك بالهواء، أمدك بالماء، أمدك بزوجة، أمدك بولد، أمدك بمأوى، أمدك بقدرة على كسب المال، أمدك بذاكرة .

أحد أخواننا، توفي –رحمه الله–، خرج من معمله، وبيته في المهاجرين، قال لي: خلال نصف ساعة أو أكثر، وأنا أجول، ولم أعرف بيتي، تلفت ذاكرته، بقي في ذاكرته مكانَ بيتِ ابنه، في الجسر، طرق باب ابنه، وقال له: يا بني، أين بيتي أنا؟ فالله عز وجل أمدك بذاكرة، أمدك بنطق، قال تعالى:

(عَلَّمَهُ الْبَيَانَ)

[سورة الرحمن الآية: ٤]

أنعم عليك بنعمة الإيجاد، وأنعم عليك بنعمة الإمداد، وجمعك مع أهل الحق، سمح لك أن تسمع خطبة، أن تسمع درساً، تصلي، وتصوم، وتتزوج، وألاّ تزني، تشرب الليمون، وليس الخمر، تنام على الفراش، وليس في السجن، ولست ملاحقاً، نعمة الحرية لا تقدر بثمن .

سبب هذه النعم هما :

أيها الأخوة، أنعم عليك بنعمة الإيجاد، وأنعم عليك بنعمة الإمداد، ثم أنعم عليك بنعمة الهدى والرشاد، مَن السبب؟ الأب والأم، فلذلك قال تعالى:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣]

هل يمكن أن تقول: اشتريت بيتاً في المالكي بثلاثين مليوناً وملعقة، هل ينسجم هذا معك؟ يكون الإنسان أحمق، يقول: أخذت بيتاً وأرضاً، بيتاً وسيارة، بيتاً ومزرعة، العطف يقتضي الانسجام، أما: اشتريت بيتاً وملعقة، ليس هناك تناسب، لما قال ربنا:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣]

رفع الإحسان إلى الوالدين، إلى مستوى عبادة الله، قال تعالى:

(سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ)

[سورة محمد الآية: ٥]

ورفع صلاح البال إلى مستوى الهدى، مثلما أن نعمة الهدى لا تقدر بثمن، فكذلك نعمة صلاح البال لا تقدر بثمن، ليس عنده مشكلة كبيرة، لم يستدعوه إلى المخفر، لأن ابنته ضُبطت في مكان دعارة، ماذا يحدث له؟ لو استدعي إلى المخفر، ليرى ابنته ضُبطت في الدعارة، لو أن بنته حملت من ابنه، ماذا يحدث له؟ هذه الأمور تقع .

أنا لا أتكلم من خيال إطلاقاً، بل من واقع، لو أن ابنه سرق، لو أن ابنه مدمن مخدرات، يأتي الساعة الثالثة صباحاً مع رفاقه، يسهرون على فيلم فيديو، ما يحدث للأب؟ أما الذي عنده ابن صالح، والذي له بيت، والذي له مأوى، ومهنة يرتزق منها، عنده زوجة صالحة، أمدك بنعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، والسبب الأم والأب، وإكراما لهذه الأم ولهذا الأب، عليك أن تصلي عليهما .

إذا كان هناك في المسجد جنازة، من أولى الناس أن يصلي على هذه الجنازة؟ يتوهم الناس أنه الإمام، لا، أولاده، أقرب الناس إليه يصلي عليه، أن تصلي عليهما، وأن تدعو لهما.

احذر أيها الأب من هذا :

أيها الأخوة، أب على فراش الموت، قالت له ابنته: يا أبت، حرمك الجنة كما حرمتني من الزواج، كلما جاءها خاطب، شمخ الأب أنفه، إلى أن بارت الفتاة، هذا الإعضال، أن تحول بين ابنتك والزواج، هذه جريمة، بل إن هذا ورد في آية كريمة عجيبة، قال تعالى:

(وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً)

[سورة النور الآية: ٣٣]

هل هناك على الأرض إنسان واحد، يجبر ابنته على الزنا؟ مستحيل، ولكن حينما يعضلها، وحينما يضع العراقيل أمام زواجها، وحينما يضع الشروط التعجيزية للزوج إلى أن تبور البنت، قالت له: حرمك الله الجنة، ـولم تستح منه-، كما حرمتني الزواج يا أبت .

ويوم القيامة تقول البنت المتفلتة: يا رب، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي، لأنه ما رباني، فالأبوة الكاملة شيء ثمين جداً، قال:

((أن تصلي عليهما، وأن تنفذ عهدهما))

ترك أب لأولاده أربع بنايات، وفي حياته رجاني أن أكون ناظر وصية بمئة ألف ليرة، تُدفع في وجوه الخير، واللهِ أولاده الذين أخذوا منه أربع بنايات، ما طابت نفسهم بإنفاق مئة ألف ليرة على روح والدهم، أو على وصية والدهم .

لذلك: يا أخوان، درهم تنفقه في حياتك خير من مئة ألف درهم يُنفق بعد مماتك، لا تكن تحت رحمة أحد، عندي في البيت نحو تسع وصايا، أتلفتها كلها، ولم تنفّذ واحدة، الأبناء يقبضون أيديهم،

أين أنت ذاهب يا أخي؟ قال: أنا ذاهب لأسكر على روح أبي، إذا لم يربِّ الإنسان أولاده، هذا ما يجنيه .

كيف تبر أبويك بعد موتهما؟ :

أيها الأخوة، أول شيء أن تصلي عليهما، وأن تدعو لهما، وأن تفذ عهدهما، أوصتك والدتك بأختك، لا بد أن تنفذ وصيتها، عينك على أختك، اتركها في هذا البيت، وأنت غني، ولكن النتيجة أن يباع البيت، ويضعها في آخر الدنيا، حتى يأخذ المليونير حصته من البيت، يبيع البيت، ويسكن أخته في أطراف المدينة، وأمه قالت له: اترك أختك في البيت، لا تبع البيت.

بالمناسبة: أخواننا الكرام، هناك وصية حرام، عندك بيت مساحته سبعون متراً، وعندك خمسة أولاد وزوجة، وقلت: ثلث مالي للفقراء، ليس عندك إلا هذا البيت، ماذا يفعل أهلك؟ يبيعون البيت حتى ينفذوا الوصية؟ هذه وصية حرام، تركت بيتاً فقط، مأوى صغير، وعندك خمسة أولاد وزوجة، اتركه كما هو، همْ أهمّ من وصية، ليس كل وصية مقبولة عند الله عز وجل، شغّل أولادك، تسكنهم في أطراف المدينة، يفتقرون، من أجل أن تدفع لطلاب العلم، إذا كنت في بحبوحة فلا مانع، والأولى أن تدفع، أما إذا لم يكن لديك إلا بيت واحد، فينبغي أن تبقيه لهم، دون أن تحملهم على بيعه.

أن تصلي عليهما، وأن تدعو لهما، وأن تنفذ عهدهما، وأن تصل صديقهما، أصدقاء والدك، صديقات والدتك، ينبغي أن تحتفل بهم بعد موت الأب والأم، ينبغي أن تزورهم في العيد، وأن تصل صديقهما، وأن تنفذ عهدهما، وأن تصل الرحم التي لم يكن لها صلة إلا بهما ، فهذا الذي بقي لك من برهما بعد موتهما، هذا كلام النبي صلى الله عليه وسلم، لذلك الأب سبب وجودك، إذًا: ينبغي أن يعامَل أطيب معاملة . عَنْ ابْنِ عُمَرَ قال،

((قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ أَبَرَّ البرِّ، أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أبيه))

[أخرجه الترمذي في سننه]

واللهِ فيما أعلم قديماً، السلف الصالح حينما يتوفى الأب، أخوته أو أصدقاؤه، يعاملون أولاد صديقهم المتوفى كأنهم أولادهم .

سبب شروع الوصية الواجبة :

هناك في الوصية الواجبة نقطة، لم ينتبه إليها أحد منكم، هل نسي الشرع إذا مات الإنسان في حياة والده، أنّ أولاده لا يرثون شيئا؟ في الوصية الواجبة لهم حصة أبيهم كما لو كان حياً، أما في أصل الشرع فليس لهم شيء، هل نتهم الشرع أنه نسي؟ .

أب له خمسة أولاد، أحد أولاده مات في حياته، بحسب نظام الإرث الإسلامي لا يرث الأولاد شيئاً، لأن أباهم مات في حياة جدهم، والمال كله لعمومهم، القانون معه وجهة نظر، أعطى الأولاد بالوصية الواجبة حصة أبيهم المتوفى، كما لو كان حياً، ما وجهة نظر الشرع في هذا؟ .

إذا كان هناك أربعة أعمام، والأب ترك ميراثاً، وحصة الأب المتوفى فرضاً خمسمئة ألف، إذا أعطينا الأولاد الخمسة الأيتام خمسمئة ألف أفضل، أم نأخذ الخمسمئة لنا، ونرعاهم طول حياتهم، نزوج البنات، ونؤمِّن عملاً للشباب؟ .

الله عز وجل أراد من العمّ أن يكون أبًا، قال له: خذ حصة أخيك المتوفى، وارع أولاده كأنهم أولادك، هذه الحكمة، فلما تقاطع الناس، وتدابروا، وقصّر الناس في حقوق بعضهم بعضاً، وجدت الدولة نفسها، أن تسنّ قانون الوصية الواجبة، بسبب التدابر .

رجل يتكلم بمئتي مليون، له أخ فقير جداً، وابن هذا الأخ من أخواننا، هذا العم الغني المليونير، أتى بأكل يوم التعزية، ودعا الناس، وضيّف بثمانية آلاف ليرة على حساب الأيتام ثمن الطعام، ما سخت نفسه بدفع ثمن الطعام، تجد العم مليونيراً، والأخ فقيراً، ليس هناك رحمة أبداً.

لذلك أيها الأخوة:

((إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ:

((أَنَّ رَجُلًا مِنْ الْأَعْرَابِ، لَقِيَهُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ، وَحَمَلَهُ عَلَى حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ، وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَالَ ابْنُ دِينَارٍ: فَقُلْنَا لَهُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، إِنَّهُمْ الْأَعْرَابُ، وَإِنَّهُمْ يَرْضَوْنَ بِالْيَسِيرِ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: إِنَّ أَبَا هَذَا، كَانَ وُدًّا لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ أَبَرَّ الْبِرِّ صِلَةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ))

انظر إلى وفاء النبي لخديجة :

كان النبي صلى الله عليه وسلم، لما تأتي امرأة من صديقات خديجة، يكرمها إكراماً منقطع النظير، تقول له السيدة عائشة:

((من هذه؟ فيقول صلى الله عليه وسلم: هذه كانت تغشانا أيام خديجة))

صديقة زوجته .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((مَا غِرْتُ عَلَى أَحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا غِرْتُ عَلَى خَدِيجَةَ رضي الله عنها، وَمَا رَأَيْتُهَا قط، وَلَكِنْ كَانَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِق

خَدِيجَة، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ! فَيَقُولُ: إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

إذا كان للرجل زوجة ثانية، يتفنن في ذم الأولى، يقول: ارتحنا منها، حتى يرضي الثانية، يتهم الأولى بأشياء هي بريئة منها، أما النبي فكان وفياً .

((وَلَكِنْ كَانَ يُكْثِرُ ذِكْرَهَا، وَرُبَّمَا ذَبَحَ الشَّاةَ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً، ثُمَّ يَبْعَثُهَا فِي صَدَائِقِ خَدِيجَة، فَرُبَّمَا قُلْتُ لَهُ: كَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الدُّنْيَا امْرَأَةٌ إِلَّا خَدِيجَةُ! فَيَقُولُ: إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ، وَكَانَ لِي مِنْهَا وَلَدٌ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

قصة لها تأثيرها :

أنا تأثرت بقصة تأثراً بالغاً، السيدة خديجة وقفت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانت سنده من الداخل، عمه أبو طالب كان سنده من الخارج، أما خديجة فهي سند داخلي، وأنا درّست سيرتها، شيء مذهل، زوجة لا مثيل لها في الود، والوفاء، والمعاونة، وثابتة، توفيت رضي الله عنها، ولم تكتحل برؤية نصر المسلمين، فلما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة، أين سينام في مكة؟ ما من بيت في مكة إلا ويتمنى صاحبه أن ينام فيه .

قال عليه الصلاة والسلام:

((انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة))

وغرس راية الحرب على قبرها، هذه المرأة كانت أحد أسباب نجاح الدعوة.

((انصبوا لي خيمة عند قبر خديجة))

ونصب راية الحرب على قبرها، تنويهاً إلى فضلها في الدعوة، هذا الوفاء .

من وفائه للأنصار :

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((خَرَجْتُ مَعَ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رضي الله عنه، فِي سَفَرٍ، فَكَانَ يَخْدُمُنِي، فَقُلْتُ لَهُ: لَا تَفْعَلْ، فَقَالَ: إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الْأَنْصَارَ، تَصْنَعُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا، آلَيْتُ على نفسي، أَنْ لَا أَصْحَبَ أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَّا خَدَمْتُهُ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

اقتدى بأصحاب رسول الله في خدمة الأنصار .

وكان وفاء النبي صلى الله عليه وسلم عجيباً، لما أعطى الغنائم لأناس مؤلفة قلوبهم، ولم يعط الأنصار، وجدوا عليه في أنفسهم . فعَنْ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ:

((لَمَّا أعْطى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أعْطى، مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ، وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ، حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ -غضبوا- لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ، الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ، وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ، قَالَ: فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي، -أي أنا أيضاً واجد عليك-، وَمَا أَنَا قَالَ، فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجَ سَعْدٌ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، قَالَ: فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ، فَتَرَكَهُمْ، فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ، فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا، أَتَاهُ سَعْدٌ، فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ:

يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، مَقَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ؟ -قال: أنا هديتكم، فهداكم الله، أرأيت إلى هذا التواضع؟-، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ؟ وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟ قَالُوا: بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ: أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ؟ -دقق الآن، وقد شرحت هذه القصة مرة في خطبة، كان عليه الصلاة والسلام بإمكانه أن يفعل، كما يفعل فعلَ الأقوياء، أن يلغي وجودهم، لأنهم انتقدوه، وكان بإمكانه أن يهدر كرامتهم، وكان بإمكانه أن يهملهم، وكان بإمكانه أن يعاتبهم لصالحه، ما الذي فعله معهم؟ ذكّهم بفضلهم عليه- .

قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ، لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ، فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ، أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ، -إن قلتم هذا، فأنتم صادقون، وإن قلتم للناس يصدّقونكم-، أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا، تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا، وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟ أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ؟ .

فَوَ الَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا، وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا، لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ، قَالَ: فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ، وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَفَرَّقْنَا))

كان تعليقي على هذه القصة: كان الله في عون كتّاب السيرة، هذه القصة أين مكانها؟ مع وفائه، أم مع رحمته، أم مع حسن سياسته، أم مع تواضعه؟ أين؟ هكذا كان النبي عليه الصلاة والسلام .

خاتمة القول :

أيها الأخوة، في النهاية: الإسلام أخلاق، ومكارم الأخلاق هي الدين كله، ومن زاد عليك بالخلق زاد عيك في الدين .

فالنبي صلى الله عليه وسلم كله وفاء، كله تواضع، كله رحمة، حتى إن بعض العلماء قالوا:

((الشريعة رحمة كلها، عدل كلها، مصلحة كلها، حكمة كلها، أية قضية خرجت من العدل إلى الظلم، من المصلحة إلى المفسدة، من الحكمة إلى ضدها، فهي ليست من الشريعة، ولو أدخِلت عليها بألف تأويل وتأويل))

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٧٦-١٠١) : باب: فضل قراءة القرآن - ما معنى المعجزة؟ وما الدليل على أن القرآن الكريم هو كلام الله؟ وما هي الأحاديث التي وردت في فضل قراءة القرآن؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٦-٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو القول الثابت في هذه الآية؟ :

أيها الأخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

[سورة إبراهيم الآية: ٢٧]

ما هو القول الثابت؟ القول الذي لا يُعدَّل، ولا يُغيَّر، ولا يُلغَى، ولا يُضاف عليه، هو القرآن الكريم، مصدر ثبات المؤمن على الحق، يقوَّي الثابتَ، الذي هو القرآن الكريم، قال تعالى:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

[سورة إبراهيم الآية: ٢٧]

نقطة هامة :

أيها الأخوة، هناك نقطة دقيقة: الإنسان وهو لا يدري، يتعامل مع نصٍّ بشري تعاملاً واضحاً، فإذا كان تصريحاً من وزير اقتصاد، بإمكانية السماح باستيراد شيءٍ معيَّن، تهبط أسعارُه إلى الحضيض، وقد ينزل سعرُ السيارة أربعمئة ألف بأربع كلمات، يقرأها المواطنُ في الجريدة .

معنى ذلك: أن هذا الإنسان تعامل مع هذا النص تعاملاً صحيحاً، وبالمقابل: لو كان هناك إنسان قويٌّ، ومنع شيئًا، وهو يفعل ما يقول، ولا يرحم، تجد الإنسان يطبِّق تعليماته تطبيقاً بحذافيرها، فالإنسان يتعامل مع نصٍّ أرضي، ومع نصٍّ بشري تعاملاً واضحاً، يفهم النصَّ، ويقف عند حدوده، لا يتجاوز هذا النص، فكيف لو كان هذا النصُّ من خالق السموات والأرض؟ .

مثلاً: مجتمع فيه مشكلات، وفيه فقر، وفيه قوى شرِّيرة مثلاً، وفيه أخطار شديدة، اللهُ عز وجل يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

[سورة النحل الآية: ٩٧]

المؤمن الصادق، المؤمن الذي كمُل إيمانُه، يقرأ هذه الآية، فيمتلئ قلبُه طمأنينة، خالق الكون يعِده بحياة طيِّبة، هذه الحياة الطيِّبة لا علاقة لها لا بمكان، ولا بزمان، ولا بظروف معيَّنة، ولا بذكاء، ولا بفساد، ولا بقهر، خالق الكون وعد هذا الإنسان بحياة طيِّبة .

ما دور المعجزة التي يرسلها الله على أيدي أنبيائه؟ :

أيها الأخوة، ما هو الدليل على أن القرآنَ كلامُ الله؟ نحن ورثنا في العالم الإسلامي أن القرآن كلام الله، نمسك القرآن ونقبِّله، تحدَّانا رجل، وقال: إن هذا كلامُ محمَّد، ومحمَّد أخذه عن بحيرة، وهذا القرآن ليس من كلام الله، إنه كلام البشر، ماذا عندك؟ هنا المشكلة، المشكلة أن تؤمن كلُّ خليَّة في جسمك، وكلُّ قطرةٍ في دمك، أن هذا القرآن كلام الله، ما الدليل؟ أقدِّم لكم هذا التوضيح .

لماذا يرسل اللهُ الأنبياءَ، ويؤيِّدهم بالمعجزات؟ هذا الإنسان بوزن يشابه وزنَ الآخرين، وبلونٍ مشابه للون الآخرين، من جلدتهم ومن قبيلتهم، منهم يقول: أنا رسول الله، والشيء البديهي أن يقال له: كذَّاب، لستَ رسول الله، بماذا يقنع الناسَ أنه رسول الله؟ بالمعجزة، يضرب البحرَ، فإذا هو طريق في البحر يبسًا، ويلقي عصاه، فإذا هي ثعبان مبين، ينزع يدَه، فإذا هي بيضاء للناظرين، يُلقى في النار فيُقال: يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم، يحيي الموتى .

وما معنى المعجزة؟ شهد اللهُ للناس، أن هذا الإنسان رسولُه، لأنه جاء بشيء لا يستطيعه البشرُ مجتمعين، هذه شهادة الله للناس أنه رسوله .

ما الدليل على أن القرآن الكريم كلام الله؟ :

أيها الأخوة، هنا سؤال: ممكنٌ أن الله عز وجل، يشهد لنا أن هذا القرآن كلامُه؟ ممكن، واللهُ في عليائه أن يشهد لك، أن هذا القرآنَ كلامُه، يشهد لك أيها المؤمن .

أضرب الأمثلة: طلاَّب صفٍّ، دخلوا إلى قاعة الدرس، رأوا على السُّبُّورة جملة: يوم الأحد الساعة الأولى مذاكرة في الرياضيات، الطلاب احتاروا؛ يا تُرى هذا كلام المدرِّس؟ خطُّه؟ أم أنه طالب، أراد أن يمزح معنا؟ هم في شكٍّ، هذا الكلام قرئ يوم الخميس، الخميس والجمعة والسبت في شك، صباح الأحد الساعة الأولى، دخل أستاذ الرياضيات، وقال: افتحوا الورقَ للمذاكرة، معنى ذلك: أن هذا الذي كُتِب قبل يومين، هو خطُّ يد المدرِّس، أنت لماذا أيقنتَ الآن من أنه كلام المدرِّس؟ لأنه جاء الواقعُ أيَّده، أليس كذلك؟ .

لو قال لك واحدٌ: أنا مدير الميناء، وزنت أربعين كيلو تقريبا، قال لك: أنا مدير الميناء، مدير الميناء عنده محفظة عند شخص، فدخل إلى غرفته، واتَّصل بسفير على سفينة، تحمل مليون طن .

الآن: هناك سفُن حمولتها مليون طن، اتَّصل بالسفير، ورجع إلى الميناء، إنسان وزنه أربعون كيلو، يجري اتِّصالاً هاتفيًا، يرجع كتلةً إلى الميناء، موضوع السفينة دليل أنه فعلاً مدير الميناء .

إذًا: ما هو أكبر دليل على أن هذا القرآن كلام الله؟ شهادة الله لنا، وما هي شهادة الله لنا؟ وقوع الوعد والوعيد، إنسان استقام على أمر الله، واصطلح مع الله، يجد كلَّ ما حوله يدعمه، أعداؤه يهابونه، وأقرباؤه يحبُّونه، وأموره ميسَّرة، العلاقات الداخلية متينة جدًّا، كلامه سليم، الأشياء الكبيرة تجري لصالحه، فكأن هذه الحياة الطيِّبة التي وعده اللهُ بها والتي أذاقه إيَّاها، شهادة الله له أن هذا القرآن كلامُه.

فيا أيها الأخوة؛ هذا أكبر دليل، وأقوى دليل، وأقهر دليل على أن القرآن كلام الله، إنسان يتصدَّق، تجد اللهَ عز وجل، عوَّض عليه أضعافا مضاعفة، وإنسان يبخل، فيتلف اللهُ مالَه، وإتلاف ماله: دليلٌ أن الله يشهد له، أن البخيل يُتلَف مالُه، والمرابي يُتلف ماله، والمتصدِّق يزيد مالُه .

فمنطق الأحداث الذي يؤكِّد مضمون القرآن، هذه الأحداث التي هي من فعل الله وحدَه، شهادة الله لهذا المؤمن، أن هذا القرآن كلامُه، ولماذا أمرَنا اللهُ عز وجل بصلاة الاستسقاء؟ يعني: موضوع سحُب ومنخفضات، قضيَّة متعلّقة بتيارات الهواء، ومتعلّقة بالرطوبة، ومتعلّقة بالغيوم، ومتعلقة بمناخ الأرض، يأتي إنسان مع كلِّ الخلق، يدعو اللهَ عز وجل، فترى الأمطار قد نزلت .

أنا واللهِ أيها الأخوة، ولا أحنث بقسمي: أهلُ هذه البلدة، لو خرجوا إلى ظاهر المدينة، كما أمرهم النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وتضرَّعوا له، وتواضعوا له، وأعلنوا عبوديتَهم له، واللهِ الذي لا إله إلا هو، ثقتي أن الله سيمطرهم في الليلة الواحدة، ما يساوي نصفَ المعدَّل السنوي كلَّه، ولكن ما فعلوا ذلك، استكبروا وما فعلوا ذلك، صلاة الاستسقاء تقوِّي عقيدتنا بالله عز وجل، يا عبادي سمعتُ دعاءكم وسأستجيب لكم، وهذه الأمطار تنهمر عليكم مدراراً .

كلمة :

أخواننا الكرام، أقول هذه الكلمة الدقيقة جدًّا: الدعاء يقوِّي العقيدة فيما بينك وبين الله، ادعُ اللهَ فيما بينك وبينه، ادعُه بقلبك، لا تحرّك شفتيك، تجد الأمورَ اختلفت، الشيء لم يكن كذلك فصار، والطريق كان مغلقًا ففُتِح، سبيلٌ فيه عقبة فأُزيلتْ، إنسان متجاهل أطلق وجهه، إنسان يقف عثرةً أمام الموافقة فوافق لك، لماذا؟ أنت حينما دعوت اللهَ، كلُّ ما حولك بيد الله عز وجل، فليَّن قلوبَهم .

ما معنى هذه الآية: -يثبت الله.....- وما ملحقاتها؟ :

أريد من هذا الدرس، ما معنى قوله تعالى:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ)

[سورة إبراهيم الآية: ٢٧]

أي بالقرآن، فإذا أنت لك دعوة في محكمة، وقال لك المحامي: واللهِ اذهبْ، ونَم، وارتحْ، وجدت اجتهاداً في محكمة النقض لصالحك، وجد ثماني كلمات مطبوعة في مجلّة تابعة لقصر العدل، هذا الاجتهاد يمكن أن يكون حجَّة مع القاضي ليحكم لك، أنت معقول من خمس كلمات من صياغة قاض أو من محكمة النقض، يملأ قلبَك طمأنينة، فكيف لا تطمئن إذا وعدك اللهُ بالخير، وعدك بالنصر، وعدك بالتوفيق؟ وإذا الله عز وجل قال:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى * وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

[سورة الليل الآية: ٥-١٠]

أحياناً: الله عز وجل يخلق من الضيق فرجًا، ومن الفقر غنى، ومن الضعف قوةً، بل إن الله عز وجل حينما يقول:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

[سورة الطلاق الآية: ٢]

لم يكن ثمة مخرج، صدق القائل:

نزلت فلما استحكمت حلقاتُها

هذا الباب مغلق، الباب مغلق، قابل فلاناً فرفض، وقابل فلاناً فاعتذر، وترجَّى فلاناً فأنكر، وصديقه كان وعده فسحب وعدَه، قال:

نزلت فلما استحكمت حلقاتها

أي: وجدت أن الأبواب كلَّها مغلقة، فرفعت وجهك إلى الله، وقلتَ: يا رب، ليس لي إلا أنت، فإذا الأبواب تُفتح، يجعل له مخرجاً، وعندما يرتفع ينفض من ريشه، قال تعالى:

(وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

[سورة الطلاق الآية: ٣]

هذا هو الإيمان، لكن هاته، هات: فعل أمر -هذا على خلاف القاعدة- مبني على الكسر، وتعال: فعل أمر -على خلاف القاعدة- مبني على الفتح، فعل الأمر مبني على السكون، تعالَ: فعل أمر مبني على الفتح، حالة شاذة، وهاتِ: فعل أمر مبني على الكسر، هاتِ إنساناً مؤمناً واثقا بالله عز وجل، واللهُ عز وجل ينصره.

أنا أريد إذا قرأت القرآن، وقرأتَ وعداً لله، يجب أن يملأَ هذا الوعدُ قلبَك طمأنينة .

أنا أجد شاباً مستقيماً، لا يملك شيئاً، ليس عنده شيء يعينه على أن يتأمَّل أن يسكن في غرفة أبداً، وربُّنا عز وجل يخلق له من الضعف قوَّةً، ومن الضيق فرجاً، و من الفقر غنى، قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

[سورة الطلاق الآية: ٢]

اقرأ هذه الآية ببصيرتك أيها المسلم :

أيها الأخوة، فأنا اعتماداً على ثقتي بالله عز وجل، وعلى قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية الآية: ٢١]

أيها الأخوة، لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآية لكفتْ، معقول أن الله عز وجل، يجدك شاباً، تائباً، مستقيماً، منيباً، ومحبًّا، أديباً، طائعاً، وأن تُعامل كما يعامل المسيء، قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية الآية: ٢١]

انظر: ماذا ترى؟ :

مرة سألني أخٌ سؤالاً، ولكن أحرجني فيه، السؤال عن مهنة لا ترضي اللهَ عز وجل، وهو يعيش على هذه الحرفة، والحرفة تدِرُّ عليه في الشهر أكثر من خمسين ألفًا، فإن قلتُ له: حرام أن تفعل هذا، نزل دخلُه إلى ألفي ليرة تقريباً، من خمسين ألفًا إلى الألفين، سألني والجواب يحرج: الحرفة فيها حرمة؟ هو صادق، قال: ليس لها حلٌّ، قلت: ليس لها حلٌّ، لماذا سألتني، وأنا لم أتعرَّض لك؟ ليس لها حلٌّ، جهاز فيه فساد تستورده وتنقله؟ مشكلة، ترك هذه الحرفة، ومضت جمعة على ألفين، من خمسين ألفًا إلى الألفين، لا تكفي للخبز، ومضت الجمعة الثانية والثالثة، بعث لي خبرا مع أخٍ، قال: اسأل لي الشيخ، هل امتحاني لا زال طويلاً ؟ واللهِ بقي صابراً، وبعد ذلك هذه الحرفة مُنِعتْ قصراً، فجاءني شاكراً، وقال: أنا كنتُ ما تركتها، والآن: سأُمنَع منها قصرا، وليس لي أجرٌ، الآن: ممنوع منها بلا أجر، لكن أنا تركتها وقت عزَّة، والله شيء جميل .

واللهِ بعد حين أيها الأخوة، جاء صاحب معمل، أعطاه شيكاً مفتوحاً، قال له: أيَّ رقم خذْه، أربعين، خمسين، في الشهر جاهز، في الحلال، امتحنه اللهُ، فأنت إذا تركتَ شيئاً حراماً، ليس رأسًا في ثاني يوم، ستجد الجواب، لست مخيَّراً، أنت صرتَ مضطراً، حتى جاء بعد حين، متى؟ لا نعرف .

استبشر وتفاءل :

أيها الأخوة، عشرات الأخوة الطرق كلُّها أمامهم مسدودة، واللهِ ليس هناك أمل أن يسكن في غرفة، ولا أمل أن يتزوَّج، ولا أمل أن يعمل، واللهِ في فترة وجيزة، أصبح عنده بيت وسيارة، وشبه معمل صغير في طرف المدينة، ويعيش في بحبوحة، لأن ثقته بالله عز وجل .

أنا لا أريد أن تكون مسلماً يائساً، مسلماً مقهوراً، مسلماً سوداوي المزاج، قال تعالى:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

[سورة إبراهيم الآية: ٢٧]

قل لي: هناك كساد، الكساد موجود، ولكن المؤمن له معاملة خاصة، تقول: الظروف صعبة، فعلاً صعبة، ولكن المؤمن له معاملة خاصة، أي إذا ما كان لك معاملة خاصة، لماذا الإيمان؟ وإذا ما استثناك اللهُ عز وجل من الظروف الصعبة، وإذا ما استثناك مما يؤدِّب به خلقَه عامة، وإذا ما استثناك من شيء يعاني منه الناسُ جميعاً، لأنهم عصاةٌ لله عز وجل، هذا الدين ليس فيه حقٌّ، استبشِر وتفاءل، قال تعالى:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

[سورة إبراهيم الآية: ٢٧]

فكرة معادة لأهميتها :

الفكرة سأعيدها، ولكن بشكل دقيق، لأنها أخطر فكرة في الدرس: ما هو الدليل الأقوى على أن هذا القرآن كلام الله؟ الدليل الأقوى: أن الله إذا وعد مؤمناً بحياة طيِّبة، فالحياة الطيبة التي وعد اللهُ بها المؤمن، والتي هي من فعل الله، والتي أذاقه إيَّاها عقِب إيمانه واستقامته، هي شهادة الله له أن هذا القرآن كلامه، والمعيشة الضنكُ التي وعد اللهُ بها المعرضَ، والتي ذاقها من فعل الله، هي شهادة الله لهذا المؤمن بهذا المعرض، على أن القرآن كلام الله، وبشكل أو بآخر: أكبر شاهدٍ على أن هذا القرآن كلام الله عز وجل: وقوعُ الوعد والوعيد، قد تلتقي بإنسان منحرف، وقد تلتقي بإنسان ظالم، وقد تلتقي بإنسان فاسق، وعدُ الله عز وجل، الزاني له وعدٌ، والمرابي له وعدٌ، والكاذب له وعد، والمنافق له وعد، فحينما أتى وعد الله يقع، إن خيرا أو شرًّا، هذا الوعد الذي وقع شهادة الله لهذا الإنسان، أن القرآن كلام الله، قال تعالى:

(يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ)

[سورة إبراهيم الآية: ٢٧]

فضائل قراءة القرآن وما ورد بخصوص البقرة وآل عمران :

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ قَالَ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَؤوا الزَّهْرَاوَيْنِ الْبَقَرَةَ وَآلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صاحبهما، اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ))

قَالَ مُعَاوِيَةُ:

((بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ السَّحَرَةُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أي أنت لما قرأته، قال لك:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ)

[سورة النور الآية: ٣٠]

فلما غضضتَ بصرك، سعدتَ في الدنيا والآخرة، وجاء القرآنُ شفيعاً لك، قال لك:

(فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[سورة هود الآية: ١١٢]

فاستقمت على أمر الله، فجاء القرآن شفيعاً لك، القرآن تعليمات الصانع .

وعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ الْكِلَابِيِّ يَقُولُ:

((سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سُورَةُ الْبَقَرَةِ وَآلُ عِمْرَانَ، وَضَرَبَ لَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَةَ أَمْثَالٍ مَا نَسِيتُهُنَّ بَعْدُ، قَالَ: كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ ظُلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ كَأَنَّهُمَا حِزْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا))

وفي بعض الأحاديث:

((من قرأ البقرة وآل عمران كفي))

((ومن قرأ البقرة وآل عمران، جلَّ في أعين الله))

كيف أن بني إسرائيل وقعوا في أمراض مهلكة، كذلك هذه الأمراض، يمكن أن يقع فيها كلُّ المؤمنين، فأنت حينما تقرأ البقرة وآل عمران، ربما تلافيتَ الأخطار المحدِقة بالمؤمنين، والنبيُّ خيركم، وسيِّد الخلق الذي لا ينطق عن الهوى .

اغتنم الفرصة يا مسلم :

عَنْ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

((قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

أي أفضل واحد فيكم عند الله؟ خيركم مطلقاً، أي أحسن إنسان فيكم على الإطلاق؟ من تعلم القرآن وعلّمه، بل إن تعليم القرآن وقراءته، هو عند الله جهاد كبير، قال تعالى:

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان الآية: ٥٢]

أي: جاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً .

وقائع :

أحد أخواننا، كان له منصب رتبة عسكرية عالية جدًّا، وتقاعد، إنسان قضى حياته بالجيش وتقاعد، أخذ حلقة أو دورة، لتحفيظ القرآن في معهدنا، قال لي كلاما لا يُصدَّق، قال لي: أنا منذ وُلدتُ حتى الآن، ما ذقتُ سعادة مثل هذه السعادة .

إنسان له رتبة عالية، قاعد مع أطفال صغار، يعلمهم أحكام التجويد، ويستمع لهم القرآن، واللهُ عز وجل يتجلّى على قلب كلِّ من يعمل بهذا الكتاب العظيم، هذا القرآن كلام الله عز وجل، فإنسان يعلّم هذا القرآن تطوُّعاً لله، وتقرُّبا إلى الله، وإذا الإنسان ليس له علاقة بالقرآن، واللهِ مصيبة كبيرة؛ يجب أن تقرأه، ويجب أن تعلّمه، ويجب أن تفهمه، ويجب أن تطبِّقه .

اقرأ يا قارئ القرآن :

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي في سننهما]

هو:

((من أوتيَ القرآنَ، فظنَّ أن أحداً أوتي خيراً منه، فقد حقَّر ما عظَّمه اللهُ))

واللهِ ما رأيت منظراً في حياتي، وأثّر في نفسي تأثيراً سلبيًّا، حينما رأيت ُبعضَ من يحفظ كتاب الله، يركض وراء سيارة، ليعرض عليه أن يقبله في قراءة القرآن على الأموات، أنت حافظ لكتاب الله، أنت كنْ عزيز النفس، لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه .

((وابتغوا الحوائج بعزَّة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير))

كانت إحدى النساء في الحجِّ، طلبت من بائع الأقمشة أن يبيعها قطعة، فقالت له: راعنا، فراعاها، قالت له: من أجل رسول الله راعنا، فقال: والله لا آخذ حقَّها، يبدو أنه إنسان ورعٌ، ولما سمع كلمة: من أجل رسول الله، قدَّمها لها هديَّة، أنت إذا كنت تدرِّس كلام الله عز وجل، وتعلِّم أولادك القرآن الكريم .

ونحن يا أخواننا الكرام، عندنا عدد من الأخوة الكرام، يدرِّسون في معهد تحفيظ القرآن لوجه الله، يأتي من أطراف المدينة، ويتجشمون المشاقَّ، ويعلّمون الصغار كلام الله عز وجل، فهذا من أعظم الأعمال .

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي في سننهما]

مثلاً: المدُّ لم يستقم معه، والإدغام لم يستقم، والإقلاب لم يستقم، يتعتع فيه، وهو عليه شاق، قال: له أجران، فإذا قرأته بطلاقة، فأنت مع السفرة الكرام البررة، وإذا تتعتعت به فلك أجران، كيفما تحرَّكت مع هذا الكتاب، فأنت رابح .

أرأيت إلى أبلغ من هذا التشبيه؟ :

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالتَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا))

مآل قارئ القرآن :

أيها الأخوة، أنت تعرف أنه عندنا في الطبِّ حقيقة: العضو الذي لا يعمل يضمر، إذا جلس الإنسان على السرير، ولم يحرك عضلاته يضمر، لو وضع الجبس على يده، ثم نزعه، تذهب نصفُ العضلات، وكلُّ شيء لا يعمل يضمر، الذي لا يقرأ القرآن بعد ما تقاعد، يخرف قبل وقته، أما الذي يقرأ القرآن ويصلّي، فهناك نشاط في ذهنه دائماً، وفي الأعمِّ الأغلب: من الصعب أن تجد حافظا لكتاب الله، أو من يهتم بالقرآن يصيبه الخرف .

كان هناك صديق للوالد، أزوره كلَّ عيد، اشتهيت أن يقصّ عليّ قصَّته مرَّتين، يتذكَّر ما يقصُّ عليَّ، من العيد إلى العيد، القصة قلتها المرة الماضية، عمرُه ستة وتسعون عامًا، وهو في أعلى درجات نشاطه، والذي علَّم هؤلاء الطلاَّب العلم الشرعي، من سنة ألف وتسعمائة وثماني عشرة، إلى سنة الستة والتسعين، قريباً من ثمانين سنة، وكان يقول للطالب: أنت تلميذي، وكان أبوك تلميذي، وجدُّك تلميذي، ويقال له: يا سيِّدي ما هذه الصحة؟ قال: يا بنيَّ حفظناها في الصغر، فحفظها اللهُ علينا في الكِبر، ومن عاش تقيًّا عاش قويًّا .

واللهِ سألتُ مرة طبيب أسنان: هل مرَّ معك إنسان ليس عنده ولا سنٌّ محشية؟ قال لي: والدي، عمره خمس وثمانون سنة، ولا سن محشية له، قصص في الورع شديدة جدًّا .

قارن:

أيها الأخوة، الله عز وجل أحياناً يحفظك، وتعيش حياة فيها طمأنينة، وعندك آيتان؛ الآية الأولى:

قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٤٤]

هذا تمتَّع بالحياة، وتمتَّع بكلِّ شيء، أبواب كل شيء، وليس باباً واحداً، وأبواب جمع، ومن كل شي، قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٤٤]

قال تعالى:

(فَآَمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ)

[سورة الصافات الآية: ١٤٨]

الفرق بن تمتيع الكافر وتمتيع المؤمن، أنّ الكافر يُمتَّع، لكن تنتظره النارُ بعد هذه المتعة، أما المؤمن فيُمتَّع في الدنيا، لكن ينتقل من نعمة إلى نعمة، من نعمة التمتُّع في الدنيا إلى جنة عرضها السموات والأرض، هذا الفرق، الكافر، قال تعالى:

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق الآية: ١٣]

والمؤمن، قال تعالى:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق الآية: ٩]

المؤمن يضحك أخيراً، والكافر يضحك أوّلاً، ومن ضحك أولاً بكى كثيراً، ومن ضحك أخيراً ضحك كثيراً .

تطبيقات هذا الحديث :

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ، وَالَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالتَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا))

واللهِ أحياناً أيها الأخوة، أنا أشعر أن أمتعَ شيء على الإطلاق: أنْ تجلس مع أخٍ كريم مؤمن، وتتذاكر معه القرآن، ما معنى هذه الآية؟ وهذه الآية ماذا يُستنبَط منها؟ تشعر بسعادة تفوق الخيالَ، مذاكرة القرآن .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ تعالى وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي في سننهما]

فالمؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة، هذا يطبِّق القرآن في حياته، أخ قراءته له قليلة، هذه تمرة، طعمها حلوٌ، ولكن لا ريح لها، أما الذي يقرأ القرآن، ويعمل به كالأترجة، ريحها طيِّب، وطعمها طيِّب، والمنافق يرتزق بالقرآن؟.

ومرَّة سمعتُ عن إنسان قُتل، لأنه قال: ربي الله، فجاؤوا برجل دين يلقّنه الشهادة، الرجل قُتل، لأنه قال: ربي الله، قصة قديمة، جاؤوا برجل دين ليلقّنه الشهادة، فماذا أجابه؟ قال: أنا أموت الآن لأجل هذه الشهادة، وأنت تعيش تقتات بها، أنا سأموت من أجلها، ومن أجل حقيقتها، وأنت ترتزق بها، وشتّان بين من يرتزق بالقرآن، وبين من يموت من أجله، فهذا المنافق الذي يقرأ القرآن، كمثل الريحانة، ريحها طيِّب، وطعمها مرٌّ .

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْأُتْرُجَّةِ، طعمُهَا طيِّبٌ وَرِيحُهَا طيِّبٌ، وَالَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالتَّمْرَةِ، طَعْمُهَا طيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا))

بين أترجَّة، وتمرة، وريحانة، وحنظلة، أرقى شيء الأترجة، وثانيها التمرة، أما الريحانة؛ منافق يقرأ ولا يعمل، وكافر لا يقرأ ولا يعمل، واحد حنظلة، وواحد حنظلة، أما المؤمن، فهو أترجَّة، لها طعمٌ طيِّب، ورائحة زكيَّة، أو هو كالتمرة، لها طعم طيِّب، ولا رائحة لها.

ما مبتغى هذا الحديث؟ :

عَنْ عَامِرِ بْن وَاثِلَة، أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ، لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ، وَكَانَ عُمَرُ استعمله عَلَى أهل مَكَّة، فَقَالَ:

((مَنْ اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟ قَالَ: ابْنَ أَبْزَى، قَالَ: وَمَنْ ابْنُ أَبْزَى؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا، قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى، قَالَ: إِنَّهُ قارئٌ لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ، قَالَ عُمَرُ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أنا أريد أن أطمئِن أخواننا: أنت عندك حاجات أساسية، أولُ حاجة الطعام والشراب، هذه الحاجة من أجل أن يبقى الفردُ حيًّا، ومن أجل بقاء الفرد، والحاجة الجنسية من أجل بقاء النوع، لأن الإنسان يرغب في الزواج، وهو لا يدري أنه يحقِّق استمرار البشرية، ولو أن الناسَ لا يتزوَّجون، تنقرض البشريةُ .

لفَت نظري في مدينة سان فرانسيسكو في أمريكا، وهي من أجمل مدن في أمريكا، واللهِ ما لمحتُ إلا طفلًا واحداً في هذه المدينة، قعدنا فيها يوماً تقريباً، طفلاً واحداً، لأن خمسة وسبعين بالمئة من سكان هذه المدينة شاذون جنسياً، نساء مع نساء، ورجال مع رجال، فالشذوذ ينتهي إلى الإنقاص طبعاً، أما الإنسان لما يتزوج، وهو لا يشعر يساهم في استمرار البشرية، يتزوج، ويأتي بالأولاد .

أول حاجة هي الطعام والشراب، والحاجة الثانية إلى بقاء النوع، والثالثة بقاء الذِّكر، وكلُّ إنسان يريد أن يكون له شأنٌ، وأن يكون محترماً، وله ميِّزة، ومتفوِّق، وناجح، كل إنسان إذا كان، أصغيتَ له، أوَّل من عملها أنا، هذه الحاجة أساسية اسمها: تأكيدُ الذات، والشعور بالأهمية، وطلب الذكر، والمؤمن هذه الحاجة محقَّقة، واللهُ عز وجل خاطب النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح الآية: ٤]

مرةً دخلتُ إلى قصَّاب، قال لي: أنا الشيخ الفلاني، أحدُ كبار القرّاء، أنا وهو كنا سواء، لكن من الذي أتى هذا بهذا؟ وهو لما قرأ القرآن، صار له العالِم الكبير، وصار الحافظ الشهير، وصار له

شأنٌ كبير جدًّا، لم يذكر أحد، أنه كان لحَّامًا سابقاً، والإنسان الثاني لم يقرأ القرآن، بل بقي على حرفته الأساسية، فكل إنسان يقرأ القرآن، يرفع اللهُ له ذكرَه، واللهُ عز وجل إذا أعزَّ إنسانًا، شيءٌ لا يُصدَّق.

وأنا أؤكّد لكم: أن كل واحد منكم يستقيم، يرفع اللهُ شأنه، وله مكانته، وله هيبتُه، ولا أحد يتجاوز حدودَه معه، هذا من حفظ الله له، ومن هاب اللهَ، هابه كلُّ شيء .

أيها الأخوة، اللهُ عز وجل يسخِّر عدوَّك ليخدمك، لك هيبة كبيرة كثيراً، تعجب منها، أنت مفتقر لله عز وجل، ومتواضع له أعلى أنواع التواضع، ومع ذلك اللهُ عز وجل يرفع شأنك، والناس يحترمونك، وهذا من فضل الله عليك، لأنه ألقى في قلوبهم محبَّتك .

وصدِّقوني أيها الأخوة، إذا احترمك الإنسان لأجل، ليس لميِّزة فيك، انظُر إليها على أنها فضل الله عليك، ألقى حبَّك في قلوب الخلق، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه الآية: ٣٩]

هناك إنسان محبوب، وهناك إنسان غير محبوب، فأنت لما ترغب أن تحقِّق تأكيد الذات، الدافع الثالث هذا اترُكه لله عز وجل، أنت اعمل عملاً طيِّباً، واستقم، وأخلِص، والله عز وجل يتولّى رفع ذكرك عند الناس، قال تعالى:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح الآية: ٤]

((إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين))

وأحياناً: تُدعَى إلى إلقاء كلمة، الناس يحتشدون، يستفيدون، يتأثّرون، يكرمونك، لأنك تعلم من كتاب الله شيئا .

تأمل :

أحاديث مهمة جدًّا: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ القرآن، فقامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وآناء النهار، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَهُوَ ينفقه آنَاءَ اللَّيْلِ وَآناء النَّهَار))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

آتاه القرآن حفظاً، وآتاه القرآن تجويداً، وآتاه القرآن تدبُّراً، وآتاه القرآن تفسيراً، وآتاه القرآن تعلُّماً، وآتاه القرآن تعليماً، قراءة، وتجويدًا، وحفظًا، وتدبُّرًا، وفهمًا، وتعلُّمًا، وتعليمًا .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَا حَسَدَ إِلَّا عَلَى اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ القرآن، فقامَ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وآناء النهار، وَرَجُلٌ أَعْطَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَهُوَ ينفقه آنَاءَ اللَّيْلِ وَآناء النَّهَار))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

فصار إنفاق المال لا يقلُّ عن تعلُّم القرآن، لأن المالَ قوَّةٌ، والمالُ تُحلُّ به مشكلات كثيرة جدًّا، فالذي ينفق ماله في سبيل الله، يقوم بعمل عظيم، ولو علِم الأغنياءُ أنهم بمالهم، يصلون إلى أعلى مرتبة دون أن يشعروا، لانكبُّوا على الأعمال الصالحة . وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قال:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: الم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنْ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

الآن: معظم الناس، ماذا يوجد في جوفهم؟ أخبار الفنانين والفنَّانات، أخبار لاعبي الكرة، أخبار الأسعار، والأسواق، والشركات، هذا جوفه، اجلِس مع مؤمن في جوفه القرآن؛ يحدِّثك عن آياته، ومواعظه، وعن أوامره ونواهيه، عن مشاهد القيامة فيه، وعن آياته الكونية.

قل لي: ما الذي تتكلَّم به؟ أقلْ لك: من أنت؟ اترُك حالك في شكل عفوي، تتحدَّث عن ماذا؟ شخص كلُّ حديث عن الدنيا .

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الَّذِي لَيْسَ فِي جَوْفِهِ شَيْءٌ مِنْ الْقُرْآنِ كَالْبَيْتِ الْخَرِبِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤهَا))

[أخرجه الترمذي وأبو داود في سننهما]

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٧٧-١٠١) : باب: كراهة المدح في الوجه بمن خيف عليه مفسدة من إعجابٍ ونحوه، وجوازه لمن أمن ذلك في حقه - من هو المسؤول في تقييم الأشخاص؟ ومتى يجوز أن يمدح الشخص، ومتى لا يجوز مدحه؟ ولماذا؟ ومتى يجوز العفو عن الخطأ، و

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٦-٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

خطأ شائع يقع فيه غالبية الناس تصحيحه هو :

أيها الأخوة الكرام، مع بابٍ من أبواب رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، هذا الباب عنوانه: كراهة المدح في الوجه بمن خيف عليه مفسدة من إعجابٍ ونحوه، وجوازه لمن أمن ذلك في حقه .

هذا موضوع وجدت أننا في أمس الحاجة إليه، لأن أحدنا إن أحب شخصاً، كال له من المديح بغير حساب، وإن أبغض شخصاً عكس القضيَّة، إلا أنه هناك حكم شرعي، هذا الحكم الشرعي: أن الأصل في تقييم الأشخاص من شأن الله جلَّ جلاله .

فالأصل في تقييم الأشخاص هو الله عزَّ وجلَّ، ونحن جميعاً لا نملك وسائل التقييم، لأن الله عزَّ وجل يحاسب على النوايا .

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم عن عمر بن الخطاب]

قيمة العمل محصورةٌ بنيَّته، فقد تجد عملاً طيِّباً، لكن صاحبه أراد الدنيا به، وقد تجد عملاً قاسياً، لكن صاحبه أراد وجه الله به، نحن لسنا مؤهَّلين أن نحكم على الأشخاص حكماً عميقاً، حكماً قطعياً، هذا الموضوع يحتاج إلى دقَّة في المتابعة .

انظر إلى ما يقوله النبي ثم انظر ما يفعله الناس :

عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ:

((سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ، وَيُطْرِيهِ فِي الْمِدْحَ، فَقَالَ: أَهْلَكْتُمْ أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

الأشخاص أنواع، هناك شخص إذا مدحته لبسه الغرور، واستعلى على الخلق، وشعر أنه فوق البشر، وهؤلاء الذين يمدحونه، يُسهمون بشكلٍ أو بآخر في إحداث هذا المرض عنده، مرض تضخُّم الذات، سببه المدَّاحون، هؤلاء الذين يكيلون المديح جزافاً .

وأنا مضطر أن أقول: إنه في أكثر الحفلات -عقود القِران- الذين يقفون ليتكلَّموا، يكيلون المدح جزافاً للأسرتين، وفي حادثة في دمشق، حيث تمَّ عقد زواجٍ بين أسرتين، وكان هناك حفل للرجال وحفل للنساء، حفل الرجل أُقيم في مكان، دُعي إليه من يتكلَّم عادةً في مثل هذه الحفلات، وكما هي العادة انزلق هؤلاء، فأثنوا على الأسرتين ثناءً لا حدود له، أثنوا على الأصالة، والتُّقى، والنقاء .. إلخ.

عقد القران للنساء، تمَّ في أحد أكبر فنادق دمشق، وزِّعت الخمور، وجيء بالمصورات، وجيء بالمصورين، فصوروا النساء عرايا، نُشرت هذه الصور في صحف لبنان، هاتان الأسرتان العريقتان، التقيَّتان، الورعتان، الطيبتان، هذا الذي يتكلَّم هذا الكلام، أين أصبحت مكانته؟ كلامٌ لا معنى له، لذلك: موضوع المديح، موضوع خطير جداً .

إنسان يعيش من مسبح مختلط، تسبح النساء شبه عارياتٍ مع الرجال، وصاحب هذا المسبح، أراد أن يقيم مولدًا، ودعا من يتكلَّم في هذا الحفل، والمتكلِّمون كما هي العادة، أثنوا على صاحب الدعوى ثناءً عطراً .

من أمراض مجتمعنا في هذا العصر :

أيها الأخ الكريم، اعلم علم اليقين: أن الله يغضب إذا مُدِح الفاسق، إنك إن مدحته أربكت الحاضرين.

لو أن إنسانًا زارك في البيت، وهو بعيدٌ عن الدين بُعد الأرض عن السماء، لا يصلي، وقد يشرب، فإذا قلت أنت أمام ابنك: إنه لطيف، لبق، فهيم، مثقَّف مثلاً، انظر لهذه الكلمات .

((يأتي على الناس زمان يقال للرجل: ما ألطفه، ما أظرفه، ما أحسنه، وليس فيه ذرة إيمان))

فهذا الشيء مرض اجتماعي قد فشا؛ المديح بغير حساب، والناس إذا أحبوا مدحوا مديحاً بغير حساب، فإذا كرهوا ذموا ذماً بغير حساب .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا ما))

[أخرجه الترمذي في سننه]

انظر إلى هذا الحكم الشرعي لمقتضى هذا السؤال :

يا أيها الأخوة الكرام، يجب أن تعلم الحكم الشرعي في هذا .

سألني أخ من يومين، فقال لي: إذا أخذ الإنسان حقَّه، ولو بالقوَّة مؤاخذ؟ قلت له: القرآن الكريم يضبط هذا الأمر، فقال لي: أين الآية؟ قلت له:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

[سورة الشورى الآية: ٣٩]

من صفات المؤمن: أنه لا يخنع، ولا يخضع، ولا يذِل، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة المنافقون الآية: ٨]

المؤمن عزيز، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

[سورة الشورى الآية: ٣٩]

فأن تأخذ حقَّك؛ سائق طائش، أرعن، منحرف، سبَّب حادثًا لابنك، فلو قلت: الله يسامحك، لا نريد أن نؤذي أحدًا، هذا غير صحيح، يجب أن توقفه عند حدِّه، يجب أن يدفع ثمن خطئه، ألم يقل الله عزَّ وجل:

(وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ)

[سورة النور الآية: ٢]

إذا سامحته، وفلان سامحه، وفلان سامحه، سيرتكب جرائم متعدِّدة .

تُروى قصَّة لعلَّها رمزية: أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، عُرِف بحلمه الشديد، فتراهن رجلان، وأرسلا طفلاً صغيراً يغمزه، وهو خليفة المسلمين، وهو يصعد إلى المنبر، فكان ذكياً وفطناً، فقال له: يا غلام ربح الرهن، فهم .

هذا الغلام فعلها مع خليفةٍ آخر فقتله، فقالوا: حلم معاوية قتل الغلام، حلم معاوية على هذا الغلام، هو الذي قتله، لأنه فعلها مرَّة ثانية مع بطَّاش فقتله .

فإذا أساء إنسان، وبالغ بالإساءة وقلنا: نسامحه، لا نؤذي أحدًا، هذا الخوف الساذج، هذا ليس من الدين في شيء، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ)

[سورة الشورى الآية: ٣٩]

أما حينما ينتصرون، قال تعالى:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

[سورة الشورى الآية: ٤٠]

أما أن تقول: سأكيل له الصاع عشرة أصْوع، هذا كلام الشيطان، أما كلام الرحمن:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

[سورة الشورى الآية: ٤٠]

الآن دقّق:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ)

[سورة الشورى الآية: ٤٠]

قال العلماء:

((حينما يغلب على يقينك، أن عفوك عنه يقرِّبه إلى الله))

قال:

(فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى الآية: ٤٠]

عندئذٍ سيكافئه الله المكافأة العالية .

سائق يسير بهدوء، طفل قفز إلى أمام السيارة، سائق فقير ذو عيال، شارد، تائه، فلما عفوت عنه قرَّبته إلى الله، وشعر أن في الناس رحمة .

ما وراء هاتين القصتين :

لي صديق توفي رحمه الله، أول ما اشترى سيارة، وقد سُمح حديثاً بالذهاب إلى الأردن بهويَّة، - قصَّة قديمة- سيارته حديثة جداً، ركبها، وأخذ معه زوجته وأولاده، فبعد ما دخل إلى الأراضي الأردنيَّة، قفز طفل إلى أمامه، وسار فوقه، لم تأت العجلة فوقه، بل ضمن العجلات، هو حديث عهد بالقيادة، أصابه ألم، لا ينساه طوال حياته، وقف فإذا بالطفل مغمى عليه، أُخذ للمستشفى، وكان والد الطفل من أصل بدوي، قال لي: أخذني إلى البيت، وذبح لي الخروف، قال: نحن أخفناك، وأكرمه إكرامًا منقطع النظير، وكان في ضيافته طوال اليوم.

الأب عرف أن ابنه هو المخطئ، فطريق عام، طريق سيارات، وابنه قفز، وسار باعتدال، الأب أدرك أنه يوجد خطأ من ابنه، قال لي: والله أكرمني إكرامًا ما أنساه حتى الموت. أنا كاد قلبي ينخلع من الخوف، وهو طمأنني، وأطعمني، والحمد لله كانت نتيجة الفحص إيجابية، ولا يوجد شيء إطلاقاً، فقط في حالة إغماء، لأن حجمه صغير، لم يتأثر، ولم يحدث فيه شيء، قال تعالى:

(فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ)

[سورة الشورى الآية: ٤٠]

فقصَّة أرويها دائماً: أن إنسانًا بعد ما تزوج، من خمسة أشهر، فإذا بزوجته على وشك المخاض، هذا الولد ليس منه، هي زانية، فاستجوبها، فوجد أن قدمها زلت سابقاً، وكان بإمكانه أن يفضحها، وكان بإمكانه أن يطلّقها، وكان بإمكانه أن يسحقها، وكان بإمكانه أن يمرِّغ سمعتها في الوحل، لكن إمام المسجد، أو خطيب المسجد، رأى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم يقول:

((قل لجارك فلان: إنه رفيقي في الجنة))

طرق بابه، وقال: لك عندي بشارةٌ من رسول الله عليه الصلاة والسلام، والله لا أقولها لك حتى تخبرني بماذا فعلت؟ فامتنع، فلما ألحَّ عليه قال له: والله هذه المرأة التي تزوجتها هكذا حالها، وكان بإمكاني أن أطلقها، وكان بإمكاني أن أفضحها، وكان بإمكاني أن أسحقها، وكان بإمكاني أن أمرِّغ سمعتها في الوحل، ولكنني وجدتها زلّت وتابت، فأتيت بالقابلة، وولّدتها، وأخذت هذا الطفل -الذي ليس منه- تحت العباءة، ودخل المسجد، بعد أن صلى الإمام الفجر، ووضعه وراء الباب، واقتدى بالإمام، فلما انتهت الصلاة، بكى هذا الطفل الصغير، فتحلّق المصلون حوله، فدخل بينهم، وكأنه لا يعرف، قال: ما الخبر؟ قالوا: تعال انظر، قال: آتوني به أنا أكفله، فأخذه أمام الحي على أنه لقيط، -كفله-، وردَّه إلى أمه وربَّاه، فقال: قل لذلك فلان: أنه رفيقي في الجنة .

ليس من الحكمة دائماً أن تنتقم، ليس من الحكمة دائماً أن تبطش، المؤمن في بقلبه رحمة، لذلك هناك قضية خطيرة جداً في الدين -قضية التائبين- هؤلاء يجب أن تقبلهم، يجب أن تنسى ماضيهم، ويجب أن تضعهم في المكان الصحيح .

ما المقصود من فعل النبي من هذه الحادثة؟ :

النبي عليه الصلاة والسلام، علّمنا في قصَّةٍ، تقرأها فتذوب .

أحد أصحابه، وهو حاطب بن بلتعة، ارتكب خيانة عُظمى، أرسل كتاباً إلى قريش، مُفاده: أن محمداً سيغزوكم، فخذوا حذركم، أرسل كتاب مع امرأة، وضعت هذا الكتاب في عقاصة شعرها، وجاء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، يُنْبِئُهُ بما فعل حاطب، وأرسل صحابيين إلى موقع الروضة، وأخذ الكتاب من المرأة، واطلع عليه النبي عليه الصلاة والسلام، واستدعى حاطباً، وكان عمر واقفاً فقال:

((يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق، فما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إلا أن قال: لا يا عمر إنه شهد بدراً .

-أرأيتم إلى هذا الوفاء؟- .

قال: والله يا رسول الله ما كفرت، ولا ارتددت، وأنا موقنٌ بنصرك، ولكنني أردت أن أجعل من هذا العمل يداً بيضاء عندهم، أحمي بها أهلي وأولادي، لأنني لصيقٌ في قريش، فقال عليه الصلاة والسلام: إني صدَّقته فصدِّقوه، ولا تقولوا فيه إلا خيراً))

فمثلاً: وضع رجل عند رجل أمين صندوق وخانه، أراد أن يعفو عنه، لكن بعد أن يعفو عنه، لا يجعله على هذا الصندوق أميناً، يغيِّر له عمله .

النبي عليه الصلاة والسلام، علَّمنا أن الإنسان إذا تاب، يجب أن تقبل توبته، أرسله في مهمَّة سياسية مندوباً له إلى بعض الملوك -هو نفسه-، وكان من أصحاب النبي الكرام الذين فعلوا ما فعلوا بعد أن تابوا .

ما ينبغي على المسلم أن يعلمه :

فيا أيها الأخوة، الحديث يقتضي أن تقف عند الحكم الشرعي، أنت لست متفلّتاً، المؤمن مقيَّد بمنهج الله، يجب أن تعلم أن كل موقفٍ تقفه، له حكمٌ شرعي، بدءًا من الفرض، ثم من السُّنَّة المؤكَّدة، ثم من السنة غير المؤكَّدة، ثم من المُباح، ثم من الكراهة التنزيهيَّة، فالكراهة التحريميَّة، فالحرام .

كل شيءٍ في حياتك، لا بدَّ من أن تَعْتَوِرَهُ هذه الأحكام الخمسة؛ فرض، محرَّم، بينهما سنة مؤكَّدة، سنة غير مؤكَّدة، كراهة تنزيهيَّة، كراهة تحريميَّة، بالمنتصف المباح، يستوي فيه الفعل والترك .

فالمؤمن بعد أن يؤمن بالله عزَّ وجل، وبعد أن ينمو إيمانه، لا شيء يقلقه، ولا شيء يستحوذ على اهتمامه، إلا أن يتقصَّى حكم الله في كل شيء .

مثلاً: تجد بائع دجاج -والعياذ بالله- يذبح الدجاجة، وما إن ينزع عن رقبتها السكين، حتى يضعها في ماءٍ يغلي، هذا فيه تحريم شديد، الله عزَّ وجل قال:

(فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا)

[سورة الحج الآية:٣٦]

بعد أن تموت موتاً كاملاً، وتنعدم الحياة تسلخها، لا يجوز أن تسلخ ريشها أو جلدها، وهي لا تزال حيَّة.

في بعض مزارع السمك، يصطادون السمك -والسمك كله حياة- يفتح بطنه، وينزع أحشاءه، أضاف له عذاباً فوق عذابه، هذا محرَّم .

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ:

((ثِنْتَانِ حَفِظْتُهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم عن شداد بن أوس]

وعليه الصلاة والسلام: رأى شاةً تُذبح أمام أختها، فغضب غضباً شديداً، قال:

((هلا حجبتها عن أختها؟ أتريد أن تميتها مرَّتين؟))

أريد من هذا الكلام، أنك يجب أن تعرف حكم الله .

استشكال ورد :

مرَّة أخ يقرأ حديث، قال لي: لم أفهم هذه الفقرة، قلت: ما هذا الحديث؟ قال: عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ:

((ذُكِرَ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَانِ، أَحَدُهُمَا عَابِدٌ وَالْآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ: فَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ، ثُمَّ قَالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ، وَمَلَائِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّموَاتِ، وَالْأَرَضِ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، والحيتان في البحار، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

قال لي: الملائكة، أي أن الله عزَّ وجل أمرهم بذلك، أما الحيتان ما علاقتها بمعلِّم الخير لتصلي عليه؟ قلت: لعلَّه حينما يأكل السمك لا يعذِّبه، شيء واضح جداً، كله خير، حتى لو قتل المؤمن قتل بالحق، قتله وفق الشرع، من دون تعذيب، تعذيب الحيوان محرَّم .

تجربة تقصيت منها ما يلي :

فالحديث الأول: عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ:

((سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ، وَيُطْرِيهِ فِي الْمِدْحَ، فَقَالَ: أَهْلَكْتُمْ أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

وفي تجربتي المتواضعة، في الدعوة إلى الله: حينما يزداد المديح على الأخ يصدِّق ذلك ، ويستعلي على أخوانه، ويتساهل في استقامته، وقد يؤذي، من الذي حمله على فعل ذلك؟ الذي مدحه .

اقتصد في المديح، لذلك: النبي علَّمنا أن لا نزكي على الله أحدًا، أقول: أحسبه صالحاً ولا أزكي على الله أحدًا .

أنت لا تعلم الغيب :

يقولون:

((إن سيدنا الصديق، وهو على فراش الموت، قيل له: أتولّي علينا عمر بن الخطّاب؟ ألا تخاف الله؟ فانتفض وقال: أتخوفونني بالله؟! أقول: يا رب، لقد وليت عليهم أرحمهم، -شهادة الصديق لعمر بن الخطاب-، قال: هذا علمي به، فإن بدَّل وغيَّر، فلا علم لي بالغيب))

أنا أنصح لكم: إن سُئلت عن تقييم إنسان، قل: يبدو جيداً فيما أحسب، ولا أزكي على الله أحدًا، ولا أعلم ماذا سيكون بعد ذلك؟ .

في حالات كثيرة جداً في حياتنا، صار في انحراف خطير .

سمعت عن عالم من علماء الهند، بلغ من الرفعة والعُلو مبلغاً كبيراً جداً، ثم انحرف، وادَّعى الألوهيَّة، إياك أن تحكم على المستقبل، المستقبل بيد الله، احكم على الحاضر .

الآن: جيد، كل تزكية اعمل معها تحفُّظ، هذا علمي به، فإن بدَّل وغيَّر، فلا علم لي بالغيب، أحسبه صالحاً، ولا أزكي على الله أحدَ .

يقولون: إنه أول جواب دبلوماسي في القرآن، جواب السيدة بلقيس، عندما سُئلت:

(أَهَكَذَا عَرْشُكِ)

[سورة النمل الآية: ٤٢]

إن قالت: نعم، ولم يكن عرشها، وقعت في حرج شديد، وإن قالت: لا، وكان عرشها، وقعت أيضًا في حرج، فقالت:

(كَأَنَّهُ هُوَ)

[سورة النمل الآية: ٤٢]

هذا جواب ذكي جداً، والموفّقون في علاقاتهم الاجتماعيَّة، دائماً عندهم أجوبة لا يؤاخذون عليها، كيفما كان الوضع، فهم ناجون من المسؤوليَّة .

هذا جواب دقيق، أحسبه صالحاً، ولا أزكي على الله أحداً، هذا علمي به، فإن بدَّل وغيَّر، فلا علم لي بالغيب .

حديثان في ظاهرهما يبدو متعارضان، كيف نجمع بينهما؟:

أيها الأخوة، الحقيقة: في أحاديث تبدو متعارضة .

((إذا مُدِح المؤمن، ربا الإيمان في قلبه))

معنى هذا: امدحه .

ثم يقول النبي الكريم:

((أَهْلَكْتُمْ أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

يا ترى ما الذي ينبغي أن نفعله: أن نمدح أو أن لا نمدح؟ قال العلماء:

((هذه أحاديث متعارضة))

أي متعاكسة، فكيف نجمع بينها؟ .

قال: إذا كنت واثقاً من إيمانه، وواثقاً من توحيده، وواثقاً من ورعه، وواثقاً من إخلاصه، وواثقاً من أن يعزو كل نعمةٍ إلى الله، إن مدحته يزداد إيماناً، أما الإنسان الذي إيمانه وسط، تأخذه كلمتان، تأتي به، والله إذا مدحته وصدَّق، فهذه مشكلة، يصدِّق، فيستعلي عليك أنت.

آية لها مدلولها :

إذا دعا رجل شخصًا إلى الله عزَّ وجل، يأتي شخص ويقول: كلهم كذَّابون، يحطِّمه، يأتي إنسان آخر يقول لك: والله عندك أخوان ممتازون، الله يجزيك الخير، ينعشه، فإذا أردت أن تذم الأخوة باستمرار، حطَّمت الداعية، لأن عمله كله غير صحيح، غير نافع، غير مجدٍ، لا تكن متطرِّفاً، لا تعطِ أحكام حادَّة .

الآن: في من صفات الضعاف -ضعاف العقول-: لا يوجد لديه إلا أبيض وأسود، لونان صارخان، تقي أو كافر، ألا يوجد حل وسط؟ أبداً، هل يوجد في القرآن أحكام فيها تحفُّظ نسبيَّة؟ إذا كان عند الواحد أبيض أو أسود، والله غير معقول، كل شيء أبيض أو أسود، جيد أو سيء، صواب أو غلط، حق أو باطل، لا تجد إلا أبيض وأسود، لكن يمكن لنا أن ندرِّج بينهما مليون لون؛ رمادي، أسود، أسود فاقع، إلى أن نصل إلى الأبيض، كما أنه في الألوان مليون لون بين الأبيض والأسود، أيضاً في العلاقات الاجتماعية هناك درجات، هل يوجد في القرآن الكريم آية، تبيّن أن هناك وضعًا متوسِّطًا؟ قال تعالى:

(هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٦٧]

هذه آية قرآنيَّة، تبيِّن حكم متوسِّط .

آية تخصنا مغزاها في هذا الموطن :

آية ثانية:

(غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ)

[سورة الروم الآية: ٢-٤]

لماذا يفرح المؤمنين؟ بانتصار الروم على الفرس، الروم أهل كتاب، والفرس عُبَّاد الوثن -مجوس، فهل هناك اتفاقٌ بيننا وبين أهل الكتاب؟ لا، هناك عشرات القضايا المختلفة بيننا وبينهم، ولكن هناك قواسم مشتركة؛ يعتقدون بوجود إلهٍ عظيم، وبالجنَّة وبالنار، لكن بالطبع هم في إشراك، فالمؤمن أقرب إلى الكتابي منه إلى الوثني، هذا موقف معتدل .

منعطف خطير :

أيها الأخوة، فهذا الموقف الحاد كافر أو مؤمن، هوِّن عليك، وشيء دقيق قد تعلّمناه هو : لا نكفِّر بالتعيين .

أنا أقول: من الجريمة أن تقول: فلان كافر، أنت قل: كل من قال كذا: فقد كفر، من قال كذا: فقد كفر، من فعل كذا: فقد كفر، من ألقى مصحفاً في الأرض: فقد كفر، من سبَّ الدين أو الإله: فقد كفر، لا تقل: فلان كافر، لا نكفِّر بالتعيين، درءً للفِتَن .

وهناك شيء آخر: قد ينطق الإنسان بالكفر، ولا يقع عليه الكفر .

قال بعض العلماء:

((ما كل من وقع في الكفر، وقع عليه الكفر))

كيف؟ .

هذا الأعرابي الذي ركب ناقته، ليقطع بها الصحراء، أدركه التعب، استلقى على الأرض، استيقظ فلم يجد الناقة، أيقن بالموت، فبكى بكاءً شديداً، إلى أن أدركه النعاس، مرَّةً ثانية فنام، فاستيقظ فرأى الناقة، من شدة فرحه، اختلَّ توازنه، فقال:

((يا رب أنا ربك، وأنت عبدي))

فهذا الأعرابي ألم يكفر؟ لكن الكفر لم يقع عليه، لأنه ما قصد ذلك .

((ما كل من وقع في الكفر، وقع عليه الكفر))

هذه قاعدة .

((التمس لأخيك عذراً، ولو سبعين مرَّة))

لا نكفِّر بالتعيين، لا نقول: فلان كافر .

أحياناً: الإنسان يتورَّط، فيتهم إنسانًا بالكفر، فتنشأ فتنة لا تنتهي، تؤلَّف كتب، وتوزَّع هذه الكتب، ويُكفَّر أشخاص، وتوزَّع مناشير، لأنه قد وقع في تورُّط، وتكفير بالتعيين، لا نكفِّر بالتعيين، أما أن تقول: الفئة الفلانيَّة كافرة، من قال لك ذلك؟ أو تقول: الشخص الفلاني كافر، أعوذ بالله، هذا شيء غير شرعي .

((من قال: هلك الناس فهو أهلَكَهم))

هو الذي أهلكهم، فهم ليسوا كذلك، هو الذي وصفهم بالهلاك، وهم ليسوا كذلك .

((إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: قَدْ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ))

أشدُّهم هلاكاً .

عَن ابْنِ عُمَرَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَيُّمَا رَجُلٍ كَفَّرَ رَجُلًا، فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلَّا فَقَدْ بَاءَ بِالْكُفْرِ))

الكذَّاب صار كافرًا .

هذا هو الجمع بين الحديثين :

أيها الأخوة، إذاً: الجمع بين الحديثين؛ إذا كنت واثقًا من أخيك، ومن إيمانه، من توحيده، ومن تواضعه لله، وعنده معنوياته ضعيفة قليلاً، فأثنيت عليه، فبذلك أنعشته، ربا الإيمان في قلبه، أما الإنسان الذي إيمانه وسط، تأخذه كلمتان، تأتي به، والله إذا مدحته وصدَّق، فهذه مشكلة، يصدِّق، فيستعلي عليك أنت .

لذلك: كما قال عليه الصلاة والسلام:

((أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ نَحْثِيَ فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ))

((أَهْلَكْتُمْ أَوْ قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

ماذا تفهم من هذه الأحاديث؟ :

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ:

((أَثْنَى رَجُلٌ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، -ثلاثاً-، ثُمَّ قَالَ: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلَانًا وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلَا يزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود في سننه عن أبي بكرة]

أنت ماذا تعلم؟ شخص أمامك لطيف، أنيق، يحترمك زيادة، يخضع لك، يثني عليك، أنت مرتاح معه، هل تعلم ماذا يفعل في البيت؟ هل تعلم ماذا يفعل إذا خلا بنفسه؟ .

ألم أقل لكم:

((لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي، يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ، أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا -شيء خطير- جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجة في سننه]

فأنت لا تعرف، فلا تتسرَّع، لا تحكم على الآخرين بشيء لا تعلمه، لا تزكي على الله أحدًا .

أبلغ كلمة قالها النبي عليه الصلاة والسلام، عندما سمع امرأة تثني على أبي السائب، عَنْ خَارِجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ:

((أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ، بَايَعَتْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَخْبَرَتْهُ أَنَّهُ اقْتُسِمَ الْمُهَاجِرُونَ قُرْعَةً، فَطَارَ لَنَا عُثْمَانُ بْنُ مَظْعُونٍ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي أَبْيَاتِنَا، فَوَجِعَ وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَلَمَّا تُوُفِّيَ، وَغُسِّلَ، وَكُفِّنَ فِي أَثْوَابِهِ، دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهَادَتِي عَلَيْكَ لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللَّهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا يُدْرِيكِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟ فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ، فَقَالَ: أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهِ مَا أَدْرِي وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ، مَا يُفْعَلُ بِي، قَالَتْ: فَوَ اللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا))

فليس من شأن المؤمن أن يعلم المستقبل، علم المستقبل من شأن الله عزَّ وجل، فأنت حينما تحكم على إنسان في المستقبل، وقعت في مطبٍ خطير، سلوا الله السلامة .

قف عند هذه النقطة :

أيها الأخوة، بعد ذلك: في نقطة مهمة جداً: حينما يقول الله عزَّ وجل:

(رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي)

[سورة الإسراء الآية: ٨٠]

ألم يخطر في بالكم، لو أن الله قال: رب اجعلني صادقاً، فلماذا هذه التعقيدات؟ أدخلني صادقاً، وأخرجني صادقاً؟ لأن هناك آلاف الحالات تدخل صادقاً فتخرج كاذباً، يجمع أموالا طائلة، يُنشيء

مستشفى خَيري لوجه الله، بعدما يتمكّن أصحاب هذه المستشفى، يأخذون مبالغ ما أنزل الله بها من سلطان .

الآن: عندنا ظاهرة جديدة: فقد تأتي جلطة من الفاتورة، فهي فوق طاقة الإنسان، ثلث ساعة تسعون ألفًا، ليس معه قرش ليأكل، محجوزة هويته، فلا يأخذها، ممكن أن تقول: أنا أريد عمل مشروع خيري، أعمل مستشفى خيريّ، أريد أن أحكّم المرضى لوجه الله، لكنك تجد أن الفواتير ضخمة جداً، وأموالا طائلة، تتغيَّر النية في كل شيء، حتى في المجالات الدعوية، ممكن أن تبدأ طاهرًا، تبدأ مخلصًا، ولا تخرج مخلصًا، شيء مخيف، التعامل مع الله مخيف جداً، لأن الله ناظر عليك، هناك دنيا ضمن الدعوة، دنيا ضمن العمل الصالح، فالأمور تحتاج يقظة .

دائماً أقول لكم، وأنا أعني ما أقول: القمة بلوغها يحتاج إلى جهد كبيرٍ كبير، ولكن النزول منها سهل جداً، فالصعود للقمَّة يحتاج إلى سنوات؛ طريق ملتوٍ، أشواك، عقبات، غبار، حر، وصلت إلى القمَّة .

الآن: طريق النزول؛ طريق زلق، -بالتعبير الدارج: سيراميك مع صابون-، بثانية تكون تحت من الغرور؛ إياك أن تغتر، إياك أن تغتر، فالغرور قاتل، الإنسان يتمنى ألاّ يتكلَّم هذا الكلام .

الصحابة الكرام على علو قدرهم بحنين، بفتح مكة، كانت قوتهم أقوى قوة ضاربة في الجزيرة، عشرة آلاف مقاتل، إرادتهم نافذة، أقدر قوة، فقالوا قولا تورَّطوا فيه:

((لن نُغلب من قوة))

نحن أقوياء، قال تعالى:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

[سورة التوبة الآية: ٢٥]

فكن معتدلاً في دعوتك .

((وَيْلَكَ قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ مِرَارًا، ثُمَّ قَالَ: مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لَا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلَانًا وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلَا أُزَكِّي عَلَى اللَّهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ))

هل مدح الذات مقبول عند الله، وما الدليل؟ :

أخواننا الكرام، عندنا مرض، وهو: مرض مدح الذات، هناك من يمدح الآخرين، لكن مدح الذات، فهل مدح الذات مقبول عند الله؟ أبداً، الدليل:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة النساء الآية: ٤٩]

لا تمدح نفسك، تجد شخص يمدح نفسه مدح غير معقول، ويستجدي المديح، ويثير الناس ليمدحوه، هذا أيضاً إنسان مريض، وإخلاصه ضعيف، كلّما اشتد إخلاصك أنت مستغن عن المديح، وكلّما ضعف إخلاصك أنت مفتقر إلى المديح، لا تكن تحت رحمة المدّاحين .

((أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ نَحْثِيَ فِي وُجُوهِ الْمَدَّاحِينَ التُّرَابَ))

وعَنْ هَمَّامِ بْنِ الْحَارِثِ، عن المقداد، أَنَّ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ، فَعَمِدَ الْمِقْدَادُ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ، وَكَانَ رَجُلًا ضَخْمًا، وجَعَلَ يَحْثُو فِي وَجْهِهِ الْحَصْبَاءَ، فَقَالَ عُثْمَانُ:

((مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا رَأَيْتُمْ الْمَدَّاحِينَ فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمْ التُّرَابَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

لكن إذا كانت معنويات إنسان ضعيفة، وهو طاهر نقي، ومدحته، فالإيمان يربو في قلبه ، امدحه مدحًا معتدلاً، وامدحه مدحًا فيه تحفُّظ .

إذاً: أول حديث، ثاني حديث، ثالث حديث: تبيح أو ترشد إلى عدم المديح، وهناك أحاديث تبيح المديح، وأحاديث تطالب بالمديح، المؤمن حكيم، قال تعالى:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

[سورة البقرة الآية: ٢٦٩]

ما يتعلق بأصول الفقه :

العلماء قالوا:

((طريق الجمع بين الأحاديث))

هذا موضوع دقيق بأصول الفقه، التعارض بين النصوص، كيف تجمع بينهما؟ .

واحد يقول لك: في حديث:

((جَاءَ رَجُلٌ كَأَنَّهُ بَدَوِيٌّ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا تَرَى فِي رَجُلٍ مَسَّ ذَكَرَهُ فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: وَهَلْ هُوَ إِلا بَضْعَةٌ مِنْكَ؟))

وفي حديث:

((يجب أن يتوضَّأ))

كيف نجمع بينهما؟ في أحوال متفاوتة، إذا لم يشعر بشيء، يجب أن يبقى متوضِّئاً، إن شعر بشيء، يجب أن يعيد وضوءه، فالتعارض يُحل بتفاصيل .

ما معنى هذا القول: (إن كان الممدوح.....) وما أمثلته؟ :

طريق الجمع بين الأحاديث، أن يقال:

((إن كان الممدوح عنده كمالٌ، كمال إيمانٍ ويقين، ورياضة نفسٍ، ومعرفة تامة، بحيث لا يفتتن .

-سيدنا عمر كان على المنبر يخطب، فجأةً قطع خطابه، وتكلَّم كلام ليس له معنى:

((يا بن الخطَّاب -يخاطب نفسه-، كنت ترعى الإبل بقراريط لبني مخزوم، -أي أنت راعي الإبل بقراريط لبني مخزوم، وأكمل الخطبة، ما فهم الناس ماذا حدث؟ فهذه الجملة ليست لها علاقة بالخطبة أبداً، الخطبة قُطعت وظهر إعلان مثل الأخبار، ليست لها علاقة- فسألوه: أنه ماذا حدث لما قلت هكذا؟ قال: جاءتني نفسي، وقالت لي: أنت أمير المؤمنين ليس بينك وبين الله أحد -أنت أعلى واحد، أنت قمة المجتمع الإسلامي-، أردت أن أعرِّفها قدرها، أنت كنت راعيًا ترعى الإبل بقراريط لبني مخزوم، قال: أردت أن أعرِّفها قدرها))

ومرَّة واحد مدحه من أصحابه، فأحدَّ النظر إليه، فخاف، فقد كان قد قال له:

((والله ما رأينا خيراً منك بعد رسول الله، فحد النظر له فخاف، فقال أحدهم: لا والله، لقد رأينا من هو خيراً منك، قال: ومن هو؟ قال: أبو بكر، فقال رضي الله عنه: كذبتم جميعاً وصدق -عدَّ سكوتهم كذباً-، كنت أضل من بعيري، وكان أبو بكر أطيب من ريح المسك))

هذه الموضوعيَّة والنزاهة .

سيدنا الصديق لعلو قدره عند الله، عقب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم قال:

((يا عمر، مدَّ يدك لأبايعك خليفة للمسلمين، سيدنا عمر صُعق وقال له: أنا؟! أي أرضٍ تقلني، وأي سماءٍ تظلني، إن كنت أميراً على قومٍ فيهم أبو بكر؟ -أيعقل هذا؟!!-، قال له: أنت أقوى مني يا عمر، قال له: أنت أفضل مني، ثم قال عمر: يا أبا بكر، قوتي إلى فضلك))

أرأيت إلى هذه الموضوعيَّة؟ .

سيدنا عمر وهو على المنبر نزل درجة، قال:

((ما كان الله ليراني، أن أرى نفسي في مقام أبي بكر))

سيدنا عثمان نزل درجة، وهو عين الكمال أيضاً، ما أراد أن يقلّده، سيدنا عمر عملها مرَّة في أدب جم.

فقال-: إن كان الممدوح عنده كمالٌ، كمال إيمانٍ ويقين، ورياضة نفسٍ، ومعرفةٌ تامة حيث لا يفتتن، ولا يغتر بذلك، ولا تلعب به نفسه، فليس بحرامٍ ولا مكروه .

-فأنت تمدح شخصًا موحِّدًا، شخصًا متواضعًا، شخصًا له رياضة مع نفسه، شخصًا فنيَ بحب الله، شخصًا يرى فضل الله عليه، هذا لا مانع إذا مدحته .

قال-: فليس بحرام ولا مكروه، وإن خيف عليه شيءٌ من هذه الأمور، كره مدحه في وجهه كراهة شديدة، وعلى هذا التفصيل، تنزَّل الأحاديث المختلفة في ذلك))

نصيحة: إذا كان الإنسان بحاجة إلى أن تمدحه، فامدحه بتحفُّظ .

أبلغ ما قيل في المديح: أن سيدنا الصديق مُدِح، فتوجَّه إلى الله، قال:

((يا رب، أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهمَّ اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون))

ما يحرم مدحه :

أيها الأخوة، إذا كان الإنسان مبتدعًا في الدين ومدحته، فكأنك حملت معولاً هدَّمت به الدين، إنسان يفهم القرآن فهمًا عصبيًا، حيث إن كل ما يفعله الفسقة، يراه مباحًا في القرآن - هذه قراءة معاصرة– .

قال لي شخص: دخل إلى بيت، وصاحب البيت له دعوة، قال لي: وقف له، واحترمه، وأثنى عليه، ووضعه إلى جانبه، المبتدع إذا احترمته وعظَّمته، فقد هدمت الدين .

إنسان جاء بالدين بشيء، ليس من أصل الدين، ومعرض، وأنت تمدحه، لذلك: أنت ممنوع أن تمدح شخصين؛ شخصًا مبتدعًا عقيدته فاسدة، وشخصًا فاسقًا؛ المبتدع إذا مدحته فقد هَدَّمت الدين، والفاسق إذا مدحته غضب الله عزَّ وجل، لا تمدح فاسقاً ولا مبتدعاً .

ما يجوز مدحهم :

مما جاء في الإباحة -إباحة المديح-: قوله صلى الله عليه وسلَّم لأبي بكر رضي الله عنه:

((أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ))

أي من الذين يُدعون من جميع أبواب الجنة لدخولها .

وفي حديثٍ آخر:

((لستَ منهم))

أي لست من الذين يسبلون أُزرهم خيلاءً، أي أن الإنسان إذا أسبل إزاره خيلاءً، له عقابه عند الله، فخاف سيدنا الصديق فقال له:

((أنت لست منهم))

مدحه، أنت لست من هؤلاء .

وقال لعمر رضي الله عنه:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا، إلا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

خلاصة القول فيما سبق :

أيها الأخوة، والأحاديث في الإباحة والتحريم كثيرة، فالجمع بينهما: يقتضي أن تعرف من تمدح، ومن لا تمدح، فضعيف الإيمان الذي يزهو بمديحك، ويستعلي على خلق الله، ويكون هذا المديح حجاباً له عن الله عزَّ وجل، ينبغي ألاّ تمدحه، وإذا كُلّفت أن تمدح إنسانًا في غيبته فتحقَّظ، وقل: أحسبه صالحاً، ولا أزكي على الله أحدًا .

بالمناسبة: ولا تمدح نفسك، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ)

[سورة النساء الآية: ٤٩]

نهاية المطاف :

أخواننا الكرام، نحن في أمَسِّ الحاجة إليه، قال:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى)

[سورة النجم الآية: ٣-٤]

لو دقَّقت، وجدت معظم الناس، ينطق عن الهوى، كلامه وفق مصالحه .

أنا مرَّة صار معي حالة، كنت أريد أن أشتري ستارًا، لأضعه بغرفة الضيوف، دُللتُ على إنسان بائع في بعض أسواق دمشق، فقلت له: أريد ستارًا، وعرض الحائط ثلاثة أمتار، فألقى علي محاضرة، وقال لي: أستاذ هذا الستار، إذا أخذت عرض الحائط، وضربته باثنين، وأضفت له مترًا، يكون مظهره جميل جداً، يبدو بشكل مُثَنَّى، وهذا أحلى، انتقيت لونا وقلت له : والله هذا أعجبني،

فقاسه، فإذا به ينقصه متر، قال لي: هذا يا أستاذ المطرَّز على الفرد يأتي أحلى، قبل نصف دقيقة، أعطاني قاعدة طويلة عريضة: أن عرض الحائط ضرب اثنين زائد متر، عندما وجد طول هذا القماش، الذي يريد أن يبيعه، أقل من عرض الحائط، ضرب اثنين بمتر، قال لي: هذا المطرز على الفرد يأتي أحلى، هو ينطق عن الهوى بالضبط .

فالذي ينطق عن الحق، قلة قليلة جداً، مصالح، ما دام لنا عنده مصلحة نمدحه بغير حساب، يسمعك ابنك فيصدِّقك، لأن ابنك ليس عنده كذب، يسمعك أخوه يصدقك، يمكن أن يشاركه واحد، وأنت تمدحه، لكي تأخذ دَينك منه فقط، فتقول له: لم أر مثلك، أنت ورع، تقي، نقي، لكي تأخذ دينَك منه، سمعك واحد فوضع معه مئتي ألف، فأكلها منه، هكذا يصير، قبل أن تمدح أنت مؤاخذ، فكثير من الناس، دفعوا أموالا طائلة بمديح كاذب .

قال لي إنسان: زوَّجت ابنتي، وسألت عنه، فقالوا: آدمي، وهو يأتي ببنات على البيت، وهو متزوِّج، فقبل أن تمدح .

الآن: أكثر الزواج الذي فيها مشكلة، سببها: إذا سئل: تزوجه ابنتك؟ يقول لك: طبعاً، فهو ليس متأكدًا، ثم يظهر أنه يشرب الخمر، أو تارك صلاة، أو مُقامر، أو عنده علل خفيَّة، فالمديح شيء خطير جداً .

أما أغرب قصة عرفتها عن إنسان، سُئل عن إنسان من أجل زواج، فهذا الإنسان صدق وقال: والله سيء، وهذا واجب أن تكون صادقًا في موضوع الزواج، موضوع الشركة، موضوع البيع والشراء
.

فهذا قال: والله سألت عنك فلانًا، فقيل لي: إنك لست مستقيمًا، سألت فلانًا، فقال لي: إنك سيء، أي منتهى الوقاحة، منتهى الخسَّة، إذا استنصحك إنسان، نقلت أنت رأيك للطرف الثاني، فبذلك تنشأ عداوات .

فقال لي أخ يعمل في المالية: إنسان عليه ضريبة معينة، تأتي شكوى أنه عنده مستودعات، وعنده بضاعة، قال لي: أغفلناها، فأتت شكوى ثانية للوزير، لرئاسة الوزراء، شيء غير معقول، فوراء هذا الإنسان، من يحاول أن يحطِّمه عن طريق الضرائب، في النهاية بدا أنهم سألوا الشخص عنه، فأجابهم إجابة غير إيجابيَّة، فأراد الطرف الثاني أن ينتقم منه .

فإذا سألك واحد في موضوع شيء بديهي جداً، لا تقل للطرف الثاني: والله سألنا عنك فلانًا، وقال: إنك سيء، هذه تعمل عداوات، تعمل فتنًا .

والناس يمدح بعضهم كذباً، لكي يتخلَّصوا من المسؤوليَّة، لو كان المجلس بالأمانة يقول : والله ليس لك مصلحة بهذا الإنسان، أن يتزوج ابنتك، أما إن قلتَها، ونقلها له عنك، تنشأ فتن كبيرة جداً، لدرجة تصير في عداء، وفي خصومات لا تنتهي، فإذا كان المؤمن يخاف من الله عزَّ وجل،

واستنصحوه بموضوع، وأدلى برأيه الصحيح، فلا ينبغي أن يقول للطرف الثاني، مَن الذي قال بهذا.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٧٨-١٠١) : باب: كتاب الدعوات - ما أنواع المصائب؟ وما الحكمة من وجودها في الأرض؟ وما مهمة الدعاء؟ ومتى يستجاب، ومتى لا يستجاب؟ وما هي الأحاديث التي وردت عن النبي بشأنه؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٦-٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هو المخرج عند نزول المصائب والنكبات على الإنسان؟ :

أيها الأخوة الكرام، حينما تشتد الأمور، وحينما تستحكم المصائب، وحينما ينزل البلاء، لا ينفع إلا الدعاء، والدعاء كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: هو العبادة، والعبادة علة وجودك على سطح الأرض .

عَن النُّعْمَان بْن بَشِيرٍ، سمعت النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:

((إن الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ، ثم قرأ: -وقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ-))

[أخرجه ابن ماجه في سننه وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه]

ما هو المعنى المخالف لهذه الآية، كما قرره علماء الأصول؟ :

قال تعالى:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً)

[سورة الفرقان الآية: ٧٧]

المعنى المخالف الذي يقرره علماء الأصول: أن الله يعبأ بكم إذا دعوتموه، وأنتم حينما تدعون الله عز وجل، تؤكدون أربع حقائق:

الحقيقة الأولى: أنك مؤمن بوجوده، ومؤمن بعلمه، ومؤمن بقدرته، ومؤمن برحمته. مستحيل أن تخاطب إنساناً لا تؤمن بوجوده، مستحيل أن تخاطب إنساناً أصمَّ، مستحيل أن تطلب من إنسان ضعيف، مستحيل أن تطلب من قوي وهو لا يحبك، أما حينما تدعو الله عز وجل، فأنت تؤكد أنك مؤمن بوجوده، مؤمن بعلمه، مؤمن بقدرته، مؤمن برحمته، قال تعالى:

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً)

[سورة الفرقان الآية: ٧٧]

سبب اختيار هذا الموضوع:

قد يقول أحدكم: لماذا اخترت هذا الموضوع بالذات؟ أحياناً تشتد المصائب، تضيق الأمور، تشح الأمطار، يضجر الناس، تندر الأعمال، في مثل هذه الأحوال، ليس لنا إلا الدعاء .

((وكان عليه الصلاة والسلام إذا حزبه أمر، بادر إلى الصلاة))

ما الحكمة الإلهية من هذه المصائب ؟ :

وقد يقول أحدهم: ما الحكمة من هذه المصائب التي تدعونا إلى أن نتضرع إلى الله عز وجل؟ الغاية أن تتصل بالله، الغاية أن تتضرع إليه، الغاية أن تستجير به، ولكن حينما تفتر الهمم تأتي هذه المحرضات .

يجب أن نعلم علم اليقين: أنه لا بد من أن تتصل بالله، لا بد من أن تقبل على الله، لا بد من أن تستسلم لله، هذا يحتاج إلى موضوع، قد تأتي المصيبة كي تدفعك إلى باب الله، فأتمنى أن يكون هذا المثل مطابقاً للواقع، طفل كل سعادته أن يكون مع أمه، كل شبعه أن يكون مع أمه، كل ريّه أن يكون مع أمه، كل نظافته أن يكون مع أمه، كل سروره أن يكون مع أمه، كل أمنه أن يكون مع أمه، كل مستقبله أن يكون مع أمه، فإذا ترك يدها، وشرد عنها، وجاءه كلب عقور، ونبح عليه، هدف هذا الكلب: مسخر كي يعيد هذا الطفل إلى أمه، هذا الكلب المخيف مهمته: أن يعيد الطفل إلى أمه .

فأنت إذا رجعت إلى الله عز وجل حلت المشكلة، وإن لم ترجع قال: من لم تحدث المصيبة في نفسه موعظة، فمصيبته في نفسه أكبر .

يجب أن نعلم علم اليقين: أن فلسفة المصيبة جزء من الدين -أن تفقه فلسفة المصيبة-، الدنيا مفعمة بالمصائب، مصائب أمطار، نصف دمشق تشرب بالصهاريج، لا توجد أمطار، الآبار أكثرها قد جف، قد تضيق الأرزاق، قد تشتد الحاجات، قد يعم المرض ، قد يعم الفقر، هناك حكمة بالغة من سوق هذه المصائب .

قد يقول قائل :

قد يقول قائلٌ من الناس: ما بال هؤلاء الشاردين المنحرفين في الغرب، الغارقين في المعاصي والآثام، رزقهم وفير، الجواب: قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٤٤]

يعني: إما أن يكون الإنسان في العناية المشددة، وإما أن يكون ميؤوساً من شفائه، أيهما أفضل؟ أن يكون مطموعاً في شفائه، وهو في العناية المشددة، أم أن يكون ميؤوساً من شفائه، وقد يعطى ما يريد؟.

محور هذا الدرس :

أنا يعنيني من هذا الدرس: أن الإنسان حينما تشتد عليه الأمور، ليس له بابٌ إلا الله، والآية الكريمة:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً)

[سورة الطلاق الآية: ٢]

كلمة مخرجاً: تعني أن الأبواب كلها مغلقة، الطرق كلها مسدودة، الأعمال كلها مقفلة، هذا المخرج، الإنسان متى يبحث عن مخرج؟ حينما يرى أن الأبواب كلها مغلقة، إذا رآها مغلقة، يبحث عن مخرج، قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)

[سورة الطلاق الآية: ٢-٣]

كم نوع للمصائب؟ وما هما؟ :

قال تعالى:

(وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ)

[سورة المؤمنون الآية: ٣٠]

وقد ذكرت لكم كثيراً، أن المصائب خمسة أنواع: نوعان للعصاة الكفار، ونوعان للمؤمنين، ونوع للأنبياء، مصائب الكفار مصائب قصم وردع، ومصائب المؤمنين دفع ورفع، ومصائب الأنبياء كشف، يوجد كمال يفوق حد الخيال، هذا الكمال لا يظهر إلا في ظرف صعب .

ذهب إلى الطائف، كذبه أهلها، سخروا منه، بالغوا في إيذائه، قال:

((يا رب إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكن عافيتك أوسع لي))

فعلى الإنسان أن يوطن نفسه: أنه توجد معالجة من حين إلى آخر .

دقق :

أخواننا الكرام، السيارة صنعت كي تسير، وفيها مكبح، والمكبح يتناقض مع أصل صنعها، صنعت لتسير والمكبح يوقفها، ولكن المكبح ضروري جداً لسلامتها، الإنسان حينما يعلم علم اليقين حكمة المصيبة، الله عز وجل غني عن تعذيبنا، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً)

[سورة النساء الآية: ١٤٧]

هذه الآية دقيقة جداً، الله عز وجل سخر هذا الكون تسخيرين: تسخير تعريف، وتسخير تكريم، رد فعل التعريف أن تؤمن، ورد فعل التكريم أن تشكر، أنت حينما تؤمن وتشكر، حققت الهدف من وجودك .

هذا هو الحق :

أيها الأخوة، حينما تشتد الأمور، كأن الله جل جلاله، يضيق على العبد، كي يتصل به، يضيق عليه كي يأتي إلى بابه، يضيق عليه كي يتضرع له، يضيق عليه ليسمع صوته، يضيق عليه ليكون دعاءه حاراً لا فاتراً، يضيق عليه ليتذلل العبد أمام ربه، وكلما تذللت على أبواب الله عز وجل رفعك الله، وكلما استكبرت أن تدعو الله عز وجل، أذلك الله .

يجب أن نوطن أنفسنا جميعاً: على أن هذه الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، أنت مجبول ومفطور بالتعبير الحديث: -مبرمج أو مولّف- على أن كل شيء، إذا استمر فقد بريقه، وما رفع الناس شيئاً إلا وضعه الله عز وجل، لماذا؟ لأنك له، لأنك إن كنت لغيره احتقرت نفسك، قال تعالى:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ)

[سورة البقرة الآية: ١٣٠]

إن لم تكن لله، لا تعرف حقيقة نفسك، إنسان مؤهل ليكون في أعلى درجة، رضي بأدنى درجة، احتقر نفسه، قبل أن يعيش ليأكل، يقول لك: ندفش، هذا كلام من؟ هذا كلام الجهل، كلام الشيطان، كلام الشرود، كلام الحمق، كلام الغباء، ماذا تدفش؟ الذي خلقك بحكمة بالغة، خلقك كي تكون له، كي تعرفه، وتقبل عليه .

يجب أن نوطن أنفسنا: أنه يوجد مشكلات، المشكلة هي دافع لك إلى الله، هذا الكلب لما نبح على الطفل؟ الحكمة: أن يعود الطفل إلى يد أمه، كي يأكل، ويشبع، ويرتوي، ويأمن، ويسعد، وتحقق كل مصالحه .

الهدف من هذه الشكاوى التي تطرق باب الإنسان وتؤلمه :

أيها الأخوة، في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، كتاب الدعوات، وما اخترت هذا الباب، إلا لشعوري: أن شكاوى كثيرة جداً، قد يشتكي العبد منها؛ يشتكي من قلة الرزق، يشتكي من عدم وجود عمل يعمل به، يشتكي من شقاق زوجي، يشتكي من مرض، قد يشتكي من سوء معاملة، هذه كلها محرضات، هذه كلها تدفعك إلى باب الله عز وجل، لكن يجب أن تعلم أنك بالدعاء أقوى إنسان، لأن خالق الكون معك .

ربك بانتظارك :

أيها الأخوة، هل تقبلون أن يكون كلام الله عز وجل لا معنى له؟ مستحيل، كلام خالق السموات والأرض، يقول الله عز وجل:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

[سورة غافر الآية: ٦٠]

ما أمرك أن تدعوه إلا ليستجيب لك، هو ينتظرك، ينتظر أن تدعوه، والله عشرات بل مئات الأخوة الكرام، حدثوني عن بعض تجاربهم في هذا الموضوع، وقع في ضائقة شديدة، فلما دعا الله مخلصاً، كشف الله، وقع في يأس من الناس، فلما عقد الأمل على الله، أنقذه الله عز وجل، لعل الله عز وجل له سياسة حكيمة، يغلق أمامك أبواب الأرض باباً بَاباً، متعلق بإنسان ينسحب من وعده، متعلق بإنسان يتخلى عنك، متعلق بإنسان يدعمك ينسحب، متعلق بإنسان ينقذك يختفي، هذه أبواب أنت ظننتها مفتوحة، أغلقها الله أمامك، وفتح لك بابه .

ما هو المطلوب منك؟ :

وقال تعالى:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

[سورة غافر الآية: ٦٠]

يعني: يا أيها الأخ، يجب أن تعود نفسك، أن تكون مع الله بالدعاء دائماً؛ قبل أن تقدم على عمل، قبل أن تقابل إنسانًا، قبل أن توقع عقدًا، قبل أن تشتري، قبل أن تبيع، قبل أن تنشر الحق .

((يا رب، إني تبرأت من حولي وقوتي وعلمي، والتجأت إلى حولك وعلمك وقوتك))

مثال يجر وراءه كلام عميق :

أيها الأخوة، كنت أضرب مثلاً طريفًا: إذا كان الإنسان في أيام الشتاء الباردة، يرتدي قميصًا، ورداء، ومعطفًا، والأكمام ضيقة، ويحمل حاجات في يديه الاثنتين، وقال له طفل: يا عم، كم الساعة؟ يضطر أن يضع الحاجات على الأرض، ويزيح أول كم، والمعطف، والرداء، ويقول له: الساعة السابعة، طفل سألك سؤالاً، وأنت تستحي ألاّ تجيبه ، وأنت حينما تدعو الله عز وجل، تسأل خالق الأكوان، تسأل الذي يقول لك:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

[سورة غافر الآية: ٦٠]

((من لا يدعني أغضب عليه))

((إن الله يحب الملحين بالدعاء))

((إن الله يحب من عبده، أن يسأله شسع نعله إذا انقطع))

((إن الله يحب من العبد، أن يسأله ملح طعامه))

إن الله يحب من العبد، أن يسأله حاجته كلها .

(وقال ربكم ادعوني أستجب)

فعل الطلب وجواب الطلب: ادعوني أستجب .

كلمة سمعتها :

أيها الأخوة، يوجد كلمة سمعتها، أعجبتني كثيراً: الدعاء يقوي العقيدة، أنت معتقد أن الله موجود، والله سميع، وبصير، وقدير، ورحيم، واقع في مشكلة كبيرة، ليس لها حل، وتوهمت أن الحلول كلها مغلقة، فالتجأت إلى الله عز وجل، فإذا هذه العقدة قد حلت، الأمر تيسر، العقبة زالت، الصارف أغلق، الحاجة أصبحت بين يديك، ماذا تشعر؟ أن الله سمع دعاءك، واستجاب لك، قال تعالى:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

[سورة غافر الآية: ٦٠]

من شروط الدعاء :

وفي آية أخرى:

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

[سورة الأعراف الآية: ٥٥]

الدعاء أهم شرطيه: التضرع الحقيقي، والأدب مع الله في الدعاء بصوت منخفض، لا بصوت مرتفع، إنك لا تخاطب أصمَّ، بل إن بعض الأنبياء، قال تعالى:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً)

[سورة مريم الآية: ٣]

يمكن أن تكون في أزمة، ويمكن ألاّ تقدر على أن تحرك شفتيك، تقول بقلبك: يا رب، ليس لي إلا أنت، يا رب أنقذني .

قصة لها مدلولها :

يروى أن الحسن البصري، له موقف، أدى رسالة العلماء بإنكار المنكر في عهد الحجاج، فلما بلغ الحجاج أنه أنكر هذا المنكر، غضب غضباً شديداً، وقال لمن حوله:

((والله يا جبناء لأروينكم من دمه، وأمر بقتله، -وقتل الإنسان عند الحجاج، شيء يسير جداً-، وجيء بالسياف، ومد النطع، وطلب الحسن البصري ليقتل .

دخل الحسن البصري لمجلس الحجاج، رأى السياف جاهزًا، والنطع ممدودًا، لئلا يصاب، ويتلوث الفرش بدم المقتول، حرك الحسن البصري شفتيه، لم يفهم منهم أحد شيئًا، فإذا بالحجاج يقف له، ويقول: أهلاً بأبي سعيد، وما زال يقربه حتى أجلسه إلى جنبه على سريره، قال: يا أبا سعيد، أنت سيد العلماء، واستفتاه في موضوع، وأكرمه، وقيل: عطره، وشيعه إلى باب القصر، السياف قال: لماذا جيء به؟ جيء به ليقطع رأسه، تبعه الحاجب وقال: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فعل بك، فماذا قلت لربك؟! قال: قلت لربي: يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته علي برداً وسلاماً، كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم))

الله معك دائماً، قال تعالى:

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى * قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

[سورة طه الآية: ٤٥-٤٦]

الله معك، أنت حينما تعلم: أن الله معك، وأن الأمر كله بيد الله، وحينما تسأل الله السلامة والنجاة ينجيك.

إذا ضاق بك الأمر التجىء إلى الله :

مرةً ثانية: لكثرة ما ترفع شكاوى ومشكلات، ضيق في الأرزاق، شح في المياه، ندرة في الأعمال.
أقول لأخوتي الكرام: ليس لنا إلا الله، ولعل الله عز وجل يسوقنا إلى ذلك، يدفعنا إلى أن نعبده

عبادةً صادقة، يدفعنا إلى أن يسمع صوتنا، يدفعنا إلى صلاة حارة، الدعاء يرفع مستوى الصلاة، الصلاة هي دعاء، قال تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت الآية: ٤٥]

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

[سورة الأعراف الآية: ٥٥]

تضرع إلى الله .

اعتقد هذا الاعتقاد :

أقول لكم هذه الحقيقة: دمشق وما حولها، نسب الأمطار لم تزد على الثلث، مئتين وعشرين ميليمترًا، والشيء الواضح جداً: أن أكثر الآبار جفت الآن، يوجد مناطق لا تشرب إلا بالصهاريج . أنا أعتقد اعتقاداً جازماً: لو أن أهل هذه البلدة بكبرائها وعامتها، خرجوا إلى صعيد واسع، وتضرعوا إلى الله عز وجل، والله لنزل عليهم من الأمطار ما لا يصدق، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

[سورة الحجر الآية: ٢١]

أمطار دمشق كلها في العام مئتان وعشرون ميليمترًا، مئتان واثنا عشر، في رأس الخيمة من سنتين، نزل في ليلة واحدة مئتان وخمسون ميليمترًا، أمطار السنة كلها يمكن أن تهطل في ليلة واحدة، قال تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

[سورة الحجر الآية: ٢١]

لكن من ضعف اعتقاد الناس: انصرفوا عن صلاة الاستسقاء، هذه صلاة ينبغي أن تقام، من أجل أن تقوى عقيدتنا بالله عز وجل، من أجل أن تقوى عقيدتنا بالله، الله موجود، والأمر كله بيد الله عز وجل .

متى يستجاب الدعاء، ومتى لا يستجاب؟ وهل يعد مستجاب الدعاء من المراتب العليا في الإيمان؟:

قال تعالى:

(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

[سورة الأعراف الآية: ٥٥]

يعني: لا يستجيب لهؤلاء الذين يعتدون على أخوانهم، من هو الذي يستجاب دعاؤه؟ هو المستقيم، الوقاف عند حدود الله، المحسن الورع، هذا مستجاب الدعوة، مرتبة عالية جداً، كيف نقول نحن في

الحياة العلمية: فلان يحمل دكتوراه، دكتوراه دولة أرقى، فلان له ثلاثمئة مؤلف، فلان يحتل أعظم منصب بالجامعة، هذه مرتبة، ومن مراتب الإيمان العالية: أن تكون مستجاب الدعوة .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

هذه مرتبة عالية، أن تكون مستجاب الدعاء، لا يكون المرء مستجاب الدعاء، إلا إذا كان مستقيماً على أمر الله، إذا كان مستقيماً، كان مستجاب الدعاء، وإن لم يكن كذلك، لم يكن مستجاب الدعاء .

قال بعضهم:

(((إنه لا يحب المعتدين)إذا اعتدى على شروط الدعاء))

أي دعا بقلب ساه لاه، أو دعا بصوت مرتفع، اعتدى على شروط الدعاء، أو اعتدى على أخوانه، فقد رتبة الدعاء المستجاب .

إلى ماذا تصحبنا هذه الآيات؟ وما هي موضع الشاهد فيها؟ وما مرادها ؟

قال تعالى:

(فَإِنِّي قَرِيبٌ)

[سورة البقرة الآية: ١٨٦]

أقرب إلينا من حبل الوريد، إذا كان مثلاً جهاز كهربائي، أقرب شيء له الكهرباء، التي تسري في ثنايا هذا الجهاز، هل يوجد شيء أقرب من هذا الجهاز من الكهرباء التي يعمل بها؟ ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، من حبل الحياة .

بالمناسبة: أكثر من عشر آيات، هذه الآيات تبين، قال تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة البقرة الآية: ٢١٩]

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ)

[سورة البقرة الآية: ٢١٩]

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)

[سورة البقرة الآية: ١٨٩]

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٢٢]

بين السؤال والجواب، في كلمة: قل دائماً، إلا في هذه الآية:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ)

[سورة البقرة الآية: ١٨٦]

لا يوجد قل لهم: إني قريب، هذه إشارة إلى أنه ليس بين الله وبين عبده واسطة، ادعُ الله أينما كنت.

الدليل على موضع الشاهد :

أكبر دليل وأكبر مثل رائع: هذا النبي الكريم، الذي كان في بطن الحوت، إنسان فجأةً يجد نفسه في بطن الحوت، الأمل صفر، التقمه الحوت، وغاص به إلى أعماق البحر، لا يوجد الأمل، يتصل به، لا يوجد معه خلوي، انتهى سيدنا يونس، نادى في الظلمات، في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة الليل، قال تعالى:

(فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء الآية: ٨٧-٨٨]

لكن والله أيها الأخوة، أقرأ هذه الآية ألف مرة، لا أرتوي منها، هناك تعقيب قلب هذه القصة إلى قانون، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء الآية: ٨٨]

في أي زمان، وفي أي مكان، وفي أي ظرف، في البر والبحر والجو، وفي ضيق الدنيا وسعتها، وفي الصحة والمرض، والقوة والضعف، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء الآية: ٨٨]

هذا كلام خالق الكون، هذا كلام رب العالمين .

أمنية نابعة من قلب صادق ومحب

أيها الأخوة، أتمنى عليكم أن تكونوا مع الله دائماً، في الدعاء؛ قبل أن تسافر، قبل أن تفعل شيئاً، قبل أن تعطي، قبل أن تمنع، قبل أن تعقد، قبل أن توقع، ادع الله، قوة الله بين يديك، علم الله بين يديك، رحمة الله بين يديك، لطف الله بين يديك، إن كنت مؤمناً بالله، يجب أن تدعوه ليلاً ونهاراً، وكلما دعوته في موضوع واستجاب لك، قويت عقيدتك به، الأمر بيده .

ثمة كتاب في الأسواق، امرأة مدرسة في المغرب، درست في فرنسا ولها زوج، أصيبت بمرض عضال، وأخبرها الطبيب أنه بقي لها أسابيع، أرادت أن تعتمر قبل أن تموت، فذهبت إلى بيت الله الحرام، وطافت ثمانية عشر شوطاً، وهي تبكي، وتدعو، وشربت من ماء زمزم، والله عز وجل استجاب لها، وأزاح عنها كابوس هذا المرض العضال، وكتبت قصةً في هذا الموضوع . هناك قصص كثيرة جداً؛ مهما يكن الأمر مستعصياً، الله بيده الحل لكل شيء، حينما تؤمن أن الله على كل شيء قدير، انتهى الأمر .

ما استثناه العلماء من شروط الدعاء :

أيها الأخوة، لكن العلماء لهم استثناءات، هناك رجلان مستثنيان من شروط الدعاء : المضطر والمظلوم، المضطر مستثنى من شروط الدعاء، لا بحسب حال الداعي، فقد يكون غير مستقيم، ولكن بحسب عدل الله عز وجل، هذا المظلوم، والمضطر لا بحسب حال الداعي، قد يكون غير مستقيم، ولكن بحسب رحمة الله عز وجل: يستجيب للمضطر، ويستجيب للمظلوم .

عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ))

قال تعالى:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ)

[سورة النمل الآية: ٦٢]

لا بد من أنك قد خضت هذه التجربة :

أيها الأخوة، القصص في هذا الموضوع لا تعد ولا تحصى، وأنا متأكد أنه: ما من أحد إلا وله مع الله تجربة في هذا الموضوع، وقع في أزمة، في مشكلة، لم يجد إلا الدعاء ، الله عز وجل يريدك أن تدع أبواب الأرض، وأن تطرق أبواب السماء، يريدك أن تيأس مما في أيدي الخلق، وأن تعقد الأمل إلى ما عند الله عز وجل، الله عز وجل يريدك أن تسأله بحرارة، يحب أن يسمع صوتك .

وقد ورد في الأثر:

((أن الله يحب أن يسمع صوت عبده المؤمن))

ما يتميز به الأنبياء على المؤمنين :

أيها الأخوة، الأنبياء على درجة عالية من الصدق، حيث هم في الرخاء مع الله دائماً، المؤمنون لهم وضع آخر؛ ما دام في الرخاء، ولا يوجد أي مشكلة، تفتر عبادتهم، تبرد مناجاتهم، وتصير أعمالهم كلها شكلية، حتى ربنا يعطي لعبادتهم حرارة، يعطي لاتصالهم بالله حيوية، يعطيهم مشكلة، ليس له إلا الله عز وجل .

لا تنسوا هذا الحديث:

((كان عليه الصلاة والسلام: إذا حزبه أمر، بادر إلى الصلاة))

ما المقصود من الدعاء؟ :

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، سمعت النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:

((إن الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ، ثم قرأ: (وقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)))

[أخرجه ابن ماجه في سننه وابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه]

محصلة المحصلة: إذا كنت عابداً لله، فأنت معه بالدعاء، وقال بعض العلماء: والذين هم على صلاتهم دائمون، -الإنسان يأكل، ويشرب، ويعمل، ويسافر-، كيف يدوم على صلاته؟ قالوا: هنا الصلاة هي الدعاء، يوجد دعاء، قال تعالى:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ)

[سورة غافر الآية: ٦٠]

لم يقل: عن دعائي، قال: عن عبادتي، معنى هذا: أن الدعاء هو العبادة .

استنبط النبي عليه الصلاة والسلام: أن الدعاء هو العبادة .

أؤكد لكم: أن الله يريد أن يسمع صوتكم، ويريد أن تكون مناجاتكم له حارة، ودعاؤكم له صادق، لذلك: قد يسوق بعض المشكلات .

ما يستحبه النبي من الدعاء :

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا قَالَتْ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَسْتَحِبُّ الْجَوَامِعَ مِنَ الدُّعَاءِ، وَيَدَعُ مَا سِوَى ذَلِكَ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

مثلاً: قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

[سورة البقرة الآية: ٢٠١]

جمعت خيري الدنيا والآخرة .

((اللهم أنا بك وإليك))

من أدعية النبي:

((أنا بك -أي قائم بك- وإليك))

أنت المقصود .

((اللهم ارزقني طيباً، واستعملني صالحاً))
((اللهم ما رزقتني مما أحب، فاجعله عوناً لي فيما تحب))

أحب أن أكون غنياً، ولقد جعلتني غنياً، يا رب فاجعل هذا المال في طاعتك ودعماً للحق، وفي سبل البر والتقوى .

أحب أن أكون متزوجاً، يا رب اجعل هذا الزواج لوجهك، اجعله زواجاً إسلامياً، اجعله زواجاً خيراً .

أنا أحب أن أكون ذا شأن أمام الناس، يا رب اجعل هذا الشأن خدمة للحق لا لحظوظ النفس .

((اللهم ما رزقتني مما أحب، فاجعله عوناً لي فيما تحب، وما زويت عني ما أحب، فاجعله فراغاً لي فيما تحب))

كلام هام :

مرة في درس من الدروس قلت: إن الإنسان الموفق، هو الذي يكتشف الإيجابيات في السلبيات، كيف؟.

يعني: طريق كله حفر، له ميزة في هذا الطريق، لا تنام أبداً، أما الطريق المستوى المستقيم بأعلى درجة، فيه خطر النوم، فإذا نام الإنسان في هذا الطريق -هذه قد تكون دعابة-، الطريق الوعر تبقى فيه يقظاً، وهذه ناحية إيجابية بالطريق الوعر، قد ترتفع الأسعار في شيء، لو أكثرت منه، لأضر جسمك، فارتفاع الأسعار، هذه إيجابية في السلبيات مثلاً .

قال لي أحدهم: الزوجة السيئة ما هي إيجابياتها؟ قلت له: هي التي دفعتك إلى المسجد، يوجد إنسان أيام يتزوج، ينسى كل شيء، يوجد إنسان يتزوج امرأة متوسطة بكل شيء متوسطة، يبقى مع الله، وفي المسجد، والأعمال الصالحة، دائماً الإنسان: يجب أن يكتشف الإيجابيات في السلبيات .

لو أن الدنيا جاءت كما تتمنى تماماً، لنسيت الله عز وجل، طبعاً المؤمن ساعة وساعة، الأنبياء شيء آخر، أما المؤمنون ساعة وساعة، لو أن الدنيا جاءتهم كما يتمنون تماماً، اطمأنوا لها، وكرهوا

لقاء الله عز وجل، أنت في مبرمج أن تكون لله، فإذا رآك الله قد خلدت إلى غيره، أقلقك ونغص عليك هذا الركون .

من جوامع الدعاء :

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا قَالَتْ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَحِبُّ الْجَوَامِعَ مِنَ الدُّعَاءِ، وَيَدَعُ مَا سِوَى ذَلِكَ))

من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام: عَنْ ابن مسعود، أن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَ يَقُولُ:

((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالتُّقَى، وَالْعَفَافَ، وَالْغِنَى))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ:

((كَانَ الرَّجُلُ إِذَا أَسْلَمَ، عَلَّمَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الصَّلَاةَ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي))

إن هؤلاء تجمع لك دنياك وآخرتك .

صحح مفهومك :

أنا أحب الإنسان، لا يقلل من شيء، الله عظمه، الله عز وجل جعل الدعاء أحد أكبر مراتب الإيمان، قال تعالى:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

[سورة غافر الآية: ٦٠]

ترى شخصًا قلما يدعو الله عز وجل، كأن الشيء ليس قانعًا به، أو كأنه يرى هذا الشيء، لا يحل بالدعاء، ولو كان مرضًا عضالاً، ولو كان مرضًا ميؤوسًا منه .

في حياتي عدة قصص؛ أعرف أصدقاء أصيبوا بمرض، لا يوجد أمل بالمليون واحد، أن يشفى صاحبه منه، والعملية تكلف ثمن بيته، والأطباء أجمعوا من الدرجة الخامسة، وأخذوا خزعات، وذهبت التحليل إلى بلاد الغرب، ثم تراجع هذا المرض بفضل الدعاء شيئاً فشيئاً، وهذه القصة من عشرين سنة، والآن: هذا الإنسان بأتم صحته .

حينما تتوهم أن شيء بالدعاء لا يحل، فأنت لا تعرف الله، حينما تتوهم أن شيئاً من الأشياء لا يحل بالدعاء، تراه يحل بالدعاء، قال تعالى:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

[سورة غافر الآية: ٦٠]

من دعاء سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام :

عن عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنهما، قال رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

سيدنا يوسف، له دعاء رائع جداً، قال تعالى:

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

[سورة يوسف الآية: ٣٣]

فإذا قال الإنسان: يا رب، قن من فتنة النساء، دخل في حصن الله عز وجل، قال تعالى:

(إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)

[سورة النساء الآية: ٧٦]

(إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ)

[سورة يوسف الآية: ٢٨]

فالإنسان يجب أن يعتصم بالله عز وجل .

دعاء ضروري :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

الحقيقة: أن يشمت بك عدو، شيء لا يحتمل .

أنا أدعو على المنبر كل أسبوع: اللهم إنا نعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الخوف إلا منك، ومن الذل إلا لك .

مهما تذللت إليه بالليل، مهما مرغت جبهتك في أعتابه .

متى يعزك الله، ومتى يذلك الله؟ :

نور الدين الزنكي الذي قهر الغزاة، سجد وقال:

((يا رب، من هو الكلب نور الدين حتى تنصره؟ انصر دينك))

مهما تذللت له، رفعك الله، وأعزك الله، ونصرك الله، وكرمك الله، ورفع شأنك، ومهما استكبرت عن أن تدعوه، أذلك الله، مع الله لا يوجد كبر، في تذلل، أن تكون عزيزاً أمام الناس، على قدر ما تستطيع كن عزيزاً، لا يوجد مانع، قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

[سورة المنافقون الآية: ٨]

لكن مع الله لا يوجد كبر، يوجد تذلل، حب، خضوع . دعاء ادعوه دائماً: اللهم إنا نعوذ بك من عضال الداء، ومن شماتة الأعداء، ومن السلب بعد العطاء . السلب بعد العطاء، شيء صعب جداً .

من أدعية النبي :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

ويوجد دعاء أيضاً جامع مانع:

((قل اللهم اهدن واهد بي))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

يعني: اجعلني هادياً مهدياً .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ، وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِي اللَّه عَنْه، أَنَّهُ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم، كان يدعو بهذا الدُّعَاءِ:

((اللّهمَّ ربِّ اغْفِر لي خَطِيئَتي وجَهلي، وإسرَافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللّهمَّ اغْفِر لي جِدِّي وهَزْلي، وخَطَئي وعَمْدي، وكلٌّ ذلك عندي، اللّهمَّ اغْفِر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسْرَرتُ وما أعلنتُ، وما أنْتَ أعْلَمُ به مني، أنتَ الْمُقدِّمُ، وأنت المُؤخِّرُ، وَأنتَ على كلِّ شيءٍ قدِيرٌ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

كل إنسان في بحبوحة، بصحة جيدة، فجأةً يأتي مرض عضال، يعمل تحليل، مرض عضال، فجأةً يفتقر، الدعاء هنا:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ:

((كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول:

((اللّهمَّ إني أعُوذُ بك من قلْبٍ لا يَخْشَعُ، ودعاءٍ لا يُسمعُ، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن علمٍ لا يَنفع، أعُوذ بك من هؤلاء الأربع))

[أخرجه الترمذي والنسائي في سننهما]

إنسان قضى حياته كلها في المسرح، في الشعر، شعر ممتع وجميل، وهو شاب، في خريف العمر، اقترب من القبر، رأى الشعر لا يساوي شيئًا في الآخرة، عنده شعر جيد، ومداعبات شعرية، أغراض شعرية، وكان يزين المجالس، ولكن ليس لها وزن في الآخرة إطلاقاً، اعمل عملاً له وزن عند الله، يوجد أعمال كثيرة، ليس لها وزن عند الله.

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ دُعَاءٍ لا يُسْمَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلاءِ الأَرْبَعِ))

[أخرجه الترمذي والنسائي في سننهما، وأحمد في مسنده]

عَنْ طاووس، سَمِعَ ابْنَ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا، قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ، قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ قيوم السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، لَكَ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ مَلِكُ السَّموَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ الْحَقُّ، وَوَعْدُكَ الْحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ))

بعض الأخوة الكرام، يذهب إلى العمرة أو الحج، يمسك كتابًا ويدعو، إذا أمسك الإنسان كتابًا وقرأ، فَقدَ حرارة الدعاء .

أنا أتمنى على الإنسان، أن يدعو من عنده، يحاول أن يقرأ أدعية النبي صلى الله عليه وسلم، يحاول أن يقتني كتابًا من أدعية النبي الصحيحة، يقرأه كثيراً، قد يحفظ معظم الكتاب .

فهناك حالات، لا يناسب أبداً أن يمسك دفترًا، إذا قرأ الإنسان كتب الدعاء الصحيح، أدعية النبي الصحيحة، في أي كتاب وحفظها، صار عنده ذخيرة من الدعاء النبوي الصحيح، من جوامع الدعاء، فإذا وقع في أزمة، حافظ أدعية كثيرة، يدعو بقلب خاشع .

عَنْ شُتَيْرِ بْنِ شَكَلِ بْنِ حُمَيْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ:

((قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلِّمْنِي دُعَاءً أَنْتَفِعُ بِهِ قَالَ: قُلِ اللَّهُمَّ عَافِنِي مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَلِسَانِي، وَقَلْبِي، وَشَرِّ مَنِيِّي، يَعْنِي: ذَكَرَهُ))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ، فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

أن يكون حولك إنسان خائن، أو إنسان يحس بآلام الجوع، يتعطل عمله كله .

((كاد الفقر أن يكون كفراً))

من أجمل الأدعية: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن مُكاتَبا جاءه، فقال:

((إني عجزتُ عن مُكاتَبَتي فأعِنِّي، قال: ألا أعَلِّمُك كلماتٍ عَلَّمَنيهنَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، لو كان عليك مِثْلُ جبل صَبِيرٍ دَينا أدَّاهُ عنك؟ قال: قل اللَّهمَّ اكفِني بحلالك عن حرامك، وأغْنِني بفضلك عمن سواك))

[أخرجه الترمذي في سننه]

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاوُدَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَالْعَمَلَ الَّذِي يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، وَأَهْلِي، وَمِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

ماذا تعني كلمة: يا ذا الجلال والإكرام في هذا الحديث؟ :

يوجد دعاء للنبي صلى الله عليه وسلم: عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرِ بن عباد، قَالَ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير]

يوجد في شخص تحترمه، ولكن لا تحبه، متفوق في اختصاصه، وشخص ودود تحبه، لكن محدود التفكير، لا تحترمه، قد تحبه ولا تحترمه، وقد تحترمه ولا تحبه، ولكن عظمة الله عز وجل، أنه بالقدر التي تجله، بالقدر التي تحبه .

الآن: بكل حياة الإنسان، قد يكون يصل إلى ثقافة عالية جداً، له أب، والأب غال جداً، لكن أباه لم يدرس، وتفكيره محدود، آراؤه مضحكة، علاقته بأبيه علاقة حب، وليس علاقة إكبار، وإنسان له أستاذ في الجامعة، من فلتات الزمان بالذكاء والتفوق، ولكنه لئيم مثلاً، يقدره ولكن لا يحبه، يحبه ولكن لا يقدره.

كلمة يا ذا الجلال والإكرام تعني: بقدر ما تعظم الله عز وجل بقدر ما تحبه، بقدر ما له صفات الجلال، والعظمة، والقوة، وصفات الرحمة، واللطف، والعطف، والحب .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٧٩-١٠١) : باب: زيارة أهل الخير، ومجالستهم، وصحبتهم، ومحبتهم - هل هناك وسيلة محددة لمعرفة الله والتقرب منه؟ وما هي الفائدة التي نقتبسها من هذه الأحاديث التي وردت في محور هذا الدرس؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٧-٠٣

بسم الله الرحمن الرحيم

نقطة دقيقة :

أيها الأخوة المؤمنون، لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين عليه أتم الصلاة والتسليم، والباب اليوم: باب زيارة أهل الخير، ومجالستهم، وصحبتهم، ومحبتهم .
هناك نقطة أيها الأخوة: هي أن الطرائق إلى الخالق بعدد أنفاس الخلائق، فقد تطلب العلم، وطلب العلم وسيلة، للوصول إلى الله، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ)

[سورة المائدة الآية: ٣٥]

أيْ شيئاً مقرِّباً، فطلب العلم يقربك إلى الله عز وجل، وعمل الخير يقربك من الله عز وجل، في المجتمع قمم في العلم، وقمم في الفضل، هناك إنسان محسن، حجمه عند الله كبير، لا لأنه طلب العلم، لكن لأنه أحسن إلى الخلق، فأنت كما أنه ينبغي أن تزور أهل العلم، ينبغي أن تزور أهل الفضل المحسنون . والنبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ؛ رَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا))

هما في الفضل سواء، وفي الأجر سواء، وهما فرسا رهان، ومن السذاجة: أن تتصور أن الطريق إلى الله واحد، طريق العلم، طريق الفضل، طريق الجهاد، طريق الخدمة، طريق نصح المسلمين، طريق التعليم، طريق الدعوة إلى الله، كل طريق شرعه الله عز وجل سالك إليه .

فدرس الحديث الماضي عن توقير العلماء، اليوم الحديث عن توقير الفضلاء، هناك إنسان محسن كبير، مستقيم، ملتزم، لكنه ليس متبحراً في العلم .

إليكم هذا المثال لتوضيح هذه النقطة :

النقطة التي أتمنى أن تكون واضحة لديكم، وهذا شيء مريح ومسعد، ولله المثل الأعلى، كتمثيل مبسط: لو أن الجنة مدينة فيها كل شيء، فيها من الطعام النفيس، ومن الشراب النفيس، ومن

القصور الفاخرة، والحدائق الغناء، والبساتين، والمطاعم، كل من دخل هذه المدينة، هي مباحة له بكل مرافقها، العبرة الدخول إلى المدينة، أما قد تدخلها ماشيا، وقد تدخلها راكباً، وقد تدخلها راكب سيارة متواضعة، وقد تدخلها راكب سيارة فاخرة، وقد تدخلها بقطار، وقد تدخلها بطائرة، بعد أن دخل هؤلاء جميعاً المدينة، لم تعد للوسائل قيمة، الفكرة واضحة، الوسائل انتهت .

أنا يمكنني أن أصل إلى الله، عن طريق إنفاق المال، وصلت وسعدت، وانتهى كل شيء، يمكن أن أصل إليه عن طريق طلب العلم، يمكن أن أصل إليه عن طريق تعليم العلم، يمكن أن أصل إليه عن طريق خدمة المؤمنين، يمكن أن أصل إليه عن طريق الدعوة إلى الله ، فهذه كلها طرائق إلى الجنة، يمكن أن أصل إليه عن طريق، من خلال زوجة تحسن تبعل زوجها، تدخل الجنة .

((أول من يمسك حلق الجنة أنا، فإذا امرأة تنازعني، تريد أن تدخل الجنة قبلي، قلت: من هذه يا جبريل؟ قال: هي امرأة مات زوجها، وترك لها أولادا، فأبت الزواج من أجلهم))

تنازع رسول الله صلى الله عليه وسلم دخول الجنة، فالمرأة لها طريق إلى الله، والتاجر له طريق، والصانع له طريق، والموظف له طريق، والطبيب له طريق، والمهندس له طريق، والمحامي له طريق، والمدرس له طريق، والذي يكسح القمامة إذا كان مؤمناً، له طريق إلى الله عز وجل، هناك أعمال جليلة، هناك أخ يخدم في المسجد .

واللهِ عندي أخوة في المسجد أغلى علي من أولادي، ليس لهم ميل إلى العلم، ولكن يقدّمون خدمات تفوق حد الخيال، دائماً يقدمون لك أعلى خدمة، اطلب تعط، أليس لهذا الجنة؟ واللهِ قد يدخلها في أعلى درجاتها .

فهذه النقطة دقيقة، الطرق إلى الله كثيرة جداً، بطلب العلم، بإنفاق المال .

ما المراد من ذكر قصة سيدنا موسى مع الخضر؟ :

فالحديث في الدرس الماضي عن توقير العلماء، واليوم الحديث: عن زيارة أهل الخير، أهل الفضل، أهل الإحسان .

موسى عليه السلام، مَن هو؟ نبي رسول من أولي العزم، موسى كليم الله، موسى نجيّ الله، موسى الذي آتاه الله المعجزات، صَحب مَن؟ صحب الخضر، الخضر إنسان، قال تعالى عنه:

(فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آَتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً)

[سورة الكهف الآية: ٦٥]

رجل فاضل، قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً)

[سورة الكهف الآية: ٦٠]

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً * قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً)

[سورة الكهف الآية: ٦٦-٦٧]

إلى آخر القصة .

اختر أحد هذين الطريقين :

يقول الله عز وجل:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

فإما أن تطلب زينة الحياة الدنيا، أو تطلب أهل الحق، فالسهرات المختلطة، والملاهي، والنوادي الليلية، والمسلسلات، وأجهزة اللهو، والصحون، من باب:

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

أنت دخلت بيت الله، الجلوس على الأرض، ليس هناك ضيافة، لكنك إذا دخلت بيت الله، فإن الله هو المَزُور، وعلى المَزُور أن يكرم الزائر، كيف يكرمك الله عز وجل؟ يكرمك إذا ألقى في قلبك نوراً، فرأيت الحق حقاً، والباطل باطلاً، يكرمك إذا ألقى في نفسك الأمن، الناس في فزع، وأنت في أمن، يكرمك إذا أكرمك، وأعطاك الرضا، أنك راض عن نفسك، وعن أهلك، وعن أولادك، وعن ربك، الرضا نعمة كبيرة، الأمن نعمة كبيرة، السعادة نعمة كبيرة، الرؤية الصحيحة نعمة كبيرة، كل إنسان سوف يرى الحقيقة، ولكن بعد فوات الأوان، قال تعالى:

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ)

[سورة ق الآية: ٢٢]

ولكن متى؟ بعد فوات الأوان، فرعون قال:

(آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة يونس الآية: ٩٠]

العبرة: أن تعرف الحقيقة قبل فوات الأوان، العبرة: أن تعرف الحقيقة في الوقت المناسب، وأنت صحيح شحيح، العبرة: أن تعرف الحقيقة والقلب ينبض، العبرة: أن تعرف الحقيقة، وأنت في صحة، وفي قوة، من أجل أن تنتفع بهذه الحقيقة .

من مناقب أهل الإحسان :

عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

((قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَى أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا، كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَزُورُهَا، فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا، بَكَتْ، فَقَالَا لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ أما تعلمين مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ؟ فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لَا أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ، وإنما أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ مِنْ السَّمَاءِ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أحياناً: تزور إنساناً محسناً تشعر براحة، لماذا تشعر بهذه الراحة؟ لأنه بإحسانه، له صلة بالله، لما زرته أنت، أخذت شيئاً من الكهرباء، إذا مسك شخص تياراً فيه كهرباء، يشعر بالكهرباء، وإذا كان التيار مقطوعاً لم يشعر بشيء، إذا مسك الرجل هاتفًا من دون خط، لا قيمة له إطلاقاً، قطعة بلاستيك، أما إذا كان فيه خطٌ، فتتكلم به إلى أمريكا، ومع العالَم كله، العبرة أن تكون في الخط حرارة .

قال لي رجل، كان له صُلح مع الله رائع، قال لي: أنا صار بيني وبين الله خط ساخن ، هذا تعبير هاتفي، الخط البارد يعني أن الخط مقطوع، والخط الساخن موصول، ترفع السماعة، فتسمع الرنة، وتتصل، فلذلك: المؤمن إذا استقام، يكون له مع الله عز وجل خط ساخن، وحرارة، هذه أعظم ما في الدين .

اسأل نفسك هذا السؤال :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ تعالى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ، قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا عليه؟ -أي: هل لك عليه من نعمة تريد أن تزيدها؟-، قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ تعالى، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فيه))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

صدقوا أيها الأخوة، أحياناً: ينشأ حب بين أخوين بلا مصالح، لا هو مشترٍ، ولا هو وكيل شركة، ولا هناك قرابة، ولا هناك مصلحة، ولكن لا يحبه إلا لله، هذه أرقى علاقة بين البشر، أن تحب الرجل لا تحبه إلا لله .

فيقول صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث الذي رواه مسلم، يقول له هذا الملَك:

((فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ))

اسأل نفسك هذا السؤال: هل لك أخ تحبه لله؟ لا لمصلحة، ولا لشراكة، ولا قرابة، لا شيء، لا تحبه إلا لله، وهذا الحب بين المؤمنين، هو من خَلق الله عز وجل، والدليل:

(مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ٦٣]

الود بين المؤمنين، يفوق حد الخيال .

لاحظ :

مرة استمعت إلى محاضرة من إنسان وُلد في السند، ويقيم في جوهانسبورغ في جنوب أفريقيا، ولا يتكلم العربية إطلاقاً.

أنا سمعت المحاضرة مترجمة، كان يناقش في ندوة، عقدت في أمريكا، حول: هل الإنجيل كلمة الله؟ فهذا الرجل من علماء المسلمين، ولكن لا يتكلم العربية، يتكلم اللغة الإنجليزية، استمعت إلى محاضرته المترجمة، شعرت أنه أقرب إلي من أخي النسبي، الدين يجمع .

أنت لا بد أن تسأل سؤالاً: هل لك أخ لا تحبه إلا لله، ليس بينك وبينه مصلحة؟ و الحياة الآن كلها مصالح، ومعظم الناس ينطقون عن الهوى، ولا ينطقون عن الحق، ينطقون عن مصالحهم .

مثلاً: إذا كنت وكيل شركة، انظر كيف تتكلم عن الشركة؟ أحسن شركة، أحسن بضاعة، معها إيزو، معها كذا وكذا، لو سحبوا منك الوكالة، بماذا تتكلم؟ بالعكس، أنا تركتهم، البضاعة سيئة جداً، لا تباع، وترجع إلي، تغير كلامك كله، هذا نطق عن الهوى، وليس عن الحقيقة، فمعظم كلام الناس، يكون عن الهوى .

قارن :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ عَادَ مَرِيضًا، أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ، نَادَاهُ مُنَادٍ بِأَنْ طِبْتَ، وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنْ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا))

[أخرجه الترمذي في سننه]

وفي حديث الآخر: عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إنما مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجليس السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ منه رِيحًا منتنة))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

اجلس مع مؤمن، كله خير، كلامه منطقي، كلامه مدعم بالكتاب والسنة، كلامه فيه روح، فيه حق، فيه منطق، ومعاملته فيها إنصاف، لا يأخذ ما ليس له، يحفظ غيبتك، أكثر الناس مديح غير معقول وجها لوجه، وطعن غير معقول في الظهر، يدير ظهره رأسا يذمّ، هذا ذو الوجهين، ليس عند الله

وجيهاً، معظم الناس أصبحوا أصحاب عدة وجوه، أما المؤمن فتسعد به، ويسعد بك، تنصحه وينصحك، تأخذ بيده، ويأخذ بيدك، تقيل عثرته، ويقيل عثرتك، تمحضه الود، ويمحضك الود .

ما وراء هذا الكلام :

أيها الأخوة، أنا أتمنى أن يجد الإنسان أخاً في الله .

النبي قال:

((تآخيا اثنين اثنين))

تفقده دائماً، زره من حين لآخر، اسأل عنه، عن صحته، عن عمله، عن أولاده، عن زواجه، عن حالته مع الله، غاب فترة اتصل به هاتفياً، هكذا علّمنا النبي صلى الله عليه وسلم .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال:

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه]

أنت يمكن أن تكون لك علاقة عمل مع إنسان غير مؤمن، لا مانع، علاقة العمل محدودة، أما العلاقة الحميمة، سهرة، نزهة، شركة، يجب أن يكون هذا الطرف الآخر مؤمناً، وإلا أتعبك .

وأوضح مثل: ائت بقارورة ماء صافٍ، وقارورة ماء ملوث، واخلطهما، لا يتضرر الماء الصافي، أما الملوث ففي الأصل ملوث، إذا مشى سفيه مع إنسان فاضل، السفيه سفيه، ولكنه يشمت الفاضل.

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا))

بالمناسبة: إذا صحب الإنسان الأراذل جرحت عدالته، ولم تقبل شهادته، تسهر مع شارب الخمر، مع زانٍ، مع من لا يصلي، تسهر معه إلى الساعة الواحدة، وأنت مسرور منه ، وفي بسط، وتجلّ شيطاني، العلاقة الحميمة بينك وبين المؤمنين، أما علاقة العمل فممكن، ولكنها محدودة .

((لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ))

كل إنسان يصاحب إنساناً منحرفاً، فأمامه مواقف صعبة جداً، المنحرف حقل ألغام، قد يفاجئه بانحرافه الخطير .

اقرأ :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا، وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

من باب الدعابة أقول: فلان صديق، ولكن ذهبٌ بعيار أربعة وعشرين، وهناك ذهبٌ بواحد وعشرين، وذهب بثمانية عشر، وستة عشر، وأحد عشر، وإنسان قصدير مصدّأ.

((النَّاسُ مَعَادِنُ كَمَعَادِنِ الْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا، وَالْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٨٠-١٠١) : باب التعاون - ما السلاحان اللذان ينبغي على الأمة المسلمة أن تتمسك بهما لتضاهد أعداءها؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٧-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

ما الوضع الجديد الذي يعيشه العالم اليوم، وما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون؟ :

أيها الأخوة الكرام، اخترت لكم من كتاب رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، بعض الآيات والأحاديث من باب عنون له الإمام النووي رحمه الله تعالى، فقال:

((باب التعاون على البر والتقوى))

الوضع الجديد في العالم، لا يعيش الإنسان وحده أبداً؛ وضع تجمعات، وضع تكتلات، هم يتكتلون على باطلهم، يتكتلون من أجل مصالح مادية، من أجل الاستكبار في الأرض، فالمؤمنون من باب أولى أن يتعاونوا، والله عز وجل في سورة الأنفال، في آية دقيقة جداً يقول:

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ)

[سورة الأنفال الآية: ٧٣]

وفي آية ثانية يقول:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

[سورة الأنفال الآية: ٧٣]

كما أنك تتمنى أن تكون مع أخيك، هم يتعاونون، ويخططون، ويسهرون من أجل أخذ أموال المسلمين، من أجل سلب ممتلكاتهم، من أجل إفقارهم، فالمؤمنون إن لم يتعاونوا، ويتناصروا، ويتكاتفوا، ويتجمعوا، ويذيبوا من بينهم كل خلاف جانبي، لم يستطيعوا أن يقفوا على أقدامهم، بل إن المعركة اليوم: معركة وجود أو عدم وجود، نكون أو لا نكون .

أمر من القرآن الكريم موجه إلينا، وما عاقبة من لم ينفذه؟ :

أيها الأخوة، هناك أمر في القرآن الكريم، وكما تعلمون: كل أمر في القرآن الكريم، يقتضي الوجوب، إلهنا، وربنا، وخالقنا، يقول: وتعاونوا، فكل إنسان لا يتعاون، يخالف نص هذه الآية، وحينما يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا)

[سورة الأنفال الآية: ٢٠]

يعني: يا من آمنتم بي خالقاً، ومربياً، ومسيراً، يا من آمنتم بي موجوداً، وواحداً، وكاملاً، يا من آمنتم بأسمائي الحسنى، وصفاتي الفضلى، هذا أمري .

أيها الأخوة، فكل إنسان يستنكف عن طاعة الله تقصيراً، أو استكباراً، كبراً، أو إهمالاً، يدفع الثمن باهظاً، وكما ترون يدفع أعداء المسلمين الثمن باهظاً لخلافاتنا وخصوماتنا، وذهاب قوتنا فيما بيننا .

ومن علامات غضب الله على الأمة: أن يجعل بأسها بينها .

ما أتمناه :

أنا أتمنى أن نعيش الإسلام، الإنسان أحياناً: يسأم من الكلام، والمحاضرات، وإلقاء الكلمات، يحتاج إلى مسلم يعيش الإسلام، يحتاج إلى علاقة إسلامية، يحتاج إلى حب، يحتاج إلى إنسان، ولو أن معلوماته قليلة، ولكنه يطبقها .

أنا لا أحتاج إلى موسوعة متنقلة غير مطبقة .

مرة قيل للإمام الغزالي:

((فلان حفظ كتاب الأم للشافعي، ابتسم وقال: زادت نسخة، يوجد في السوق خمس نسخ، صاروا ستة))

لو، وكيف؟ :

النبي عليه الصلاة والسلام ربى أصحابه تربية عالية، فكانوا أبطالاً .

أقول لكم هذه الكلمة: والله الذي لا إله إلا هو، لو فهم المسلمون الأولون، لو فهم أصحاب رسول الله رضوان الله تعالى عليهم، وصلوات الله تعالى عليه، لو فهموا الإسلام كما نفهم نحن الآن، والله ما خرج الإسلام من مكة المكرمة، كيف وصل الإسلام إلى أطراف الدنيا؟ .

ذكرت لكم: أن سيدنا عبد الله بن رواحة الصحابي الجليل، أرسله النبي عليه الصلاة والسلام إلى يهود خيبر، ليقيم ثمارهم، فيأخذ نصفها بحسب اتفاق بين النبي الكريم وهؤلاء، فأرادوا أن يرشوه بحلي نسائهم، فقال هذا الصحابي لليهود:

((والله لقد أتيت من عند أحب الخلق إلي، ولأنتم أبغض إلي من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض، وبهذا غلبتمونا))

بالحق .

وطن نفسك، الكلام ليس له قيمة، العبرة أن تعيش الإسلام، أن تكون وقافاً عند كلام الله عز وجل .

ما نحن عليه اليوم :

درسنا اليوم في التعاون، يوجد تعاون، يوجد إنكار للذات، هل تسير مع أخيك إلى نصف الطريق؟.

لاحظت ملاحظة: شركات ضخمة تنهار، مؤسسات ضخمة، كان من الممكن أن تكون مفخرة للمسلمين، بسبب خلافات شخصية تنهار .

معنى ذلك: أن الإنسان لا يحمل هم المسلمين، يحمل همه هو، إلى متى يبقى المسلم فقيراً، مشرداً، بلا مأوى، بلا عمل؟ شيء مؤلم جداً، الكفار بتعاونهم سيطروا على العالم، ونحن كوننا مؤمنين، يجب أن نتعاون، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

حدثني أخ قال لي: هناك في بلاد الغرب، اليهود يتعاونون على خمسة بالمئة من القواسم المشتركة، والمسلمون يتقاتلون، وبينهم خمسة وتسعون بالمئة من القواسم المشتركة ، أليس هذا وصمة عار؟ .

أنا أتمنى أن ينهض المسلمون، أن ينهضوا اقتصادياً .

ويل لأمة تأكل ما لا تزرع، ويل لأمة تلبس ما لا تنسج، ويل لأمة تستخدم معدات لا تصنعها .

يوجد الآن شيء اسمه: حرب قطع التبديل، يبيعونك طائرة تعمير، محركها خمسة ملايين دولار، فيها أربعة محركات، ثمنها مليار، هذا تعمير محرك طائرة، حينما نعيش على فتات الحضارة الغربية، ولا نفعل شيئاً .

أنا أحياناً: إذا رأيت أخًا صناعيًا مستقيمًا، وله عمل أتقنه، وكسب منه المال، وصار قوة للمسلمين .

نحن دائماً من ضعفنا نحطم بعضنا، لا ندع أحدًا ينجح، وإذا نجح ننزلـه، ننافسه، نكسر السعر، حتى تصبح كل المصالح غير مربحة، بأكثر الأسواق إذا كان في قضية تنافس، تنافسَ التجار فيها، حتى تباع برأس مالها، هذا شيء واقع، هذا ضعف وعي، اسمح لأخيك أن يربح، لذلك صار حصر الربح بالمئة ثلاثة، ودخلَ الاحتكار، كأن الناس لجؤوا إلى الاحتكار، والمسلم دائماً يجب أن يكون مستخدمًا، ضاربًا على آلة كاتبة فقط، حاجبًا فقط، أين المسلم الصناعي؟ أين المسلم التاجر الكبير؟ أين العالم الجليل؟ أين أستاذ الجامعة الكبير؟ هذا الذي ينبغي أن يكون، لا يوجد في الدنيا شيء إلا العمل الصالح، والعمل يحتاج إلى قوة .

يجب عليك :

أيها الأخوة، نحن يجب أن نفهم النصوص فهماً عاماً .

أنا لا أكلف الإنسان ما لا يطيق، إذا كان الطريق سالكًا إلى أن تكون قوياً، فيجب أن تكون قوياً، إذا الطريق سالكًا إلى أن تكون غنياً، يجب أن تكون غنياً، إذا كان الطريق سالكًا إلى أن تكون في موضع حساس، بإمكانك أن تنصف المظلومين، فيجب أن تصل إلى هذا المكان، أمّا أن أرضى بالفتات، أن أرضى بأقل معيشة ممكنة كسلاً أو زهداً، فليس هذا هو الدين .

سيدنا عمر سأل أناس:

((من أنتم؟ قال: نحن المتوكلون، قال: كذبتم، المتوكل من ألقى حبة في الأرض، ثم توكل على الله))

احذر من مخالفة أمر الله ورسوله :

سألني أخ سؤالا منذ يومين، قال لي: أنا محتار، النبي عليه الصلاة والسلام أثنى على المؤمن القوي .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

ما هي القوة؟ المال قوة، يجب أن نتعاون، أهل الدنيا يتعاونون، الشاردون عن الله يتعاونون، أهل الباطل يتعاونون، يتعاونون على إفقار المسلمون، على السيطرة عليهم، على أخذ ما في أيديهم، والحديث الذي يقوله النبي، أنا أعده من دلائل نبوة النبي، وإذا نقض المسلمون عهد الله وعهد رسوله، سلط الله عليهم من يأخذ ما في أيديهم .

يوجد تقديرات مبلغ، انتقل من الشرق إلى الغرب، فعندما انتقل هذا المبلغ حدث الكساد، وبوار بالأسواق، أزمة بطالة، هذا كله من عدم تعاوننا، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

من أجمل الآيات، البر صلاح الدنيا، والتقوى صلاح الآخرة .

لا تنهج هذا التفكير :

يقول لك أخ: أريد ألا أشاركه، لأني إذا شاركته، أخاف أن أخسره، انظر إلى هذا الكلام، هذا كلام الشيطان، إذا شاركت مسلمًا، وخسرته .

معنى هذا: أن الإسلام غير صحيح، غير مقبول كمنهج، يجب أن تشاركه، وأن تزداد حباً له، أن يأخذ ما له، وأن يعطيك ما لك؛ من دون حيف، من دون ظلم، من دون تجاوز .

أي: تجد شركات ضخمة، سبب تراجعها وإفلاسها سوء الإدارة، وراء سوء الإدارة تنافس شخصي.

ذكرت لكم من قبل: لي صديقًا، ذهب إلى بلد غربي، وقرأ بالجريدة عرضاً - إعلان على وظيفة-، طلبوا سنًّا معينة، شهادة معينة، خبرة معينة، أدى الخدمة الإلزامية، قال لي: جميعها أشياء واضحة، ولكن لفت نظري شرطًا نادرًا، قال: أن يصلح للعمل ضمن فريق .

أنت عندك إمكان أن تعمل بمؤسسة، بشركة، بجامع، تتعاون، تكون واحدًا من المجموع، إذا كنت الرأس، وإذا لم تنفذ رأيك، تحطم الموضوع، هذا يحصل في أكثر من مجال، إذا لم تنفذ رأيك، تعد نفسك مهانًا، فتخرّب، عندك إمكان أن تساهم كعضو فعال، تعرف حدودك، تتفاهم مع أخوانك، تتعاونون، إلى متى نريد أن نكون، هناك تخلف، هل يجب أن يكون المسلم متخلف دائماً؟ أنا أتمنى ألا ينفرد الباطل بالساحة .

هل فكرت بهذا السؤال؟ :

أيها الأخوة، لماذا الكافر ذكي؟ لماذا يتعاون؟ واللهِ هناك تعاون يفوق حد الخيال، تجد شرذمة بالعالم منبوذة، ملكت بتعاونها العالم كله، قال تعالى:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ)

[سورة الشعراء الآية: ٥٤]

ملؤوا الآفاق بتعاونهم، سيطروا .

لا تكن عقبة أمام نهضة أمتك :

أيها الأخوة، فمن باب أولى أن نتعاون نحن، نسمع عن شركة صاعدة، أشعر بالاعتزاز، عندما أجدها هابطة أحزن . هناك شركة أدوية، فيها مهندس متفوق جداً، لدرجة أن دولة غربية، عرضت عليه راتبًا شهريًا فلكيًا، وجنسية، وفيلا، وسيارة، استطاع أن يصنع حبوبًا فوارة من دون سبيرتو، بالماء، هذا شيء نادر، والشركة تأسست، وبدأ إنتاجها، وقدموا لي عبوة، انهارت الشركة بخلافات شخصية، ممكن أن نصنع من مصنع حبًّا فوارًا، فيتامين (c)، ونستغني عن الاستيراد؟ ممكن بالتعاون .

أتمنى على أخ عنده هذا الفكر التعاوني، أنا لا يعمل مشكلة، لا يضع العصي بالعجلات، أن لا يقول: أنا لا أنفذ رأيي، وإلا أحطم المشروع، لا، بالمشاورة، من أنت أمام رسول الله سيد الخلق، حبيب الحق، المعصوم، الذي يوحى إليه، الذي معه معجزات؟ قال الله له:

(وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٩]

هذه قناعتي :

أيها الأخوة، أنا قناعتي إن شاء الله، لا أقبل بكل من حولي أحدًا ينفرد برأيه، يسمونها قيادة جماعية، المجموع من الصعب أن يخطئ .

قال النبي:

((لا تجتمع أمتي على خطأ))

كل عمل دع فيه المجموع يتعاونون، ويتناقشون، ويتحاورون، ويصوتون، لا يكن هناك رأي واحد، رأي مستبد، مدرسة صغيرة، مجلس إدارة مستشفى، مجلس إدارة، تناقشوا، الأمة تسعد برأي الجماعة، وتشقى برأي الفرد .

هذا وهم خاطئ :

الإمام النووي رحمه الله تعالى، افتتح هذا الباب، باب التعاون على البر والتقوى بقوله تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

وأذكر وأعيد: كل إنسان يتوهم الدين خمس عبادات، فهو جاهل، الدين مئة ألف بند، رقم لا على التعيين، لا أقصده بالذات، وكل آية قرآنية فيها فعل أمر، أو في فعل مضارع مع لام الأمر، أو في فعل شرط وجواب شرط، أو فعل طلب وجواب طلب، هذه الآية ما لم تقم قرينة على خلاف ذلك تقتضي الوجوب، أحصي ما في القرآن من أوامر، تجد آلاف الأوامر، أحصي ما في السنة من أوامر، يوجد مئات ألوف الأوامر، معنى ذلك: أنت أمام منهج تفصيلي كامل، يجب أن يطبق .

اخرج من هذا المستنقع :

درسنا اليوم: وتعاونوا، تعاونوا في العمل التجاري، تعاونوا في العمل الصناعي، تعاونوا في العمل الدعوي، والله شيء يثلج قلبي بلقاء، بعقد قران، العلماء يحترمون بعضهم، يتعاونون على نشر الحق، أما حينما يتنافسون، والله يسقطون من عين الناس جميعاً .

إذا قال لك طبيب: أين تحكّمت؟ قلت له: عند فلان، يطعن فيه .

أنا أحتقر هذا الطبيب، زميلك له أسلوب رخيص وقذر، حتى أكسب ود المريض، أطعن قي زميلي الطبيب، آن الأوان أن نخرج من هذا المستنقع الآثم، مستنقع الطعن ببعض، مستنقع التنافس، مستنقع الأسف، مستنقع إثبات الذات، ولو على الخطأ:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية: ٢]

أنت قدمت البيت، أخي أنا أجرته، لا يوجد بيت أجرته بالليلة عشرة آلاف ليرة، أفخر فندق ثلاثة آلاف، ليست قضية نوم عادية، هناك مشكلة، أنا لا دخل لي، بلى لك دخل ، تعلم علم اليقين: أن هذا البيت ما دفعت في ليلة واحدة عشرة آلاف، إلا لعمل غير شرعي، وأنت آثم وتتحمل .

قال لي شخص: أنا كنت شارب خمر، كانت توبتي على يد سائق تاكسي، صعدت معه وقت الازدحام الشديد، فلمح زجاجة خمر معي، فأوقف السيارة، وقال له: انزل، قال لي: لم أجد سيارة، انتظرت ساعة ونصفًا، شعرت بالذل، هذا قدم شيئاً بتوبته .

جراح قلب، أجرى عملية ناجحة، لإنسان شارد، هو وأهله، أحضروا له زجاجة خمر غالية جداً، قال له: أنا لا أقبل هذه الهدية، قال له: قدمها هدية، قال له: لا أقدمها، بعد شهر قابله الذي قدم الهدية، قال له: والله أقلعت عن شرب الخمر تقديراً لك .

النبي قال:

((استقيموا يستقم بكم))

يجب أن تخرج من قوقعة الذات، من فرديتك إلى التعاون، والآن عصر تعاون كفار، عصر تكتلات، عصر سوق مشتركة، عصر اتفاقية اللغات، إذا لم تتعاون تنتهي، يجب أن نتعاون، شركاء في التجارة تعاونوا، أنكروا ذواتهم في سبيل المصلحة العامة.

فالآية الأولى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

تعاون على البر صلاح الدنيا، وتعاون على صلاح الآخرة .

آن الأوان :

أنا حضرت في هذا الأسبوع أربعة عقود قران أو خمسة، كل عقد قران يوجد على مدخل مكان الاحتفال، صندوق العافية عوضاً عن الورود، يوجد عقود قران فيها ثلاثة ملايين ورود، أربعة ملايين ورود، وكتبوا في بطاقة الدعوة: يرجى التبرع مقابل إرسال الزهور إلى صندوق العافية، هذه واحدة .

أحد أخواننا الكرام زوج ابنته، فأرسل إلى كل مدعو وصلا بألف ليرة لمعهد، لمدرسة شرعية في داريا، دفع للمدرسة مئتين وخمسين ألف ليرة، كانوا ثمن علب .

أخ ثان، يأتي إلينا أحياناً: زَوّج أخاه، وهو رجل ميسور، ما قدم هدية أبداً، خطيب الحفل قال: ثمن الهدية ضرب بألف مدعو، الناتج مليون، هذا مودع عند جهة، من أجل إنفاقها، لتزويج شباب المسلمين.

إنسان ثالث صار يقدم كتابًا شرعيًّا، كتاب حديث، كتاب فقه، كتاب سيرة، فإذا حضر الإنسان عقود قران، صار عنده مكتبة، أيضاً شيء جيد، آن الأوان أن نخرج من التقاليد البالية، ممّا ألفناه، مما ورثناه عن الآباء والأجداد، يجب أن نطبق السنة .

هذا في مصر :

في مصر شيء أعجبني، كنت في القاهرة، في مؤتمر، يريد إنسان أن يتزوج، وثمة محل يبيع بضاعة تجهيز البيوت، فأي إنسان يريد أن يقدم له هدية، يراجع صاحب المحل، هناك تنسيق .

اقتراح مقبول :

في بعض البيوت، يأتيك أحياناً خمسون هدية من نوع واحد، وأنت تحتاج إلى واحدة، يأتيك عشرون ساعة حائط، وأنت بحاجة إلى واحدة أو اثنتين، لو كان ثمة تنسيق، هذه مادة، مال دفع ثمنه، لماذا هذا الشيء؟ .

أنا اليوم اقترحت اقتراحًا، قلت لهم: أتمنى من كل أخ، يريد أن يتزوج، أن يكون له أخ إداري، أي إنسان يريد أن يقدم له هدية، يجب أن يأخذ موافقة الأخ، أنت تريد أن تقدم خمسمائة ليرة، هذا الإنسان يلزمه مروحة وطنية ثمنها خمسمئة ليرة، عندنا شيء ثان، خمسة آلاف نشتري له بها سجادة، أربعة رجال يريد كل واحد أن يقدم ألفًا، يجب أن يكون هناك إداري، يعرف ما حاجته؟ كل حاجات الأخ بدأ من الثريات، والبراد، والغسالة، والسجادة، فكل أخ يريد أن يشتري هدية، يراجع هذا الإنسان، كم تريد أن تقدم له؟ خمسمئة ليرة، عندنا هذه الحاجة، عندنا هذه الهدية .

إذا تزوج أخ، وجد كل حاجاته مؤمَّنة من دون زيادة، فعدم التنسيق في تقديم الهدايا، تنشأ منه مشكلة إتلاف المال .

أنا أعرف أن في أكثر بيوتنا حاجات متراكمة، ليس لها استعمال، الآن في عقود القران يقدمون صحنًا أو زبدية، إلى متى كل صحن بشكل ليس لهم فائدة إطلاقاً، قدّم كتابًا ، تبرع لمعهد شرعي، قدم شيئًا ثمينًا، زوّج شابًّا، يجب أن نتعاون .

كلمة أعيدها مرتين :

كلمة أعيدها مرتين: قضية المسلمين نكون أو لا نكون، إما أن نعيش أو يقضي علينا أعداؤنا قضاء مبرمًا، لا يوجد رحمة الآن، أنتم ملاحظون .

مثلاً: إنسان بائع بللور، أين مصلحته؟ أن تأتي طائرة، وتخترق جدار الصوت، تكسر مليون لوح بللور، يصبح مليونيرًا .

هذا المثل البسيط يقول لك: هدمنا البنية التحتية لهذا البلد، ما تركوا مصفاة نفط ولا جسرًا، ليس لنا علاقة بالأمثلة، ولكن مبدأهم لا يتركون شيئًا، في النهاية نحتاج أن نشتري معامل جديدة من عندهم، ومصافي نفط جديدة، وجسورًا نعمرها .

في حرب الخليج، وفي مناقشة، تمت بين قائد فرنسي وبين جندي، قال لهم: أي شيء متحرك اضربوه، فيبدو أن أحد عناصر الفرقة، قال له: ولو سيارة مدنية فيها ركاب؟ قال لهم: اضربوها، قال له: لماذا؟ هذا مخالف للقوانين الدولية؟ قال له: لأنك إن دمرت هذه السيارة، سوف يشترون من عندك أخرى جديدة، فتعمل معاملنا، يقتل خمسين مدنيًا، هذا ليس له قيمة، هذا الذي جرى في المناقشة، أنت تلاحظ الآن الحروب في العالم كلها، هدفها ليس قضية انتصار، بل قضية تحطيم البنية التحتية، لا يُترك شيءٌ.

مدلولات هذه الآية :

أيها الأخوة، قال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

[سورة التوبة الآية: ١٠٣]

تطهرهم، الزكاة تطهر الغني من مرض البخل، والزكاة تطهر الفقير من مرض الحقد، لا الغني بخيل، ولا الفقير حاقد، الآن: وتزكيهم .

الفقير يشعر بقيمته في الحياة، مجتمعه يهتم به، والغني يشعر بعمله الطيب، الذي أنقذ مئات الأسر من الفقر والضياع .

أنا أحب أن يكون الإسلام حركيًا، وليس سكونيًا، ليس ستاتيك، ولكن ديناميك، هكذا مستسلمون، هذا غير مقبول .

ماذا تفهم من هذا الحديث؟ :

سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، اسمعوا هذا الحديث، حديث عميق جداً، جاءه رجل، طلب منه مساعدة .

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ:

((أَنَّ رَجُلاً مِنَ الْأَنْصَارِ، جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: لَكَ فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟ قَالَ: بَلَى، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضَهُ، وَنَبْسُطُ بَعْضَهُ، وَقَدَحٌ نَشْرَبُ فِيهِ الْمَاءَ، قَالَ: ائْتِنِ بِهِمَا، قَالَ: فَأَتَاهُ بِهِمَا، فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟ فَقَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمٍ، قَالَ: مَنْ يَزِيدُ عَلَى دِرْهَمٍ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا آخُذُهُمَا بِدِرْهَمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ، وَأَخَذَ الدِّرْهَمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا، فَانْبِذْهُ إِلَى

أَهْلِكَ، وَاشْتَرِ بِالآخَرِ قَدُومًا، فَأْتِنِ بِهِ، فَفَعَلَ، فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَشَدَّ فِيهِ عُودًا بِيَدِهِ، وَقَالَ: اذْهَبْ فَاحْتَطِبْ، ولا أَرَاكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا، فَجَعَلَ يَحْتَطِبُ وَيَبِيعُ، فَجَاءَ، وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ، فَقَالَ: اشْتَرِ بِبَعْضِهَا طَعَامًا، وَبِبَعْضِهَا ثَوْبًا، -الإنسان لا يشعر بالطمأنينة إلا إذا كان أهله يأكلون ويشربون، هذه قاعدة، ما تركه يعمل فوراً-، ثُمَّ قَالَ: هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَجِيءَ، وَالْمَسْأَلَةُ نُكْتَةٌ فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَصْلُحُ إِلا لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أَوْ دَمٍ مُوجِعٍ))

هذا منهج، إنسان طالب رزقًا من الله، تحرك .

كلام دقيق :

مرة سمعت كلمة راقت لي تماماً: أنه لا ينبغي أن يعطى الإنسان مبلغاً من المال دون عمل، يصبح شيئا مريحًا، يستيقظ الظهر، الناس تعطفوا عليه فأعطوه، أمّن طعامه وشربه .

يوجد أخ من أخواننا، أقدره كثيراً، وقع في ضائقة مالية شديدة، قال: أنا إذا تقدمون لي ثمن دراجة صغيرة، أنا أبيع أكياس، قال أخ ميسور: أنا أؤمن له دراجة، وزع أكياسًا، وربح، قدم جهدًا، ورد القرض، ودفع زكاة ماله .

أنا ماذا أقول؟ أفضل مساعدة تكون: عندما تحول آخذ الزكاة إلى دافع إلى الزكاة، إذا استطعت أن تحول آخذ الزكاة إلى دافع للزكاة، فأنت بطل، هذه حكمة الزكاة: أن تجعل الإنسان يعمل رافع الرأس .

أتمنى على الإنسان ألا يعطي إلا مقابل عمل، إلا إذا كان الإنسان عاجزًا، أما الشاب فخذ وكل، يأخذ، ويأكل، وينام إلى الظهر، لا يقبل أن يعمل .

انتبه :

سألوا متسولاً: لمَ تتسول وأنت رجل ميسور؟ قال: قضية مبدأ .

أحد أخواننا، جزاه الله خيرًا، ساهم بمكافحة التسول في بلدنا بشكل فعال، قال لي: جمعنا ألفًا وخمسمئة متسول، هذا كلام دقيق، قال لي: أنا حققت معهم واحداً واحدًا: كم عدد الفقراء منهم؟ خمسة أشخاص، والباقون أقسم بالله يملكون أربعين مليونًا، يجلس متسول في زاوية، هذه مصلحة، تأتي سيارة تلمهم مساءً، وتحاسبهم، هذا يده مكسورة، وهذا معصوبة عيناه، وهذا أعطوه ولدًا صغيرًا عاريًا نصفه، أنت بسذاجة تقول: هذا ميت من جوعه، هذا حمق .

قال لي: والله هناك امرأة، تلبس مانطو أسود منذ عشرين سنة -ملمع - قال لي: رأيتها في البنك، هذه ما الذي أحضرها إلى هنا؟ سأل، فقالوا: هذه لها سبعمئة ألف، في المساء يغيرون لباسهم، ويشترون الفواكه الغالية، وأنت لا تملك قرشًا .

يجب أن تنتبهوا، يوجد كذب كثير، يوجد احتيال كثير، لا تعطِ إلا لإنسان مؤمن، وأعطه مقابل عمل، حتى يأخذ المبلغ رافع الرأس، ولا يكون ذليلاً .

((ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير))

هذا شعوري :

أيها الأخوة، أنا بشعوري، أنه يوجد ضائقة شديدة، الماء قليل جداً، الأسواق كاسدة، علاجها التعاون، قال تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى)

[سورة المائدة الآية: ٢]

يجب أن يحمل الإنسان أخاه .

هكذا سمعت :

سمعت: أنه سبب تفوق اليابان في الصناعة والتجارة على الغربيين، أن المعامل الغربية مع الأزمات تسرح العمال، أما اليابانيون فلا يفعلون هذا، مهما كان في أزمة، يتحول المعمل إلى صناعة رائجة، ويوجد حد أدنى مضمون للعامل، والعامل مطمئن، حتى عندما كنت في أمريكا، وجدوا تفوقًا كبيرًا في صناعة السيارات في اليابان، حتى إن أمريكا أصبحت أكبر سوق لليابان، وأمريكا متفوقة بالسيارات سابقاً، فصارت في خلل، أرسل وفد رفيع المستوى، ليدرس ما سر تفوق الصناعة اليابانية؟ .

وجدوا أن السر اجتماعي، وليس تكنولوجيًا، مدير عام يأكل مع العمال، يوجد ود بينهما، العامل مستقبله مضمون، يوجد حد أدنى لا يهبط عنه، يوجد راحة، يوجد إتقان، والإتقان سبب رواج الصناعة.

أنا أتمنى هذا الدرس: أن ينقلب إلى سلوك، بأي عملك .

هل تعلم؟ :

الآية الثانية، قوله تعالى:

(وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ)

[سورة العصر الآية: ١-٣]

الإمام الشافعي يقول:

((إن الناس أو أكثرهم في غفلة عن تدبر هذه السورة))

هل تعلم: أن ربع النجاة التواصي بالحق، معنى ذلك: أن الدعوة إلى الله فرض عين.

((بلغوا عني ولو آية))

وحجمك عند الله بحجم عملك الصالح، وأرقى عمل صالح أن تدل الناس على الله، أن تأخذ بيدهم إلى الله، أن تحملهم على طاعة الله، أن تمسكهم بكتاب الله، هذا أعظم عمل على الإطلاق، والدليل قوله تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ)

[سورة فصلت الآية: ٣٣]

ليس في الأرض كلها من آدم إلى يوم القيامة، ليس في الأرض رجل أفضل عند الله، ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً، وقال: إنني من المسلمين .

وسأقول لكم كلاماً آخر: الدعوة إلى الله منوعة جداً، بعضها باللسان، بعضها بالعمل .

((استقيموا يستقم بكم))

الأمانة دعوة، والصدق دعوة، والإخلاص دعوة، والتواضع دعوة، والورع دعوة، والعفة دعوة. سيدنا يوسف عبد في بيت سيده، شاب، أعزب، دعته امرأة سيدته، ذات منصب وجمال، فقال:

((إني أخاف الله رب العالمين))

هذه دعوة .

أي إنسان يقف موقفًا أخلاقيًّا هو داعية، ولو لم يتكلم، وأنا قناعتي: أن لغة العمل أبلغ من لغة القول.

أحد الزعماء الغربيين له كلمة، يقول: أنا أرضي أعدائي، ولا أسترضيهم، الاسترضاء باللسان، أما الإرضاء فبالعمل .

التواصي بالحق ربع النجاة، والتواصي بالصبر ربع النجاة الآخر، فأنت باليوم: إن آمنت بالله، وعملت صالحاً، وتواصيت بالحق، وتواصيت بالصبر، حققت أركان النجاة من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

من أمثلة الواقع على التعاون :

مرة كنت في عقد قران، وقف عريف الحفل، وقال: إما أن تكون داعية، وإما أن تتبنى داعية، كل سنة يأتينا إكرام طلاب علم من أفريقيا، من تركيا، من جزر القمر، من أندونيسيا، من الشيشان، من داغستان، وأنا أدرّسهم، وأحتفل بهم، وندعوهم إلى مسجدنا، وإلى وليمة، ونقدم لهم كتبًا، أشرطة، بيننا ود .

مرة أخ من أخواننا الكرام، بعد أن انتقل إلى بلده، أعتقد في غينيا، لست متأكدًا من البلد، أرسل إلي رسالة، أنه عنده معهد شرعي، من أفضل المعاهد الشرعية في كناكري، توفي الذي أعطى الأرض لهذا المعهد، فالورثة يريدون أن يخرجوا أصحاب المعهد من أرضهم .

فأخ من أخواننا الكرام، درس الوضع، ووجد أنه مناسب جداً، أن يشتري هذه الأرض، وأرسل له شراءها .

اليوم أرسل إلي كتاب شكر الأخ، فهذا إنسان أسس معهدًا في بلد مسلم، هذا تعاون ، والله كتب كلمات شكر مؤثرة جداً، أنتم أنقذتمونا، والأخ الكريم مدّ يد المعاونة، وتحقق تحققًا دقيقًا، وأنقذ معهدًا شرعيًّا من الإغلاق .

الحياة تعاون، وهناك أعمال طيبة جداً في هذه البلدة الطيبة، ليس كل شيء منظور، ولكن ثمة أشخاص يبذلون .

هذا الجامع المتواضع البسيط، يجمع أحيانا مبلغًا ضخمًا، أكبر مبلغ بدمشق لصندوق العافية، أجروا ألف وتسعمئة عملية خلال سنتين، كلفت ستين مليونًا، كلهم فقراء، بالتعاون، وهذا اسمه: ضمان صحي.

إنسان فقير، له حق على المؤمنين أن يعالجوه مجاناً من دون مقابل، صار صندوق زواج، والله سعدت سعادة لا توصف، شاب يعطونه خمسين ألفًا، هذا اسمه إقلاع .

أنا ذهبت إلى بلاد أخرى، صندوق الزواج مخزون، له ستة عشر مليار درهم، والدرهم بستة عشر وسبعين .

يوجد شيء لطيف هناك، يوجد عرس جماعي، خمسون شابًا في عرس واحد على حساب صندوق الزواج، ما تكلف شيئًا إطلاقاً، يدعو كل واحد خمسين شخصًا بمكان كبير، شيء لطيف، شركات البرادات، وغرف النوم تتنافس، ويقدمون للشباب هدايا .

إنسان يقول لك: أنا أقدم خمسين غرفة نوم، هذا خمسين براد، وهذا خمسين غسالة، من التعاون صار التزويج جماعيًّا .

هذا سمعت به في اليمن، وفي مصر، وإيران، ودول الخليج .

من أحد المهمات التي تقع في عاتق المسلمين اليوم:

أخواننا الكرام، بالمناسبة: كلام مؤلم وحقيقي وواقعي، إذا ما يسرنا سبل الزواج، يحل السفاح مكان النكاح .

لو أن الشارع احترق آخر بيت فيه، إذا قال أول بيت: أنا ليس لي علاقة، النار في طريقها إليه، هذا كلام دقيق، قال تعالى:

(وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

[سورة الأنفال الآية: ٢٥]

إذا قال إنسان: أنا ليس لي علاقة، النار قادمة، إذا ما نهض المسلمون نهوضًا واحدًا.

الآن: أحد أكبر المهمات الملقاة على عاتق المسلمين: حل مشكلة الشباب، ولا سيما مع تفلت الفتيات .

أنا في الخطبة الإذاعية يوم الجمعة، اخترت للدعاء: اللهم أصلح شباب المسلمين، وأصلح الشابات المسلمات، ويسر لهم ولهن سبل الزواج، ليكون الزواج حصناً لهم .

إذا كانت كل طرق المعصية مفتحة، وطرق الزواج مغلقة، والله هذه مشكلة كبيرة، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ)

[سورة الأنفال الآية: ٧٣]

عن زَيْدُ بْنُ خَالِدٍ رَضِي اللَّه عَنْه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي أهله بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

إذا تبنى إنسان داعية كأنه دعا، تبنى طالب علم كأنه طلب العلم، أعان على نشر الحق كأنه نشر الحق.

دعوة للإنفاق :

((وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

أيها الأخوة، هذه البلدة الطيبة، مرغوبة بشكل كبير من طلاب العلم المسلمين، من خارج هذا البلد، يجد نفسه كأنه بين أهله، وكل إنسان ساعد طالب علم، أعطاه بيتًا، أمن له حاجة .

مرة أذكر أخًا طالب علم، ولكنه عفيف جداً، بقي سنتين على البلاط في الشتاء، وعلمت بعد ذلك، هل يوجد بيت: لا يوجد في السقيفة عشرات القطع منسقة؟ كل بيت فيه براد منسق، غسالة منسقة، فإذا جئت بالأشياء المنسقة .

أنا يوجد عندي براد قديم، هل يلزمكم؟ أنت لا تقدر: أن طالب علم يسكن في غرفة، لا يوجد فيها شيء إطلاقاً، أحضرت له برادًا، ولو كان قديمًا، لا مانع، لا أحد يدع شيئًا مجمدًا، إذا كان عندك براد قديم، عندك حاجة قديمة، يوجد طلاب علم فقراء جداً، تعطيه بساطًا، تعطيه برادًا، تعطيه غسالة قديمة، يجدها نعمة كبرى، فنتمنى أن يكون التعاون واقعًا وليس كلامًا، والتعاون أمر إلهي، وبالتعاون يحبنا الله جميعاً، من دون تعاون نسقط من عين الله جميعاً، وإذا سقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتحطمت أضلاعه، أهون من أن يسقط من عين الله، الإنسان لا يحس بإنسانيته .

عدة أطباء زارونا من بلاد الغرب، عرضوا خدمات ليعالجوا مجاناً، وهم قمم بالاختصاص، شعرت باعتزاز: أن الإنسان قادم ليؤدي إجازة شهر، مستعد ليعالج أي إنسان، عنده مشكلة عويصة، نحن نريد أن نرتب الأمور ترتيبًا، كلما جاء أخ من بلد أجنبي، أحب أن يقدم خدمة للمسلمين، نستفيد من علمه، الحياة بالتعاون، تحل جميع مشاكلنا ، من دون تعاون، تكاد فئة تنفجر من التخمة، وفئة تكاد تموت من الجوع، وهذا لا يرضي الله عز وجل، الله عز وجل أراد بهذا المال، أن يكون بين الخلق جميعاً:

(كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ)

[سورة الحشر الآية: ٧]

كل إنسان يستطيع أن يتعاون، أي إنسان ممكن أن يقدم لأخيه خدمة، ساهمت بتحقيق واقع لهذا الدرس، أنا ضد أن يكون الدرس نظريًا .

أتمنى عقب هذا الدرس، أن أسمع من أخواننا، هذا قدم شيئاً، هذا عاون بشيء، و التعاون من ثماره: الصلة بالله عز وجل، ولا تنس أن أي عمل صالح، هو قرض لله عز وجل:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

[سورة البقرة الآية: ٢٤٥]

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٨١-١٠١) : باب فضل الحب في الله والحث عليه -١- بماذا وصف الله تعالى محمد وصحبه؟ وما علامة إيمان المؤمن الصادق؟ ومتى يذوق العبد حلاوة الإيمان؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٧-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

آية انعكس فهمها في هذا العصر :

أيها الأخوة، لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، والباب اليوم، باب: فضل الحب في الله، والحث عليه، قال تعالى:

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الفتح الآية: ٢٩]

فكيف بالمسلمين إذا كانوا أشداء على بعضهم البعض، رحماء بالكفار؟ الآية معكوسة، المؤمنون الصادقون أشداء على الكفار، رحماء بينهم، أما حينما يؤثرون الدنيا على الآخرة، يصبحون رحماء بالكفار أشداء على أنفسهم .

المسلمون اليوم: رحماء بالكفار أشداء على أنفسهم، لذلك: الدنيا تستقيم مع العدل و الكفر، ولا تستقيم مع الإيمان والظلم، إن الله ينصر الدولة الكافرة العادلة على الدولة المسلمة الظالمة. هذه أول آية .

من علامة إيمان المؤمن الصادق :

أيها الأخوة، علامة إيمانك الصادق: أن ترحم المؤمن، أن تساعده، أن تأخذ بيده، أن تشفق عليه، أن تيسر له أمره، أن تخفف عنه الأثقال، أن تكون أخا له إن كان في سنك، وأبا له إن كنت أكبر منه، وابناً له إن كان أكبر منك، هذا حالنا، قال تعالى:

(أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)

[سورة الفتح الآية: ٢٩]

من علامة هلاك العرب في آخر الزمان :

أيها الأخوة، فمن علامة هلاك العرب في آخر الزمان: أن بأسهم بينهم، كل طاقتهم مبددة فيما بينهم، والأجانب ينظرون إليهم ويسخرون، كل طاقاتنا فيما بيننا، على مستوى أسرة ، على مستوى حي، على مستوى بلد، هذه من أكبر المصائب .

الآن: مشكلتنا نكون أو لا نكون، إن لم نتعاون، إن لم نتضامن، إن لم نتحابب، إن لم يؤثر بعضنا على بعض، لن تستقيم لنا الحياة، ولن نبقى:

فلا رحب القصور غدا بباق لساكنها ولا ضيق الخصاص

هكذا قال الشاعر .

أيها الأخوة، يتمنى الإنسان أن يكون الدين مطبقاً عند الجميع، فإن لم يكن، فأنا أطبقه، أنا أكون المثل الأعلى، أرحم من حولي، الله مطلع، وعلى كل شيء قدير، وسميع وبصير، ويقدّر كل شيء .

هذا هو مجتمع المؤمنين :

أيها الأخوة، آية ثانية:

(وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ)

[سورة الحشر الآية: ٩]

هؤلاء لزموا المدينة، وأخلصوا الإيمان فيها، وهم الأنصار، كان الأنصاري يقول للمهاجر:

((دونك نصف مالي فخذه))

عندي بيتان خذ أحدهما، عندي بستانان خذ أحدهما، ماذا يرد عليه المهاجر؟ بارك الله لك في مالك، ولكن دلني على السوق .

الأنصار بذلوا أعلى درجة في البذل، والمهاجرون تعففوا أعلى درجة في التعفف، هذا مجتمع المؤمنين، هناك بذل، وهناك تعفف .

ما معنى هذا الحديث؟ :

ومن أحاديث هذا الباب: فعَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ، بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

ذكرت من قبل: أن للإيمان حقائق، وأن للإيمان حلاوة، حقائق الإيمان يدركها أيّ إنسان مفكّر، لكن حلاوة الإيمان لا يذوقها إلا كل ملتزم بالإسلام، المفكر يدرك حقائق الإيمان ، لكن المطبّق يذوق حلاوة الإيمان .

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا))

القضية سهلة، اسأل مليون مسلم: ألا تحب الله ورسوله؟ أعوذ بالله، بديهي، ألا تحب الله ورسوله أكثر من أي شيء؟ طبعاً، هذه سهلة، فما معنى الحديث؟ .

هذا الحديث معناه عند التعارض، لما تكون في أمسّ الحاجة على مليون ليرة، يأتيك مليون ليرة، ولكن من طريق حرام، عندك نص يحرِّم، وأنت في حاجة ماسّة على هذا المبلغ، فإذا آثرت طاعة الله وطاعة رسوله على هذا المليون، وأنت في أمس الحاجة إليه، عندها تذوق حلاوة الإيمان .

أنت لست متزوجاً، ومرت في الطريق امرأة شبه عارية، كاسية عارية، وآثرت غض البصر على أن تملأ عينيك من محاسنها، عندئذ تذوق حلاوة الإيمان .

عندك زوجة، وعندك أم، والزوجة محببة إليك، والأم متقدمة في السن، صار ظلها ثقيلاً، فإن آثرت زوجتك، وهي متعة الحياة الدنيا، وأهملت أمك سقطت من عين الله، أما حينما تطبِّق:

(فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ)

[سورة الإسراء الآية: ٢٣-٢٤]

عندئذ تذوق حلاوة الإيمان .

خلاصة القول فيما سبق: حينما تتعارض المصلحة مع النص الشرعي:

ملخّص كلامي: أنه عند التعارض، حينما تتعارض مصلحتك مع النص الشرعي، وتؤثر النص الشرعي طاعة لله وطاعة رسوله على مصلحتك، عندئذ يذيقك الله حلاوة الإيمان ، وإذا أذاقك الله حلاوة الإيمان، لا تشتهي شيئاً في الدنيا، إلا هذه الحلاوة، إله يذيقك حلاوة الإيمان، أيّ متعة في الأرض تفوق هذه الحلاوة؟ أيّ طمأنينة تغمر القلب؟ أيّة سعادة تملأ جوانحك؟ أيّ رضا يقر له قلبك؟ .

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ، مَنْ كَانَ اللَّهُ ـأيْ الله في قرآنه- وَرَسُولُهُ ـفي سنّته- أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا))

لك أخ صديق هجرك، فأنت لست بحاجة إليه، هجرته أضعافاً، لا سلام، ولا كلام، ولا نظر، مرتاح، لكن وجدت أن الإنسان إذا هجر أخاه عليه إثم كبير، فكسرت نفسك، وضغطت على مكانتك، وذهبت إليه مسترضياً .

الآن: تذوق حلاوة الإيمان، لا تذوق حلاوة الإيمان إلا إذا عاكست هوى نفسك، ولزمت النص الشرعي.

طلبت زوجته منه شيئاً، وهو معه، والشيء ثانوي جداً، شيء فيه ترف، فيه حب الظهور، له أقرباء يموتون من الجوع، فضحّى برضا زوجته، وأطعم الجائعين، فغضبت عليه زوجته، لكن الله رضي عنه، عندئذ تذوق حلاوة الإيمان .

جاءك خاطب مليونيرًا، لكن ليس فيه دين، وجاءك خاطب ثان (مديونير)، أي مديون، ولكن فيه دين، فآثرت الفقير على الغني صوناً لدين ابنتك، عندئذ تذوق حلاوة الإيمان، حلاوة الإيمان ثمنها باهظ، لا يذوقها إلا من دفع ثمنها .

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ))

أعرف شخصاً، ألزم بورقة يا نصيب إجباراً، وربحت الورقة أفخر سيارة، والقصة من الأربعين سنة، قديمة جداً، كانت أرقى ماركة (كاديلاك)، وربحت الورقة كاديلاك، مزقها، ولم يأخذ السيارة، هو موظف بسيط، معلم ابتدائي، ألزم بورقة يا نصيب، نصيبه كان الجائزة الأولى، سيارة (كاديلاك)، فلم يأخذها، لأن اليانصيب حرام، إذا أذاقك الله عز وجل حلاوة الإيمان، يكون هذا غلطاً.

((ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ))

جاءك زبون أحمق، لا يفهم شيئاً، اشترى منك بضاعة بأعلى سعر ونقداً، ولكن أنت اعتبرت هذا الزبون أخاً لك، إذا أخذها لن تباع معه، شراؤه مرتفع، والسوق باردة جداً، فرفضت أن تبيعه إياها رحمة به، الآن تذوق حلاوة الإيمان، أنت عاكست رغبتك في البيع .

قال لك أحدهم: هذه البضاعة هل يكش قماشها؟ فقلت له: إي والله، فضاعت البيعة، الآن تذوق حلاوة الإيمان .

أنا آتي بأمثلة من الحياة، دعيت على حفلة راقية جداً، ولكن فيها اختلاط، فمزقت هذه الدعوة، ولم تذهب إليها، وحضرت مجلس علم على الأرض، ليس فيه كأس شاي، الآن تذوق حلاوة الإيمان، لا تذوقها إلا إذا آثرت رضاء الله عز وجل، ورضاء رسوله على حظوظ نفسك، أما بالكلام فالقضية سهلة جداً، اسأل أي إنسان، أيّ مسلم، أعوذ بالله، الله أحبُّ إليّ من كل شيء، هذا كلام، ولكن عند التعارض شيء آخر .

الشيء الثاني:

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ))

عنده ما يسمى: بالولاء والبراء، يوالي المؤمنين، ويبغض أهل الكفر، يوالي المؤمنين ولو كانوا فقراء، ولو كانوا ضعافاً، ويبغض أهل الكفر ولو كانوا أغنياء أقوياء، فالقضية قضية مبدأ مع المؤمن، مع الإيمان، لا مع الأغنياء، ولا مع الأقوياء .

و:

((من جلس إلى غني، فتضعضع له، ذهبا ثلثا دينه))

و:

((أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ))

لذلك: المؤمن حبه في الله، والمنافق حبه مع الله، الحب في الله عين التوحيد، والحب مع الله عين الشرك، يحب شخصاً لا دين فيه، كلما نزوره يعشّينا، يأخذنا، ويدفع عنا، والذهاب معه مذهل، يحبه، لم يصل المغرب، ذنبه على جنبه، ولم يصل العشاء، هناك أناس يشرب الخمر أمامهم، إن شاء الله في رقبته .

ذكر لي شخص، والله يصلي في الصف الأول، قال لي: عندنا مطعم، ولكنه يبيع الخمر، إن شاء الله في رقبة شريكي، ماذا أفعل له؟ أنا لا دخل لي، كيف لا دخل لك؟ أنت شريكه، كيف تأخذ نصف الربح في الشهر؟ يحبه، أقنعه أن هذا المطعم خمس نجوم، إذا لم يكن فيه خمر، يصير بأربع نجوم، وتهوي أسعارنا .

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ))

المؤمن الصادق يحب الإنسان الدرويش الفقير، و يكره الإنسان الكبير العظيم، يحب الطائع، لذلك تجد المؤمن يحب الفقراء، والدراويش، والمساكين المؤمنين، ويسعد بهم، ويكره المجتمع المخملي، مجتمع الجنفيز، نساء كاسيات عاريات، الخمور تدار، الاختلاط، كل واحد معلق بواحدة، يغمز ويلمز، ويحكي ويسمع، هذا مجتمع المخملي، أما مجتمع المؤمنين فهو مجتمع الأدب، والحشمة، والعفاف، والوقار، جلستهم لا تمل القلب، لأنهم رجال في رجال، أما غيره فيحب امرأة تلبس القصير، بلا أكمام، يمزح معها، ويضحك، وتقهقه أمامه، يريد جلسة مختلطة، أما إذا كانت الجلسة الرجال وحدهم، والنساء وحدهم يتضايق، يقول: ناشفة .

خاتمة القول عن هذا الحديث :

((وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ، بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

لا يمشي على الحرف، أيّ مشكلة يترك الصلاة، أي مشكلة يترك الدين .

كان يحضر عندنا شخص، عنده معمل، مات ابنه، فترك الصلاة، غضب من الله .

لي قريب توفي –رحمه الله–، عنده زوجة صالحة جداً، ماتت، لها أخت تكبرها بعشرين سنة، توفي زوجها، فقال: يا رب لو أخذت هذه، فليس لها أحد، أما زوجتي فكنت أستعين بها، لا يرى حكمة الله .

((وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ، بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ))

هذا الحديث مهم جداً، إن أردت حلاوة الإيمان، فافعل هذا .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٨٢-١٠١) : باب توقير العلماء، والكبار، وأهل الفضل - ما هما القيمتان اللتان يرفعان الإنسان عند الله؟ وماذا نستنبط من هذه الأحاديث التي تندرج تحت هذا الباب؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٧-٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

ما هي القيم التي تقدسها الناس؟ وما هما القيمتان اللتان ترفعان العبد عند الله؟

لا زلنا أيها الأخوة في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، واليوم باب: توقير العلماء، والكبار، وأهل الفضل، وتقديمهم على غيرهم، ورفع مجالسهم، وإظهار مرتبتهم .

أيها الأخوة، الناس يتفاضلون بقيم أرضية، وبقيم سماوية، أما القيم الأرضية، فقيمة المال قيمة كبيرة عند الناس، فصاحب المال معظم، معظّم، هكذا، صحيح أو خطأ، هذا موضوع ثان، أما الناس فيعظمون أرباب المال، والقوي معظم، والناس يعظمون الأقوياء، والجميل محبوب، والناس يتملقون للجميل، هذه قيم الأرض، الغني مبجل، القوي معظم، الجميل يتملق له، ولكن لو فتحنا القرآن، وقرأناه من دفته إلى دفته، لا نجد عند الله عز وجل إلا قيمتان ترفعان الإنسان عند الله فقط؛ قيمة العلم، وقيمة العمل، والدليل قوله تعالى:

(يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)

[سورة المجادلة الآية: ١١]

والدليل الآخر أو الثاني:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا)

[سورة الأنعام الآية: ١٣٢]

عند الله تعلو بعلمك وعملك، وعند الناس تعلو بمالك وقوتك، هذه قيم الأرض، وتلك قيم السماء .

وقد ورد في الحديث:

((ابتغوا الرفعة عند الله))

قيم السماء خالدة إلى أبد الآبدين، أنت حينما تطلب العلم، وحينما تعمل بما علمت ترقى إلى أعلى عليين، ليس في الدنيا فقط، بل في الآخرة، فهناك قيم ممتدة، وهناك منتهية عند الموت، فأكبر يموت، وإذا مات انتهى، هناك أغنياء في العالم، تركوا أرقاما فلكية، انتهوا حينما ماتوا، وليس لهم أي أثر .

خذ العبر من هذه القصص :

مرة سألت طلابي قديماً مداعباً، قلت لهم: من يأتيني باسم غني، عاش في دمشق عام ١٨٩٦، هذا هو السؤال، وله علامة تامة، فكر الطلاب كثيراً، لم يجب أحد منهم، قلت: وأنا معكم لا أعرف، من منا لا يذكر سيدنا عمر، سيدنا عثمان، سيدنا عليًّا، سيدنا خالداً، سيدنا صلاح الدين، الإمام الشافعي، الإمام أبو حنيفة، الإمام مالك، الإمام ابن حنبل، هذه الأسماء تدور على الألسنة في اليوم ملايين المرات، ولا يستطيع إنسان أن يذكر غنياً، عاش في الشام قبل مئة عام، يموت فينتهي . لذلك: سيدنا علي قال:

((يا بني، العلم خير من المال، لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو على الإنفاق))

أنا أذكر: أول ما خطبت في جامع النابلسي، القصة من ثلاثين سنة تقريباً، جاءني رجل، قال لي: زوجتي تخونني، وصار يبكي، ولي منها خمسة أولاد، ومضى على خيانتها لي سنتان، ماذا أفعل؟ قلت له: مع من؟ قال: مع جارنا، قلت له: كيف تعرف عليها؟ قال: والله أنا السبب يا أستاذ، مرة جاءنا يزورنا، ناديت زوجتي، اجلسي معنا، هذا كأخيك، قلت له: أنت لو حضرت مجلس علم واحد ما فعلت هذا، أنت السبب .

سائق تاكسي -هنا في الشام- قبل سنتين أو ثلاث، استوقفته امرأة، تضع عباءة، ركبت معه، قال لها: إلى أين يا أختي؟ قالت له: أينما تريد خذني، قضى وطره منها، وأعطته ظرفين، أول ظرف فيه خمسة آلاف دولار، والظرف الثاني فيه رسالة، فتح الرسالة فإذا قد كُتب فيه: مرحباً بك في نادي الإيدز، مصابة بهذا المرض، فنقلته له، فلما ذهب ليصرف هذا المبلغ، فإذا به مزور، فأودع السجن .

لو أنه طلب العلم، لوضع رجله في ظهرها وركلها، حينما قالت له: خذني أين تريد؟.

انظر إلى قيمة العلم :

أيها الأخوة، العلم حارس، والعلم حصن، والعلم سبب سلامتك وسعادتك، فلذلك: لا بد لك من طلب العلم . قالوا: لك آباء ثلاثة؛ لك أب أنجبك، أبوك الحقيقي، ولك أب زوجك، ولك أب دلك على الله، الأب الذي أنجبك هو سبب حياتك، ينتهي فضله عند نهاية الحياة، والأب الذي زوجك يبدأ فضله يوم الزواج، وينتهي عند الفراق، فراق الزوجة، فراقك لها، أو فراقها لك، وأما الذي دلك على الله، فيستمر فضله إلى أبد الآبدين، من عرّفك على طاعة الله، حملك على أن تستقيم .

فلذلك: في عالم الأرض قيم المال والقوة والجمال، عند الله عز وجل قيمة العلم والعمل، كن ابن من شئت، اطلب العلم ترق عند الله .

((تعلموا العلم، فإن كنتم سادة شرفتم، وإن كنت وسطاً سدتم، وإن كنت سوقة عشتم))

إذا كنت من الطبقة العليا، إذا كان للواحد منصب رفيع جداً بحكم قرابته بالملك مثلاً، ومعه دكتوراه.

((إن كنت سادة فقتم، وإن كنتم وسطاً سدتم، وإن كنتم سوقة عشتم))

قيم الأرض؛ فقيم المال والقوة والجمال، وقيم السماء؛ قيم العلم والعمل، والموت ينهي كل قيم الأرض .

إذا كان هناك قبران متجاوران، أحدهما مات عن خمسة آلاف مليون، والثاني مات مليونيرًا، القبر واحد، أحدهما ضعيف، والثاني قوي، ماتا، كلاهما يا عبد الله؛ الموت حق، و الجنة حق، والنار حق، وقد يكون ملكاً، لا يقال له: يا صاحب الجلالة الموت حق، يا عبد الله ، فقيم الدنيا تنتهي عند الموت، ولكن قيم السماء تبدأ بعد الموت، قال تعالى:

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ)

[سورة يس الآية: ٥٩]

فأنت حينما تعظم قيم السماء ترقى عند الله، لذلك: يمكن أن تلتقي برجل غني، تنحني له نصفين، أما المؤمن فيحترم الذين أكرمهم الله بالعلم .

الحقيقة: العلم كرامة، ولكن هذه الكرامة رائعة جداً، لا تحتاج إلى خرق العادات، كرامة العلم أعلى كرامة، ومع أنها أعلى كرامة، ليس فيها خرق للعادات .

قال تعالى:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ)

[سورة الزمر الآية: ٩]

مرة دخلت معملاً، صاحب المعمل وجهه مصفر ومكفهر: خير؟ قال: تعال انظر، معمل ضخم، معمل تطريز، قال: انظر إلى هذا الشق في هذا الجسر، قلت: ما معنى ذلك؟ قال : هناك هبوط في أساس المعمل، أتينا بدكتور في الهندسة، قال: القصة سنة ١٩٧، قال: كلفة تدعيم أساس هذا المعمل خمسمئة ألف ليرة، وكان الدولار بثلاث ليرات، لو جاء صاحب المعمل بدهان، وقال له: هناك شق، فقال الدهان: أنا أمعجنه لك، فبين معجن الدهان هذا الشق وبين تدعيمه بخمسمئة ألف مسافة كبيرة جداً، مسافة العلم ومسافة الجهل، فلذلك: رتبة العلم أعلى الرتب .

((إن أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإن أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإن أردتهما معاً فعليك بالعلم))

كلام خطير :

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً، فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا، وَلَا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ، إِلَّا بِإِذْنِهِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أيها الأخوة، تسمع أحياناً العجب العجاب .

مرة هكذا قيل لي: المذيع قدّم قارئاً، وقال: يتلو عليكم سورة يَاسْ، عوض يَاسين.

((يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ))

الآية الكريمة:

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

[سورة التوبة الآية: ٤٠]

قال: وكلمة الله، مشكلة كبيرة جداً، يعني: جعل كلمة الذين كفروا السفلى، بعد أن كانت عليا، وجعل الله كلمة الله هي العليا، بعد أن كانت ــوالعياذ بالله -، فإذا قلت: وكلمة الله، وقعت في معنى خطير جداً، أي كانت كلمة الله سفلى، فصارت عليا. قال تعالى:

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

[سورة التوبة الآية: ٤٠]

وقف. قال تعالى:

(وَكَلِمَةُ اللَّهِ)

[سورة التوبة الآية: ٤٠]

-مبتدأ-:

(هِيَ الْعُلْيَا)

[سورة التوبة الآية: ٤٠]

دائماً: حركة تنتقل من معنى رائع إلى معنى فاسد .

ما تبقى من معنى هذا الحديث :

((يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً، فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا، وَلَا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ، إِلَّا بِإِذْنِهِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أنت في بيت لا يؤمّن، أي لا يصلي إماماً .

((يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ))

أنت في مزرعة، مَن أولى أن يصلي بك إماماً؟ صاحب المزرعة، هذا سلطانه، أنت في بيت، من أولى أن يصلي بك؟ صاحب البيت، إلا أن يوكلك، أما الأصل: أن يؤمّ القومَ من كان في سلطانه .

((وَلَا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ))

دخلت إلى مكتب فخم، ووراء المكتب كرسي فخم، هناك أماكن لجلوس الزوار، هناك أشخاص يقعدون في مكان صاحب المكتب، هذا المكان ليس لك؛ فيه درج مفتوح، فيه دفتر هاتف، فيه سندات، هذا لا يجوز أن تجلس فيه.

((وَلَا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ))

كل إنسان له مكان يجلس فيه، له مكتب، له مكتبة، يأتي ضيف، ويمسك كتاباً من دون إذن، يفتح دفتراً من دون إذن، يفتح درجاً من دون إذن، هذا يتنافى مع كمال الإيمان .

أعد قراءة الحديث:

أعيد عليكم قراءة الحديث: عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً، فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا، وَلَا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ، إِلَّا بِإِذْنِهِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

حتى ورد في الأثر أنه:

((من نظر إلى كتاب أخيه من غير إذنه، فكأنما ينظر إلى النار))

لفتة، مذكرات، لا ينبغي أن تفتح من دون إذن صاحبه، هناك رسالة فرضاً، هناك مشكلة أو رسالة من زوجته مثلاً، تهدّده بالمفارقة، هذه أسراره الخاصة، أما أن تفتح كتاباً ليس لك، فهذا ليس من السنة .

ما وراء هذين الحديثين:

وعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ:

((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا فِي الصَّلَاةِ، وَيَقُولُ: اسْتَوُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ، لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

الإمام إذا صلى، الأكمل: أن يصلي وراءه، أقرؤهم لكتاب الله، فإذا أخطأ في قراءته ردّه .

((لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الْأَحْلَامِ وَالنُّهَى، -أي: علية القوم، يصلون وراء الإمام-، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ))

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

((كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَجْمَعُ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟ فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمَا، قَدَّمَهُ فِي اللَّحْدِ))

يقدّم في اللحد من كان أكثر قراءة للقرآن من أخيه، لذلك: في مجتمعات المادة يعظَّم رب الأموال، وفي مجتمعات الدين يعظَّم أهل العلم .

من هم أولو الأمر في هذه الآية؟:

سمعت قصة أعجبتني جداً، أستاذ جليل في محافظة في الجنوب، زار رئيس الوزارة، هكذا سمعت، نزل إلى الباب الخارجي، وفتح له باب السيارة بيده، شيء جميل، إنسان له دعوة إلى الله، له باع في العلم، يُحترم من قِبل الأمير، الأمير ينقذ، ماذا قال الله عز وجل؟ قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)

[سورة النساء الآية: ٥٩]

قال الإمام الشافعي:

((أولو الأمر: هم الأمراء والعلماء معاً))

كيف؟ العلماء يعلمون الأمر، والأمراء ينفذون الأمر .

هناك أمر إلهي، واحد يعلمه، وواحد ينفذه، فالأصل التعاون، العلماء يعلمون، والأمراء ينفذون .

دقق في هذا الحديث :

دقق في هذا الحديث: عَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ تعالى –من تعظيم الله تعالى- إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، –إنسان كبير في السن، شاب شعره في طاعة الله، صائم، يصلي، يغض بصره، كلامه مهذب، يقرأ القرآن، عمره ستون، أو سبعون سنة، أو ثمانون، أو تسعون، من إكرام الله تعالى أن تكرم ذي الشيبة المسلم-، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، –الذي يحفظ كتاب، والذي يعلم كتاب الله، والذي يفسر كتاب الله-، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

أي: إذا التقيت بمدير ناحية، لكنه مستقيم، ورع، لا بد أن تحترمه، الموظف مثلا: إذا كان يقوم بواجبه الوظيفي، وحريص على العدل، وحريص على خدمة الناس، وعلى توفير الأمن لهم، هذا يجب أن يُحترم، تشجيعاً له، لما تكرم ذي السلطان المقسط، فهذا من إجلال الله عز وجل .

((إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ، إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، –أي لم يتجاوز الحدود، يقرؤه، ويعمل به، لأنه:

((رُبّ تالٍ للقرآن، والقرآن يلعنه))

هناك بنت لأكبر قراء مصر ابنته مغنية، هذا بيت يتلى فيه القرآن، أيعقل أن تكون بنت أحد كبار، كبار القراء في مصر مغنية؟ هذه وصمة عار في حقه-، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ، وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ))

العادل، إذا كان الموظف نزيهاً مستقيما، لا بد أن تحترمه، من السنة أن تحترمه، كي تشجعه أن يبقى مستقيماً، وعلى أن ينفع الناس .

تمعن :

وفي الحديث الصحيح: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيْسَ مِنَّا، مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كَبِيرِنَا))

[أخرجه الترمذي وأبو داود في سننهما]

الصغير يُرحم، والكبير يبجّل ويعظّم .

مرة أحد الخلفاء، أحد أمراء المؤمنين، سأل عالماً جليلاً، اسمه أبو حازم، قال له:

((عظني، قال له: اجعل أصغر الناس في رعيتك ابناً، وأوسطهم أخاً، وأكبرهم أباً، فارحم الصغير، وواس المتوسط، وأجلّ الكبير))

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

((قدِمَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ، فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ، وَكَانَ مِنْ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنِيهِمْ عُمَرُ رضي الله عنه، وَكَانَ الْقُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجَلِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كُهُولًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا بْنَ أَخِي، لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ، فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ؟ فاستأذن له، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ رضي الله عنه، فَلَمَّا دَخَلَ، قَالَ: هِيْ يَا بْنَ الْخَطَّابِ! فَوَ اللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزْلَ وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ رضي الله عنه حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ، فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:]خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ((وَإِنَّ هَذَا مِنْ الْجَاهِلِينَ، وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ تعالى))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

إذا ذكّرت المؤمن بآية يقف، هذا حكم الله، قال له:

(([خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ]، وَإِنَّ هَذَا مِنْ الْجَاهِلِينَ))

آخر حديث، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ، إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ، مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

إن كنت تعظّم المال، فلا بد من أن تعظّم أرباب الأموال، وإن كنت تجلّ العلم، فلا بد أن تحترم حاملي العلم، والذي تحترمه هو الذي تصبو إليه دائماً، ومن السنة: أن توقر أهل العلم والفضل، وذي الشيبة المسلم .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٨٣-١٠١) : باب: فضل الحب في الله والحث عليه، وإعلام الرجل مَن يحبه أنه يحبه -٢- تفسير معنى هذا الحديث: سبعة يظلهم الله تعالى........١

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٧-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا هو الفرق بين الدنيا والآخرة :

أيها الأخوة، لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين عليه أتم الصلاة والتسليم، ولا زلنا في باب: فضل الحب في الله والحث عليه، وإعلام الرجل مَن يحبه أنه يحبه.

في الدرس الماضي، تحدثنا عن آيتين، وعن حديث صحيح لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وها نحن نتابع هذا الموضوع .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تعالى فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ؛ إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ، وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

في الدنيا قد تجد من تلجأ إليه، وقد تجد من يدعمك، وقد تجد من يتوسط لك، وقد تجد من يوافقك على باطل، وقد تجد من له مصلحة معك، لكنك في الآخرة تأتي فرداً، قال تعالى:

(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ)

[سورة الأنعام الآية: ٩٤]

فالإنسان في الدنيا، له جماعة، له أتباع، له من يدعمه، له من ينصره، ولو كان على باطل، ولكن في الآخرة لا ظل إلا ظل الله عز وجل .

آية هذه تفسيرها :

هناك آية دقيقة جداً، يقول الله عز وجل:

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

[سورة الشورى الآية: ٥٣]

هذه الآية، لو فكر فيها الواحد، ففيها مشكلة، بيد مَن كانت حتى صارت إليه؟ صار الأمر إلى الله، بيد مَن كان؟ . قال علماء التفسير:

((الأمر دائماً بيد الله))

ولكن الكفار في الدنيا، يرونه بيد زيد أو عبيد، والدولة القوية الفلانية، وحاكمها القوي، ومَن يملك قنبلة ذرية، ومن يملك سلاحاً نووياً، ومن يملك الأقمار الصناعية ويرصد، فالكفار في الدنيا يرون الأمر بيد غير الله، لكن المؤمنين وحدهم في الدنيا، يرون أن الأمر بيد الله وحده، لكن يوم القيامة كل الخلق، يرون أن الأمر بيد الله، تصير الأمور إلى الله في نظر كل الخلق، بعد أن كانت في الدنيا في نظر البعض بعض الخلق، المؤمنون يرون أن الأمر كله بيد الله .

من هو العاقل؟ :

((سَبْعَةَ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ))

أحياناً: الموظف يسمع إشاعة، أن مديره العام سينتقل، بالتعبير العامي يشمشم، من يأتي بعده، حتى يقيم معه علاقة، يعد نفسه ذكياً جداً، أنه قبل أن يتعين مديراً عاماً يزوره، ويأخذ له هدية، يقيم معه علاقة ود، حتى يستفيد منها لما يكون مديراً عاماً، هذا منطق الناس.

هؤلاء الناس يتعلقون بزيد أو عبيد، أو فلان أو علان، لو أنهم فكروا مصيرهم إلى الله، فالذكي العاقل الموفَّق، الذي يقيم علاقة طيبة مع الله قبل أن يصل إليه، لأنه يوم يموت العبد، ويوضع في قبره، يناديه مناد:

((أن عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك، ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت))

مرة، أنا لا أتكلم في السياسة إطلاقاً، ولكن هذا أوجلان التركي ركب طائرة، وفي ظنه أنها ذاهبة إلى أمستردام، فإذا هي في طريقها إلى أنقرة، ماذا حدث له؟ دقق في قوله تعالى:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية الآية: ٢٥-٢٦]

تذهب إلى مكان تحاسَب عن كل كلمة، وعن كل نظرة، وعن كل درهم، وعن كل حركة، وعن كل سكنة، قال تعالى:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

[سورة الغاشية الآية: ٢٥-٢٦]

من هؤلاء الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة؟ :

١- إمام عادل:

((سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ؛ إِمَامٌ عَادِلٌ))

وقد ورد في الأثر:

((العدل حسن، لكن في الأمراء أحسن –أي: أجمل صفة في الأمير: أن يكون عادلاً-، والورع حسن، لكن في العلماء أحسن، –أجمل صفة في العالم أن يكون ورعاً، ليس معقولاً أن يشرب (الأركيلة)، ويلعب النرد، لا يمكن-، والتوبة حسنة، لكن في الشباب أحسن، –الشاب كتلة شهوات، فإذا تاب تائباً يباهي الله به، ما من شيء أكرم على الله من شاب تائب .

أحب ثلاثاً، وحبي لثلاث أشد؛ أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد، أبغض العصاة، وبغضي للشيخ العاصي أشد- .

العدل حسن، لكن في الأمراء أحسن، والورع حسن، لكن في العلماء أحسن، والتوبة حسنة، لكن في الشباب أحسن، والصبر حسن، لكن في الفقراء أحسن، والسخاء حسن، لكن في الأغنياء أحسن، والحياء حسن، لكن في النساء أحسن))

أجمل ما في المرأة الحياء، وأجمل ما في الشاب التوبة، وأجمل ما في الفقير الصبر، وأجمل ما في الغني السخاء، وأجمل ما في العالم الورع، وأجمل ما في الحاكم العدل .

لذلك: أيها الأخوة، يسألني شاب: انصحني، الشاب غضّ بصرك، مأخذك من الفتيات ، يسألني تاجر فأقول: اضبط دخلك، مأخذك أن دخلك فيه شبهة .

قال لي رجل قوي: انصحني، أقول: راقب ربك في العدل، اعدل بين الناس .

مرة قال لي لأحدهم، هو موظف في التموين: انصحني يا أستاذ، فقلت له: واللهِ أنا أنصحك أن تضع ما تستطيع من التجار في سجن عدرا، قال: معقول؟! هذه نصيحة شيخ، ولكن إذا كنت بطلاً، فهيئ جواباً لكل ضبط تكتبه، الله كبير، كل هؤلاء عباده، الله عنده سرطان، تشمع كبد، خثرة في الدماغ، شلل، فشل كلوي .

ذكرت له أمراضاً مخيفة، كلها موجودة عند الله، كل هؤلاء الخلق عباده، فقبل أن تؤذي إنساناً، عدّ للمليون، وتصور نفسك واقفاً بين يدي الله عز وجل، ويسألك: لماذا فعلت معه هكذا؟ ألم تكن ظالماً؟

رأس مالها ستون، باعها بخمس وستين، أنت عندك تسعيرة من ثلاث سنوات بخمسين، ولكن التسعيرة ليست حقيقية، ولا واقعية، فقبل أن تظلم، فكر أن هناك إلهاً كبيراً .

فأول واحد: إمام عادل .

٢-شاب نشأ في عبادة ربه :

والثاني:

((وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ))

من لم تكن بداية محرقة، لم تكن له نهاية مشرقة .

أيها الأخوة، إذا كان هناك شيء يذوب الإنسان غبطة به، لكان شاباً نشأ في طاعة الله ، شاب مؤمن، وهو في ريعان الشباب، يحب الله ورسوله، في الخامسة عشرة مسلم مؤمن، يغض بصره، يقرأ القرآن، يحفظ القرآن، يذكر الله، هذا كيف يصير في الستين؟ .

هناك أخ من أخواننا، هداه الله والتزم، قال لي: عندي بنات، هل يمكن أن تسعى لي في زواجهم؟ بعثنا له خاطباً، فظهر الست بنات أمامه بثياب غير معقولة، ماهذا؟ قال: أنا اهتديت إلى الله على كِبر، ولكن لا أستطيع أن أغيّر، هذا كلام دقيق، لما تؤمن في وقت مبكّر، تشكل حياتك تشكيلاً إسلامياً، تختار زوجة مؤمنة، تربي بناتك، تربي أولادك، تختار حرفة ومصلحة شرعية، أما إذا صحوت في وقت متأخر، هذا جيد وخير، لكن الكل أخذ خطًّا غير صحيح، قال تعالى:

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١٠٩]

لا بد أن تبني حياتك على صغر .

أحدهم كان يبيع أشرطة أغاني، جاء إلينا وداوم، ثم ترك، لماذا؟ قال: واللهِ لا أستطيع أن آتي، عملي يتناقض مع الدرس، أنا أبيع أغاني، هذه حرفتي، ولا أعرف غيرها، فإذا عرف الإنسان الله في وقت مبكر، يشكل حياته تشكيلاً إسلامياً، يختار مهنة شريفة .

ورد في الحديث الشريف:

((إن روح القدس، نفث في رُوعي، أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها، فاتقوا الله عباد الله، وأجملوا في الطلب، واستجملوا مهنكم))

ابحث عن مهنة شريفة، عن حرفة ليس فيها أذى للناس، ليس فيها ابتزاز لأموال الناس، عن حرفة لا تقوم على أنقاض الآخرين، حرفة فيها نفع للآخرين .

مرة فتحنا مسجداً، فكان إلى جانبي مدير أوقاف الريف، فقلنا له: اشكر الله عز وجل فقال: ما المناسبة؟ قلت له بشكل مبهم: أنت تفتح مسجداً، وتعين خطيباً، قال: نعم، قلت: غيرك يفتتح ملهى، ويعيّن راقصة، اشكر الله، إذا أردت أن تعرف مقامك، فانظر فيما استعملك، منصب رفيع جداً .

أنا حققت إنجازاً كبيراً، ما الإنجاز؟ قال: استطعت أن آتي بالمطربة الفلانية، وأعطيناها عشرة آلاف دولار للسهرة، والله ممتاز، ما شاء الله على هذه البطولة، فإذا كان عمل أحدنا شرعياً شريفاً في خدمة الحق، فليشكر الله عز وجل .

أنا لا أنسى هذه الكلمة، إذا أردت أن تعرف مقامك، فانظر فيما استعملك، إذا أحب الله عبداً، جعل حوائج الناس إليه .

مثلاً: كاتب المحكمة، واللهِ عمله شريف، عمله كله في الزواج، هناك ناس مكلفون بالملاهي، يرون الراقصة هل معها رخصة أو لا؟ معها إيدز أو ليس معها، هذا عمل ثان، أحدهم عمله في الزواج، كله شرعي، كاتب العدل عمله جيد، شرعي، هناك مهن رائعة، و هناك مهن –والعياذ بالله–، مبنية على إفساد الآخرين .

مرة أخبرني إنسان من لوس أنجلوس، قال لي: أنا عملي أقذر عمل، خير إن شاء الله ، ولم يعطن اسمه، قال: عملي بإنتاج الأفلام الإباحية، سمعت لك شريطاً خمسين مرة، وتبت، والحمد لله، تركت عملي، ولما سافرت مرة ثانية، التقيت به في واشنطن، شاب عرف الله، قلت له: أي شريط سمعت؟ قال في شرح آية:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

قال لي: شرحتَها شرحاً مخيفاً في ثلثي ساعة، قلت: أيّ نقطة في هذا الشرح، تركت معك أثراً؟ قال: قصصتَ قصة، قلت: ما القصة؟ قال: هناك رجل في المزة له سوسة، عمره ستون سنة تقريباً، له خمس بنات زوجهن، وعنده شباب، محترم، موظف متقاعد، هذه السوسة أنه يمر على طريق الصالحية في الصيف، ثم يرجع إلى الجسر مرتين، ويمِّتع عينيه بالحسناوات، لا يعمل شيئاً، ولا يتكلم، ولا يبطش، ولا يُسمِع، ولكن يمتع عينيه، فأصابه مرض ارتخاء الجفون، حتى يرى شخصاً يمسك جفنيه، يبدو أن هذه القصة أثرت فيه كثيراً، هنا مفتاح التشغيل، كل واحد له مفتاح تشغيل، فأنت احضر الدروس كلها، لا تعرف ماذا يقال في الدرس؟ كلمة تقلبك مئة وثمانين درجة، كل واحد له مفتاح تشغيل. الشريط موضوعه:

(إن بطش ربك لشديد)

مشروح في ثلثي ساعة، أحده جالس في آخر الدنيا، سمعه، خاف، سمعه مرة ثانية، قال: واللهِ سمعته خمسين مرة، وتبت، وأكرمني الله.

٣- رجل قلبه معلق في المساجد :

((وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ))

شخص يحب المساجد، وشخص يحب الفنادق، هنا خمس نجوم، وهنا فيه مسبح، وهنا فيه اختلاط، وهنا فيه حفلة مختلطة، وهنا فيه ملهى، وهنا المغنية الفلانية، وهنا فلان الفلاني أكبر مغنٍّ، جاء من حلب لأجله مثلاً، هذه تمثيل، والمؤمن قلبه معلق بالمساجد، وخير البلاد مساجدها، وشرها أسواقها.

٤- رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله:

((وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ))

ضبط، حدثني أخوان كثر، ذهبوا إلى أوروبا، إلى أمريكا، إلى اليابان، إلى إيطاليا، شاب يطرق بابَه في الليل، امرأةٌ في غاية الجمال، تطلب منه أن تنام معه، الرجل يغلق الباب ويقول: إني أخاف الله رب العالمين، من يراه إلا الله عز وجل؟ هذا هو الإيمان .

كان رجلان في ألمانيا، رجعا إلى الشام بسيارتهما، ناما ليلة في فندق، طُرق بابهما في الليل من قِبل فتاتين مومستين، أحدهما فتح الباب، والثاني لم يفتح، وصلوا إلى الشام، أحدهما في الهاوية، والثاني في صعود، أحدهما بارك الله له في عمله، وارتقى، وربح، واشترى محلاً ثانياً، ووسع بيته، وغيّر سيارته، وعاش في بحبوحة كبيرة، والثاني طلّق زوجته، وأفلس، وسلّم محله، الاثنان يعملان في السيارات، ذهبا، ورجعا، أحدهما فتح الباب، والثاني لم يفتح، كل شيء بثمنه .

٥- رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه :

((وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ))

صدقة لوجه الله، لم يفخر فيها، أخي أدفع لكم مئة ألف، ولكن ضعوا اسمي على رخامة، إذا لم تضعوا رخامة، فلن أدفع شيئاً، يريد رخامة، ساهم في إنشاء هذا الموضىء: المحسن الكبير فلان، من دون رخامة لا يدفع، الله يرى، واللهُ لا يريد وصلاً، ولا يريد رخامة ، ولا يريد إعلاناً، فكل إنسان يطلب مثل هذه المظاهر، يكون في إخلاصه خلل، وفي إيمانه خلل .

٦- رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه :

((وَرَجُلٌ تَصدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا، حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

الإنسان يبكي، واللهِ قرأت كلمة للحسن البصري:

((أن الإنسان إذا قرأ القرآن ولم يشعر بشيء، صلى ولم يشعر بشيء، ذكر الله ولم يشعر بشيء، عنده خلل خطير))

إذا وجد الرجل ذبابة في عينه تمشي، وهو يحرك عينه، لا ينام الليل، على الطبيب رأسًا، قال له الطبيب: المواعيد مغلقة شهرين، انتظر، لا، العين ليس فيها لعب، إذا كان في جسمه شيء، لا ينام الليل، أما قضية دينه: فالله غفور رحيم، هناك مشكلة .

((وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)

[سورة الأحزاب الآية: ٤١-٤٢]

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٨٤-١٠١) : باب: فضل الحب في الله والحث عليه، -٣- ما المعاني التي تشملها هذه الآية: فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم؟ وما المراد من هذه الأحاديث التي تنطوي تحت موضوع الحب في الله؟ -٢

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٧-٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل الدرس :

لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، والحديث اليوم:
عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ، أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُون الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أولا أدُلُّكُمْ عَلَى شيء، إذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي في سننهما]

إليكم هذه المعاني التي تتضمنها هذه الآية :

يا أيها الأخوة الكرام، يقول الله عز وجل:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

وكل أمر في القرآن الكريم يقتضي الوجوب، يأمركم الله عز وجل: أن تصلحوا ذات بينكم، وذات بينكم: نفسُك التي بين جنبيك، ذاتك التي لا تموت، تذوق الموت ولا تموت، التي تسعد بطهارتها، وتشقى بدرنها، أصلحوا ذات بينكم، أصلحوها بتعريفها بالله، وأصلحوها بحملها على طاعة، وأصلحوه بالقرب من الله، هذا المعنى الأول .

المعنى الثاني: إن كان هناك علاقة ليست على ما ينبغي بينك وبين الله، فأصلحْ هذه العلاقة، أي اصطلح مع الله .

المعنى الثالث: أصلح كل علاقة بينك وبين الناس، أخي أنا محاربه، وعمي لا أدخل بيته، وشريكي لا ردّه الله، وابني طردتُه، ما هذه الحياة؟ أصلحوا ذات بينكم، أصلح كل علاقة بينك وبين الناس .

المعنى الرابع: أصلح كل علاقة بين اثنين، قال له: أختك تضايقني كثيراً، فقال له: طلّقها، أخ ينصح زوج أخته أن يطلق أخته، أنت وفّق بين الزوجين، وفّق بين الشريكين، وفّق بين الجارين، وفّق بين مسلمَين، وفّق بين مؤمنَين، هذه آية أساسية:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

انظر إلى خطر هذا الحديث :

أيها الأخوة، يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ويقول:

((أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ))

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((هي الحالقة، لا أقول: هي تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ))

[أخرجه أبو داود والترمذي في سننهما]

حينما تفسد العلاقة بينك وبين أخيك، فسد دِين الاثنين، حينما تفسد العلاقة بينك وبين أخيك، فسد دينك ودين أخيك .

((هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: هي تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ))

ما الذي يشتت المسلمين؟ وماذا تستنبط من هذا الموقف للصحابة في غزوة تبوك؟

ما الذي يشتت المسلمين؟ العداوة والبغضاء، قال تعالى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ٤٦]

ما الذي جعل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ترفرف راياتهم في الآفاق؟ حبُّ بعضهم لبعض .

كان عليه الصلاة والسلام في غزوة تبوك، وتفقد أحد أصحابه، فقال بعضهم غامزاً من قناته: شغله بيته وبستانه، والنظر إلى عطفيه، -كلام مزعج-، فوقف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: لا والله يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، لقد تخلف عنك أناس ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو علموا أنك تلقى عدواً ما تخلفوا عنك، فابتسم النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الموقف الدفاعي .

قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ:

((وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))

دافعْ عن أخيك، تعلم أن أخاك أمين علم اليقين، ويقال عنه في مجلس تحضره أنت: إنه غير أمين، وتبقى ساكتاً؟ لا، إذًا أهين بحضرتك مؤمن، ولم تدافع عنه، لقيتَ الله ظالماً، كما أن الله يدافع عن الذين آمنوا، دافع أنت عن أخيك .

لذلك:

((فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ))

ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((هي الحالقة، لا أقول: هي تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ))

إذاً:

((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تَدْخُلُون الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا))

معنى ذلك: أن الإيمان حب، فإذا حل البغض محل الحب، فقدْ فُقِدَ الإيمان، الإيمان حب، أن تحبني، وأن أحبك .

ما المراد من هذا الحديث؟ :

عن معاذ بن جبل قَالَ:

((جَلَسْتُ مَجْلِسًا فِيهِ عِشْرُونَ مِنْ أَصْحَابِ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا فِيهِمْ شَابٌّ، حَسَنُ الْوَجْهِ، حسن السن، أَدْعَجُ الْعَيْنَيْنِ، أَغَرُّ الثَّنَايَا، فَإِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ، أو قالوا قوْلًا انْتَهَوْا إِلَى قوْلِهِ، فَإِذَا هُوَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله تعالى عنه، فَلَمَّا كَانَ مِنْ الْغَدِ جِئْتُ، فَإِذَا هُوَ يُصَلِّي عند سَارِيَةٍ، فَحَذَفَ صَلَاتِهِ، ثُمَّ احْتَبَى، فَسَكَتَ، فَقُلْتُ: إِنِّي لَأُحِبُّكَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ، قَالَ: أَاللَّهِ؟ فَقُلْتُ: أَاللَّهِ؟ فقالَ: فَإِنَّ الْمُتَحَابِّينَ فِي اللَّهِ، قال: أحسب أنه قال، فِي ظِلِّ اللَّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ، ثم قال: ليس في بقيته شك، يوضَعُ لَهُمْ كَرَاسي مِنْ نُورٍ، يَغْبِطُهُمْ بِمَجْلِسِهِمْ مِنَ الرَّبِّ تبارك وتعالى؛ النَّبِيُّونَ، وَالصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، قَالَ: فَحَدَّثْتُ به عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ فَقَالَ: لَا أُحَدِّثُكَ إِلَّا مَا سَمِعْتُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إنه قال: حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ محبتي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَصَادِقِينَ فِيَّ، وَحقت محبتي لِلْمُتَزَاوِرينَ في، وَحقت محبتي للمتواصلين في، شك شعبة في المتواصلين والمتزاورين))

[أخرجه ابن حبان في صحيحه، والحاكم في مستدركه]

كأن الله عز وجل يحبنا إذا أحببْنا بعضنا، ويبغضنا إذا أبغضنا بعضنا، ولله المثل الأعلى، كالأب تماماً، حينما يرى أولاده متعاونين متحابين، مؤثرين بعضهم بعضاً، يحبهم جميعاً، فإذا رأى بينهم العداوة والبغضاء، يكرههم جميعاً .

وأنا أقول لكم أيها الأخوة: الدعاة إلى الله إذا أحب بعضهم بعضاً، ارتفعوا في نظر الناس جميعاً، فإذا طعن بعضهم في بعض، سقطوا بنظر الناس جميعاً، لا تعوّد لسانك ذمّ داعية، إنه أخوك، كما أنك مخلص فهو مخلص، له اجتهادات، فإذا كانت اجتهادات مقبولة فليس هناك مشكلة، أما إذا كانت بعيدة عن الدين بعداً شديداً، فهذا موضوع ثان، أما إذا كانت عقيدته صحيحة، وسلوكه صحيحاً، يؤدي عباداته بالتمام والكمال، لا أحد أخذ عليه مأخذاً، له وجهة نظر في موضوع غيرَ رأيك، فلا مانع، الصحابة اختلفوا فيما بينهم، فأن أختلف معك في قضية، لا ينبغي أن يُلغى الودّ بيننا .

من لوازم المحبة في الله: السلام :

((أولا أدُلُّكُمْ عَلَى شيء، إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ))

الشيء المؤلم: أن الرجل يأتي من أوروبا، فيقول لك: أينما مشيت يُسلّم عليك، وهذا خلق المسلم، ونحن بلاد المسلمين يزورّ عنه، يكون جاراً له عشر سنوات في بناية واحدة، ولا يسلّم عليه، هذا صاعد، ذاك نازل، وليس بينهما سلام .

والنبي قال:

((أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ))

قل له: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

من قدسية الأخوة في الله :

عن أبي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ))

أحياناً: الإنسان كل علاقاته مع أخيه منزّهة عن المصلحة، ليس هناك شراكة، ولا صفقة، ولا زواج، ولا تجارة، ولا تعاطف، ولا من جماعة واحدة، يزور أخاً في الله، لا يزوره إلا لله، هذه أقدس علاقة بين اثنين، العلاقة الخالصة المنزهة عن الهوى والغرض. فالحديث:

((أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا؟ قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ))

ما هي المسالك التي تنطوي عليها مسألة البغض للمؤمن؟ :

أيها الأخوة، الحب والبغض خطير، إن كرهت مؤمناً، فإن هذه الكراهية تنتقل إلى جماعته، ثم إلى شيخه، ثم في حالات إلى المؤمنين عامة، ثم إلى الدين عامة، ثم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إلى الله ــوالعياذ باللهــ، اسألني عن الدليل؟ .

((يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك ــأعوذ باللهــ، فقلت: يا رسول الله، وكيف أبغضك وبك هداني الله عز وجل؟ قال: تبغض العرب فتبغضني))

[أخرجه الحاكم في مستدركه]

في أيّ جلسة نحن متخلفون، يكره بعضنا بعضاً، وأعداؤنا مكّارون خدّاعون، عندهم لسان أحلى من العسل، وقلب أقسى من الصخر، يقتلون شعبا بأكمله .

ما رأيك؟ :

مرة، والقصة قديمة جداً، خُطفت طائرة بريطانية، وهبطت في مطار عمان، فيها امرأة حامل، الخبر أذيع في لندن إحدى وعشرين مرة، يا غيرةَ الله، الوحشية، ولكنّ شعبًا كاملاً شردتموه، وأممًا بأكملها تقتلونها، وثروات تنهبونها، ليس عندكم مشكلة، لذلك قيل:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تُغتفر

وقتل شعب مسلم مسألة فيها نظر

أنا مرة قرأت في جريدة خليجية، أن ملكة بريطانيا التي ماتت في حادث، أقامت مؤتمراً صحفياً، بُثّ على عشر محطات فضائية، وقد رآها في هذا المؤتمر خمسون مليوناً تقريباً، وقالت بالحرف الواحد: إنها زنت يوم كذا مع فلان، ويوم كذا مع فلان، ويوم كذا مع فلان، فلما ماتت مشى في جنازتها ستة ملايين، وبكى معظم رؤساء الدول الكبرى في أوروبا وأمريكا، أما لو اغتصب خمسة وثلاثون ألف فتاة مسلمة في البوسنة لم يبك أحد، أرأيت إلى وحشية الغرب؟ بكوا على من؟ على زانية فاسقة، ولم يبكوا على خمسة وثلاثين ألف امرأة اغتُصبت في البوسنة والهرسك، لذلك قال الله عز وجل:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة يس الآية: ٦٥]

الكافر مفلسَف، ولكن الله عز وجل يقول له: اخسأ، وانظر إلى عملك، كالأستاذ في المدرسة مع طالب مقصّر، كسول، وقليل أدب، ومفلسَف، يقول له: اخرج من الصف، ولا كلمة، أبطل له سلاحه، وسلاحه فلسفته، ربنا عز وجل قال:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة يس الآية: ٦٥]

نهاية المطاف :

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ:

((سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي، لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ، يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

أرقى مرتبة: أن تحب أخًا لا تحبه إلا لله .

كنت في محافظة، عُيِّنت فيها مدرِّسا، لي ثلاثمئة زميل في التعليم، ولكن أحدهم إيمانه قوي جداً، كنت أزوره وحده، أرتاح عنده، يجب أن يميل قلبك لمؤمن، وترتاح له، وأن تخصّه بود كبير، والفاسق ينبغي أن تبتعد عنه .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٨٥-١٠١) : باب: استحباب العزلة عند فساد الزمان والناس - ماذا يصنع المؤمن بنفسه حينما يعم مجتمعه الفتنة والفساد لكي ينجو بدينه؟ وما هو المقياس الذي يجب أن يتخذه في هذه الفتنة؟ وما رأي النووي في مسألة الاختلاط بالناس

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٨-٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أراده الله :

أيها الأخوة المؤمنون، الله جل جلاله حينما خلق الإنسان، أراده أن يعيش مع أبناء جلدته، أراده أن يكون اجتماعياً، الدليل: أنه مكنه من إتقان شيء، وأحوجه إلى مليار شيء، مكنه من إتقان شيء، هي حرفته، وأحوجه إلى مليار شيء، فما لم يكن الإنسان في مجموع، مع جماعة، لا يستطيع أن يعيش .

إذاً: أراده الله عز وجل أن يكون الإنسان في مجتمع، لأن فضائل الإنسان لا تبدو وهو منعزل، يكذب على من؟ يصدق مع من؟ الصدق والكذب، والأمانة والخيانة، والنصح والغش، والإحسان والإساءة، هذه الفضائل وتلك الرذائل لا تكون إلا في مجتمع .

فلو تصورنا إنسانًا يعيش وحده، كل هذه الفضائل لا تظهر، بالمقابل كل تلك الرذائل لا تظهر، فالإنسان كيف يمتحن، ولاسيما الدنيا مزرعة الآخرة، وأن الدنيا مدرسة للآخرة، لأن الدنيا إعداد للآخرة، ما دامت إعداداً، لا بد من أن يقدم الإنسان الفضائل، ويجتنب الرذائل، وهذه الفضائل وتلك الرذائل لا تبدو إلا في المجتمع .

إذاً: كأن الله قهر الإنسان أن يكون في المجتمع، كل واحد منا يحتاج إلى طبيب، والطب عالم قائم بذاته، يحتاج إلى طبيب أسنان، قد يحتاج إلى طبيب فيزيائي، قد يحتاج إلى طبيب هضمي، طبيب عصب، طبيب قلب، طبيب عظام، طبيب جلد، طبيب عيون، طبيب أذن، طبيب حنجرة، يحتاج إلى مهندس يبني له بيته، يحتاج إلى معلم يعلم له أولاده، يحتاج إلى حلاق يحلق له شعره، يحتاج إلى بائع خضار يبيعه الخضار والفواكه، مكنك من إتقان شيء، وجعلك في حاجة إلى مليار شيء، إذاً: لا بد من أن تكون مع الجماعة .

إليكم هذه الطائفة من الآيات والأحاديث التي تؤيد فكرة الجماعة وأن يكون الإنسان معها :

أيها الأخوة، في آيات كثيرة، يقول الله عز وجل:

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ)

[سورة المطففين الآية: ٢٦]

هل سمعتم أن هناك إنسانًا يتنافس وحده؟ مستحيل، قال تعالى:

(لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ)

[سورة الصافات الآية: ٦١]

قال:

(وَسَارِعُوا)

[سورة آل عمران الآية: ١٣٣]

المسارعة تقتضي الجماعة، قال:

(سَابِقُوا)

[سورة الحديد الآية: ٢١]

المسابقة تقتضي الجماعة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ١١٩]

آيات كثيرة، وأحاديث كثيرة، ترشد إلى أنه ينبغي أن تكون مع الجماعة، مع مجموع، لأنه ثمن الجنة الأخلاق، الأخلاق لا تظهر إلا في المجموع .

أيها الأخوة، هذا هو الأصل .

((يد الله مع الجماعة، ومن شذ شذَّ في النار، وعليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، وإنما يأكل الذئب من الغنم القاسية، والركب محروم من قبل الله عز وجل، والمسافر وحده شيطان))

الركب جماعة .

((إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم))

عشرات الآيات والأحاديث والنصوص، تبين: أن الإنسان ينبغي أن يكون مع المجموع، في مجتمع، والمجتمع يضبط، والانعزال قد يدعو إلى التفلت، ولكن هذا التمهيد هو الأصل .

ما علاج هذا الظرف ؟ :

أيها الأخوة، ولكن قد يعم الفساد، وقد يستشري الإثم والعدوان، وقد يعجب كل بنفسه، وقد يؤثر شهوته، وقد يبيع دينه بعرض من الدنيا قليل، أحياناً: تجد نفسك وأنت في المجموع تنحرف، فنحن في حالة استثنائية .

لذلك: الإمام النووي رحمه الله تعالى، عقد بابًا في كتابه رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، هذا الباب سماه: باب استحباب العزلة عند فساد الزمان والناس .

الآن: أنت بحاجة إلى أخ كريم، أخ مؤمن، أن تكون معه، أن تنصحه، وأن ينصحك، أن تحسن إليه، وأن يحسن إليك، أن تأخذ بيده، وأنا يأخذ بيدك، أن تستشيره، وأن يستشيرك، نحن في أمس الحاجة إلى أخ مؤمن، لأنه عم الفساد في الأرض .

لو سألت أهل الدنيا، لأرسلوك إلى المعصية والإثم، ليس عندهم ورع، يمكن أن يبيع خمر، يقول: أنا مطعمي خمس نجوم، خير إن شاء الله، سترى نجوم الظهر، يبيح لنفسه أن يبيع الخمر، وأن يقدم ما لا يرضي الله عز وجل في مكان عمله، وأن يتاجر بمادة محرمة، وأن يكون سببًا في فساد الناس، وأن يغريهم في الدنيا، فهناك فرص كثيرة جداً، لا تقوم إلا على أيدي من أدار ظهره لمنهج الله عز وجل .

يا أيها الأخوة الكرام، في مثل هذه الحالات، في حالات الفساد والتفلت، والفتن يقظة، والمرأة وهي في الطريق يبدو أجمل ما فيها، لم يبق شيئاً لزوجها أبداً، الطرقات فيها فساد، وإذا اشتريت أي شيء، وجدتَ عليه صورة امرأة شبه عارية، هكذا العصر، في مثل هذا الزمان، ينبغي أن تطبق منهج الله الاستثنائي، هذا منهج استثنائي، يقول الله عز وجل:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات الآية: ٥٠]

الله عز وجل أين هو؟ ففروا إليه، طبعاً الله عز وجل منزه عن المكان، منزه عن الجهة:

(ففروا إلى الله)

يعني: أن تأتي إلى المسجد، كما ورد في الحديث القدسي، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن بيوت الله في الأرض المساجد، وإن حقاً على الله أن يكرم الزائر))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير]

من أدراك وأنت في المسجد، أن الله عز وجل يضيفك شعورًا بالأمن، يضيفك وضوحًا بالهدف، يضيفك بشحنة روحية قوية، يضيفك بمنحك السلام؟ قال تعالى:

(يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ)

[سورة المائدة الآية: ١٦]

فإذا قلنا: فروا إلى الله، يعني: الجأ إلى بيوت الله، لُذْ بأخوانك المؤمنين، اجعل ولاءك للمؤمنين، وبراءك من الكفار والمفسدين، هذا معنى: ففروا إلى الله، يعني اعتز بطاعتك، ولا تعتز بمعصيتك، قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات الآية: ٥٠]

هذا هو العبد الذي يحبه الله :

عن عَامِرُ بْنُ سَعْدٍ رضي الله عنه قال:

((كَانَ سَعْدُ بْنُ أبي وَقَّاصٍ رضي الله عنه فِي إِبِلِهِ، فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ، فَنَزَلَ، فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ، وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ، وقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

معنى الخفي: إذا حضر لم يعرف، وإذا غاب لم يفتقد، لا يعنيه أن يكون مشهوراً.

بالمناسبة: لا يمكن أن تكون الشهرة مقياساً، مستحيل، لأن أشهر مخلوق في الأرض هو إبليس، بكل اللغات معروف، يدور على ألسنة الخلق ملايين المرات كل يوم، مليارات المرات، فالشهرة ليست مقياساً .

لما قال سيدنا عمر لأويس القرني التابعي الجليل:

((ابق معنا، قال: إنني أريد الكوفة، قال: أكتب لك إلى عاملها؟ قال: لا، أحب أن أكون من دهماء الناس))

هذا التقي النقي الخفي، الذي إذا حضر لم يعرف، وإذا غاب لم يفتقد، هذا ممن يحبه الله عز وجل، بعيد عن الحياة الصارخة، وجوده ضعيف، وعند الله وجوده قوي، أما عند عبد الله فوجوده ضعيف.

((إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ))

الغني عن الناس، الخفي، مغمور في التعتيم الإعلامي، طبعاً: إذا الإنسان زهد في الدنيا، وخاف على دينه، ابتعد عن النشاط العام، وأراد أن يكون طائعاً لله، عابداً له .

نقطة هامة :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، قَالُوا: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: مُؤْمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَتَّقِي اللَّهَ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ))

لكن أنا أحب أن أقول لكم، في نقطة مهمة: هذه لعبة شد الحبل معروفة، إذا كنت بمجتمع ممكن أن تشدهم إلى الله، فينبغي أن تكون معهم، أما إذا أمكن أن يشدوك إلى الدنيا، وإلى مخالفة أو معصية، فينبغي أن تعتزلهم، هذا المقياس، معك مقياس دقيق جداً .

إذا بجلسة تكلمت عن الله، وأصغوا، وأثنوا على هذا الكلام، وقالوا: والله ارتحنا، والله يجزيك الخير، ونحن بحاجة إلى هذا العلم، ينبغي أن تكون معهم، أما إذا تكلمت فلم يصغ لك أحد، وتعليقات لاذعة، وتهكم، وسخرية، ينبغي أن تعتزلهم، فالمقياس إن استطعت أن تشدهم فكن معهم، وإن لم تستطع فابتعد عنهم . وعندنا قاعدتان:

((دع خيراً عليه الشر يربو))

((ودرء المفاسد مقدم على جلب المنافع))

أريد أن أزور رحمي، بارك الله بك، لكن رحمك غير منضبط، بنات الخالة، وبنات العمة غير منضبطات، ومتفلتات، وساخرات، فأنت تدخل عليهم بحال، وتخرج بحال، نقول لك : دع خيراً عليه الشر يربو .

نقول لك: درء المفاسد مقدم على جلب المنافع .

أنا في هذا الدرس، أحب أن أضع مقياسًا دقيقًا لأخواننا الكرام، حول مدى الانخراط في المجتمع، ومدى الابتعاد عنه، إذا انخرطت في المجتمع، وأمكنك الله من أن تقوده فلا تتركه، وإن وجدت أنك قد تحولت عن الله، وأن قلبك قد صدأ، وأنك يعني لم تكن مرتاحاً لهذا اللقاء، انسحب .

إياك أن تلبي هذه الدعوة :

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الْوَلِيمَةِ، يُمْنَعُهَا مَنْ يَأْتِيهَا، وَيُدْعَى إِلَيْهَا مَنْ يَأْبَاهَا، وَمَنْ لَمْ يُجِبْ الدَّعْوَةَ، فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ))

عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَوْ دُعِيتُ إِلَى ذِرَاعٍ أَوْ كُرَاعٍ لَأَجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ ذِرَاعٌ أَوْ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ))

ولكن إذا كان في الدعوة اختلاط، وفيها غناء، يجب ألاّ تذهب، لأنه في حالة مضحكة، الإنسان له هوية إسلامية، مؤمن، يتواجد في مكان ليس له، فأعوذ بالله، لماذا جئت إلى هنا؟ هذا المكان ليس لك، أنت مكانك مكان منضبط، رجال يعرفون الله، مكانك هنا، أنت أوجدت نفسك في مكان ليس لك، دائماً أعوذ بالله، نعوذ بالله من مجيئك إلى هذا المكان في الأساس، زوجته محجبة مثلاً، وهو قاعد في مكان عام، غناء وتفلت، هذا المكان ليس للمؤمن المنضبط، هذا الانفتاح غير المنضبط، هذا ليس انفتاحًا، هذا تفلت.

لا بد من التوازن بين هذين الاتجاهين :

أخواننا الكرام، الاستئناس بالناس من علامات الإفلاس، أنت لا إمكان لك أن تجلس مع ربك ساعات، أقلها أن تقرأ القرآن، أقلها أن تقرأ أحاديث النبي الكريم، أقلها أن تبحث في موضوع علمي، في موضوع فقهي، أحدها أن تذكر الله عز وجل .

درسنا في الجامعة، أن المدرس الناجح في التعليم، يتحدث ساعات طويلة دون تحضير، ثمة شيء داخل أعماقه، شيء متفاعل معه تفاعلا عميقًا جداً، فالمعلم الناجح من دون تحضير، يمكن أن يتحدث ساعات طويلة في موضوع معين، دون أن يرجع إلى مرجع، وأنت كونك مؤمنًا، لا تقدر أن تجلس مع نفسك خمس ست ساعات، وترتاح، وتذكر الله عز وجل، وتفكر، وتقرأ قرآن، وتفكر بموضوع، تعمل عملاً علميًا .

هناك شخص دائماً مع الناس، ما دام دائما مع الناس، فهذا حظه من الله قليل، وشخص دائماً مع الله، واعتزل الناس، الاتجاهان مناقضان، البطولة في التوازن بينهما .

مثل ضربه القرآن :

أيها الأخوة، والله عز وجل ضرب لنا مثلاً لطيفًا بسيدنا داود، كان محباً لله عز وجل ، هواه أن يكون مع الله مقبلاً، مبتهلاً، داعياً، فجاءه متخاصمان، فحكم لهما بسرعة، وتعجل دون أن يتحقق، قال تعالى:

(إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ)

[سورة ص الآية: ٢٣]

والله ليس له حق، قال له:

(قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ)

[سورة صَ الآية: ٢٣]

سألته للثاني، الثاني يقول: أنا أرعى الغنم، عندي تسع وتسعين نعجة، وأخي متفرغ لنعجة واحدة، أنا أرعاها له، الله عز وجل قال:

(يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى)

[سورة صَ الآية: ٢٥]

هنا سيدنا داود، آثر القرب من الله على خدمة الخلق، سيدنا سليمان بالعكس، أحب حب الخير عن ذكر ربه، قال تعالى:

(فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ)

[سورة صَ الآية: ٣١]

هذا ما أريد :

أنا أريد إنسانًا لا يطغى عنده العمل الصالح على علاقة بالله، على شحناته الروحية، ولا تطغى شحناته الروحية التي يسعد بها على خدمة الخلق، يجب أن تقف في كل موقف الموقف المناسب . غير معقول من إنسان، عنده ضيوف يتركهم، ويجلس يقول: الله، الله، الله، هذا عمل غير مقبول أبداً، عندك ضيوف، فكن مع الضيوف، عندك جلوس مع ناس، فحدثهم عن الله، أما أن تجلس مع نفسك، تذكر الله عز وجل، فلكل مقام مقال، ولكل مقام موقف .

ما معنى الاعتزال في هذا الحديث؟ :

قال:

((ثم من؟ قال: ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه))

قد أفهم قوله تعالى:

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ)

[سورة الكهف الآية: ١٦]

أيها الأخوة، أحياناً: أخوة كرام يجلسون مع بعضهم بعض، يسعدون سعادة ما بعدها سعادة، في سرور، يعبرون عنها بالتجلي والروحانية، فالإنسان مرآته أخوه، والإنسان قوي بأخيه، المعتزل في شعب من شعاب يعبد ربه، آثر صفاءه، أما إذا كان مع الصفاء عمل صالح، فيجب أن يؤثر العمل الصالح .

سيدنا داود آثر صفاءه على خدمة الخلق، وسيدنا سليمان آثر خدمة الخلق على صفائه، هي قاعدة .
قد تجد أخًا منهمكًا في العمل الصالح على حساب اتصاله بالله، وقد تجد أخًا منهمكًا بالاتصال بالله، لكن ليس له عمل صالح، الأولى أن تجمع بينهما، والأولى أن تكون كما قال عليه الصلاة والسلام:

((إن لله عمل في الليل لا يقبله في النهار، وإن لله عملاً في النهار لا يقبل في الليل))

يعني: كل وقت له عبادة، هذا الحديث الثالث .

ما معنى الفرار من الفتن ؟ :

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه،ُ أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

((يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ، غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح، وأبو داود والنسائي في سننهما، ومالك في الموطأ]

الإنسان قد يدعى إلى وليمة، فيها اختلاط، نساء متكشفات، قد يدعى إلى طعام الحديث فيه لا يرضي الله عز وجل، يعكر القلب، معنى الفرار من الفتن: أن تفر من مكان يعصى الله فيه .

أخواننا الكرام، المؤمنون الصادقون يعرفون، قد تدعى إلى بيت متواضع جداً، وإلى طعام خشن جداً، مع أخ مؤمن، وأنت أسعد الناس، وقد تدعى إلى مكان فخم جداً، وفيه طعام فاخر، وأنت لست مرتاحاً .

أنا مرة دعيت إلى عقد قران، في قرية من قرى الغوطة الشرقية، في ساحة عامة في الطريق، كراسٍ، ومنصة، وشاي، سبحان الله فيه تجلٍّ وفائدة، وعقب هذه الكلمة التي ألقيتها، بضع عشرات من الأخوة هناك انضموا إلى المسجد .

ومرة حضرت عقد قران فخم فاخر جداً، والله ما تمكنت أن أتكلم كلمة، ما لقيت وجهًا مفتوحًا، كلها مغلقة، تشعر بانقباض، لأن الإنسان المعرض عن الله يعاف، دائماً: كأنه آكل أكلة حامضة، دائماً يعلق تعليقات غير لائقة، ليس عنده أدب .

وفي موضوع الدعوة إلى الله: المحب يعطيك طاقات فوق طاقتك، تجود، وإذا كان الإنسان معرضًا، تفقد معه كثير من إمكانياتك، أي إنسان منا بالود والحب ينطلق، بالنقد والقنص يحجب، فقد لا ترتاح للإنسان، هذا الإنسان يعكر صفاء المجلس .

تروى قصة رمزية: أن شيخًا من الشيوخ، حضر درسه رجل معترض أو منتقد، فقال له:

((يا بني، يمكن أن تبيع لي هذه العباءة؟ ـعباءة غاليةـ، قال له: نعم، قال له: خذ بعها، ذهب ولم يعد، سيدي هذا لم يرجع، قال: أعرف، أنا اشتريت لكم صفاء هذا المجلس بالعباءة هذه))

قصة رمزية .

في الجلسة واحد معرض، واحد منتقد، واحد غير منضبط، يعكر الجلسة كلها، فنحن يهمنا أنا نكون مع بعضنا، المؤمن قوي بأخيه، يسعد بأخيه، يتقرب إلى الله بخدمة أخيه .

((يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ، غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ))

لذلك قالوا:

((الوحدة خير من الجليس السوء، ولكن الجليس الصالح خير من الوحدة))

إليكم ما قرره هذا الصحابي، وما عاقبة هذا القرار؟ :

أيها الأخوة، ثمة صحابي كان يرعى غنيمات له -عامر الجمحي- في البادية، فلما سمع ببعثة النبي عليه الصلاة والسلام، جاء إلى المدينة، وبايعه، وعاد إلى مكانه، فهو وأخوانه اتفقوا: أن يذهب كل يوم واحد، ليستمع من النبي صلى الله عليه وسلم، ويأتيهم بما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في موضوع ما، هو قال: أنا أبقى مع غنيماتي دائماً، أنا دعوني في هذا المكان، بعد حين خاطب نفسه: ويحك ينبغي أن تكون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ قرارًا أن يذهب إلى النبي، ثم أصبح بعد ذلك أكبر قائد للمسلمين، كان قائدًا بحريًّا، وكان والي مصر، وكان أمير الشام، وكان عالمًا وقاضيًا، كل هذا بفضل أنه ترك غنيماته في الصحراء، وانضم إلى النبي عليه الصلاة والسلام، قال الله عز وجل:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

[سورة الشرح الآية: ٤]

أنت لما تؤمن يرفع الله مكانتك، هناك شخص لا يقدم ولا يؤخر، وشخص كل الناس تنعقد عيونهم به .

إذاً: الآيات التي وردت في حق النبي عليه الصلاة والسلام، لكل مؤمن منها نصيب، قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً)

[سورة الشرح الآية: ١- ٦]

المؤمن يرفع الله عز وجل قدره بين الناس .

قصة وردت :

رجل من أهل الكتاب، يبدو أنه فقير جداً، ويعمل في حرفة مزعجة جداً، رأى عالمًا جليلاً من علماء المسلمين السابقين، حوله أخوانه، وهو بهي المنظر، مخدوم محشود، وقد سمع أن في أقوال النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً .

يقول فيه عليه الصلاة والسلام:

((الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

وجد نفسه يعمل في أقذر حرفة، فقيرًا جداً، ومتعبًا، ومقهورًا، وهذا العالم مثل الملك، قام، فسأله في الطريق، قال:

((يقول نبيكم: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر .

فأي جنة أنا فيها، وأي سجن أنت فيه؟ -فكان هذا العالم سريع البديهة-، قال: يا هذا ما أنا فيه مما ينتظرني في سجن، وما أنت فيه مما ينتظرك في جنة))

حياة المؤمن بعد الموت أعظم مما قبل الموت، بعكس غير المؤمن، ما قبل الموت أعظم مما ما بعد الموت، صعوبات بالغة جداً .

إذاً: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ، غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح، وأبو داود والنسائي في سننهما، ومالك في الموطأ]

ما وراء هذا الحديث :

وفي حديث آخر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى غَنَمَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح، ومالك في الموطأ]

لا أعتقد أن ثمة عملاً أدنى اجتماعياً من رعي الغنم، لا يحتاج بكالوريا، ولا كفاءة، ولا ابتدائية، ولا حسن سلوك، ولا سوء سلوك، ولا شهادة صحية، ولا تزكية، ولا حكم عليه.

أي إنسان يرعى الغنم، أعتقد أنه لا يوجد أجر أقل من أجر راعي الغنم، والله عز وجل شرف الأنبياء بهذه الحرفة، يبدو أن هذه الحرفة تطلق الفكر، هذه الحرف لها فائدة ثانية ، يعمل عمل مرهقًا وصاخبًا، والدخل قليل جداً، فإذا كان للرجل بداية متعبة صعبة وخشنة، ثم أكرمه الله بعد

ذلك، فهذه من نعم الله الكبرى عليه، أما إذا نشأ إنسان في النعيم، ثم سلب الله منه هذا النعيم، دائماً اذكر بالدعاء:

((نعوذ بك من السلب بعد العطاء، نعوذ بك من عضال الداء ، نعوذ بك من شماتة الأعداء))

وأشياء صعبة جداً، أن يشمت بك عدوك، وأن تسلب شيئاً أخذته سابقاً، وعضال الداء .

يروى أن سيدنا عمر، كان على المنبر يخطب، قطع خطبته بلا مبرر، وقال كلمات لا معنى لها إطلاقاً، ولا علاقة لها بالخطبة، قال:

((يا عمر كنت ترعى الغنم بقراريط لبني مخزوم، ثم تابع الخطبة، -كأنه إعلان ضمن الأخبار، لا علاقة له-، فلما سأله سيدنا أبي ذر بعد ما انتهت الخطبة: ماذا قلت يا أمير المؤمنين؟ قال: جاءتني نفسي، فقالت لي: ليس بينك وبين الله أحد، -أنت أعلى إنسان-، فأردت أن أعرفها قدرها))

كل هذه الأحاديث هي خاصة، وضع استثنائي، الأصل: أن تكون مع الجماعة، ولك وجود قوي، ولك عمل طيب، ولكن إذا كانت الجماعة منحرفة، بقاؤك معها بشكل صارخ قد يبعدك عن الدين، الأولى أن تنسحب .

مرة ثانية أقول: لعبة شد الحبل هي المقياس، إما أن تشدهم إليك، وإما أن يشدونك إليهم، وازن .

ما معنى هذا الحديث؟ :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ:

((مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ؛ رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً، طارَ عَلى متنه، يَبْتَغِي الْقَتْلَ، أَوَ الْمَوْتَ مَظَانَّهُ، أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ، فِي شَعَفَةٍ مِنْ هَذِهِ الشَّعَافِ، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ، لَيْسَ مِنْ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ))

[أخرجه مُسلِمٌ في الصحيح]

إنسان مجاهد في سبيل الله، هذا من أفضل الناس .

بالمناسبة:

((من لم يجاهد في سبيل الله، ولم يحدث نفسه بالجهاد، مات على سنة من النفاق))

ولكن الجهاد ليس كما يتوهم الناس جميعاً، هو جهاد قتال فقط .

هناك جهاد النفس والهوى، والجهاد الدعوي، والجهاد القتالي، القتالي غير متاح، عندك الجهاد الدعوي، الدعوي متاح، والجهاد عند الله كبير، قال تعالى:

(وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)

[سورة الفرقان الآية: ٥٢]

((من خير معاش الناس؛ رجل ممسك عنان فرسه في سبيل اللّه، يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة، طار على متنه .

-يطير أي يسرع، والمتن هو الظهر .

طرقت الباب حتى كل متني فلما كلمتني كلمتنـــي

يعني: ضعف، كَلَّ ضعف ظهري .

فقالت لي أي إسماعيل صبراً فقلت لها أيا أسما عيل صبري

اسمها أسمى، وعيل صبري، أي نفذ صبري .

طرقت الباب حتى كل متني فلما كل متني كلمـــتني

كلّ يعني ضعف، والمتن هو الظهر، الكلمة الأولى والثانية كلّ متني، والثالثة كلمتني يعني حادثتني.

فقالت لي: أي إسماعيل صبرا ً فقلت لها: أيا أسما عيل صبري؟

أي: يا أسما عيل صبري، أي نفذ صبري، يطير أي يسرع، والمتن هو الظهر، والهيعة الصوت للحرب، والفزعة نحوه- .

أو رجل في غنيمة في شعفة من هذه الشعاف.

-مرة حدثني شخص، قال لي: أنا أعمل في سوق من أسواق دمشق الفاخرة، يبيع ثيابًا نسائية، قال لي: والله كلما تابعت هذا العمل يوماً، ازددت بعداً عن الله أياماً، طول النهار حديث غير منضبط، نساء غير منضبطات، وملابس مغرية .

قد تجد إنسانًا، يعمل في الميكانيك، بأحد المناطق الصناعية، أصوات غير مريحة، وشحوم، وزيوت، قد يكون هناك أصفى له من هذا المكان الرائع، فالعبرة ليست في المظاهر ، لكن في المخابئ- .

أو رجل في غنيمة في شعفة من هذه الشعاف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير))

يعني: إذا أردت أن تكون مع الناس، وأن تؤثر فيهم، ففعل، فإن لم تستطع فاعتزلهم .

أيها الأخوة، دائماً: التطرف سهل، بمستوى تربية الأولاد، ممكن أن تكون أبًا بطاشاً ظالماً، ويمكن أن تكون أبًا سهلاً، ليناً، معصوراً، أما أن تجمع بين الحالتين، أن يهابك أولادك ، بقدر ما يحبونك، هذا يحتاج إلى جهد، التوسط يحتاج إلى جهد، أما التطرف لا يحتاج إلى جهد .

لذلك:

((من خالط الناس، وصبر على أذاهم، خير من لم يخالطهم، ولم يصبر على أذاهم))

هذا ما ذكره النووي :

الإمام النووي رحمه الله تعالى، عقد باباً آخر، المؤمن عنده حاسة سادسة، هذه الجلسة لا تناسبني اعتذر، هذا الكتاب لا يناسبني اعتذر، هذه النزهة لا تناسبني اعتذر، هذا الدور كل ثلاثاء لا يناسبني.

وهناك أشخاص يلعبون النرد، ولا يصلُّون، يغتابون، ويقولون: نحن مسرورون، أنتم في معاص وآثام، الجلسة في ذكر الله عز وجل، ناس مؤمنون صادقون، والله الجلوس معهم جنة .

لذلك: الإمام النووي، جاء بفصل آخر معاكس للأول، قال:

((باب فضل الاختلاط بالناس، وحضور جمعهم وجماعاتهم، ومشاهد الخير، ومجالس الذكر، وعيادة مريضهم، وحضور جنائزهم، ومواساة محتاجهم، وإرشاد جاهلهم، وغير ذلك من مصالحهم، لمن قدر على الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر))

فإذا كان الإنسان طليق اللسان، وقويًا، وإرادته صلبة، وإيمانه قوي، وموصول بالله عز وجل، اجلس مع الناس، انزل في أفراحهم، وأتراحهم، وانصحهم، ودلهم على الله، معك منطق، ومعك قوة شخصية، فلماذا تنسحب منهم؟ .

لذلك: الأنبياء كانوا يمشون في الأسواق، ويأكلون الطعام .

طبعاً: العلماء علقوا تعليقًا رائعًا: أن النبي ليس فوق البشر، هو بشر، مفتقر إلى وجوده إلى تناول الطعام، ومفتقر في تناول الطعام إلى العمل، لثمن الطعام .

فهذا الباب، باب: فضل الاختلاط بالناس، وحضور جمعهم، وجماعاتهم، ومشاهد الخير، يعني الأعياد، ومجالس الذكر معهم، وعيادة مريضهم، وحضور جنائزهم، ومواساة محتاجهم، وإرشاد جاهلهم، وغير ذلك من مصالحهم، لمن قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ماذا نفهم من كلمة معروف؟ يعني الدين فطرة، فما عرفته النفس بفطرتها أنه معروف فهو معروف، وما أنكرته النفس بفطرتها أنه منكر فهذا منكر، كلمة معروف ومنكر فيهما تعليق لطيف جداً، يعني الدين دين الفطرة، يعني الدين يتوافق مع فطرتك توافق تاماً، فما ارتاحت إليه نفسك معروف، ما لم ترتح إليه منكر .

عَنْ وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ قَالَ:

((أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ لَا أَدَعَ شَيْئًا مِنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنْهُ، وَإِذَا عِنْدَهُ جَمْعٌ، فَذَهَبْتُ أَتَخَطَّى النَّاسَ، فَقَالُوا: إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ، فَقُلْتُ: أَنَا وَابِصَةُ، دَعُونِي أَدْنُو مِنْهُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، أَنْ أَدْنُوَ مِنْهُ، فَقَالَ لِي: ادْنُ يَا وَابِصَةُ، ادْنُ يَا وَابِصَةُ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ، حَتَّى مَسَّتْ رُكْبَتِي رُكْبَتَهُ، فَقَالَ: يَا وَابِصَةُ، أُخْبِرُكَ مَا جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنْهُ أَوْ تَسْأَلُنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأَخْبِرْنِي، قَالَ: جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ الثَّلَاثَ، فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهَا فِي صَدْرِي، وَيَقُولُ: يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ، وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ، قَالَ سُفْيَانُ: وَأَفْتَوْكَ))

قلت قبل قليل: أن الأصل أن نكون مع الناس، وآيات كثيرة: سابقوا وسارعوا .

يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى: اعلم أن الاختلاط بالناس على الوجه الذي ذكرته، هو المختار الذي كان عليه رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، وسائر الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم، وكذلك الخلفاء الراشدون، ومن بعدهم من الصحابة، والتابعين، ومن بعدهم من علماء المسلمين وأخيارهم، وهو مذهب أكثر التابعين ومن بعدهم، وبه قال الإمام الشافعي ، وأحمد، وأكثر الفقهاء رَضِيَ اللَّهُ عَنهُم أجمعين .

خاتمة القول :

أيها الأخوة، قال الله تعالى:

(وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)

[سورة المائدة الآية: ٢]

التعاون؛ أنت مع المجتمع، مختلط معهم، منفتح، وإيجابي، تتعاون معهم .

أيها الأخوة كما قلت قبل قليل: الموازنة تحتاج إلى جهد، أما التطرف فلا يحتاج إلى ذلك، لا يناسب أن تكون انعزالي، ولا اجتماعي متفلت، يجب أن تجمع بين الانعزالية التي فيها الصفاء، وبين أن تكون مع المجتمع الذي فيه المخاطر، فالإنسان إذا كان مع الله، الله عز وجل يسدد خطاه .

الملاحظ: لماذا النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((من بدا جفا))

ماذا في البادية؟ بلاد الله، وأرض الله، لماذا من بدا جفا؟ بدا: أي سكن البادية، يعني: ابتعد عن العلم .

مرة رأيت بيتًا جميلاً جداً في منطقة كلها غابات، ومطلة على بحر، البيت معتنى به كثيراً، فقلت في نفسي: والله لو أن إنسانًا سكن هذا البيت، وكل حاجاته عنده، لجاء يوم القيامة مفلساً، مثل العمل التجاري أفضل المحلات، ما كانت في تزاحم الأقدام .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٨٦-١٠١) : باب: فضل الحب في الله والحث عليه -٤- (ما الذي فقده المسلمون في هذا العصر؟ وما هي المرتبة الراقية التي ينبغي على المسلم أن يهفو وراءها؟ وما أدلة السنة في إعلام الرجل ممن أحبه؟)

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٨-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا هو الفرق الجوهري بين المسلمين الأوائل وبين المسلمين في هذا العصر

لا زلنا في فضل الحب في الله والحث عليه .

أيها الأخوة، كل مظاهر الدين موجودة بشكل صارخ، مظاهر الدين؛ مساجد، وزخارف، ومكتبات، وأشرطة، ومؤتمرات، وألقاب علمية، ومؤلفات، كل شيء فيه إعلان عن الدين صارخ، ولكن ينقصنا الحب، ليس هناك محبة بين المسلمين، عدم الحب بينهم أضعفهم جميعاً، قال تعالى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ٤٦]

أصحاب النبي رضوان الله عنهم أحبوا الله حباً حقيقياً، وحباً صادقاً، وحباً خالصاً، من نتائج هذا الحب: أنهم أحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفدوه بأرواحهم . قال له أحدهم:

((امض يا رسول فنحن معك، ما تخلف منا رجل واحد، صِلْ حبال من شئت، واقطع حبال من شئت، وسالمْ من شئت، وعادِ من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، ودع ما شئت، فو الذي بعثك بالحق، للذي تأخذه منا أحب إلينا من الذي تدعه، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، فسِر على بركة الله))

أحبوا الله، فأحبوا رسوله، أحبوا رسوله، فأحبوا المؤمنين .

وفي الحديث: عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((قَدِمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ الْمَدِينَةَ، فَآخَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الْأَنْصَارِيِّ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ، دُلَّنِي عَلَى السُّوقِ))

ينقصنا الحب، أن نحب الله حباً حقيقياً، فنحب رسول الله حباً حقيقياً، فنطيعه، قال تعالى:

(إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ)

[سورة آل عمران الآية:٣١]

وأن نحب المؤمنين، وأن نحب بعضنا بعضاً، والحب في الله من أرقى مراتب الإيمان.

إليكم شرح مفردات الحديث :

عَنْ أبي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ قَالَ:

((دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ، فَإِذَا فَتًى بَرَّاق الثَّنَايَا، والنَّاسُ حَوْلَهُ، فإذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَّرْتُ إليه، فَوَجَدْتُه قَدْ سَبَقَنِي بِالْتهَجِير، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قضَى صَلَاتَهُ، ثم جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثم قلت: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ في الله، فقال: آاللَّهِ؟ فَقُلْتُ: آاللَّهِ، فقال: آاللَّهِ؟ فَقُلْتُ: آاللَّهِ، فَأَخَذَ بِحُبْوَةِ رِدَائِي فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ، وَقَالَ: أَبْشِرْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تبارك وتعالى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاورِين فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

[أخرجه مالك في الموطأ]

بَرَّاق الثَّنَايَا: فيه تألق ونور، تألق إيمان، كل إنسان جميل الصورة يبدو متألقاً، لكن المؤمن تألقه تألق رحماني، تألق نوراني، والوجه الحسن لو كان رجلاً، لكان رجلاً صالحاً.

وكان عليه الصلاة والسلام إذا نظر إلى المرآة يقول:

((اللهم كما حسنت خلقي فحسّن خُلقي))

جمال الوجه مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوس

هناك إنسان جميل الصورة، ولكن فعله ليس جميلاً .

قَالَ:

((دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْق الشَّام، فَإِذَا فتى بَرَّاق الثَّنَايَا، والنَّاسُ حَوْلَهُ .

-وبالمناسبة: إذا أخلص العبد لله عز وجل، ألقى محبته في قلوب الخلق، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي)

[سورة طه الآية: ٣٩]

وما أخلص عبد لله، إلا جعل قلوب المؤمنين، تهفو إليه بالمودة والرحمة، وإذا ضعف إخلاص العبد، أو عصى الله في خلوته، ألقى الله بغضه في قلوب الخلق دون أن يدري، ولو كان ذكياً، لو ظهر بأرقى مظهر، يلقي الله في قلوب الخلق بغضه- .

فَإِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَسْنَدُوهُ إِلَيْهِ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَّرْتُ إليه، فَوَجَدْتُه قَدْ سَبَقَنِي بِالْتهَجِير، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قضَى صَلَاتَهُ، ثم جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثم قلت: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ في الله، فقال: آاللَّهِ؟ فَقُلْتُ: آاللَّهِ، فقال: آاللَّهِ؟ فَقُلْتُ: آاللَّهِ، فَأَخَذَ بِحُبْوَةِ رِدَائِي فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ، وَقَالَ: أَبْشِرْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ

صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قالَ اللَّهُ تبارك وتعالى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاورِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

[أخرجه مالك في الموطأ]

هذه أرقى وأعلى مرتبة في الأرض :

أيها الأخوة، ما رأيت في الأرض مرتبة أرقى من هذه المرتبة، أن يحبك الله ورسوله ، وقد تبلغ أعلى مرتبة في العالم، أعلى مرتبة مالية، أو أعلى مرتبة إدارية، أو أعلى مرتبة علمية، ولا يحبك الله عز وجل، والدليل: أن الله أعطى الملك لمن يحب، ولمن لا يحب، أعطاه لمن يحب: سيدنا سليمان، وأعطاه لمن لا يحب: فرعون، أعطى المال لمن يحب، أعطاه لسيدنا عبد الرحمن بن عوف، وسيدنا عثمان بن عثمان، أعطاه لمن لا يحب: لقارون، ولكن العلم والحكمة لا يعطيهما إلا لمن يحب، قال تعالى:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً)

[سورة القصص الآية: ١٤]

هذا هو الفرق بين الأنبياء والأقوياء :

أيها الأخوة، والناس أتباع لقوي أو أتباع لنبي، فالنبي ملك القلوب بكماله، والقوي ملك الرقاب بقوته، إذا كان سلاحك الكمال فأنت من أتباع الأنبياء، إذا كان سلاحك القدرة على الأذى فأنت من أتباع الأقوياء، وشتّان بين الأنبياء والأقوياء، القوي يملك الرقاب بقوته .

ما الحكمة في أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ضعيفاً مستضعفاً؟ بإمكانك أن تتهمه بأيّ اتهام، وتنام في بيتك آمناً مطمئناً .

لو أنه كان قويًّا، وأمرَ الناس بالإيمان، لآمنوا جميعاً خوفاً منه، هل هذا هو الإيمان الذي يرضاه الله عزوجل؟ الأقوياء أيّ شيء يطلبونه من الناس ينفذونه، يخافون، أما الأنبياء الناس يفدونهم بأرواحهم طواعية من دون خوف، فلذلك: القوي سلاحه قوته، النبي سلاحه كماله، وأيّ إنسان؛ إما أنه تابع لقوي أو تابع لنبي .

هذا هو الفرق بين محبة أهل الإيمان وبين محبة أهل الدنيا :

((فسَأَلْتُ عَنْهُ، فَقِيلَ: هَذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَّرْتُ إليه، فَوَجَدْتُه قَدْ سَبَقَنِي بِالتَّهجِير، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قضَى صَلَاتَهُ، ثم جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثم قلت: وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ في الله، فقالَ: آللَّهِ؟ فَقُلْتُ: آللَّهِ، فقالَ: آللَّهِ؟ فقُلْتُ: آللَّهِ، فَأَخَذَ بِحُبْوَةِ رِدَائِي فَجَبَذَنِي

إِلَيْهِ، وَقَالَ: أَبْشِرْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: قَالَ اللَّهُ تبارك وتعالى: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ))

[أخرجه مالك في الموطأ]

إذا كنت تحب المؤمنين، فهذه نعمة كبيرة جداً، وإن كنت تحب أهل الدنيا، فهذه مصيبة كبيرة، لأن أهل الدنيا لن تصل من خلالهم إلى شيء، ولكنك تعظمهم فقط، اجلس معهم، حديثهم عن فلان، ربح في صفقة ثلاثة ملايين، مكتبه كلفه خمسمئة ألف، سيارته لونها كذا، وسعرها كذا، أنت ماذا وصلك؟ أنت فقير، ليس عندك شيء، تكلم عن الله، اجلس مع الناس، حديثهم عن الأغنياء والأقوياء فقط، أما المؤمن فحديثه عن الله عز وجل، هؤلاء أكابر المجتمع المتبوعين، قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً)

[سورة الكهف الآية: ٢٨]

أعلم من تحب أنه من السنة :

عَنْ الْمِقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرِبَ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ))

[أخرجه أبو داود والترمذي في سننهما]

هناك أشخاص مشاعرهم في قلوبهم، لا يتكلم كلمة لطيفة، قد يحب زيداً أو عبيداً، ولكنه لا يتكلم ولا كلمة، هذا مخالف للسنة، إن كنت تحبه فأعلمه بذلك .

قل له:

((والله إني لأحبك لله))

هذا التعبير عن الحب يمتن العلاقة، وعدم التعبير عن الحب يضعضع العلاقة .

قَالَ:

((إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ فَلْيُخْبِرْهُ أَنَّهُ يُحِبُّهُ))

[أخرجه أبو داود والترمذي في سننهما]

دليلان من السنة على إعلام الرجل ممن أحبه :

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: يَا مُعَاذُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، فَقَالَ: أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لَا تَدَعَنَّ فِي كُلِّ صَلَاةٍ أن تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ))

[أخرجه أبو داود والنسائي في سننهما]

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ:

((أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَرَّ رَجُلٌ به فقالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي لَأُحِبُّ هَذَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَأَعْلَمْتَهُ؟ قالَ: لَا، قالَ: أَعْلِمْهُ، فَلَحِقَهُ، فَقَالَ: أَحَبَّكَ الله الَّذِي أَحْبَبْتَنِي لَهُ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

تعليق لطيف :

أخواننا الكرام، هنا تعليق: ألف تصرف ذكي وحكيم يشدّ إنساناً إليك، وتصرف أحمق واحد يبعده عنك، فالبناء صعب، تجد بناء من ثلاث عشرة سنة، حفروا الأساس، وكل شهرين أو ثلاثة يبنون طابقاً .

وكنت في أبو ظبي، البناء يُهدَم في خمس دقائق، هناك الآن قنابل تفجّره من داخله، وينزل إلى الداخل، بناء طويل عريض، ثلاثة عشر طابقاً، في خمس دقائق في الأرض، أما إعمار بناء فيأخذ عشر سنوات، التخريب سهل، أما البناء فصعب، فتصرف أحمق واحد يبعد الناس عنك، ألف تصرف ذكي وحكيم يشدهم إليك، فإذا تعب الإنسان مع إنسان لا يبطل عمله؛ بكلمة نابية، أو بحركة طائشة، أو بنظرة قاسية، لا .

هذا ما أمر به النبي، وهذا ما نهى عنه :

شيء آخر، النبي صلى الله عليه وسلم ما ترك شيئاً، يمتّن العلاقات بين المؤمنين، إلا أمرنا به؛ أمر بإلقاء السلام، أمر بعيادة المريض، أمر بتشييع الجنازة، أمر بالإحسان إلى الجار، أمر بتلبية الدعوة .

وفي الحديث: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ دُعِيَ فَلَمْ يُجِبْ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

أمر بأشياء كثيرة، ونهى عن كل شيء، يضعف العلاقة بين المؤمنين، نهى عن الغيبة والنميمة، والاستهزاء، والكبر، والسخرية، والغمز، واللمز، كل شيء يبعد نهى عنه، كل شيء يقرب أمر به، هذا منهج الإسلام، منهج واضح متكامل .

هذا ما يحتاجه المسلمون اليوم :

فيا أيها الأخوة، عود على بدء: كل مظاهر الإسلام عندنا صارخة، دخلت في مسجد في دار البيضاء، كلّف ألف مليون دولار، مئذنته ارتفاعها مئتا متر، أعلى مئذنة في العالم، مئذنته جامعة بكل معاني هذه الكلمة، مربعة تقريباً، خمسون متراً في خمسين، ومئتا متر إلى فوق، هذه المئذنة،

وأنت في الصحن ترى البحر، وأنت في الحرم ترى البحر، والذي أمر بإنشائه، استوحى هذه الفكرة، من قوله تعالى:

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)

[سورة هود الآية: ٧]

بناء فخم جداً، المظاهر الإسلامية صارخة، مكتبات ضخمة، مؤتمرات، شهادات، ألقاب علمية، أشرطة، كل شيء موجود .

نحن بحاجة إلى الحب الذي كان بين الصحابة، الحب يجعل المسلمين كتلة واحدة قوية ، أما البغضاء، والحسد، والنميمة، والغيبة، والطعن، والغمز، واللمز، هذه تضعف وحدة المسلمين .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٨٧-١٠١) : باب: فضل تعلم القرآن وتعليمه - الحديث عن القرآن الكريم من حيث: تلاوته، مدارسته، صور من إعجازه

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٨-١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

من أصل الإيمان ولوازمه :

أيها الأخوة الكرام، أصل الإيمان: أن تؤمن بالله موجوداً، وواحداً، وكاملاً، خالقاً، مربِّياً، مسيِّراً، أسماؤه حسنى، وصفاته فضلى، ومن لوازم هذا الإيمان: أن الله سبحانه و تعالى لم يخلق الخلق عبثاً، ولم يخلق الإنسانَ سدى، قال تعالى:

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ)

[سورة المؤمنون الآية: ١١٥]

مستحيل، قال تعالى:

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى)

[سورة القيامة الآية: ٣٦]

إذًا: اللهُ عز وجل أمر، ونهى، وبيَّن، وأرشد، ووضَّح، فلا بدَّ من كتاب بين أيدينا، كتابُ خالق السموات والأرض، ولا بدَّ من إنسان تنزَّل عليه هذا الكتاب، وبيَّنه للناس، هذا أصل الدين خالق عظيم، وكتاب كريم، ورسول أمين .

ماذا تستنبط من هذه الموازنة؟

أيها الأخوة، الآن: لو وازنَّا بين كتاب الله وبين أعظم كتاب ألّفه بشرٌ، الفرقُ بين الكتابين كما بين الله وخلقه، وازن بين خالق الكون وبين مخلوق، ما من كتاب ألّفه إنسان، إلا وفيه خطأ صغير أو كبير، إلا وله تعديل، إلا وله تقويم، إلا وله طبعة منقَّحة، إلا وله تصويبات، هذا من شأن البشر، ولكنَّ خالق البشر كتابه لا ريب فيه .

لذلك: إذا دخلت إلى مكتبة، يقولون: إن أعظم مكتبة في العالَم بالكونغرس، أو بواشنطن، فيها العشرات الملايين من الكتب، كلُّ هذه الكتب، لو وُضِعت في كفة واحدة، ووُضع كلام الله في كفة لرجح .

لذلك: حينما يمضي الإنسان وقته في كلام من صنع البشر، يضيِّع عمره سدى .

إنسان يحمل شهادة عالية (دكتوراه) مثلاً، في فن الغزل في العصر العبّاسي، الإنسان أعظم من ذلك، أعظم من أن يبحث في شعر، قاله إنسان في غرض محرَّم، أما حينما ينشغل بكلام الله فهو حقٌّ صِرف، لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، حبل الله المتين، و صراطه المستقيم، المنهج القويم، نور الله في الأرض .

من دقة القرآن الكريم وروائعه :

أيها الأخوة، شيء غريب: كلام خالق الكون، الكلمة لها معنى، الحرف له معنى، الحركة لها معنى، الله عز وجل قال:

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

[سورة التوبة الآية: ٤٠]

واضح، قال تعالى:

(وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

[سورة التوبة الآية: ٤٠]

لو قرأتها: وكلمة الله، أي: الله عز وجل؛ جعل كلمة الذين كفروا السفلى بعد أن كانت عليا، وجعل كلمته عليا بعد أن كانت سفلى، والعياذ بالله المعنى فاسد، إذًا:

(وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى)

[سورة التوبة الآية: ٤٠]

وقف:

(وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا)

[سورة التوبة الآية: ٤٠]

دائماً: هذا المعنى، فحركة تجعل المعنى فاسداً، قال تعالى:

(أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ)

[سورة التوبة الآية: ٣]

إذا قلت: ورسولِه، أي بريء من المشركين، وبريء من رسوله، لكن: ورسولُه بريء أيضاً، حركة .

عمرك ثمين أيها الإنسان، لا تنفقه إلا في معرفة كتاب ربك :

أيها الأخوة، فعُمر الإنسان الثمين، لا يمكن أن يُنفق إلا في معرفة كتاب الله الكريم، أي أعظم عمل أن تفهم كلام الله، لأن فهم كلام الله يجعلك على صراط مستقيم، دون أن تشعر، والإنسان حركته في الحياة بحسب قناعته .

قد تجد إنساناً يرتكب حماقة كبيرةً جدًّا، يرتكب جريمة أحياناً، بأكل أموالَ الناس بالباطل، يظنُّ أنه قويٌّ، وهم ضعفاء، فيبتزُّ أموالهم، وهو يجهل أن الله سوف ينتقم منه، فهذا جاهل، الجاهل يفعل بنفسه ما لا يستطيع العدوُّ أن يفعله به، الجهل أعدى أعداء الإنسان، أعدى أعداء الإنسان الجهل، وليس من صفة في الإنسان أشدُّ نفوراً من الجهل، فأنت إذا قرأتَ كلام الله، كلام حقٌّ مئة بالمئة، صحيح مئة بالمئة، كلام خبير .

تمهيد للحديث الشريف :

أيها الأخوة، فلو أن آلة معقَّدة غالية ثمينة، ذات نفع عظيم، التقيتَ بصانعها، مخترعها، وأعطاك تعليمات تشغيلها، ثم سألتَ أشخاصاً عاديِّين، لا علاقة لهم بهذه الآلة إطلاقاً، عن بعض الأسئلة حولها، فأجابوك، أيَّة إجابة تعتمدها؟ إجابة الصانع الخبير، هذا الكلام دقيق جدًّا، مقدِّمة لحديث شريف، مهما قُرئ هذا الحديث، تشعر أنك في أمسِّ الحاجة إليه .

يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح، الذي رواه الإمام مسلم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ تعالى وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي في سننهما]

هذا المكان الذي ينبغي أن تدخله كما ورد في نص الحديث :

((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله))

هناك في الحياة أماكن كثيرة، هناك دُور لهْو، طبعاً: بناء فخم جدًّا، والفرش من أعلى درجة، والأناقة غير متناهية، والتزيينات غير متناهية، والفسق فيها غير متناهٍ، هذه الدُور تنتهي بصاحبها، إما إلى كآبة المعصية، وإما إلى السجن نصيب النازلين به -دور القمار-:

نصيب النازلين بها سهـاد وإفلاس فيأس فانتحـــارُ

تُشاد له المنازلُ شاهـقاتٍ و في تشييـد ساحتها الدَّمارُ

قد تدخل إلى مسجد، فتستمع إلى آية كريمة، إلى حديث، إلى توجيه، إلى تعليم، إلى توضيح، إلى إرشاد، يمتلىء قلبُك سعادة ونوراً بهذا الكلام .

لهذا: كما ورد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا))

[أخرجه مسلم في الصحيح، وابن خزيمة في صحيحه]

طبعاً: وملاهيها .

((فما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله))

اجتمعنا في بيت من بيوت الله .

ماذا عن القرآن الكريم؟ :

((فما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله))

القرآن الكريم كلام الله، والله مصدر الجمال .

لو سألت أحدَ أخواننا المتفوِّقين، إذا تلا كلام الله صباحاً، تلاه بقلب خاشع، تغمره سعادةٌ لا تُوصَف، وقد يشعر قارئُ القرآن، أن صوته يزداد حسناً إذا قرأ القرآن .

أي: إذا أردتَ أن تحدِّث اللهَ فادعُه، وإن أردتَ أن يحدِّثك اللهُ فاقرأ القرآن، أنت مع كلام خالق السموات والأرض، لذلك: قال تعالى:

(وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً)

[سورة الفرقان الآية: ٣٠]

الإنسان حينما يهجر هذا الكتاب، يقع في خسران كبير، ما الذي يشغل الناسَ؟ الشاشة، وماذا في الشاشة؟ كل أنواع الفسق والفجور في الشاشة، كل أنواع السلوك غير السويِّ في الشاشة، فالإنسان يتعلَّم خبرات سيِّئة جدًّا، يتعلَّم نماذج إنسانية حقيرة جدًّا، إنسان شهواني، إنسان يبحث عن لذَّته بكل وسيلة، علاقات كلُّها محرَّمة، علاقات كلها خارج الزواج، هذه كلها خبرات يكتسبها الإنسانُ، أما يشاهدها، يراها طبيعية جدًّا، شيء طبيعي جدًّا .

يمكن في مجتمع لا يقرأ القرآن، أو مجتمع فتيات لا يقرأن القرآن، تُعدُّ الفتاة التي ليس لها صاحب أو صديق معقَّدة غير سويَّة، الأصل: أن يكون لها صاحب، هذا إذا ابتعدنا عن القرآن الكريم .

حينما نبتعد عن كتاب الله، نقع في أوهام، وفي وحول لا يعلمها إلا الله، فلذلك: الإنسان شفاؤه في القرآن .

((ما اجتمع قوم كتاب الله))

أحياناً: أسمع عن أخوان، واللهِ أنا أقدِّرهم كثيراً، يعملون دوراً لأنفسهم؛ الثلاثاء، الأربعاء، الخميس، سهرة، يقرأ كلُّ واحد من الحاضرين، يفسِّر صفحة، من معلوماتهم، و مما سمعوا من دروس العلم، أي جلسة لطيفة فيها كلام الله، هذا الكلام اترُكه في بالك .

((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله))

طبعاً: لا مانع في بيت من بيوت الناس أيضاً .

هكذا مدارسة القرآن الكريم :

((يتلون كتاب الله ويتدارسونه))

الأولى أن يكون للمؤمن ختمتان؛ ختمة تلاوة، وختمة فهم وتدبُّر، ختمة التلاوة كل يوم خميس صفحات، الحد الأدنى عشرة أحسن، عشرين جزءاً صار، ثلاثون يوما في ختمة، أو في الستِّين، أو بمئة وعشرين، لكن لا بدَّ من ختمة في الأسبوع عشر آيات .

أي: وقفة متأنِّية متدبِّرة، أبعاد الكلمة، إرشادات الآية، الأحكام الفقهية منها، اللفتات البلاغية فيها، الإشارات البعيدة منها، الاستنباطات الرائعة، كلام الله غنيٌّ جدًّا، مهما تلوته لا يخلق على كثرة الردِّ.

إذًا:

((يتلون كتاب الله ويتدارسونه))

تلاوة تعبُّد أو دراسة، فهم وتدبُّر، كلام النبي دقيق .

أنت أحياناً: ترغب أن تقرأ القرآن فقط، و لكن أحياناً: ترغب أن تفقه معنى الكلمة، معنى الحركة، معنى الآية، الحكم الشرعي، الاستنباط اللغوي، الإعجاز النظمي، الإعجاز العلمي.

من الإعجاز العلمي في هذه الآية :

قال الله عز وجل:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

[سورة الكهف الآية: ١٨]

أربع كلمات، قال الله تعالى:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

[سورة الكهف الآية: ١٨]

ولكن هذه فيها إعجاز علمي، لما ينام الإنسان هيكله العظمي مع ما فوقه من عضلات وشحوم، هذه لها وزن، هذه ضاغطة على العضلات التي تحت الهيكل العظمي، هذا الضغط، يسبِّب تضيُّق الشرايين والأوعية، التضيُّق يجعل ما يُسمَّى بالتنميل .

الواحد في الدرس نفسه، إذا قعد قعدةً ثابتة أكثر من ربع ساعة، يحسُّ أن رجله لم يعُد يشعر بها، وكأنها ليست منه، أو تنمَّلت، أو خضرانة بالتعبير العامي .

فالإنسان وهو نائم، طبعاً: في الجسم، هناك مراكز للإحساس بالضغط، هذه المراكز تنبِّه الدماغ، انضغطنا، فالدماغ يعطي أمراً، الإنسان ينقلب على اليمين، القسم الذي كان تحته مضغوطاً، والأوعية ضاقت، ونمَّلت اليد، تعكس، فيرتاح القسم الذي كان مُتعباً .

والآن: يبدأ تعبُ القسم الثاني، كذلك هذا القسم ينضغط، هناك مراكز إحساس بالضغط تنذر الدماغ، والدماغ يعطي أمراً معاكساً، ولكن هذه المرة ليس ذات اليمين، حتى لا يقع من السرير، ذات الشمال، وذات اليمين .

صوَّروا إنساناً نائماً في فيلم، تقلَّب ثمانية وثلاثين إلى أربعين مرة، لولا التقلُّبُ لا يمكن للإنسان أن تستمرَّ طاقته بعضلاته، والذي معه مرض السبات، إذا لم يقلِّبه أهلُه خلالَ أيام، يتفسَّخ لحمُه نهائياً .

الآن: هناك فراش غال جدًّا، الذي معه مرض السبات، هو يقلِّبه، معه محرِّكات. والله قال:

(وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ)

[سورة الكهف الآية: ١٨]

فأهل الكهف بقوا ثلاثمئة سنة، وازدادوا تسعاً، لولا أنهم يتقلَّبون في اليوم مرتين وثلاثاً وأربعًا لانتهوا، وتفسَّخت لحومهم .

هذا إعجاز علمي في القرآن الكريم، إذا قرأ الإنسان قراءة متأنِّية، سيرى إعجازاً علمياً .

من الإعجاز النظمي في هذه الآيات :

هناك إعجاز في النظم، تقديم وتأخير، الله قال:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ٢٤]

بدأ بالأب فقال:

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ)

[سورة التوبة الآية: ٢٤]

هناك آية ثانية، قال:

(زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ)

[سورة آل عمران الآية: ١٤]

بدأ بالمرأة .

وهناك آية ثالثة، قال تعالى:

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ)

[سورة عبس الآية: ٣٤]

بدأ بالأخ .

وهناك آية رابعة، قال تعالى:

(يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ)

[سورة المعارج الآية: ١١]

مرة بالأب، ومرة بالزوجة، ومرة بالابن، ومرة بالأخ .

الإنسان له أب، وابن، وزوجة، وأخ، هناك إعجاز بالنظم، العلماء قالوا: في موطن الاعتزاز الاجتماعي الإنسان يعتزُّ بأبيه، أنا ابن فلان، والعرب كانت عندها سبَّة في الجاهلية: لا أبا لك، وفي موطن الحب الشديد بدأ بالابن، وفي موطن الاستعانة بالأخ، الابن صغير والأب كبير، تستعين بأخيك، فالإنسان إذا استعان فبأخيه، وإذا أراد أن يضحِّي بشيء من أجل بقاء شيء، يضحِّي بكل شيء إلا ابنه، وفي موطن الشهوة المرأة، وفي موطن الاعتزاز الاجتماعي الأب، فهناك دقَّة بالغة، قال تعالى:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ)

[سورة النور الآية: ٢]

الزانية، لأن المرأة سبب الزنا، وموضوع الزنا غير موضوع الطعام والشراب .

لو جلست في غرفة جدرانها ملساء، ليس فيها شيء أبداً، بلا طعام تجوع، أما الجنس فلا بدَّ له من مؤثِّر خارجي، الجوع له دافع داخلي، لو لم توجد إثارة، ولو لم ترَ طعاماً.

الواحد أحياناً: يرى طعاما طيِّبا بالمطاعم، عند بائع الفواكه، مثلاً يشتهي، هذا مؤثِّر، أما لو ما رأى الإنسان أيَّ مؤثر يجوع، ويشتهي الطعام، الجنس بالعكس، إذا لم يوجد مؤثر خارجي، فلا تنشأ هذه الشهوة، وهذا من رحمة الله بنا .

فكلُّ إنسان يعرِّض نفسه لمؤثرات خارجية، يصبح معه كبت، وتمزُّق داخلي، أما إذا لم يعرِّض نفسه لمؤثِّرات خارجية، عنده راحة نفسية، فالله بدأ، وقال:

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ﴾

[سورة النور الآية: ٢]

لأن المرأة هي السبب في الزنا، لكن في السرقة، قال تعالى:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا﴾

[سورة المائدة الآية: ٣٨]

موضوع ثان، في خلق السموات والأرض، قال تعالى:

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾

[سورة الرحمن الآية: ٣٣]

أما موطن البلاغة فبدأ بالإنس، فقال تعالى:

﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾

[سورة الإسراء الآية: ٨٨]

قال تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

[سورة النور الآية: ٣٠]

بدأ بغض البصر، لأن غضَّ البصر سبب لحفظ الفرج، قال تعالى:

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾

[سورة النور الآية: ٣٠]

أي: هناك بصر مباح، أن تنظر إلى امرأتك، لا إشكال، إلى أمك، إلى أختك، إلى ابنتك، وإلى عمَّتك، وإلى خالتك، إذًا: غضُّ البصر تبعيض:

﴿يَغُضُّوا مِنْ﴾

[سورة النور الآية: ٣٠]

ولكن لا يوجد: ويحفظوا من فروجهم، لا يوجد زنا مباح أبداً، ولا يوجد زنا اضطراري، فالقرآن الكريم نظمه على مستوى الحركة والحرف .

ما هي الثمرة التي يقطفها هؤلاء القوم عقب قراءتهم للقرآن ومدارستهم فيه؟ :

((وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه فيما بينهم، إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة))

السكينة: هي الشيء الذي إذا وصلت إليه سعدتَ به، ولو فقدت كلَّ شيء، وإذا خسرتها شقيتَ، ولو ملكت كلَّ شيء .

مُؤدَّى الدين كلّه السكينة، أي: إيمانك بالله، وعملك الصالح، واستقامتك، واتّصالك بالله، من أجل هذه السكينة التي تتنزّل على قلب المؤمن، فالإتيان إلى بيت من بيوت الله، والاجتماع مع المؤمنين، وتلاوة كتاب الله ومدارسته سبب نزول السكينة .

الأخوة يعبِّرون عنها تعبيرا عادياً، فيقولون: انبسطنا، صار التجلي، هموم أزيحت عن صدري، هذه هي السكينة، السكينة راحة نفسية، طمأنينة، وثقة بالله، سعادة، أمن، السكينة إحساس بالتفوُّق، لا تشتهي شيئاً .

هذه أماني أهل الدنيا وأهل الآخرة :

أيها الأخوة، أهل الدنيا كلما شاهدوا شيئاً من الدنيا، يسيل لعابُهم له، قال تعالى:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[سورة القصص الآية: ٧٩]

مرة قال لي واحد -كلام مضحك- قال لي: و اللهِ هذه السيارة (B-M)، أتمنى أن تصدمني، لكثرة ما أحبُّها، هكذا تصوَّر، يعلّق فيها جرذان، يحبُّها كثيراً، يتمنى أن تسير فوقه، قال تعالى:

(قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

[سورة القصص الآية: ٧٩]

أما المؤمن؛ يا ليتني أفهم كلام الله، يا ليتني أعمل عملاً طيِّباً، يرضى الله عني، يا ليتني أُوفَّق إلى طاعة الله، يا ليتني أتَّصل بالله، يا ليتني أحبُّ الله كما أحبَّه أصحابُ رسول الله ، فكلٌّ إنسان ماذا يتمنى؟ بحسب مستواه .

((إلا نزلت عليهم السكينة))

خطبة ألقيت :

أنا ألقيت خطبة حول السكينة قبل أربعة أسابيع فيما أعتقد، فيها توفيق كبير كان، أي كيف التجارة كلها من أجل الربح، والدين كله في الأساس، من أجل هذه السكينة التي هي الجانب الجمالي في الدين .

هناك في الدين جانب علمي، وجانب سلوكي انضباطي، وجانب جمالي، الجمالي هو الثمرة، السلوكي هو الأصل، والعلمي هو السبب، سبب، أصل، ثمرة، مستحيل أن تنضبط دون علم، ومستحيل أن تنضبط، ولا تكون أسعد الناس .

نحن أحياناً: نصلي على رسول الله، نصلي على أسعدنا محمد، أسعد الخلق .

أحد أخواننا مقيم في أمريكا، جاء في الصيف، ومكث شهراً، بعد ما سافر بعث لي رسالة شكر، قال لي: عندنا كل شيء في الدنيا في أعلى مستوى، ولكن وجدتُ عندكم الراحة النفسية، وجدت الحبَّ، وجدت الاتصال بالله، وجدت الأسرة المتماسكة، وجدت الودَّ بين المؤمنين، هذا كله هناك لا نعرفه.

أحياناً: الإنسان يرحِّب بك، يمكن أن نسهر سهرة في غرفة صغيرة متواضعة، ونجلس على الأرض، نأكل أكلاً عادياً جدًّا، يقول لك: واللهِ صار التجلي، شعرنا بسعادة لا توصف، ويمكن أن تدخل إلى أفخم مطعم في البلد، وكله من أعلى مستوى، وتشعر بانقباض .

احفظوا هذه الكلمة: إذا ملكتَ السكينة سعدتَ بها، ولو فقدت كلَّ شيء، وإذا خسرت السكينة شقيت بفقدها، ولو ملكت كلَّ شيء .

ما المقصود بالرحمة هنا؟ :

((إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة))

ما هذه الرحمة؟ هذا مطلق عطاء الله، رحمة، إذا الله رحم إنساناً، قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

[سورة فاطر الآية: ٢]

فإذا رحم الله عز وجل إنساناً، نجا من عذاب الدنيا والآخرة، لذلك: قال تعالى:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة الزخرف الآية: ٣٢]

هناك شركات مبيعاتها أربعة آلاف مليون دولار، أحياناً: هناك شركات عندها فائض نقدي، عشرات ألوف الملايين من الدولارات، فائض زائد على حاجتها، الله قال:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة الزخرف الآية: ٣٢]

والموت ينهي كلَّ شيء .

مغزى هذا المحور :

هناك مطعم في أمريكا، أفخر مطعم سمك في الولاية على الإطلاق، عريق جدًّا، و صاحبه صار معه مئات الملايين، أراد أن يذهب في نزهة مع زوجته في يخت فاخر في فلوريدا، ضاعت الأخبارُ كلها، ولا خبر، لا عنه، ولا عن زوجته، ولا عن اليخت، فكان تعليق الناس أنه: أطعم الناس السمكَ أربعين عاماً فأكله السمكُ .

يكون الإنسان ملكاً، فينتهي في ثانية، يصبح نعياً في ثانية، يكون غنيًّا فيصير إنساناً عليه كَفَن فقط، صدق القائل:

فكل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة و الجبروت

الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر

كل ابن أنــثى و إن طالت سلامته يوماً عــلى آلة حدبــاء محمولُ

فإذا حمـلت إلى القبـور جـنازةً فاعـلم بأنــك بعـدها محـمولُ

فالإنسان يفقد حياته في ثانية، والإنسان مكلَّف بان يعتنيَ بصحته، لكن العناية بالصحة وحدها لا تفعل شيئاً، الإنسان يموت حينما ينتهي أجلُه، نسمع أحياناً قصصاً مؤثِّرة جدًّا، أعدُّها أساسيات في الحياة .

شاب من أصدقاء أخوتي، لهم سهرة كل سبت، قال: أنا أطيل الحياة حتى أموت، طبعاً: هو في الخمسينات، أنيق جداً، نحيل، يعتني بصحته عناية فائقة، ولا يدخِّن، يمشي كل يوم، وأكله قليل، علاقاته نامية، ليس عنده مشكلة .

قال: أن أطيل حتى أموت، الدور كان السبت، السبت الثاني كان تحت الأرض، هذا الكلام قاله بحضور أخي، أنا أطيل حتى أموت، لا أحد يعلم متى ينتهي أجله، إذا انتهى كل شيء جمَّعه في حياته، يخسره في ثانية واحدة، فالبطولة أن تكون مع الله .

((إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة))

يتفوق في حياته .

هذا ما يفعله الملك، وهذا ما يفعله الشيطان :

أيها الأخوة، إنسان بين ملَك يلهمه الصواب، وبين شيطان يورِّطه، ماذا قال سيدنا موسى، لما القبطي مرة ثانية اشتكى له؟ قال تعالى:

(فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)

[سورة القصص الآية: ١٥]

الشيطان دفع الإنسان إلى جريمة، أحياناً: ترى واحدا حُكم عليه بالإعدام، تفسيرها هذا من عمل الشيطان، الشيطان وسوس له أن يقتل فقتل، وأوقِف، فأُعدم في السجن .

لو سألت كلَّ سجين على حدة، كل واحد متورط في جريمة، في ساعة غفلة عن الله جاء الشيطان، فهنا إذا كان الواحد مع الله، حفّته الملائكة، كل خواطره، إلهامات عالية، يفكِّر في خدمة الناس، والإحسان إليهم، صلة الرحم، وإطعام الفقراء، وزيارة الأقارب خدمة الناس ، والدعوة إلى الله، هكذا إلهاماته كلها، أما غير المؤمن قد يُوسوس له بفعل معصية شنعاء.

من حوالي فترة، واحد تورَّط بمحاولة مع غلام، حكمها ثلاثون سنة أو حكمها خمس عشرة سنة .

((ألا يا رُبَّ شهوة ساعة، أورثت حزناً طويلاً))

دقائق، تكلّف خمس عشرة سنة في السجن.

هذا ما أردته :

أنا أردت من هذا الدرس: أخواننا بحكم القرابة، أو حكم الزمالة، أو حكم الجوار، أخوان مثلاً في زملكا، أخوان بحرستا، أخوان بالمهاجرين، كلّ مجموعون في حيٍّ، أو على أساس العمل، من يعملون في شركة موحَّدة، أو على أساس القرابة، إذا كان اللقاء أسبوعياً، كل واحد قرأ صفحة قرآن، وحاولوا أن يفسِّروا، أو يراجعوا درس الجمعة، المذاكرة هذه مفيدة جدًّا، تثبِّت الحقائق، يقرأ كل واحد صفحة، ونحاول أن نتذَّكر بعض ما قيل في درس الجمعة، والأحد، والسبت، هذا الاجتماع مبارك، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا)

[سورة سبأ الآية: ٤٦]

أي أجمل ساعات العمر: أن تذاكر العلم مع أخيك المؤمن، تشعر بسموٍّ عالٍ جداً، والناس منشغلون بالشاشة، نحن بالقرآن، فرق كبير بين الشاشة والقرآن، إذا كان الأخوان بحسب أماكن سكنهم، أو بحسب أماكن عملهم، أو بحسب علاقات القرابة، جلسة ساعة زمان، دون ضيافة، كأس شاي فقط، ودون كُلفة، كل واحد قرأ صفحة قرآن حسب الحديث، قرأنا الصفحة، يتلون كتاب الله، وذاكرنا درس الجمعة، يتدارسونه، وإذا كانت جلسة لله خالصة، ليس لها أيَّ مقصد، الإنسان يشعر بهذه المعاني؛ السكينة، والرحمة، والتوفيق الإلهي .

في اليوم التالي مسدَّد، رشيد، موفَّق، ومحفوظ من الله، والحفظ، والتوفيق، والتأييد، والنصر، وهناك إلهامات ملائكية طيِّبة، لأن هذا كلام الله عز وجل، إن أردت أن تحدِّث ربَّك فادعُه، وإن أردت أن يحدِّثك اللهُ فاقرأ القرآن، وإذا كنا قرأناه ختمة تلاوة تعبُّدية، وختمة تدبُّر ودراسة، التدبر في آية الدرس، كله على حديث واحد، أحياناً: التعميق مُريح للنفس، آية يفهمها بعمق، يفهم كلَّ أبعادها، نفهم ما وراء مضامينها، وتأويلاتها، وهكذا.

ملاحظة :

هناك ملاحظة أخيرة: أنا قناعتي أن الإنسان قد تنشأ عنده الآلاف من الأسئلة، وإذا قرأ القرآن بعناية، ما من سؤال يُقلقه إلا وجوابُه في القرآن، إذا هناك قراءة مستمرَّة، هذا الكلام نور الله عز وجل، هذا نور الله عز وجل بين أيدينا، وهذا تفسير الله للخلق، وللكون، والحياة، وللإنسان، ولمصير الإنسان، فكلما ازداد فهماً لهذا الكتاب، حُلَّت مشكلتُه العقائدية، عقيدته تصحُّ .

أحياناً: واحد يذهب إلى بلاد الغرب يختلُّ توازنُه، يجد فسقاً غير معقول، فجور، وفسق، أقوياء، ومنظَّمون، ومسيطرون على العالم، ويتحكَّمون في الشعوب، ويستهلكون أربعة أخماس ثروات العالم لأنفسهم، وتشعر أن الأموال كلها عندهم، والغنى كله عندهم، يختلُّ توازنه الواحد، يقرأ القرآن:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٤٤]

توازن، لما شاهد المشاهدة اختلَّ توازنُه، قرأ الآية استعاد توازنَه .

تجد الواحد يظلم الناس مثلاً، لا يوجد من يحاسبه، تقرأ الآية:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ)

[سورة إبراهيم الآية: ٤٢]

استعاد توازنه، يكون شاباً فقيراً، ليس عنده شيء؛ لا بيت، ولا حائط، ولا شهادة، من يزوِّجه؟ ومن يعطيه؟ يقرأ الآية:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

[سورة النحل الآية: ٩٧]

وعدٌ إلهي .

أيها الأخوة، لا توجد مشكلة فكرية، أو نفسية، أو اجتماعية، تغامر قلبك، إذا تلوت كتاب الله، ترى حلاً لها، أبداً، يقول لك: إنسان حجمه المالي ألف مليون .

مرة عزَّيت شخصاً، إنسان متوفى أهله عزَّيته، في الرجوع، قال لي: ترك أربعة آلاف مليون، عمره خمس وخمسون سنة، تقرأ الآية:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة الزخرف الآية: ٣٢]

تتوازن، الحياة فيها مشكلات، وفيها صدمات، كلما قرأت كلام الله استعدتَ توازنك، فإذا أنت قرأت كلام الله، فأنت دائماً متوازن، وليس عندك مشكلة، وقيمك كلها قيم دينية، موازينك كلها صحيحة، زين الشخص في دينه، وعلمه، واستقامته، وليس في ماله وقوته .

نهاية المطاف :

أيها الأخوة، أرجو الله أن يُترجم هذا الدرس إلى واقع، أي إذا اقتطع أخ من وقته ساعة في الأسبوع، وقعد مع أخوان يحبُّهم، كل واحد يصطفي أخوين يحبهم، تآخيا اثنين اثنين، جامع فيه آلاف مؤلَّفة، اختر منه ثلاثة أربعة، لك جلسة خاصة معهم، فيها ودٌّ، وفيها تعاون، وفيها تفقُّد، تعاونهم ويعاونوك، وتنصحهم وينصحوك، وتعينهم ويعينوك، تأخذ بيدهم ويأخذون بيدك، تتفقَّدهم ويتفقدونك، لا سمح الله غبت في درس سألوا عنك، إذا مرضت يعودونك، عندهم مشكلة نحلها .

فالإنسان لا يعيش وحده، تآخيا اثنين اثنين، ثلاثةٍ ثلاثة أحسن، وخمسةٍ خمسة أحسن، ولكن لا بدَّ للحديث أن يُترجم لواقع، بحسب القرابة، أو بحسب الزمالة في العمل، أو بحسب السكن، أربعة خمسة في جلسة، في الجمعة ساعة، كأس شاي من دون تعقيدات، قرأ كل واحد صفحة قرآن، ضبط لسانه، وإذا يوجد أخ يجوِّد يعاونه، هنا فيه إدغام، وهنا فيه مدٌّ، إلى آخره ، بعد ذلك نراجع درس الجمعة، نتفقد بعضنا ونمشي، نكون قد طبَّقنا الحديث .

((نزلت عليهم السكينة، وحفتهم الملائكة عنده))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

((يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً))

[أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما، والترمذي في سننه]

إذا الواحد همُّه أن يمدح الله عز وجل بين الناس، تجد الله عز وجل أين اجتمع الناسُ يمدحونه، همُّه أن يمدح الله، ويعرِّف الناسَ بالله، واللهُ مكافأة له: يلقي محبَّته في قلوب الناس، أينما ذهب يُرحَّب به، على عكس الإنسان إذا كانت له معصية، يلقي اللهُ بغضَه في قلوب الخلق، ولا يحبُّه أحدٌ.

الحديث ثمين جداً، سكينة، على رحمة، على إلهام ملائكي، على أن يذكرك الله فيمن عنده، وتلوت كتاب الله، وتدارسته فيما بينك وبينه .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٨٨-١٠١) : باب استحباب العزلة عند فساد الزمان - ما هو المرض الخطير الذي أصيب به معظم المؤمنين وخاصة طلبة العلم؟ ومتى يتصل طالب العلم بربه؟ وهل يعتبر المسلم ذا ضبط نفسه مما حرمه الله محروم؟ وكيف يقي المسلم نفسه من

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٨-٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحة عن هذا المرض الذي يعاني منه معظم المؤمنين :

أيها الأخوة المؤمنون، اخترت لكم في هذا الدرس، موضوع من رياض الصالحين، ومن كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، هذا الموضوع تحت عنوان: باب استحباب العزلة عند فساد الزمان .

هناك أحاديث صحيحة كثيرة، توجه المؤمن عند فساد الزمان، أن يعتزل المجتمعات الفاسدة، وقبل أن أمضي في الحديث عن هذه الأحاديث وشرحها، لا بد من مقدمة .

أيها الأخوة، كنت أقول دائماً: الحقيقة المرة أفضل ألف مرة من الوهم المريح، لعلي أضع أيديكم على مرض يعاني منه معظم المؤمنين، مرض أنه يصلي فلا يشعر بشيء، يقرأ القرآن فلا يشعر بشيء، يذكر الله فلا يشعر بشيء، هناك مشكلة .

هل هذه الصلاة التي نصليها هي التي أمرنا الله بها؟ إله عظيم خالق السموات والأرض، يأمرك أن تقف، وأن تقرأ، وأن تركع، وأن تسجد، دون أن تشعر بشيء، حركات إيمائية لا معنى لها، عندنا مشكلة .

المشكلة فيما يبدو لي: أن الكبائر إذا تركها الإنسان، وتوهم أنه فعل شيئاً عظيماً، نقول له: لا، هذا طالب العلم؛ هل يعقل أن يقتل؟ هل يعقل أن يزني؟ هل يعقل أن يشرب الخمر؟ هل يعقل أن يسرق؟ مستحيل .

من أين مأخذه طالب العلم؟ لا يمكن أن يؤخذ من الكبائر، مستحيل، ما من طالب علم في مسجد، إلا وهو يجتنب الكبائر، من أين يؤخذ؟ لما هذا الحجاب بين الإنسان وربه؟ لمَ يصلِ ولا يشعر بشيء؟ لمَ يتصدق فلا يشعر بشيء؟ لمَ يقرأ القرآن فلا يشعر بشيء؟ لمَ يذكر الله فلا يشعر بشيء؟ ثمة مشكلة كبيرة .

فالإنسان إما أن يأخذ دور النعامة، يضع رأسه في الرمل، ويتوهم أنه على حق، وهو من طلاب العلم الشرعي، والجامع الفلاني، وشيخه فلان، وأخوانه كلهم طيبون، لكن عملياً ليس هناك اتصال، هناك حجاب .

سؤال ضروري موجه لطلبة العلم :

أيها الأخوة، متى يمكن أن تتصل بالله؟ كلام لا أقوله لعامة الناس، أقوله للخاصة، أقوله لطلاب العلم، إذا كانت الشهوة أغلى عليك من الله، فالطريق إلى الله مسدود، لعلك تقول: هذه قسوة بالغة من الأستاذ، هذا تزمت، إذا كانت الشهوة أغلى عليك من الله، تقول: أنا هذا الشيء لا أستطيع أن أتركه، لا أسميه، أخي هذا حضارة، أعيش مع الناس، مع العالم كله، لكن هذا سم في الدسم، الله عز وجل أثبت من الخمر بعض المنافع، قال تعالى:

(قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)

[سورة البقرة الآية: ٢١٩]

وهي محرمة تحريماً قطعياً، ما دام ثمة معصية ومخالفة، فأنا لا أتزمت، ولا أشدد .

لكن أنا أضع يدي على الجرح، ما دام هناك مخالفة ونظرة لا ترضي الله، وصورة تثير الشهوة، وأنا أتابع النظر إليها، على أساس أن هذا شيء لا بد منه، وهو حضارة، وتعيش مع العالم بكل تفاصيل أحداثه .

إذا سمع الإنسان عن زلزال تركيا، وما رأى أي صورة من صور الزلزال، يموت من روعه إذا ما رأى الصورة، وسمع الخبر، ما الذي يحصل؟ .

إذا كان مع الصور أشياء مثيرة، أنت تقدر أن تصلي العشاء بعد ذلك، كن واقعيًّا، إذا كنت في نظرة إلى شيء لا تجوز، هل تستطيع أن تتصل بالله عز وجل؟ فأي شيء يمنعك عن ذكر الله، يحجبك عن الله، ينبغي أن تضحي به، ولا يحدث شيء، ولا يحدث إلا كل خير .

قف عند هذه الأمنية يا طالب العلم :

أيها الأخوة، فأنا أتمنى على كل طالب علم، يكون حكيمَ نفسه، يراقب قلبه، يتابع أحواله مع ربه، فثمة شيء يمنع أن أتصل بالله، هل أنا متلبس بمخالفة، بمعصية، بتقصير، لم أؤدِّ واجبًا معينًا، أو فرضًا معينًا، ليست حواسي منضبطة كما ينبغي، فيها تقصير أو مخالفات ، تجد أمامك حجابًا، وكلامًا مملاً، والصلاة ثقيلة .

صدقني أنا أقول الحقيقة: تجد الصلاة كالجبل، تصلي كيفما شئت بأقلّ حركة، قال له: لا تطلها، قام وقرأ: مد هامتان، قال له: أطلتها اثنتين بركعة واحدة، مد هامتان بركعة واحدة، مد هامة، مد هامة، اقرأ لنا: قال تعالى:

(وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)

[سورة النساء الآية: ١٤٢]

أتمنى أن يعامل الإنسان الله بصدق، بوضوح، فإذا تركت شهوة، تعلقت بها من أجل أن ترضي الله، هل يحرمك الله من شيء؟ ممكن أن تكون محرومًا، الذي أعطى نفسه حظها هذا غير محروم، والذي ضبط شهواته، وضبط حواسه، فهذا المحروم؟ مستحيل .

يجب أن تعتقد أيها الأخ، أنه مستحيل ألف مرة أن تعصيه وتربح، وأن تطيعه وتخسر.

أنا لا أقول: إن المؤمن معصوم، لكن المؤمن حريص حرصاً لا حدود له على أن يستقيم على أمر الله، فحينما تؤثر رضاء الله على كل حظوظ نفسك، عندئذٍ يكون الطريق إلى الله سالكًا، أبداً .

وليس هناك أيها الأخوة، ليس هناك أثمن من رضاء الله، خالق الكون راضٍ عنك، ليس هناك أعقل ممن يمشي برضوان الله، ليس هناك أحزم ممن يضبط شهواته كلها، وليس في الإسلام حرمان .

دقق في هذا الكلام :

يا أيها الأخوة الكرام، هناك قواعد مستنبطة من حركة الإنسان في الحياة، أهل الإيمان إذا سهروا مع بعضهم كانوا رجالا فقط، أما أهل العصيان فمختلطون، وبحسب ما يبدو للإنسان، أن الاختلاط أمتع للإنسان، كل امرأة لبست أجمل ما عندها، وتبرز أجمل مفاتنها، وأنت تنقل عينك من واحدة إلى واحدة، هنا تطرح طرفة، هنا تضحك هذه، سهرة مبْلولة كما يقول العوام، تلك ناشفة، معقول من إنسان يلتزم بالحق، لا يكون أسعد من هذا المتفلت! إله عظيم الذي أطاعه، وخاف أن يعصيه، ورجا رضوانه، وخشي عذابه، هذا يكون أقل سعادة من المتفلت؟ .

دققوا بهذا الكلام:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية الآية: ٢١]

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ)

[سورة السجدة الآية: ١٨]

الذي بيته نظيف، ويأتي إلى بيت من بيوت الله، يصغي الأذن إلى الحقيقة، إلى شرح حديث رسول الله، إلى تفسير كلام الله، هذا يعامل من قبل الله عز وجل كما يعامل الإنسان المتفلت، وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ، لو لم يكن في كتاب الله، إلا قوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

[سورة الجاثية الآية: ٢١]

كل شيء فيه مخالفة، أبعد نفسك عنه، ولا تعبأ به، ولا تنظر إليه، ولا تقل: حضارة، أعيش مع العالم كله، وأمضي هذه السهرة، تنقلاً من محطة إلى محطة، أرى الأخبار تارةً، والرياضة تارةً، وأحداث العالم، حدث في مثل هذا اليوم، نعيش مع العالم كله .

أنا أقول لك: عش مع ربك، هو مصدر السعادة، الله عز وجل عزيز، معنى عزيز: أنه لا يمكن أن يقبل عليك، إلا إذا آثرته على كل شيء، كلمة قد تكون صعبة، لكن الحقيقة والله مُرة، إذا كانت الشهوة أغلى عليك من الله، فالطريق إلى الله غير سالك، تصلي، وتصوم ، وتحج، وتحضر مجلس علم، كن من رواد المساجد .

لكن أنا الذي أريده: حينما تدخل بيتك، وتقول: الله أكبر، فلك طريق لله، وخط ساخن مع الله، تناجيه، تدعوه، تحس أنه يحبك، أنت غالٍ عليه، قال تعالى:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

[سورة الطور الآية: ٤٨]

حتى يكسب الإنسان وقته، لا يجعل وقته كله حركة بلا هدف .

مشكلة طلاب العلم :

أيها الأخوة، مشكلة أهل العلم، مشكلة طلاب العلم، تنقلب حركاتهم أحياناً إلى عادات مألوفة، أَلِفَ يوم الجمعة، أن يأتي إلى الدرس، وينتهي الدرس، يتحدث مع أخوانه، بعد ذلك يسهرون سهرة مختصرة، بعدها يذهب إلى البيت، يوم الجمعة، والأحد، والاثنين، والسبت جزء من عاداته .

نحن نريد مؤمنًا متألقًا، نريد مؤمنًا مقبلاً على الله عز وجل، نريد مؤمنًا مصطلحًا مع الله، نريد مؤمنًا تحكمه قيمه، وتحكمه مبادئ الدين، نريد مؤمنًا يقول: لا، بملء فمه، لمخالفة شرعية، نريد مؤمنًا قويًّا بالحق، قال تعالى:

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)

[سورة مريم الآية: ١٢]

حتى تقطف ثمار الدين، من أجل أن تشعر .

هذا حال المسلم المقصر :

أيها الأخوة، أنا أرثي لحال مسلم مقصر، فلا مع أهل الدنيا مرتاح، ولا مع أهل الإيمان مرتاح، مع أهل الإيمان يتشوق أن يكون مثلهم، وهو ليس مثلهم، فيه تقصيرات، لأنه محجوب، محجوب بالنوافل، كلمة لعلها غريبة، لما يرتكب الإنسان كبيرة يُحجب عن الله، هذه الكبيرة تتناسب مع الحجاب، ويُحجب عن الله بالصغائر .

تُحجب عن الله بإطلاق البصر فقط، لم تعمل شيئًا، تُحجب عن الله باللغو؛ غيبة ونميمة ، تُحجب عن الله بذنوب تراها صغيرة .

الذي عنده خمسون جهازًا كهربائيًّا بالبيت، التيار الكهربائي فصله عن بعضه مترًا أو فصله مليمتراً، سواء، المحصلة واحدة، انقطع التيار إذا كان مفصولاً بين طرفي التيار مترًا أو مليمتراً، فالأمر سواء .

العبرة: أن هذه المخالفة حجبتك عن الله .

هذه هي أفعال الشيطان مع الإنسان :

أيها الأخوة، أنا مرة ذكرت: أن الشيطان ذكي جداً، أول محاولاته مع الإنسان، يحمله على الكفر بالله، فإن رأى هذا الإنسان على عقيدة متينة، يحمله على الشرك، الشرك أهون، فإن رأى توحيده قوياً، يحمله على البدعة، أن يبتدع شيئاً في الدين، فإن رأى اتباعه للسنة قوياً ، يحمله على ماذا؟ على ارتكاب المعاصي، يبدأ بالكبائر، فإن رآه على شيء من الورع، يحمله على الصغائر، فإن رآه في ورع عالٍ، ماذا يفعل الشيطان الآن؟ لم يقدر عليه بالكفر، ولا بالشرك، ولا بالابتداع، ولا بالكبائر، ولا بالصغائر، يحمله على التحريش بين المؤمنين، خصومات دائمة بين المؤمنين، خصومات بين الجماعات، خصومات بين أفرد الجماعة الواحدة، بين أقطاب الجماعة الواحدة، قد تكون مفتعلة من فعل الشيطان، لا تستحق هذا التمزق، لا تستحق هذه الفرقة، هذا من عمل الشيطان، فإن لم يستطع، آخر سهم أنْ يحمله على أن يغرق في المباحات، يعتني بطعامه، وشرابه، وبيته، وأكله، ونزاهته، لا بد أنْ يتمتع بالحياة .

هذا هو التسلسل؛ من الكفر، إلى الشرك، إلى الابتداع، إلى الكبيرة، إلى الصغيرة، إلى التحريش بين المؤمنين، إلى المباحات، فالبطل الذي يستعصي على الشيطان إضلاله .

اعلم هذه الحقيقة يا أخي :

أيها الأخوة، بصراحة: مفهوم الشيطان عندنا غير واضح، ضبابي، وفي الأعم الأغلب قلما يؤمن به إنسان، وقد يكون الشيطان متغلغلاً في كيانه، قد يتكلم الإنسان كلمة .

أنا أشعر أن شيطاناً في داخله يتكلم، يفسد علاقة، وما حقق مكسبًا، إذا أفسد إنسان علاقة بين اثنين، وحقق مكسبًا، فهذه بتلك، أما أن يفسد علاقة من دون تحقيق مكسب، فهو شيطان بكل معنى الكلمة، فإذا ما استعاذ الإنسان بالله من الشيطان، فقد يتغلغل في كيانه، وقد ينطق بلسانه، وقد ينظر بعينيه، شيطان يتكلم بإفساد العلاقة .

أحياناً: تدخل امرأة إلى بيت صغير، تكون الزوجة سعيدة بزوجها، وراضية عن زوجها، هناك حب وودّ، فتقول: هذا البيت وسعكم، طيب أنتِ ما دخلكِ، لا بد أن تكرهها بهذا البيت، ماذا قدم لك زوجك في الولادة؟ والله ما قدم لي شيئًا، والله يليق بك غير هذا الرجل، شيطان يتكلم .

أحياناً: تتكلم المرأة بلسان الشيطان، بإفساد العلاقة بين زوجين، يتكلم الإنسان في السوق بلسان الشيطان، بإفساد الشراكة بين شريكين، أبداً، وأربعة أخماس كلام الناس، ينطق فيها الشيطان بلسان الناس .

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

المعلمات دون أن يشعرن، يتكلمن كلمة مع طالبة، تحطمها تحطيمًا، تخلق عندها عقدة لا تنتهي في سنوات، شيطان، كلمة قاسية، كلمة تحطيم، أنت غبية .

طفلة سمعت أنها غبية، تتوهم أنها غبية فعلاً، فالإنسان ينتبه؛ إذا كان مع الرحمن فكلامه طيب، كلامه يشجع، كلامه يجبر الخاطر، كلامه يقوي المعنويات، فإذا غفل الإنسان عن الله تعالى، فالشيطان موجود.

ما وراء هذه القصاصة :

قدم لي أخ اليوم قصاصة جريدة أعجبتني، لما يتنفس الإنسان، ويزفر من أنفه أو فمه غاز الفحم، يتحسس البعوض بوجود الإنسان من ٦٤ كم، من خلال زفيره .

أستاذ في فلوريدا، أجرى دراسة عميقة جداً، حول ما الذي يجلب البعوض إلى الإنسان؟ زفيره، عنده حساسية البعوض، أن تنتقل هذه الرائحة التي تشعر بوجود الإنسان من ٦٤ كم، يقول: كلما أخر الإنسان نظافته، يصير جاذبًا للبعوض، الذي نظافته قليلة، لا يغتسل كل يوم، يوما بيوم، فالعرق الذي على جسمه، هذا أكبر جاذب للبعوض .

لاحظت هذا المثل: لو طبق على الشيطان، لما يغفل الإنسان عن الله عز وجل، يصير جاذبًا للشيطان، لما يغفل يصير الشيطان جاذبًا له، هناك آية تؤكد هذا المعنى، قال تعالى:

(إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٥]

استزلهم الشيطان: جعلهم تهوي أقدامهم، ببعض ما كسبوا: لما غفل عن الله عز وجل، انجذب إليه الشيطان .

كن حكيم نفسك :

أيها الأخوة، الدعاة لا يملكون إلا أن يبينوا لكم، لا نملك شيئًا آخر إلا أن نبين، يجب أن يكون الإنسان حكيمَ نفسه، إذا كنت في مجلس يحجبك عن الله، فاركل هذا المجلس بقدميك ، إذا كنتَ في نزهة تحجبك عن الله، فاركلها بقدميك، لقاء ليس فيه حق، اركله بقدميك، حافظ على سلامة قلبك، فلذلك: في آخر الزمان، كما قال تعالى:

(فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً)

[سورة الكهف الآية: ١٦]

الكهف الآن: بيتك ومسجدك، في بيتك حر، تغلق الباب وتصلي، تغلق الباب وتقرأ القرآن، تغلق الباب وتربي أولادك، تغلق الباب وتؤنس زوجتك، عبادة، وفي المسجد تطلب العلم وتصلي، الأماكن الأخرى والعياذ بالله، سبب للفتنة والبعد عن الله عز وجل .

ما هو موضع الشاهد في هذه الآية، وما مطلبها؟ :

أيها الأخوة، فنحن في باب استحباب العزلة عند فساد الزمن، قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات الآية: ٥٠]

(ففروا إلى الله)

هناك فرار من خطر، الخطر هو الفتن .

((أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم))

الطرقات فيها فتن، والأماكن العامة فيها فتن، والمقاهي فيها فتن، والمطاعم فيها فتن، والسفر فيه فتن أيضاً .

((أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم))

(ففروا إلى الله)

فر من أماكن الفتن إلى الله عز وجل، ولا أبالغ في القول: بأن التجول في الطرقات بلا سبب في أيام الصيف مساءً، فيه فتنة واضحة، التجول في الطرقات بلا سبب، طريق مزدحم بالكاسيات العاريات، أنت كونك مؤمنًا، يجب أن تسير في طريق موازٍ غير مزدحم، ولو كان عندك تحليل طبي بمكان مزدحم، المشي في هذا الطريق فيه فتنة .

مرة أنا ضربت مثلاً على شكل طرفة: أن رجلاً دخل مقهى مؤمن، جلست أمامه امرأة متفلتة، قال: أعوذ بالله، نظر إلى اليمين واحدة أخرى، قال: أعوذ بالله، نظر إلى اليسار وجد واحدة أخرى، قال: أعوذ بالله، نقول: من أتى بك إلى هنا؟ مجيئك كله غلط، هذا المكان ليس لك .

أحياناً: تجد المرأة محجبة في مطعم متفلت، ما الذي جاء بك إلى هذا المكان؟ هذا المكان ليس لك .
قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ)

[سورة الذاريات الآية: ٥٠]

أنا أخاطب طلاب العلم، لا تقل: إن الأستاذ متشدد، متزمت، معقول!.
أنا أخاطب طلاب العلم، بدأت درسي: إذا كانت الشهوة أغلى عليك من الله، فالطريق إلى الله غير سالك، وأنت محجوب عن الله، إلى درجة أن حبك لله، يحملك على ترك كل شيء، يغضب الله .

ما مضمون هذه الخطبة؟ :

مرة في خطبة ألقيتها تحت عنوان: أخرجوا هذا الوحش من البيت، الخطبة مضمونها: أن إنسان جاءه ضيف، فاستقبله ورحب به، وأجلسه في صدر البيت، وأصغى إليه هو وأولاده، كل يوم ساعات طويلة، وتغاضى عن كل المشاهد القبيحة التي أطلعهم عليها، ضيف بالصدر، والكل جالسون بأدب مساءً، أشياء معقولة، وأشياء غير معقولة، أشياء مقبولة، وأشياء غير مقبولة، وأشياء مخجلة، وأشياء غير مخجلة .
صاحب البيت اكتشف بعد حين: أن هذا الضيف استقطب أولاده كلهم، الأب أصبحت مهمته: أن يأتيهم بالطعام والشراب فقط، صار أولاده يأكلون ويشربون مع هذا الضيف، ثم اكتشف هذا الأب: أن هذا الضيف غيّر قيم البيت كلها .
هناك نقطة خطيرة جداً: لما تطرح سلوكًا حيًّا متحركًا محبَّبًا، أنت تغرس قيمة، إذا أريت فتاة صغيرة، بيتًا عصريًّا، متفلتًا، فيه اختلاط، رقص مثلاً، وأنت بيتك متزمت متحجر، هذه الطفلة تحب البيت الأول.
فلما أسمح لأولادي، أن يشاهدوا هذه المشاهد، الاختلاط، شرب الخمر، العلاقات الغرامية، ولو كانوا شبابًا، هذه كلها قيم تغرس، دون أن أشعر، فجأة يكتشف الأب أن أولاده ليسوا ملكه، ولا يعبؤون به إطلاقاً، ولا بدينه، ولا بالمبادئ التي جاء بها الدين، أولاده نموذج آخر، خسر أولاده .
والله لا أذكر تفاصيل هذا الموضوع الذي ألقيت، أن هذا الوحش استقطب كل أولاده، وجعله خادمًا فقط، يأتيهم بالطعام والشراب، ثم إن هذا الوحش أيضاً، أفسد العلاقة بينه وبين زوجته، أو بين

الزوجة وزوجها، وبين الأب وأولاده، فقال صاحب هذا البيت: إن لم أخرج هذا الوحش من بيتي، لا يستقيم لي الأمر أبداً، هذا الشيء الواقع .

فأنا أتمنى أن يكون هناك انضباط، وشعور بسلامة القلب، أي شيء حجبني عن الله، هذه المشاهدة، هذه المتابعة، فإذا حُجبت عن الله بها، فيجب أن أنتهي عنها .

حديثان لهما معنيان :

عن سعد بن أبي وقاص رَضِي اللَّه عَنْه قال:

((سمعت رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الْخَفِيَّ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

يتقي الله، يتقي أن يعصيه، وغني عن الناس .

ورد في الحديث:

((طوبى لمن وسعته السنة، ولم تستهوه البدعة))

ارتكب رجل حماقة كبيرة، أنه صور نفسه مع أهله بالفيديو، واستأجر فيلماً من محل أفلام تمثيليات، وضع الفيلم الذي صور نفسه مع أهله في غلاف مستأجر، صاحب المحل قال: هذا الفيلم ليس له، شاهده فإذا به فاضح جداً، فصار يؤجره، وصلت إلى أخ صاحب الفيلم نسخة منه، فنبّهه، اضطر أن يبيع بيته بالشام، وينتقل إلى حمص خوف الفضيحة .

((طوبى لمن وسعته السنة، ولم تستهوه البدعة))

ماذا تحتاج الاستقامة؟ وماذا يحتاج المؤمن؟ :

أيها الأخوة الكرام، أَبي سَعِيدٍ قَالَ:

((أتى رجل رسول الله صلى الله علي وسلم، قال: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: مُؤْمِنٌ يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ رَجُلٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

ما الذي يحصل أيها الأخوة؟ الاستقامة لا تحتاج إلى قناعة فقط، تحتاج إلى طاقة، طاقة روحية عالية، المؤمن عنده طاقة روحية مشحونة .

تجد الشخص يغلي، تشعر أن فيه طاقة كبيرة، يبدو أن الإنسان، حينما يحضر مجلس علم، وحينما يأوي إلى بيوت الله يُشحن .

مرة جاءني مصباح، يشحن بالطاقة الكهربائية العادية، فأنا هذا المصباح علمني درسًا بليغًا، لمّا أنسى شحنه، يكون ضوءه ضعيفًا، لما أشحنه كالشمس .

قلت: كذلك المؤمن، يحتاج إلى شحن أسبوعي، كلكم راقبوا أنفسكم، إذا ما شُحنت روحياً، تضعف أمام الشيطان، القوة الروحية تأتي بها، حينما تشحن .

الله جعل خطبة الجمعة شحنًا أسبوعيًا .

((من ترك الجمعة ثلاث مرات من دون عذر، نكتت نكتة سوداء في قلبه، ثم يكون الران، وتلا قوله تعالى:

(كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)

[سورة المطففين الآية: ١٤]

فإذا لم يُشحن الإنسان، وجربوا، أنت حينما تشحن أسبوعياً عندك طاقة، شحنت يوم الجمعة، تجد نفسك أيام السبت، والأحد، والاثنين، قويًا دقيقًا، ضابطًا لأمورك، يوم الثلاثاء تضعف الأمور، عندك حساسية بالغة، خف الشحن، يوم الخميس تجد نفسك مثل الناس، تأتي إلى الخطبة، لتشحن شحنًا جديدًا .

فالنبي قيل له:

((ثم من؟ قال: ثُمَّ رَجُلٌ فِي شِعْبٍ مِنْ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ))

الصلاة تعمل شحنة، والخطبة تعمل شحنة، ولقائك بالمسجد يعمل شحنة .

أنا أقسم لي أخ بالله، والله هو صادق عندي، قال لي: أحياناً أكون مشغولاً، عنده شغل كثير، يأتي إلى صلاة العِشاء قبل خمس دقائق، والدرس ينتهي عند العشاء، قال لي: آتي وأدرك الصلاة فقط، يلتقي مع الأخوة، يشعر براحة، لم يسمع كلمة، ولا حرفًا، دخل بيتًا من بيوت الله، التقى بأخوانه، أخذ شحنة خفيفة غير عالية، شعر براحة .

حديث ذكر سابقاً لكن في موضعه الآن :

أيها الأخوة، فالله عز وجل كأنه يريدنا أن نفعل ذلك، والله هذا الحديث ذكرته سابقاً .

((ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تبارك وتعالى، يتلون كتاب الله عز وجل ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده))

[أخرجه أبو داود في سننه]

حينما تأتي لبيت من بيوت الله، ماذا تفعل؟ تزور الله، وحق على المزور أن يكرم الزائر، طبعاً: ليس هناك أكل، لكن هناك شعور بالأمن والتوفيق، وهناك حفظ إلهي، وتأهيل، ونصر، وطمأنينة، وثمار لا تقدر بثمن .

المؤمن تجده كالملك، أكبر ثمرة معك رؤية صحيحة، أما المنحرف عن منهج الله، فمعه رؤية غلط، عنده عمى بصيرة، يرتكب أكبر حماقة، ويدفع الثمن باهظًا، وقد يدمر نفسه ، لأنه أعمى، أما المؤمن فمتفتح، المجيء إلى المسجد، وسماع دروس العلم، وسماع تفسير كلام الله، تفسير سنة رسول الله، يعطي رؤية صحيحة .

أيها الأخوة، أخطر شيء عملك، عملك أساسه رؤيتك، إن صحت الرؤية صح العمل، وإذا صح العمل، سعدت في الدنيا والآخرة .

ابتعد عن مواطن الفتن :

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

((يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ، غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح، وأبو داود والنسائي في سننهما، ومالك في الموطأ]

لك محلان تجاريان، واحد أمام ثانوية بنات فرضاً، وواحد بسوق آخر، الثاني أفضل، دائماً: ابتعد عن مواطن الفتن، ابتعد عن مواطن الشر، الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها، والفتنة أشد من القتل، كيف؟ مثل بين أيديكم .

من أمثلة الفتن أيضاً :

فتاة بريئة، طيبة، طاهرة، عمرها ثماني سنوات، أو خمس سنوات، أخذها أبوها في الجاهلية، وحفر لها حفرة ودفنها، وهي حية، تقول: يا أبي، تناديه، وهو يهيل عليها التراب.

مرة رجل وأد ابنته، وذكر القصة للنبي، صار النبي يبكي عليه الصلاة والسلام، بنت مثل الملائكة، هذه البنت التي وُئِدت، أين مصيرها بالآخرة؟ في الجنة:

(وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ)

[سورة التكوير الآية: ٨ - ٩]

أما الآن: بنت في الثامنة عشرة من عمرها، كل شيء فيها ظاهر للناس، تمشي في الطريق وكأنها عارية، هذه حينما يأتيها الموت أين مكانها؟ في النار، ما معنى قوله تعالى:

(والفتنة أشد من القتل)

في الجاهلية قتلها تحت التراب، فدخلت الجنة، أما الآن فأطلقها، افتخر بها، هذه ابنتي ، ألا تستحي بهذا المنظر الفاضح؟ هذه ابنتي .

لذلك: تقول البنت يوم القيامة:

((يا رب، لا أدخل النار حتى أدخل أبي قبلي))

هو سبب إفسادي .

اقرأ جيداً :

أيها الأخوة،

((يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ، غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ، وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنْ الْفِتَنِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح، وأبو داود والنسائي في سننهما، ومالك في الموطأ]

قال تعالى:

(فأووا إلى الكهف)

[سورة الكهف الآية: ١٦]

وأووا إلى مسجدكم، وإلى بيتكم، وصاحبوا المؤمنين.

((لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَى الْغَنَمَ، فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَى قَرَارِيطَ لِأَهْلِ مَكَّةَ))

وراعي الغنم في بعدٍ عن ازدحام المدينة، وعن فساد المدينة .

ملخص الدرس:

ملخص الدرس: الجليس الصالح خير من الوحدة، والوحدة خير من الجليس السوء، فيجب أن تختار مجالسك، كما تختار أكثر الأشياء خطورة لك، الصاحب ساحب .

((لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي))

كما قلت في درسين سابقين: اجلس مع أخوانك جلسة، تتذاكرون العلم، وتتفقدون بعضكم، وأعينوا بعضكم بعضاً، واشحنوا بعضكم بعضاً .

الحياة الآن: فيها فتن كثيرة، ونحن في أمس الحاجة إلى التعاون، إلى أن يشحن بعضنا بعضاً شحنة روحية قوية، أن تعين أخاك على طاعة الله، أن تشجعه على طاعة الله، أن تصبره، حينما يدفع الثمن باهظاً، هكذا ينبغي .

خاتمة القول :

أخواننا الكرام، كتاب رياض الصالحين، كتاب مبارك جداً، أولاً: كل أحاديثه صحيحة ، ومبوب تبويبًا رائعًا، وكل باب فيه بعض الآيات، تصدر بها الأحاديث، فإذا كان الإنسان في بيته؛ كتاب أحاديث، كتاب فقه، كتاب سيرة، كتاب تفسير، سمع شريطًا، علّم أهله .

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح، والترمذي في سننه]

أنت يوم الجمعة تذكر نقاط الخطبة، واعملها محور حديثك طول الجمعة، أختك دعتك إلى الغداء، قل لها: يا أختي سمعنا يوم الجمعة كذا، أما هذا حديث الدنيا فلا ينتهي .

((ما جلس قوم في مجلس، لم يذكروا الله فيه، إلا قاموا عن أنتن من جيفة حمار))

تجد جلسة، يقف منها الجالسون، محطمين بلا أمل، ليس فيها خبر سار .

الآن: إذا تحدث الإنسان في أمور عامة، تحدث مشكلة، دول عظيمة تستقطب العالم كله، لئيمة، قوية، تبني مجدها على أنقاض الشعوب، تبني حياتها على إفناء الشعوب، تبني غناها على إفقار الشعوب، تبني أمنها على إخافة الشعوب، هكذا، المطالب كثيرة، والدخول قليلة، والأسعار ترتفع، والمياه قليلة، فإذا كنت تريد أنْ تبحث في أمور المعيشية، فلا تجد خبرًا سارًّا، لذلك: اطلب من الله السلامة:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الأنبياء الآية: ٨٨]

لك معاملة خاصة، إذا كنت مع الله صادقاً، فلك معاملة خاصة، لأن الله عز وجل مستحيل أن يعامل المؤمن كما يعامل الفاسق قال تعالى:

(أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون)

[سورة السجدة الآية: ١٨]

فأنت عليك أن تكون مع الله، مهمتك الأولى أن تعبد الله، قال تعالى:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ)

[سورة الزمر الآية: ٦٦]

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٨٩-١٠١) : باب التحذير من إيذاء الصالحين، والضعفة، والمساكين (قصص وعبر)

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٩-٠٤

بسم الله الرحمن الرحيم

عادة درجت في العباد :

أيها الأخوة، لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، وننتقل اليوم إلى باب: التحذير من إيذاء الصالحين، والضعفة، والمساكين، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

[سورة الأحزاب الآية: ٥٨]

حينما يغفل الإنسان عن الله، ويكون قوياً، وقد قال الله عز وجل:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى)

[سورة العلق الآية: ٦-٧]

أي: أن رأى نفسه مستغنياً عن الله، يعني: أنه قوي، وتجارته رائجة، ومكانته كبيرة، أموال بيديه كالتراب، هو يستغني عن الله، ويغيب عنه، أنه في قبضة الله، وربنا عز وجل قال:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

[سورة القلم الآية: ٤٥]

الكيد: التدبير، فربنا من سياسته مع خَلقه، أنه يرخي لهم الحبل، إلى درجة أن الإنسان الشارد عنه، يتوهم جهلاً وحمقاً أنه قوي، ويفعل ما يشاء، ونسي أنه في قبضة الله، فالذي يؤذي المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، والذي يحصل أن الله عز وجل له ترتيب .

ففي عصور يقوّي المؤمنين، وفي عصور يضعفهم، ويقوّي الكافرين، فإذا كنا في عصرٍ الكفارُ فيه أقوى، والمؤمنون ضعاف، تجد اللئيم يتطاول على المؤمنين لضعفهم، ويتهيّب المنحرفين لقوتهم، اللئيم مع الأقوى، لا يرحم ضعف الإنسان، يقف باحترام بالغ أمام رجل شرير، ويحتقر ويتطاول على إنسان مؤمن، وقد يسبِّب له متاعب، هو بريء منها، وفي غنى عنها، فالله عز وجل يتوعد هؤلاء، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

[سورة الأحزاب الآية: ٥٨]

أي: مِن عادة الإنسان، إذا كان الشخص ضعيفاً، يزداد عليه قوة .

ما تفسير هذه القصة؟ :

حدثني أخ، أحسبه الآن: صالحاً، قال لي: أنا في بلاد، عملي تجاري، ورثت العمل عن والدي، والده كان من كبار تجار الشام، وكان صالحاً .

أنا مرة زرته في العيد، قال لي: أنا عمري تسع وستون سنة، أجريت تحليلات كاملة ، كلها طبيعية، قال: والله ما أكلت قرشًا حرامًا في حياتي، ابنه ليس على شاكلة أبيه، قال لي : أخذت سيارة، وذهبت إلى البادية لأشتري الصوف، رَاق لي أن أبخس الناس أشياءهم، فأتى بميزان، ووزن الصوف، فكان الوزن ثمانية وثلاثين كيلواً، فيقول له: وزنه ثلاثون وثمانمئة غرام، فهذا البدوي لم يسمع في حياته بالغرامات، قال له: والله هذا الميزان زَين، جيد، وهو أكل عليه ثمانية كيلوغرامات، ولكن يعطيه الرقم بين الثلاثين، وبعض الغرامات، حتى يوهمه أن الميزان دقيق جداً، فلما انتهى الوزن، عنده إحساس عام، أن هذا الكوم ثمنه فرضاً ثلاثون ألفا، فأعطاه عشرين، قال له هذا البدوي: إن شاء الله تجدها في صحتك إن لعبتَ علي .

يقول لي هذا الشخص: بعد أن قال لي هذه الكلمة خفت، هل أرجع لأعطيه الفرق فأُفضح؟ لا يعطيه، ودعاؤه ليس بينه وبين الله حجاب، قال لي: الشيء الغريب، أني مِن مكان شرائي الصوف، أنا في صراع مع نفسي شديد، أرجع، لا أرجع، أعترف له بخطئي، لا أعترف له، أعطيه المبلغ على نحوٍ لا يشعر، قال لي: في مكان ما، قرب قرية الضمير، قلت هذه الكلمة: ضعْ بالخرج، ماذا حدث؟ أقسم بالله ما إن أتمّ هذا الخاطرَ، حتى رأى نفسه وسط بركة من الدماء، انقلبت السيارة، وتناثر الصوف، ومعه سمن بلدي سال كله، هو جرح جراحاً بليغة، وجاء من أنقذه إلى المستشفى .

هذه القصة تفسيرها، قال تعالى:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

[سورة الزخرف الآية: ٧٩]

أي: نتركك حتى تضع في الخرج، نحن نريك، وما دام في صراع، فإن الله يعطيه مهلة، أرجع، لا أرجع، أعطي، لا أعطي، ما دام في صراع، فمعه مهلة، فلما قال: ضع في الخرج، قيل له: قف، قال تعالى:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

[سورة الزخرف الآية: ٧٩]

أيها الأخوة، مليون قصة على هذه الشاكلة، بعدما أخذ الإنسان قراراً، ماذا حدث؟ الله عز وجل كبير .

قصة من ورائها مقصد :

سمعتُ عن جريمة في حلب، ربما لا تصدق، سحب أحدهم امرأةً على الشرفة، ووضع رقبتها على طرف الشرفة، وجاء بسكين، وذبحها أمام كل الناس، ونزل وسلّم نفسه إلى المخفر، دخلت أخته الصغيرة إلى جارتها، شربت فنجان قهوة، فيها مخدّر، وأتت بشباب مارسوا معها الجنس، وصوّرتها وهي عارية، وكل جمعة تريها الصور، إما أن تأتي يوم السبت، أو نري الصور لأهلكِ، خافت البنت، ثم قصت الأمر على أمها، والأم قصّت الأمر على أخيها، فما تحمل، أتى بالجارة، ووضع رأسها على الشرفة، وذبحها كما يُذبح الخروف، ثم سلّم نفسه، يمكن أنه حُكِم عليه شهرين، والله أعلم، الله كبير .

أيها الأخوة، أتوسل إليكم، خافوا من الله، فإن الله كبير، أنت في قبضته، فجأة شلل، فجأة ورم خبيث، فجأة إفلاس، فجأة حريق في المحل، إياك أن تأكل حراماً، إياك أن تظلم إنساناً، قال تعالى:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

[سورة الزخرف الآية: ٧٩]

هذا هو الأحمق :

أيها الأخوة، ثمة رجل، كان جالساً في بيته، وله أخت عمرها خمسون سنة، تهينها زوجته كل يوم، ويضيف إلى إهانة زوجته، أنه هو يهينها، سمعتُ أنها يضربها برجله، ويقول : ائت بكأس ماء، وامرأته الصغيرة جالسة، وابنته جالسة، فقامت وأتت بكأس الماء خوفاً منه ، ركب يوماً إلى حلب، في سفر، وقع في حادث، قُطعت رجله التي ركل بها أخته من أعلى الفخذ، ثاني يوم .

أنا ما وجدت إنساناً أحمق مِن الذي لا يخاف الله .

زارني اليوم عصراً، شخص ضرير من الحسكة، زوجته معها فشل كلوي، طرق أبواب الناس جميعاً، فلم يلبِّه أحدٌ، هناك انكماش، ثم ذهب على رجل غني، قال له: أنا لا يمكن أن أعمل شيئاً لله، أنا لا أصلي، والرجل الضرير، يحتاج خمسة وعشرين ألفاً، فقال الرجل الغني: هذا المبلغ، فائدته خمسة وعشرون ألفاً، أخذها، زوجته تكاد تموت .

إنسان عمره ستون سنة، يصرّح بلا خجل، بلا حياء، قال له: أنا لا يمكن أن أعمل شيئاً لله، أنا أعطيك خمسة وسبعين، وقع له سندات، أخذها مئة ألف، قال لي: كنت مضطراً، ماذا أفعل؟ زوجته تكاد تموت.

فهذا الرجل لم يدخل الله في حساباته، أحمق، الله كبير، إنسان يؤذي مؤمناً، يلصق تهمة بمؤمن، وهو بريء منها، بغير ما اكتسبوا، لم يعمل شيئاً .

أيها الأخوة، هناك جرائم كثيرة، يبحث عن أضعف رجل ليلبسه التهمة، فلذلك: من لا يخاف اللهَ أحمقُ، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

[سورة الأحزاب الآية: ٥٨]

قصتان فيهما عبر :

أيها الأخوة، أحدهم احتاج إلى ثلاثمئة ألف، يبدو أنه يعرف رجلاً غنياً، قال له: تقرضني مبلغ كذا، أكتب لك المزرعة باسمك، ولما يكون المال معي، ترجع لي المزرعة، المزرعة فيها مسبح وفيلة، هذا أعطاه الثلاثمئة، فكتب المزرعة باسمه، بعد سنتين، صار المبلغ جاهزاً، وقال له: خذ المبلغ، فقال الثاني: كلٌّ منا أخذ حقه، مزرعة ثمنها مليونان، قال له: كلٌّ منا أخذ حقه، لا أريد شيئاً .

صاحب المزرعة من شدة الألم، اشتد به الألم، حتى قضى عليه، أصابته جلطة، فمات على فراش الموت، طلب من ابنه، أن يسير جنازته مثلاً: البيت في المهاجرين، والمقبرة في الجبل، وخصمه هذا في باب توما فرضاً، قال له: امش بالجنازة من المهاجرين إلى باب توما، تمر أمام المحل، وتوقف الجنازة، وتدخل وتسلم له كتاباً، كتب له كتابا فيه: أنا ذاهب إلى دار الحق، فإن كنت بطلا فلا تلحقني، يبدو أنه خاف، فأعادها إلى الورثة، قال له: أنا ذاهب إلى دار الحق، وهناك سآخذ حقي منك، فإن كنت بطلاً فلا تلحقني .

قيل: إن ثمة قاضيَ بلدٍ، كان شرّيراً، قاطعَ طريق، مجرماً، فصار قاضياً، وكان مخيفاً جباراً، ومن تقاليد هذه البلدة: أنه إذا مات فيها ميت، مشى في جنازته .

فمرة مات ميت، مشى في جنازته، وهمْ في الطريق، أعطى أمراً: أن ضعوا النعش على الأرض، ارفعوا غطاء النعش، فرفعوه، جاء فكلّم الميت، ومن كثرة جبروته وخوف الناس منه، لم يتجرأ أحد على أن يقول له: ماذا قلت له؟ بعد أيام، وكان جالسا مرتاحاً، قال له أحدهم: يا سيدي ماذا قلت له؟ قال: قلت له: إذا سألوك عن أحوال أهل الدنيا، فقل: فلان صار قاضياً، يفهمون كل شيء، وهو قد كان قاطع طريق، يفهمون كل شيء، وهذه تكفي، إذا صار فلان قاضياً، فهذه تكفي.

من علامات آخر الزمان :

والنبي الكريم في حديث عن آخر الزمان ذكر هذا، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتُ، يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ))

((كيف بكم، إذا أصبح المعروف منكراً، والمنكر معروفاً؟ كيف بكم، إذا أمرتم بالمنكر، ونـهيتم عن المعروف؟))

الآن: كم من زوج لا يرضى لزوجته أن تخرج إلا سافرة، بأبهى زينة، وهي زوجته، لا يتركها إلا بهذه الحال، هذا الزمان فيه نصب، احتيال، سرقات .

احذر من انتقام الله :

يقول الله تعالى:

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً)

[سورة الأحزاب الآية: ٥٨]

وفي الحديث الصحيح: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((قال الله تعالى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِحَرْبِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

يقول لك: سأحاربك .

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

أيْ: إنساناً، طيباً، مستقيماً، ضعيفاً، من بيته إلى دكانه، تلبسه تهمة، تلبسه مشكلة، لا علاقة له بها، الله انتقامه شديد .

امرأة حمقاء :

أحد أخواننا، اشترى مع أخته المحامية بيتاً، منذ ثماني عشرة سنة، ودفع أخوها نصف القيمة بالتمام والكمال، وابن هذا الأخ أحد أخواننا، بعد ما مضت ثماني عشرة سنة، البيت كان ثمنه مئتان وخمسون ألفاً، والآن: صار ثمنه ثمانية عشر مليوناً، قالت له: أعطيكم مليوناً وتخرج، قال لها: دفعت نصف القيمة، لأنك أختي، ما طالبتكِ بتسجيل اسمي معك، والبيت في جمعية سكنية، وهي محامية، والبيت باسمها، والأخ دفع نصف ثمنه .

النتيجة: والقصة طويلة، ذكرها لي تلميذي، بعد سنتين، هذه العمة أخرجت أخوها من البيت، وله أربعة عشر ولداً، نصف الأولاد عند بيت الجد، والنصف الثاني عند بيت الجدة، والأغراض وضعها في مستودع استأجره، والأسرة تشردت، أخت شقيقة من أم وأب واحد، وأنا على اطلاع على القصة يوماً بيوم، لأن ابنه يذكر ما فعلت عمته معهم، ولكن بحسب معرفتي البسيطة بالله، قلت أمامه: ينتظرها أمر قاصم، والله مضى شهر، والولد اسمه أيمن، قال لي: يا أستاذ، عمتي معها سرطان في الأمعاء .

أنا لي صديق، حدث معه هذا المرض، مات بعد سنتين، وبعد شهر، قال لي: عمتي ماتت، هل يمكن أن تلقي كلمة مستعجلة؟ ذهبت إلى البيت بنفسي، وألقيت كلمة، مَن وريثها الوحيد؟ أخوها، رجع أخوها إلى البيت، وورثها، ولعنها الله، ولعنتها الملائكة، والناس أجمعون ، حمقاء، نسيت أن الله سيحاسب، فكلما ازدادت معرفتك بالله يزداد خوفك منه .

هل تصدق؟ :

أيها الأخوة، هل تصدّقون: هرة!

((دخلت امرأةٌ النارَ في هرة حبستها؟))

فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَتْ النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وسَقَتْهَا، إِذْ هي حَبَسَتْهَا، وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح]

فما قولك بما فوق الهرة؟ .

((مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا، فَقَدْ آذَنْتُهُ بِحَرْبٍ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

هنيئاً لمن كان في كنف الله :

عَنْ أنس بن سيرين، قال:

((سمعت جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يقول: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ، فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَلَا يَطْلُبَنَّكُمْ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فإنه من يَطْلُبْهُ من ذِمَّته بشيء يُدْرِكْه، ثم يَكُبَّه على وجهه في نار جهنم))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

واللهِ هذا شيء كبير، خالق الكون يحميك، مَن يقترب منك؟ .

((إذا كان الله معك فمن عليك؟))

إذا خالق الكون، أنت في رعايته، وحمايته، وحفظه .

((مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ، فَهُوَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ، فَلَا يَطْلُبَنَّكُمْ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ، فإنه من يَطْلُبْهُ من ذِمَّته بشيء يُدْرِكْه، ثم يَكُبَّه على وجهه في نار جهنم))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

أن تعتدي على إنسان مصلٍّ صائم، يغض بصره، دخله حلال، من بيته إلى دكانه، تعتدي عليه، تبتز ماله، الله كبير .

محور هذه القصة :

ثمة قصص حول هذه المعاني، واللهِ لا تعد ولا تحصى، وكلها واقع، منها:
أن رجلاً كان يركب سيارته باتجاه المطار، وبجانبه أخ، القصة حدثت معه، قال لي: انحرف فجأة إلى اليمين، وقطع يدي كلب صغير، جالس على الطرف، والجو ممطر، والبرد شديد، الزفت لونه يمتصّ الحرارة أكثر من التراب، الكلب يحجز عشرين سنتيمتراً، السائق ماهر جداً، استطاع ألاّ يدهسه كله، قطع يديه فقط، قال لي: أنا رأيت المركبة انحرفت فجأةً ورجعت، ماذا حدث؟ .
أطلق ضحكة هيسترية، قال له: قطعت يديه فقط، قال لي: هذه القصة يوم السبت، السبت الثاني في المكان نفسه، ثُقِبت عجلة سيارته، نزل، وأتى بالرافعة الصغيرة، ورفع السيارة، وفك البراغي، سحب العجلة من البراغي، فوقعت الرافعة، ووقعت السيارة على العجلة، والعجلة فوق يديه، أخذوه على المستشفى، تورمت يداه، فقُطعتا، أقسم لي بالله، وهو حي يُرزق، إن هذه الحادثة شهدها بعينه، من السبت إلى السبت، قال تعالى:

(أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ)

[سورة الزخرف الآية: ٧٩]

أخواننا الكرام، كلما ازداد عقلك ازداد خوفك من الله، المؤمن متأدّب جداً، يخشى أن يسخر من إنسان، يخشى أن يشمت بإنسان، يخشى أن يأكل مال إنسان، يخشى أن يسيء لإنسان .

((اثنان لا تقربهما: الإشراك بالله، والإضرار بالناس))

لا تبخل عن هذا الخير :

أيها الأخوة، هذا الباب، باب: التحذير من إيذاء الصالحين، والضعفة، والمساكين، بالمقابل: يجب أن تكرِّم الصالحين .
كان ثمة رجل، هو من علماء دمشق، له مظهر ديني صارخ، كان مدرساً في مدرسة ابن خلدون، وكنت أنا مدرساً في الهاشمية، أجد يقف كل يوم ينتظر سيارة، أنا معي سيارة، أركبه إلى جانبي، أوصله إلى باب المدرسة تكريماً له، كلما رأيته أوصلته، وأشعر براحة، هذا من أهل العلم، وزيه إسلامي، لا بد أن يأتي بالسيارة إلى المدرسة.
فأنت كذلك كرّم المؤمنين ما استطعت، احترمهم، إذا صعد الحافلة رجل وقور، وليس هناك مكان في الحافلة، هو واقف، والشباب جالسون، ليس هناك أدب .
عَنْ أَنَس بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

((قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخًا لِسِنِّهِ، إِلَّا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ، مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّهِ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

وفي حديث: عن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، أن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

((إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ: إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ))

[أخرجه أبو داود في سننه]

ألا تشعر برغبة: أن تُركِب شيخاً وقوراً، توصله إلى بيته؟ .

مرة كنت راجعاً إلى البيت في أيام الشتاء، والحرارة ربما كانت خمس درجات تحت الصفر، في يوم قارس، وجدت رجلاً، وزوجته معه، ومعهما طفل صغير، ملفوف بثياب، وهم خائفون عليه، واللهِ أوصلتُهم إلى آخر مكان في الشام، شعرت براحة كبيرة جداً .

زوج وزوجته، معهما ابن في برد لا يُحتمل، وهما خائفان على ابنهما، أوصلهما، ولا مانع، إذا كانت لك سيارة، فمعك زكاتها، ومعك زكاة وقتك، عندك خبرة، فزكاة خبرتك، أو لك جاه، فزكاة جاهك، فإن أردت أن تَسعد فأَسعد الآخرين .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٩٠-١٠١) : باب كرامات الأولياء - ماذا عن قانون السببية والحكمة منه؟ وكيف يتعامل المسلم مع هذه الأسباب؟ وما الفرق بين المعجزة والكرامة؟ وكيف ينبغي أن يتعامل المسلم المستقيم مع الكرامة؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٩-٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

ما الحكمة الربانية من خضوع الكون لقانون السببية:

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا في كتاب رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، ولا زلنا في أبوابه التي جمعت بين الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة ، والباب اليوم: باب كرامات الأولياء .

هذا الموضوع كثر الجدال حوله، فمن منكر لكل كرامة، ومن مبالغ للكرامات إلى درجة غير معقولة، والحق كما تعلمون وسط بين طرفين، ولا بد لهذا الموضوع من مقدمة في العقيدة .

يا أيها الأخوة، شاءت حكمة الله: أن يجعل أحد أكبر النواميس في خلقه، أن لكل شيء سبباً، قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً)

[سورة الكهف الآية: ٨٣-٨٥]

شاءت حكمة الله البالغة: أن يجعل لكل شيء سبباً، وشاءت حكمته أيضاً: أن يركب في عقولنا جهازاً، هو العقل، وإن شئت سمه الفكر، لا يقبل شيئاً إلا بالسبب، فالعقل أو الفكر أحد أكبر مبادئه السببية، والكون منظم، ومبرمج على السببية، من أجل ماذا؟ من أجل أن تعرف الله .

تقول: هذه التفاحة من أين؟ من الشجرة، والشجرة من البذرة، والبذرة من الشجرة، يقودك التفكير إلى المسبب الأول، طريقة لطيفة هادئة مترفقة كي تعرف الله عز وجل، ولكن مع تكرار تلازم السبب مع النتيجة، تنشأ مشكلة وهي:

أن الإنسان لضعف إيمانه، يتوهم أن هذا السبب خلق النتيجة، فلذلك من حكمة الله عز وجل: أنه من حين إلى آخر، إن أراد أن يلفتنا إليه، وأن ينبهنا إلى وجوده، وأن يعلمنا أن الأمر كله بيده، قد يكون السبب، ولا تأتي النتيجة .

فقد تجد شابين في مقتبل حياتهما بتمام صحتهما، ومع ذلك لا ينجبان، هذه حالة، قد يكون السبب ولا نتيجة، وقد تأتي النتيجة بلا سبب؛ سيدنا عيسى بلا أب، بلا سبب، من أجل ماذا؟ من أجل أن تنفي، توهم أن السبب خالق النتيجة .

كيف ينظر المجتمع المؤمن والمجتمع الغربي إلى الأسباب ؟ :

أيها الأخوة، يكاد العالم ينقسم قسمين: مؤمن، وغير مؤمن، فالعالم غير مؤمن يؤلّه السبب، وينسى الله، أو يستغني به عن الله، وهذا حال الغربيين، والعالم المؤمن الكامل يأخذ بالأسباب، وكأنها كل شيء، ويتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، هذا أكمل شيء .

أيها الأخوة، بل إن الإنسان إذا مشى على طريق؛ على يمينه وادٍ سحيق، وعلى يساره واد سحيق، فإذا أخذ بالأسباب، واعتمد عليها وقع في الشرك، وإن لم يأخذ بها وقع في المعصية، وإن أخذ بها وكأنها كل شيء، وتوكل على الله، وكأنها ليست بشيء، كان كامل الإيمان، وهذا فعل النبي العدنان، أخذ بالأسباب وكأنها كل شيء، وتوكل على الله وكأنها ليست بشيء .

نقطة هامة :

أيها الأخوة، وهذا الدرس نحتاجه دائماً، أردت أن تسافر، أجريت مراجعة لسيارتك مراجعة كاملة، المؤمن يفحص المحرك، يفحص المكابح، يفحص الزيت، يفحص كل شيء، ويغلق كل الاحتمالات، ثم يقول: يا رب توكلت عليك، أنت الحافظ، أنت الموفق، أنت المقتدر ، أنت الحافظ يا رب، الكافر يجري مراجعة، يقول لك: لا يحدث معي شيء، والمؤمن المقصر يقول لك: سمِّ الله، وامش، ولا تخف .

فالذي اعتمد على الأسباب أشرك، والذي لم يأخذ بها، عصى بكل شيء، في مركبتك ، في تجارتك، في معالجة أولادك، في اختيار زوجتك، في اختيار حرفتك .

((المؤمن كيس فطن حذر))

المؤمن يأخذ بالأسباب، وكأنه إنسان لا يعرف الله، ويتوكل على الله، وكأنه لم يأخذ بالأسباب، هذا الحال الدقيق .

ما سبق ذكره :

أيها الأخوة، خلق الله عز وجل الكون على نظام السببية، وأودع في الإنسان عقلاً، أو سمِّه فكراً، هذا خلاف لفظي فقط، وجعل أحد مبادئ هذا الفكر: مبدأ السببية، يعني الفكر البشري لا يفهم شيئاً

بلا سبب، مستحيل، ولئلا يتوهم الإنسان أن السبب خالق النتيجة، يلغي ربنا من حين لآخر الأسباب أو يعطّلها، ألغاها فكانت النتائج بلا أسباب، وعطلها فكانت الأسباب ولا نتائج، هذه مقدمة .

بل إن عظمة الله عز وجل، أنه إذا أراد أن يتدخل مباشرة مع إنسان وفق سبب، إن أراد أن يكرم إنسانًا وفق سبب، وإن أراد أن يهلك إنسانًا وفق سبب، ليس هناك هلاك بلا سبب. يرتكب الإنسان حماقة كبيرة جداً تودي بحياته .

((إذا أراد ربك إنفاذ أمر، أخذ من كل ذي لبٍّ لبَّه))

فربنا خالق الأسباب، والملهم، ومن حين لآخر، يلغيها أو يعطلها، لئلا يتوهم المتوهمون، أن السبب خالق النتيجة، الكلام واضح .

دور المعجزة :

يأتي إنسان يقول: أنا رسول الله، معه منهج دقيق، افعل ولا تفعل، فالناس الذين ألفوا الشهوات، والتفلت، والانسياق وراء الرغبات، والميول والأهواء، هذا المنهج لا يعجبهم، كيف يتخلصون من هذا الإحراج؟ يدعون أن هذا الإنسان كاذب، ليس رسول الله، كيف يشهد الله للناس أن هذا الإنسان رسول الله؟ يجري على يديه خرقاً لنواميس الكون، لا يستطيعها إلا خالق الكون، ليس في الأرض إنسان، بإمكانه أن يحول البحر إلى طريق يابس، إلا الله، قال تعالى:

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ)

[سورة الشعراء الآية: ٦١-٦٢]

ضرب البحر، فإذا هو طريق يابس، أن يتحول البحر إلى جبل، أو إلى طريق بين جبلين، هذا لا يمكن أن يفعله إلا الله، فهذا الذي تم على يده، إذاً: هو رسول الله، إذاً: شهادة الله للناس، أن هذا الإنسان رسوله، هي المعجزات، سيدنا إبراهيم ألقوه في النار فلم يحترق، قال تعالى:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

[سورة الأنبياء الآية: ٦٩]

سيدنا عيسى أحيا الميت، فحينما تخرق الأسباب، أو حينما تخرق نواميس الكون، من أجل أن يشهد الله لهذا الإنسان، أنه رسول الله، هذه يسميها علماء التوحيد: معجزة .

المعجزة: أي أن البشر مهما اجتمعوا، يعجزون عن تحقيقها منفردين ومجتمعين .

الأنبياء جاؤوا بالمعجزات، النبي عليه الصلاة والسلام انتقل من البيت الحرام إلى بيت المقدس في وقت قصير، وعاد إلى فراشه، ولا يزال دافئاً، ثم عرج به إلى السماء، حتى بلغ سدرة المنتهى، هذه معجزة، لذلك قال الله:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ)

[سورة الإسراء الآية: ١]

سبحان: يعني: يا أيها الإنسان، لا تعجب هذا على غير النظام العام .

دور الكرامة :

أيها الأخوة، ولكن المؤمن حينما يخطب ود الله، يتعرف إليه، ويحبه، ويقدم له كل شيء، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الأنعام الآية: ١٦٢]

حينما يحب الله، وحينما يحب عباده، وحينما يتقرب إليه ببذل سخي، وعطاء جلي، كيف يعلم الله هذا المؤمن أن الله يحبه؟ لا يوجد وحي، الوحي للأنبياء فقط .

((يا محمد -حين نزول وحي- قل لأبي بكر: إن الله راضٍ عنه، فهل هو راضٍ عن الله؟))

الله عز وجل، عن طريق الوحي، أخبر النبي أنه راضٍ عن أبي بكر، عن طريق الوحي، أخبر الله نبيه، أن هؤلاء العشرة من أهل الجنة، العشرة المبشرون بالجنة، بعد انقطاع الوحي، كيف يعلم الله المؤمن الصادق المخلص، إلى أنه يحبه؟.

هنا يأتي موضوع الكرامات، الكرامات خرق العادات، لأن النبي معصوم، سمح له أن يتحدى الناس بهذه المعجزة، أما الوليّ فغير معصوم، غير مسموح له، أن يعلن هذه الكرامة .

فقال بعض العارفين:

((الولي الصادق يستحي بكرامته، كما تستحي المرأة بدم حيضها))

ثمة قواعد عامة، فإذا طرح الكرامات في كل الدروس، يصبح الدين خرافات، يجب أن تعلم الدين كمنهج، يجب أن تعلمه قوانين، يجب أن تعلمه كأساليب علمية، أما الكرامات فهذه بينك وبين الله، يعني: أن الله عز وجل يعلمك أنه يحبك .

مثال للتوضيح بمفهوم الكرامة :

أيها الأخوة، من عادتي: أنني أحجم عن ذكر الكرامات في الدروس، لأنها عند بعض ضعاف المؤمنين، تخلق بلبلة، البلابل جمع بلبلة، فطرح الكرامات يخلق في المستمعين بلبلة .

سأوضح هذا بمثل بسيط: لو أن شاباً بالشهادة الثانوية، وله أب عطوف كريم، أصيب بمرض عضال في أثناء العام الدراسي، فهذا الابن الشاب، من شدة محبته لأبيه، ووفائه له، وبره به، ترك

هذه الدراسة، واعتنى بأبيه، من مستشفى إلى مستشفى، من طبيب إلى طبيب، من دواء إلى دواء، يسهر إلى جنبه، وقد مضى على هذه العناية المشددة أربعة أشهر، بقي للفحص شهر واحد، عافى الله أباه، فعكف على الكتب، ٨٠٠ صفحة، قرأ من هذا الكتاب أوله ، قرأ من هذا آخره، يقرأ بشكل عشوائي .

أليس الله قادرًا، أن يلهم هذا الطالب، أن يقرأ في المكان الذي يأتي منه السؤال؟ قادر ، قرأ من أماكن متعددة، فإذا بالأسئلة تأتي من هذه الأماكن بإلهام من الله، الله يعرف الأسئلة؟ طبعاً يعرفها، يلهم هذا الطالب أن يقرأ من أول الكتاب، من آخر الكتاب، فنجح بتفوق، كأن الله عز وجل، أشعر هذا الطالب، أنني أقدّر برَّك بأبيك، وأنني وفقتك .

هذه القصة بربكم، يمكن أن تروى للطلاب، لم يقرأ أحد شيئًا، يقول لك: غداً بآخر الامتحان، يستلهم الله بفتح الكتاب لا على التعيين، تأتي الأسئلة، لا أحد نجح، لأنهم كلهم كذابون.

هذه خص بها إنسانًا؛ إخلاصه شديد، ومحبته شديدة، ووفائه شديد، فالله خصه بكرامة، هذه الكرامة ليست للنشر، وليست للمتاجرة .

ماذا تستنتج من هذه القصص؟ :

أقسم لي أخ ابن بار بأبيه، والأب توفي، وبيده حرفة نادرة جداً، الشام كلها فيها مكتبان أو ثلاثة، لها إجراءات معقدة بالغة في التعقيد، توفي الأب، والابن بالصف العاشر، ولا دخل للأسرة إلا هذا العمل، والأسرار كلها مع الأب، جاءت معاملة معقدة جداً، فهذا الابن بالصف العاشر، لا يستطيع أن يسأل المكاتب المنافسة، فيسقط من أعينهم، ولا أن يسأل الجهات المسؤولة، لا تعطيه معلومات، قال لي: والله رأيت والدي في المنام، فذكر لي مراحل إنجاز هذه المعاملة بالتفاصيل المذهلة، من شدة اهتمامي حفظتها، ثاني يوم سجلتها رأساً، وسرت بالمعاملة، فنجحت، هذه كرامة .

أقسم لي أخ كريم ثان، قال لي: والله في المنام بناء في حي، الطابق الثالث، الشقة اليمنى، أن اطرقْ هذا الباب، واطلب ابنتهم، هذا في المنام، والذي فعله حصل، وكانت زوجته في هذا العنوان بالذات، هذا ممكن .

سمعت عن رجل بطرابلس، رجل صالح جداً، يسكن بيتًا مستأجرًا، مالك البيت تمكن أن يخرجه من البيت، وصار في الطريق، فالله عز وجل أرى أحد أكبر أغنياء طرابلس رسول الله، قال له: اذهب واشتر لفلان بيتاً، هذا الغني قال له: اخترْ أفخر بيت لأشتريه لك، النبي أمره .

هناك آلاف القصص، لكن المشكلة أنا رويتها، وتورطت، ينبغي ألا تروى، هذه الكرامات بينك وبين الله، مسموح للأنبياء أن يتحدوا بمعجزاتهم، لأنهم معصومون، وغير مسموح للمؤمنين، أن يتحدثوا عن كراماتهم، لأنهم غير معصومين، فإذا تحدثوا عن كراماتهم ، واكتشف أحد من الناس خطأ من أخطائهم كذبهم .

لا تتجاوز هذا المكان :

هنا سأقف قليلاً، أقول لك: أيها الأخ الكريم، مستحيل وألف ألف مستحيل، أن تخطب ود الله عز وجل، وألاّ ترى معاملة استثنائية، الظروف صعبة جداً، توفق وحدك، شخص مخيف، كتلة شر، يمتلئ قلبه عطفاً عليك، لا تعرف السبب، قضية معقدة جداً، تنجو منها بأعجوبة، مرض عضال لا ينجو منه أحد، تشفى ببساطة، هذه كرامة شفاء من مرض عضال ، والقصص لا تعد ولا تحصى .
هناك أمراض بينها وبين الموت دقائق، الله عز وجل تفضل وشفى صاحبها شفاءً تاماً ، فقر مدقع، يفتح الله عليك باب الخيرات، متعفف أشد أنواع التعفف، تأتيك زوجة طاهرة، والحديث طويل .
أنا أطمئن أخواننا، مستحيل وألف ألف مستحيل، أن تخطب ود الله عز وجل، بإخلاص شديد، وألا ترى من الله معاملة استثنائية، ليست خاضعة لقوانين البشر .

هذه كرامة :

أيها الأخوة، بالمناسبة: من حركة الحياة تنشأ قوانين، لكن لما يضحي الإنسان بمصالحه، من أجل أن يرضي الله عز وجل، عندئذٍ يخضعه الله لقوانين ليست معروفة عند الناس، أنا أسميها قوانين العناية الإلهية المباشرة .
رجل بذل لمسجد مليون ليرة، هو مصدِّر كبير، وكل سنة يصدر، إحدى هذه السنوات ، قال لي: البضاعة مكدسة في المستودعات، وجاء طلب يغطي كل هذه البضاعة، قال لي: شعرت بانقباض لا يوصف، ما صدّر، في هذه السنة فرضت ضرائب على المصدرين، بما يساوي ١٥٠٠ مليون، الله نجاه من هذه الضريبة بضيق الصدر، ما صدّر، ودفع مليون ليرة لمسجد، نجاه الله من هذه الضريبة، هذه كرامة .

يجب أن تعلم :

أيها الأخوة، يجب أن تعلموا: أن أعظم كرامة على الإطلاق، وهذه الكرامة لا تحتاج إلى خرق نواميس الكون، إنها كرامة العلم، أعظم كرامة، فإذا الله تفضل عليك وعلمك .
دخلت على أحد الدعاة في الشام، له غرفة جميلة، كلها كتب، في صدر الغرفة آية بخط رائع، من كبار الخطاطين، والله قرأتها اقشعر جلدي، قال تعالى:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء الآية: ١١٣]

هذا أعظم عطاء أعطاه للنبي عليه الصلاة والسلام:

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)

[سورة النساء الآية: ١١٣]

احفظ هذه الكلمة :

أيها الأخوة، حينما يخلص الإنسان لله عز وجل، وحينما يستقيم على أمر الله، وَاللَّهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ، يرى معاملة، العقل لا يصدقها، في أحلك الظروف، في أشد الأزمات، في أصعب المحن، لك معاملة خاصة، احفظ هذه الكلمة .

إذا كنت على ما يريد الله عز وجل ورسوله، لك معاملة خاصة، لك معاملة خاصة صارخة، لكن يرجى ألا تتاجر بها بين الناس، أنت لستَ معصومًا .

أنا حدثت معي مشكلة، وجد الناس فيك خطأ، فقاموا وربطوا الخطأ بهذه الرواية، هي ليست سحبة، لكن لما وجدوا خطأ منك، فسروها سحبة، أدخلت الناس بمتاهة، وأحرجتهم، وأربكتهم .

ما وراء هذه القصص :

أنا مرة كنت بلقاء مع أحد العلماء في مصر، واللقاء مسجل، وانقلب إلى موضوع، إلى مقالة، فبعد ما انتهينا، وأنهينا المسجلة، وقفت لأمشي، قام وذكر لي عن عالم بالشام توفي، يرحمه الله، له كرامات، ذكر بعض الكرامات، يصعب على العقل صدقها، قلت له: ممكن أن تسمح لي، ما صدقتها، قال لي: لك حق، أنا لا أتعامل مع الكرامات، ولا مع المنامات، أنا أتعامل مع المناهج والنصوص .

قال: مرة رجل، رأى النبي عليه الصلاة والسلام في المنام، قال له: اذهب إلى المكان الفلاني، واحفر، ففيه كنز، فخذه، هكذا قرأت في كتاب العز بن عبد السلام، هذا الإنسان ذهب إلى المكان الفلاني، وحفر، فوجد الكنز، النبي قال له بالمنام: خذه، ولا تدفع زكاته، جاء واستشار العز بن عبد السلام، قال له: خذه، وادفع زكاته، لأن فتوى النبي حينما كان حياً أصدق من فتواه بعد أن مات، الأولى صدقت معك، لكن الثانية لم تصدق .

لو رأى واحد رسول الله عليه الصلاة والسلام، وقال له كلامًا خلاف السنة، يرفض المنام، وتثبت السنة، نحن ديننا دين منهج، دين حقائق، دين نصوص ثابتة، نحن ليس عندنا دين زئبقي .

كثير من الناس يقول لك: هذا الحديث، أنا أرى رسول الله، هو يخبرني صحيح أم غلط، والله طريقة جديدة، فجاء واحد، فأعطاه حديثًا صحيحًا، غاب يومين، ما الذي حدث معك ؟ قال له: والله رأيت رسول الله في المنام، وقال لي: هذا حديث صحيح، قال له: بارك الله هو صحيح، أعطاه حديثًا موضوعًا، فهذا ذكي، فتحه فرآه موضوعًا، فسأله، قال له: والله أنا رأيت النبي الكريم، هذا الحديث

ما قلته، قال له: والله صدقت معك أيضاً، صحيح هذا، هو عمل له فخًّا، الثالثة أعطاه حديثًا ضعيفًا، ماذا جرى معك؟ قال له: والله رأيت النبي، وقال: هذا ضعيف، قال له: هذه كذبة، ليس عنده الضعيف .

أنا أتمنى ألاّ ترووا كرامة بين الناس، لا تصدق واحدًا مستقيمًا، لا تصدق واحدًا يحب الله، ما له كرامات واضحة، لكن بينك وبينه .

في عالَم المصارف، هناك شيك مسطر، هذا لا يقبضه إلا صاحبه، هذا لا يجيّر، أبداً، هذا لك فقط، فالكرامات لك وحدك، أما أن تدع شيئًا، فإن الله يبعث لك مئة ضعف عوضاً عنه.

محور هذه القصة :

لما قام الحسن البصري بمهمة التبيين، بأمانة التبيين، بعهد الحجاج، والحجاج بلغه انتقاد الحسن البصري قال:

((والله يا جبناء، -يخاطب من حوله-، لأروينكم من دمه، -أمر بقتله، وقتل الإنسان عند الحجاج أهون من قتل ذبابة، أمرٌ سهل-، فجاء بالسياف، مد النطع، جاؤوا به لقطع رأسه . دخل الحسن البصري، فرأى السياف، -كل شيء جاهز لقتله-، فحرّك شفتيه بكلام لم يفهمه أحد، فإذا بالحجاج يقف له، ويقول له: أهلاً بأبي سعيد، أنت سيد العلماء، وما زال يدنيه حتى أجلسه على سريره، وسأله، وضيفه، وعطره، وودعه، فصعق الحاجب والسياف، لحق به الحاجب، قال له: يا أبا سعيد، لقد جيء بك لغير ما فعل بك، فماذا قلت بربك؟ قال: يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته علي برداً وسلاماً، كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم))

هذه أليست كرامة هي؟.

هذه القصة يوجد منها مليون، بكل عصر، وبكل يوم، وبكل مصر .

((إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك))

خذها قاعدة .

إذا صار مع الرجل شيء غير معقول، استثنائي جداً، وشخص يحبه حباً جما يفرح له، لكن لا تقل لغير شخص يقول لك: هذه سحبة، يقلبها إلى كذب، مستحيل وألف مستحيل، وألف ألف مستحيل أن تخطب وده، وما يعاملك معاملة خاصة، لا بد من كل واحد من أخواننا الكرام الحاضرين، أن يكون عنده عشرات، بل مئات من الكرامات .

من هذه الكرامات أيضاً :

أخ لا يملك من حطام الدنيا شيئًا، بقدرة قادر، بشيء لا يصدق، بيت في أرقى أحياء دمشق، ومركبة، ومعمل، القصة طويلة، وغير معقولة، لا تضبط على القوانين العامة، أما على القوانين الاستثنائية فتضبط، إذا تدخل الله فلا مشكلة أبداً، العبرة أن تكون مخلصًا، وصادقًا، ومستقيمًا، والباقي كله عليه، بكل شؤون حياتك .

أخ من أخواننا، جاء إلى الشام، طمعاً بهذه المجالس، يوزع مما يأكله الصغار على المحلات، دخله ألفَا ليرةٍ بالشهر، له صديق، فجأةً فقَدَ عمله، جاء، ولجأ إليه، قال له: والله أنا لي ألف ليرة خذ نصفهم، وضعها إلى جانبه، في أثناء توزيع الشوكولا والسكاكر، قال له: المبلغ مناصفة، أنا عوض ما أوقف السيارة، وأنزل، وأوصل العلبة للبائع، أوصلها أنت، وأنا أبقى في السيارة، وخذ نصف الأجرة، قال لي: بقيت بهذا العمل سنة، على ألفين بالشهر، قصة قديمة، لما نزل معي أول شهر، ربحنا ١٦ ألف، طبعاً: الله ألهمهم عملاً، قال لي: جلبنا حبات مسكة كرات، ووضعناها بقطرميز، وقال الكريم: خذ، أول شهر ١٦ ألف، قال له: هذه ٨، هذه ليست كرامة، هناك مليون كرامة بهذا الجامع بالذات .

لا تخف من هذه الخطوة :

أخ لحق بي في الحميدية، قال لي: عرضوا علي شيئًا محرمًا، قال لي: ما معي مصروف المعمل، ما معي أجور العمال، بوضع لا يحتمل، جاءه عرض، حسب ستة، سبعة ملايين، قال لي: ما قولك؟ قلت له: والله إذا كان الدخان عندك حرام فهي حرام، أقوله بملء فمي، قال تعالى:

(وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)

[سورة الأعراف الآية: ١٥٧]

فإذا كنت تعتقد كما أعتقد: أن الدخان حارم، هي الأركيلة حرام أيضاً، قال لي: والله دخلي صفر يا أستاذ، عندي أجور العمال، قلت له: أنا أنقل لك الفتوى، وأنت حر، هذا الإنسان صادق، رفض، جاءه عرض بعد شهر، أنساه ذلك العرض بالحلال .

((ما ترك عبد شيئًا لله، إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

الشيء الذي يبغض الله، اركله بقدمك ولا تخف، الله يعلم كم ضحيت، الشيء الذي يغضب الله اركله بقدمك، والله عز وجل لا يمكن أن تدع شيئاً خوفاً منه، إلا ويعوضك خيراً منه .

احفظ هذه المقولة:

((ما ترك عبد شيئًا لله، إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه))

أخشى ما أخشاه، لكن هذا واقع :

أيها الأخوة، لكن أنا أخاف أن أتورط، وأقول لكم: كم كرامة سمعناها من أخواننا؟ فيصير درسنا كرامات، أنا أنتقد درس الكرامات، لكن هذا الواقع، إذا كنت مستقيما ومخلصًا، فلك عند الله كرامة؛ إن كان بصحتك، وإن كان برزقك، وإن كان بمكانتك، وإن كان بعملك، وإن كان بوظيفتك، شيء لا يوصف، لكن ما تيسر لنا أن نقرأ لا الأحاديث ولا الآيات، إن شاء الله في درس قادم نتابع هذا الموضوع، إن شاء الله .

أسئلة السائلين :

سؤال أول:

هناك أشخاص لا يوجد فيهم دين، تظهر على أيديهم بعض الخوارق، هذه اسمها ضلالات .

عندنا معجزات، وكرامات، وضلالات، أهل البغي، والعدوان، والكفر، والفجور، من أجل إضلال الناس؛ إما عن طريق مساعدة الجن، أو عند طريق تدريبات فائقة في المهارة، أو أبواب مساعدة الجن، يبدو فيها خرق للعادات، هذه ضلالات .

فإذا كان الواحد غير مستقيم، فلا تلتفت إلى خرقه للعادات إطلاقاً، إذا كان غير مستقيم، خرق العادات يتم للأنبياء كمعجزات، وللأولياء ككرامات، ولأعداء الله كضلالات، والضلالات؛ إما مهارة فائقة، أو استعانة بالجن، والاستعانة بالجن ليست مشروعة، بل إنها للإضلال حتماً .

سؤال ثان:

قال: هناك في بعض العلماء، في بعض المساجد، يصلون على النبي ووالديه، النبي ما ذكر هذا، نتبع النبي كما علمنا أن نصلي عليه .

سؤال ثالث:

قال: أنا شاب، اشتريت بيانو كهربائي منذ زمن، والآن: أريد أن أبيعه، فهل يجوز أن أنتفع بماله؟ .

هذه قضية خلافية بين العلماء، عنده عود يجوز أن يبعه؟ أكثرهم قال: لا يجوز، وبعضهم قال: يجوز، لكن حجته ضعيفة كثير، العود ليس خشبًا، ألا ينتفع بهذا الخشب؟ ما فيه يحرقه، ويتدفأ عليه، من يشتري عودًا بـ ٨٠٠٠ ليرة، ويتدفأ به ليلة واحدة، هات لي إنسانًا يشتري عودًا بـ ٨٠٠٠، فإذا كان الشيء محرمًا فبيعه محرم، هذا الرأي الأقوى عند الأحناف يجوز، على أساس هو مادة ينتفع بها .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٩١-١٠١) : باب تحريم الكبر والإعجاب - ما الذي يحجب العبد عن ربه؟ وكيف يرفع هذا الحجاب؟ وما أنواع الافتقار إلى الله؟ وما عاقبة المتكبر يوم القيامة؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٩-١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مشكلة يعاني منها الإنسان هي :

أيها الأخوة الكرام، في هذا الدرس أحاول أن أضع يدي على مشكلة، يعاني منها كل إنسان . الحقيقة: أن الحالة النفسيَّة للإنسان أساسية جداً في معاملة الله له، هذا يؤكّده قول الله عزَّ وجل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء الآية: ٨٨-٨٩]

فالإنسان أحياناً: يجد الطريق مغلقًا، والأمور معسَّرة، والمسعى مخفِقًا، والعقبات كؤودًا، ينبغي أن يسأل: لماذا؟ ولا سيما وأن الله عزَّ وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ)

[سورة النساء الآية: ١٤٧]

أي: أن هناك شيء داخلي هو سبب هذا التعسير، شيء داخلي هو سبب هذا الإخفاق، شيء داخلي هو سبب هذا المسعى غير الموفَّق، الله عزَّ وجل بيده كل شيء، وخلقنا ليسعدنا، فلماذا هذه المشكلات؟ .

موطن خطير :

أيها الأخوة، الحالة النفسية التي أساسها العقيدة الصحيحة، موطن خطير في علاقتك مع الله، حينما يعتز الإنسان بنفسه يؤدبه الله عزَّ وجل، حينما يستكبر يذله الله عزَّ وجل، حينما يعزو النجاح إلى ذاته يفشِّله الله عزَّ وجل، هذه أمور خطيرة جداً .

كنت أقول لكم دائماً: إن الإنسان قد يخطئ، ولكن هناك خطأ لا يُغفر، خطأ الكبر لا يغفر، خطأ العُجب لا يغفر، لأنه حجاب .

((لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو أكبر من ذلك، ما هو الذي أكبر من الذنب؟ العجب العجب))

والإنسان من ضعفه، أنه إذا نجح، إذا قوي، إذا اغتنى، إذا نال شهادة، إذا أثنى عليه الناس، فقد يغتر .

ما موضع الشاهد في هذه القصة؟ :

حدثني أخ -واللهِ- أحبه وأقدِّره، قال لي: دخلت إلى تعزية -هو يقطن في بعض الأقبية التي حول دمشق-، لكن دخل إلى تعزية، يبدو أن الحاضرين من علية القوم، مستواهم رفيع، وهو يظن نفسه غير معروف، فإذا بصاحب العزاء يقدِّمه لإلقاء كلمة، فقال: تهيَّبت هذا الموقف تهيُّباً شديداً، وأحجمت، ثم توكلت على الله، ودعوت الله عزَّ وجل، أن يلهمني الصواب .

قال لي: وقفت، فإذا بي أتكلّم بكلام، أنا لا أستطيعه؛ كلام دقيق، عميق، مدلّل، لغة فصيحة، طلاقة، سيولة، انسياب، قال لي: أدهشت الحاضرين، قال لي: والله أنا لا أصدق أن أقول هذا الكلام، أنا حينما دعيت لإلقاء كلمة وجلت، وخفت، وظننت أني لا أستطيع، ودعوت الله عزَّ وجل أن يوفقني، فاستجاب الله لي وأمدني، قال لي: وجدت نفسي في وضع جيد جداً .

سألته في اليوم الثاني حتى يدعوني لإلقاء كلمة ثانية، جاء في اليوم التالي، قال لي: أنا أنتظر أن يقال لي: تفضَّل واخطب، يبدو أنه قيل له: تفضل، أخذت مكاني، ورفعت اللاقط، وتهيَّأت لألقي كلمة كالماضية، قال لي: يا خيبة الأمل، قال لي: كلام لا معنى له، متناقض، غير متماسك، الأدلّة ضعيفة، الآيات أخطأت فيها، الأحاديث نسيتها، قال لي: شعرت بالخزي ، وقال لي واحد: ليتك لم تقل هذه الكلمة، لأنك هبطت .

هذا الشيء طبيعي، باليوم الأول افتقر إلى الله فأمدَّه الله، في اليوم الثاني صدَّق أنه خطيب كبير، فلمَّا تصدَّى لإلقاء هذه الكلمة، واستغنى دون أن يشعر عن الله، استغنى عن الله، فتخلَّى الله عنه .

أرأيت إلى هذه القصة؟ هذه تتكرَّر مع كل إنسان كل يوم عشر مرات، لكن ليس بإلقاء كلمة، بل بشكل أو بآخر؛ بتجارتك، بصناعتك، بوظيفتك، باختصاصك، بخدماتك .

كيف حلت المشكلة في هذه القصة؟ :

أخ كريم -والله- أحبه وأقدره، قال لي: أنا لي اختصاص نادر في البلد، دُعيت إلى إصلاح آلة فطلبت مبلغًا، فرآه صاحب العمل كبيراً، قال لي: ساومني وأطال المساومة حتى أضجرني، فقلت له: أنا لست بحاجةٍ إليك، أنت بحاجةٍ إلي، فإن شئت هذا المبلغ، قال لي: انصاع، قال لي: أنا بالعادة أصلح الآلة بربع ساعة، نصف ساعة، ساعة، جلسنا أول يوم أول ساعة، الثانية، الثالثة، الرابعة، الخامسة، أقسم بالله ثماني ساعات والطريق مسدود، والأجر لا على الساعات بل على الإنجاز، الأجر الذي طلبه على إصلاح الآلة فقط .

جئت اليوم الثاني وأول ساعة، الثانية، الثالثة، الرابعة، الخامسة، السادسة، السابعة، الثامنة، والطريق مسدود، اليوم الثالث ثماني ساعات والطريق مسدود، اليوم الرابع الطريق مسدود، الخامس الطريق مسدود، السادس .

أقسم بالله -وهو عندي صادق- ثمانية أيام، وكل يوم ثماني ساعات، والطريق مغلق، قال لي: انتبهت أنّ ثمة شيئًا، فاستأذن صاحب العمل، أن آخذ إجازة يومٍ لأراجع نفسي مع الله، قال لي: جلست وبقيت أتذكَّر ما الكلمة التي قلتها، وفيها استكبار، فيها اعتزاز، فيها استغناء؟ قال لي: تذكَّرت كلمتي أني أنا لست بحاجتك، بل أنت بحاجتي، فإن أعجبك هذا الرقم فأنا جاهز، فاستغفر الله، وكأنه تصدَّق، قال لي: باليوم التاسع، والله بربع ساعة، حُلَّت المشكلة.

إذا ظهر السبب بطل العجب :

أنا أضع يدي على مشكلة؛ لماذا هناك تعسير وهناك تيسير؟ لماذا هناك طلاقة لسان ولماذا هناك حبس لسان؟ لماذا في أمور هناك تنساب انسيابًا براحة وأمور تتعسَّر؟ وصعب جداً أن يشعر الإنسان أنه محارب، أحياناً: يشعر الإنسان أن الله يحاربه، يطرق الباب مغلقًا، هذا مغلق، هذا مغلق، هذا مغلق .

فيا أيها الأخوة، أردت أن يكون هذا الدرس، حل لهذه المشكلة، لماذا أفقد ملكاتي؟ ولماذا يضاف إلى ملكاتي ملكات لا أملكها؟ لماذا أفقد شجاعتي؟ ولماذا أكون شجاعاً كأنني فارس؟ لماذا أفقد حكمتي؟ ولماذا أكون حكيماً كأنني إنسان مجرِّب؟ ساعة يكون حكيم وساعة يكون غير حكيم، ساعة يكون شجاع وساعة يكون جباناً، ساعة يكون طليق اللسان، وساعة يكون عَييّ اللسان، العوامل؛ إذا ظهر السبب بطل العجب .

خطأ وقع فيه هذا الشخص بعد توبته، فأدبه الله :

مرَّة أخ اصطلح مع الله من قريب، والإنسان إذا اصطلح مع الله في الفترة الأولى، له إن جاز التعبير شهر عسل، الإنسان يشعر بأحوال لا توصف؛ يبكي في الصلاة، يشعر بنفسه خلاف الناس جميعاً، قال لي: في أعلى درجة من درجات تألُّقي مع الله، أنا اصطلحت معه من وقت قريب، وكأن الحقائق كُشِفت لي، ورأيت الناس في بُعد عن الله، وفي ضياع، وأنا اهتديت لله عزَّ وجل، والحقيقة عرفتها، وشعرت بسعادة لا توصف، وشعرت بزخم روحي كبير، قال لي: فجأةً بدأت عيني تخطف النظر إلى الفتيات، وهذه عنده كبيرة جداً .

النتيجة: جاءني إلى البيت -كان بيتي بالعفيف- قال لي: أنا يا أستاذ أطلق بصري في الحرام، قلت له: أعوذ بالله، قال لي: والله، قلت له: تب إلى الله، قال لي: أكثر من عشرين مرَّة تبت ورجعت، سبحان الله! كأن الله ضعّف مقاومته لهذا الشيء، وأصبح يبكي، أنا والله وقتها ما رأيت جوابًا، الحالة نادرة، فتب، قال لي: لا أستطيع، أنت تركت أشياء أهم من هذه بكثير، فلماذا ضعفت مقاومتك هنا؟ .

في الزيارة الثانية، حدَّثني عن علاقته مع والده، فوالده إنسان ليس كما ينبغي أن يكون الإنسان، وليس إنسانًا سيئًا إطلاقاً، وأبوه باع بيته، وسكَّن أولاده خارج دمشق، وسكن معهم، هذه بطولة أن يكون الإنسان ساكنًا بالمدينة، في أرقى أحيائها، يبيع هذا البيت، ويسكن في طرف المدينة إكرامًا لأولاده، قال لي: أنا كنت أتهم والدي بالكفر والفسق، -وهذه رعونة من رعونات الشباب-، لأنه يقعد مع خالاتي مثلاً، فكنت أتهمه بأنه فاسق، فيبدو أنه شعر باعتزاز، وأنه غير أبيه، لم يكتف أن شعوره الداخلي أنه عير أبوه، بل سلَّط لسانه على والديه، وانتقص من قدرهما، وانتقدهما على انحرافهما، وبالغ في ذلك، فالله عزَّ وجل أدَّبه، كيف أدَّبه؟ ضعَّف له مقاومته .

تأمل يا أخي في هذه الآية :

أيها الأخوة، والله ليس هناك آية أحس فيها أدب مع الله، وفيها عبوديَّة لله، كقوله تعالى:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

[سورة يوسف الآية: ٣٣]

فإذا الله عزَّ وجل لم يحفظك، ولم يقو لك مقاومتك، وأعانك على غض البصر، قال تعالى:

(أَصْبُ إِلَيْهِنَّ)

[سورة يوسف الآية: ٣٣]

وإذا صبا الإنسان إليهن، كان من الجاهلين، لأنه بهذه المرأة، ضيَّع من أجلها الحور العين .

أنا سأطلب منك موقف، ولكنه محرج، هل أنت غير مصدق أن في الجنة حور عين؟ الحور العين في الجنة شيء لا يوصف، معقول من إنسان يضحي بهذه السعادة الأبديَّة، في كل شيء بالجنَّة، من أجل نظرة عابرة لامرأة فاجرة، أيعقل هذا؟ .

ألم يقل أحد الصحابة لزوجتــه:

((اعلمي أيتها المرأة، أن في الجنة من الحور العين، ما لو أطلَّت إحداهن على الأرض، لغلب نور وجهها ضوء الشمس والقمر، فلأن أضحي بكِ من أجلهن، أهون من أن أضحي بهن من أجلكِ))

أنواع الافتقار إلى الله :

أيها الأخوة، النقطة في هذا الدرس: أنك حينما تعتز باستقامتك، حينما تعتز بعلمك الشرعي، صار ذلك حجابًا عن الله عزَّ وجل، هذا الافتقار .

الحقيقة: يوم الجمعة ذكرت: أنه عندنا افتقار قهري قسري، هذا الافتقار القهري والقسري لا ينجو منه أحدٌ على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة، كلنا مفتقرون إلى الله؛ بالتنفس، بالماء، بالهواء، بالطعام، بالشراب، بالدفء، بالمأوى، بالزوجة، بالولد، بالحرفة، بالمال، مفتقرون إلى الله، أما

الافتقار القهري فهذا لا ثواب له، ولا عقاب عليه، ولا يمدح صاحبه، ولا يُذم، لأنه قهري، وليس معنياً في موضوعنا.

يا أيها الأخوة، الافتقار القسري والقهري لا ينجو منه أحد، كل واحد منا بحاجة إلى الهواء، وإلى الماء، وإلى الطعام، وإلى المأوى، وإلى اللباس، وإلى المال، وإلى الزوجة، وإلى الأولاد، مقهورون جميعاً .

أما الافتقار الاختياري فهذا كسبي، هذا الافتقار الاختياري محصلة علمين شريفين؛ علم معرفة الله، وعلم معرفة النفس، فإن حصَّلت من هذين العلمين الشريفين قدراً كافياً، يتولَّد منهما معاً حالة افتقار اختياري .

دقق :

أيها الأخ الكريم، دقّق: الافتقار الاختياري عين الغنى، الافتقار الاختياري عين القوة، الافتقار الاختياري عين العلم، الافتقار الاختياري عين التوفيق، الافتقار الاختياري عين النصر، الافتقار الاختياري عين العلو، فلذلك الناس يتفاوتون بافتقارهم .

ببدر الصحابة افتقروا، قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

[سورة آل عمران الآية: ١٢٣]

بحنين ما افتقروا، فجمعهم الكبير كان حجاباً لهم عن الله عزَّ وجل، قالوا:

((لن نُغْلَبَ من قلة))

قال تعالى:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً)

[سورة التوبة الآية: ٢٥]

انطلاقاً من هذا الحديث.... :

أيها الأخوة، فأنا أريد أن تترجم هذه المعلومات إلى واقع، كيف أقول لإنسان: لا بدَّ من أن نبيِّن لك هذا الشيء، قال لي: ما هو السبب؟ قلت: لأنه ثبت في الحديث. عَنْ عَلِيِّ بْن الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

((أَنَّ صَفِيَّةَ زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، تَزُورُهُ فِي اعْتِكَافِهِ فِي الْمَسْجِدِ، فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَهَا يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ

سَلَمَةَ، مَرَّ رَجُلَانِ مِنْ الْأَنْصَارِ، فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ لَهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، فَقَالَا: سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَكَبُرَ عَلَيْهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا))

فأنت بيِّن، النبي بيَّن، وانطلاقاً من هذا الموقف النبوي الشريف، أنا سأبيِّن لك، القصَّة أساسها كذا، وكذا، وكذا، فأنت بيِّن، والبيان يطرد الشيطان .

فنحن نبني على قصة آلاف المواقف، نبني على تصرُّف نبوي شريف آلاف الاستنباطات .

الآن: كل واحد منا بعمله، في بيته، يقول لك: أنا زوج، أحياناً: تقهره زوجته لأنه قال: أنا زوج، أما إذا كان دخل إلى بيته مفتقر لله عزَّ وجل، وقال: يا رب ألهمني الصواب، ثبِّت خطاي، ألهمني الحكمة، ألهمني أن أقول كلمة تنفع أهلي -مثلاً- الله يلهمه الصدق، يجعل له هيبة في البيت، هذه الهيبة من طاعته لله عزَّ وجل .

من الآيات التي استفتحها النووي في باب تحريم الكبر والإعجاب :

أخواننا الكرام، في كتاب رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، عُقد فيه بابٌ سمَّاه المؤلِّف -رحمه الله تعالى- باب: تحريم الكبر والإعجاب، وكعادة الإمام النووي رحمه الله تعالى، يفتتح أبواب كتابه ببعض الآيات الكريمة .

أيها الأخوة، قال تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

الإنسان إذا أراد العلو، حُرِمَ الدار الآخرة، قال تعالى:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

كلمات دقيقة: لا يريد أن يفسد الناس، كما أنه لا يريد أن يستعلي عليهم، فثمن الجنة أن تكون متواضعاً مُصلحاً، متواضعاً في ذاتك مصلحاً في عملك، أما الكافر فمتكبِّر في ذاته مفسد في عمله، بذاته متكبر بعمله مفسد .

ركز :

أيها الأخ الكريم، أنت دقّق الآن: أي شيء تفعله من أجل انتزاع إعجاب الآخرين، من أجل أن يمدحوك، من أجل أن تستعلي عليهم، ابتعد عنه، كن متواضعاً، التواضع صفة العلماء، التواضع صفة الكُرماء، صفة الحُلماء، صفة الموصولين بالله عزَّ وجل .

أحد الأعراب، جذب النبي من ثوبه، حتى أثَّر على رقبته الشريفة، وقال له:

((أعطني من مال الله، فهو ليس مالك ولا مال أبيك، فقال عليه الصلاة والسلام: صدق، إنه مال الله))

فحينما تفكّر في العلو والكبر، الآن: أنت دقق، كم شيء يفعله الناس من أجل أن يستعلوا؟ والله ينفقون الملايين من أجل العلو في الأرض، والله عزَّ وجل يقول:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً)

[سورة القصص الآية: ٨٣]

(وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً)

[سورة الإسراء الآية: ٣٧]

احفظ هذه الكلمة :

ثمة كلمة أحفظها تعجبني: من يضحك أولاً يضحك قليلاً، ويبكي كثيراً، ومن يضحك آخراً، يضحك كثيراً وطويلاً، والدليل: قول الله عزَّ وجل؛ أن المؤمن:

(وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً)

[سورة الانشقاق الآية: ٩]

(فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ)

[سورة المطففين الآية: ٣٤]

هذه الآية الثانية .

ما الذي يفسد العبادة ؟ :

الآية الثالثة، قال تعالى:

(وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)

[سورة لقمان الآية: ١٨]

أي: أن العبادة يفسدها الكبر .

((الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ))

[أخرجه ابن ماجة في سننه]

متى يفتقر العبد إلى الله؟ :

أيها الأخ الكريم، فكن متواضعاً، وكن مفتقراً، لكن هذا الشيء، لا يأتي هكذا ببساطة.

قبل يومين، أقمنا احتفالاً بتخرج طلاَّب المعهد، فالمتفوقون نالوا جوائز، وهناك طفل ما نال جائزة، لأنه مقصِّر، فسأل: أين تباع الجوائز؟ قال: أشتري جائزة، وأقدمها لأهلي، فهناك أشياء لا تُباع، من أين يأتيك التواضع؟ يأتي من السعي الحثيث، من معرفة الله .

فإذا واحد عنده -تقريباً- آلة تريكو، موديل ستة وثلاثين، لون واحد، في النهار تصنع كنزة واحدة يدوية، لم ير غيرها بحياته، يقول لك: هذه أعظم آلة بالعالم، أما لو رأى آلة لموديل حديث، تعمل مئة كنزة باليوم، وشكَّار، وكمبيوتر، يتواضع ساعتها، يتواضع إذا رأى العظمة، كل إنسان أفقه ضيق تجده متكبِّر، عايش في أوهام .

لماذا قال الإمام الشافعي:

((من لم يعهد منه سفرٌ، لم يعهد منه علمٌ؟))

يتحجَّم الإنسان إذا عرف الله، يصير صغيرًا، إذا عرف الله، يرى نفسه لا شيء، صدق القائل:

إذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى

في كثير من الأبيات، يقولها العارفون بالله:

وما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع

فإذا الإنسان افتقر إلى الله، فافتقاره إلى الله عين الغنى، وعين القوة، وهناك شواهد .

متى يسقط العبد، ومتى تظهر بطولته؟ :

سمعت وقرأت عن شواهد لا تعد ولا تحصى، إنسان يقوى ويتفوَّق، يصيبه الغرور فيسقط، فالبطولة: أن تصل إلى القمة، وأن تبقى فيها .

حينما تشهد أن هذا من فضل الله عليك، فعلى قدر ما تستطيع، لا تكن حظوظك التي أكرمك الله بها حجاباً بينك وبين الله، قال تعالى:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ)

[سورة القصص الآية: ٧٦]

طبعاً: بعد هذا، قال:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

[سورة القصص الآية: ٧٨]

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

[سورة القصص الآية: ٨١]

طبعاً: هذه شواهد صارخة، أما بحياتنا اليوميَّة في آلاف الشواهد غير الصارخة، كأن علّق أمله بإنسان، فالله ألهم هذا الإنسان يتخلّى عنه، لأن صار في شرك .

ما يلفت نظرك :

أنت يلفت نظرك رجلٌ غني متواضع، السبب: الغنى مظنة كبر، فإذا وجدت غنيًّا متواضع تفاجأ، أو يلفت نظرك غني متواضع، الحقيقة: الغني إذا تواضع يحبه الله عزَّ وجل .

((أحب ثلاثاً وحبي لثلاثٍ أشد: أحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد، أحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد، أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد))

ما مراد هذا الحديث؟ :

النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح يقول:

((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ، وَلا يَدْخُلُ النَّارَ، يَعْنِي: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ يَكُونَ ثَوْبِي حَسَنًا وَنَعْلِي حَسَنَةً، قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْجَمَالَ، وَلَكِنَّ الْكِبْرَ مَنْ بَطَرَ الْحَقَّ وَغَمَصَ النَّاسَ))

في رواية:

((وَغمَص))

وفي رواية:

((وغمْط))

أي: أن ترد الحق؛ في حكم شرعي لا تقبله، في موقف يجب أن تفعله لا تفعله، في سلوك ينبغي أن تسلكه لا تسلكه، ولو كان مدعَّماً بالكتاب والسنَّة، هذا هو الكبر، أن تستنكف أن تعبد الله، أن تستكبر أن تعبد الله.

بطر الحق: أي دفعه ورده على قائله، وغمط الناس: أي احتقارهم .

من أمثلة الكبر :

مرَّة أخ توسَّط لي، أن أقنع أبًا بتزويج ابنته، عنده بنت تجاوزت الثالثة والثلاثين، وجاءها خاطب ممتاز، الأب متعنِّت لا يزوج، فذهبت له، من خمس كلمات، وجدت أن لا أمل ، قلت له: النبي يقول:

((إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

قال لي: لا أقبل، لم تعد هناك لغة مشتركة بيننا، أعرض عليك كلام النبي عليه الصلاة والسلام، الذي لا ينطق عن الهوى، فكل إنسان تعطيه آية أو حديثًا، ويرفض أن ينصاع لها، انتهى، هذا إنسان مستكبر، يرفض أن ينصاع لكلام خالق الكون .

((الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ))

أما غمط الناس، هناك نموذج أيها الأخوة والعياذ بالله، وبين النساء مستشرٍ، فمثلاً: هي وبناتها بالأوج، أي: امرأة أخرى بالتعتيم، لا تذكر شيئًا عن فضائلها، تمدح نفسها، وتمدح من حولها، وتبالغ وتتكبَّر، وأي جهة أخرى بالتعتيم، هذا سلوك ظالم .

انظر إلى مدح النبي إلى الصحابة :

أيها الأخوة، كان عليه الصلاة والسلام، كل صحابي جليل يمدحه . فعن علي بن أبي طالب قال:

((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رحم الله أبا بكر، زوجني ابنته))

[أخرجه الترمذي في سننه]

((وما نفعني مال في الإسلام، ما نفعني مال أبي بكر))

((ما ساءني قط))

سيدنا عمر:

((لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب))

[أخرجه الترمذي في سننه]

سيدنا أبو عبيدة:

((إن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح))

سيدنا خالد:

((سَيْفَ اللَّهِ الْمَغْمُودَ))

سيدنا حمزة:

((أسد الله))

كل صحابي أعطاه النبي حقه، ما غمط أحد، هناك أشخاص بالعكس، لا يمكن أن ينطق بكلمة مديح لإنسان، الأضواء كلها يسلّطها على ذاته، في الحلقات الدينية تجد الأضواء فقط مسلّطة على إنسان واحد، أما كل من حوله فلا شيء، بالتعتيم الكامل، هذا سلوك غير نبوي، ليس هذا من السنة، يجب أن تنزل الناس منازلهم .

فكلمة المديح للمؤمن يربو بها إيمانه، أما لغير المؤمن قد يغتر بها، لذلك النبي مرة: أثنى على من يمدح، ومرَّة ذمَّ من يمدح، كأنه في تعارض، لا، لا يوجد تعارض، بل أنت عندك حكمة، هذا الإنسان مؤمن إذا مدحته بما فيه، ربا الإيمان في قلبه، أما إذا مدحت إنسان ضعيف الإيمان، يصدِّق أنه هو فعلاً هكذا .

حديث خطير :

ويقول عليه الصلاة والسلام، في الحديث الصحيح المتَّفق عليه:

((لا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، ومالك في الموطأ]

فأحياناً: في سلوك فيه بطر .

احذر من أن تفعل هذا :

حدَّثني أخ -والله أصدقه-، فقال لي: كنت ببلد بالخليج، -لم يسمها لي-، فهناك الولائم لها دور كبير، قال لي: أقيمت وليمة، يمكن كمية اللحم التي فيها، تطعم أقل شيء خمسمئة إنسان، والمدعوون عشرة أشخاص فقط، أكلوا واحد بالألف، ثم صاحب الدعوة، غسَّل يديه فوق الطعام، فهذا الذي رأى هذا المنظر، كاد يخرج من جلده، قال له: لا أحد يأكل بعدي، هذا بطر .

بينما يجوز في بعض البلاد، في عادات طيبة، إذا إنسان دخل لمطعم، وأكل، وزاد منه قطعة لحم، يلفُّ له، ويُعطى، يأكله في البيت، هذا شيء طيب، زاد أكل، فالمطعم يلقيه في القمامة، لا، لكن المطعم لفَّه لي، وأعطاني إياه، أنا آكله مساءً هذا الطعام .

فالكبر والعياذ بالله، يحجب عن الله عزَّ وجل .

((لا يَنْظُرُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا))

يقاس عليه الشيء الكثير، كأن إذا إنسان أسرف في صنع الطعام، ثم ألقاه في القمامة .

والحديث الذي بيَّنته لكم قبل قليل، والذي رواه مسلم:

((العزُّ إزاري، والكبرياء ردائي، فمن ينازعني فيه عذّبته))

[أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، والطبراني في المعجم الصغير]

انظر إلى معاملة الله إلى هذين العبدين :

أيها الأخوة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((لا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ، حَتَّى يُكْتَبَ فِي الْجَبَّارِينَ، فَيُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ))

[أخرجه الترمذي في سننه]

أنت لاحظ نبتة مرنة، الرياح تهزُّها، فإذا سكنت تستقيم، تهزها فتستقيم، أما الشجرة العملاقة، تأتيها رياحٌ عاصفة، فتقلعها من جذورها، فربنا عزَّ وجل يحاسب المؤمن كهذه النبتة ، أي بين مدٍ وجزر، بينما الإنسان البعيد عن الله، يعامل كما تعامل هذه الشجرة العملاقة، إعصارٌ واحد يقتلعها من جذورها، الله عزَّ وجل يبطش بالمتكبِّر بطشة واحدة فينهيه، يرخي له الحبل، ثم يبش به فقط، أما المؤمن فيعالجه كل يوم .

بصراحة: يا أخوان، إذا الله عزَّ وجل تفضَّل علينا وأكرمنا، أنه تابعنا على كل أخطائنا، هذه نعمةٌ كبرى .

أيها الأخ الكريم، إياك أن تتألَّم إذا تابعك الله، معنى هذا: أن فيك خير، معنى هذا: في أمل كبير بالنجاة، أما إذا في انحراف وفي إمداد، هنا المشكلة .

اخرج من هذا الوهم :

أيها الأخوة، والشيء بالشيء يذكر، إذا الإنسان في عنده مشكلة، لا يظن أنها لا تُحل، هذا ظن فيه وهم.

زارني أخ عقب صلاة الجمعة فقال لي: أنا أموري كلها منتظمة إلا شيء واحد: هو أنني أدخِّن، قال لي: لا أستطيع أن أتركه إطلاقاً، قال لي: صار جزءًا من دمي، وإذا تركته يصير معي حالات عصبية؛ ضيق ووضع غير طبيعي، فإذا دخَّنت أرتاح، قال لي: هذه لا أقدر عليها .

قلت له: والله الذي لا إله إلا هو، إنك واهم وهم كبير، وبإمكانك أن تتركه، وأن تعيش حياة رائعة، والقضية بسيطة .

نحن في لنا أخ، كان يدخِّن باليوم ثلاث علب أو أربعًا، ليس هناك إنسان حوله، يصدق أنه يدع الدخان، فلما استعان بالله، تركه وانتهى الأمر، ولا يفكِّر أن يقترب منه، فهذا الأخ قال لي: لا يوجد إمكان .

فإذا كان للواحد عنده عادات سيئة، عنده شهوات مستحكمة فيه، له صفات كبر -من نوع درسنا-، ولا يقدر إلا أن يظهر دائماً مثل الطاووس، فلها حل، قلت له: والله أنت واهم، قال لي: كيف؟ قلت له: سأروي لك قصَّة سمعتها، والله قصة مؤثِّرة جداً، وهي تعد دليل رياضي طبعه هكذا، لا يمكن أن يغمض له جفن، إذا كان في غرفة النوافذ فيها مغلقة؛ صيفًا، شتاءً، خريفًا، ربيعًا، صقيعًا، تحت الصفر خمس درجات، لا يمكن أن يغمض له جفن، إذا كان بغرفة نوافذها مغلقة، رياضي كبير، لاعب كرة من الطراز الأول .

مرَّة أجريت مباراة في فنلندا، في فنلندا أقل درجة حرارة، سُجِّلت تسعة وستين تحت الصفر، عنده مباراة بهذا البلد، وفي الشتاء، والفندق خمس نجوم، ولأن هذا الفندق بهذه المنطقة الباردة جداً، لا توجد نوافذ مفتوحة إطلاقاً، النوافذ مغلقة، لا يوجد قضية فتح، لأن البللور مع إطار النافذة ثابت، لا يُفتح إطلاقاً بالفندق، فجاء ورأى الغرفة، فلا يمكن له أن ينام ، ولا يمكن أن ينام ولا يغفل، والمباراة ثاني يوم، يجب أن يكون مرتاحًا، قابل مدير الفندق وقال له: لا إمكان غير هذا، ابحث عن فندق آخر، هل أخرب الفندق من أجلك؟ البناء مصمَّم ما فيه فتح .

هذا الرياضي لم يجد حلاً، جاءته فكرة شيطانية، قال: أنا أكسر هذا البللور في الليل، وأدفع ثاني يوم الغرامة، يبدو أنه أطفأ المصباح، ومسك الحذاء، ضرب، نزل البللور على الأرض، فنام نومًا مريحًا، مثل عادته، ما دام خرق النافذة وفتحت، دخل الهواء، فنام، استيقظ صباحاً، ففوجئ أنه كسر منظرًا طبيعيًّا، البللور مغلق، كسر منظرًا طبيعيًّا، ما كسر البللور، معنى هذا: أنه يعيش في وهم، هذه القصة نموذجية .

أربعة أخماس تشبثك بالشيء وهم، فمن الممكن تترك الدخان بكل بساطة، ممكن تترك أي عادة سيئة، أي سهرة مختلطة، أي لقاء، إذا أنت طلبت من الله التوبة الصحيحة، يعينك الله عزَّ وجل، فهذا يعيش في وهم عشرين سنة، نام نومًا مريحًا، على أساس أن النافذة مكسورة، فوجد أنه كسر منظرً طبيعيًا، ونزل البللور، ظنَّ أنها النافذة ونام .

فيا أيها الأخوة، راقب عاداتك، راقب كل تصرفاتك إذا فيها كبير، أنا لا أقدر، هذا كلام العوام: لا أقدر، لماذا لا تقدر؟ الله كلّفك بالاستقامة، لو أنك لا تستطيع ما كان كلّفك، صار التكليف ليس له معنى، كأن الله كلّفك ما لا تستطيع، لا، إنك تقدر، كل إنسان يقول: لا أقدر، فهو إنسان جاهل، يرد قوله تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

[سورة البقرة الآية: ٢٨٦]

نهاية المطاف :

أخواننا الكرام، أنهي هذا الدرس بكلمة: هل تصدِّق: أن ثمن الجنة هو كلمة واحدة؟ ما هي الكلمة؟ قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

[سورة الشمس الآية: ٩-١٠]

اقرأ القرآن، جاءت ثلاث آيات أو أربع، قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى)

[سورة الأعلى الآية: ١٤-١٥]

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا)

[سورة الشمس الآية: ٩]

بل إن حمل الأمانة في الأصل: هو تزكية النفس، فإذا أنت نقيت نفسك من الكبر، والعجب، والإصرار، والغرور، والاستعلاء، وصار قلبك سليم، معنى هذا: أنك دفعت ثمن الجنة، قال تعالى:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)

[سورة الشعراء الآية: ٨٨-٨٩]

وكلّما ارتقيت عند الله كان قلبك سليماً، وكلما ابتعدت عن الله امتلأ القلب بالأمراض .

فأنا دائماً أقول: تجد الشخص لئيمًا، متكبِّرًا، كذَّابًا، محتالاً، منافقًا، فما هذا النفاق، والاحتيال، والكذب؟ هذه أعراض مرض واحد: هو الإعْراض، احفظها، هذه أعراض الإعراض؛ تعرض، تظهر كل المشكلات، تقبل، تزول كل العيوب والأمراض .

فنحن علاجنا أن نكون مع الله، سلامتنا في الصلح مع الله، سعادتنا في الإقبال على الله، أمننا في الاعتماد على الله، مستقبلنا في محبة الله، هذا هو الدين، الدين هو الله، أن تقبل عليه، وأن تحبه، وأن تطيعه، وأن تعظِّم شعائره، وأن تعظِّم تشريعه، وأن تجلَّ المؤمنين، هذا هو الدين .

فيا أيها الأخوة، هذا الباب الكبر في رياض الصالحين مهم جداً .

((لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٩٢-١٠١) : باب الخوف - على ماذا فطرت النفس البشرية؟ وما قوانينها؟ وما الذي ينبغي أن يستقر في قلب المؤمن؟ وما هو التوحيد؟ وما الذي يحمل العبد على طاعة الله؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-٠٩-٢٦

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

أيها الأخوة الكرام، كما هي العادة: عقد الإمام النووي -رحمه الله تعالى- في كتابه رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، باب بعنوان: الخوف، وقبل أن نمضي في الحديث عن هذا الباب، لا بد من مقدمة .

جسم الإنسان: خلقه الله في أحسن تقويم، قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)

[سورة البلد الآية: ٨ - ١٠]

حواس خمس، أعضاء، وأجهزة، قلب، ورئتان، كبد، وكليتان، وعضلات، وأعصاب، وعظام، وشعر، ووجه، وجلد، شيء يحير العقول، قال تعالى:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)

[سورة التين الآية: ٤ - ٥]

كما أن خلق الإنسان، كان في أحسن تقويم، جبلة النفس، هذه النفس البشرية لها جبلة، كيف أن الجسم له أجهزة، وأعضاء، وحواس، وخصائص، أعصاب حس، وأعصاب حركة، وجملة ودية، وجملة نظيرة الودية، ودماغ فيه مئة وأربعون مليار خلية، لم تعرف وظيفتها بعد، وثلاثمئة مئة ألف شعرة، ولكل شعرة شريان، وعصب، وعضلة، وغدة دهنية، وغدة صبغية، هذا التعقيد البالغ في جسم الإنسان، يقابله إعجاز في جبلة النفس، هذا الكلام ينطلق من قوله تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)

[سورة الشمس الآية: ٧ -٨]

وأتمنى أن يتتبع المؤمن آيات القرآن الكريم المتعلقة بجبلة النفس، فهذه الآية من هذا الموضوع .

ما فطرت عليها النفس البشرية :

أيها الأخوة، النفس البشرية مفطورة أو مجبولة -أو بالتعبير الحديث-: المبرمجة على أنها تعرف ذاتياً، خطأها من صوابها، خيرها من شرها، إحسانها من إساءتها، تقواها من فجورها بالفطرة، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ)

[سورة القيامة الآية: ١٤ - ١٥]

هذه خصيصة .

أيها الأخوة، الإنسان يحاسب على هذه الفطرة التي فطره الله عليها، ولو لم يلتقِ لا بنبي، ولا رسول، ولا مرشد، ولا عالم، ولم يقرأ كتاباً، ولم يسمع شريطاً، جبلة نفسه أساسها أنها: تعرف استقامتها من انحرافها، معرفة ذاتية فطرية من دون معلم، وهذه الفطرة هي التي تعذب صاحبها، حينما ينحرف، مجبولة على الكمال، فإذا خرج الإنسان عن منصوص الكمال عذبته فطرته، وهذا عبر عنه علماء النفس بالكآبة .

مرض الكآبة: هو مرض شائع الآن بين معظم الناس، لأنهم خرجوا عن قوانين فطرتهم، وخرجوا عن منهج ربهم، ولأن أنفسهم مفطورة ومجبولة على حب الكمال، فإذا ارتكب الإنسان نقص يتألم .

يعني: أنت لو شاهدت إنسان يظلم إنسان، تتألم، مع أن هذا الظلم لم يقع عليك، لكن أنت مجبول جبلة أنك تحب الكمال، لو سمعت قصة عدل تطرب بها أشد الطرب، لو سمعت موقفا رحيمًا تطرب له أشد الطرب، لو بلغك موقف لئيم فيه قسوة بالغة تنزعج أشد الانزعاج.

من قوانين النفس البشرية

١-أنها تحب الكمال والجمال والنوال :

قال تعالى:

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ)

[سورة الروم الآية: ٣٠]

((كل مولود يولد على الفطرة))

الفطرة أن تحب الكمال، الصبغة أن تكون كاملاً .

((يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها))

أحد قوانينها: أنها تحب المحسن، وتحب الجميل، وتحب الكريم، فالنفس جبلت على حب الكمال والجمال والنوال، هي من قوانين النفس، كل هذه قوانين .

٢-أنها تخاف :

قانون آخر: أنها تخاف، موضوع درسنا اليوم .

الخوف: أحد خصائص النفس، جبلة جبلنا عليها، نخاف من فقد رزقنا، نخاف من فقد صحتنا، نخاف من فقد حياتنا، نخاف من أن يصاب أولادنا بمرض، نخاف من شقاء زوجي، نخاف من إذلال، نخاف من اضطهاد، نخاف من قهر، هذه فلسفة الخوف .

هذه حكمة الله من قانون الخوف في النفس البشرية :

أيها الأخوة، فلسفة رائعة جداً، الخوف: أحد البواعث الكبرى لطاعة الله، أحد البواعث الكبرى للتوبة لله عز وجل، أحد البواعث الكبرى للصلح مع الله، أحد البواعث الكبرى كي تساق إلى باب الله، إذا لم يخف الإنسان لا يتوب، إذا لم يخف لا يصلح عمله، إذا لم يخف لا يصطلح مع الله، فالخوف باعث، والله عز وجل يقول:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج الآية: ١٩]

يعني: هكذا خلقته، أنا خلقته خائف، شديد الخوف لمصلحته، قال تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج الآية: ١٩]

هذا الضعف في أصل خلقه ولمصلحته، لأنه يخاف يتوب، لأنه يخاف يعبد الله، لأنه يخاف يتحرّى الحلال، لأنه يخاف يبتعد عن الظلم، لأنه يخاف يبتعد عن الزنا، هذا الذي لا يخاف إنسان غير سوي، إنسان خرج عن قواعد فطرته، تخاف الله بقدر معرفتك، طيب لا سمح الله، ويعصي الإنسان الله عز وجل بقدر ضعف معرفته، فكلما اشتدت معرفتك بالله عز وجل، اشتد خوفك منه .

أشد الناس خوفاً من الله: هو رسول الله، لأنه أعظمهم معرفةً به، وأقل الناس خوفاً من الله: هو الجاهل، والخوف بقدر العلم .

لا حظ الطبيب، حينما يبالغ في غسل الخضار والفواكه، لأنه يقول لك: هناك وباء، هناك حمى مالطية، هناك وجبة التهاب سحايا، هناك أمراض كثيرة جداً، فعلمه الشديد يدفعه إلى المبالغة في تنظيف الفواكه والخضار، وكل إنسان يخاف بقدر علمه، فالخوف إحدى خصائص النفس البشرية، خصيصة أساسية .

يمكن أن أمثل الخوف بهذا الفيوز الذي يوضع في آلة غالية جداً، حينما يأتي التيار شديداً، هذا الخط الضعيف في الفيوز يسيخ، فينقطع التيار، فيسلم الجهاز، لو لم توجد نقطة الضعف لعطب الجهاز، وتكلفنا في إصلاحه مبالغ كبيرة .

فأنت اشكر الله عز وجل على أنك تخاف، لأن الخوف هو الذي يدفعك إلى باب الله، هو الذي يدفعك إلى طاعة الله .

هذه الحالة التي ينبغي أن يجمعها المؤمن في قلبه :

أيها الأخوة، المؤمن لا بد من أن يستقر في قلبه خوف يحمله على طاعة الله، ولا بد من أن يستقر في قلبه محبة لله، كي يقبل عليه من باب الرجاء، ولا بد من أن يستقر في قلبه تعظيم لله .

((يا رب، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحب عبادي إلي؛ تقي القلب نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني، وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقه، قال: يا رب، إنك تعلم أنني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك؟ قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي، ذكرهم بآلائي كي يعظموني، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني))

فإذا كان في قلبك تعظيم مع حب، مع خوف، فهذه حالة طيبة كاملة، في قلب المؤمن.

أيها الأخوة الكرام، ومن رحمة الله بنا: أنه يسوق لنا الشدائد كي نخافه، ويسوق لنا الرحمات كي نحبه، ويسوق لنا الآيات كي نعظمه، وهذه تربية الله للإنسان، الآيات الباهرة كي تعظمه، التعظيم مطلوب .

تعليق لطيف :

هناك تعليق لطيف جداً وهو: أن الحب وحده من دون تعظيم، لا يحملك على طاعته، الإنسان قد يحب أمه محبة شديدة، لشدة عطفها عليه، ومع ذلك قد لا يطيعها، أما إذا اقترن الحب بالتعظيم، حملك على الطاعة، لذلك ربنا عز وجل قال:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ)

[سورة الحاقة الآية: ٣٠ - ٣٢]

لماذا؟ قال:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة الآية: ٣٣]

هو يؤمن بالله، ولكن لا يؤمن بالله العظيم، فالآلاء من خلالها تعظم الله عز وجل، يعني: أنت قد تلتقي بإنسان شكله لا يعجبك، لا يملأ عينك، أما إذا علمت أنه يملك أكبر ثروة فرضاً، أو إذا علمت

أنه يحتل أعلى منصب، أو إذا علمت أنه يحمل أعلى شهادة، رغم شكله الذي لا يعجبك، وحجمه الصغير، وقد يكون دميمًا، تقف أمامه في منتهى الأدب، أنت تعرف عنه الشيء الكثير.

أيها الأخوة، كلما ازدادت معرفتك بالله عز وجل، ازداد تعظيمك له، والتعظيم يحملك على طاعته .

أيها الأخوة، فالخوف موضوع هذا الدرس، بل موضوع باب الخوف، موضوع هذا الباب في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، هو أكبر باعث، يحمل المرء على طاعة الله عز وجل، وحتى الكافر، وحتى الملحد، إذا ركب السفينة، وكانت قاب قوسين أو أدنى من الغرق، نادى ربه، واستجار به، ودعاه في هذه الساعة العصيبة، لذلك: الله عز وجل يسوق الشدائد حتى ندعوه، فالبطل هو الذي يدعوه قبل أن تأتي الشدة، يدعوه وهو في الرخاء، والذي يعرف الله في الرخاء، يعرفه الله في الشدة .

أمر إلهي موجه إليك :

الإنسان أحياناً يخاف إنسانًا، قد يخشى إنسانًا، ولا يخشى خالق الأكوان، قد يستحي من إنسان فينضبط، ولا يستحي في خلوته أن يقترف معصية، مع أن الله ناظر إليه، لذلك: يقول الله عز وجل، -وهي آية صدر بها المؤلف هذا الباب-:

(وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

[سورة البقرة الآية: ٤٠]

اجعل خوفك من الله، وصدقوا أيها الأخوة، وهذا كلام دقيق: أنك إذا خفت من الله، الله عز وجل أجل وأكرم، من أن يجعلك تخاف من غيره، أبداً .

يعني: أيام تجد مثل من واقع الحياة: بائع لا يكذب، ولا يغش، ويخاف الله، أن يؤذي المسلمين في هذا البيت، شديد الحرص على مصلحة المشتري، لا يغشه، ولا يدلس عليه، ولا يكذبه، ولا يبالغ، لأنه خاف من الله فيما بينه وبين الله، مستحيل أن يخيفه الله من إنسان، أما إذا كان لا يخاف الله فيما بينه وبين الله، قد يضعه في موقف، ترتعد فرائصه من إنسان، لذلك الدعاء الذي أدعوه دائماً:

((اللهم إنا نعوذ بك من عضال الداء، وشماتة الأعداء، والسلب بعد العطاء، ونعوذ بك أن نخاف إلا منك، وأن نذل إلا لك، وأن نفتقر إلا إليك))

بطولة المؤمن: أن يفتقر إلى الله، وأن يذل له، وأن يخاف منه .

((فمن كان خوفه من الله، ألقى الله عليه هيبة))

يخافه الناس، بقدر ما تخاف الله، يخافك الناس، فإن لم تخف الله عز وجل، فليس لك هيبة إطلاقاً، وإذا هان أمر الله عليك، هان أمرك على الناس، تطاولوا عليك وتجاوزوا حدودهم، قال تعالى:

﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾

[سورة البقرة الآية: ٤٠]

أنت في قبضة الله :

أيها الأخوة، لو فرضنا موظفًا له مدير، المدير كم يملك من خيار على هذا الموظف؟ يستطيع أن يرفع فيه كتابًا أنه يتأخر، خصم يومان من راتبه، يقدر أن يجافيه، يقدر أن يوبخه، ليس هناك أكثر من هذا، لا يعدمه، لا يسوق له مرضًا خطيرًا، فالإنسان له خيارات محدودة جداً، أما الله عز وجل فله مليار، مليار، مليار، مليار، مليار، مليار خيار على الإنسان، ممكن للقناة الدمعية أن تنسد، فتصبح حياته جحيماً، يحتاج إلى مسح دموعه دائماً من على خده، بعد حين هذا الدمع القلوي، يرسم خطًّا على الخدين، ممكن أن يحدث شلل في المستقيم، تنقلب الحياة إلى جحيم .

إنسان موظف، يعطيه إنسان عشرة آلاف ليرة في الشهر، كي يزيل هذا القذر من مستقيمه، شلّ المستقيم، الكليتان تعملان بانتظام، المستقيم يعمل بانتظام، العضلات القابضة تعمل بانتظام، الدسام بالقلب يعمل بانتظام .

ما وراء هذه القصص :

أحد أخواننا الكرام، والده معه مرض في قلبه، ركب دسامًا، فزرته، قال لي: يا أستاذ لا أنام طول الليل، قلت له: خير؟ قال لي: طرق طرق، الدسام الطبيعي ليس صوت، أما الدسام الصناعي فيه خردقة، قال لي بالنهار: لا يشعر بضجيج، في الليل لا ينام، من كان دسامه سليمًا، شريان التاجي لمعته واسعة، الكبد يعمل بانتظام، الكليتان بانتظام، يرى بعينيه، هناك مرض تضيق ساحة الرؤية إلى أن تصبح الدائرة صغيرة جداً .

زارني أخ معه هذا المرض، قال لي: ماشي بالطريق، اصطدمت بامرأة، فظنت بي الظنون، قلت لها: يا أختي، والله لا أبصر، سامحيني، اندفع إلى سيارة ولم يرها، جاء طبيب أجرى له عملية، ونجحت العملية، لكن منعه أن يسجد، قال له: متى تسمح لي أن أسجد، وأشكر الله عز وجل؟ قال له: الأمر يطول، بعد شهر ثان، قلت له: والله أنت سجدت قبل أن تسجد، لما قال للطبيب: متى تسمح لي أن أسجد حتى أشكر الله على نجاح هذه العملية؟ قال له : الآن: لا بد أن تبقى من دون سجود، قلت له: أنت سجدت قبل أن تسجد .

الذي عنده شبكية سليمة، أحد أخواننا –نسأل الله له العافية- لا ينام الليل، أنا متأكد لو عنده مليون ليرة، يدفعها ثمنًا، لينام ليلة واحدة، قلت له: امش، قال لي: أمشي حتى أتعب، أبداً، ولا دقيقة ينام، ولا ثانية، فلما يضع الإنسان رأسه على الوسادة وينام، يعني: فهو نعمة لا تقدر بثمن، نعمة النوم، نعمة الصحة، نعمة السمع، نعمة البصر .

يعني: سمعنا عن عميد الأدب العربي، فقد بصره، قال: يصف بسويسرا، قلت: لا داعي، لا يرى شيئاً، فإذا فقد الإنسان بصره، لا يرى شيئاً، نعمة البصر، فلما يشكر الإنسان هذه النعم التي حباه الله بها .

يزور إنسان سجناً يجد أسيراً، لا يتحرك، لا يتصل بإنسان، لا يقعد مع زوجته وأولاده، أيضاً: نعمة الحرية نعمة كبيرة جداً .

فالله عز وجل من ألف باب وباب، من ألف باب في الجسم، من ألف باب بمن فوقك، بمن دونك، بمن حولك، مفتاح زوجتك بيده، مفتاح أولادك بيده، مفتاح رؤسائك بالعمل بيده، مفتاح أتباعك بيده، مفتاح صحتك بيده، مفتاح رزقك بيده، كله بيده، قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)

[سورة هود الآية: ١٢٣]

هذا هو التوحيد :

أخواننا الكرام، التوحيد شي رائع جداً: أن ترى يد الله وحدها تعمل، ألا ترى مع الله أحداً، لا شريكًا، ولا رجلاً قويًا، ولا رجلاً مخيفًا، ولا رجلاً يفعل ما يهدد، كلهم دمى بيد الله عز وجل، حتى الأقوياء منهم، عصي بيد الله عز وجل، وأكبر دليل:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

[سورة هود الآية: ٥٥ ـ ٥٦]

وحوش مخيفة، كل وحش ممكن أن تكون للواحد لقمتان بفمه، كلها مربوطة بأزمة، بيد جهة قوية، ورحيمة، وعادلة، فأنت علاقتك ليست مع الوحوش، مع الذي يملك أزمتها، فما دام الحبل مشدودًا فأنت مرتاح، فإذا أرخي الحبل، هناك المشكلة .

يا أخوان، كل مخلوق بيد الله عز وجل، إذا أراد الله أن يؤدب إنسانًا، يرخي حبل هذا الوحش، فيصل إليك، فينهشك، يخلق لك مشكلة، يطالبك بشيء فوق طاقتك، يضع لك عراقيل صعبة، يبحث عن أدق الدقائق في معاملتك، الله أرخى له الحبل .

حديث جامع مانع :

أخواننا الكرام، هناك حديث -والله الذي لا إله إلا هو- عن رسول الله، هو جامع مانع، قال:

((لا يخافن العبد إلا ذنبه))

أحياناً: ينام الرجل بالعراء، حيث الثعابين -فرضاً- والأفاعي، والعقارب، والوحوش.

((لا يخافن العبد إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه))

لا يخافن إلا ذنبه .

في بعض البلاد، طريقة من طرق التصفية، كلب عقور يمنع عن الطعام أسبوعين، ثم يجمع مع شخص، فيأكله عن آخره .

رجل صالح لم يقترب الكلب منه، ولا تحرك، الله عز وجل كل شيء بيده، هذا الشعور: أن كل جهة بالأرض بيده، يملأ قلبك أمنًا، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

قال لي شخص: معي مرضان أستاذ، أدوية كل مرض، تزيد المرض الآخر، فأنا ممتنع قهراً عن أخذ الدواء، أدوية المعدة وأدوية القلب، أدوية المعدة تسبب تفاقماً في مرض القلب، وأدوية القلب تسبب قرحة بالمعدة، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

هذا ما يتمتع به المؤمن :

أيها الأخوة، لكن ليس من المعقول: أن يعيش الإنسان طوال حياته في خوف شديد، الآية الكريمة:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)

[سورة المعارج الآية: ١٩]

يعني: شديد الخوف، قال تعالى:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)

[سورة المعارج الآية: ٢٠ - ٢١]

أتم الآية:

(إِلَّا الْمُصَلِّينَ)

[سورة المعارج الآية: ٢٢]

معنى ذلك: أن المصلي برئ من هذا الخوف، أمنه الله عز وجل، يعني: نعمة الأمن، والله الذي لا إله إلا هو لا تعدلها نعمة على وجه الأرض، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٨١ - ٨٢]

لهم وحدهم، يعني: في قلب المؤمن أمن، لو وزع على أهل بلد لكفاهم، بيد خالق الكون، بيد رحيم، أمره بيد رحيم، بيد عادل، بيد قوي، بيد حكيم، بيد لطيف، هذا الشعور وحده صحة.

هناك أمراض كلما تقدم العلم أثبت: أن معظم الأمراض أساسها شدة نفسية، هذا جهاز المناعة المكتسب، أروع جهاز بالإنسان .

هذا ما حدثني به الطبيب في لوس أنجلوس :

حدثني طبيب بلوس أنجلوس، قال لي: في الإنسان مورث سرطاني، الآن: الهندسة الوراثية من أرقى العلوم، في كل إنسان مورث سرطاني، الإنسان عنده باليوم ملايين الخلايا السرطانية، أما جهاز المناعة المكتسب، ففيها فرقة الاستطلاع، وفرقة القتال، وفرقة تصنيع السلاح، وفرقة الخدمات، وفرقة متميزة جداً، تشبه جيوش كمندوس المغاوير، هذه الفرقة كشفت في عام ٦٩ ١٩، والذي اكتشفها أخذ جائزة نوبل، هذه الفرقة عندها إمكانية عالية جداً، حيث إنها تلتهم الخلية السرطانية في وقت مبكر جداً، ما دام الجهاز المناعة قويًا، فكل خلية سرطانية، تلتهمها هذه الفرقة المتميزة، قال لي: تماماً كالصنبور والمصب، هناك توريد للخلايا، واستهلاك لهم.

متى ينشأ مع الإنسان ورم خبيث؟ لما يضعف جهاز المناعة المكتسب، لذلك أكثر مرض الإيدز معهم سرطان، لأنه ضعف فيهم جهاز المناعة المكتسب، فهذا الجهاز المناعة المكتسب شيء يحير، قيادته ليست داخل الجسم، جهاز الدوران قيادته في القلب، جهاز التصفية القيادة في الكليتين، الجهاز العصبي قيادته في الدماغ، الجهاز الهرموني قيادته في هذه المراكز اللمفاوية، إلا جهاز المناعة المكتسب ليس لك قيادة بالجسم.

هكذا قرأت في كتاب علمي، والكتاب مترجم بمجلة محترمة جداً، قال: قيادته خارج الجسم، يعني: كأنها بيد الله عز وجل، فإذا قوي هذا الجهاز، التهم كل الأمراض الإنتانية والسرطانية .

قال: ما الذي يقوي هذا الجهاز؟ الأمن، الشعور بالأمن، يقويه الحب، إذا كان في المجتمع حب، وطمأنينة، وراحة نفسية، جهاز المناعة قوي .

لذلك: تجد الإنسان معه قلق، معه خوف، عنده حقد، أقل مرض ينقله إلى ورم خبيث، وقد تجد الإنسان عنده أخطاء كثيرة جداً بجسمه، عنده حالات صعبة جداً، لكن قوة جهاز مناعته، هو الذي يبعده عن الأمراض الخبيثة .

لذلك: التوحيد صحة، صحة بالمفهوم المادي العلمي الجامد، التوحيد صحة .

لك هذا أيها المسلم :

سأله مرة ثانية، ومرة ثالثة، بأسلوب تربوي، في المرة الرابعة، قال له:

((يا معاذ حق الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشرك به شيئاً، تركه فترة، قال له: يا معاذ ما حق العباد على الله إذا هم عبدوه؟ قال له: الله ورسوله أعلم، مرة ثانية، مرة ثالثة، مرة رابعة، قال له: يا معاذ، حق العباد على الله إذا هم عبدوه، أن لا يعذبهم))

فإذا أنشأ الله عز وجل لك حقًّا عليه، تجد نفسك مرتاحًا في بيتك، بعملك، يا ربي أنت وليّ، وإذا تولى الله إنسانًا، من يستطيع في الأرض أن يصل إليه؟ من يجرؤ أن يصل إليه؟ وإذا تخلى الله عز وجل عن إنسان، أقرب الناس إليه يتطاول عليه، أقرب الناس إليه الذي قدم له كل خدمة، يتطاول عليه .

اقرأ بتدبر :

أيها الأخوة الكرام، قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ)

[سورة هود الآية: ١٠٢-١٠٦]

الآية الثالثة التي ذكرها الإمام النووي رحمه الله تعالى:

(وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ)

[سورة آل عمران الآية: ٢٨]

إذا رأيت الله يتابع نعمه عليك، وأنت تعصيه، فاحذره، قال تعالى:

(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ)

[سورة عبس الآية: ٣٤ - ٣٧]

هذا ما أعتقده :

أيها الأخوة، أنا أعتقد وأرجو أن أكون على صواب، أن الشيء الوحيد الذي يحملك على طاعة الله حقيقة: هو الخوف من العقاب، هذا كلام علمي دقيق، وما سوى هذا الدافع، هناك أخذ ورد، وهناك موضع جدال كثير حول الدوافع الأخرى، أما أنت حينما ترى أن الله موجود، ويعلم، وسيحاسب، وسيعاقب، ولا يمكن أن تنجو من عقابه، تستقيم على أمره، هذه حقيقة، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ)

[سورة الحج الآية: ١]

إذا كان خالق الكون يقول لك: شيء عظيم .

الزلازل غير زلزلة الساعة، الزلازل التي حولنا شيء عظيم، قال: أخرجوا طفلة تحت الأنقاض، بقيت ٧٨ ساعة، أخرجوا امرأة عمرها ٧٠ سنة بعد ستة أيام، إنسان تحت الأنقاض يصيح، فلا أحد يسمع، لا ماء، هناك من يشرب بوله، هناك يأكل بعض من حوله، من شدة الجوع، هو تحت الأنقاض، لكنه حي، وابنه مات إلى جنبه، يأكل من لحم ابنه، هي زلزلة الأرض، إعصار باليابان، إعصار بأمريكا، فيضان، والعياذ بالله، أخبار الكوارث لا تنقطع، قال تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ)

[سورة البروج الآية: ١٢]

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

[سورة الحج الآية: ١ - ٢]

هذا ما حدث بمصر :

أيها الأخوة الكرام، حدثني صديق، كان بمصر أيام الزلزال عندهم، أقسم لي بالله، أن امرأة من شدة الخوف، توجهت إلى حذاء زوجها الجديد وحملته، وظنت أنه ابنها الصغير الرضيع، قال تعالى:

(يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ)

[سورة الحج الآية: ٢]

كان عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول:

((اللهم إنا نعوذ بك من فجأة نقمتك))

بلاد جميلة، رائعة، جبال خضراء، سواحل رائعة، طقس جميل بين البرد والحر، أبنية، فنادق، مطاعم، محلات للتسلية، يعني: محطات وقود، خدمات بأعلى مستوى، البحار فيها القوارب، وفيها درجات البحر، وفيها سباق القوارب، فجأة، قال تعالى:

(جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا)

[سورة هود الآية: ٨٢]

الخوف ضروري، يجب أن تخافه كي تطيعه، ويجب أن تحبه، ويجب أن تعظمه .

هذا هو المؤمن :

الآية التي بعدها:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ)

[سورة الرحمن الآية: ٤٦]

جنتان؛ جنة في الدنيا، وجنة في الآخرة، هذا مقام الخوف، مقام عال جداً، قال تعالى:

(إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)

[سورة الحشر الآية: ١٦]

معاذ الله! لا أفعل هذا، بحياة المؤمن يقول: بملء فمه، ولا يخشى لومة لائم، لا أفعل هذا، لو قطعتني .

إنسان سمعت عنه، أنه أجبر على شيء يغضب الله عز وجل، قال له: لا أفعل هذا، وافعل ما شئت، والذي أمره بإمكانه أن يسحقه، فلما امتنع، كلف إنسانًا آخر، ففعل ما يريد، قال لي: والله الذي فعل ما يريد، نزع من تحت مركبته أربع قطع، بعد شهر بحادث، قال لي: والله أنا الله أكرمني، أتمتع بأعلى مكانة في عملي، مع أنني رفضت أن أغضب الله عز وجل.

ما وراء هذه الكلمة :

هناك كلمة أقولها لكم دائماً: والي البصرة، كان عنده الإمام الحسن البصري، سيد التابعين، فجاءه توجيه من يزيد، التوجيه: لو نفذه أغضب الله، وإذا لم ينفذه أغضب يزيد، وقد يعزله، قال له:

((ماذا أفعل يا إمام؟ -أجابه إجابة، تكتب بماء الذهب، ويجب أن تكون شعارًا لكل مؤمن الآن-، قال له: إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله))

إذا أمرك إنسان بمعصية، أبوك، افعل كذا، وهو شيء لا يرضي الله عز وجل، الله عز وجل يمنعك من هذا الإنسان، ولكن هذا الإنسان إذا أراد الله أن يؤدبك، لا يمنعك من الله عز وجل .

هذا كلام رسول الله :

ذكر أول آية، الثانية، ست، سبع آيات في هذا الباب، كلها عن الخوف من الله عز وجل، أما سآتيكم بحديث واحد، هذا الكلام كلام رسول الله، والحديث متفق عليه، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى .

عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا))

والذي أقصده .

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ:

((سَمِعت النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: إنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَرَجُلٌ يوضَعُ فِي أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَان، يَغْلِي مِنْهِمَا دِمَاغُهُ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

(جمرتان في أخمص قدميه، يغلي منهما دماغه)، هذا كلام من؟ كلام إنسان عادي، أما كلام رسول الله، وهو الذي لا ينطق عن الهوى؟ .

مناسبة هذه القصة :

فيا أيها الأخوة، مرة ذكرتها لكم كثيراً، لكن الآن مناسبتها، قال لي مرة طالب: أنا لا أخاف من الله، طالب أرعن، قلت له: أنت بالذات معك حق، لا تخاف منه، فلما قلت له: أنت بالذات معك حق، انزعج أكثر، قال: من أنا؟ قلت له: يا بني، الطفل الصغير، عمره سنتان، يأخذونه على الحصيدة، يمر من جنبه ثعبان، لا يخاف منه، يلحمس عليه، ليس هناك خوف، الإنسان يخاف بقدر إدراكه، يخاف بقدر علمه، يخاف بقدر معرفته .

هذا الذي يرتكب المعاصي والآثام، ويأكل مالاً حراماً، ويزني، ويشرب خمر، هذا أين إدراكه؟ إدراكه صفر، والله عز وجل يبطش به بطشة واحدة، فالذي لا يخاف، إنسان غير سوي، إنسان مختل، إنسان فاقد العلم، فاقد البصيرة، فاقد الوعي، فاقد الإدراك .

خاتمة القول :

أعيد وأقول: الخوف أحد أكبر الدوافع للاستقامة على أمر الله، والخوف أحد أكبر الدوافع للتوبة لله عز وجل، والخوف أحد أكبر الدوافع للصلح مع الله عز وجل، والخوف أحد أكبر الدوافع، والخوف أحد أكبر الدوافع لتسعد بقرب الله عز وجل، والخوف نقطة ضعف بالإنسان لصالحه، كالفيوز تمام في الآلة، الفيوز تعريفه مسار ضعيف جداً، فإذا جاء التيار قويا، ساخ هذا المسار، وانقطع التيار، وحفظ الجهاز، ونفس الشيء الإنسان، الخوف يمنعه عن أن يتطاول .

إنسان لا بصلي، جاءته مصيبة كبيرة، بدأ يصلي، هذه القصة أسمعها مئات المرات بالشهر، على أثر مصيبة بدأ يصلي .

إنسانة متبرجة، متفلتة، منحلة تقريباً، دعيت إلى الطاعة والاستقامة والحجاب، أبداً، أصابها مرض عضال، فقالت بالحرف الواحد: لو أن الله شفاني، لأضع على رأسي ما يوضع على الحمار، من شدة ألمها، من شدة ألمها، قالت كلمة قاسية جداً، لعل الله يشفيني، إذا جاء الإنسان بعد مصيبة جيد، الأجود أن يأتي بلا مصيبة .

مرة إنسان أحب أن يمزح، أنا قبلتها منه، دعوتك ما ملخصها؟ قلت له كلمتين أعيدهما ثلاثين سنة: إمّا أن تأتي ركضًا، وإما أن يؤتى بك ركضًا، اختر واحدة منهما .

ملخص الملخص: إمّا أن تأتيه طائعاً، مسرعاً، مشتاقاً، منيباً، مقبلاً، وإمّا له طرق، تأتي مقهوراً .

((عجب ربكم من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل))

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٩٣-١٠١) : باب الإصلاح بين الناس - ما خطورة هذه الخلافات التي يعيشها بعض المسلمين اليوم؟ وما السبيل إلى حلها؟ وما المعاني التي تتركز عليها هذه الآية (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم)؟ وما هي المواضع الثلاث التي أجا

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-١٠-١٧

بسم الله الرحمن الرحيم

أين تظهر قوة الإسلام؟ وهل يعد إصلاح ذات البين ضروري في الدين؟ :

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتمُّ الصلاة والتَّسليم، والباب اليوم: باب الإصلاح بين الناس .

انطلقت في هذا الدَرس من حقيقةٍ خَطيرة، فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ، وَالصَّلاةِ، وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى قَالَ: صَلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ))

وَيُرْوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ:

((هِيَ الْحَالِقَةُ، لا أَقُولُ: هي تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ))

[أخرجه أبو داود والترمذي في سننهما]

فهذا الإسلام قوَّته في الودّ بين أبنائه، قوته في التعاون، قوته في التضامن، من حين لآخر، اطّلع على خلافات عميقة بين المؤمنين؛ عداوات، شَحْناء، بغضاء .

إذاً: فما قيمة العقيدة الصحيحة؟ وما قيمة العبادات؟ وما قيمة هذه الشعائر التي نمارسها جميعاً، إذا كانت القلوب ممتلئة بالبغضاء، والحقد، والحسد، والاستعلاء؟ لذلك: إصلاح ذات البين جُزءٌ أساسيٌ من الدين .

هذا حال بعض المسلمين اليوم :

فالحديث الذي بدأته:

((أَلاَ أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ، وَالصَّلاةِ، وَالصَّدَقَةِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: صَلاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ))

وَيُرْوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ:

((هِيَ الْحَالِقَةُ، لا أَقُولُ: هي تَحْلِقُ الشَّعَرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ))

[أخرجه أبو داود والترمذي في سننهما]

كم من إنسان ترك مجلس العلم لخلافٍ بينه وبين أخٍ في المَسجد؟ كم من إنسان رَفض الدين كله لمعاملةٍ سيئةٍ تلقَّاها من مسلم؟ كم من إنسانٍ كفر بالصلاة، لأنه عامل إنسانًا يصلي ويكذب، ويصلي ويحتال؟ .

مرة كنت في مجلس، فتكلم أحد الأخوة الكرام، قال: والله أعرف رجلاً يرتاد المساجد ، ويحضر دروس العلم، يسكن بيتًا ثمنه سبعة ملايين، له مالكة من تركيا، تعيش من أجرته، كيف استولى عليه بسبعمئة ألف لا يعرف؛ بالتهديد، والوعيد، والاحتيال، والكذب .

تجد المسلم يؤدي الشعائر، أما في التعامل فتجده صفرًا، في التعامل يكذب، في التعامل يحتال، في التعامل يأخذ ما ليس له، يوقع في الناس صدمة خطيرة جداً، صدمة اسمها: خيبة الأمل بالدين .

هو شخص محدد، معين، له اسم، عندما عمل عملاً سيئاً، نَقَل الإساءة لدينه، نقل الإساءة لإسلامه، والطرف الآخر يدفع على الإساءة مليون، لأنه هو صدق ظنُّه، في أن الدين باطل، الدين بالتعبير اليومي زعبرة .

هل يعد الصلح حلاً لهذه المشكلة؟ وما الأثر الذي يتركه العمل الصالح في نفس صاحبه، وما

فيا أيها الأخوة الكرام، تزداد معنوياتي إلى درجة مذهلة، عندما أجد تضحية وإيثارًا.

أخ من أخواننا الكرام، دون أن أذكر اسمه، وهو لا يرضَى أن أذكر اسمه، أنشأ عدة أبنية في إحدى ضواحي دمشق، مدير الجمعية الذي يجب أن يستلم منه الأبنية، ماطل في الاستلام، إلى أن أضرَّه بمبلغٍ كبير، سنتان أو ثلاث ولم يستلم، فهذا المهندس أقام دعوى، والدعوى بقي لها سنتان أو ثلاث، ومبلغه ضخم جداً بالملايين، بعد حين محامِي الطرف الآخر، له معرفة بهذا المسجد، فقال له: يمكن أن نقيم حلاً صُلحيًّا، قال له: أتمنى، جاؤوا إلى المسجد، هذا الأخ المهندس الذي له الملايين، لما قال له رئيس الجمعية: هذا المبلغ سوف يدفعه أناس فقراء، المنتفعون بهذا المشروع، ولا ذنب لهم، الذنب متعلّق بالمدير السابق، هذا الأخ الكريم، لما عرف أن هذا المبلغ، سيدفعه أناس فقراء، أنا لم أصدق بجلسة واحدة سامح المبلغ، وقد سامحه واللهِ أمامي .

فأحياناً: الصُلح يحل مشكلة، لما يعمل الإنسان عملاً طيبًا تنمو نفسه، أذكركم بقول الله عز وجل:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)

[سورة التوبة الآية: ١٠٣]

تُطَهِّرُهم من الحِقد، تطهرهم من الشُح، الفقير تطهر نفسه من الحِقد، والغَنِيّ تطهر نفسه من الشح، أما تزكيهم: فيشعر الفقير بنماء بنفسه .

أحياناً: الإنسان تأتيه حالات نمو، يحس أنه إنسان له عند الله مكانة، إنسان ترك بصمات واضحة في المجتمع، إنسان له تأثير كبير، إنسان أسْهم بخدمة الناس، حَمَل جُزءًا من هموم الناس، وأحياناً:

يعاين بعض الخلافات بين المسلمين، يشعر بحالة انكماش، فالمؤمن بين انفتاح وانكماش، انكماش سببه خلافات مستعصية؛ أحقاد، حسد، أهواء مسيطرة، مصالح مسيطرة، فالإنسان يتألّم، يقول لك: إسلامنا شكلي، إسلامنا شعائري، إسلامنا جُغرافي، وهذا تعبير جديد؛ أيْ أنت بمكان معين مسلم .

لو سافرت إلى مكان آخر تتغير كل مسلكك، فالإسلام الذي يتبَدَّل من مكان إلى مكان، لا قيمة له إطلاقاً، الإسلام الذي يتبدل من مكان إلى مكان، هذا إسلام جغرافي .

سبب اختياري لهذا الموضوع :

أيها الأخوة، فالذي حملني على اختيار هذا الباب، هو أن الشقاء، والعداوة، والبغضاء بين المؤمنين، هذه تَحْلق الدين كلَّه، والصحابة الكرام لم يرض الله عنهم إلا بالحُب .
مرة ذكر أحد الصحابة أمام النبي، وغمز من قناته، النبي الكريم تفقَّد أحد الصحابة، فأحدهم قال له:

((يا رسول الله، شغله بستانه عن أن يُجاهد معك، فقام صحابي، قال له: لا والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلا خيراً؛ لقد تخلَّف عنك أناس، ما نحن بأشد حباً لك منهم، ولو علموا أنك تلقى عدواً ما تخلفوا عنك، فتبسم النبي عليه الصلاة والسلام))

فكان عليه الصلاة والسلام طيب النفس بهذا الكلام .

فأنت هل لديك استعداد أن تدافع عن أخيك؟ أن تقف موقف قوي بغيبته؟ أن تدافع عن نزاهته؟ عن إيمانه؟ عن ورعه؟ أما إذا تكلّم الناس عنه ترتاح من الداخل، وتقول في نفسك: هذه رجل ثان سقط؟.

هناك شخص كلما سقط مؤمن يفرح، يقول لك: ألم أقل لك: إنه كله زَعبرة؟ هو صدق عليه إبليس ظنه، أصبح إبليس .

احذر من أن تكون في هذا الخندق :

أيها الأخوة، هناك آية قاصمة للظهر، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ)

[سورة النور الآية: ١٩]

ماذا فعل هذا الإنسان؟ لم يتكلّم ولا بكلمة، لم ينبس ولو بنت شفة، فقط ارتاح، أن هذا الإنسان سقط أو افتضح، حينما تُسَر بمصيبةٍ وقعت بمؤمن، يجب أن تعلم علم اليقين -لا سمح الله ولا قدر- أن هذا الذي سُر بمصيبةٍ وقعت بمؤمن، هو في خندق المنافقين بالدليل القطعي، قال تعالى:

(إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ)

[سورة التوبة الآية: ٥٠]

هذه مساجد المسلمين اليوم:

يتساءَل الإنسان: عندنا كل شيء، مساجد ضخمة جداً، الآن: هناك مساجد يمكن في تاريخ المسلمين ما أنشئ مثلها .

أنا دخلت مسجدًا بالدار البيضاء، كلّف ألف مليون دولار، فيه زخرفة تُحَيِّر العقول، هو مبني فوق البحر، وأنت في الحرم، ترى البحر الذي أمر ببنائه، انطلق من قوله تعالى:

(وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)

[سورة هود الآية: ٧]

مئذنته جامعة، بكل معاني هذه الكلمة، ومع ذلك لا يوجد حُب، لا يوجد ود، لا توجد استقامة، ولا التزام، الدين ليس مسعداً في هذه الأيام، لأن معه أعمالاً سيئة .

نقطة هامة :

أيها الأخوة، الذي أتمناه في هذه النقطة المهمة جداً: لو أنه في دائرة صغيرة جداً الإنسان مطبق بها، هذه الدائرة تنمو، في الدعوة الإسلامية خلل خطير، وهو: أن كل من تدعوهم إلى الإسلام، لا يتعاملون مع الكلام، يقول: ائتن بمجتمع مسلم، حقق كل أهداف الإسلام، حتى أصدِّق كلامك، هذا منطق الغربيين.

إذا سافر الإنسان إلى بلاد الغرب، يجد عنده هذه المشكلة، الغربيون لا يعتَدون بالكلام، إذا كنت تؤمن أن هذا المنهج صحيح، ومنهج من عند الإله، ائتن بمجتمع طبَّق هذا المنهج، وقطف ثماره، حتى أخضع لك، أما أن تتباهى، نحن ديننا دين عظيم، نحن ديننا دين التوحيد، نريد الواقع، والواقع ليس ذلك .

فهناك عداوة، وبغضاء، وحسد، وغيبة، ونميمة، وكذب، واحتيال، واغتصاب، اغتصاب أموال، واغتصاب أعراض، فهذا المجتمع لا يدعو أن يلفت نظر الناس.

لذلك: أيها الأخوة، هذا الباب في رياض الصالحين، يقول تعالى:

(لا خير في كثيرٍ من نجواهم إلا من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بين الناس)

[سورة النساء الآية:١١٤]

أي: كلامٍ لا قيمة له، ما لم تأمُر بمعروفٍ، أو تصلح بين الناس، قال تعالى:

(إلا من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بين الناس)

[سورة النساء الآية:١١٤]

معناها: ثُلث الكلام، يجب أن يكون إصلاحًا بين الناس .

ما هو منـهج التحقيق؟ :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)

[سورة الحجرات الآية: ٦]

قال:

(قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ)

[سورة النمل الآية: ٢٧]

هناك تحقيق، فأساساً هذا منهج التحقيق، لا تقبل رواية قبل التحقق مِن صِحتها، لا تقبل قول إنسان في إنسانٍ، حتى تسمع مِن الطرف الآخر .

أنا مرة أمضيت -أعتقد- سبعة أو ستة دروس في هذا المسجد، حول القضاء في الإسلام، انطلقت من فكرة: أن يتوهم بعض الأخوة الكرام، أن هذا البحث يهم القضاة، لا، أنت قاضٍ وأنت لا تدري؛ أنت قاضٍ بين ابنتك وزوجها، وقاضٍ بين ابنك وأخيك، وقاضٍ بين جارك وجاره، وقاضٍ بين شريكين، فليس هناك مسلم، لا يحكم مئات المَرَّات بين مسلمين، فأنت قاضٍ، فالقاضي يستمع إلى هذا وإلى ذاك، ثم يقول الله تعالى:

(وَالصُّلْحُ خَيْرٌ)

[سورة النساء الآية: ١٢٨]

ما مفصل هذه الآية؟ :

أيها الأخوة، هذه آية قرآنية، قال تعالى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

هذه الآية مركزية، مفصلية، أصلح نفسك، عرفها بربها، واحملها على طاعته، وأصلح ما بينك وبين الله، وأصلح ما بينك وبين الناس، وأصلح بين أية علاقة بين شخصين .

ما مطلوب منك بعد هذه المقارنة؟ :

أخواننا الكرام، الأخوة في الدين مهمة جداً، فلو وازنت بين مجتمع الصحابة الكرام ومجتمعنا، تجد عندنا مظاهر صارخة؛ مساجد فخمة جداً، مؤتمرات، ألقابًا علمية، مكتبات، لكن لن تجد ما كان بين الصحابة من ود، لن تجد ما كان بين الصحابة من حُب، لن تجد ما كان بين الصحابة من تعاون، من إيثار، إذا عز أخوك فَهُنْ أنت .

فمن يصدِّق: أن رجل كسيدنا الصديق، يعدُّ قمة العالم الإسلامي بعد رسول الله .

((ما طلعت شمسٌ على رجلٍ بعد نبيٍ أفضل من أبي بكر))

من يصَدِّق: أن هذا الخليفة العظيم، يمشي على قدميه، وأسامة بن زيد فتىً، لا تزيد سنه عن سبعة عشر عاماً، يركب ناقةً، وقد عيَّنه رسول الله قائد الجيش، فهذه أين تصير؟ .

من يقبل يمشي بركاب فتى، وهو قائد جيش؟ من يقبل أن يكون عمر جندياً في هذا الجيش؟ هل يقبل عليٌ أن يكون جندياً في هذا الجيش؟ قَبِل، هل رضي عثمان؟ نعم، بل إن سيدنا الصديق، استأذن أسامة في أن يبقي له عمر، هذه تسلسل في القيادة، لو قال له: يا عمر ابق معي، فمعناها تجاوز، استأذن أسامة، وهو قائد الجيش، أن يسمح له بعمر، ليعينه في أثناء غيبة الجيش . قال له:

((والله يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن، قال له: والله لا ركبت ولا نزلت، وما علي أن تغبَّر قدماي ساعة في سبيل الله))

الإسلام فيه شيء لا يصدق؛ إنكار للذات مُذْهِل .

فنحن نطالب الأخوة الكرام بالتعاون فقط، بالحِلم، بالرضا، بأنصاف الحلول، فكل إنسان هو هنا وخَصْمه هنا، أنا بهذا المبدأ، حاول أن تمشي إلى نصف الطريق، ولو مشى الطرف الآخر إلى نصف الطريق لالتقيتم، أما كل طرف يدعو الطرف الآخر إلى أن يأتي إليه، هذا كبر، هو قطع نصف المسافة، أنت تنازل بعض التنازل، طبعاً: هذه لا تطبقوها في شؤون الدين، لا يوجد تنازل في الدين، قال تعالى:

(وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ)

[سورة القلم الآية: ٩]

عندنا في الدين مداراة، وعندنا مداهنة، المداهنة: بذل الدين من أجل الدنيا، المُداراة: بذلُ الدنيا من أجل الدين .

ما المعاني التي تشملها هذه الآية: (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم)؟ :

١-معرفة النفس بربها وحملها على طاعته :

أيها الأخوة الكرام، يغيبُ عن ذهن بعض المسلمين، أن كل أمرٍ في القرآن يقتضي الوجوب . أنا أقول لبعض الأخوة: لماذا تصلي؟ يقول لي: معقول لا أصلي! لماذا تصلي؟ وهو لا ينتبه للسؤال، فيجيبك: فرض الصلاة، كيف هي فرض؟ لأن الله قال:

(فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

[سورة المجادلة الآية: ١٣]

وهي فعل أمر، إذا الله قال:

(فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ)

[سورة المجادلة الآية: ١٣]

فعل أمر يقتضي الوجوب، فالصلاة فرض، وإذا قال:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

دقق: لماذا تصلي؟ لأنها فرض، كيف عرفت أنها فرض؟ لأنها جاءت بشكل فعل أمر، فهذا جيد، إذا جاء فعل أمر آخر، يجب أن تعتقد، أن إصلاح ذات البين فرض، كما أنك تصلي، ينبغي أن تُصلح ذات بينك، بينك وبين أخيك، بينك وبين جارك، بينك وبين صديقك، بينك وبين أبيك، بينك وبين أمك، قال تعالى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

وكما ذكرت قبل قليل: أصلح نفسك، أيْ عَرِّفها بالله، واحملها على طاعته، ثم أصلح العلاقة بينك وبين الله .

إذا كان عند أحدكم هاتف فخم جداً، ورفع السماعة، ولا يوجد خط، أله قيمة؟ يقول لك: فيه تسعة ذواكر، خير إن شاء الله، تكون مئة ذاكرة، لكن ليس فيه رنَّة، فإذا لم يكن عند الإنسان خط حامٍ مع الله، فهو مقطوع عن الله عز وجل، كل أعماله ليس لها قيمة، الخط الحامي يأتي من الطاعة، قال تعالى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

أيْ: عرفوها بربها، حملوها على طاعته، وانتهت العملية، هذا أول معنى .

٢-إصلاح العلاقة مع الله :

المعنى الثاني:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

أصلحوا العلاقة بينكم وبين الله، غير الاستقامة، اعمل عملاً صالحاً، الاستقامة سلبية كلها (ما) . سيدي أنا لم أكذب، أنا لم أغش، أنا لم اغتب، كل ذلك يسبقه الحرف (ما)، فهذه الاستقامة قبلها يوجد (ما)، لكن ماذا قدَّمت؟ هل قدَّمت من وقتك؟ هل قدَّمت من مالك؟ هل قدمت عضلاتك؟ هل قدمت من خبرتك؟ هل قدمت من علمك؟ هل ضحيت بوقتك؟ ماذا قدَّمت للمسلمين؟ فإصلاح العلاقة مع الله تكون بالعمل الصالح، نريد دليلاً قطعيًّا، قال تعالى:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً)

[سورة الكهف الآية: ١١٠]

الآن: تصلح العلاقة بينك وبين الناس؛ تجد زوجين بينهما علاقة سيئة جداً، شقاق، وكلام قاس، ولا مبالاة، وإغاظة، وشحناء، وبغضاء، بيت محطم، أليس لديك إمكان أن تُصلح العلاقة بينك وبين زوجتك؟ بإمكانك، فإذا دخلت بيتك فسلِّم، وجدت فيها إيجابيات أثنِ عليها، وجدتها غاضبة اسكت، جاء أهلها أكرمهم، هذه كل القصة، بيدك أن تملك قلبها .

((بالبرِّ يُسْتعبد الحر))

بإمكانك أن تثني عليها بما هو فيها، من دون كذب، بإمكانك أن تقدِّم لها هدية، بإمكانك أن تُحسن كلامك معها، بإمكانك أن تُكرم أهلها، في عندك وسائل كثيرة، بإمكانك أن ترفعها إلى مكانةٍ مقبولة، لا أن تعدها من الدرجة الثانية .

أصلح علاقتك بينك وبين من حولك، ثم أصلح علاقتك بينك وبين الناس، ثم بادر إلى إصلاح علاقةٍ بين رجلين، أو بين زوجين .

بادر إلى هذا الإصلاح :

أيها الأخوة، هناك بالعائلات مشكلات مستعصية، غاضبة ثمانية أشهر، وكل يوم يزداد حِقد الزَوج على زوجته، لم يخبرون، لا يريدونني، ملؤوا برأسها، نفخوا فيها، لم يستفقدني، ليست لي قيمة عنده، فيصل الأمر إلى درجة الطلاق، يكون حولهم مئة قريب، لا أحد يتدخَّل، مرتاحون، كأنها مسرحية يشاهدونها ويستمتعون بها .

لو جاء واحد إلى بيت الزوجة، فأقنعها أن زوجك ممتاز، وأنتِ أخطأتِ معه، وأنتِ قومي بمبادرة، لو أنه ذهب إلى بيت الزوج، وقال له: زوجتك ممتازة، أما أن يقول لك: أنا مشغول، لكن مشغول بماذا؟ هذا أعظم عمل، أن تشفع بين اثنين في نكاح .

واللهِ من فضل الله أحياناً: ينشأ خلاف بين زوجين، يصل إلى الطلاق، الله عز وجل يتفضل ويكرِّم العبد، إذا قدر على يده الوفاق، تجد الأسرة سعدت، والزوج سَعِد، وهي سعدت معه، والأولاد ارتاحوا، قال تعالى:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

فكل واحد منا يستطيع أن يصلح علاقته مع الآخرين بكلمة طيبة، بهدية، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((الهدية تذهب بحَر الصدر))

بكلمة طيبة، باعتذار، وأنت وعلى قدر ما كنت، قل له: سامحني، أنا أخطأت بحقك، والله الطرف الآخر سيذوب خجلاً منك، قل له: سامحني، أنا أخطأت بحقك، لا تؤاخذني، سامحني، كلمة سامحني تذوِّب الصخر .

لو قال لزوجته: سامحيني، أنا قصرت بحقك، غلطت معك، ينتهي كل شيء، ولكن كِبر، لا يتراجع، وهي عندها كِبْر .

فأنا أقول: الإنسان لا يسعد إلا بعلاقة طيبة مع زوجته، مع أولاده، مع جيرانه، مع أولاد عمه، مع أخوة زوجته، تجده ينتقدهم أمامها طوال الوقت، يحطمها تحطيم، هؤلاء أخواتها، مدة جلوسه كلها ينتقد أباها، لماذا؟ دخل فيه شيطان، ودخل شيطان فيها .

هذه بيوتات معظم المسلمين اليوم :

أيها الأخوة، بيوت المسلمين أصبحت جحيمًا، أنا أسمع آلاف القصص عن جحيم بيوت المسلمين، الزوج بوادٍ .

واليوم قال لي شاب: إذا زرت أمي، يغضب عليّ أبي، منعه أن يزورها، طلقت أمه، لا مانع، لكن اسمح لابنك أن يزورها، فالابن تجده يغلي غليانًا، هكذا بيوت محطمة، وتريد أن يرضى الله عنا، بيوت محطَّمة، بيوت فيها ظُلم، بيوت فيها عدوان، بيوت فيها قَهْر، بيوت فيها قسوة، هذا حال المسلمين .

أحياناً: تجد الله من شيء قليل يتخلى عنا، كأنه متخلٍّ عنا من شدة التقصير، هذا الذي دعاني إلى طرح هذا الموضوع اليوم:

(فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ١]

ما المراد بمعنى الحديث هنا؟ :

أيها الأخوة، لك جار لسانه طويل، فهل تستطيع قص لسانه؟ تحتاج إلى مقص، لا، بل تحتاج إلى إحضار كمية تفاح تقدمها له، هدية . النبي قال:

((من يقص لسانه، الصحابة كانوا فطنين، جاء إنسان فقدَّم له هدية، فسكت))

فإذا كان لك جار مزعج، طويل اللسان، قدم له هدية، تجده تلملم، دائماً: أنت خذ جانب السلم، جانب الإحسان، جانب العفو، كلما كبر إيمانك كبر قلبك، وكلما كبر قلبك يسع أخطاء الناس كلها . فإنسان يقتل عمه حمزة وأعلن الإسلام، فانتهى الأمر، المؤمن لا يحقد، المؤمن سليم الصدر أمام الناس جميعاً .

قف عند هذه الأخطاء :

وفي حديثٍ صحيح متفقٍ عليه: عَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عُقْبَةَ قالت:

((سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

أيها الأخوة، هناك أخطاء باللسان، أخطاء بكلامنا، أنا أعده جرائم، منها النميمة، فلان تكلَّم عنك بكذا، ماذا عملنا؟ تكلمنا كلام والله لا يؤاخذنا به .

((إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالاً، يهوي بها في جهنم سبعين خريفاً))

أنا والله من عادتي دائماً أقول: فلان والله يحبك، يثني عليك، تجده ارتاح، قد يكون ثمة شيء من هذا، وقد يكون مبالغًا به، فلا مانع، الحديث سمح لك، قد يكون مبالغة، أنت طيِّبت قلبه، صار جسر بينك وبينه، أما فلان ما إن غادرت البيت، حتى تكلم عليك، ماذا قال ؟ لا أريد أن أقول لك، تكلم، والله لا يُتحدَّث بهذا الكلام، هذه ألعن، هذه علاقة الناس، تجد الناس كلها مفتتة، الأسَر مفتَّتة، الأحياء مفتتة، الأقرباء مفتتين من النميمة .

((النمَّام لا يدخل الجنة))

((لَيْسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ، فَيَنْمِي خَيْرًا، أَوْ يَقُولُ خَيْرًا))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

هذا ليس كذبًا .

في مثل هذه الحالة يجوز الكذب :

أيها الأخوة، فهناك ثلاث حالات الكذب جائز فيها، لكن أنا قلما أذكرها، السبب: أن الناس من دون دف يرقصون، تعطيهم رخصًا، مثلاً: مسموح أن تكذب على زوجتك، فتوسع الرجال فيها، إلى درجة أن يقول لها في هدية اشتراها لها، ثمنها ثلاثة آلاف، ويكون ثمنها ألف، وهي تصدق، تأتي أختها إليها، والله جميلة هذه، بكم أخذتها؟ تقول لها: بثلاثة آلاف، فتقول: ضحك عليك زوجك، هذه ثمنها ألف، صغر زوجها أمامها، هذا الشيء مطبق كثيراً.

الزوج يكذب بالأسعار، كأنه فهم الحديث على الأسعار، هذا الحديث ينصَب فقط لو سألتك زوجتك: أتحبني؟ لو فرضنا أنك لا تميل كثيراً إليها، لا تتمنى أن تصبح زوجتك بهذا الشكل فرضاً، والقضية أن في هذا الزواج مصلحة، زواج إنساني، هناك ألف نوع من الزواج ، فإذا كذب على زوجته وقال: والله إني أحبكِ، فلا مانع، وإذا كان الزوج شكله وسطًا، وله زوجة بارعة الجمال، قال لها: أتحبينني؟ فقالت له: والله أحبك، أنت زوجي، أنت أبو أولادي ، فهذه الزوجة بهذا تكون ذكية جداً .

بهذا الموضوع بالذات الكذب مسموح، وليس بالأسعار، لكن بالمشاعر فقط، يمكن أن تبالغ في المشاعر، عندما تطمئنها ترتاح .

لي قريب مدة أربعين سنة، وهو يقول لزوجته: أريد أن أطلقكِ، قلت له: سوف أنصحك نصيحة: إما تطلقها، وإما أن تسكت، لمَ تقول لها: سوف أطلقك؟ لا يوجد علاقة بينك وبينها، الجدار هُدِم بينهما، وهو لن يطلقها، تهديد شيطاني، المرأة تطلق إذا خانت زوجها، إذا عملت عملاً قبيحًا، إذا عملت عملاً فيه خيانة للدين، ليس هناك امرأة كاملة، ولا يوجد زوج كامل .

فكرة ألهمت بها :

مرة في درس من دروس السبت، تكون فيه مناقشة، ألهمني الله فكرة، أنا دائماً أذكرها، أنا أستعين في الحياة ليس بالنواحي الإيجابية لكن بالسلبية، قال لي أحدهم: وضحها لنا يا أستاذ؟ قلت له: كرجلٍ يمشي في طريق كله حفر، وفي الحقيقة: هذه الحفر مزعجة جداً، هذا له إيجابية، لأن هذا الطريق لا تنام فيه، الطرقات المستقيمة والممهدة، فيها حوادث مروِّعة، لأنه يمشي بسرعة مئة أو مئة وعشرين، صوت رتيب، ينام، حوادث السير بأسباب النوم مخيفة جداً، إذا كان الطريق كله مُنعطفات وحفر، لا تنام أبداً .

فالله عز وجل لا يحبك أن تتعلق بغيره، يريدك له، أما لو كان عندك زوجة كمالها مطلق، تضعها وتبركُ أنت وهي، لكن وسط، فتكون معها قليلاً، ومعنا قليلاً، وبالجامع قليلاً، وبعملك، أما إذا وصل الإنسان إلى غاية الكمال بزواجه، تجده لا يريد أحدًا، لا يطاق عندئذٍ، فكل إنسان من الممكن له، أن

يكتشف النواحي الإيجابية بالسلبيات، هذا من فضل الله عز وجل أن تعرف هذه النقطة، أنها هي سلبية، لكن فيها إيجابية .

إليكم نص هذا الحديث :

وفي رواية مسلم، قال ابن شهاب:

((وَلَمْ أَسْمَعْ يُرَخَّصُ فِي شَيْءٍ، مِمَّا يَقُولُ النَّاسُ كَذِبٌ إِلَّا فِي ثَلَاثٍ؛ الْحَرْبُ، وَالْإِصْلَاحُ بَيْنَ النَّاسِ، وَحَدِيثُ الرَّجُلِ امرأته، وَحَدِيثُ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا))

هذه أم أولادك، وهذه نصيبك، والله عز وجل قَدَرَك .

قابل أحدهم شخصًا في مصر، قال له: أنت قدرُنا، ونحن قدرُك، فإما أن تصبر علينا، وإما أن نصبر عليك .

فالإنسان أحياناً: يكون ابنه قدره، وزوجته قدره، وعمله قدره .

((الدنيا دار ابتلاء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء))

النظرة العميقة، الاتصال بالله، وأن تلهم الحكمة من الله عز وجل، هذه تجعل حياتك المتواضعة جميلة، والحُمق، والبعد عن الحكمة، والبعد عن الله، يجعل النعيم الذي أنت فيه جحيم، فهذه السكينة تسعد بها ولو فقدت كل شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكت كل شيء، كلام موجز دقيق .

فأتمنى على الإنسان، أن يتعامل مع الله بصدق؛ يا رب أنا عبدك وأنت ربي، أنا عليَ أن أطيعك، فإن أطعتك أنت، وعدتني أن تريحني، ألا تعذبني، أن توفقني، أن تُسعدني، أن تملأ قلبي أمناً وأماناً، فإذا هناك مناجاة هكذا .

انظر هنا :

انظر: سيدنا موسى عندما ناجاه الله، قال له:

(وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى)

[سورة طه الآية: ١٧]

فهل يعقل أن الله يسأل؟ سؤال استفهام!؟ سيدنا موسى انتهزها فُرصة لا تعوض، قال:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ)

[سورة طه الآية: ١٨]

يقول: عصاي وفقط، قال تعالى:

(أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

[سورة طه الآية: ١٨]

يريد أن يكمل، يكلم الله عز وجل، فقال له:

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

[سورة طه الآية: ١٨]

هو استحى، فأتى بكلمة موجزة، فإذا أحبه الله عز وجل أن يكمل، ما هذه المآرب يا موسى؟ قلها، قال تعالى:

(قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

[سورة طه الآية: ١٨]

عند:

(وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي)

[سورة طه الآية: ١٨]

استحى، لأن هذا صار تطويلاً وإطنابًا، فجاء بكلمة تحتاج إلى إجابة:

(وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى)

[سورة طه الآية: ١٨]

كان يتوقَّع أن يقول الله له: وما هي المآرب يا موسى؟ الله عز وجل أراد أن يؤكِّد له: أن هذه العصا التي بيده بعد حين ستكون حيَّة، القرآن ورد فيه حية، وورد فيه ثعبان، لحاله في وحشة، هذه العصا أصبحت حية، قال تعالى:

(فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى)

[سورة طه الآية: ٢٠]

الآن: حية طولها متر، مثلاً: بسنتيمترين لا تخيف كثيراً، أما أمام الملأ:

(فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

[سورة الأعراف الآية: ١٠٧]

انظر إلى لطف الله عز وجل، لما كان وحده ويخشى الوحشة، فهي حية تسعى، فلما صار في جمهور كبير، وفي أنس، قال تعالى:

(فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ)

[سورة الأعراف الآية: ١٠٧]

أحسن الظن بالله :

مرة مر معي حديث مؤثر جداً، وهكذا يقول الله عز وجل:

((مَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

أيْ: أنَّ الله يعرف أنك تكره الموت، والإنسان يكره المرض أيضاً، فعندما يسوق ربنا مرض لإنسان أو مصيبة لإنسان، فالله عز وجل هو الذي يعلم حجم المصيبة، وأثر المصيبة، وقوة المصيبة، ولكنه يكره مساءتك، يسوق لك ما يزعجك في الدنيا، كي تنجو من عذابٍ كبير ، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

[سورة السجدة الآية: ٢١]

أيها الأخوة، قال:

((إذا كشف لك عن حكمة المنع، أصبح المنع عين العطاء))

عبد انقلب حقده من إنسان إلى شاكر لله :

مرة ذكرت لكم قصة: كنت مرة بإدلب، قال أخ من أخواننا: عندما كنت طالب طب بحلب، وأهلي بإدلب، وكل يوم خميس، أسافر إلى إدلب، جئت في سيارة تاكسي، من الخلف فيها ثلاثة أشخاص، وفي الأمام لا يوجد أحد، فجلست في الأمام، جاء إنسان، وأنا حجمي صغير، قطعته ململمة، قال لي: جاء إنسان ضخم الجثة، طويل القامة، مثل الوحش، فتح الباب ، ولم يتكلم معه بأي كلمة، ولكنه حمله هكذا، ووضعه في الخارج، وركب هذا الشخص الضخم مع صديقه .

قال لي: أنا في حياتي ما شعرت بحقد، لو معي سلاح لقتلته، أهانني إهانة .

طالب طب، صف رابع، يحمله واحد، قال لي: أصابني ألم لا يوصف، لو قال لي: انزل لنزلت، دون أن أتكلم معه أي كلمة، لأنني لست بحجمه، لكن لم يتكلم معي ولا كلمة، ويحملني وينزلني، انتظرت ساعة حتى جاء تاكسي ثان، واجتمعوا خمسة ركاب -والقصة قديمة جداً في الخمسينات-، وصلنا إلى بلدة تفتناز، فوجدنا السيارة مقلوبة، والخمسة موتى، قال لي: خلال ثانية واحدة، انقلب حقدي إلى شكر لله عز وجل، الذي حملني وأنزلني، عندما يكشف الله عز وجل لك، لماذا منعك؟ ينقلب حقدك إلى شكر، المؤمن له حسن ظن بالله كبير، حتى لو ما كشف حكمته، سوف تبدو لك الحكمة، صدق القائل:

كن عن همومك معرضا وكِل الأمور إلى القضا
وأبشر بخيرٍ عاجلٍ تنس به ما قد مضى
فلرب أمرٍ مُسخطٍ لك في عواقبه رضا
ولربما ضاق المضيق ولربما اتسع الفضا
الله يفعل ما يشاء فلا تكن معترضا
الله عوَّدك الجميل فقس على ما قد مضى

أعد قراءة هذا القول مرة ثانية :

أيها الأخوة، أنا دائماً أقول هذا الكلام: هذا الكلام الذي يُلقى في دروس العلم، النجاح الكبير أن ينقلِب إلى سُلوك، أن ينقلب إلى واقع، فإذا الله عز وجل أكرم الإنسان، وأسمعه كلام رسول الله، وطبقه، يعيش بسعادة كبيرة جداً .

أصلح علاقتك بينك وبين الناس، اعمل قائمة اليوم: أين هي الخصومات؟ أين فلان؟ لا يتكلم معك؟ تحارب من؟ من يحاربك؟ انظر المشكلة، اعتذار فاعتذر، في حقوق أؤديها، أزوره، أقدم له هدية، أجعل علاقة طيِّبة، فالعلاقة الطيبة تنشئ أمنًا وأمانًا .

العاقل لا يدخل هذا المكان :

أيها الأخوة، أحياناً: الإنسان يدخل إلى محكمة اثني عشر عامًا، تتحطم أعصاب المتخاصمين، يقول للمحامِي: ماذا صار معك؟ والله خصمك ليس هينًا، قدّم مذكرة، افترى عليك أشياء غير معقولة، لا ينام الليل، يريد محامِيًا ثانيًا، اثنا عشر بالقضاء، وأنا أشَبِّه القصة كلها كالتالي:

بداية، حمار، يقف بمكان في أيام الصيف القائظ، له ظل صغير، فجاء أحدهم وجلس بالظل ليرتاح، فقام لكي يشرب، فجلس آخر مكانه، رجع، قال له: هذا مكاني، بل مكاني، مكاني، تشاددوا، وتضاربوا، فمشى الحمار بعد ذلك، انتهت، هذه الدنيا .

يقول لي أحد القضاة: أكثر من عشرة آلاف دعوى تشطب، كل سنة يموت أحد الطرفين، ثماني عشرة سنة، كل يوم فيه حَرْق أعصاب، كل يوم فيه غيظ، كل يوم فيه حقد، العاقل لا يدخل إلى المحكمة .

اعمل عملاً له تفسير واحد :

أيها الأخوة، قال سيدنا معاوية لسيدنا عمرو بن العاص:

((يا عمر ما بلغ من دهائك؟ قال له: والله ما دخلت مُدخلاً، إلا وأحسنت الخروج منه، قال له: لست بداهية، أما أنا والله ما دخلت مُدخلاً، أحتاج أن أخرج منه))

قضية شائكة، فكن بالخارج، لا تدخل بقضايا شائكة، بقضايا مالية، لا تدخل أشياء فيها شُبهات .

النبي واضح، يمشي مع زوجته، مرا صحابيان، فقال لهما:

((على رسلكما إنها صفية))

معقول! يشكان فيه!! وضِّح، بيِّن، هذه دفعة، هذا الحساب، هذا التفصيل، هذا الوصل، هذا العَقد، لماذا دخلت للبيت بغياب فلان؟ بين له، لماذا بعد ما خرج من البيت، دققت الباب؟ بيِّن له .

أنا موعدي معه الساعة التاسعة، هكذا هو قال لي، أما أن يظل الشيء غير واضح، فإنه يخلق مشكلات، فبطولتك هي: أن تعمل عملاً له تفسير واحد .

هناك أعمال كثيرة لها تفسيران، قد تكون أنت بريئًا على أحد التفسيرين، لكن هناك تفسير آخر، يتَّهمك بأنك لست حكيمًا، اعمل عملا له تفسير واحد، إذا كان خَطُّ الرجل مراقبًا، يقول: اشتريت مسدّسًا، هو قصده آلة تثقيب، ليس له علاقة بأي شيء، يختار كلمة ثانية واضحة، مثقب، يغير الكلمة، فأنت تكلَّم بكلمة لها معنى واحد، وإلا تقع في إشكال كبير، اعمل عملاً له تفسير واحد .

ختام القول :

أيها الأخوة، أنا كلما أختار موضوع، تكون هناك مجموعة أحداث في أثناء الجمعة تصلني، أرى فيها وضعًا مؤلمًا، عداوة، شحناء، بغضاء، حِقد، طعن، من أبناء مسجد واحد، قرآن واحد، السُنة واحدة، الإله واحد، القِبلة واحدة، الصلاة واحدة، الحياة لا تحتمل .
تجد شقاقًا زوجيًا، أُسَرًا متفككّة، أزواجًا بعيدين عن زوجاتهم، أولادًا شاردين، هكذا حال المسلمين، طبعاً: هذه بصراحة تربية المسلسلات، هكذا تربي المسلسلات، كلها مَقالب، وكلها أحقاد، وكلها سقوط، أما القرآن فإنه يُربي تربية أخرى .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٩٤-١٠١) : باب الاقتصاد في النفقات والتعفف في الطلب - ما ينبغي على المسلمين أن يفعلوا إذا نزل فيهم البلاء كشح الأمطار وغيرها؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-١٠-٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما يمتحن الله به عباده، وما المقصود من حديث النبي: اخشوشنوا......؟:

أيها الأخوة الكرام، المؤمن يجب أن يرعى الظروف التي حوله، فقد يُغدق الله عز وجل أحيانًا على عباده عطاءً كبيرًا، فيَمْتحِنُهم بهذا العطاء، وقد يكون امتحان الله جلّ جلاله نوعاً آخر؛ يضيّق عليهم أرزاقهم، تشحّ السماء، ويقلّ النبات، تكثر المطامع، يقلّ الدَّخل، ترتفع الأسعار، فالمؤمن بتَوجيه من النبي عليه الصلاة والسلام، الذي وردَ في بعض الأحاديث، يقول:

((اخْشَوْشِنوا وتمعددوا فإنّ النِّعَم لا تدوم))

فكلّ إنسان، كان في بحبوحة، ثمّ صار في ضائقة، ينبغي أن يقيس على الضائقة لا على البحبوحة، والأمور وإن كان هناك معاملة خاصّة، وإن كان هناك استثناءات، وإن كان هناك ظروف خاصّة، إلا أنَّ الجوّ العام جوّ فيه تراجع، لِحِكمة أرادها الله عز وجل، المنسوب الجوفي للمياه في انخفاض شديد، وهذا ينعكس على الزراعة، مطالب الإنسان تزداد، ودخلهُ يقلّ .

النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اخْشَوْشِنوا وتمعددوا فإنّ النِّعَم لا تدوم))

من أجل أن تبقى حرًّا، من أجل أن تبقى مستقيمًا، لو عوَّدْتَ أهلك على إنفاق كبير، ثمّ جاءَتْ الضائقة، فقد يُدفع الإنسان إلى أكل مال الحرام، أو إلى ممالاة السلطة، فمِن أجل أن تبقى حرًّا، ومن أجل أن تكون لله عز وجل، يجب أن تعوّد نفسكَ على الإنفاق المعتدل، ودون المعتدل، وما دام إيمانك سليمًا فأنت في خير، وكفاك على عدوّك نصرًا أنَّه في معصيَة الله تعالى، ما دام الإيمان سليمًا، والاستقامة محققة، والطريق إلى الله تعالى سالك، وما دام العبد مُقبلاً على الله عز وجل، فهو في خير عميم .

وقفة متأنية :

أيها الأخوة، ولكن لكي لا يقع الإنسان في يأس وقلق وخوف، قال الله عز وجل:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

[سورة هود الآية: ٦]

وقد وقف علماء التفسير في هذه الآية وقفات متأنِّيَة، دابَّة؛ أيُّ شيءٍ يدِبّ على وجه الأرض، فكلمة دابَّة شاملة جدًّا، تقول: جبل، أيّ جبل، مدينة، أيّ مدينة، نهر، أيّ نهر، تلّة، أيّ تلّة، فكلمة دابّة من أشمل الكلمات المتعلقة بالمخلوقات، كلّ شيءٍ يدِبّ على وجه الأرض بدءًا من النملة، وانتهاءً بالديناصور، فهو دابّة، وما من دابة إلا على رزقها .

الآن: جاء التنكير، الكلمة تفيد الشمول، وجاء بصيغة التنكير، والتنكير أيضًا: يفيد الشمول .

إذا قلنا: المدينة فهي التي نحن فيها، ونقصد مدينة واحدة، أما إذا قلنا مدينةٌ، نهر، جملٌ، الكلمة تفيد الشمول، وجاءتْ مُنَكَّرةً لتُفيد الشمول، ثم قال الله عز وجل: وما من، من: تفيد استغراق أفراد النوع، يعني: أيّة دابّة ولو لم تُرَ بالعَين، أحيانًا: تلحظ نقطةً على الكتاب، تُفاجأ أنّها تتحرك، فهذه أقلّ دابّة تمشي، وتراها عينُك، هذه داخلة في هذه الآية .

فمن: تفيد استغراق أفراد النوع، دابّة لفظها يفيد الشمول، تنكيرها يفيد الشمول، ومِنْ: هي لاستغراق جميع أنواع الدواب بلا استثناء، ما من دابة إلا على الله رزقها .

وحينما تأتي كلمة على مع لفظ الجلالة تفيد الإلزام الذاتي، وهي أنّ الله جلّ جلاله ألْزَمَ ذاته العليّة أن يرزق خلقهُ، قال تعالى:

(إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

[سورة هود الآية: ٦]

لو أنّ الله عز وجل قال: الدواب على الله رزقها، لم تكن هذه الكلمة بالشمول الذي جاء في هذه الآية، لو أنّ الله عز وجل قال: ما من دابة إلا والله يرزقها على وجه الإلزام، أما على الله، صار هناك إلزام، قال تعالى:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

[سورة هود الآية: ٦]

هناك شيء آخر: ما من إلا، هذا اسمه استثناء، إذا سبقت الجملة بِنَفي، ثمّ ألحقَتْ باستثناء، أفادَت معنى الحصر، يعني: لا تنجو دابة وعلى الله رزقها فقط، ليس على غيره، فـ إلا تفيد استثناء مع النفي، وهي تفيد القصر والحصر، لو أنّ الدواب الله يرزقها، لا يمنع أن يرزقها غير الله، أما قوله تعالى:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

[سورة هود الآية: ٦]

دخلنا في الموضوع؛ كلمة تفيد الشمول، وجاءَتْ منكَّرةً لتُفيد الشمول، وجاءت من لاستغراق أفراد النوع، وجاءت على لتفيد الإلزام، وجاء النفي مع الاستثناء ليُفيد القصر والحصر، هذا هو القرآن الكريم، لو حذفْتَ مِن، لو حذفْت على، لو حذفْت الاستثناء، لو حذفْت النفي لاخْتلّ المعنى، ولمَا كان قرآنًا .

هذه الآية: ألا تكفي أن تملأ القلب طمأنينة؟ لأنّ الله يرزق العباد، قال تعالى:

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا)

[سورة هود الآية: ٦]

وهم من الشيطان :

الآية الثانية: قوله تعالى:

(لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبَاً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

[سورة البقرة الآية: ٢٧٣]

أرأيْتَ إلى هذا الثناء من الله عز وجل؟ الفقير أحيانًا يتوهّم أنَّ الله لا يحبّه، قال تعالى:

(وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ)

[سورة الفجر الآية: ١٦]

هذا وهمٌ من الشيطان، ولكنّ الله تعالى يحبّ عبادهُ جميعًا، ولعلّ الفقراء مخصوصون بالمحبّة .

((إنَّ الله يحمي عبده من الدنيا، كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام))

بربّك لو كنتَ طبيبًا وأبًا رحيمًا في وقتٍ واحد، ولك ابن مُصاب بالتهاب حادّ في أمعائه، وفي البيت أكلةٌ طيّبة جدًّا، تمْنعُهُ بمُنتهى القسوة أن يأكل منها، مع أنَّه ابنك، وأنت أبوه، ورحمتك غالبة، ومعك مال كثير، هل يُعَدُّ هذا المنْع إهانة لهذا الابن؟ .

((إنَّ الله يحمي عبده من الدنيا، كما يحمي أحدكم مريضه من الطعام))

((إنَّ الله يحمي عبده من الدنيا، كما يحمي الراعي الشفيق غنمه من مراتع الهلكة))

أيها الأخوة، حينما يعطي الله عز جل، فإنَّه يُعطي لِيَمْتحِنَ، فالمال لا يُعَدُّ نعمةً ولا نقمة، إنما هو امتحان، فإذا أُنفقَ في طاعة الله انقلب إلى نعمة، وإن لم يُنفق في سبيل الله انقلب إلى نقمة، فأنت مُبتلى فيما أعطاك، ومُبتلى فيما منعكَ، أنت مع مادَّتين امتِحانيّتين، الذي أعطيتهُ ممتحنُ فيه، والذي حُرِمْت منه ممْتحنٌ فيه .

هذا ما وصف الله به عباده المؤمنين :

أيها الأخوة، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً)

[سورة الفرقان الآية: ٦٧]

المؤمن عنده رحمة، إن وجد حاجة للمال، إن أصابته ضائقة عامة يأكل ويشرب، ولكن باعتدال، من دون إسراف، ومن دون مَخْيَلَةٍ، والله عز وجل وصف عباد الرحمن الذين أضافهم إلى ذاته تكريماً وتشريفًا، قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً)

[سورة الفرقان الآية: ٦٣]

الاقتصاد فضيلة :

أيها الأخوة، فالإنسان يعجب من أهل الدنيا الشاردين عن الله عز وجل، عندهم إنفاق دقيق جدًّا، فالإنسان بالدوائر أحيانًا، يمسك ورقة كبيرة، يكتب عليها ورقة هاتف، ورقة كبيرة ومطبوعة ومكلّفة من أجل رقم هاتف، ألا توجد أوراق صغيرة؟ أنت استخدمتَ وجهًا فلمَ لا تستخدم الوجه الآخر، ولو كنت غنيًّا، الاقتصاد فضيلة، والدليل:

أنّ الله عز وجل عنده شيء هو التقنين، كُن فيَكُون، زلْ فيَزُول، الله عز وجل في كلّ ثانية، يتولّد في نقي العظام اثنان ونصف مليون كريّة حمراء، وفي كلّ ثانية تموت الكميّة نفسها، اثنان ونصف مليون كريّة حمراء ماتَتْ، لو أنّها طُرحَت مع الفضلات، ما الذي يحصل ؟ هذه الكريات الميّتة تذهب إلى الطُحال، فتُحَلّل إلى حديد وهيموغلوبين، الحديد يُرْسَل إلى نقي العظام ليُصَنَّعَ ثانيًا، والهيموغلوبين يرسل إلى الكبد ليكون صفراء، أليس هذا عملاً اقتصاديًّا؟! هذا من خلق الله عز وجل، فما الذي يمنع أن تطرح هذه الكريات إلى خارج الجسم ؟ إما مع البول، أو الغائط، مع البول، ما الحكمة المُسْتفادة إلى أن تذهب هذه الكريات إلى الطّحال؟ وهو مقبرة، وقبل الدفن، يتمّ التحليل، وترسل هذه النتائج إلى أماكن أخرى، حيث يُعادُ تصنيعها .

مرّة شاهدْتُ سيارة كبيرة جدًّا، حاملة قطع مكعَّبة من الحديد، سألتُ عن هذا، فإذا هي سيارات، لها مواقف عالية جدًّا، طبعًا: مكبس ثمانمئة طنًّا، يكبس هذه السيارة، فتغدو قطعة مكعّبة أربعين بأربعين كلّها بما فيها، وتؤخذ إلى معامل الحديد، ليُعاد صهرها، وتصنيعها من جديد .

وأنتم تلاحظون من أيام، يقول لك: لوح نشارة، نشارة الخشب يُستفاد منها بلاد الغرب، والأغرب من ذلك، أصحاب المزارع يشترون مادة اسمها توب، قد تعجبون ولا تصدّقوني، أنّ قمامتهم أوراق الأشجار، مخلّفات، أوراق الأشجار اليابسة في الغابات، المجموع الخضري للزراعة .

كلّ شيء نباتي، من أيّ مصدر يُجْمع، ويُقْرم، ويُعَقَّم، ويُعالج، ويُباع لنا أغلى من القمح، ثمن كيلو التوب أغلى من القمح، قمامتهم يبيعونها، فهذا اقتصاد، الاقتصاد ألاّ تبدِّدَ شيئًا، ألاّ تُتْلفَ شيئًا، ألاّ تُهْمِلَ شيئًا .

ما الغاية من طرح هذه الأمثلة؟ :

أيها الأخوة، دقق في خلق الله عز وجل، الأنعام: رَوْثها أعلى نوع من السماد، أعلى نوع على الإطلاق، وعاد الآن العالم إلى التسميد العضوي، بعد أن ثبت: أنَّ التسميد الكيماوي يزيد ملوحة التربة، وقد يُسبّب تلوّث في البيئة، وقد يسبّب أمراض خطيرة في الإنسان، لأنّ بعض هذه المركّبات، تدخل في بنية الخلية النباتية، وفي بلاد كثيرة تُفْحص الفواكه على الحدود، فإذا كانت مُسمَّدَةً بأسْمِدَة كيماويّة تُردُّ ولا تُسْتقبل، فرَوْث الدواب يصبحُ سمادًا، أمعاء الدواب هي خيوط للجراحة، وهي غالية جدًّا، قد نسْتورد خيوط للعمليات الجراحيّة بأسعار فلكيّة، أساسها أمعاء هذه الدواب، صوفها يُستفاد منه، وكذا جلدها، هذا الخروف مُصَمَّم كي تنتفع بكلّ شيءٍ فيه، كلّ شيء تنتفع به حتى رَوْثُهُ .

أنت لاحظ الأوراق التي تسقط، تصبح بعد حين سماد للتربة وتحلل، أحيانًا: يصنع الإنسان مواد لا تُحلّل، فالبلاستيك ُسبّب تلوّثًا وتشويهًا لِمَنظر البيئة، فكلّ البساتين تمتلك أوراقًا بالخريف، ولكن في الشتاء تتحلّل، وتصبح سمادًا، وفي الربيع كأنّها جنّة، فهناك دورة نباتية رائعة، وطريقة تحليل ذاتية، وكل هذا من صنع ربنا عز وجل .

فأنا ذكرتُ كلّ هذه الأمثلة، من أجل أنّ الاقتصاد فضيلة، استهلك كلّ شيء، وقنِّن تقنينًا معقولاً .

فقد كان عليه الصلاة والسلام يتوضّأ من قعْب، فضلَت فيه فضلة، فقال:

((ردّوها في النهر، ينفع الله بها قومًا آخرين))

أكثر الصنابير تدوير، فالإنسان يعيّن الماء البارد، والساخن، ويغتسل، ويمكن له في أثناء غسل جسمه غلق الصنابير، لأنّ تركها فيه إسراف، فلو صنعنا صنابير عن طريقة كبس تكون شرعيّة أكثر، معيّرة، وتستطيع توقيفها، وإن شئت أن تتابع صبّ الماء، فالماء ثمين جدًّا.

الله عز وجل أحياناً: يعرّفنا بنِعَمه بوَفرتها، وأحيانًا: بقِلّها .

قرأت في الجريدة البارحة، بمنطقة حماة وما حولها، توجد أمطار غزيرة، حتى مئتا ميلي، ومناطق أخرى ثلاثون أو أربعون، على كلّ؛ كميّات أمطار لم يُرَ مثلها من عَقْدَين من الزمن، فالإنسان بحاجة إلى الماء، فإذا نظّم استهلاك الماء اقتصد .

وفي كلّ الدراسات الآن: أنّه إذا كانت هناك حنفيّة إغلاقها غير محكم، وتقطر، فإن هذه تستهلك مترًا مكعبًا بالنهار، من دون أن تشعر، طبعًا: نحن انطلقنا من أنّ الاقتصاد فضيلة.

ما المقصود بالغنى في هذا الحديث؟ :

يقول عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح: عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قال:

((إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالَ: لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَض، وَلَكِنَّ الْغِنَي غِنَي النَّفْس))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

حديث مألوف، ففي نظر الناس أنّ الغني من عنده أموال مجمَّدة في البنوك، أموال جامدة أو متحرّكة، ومن عنده عقارات، ومن عنده أراض، لكنّ تعريف النبي عليه الصلاة والسلام: هو من كانت نفسه غنيّة بالله تعالى، هذا غنى، وهو شيءٌ مُلاحظ .

أحيانًا: تجد إنسان مترف بالمال، يطمع بمال موظّف عنده لا يقدّم ولا يؤخّر، وقد تجد إنسان فقير نفسهُ غنيّة .

ما مغزى هذه القصة؟ :

أنا ذكرتُ لكم قبل حينٍ، رجلاً من أطراف دمشق، ورث أرضًا، وإنسان من أغنياء دمشق، أراد أن يبني مسجدًا في أرضٍ مناسبة، وأرسل من ينوب عنه في مُساومة صاحبها، واتَّفَقَ الطرفان على ثلاثة ملايين ونصف مليون، وجاء هذا الغني، وهو صالح فيما أعلم، ليرى الأرض، وليَدفع الثمن، كتب شيكًا بمليونين، فقال له البائع: والباقي متى؟ فقال له عند التنازل، فقال: وما التنازل؟ قال: عند التنازل في الأوقاف، لتكون هذه الأرض مسجدًا، فأمسك الشكّ ومزّقهُ، وقال له: أنا أولى منك أن أقدّمها لله عز وجل، وهو يملك راتبًا قدره أربعة آلاف، وعنده ثمانية أطفال .

فهذا الإنسان غني عند الله عز وجل، مع أنّه لا يملكُ شيئًا، العفيف غني، والذي يرضى بالقليل غني، وإذا الإنسان استيقظ وحواسّه سليمة، زوجته جنبه، أولاده أمامه، أولاده أبرار، زوجته صالحة، يسكن ببَيت غير مجبور، أن ينقل بيته كلّ ستّة أشهر، ومعه مفتاح بيت، وليس عنده مشكلة كبيرة، هذا غنيّ .

والآن أيّها الأخوة، الذي عنده مصروفه، وعنده مأوى، وعنده أولاد مرتاح معهم، وزوجة مرتاح معها، فهذا غني غنًى كبيرًا .

((لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَض، وَلَكِنَّ الْغِنَي غِنَي النَّفْس))

هذا ما سجله التاريخ :

سيّدنا أُويس القرني، عرضوا عليه أعطية، فقال لسيّدنا عمر:

((ماذا أفعل بها؟ عليّ هذا الثوب، متى تُراني خرقْتُه؟ ومعي أربعة دراهم، متى تُراني أنفقتها؟))

شعورنا بالفقر، لأنّنا نحبّ الرفاه والترف، وكلّ شيء من أعلى مستوى، وهذه الدنيا عرضٌ حاضر.

هناك كلمة لسيّدنا علي، والله لو عقلناها لزهدنا في الدنيا، قال:

((فلينْظر ناظرٌ بعقله، أنّ الله أكرم محمَّدًا أم أهانه، حين زوى عنه الدنيا؟ فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال: أكرمه فقد أهان غيره، حيث أعطاه الدنيا، ويا بني ما خير بعده النار بخير، وما شرّ بعده الجنة بشَرّ، وكلّ نعيم دون الجنة محقور، وكلّ بلاء دون النار عافية، العفيف غنيّ، والقنوع غنيّ، والذي ينفق ماله بدِقة غنيّ، الذي يؤثر طاعة الله على مال وفير فيه شبهات غنيّ))

هذا ما ورد عن النبي :

مرَّةً قرأت بالأحاديث حديث، لم أراجعه صحَّته، ولكن ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم:

((أنّ الاقتصاد في المعيشة خير من بعض التجارة))

لم يقل: من كلّ التجارة، ولكن من بعضها .

إذا كانت التجارة بالمحرّمات، تأجير أفلام فيديو ساقطة وأرباحها طائلة، وأحياناً: مقهى لِلَعِب النَّرْد، وغناء، ورقص، وشرب خمر، وأرباحٌ طائلة، تجارة فيها شبهة، أحيانًا: ضمن مواد البضاعة، هناك مواد ممنوع بيعها، ومحرّم بيعها، فالإنسان إذا ضغط مصروفه، ونام مرتاحًا، أفضل ألف مرّة من هذه التجارة.

من يومين سألني إنسان، قال: ورثْتُ عن والدي فندقًا، وقال لي: تباع فيه الآن خمور ، وفيه زنا، ماذا أفعل؟ سؤال عويص .

الواحد دخلهُ من بيع الخمر، ومن الزنا، هذا أمر كبير، فإذا ضغط الإنسان مصروفه، أو كان له دخْل قليل مع طاعة الله عز وجل، أفضل من ألف مرّة، من دخل كبير، مع شبهة، وليس معصية .

سجل في ذاكرتك :

أخرج أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، أَنَّ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ:

((سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي، ثُمَّ قَالَ: يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ، بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ، لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى، قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطَاءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ، أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى تُوُفِّيَ))

احفظوا هذا الحديث .

فقد أخرج الطبراني، عن ابن عباس يرفعه، قال:

((ما نقصت صدقة من مال قط، وما مد عبد يده بصدقة، إلا ألقيت في يد الله، قبل أن تقع في يد السائل، ولا فتح عبد باب مسألة له عنها غنى، إلا فتح الله عليه باب فقر))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير]

ملك الملوك إذا وهب قم فاسْألنّ عن السبب

الله يعطي من يشاء فقِفْ عند حـدّ الأدب

حكيم وعد فصدق :

قال:

((يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ، بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ، لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ- .

هناك إنسان ينظر ما عند الناس، أنت انظر ما عندك من إيجابيّات، واشكر الله عز وجل، وهناك إنسان بالمقابل: دائمًا يبخّس ما عند الناس، إذا وجد البيت صغيرًا، يقول لك: كيف يكفيك هذا البيت؟ وإذا وجد الدخل قليلاً، يقول: كيف يكفيك هذا المعاش؟ هذا شيطان يتكلّم، هو إنسان راضٍ عن الله، وعن هذا البيت، ويعيش حياةً فيها راحة، أنت بسؤالك هذا سخّطه عن الله عز وجل- .

قَالَ حَكِيمٌ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، لَا أَرْزَأُ أَحَدًا بَعْدَكَ شَيْئًا، حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا))

يبدو والله أعلم؛ سأل النبي فأعطاه من باب الوُدّ، وجد هذا الاحتكاك مع النبي، شيء مسخٍ جدًّا، وسأله فأعطاه، سأله فأعطاه .

قال:

((يا حكيم، إنّ هذا المال خضِرة حُلْوة، فمن أخذهُ بسَخاوةٍ نفسٍ، بورِكَ له فيه، ومن أخذهُ بإشراف نفسٍ، لم يُبارك فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى، قال حكيم: قلتُ: يا رسول الله، -انظروا إلى مقام النبي عليه الصلاة والسلام عند أصحابه-، والذي بعثك بالحق، لا أرزأ أحدًا بعدك شيئاً، حتى أفارق الدنيا، –أي: لن أسأل أحدًا بعدك حتى أفارق الدنيا-، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدْعُو حَكِيمًا إِلَى الْعَطاءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَهُ مِنْهُ، ثُمَّ إِنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دَعَاهُ لِيُعْطِيَهُ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ عُمَرُ: إِنِّي أُشْهِدُكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى حَكِيمٍ، أَنِّي أَعْرِضُ عَلَيْهِ حَقَّهُ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ، فَيَأْبَى أَنْ يَأْخُذَهُ، فَلَمْ يَرْزَأْ حَكِيمٌ أَحَدًا مِنْ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى تُوُفِّي))

هكذا خرج النبي أصحابه من مدرسته :

مرةً رأى النبي عليه الصلاة والسلام خاتمًا من ذهب، في أيدي بعض الصحابة، فنهاهُ عن ذلك، فأخذهُ وألقاه في الأرض، جاء إنسان وقال له:

((خُذْه وبعْهُ وانتفع منه، فقال: والله لا أمسكُ شيئاً، نهاني عنه النبي عليه الصلاة والسلام، وبقي في الأرض مُلقى))

كان تأثير النبي شديدًا جدًّا، وأمرهُ عظيمًا، وتوجيهه حكيمًا، فهذا الصحابي حكيم لم يأخذ شيئًا من أحدٍ، حتى توفاه الله، النبي وجَّهَهُ توجيهًا معيّنًا .

ولقد كنتُ مرّةً في العمرة، وكان هناك إنسان اعتنى بي، ويعمل لأنَّه بحاجة، وأنا أردتُ أن أكرمهُ بمبلغ، ما تركتُ طريقًا كي أعطيَهُ إلا أبى، وقال لي: أنا عندي، عُدْتُ إلى البلد، وأنا في ذهني هذه العقّة التي تفوق حدّ الخيال، فهناك إنسان تحسّ أنَّه عفيف، إلى درجة تلفت النّظر .

هذه غزوة ذات الرقاع :

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((خَرَجْنَا مَعَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غزاة، وَنَحْنُ سِتَّةُ نَفَرٍ، بَيْنَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ، فَنَقِبَتْ أَقْدَامُنَا، وَنَقِبَتْ قَدَمَايَ، وَسَقَطَتْ أَظْفَارِي، فَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أَرْجُلِنَا الْخِرَقَ، فَسُمِّيَتْ: غَزْوَةَ ذَاتِ

الرِّقاع، لِمَا كُنَّا نَعْصِبُ مِنْ الْخِرَق عَلَى أَرْجُلِنَا، قال: وَحَدَّثَ أَبُو مُوسَى بِهَذَا الحديث، ثُمَّ كَرِهَ ذَلِكَ، وقالَ: مَا كُنْتُ أَصْنَعُ بِأَنْ أَذْكُرَهُ، كَأَنَّهُ كَرِه أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ عَمَلِهِ أَفْشَاهُ))

[أخرجهما البخاري ومسلم في الصحيح]

الصحابة الكرام امْتُحِنوا بالفقر، إنسان يمشي من دون حذاء، والأرض تلتهب، والأظافر سقطت، والأرجل جرحت، ولُفَّ عليها الخرق، وسُمِّيَت هذه الغزوة ذات الرقاع، من الجهد الذي أصابه أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الغزوة .

تعقيب :

أيها الأخوة، تعقيب: فنحن نأتي للمسجد، فنجد التكييف، والماء البارد بالصيف، والساخن بالشتاء، والسجاد من تحتك، الضوء، كل شيء مرتّب، يركب مركبات، وطائرات، نحن ما ذقنا المتاعب التي ذاقها الصحابة الكرام، اركب من مكّة إلى المدينة، تمشي على المئة والثمانين في أربع ساعات، ولكنّ النبي عليه الصلاة والسلام قطعها على الجمَل، هل هناك جمل مكيّف؟ أما الآن: فتركب الحافلة الجماعية فترتاح، مقعد، وماء بارد، ومواقف استراحة، فنحن حملَنَا الإسلام، أما الصحابة الكرام فهم حَمَلوا الإسلام بيننا وبينهم .

إذا أردنا أن نُكرم الطلاب، نضع لهم محلًا يسبحون فيه، ونطعمهم، ونضع لهم رياضة، فالإنسان يعرف بالإكرام، لكنّ الصحابة دفعوا الثمن باهظاً .

ما الذي أبكى نبي الله؟ :

بعض الصحابة الكرام دخل في غزوة، فلمَّا أعْطِيَ بعض الغنائم قال:

((ما هذا؟ قالوا: غنائم، فقال: أنا أسلمتُ على الذَّبْح، وفي ثاني معركة اسْتُشْهِدَ، فلمَّا ذكروا ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام بكى، قال: هوَ هو؟ فقالوا: هوَ هو))

نحن إذا انقطع التلفون لا نتحمّل، نشعر وكأنّنا ضائعون، تعوَّدنا على الهاتف، تعوَّدنا على الرفاهية، وتعوَّدنا على التكييف، طبعًا: لا يكفي هذا الدَّخل، أما إذا اعتاد الإنسان على الاخْشِوْشان، أحيانًا: تجد الشخص حياته بسيطة، ولكنه أسْعَدُ الناس، وقد تكون الغرفة فيها فراش أو فراشان فقط، ولكن نظيفة، وموصول بالله تعالى .

كلمة :

كلمة أقولها لكم، والله لا أريد منها، أنك تغلق على نفسك، ولكن لو فرضنا أحدًا دخله محدود جدًّا، وكان موصولاً بالله عز وجل، والله هو أسعد الناس، يسكن أصغر بيت، ويأكل أخشن طعام، ويلبس هندامًا، وهو أسعد الناس، وقد يُعطى الإنسان مال قارون، وهو أشقى الناس .

إذا أكرمك الله عز وجل بالسكينة تسعد بها ولو فقدْت كلّ شيء، وتشقى بفقدها ولو ملكْت كلّ شيء، الله عز وجل يضع سرَّهُ أحيانًا في أضعف خلقه .

حديث دقيق :

وعن عمرو بن تغلب -بفتح التاء المثناة فوق، وإسكان الغين المعجمة، وكسر اللام-:

((أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أُتِيَ بِمَالٍ أوْ سَبْيٍ فقسَمَهُ، فَأعْطى رجَالًا، وتَرَكَ رجَالًا، فَبَلَغهُ أنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا، فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ أثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قالَ: أمَّا بَعْدُ، فوَ اللَّهِ إنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَأدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أدَعُ أحَبُّ إلَيَّ مِنْ الَّذِي أعْطِي، وَلَكِني أعْطِي أقْوَامًا، لِمَا أرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أقْوَامًا إلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْغِنَى وَالْخَيْرِ، منهم: عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ، فوَ اللَّهِ مَا أحِبُّ أنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُمْرَ النَّعَمِ))

[أخرجه البُخَارِيُّ في الصحيح]

الحديث دقيق جدًّا، الإنسان إذا أكرمه الله، وعمل صالحاً، يأتيه عشرة أضعاف، فلو أنّ أحدًا عملاً صالحاً، وما أدرك شيئًا، قد يكون أرقى عند الله عز وجل، فالذي إيمانه قويّ قد لا يُستجلب، أما الذي بإيمانه ضعف، وخوف شديد، وعنده قلق، فربّنا عز وجل يُسارع له التكريم.

قف عند هذا المعنى :

فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((فوَ اللَّهِ إنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ وَأدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أدَعُ أحَبُّ إلَيَّ مِنْ الَّذِي أعْطِي، وَلَكِني أعْطِي أقْوَامًا، لِمَا أرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أقْوَامًا إلَى مَا جَعَلَ اللَّهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْغِنَى وَالْخَيْرِ))

فإذا استقام الإنسان، وما قطف ثمار استقامته، فلا مانع في هذا، فأنت عليك أن تكون مُطيعًا لله تعالى، وهناك من استقام والله تعالى أغناه بوقت قصير، ليس معنى أنّ الذي أغناه أقرب إلى الله من الذي لم يُغْنهِ .

والله وإن شتَّتوا في حبّهم كبدي   باقٍ على حبّهم راضٍ بما فعلوا

الماء نعمة حافظ عليها :

أيها الأخوة، نحن في الصلاة نقول: ربنا لك الحمد والشكر، وهناك من يقول: النعمة والرضا، وهناك إضافة: حمْدًا كثيرًا طيّبًا مباركاً .

كان عليه الصلاة والسلام تعظم عنده النّعمة مهما دقتْ، شربنا كأس ماء .

مرَّةً ببلد مجاور، اشْتروا ماء من عند الأعداء، فإذا هو ماء المجاري، بعد ما امتلأت المستشفيات بالمرضى، وإسعاف، أما أنت فعندك ماء بالبيت .

مرّة كنت بالحج، فالماء يُشترى شراءً، والجوّ حرّ، والقارورة ستة ريالات، أما أنت ففي البيت عندك صنبور، ماء عذب فرات، ألا تشعر به؟ هذه نعمة كبيرة .

فالواحد إذا غسل سيارته، وفتح الأنبوب لمدّة ساعة، هذا لا يجوز .

أنا أقول: أنّ هناك أمورًا منظرها مؤذ جدًّا، الناس تموت من العطش، وأنت تغسل سيارتك لمدّة ساعة، والماء يسيل، وهناك أحياء لا توجد فيها مياه، وهناك من يشتري الماء بالصهاريج، فهذا الماء شيءٌ ثمين جدًّا، يجب أن نعرف قيمته .

ما ينبغي أن تذل نفسك أيها المؤمن :

وعن ابن عمر، يرفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((لا تلحوا في المسألة، فإنه من يستخرج منا بها شيئا، لم يبارك له فيه))

[أخرجه أبو يعلى]

المؤمن يسأل إذا كان مضطرًّا، أما الإلحاح لا يليق بالمؤمن، فلا ينبغي للمؤمن أن يذلّ نفسه .

((أطلبوا الحوائج بعِزَّة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير))

الإلحاح يصغّر قيمة الإنسان .

لا تفعل هذا :

أحدهم سأل عمر بن الخطّاب بإلحاح، فقال له:

((يا هذا، لقد ضاع من نفسك أكثر ممّا ضاع منك))

أي: أنت بذلْتَ ماء وجهك أكثر ممَّا ضاع منك .

أحدهم ضيّفوه موزة فأكلها، ثمّ أعطوْه الثانية، فوضعها أمامه، ولما خرج من البيت نسيها، فرجع إليهم، ودقّ عليهم الباب، وقال: إنّي نسيت الموزة، فهناك من يسقط من نظر الناس بطلب واحد، فالإلحاح، والمعاودة، والسؤال، والتذلل، والمسكنة، والتّضعضع أمام غنيّ.

((من جلس إلى غنيّ فتَضَعْضَعَ له، ذهب ثلثا دينه))

لا يوجد أجمل من غنيّ يعطي فقيرًا، والأجمل من ذلك: أن تجد الفقير متعفّفًا، أحيانًا تجد طفلاً متعفّفًا، حبّة مسكة لا يأخذها، لا يأخذها إلا بجُهْد جهيد .

قال عليه الصلاة والسلام:

((لا تلحوا في المسألة، فإنه من يستخرج منا بها شيئاً، لم يبارك له فيه))

[أخرجه أبو يعلى]

هناك من يلحّ إلى درجة، تريد أن تخرج من جلدك، وهناك طريقة للإلحاح، وهي الضغط، والضغط، والضغط، فهذا المضغوط يريد أن يخلص، ولكن ما دام أعطى، وهو كاره، فلا يبارك له بهذا العطاء .

تعليق خطير :

أيها الأخوة، هناك تعليق خطير .

مرّة حدّثني أخ، أنّه أخذ زوجه عند الطبيب، وهو رجل صالح، وله عمل في مسجد، قال له الطبيب: تحتاج إلى تنظير، التنظير ثمنه خمسة آلاف، وليس معه خمسة آلاف، فما سأل وتعفّف، وبعد حين بدأت آلام لا تُحتمل، فحصها، فإذا معها سرطان منتشر في كلّ الأمعاء .

فأنا حتى لا تظنّوا إذا سأل الواحد فهو آثم، ولكن إذا كان هناك مرض، وما سألت، هنا تكون آثمًا، إذا كان هناك مرض، وكانت هناك حاجة ملحّة، وفي إنقاذ نفس فأنت آثم، له دخل محدود، يغطّي طعامه وشرابه، والتنظير خمسة آلاف، هناك مئات الأغنياء يدفع مئة ألف، ولا يشعر فيها، فلو سألت في هذه الحال لا مانع، فأنا لا أغلق الباب، إذ كان هناك حالات لا بدّ أن تسأل، ولك أجر إن سألت .

فهذا الإنسان -الله أعلم- لو فحص زوجته في وقت مبكّر، أن يستأصل قسم من الأمعاء .

فأنا أعرف امرأة مستأصل متر من أمعائها من عشرين سنة، فالمرض إذا كان محدودًا في البداية، يُستأصل جزء من العضو، وتبقى الحالة سليمة، فليس من أجل التعفّف تخاطر بحياة امرأة، هذا كلام مرفوض، وإذا كان هناك قضيّة ملحّة، وعملية جراحية، ومشكلة كبيرة تنحلّ بالمال، وسألت أخ صادق ومحسنًا، فلا مانع من ذلك، أما قصدي أنا ألاّ تسأل في الأشياء الثانويّة، وللتوسعة، فأنت اِقبل بِدَخل محدود، ودبِّر أمرك فيه، أحسن من أن تبذل ماء وجهك، أما إذا كان هناك أمر ضروري، فيجب أن تسأل .

اخدم نفسك بنفسك :

عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ:

((كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تِسْعَةً أَوْ ثَمَانِيَةً أَوْ سَبْعَةً، فَقَالَ: أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟ وَكُنَّا حَدِيثَ عَهْدٍ بِبَيْعَةٍ، فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: أَلَا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: فَبَسَطْنَا أَيْدِيَنَا، وَقُلْنَا: قَدْ بَايَعْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَعَلَامَ نُبَايِعُكَ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَتصلوا الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، وَتسمعوا وتُطِيعُوا، وَأَسَرَّ كَلِمَةً خَفِيَّةً، قَال: وَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا، فَلَقَدْ رَأَيْتُ بَعْضَ أُولَئِكَ النَّفَرِ، يَسْقُطُ سَوْطُ أَحَدِهِمْ، فَمَا يَسْأَلُ أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيَّاهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، وأبو داود والنسائي في سننهما]

عوِّدْ نفسك أن تخدم نفسكَ .

بالمناسبة: قال لي أخ طبيب كلمة أعجبتني، قال لي: الحدّ الأدنَى، الأدنى، الأدْنى من الرياضة أن تخدم نفسك، إذا خدم الواحد نفسه بالبيت، أغلق شيئًا، فتح شيئًا، خدم نفسه، وركّز البيت، هذه نوع من الرياضة .

فأنت من جهة تطبّق السنة، ومن جهة تسعى لإصحاح جسمك، لا تسألوا الناس شيئًا، عوِّد نفسك أنّه لا حاجة لك لأحد، وأنّ مثلك مثل جميع الناس، أما إن سافرت، فلا مانع أن تقول لأخيك، أما وأنت مقيم فاخْدُم نفسك، وكلّما خدم الإنسان نفسه يرقى .

اقرأ :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ، حَتَّى يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ، وَقَالَ: إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأُذُنِ، فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ، اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ، ثُمَّ بِمُوسَى، ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَزَادَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنِي اللَّيْثُ، حَدَّثَنِي ابْنُ أَبِي جَعْفَرٍ، فَيَشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الْخَلْقِ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ الْبَابِ، فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا، يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ))

التسول حرفة :

أيها الأخوة، كلّما بذل ماء وجهه، ذهب الحياء عنه، تجد هناك من يطلب بوَقاحة، ثمّ معه وثيقة .

مرّة خرجت من البيت، شتاء وأمطار غزيرة، وجدت طفلاً حافيًا، ويلبس قميصًا على جسمه، وهو

يبكي أو يتباكى، فقال لي: أمّي مطلّقة، ومات أبي، وأنا أسكن عند خالتي، وأخرجتني وأنا جائع، فأعطيته مئتا ليرة، وكسوْتُه، ثمّ رجعت إلى البيت، وغيّرتُ ثيابي، وخرجتُ بعباءة، نزع الحذاء، وأعاد طلبه عليّ مرّة ثانية، لأنّه لم يعرفن، وعرض عليّ طلبهُ ، فهؤلاء المتسوّلون لهم أفكار؛ فإذا كان الواحد ساذجًا، يتقطّع قلبه منها، فعلى الإنسان أن يكون عفيفًا .

أحد أخواننا ساهم بمُكافحة التّسوّل، فقال لي: حققت مع ألف وخمسمئة متسوّل، المفاجأة التي لا تُصدّق: أنّ أحدهم معه أربعون مليونًا، وآخر سبعمئة ألف ليرة، موضوعة بالبنوك، ولم يجد منهم إلا خمسة فقراء، والباقون جعلوا التّسوّل حرفة .

حديث الختام :

آخر حديث، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تكثراً، فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٩٥-١٠١) : باب: علامات حب الله تعالى للعبد - ما الدليل المأخوذ من القرآن الكريم على محبة الله تعالى؟ وما علامات حب الله للعبد؟ وما المعاني التي ينطوي عليه هذا الحديث: من عادى لي ولياً....؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-١٠-٣١

بسم الله الرحمن الرحيم

أسئلة تدور في فلك المؤمن :

أيها الأخوة الكرام، لازلنا في رياض الصالحين، في كلام سيّد المرسلين، عليه أتمّ الصلاة والتسليم، والباب اليوم هو: علامات حبّ الله تعالى للعبد .

من جبِلّة الإنسان: أنّه يتطلّع لمعرفة موقف الآخرين منه، الإنسان يكون موظف، يتمنّى أن يعرف مركزه عند المدير العام، تقييمهُ عنده، معرفتهُ بإمكاناته، ثناؤُه على إيجابيّاته ، تغاضيه عن سيّئاته، هذا الشيء من جبِلّة الإنسان .

هناك شيءٌ أبلغ من ذلك هو: أنّ المؤمن دائمًا يتطلّع لأن يعرف؛ هل يحبّه الله عز وجل؟ هل هو تعالى راضٍ عنه؟ أيتحرَّكُ في مَرضاته؟ أمُخلصٌ له أم غير مخلص؟ تشوّق المؤمن لمعرفة مكانته عند الله تعالى، هل يحبّه؟ هل يدافع عنه؟ هل هو في مرضاته؟ .

علامات لولاها لما قامت حياة :

قال الله تعالى:

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ)

[سورة النحل الآية: ١٦]

هذه العلامات لولاها لما قامَت حياة، تقول: هذه الفاكهة حينما تصْفرّ، فهذه علامة نضجها، وهذه الحبّة حينما تسْودّ علامة نضجها، علامات النباتات معروفة عند المزارعين، وعلامات بالحيوانات، هذه الدابة مريضة، علامات عند الإنسان، فكلّ مرض له أعراض، لولا هذه الأعراض لما كان هناك طبّ أساسًا، إذا هناك عِلَو خفيّة ما لها أعراض .

والآن: أخطر الأمراض التي ليس لها أعراض، فهذه تتسلل تسَلُّلاً مخيفًا، فإذًا: أن يكون علامات، فهذه من نعم الله الكبرى .

ما هو الدليل على محبة الله تعالى؟ :

أيها الأخوة، ولو أردنا أن نوظّف العلامات في معرفة ما إذا كان الله راضيًا عنك أم لا؟ ما علامة محبّة الله للعبد؟ أنت عبدٌ تحبّه، وقلبك ممتلئ حبًّا له، ما علامة هذا الحب؟ أو ما الدليل على هذا الحب؟ أو ما الذي يجسّد هذا الحبّ؟ .

كتعليق سريع: الحبّ شيء داخلي، وشعور داخلي لا أحدَ يطّلعُ عليه، ولكنّ الودّ سلوك مادّي يُجسِّدُ هذا الحبّ، فكلّ شعور صادق يجب أن يعبّر عن ذاته بسُلوك، أنت تحبّ فلان، إذًا: تبتسم في وجهه، ابتسامتك وُدّ، ومحبّتك شعور، فالشعور داخلي والابتسامة ظاهرة، تُحب فلانًا ترحِّب به، تحبّ فلانًا تقدِّمُ له هديّة، تحبّ فلانًا تزوره، كلّ مؤمنٍ يدَّعي أنَّه يحبّ الله عز وجل، لو ألغَيْنا الدليل لاختلطَت الأوراق، فلا بدّ من دليل على محبّة الله تعالى، أقوى دليل في القرآن الكريم: اتّباع سنَّة النبي عليه الصلاة والسلام، قال تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة آل عمران الآية: ٣١]

أيليق هذا بربك؟ :

أيها الأخوة، الله عز وجل لا يمكن أن يكون تعاملهُ مع عباده تعاملاً غير مُقنَّن، يقول لك: فلان مدير الدائرة، لا نعرف طَبْعَهُ، ساعات يرضى بلا سبب، ويغضب بلا سبب، وإذا غضب يُبالغ، وإذا رضي بالغ، مثل هذا المدير يصعبُ التعامل معه كثيرًا، لأنّه لا توجد قواعد تضبطهُ، أحيانًا: تكون مقصّرًا فتراه يضحك، وأحيانًا: مُجدّ ويقيم عليك النكير، مثل هذا الإنسان الذي يدير مدرسة، أو مستشفى، أو مؤسسة، التعامل معه صعب جدًّا، لا قاعدة له، أيليق بخالق الأكوان، وبربّ العالمين، والرحمن الرحيم، وبالعادل القويّ، أن يكون التعامل معه بلا قاعدة؟ مستحيل .

كلام ينطقه الجهلاء :

أيها الأخوة، الجهلة حينما يقولون: يمكن أن تعبده طوال عمرك، ويكون المصير إلى النار؟ والله من قال هذا الكلام، فهو لا يعرف الله أبدًا .

عندنا واقع يغلب أيّ تصوّر غير صحيح .

أنت إنسان مقيم بدمشق، وُلِدْت فيها، ونشأت فيها، وسافرْت إلى بلدٍ غربي، فإذا أمامك كتاب جغرافيا، مؤلّفه ثمانية عشر دكتورًا، ومطبوع بأعظم دار نشر، وإذا بدمشق تراها فوق بيروت على ساحل البحر، هل تلغي الواقع؟ هل تلغي وُجوده؟ هل تلغي عمرًا عِشْتَهُ في الشام، وهي مدينة داخليّة؟ مستحيل، لن تصدّق هذا الكتاب، رغم أنّ ثمانية عشر دكتورًا ألّفوه، فالقضية قضيّة واقع،

والذي يتوهّم أنّ الله عز وجل على طاعة العبد، وعلى إخلاصه، وعلى انضباطه، وعمله الصالح، يضعه في النار إلى أبد الآبدين، لماذا؟ لأنّ الله شاء له أن يُعذّب، هذا الإنسان لا يعرف الله إطلاقًا . الله عز وجل قال:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا)

[سورة التوبة الآية: ٥١]

لن: تفيد تأبيد المستقبل، لن ولن ألف مرّة، لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا، قال تعالى:

(وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ)

[سورة سبأ الآية: ١٧]

إذًا: لا بدّ أن نحسن الظنّ بالله عز وجل .

ذكرتُ هذا، إنَّك إن أطعْت الله عز وجل، وإن حملت نفسك على طاعته، فأنت في مرضاته، وهذه قاعدة، والتعامل مع الله تعالى واضح جدًّا، والتعامل مع الله تعالى مُقنَّن .

سأل سائل :

مرّة سأل إنسان: هل بالدّين معادلات كالكيمياء؟ قلتُ له: نعم، الأمور بالدّين واضحة جدًّا .

حديث:

((عظني ولا تطل، قال: قل: آمنت بالله ثم استقم، قال: أحب أقل من هذا، قال: إذًا فاستعدّ للبلاء))

استقم تستقم، لا تستقيم تحمّل المصائب .

تعامل مع دينك على هذا الأساس :

أحدهم قال لي: هل هناك زكاة على العسل؟ فقلتُ له: نعم، فقال: وإذا لم يدفع الإنسان؟ فقلتُ له: خراب المحلّ جاهز، هذه الحشرة تأكل كلّ الخلايا، إن دفعت الزكاة أهلاً وسهلاً، وإن لم تدفع، سلط الله عليك حشرة، فتأكل كلّ الخلايا .

((وما تلف مال في برّ أو بحر إلا بحَبْس الزكاة))

أنت لمّا تتعامل في الدين بقوانين ترتاح، هناك جهات مريحة في التعامل معها، الأمور كلّها واضحة، هناك قواعد ثابتة، لماذا لا تجعل من دينك دينًا له قواعد؟ مع القواعد لا تصبح محتاجا إلى مبرّر، ولن تتشاءم، ولن تكون هناك سذاجة، حيث تعلّق آمالاً ولن تتحقّق، انتهى الأمر .

من علامات حب الله تعالى للعبد :

١-اتباع السنة :

فيا أيها الأخوة، انطلقنا في الدرس: من أنّ هذا الإنسان المؤمن، يحبّ بأن يعرف مكانته عند الله تعالى، هل يحبّه الله عز وجل؟ هل هو راضٍ عنه؟ وهذا سؤال مهمّ جدًّا .

أنا لا أبالغ إن قلت: هذا السؤال من أشدّ الأسئلة التي يحرص عليها المؤمن ليعرف جوابها، الإنسان أحيانًا يُطَمئنهُ الله تعالى برُؤيا صالحة يراها أو تُرى له، ومرّة يُطمئنُه بحالٍ نفسي عام، نحن مبدئيًّا ندع الحال النفسي، نحن أمام علامات هي علامات حبّ الله تعالى للعبْد.

إذا كنتَ مطبِّقًا لِسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، فهذه علامة صارخة، أنّ الله تعالى يحبّك، واستنادك في هذا، قوله تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة آل عمران الآية: ٣١]

هذه من علامة محبة الله: اتّباع السنة، لذلك قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال الآية: ٣٣]

المقصود بـ (أنت): ليس جسمه، لكن منهجه، فما دام منهج النبي عليه الصلاة والسلام مطبّقًا في حياة الناس، فهم في مَأمنٍ من عذاب الله .

الآن: عندنا بحبوحة ثانية، لو أنّ الإنسان زلّتْ قدمهُ وأخطأ، واستغفر الله تعالى، لا يزال في بحبوحة من عذاب الله تعالى، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال الآية: ٣٣]

استشكال ورد :

أحدهم قال لي: ما فهمتُ هذه الآية، فقلتُ له: أبٌ فتح جلاء ابنه، فوجده بالرياضيات ضعيفاً، والأب طموحاته كبيرة أن يكون ابنه متفوّقًا، فأدَّبهُ الأب تأديبًا شديدًا، فإذا به وجد ابنه قد اصفرّ وجهه، ولم يأكل، وبقي في غرفته، فبحث له عن مدرِّس رياضيات لدروس إضافية ، فلما وجد هذا الأب ابنه بهذا الحال؛ خوف، وعزوف عن الدنيا، واهتمام بالتصوّف، حينها لن يتدخّل الأب لاهتمام الابن بواجباته، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ)

[سورة الأنفال الآية: ٣٣]

هذا ما يتوقف عليه هذا الحب :

أيها الأخوة، أكبر علامة صارخة على أنّ الله يحبك، أن تكون متَّبعًا للسنَّة، كما تعلمون دائمًا وأبدًا من لوازم: ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وما لا يتم الفرْض إلا به فهو فرض، ما لا تتم السنة إلا به فهو سنة .

إذا كانت العلامة الصارخة على محبّة الله لك اتّباع رسول الله، ما الذي لا يتمّ هذا الحبّ وذاك الاتباع إلا به، ما دام العلامة الصارخة والقويّة على أنّ الله يحبّك، ما الذي يتوقف عليه هذا الحبّ؟ أن تعرف سنَّة النبي عليه الصلاة والسلام، ما دام أكبر علامة على محبة الله لك أن تطبّق سنَّة النبي، فالشيء البديهي أن تعرف سنّة النبي صلى الله عليه وسلّم، لذا طلب العلم حتْمٌ واجب على كلّ مسلم، وفريضة على كلّ مسلم، لأنّ اتّباع سنّة النبي التي هي علامة محبّة الله، لا تتِمّ إلا بمعرفة سنّة النبي عليه الصلاة والسلام، إذًا: حضور درس في شرح أحاديث هذا مهمّ جدًّا، هذا من لوازم اتّباع سنَّة النبي عليه الصلاة والسلام .

كيف تعلم الولد هذا الأدب؟ :

ذكر لي أخٌ، يخطب في جَامع، عنده ابن صغير، استيقظوا متأخّرين، فهيّأتْ له (سندويش)، وقلتُ له: كُلْها بالطريق، فنظر إليه الابن، وقال: يا أبي، قال عليه الصلاة والسلام :

((الأكل في السوق دناءة))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير]

كيف عرف هذا الطفل: أنّ الأكل في الطريق دناءة، لولا أنّ المدرّسة علّمته هذا الحديث؟ .

فأنت لمّا تحضر مجلس علم، وتأخذ طائفة من الأحاديث الكبيرة جدًّا، ستعرف ما ينبغي وما لا ينبغي، وما يجوز وما لا يجوز، وما يمكن وما لا يمكن، ما هو حقّ وما هو باطل، وما هو خير وما هو شرّ، وما هو من الأدب وما ليس منه .

شخص بعيد عن الأدب النبوي :

مرّة جلس شخص أمام والد زوجته، ودخل بعلاقة رجل بزوجته، وقضايا اللّقاء الزوجي، فمن آداب الإسلام: لا يجوز أن تتحدَّث عن موضوعات الزوجات، ولا سيما علاقات الخاصة جدًّا أمام والد الفتاة، أو أمام أخيها، فالبنت مقدّسة عند الأب وعند الأخ، فإذا طُرِحَ هذا الموضوع، يذهب الخيال إلى صُوَر مزعجة جدًّا للأب أو الأخ، أليس كذلك؟ .

فهناك من ليس عنده هذا الأدب، وهو من الأدب: الإعراض عن مثل هذا، الموضوعات التي لا يمكن أن تطرح أمام الأب أو الأخ يطرحها أمامهم، فهذا يعني أنَّه بعيد عن الأدب النبوي .

ما ينبغي أن تتبعه في السنة :

أيها الأخوة، يدقّ الباب ويبقى في الواجهة، النبي عليه الصلاة والسلام علّمنا أن نطرق الباب، ونعطي ظهرنا للباب، وهذا من الأدب النبوي، فالقضيّة طويلة، وأنا أمْضيتها بأشهر بآداب الطعام والشراب، وآداب الزيارة، موضوع طويل طرحَ سابقًا .

بالمناسبة: الإسلام عقائد، وعبادات، ومعاملات، وآداب، الآداب ربْع الإسلام .

أحيانًا: في الولائم أكلهُ قليل، ينهي الأكل، ويذهب لِيُغَسِّل، فأنت أحْرجْت الحاضرين كلهم، ليس من الأدب أن تقوم من طاولة الطعام، أنت أوقفت الطعام، ولكن يجب أن تبقى جالسًا مع المجموع، أما كلّما انتهى واحد، ذهب وغسل، سوف يزعج من هو جائع، ويبقى وحده، لذا ينبغي أن يبقى الجميع على الطاولة، وهذا من الأدب، وهذا الموضوع طويل، وفيه موضوعات طويلة .

الأدب ربع الإسلام، عقائد، عبادات، معاملات، وآداب، فهذا أوّل أمر: اتّباع سنة النبي القولية، والاقتداء بسيرته العملية، والدليل قوله تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

[سورة الحشر الآية: ٧]

السيرة: قال تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً)

[سورة الأحزاب الآية: ٢١]

من لوازم اتّباع سنّة النبي: معرفة سنة النبي عليه الصلاة والسلام، ومن لوازم الاقتداء بسيرة النبي: معرفة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام .

أمر يلفت النظر :

هناك عالم بمصر، ألّف كتاب أعجبني في المقدّمة، أنّه بيّن: أنّ معرفة سنّة النبي القولية فرضُ عيْن على كلّ مسلم، لأنّ هناك أمرًا فرض عيْن، قال تعالى:

(وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

[سورة الحشر الآية: ٧]

وهذا الأمر لا يتمّ إلا بالمعرفة، وهناك أمر ثان بالاقتداء بسنّة رسول الله عليه الصلاة والسلام، وهذا الأمر لا يتمّ إلا بالمعرفة، إذًا: معرفة سنّة النبي عليه الصلاة والسلام فرض عين، ومعرفة سيرة النبي عليه الصلاة والسلام فرض عين على كلّ مسلم .

ما نعاني منه :

أيها الأخوة، فالمشكلة التي نعاني منها: كيف أنّ هؤلاء المسلمين مسخوا هذا الدّين العظيم إلى خمس عبادات شعائريّة؛ صام، وصلى، حجّ، وزكّى، فأصبح الإنسان جيّدًا، والإسلام مئة ألف بند في منهجه، نسخت هذه البنود إلى خمس عبادات شعائرية، يؤدّيها بشَكل أجْوَف، ويظنّ أنّه متديِّنٌ وصالح، والأكثر يربحون أموالاً بربْح ثابت، يقول لك: أرْيَح، أنا لا أدخل بالحسابات، ولكن هذا ربا، إذا أعطيته مئة ألف، وقال لك: على المئة ألف خمسة آلاف فرضًا، فأنت أكلت الربا القطعي الواضح والجلي، وأنت لا تدري، بِدَعوى أنّ الحسابات صعبة ، ولن ندخل في تفاصيل الجرد والدّمم، وهذا أرْيَح لي .

يعطيني في كلّ مئة ألف خمسة آلاف كلّ شهر، أو يشتري مع واحد بيتًا، ويقول له: أريد أجرة، ولكن آخذ المبلغ غير مَنقوص بعد سنتين، هذا الذي دفعه لك كلّ شهر ليس أجرة، متى ينقلب المدفوع شهريًّا، أجرة شرعية صالحة، أن تأخذها وأن تنفقها، إذا كان سعر البيت متغيِّرًا بعد سنتين، قد تهبط الأسعار، وقد تصعد، وقد يُصادر البيت، وقد ينظّم البيت، وقد يُستملك هذا البيت، لن تستحق الأجرة إلا إذا كان البيت بعد سنين تقيّمه، فإذا استُملك فأنت خاسر مع مالكِ البيت، وكذا إذا نظّم، وكذا إن صودر، وكذا لو احترق البيت، لأنّك تضمن النتائج، والأجرة حلال، أما أنت فهل تضمن المليونين بعد سنتين، وطلبْت أجرة على هذين المليونين؟ كلّ هذا ربا .

يقول لك: عملنا عقدًا شرعيًّا بمركز إسلامي، وكان هناك مدير المركز، وصار هناك قبول وإيجاب، نيّتي فقط في أثناء الدّراسة، وبعد ذلك أُطلّقها، زنا .

لا بد من أن تتعلم أحكام الفقه :

أيها الأخوة، فلا بدّ أن تعلم أحكام الفقه، وإلا تقع في الربا، وتقع في الزنا، وتقع في كلّ المحرّمات.

((من دخل السوق من غير فقه، أكل الربا شاء أو أبى))

أقلّ شيء حسم السندات .

أحدهم باع بضاعته بسندات، يأتي إلى البنك، ويقدّم السندات، ويُعطونه قيمتها كاملة محسوم منها بالمئة ستّة، يقول: ما فعلنا شيئًا، فقط حسمْنا السندات، وهناك ألف مخالفة بالبيع والشراء .

فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما يأمرك الله أن تتَّبعَ سنَّته، من لوازم هذا الأمر: أن تعرف سنَّته، ومعرفة سنّته فرض عينٍ على كلّ مسلم .

أحيانًا: الإنسان يقول لك: إذا وجدتُ نفسي غير مشغول، أحضر مجلس العلم، هذا كلام مُضحك، درس العلم يجب أن تحضرهُ كفرْض عيْن، لأنَّه لا طريق لمعرفة السنة إلا عن طريق درس العلم،

المسجد مكان معرفة الفقه، والحديث، والقرآن، والسيرة، والجامعة مكان معرفة الهندسة، والطبّ، والتاريخ، والجغرافيا، فلا بدّ من أن تطلب العلم.

٢-جعل الناس يقصدونه لقضاء حوائجهم:

من علامات حبّ الله عز وجل:

((إذا أحبّ الله عبْدًا، جعل حوائج الناس عنده))

يقصدُه الناس من كلّ حدْبٍ وصوب، يتعبونه، ينصبُّون عليه ليلاً ونهارًا، هذه من علامات محبّة الله عز وجل .

ولو أنّ الله لا يحبّ العبد لصرَف عنه الناس، أما من يقصده الناس لقضاء حوائجهم، هذه علامة محبّة الله له، الذي يقصده الناس ينبغي ألاّ يتبرّم، ينبغي ألاّ يتشكّك، وألاّ يضيقَ صدرهُ، وألاّ ينزعج، وألاّ يتكلّم كلامًا لا يليق .

كلمة قالها أعرابي :

رجل من الأغنياء الكبار، وسّطني أخ أن أكلمه، كي يعيّنه عندهُ، فكلّمْتهُ فامتنع وتأبّى، وقال لي: أنا لا أحبّ أصحاب الدّين، فقلتُ له: إنّ الله عز وجل قادر على ما تملك من ذكاء، وعلى ما تملك من خبرات، أن يجعلك تقف في طابور طويل على باب جمعيّة خيريّة، وتأخذ ثلاثمئة ليرة، وتبصم وتوقع، وتبْرز هويّتك، والله على كلّ شيءٍ قدير، يعطي فيدْهِش، ويأخذ فيُدْهش، حينها خجل، واسْتجاب، وعيَّنَهُ.

فأنت إذا مكّنَكَ الله عز وجل أن تُعْطي، ينبغي أن تعلم أنَّ هذا المال مال الله .

أجمل كلمة قالها أعرابي، كان بيده قطيع إبل، فقيل له:

((لِمَن هذا القطيع؟ قال: هو لله في يدي))

فبيْتُكَ أنت لله في يدك، سمَحَ لك أن تسْكُنَهُ، مركبتكَ لله في يدك، سمح لك أن تركبها، لك زوجة هي لله في يدك، سمح لك أن تكون هي لك زوجة، وإلا لو اختلّ عقل الإنسان، من الذي يسعى له؟ زوجته وأولاده، وهل تحتاج هذه إلى واسطة؟ فالله عز وجل بكلّ لحظة قادر أن يحرمك كلّ شيء، أحياناً: الوقت لا تملكه .

أنت لا تملك شيئاً :

زارني أخ، وقال لي: أنا أصلي الفجر بجَامع بالمزّة، مثابر على هذه الصلاة، وهناك أخ يصلّي معنا، له روح دُعابة، خرجنا صحبة، وتكلّمنا طرفًا في الطريق، وسلّمتُ عليه، وذهبنا، وفي الظهر لمحْتُهُ على موقف الحافلة بالمرجة، وفي العصر خرجتُ في جنازته .

أقسم بالله أنَّه ما كان يشكو من شيء، فقد صلى معه صباحًا ومشينا، وكانت دعابة بيني وبينه، ولمحته ظُهرًا على موقف الحافلة، وفي العصر مشيْتُ في جنازته، أنت لا تملك شيئًا، لا تملك الوقت .

((ومن عدَّ غدًا من عمره، فقد أساء صُحْبة الموت))

إذا قال: أنا غدًا سأدْفعُ فاتورة الهاتف، فمعنى ذلك: أنت لا تعرف حقيقة الموت:

الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل

فإذا أحب الله عبدًا جعل حوائج الناس عنده، هذه علامة .

((الخير بيدي والشرّ بيدي، فطوبى لِمَن قدّرتُ على يده الخير، والويل لِمَن قدَّرتُ على يده الشرّ))

كيف أنَّ الإنسان أحيانًا: يستخدم ملقط لمسْك شيءٍ نجسٍ وقذر، إذا الإنسان وجد فأرة بالبيت لا يمسكها بيده، وهناك أشخاص الله جعلهم أداة لتأديب خلقه .

((الخير بيدي والشرّ بيدي، فطوبى لِمَن قدّرتُ على يده الخير، والويل لِمَن قدَّرتُ على يده الشرّ))

٣-تعجيل له العقوبة :

العلامة الثالثة:

((إذا أحبّ الله عبْدًا عجَّلَ له بالعقوبة))

هناك متابعة، تكلّم كلمة غير لائقة، يدفع الثمن فورًا، تصرّف تصرّفًا غير صحيح، يدفع الثمن فورًا، تطاوَلَ بِكَلمة، أهْمل، قصّر، زلّت قدمه، ارتكب معصية، كلّما وجدت الله عز وجل يتابعك سريعًا، فاسْجُد لله شاكرًا، معنى ذلك: أنّك ضمن العناية المشدّدة .

إذا قال مريض لطبيب: أنا معي التهاب، يعطيه تعليمات، ومواد يأكلها، والمخلّلات ممنوعة، والمواد الدسمة ممنوعة، فقط تأكل تفاحًا وحليبًا .

إذا كان معه ورم خبيث، يقول له: كل ما شئت، التساهل رافقَ ماذا؟ رافق أنّ هذا المريض خارج العناية الطبيّة، ما دام خارج المعالجة فلم يعد هناك ضبط وحجر، وكلّ شيء مباح، أما إذا كان الإنسان ضمن العناية المشدّدة، فهناك متابعة شديدة .

عتاب رقيق لهذا العبد من الله :

أخٌ من أخواننا، له معمل، زاره أخٌ من الجامع، قال له: أريد أن أشتري قطعتين لأولادي، والمعمل يبيع أربعمئة وخمسمئة دزينة، فرأى هذه الصفقة فيها إهانة له، فقال له: أنا لا أبيع المفرّق، قال لي: ثلاثة وثلاثون يومًا، اشتهيتُ أن يكون في معملي مشترٍ واحد، أدَّبهُ الله .

فإذا أحبّك الله عالجك سريعًا، يحْزنك، ويبْكيك، أحيانًا: يفشلك، أحيانًا: يضع العراقيل أمام أهدافك، فأنت انتبه .

إذا دخل الإنسان مع الله في الحساب والمعاتبة، ودخل مع الله في المراجعة، يكون من السعداء، ويكون قطع أربعة أخماس الطريق إلى الله .

فأوّل علامة: اتّباع السنّة، وثاني علامة: أن يجعل حوائج الناس عندك، مطروق بابه دائمًا، لا يرتاح، والعلامة الثالثة: عجَّل له بالعقوبة .

٤-عتاب له في المنام :

الحالة الرابعة: عاتبه في منامه، إذا صار هناك تقصير، قد يرى منامًا مخيفًا، إذا هناك غلط، فإذا كان الواحد ضمن العناية المشدّدة، وضمن المتابعة، وضمن المحاسبة، فهذه من نعم الله الكبرى، وهذه علامة محبّة الله للإنسان .

٥-أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين :

قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

[سورة المائدة الآية: ٥٤]

ما علامة محبّتهم له؟ وما علامة محبّة الله لهم؟ أذلّة على المؤمنين، أعزّة على الكافرين وليس العكس.

الإنسان من بعده عن الله يتجبّر على الضعيف، ويتذلل أمام القويّ، أمام القويّ كالشاة ، وأمام الضعيف جبروت ورهبوت، أما المؤمن أذلّة على المؤمنين، أعزّة على الكافرين، يتواضع للمؤمن ولو كان حاجبًا، قد يكون مدير عام هو وعنده حاجب مؤمن، ومتواضع .

هذا ما حدث بالدار البيضاء :

مرّة كنت بمؤتمر بالدار البيضاء، دخلنا الفندق بعد الساعة الثانية عشرة ليلاً من سفرنا ، نمنا واستيقظتُ على صوت أذان، في الحديقة رجل حاجب، يصلّي الصبح بصوت جميل، فخطر ببالي خاطر، قلت: لعلّ هذا الحاجب الذي يصلّي هذا الفجر في وقته، ويقرأ القرآن، ويتغنّى به في الصلاة أقرب من الله، من كلّ مَن في الفندق جميعًا، فهو لا يتيح له دخلهُ أن يدخل هذا المكان إلا ليخْدم فقط.

فموازين الله عز وجل غير موازين الخلق، أذلّة على المؤمنين، أعزّة على الكافرين.

هذا ما فعل الصديق مع بلال :

أيها الأخوة، سيّدنا الصدّيق سيّد من سادة قريش، لا تقولوا: أسياد، فهي تعني الذئاب، قلْ سادتنا العلماء، هناك أخطاء فاحشة ترتكب، منها هذا الخطأ، لا تقل طبيب أخصّائي، فهي تعني الذي يُخصي، ولكن قل: طبيب اختصاصي، وقل: أنا مولع، وليس مولّع .

على كلّ؛ سيّدنا الصدّيق سيّد من سادة قريش، اشترى بلالاً من سيّده، قال له سيّده:

((والله لو دفعت به درهما لبِعْتُكَهُ، -وهذه كلمة تحوي فعلاً، وفاعلاً، ومفعولاً به أولا، ومفعولا به ثانيًا-، فقال أبو بكر: لو طلبت به مئة ألف لاشتريْت منك، وضع يده تحت إبْطه، وقال: هذا أخي حقًّا))

أذلّة على المؤمنين، أعزّة على الكافرين .

أحياناً: ينتقل الإنسان إلى منصب رفيع، فإذا به يستحي بوَالده، من الأخ؟ مستخدم عندنا، وهذا حدث مع أب، أصدقاء ابنه عنده، فأتى لهم بالقهوة، وخرج، لما خرج من الباب من فلان، فقال الابن: مستخدم عندنا، أذلّة على المؤمنين، أعزّة على الكافرين، مع المؤمن ذليل ومتواضع .

قال تعالى:

(يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ)

[سورة المائدة الآية: ٥٤]

هذه العلامة الرابعة، فأوّل علامة: اتّباع السنّة، وثاني علامة: أن يجعل حوائج الناس عندك، مطروق بابه دائمًا، لا يرتاح، والعلامة الثالثة: عجَّل له بالعقوبة، الحالة الرابعة: عاتبه في منامه، والخامسة: أذلّة على المؤمنين، أعزّة على الكافرين .

احذر من أن تعتدي على أولياء الله تعالى :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

افعَل ما بدا لك، إلا أن تعتدي على أولياء الله تعالى، والأولياء هنا بالمعنى القرآني، يعني: كلّ مؤمن مطبّق،

قال تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[سورة يونس الآية: ٦٢-٦٣]

لا تأخذ معنى الولي كبار العارفين الأقطاب الأبدال، لا، أيّ مؤمن عرف الله، وطبّق منهجه، فهو وليّ عند الله تعالى، قال تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)

[سورة يونس الآية: ٦٢-٦٣]

إليك تفسير هذا الحديث :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ)) .((وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، -فالفرائض أولًا-، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ،

-لا يسمع شيئًا إلا وفق منهج الله، لو سمع غلطًا فعنده تصفية، الإنسان يقرأ أشياء كثيرة؛ خرافات، شطحات، نظريات علميّة غير صحيحة، بعد أن يهتدي الإنسان إلى الله، تصبح عنده تصفية، وأيّ شيءٍ يسمعه، يسمعه من خلال منهج الله، فيرفض ويقبل- .

كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، -إذا دخل الإنسان إلى بيت مغتصب، والبيت فخم جدًّا، فرضًا أبٌ ترك مبلغًا مائة مليون، وترك خمسة أولاد، استطاع أحد الأولاد أن يأخذ المبلغ كلّه، وحرم أخوته الأربعة، واشتغلوا بمِهَنٍ ضعيفة، وكانوا فقراء، مئة مليون، أقام بيتًا فخمًا وفرشهُ، فيه مسبح، عنده مركبة، تدخل تقول: ما شاء الله، ما هذا؟ أتمَّ الله عليك، لا بدّ أن لا تعظّمه، لأنَّ هذا المال حرام، فأنت لا ترى هذا البيت إلا بعين الشرع، هذا بيت مغتصب .

أحيانًا: يكون لك عمل كبير، ولكن لا يرضي الله تعالى، وقد يكون عملٌ آخر مثعِبًا جدًّا ، ودوامه طويل، وقد يكون مع أناس متعبين، ولكن حلال، يجب أن تنظر إلى كلّ شيء بمنظار الشرع، فالحرام محتقر .

توازن ملهى مع مدرسة، من حيث العين أفخم بكثير، وقد يكلّف الملايين، ولكن هنا رقص، وطرب، وزنا ، وخمر، أما المدرسة قد يكون بناء خشن جدًّا، متواضع، ولكن يخرّج علماء وفقهاء، لذا عليك أن تنظر إلى الشيء بمِنظار الشرع .

قد تخطب فتاة مؤمنة، ويكون شكلها أقل، والثانية فاسقة فاجرة، لا بدّ أن تنظر للفتاة التي تخطبها بمنظار الشرع، قال تعالى:

(وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ)

[سورة البقرة الآية: ٢٢١]

وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، -كلّ حركاته شرعيّة، لا يوجد ضرر، أو أخذ مال بغير حق، حركة يده كلّها وفق المنهج-، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، -أين؟ إلى البيت، البيت مشروع، أين؟ على الجامع، أين؟ لإصلاح ذات البين، أين؟ أزور صديقي المؤمن، أين؟ لصلة رحمي، كلّ حركاته مشروعة-،

وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ، تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

دقق :

في الحديث الصحيح: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((إِنَّ اللَّهَ تعالى إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا، دَعَا جِبْرِيلَ، فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا، دَعَا جِبْرِيلَ، فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ، إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

أحيانًا: يجعل الله قلوب الناس تميل لإنسان، وأحيانًا بالعكس، كلّهم يبغضونه، لم يوفّقه الله، الإنسان يتلخّص عمله بكلمة وفّقه الله، وإذا كان مسيئًا للناس يتلخّص عمله بكلمة أخرى .

خاتمة القول :

أيها الأخوة، هذه من علامات محبّة الله للإنسان، وتوجد أشياء أخرى، افتح القرآن الكريم، وتتبَّع الآيات التي تبدأ بقوله تعالى: إن الله يحبّ، وهي اثنتا عشرة آية، ولكنّك لو حذفت المتكرّر، النتيجة اثنتا عشرة آية؛ فالله يحب الصادقين، يحب المتوكّلين، يحب المتطهّرين، يحبّ المخلصين، وهكذا ......

أيضاً: هذه من علامات محبّة الله للإنسان، فالذي هو حريص على محبة الله، محبّة الله مقنّنة، أي لها قواعد، وليس من دون قواعد، إذا كان الإنسان مزاجيًا، هذا لا قاعدة له، أما محبّة الله لها قواعد ومبادئ، إن اتَّبَعْتها أحبّك الله، لأنَّ الله للجميع.

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٩٦-١٠١) : باب الجمع بين الرجاء والخوف معاً - كيف يتم الجمع بين الرجاء والخوف؟ وما هو التطرف؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-١١-٠٦

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا حد التوسط بين الرجاء والخوف :

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا في رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، وننتقل اليوم على باب يجمع بين البابين، كنا في باب الرجاء، وانتقلنا إلى باب الخوف، واليوم: الجمع بين الرجاء والخوف معاً .

يقول الله عز وجل:

(فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

[سورة الأعراف الآية: ٩٩]

ويقول الله عز وجل:

(إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

[سورة يوسف الآية: ٨٧]

ينبغي ألاّ تأمن الله، وألا تيأس منه، إن أمنته تطرفت، وإن يئست من رحمته تطرفت، يجب أن تقع في موقع متوسط بينهما، لا تأمن مكره، ولا تيأس من رحمته، لا ملجأ منه إلا إليه، ولا حافظ منه إلا به، الجمع دقيق .

هذا التطرف :

أيها الأخوة، من السهل أن تتطرف، من السهل أن تكون ساذجاً، تطمع في رحمة الله طمعاً ساذجاً، يقول لك: الله غفور رحيم، ثم يُصعق حينما يحاسَب عن كل أعماله، من ضعف الإيمان: أن تيأس من رحمته، واليأس قد يودي إلى الكفر، ورحمة الله وسعت كل شيء، فإن طمعت في رحمته بلا مبرر تطرفت، وإن يئست من رحمته بلا مبرر فقد تطرفت .

هكذا الجمع بين الرجاء والخوف :

أيها الأخوة، يجب أن تجمع بين الرجاء والخوف .

بشكل آخر: يمكن للأب أن يكون قاسياً جداً، يضرب ابنه ضرباً مبرحاً، ومن الممكن أن يكون متساهلاً جداً، حيث يتطاول عليه ابنه، لكن الأب المربي هو الذي يقف من ابنه موقفاً، فتارة يقسو، وتارة يرحم، فالابن دائماً في حالة طمع في رحمة أبيه، وخوف من عقابه ، هذه الحالة المثلى التي أرادها الله لنا، قال تعالى:

(يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً)

[سورة السجدة الآية: ١٦]

(وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً)

[سورة الأنبياء الآية: ٩٠]

أنت افعل ما شئت، لكن الله هكذا يفعل، فإذا رآك قد طمعت في رحمته، وقصّرت في عبادته، وقصّرت في تطبيق منهجه، يقسو عليك، فإذا حمتك قسوته على أن تيأس من رحمته يتجلى عليك، أنت بين الخوف والرجاء، بين الطمأنينة إلى رحمته، والخوف من مكره . فالآيتان:

(إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

[سورة يوسف الآية: ٨٧]

(فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ)

[سورة الأعراف الآية: ٩٩]

ينبغي ألاّ تأمن مكره، وألا تيأس من روحه، هذا ماذا يحتاج؟ يحتاج إلى معرفة به .

إياك أن تقع في هذا الخطأ :

أيها الأخوة، فإذا كان للإنسان دعوى عند قاض، والقاضي نزيه جداً جداً، وقيل له: نشتريه بالمال، واطمأن طمأنينة ساذجة، فلما ذهب إليه، ولوّح له بمبلغ، ركله بقدمه وطرده، وخسر الدعوى، هذه طمأنينة ساذجة، وكل إنسان يطمع في رحمة الله بلا مبرر، بلا استقامة، بلا عمل صالح، هذا طمع ساذج، سوف يفاجأ .

العوام يرتاحون إذا قلت لهم: إن الله غفور رحيم، بهذه البساطة؛ تأكل مال الناس، تعتدي عليهم، تعتدي على أعراضهم، وتحتال عليهم، وكل شيء لصالحك، ولست مقصّراً في شيء من الشهوات والمباهج، وتقصّر في العبادات، والله غفور رحيم. هذا كلام غير صحيح، يقول الله عز وجل:

(وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأعراف الآية: ١٥٣]

بعد التوبة، والإيمان، والعلم الصالح، قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة النحل الآية: ١١٩]

فأنا أتمنى ألا نقع في سذاجة التعلق برحمته بلا عمل، وألا نقع في اليأس من رحمته، فاليأس من رحمته جهل، والتعلق برحمته بلا عمل غرور .

هاتان الآيتان تؤكدان على :

يقول ربنا عز وجل:

(يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ)

[سورة آل عمران الآية:١٠٦]

وقال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأعراف الآية: ١٦٧]

هذا كله يحقق توازنًا بين الطمع في رحمته، والخوف من عقابه .

قاعدة :

وفي الحديث القدسي: أن داود عليه السلام قال:

((يا رب أي عبادي أحبّ إليك حتى أحبه بحبك؟ قال: أحَبّ عبادي إلي؛ تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك على خلقك؟ قال: ذكّرهم بآلائي، ونعمائي، وبلائي))

هذه قاعدة: إذا ذكرت نعمه أحببته، وطمعت في رحمته، وإذا ذكرت عقابه خفته، ووقفت عند حدوده، وإذا ذكرت آلاءه عظّمته، فاستقمت على أمره، إذًا: لا بد أن يكون في قلبك رحمة، طمع في رحمته، و خوف من عقابه، وتعظيم لجلاله، فالقلب الكامل الذي يجمع بين المشاعر كلها، ثلاثة مشاعر .

من أخطاء بعض الخطباء :

أيها الأخوة، إذا دعوت إلى الله، -الآن: الدرس لنا- لا تيَأس الناس من رحمة الله، ولا تجعلهم يطمعون بلا مبرر .

هناك خطباء دائماً في ذكر النار، والسياط، والزبانية، وجهنم، والصراط، لا يترك من الأمل شعرة، وهناك خطباء في سذاجة، نحن أمة محمد، نحن مرحومون، نحن أمة مفضلة، والجنة لنا، مع هذه الأخطاء، والفسق، والفجور، والمعاصي، والآثام، والانحرافات، والتقاطع، والتدابر،

والعدوان على بعضنا البعض، على هذه الأخلاق؟! نحن أمة محمد المفضّلة؟ فينبغي ألا ييئسهم من رحمة الله، وألاّ تجعلهم يطمعون طمعاً ساذجاً في رحمة الله، قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

[سورة الأعراف الآية: ١٦٧]

هذه الآيات كلها فيها توازن .

هكذا يخاطب الله به عباده :

أيها الأخوة، ما دمنا قد خضنا في هذا الموضوع، ربنا عز وجل كلامه مؤثّر جدًّا، السبب: أنه تارة يخاطب العقل، وتارة يخاطب القلب، وفي بعض الآيات النادرة، يخاطب العقل والقلب معًا، يقول الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

[سورة الانفطار الآية: ٦]

يخاطب ماذا؟ العاطفة، إذا قال لك شخص: استح على نفسك، فهو يثير عواطفك، أنت من يخاطب عاطفته؟ قال له:

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ)

[سورة الانفطار الآية: ٧]

أسرة عاقلة، وهذه الأعمال لا تليق بك، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

[سورة الانفطار الآية: ٦]

الآن: يخاطب عقله، انظر إلى جسمك، إلى قوامك، إلى حواسك، إلى أجهزتك، إلى أعضائك، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

[سورة الانفطار الآية: ٦-٨]

آية لها مدلولها :

لا زلنا في التوازن، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

[سورة الانفطار الآية: ١٣-١٤]

أيها الأخوة، صدّقوني أن هذه الآية، على أنك إذا قرأتها تتجه بها إلى الآخرة، هي مطبّقة في الدنيا عن المستقيم، في نعيم؛ نعيم القرب، نعيم الراحة النفسية، نعيم أن أحداً ليس له عنده حق، قال تعالى:

(وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

[سورة الانفطار الآية: ١٤]

قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

[سورة طه الآية: ١٢٤]

في جحيم، لذلك قالوا:

((في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة))

هذا ما قاله بعض العلماء في هذا الحديث :

أيها الأخوة، بعض العلماء قال:

((حينما قال النبي صلى الله عليه وسلم: أبو بكر في الجنة))

[أخرجه الترمذي في سننه]

أيّة جنة؟ هكذا قال بعضهم: هو الآن في جنة .

إذا عمل الإنسان عملاً صالحاً، وتقرب إلى الله، واصطلح مع الله، وخطب ود الله عز وجل، نفع عباد الله، يشعر أن نفسه قريبة من الله، هذه جنة القرب .

رجل يهودي يسأل ابن المبارك :

مرة أحد كبار العلماء، الإمام عبد الله بن المبارك، كان بهي الطلعة، وصاحب هيبة، وله وجه نوراني، وكان أنيقاً، وكان في موكب على فرسه، وحوله أخوانه الكبار، فرآه يهودي يعمل في المجاري، ورأى حاله، قال له:

((يا إمام، يقول نبيكم: الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فأيّ سجن أنت فيه، وأيّة جنة أنا فيها؟ - ما هذا العز، والجمال، والكمال؟ محفوف مخدوم، محشوم، وهو يعمل في المجاري حيث الفئران- ، قال له: يا هذا، ما أنا فيه إلى ما ينتظرني في الجنة فأنا في السجن، وما أنت فيه إلى ما ينتظرك من عذاب أليم فأنت في جنة))

كلام دقيق، قال تعالى:

(إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ)

[سورة الانفطار الآية: ١٣-١٤]

حتى إن أحد العلماء قال:

((ماذا يفعل أعدائي بي؟ بستاني في صدري، إن أبعدوني فإبعادي سياحة، وإن حبسوني فحبسي خلوة، وإن قتلوني فقتلي شهادة، فماذا يفعل أعدائي بي؟))

استخرج المغزى من هذه القصة :

إنسان في النزع الأخير، سيدنا سعد بن الربيع، تفقده النبي صلى الله عليه وسلم عقب معركة أحد، فانطلق أحد أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ليتفقده في المعركة، بعدما انتهت ، فإذا هو بين القتلى، لكنه في الرمق الأخير، قال:

((يا سعد، إن النبي صلى الله عليه وسلم أمرني أن أتفقدك، فأنت في الأحياء أم في الأموات؟ قال: أنا في الأموات، ولكن أبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم مني السلام، -شاب ينازع الموت-، وقل له: جزاك الله خير ما جزى نبياً عن أمته، وقل لأصحابه: لا عذر لكم إذا خلص إلى نبيكم، وفيكم عين تطرف))

هل هناك إنسان في هذه السعادة، وهو على وشك الموت؟ هكذا ربى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه .

آية تجمع بين الرجاء والخوف :

والآية الثانية:

(فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ)

[سورة القارعة الآية: ٦-١١]

هذه طائفة من الأحاديث تدل على ما ذكرناه آنفاً :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

قال سيدنا عمر ـــ وهذا موقف رائع-:

((لو علمت أن الله معذّباً واحداً من خلقه لظننت أنني أنا، ولو علمت أن الله راحم واحداً من خلقه لظننت أنني أنا))

فطمعه في الله يكافئ خوفه منه، هذا هو التوازن .

((لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِه))

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((إِذَا وُضِعَتْ الْجِنَازَةُ، وَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِّمُونِي، قدموني، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا أَيْنَ تَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الْإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهُ صَعِقَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

حينما يموت الإنسان، ترفرف روحه فوق النعش، تقول:

((يا أهلي، يا ولدي، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حل وحرم، فأنفقته في حله وفي غير حله، فالهناء لكم والتبعة عليّ))

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

من علامات آخر الزمان: جاء في حديث أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، و يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

سمعت عن رجل في المدينة المنورة، أنه أتى بالصحن الفضائي، فترك الصلاة وهو في الستين من عمره، وأكثر الناس الآن يأتون بهذا الصحن، ويسهرون أمامه، يشاهدون المحطات الماجنة حتى الفجر، قيام ليل في المحطات .

((يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، ويُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا))

فـ:

((الْجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ))

[أخرجه البخاري في الصحيح]

((أَلَا إِنَّ عَمَلَ الْجَنَّةِ حَزْنٌ بِرَبْوَةٍ -ثَلَاثًا-، أَلَا إِنَّ عَمَلَ النَّارِ سَهْلٌ بِسَهْوَةٍ))

المؤمن كيِّس فطِن حذِر .

هذا ما تفعله بعض الفتن بالإنسان :

أيها الأخوة، كثير من الفتن، يمكن أن تجرّ الإنسان إلى معصية الله دون أن يشعر، ساعة باسم الانفتاح، وساعة باسم الحضارة، وساعة باسم الموضة، ويقول عنك: إنك متزمّت متخلف، وساعة

باسم التحرر، وساعة يقال: أنت تمسك الدين من ذنَبه، إلى هذه الدرجة الدين صعب؟ هذا كلام العوام .

فالإنسان بالتدريج: تجده يقع في المعصية دون أن يشعر .

هذا ما لفت نظري في أمريكا :

لفت نظري لما ذهبت إلى أمريكا، حيث وجدت أن المسلمين الأمور عندهم سهلة، كله محلحل، مع تفلت، كل معصية يقال فيها: ليس فيها شيء، الناس كلهم هكذا، هذه مشكلة .

وفي الحديث: عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ:

((بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَرِيَّةً إِلَى خَثْعَمٍ، فَاعْتَصَمَ أُنَاسٌ مِنْهُمْ بِالسُّجُودِ، فَأَسْرَعَ فِيهِمْ الْقَتْلَ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَهم بِنِصْفِ الْعَقْلِ، وَقَالَ: أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ، يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ؟ قَالَ: لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا))

[أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

إذا عاشر الإنسان العصاة والمنحرفين، تتحلحل الأمور عنده، يقتنع بكلامهم، لا تشدّد، الله غفور رحيم، مَن مات ورجع، فذكر ما بعد الموت، هكذا كلام العامة، لا تفرِّق العائلة، نحب أن نجلس مع البعض، وهذه مثل أختي إن شاء الله، وهذا مثل ابني، اختلاط، وتساهل، وتقصير، وعدوان، وإطلاق البصر، والمجيء بالملهيات، والمحطات الفضائية، هذا كله من علامات آخر الزمان .

خاتمة القول :

أيها الأخوة، هذا الدرس متعلق بالدرسين السابقين، وقفنا أسبوعين أو أكثر، في باب الرجاء، وباب الخوف، أما البطولة: فأن تجمع بين الرجاء والخوف .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٩٧-١٠١) : باب تحريم الظلم والأمر برد المظالم - ما هو واقع المسلمين في هذا العصر؟ وما هو الفرق بين العبادات التعاملية وبين العبادات الشعائرية؟ وما هي الأحاديث التي وردت بشأن الوعيد لمن وقع في الظلم؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-١١-٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا حال المسلم اليوم :

أيها الأخوة الكرام، لا زلنا في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، اخترت لكم في هذا اليوم باب: تحريم الظلم والأمر برد المظالم .

السبب: أنني أفاجأ من حينٍ إلى آخر، أن مسلماً يصلي، ويصوم، ويحج، ويقيم شعائر الله، أما إذا عاملته بالدرهم والدينار، أخذ ما ليس له، أو منع الذي لغيره. اسمحوا لي أن أضرب لكم هذا المثل:

قبل أن تفتح عليه الصنبور، أحكِم قعر المستودع، وإلا فلا معنى إطلاقاً لفتح الصنابير عليه، لن تمتلئ، ما دام قعرها مثقوباً، فتح الصنبور لا يُجدي، أيْ أن هناك سلبيات، وهناك إيجابيات، الإيجابيات لا معنى لها قبل إحكام السلبيات، فالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، وحضور درس علم، وارتداء ثياب إسلامية، وسواك، وعطر إسلامي، ومسبحة، ودرس علم، ومن جامع إلى جامع، وأكل مال حرام، هذا وضع مَرَضي، هذا وضع لا يمكن أن يقبل في الإسلام .

أُذكّركم بقول التستري، أحد كبار العلماء:

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام))

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته، خيرٌ لي من صيام شهرٍ، واعتكافه في مسجدي هذا))

لا بد من أن تفرق بين العبادات التعاملية والعبادات الشعائرية :

أيها الأخوة، يجب أن تفرِّق دائماً بين العبادات التعاملية والعبادات الشعائرية، الأصل في الدين إحكام العبادات التعاملية، من أجل أن تُقْبَلَ العبادات الشعائرية، أما حينما تأخذ ما ليس لك، حينما تعتدي على حقوق الآخرين، حينما تظلم زوجتك، حينما لا تسوّي بالعطية بين أولادك، حينما تأخذ الشركة من شريكك، حينما لا تعطي الناس حقوقهم، لا يمكن أن يقبلك الله عز وجل، ولو صليت ألف ركعة، ولو صمت الدهر كلّه، ولو فعلت ما فعلت، لأن درءَ المفاسد مقدمٌ على جلب المنافع، إحكام المستودع قبل أن تفتح عليه الصنبور، ما قيمة فتح الصنبور والمستودع بلا قَعْر؟ هذا حال المسلمين .

ادخل إلى المحاكم -والعياذ بالله- عشرات ألوف الدعاوى، كلها اغتصاب أموال، اقترض قرضًا لم يؤدهِ، هكذا .....

الآن: نصف العلاقات التجارية، عليه دين لا يدفع شيئًا، ويقول: ليس معي مال، هذا الحاضر، اشتك عليّ .

ففي طرفة: قال شخص لآخر: أنا أكفله، وإذا لم يدفع لك، ابصق بهذه اللحية، فلم يدفع له، قال له: تعال ابصق بهذه اللحية، وهذا هو الشرط، كلام فارغ .

يا أيها الأخوة الكرام، إني أستمع كل يوم إلى قصة، يندى لها الجبين، أيعقل من إنسان يدخل مسجدًا، ثم يأكل حقوق الآخرين، يأخذ ما ليس له، يظلم امرأته، لا يعطيها شيئاً؟.

هذا ما أصدره النووي في كتابه :

الإمام النووي رحمه الله تعالى، من عادته: أن يُصَدِّرَ أبواب كتابه رياض الصالحين ببعض الآيات، يقول الله عز وجل:

(مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

[سورة غافر الآية: ١٨]

الظلم ظلماتٌ يوم القيامة .

أيْ قبل أن تفتح الصنبور أحكم المستودع، قبل أن تصلي أدِّ الحقوق لأصحابها، قبل أن تتصدر، وتحدث الناس عن الله عز وجل أدِّ ما عليك من حقوق، قبل أن تُعْلِن انتماءك لهذا الدين العظيم كن عادلاً في بيتك، قبل أن تقول: ما أعظم دين الإسلام! أعطِ كل ذي حقٍ حقه، لا تقبل العبادات الشعائرية، ما لم تستقم العبادات التعاملية، هذا كلام دقيق جداً .

من أدلة الكتاب والسنة في مطلب: لا تقبل العبادات الشعائرية ما لم تستقم العبادات التعاملية:

هناك أدلة في القرآن الكريم بشأن: لا تقبل العبادات الشعائرية، ما لم تستقم العبادات التعاملية:

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

[سورة العنكبوت الآية: ٤٥]

فإن لم تنهَ عن الفحشاء والمنكر، لم يحقق المصلي من صلاته الغاية التي أرادها الله منها .

((رُبَّ صائمٍ ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، ورب قائمٍ ليس له من قيامه إلا التعب والسفر))

أيها الأخوة، هناك حديثٌ شريف، لو تأمَّله الإنسان لارتعدت فرائصه:

((لأعْلَمَنَّ أقْوَاماً مَنْ أمَّتِي، يَأتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ، أمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بيضاً، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُوراً، قَالَ ثَوْبان: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أنْ لاَ نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لاَ نَعْلَمُ، قالَ: أمَا إنَّهُمْ أخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أقْوَامٌ إذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا))

[أخرجه ابن ماجة في سننه]

من يوميات مسلم في مسجد :

أيها الأخوة، ما من يوم إلا واستمع إلى إنسان يصلي، وله مظهر ديني، ويؤدي العبادات الشعائرية، وله مسجد، وله شَيْخ، ومع ذلك: يأكل أموال الناس بالباطل، ومن أكل أموال الناس بالباطل، أجاعه الله بالحَق، هو أكل بالباطل فجاع بالحق، قال تعالى:

(مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ)

[سورة غافر الآية: ١٨]

هذا مسلم حقاً :

أعرف أخًا كريمًا، أنا أفتخر به، والده ترك بيتًا بأحد أرقى أحياء دمشق، وله أخت وحيدة، فالورثة ابنٌ وابنة، والإنسان تزوج في بيت أبيه، الذي يملك ثُلُثَيْه، أخته تزوَّجت، وزوجها لها بيت مُلك، بيت زوجها، وليست بحاجة إلى شيء، هذا الأخ قَيَّمَ البيت تقييماً كما لو أنه فارغ، وأعطى أخته حقَّها من الإرث بالتمام والكمال .

فمعظم الأخوة يقولون لك: هذا بيت العائلة، تعال واسكن إذا أردت ذلك، أو يقيِّمه مستأجرًا بربع القيمة، فهو لا يعطيها من قيمته إلا النذر اليسير .

هذا مثال من واقع المسلمين في تاريخ النبوة :

فيا أيها الأخوة، قبل أن تتلبس بمظاهر الإسلام، وقبل أن تؤدِّي شعائر الله، وقبل أن تنتمي لهذا الدين العظيم، الإسلام منظومة قيَم أخلاقية، والمسلمون الأوائل حينما وصلوا إلى مشارق الأرض ومغاربها، وصلوا إلى هذه البلاد باستقامتهم .

عبد الله بن رواحة، جاء يهود خيبر ليقيِّم تمرهم، -فللنبي نصفه فيما أذكر-، فأغروه ببعض حِلِيّ نسائهم، فلعله يُقَيِّم التمر بقيمةٍ أقل، فقال لهم:

((والله لقد جئتكم من أحب الناس إلي، ولأنتم عندي أبغض إليَّ من القردة والخنازير، ومع ذلك لن أحيف عليكم، فقال اليهود: بهذا قامت السموات والأرض، وبهذا غلبتمونا))

فالمسلم الظالم يُهْزَم، ويمرَّغ في الوَحْل، وقد يقوى عليه كافرٌ عادل، انتبهوا: المسلم الظالم قد يسلط عليه كافر عادل، كافر في عنده قيم مدنية، ليست دينية، قيم مدنية يتعايش بها، فقد يسلط على مسلمٍ ظالم كافر عادل .

هذه هي رسالة الإسلام :

أيها الأخوة الكرام، فأنا أتمنى أن يكون واضحاً لديكم: أن سيدنا جعفر عندما سأله النجاشي عن الإسلام، هذا سيدنا جعفر من كبار الصحابة، عَرَّفَ الإسلام تعريف أخلاقي فقط قال:

((كنا قوماً أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، حتى بعث الله فينا رجلاً، نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده ونوحِّده، ونخلع ما كان يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والكَفِّ عن المحارم والدماء))

هذا هو الإسلام، فالإسلام صدق .

الصادق داعية ولو كان صامتاً :

أخواننا الكرام، الصادق وحده داعية، داعية وهو ساكت، بإمكانك أن تكون أكبر داعية وأنت ساكت، ولا كلمة؛ لكن صادق، أمين، وَرِع، واضح، فلا يوجد احتيال، واختيال، وإظهار شيء، وإبطان شيء، لا، بل واضح .

المؤمن الصادق لا يكذب، المؤمن لا يغش، لا يحتال، لا يكيد، لا يحقد، لا ينتقم، الآن تصلي، فإذا كنت بهذه الأخلاق، فالطريق إلى الله سالك، والخط إلى الله يصير فيه حرارة، فأنت تقدر تكون أقرب الناس إلى الله بعملك الصالح، أما بعباداتك: فالعبادات مناسبة كي تقبض ثمن عملك الصالح، العبادات مثل ساعات الامتحان، فإذا كنت أثناء السنة دارس دراسة متينة جداً، فأنت أسعد الناس في هذه الساعات الثلاث، لأن كل الذي حصَّلته من عِلم، سوف تَصُبَّه على الورق في هذه الساعات الثلاث، وأنت كمسلم إذا كنت مستقيمًا استقامة تامة، وملتزمًا التزام تام في أداء الحقوق، وأداء الواجبات، تقف لتصلي، فأنت مع الله، لأن الحُجُب ليست بينك وبين الله، فكل معصية حجاب .

هذا ما يحصل :

اخترت هذا الباب، وأنا أتحرى أن يكون الدرس يوم الأحد درساً واقعياً، أتحرى أن أضع يدي في درس الأحد على الجراح، المكان الذي ينزف دماً .

الآن: المشكلة أنك تعامل مسلم لا يفي بوعده، لا يفي بما عليه، يُسَوِّف، يؤَخِّر، فالذي يحصل: أن عامَّة الناس يعرفون الدين من أهل الدين، بينما الخاصَّة يعرفون الدين من منابعه الأصيلة، فإذا عرف الرجل الدين من المسلمين فيجب ألاّ يسلم، يقول لك: ما هذه المعاملة؟ لا يوجد صدق، لا يوجد استقامة، كل شيء فيه لُغم، كل إنسان لا تعرف أي ساعة ينفجر عليك، هذا مسلم؟! .

المسلم الصادق: تطمئن له، وعده صحيح، أداؤه صحيح، عهده متين .

((المسلمون عند شروطهم))

[أخرجه الحاكم في مستدركه]

فهذا الكذب، والنفاق، والاحتيال، والأساليب الملتوية، هذه ليست من أخلاق المسلمين .

آية ثانية درجت في كتاب النووي :

أيها الأخوة الكرام، وفي آيةٍ ثانية: يقول الله عز وجل:

(وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ)

[سورة الحج الآية: ٧١]

أما الأحاديث التي تتحدَّث عن الوعيد الشديد من قبل الله عز وجل، أو من قبل النبي عليه الصلاة والسلام لمن وقع في الظلم، فهي أكثر من أن تُحْصَى، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٨١-٨٢]

الله هو الحَق، فالله عز وجل من أسمائه: الحق، ولأنه من أسمائه الحق، هو الذي سيحق الحق ويبطل الباطل .

اتق دعوة المظلوم :

فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ:

((اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

لذلك: المظلوم ينصره الله ولو كان كافراً، لا بحسب حال الداعي، بل بحسب كمال المَدْعو، المدعو هو الله، والله عَدْل، فالمظلوم يستجيب الله له .

فمثلاً: إنسان أقام علاقة مع امرأةٍ، وقد وعدها بالزواج، والمرأة مغفلة بالطبع، غير ملتزمة، فلو أنها ملتزمة لا تقيم علاقة، أقام معها مدة طويلة جداً، ثم ركلها بقدمه، وانتهى الأمر، فوقع في خطأ، كلفه ثاني يوم مئتان وثمانون مليونًا، قصة واقعية أعرف كل تفاصيلها ، غلطة في عمله التجاري،

لأنه وعد امرأةً، ثم سوف، وسوف، وسوف، حتى ركلها بقدمه، ألا ينتقم الله منه؟ أنت تخاف الله بقدر ما تعرفه، فكلما ازدادت معرفتك بالله، ازددت خوفاً منه ، والذي لا يخاف الله لا يعرفه، بل هو غبيٌ أحمق .

طالب يسأل :

ذات مرة قال لي طالب: أنا لا أخاف من الله، قلت له: أنت بالذات معك حق، فاستغرب، قلت له: الفلاح يأخذ ابنه الصغير وقت الحصاد، يكون عمره سنتان، يضعه بين القمح، يمر ثعبان بجانبه، إذا رآه رجل يقفز، ولكن الطفل يضع يده عليه، هذا الطفل الصغير لا يخاف الثعبان، لأنه لا يوجد عنده إدراك، فلا يوجد خوف، تخاف بقدر إدراكك .

لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((رأس الحكمة مخافة الله تعالى))

الله كبير .

((رأس الحكمة مخافة الله تعالى))

اقرأ :

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

الآية الأولى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

[سورة الأنعام الآية: ٨١-٨٢]

قصص وعبر :

هناك قصص رمزية، أذكرها كثيراً، لكنها معبرة: جلس رجل يأكل دجاجًا مع زوجته، طرق الباب، فقامت وفتحت، فعلمت أنه سائل، هَمَّت أن تعطيه قطعةً من الدجاج، لأنه فقير، فنهرها وقال لها:

((اطرديه، فطردته بتوجيه زوجها، فدارت الأيام، واختلفت مع زوجها، وطلقها، ثم خطبها إنسانٌ غنيٌّ، وعاشت معه، وكانت سعيدةً بهذا الزوج الثاني، لكنها مرةً كانت مع زوجها الثاني، ويأكلان الدجاج، فطُرِقَ الباب، فقامت وفتحت الباب، فاضطربت، بدا ذلك على وجهها، قال: من الطارق؟ قالت: سائل، قال: لماذا اضطربت؟ قالت: أتعلم من هو؟ إنه زوجي الأول، قال: أتعلمين من أنا؟ أنا السائل الأول))

ولو كانت القصة قصة رمزية، لكن الله ينتقم، يجعل من كان في أعلى السلم في أسفل السلم، ويجعل من كان في أسفل السلم في أعلى السلم .

فعندما صار سيدنا يوسف عزيز مصر، كان في القصر جاريةٌ، تعرفه عبداً في القصر، فلما رأته سيِّد القصر قالت:

((سبحان من جعل العبيد ملوكاً بطاعته؟))

وكم من إنسانٍ دمَّره الله؟ .

مرة قال لي أحد الناس: بيتي ألف متر مع الحديقة، في بلد عربي، عندي ثلاث سيارات، واحدة للسفر فخمة جداً، ومريحة جداً، ووزنها عال جداً، وواحدة للمدينة، وواحدة للمعمل، قال لي: والله ما أدخلت إلى بيتي الفواكه إلا بأكبر كميات، والحلويات إلا بأكبر كميات، قال لي: خادم، طباخ، وعامل حديقة، وصف لي حياته .

أنا وجدته في محل بأحد أحياء دمشق الفقيرة جداً، ينام على طاولة التفصيل، ويأكل من عُلبة السردين بلا صحن، وينَقِّب في القمامة، ليأخذ لأهله بعض الخضار المتفسخة أو الفاسدة كي يأكلوها، كيف كان؟ وكيف صار؟ الله عز وجل إذا أخذ شيئًا أدهش، رجل يبكي كالأطفال، ليس معه ثمن طعام، قد يضربه ابنه.

كان في بالشام طبيب -والقصة لا أعيها، فهي منذ سبعين سنة-، هو طبيب وحيد، و كان مختصًا بالأمور النسائية، لا يخرج من بيته إلا بليرة إنكليزية، وفي عربة أحصنة، لم يكن ثمة تاكسي، فإذا كانت المرأة مريضة، فأهلها يبيعون الفرشة من تحتها، ويقدمون ليرة ذهب وعربایة، عمر بيتًا بأفخر أحياء دمشق، وزينه تزيينًا رائعًا، له إطلالة على الشام -البيت إلى الآن موجود، وأنا أعرفه، وهو مشيد من الحجر المنحوت المزخرف-، بعد فترة وجيزة، أصيب بشلل كامل، وضعته زوجته في القبو، تُرسل له الطعام مع الخادمة، يسأل عن زوجته، مرة، مرتين، ثلاثًا، تأتي بعد أسبوع تسبه وتخرج، فلما فاحت منه روائح كريهة، نقلته إلى بيتٍ مستأجرٍ بعيد .

((اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

دقق :

دققوا يا أخواننا، دينك بحرفتك، مادة مُسَرْطِنَة، مادة تؤذي المسلمين، مادة منتهية المفعول، تضعها في المعمل، تدلّس، فتوهم الناس أن هذه البضاعة من أصل معين، وهي من أصل ثان أرخص بكثير، إنسان ساذج يدخل إلى محلّك، فتستغل جهله، وتبيعه بضاعة بأعلى سعر، وبأقل مواصفات، زوجتك مقطوعة لا أحد لها، تظلمها، لأنه لا أحد يدافع عنها، حالات كثيرة من ذلك، الظلم ظلمات، والظالم عدو الله، والظالم لا يستجيب الله له، ولا يقبَله، ويلعنه، ويلعنه اللاعنون .

يقول عليه الصلاة والسلام:

((اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

ضع خطاً على محور القصة :

كان إنسان له موقع، يقوم بتغرير الفتيات، وينال حظه منهن بالحرام، أصيب بشلل، فكانت زوجته تأتي بالرجال لتمارس معهم الفاحشة أمام عينيه، إغاظة له، الله كبير، وبعد ذلك فالأمور أمام أعيننا، بكل عصر، بكل مصر، بكل مكان، بكل زمان، الله ينتقم انتقام شديد . فقبل أن تقول: أنا صاحب دين، أنا أنتمي إلى الجامع الفلاني، وأنا أحفظ القرآن، وأنا أصلي، قبل كل شيء: اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً .

هذا ما فعله جار بجاره :

تسكن بيتًا أرضيًا، ولهذا البيت وجيبة داخلية، عَمَّر غرفة مترين بمتر لابنه، مطبخ، وسكنه بكراج، لكن الذي يسكن بآخر طابق اشتكى عليه، وهو لم يحجب عنك الريح، ولا الشمس، ولا المطر، والبناء داخلي، وبأرضه، وبوجيبته، وإذا ستر الإنسان ابنه هل كفر؟ نفوس مريضة، نفوس لا تخاف الله، لا ترحم، إن لم نتراحم لا يرحمنا الله، فالأصل: المؤمن يعاون أخاه، أما الآن: إذا وقع إنسان تحت يد إنسان آخر، فيأخذك من المكان الذي يوجعك، فدائماً: يجب أن يدمره، أن يذبحه، أن يسحقه، يكلفه ما لا يطيق، يعد نفسه بطلاً .

من الأمراض المهلكة في الإنسان :

((اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ))

فأكبر مرض نفسي يهلك الإنسان: الشح، الحرص على المال، يأخذ ما له وما ليس له، ويمنع أصحاب الحقوق، يجمع هذه الثروة الطائلة، فإذا حان قطافها، جاءه ملك الموت، تفضل.

حدثني أخ، قال لي: صلينا الصبح حاضراً، أخوان يصليان الصبح في مسجد في أحد أحياء دمشق، قال لي: من عادة هذا الصديق، وهو ذو دعابة، يحكي لنا طرفة بالطريق، خرجنا من المسجد معاً، وأتحفنا بطرفتين، وأوصلناه إلى البيت، قال لي: وفي الظهر وجدته يقف على موقف سيارة عامَّة -يمكن في المرجة-، قال لي: والله الذي لا إله إلا هو في العصر صلينا عليه .

الموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل

قضية :

((وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ))

بسبب الحرص على المال . فاليوم قضية عرضت أمامي: إنسان ترك شيئًا من المال، أو ثروة، أو مؤسسة ضخمة، وقد أعطى الذكور وحرم الإناث، وهو مرتاح، والإناث تألموا ألماً لا حدود له، فأين العدل؟ .

في الصحاح خمسة وثلاثون حديثاً، توجب على المؤمن، أن يعدل بين أولاده، ولو في القبلة، أما إذا لم يعدل، الآن: أكثر الناس يخصون الذكور بكل شيء، والإناث لأن لهم أزواج لا يخصهن، كأن البنت عندما تزوجها رجل لم تعد ابنته، تبقى ابنتك، ولها حقٌ عندك، كحق ابنك عليك بالتمام والكمال .

((اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ، وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ))

هل ترد الحقوق إلى أهلها يوم القيامة؟ :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَال:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ -التي لا قرن لها- مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

لو أن شاتين تناطحتا فقلعت إحداهن قرن الثانية .

((حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ -التي لا قرن لها- مِنْ الشَّاةِ الْقرْنَاءِ))

هذا عمر، وهذا واقعنا :

سأل شخصٌ سيدنا عمر قال له:

((أتحبني؟ قال له: والله إني لأحبك))

لا توجد مواربة، نحن مجتمعنا مجتمع النفاق، ابتسامة عريضة، مصافحة حارة، ورَبْت على الكتِف، وبعد دقيقتين يذمه .

هناك أناس يتقنون فن النفاق، يثني عليك، وعلى علمك، وعلى ذكائك، وعلى طهارتك ، وبعد دقيقتين يذمك .

فسأله صديقه: لماذا حكيت ذلك؟ قال له: أعطه جَمَلَهُ، نفاق، النفاق مرض .

((لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ مِنْ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ))

هل يوجد تطابق بين حجة الوداع وما يفعله بعض المسلمين اليوم؟ :

حجة الوداع، الآن: كم من بيت مغتصب؟ وكم من أرض مغتصبة؟ وكم من محل مغتصب؟ وكم من شركة مغتصبة؟ وكم من امرأة لم يعطها زوجها مهرها؟ وكم من ابن حَرَمَهُ أبوه من حقّه؟ وكم من ابن حرم أباه من حقه؟ كم؟ ما قيمة هذه العبادات إذا كان في بالمعاملات ظلم؟ .

يقول عليه الصلاة والسلام في حجة الوداع:

((إنَّ دِماءَكُمْ، وَأمْوَالَكُمْ، وأعْرَاضَكُمْ، حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، في بَلَدِكُمْ هَذَا، في شَهْرِكُمْ هَذَا، ألا هَلْ بَلَّغْتُ؟))

لعلك تستغرب :

لعلكم تستغربون أنه: لماذا اخترت هذا الدرس؟ أنا أرى أنه شاع بين المسلمين أكل أموالهم بالباطل، ببساطة، يأكل مال أخيه ولا يعطه حقه، أكثر من مئتي قصة، دين لا يدفعه، هذا الحاضر، هو في الحقيقة لا ينوي أن يدفعه، لو نوى أن يدفعه، أدى الله عنه .

إنسان أخذ مال من إنسان -أنا والله أظنه صالحاً، ولا أزكي على الله أحداً-، هذا الإنسان أفلس، وقع بأخطاء في عمله التجاري، حملته على أن يعلن إفلاسه، لكن لأنه -وأنا أعلم- ينوي أداء الحقوق لأصحابها، الله سخَّر له أناس، أعطوه بضاعةً ديناً لأمدٍ طويل، وباعها بشكل نقدي بأرباح جَيِّدة،

واستطاع أن يفي كل ما عليه من حقوق، فهذا مثل عندي واضح، هذا ماذا عمل حتى أدَّى الحقوق؟ أراد أن يعطي الناس حقوقهم .

((من أخذ أموال الناس يريد أداءها -لا يملك إلا أنه يريد أداءها- أدى الله عنه))

[أخرجه البخاري في سننه]

فالله يريد منك أن تريد أداءها، يؤدي عنك الله عز وجل، أما هذا الذي لا يدفع، لأنه لا يريد أن يدفع فقط .

أيها الأخوة، لم ألتق مع تاجر إلا وله مع شخص مليونان، ومع الآخر ثلاثة ملايين، وهذا أكل عليه أربعة ملايين، هكذا البلد أصبحت؟ كيف تصلي؟ .

أعرف تاجرَ أقمشة، اشترى بضاعة بالدَّين، وهو من مدينة أخرى، اشترى بيوتاً لأولاده، وزوجهم، ولم يوفِّ الدين، هكذا السندات، لا يوجد، بالبضاعة التي اشتراها ديناً، باعها نقداً، وحل مشكلة أولاده، وأصحاب الأموال قائمون عائدون، ومعهم السندات حبر على ورق، تفضل، ادخل القضاء تحتاج عشر سنوات .

فلذلك:

((ترك دانق من حرام خير من ثمانين حجة بعد الإسلام))

وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((مَنْ أخَذَ شِبْرًا مِنَ الأرْض ظُلْماً -أي قَدْرَ شبرٍ- طُوِّقَهُ إلى سَبْعِ أرَضِين))

من غفلة الإنسان :

ركب شخصٌ سيارته متجهًا نحو الحجاز، الإشارة حمراء، فوقف، يبدو أنه أصيب بجلطة مفاجأة، فانكب على مقود السيارة وصاح، زوجته إلى جانبه، ومن غرائب الصُدَف: أن صديقه وراءه بسيارة أخرى، فلما صرخت زوجته، نزل صديقه، وحمله إلى سيارته، وأخذه إلى المستشفى، أزمة قلبية، وضعوه في العناية المشددة، بعد يومين شعر بشيء من النشاط، فطلب مسجلة وشريط كاسيت، وقال بالمسجلة: المحل الفلاني، أنا أخذته اغتصاباً من أخوتي، أعيدوه لأخوتي، يبدو أنه كان أكبر أخوته، واستطاع أن يجمع كل الثروة له، وهيمن على أخوته، فذكر بهذا الشريط أن المحل الفلاني لأخوتي، البيت الفلاني لأختي فلانة، الواقع الذي ارتكبه ذكره، خاف أن يموت بعد يومين ويكون آثمًا، يبدو أن هذه الأزمة غابت عنه نهائياً، وجد نفسه عاديًّا، ليس به شيء أبداً، فطلب الشريط، أخذه، وكسره، هذه النوبة كانت إنذارًا مبكرًا، بعد ثمانية أشهر جاءت القاضية، لم ينفد منها، الأولى نفذ لعله يتوب، فلم يتب.

شخص عنده مطعم، يبيع خمر، حج، وتاب عن بيع الخمر، وهذا شيء جميل جداً، وقد قبل الله توبته، الغلّة نزلت، فندم، وأعاد بيع الخمر، بعد اثني عشر يوماً من بيع الخمر وافته المنية، بعد ما تاب، والله قبله، أعاد بيع الخمر، وافته المنية في اليوم الثاني عشر.

فيا أيها الأخوة:

((مَنْ أخَذَ شبْراً مِنَ الأرْضِ ظُلْماً، طُوِّقَهُ إلى سَبْعِ أرَضِين))

هذا هو المذنب عند الموت، وهذا هو المطيع :

أيها الأخوة، ساعة النزع، وساعة الوضع في القبر، والله ينسى الإنسان فيها حليب أمه، الآلام التي تنتاب الإنسان العاصي عند الموت، تجد المؤمن مثل المَلِك خفيفًا، أدَّى الحقوق، فهو ناجح، قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)

[سورة القيامة الآية: ٢٢-٢٣]

وقال تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ)

[سورة الحاقة الآية: ١٩-٣٣]

قصة لها مرادها :

لزمه ثلاثمئة ألف، عرض دينًا بثلاثمئة ألف، قال له شخص: أريد مقابلها، قال له: عندي مزرعة أسجلها باسمك، وبعد أن أؤدي الدين، ترجع لي المزرعة، قال له: اتفقنا، هذا قدم له ثلاثمئة ألف، وطوّب الآخر مزرعته، وثمنها مليون ونصف، والذي أخذ المزرعة وجدها شيئًا جميلاً، مسبح، وفيلا، وحياة أخرى، فلما صار معه ثلاثمئة ألف، قال له: كل واحد حقه معه، راحت المزرعة، لأنها مطوّبة، هذا صاحب المزرعة، علاه الهم، والغَم، والألم، حتى قضى عليه، وهو على فراش الموت كتب رسالة، وكلف ابنه حينما تشيع جنازتي .

-مثلاً: أنا تصوَّرت البيت بحي المهاجرين، وهذا خصمه بالمرجة، أو بأحد أحياء دمشق البعيدة، والمقبرة بالمهاجرين- .

قال له: تمشي بالجنازة من البيت إلى دُكّان الذي اغتصب المزرعة، وتوقِف الجنازة أمام الناس كلها، وتخرج من بين الصفوف، وتسلّم الخصم ظرف .

وهذا الابن نفّذ الوصية، والجنازة مشيت من المهاجرين إلى المرجة، وقفت أمام الناس ، خرج الابن من الجنازة، وسلم الخصم الرسالة، فتح الرسالة مكتوب فيها: أنا ذاهبٌ إلى دار الحق، والحكَم بيننا هو الله، وإن كنت بطلاً فلا تأتِ إلينا .

الله كبير، كم من احتيال وقع؟ مناقصة خُلّبيَّة، مزايدة خلبية، ومال أيتام ضاع، وبيت مغتصب، وزوجة بلا مهر، ويقول لها: إذا لم تعطيني هذا البيت أطلقك، فتعطي له البيت، فيطلقها، هو يظن نفسه ذكيًا، ونفد، الله كبير .

انظر إلى عظمة الشرع :

يا أيها الأخوة، عن أبي بُرْدَةَ، عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ:]وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ[))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه]

الآن: نحن في الدنيا في بحبوحة، كل شيء يُصَحَّح، انظر إلى عظمة الشرع، حتى لو عليك ذمة لإنسان ميت، هو وجميع أولاده، فهل لهذه المشكلة حل؟ يدفعها صدقة، تنجو، تسجَّل في صحيفته، فلا يوجد شيء ليس له حل، عليك ذمة لإنسان متوفى، ولا تعرف أين أولاده؟ فالموضوع سهل جداً، بأن تدفعها صدقة للمسلمين، إذا في عليك ذمم، ادفعها قبل فوات الأوان.

تائبون :

لدي قريب توفي رحمه الله، عنده محل حلويات، قال لي: دخل عليّ رجل، وألقى رسالة، وخرج مسرعاً، فتح الرسالة، فوجد مكتوباً فيها شيئاً غريباً، قال: من اثني عشر عامًا أكل قطعة حلويات، ولم يدفع ثمنها، وضع ثمنها بالظرف، لكن على السعر القديم، كان ثمنها عشرة قروش .

لنا أخ عنده معمل للجوارب، قال لي: زارني شخص، قابله، قال له: أنا كنت أشتغل عندك، وفعلاً كان يفقد مالاً، يفقد بضاعة، ولم يترك وسيلة لكشف ذلك، فدائماً هناك فقدٌ للبضاعة والمال، يضع ألف ليرة في جيبه، ويراقب المعطف طوال النهار، يلبسه، يده خفيفة، يبدو أنه انصرف، ولكنه لم يعرفه، بعد اثني عشر عاماً، جاء إليه، وقال له: أنا الذي كنت آخذ من جيبك، ومن مستودعك، وقد تبت إلى الله .

أنا مستعد كي أؤَدي لك كل ما عليَّ من ذمم، قال له: والله أنا أسامحك، ولك أن ترجع إلى المعمل بأعلى وظيفة، ما دمت قد تبت إلى الله عز وجل .

نقطة هامة :

أيها الأخوة، أقول لكم نقطة هامة: أنت لست مكلفًا أن تقول له: أنا سرقت منك، ابعث له رسالة من مجهول، أو يمكن إرسالها عن طريق حوالة بريدية، إنسان له معك دين، أرسل له المبلغ حوالة إلى عنوانه فيها: من فاعل خير، من مدين لك من قبل، الله لم يكلفك أن تفضح نفسك، لأن الله ستير، يحب الإنسان الذي يستر حاله، يمكن أن تؤدي ما عليك، دون أن تشعر أحداً بذلك، هذا هو الحق .

أمثلة :

الآن سأعطيكم بعض الأمثلة: باع إنسان بيتًا فرضاً بخمسين ألفًا، وقبض ثمنه بالتمام والكمال، وربح فيه عشرين ألفًا مثلاً، وهناك موانع إدارية حالت بين البيت وبين تسجيله لصاحبه، مضى عشر سنوات، صار ثمن البيت ثمانية ملايين، اشتراه بخمسين ألفًا، صار ثمنه ثمانية ملايين، فإذا قال له: طوب لنا، يطلب البائع منه مئتي ألف، فلماذا؟ فيقول له: والله هذا الحاضر، فإذا أردت لا أطوب لك، هذا المال يأكله حراماً .

أعرف رجلاً، وهو في نظري كبير جداً، شيَّدَ بناءً مئة وحدة سكنية، وباعه وقتها بأسعار السوق من الثلاثين، أربعين، ثمانية عشر، عشرين، خمسة وعشرين، والبناء موجود، وهناك أسباب إدارية حالت بينه وبين أن يطوب هذا البناء، لدرجة أن الذين اشتروا منه، شكوا فيه .

واحد اشترى بيتًا بثلاثين ألفًا، صار ثمنه اثنا عشر مليوناً، لكن ليس باسمه، فالجماعة اتفقوا على مبلغ كبير جداً، من كل بيت يعطونه مليونًا، على أن يطوِّب لهم، وهذا الذي عرض عليه أحد أخواننا، عرضوا عليه مئة مليون، كي يطوب هذا البناء، فكان جوابه: ليس لي عندكم شيء، أنا بعتكم، وربحت منكم، وأخذت حقي بالتمام والكمال، والسبب ليس مني، ولما أتمكن أن أطوب دون أي شيء سأفعل، وفعلاً: بعد زمن، صار في إمكانه أن يطوب لهم، فطوب البيوت كلها، ولم يقبض ليرة واحدة، هذا هو الدين .

أما أعطني مئتي ألف، وهات خمسمئة، فلماذا؟ قبضت الثمن بالتمام والكمال، الدين في البيع والشراء، في المحاككة .

قال له:

((أتعرفه؟ .

قال: نعم .

قال: هل حاككته بالدرهم والدينار؟ .

قال: لا .

قال: هل جاورته؟ .

قال: لا .

قال: هل سافرت معه؟ .

قال: لا .

قال: أنت لا تعرفه))

شخص كثير محترم، تسافر معه، لا يشتغل بشيء، لما تأتي بالأكل يأكل، ويقول لك: استحيت منك، لكنك أنت تتعب، وهو فقط يأكل ويجحد، فقط أناني، وهناك إنسان خدوم، فأنت لا تعرفه، تعرفه في السفر، وفي المحاككة، وفي الجوار .

فأنا من محبتي لكم، ومن حرصي على أداء الأمانة، فكل عباداتكم إذا لم يسبقها أداء حقوق، لا تغلبوا حالكم .

((رب صائمٍ ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش))

انتبه :

دقق: إذا حج الإنسان بمالٍ حرام، -نحن على مشارف الحج بعد فترة-، وقال: لبيك اللهم لبيك، يناديه منادٍ: أن لا لبيك ولا سعديك، وحجك مردودٌ عليك، هذا الحج .

والصيام: ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش .

والقيام: التعب والسهر، وقم فصلِّ، إنك لم تصلِّ .

والزكاة: قال تعالى:

(قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ)

[سورة التوبة الآية: ٥٣]

هذه صلاة، وصوم، وحج، وزكاة، أربع عبادات غير مقبولة إذا في حقوق، أما أن يبذل الواحد ماله، وروحه في سبيل الله .

أعتقد أن أعلى شيء على الإطلاق: أن تبذل نفسك في سبيل الله، إن كان عليك دين لا يغفر لك حتى تؤدّي الدين .

كان عليه الصلاة والسلام لأصحابه يقول:

((أعليه دين؟ قالوا: نعم عليه ديناران، فقال: صلوا على صاحبكم، قال أبو قتادة الأنصاري: هما علي يا رسول الله، فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما فتح الله على رسوله قال: أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فمن ترك ديناً فعلي قضاؤه، ومن ترك مالاً لورثته))

[أخرجه أبو داود والنسائي في سننهما]

فأنا أتمنى: هذه أمراض المجتمع، لا تكون عندنا بالجامع، أدّ الذي عليك تكن أعبد الناس، لو لم تصل قيام الليل، لو صليت صلاة معتدلة، من دون إطالة، لو تركت العبادات النافلة، وحافظت على الفرائض، وأديت الحقوق، أفضل ألف مرة من أن تؤدي .

احذر من أن تستخدم دينك لمصلحتك :

أراد أحدهم أن يذهب إلى الحج، ولديه مال يريد أن يضعه عند إنسان أمين، دخل إلى الجامع، وجد رجلاً صلاته متقنة جداً، قال: والله هذا مناسب، بعدما انتهى قال له: والله أنا ذاهب للحج، ومعي مال أريد أن أضعه عندك أمانة، قال له: والله أنا صائم أيضاً يا سيدي، قال له: والله صيامك لم يعجبني .

ومرة قال له: هذه صلاتي من غير وضوء، فكيف إذا كانت بوضوء؟ .

فكثير من الناس يستخدمون الدين مصيدة، إيَّاك أن تلعب بدين الله، الله كبير، إياك أن تستخدم دين الله في مصالحك الشخصية، هذا أتركه بالعلياء، أنت تحرك حركة أرضية من دون أن تتمسَّح بالدين.

خاتمة القول :

فيا أيها الأخوة، هذا الدرس، أحاول أن يكون نابعًا من واقع المسلمين، المسلمون الآن: يظلم بعضهم بعضاً، والله ظلم شديد جداً .

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأنا يلهمنا أن نكون على العَدل .

فمرة قرأت قصة -ولا أعرف مدى صحتها- أن النبي الكريم، وجد على السرير تمرة فأكلها، حُجِبَ عنه الوحي أسبوع، قال لعائشة:

((إني وجدت تمرة ساقطة فأكلتها، ثم ذكرت تمراً، كان عندنا من تمر الصدقة، فما أدري أمن ذلك كانت التمرة أو من أهلي؟ فذلك أسهرني))

لعلها قصة للتعليم، أنه يحجب عنه الوحي لتمرة أكلها خطأً من تمر الصدقة، هكذا كان النبي .

((فركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مُخَلِّط))

الورع سيد العبادة، والورع أن تدع مالاً بأس به، حذراً مما به بأس .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٩٨-١٠١) : باب فضل الجوع، وخشونة العيش، والاقتصار على القليل - ما تحليل هذه المقولة للغزالي: من لم يتعود خشونة العيش، فلا بد من أن يأكل المال الحرام؟ وماذا نستفيد منها؟ ومتى يشعر الإنسان بنماء في نفسه؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-١١-١١

بسم الله الرحمن الرحيم

قاعدة:

أيها الأخوة الكرام، باب عُقد في رياض الصالحين، من كلام سيد المرسلين، عليه أتم الصلاة والتسليم، هذا الباب هو باب: فضل الجوع، وخشونة العيش، والاقتصار على القليل .

الحقيقة: أن في هذا الباب حكمة بالغة هي: أن الإنسان لما يتعود على خشونة العيش يبقى رافعاً رأسه، فلو أن هناك طارئاً طرأ فقلّ دخله، وكان قد اعتاد الإنفاق الواسع، يضطر إلى أن يأكل المال الحرام، أو أن نافق للسلطان، هذه قاعدة .

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى له كلمة، يقول:

((من لم يتعود خشونة العيش، فلا بد من أن يأكل المال الحرام))

هذا ما فعلته صحابية جليلة مع زوجها:

أيها الأخوة، الصحابية الجليلة، كانت تقف أمام زوجها، قبل أن يغادر البيت، تقول له:

((اتق الله بنا، نحن بك، إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا، نصبر على الجوع، ولا نصبر الحرام))

فالمرأة المؤمنة تعين زوجها على الكسب الحلال، والمرأة المعاصرة تعين زوجها على كسب الحرام، المرأة المؤمنة تعين زوجها على الكسب الحلال، ولو كان قليلاً، الله يبارك فيه، والمرأة المعاصرة المتفلتة من منهج الله تعين زوجها على الكسب الحرام، تضغط عليه حتى يأكل المال الحرام .

مشكلات قد تحصل:

أيها الأخوة، لو أن الإنسان عنده بنات، وعوّدهنّ الحياة المعتدلة، وإذا لم يخشوشن في طعامه وشرابه، وجاء شاب مؤمن مستقيم، رائع في أخلاقه، ودخله محدود، ورأيته أنسب إنسان لابنتك، فإذا عودّتها على الإنفاق غير المحدود لا تعيش معه، والحياة فيها مفاجآت .

كان هناك في السبعينيات رواج، انتهى هذا الرواج، كل بلد لها عشرة أيام، والآن: التاجر غير العاقل هو الذي يقيس على القديم، لا، اختلف الوضع، محل تجاري فروغه ثلاثون مليوناً، بيعه اليومي بثلاثمئة ليرة، ليس هناك من يشتري، فإذا ما عوّد الإنسان نفسه على الخشونة، فعنده مشكلات كبيرة جداً، تبدأ مع أهله، مع أولاده .

الإنسان ولو كان في بحبوحة، يمكن أن يأكل من دون فواكه، ويمكن أن يأكل أكلاً خشناً، يتعوّد الإنسان على التواضع، أما إذا كان إنفاق الإنسان غير محدود، فحالته لها وصف دقيق، يعاف الناس منه، من كثرة البحبوحة، لم يعد يقبل بأمرٍ من الدرجة الثانية، كلها من الدرجة الأولى، وليس الدخل مستمرًّا كل الوقت .

هذا ما أراه:

أنا أرى أن أعقل تاجر، هو الذي ينفق إنفاقاً معتدلاً، ولو كان دخله كبيراً، لأنه إذا كان لك زيادة .

هناك مناظر الآن: هناك من ينقب في الحوايا، هناك نساء يأخذن أرجل الدجاج، لا يمكن أن تأكل اللحم إلا بهذه الطريقة، أرجل الدجاج هذه تقدَّم للكلاب فقط، فإذا كنت في بحبوحة، فغيرُك يأكل كيلين من اللحم في شهرين .

أنا أرى الآن مع الظروف الصعبة: كل إنسان يسرف، يرتكب في حق المجتمع جريمة ، كلْ واشربْ باعتدال، من دون إسراف، ومن دون مخيلة، الطعام والشراب واللباس، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ)

[سورة الإسراء الآية: ٢٧]

الإسراف في المباحات، والتبذير في الحالين، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً)

[سورة الإسراء الآية: ٢٧]

انظر إلى هدر المال:

أنا رأيت بعيني في بعض عقود القران، هناك ورود بمليون ليرة .

مرة قال شاب: أنا يا أستاذ مضطر لأتزوج، فالابن معه بناء، المواد الأولية ثمنها خمسة وخمسون ألفاً، بنى غرفة ومنافعها وتزوج فيها، قدّرت ثمانمئة ألف، فمئة ألف تؤسس أسرة، وهناك عرس في الشيراتون بأربعين مليوناً، هذا المبلغ كم يزوج من الشباب؟ .

بادر إلى العطاء:

أيها الأخوة، هناك في البلد أشياء طيبة .

أنا حضرت عقود قران، ما قدّمت هدية أبداً، قام عريف الحفل وقال: الهدية مبلغ أودع عند العالم الفلاني لتزويج الشباب، حوالي مليون ليرة، إذا أخذ كل شاب مئة ألف، فقد زوّجنا بهذا العقد عشرة شباب .

حضرت عقداً ثانياً قدّموا مع بطاقة الدعوة وصلاً لمعهد شرعي بألف ليرة، والمدعوون مئتان وعشرون إنساناً، قدموا لهذا المعهد الشرعي مئتين وعشرين ألفاً، أنت تأخذ هدية، وغيرك كذلك، ولكن لا يستفاد منها، حاجات متنوعة لا محل لها أساساً .

فأنا أرى أن عقود القران مناسبة كبيرة جداً، نتعاون، ألم تزوج ابنك؟ اشكر ربك على تزويج ابنك، قدّم شيئاً .

أنا العبد الفقير المتحدث، وضعت كتاباً لعقد قران، جُمع فيه نصف مليون ليرة لصندوق العافية، مقابل الزهور، في عقد قران متواضع، بدل باقات الزهور .

آن الأوان:

أيها الأخوة، آن الأوان المسلمين أن يفكّروا، المسلمون في العالم يذبّحون، ويشردون، ويموتون من الجوع والبرد، لا بد أن نتعاطف، وأقلّ شيء فيما بيننا، والله عز وجل لم يكلّفنا إلا ضمن مجتمعنا المحدود، نتعاطف فيما بيننا، كل واشرب من غير إسراف ولا مخيلة، معك فائض، هناك من تنعشه، وتنقذه، وتسعده بهذا الفائض، وما عُبد الله عز وجل بأفضل من جبر الخواطر .

كيف تطهّر الزكاة الإنسان؟ تطهر نفس الفقير من الحقد، تطهر نفس الفقير من الشح، تطهر المال من تعلق حق الغير به،

قال تعالى:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)

[سورة التوبة الآية: ١٠٣]

كيف تزكيك؟ لما يطعم الفقير مئة أسرة .

طريقة أعجبتني:

هناك طريقة أنا معجب بها إعجاباً شديداً، أناس يقدمون وجبات غذائية، وجبة بأربعة آلاف ليرة، مئتان وخمسون أو ثلاثمئة أسرة، قُدّمتْ لهم مؤونةُ سنة، إذا كان الأب لا ينفق، فهذا أكل وصل إلى الجوف، لا مشكلة فيه أبداً .

أحْكم شيء أن تقدّم الطعام، أب عليه دين، أب يدخّن فرضاً، أب له رفقاء، سهرات، لما قدّمت له وجبة غذائية، ضمنتَ أن هذا الطعام وصل على أفواه الصغار، الرز، والبرغل، والسمن، واللحم .

متى يشعر الإنسان بنماء في نفسه؟:

لما يفكر الإنسان، أن يعيش مشكلات الآخرين، يشعر بنماء في نفسه، يا رب أنا ساهمت، أنقذت مئتين وخمسين أسرة من الجوع –مثلاً-، هذا بالنسبة لنمو نفس الغني، أما الفقير فيكون محطّماً، عنده يأس وإحباط، مهمل، رقم في المجتمع، لا أحد ينتبه له، ليس عنده سمن، ولا زيت، ولا طعام، ولا شيء، تأتيه المعونة فينتعش، يشعر أن ثمة من يفكر فيه، فالغني نمت نفسه، والفقير نمت نفسه .

((وما نقص مال من صدقة))

والمال الذي دُفِع من أجل الصدقة، واللهِ يأتي أضعافاً مضاعفة .

قصة لا تنسى:

أخ من أخواننا، وهذه قصة لا أنساها، له قريب توفي، كان أستاذًا في الجامعة، فذهب إلى بيته، وهو يكون ابن عم له، في أثناء تغسيل الميت سأل أولاده، هل عليكم دين؟ قالوا: نعم ، ما سألهم المقدار، قال لهم: الدين عليّ، قال لي: ذهبت إلى أنه عشرون أو ثلاثون ألفًا، في اليوم التالي أُخبر أنه مئة وثلاثون ألفًا، قال لي: وقد دفعتها كلها .

حدثني عن قصته، في صحن جامع النابلسي، وبكى، وله معمل، قال لي: يوم السبت، والأسواق في كساد، قال: بعنا يوم السبت بيعاً، حصتي الصافية منه –وهم ثلاثة شركاء– مئة وثلاثون ألفاً، الخميس دفعها، وقبضها يوم السبت، اللهُ لا يُجرَّب، فلا تجربوه، لكن ادفع ولا تخف .

((ما نقص مال من صدقة))

((أنفق بلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً))

[أخرجه الطبراني في المعجم الكبير]

((عبدي أنفق أنفق عليك))

والقصص التي أعرفها في هذا الموضوع لا تعد ولا تحصى، الله إذا أعطى أدهش .

عود نفسك:

درس اليوم حول الخشونة، عود نفسك أن تعيش حياة بسيطة، عود نفسك يوماً بالفواكه، ويوماً من دونها، يوماً بطبخ جيد، ويوماً بطبخ عادي جداً، عود نفسك أن تأكل أكلاً عادياً في الظهر، أكلاً خفيفاً أنت وأولادك، تشعر أنك عبد لله عز وجل .

وقد سئل النبي الكريم:

((أتحب أن تكون نبياً ملكاً أم نبياً عبداً؟ قال: بل نبياً عبداً، أجوع يوماً فأذكره، وأشبع يوماً فأشكره))

فالنبي قال:

((اخشوشنوا وتمعددوا، فإن النعم لا تدوم))

وطّن نفسك على الحد الأدنى من الإنفاق، فإذا بحبح الله عليك .

((فليس منا من وسّع الله عليه، ثم قتر على عياله))

وليس معنى ذلك: أن الله إذا وسّع عليك، يغرق البيت بالضروري وبغير الضروري، هذا يحدِث في الزوجة والأطفال شعوراً بالتفوق .

تجد الزوجة تتكلم مع النساء الفقيرات كلاماً يجرح، وهذا الكلام مؤذٍ جداً للفقيرة، وقد تختلف مع زوجها فتطلب منه فاكهة، فيقول لها: ثمنها يغطي راتبي كله، فالمرأة لا تنتبه لكلامها، فإذا بالغت في إكرامها، أنت عندك فهي زوجتك، أما عند الناس صارت طاووساً، تتكلم عن أكلها، وشربها، ونزهاتها، فدائماً: لما يسمع الفقير قصص الإنفاق يفرح، ما ذنب قارون؟ قال تعالى:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)

[سورة القصص الآية: ٧٩]

فماذا كانت عاقبته؟ قال تعالى:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ)

[سورة القصص الآية: ٨١]

تواضعْ .

نصائح:

كان ثمة رجل مفتٍ ــرحمه اللهــ، قال: ثلاث نصائح تُكتب على ظفر؛ اتّضع لا ترتفع، اتبعْ لا تبتدعْ، الورع لا يتسع .

اتبعْ لا تبتدعْ؛ سرْ وفق المنهج الإلهي، لا تخترع شيئاً جديداً في الدين، واتَّضع، لا ترتفع، تواضعْ، الورع لا يتسع .

تاجر من المدينة المنورة:

التقيت مع شخص من المملكة العربية السعودية، يعد أكبر تاجر خضر في المملكة، عنده خمسون برّادا تُحمل من تركيا إلى السعودية، هو رجل صالح من المدينة، ومستقيم، دهشت لمحاسبته لأولاده، يحاسب على الفِلس، ليس عنده نفقة في غير موضعها أبداً، ويعطي للفقراء عطاء بغير حساب، رأيت من إنفاقه الشيء العجيب، أما على نفسه فليس هناك بذخ ولا ترف، أولاده وزوجته يحاسبهم على الفلس، وكل نفقة غير معقولة مرفوضة عنده، مقابلها يعيل آلاف الأسر، بنى معهداً إسلامياً في كوناكري، أسس مسجداً، ومعهداً كبيراً في غينيا، على نفقته الخاصة، أما لو فتح المجال لأولاده، لذهبت كل ثروته بلا طائل، فدائماً انتبهوا: أن الإنفاق من صفات عباد الرحمن، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً)

[سورة الفرقان الآية: ٦٧]

لو ......:

أيها الأخوة، لو كتب الإنسان على ورقة كبيرة كلمتين، فهذا إسراف، هناك ورق صغيرة، وأحياناً: ورقة مطبوعة ملونة، كلفت ثمناً، يمسح بها يديه، أعوذ بالله، هذا مال، فهنا إسراف كبير، وهناك أشياء ينفقها بلا طائل، وأنا كل ورقة مطبوع عليها، أطبع عليها ثانية من الوجه الآخر، أستفيد منها، والورق غال، فأنفق كل شيء، ولكن باعتدال، من دون إسراف ولا مخيلة . هذا موضوع الزهد في الدنيا .

اقرأ:

قال تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً)

[سورة مريم الآية: ٥٩]

العلو في الأرض شهوة، ويقابلها الإنفاق غير المحدود .

هذا ما حصل في الشيراتون:

مرة إدارة الشيراتون، أرادت أن تشجّع عقود القران فيها، الإدارة المالية قدّمت تقريراً لعدد من أجرى عقود الزواج مدة ستة أشهر، فكانوا ستة عشر عقداً، أعلى عقد خمسة وثمانون مليوناً، وهناك بمليونين، وثلاثة، وأربعة، فقدموا دعوة لكل من أجرى عقداً في هذا الفندق، دعوة تكريم، حتى يشجع الآخرين، ليجروا عقداً في الشيراتون .

المفاجأة: أن ثلاثة عشر من ستة عشر عقداً، انتهت إلى الطلاق قبل ستة أشهر، فالبذخ في العرس ليس ضمانًا لنجاح الزواج .

أنا أقول كلمة: إذا أقيم الزواج على طاعة الله، ولو افتقر إلى معظم مقومات نجاحه، يتولى الله التوفيق بين الزوجين، أما إذا بني على معصية الله، ولو توافرت له كل الأسباب، يتولى الشيطان التفريق بينهما، لا بد عندهم أن يدخل العريس إلى الشيراتون على جمل، ولا بد من هدم الحائط، هدِّم، وكلَّف مليوني ليرة، هدِّم ثم بني ثانية، الزواج استمر سبعة عشر يوماً، ثم طلّقت، وهناك زواج تم الطلاق فيه في الشيراتون، قاعدين على الكرسي – العروسان–، جاء المصور، فقالت له: اخفض رأسك قليلاً، فقال لها: طالق، طالق، طالق، قبل تناول الطعام، فالإنفاق غير المعقول يقابله شقاء غير معقول، أما المؤمن:

((اخشوشنوا وتمعددوا، فإن النعم لا تدوم))

عوّد نفسك أن تأكل خبزاً يابساً، عود نفسك أن تأكل أكل البارحة، تسخنه وتأكله .

دعوة لك:

أيها الأخوة، هذه دعوة إلى التواضع، وإلى التقشف، كل واشرب من دون إسراف، هذا درس اليوم: فضل الجوع، وخشونة العيش، والاقتصار على القليل، والحديث الأساسي:

((اخشوشنوا وتمعددوا، فإن النعم لا تدوم))

عود على بدء، يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى:

((من لم يتعود على خشونة العيش، أكل المال الحرام، أو نافق للسلطان))

حتى يبقى في المستوى العالي، يأكل المال الحرام، أو ينافق للسلطان، أما إذا عوّدت نفسك على أي شيء، فأنت حر .

طريقة رائعة يستخدمها الأتراك في طعامهم:

كنت في تركيا، دعيت مرتين أو ثلاثاً إلى طعام الإفطار، عندهم طريقة لطيفة، طاولة الطعام ارتفاعها ثلاثون سنتيمتراً على الأرض، وعليها بساط ثلاثة أضعاف حجم الطاولة، تزيد على الآكلين، تقع على رُكبهم، في أثناء أكل الخبز، إذا بقي بعض الفتات الصغير، يُجمع ويؤكل، لا يمكن أن تقع على الأرض ذرة خبز على السجاد، لأن البساط نازل على رُكب الآكلين، كل واحد يأخذ من البساط بطرف فوق ركبه، ويأكل، لاحظت أن هذه الطريقة شرعية ، يطبقونها من قبل، وكل إنسان أكرمه الله بالغنى، لو دققت في حياته، وجدته يرعى نعمة الله عز وجل .

في سفرتي الأخيرة ......:

في سفرتي الأخيرة، دعيت إلى عدة أماكن، لما يوضع الطعام، وهو نفيس، وغال، وبكمية كبيرة، أتألم، وأرى أن صاحب الدعوى لم يتألم، ولكن رأيت الخادم يضع باقي الأكل في علب أنيقة، ويعطيه إياها، لم تُرمَ لقمة، هو أتى بطعام، وأكرمنا، ولكن فكرت، ونحن أربعة، قلت: ليس معقولاً ألا يكون هناك مشكلة في الطعام الباقي، ولم يكلف الخادم، جاء وحده، ووضع الأكل في علب، وأكله في اليوم التالي، أليس هذا عملاً إسلامياً؟ وبعضهم يترك الأكل في الصحن، لأنه من الأكابر، هذا عمل شيطاني، هذا الطعام هناك من يشتهيه، وأكثر المطاعم كل شيء يبقى من الطعام يرمونه في القمامة، من اللحم وغيرها، كله في القمامة، شيء مؤلم جداً .

خاتمة القول:

أيها الأخوة، أرجو الله سبحانه وتعالى، أن يكون هذا الدرس فيه فائدة لنا جميعاً.

((اخشوشنوا وتمعددوا، فإن النعم لا تدوم))

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (٠٩٩-١٠١) : باب المحافظة على الأعمال - ما هي المشكلة التي ابتلي بها المجتمع المؤمن في هذا العصر؟ وما السبيل إلى الخروج منها؟ وما محور هذه الأحاديث التي وردت في هذا الدرس؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٩-١١-١٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مشكلة ظهر أمرها بين المؤمنين :

أيها الأخوة المؤمنون، كما هي العادة: أبْحَثُ عن موضوع، يُغطّي مشكلةً متفشِّيَةً بالمؤمنين، فكثير ما أسمع أنّ إنسانًا تألّق تألّقًا رائعًا، وأقبل إقبالاً شديدًا، تاب توبة نصوحة، وعمل عملاً صالحًا، ثمّ إذا به يتراجعُ شيئًا فشيْئًا، لِيَعود كما كان عليه، هذا الصّعود والهبوط ، الإقبال ثمّ الإدبار، التألّق ثمّ الانطفاء، ربّما كان هذا حَسْرةً على الإنسان، البُطولة: الاستمرار، البُطولة: الدَّيْمومة .

((وأحبّ الأعمال إلى الله أدْوَمُها وإن قلَّتْ))

والبطولة: أن تحتلَّ مركزًا عند الله وأن تبقى فيه، والبطولة: أن تصل إلى القمة وأن تبقى فيها، أُناسٌ كثيرون صعدوا ثمّ تراجعوا، أقبلُوا ثمّ أدبروا، تألّقوا ثمّ انطفؤوا .

من فخوخ الشيطان :

أيها الأخوة، كما قلتُ لكم في دروس سابقة: الشيطان يوصَفُ بأنّه ذكيّ، بمعنى أنَّه يدخل على الإنسان من أبواب متعدِّدَة، فإذا اسْتطاع أن يحملهُ على الكفر أفْلَحَ، وإن لم يستطِع حَمَلَهُ على الشِّرك، فإن لم يستطِع حمَلَهُ على الابتِداع، فإن لم يستطع حَمَلَهُ على ارتكاب الكبائر، فإن لم يقْو حملهُ على فِعْل الصَّغائر، فإن رآهُ ورِعًا حملهُ على الاسْتِغراق في المباحات، فإن لم يُفلِح حمله على التحريك بين المؤمنين، وهذه هي أبواب الشيطان، وحينما قال الله تعالى واصفًا للشيطان في قوله:

(قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

[سورة الأعراف الآية: ١٦-١٧]

من بين أيديهم؛ بِدَعْوَى الحداثة، والعصْرَنَة، والتفوُّق، والتقدّم، والعلم، والحضارة، والكمبيوتر، والفضائيّات، ألا تعيش أنت مع العصر؟ فهذا باب، ومن خلفهم التقاليد، والعادات، والتراث، والآباء، والأجداد، ويعود أهل الدنيا لِسَبب لا أعرفهُ إلى ما قبل الإسلام، إلى وثَنِيَّات ، إلى تعدُّد الآلهة، فهذا تراث وتاريخ، وهذا من فِعْل الشيطان .

وعن شمائلهم: هي المعاصي، وعن أيمانهم: ضِمْن الحقل الديني، وللشيطان ألف مأخذٍ ومأخذٍ، وأنت في الحقل الديني؛ إثارة الخصومات بين الجماعات الإسلاميّة، هذا من فعل الشيطان، النَّزعَةُ العُدْوانِيَّة، هذا من فعل الشيطان، الطَّعْن بقادة الفكر الإسلامي، هذا من فعل الشيطان، تجريحُ كلّ إنسانٍ تألّق عند الله عز وجل، هذا من فعل الشيطان، التعلق بصَغائر الدنيا، الأمور الشكليّة وتكبيرها إلى درجة، تجعل هو الدّين كلّه، هذا من فعل الشيطان، ضِمن الحقل الدِّيني، هناك مئات وألوف المآخذ التي يؤخَذُ منها الإنسان وهو لا يشعر، فإذا هو ينطق باسم الشيطان .

لو فرضنا، ولو كان هذا مثلاً بسيط جدًّا: طفل جاء للمسجد في وقتٍ مُبكّر، وجلس في الصفّ الأوّل، هناك من يُمْسِكُهُ بِقَسْوَةٍ بالغة، ويدْفعُهُ إلى آخر الصفوف، فهذا الطّفْل نشأتْ عندهُ عُقْدةٌ في المسجد، وهذا الذي يفعلهُ، هو من فِعْل الشيطان، الطّفل ينبغي أن يُكرّم في المسجد، وأن يُحبَّب إليه المسجد، أشياء كثيرة جدًّا .

هذا ما أريده في هذا الدرس :

أيها الأخوة، الذي أريده في هذا الدرس: أنّ الإنسان كلّما وصل إلى مَكْسب ينبغي أن يُحافظ عليه، أما أن نثور ثمّ ننْطفئ، أن نتألّق وأن نتراجع، أن نُقبل ثمّ نُدْبِر، أن نجتهد ثمّ نقصِّر، هذا ليس من العمل الكامل .

انطلاقًا حديث عَائِشَةَ قَالَتْ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ، قَالَ: وَكَانَتْ عَائِشَةُ إِذَا عَمِلَتْ الْعَمَلَ لَزِمَتْهُ))

[أخرجه مسلم في الصحيح]

متى تنهض من هذا الحال يا مسلم؟ :

أيها الأخوة، الإمام النووي رحمه الله تعالى، عقَدَ في كتابه رياض الصالحين، من كلام سيّد المرسلين، عليه أتمّ الصلاة والتسليم، عقَدَ بابًا سمَّاه: المحافظة على الأعمال، وبدأهُ بقوله تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)

[سورة الحديد الآية: ١٦]

الإنسان إذا طالَ عليه الأمدَ، ولو كان ملْتَزِمًا في مسجدٍ، ربَّما خبا نجمهُ، وفتَرَتْ هِمَّتهُ، فهو يأتي ويرجع، كما جاء وكما رجع، إذا هو يصلّي صلاته شَكْليّة، وإذا حضر يجلس، ولا ينتبه للدرس، انقلَبَتْ عباداته إلى عادات، ما لم يُخلِص تنقلبُ عباداته إلى عادات، المخلِصُ عاداته عبادات، والمقصّر تنقلب عباداته إلى عادات، فإلى متى تصلّي سريعًا؟ وإلى متى تصلّي ولا تعبأ بما تقول؟ .

وإلى متى أنت باللّذات مَشغول وأنت عن كلّ ما قدَّمت مسؤول؟

قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الحديد الآية: ١٦]

كلمة للحسن البصري :

كلمة للحسن البصري، والله يرتعد لها القلب، يقول الحسن البصري:

((من قرأ القرآن ولم يشعر بشيءٍ، وذكر الله ولم يشعر بشيء، وصلى ولم يشعر بشيء، فهناك خلل خطير في إيمانه))

القلب مغلّف، والنفس متسحّرة، العبادات لا تؤتي ثمرتها، قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ)

[سورة الحديد الآية: ١٦]

هذا هو القلب القاسي :

قال تعالى:

(فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ)

[سورة الحديد الآية: ١٦]

أحيانًا: تلتقي مع إنسان، مهما تكلّمْتَ عن القرآن وعن السنّة وعن الصحابة، قلبٌ كالصَّخر، لا يتأثر، ولا يتعاطف، ولا يشارك، تشعرُ ببُعْدِهِ عن الله جدًّا، طال عليهم الأمد فقسَتْ قلوبهم .

نقطة مهمة بالإيمان :

أيها الأخوة، النقطة المهمّة بالإيمان: الإنسان أحيانًا يتألّق، لكن أحيانًا يغْفَل، المشكلة أدّت هذه الغفلة، كلّما كانتْ مرتبتك أعلى من صلاة إلى أخرى تُغَيِّر، ومن يوم إلى يوم تغيّر، ومن أسبوع إلى أسبوع، أما أن يمضي الأسبوع والأسبوعان، والشهر والشهران، وأنت على هذه الغفلة، فهذه مشكلة، اقرأ هذه الآية، قال تعالى:

(أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ)

[سورة الحديد الآية: ١٦]

تحرك نحو هؤلاء :

بعض الأخوة الكرام، يبحث عن عملٍ صالح، وقد يبحث عن عملٍ متعلّق بالدعوة إلى الله، وقد يبحث عن إنسان شارد، يدْعوه إلى المسجد، أو إلى طاعة الله، كلامٌ طيّب .

أنا أُؤَكِّدُ لكم: أنَّ الموجودين في المسجد، والذين طال عليهم الأمد، إذا حرَّكتهم، وأنْعَشْتهم، ومكَّنْتَ علاقتهم برَبِّهم، ودللتَهُم على عملٍ صالحٍ، هذا عند الله أعظم، لأنّ هذا عنده عند الله سابقة .

موقف للنبي لا ينسى :

أنا لا أنسى موقفًا مِنَ النبي عليه الصلاة والسلام، مِنْ صحابيّ اسمه: حاطب بن أبي بلتعة، هذا الصحابي الجليل زلّتْ قدمهُ، واجتهد اجتهادًا خطير جدًّا، هو لصيق بقُريش ليس من أرومتها، أراد أن يحفظ مالهُ وأهله من كَيْد كفّار مكّة، عن طريق تَقديم يدٍ بيضاء لهم، فأخبرهم أنّ محمَّدًا سيَغْزوهم، وقال لهم:

((خُذوا حِذْركم -أما هذه الأخبار في ميزان الحياة السياسيّة: خِيانة عظمى، أنت تخبّر العدوّ أنّ بلدك سوف يغْزو هذا البلد، وهذه خيانة عظمى في كلّ المُدن قديمها وحديثها- .

النبي عليه الصلاة والسلام، جاءهُ الوحي وأخبرهُ: أنّ حاطب ابن أبي بلتعة أرسلَ كتابًا إلى قريش مع امرأة، ينبئهم في الكتاب: أنّ محمَّدًا سيَغْزوهم فلْيتَّخِذوا حِذْرهم، والنبي أرسَلَ رجلين من صحابته إلى الطريق، وقبضا على المرأة، وأخرجا الكتاب من عقاصة شعرها، وعادا به إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وفي المدينة قرأ النبي الكتاب، فإذا به:

مِن حاطب ابن أبي بلتعة إلى قريش، إنَّ محمَّدًا سيغْزوكم فخُذوا حِذْركم، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: يا حاطب ما حملك على أن تفعل ما فعلت؟ فقال حاطب: يا رسول الله، والله ما كفرتُ وما ارْتددْتُ، ولكِنَّني لصيق في قريش، ولسْتُ من أرومتها، وإنما أردتُ بهذا أن تكون لي يدٌ بيضاء عندهم، أحمي بها أهلي وأولادي، اغْفِرْ لي ذلك .

-يبْدو أنّه كان صادقا، واجتهادهُ كان خطيرًا، فالنبي عليه الصلاة والسلام قلبهُ كبير ويسَعُ كلّ أصحابه، أيّ إنسان لو وقع بيَدِهِ هذا الكتاب لأمرَ بقتْل كاتبه، وإذا قُتِلَ يُقْتَلُ بالعدل، ويُقْتلُ بالحق-، ولكنّ النبي عليه الصلاة والسلام قال: إنِّي صدَّقْتهُ فصدِّقوه، ولا تقولوا فيه إلا خيراً .

-الكلمة التي تُثير مشاعر الإنسان، أنّ عمر بن الخطاب عِملاق الإسلام- قال: يا رسول الله دعني أضربُ عُنقهُ، أو قال: دَعْني أضرب عُنُقَ هذا المنافق، ماذا قال له النبي عليه الصلاة والسلام؟ قال له: لا يا عمر، إنَّه شهد بدْرًا))

أرأيْت إلى كمال النبي صلى الله عليه وسلّم؟ لم يُردْ النبي أن يهْدر عمل حاطب، أما نحن بِكُلّ بساطة، إذا أخْلفْت مع أخيك تهْدر عملهُ، تتَّهمُهُ بالكُفر فوْرًا .

((ومن كفَّر الناس فهو أكْفرهُم))

فأنت إذا حرصْت على تقوِيَة أخٍ، وعلى تقوِيَة علاقته مع الله، وأن تردَّه إلى الله ردًّا جميلاً، هذا عملٌ كبير، أحيانًا بزيارة، ومرّة بدَعوة ومؤانسة، وبهَدِيَّة وبنُزْهة، يشعر نفسهُ مهمًّا، ولم يُنْسَ .

أيها الأخوة، أكثر شيء يُؤلِمُ الأخ أن يمْرَضَ، ولا أحدَ يزورهُ، كلّ واحد غارقٌ بعَمله ، النمط الحديث الغربي والعياذ بالله، يعيشُ كلٌّ منهم وحده، ويعمل عملاً مُجْهدًا، ويأتي إلى البيت، يأكل، وينام، أو يُتابع الأفلام حتى منتصف الليل، فيسْتيقظ بعد الشمس، ليَذْهب إلى عمله، ولا يعْنيهِ أحدٌ، أما هذه الصّلة صِلَةُ الرَّحِم، هذه من الدّين .

لماذا أمر الله النبي بأن يبدأ بأقربائه أولاً بالدعوة إليه؟ :

أيها الإخوة، قد نستغرب هذه الآية، حينما قال الله عز وجل:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الشعراء الآية: ٢١٣-٢١٥]

جزءٌ من منهج الله: أن تبدأ بِأقْربائِكَ .

دقّقوا: النبي عليه الصلاة والسلام أمره الله عز وجل أن يبدأ بأقربائِهِ، هو للناس كافّة، ولأمم الأرض كافّة، ودَعْوتهُ عالميّة، أممِيَّة، يقول تعالى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)

[سورة الشعراء الآية: ٢١٤]

السبب -وهذا الدرس لي ولكم-: أنّ أيّ إنسان غريب؛ إن دَعَوْتهُ إلى المسجد، وإن دَعَوْتهُ إلى شيء، قد يخاف منك، وقد يشكّ في نواياك، أما هذا مع الأقرباء منْفيّ، والطّرق كلّها سالكة؛ أخوه النَّسَبي، وأخته، أبوه، أمُّه، ابنه، ابن عمّه، ابن خالته، ابن عمّته، ابن خاله، القرابَة تُزيل أيّ سبب من أسباب الخشيَة والخوف، فأنت معك مجموعة أشخاص، الطُّرق إليهم سالكة، والعقبات مُذَلَّلة، ليس لك إلا أن تشرح لهم، وأن تُقْنِعَهم، وأن توضِّح لهم، أما العقبات الأخرى التي تكون بين الناس الغرباء غير موجودة، قال تعالى:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

[سورة الشعراء الآية: ٢١٤-٢١٥]

توهم خاطئ :

أيها الأخوة، لا زلنا في باب المحافظة على الأعمال، من كتاب رياض الصالحين، من كلام سيّد المرسلين، عليه أتمّ الصلاة والتسليم، والإمام النووي كما تعلمون، يبدأ أبواب كتابه ببَعض الآيات الكريمة .

الآية الثانية، قال تعالى:

(وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً)

[سورة الحديد الآية: ٢٧]

الإنسان يتوهَّم أحيانًا: أن الأوروبيين والأمريكان من أهل الكتاب، وهذه فِكْرة مُضْحِكة، لأنّ الله تعالى وصَفَهم بأنّ في قلوب أهل الكتاب رأفةً ورحمة، بينما لا تجد رأفة ولا رحمة في قلوب من يُعاصِرُهم، يستبيحون كلّ شيء، إذًا: كما قال تعالى:

(وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا)

[سورة الحديد الآية: ٢٧]

حقيقة مسلم بها :

أيها الأخوة، حقيقة مُسَلَّم بها تُعَدُّ من أصول الدِّين: الأصْلُ في الأشياء والمعاملات الإباحة، ولا تُحَرَّمُ مُعاملةٌ إلا بِنَصّ، ولا يُحرّم شيءٌ إلا بِنَصّ، والأصل في العبادات والعقائد الحضْرُ، المنْع، فلا تُشَرَّعُ عبادة إلا بِنَصّ، ففي العبادات الأصل هو الحضْر، أما في المعاملات فالأصل فيها الإباحة، من أجل إحداث عبادة، يحتاجُ هذا إلى نصّ، ومن أجل تحريم شيء، فأنت بِحاجَة إلى نصّ .

أخواننا الكرام، أحيانًا: الواحد يسأل، ويقول لك: نحن نُقيمُ جَمْعِيَّة، كلّ إنسان يضع في هذه الجمعيّة خمسة آلاف بالشّهر، ونحن عشر أُسَر، عشرة بِخَمسة، تساوي خمسين ألفًا، نعمل قرْعة كلّ شهر، ونُعْطي لواحِد، لا يوجد لا ربا، ولا أيّ شيء مُحَرَّم، وهل معك دليل أنّ هذه صحيحة؟ الأصل في المعاملات الإباحة، ما لم يرد نصّ يخالف ذلك، أما إذا أحْدثْتَ عبادة، فليس الأصل فيها الإباحة، وإنَّما هو الحضْر، لا تستطيعُ إحداث هذه العبادة إلا بِنَصّ، قال تعالى:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)

[سورة الحديد الآية: ٢٧]

المشقة في الإسلام ليست مقصودة في ذاتها :

أيها الأخوة، هناك مَن يتوهَّم: أنّ حرمان النّفس يقرِّبُها من الله، العكس .
النبي عليه الصلاة والسلام رأى رجلاً واقفًا في الشمس، فلفَتَ هذا نظره، فقالوا:

((نذر أن يقف في الشمس، فقال: مروه أن يتحوّل، فإنّ الله غنيّ عن تعذيب هذا نفسهُ))

أخواننا الكرام، حقيقة ألقيها على مسامعكم: المشقة في الإسلام ليْسَت مَقْصودة في ذاتها .

الآن: لو الإنسان حجَّ مَشْيًا، ليس له أجر أبدًا، لو حجّ بالسيارة، ومعه تذْكرةُ الطائرة، لا أجر له، لأنّ المشقة ليْسَت مَطْلوبة لِذاتها، أما حينما تُفرضُ عليك المشقة من خلال العبادات ، أنْعِمْ بها وأكْرِم، أما أن يعامل الإنسان نفسه بالقسْوَة، يبني دينهُ على الحرمان، والحرمان، هذا غير صحيح .

عَن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

((جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فقالوا: فَأَيْنَ نَحْنُ مِنْ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ؟ قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فأُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: وأَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ وَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ، إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والنسائي في سننه]

قصص فيها مبالغات :

سجَّلْتُ ندْوةً في برامج رمضان، وكانت ثلاث ندوات . مرّ معي أن أبا حنيفة، أنَّه مشى في الطريق، فسَمِعَ أُناسًا يقولون: هذا الرجل لا ينام الليل، فقال: أربعون عامًا بعد هذه الكلمة، ما نام الليل أبدًا، هذا غير مقبول، وغير معقول، لأنّ هذا الجِسْم له حاجة للنوم، حتى إنَّه إذا ما نام ليلتَين، يختلّ توازنَهُ، وهذه مبالغة .

والشيء الثاني: قرأ القرآن كله في ركعة واحدة، ستّمئة صفحة، مهما كنتَ سريعًا كم تحتاجُ من ساعةٍ؟ عشرين ساعة، أين الصلوات الخمس؟ .

أنا قديمًا، قرأتُ قِصَّة عن سيّدنا عمر، والله أحْجمْتُ عن روايتها من على المنبر سنوات كثيرة، بكلمة واحدة، لمّا جاء رسول عامل عمر بن الخطاب على أذربيجان، وصلَ ليلاً المدينة، كره أن يطرق بابَ الأمير ليلاً، فدخل المسجد، فإذا برَجل يُناجي ربّه في الليل، يقول:

((يا ربّ، هل قبلْتَ توبتي فأهنِّئ نفسي أم رددْتها فأعذّبها؟ قال له: من أنت يرحمك الله؟ فقال له: أنا عمر، قال: يا سبحان الله! يا أمير المؤمنين، ألا تنام الليل؟ فقال: إنِّي إن نمْتُ ليلي أضَعْتُ نفسي أمام ربّي، وإن نِمْتُ نهاري أضَعْتُ رعِيَّتي))

أحْجمْتُ عن قراءة هذه القصّة سنوات عِدَّة، إلى أن عثرتُ على روايةٍ أخرى لها:

((إنّ نمتُ ليلي أضَعْتُ نفسي أمام ربّي))

الليل كلّه، فهو كان يقوم بعض الليل .

هناك قصص: أنّ إنسان وهو في صلاته مسْتغرق، قُطِعَت رجلهُ، وهو بحاجة إلى عمليّة جراحِيَّة، ولا يوجد مخدِّر، فلا توجد إلا حالة واحدة، أن نجعلهُ يصلّي، ونقطع رِجْلهُ .

طيّب: النبي عليه الصلاة والسلام، وهو سيّد الخلق، وحبيب الحقّ .

فعَنْ أَنَسٍ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، قَالَ:

((إِنِّي لَأَدْخُلُ الصَّلَاةَ، وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أُطِيلَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأَتَجَاوَزُ فِي صَلَاتِي، مِمَّا أَعْلَمُ مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ مِنْ بُكَائِهِ))

أكْملُ صلاةٍ في الكون صلاته، ومع ذلك سمِع بكاء طفل فخفّف صلاته، أما أن تقْطعَ رِجْلهُ وهو لا يشعر، هذه مبالغة .

يا أيها الأخوة، خطر المبالغات كبير جدًّا، ويجعلك تشعر أنّ الدِّين غير واقعي، وهذه القصّة تُيَئِّس، إذا كان قُطعَت رجله بالصلاة ولم يشعر .

قال: دخل لصّ بَيتَ وليّ، ورآه يصلّي، من شدّة استغراقه بصَلاته، خلع اللصّ ثوبه مِن عليه، ولم يشعر المصلّي، وخرج به، فلمّا أُبلغ أنّ هذا الذي سرقت منه ثيابه وليّ كبير، قال: كيف أرْجِعُهُ إليه؟ فقالوا له: في أثناء الصلاة مرّةً ثانيَة .

فأنت إن قرأتَ قِصَصًا كهذه، تشعر أنّ صلاتك صفر، وتقع بحالة اليأس، وهذه خطيرة جدًّا .

النبي عليه الصلاة والسلام، الذي هو سيّد الخلق، وحبيب الحق، حينما كان يصلّي، يسمعُ صوت بكاء الصبيّ فيخفّف، وكان يفتحُ الباب أحيانًا، ويُتابعُ صلاته، إذًا: المبالغات خطيرة .

اليوم قرأت في ندْوَة، أنَّه قرأ القرآن كلّه في ركعة، مبالغة، وأربعون عامًا ما نام الليل، هذه مبالغة، أربعون عامًا صلى الليل بوُضوء العشاء، مبالغة، الإسلام دعْهُ واقِعِيًّا حتى ترضى عن نفسك، أما إذا اعْتبرْتَ أنّ هذه النماذج مِثالِيَّة، أين تكون أنت من هؤلاء؟ تنتهي نهائيًّا، أنا من أنصار الاعتدال والوسط، المبالغات لها مفعول معاكس .

قال تعالى:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ)

[سورة الحديد الآية: ٢٧]

دقق :

دقّق أيها الأخ:

((اِتَّقِ المحارم تكن أعْبدَ الناس، وارْضَ بما قسمهُ الله لك، تكُن أغنى الناس، وأحْسِن إلى جارك تكُن مؤمنًا))

قال تعالى:

(وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا)

[سورة الحديد الآية: ٢٧]

لأنَّه ما كتبْناها عليهم، لمْ يستطيعوا رعايتها حقّ الرعاية، لأنّها ما كُتِبَت عليهم، لأنّ الإسلام واقعي، والإسلام من عند خالق البشر، ومنهج النبي عليه الصلاة والسلام، يكفي أن تبلغ أعلى مرتبة في الدِّين، دون أن تضيف على الدِّين شيئًا .

لا تضيع عملك الصالح بساعة غضب :

أيها الأخوة، أما المحافظة على الأعمال، فيقول الله تعالى:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثاً)

[سورة النحل الآية: ٩٢]

قال أحدهم: والدَتهُ عندهُ في البيت، وله عدّة أخوة، تحبُّه حبًّا جمًّا، وتقيم عندهُ، أُصيبَتْ بِشَلَل، وبقيَ يخدمها اثنتي عشرة سنة، يبْدو أنَّه ضاقَ ذرعًا بها، وفي ساعة غضبٍ تكلّم كلامًا قاسيًا بِحَقّها، وكأنّه طلب منها أن تغادر البيت، فبكَتْ بكاءً مُرًّا، واسْتَدْعَتْ أحد أبنائها، وانتقلَتْ إلى بيته، وماتتْ عنده بعد يومين، فأنت نقضْتَ عملَ اثنتي عشرة سنة، فالإنسان عليه أن يصبر، والبُطولة بالصبر، قال تعالى:

(إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

[سورة الزمر الآية: ١٠]

هذه هي البطولة :

أعرف رجلاً، لا يزال حيًّا يُرْزق، ولكنّه مريض عافاه الله، لزِمَ خِدمة امرأةٍ ضعيفة، فقيرة، مريضة، تسكن في غرفة في مسجد، لزِمَ خِدمتها، وتأمين الطعام لها، وتنظيف غرفتها أكثر من أربعين سنة، ثمّ انتقل إلى حيّ بعيد، وعمرُه يزيد عن السبعين، حينما انتقل إلى هذا الحيّ، صار يأتي كلّ يومٍ من حيّ بعيد إلى هذه المرأة الضعيفة، المشلولة، الفقيرة، المريضة، لِيُتابعَ خِدمتها، وله أبناء شباب، وله بنات، وله زوجة، فأنت بهذا السنّ بحاجة خدمة، خدمْتها أربعين سنة، دعْها إلى غيرك، فأبَى إلا أن يُتِمّ عمله، فلمّا رأوْهُ بهذه السنّ المتقدِّمة، وينتقل من حيّ إلى حيّ لِخِدمة هذه المرأة، شفقوا عليه، وقالوا له: ائتِ بها إلى بيتنا، رحْمة بأبيها، إلى أن جاؤوا بها إلى بيته، وبعد أيام توفّاها الله تعالى، خُتِمَ عملهُ بأعلى درجة، البطولة: أن تُتَابع وتسْتمرّ .

العهد العهد أيها المؤمن :

قال تعالى:

(رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ)

[سورة النور الآية: ٣٧]

قال تعالى:

(وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٤٦]

وقال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً)

[سورة الأحزاب الآية: ٢٣]

أنت تعامل خالق الكون، العهد عهد، والمبدأ مبدأ، والاستقامة استقامة، والأمل أمل، أما هذا الموقف السُّوَيعاتي، إقبال وإدبار، تألّق وانطفاء، تقدّم وتأخّر، هذا ليس من صفات المؤمن.

عبادتك لله تنتهي عند الموت :

الآية الأخيرة في هذا الباب، قوله تعالى:

(وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ)

[سورة الحجر الآية: ٩٩]

اليقين هو الموت، قال تعالى:

(حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ)

[سورة المدثر الآية: ٤٧-٤٨]

إذًا: ينبغي أن تعبد الله إلى أن يدرِكَكَ الموت .

محور الدرس :

محورُ الدرس اليوم: أنّ كلّ واحدٍ منّا واصلٌ إلى مستوى، البطولة: الاستمرار، أما الرجوع والانتكاس -والعياذ بالله- خطير جدًّا .

عن عائشة رضي الله عنها قالت، في الحديث عن شمائل النبي:

((كان أحبُّ الدِّين إليه ما داومَ صاحبُه عليه))

حديث يرفع همة المؤمن :

عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ:

((مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ، كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ))

[أخرجه مسلم في الصحيح، وابن خزيمة في صحيحه]

قضيّة ثقة بالنفس، أنت بدأت بِعبادة، أنت موظّف، ومعاهدٌ لله عز وجل كلّ صباح، هذه الجلسة؛ تقرأ فيها القرآن، وتذكر فيها الله عز وجل، وقد تستيقظ مرَّة السابعة ونصف لأمرٍ قاهر، والدوام الساعة الثامنة، راح الورْد، وراح الذّكر، فمِن أجل أن تبقى نفسك عالِيَة الهمَّة، رمِّم هذا في النهار، في عصر ذلك اليوم، اقرأ حزبك الذي تقرؤه، أو اُذْكُرْ ربَّك كما تذكرُ من قبل، رمِّم ما فات .

((مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ، فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ، كُتِبَ لَهُ، كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ))

إذًا: الأعمال الصالحة تُقبل، تؤدَّى وإن قصَّرنا بها، تُقْبلُ .

إنسان يدفعُ صدقةً ثابتة، كنّا في حفل، لِجَمع التبرعات لصندوق العافية، فقام أحد الخطباء، تكلّم كلمة أعْجبتني، قال: إنّ والدهُ قال له: يا ولدي، إذا أردْت أن تدفع صدقةً، وعارضتْك نفسكَ فأدِّبْها، فقال له: وكيف أؤدِّبُها؟ فقال: اِدْفع الضِّعْف، إذا دعتْك نفسك ألاّ تدفع، ادْفع الضِّعف .

لا تبدل على ما كنت عليه :

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَا تَكُنْ بِمِثْلِ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ))

أنا أشعر في بعض الأخوة، جزاهم الله تعالى خيرًا، أعطوا عهدًا لله عز وجل في خدمة المسجد، هناك من تجدهُ تألّق ثمّ اختفى، أين فلان؟ شغَلَتنا أموالنا وأهلونا، هناك من مُقاومتُهُ هشَّة، أقلّ ضَغط يؤثّرُ فيه تأثيرًا سلبيًّا، فالسّفن العملاقة الضّخمة التي تحمل ملايين الأطنان تجدها مثل الجبل، أما القارب الصغير أقلّ موجة تُغْرقهُ، فأنت كُنْ كالباخرة الراسخة كالجبل، وليس أقلّ شيء يهزّ الإنسان يهزّك .

((عاهدْنا الله تعالى على الطاعة في المغرم والمغنم والمكره))

فأنت نشيط مُطيع، وأنت مريض مُطيع، وأنت متألّق في الدنيا مُطيع، وأنت بوَضع سيء مطيع، بإقبال الدنيا مُطيع، وبإدبارها مُطيع، وقبل الزواج مُطيع، وبعد الزواج مُطيع.

أحيانًا: تجد شابّ متألّق جدًّا، فإذا تزوَّجَ اختفى، فتاة أدارتْهُ وانتهى عندها، وهناك من يتزوّج ولا يغيّر، دوامةُ حضورهُ، إقبالهُ عمله، بذْله وعطاؤهُ، هنا الزواج نعمة، أما إذا حرمَكَ الزواج كلّ هذه الأعمال الصالحة، صار الزواج نقمة بحقك .

مِحْوَر الدرس:

(وما بدّلوا تبديلاً)

عاهدنا رسول الله على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وفي إقبال الدنيا، وفي إدبارها، وفي المغنم والمغرم، والمنشط والمَكرَه، وفي إقبال الدنيا وإدبارها .

((يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَكُنْ بِمِثْلِ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ))

هذا ما يفعله رسول الله :

عَنْ عَائِشَةَ:

((أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مِنْ اللَّيْلِ، مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ، صَلَّى مِنْ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً))

إذا فاتهُ من قيام الليل، صلى من النهار، اثنتي عشرة ركعة .

محور هذه الأحاديث التي ذكرناها قبل قليل :

هذه الأحاديث كلّها على محوَر واحد: إذا الشيء فاتَكَ فاقْضِهِ، من أجل أن تبقى ثقتك بنفسك عاليَة، ومن أجل أن تكون واثقًا بأنّ الله راضٍ عنك، ومن أجل أن تنطبق عليك الآية الكريمة:

(وما بدّلوا تبديلاً)

ومن أن ينطبق عليك حديث الصحابيّ الجليل .

((عاهدْنا رسول الله على السمع والطاعة، في المنشط والمكره، وفي إقبال الدنيا، وفي إدبارها))

ومن أجل أن يكون قدْوتنا في هذا، سيّدنا سعد في موقعة بدْر:

((لعلّك تعْنينا يا رسول الله، لقد آمنّا بك وصدَّقناك، وشهدنا أنّ ما جئتَ به هو الحق، فامْضِ يا رسول الله لما أردْتَ فنحن معك، إنّا لصُدُقٌ في الحرب، صُبُرٌ عند اللّقاء، فأوْصِل حِبَال من شئتَ، وأقْطع حِبالَ من شئتَ، وخُذْ من أموالنا ما شئتَ، وسالِمْ من شئتَ، وحاربْ من شئتَ، هو الذي بعثك بالحق، لو خُضْتَ بنا هذا البحر لخُضْنْاه معك، ما تخلّف منا رجل واحد))

هذه عكس قوله تعالى، لمن قال:

(قالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَداً مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ)

[سورة المائدة الآية: ٢٤]

هناك إنسان يحمل الدَّعْوَة، هذا بِمَاله، وهذا بجَاهه، وهذا بعَضلاته، وهذا بذَكائه، وهذا بعِلْمه، وهذا بوَقْته، وهناك إنسان محميّ، يطلب دائمًا، إنسان يعطي، وإنسان يأخذ .

حقائق مهمة أيضاً :

هناك بعض الحقائق مهمّة جدًّا في العلاقة مع الله تعالى، على موضوع الترميم، لماذا كان في الحجّ هَدي جزاء؟ الإنسان قصَّر أو ارتكَبَ بعض محظورات الإحرام، لماذا شُرِعَ أن يذبَحَ الهَدْيَ هَدْيَ الجزاء؟ لأنّ هذا التقصير أو المخالفة، أحْدث ثلْة في النفس، فهذا الدَّفْع أو هذا الهدْي قد يُرَمِّم .

يقولون: الإنسان حكيم نفسه، أنا أستعير هذه العبارة العاميّة لِمَوضوع آخر، يراقب علاقته بالله تعالى، الآن: علاقة متألّقة، أصابها فتور .

أخٌ من أخواننا، ذهب إلى طبيب نفسي، سمع الطبيب القصّة بكاملها، قال له: - والطبيب غير مسلم- يبْدو أنّك غاضب من الله، والله غاضبٌ منك، لا بدّ أن تناجيه، وتُصالحهُ، وتُطيعهُ، حينها تنتهي مشكلتك معك، لمّا سمع هذا الكلام من طبيب غير مسلم، تأثّر تأثُّرًا بالغًا، نحن لا يوجد عندنا مرض نفسي ضمن الإيمان أبدًا، عندنا صحّة نفسِيَّة، إنسان له صلة بالله، وإنسان مخلص لله تعالى،

ويكون معه مرض نفسي، هذا مستحيل، لا بدّ من أنْ ينعكس الإيمان صحّة وتألّقًا، وثقةً وتفاؤُلاً، وتوازنًا واعتِدالاً، وطاعةً.

مشكلة احذر أن تقع فيها :

أيها الأخوة، إذا ثار الإنسان ثورة كبيرة جدًا، وتورّط في أعمال لا يطيق متابعتها، هذه مشكلة، ولو أنفق ماله كلّه .

سيّدنا رسول الله لمْ يأخذ مال أحدٍ كله أبدًا، أخذ بعض الأموال، أخذ كلّ الأموال من واحدٍ فقط، هو سيّدنا الصدّيق، أما سيّدنا عمر فأخذ بعض ماله، يؤكّدُ هذا قوله تعالى:

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)

[سورة البقرة الآية: ١٩٥]

بمَعنى: إن لم تنفقوا ألقيتم بأيديكم إلى التهلكة، المعنى الثاني: ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، إن أنفقتم مالكم كلّه، إن أنفقتم مالكم كلّه، ألقيْتم بأيديكم إلى التهلكة، فإن الله لا يملّ حتى تملّوا، فافعلوا ما تطيقون، افْعَل ما تطيق، واعْمَل برنامجًا معتدلاً، الناجحون في الحياة ينظّمون أوقاتهم، وهناك نموذج غير مقبول أبدًا، تطلب منه، يقول لك: حاضر، ثمّ ينسى، لا يُسجِّل، وينفّذ واحدًا بالمئة، وقتهُ مُبَعْثر، ولا يوجد نِظام في حَياته، لا يوجد وقت خاصّ للبيت ، وآخر للعمل، ووقت للعبادة، فأكثر المتألّقين بالحياة، عندهم نظام بالحياة، وهذا الوقت لله تعالى، لا يمكن أن تعتدي عليه .

حدثني أخ :

يحكي لي بعض الأخوة كلامًا أنا أكْبرُه، يقول لي: لأمْرٍ قاهر ضاع منّي الدرس، ولكن بقي مع الوقت عشر دقائق، أقول: أصلّي العشاء -لما كان درسنا من المغرب إلى العشاء- وأشعر بنَفْحَة، ما دام ألِف حضور هذا الدرس، ولو فاتهُ نصف الدرس، وحصّل قسمًا منه، شعر بنَفْحة .

فالإنسان إذا حصَّل شيئًا أفضل من أن يكون محرومًا منه، فأنت ألِفْت درس علمٍ فحافِظْ عليه، ألِفْت الصلاة في المسجد حافِظ عليها، لك ورد صباحًا حافظ عليه، لك تلاوة حافظ عليها، لك قيام ليل حافظ عليه، لك صدقة حافظ عليها .

مِحْوَر درسنا: الحِفاظ على الأعمال الصالحة .

((أحبّ الأعمال إلى الله أدْومُها وإن قلّت))

فلّما يجد الإنسان ثقته بالله تعالى عالِيَة، وإقباله شديد، أما إذا يئسَ من المتابعة، أو حمَّلَ نفسهُ ما لا تطيق، ثمّ ترك، هذا لا يصح .

قاعدة ألتزم بها :

أنا عندي قاعدة: كلّ ثروة شديدة، يعقبها انتكاس شديد، فدائمًا: كن متوازنًا .

يأتي أخ ينسى مستقبله، ودراسته الجامعيّة، يعيش أجواء رائعة خلال فترة، بعدها يجد كلّ رفاقهُ معهم شهادة، وهو لا شهادة، ولا مصلْحة، ولا محصّل شيء، ولا بيت عنده، وغير متزوّج، كلّ رفاقه تزوَّجوا، هذا يحدث معه انتكاس، فلا بدّ أن تعمل لِدُنياك، الدنيا قوام الحياة ، والدليل الدعاء: اللهمّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردّنا .

فأنت بحاجة إلى دينٍ قويم، وآخرة تنْجو بها من عذاب الله، ودنيا تُقيم بها عِوَجك، فالعمل المتوازن.

وأنا قناعتي: أنّ الشيخ لا بدّ أن يبني أخوانه بناءً متوازنًا، أنت ادْرس، وتاجر، واعمل، لأنّ المسلمين الآن في معركة بقاء، حياة أو موت، فإذا نحن ما تعاونّا، هذه مشكلة كبيرة، فأعداؤُنا الآن ينفردون في الساحة، وهذا عصر الصف الواحد، أرأيت إلى قوله تعالى:

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

[سورة البقرة الآية: ٢٥١]

كان هناك توان، وكتلتان كبيرتان وقطبان، كلّ واحدٍ يهاب الآخر، لحصَّل الضعفاء الخير الكثير بهذه الموازنة، أما أن يكون قطب واحد ولا يرْحم، فالآن: المشكلة كبيرة جدًّا، وقضيّة نكون أو لا نكون، فلا بدّ أن نتعاوَن، وأن نتقوَّى، وأن نصلح دنْيانا وآخرتنا، وأن نقوِّي إيماننا، فيجب أن نتعاوَن، ويعذر بعضنا بعضًا، وأن ينصح بعضنا بعضًا، وأن نتعاون مع بعض حتى نبقى .

هذا ما أقوله :

أيها الأخوة، أكاد أقول: المؤمن الصادق حكيم نفسه، يراقب نفسهُ .

لو أنّ واحدًا فرضًا، تاب إلى الله من شيء، ثمّ وقع فيه، ربما لا يقْوى على التوبة مرّة أخرى، لا بدّ من صدقة تُرَمِّم التقصير، الترميم دقيق، هناك تقصير إذا أمكن إعادة العبادة أعِدْها، بإمكانك أن تقرأ القرآن الذي فاتَكَ بالليل فاقرأهُ، بإمكانك أن تصلّي بالضحى ما فاتك في الليل فصَلِّ، بالإمكان أن تدفع صدقة فادْفَعْها، إذا غبْت عن الدرس، سل عن موضوعه، حاوِلْ أن تُرَمِّم، من أجل أن تحافظ على مستوى معيّن، ومن أجل أن تبقى في مرتبة وصلت إليها لا أن تتراجع، والتراجع يعْقِبُهُ تراجع كبير جدًّا .

هناك مبدأ اسمهُ: العطالة، هذا المبدأ فيزيائي: أنّ الأجسام المتحرّكة ترفض السكون، فإذا كنت راكباً سيارة، والسائق استَعمل المكبح، فجأةً تهجم إلى الأمام، لأنّك رفضْت السكون، فالمركبة توقّفت، وأنت ما توقّفت، لذلك: لا بدّ من الأحزمة، أما حينما تقلع المركبة تشعر أنّ المقعد الخلفي

دفعك إلى الأمام، أنت رفضْت الحركة، المركبة تحرّكت ودفعتك إلى الأمام، فالأجسام الساكنة ترفض الحركة، والأجسام المتحركة ترفض السكون .

والآن: هناك حقيقة: إذا حضر الإنسان دروسًا، فهذه الحركة المستمرّة تستمرّ، أما حينما يقف، فالوُقوف يدعو إلى وُقوف، فإذا غاب درسين، لن يأتي بعدها .

تسأل عن شخص ستّة أشهر لم يأتِ، فإذا داوَم الإنسان، فالدوام يدعو إلى الدوام، وإذا انقطع، فالانقطاع يدعو إلى الانقطاع، وهذا مبدأ العطالة الثابت .

مرّةً قال لي واحد: إذا تعكّرت، لن آتي إلى الدروس، فقلتُ له: أنت حالتك مثل الطبيب، إذا مرض فلن يكون مريضًا، أنت بحاجة ماسّة إذا مرضْت إلى طبيب، وكثير من الأشخاص يكون بوَضْع قلق، وتكون له مشكلة، فإذا ذهب إلى الدرس تُحلّ هذه المشكلة، تُحلّ نفسيًّا، يرى الآخرة، ويرى فضل الله عز وجل، يستصغر مشكلته أمام ما يُقال في الدرس .

نهاية المطاف :

أيها الأخوة، أنا أُحاوِل في هذا الدرس -درس الأحد- جاهِدًا، أن أُجَمِّع المشكلات التي تصلني خلال الأسبوع، وأن أختار من هذا الكتاب المبارك، كتاب رياض الصالحين، بابًا يحلّ مشكلة الأخوة المؤمنين مجتمعين، فنحن نريد المتابعة والاستمرار، من أجل الثقة بالنفس، وأيّ مبالغة بالعبادات يجب أن نرفضها، لأنّ هذه المبالغة لها أثر نفسي في حالة النفس مع الله عز وجل، وضربتُ لهذا مثَل:

أبو حنيفة قرأ القرآن كلّه في ركعة واحدة، تحتقرُ صلاتك أمام صلاته، وهي غير واقعيّة، وأنّه ما نام أربعين سنة، وصلى الفجر بوُضوء العشاء .

لو فرضنا أنّ واحدًا ما نام، ألا تأتيه الحاجة أن يذهب إلى الخلاء، من العشاء إلى الفجر؟ إذًا: هناك مبالغة، أو أنّه قام الليل كلّه بآيةٍ واحدة، هناك أشياء تيئّس، وهناك من درجات الحديث وضع الزنادقة .

كلّ الناس هلكى إلا العالمون، والعالمون هلكى إلا العاملون، والعاملون هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم .

كُنْ منتبهًا، هناك أحاديث هدفها التيْئيس، وكلّ قصّة غير صحيحة، أنت يمكن أن تعيش وتتزوّج، وتشتغل بأيّ عمل، وتكون الأوّل عند الله، فالزواج لا يتناقض مع الدّين، ويكون لك عمل تجاري، هذا لا يتناقض مع الدّين، أو يكون لك عمل في التدريس، أو الطبّ، أو الهندسة، أو الصناعة، أو الزراعة، أو في التجارة، أو حتى في منصب رفيع جدًّا، فيمكن أن تكون مطيعًا لله في أعلى مستوى، فالدِّين بالحياة، فإذا تركته، تحسّ أنّ هذا الدِّين ليس من الحياة، فهذا الدِّين يصلح للحياة في أيّ طوْر من أطوارها، وحتى الطور المتقدّم جدًّا، وهذا دين الله عز وجل .

والذي أتمنَّاه على أخوتنا الكرام: أن تنقلب هذه الأحاديث والآيات إلى واقع، والمحافظة على المكتسبات التي حصَّلتها، ونحن على مشارف رمضان، والإنسان في رمضان يصلّي الفجر بالمسجد، ويضبط عينه، وسمعه، ولسانه، ورجلهُ، وفي رمضان يقرأ القرآن، وفي رمضان يصلّي صلاة التراويح، قيام الليل، وفي رمضان، ما الذي يحصل للمسلمين بعد رمضان؟ يعودون لما كانوا عليه، قال أحد الشعراء سامحه الله:

رمضان ولّى هاتها يا ساقي مُشتاقة تسعى إلى مُشتاق

نقض كلّ صيامه، فنحن نريد رمضان، كلّ رمضان قفْزة، وأن تحافظ طوال العام على ما حقَّقته في رمضان، يأتي رمضان آخر، تكون قفْزة أخرى إلى أن نلقى الواحد الديان .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (١٠٠-١٠١) : باب تحريم النميمة - ما الخطأ الذي وقع فيه معظم المسلمين في هذا العصر؟ وهل هناك حديث يدحض هذا الخطأ؟ ما هو؟ وما سبب الخصومات بين المسلمين؟ وما خطر النميمة على العالم الإسلامي، وما هي الحالات المستثناة

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١١-٠٢-٢٠٠١

بسم الله الرحمن الرحيم

ما غاب عن معظم المسلمين :

أيها الأخوة الكرام، حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، له أبعاد خطيرة في حياتنا، قبل أن أذكر نصّه أقول: المسلم بشكل أو بآخر، عنده تصورات للكبائر والصغائر، فلعل في أعماقه، تصور أن القتل من الكبائر، وأن السرقة من الكبائر، وأن أكل المال الحرام من الكبائر، وأن شرب الخمر من الكبائر، وأن الزنا من الكبائر، والتولي من الزحف .
لكن يغيب عن معظم المسلمين، أن هناك أفعالاً في نظرهم صغائر، وهي عند الله كبائر، فالعبرة لا أن تتوهم أنت أن هذه صغيرة، العبرة أن يأتي تصورك وفق ما في الكتاب والسنّة .

علام ترمز هذه الأحاديث؟ :

أيها الأخوة الكرام، شيء يلفت النظر: في أي مكان في العالم الإسلامي؛ شرخ، بغضاء، وعداوات، وحسد، وخلافات، وطعن، يا رب ما هذا المرض؟ . عَن ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَبْرَيْنِ فقالَ: أمَا إِنَّـهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، ثم قال: بلى، أمَّا أحَدُهُمَا: فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخَرُ: فَكَانَ لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، قَالَ: فَدَعَا بِعَسِيبٍ رَطْبٍ، فَشَقَّهُ بِاثْنَيْنِ، ثُمَّ غَرَسَ عَلَى هَذَا وَاحِدًا، وَعَلَى هَذَا وَاحِدًا، ثُمَّ قَالَ: لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود والترمذي والنسائي في سننهم]

((مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَبْرَيْنِ، فقالَ: أمَا إِنَّـهُمَا لَيُعَذَّبَانِ))

هذا من إعلام الله له .

((وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ))

النبي عليه الصلاة والسلام بشر مثلنا، لا يعلم إلا أن يعلمه الله، لقد أعلمه الله ليعلمنا.

قال عليه الصلاة والسلام:

((إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ -الصياغة رائعة في نظر الناس- وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ))

بلى إنه كبير، عند الناس ليس بكبير .

ما دام الإنسان لم يقتل، ولم يشرب الخمر، ولم يزنِ، هذه الكبائر، أما هذا الإنسان فيتكلم طوال الوقت، بشيء لا يرضي الله . دققوا: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قال:

((سمعت رسول الله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَرْفَعُهُ اللَّهُ بها في الجنة، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، والترمذي في سننه، ومالك في الموطأ]

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ:

((قُلْتُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكَذَا، -قَالَ غَيْرُ مُسَدَّدٍ: تَعْنِي قَصِيرَةً-، فَقَالَ: لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً، لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ))

هل في البحر شيء يفسده؟ أحياناً: تصب عليه مياه سوداء، تسير في عرضه أكثر من خمسين كيلو مترًا، والبحر لا ينجس، يبقى طاهراً، أما أن تقول امرأة عن أختها قصيرة .

فقال:

((لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً، لَوْ مُزِجَتْ بِمَاءِ الْبَحْرِ لَمَزَجَتْهُ))

من أمراض المسلمين في هذا العصر :

كعادتي في هذا الدرس: درس الأحد، أحب أن أبين بعض أمراض المسلمين، المسلمون لا يتورعون عن الطعن في بعضهم، الطعن بالعلم، والطعن بالأمانة، ببساطة بالغة يتهم أخاه بسوء الائتمان .

((ومن أساء الظن بأخيه كأنما ساء الظن بربه))

إذا كان الإنسان ملتزمًا، تعلم عشرين سنة، تشك في أمانته، إذاً: كيف تعامل أهل الدنيا، الذين لم يسمعوا كلمة حق؟ فضبط اللسان .

((إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ -في نظر الناس-، أَمَّا أَحَدُهُمَا: فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ))

((النمام لا يدخل الجنة))

يكفي أن تقول لزيد: فلان تحدث عنك، وقال: إنك لست أميناً، أحدثتَ شرخًا، فقبل أن تقول كلمة عدَّ للمليون، لعل هذه الكلمة من سخط الله، ولعلها تهوي في جهنم سبعين خريفاً، لمجرد أن تعتقد أن قولك من عملك .

يتوهم الإنسان أن العمل هو الحركة، أمسك، أخذ، ضرب، أعطى، هذا العمل، أما ما دام الكلام بكلام، فهذا كلام يا أخي، لا .

((وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

هذا ما يجب عليك :

أيها الأخوة، كيف كان الحُب بين الصحابة الكرام؟ كيف كان الودّ بينهم؟ .

كان هناك عالم جليل في الشام -رحمه الله تعالى- الشيخ بدر الدين الحسني، لا يجرؤ إنسان أن يتكلم أمامه عن إنسان، اسكت يابا، هكذا كانت لغته، أظلم قلبي اسكت، لو أخذ المؤمنون بهذا .

أنا لا أتكلم من فراغ، وأعلم علم اليقين أنه: في مجالس المسلمين غيبة ونميمة لا تنتهي، يطعن في فهمه، ويطعن في علمه، ويطعن في أمانته، وهو مرتاح، وقد يصل إلى دعاة كبار مرتاحًا، ماذا فعل؟ هدّم مثلاً أعلى . طبعاً:

((رحم الله عبداً جبّ المغيبة عن نفسه))

النبي علّمنا أشياء مذهلة، النبي الكريم سيد الخلق، وحبيب الحق، كان يمشي مع زوجته صفية، فمرّ صحابيان، فقال عليه الصلاة والسلام:

((عَلَى رِسْلِكُمَا، إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، فقالا: سُبْحَانَ اللَّهِ، فقالَ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابن آدم مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شراً))

[أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح، وأبو داود في سننه]

أنت مؤمن يجب أن تبين، أن توضح العلاقة، لماذا أتيت في هذا الوقت؟ لماذا دخلت إلى هذا البيت؟ يجب أن تبين، والبيان يطرد الشيطان، أنت مهمتك أن تبين .

((ورحم الله عبداً جبّ المغيبة عن نفسه))

لا توضع نفسك في شبهة :

مرة حدثني أخ، عنده سفر بوقت مبكر، ونسي بعض الوثائق في المحل التجاري، والوقت الساعة الواحدة ليلاً، فاضطر إلى أن يأتي إلى محله، الساعة الواحدة ليلاً، جاء للحارس، وبيّن له: أنا نسيت سندات في المحل، جئت لآخذها، أما أن يفتح إنسان محله الساعة الواحدة ليلاً، هناك مشكلة وشبهة.

هذا ما قاله معاوية لعمر :

مرة سيدنا معاوية سأل سيدنا عمر بن العاص، قال له:

((يا عمر ما بلغ من دهائك؟ قال له: والله ما دخلت مدخلاً إلا أحسنت الخروج منه، قال له: لست بداهية، أما أنا والله ما دخلت مدخلاً، أحتاج أن أخرج منه))

أنا لا أدخل إطلاقاً، أنت دخلت، وأحسنت الخروج، أما الأبلغ من هذا: ألاّ تدخل من هذا .

كن مثل هؤلاء الأشخاص :

هناك أشخاص ليس لديهم مشكلة، وعندهم وعي، عندهم ورع، كل شيء واضح، حساباته واضحة، علاقاته واضحة، اتفاقياته كلها واضحة، كلها بعقود، كلها موثقة .

وبالمناسبة: عندما المؤمن يقيّد الآخرين بعقود، منع عنهم الشيطان .

أقسم لي بالله أخ، قال لي: شخص عرض علي أن أكون شريكاً في مدرسة، وكان وضع المدارس سيئًا جداً، إلى درجة أنها تموت موتاً بطيئاً، مدرسة بضع عشرات من الألوف اشتروها، أحدهما دفع خمسة، والآخر دفع خمسة ثانية، قال لي: بعد حين: أصبح المبلغ قريبًا من عدة ملايين، فاجأني أنه أعطاني دفعة ودفعة ودفعة، قال لي: قرضك انتهى، دخل شريكًا، فوجد نفسه مقرضًا، عندما ارتفع سعرها الشديد، والورع غير موجود، اتفاق شفهي، فأنت حينما تقوم باتفاق خطّي، توثّقه بالمراجع الرسمية، أنت ماذا فعلت مع أخيك؟ أنت حميته من الشيطان، حميته أن يأكل المال الحرام، قيّدته .

كلمة :

أخواننا الكرام، أتمنى أن أقول لكم كلمة بدقة: إذا سرق أحد، فالإسلام يقطع يده، لكن هل تصدقون: أن الذي أغراه بالسرقة، لا يقلّ إثماً عنه؟ هذا قد لا يخطر في بالكم . صاحب محل، عنده موظف، وله معاش محدود، الدرج فيه عشرات الألوف، تركه وسار، هذا وجد درجًا، ولا يوجد حسابات، وكل عُملة خمسمئة ليرة، أخذ عدة عملات، ووضعها في جيبه، وحلّ مشاكله بها، من الذي نقله من الأمانة للسرقة؟ صاحب المحل، لأنه ترك بين يديه صندوق الغلّة، وإيمانه ضعيف، وقوة انضباطه ضعيفة، فكل إنسان يقيد الآخرين بعقود، بوثائق، باتفاقيات مكتوبة مسجلة .

ما سبب هذه الخصومات بين المسلمين؟:

أيها الأخوة، أنا ما وجدت سببًا للخصومات بين الناس غير الجهالة .

ورد عن رسول الله عليه الصلاة والسلام:

((الجهالة في المعقود عليه، وبدله تفضي إلى المنازعة))

فالنبي بيّن بكلمة: هذه زوجتي صفية، يقاس عليها مليون حالة، دفع لك مبلغًا، ويوجد حساب، خرجت صفراً، دون شيء، كلمة واحدة، ما قنع ولا استحى منك، تحدث عليك في غيابك، ما هذا بذمته؟ هذا ذمته قليلة، لماذا خرجنا صفراً؟ بيّن له الحساب، بين بالتوقيع، خذ توقيعه، اكتب وصلاً، اعمل عقدًا وثبته، هذا كله ينسحب على: هذه زوجتي صفية، بيّن، فإذا بينت فلا يوجد مشكلة، وإذا لم تبيّن فثمة مشكلة .

قصة طريفة :

قصة طريفة جداً: حدثني أخ، عنده محل تجاري، وتجارة أقمشة، فكلما نقل البضاعة، ينشأ مع من نقلها وحملها مشكلة عويصة، يطلبوا مبلغًا، ثم يطلبون ضعفه، ألم تقل خمسمئة؟ اتضّح أنها كمية كبيرة، اسأل فلانًا .

قال لي: مرة أحببت أن أعمل تجربة، ففي نقل مجموعة أثواب، أحضر الذي ينقل البضاعة، قال له: عدّها، قال: لا، قال: عدَّها، عدها، وبإصرار واحدًا واحِدًا، فعدّها، قال له: احمل واحدًا، وثقله، افعل كما أقول لك، حمل واحدًا، قال له: امش معي، مشاه الطريق كله، وصل للبناية الثانية، قال له: بالطابق الرابع ممنوع استعمال المصعد، وصل فوق، قال له: بآخر باب بالممشى، دق الباب، قال له: بالغرفة الداخلية على الرفوف، نقل البضاعة، بعد ما انتهى، طلب خمسمئة فأعطاه، قال له: معوضين، لم يتكلم ولا كلمة .

إذا قال له: كثر عدّها، إذا قال له: ثقيلة فقد ثقلهم، الطريق طويل مشّاه إياه، رابع طابق، المصعد لم يستعمله، شعرنا بالتعب، قال له: ممنوع استعماله، بآخر الممشى .

أنت بحياتك العامة، كلما بيّنت، ليس عندك مشكلة، كل شيء بينه، لو أخذت مليون مشكلة بالأسواق، سببها الجهالة .

((الجهالة تفضي إلى المنازعة))

كل واحد يتصور شيء لصالحه .

قاعدة :

تاجر له جار بائع غرف نوم، وجد غرفة جميلة، قال له: ابعثها لي، والله شيء جميل ، قال له: أمرك يا جار، فأرسلها له، فبعث له عشرة آلاف وراء عشرة آلاف، أصبحوا مئة، يعتقد أنه انتهى، قال له: هذه ثمنها مئتان، أنت المخطئ، لأنك لم تسأله عن ثمنها، فما دامت الجهالة فيوجد منازعة، هذه قاعدة .

ففي علاقاتك مع الناس، والباعة مع المشترين، في بيعك، في شرائك، كل شيء وضحه، البيان يطرد الشيطان، هذا كله ينسحب على قول النبي:

((هذه زوجتي صفية))

أنت كمؤمن، مكلف أن تبين للآخرين، ما الذي حصل؟ .

أذكر مرة: بائع جاءت إليه امرأة، فرحب بها ترحيبًا غير طبيعي، اشتقنا لك، أين هذا الغياب؟ وجلس في المحل رجل صالح من أهل العلم، تغيّر لونه، غير معقول، امرأة تستقبل هذا الاستقبال من بائع، أنا كنت جالسًا، قلت: لعلها أخته، توقعتها أخته، فلما ذهبت سألناه، فإذا أخته الشقيقة، لكن لو قال: هذه أختي –مثلاً- حلّت المشكلة .

من الملاحظ :

دخلنا إلى بيت مرة، قدم مناشف عليها اسم فندق، والله مشكلة، كيف أخذت هذه؟ أين أمانته؟ أين ورعه؟ صار هناك مشكلة، لم يتكلم أحد، بعد سنة، بعد سوء ظن سنة، قال: يقدمون المناشف كل سنة للموظفين، قل هذا من زمان يا أخي، قل: نحن يقدمون لنا المناشف كل سنة، انتهت مشكلتك، فأنت بيّن؛ يوجد التباس، يوجد مشكلة، البيان يطرد الشيطان .

فالمؤمن الأول مكلف أن يبين، والمؤمن الثاني مكلف أن يحسن الظن .

((التمس لأخيك عذراً ولو سبعين مرة))

فإذا في المجتمع أحد يبين، والآخر يحسن الظن فلا مشكلة، أما الملاحظ على مستوى الأسرة فثمة شرخ، على مستوى الحي شرخ، على مستوى الجامع شرخ، على مستوى السوق شرخ، من أين يأتي هذا؟ من النميمة .

((النمام لا يدخل الجنة))

محرم عليه دخول الجنة، تلاحظ أن المؤمن يخزن لسانه، لا يتكلم، لن أتكلم أي كلمة يوجد لها إشكال
.

شخص أذنب، أنت أخوه، صديقه، أخوه في الله، إن قلت: هكذا فعل اغتبته، إن قلت: ماذا حصل له؟ أين عقله؟ أنت شمت به، إن قلت: يدبّر حاله، شاركته بالإثم، انظر كم كلمة تكلمت؟ أنت لم تفعل ذنب، أنت راقبت فاعل الذنب، فإن ذكرت هذا الذنب فقد اغتبته، وإن عيرته ابتليت به، وإن رضيت به فقد شاركته في الإثم .

هذا ما خافه النبي على أمته :

فالأخوة الكرام، أهم شيء في الدرس اليوم: يجب أن تعرف ما هي الكبائر؟ ليس بتصورك بالكتاب والسنّة .

((إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ))

قال النبي الكريم: ما يعذبان في كبير في تصوركم .

الشيء الدقيق: أن الشيطان مستحيل أن يطلب منك أن تعبد صنماً، الشرك الجلي انتهى في العالم الإسلامي .

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ:

((خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَحْنُ نَتَذَاكَرُ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ، فَقَالَ: أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قَالَ: قُلْنَا: بَلَى، فَقَالَ: الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ))

عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُ عَلَى أُمَّتِي: الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَقُولُ: يَعْبُدُونَ شَمْسًا، وَلا قَمَرًا، وَلا وَثَنًا، وَلَكِنْ أَعْمَالا لِغَيْرِ اللَّهِ، وَشَهْوَةً خَفِيَّةً))

فالشرك انتهى، لكن بقي أعمال تظنونها صغيرة، وكنت قد حدثتكم: أن الشيطان يأتي للإنسان فيأمره بالكفر، فإن وجده على إيمان يأمره بالشرك، فإن وجده على توحيد يأمره بالكبائر، فإن وجده على طاعة يأمره بالصغائر، فإن وجده على ورع يأمره بماذا؟ بالمباحات، فإن وجده على يقتات، يأمره بالتحريش بين المؤمنين .

ما الذي يمزق العالم الإسلامي؟ :

لو حللنا دم أحد، تجد هناك كرية بيضاء، وكرية حمراء، وكرية غيبة ونميمة، أينما جلس يتكلم على الناس، يقتات غذاءه، إذا لم يتكلم على الناس لا يعرف النوم، هذه مشكلة كبيرة .

فهذا المغتاب النمام، يمزق العالم الإسلامي، وهذه مشكلة المسلمين، شيء مؤلم جداً، حتى في بلاد أوروبا وأميركا، أمراضهم في المشرق، نقلت معهم إلى الغرب، هذا الجامع للجماعة الفلانية، وهذا الجامع للجماعة الفلانية .

في أميركا قبلتين؛ قبلة إلى مكة مباشرة، وقبلة عبر المحيط الهادي، تختلف الزوايا ويتصارعون، ورمضان يبدأ في أيام ثلاثة، جماعة يصومون السبت، وجماعة الأحد، وجماعة الاثنين، هذه

أمراض المسلمين في مشرقهم، نقلت إلى مغربهم، هذه مشكلة المشاكل، هذا كله من ضعف الإخلاص، لو أخلصنا جميعاً لاجتمعنا على الله، قال تعالى:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)

[سورة الحجرات الآية: ١٠]

هذا ما تسببه النميمة :

((أَمَّا أَحَدُهُمَا: فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ))

لا حظ نفسك جالس، جاء أخوك، قال لك: كيف حالك مع فلان؟ قال: لا شيء، قال: كيف لا شيء؟ تحدث عليك البارحة، وتقول: لا شيء؟ قال: إنك أكلت له ماله؟ هو قال هكذا؟ نعم والله، ويوجد شهود، أنت لم تفعل شيء أبداً، لكن ماذا فعلت؟ هززت أركانه، أصبح حقودًا ، كل كلمة نميمة تسبب شرخًا بين اثنين، فإذا كان المسلمون يمشون بالنميمة، معنى هذا: أنهم متفرقون، قال تعالى:

(وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

[سورة الأنفال الآية: ٤٦]

هذا ما يحجبك عن الله :

أيها الأخوة، عندما تنضبط بلسانك، تراقب الله عز وجل، لا تتكلم كلمة تسيء إلى إنسان، تشعر أنك مع الله دائماً .

يقول لك: أصلي ولا أشعر باتصال بالله، صحيح، لأن استقامتك في الكبائر، أما الذي اتهمته بالصغائر أيضاً، هو من الكبائر، حجبك عن الله، لا يدخل الجنة نمام .

فالنميمة صغيرة أم كبيرة، هي مثل الزنا، لا يوجد أحد ناج من لسانك، كله تسقه به، كله تطعن فيه، إلى متى؟ .

((وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لَهَا بَالاً يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ))

هذا ما يفعله أبي حنيفة :

سيدنا أبو حنيفة النعمان -رحمه الله تعالى- إذا حلف يمينًا صادقًا، يعاقب نفسه، يدفع دينار ذهبي صدقة، ألم يقل الله تعالى؟:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

[سورة المائدة الآية: ٨٩]

لا داعي لأن تحلف يمينًا في كل مناسبة، فإذا أخطأ، وحلف يمينًا صادقًا، لم يكذب، لكن لا داعي لليمين، يدفع دينارًا ذهبيًا جزاء حلفه اليمين، إذْ أمرنا الله أن نحفظ أيماننا .

فكل واحد منا إذا عامل الله بهذه الطريقة، أنا أخطأت وقلت كلمتان، يجب أن أدفع صدقة، لا أملك ذلك أصوم، عندما أصوم يومًا بكامله، لأنه تكلم عن إنسان، يشعر بنفسه أن الأمور ترممت، الصدقة ترميم، قال تعالى:

(إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ)

[سورة هود الآية: ١١٤]

احذر من غيبة القلب :

هناك شيء آخر: هو غيبة القلب، قد تغتابه بقلبك وتأثم .

ذكرت أنا من مدة، يمكن في الدرس الماضي قصة رمزية، امرأة تغسل امرأة، فاتهمتها بزنا في قلبها، فالتصقت يدها بجسم الميت، لم يتمكن أحد من أن ينزعها، واختلفوا، وانقسم الناس قسمين، قسماً يرى أن يقطع من جسم الميت ليسيروا الأمر، وقسماً رأوا أن تقطع يد المغسلة، أصبحت اليد والجسم قطعة واحدة .

فعرض هذا على الإمام مالك، إمام دار الهجرة، فقال:

((اجلدوها ثمانين جلدة))

وفي الجلدة الثمانين فكّت يدها، لأنها اتهمتها بالزنا في قلبها .

أحياناً: تتهم إنساناً بقلبك، الله يحاسب عليه .

في بعض الكتب كالإحياء: الإمام الغزالي يذكر غيبة القلب، فأنت طهر قلبك من الغيبة.

هذه روايات تتمة الحديث :

((أَمَا إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا: فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ، وَأَمَّا الآخَرُ: فَكَانَ لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ))

في رواية:

((لا يستبرئ))

وفي رواية:

((لا يستتر))

وفي رواية:

((لا يتنزه))

لكن لا يستتر هذا الذي يقضي حاجته أمام الناس في الطريق، كلكم يعلم: أن البول في الطريق يجرح العدالة، والعدالة من حقوق المسلم، المسلم له صفتان كبيرتان: الضبط والعدالة ، الضبط صفة عدلية، والعدالة صفة نفسية، فحينما يحدث الناس فيكذبهم، سقطت عدالته .

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، وحرمت غيبته))

هذا ما جرى في جدة :

حدثني أخ من جدّة، في موسم الحج، متزوج امرأة من دمشق، فكان بيني وبينه لقاء، راكب في مركبته، يسير في طريق عام، يوجد طريق فرعي، بدا منه شاحنة صغيرة، فهو خفف السرعة، على أمل أن يخرج هذا السائق بسيارته، الشاحنة الصغيرة بقيت واقفة، فلما رآها وقفت، تابع سرعته، فلما انطلق بأقصى سرعة، خرجت فجأة أمامه، واصطدما، ومات ثلاثة، المقتول بالحادث، ديّته مئة ألف ريال في الأيام العادية، في الحج مئتا ألف، على السوري حوالي سبعة ملايين أذهبها بثانية، سائق الشاحنة عندما جاءت الشرطة قال لهم: والله أنا السبب، هذه الكلمة ثمنها مئة مليار، هو خفف سرعته عندما رآني، فأنا أخطأت، بعد ما اطمأن أنني وقفت خرجت، هذه كلمة حق .

هذا من عامل الناس فلم يظلمهم، كم دعوة كيدية يوجد؟ .

((من عامل الناس فلم يظلمهم، وحدثهم فلم يكذبهم، ووعدهم فلم يخلفهم، فهو ممن كملت مروءته، وظهرت عدالته، ووجبت أخوته، وحرمت غيبته))

هذا ما يجرح عدالة الإنسان :

أيها الأخوة، من بال في الطريق، لا أقول سقطت عدالته، ولكن جرحت عدالته، من أكل في الطريق جرحت عدالته، من أطلق لبرذونه العنان وأسرع جرحت عدالته، من أطلق لفرسه العنان جرحت عدالته، من تنزه في الطرقات جرحت عدالته، من بال في الطريق جرحت عدالته، من علا صياحه في البيت جرحت عدالته، من كان حديثه عن النساء جرحت عدالته، من طفف بتمرة جرحت عدالته، من أكل لقمة من حرام جرحت عدالته .

المؤمن إنسان كبير عند الناس، هذه أشياء يفعلها معظم الناس، أما المؤمن لا يفعل من هذا شيئاً، حافظ على الضبط والعدالة .

ما عوفي منه المسلمون :

((وَأَمَّا الآخَرُ: فَكَانَ لا يَستبرئُ مِنْ بَوْلِهِ))

بالمناسبة: المرضى بأمراض القذارة ثلاثمائة مليون إنسان في العالم .

((لا يَستبرئُ مِنْ بَوْلِهِ))

البول مادة سامة، الأمراض كثيرة والمسلمون معافون منها؛ أولاً: أمراض القذارة، ثانياً: مرض الإيدز.

هذا المرض في أفريقيا، نسبته عالية جداً، وفي العالم كله، يتضخم بسلسلة انفجارية.

نحن درسنا سلسلة حسابية، وعددية، وهندسية، عددية: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، هندسية: اثنان، أربعة، ثمانية، ستة عشر، اثنان وثلاثون، أربعة وستون، الآن: ظهرت سلسلة ثالثة: سلسلة انفجارية، صعب أن تتوقع الرقم .

مرة كنت أُعدّ خطبة عن الإيدز، الإحصاء كان سبعة وثلاثين مليون مقدّر لعام ألفين، تفاجأت، فالرقم قبل سنة الألفين، كان ستة وخمسين مليون مصابون بالعالم .

هذا المرض الوقاية منه سهلة جداً بالعفة، وإذا كان نُقل المرض حتى الآن: هو مرض مميت، فأمراض القذارة المسلمون معافون منها .

هذا ما حصل في السويد :

أذكر مرة أن السّويد تفوقت بالتمرينات الرياضية، فيبدو أن العلماء بالغوا بالتمرينات، فحدثَ هناك منعكس إجهاد للقلب، فعقدوا مؤتمراً، وطلبوا من كبار العلماء، أن يصمموا تمرينات رياضية، يفعلها كل الناس صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، بالأعمار كلها، والأوقات كلها، والأماكن كلها، فصمموا تمرينات رياضية، تشبه الصلاة تماماً .

إذا صلى الإنسان صلاة متقنة، دون أن يشعر، قام بتدريبات رياضية دقيقة جداً، وتعلمون أن الدم يتباطأ في أطراف الجسم، يتباطأ تباطؤاً شديداً، لذلك: أكثر الأماكن التي تصاب بمرض الغرغرين أصابع القدمين .

النبي علّمنا أن نخلل الأصابع بالوضوء، فالتخليل ينشط الدورة الدموية، فقلما يصاب إنسان يصلي بالغرغرين، ما دام هناك غسل للقدم خمس مرات، وكل مرة تخليل أصابع، يوجد حركة تحريض الأوعية على ....

عندما يتوضأ الإنسان بماء بارد، يتورد وجهه، السبب: الماء البارد نبّه الأوعية المحيطية، فتوسعت اللمعة، فجاء الدم أكثر .

في الإنسان أشياء عجيبة: إذا سار في جو بارد جداً، يصبح أنفه أحمر قانياً، ما تفسير ذلك؟ أن الهواء قد يكون تحت الصفر بعشرين، فاستنشاق الهواء بهذه البرودة خطر على صحة الإنسان،

فأوعية الدم لها خاصة عجيبة، بأن لها عضلات دائرية، تتوسع لدرجة ضعفين أو ثلاثة، فإذا كان البرد شديداً تتوسع، ويأتي الدم الساخن بكميات غزيرة، يلطف الأنف كله، يدخل الهواء دون الصفر بعشرين درجة للقصبة باعتدال. ففي الإنسان أجهزة عجيبة جداً .

على كل؛ الأمراض التي عوفي منها المسلمون، لا تعدّ ولا تحصى، هناك مرض انقلاب الرحم، علاجه: تمرينات تشبه الصلاة تماماً .

ظاهرة :

أيها الأخوة، تجد ظاهرة؛ إنسان ارتفع ضغطه إلى اثنين وعشرين درجة، لم يصبه شيء، شخص آخر ضغطه ثماني عشرة درجة، معه خثرة في الدماغ انفلج، ألا يوجد قاعدة؟ اثنان وعشرون لم يصب بشيء، وثماني عشرة درجة أصيب بشيء .

العلماء قالوا: كل إنسان يصلي، بالنهار لدينا كم ركعة؟ الصبح ركعتان، والظهر أربع ، والعصر أربع، عشر، والمغرب ثلاث، والعشاء أربع، اثنان، ستة، وثلاثة، تسعة، تقريباً يوجد ثلاثون ركعة، ضرب اثنين، أربع وستون ركعة، فأربع وستون مرة، تنحني للأسفل، فيهجم الدم للدماغ، يوجد احتقان، ثم تعود، فيرجع الضغط .

هذه العملية احتقان الأوعية بالدم، ثم فراغها من الدم، أربع وستون مرة، تقوم بشيء اسمه: المرونة في الأوعية الدماغية، يصبح الوعاء مرناً مثل المطاط، فلو ارتفع الضغط فجأة إلى الاثنين والعشرين لم تصب بشيء، أما إذا كان لا يصلي فأوعيته غير مرنة، إذا ارتفع الضغط للثمانية عشر انفجر الوعاء، وسبب خثرة بالدماغ، هو وحظّه، بمحل يفقد بصره، بمحل يفقد ذاكرته، بمحل يفقد حركته، فكم هي الصلاة مصممة من خلال خالق الكون، على أن تكون تدريباً، وتليينا،ً وتنشيطاً للدورة الدموية؟ .

هذه هي الحجامة :

أيها الأخوة، أكثر من ثلاثين حديثاً في الصحاح عن الحجامة .

الحجامة أخطر معمل في الجسم، هو معمل كريات الدم الحمراء، هذا في نقي العظام ، هذا المعمل ينتج كل ثانية اثنين ونصف مليون كرية، بدأ الدرس الساعة السابعة والربع، والآن مضت أربعون دقيقة، بالثانية اثنان ونصف مليون، الدقيقة ضرب ستين، الخمسون دقيقة ضرب خمسين، كم مليون كرية صنعت أجسامنا في هذا الدرس فقط؟ .

هذا المعمل الذي يصنع كريات الدم الحمراء لنقل العظام، أحياناً: يقف عن العمل، فيصاب الإنسان بمرض اسمه: فقر الدم اللامصنّع، هذا مرض مميت، لا يوجد حل، إلا أن يأخذ الدم كل أسبوع بكميات كبيرة إلى أن يتوفاه الله .

هذا المعمل: معمل كريات الدم الحمراء، صيانته في نقص الدم المنتظم مبرمج، كلما نقص الدم يضاعف الكمية، فحتى يصان هذا المعمل، ويحفظ من التوقف، لا بد من إنقاص الدم بشكل منتظم، فالحجامة إنقاص دم بشكل منتظم، فيحسّ خلايا هذا المعمل على النشاط .

من توجيهات النبي :

النبي وجه توجيهات -اللهم صل عليه- في وقتها، لا في عصره، ولا بعد ألف وأربعمئة سنة من بعثته، يوجد جهة علمية في الأرض، عندها القدرة لتفهم توجيهاته النبوية، أما الآن: تكشف هذه التوجيهات واحدةً واحدة، أشياء دقيقة جداً .

النبي أمر أن نذبح الدابة من أوداجها، وأن يبقى الرأس عالياً، الآن: كل مسالخ العالم يعلقون الدابة من أرجلها، ويقطعون رأسها كلياً، تجد اللحم أزرق قاسياً، لحم المسلمين لونه فاتح وطري، السبب: عندما ذبحنا الدابة من أوداجها، وبقي الرأس متصل، القلب مهمته بعد الذبح: إفراغ الدم، فإذا قُطع الرأس، فالقلب يتلقى أمراً ثمانين ضربة في الدقيقة، من مراكز كهربائية في القلب، أما الأمر الاستثنائي بالمئة والثمانين ضربة، هذه تأتي من الكظر عن طريق الدماغ، فلو قطع الرأس انقطعت الأوامر الاستثنائية، فثمانين ضربة يخرجوا ربع الدم فقط، ويبقى ثلاثة أرباع الدم في الدابة، أما المئة والثمانون ضربة فتخرج الدم كله .

فالنبي قال بهذا المعنى تقريباً:

((إذا ذبحتم الدابة، فاذبحوها من أوداجها، ولا تقطعوا رأسها بهذا المعنى))

هذا التوجيه يمكن من قبل عشرين سنة، حتى فُهم حكمة هذا التوجيه، فكل شيء النبي ذكره ليس من ثقافته، بل من وحي الله له .

اقرأ هذه الروايات :

((وَأَمَّا الآخَرُ: فَكَانَ لا يَسْتَبْرِئُ مِنْ بَوْلِهِ))

وفي رواية:

((لا يستتر من بوله))

وفي رواية:

((لا يتنزه من بوله))

فرجل خلع ثيابه أمام النبي، واغتسل، كان أجير يعمل شيء، قال له:

((أراك لا تستحيي من ربك، خذ إجارتك، لا حاجة لنا بك))

فصله، فلا يستتر من بوله، البول في الطريق يجرح العدالة، وأحياناً: أماكن لقضاء الحاجة كلها على الواقف، هذه أماكن غير شرعية .

ملخص هذا الحديث :

يوجد للحديث رواية ثانية: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:

((مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ مَكَّةَ أَوِ الْمَدِينَةِ، فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ، يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، ثُمَّ قَالَ: بَلَى، كَانَ أَحَدُهُمَا لا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَكَانَ الآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ))

[أخرجه البخاري في الصحيح، وابن خزيمة في صحيحه]

فتلخيص هذا الحديث: المؤمن ينبغي أن يعلم ما الكبائر بالضبط، فهناك كبائر لسانية.

الإمام الغزالي: أحصى ثماني عشرة كبيرة من كبائر اللسان في إحياء علوم الدين، فالناس في مجالسهم، وفي لقاءاتهم، وفي ولائمهم، وفي حفلاتهم، وفي أسفارهم راقبهم، كل الحديث عن الناس، المؤمن ضابط لسانه، لا يتكلم إلا بالخير .

هذا ما أعرفه عن هذا الشخص :

أيها الأخوة، أحياناً: يستلم أحدكم منصباً جديداً، يأتيه المهنئون، ويذمّون السابق دائماً.

فمرة أعرف شخصاً، توفي رحمه الله، كان وزيراً، دخل وفد إليه، فبدأ يذمّ القديم، قال له: اسكت فلان صديقي، وأنا أحترمه جداً، فلا أعتقد أن أحداً تجرأ بعد هذا الحادث، أن يتكلم أمامه .

فإذا عوّدت الناس هكذا، عوّدت أولادك، عوّدت أهلك أن يضبطوا لسانهم، أما أن نتكلم بطلاقة ومرتاحين، ولا كأن هناك مشكلة أبداً، فأصبح هناك نوع من النفاق، الشخص بوجوده تحترمه وتعظمه، يغيب دقيقتين، يأتي الانتقاد، والطعن، والغمز، واللمز، فهذا ذو الوجهين ليس عند الله وجيهاً .

فأنا أتمنى على الله عز وجل أن نطبق الإسلام، نحن روّاد مساجد، طلّاب علم، نحن نمثّل عند الناس الفئة الديّنة، الفئة الملتزمة، فعندما يتكلم الملتزم كلام فيه خطأ، وفيه معصية، فيكون بذلك قد أعطى فكرة سيئة للآخرين .

هذا المستثنى من الغيبة :

هناك حالات للغيبة لا بد منها: إذا سألك أحد عن شخص في موضوع زواج، وهو لا يصلي، ويشرب الخمر، لا تستطيع القول: كل الناس خير وبركة، ما خير وبركة؟ تعطيه ابنتك ؟ أعطيه، يقول لك: يباع بالعزاء، هذا لا يجوز، فأنت خنته، ما دام استنصحك بالنصيحة، لا يوجد غيبة، هذه واحدة .

رجل مظلوم رفع دعوة، يا بني تكلم ما هي قصتك؟ يقول: أنا أخاف أن أغتابه لخصمي، ماذا تغتابه؟ قال تعالى:

(لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

[سورة النساء الآية: ١٤٨]

لا يوجد غيبة هنا، هنا خصومة، عليك أن تبين، قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ ظُلِمَ)

[سورة النساء الآية: ١٤٨]

بيت معروض للبيع رخيص، لماذا رخيص؟ هناك مشكلة بالأساس، وأمر بإخلائه، عرض رخيص، يجوز للدلال أن يخفي العيب، يقول لك: لأنه يريد السفر، وهو مضطر، معقول! يشتريه، لا يريد أن يغتابه .

هناك شخص، باع بيتاً، على أنه قبلي بالليل، وصلى باتجاه الشمال، يريد أن يصلي العشاء، هو بالعادة لا يصلي، لكن صلّى أمام الزبون باتجاه الشمال، ليقنعه باتجاه القبلة، وكل النوافذ باتجاه القبلة، يعني: هذا أنه بالنهار مشمس، وصلى باتجاه الشمال، هناك أناس عندهم أساليب شيطانية .

مثلاً: بيت في الطابق الخامس، يصل المشتري إلى الأعلى، وهو متعب، عند كل طابق، يحكي له قصة، لا ينتبه المشتري، صعد وهو مرتاح، لا يوجد مشكلة، بل هذا أفضل، فمناظره أجمل، لكن هو يكون سرد له قصة، فما شعر أن البيت عالٍ، فهناك أساليب كلها غش وخداع .

النصيحة: يجب أن تؤدى، ولو عن طريق الغيبة، بيت له مشكلة، زواج له مشكلة، شخص محتال ستشاركه، محتال قديم، تقول له: فلان محتال إياك، شخص مبتدع، عنده أفكار سيئة جداً، أنا لا أغتاب أحداً، هذا ليس موضوعي، شخص سيسير معه، هذا ينكر السُنّة، مشكلة كبيرة جداً، عقيدته فيها زيغ، لا أتكلم، هذا ليس له علاقة بالغيبة، فالمبتدع لا غيبة له، والفاجر لا غيبة له، أن تستنصح في أمر زواج، أو شراء بيت، أو شراكة، لا يوجد غيبة، عند القاضي لا يوجد غيبة، هذه كلها استثناءات، كلها من الغيبة والنميمة .

نقطة دقيقة :

يا أخوان، آخر شيء أقوله لكم: رجل استنصحك بزواج ابنته، قل له: هذا الشاب لا يناسب، أخلاقه غير منضبطة، قال لك: شكراً، جاء الشاب وقال: ماذا حصل معك؟ فقال له: أنت لست جيداً، قال لي فلان: إنك لست جديراً أبداً، هذه تتحقق .

حدثني أخ، كان مدير مالية، قال لي: رجل مكلف بضريبة، والضريبة معقولة، وهو موافق عليها، تأتيه شكوى: أن هذا عنده تجارة كبيرة جداً، وعنده مستودعات، وجد الوضع فيه كيد، فطوى الموضوع، هناك شكوى أخرى، طوى الموضع، شكوى ثالثة، حتى ارتفع الأمر للوزير، ثم رئاسة مجلس الوزراء، هذا الشخص مصر إصراراً غير معقول، يحضر أدلة قوية، بعد ذلك فهم: أن هذا الشخص الذي يقدم التقارير، ابنته مخطوبة لشخص، وهذا التاجر نصح بعدم الزواج، فقال له: إن فلاناً، قال لي: إنك سيء، وابنتك سيئة، فتشكل لديه هذا الحقد .

هذا إذا نصحك أحد، والله يتحقق هذا الأمر معي كثيراً، أنا أقول لكم شيء من ألمي.

أعرف شخص منحرف جداً، يقول لك: ليس لك مصلحة بهذا الزواج، يقول له: الشيخ راتب نصحني ألا أعطيك ابنتي، معقول أن تقوم بهذا الفصل، يخلق مشكلة، فأنا إذا قلت لك: أعطه، تقول لي: غششتني، وأنت أسأت لي، إذاً: لا تعطه، هل تقول له: أنني أنا قلت لك، لا تعطيه؟ .

يا أخوان، رجاءً إذا استنصحك أحد بموضوع خطير كزواج، أو شراء بيت، أو شراكة، وقال لك: هذا الإنسان لا يناسبك، يتقي الله في هذا الكلام، أنت تكون مسيئًا جداً، إذا بلّغت الشخص الثاني أن فلانًا حذّرني منك .

هذه نقطة مهمة جداً، وحكيتها لكم سابقاً، وتقع دائماً: الإنسان يحتار، يستنصح شخصًا، إن قال الحقيقة: عاد الخطر على الناصح، يبلغه أن فلانًا، والله عشرات المرات، يتحقق هذا الأمر، وليس مرة أو مرتين.

فعليك أن تكون منضبطًا، يسير على الشرع، استنصحته ونصحك، وانتهى الأمر، لا يوجد نصيب، وانتهى .

والحمد لله رب العالمين

شرح الحديث الشريف - رياض الصالحين - الدرس (١٠١-١٠١) : باب أحاديث الدجال وأشراط الساعة - ماذا عن العولمة؟ وما ينبغي على المسلم أن يفعل حتى لا يكون ضحية هذه الإعلانات الغربية؟ وما محور هذا الحديث: أحب البلاد إلى الله مساجدها.....؟

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ٢٠٠١-٠٣-٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

ماذا يعني مصطلح العولمة؟ :

أيها الأخوة الكرام، حديث شريف صحيح، رواه الإمام مسلم، أذكره كثيراً، ولكن أردت في هذا الدرس، أن أجعله محور هذا الدرس .

الحديث الشريف: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا))

[أخرجه مسلم في الصحيح، وابن خزيمة في صحيحه]

ذلك أن هناك مصطلحاً يكثر ترداده في هذه الحقبة: ألا وهي العولمة، والعولمة أمة قوية جداً، تريد أن تعمم قيمها وأساليبها، وأنماط حياتها على العالم كله، من أجل أن تكون غنية جداً، لا بد من أن تجعل العالم كله سوقاً لها، لا عن طريق القهر، بل عن طريق الإغراء.

طبعاً: العولمة بحث طويل، يحتاج إلى جلسات كثيرة، ولكن سآخذ جانباً واحداً من العولمة، وهو مجتمع الاستهلاك، أي أناس يصنعون صناعة ما كلمة واسعة، متقنة جداً، ويعممونها على كل القارات، فيجنون أرباحاً خيالية، والعالم كله يصبح سوقاً استهلاكية لبضائعهم، هذه الشركات العملاقة في العالم الغربي، هذه لها فوائد نقدية، تفوق ميزانيات دول ، شركة واحدة أربعمائة مليار دولار فائضها النقدي، اللعبة أن يروج لمجتمع الاستهلاك، أنت لك حاجات لا بد منها .

الآن: المشكلة ليست الحاجات أساسية، ثانوية، وثانوية جداً، جعلوها أساسية .

لا تستغرب في هذا الجواب :

أنا أذكر قبل خمس سنوات أو أكثر، أن رئيس جمهورية فرنسا (جيسكار ديستان)، أسس لجنة من ثلاثين عالماً من علماء الاجتماع، دعاهم إلى الإجابة عن سؤال واحد، وضعهم في منتجع مريح، أعطاهم مهلة ثلاثين يوماً، ليجيبوا عن سؤال واحد، لماذا العنف في العالم؟.

الشيء الظاهر: مذبحة برواندا خمسمئة ألف في يومين، كل يوم في الأخبار يوجد مذابح؛ ثلاثمئة، مئتان، خمسمئة، كل يوم يوجد في العالم ظاهرة جديدة: هي ظاهرة العنف، القتل، الذبح، التعذيب،

القهر، هذا العنف ما أسبابه؟ قد لا تصدقون أن إجابة هؤلاء العلماء الكبار، علماء الاجتماع، الذين أمضوا ثلاثين يوماً في منتجع، هيأ لهم فيه هدوءاً وصفاء، أجابوه بكلمة واحدة: سبب العنف مجتمع الاستهلاك .

هذا هو المجتمع الغربي :

أيها الأخوة، هذا المجتمع، مجتمع الغربي، مبني على الدعايات، في الصحف، في المجلات، على الشاشة في الطرقات، أينما ذهبت، فهناك دعاية لسلعة معروضة بأجمل شكل، بشكل مغرٍ، بشكل رائع، ما الذي يحصل

أنا أردت من هذا الدرس: ألا يكون أحدنا لعبة بيد مخطط كبير، الذي يحصل: أنك ترى هذه السلعة؛ غسالة، براد، سيارة، آلة معينة، مكيف، معروض عرض، شيق، مغر، فأنت دون أن تشعر، متابعة هذا النظر في الإعلانات، قد يكون في الطريق، في الجريدة، هذا الإعلان، يخلق عندك حاجة إلى هذا الشيء، من أنت؟ أنت مواطن لك دخل، هذا الدخل قد لا يكفي لشراء هذه الحاجات .

لماذا قال المصطفى عليه الصلاة والسلام: (أحب البلاد إلى الله مساجدها)؟ :

أيها الأخوة، لماذا قال عليه الصلاة والسلام:

((أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا))

لأنك وأنت في المسجد تتعرف إلى الله، تتعرف إلى سر وجودك، تتعرف إلى غاية وجودك، تتعرف إلى منهج ربك، نحن في دار ابتلاء، نحن في دار عمل، نحن في دار مؤقتة، نحن في حياة دنيا، من أجل أن نعد لحياة عليا، نحن في دار عمل، وسوف تأتي بعدها دار الجزاء، نحن في دار تكليف، وبعدها دار تشريف، نحن في دار زائلة، وبعدها دار باقية، نحن في دار متعبة بعدها نعيم مقيم، هذا هو الإيمان، هذه أساسيات الإيمان: أن تؤمن بالله واليوم الآخر .

أي: أنت لو ذهبت إلى بلد لتحصل دكتوراه، هذا البلد فيه إغراءات لا يعلمه إلا الله، يوجد مسارح، وسينما، وملاهٍ، وحدائق، ومتاحف، يوجد علاقات سيئة جداً، أنت حينما تعرف هدفك، تذهب إلى الجامعة، وتسكن في بيت قريب من الجامعة، فإذا دخلت إلى مكتبة، لا يلفت نظرك إلا كتاب يعينك على النجاح في الامتحان، إن كان هدفك واضح جداً، أي شيء تقييمه بالنسبة إلى هدفك، لماذا:

((أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا))

في المسجد تتعرف إلى أنك المخلوق الأول، وإلى أنك مخلوق، خلقت لجنة عرضها السموات والأرض، أنت مخلوق خلقت لطاعة الله، لعبادة الله، ومعك منهج قويم، وصراط مستقيم، هذا تأخذه في المسجد، ولكن ماذا تأخذ في الأسواق؟ سوف ترى مئات ألوف الحاجات التي لا تحتاجها .

لعبة دخلناها من حيث لا نشعر :

مرة حدثني أخ، قال لي: في كل مرة أسافر فيها أحضر حاجة، قال لي: والله كل هذه الآلات موضوعة في مكان قصي في البيت، ولا أستعملها، نزوة عابرة، هذه الآلة تفيدنا في كذا، استعمالها معقد وصعب، وغير عملي، نستهلك دخلنا، نستهلك طاقتنا، نستهلك جهدنا، كي نجعل هؤلاء الذين يصنعون هذه الآلات، يربحون ملايين مملينة .

معي أرقام لبعض الشركات دخلها فلكي، شركة أمريكية فائضها النقدي أربعمئة مليار دولار، حاملة طائرات تكلف ملياري دولار، فنحن نجهد، نبيع قطننا، نبيع قمحنا، نبيع حاجاتنا، من أجل أن نستورد هذه السلع، دخلنا في اللعبة دون أن نشعر، هذه لعبة، أناس يغتنون لدرجة لا تعقل، وأناس ليلاً ونهاراً ليؤمّنوا حاجتهم الأساسية .

ما سبب هذه الحروب الأهلية في بعض البلاد؟ :

فيا أيها الأخوة، فكان الجواب: أن مجتمع الاستهلاك وراء العنف في العالم، والآن: لو دققت ما يجري في بعض البلاد، من حروب أهلية، من مذابح، اجتياحات، لو تعمقت وتعمقت وتعَمقت، لا تجد إلا الفرق الطبقي الشاسع بين الغني والفقير وراء كل هذه الأحداث العنيفة، إنسان محروم، وإنسان يكاد يتمزق من الغنى .

ما هي الحلول التي يقف عندها الإنسان حينما يعجز عن شراء تلك السلعة التي تروج لها

١-العمل الإضافي :

قالوا: أنت في الطريق، تشاهد هذه السلعة، وهذه الآلة، وهذه المركبة، وهذا البراد، وهذا المكيف، من خلال الإعلانات، أشعرونا أن كل شيء أنت بحاجة إليه، ولكن نحن عندنا مشكلة، الدخل محدود، أنا أتحدث عن عامة الناس، الأغنياء قلة في أي مجتمع، الحكم للأكثرية ، الأكثرية بشكل أو بآخر من أصحاب الدخل المحدود، حتى في البلاد الغنية، الأكثرية من أصحاب الدخل المحدود، هذه

السلعة جميلة جداً، مريحة جداً، فحينما ترى هذا الإعلان، تنشأ عندك رغبة في اقتناء هذه الآلة، لا تملك ثمنها، فكم حل عندك؟ ثلاثة حلول:

الحالة الأولى: إما أن تعمل عملاً إضافياً، فتلغي وقت فراغك .

والآن اسمعوا ما سأقول: أي إنسان ليس عنده وقت فراغ، ألغى إنسانيته، ضيع أولاده، ضيع زوجته، نسي آخرته، نسي ربه، نسي واجباته، الإنسان الذي ليس عنده وقت فراغ، يحقق فيه ذاته، يحضر مجلس علم، يجلس مع أصدقاء يحبهم، يجلس مع زوجته وأولاده، يعتني بأولاده، يقرأ كتاباً، يطالع قصة، يستمع إلى شريط، إذا لم يكن عندك وقت فراغ تحقق ذاتك واختيارك، أنت ألغيت إنسانيتك، وقت العمل وقت غير مريح .

ما الفرق بين العمل المجزئ لغيره وبين العمل المجزئ لذاته؟ :

أيها الأخوة، هناك عمل مجزئ لغيره، وهناك عمل مجزئ لذاته، ما الفرق لو فرضنا رجل يعمل في بناء البيوت، والشتاء قارص، والبرد لا يحتمل، والهواء يلسع، وأنت مكلف أن تبني هذا الجدار في العراء، الأجر كبير جداً، فأنت تتحمل هذا العمل الشاق لأن دخله كبير، تقول: هذا العمل مجزِّئ لغيره، وإنسان يحب المطالعة بشكل مخيف، وعين أمين مكتبة، هذا العمل مجزِّئ لذاته، أي يسعد بهذا العمل أيما سعادة، حتى دخل هذا العمل لا قيمة له، أي قليل أو كثير هو حقق ذاته .

هذا من أسعد الناس :

أنا أقول لكم: أن أسعد الناس من كان عمله متوافق مع طموحه، فرضاً: إنسان يحب الدعوة إلى الله، عمل مدرساً –فرضاً-، التدريس جزء من هدفه الأساسي، إنسان يحب المطالعة، عمل في مكتبة فرضاً، إنسان يحب التأليف، فأسس دار نشر، فإن كان عملك المهني منطبق مع حاجاتك الأساسية، منطبق مع ميولك، فهذه من نعم الله الكبرى .

لذلك: أيها الأخوة، العمل والزوجة أوثق شيء في حياة الإنسان، أي شيء آخر يبدل، البيت يبدل، المركبة تبدل، أما الحرفة: حرفتك وخبرتك هنا .

هنا تكمن المشكلة :

فأنا حينما ألتقي مع بعض الأخوة، وقد اختاروا قبل أن يعرفوا الله، عملاً لا يرضي الله، وبنوا عليه خبراتهم، وهو سبيل رزقهم الوحيد، عنده مشكلة كبيرة .

يوجد أخ التزم بالمسجد شهر أو اثنين، ثم افتقدته، ثم زرته في محله، يبيع أشرطة غناء، قال لي: أنا كل حياتي أبيع أشرطة، لم يستطع أن ينسجم مع ذاته في المجيء إلى المسجد .

أخ آخر داوم، ثم غاب بعدها، عنده محل يبيع فيه تحف كلها محرمة، كؤوس شراب، وتماثيل، وفضيات، ومذهبات .

أي: لو كان عملك المهني، يتناقض مع اتجاهك الديني، فعندك مشكلة كبيرة جداً، لا يوجد راحة .

هذا هو وضع العالم الغربي اليوم :

أيها الأخوة، الإنسان الذي يعمل عملاً إضافياً، فقد ألغى وقت فراغه، ضيع أولاده، ضيع زوجته، لم يطلب العلم، لم يعرف منهج الله، لم يتعرف إلى الله، لم يحقق ذاته، الله وصفهم في القرآن قال:

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ)

[سورة المدثر الآية: ٥٠-٥١]

وهذا وضع العالم الغربي تماماً، بالتعبير العامي: حمير شغل، ثماني ساعات عمل مضني، يأتي كالدابة، ينام نوماً عميقاً، لأنه بذل جهداً كبيراً جداً، من الذي يربح؟ هذه الشركات الكبرى التي تجعل من العالم كله أسواقاً لمنتجاتها، ففي هذه الحالة قبل هذه السلعة وعمل عملاً إضافياً، فألغى وقت فراغه، وألغى أبوته، وألغى تربية أولاده، وألغى الاهتمام بزوجته، ألغى طلب العلم، ألغى حضور مجالس العلم، من أجل أن يأتي بهذه السلع والحاجات.

٢-قبوله للدخل الحرام :

الحالة الثانية: مد يده إلى الحرام، قبل دخلاً محرماً، حتى يؤمن الحاجات، فسقط من عين الله، ولأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه، أهون من أن يسقط من عين الله، الأول ليس محجوباً عن الله، لكن متعب، إعياء، لكن الثاني محجوب عن الله، لأنه مد يده إلى الحرام .

٣-أن يشعر بالحرمان المستمر :

الحالة الثالثة: أن يشعر بالحرمان المستمر، هذه هي حالة الناس، إما أنه قبل دخلاً حراماً، أو أنه ألغى وقت فراغه، أو أنه شعر بالحرمان الدائم، هذا مجتمع الاستهلاك، هذه اللعبة التي يراد لنا أن نكون أحد لاعبيها، كي تربح هذه الشركات الكبرى، فالعولمة نموذج غربي معمم في العالم كله، مبني على الدعاية.

نحن -والحمد لله، بفضل الله- هذه الشركات العملاقة غير موجودة، أما العالم كله أينما ذهبت، يجب أن تأكل دجاج (كنتاكي)، وبيتزا (هوت)، وبيبسي كولا، وكوكا كولا، وشاي ليبتون، شركات عملاقة، إنتاجها معمم في العالم كله، ويوجد دعاية غسلت الأدمغة غسيلاً كاملاً .

هذا ما انقدح في ذهني :

قال لي أخ: لا نستطيع أن نعيش من دون بيبسي، ائت لي بالبديل، ما هذا المسلم الذي لا يستطيع أن يعيش من دون بيبسي؟ ائت له بالبديل، لا يستطيع أن يقاطعها .

فلذلك: أيها الأخوة، أنا من كلمة الأخ: أنا لا أستطيع أن أعيش من دون بيبسي، انقدح في ذهني هذا الدرس، لا تبرمجوا أولادكم على أشياء، لا بد ألاّ نشتريها .

النبي قال في الأثر:

((تَمَعْدَدُوا وَاخْشَوْشِنُوا وَامْشُوا حُفَاةً))

[أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده]

الإمام الغزالي يقول:

((إن لم تخشوشن، ولم تتقشف، فأنت في مزلقين خطيرين؛ إما مداهنة السلطان، أو أكل المال الحرام))

مزلقان خطيران لكل من عاش حياتاً وادعة جداً، عَوِّد نفسك ولو كان دخلك كبيراً، ليس من الضرورة أن يكون لديك في كل يوم الفاكهة، ممكن يوم بفاكهة، ويوم دون فاكهة، يوم كأس من الشاي، يوم تمضية، الإنسان يتألق بالتقشف أحياناً، الحزن خلاق يا أخوان، وهؤلاء الذين ربوا في النعيم، وغرقوا في النعيم لا يحتملون، عندهم كبر لا يعلمه إلا الله.

لو ..... :

فأنا أقول هذا الحديث:

((أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا))

كنت أضرب مثلاً، أعدته كثيراً، حتى لا تقولون: إن الأستاذ يعيد كلامه كثيراً، يأتي الرجل مع زوجته إلى الدرس، فيسمع حقوق الزوجة، وتسمع حقوق الزوج، فإن طبقوا واحد بالمئة مما سمعوا، تزداد علاقتهم قرباً، تتمكن علاقتهم بالمسجد .

لو أن كل واحد جاء إلى المسجد، وسمع كل طرف حق الزوج على الزوجة، وحق الزوجة على الزوج، وكيف أن الزواج مقدس، وأن الزواج أقدس عقد، وكيف عامل النبي زوجاته أي: الزوج يحاول أن يطبق شيئًا من السنة، فتحبه زوجته زيادة، وهي تطبق شيئًا من السنة، فيحبها زوجها زيادة، أما لو ذهبا إلى السوق، تريد أن تشتري فستاناً، وهو لا يملك ثمنه، حصلت بينهما مشكلة، هذا يقع دائماً، لأن المرأة والطفل الصغير يحسبان الرجل على كل شيء قدير، هي تريد بدلة أعجبتها، ولكن ثمنها يساوي نصف معاشه، هل يبقى دون طعام من أجل أن تلبس بدلة؟ لا يستطيع، والنساء عندهن رغبة بالكيد، تأتي أختها وتقول لها: زوجي اشترى لي فستاناً بثلاثة

آلاف ومئة، أخت زوجها غني، وأخت زوجها فقير، تنشأ مشكلات، زوجة الغني تتباهى، وامرأة الفقير تنكسر، وينشأ خصام في البيت .

لا تكن طرفاً في هذه اللعبة :

أيها الأخوة، نحن أريد لنا أن نكون أبطالاً في لعبة .
سيدنا عمر رضي الله عنه، مر في قرية، فوجد معظم الفعاليات بيد غير المسلمين، فاعتذروا اعتذارا شديداً، أن الله سخرهم لنا، كما يفعل أهل النفط، فقال:

((كيف بكم إذا أصبحتم عبيداً عندهم؟))

لأن المنتج قوي وغني، والمستهلك ضعيف وفقير، هل تصدقون أن تعمير محرك طائرة، يكلف خمسة ملايين من الدولارات؟ ما معنى خمسة ملايين دولار

أي: خمسة ضرب خمسين، يساوي مئتين وخمسين مليون ليرة، فكم طنّا من القمح تساوي؟ كم طنّا من القطن؟ هذا تعمير محرك، وليس شراؤه .

أقرأ أحياناً ما يجري في بلاد الغرب، لوحة بحجم متر بمتر ونصف، ثمنها مئة وستة وخمسون مليون دولار، لوحة زيتية، يوجد أموال لا تأكلها النيران، نحن مجتمع آخر، نحن يهمنا أن نزوج أولادنا، أن نشتري لأولادنا بيوتًا، كل أب هذا طموحه .

فأنا أتمنى من هذا اللقاء، ألاّ نكون طرف في هذه اللعبة، أنا معك أن الأساسيات مهمة جداً، لكن لا ندخل في متاهة، أن كل شيء يجب علي شراءه، يجب أن أعمل بيتاً فخماً، مرتب كل شيء فيه، هذه لعبة، نجهد ليلاً نهاراً، ليغتني أناس فوق الحد المعقول .

هذه مشكلة العالم اليوم :

أيها الأخوة، وما وجدت مشكلة في العالم، إلا وراءها الفرق الكبير جداً بين الأغنياء والفقراء، ولو أن الأغنياء أدوا زكاة أموالهم، ولو أن الفقراء عملوا وتعففوا، لكنا في حال غير هذا الحال .

((أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا))

يوجد حالة أصعب، هو يعيش في بلده، أتيح له العمل في بلد بعيد، والعمل ممنوع فيه أن يحضر زوجته، فتصور أسرة الأب مسافر سفراً طويلاً، سنة، والأم عندها أولاد، لا أب يرعاهم، لا أب يضبط سلوكهم، لا يوجد أب يحاسبهم .

أيها الأخوة، والله لا أبالغ، مئات الأسر وقعت الزوجة في غياب زوجها المديد بالفاحشة، والأولاد تشردوا، من أجل أن يأتي بالمال، أنا لا أوافق مهما كان دخلك لا يفي بحاجتك، أن تضحي بزوجتك

وأولادك سنة، من أجل أن تأخذ مالاً، أنت ضيعت أسرتك، انتهى إلى سمعي: أن أطفالاً كثيرين انزلقوا في الرذيلة، والسرقة في غيبة آبائهم المديدة .

سمعت عن بعض البلدان التي أكثر أهلها، يسافرون سفراً طويلاً، أكثر الزوجات وقعوا في الخيانة الزوجية، لأن السفر شهر، ويأتي ثلاثة أيام، ويغيب شهراً، والزوجة غير متعلمة، إيمانها ضعيف، ويوجد أناس طمعوا بها، فلما أريد أن أطلب الرزق على حساب سلامة أسرتي، وسلامة تربية أولادي، فأنا وقعت في خطر كبير، فهذا مجتمع الاستهلاك هو مجتمع العنف، والعنف لا يلد إلا العنف، طبعاً: المال قوام الحياة .

انظر إلى هذا التخطيط الكيدي للمسلمين من قبل أعدائهم :

أنا ذكرت لكم من قبل: أن أعداء المسلمين يخططون لإفقار المسلمين، ولإضلالهم، ولإسقاطهم في الشهوات، أو باحتلال أراضيهم، أربعة تحديات:

أول تحدٍ: هناك تخطيط لإفقار المسلمين، أي أن الكتل النقدية الكبيرة، تنتقل من بلادنا إلى بلاد الغرب، أقصد بلاد الشرق الأوسط .

في حرب الخليج، ذهب سبعمئة وخمسون مليار إلى بلاد الغرب، أي إن باعونا شيئاً ينهبونا، وإذا اشتروا منا ينهبون، يشترون موادنا الأولية بأبخس الأثمان، ويبيعون سلاحهم بأغلى الأثمان، يبيعونك آلة أحياناً: تحتوي على كمبيوتر صناعي، ومع الكمبيوتر لوحات معقدة جداً، بقدرة قادر تتعطل هذه الآلة، وكلفة تصليحها بالملايين، مصممة ألاّ تصلحها أنت، بل أن تحضر خبيرًا من عندهم، فهذه أساليب متنوعة، حتى في السيارات، أكثر القطع متكاملة لا يمكن أن تصلح، يجب أن تغير الجهاز كله، لعطب طفيف أصاب بعض أجزائه، أحياناً: توجد خطة لا تصدق، يقدمون لك هدية، سيارة دون مقابل، لكن يجب أن تدفع ثمنها خمس مرات قطعًا بعد ذلك، فيوجد أساليب كثيرة جداً لإفقار المسلمين، وإفقار العالم الثالث .

هذا ما أقوله :

فأنا أقول: نحتاج إلى خطة، الأساسيات ضرورية، لكن أنا لا أكون عبداً للثانويات، لا أكون عبداً للكماليات .

أحياناً: أرى بيتًا متواضعًا، أرى فيه سعادة لا تجدها في بيت فخم جداً، طالما يوجد طاعة في هذا البيت.

مرة دخلت إلى بيت، يمكن في الجادة الأولى، لكن من الأعلى بالعكس، أرضه عدسة ، أي ليس فيها بلاط، بساط كان الناس يصنعونه منذ خمسين عاماً، لكنه كان نظيفاً، أثاث متواضع جداً، لكن

يوجد بالبيت سعادة، فيه دين، فيه قرآن، فيه وفاق زوجي، فيه ابن مربًّى تربية عالية، فليس كل شيء مادي يسعد .

هذا ما أردته من هذا الدرس :

أنا أردت من هذا الدرس: ألاّ نكون نحن طرفاً في هذه اللعبة القذرة، نحن يجب أن نشتري كل شيء .

امرأة دخلت إلى سوق مركزي ضخم كبير، قال: يا إلهي كم هي الحاجات التي لا يحتاجها الإنسان؟ أنت لا تستطيع أن تحرك يدك بفرشاة الأسنان، لكن يوجد فرشاة لها محرك، ألا تستطيع الحياة دونها

ترى أشياء، أنواع من الآلات الكبيرة والصغيرة، تفوق حد الخيال، من أجل أن تشتري، ليس عندنا هذا الشيء، لكن في بلاد أخرى، أصول البيع أتقنوها إتقانًا كبيرًا جداً، تمسك السلة، بضائع مغرية وجميلة، وأسعارها عليها، تشتري، أنت دخلت وفي نيتك الشراء بعشر ليرات، فتخرج وقد اشتريت بخمسمئة ليرة، دائماً: لما يدخل الإنسان هذا السوق، يشتري عشرة أضعاف، ما كان يتمنى أن يشتريه منها، شيء مغرٍ، وسلع جميلة جداً .

فالهدف: أن نكون نحن سوقاً لبضاعتهم، ثم يوجد يغير الموديلات، وهذه خدعة أخرى، فيجب أن يكون للنساء موديلاً جديداً من الثياب كل عام، تقول لك: هذا رأوه علي، لا يوجد امرأة إلا وعندها خمسون فستاناً، لبست الواحد منهم مرة أو مرتين، هذه كلها جهود، وطاقات، وأموال .

يوجد مادة ببعض الجامعات اسمها: التربية والمستقبل، نحن ماذا فعلنا؟ نحن استهلكنا خيرات الأرض، استهلاك غير مرشد، تجد حاجات كثيرة، لا نستعملها، موجودة عندنا، اشتريناها، لها ثمن، والثمن يعني الجهد، تعرف ما معنى مئة ليرة؟ يلزمك ترميم بيتك، أحضرت سيارة رمل، وبيتك في الطابق الرابع، تريد إنسانًا يحمل الرمل إلى بيتك، عن طريق أكياس، كيس وراء كيس، طلب منك ألف ليرة، نقل السيارة للطابق الرابع، وعمل على يومين تقريباً، ما معنى ألف ليرة بالنسبة له؟ عمل يومين .

هذا المال أساسه عمل مضنٍ شاق، فإذا لم يكن ثمة ترشيد باستهلاكه، نكون وقعنا في شر أعمالنا، أحياناً: ألاحظ أناسًا يعمل ليلاً نهاراً، ليحقق حاجات لأهله، أكثرها ثانوية، وهم يجلسون مرتاحون، يطلبون طلبات، وهو يعمل ليلاً نهاراً، أحياناً: يأتي منتصف الليل، لأنه يجب أن يكون متر القماش لفستان العرس، أربعين ألفًا للمتر الواحد، وإلا عيب .

هذا ما نعبده :

أيها الأخوة، نحن نعبد المظاهر، عندنا مظاهر كبيرة جداً تسحقنا، هذه تدمرنا، كم من زواج انتهى إلى الطلاق من أجل المظاهر؟ كم من أسرة تشتت من أجل المظاهر؟ الأساسيات لا خلاف عليها، أغلب الظن: الأساسيات ليست مشكلة أبداً، أن تأكل أكلاً معقولاً، أن تسكن بمأوى، ترتدي ثيابًا تستر عورتك، لا مشكلة، هذه مؤمنة في أدنى المستويات، نحن بخير يا أخوان .

هذا هو نبيكم :

فبالحديث، انقدح في ذهني:

((أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا))

في المسجد تتعرف إلى الله، إلى منهج الله، إلى أنبياء الله العظام .

كان عليه الصلاة والسلام يأكل جالساً كما يأكل العبد .

عَنْ أبي مَسْعُودٍ قَالَ:

((أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ، فَقَالَ لَهُ: هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ، تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

دخل مرة بيته، فلم يجد شيئاً، قال:

((عِنْدَكُمْ طَعَامٌ؟ فَإِنْ قُلْنَا: لَا، قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ يَوْمِي هَذَا))

سيد الخلق، دخل عليه عمر، فرآه مضطجعاً على حصير، قد أدخل في صدره الشريف، فبكى عمر قال:

((يا عمر لمَ تبك؟ قال: رسول الله ينام على الحصير، وكسرى ملك الفرس ينام على الحرير!؟ قال: يا عمر، أما ترضى أن تكون الدنيا لهم والآخرة لنا؟))

هذه رواية .

رواية ثانية:

((إنما هي نبوة وليست ملكاً))

الرواية الثالثة:

((أفي شك أنت يا عمر؟))

هذه هي الحقيقة :

أيها الأخوة، عندما تكون معنويات المؤمن عالية جداً، أكل الحمد لله، أي نوع من الأكل، إذا كنت مع الله مسرورًا، لو تناولت ظهراً طعامًا خشنًا بسيطًا، فأنت أسعد الناس، إذا كنت في طاعة، ولك مع الله صلة، وتحس أنك تؤدي الغاية التي من أجلها خلقت، لك عند الله صلة كبيرة، أما إذا كان هناك بعدٌ عن الله، أي شيء لا يرضيك، أي طعام لا يشبعك، أي بيت لا ترضى به، فأنت لا ترضى إلا إذا نقلت اهتمامك للآخرة .

هذا ما يقدمه المسجد :

فالمسجد فيه ضيافة إلهية، الله ماذا يقدم لك في المسجد؟ يقدم لك الشعور بالأمن، هذا أغلى شعور، يقدم لك الشعور بالرضا، ترضى عن الله، يقدم لك الحكمة:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

[سورة البقرة الآية: ٢٦٩]

تجد إنسانًا من الطبقة الوسطى أو من الطبقة الدنيا من أسعد الناس، وتجد إنسان يملك ملايين مملينة من أشقى الناس، هذا شيء ثابت .

وفي حديث آخر: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ أَوْ رَاحَ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ فِي الْجَنَّةِ نُزُلًا، كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ))

هذا شعوري :

الحقيقة: أن قضية الآخرة، هذا شعوري الشخصي، مع أنه يوجد آيات كثيرة جداً، وهي من أركان الإيمان، لكن لا تلاحظ أن الناس لم يدخلوها في حساباتهم اليومية، ليس أمامهم إلا الدنيا؟ فقد تجد أن الدنيا هي جنة، جنة أهل الدنيا، لكنها سجن المؤمن، هكذا ورد.

((الدنيا جنة الكافر، وسجن المؤمن))

((الدنيا دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له))

((الدنيا جيفة، طلابها كلابها، فلينظر ناظر بعقله، أن الله أكرم محمداً أم أهانه، حين زوى عنه الدنيا؟ فإن قال: أهانه فقد كذب، وإن قال أكرمه، فلقد أهان غيره، حيث أعطاه الدنيا))

أنا أتمنى مؤمنًا معنوياته قوية جداً، ولو كان فقيراً .

نقطة :

نقطة أرجو أن تكون واضحة لكم: الفقر مشكلة كبيرة، لكن عندنا فقر، هو وسام شرف، ما هو؟ فقر الإنفاق، أو فقر الطاعة، أنت لا تستطيع أن تقبل دخل حرام، فالاستقامة لا تهيئ دخلاً فلكيًا، بأي حرفة كن صادقاً أميناً، كن محامياً، مثلاً: إذا كانت الدعوة لا يلزمها محام واحد، شمله العفو، يلومه، يقول: إذا لم توكل محاميًا، تخسر العفو، اعمل وكالة، وأعطني عشرة آلاف، هذا كله كلام غير صحيح، كلمة الحق دخلها قليل جداً، فالإنسان أحياناً: يكون فقيرًا، لأنه مستقيم، واستقامته جعلته فقيراً، وليس فقيرًا، بمعنى أنه محتاج .

من مصائب الدنيا :

النبي الكريم قال:

((اللهم من أحبني، فاجعل رزقه كفافاً))

لأن النبي اللهم صل عليه، أعد الغنى المطغي أحد مصائب الدنيا .

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ؛ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا، أَوْ غِنًى مُطْغِيًا، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا، أَو الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَو السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ؟))

فالغنى المطغي أحد مصائب الدنيا الكبرى، الغنى الذي يحملك على معصية الله، أحد أكبر المصائب .

متى نحقق الهدف من وجودنا، وكم نوعاً للاكتساب، وما هما؟ :

فأيها الأخوة الكرام، حينما نخشوشن، ونكتفي بالأساسيات، ونسعى لمعرفة الله، وحينما نبحث عن عمل صالح، نرقى عند الله به، نكون قد حققنا الهدف الإلهي من وجودنا، أما حينما نسعى إلى الاستهلاك، نكون قد حققنا الهدف الخسيس الذي رسم لنا، الأساسيات لا خلاف عليها أبداً، أما الخلاف، والتنافس، والتطاحن، والحسد، والغيرة على الثانويات، لذلك: الله عز وجل قال:

(وَرَحْمَةُ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٧]

عندنا اكتساب؛ رزق وجمع، الإنسان يكتسب رزقه، وقد عمل مشروعًا، وجزءاً من عبادته، أما حينما ينتقل لمرحلة أخرى، همه الجمع، جمع ثروة طائلة، قال:

(وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ)

[سورة آل عمران الآية: ١٥٧]

ألم تجرب مرة، أن تكون جالسًا مع أخ محب، في بيت متواضع جداً، قد يكون البيت عربيًا، والغرفة صغيرة، مدفأة قديمة جداً، لكن الغرفة دافئة، وأصبح هناك سرور، وأنسٌ، وتجلٍّ؟ بالحديث تقول: كنا في جنة، وألم تجرب أن تكون في بيت فخم جداً، حسد، ونميمة، وغيبة، ومظاهر، واستعلاء، خرجت منه منزعجًا؟.

ليس من الضروري أن يكون أصحاب الدخل الكبير سعداء :

دعيت مرة لعقد قران، في بلدة من قرى الغوطة الشرقية، بلدة فقيرة جداً، أين العقد بأي صالة؟ لا يوجد صالات، هناك بالطريق يضعون كراسي خيزران، وضيافة كأس شاي، وأذكر أنه مرت عربة المازوت، فأصابتنا رائحة روث البغل، هذا عقد القران، وألقيت كلمة يمكن أتى منها ثلاثين واحداً إلى الجامع .

ذهبت مرة لعقد قران بأرقى أحياء دمشق، بقدر ما وجدت من الماس الكثير، لم أجد وجهًا يفتح قبلة، والله لم أتمكن أن أتكلم كلمة، ليس كل مكان فخم فيه روحانية، أو كل بيت فخم فيه سرور، ليس كل دخل كبير أصحابه سعداء .

إن الله يعطي الجمال، والقوة، والذكاء، لكثيرين من خلقه، ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين.

فهؤلاء أنبياء الله العظام، كانوا فقراء، كانوا يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، إذا سار الإنسان بالسوق، وكسب رزقه بيده، وحمل حاجته بيده .

قال عليه الصلاة والسلام:

((برئ من الكبر من حمل حاجته بيده، وبرئ من النفاق من أكثر من ذكر الله، وبرئ من البخل من أدى زكاة ماله))

ما المراد من هذه الموازنات؟ :

مرة اضطررت أن أدخل بيتًا لتعامل تجاري، يبدو البيت فخمًا جداً، فقال لي صاحبه: أستاذ هذا البيت، مساحته أربعمئة متر، قلت: الله يهنئك، شيء جميل، قال: هذا البلاط أحضرناه من إيطاليا بشحن جوي، قلت: الله يهنئك، قال: هذه اللوحة ثمنها كذا، طقم الأرائك استيراد، وبقي يتكلم ويتكلم، وأنا ليس لي مصلحة، وهو يمدح أثاث بيته، والتزيين، والثريات ، والجبس، يوجد لوثة بعقله، فأنا مللت، قلت: ما رأيك ببيت، وذكرت له حيًّا من الأحياء الفقيرة جداً بطرف المدينة، بيتًا تحت الأرض، شمالي، على العظم، سياق مكشوف، فيه ستة أو سبعة أولاد، أشهدته بصورة، لكن نادرة

جداً، قال: أعوذ بالله، قلت: أيتوازن هذا البيت مع هذا البيت؟ قال: لا، بيت أربعمئة متر، تكييف، تدفئة، إطلالة جميلة، أثاث كله مستورد، وأشهدت له بحالة ثانية، ببيت لا يُسكن فيه إطلاقاً، قلت له: أستاذ جامعة ذو كرسي، دخله كبير جداً، ومعلم بقرية يحمل طعامه، ويسير سيراً، هو مدير، ومستخدم، ومعلم، يتوازن هذا الأستاذ الجامعي مع الابتدائي؟ قال: لا والله، قلت: حسناً، طبيب جراح قلب، كل عملية خمسمئة ألف، وممرض بمستشفى، عليه أن ينظف المرضى من تحت، شيء فوق الطاقة، هل يستوون؟ قال: لا والله، رئيس غرفة تجارة كل صفقة بالملايين، وبائع على العربة بسوق الحميدية، كلما جاء شرطي يهرب منه، يستوون؟ رئيس أركان، وجندي غر، يجلس بالجبهة، الدنيا شتاء مبلولاً بالماء –مثلاً- هكذا حالات نادرة جداً، لم يفهم ما هذه الموازنات، قلت له:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء الآية: ٢١]

قلت له: درجات الدنيا مؤقتة، ولا تعني شيئاً، وقد تعني العكس، قال تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ)

[سورة الأنعام الآية: ٤٤]

درجات الدنيا مؤقتة، ولا تعني شيئاً، وقد تعني العكس، لكن درجات الآخرة أبدية، وتعني كل شيء، قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ)

[سورة القمر الآية: ٥٤-٥٥]

هذه الآية مؤثرة جداً، قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً)

[سورة الإسراء الآية: ٢١]

أيها الأخوة، فنحن هدفنا الآن: أن نسعى إلى درجات الآخرة، لذلك ورد: ابتغوا الرفعة عند الله . ابتغ درجة عند الله، والثمن بيدك، الثمن طاعة الله، والالتزام، وإنفاق المال، وخدمة الحق، أن تكون جندي بالحق .

خاتمة القول :

أرجو الله سبحانه وتعالى، أن ينفعنا بهذا الحديث، هذا الحديث احفظوه، سأعيده مرة ثانية:

((أَحَبُّ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا))

الأسواق دنيا، كل شيء جميل، ويحتاج إلى دخل فلكي، من أجل أن تشتري هذه الحاجات، وكم من رجل كسب المال الحرام ليرضي أهله؟ أما الصحابية الجليلة كانت تقول لزوجها الصحابي:

((اتقِّ الله بنا، نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام))

((وأعظم النساء بركة أقلهن مهراً))

والحمد لله رب العالمين

الفهرس